

١٧٥  
١٧٥

## الفهرس العام

السنه الثانيه عشره ( ١٣٦٠ هـ ) من مجله الازهر

الصفحة	بسم	الموضوع
		( ١ )
٢٧٧	حضرة الاستاذ الدكتور محمد غلاب	ابراهيم بن آدم
٣٤١	» » عبد الحميد ساي	ابن حزم الاندلسي
٦٣٣	» » »	ابن عقيل
٦٠٦	» » الدكتور محمد غلاب	ابن الفارض
٢٩٦	» » مصطفى عبد الحميد أبو زيد	ابن هشام - جمال الدين
١٤٠١٥٣٠٧٥٠٥٦		أبو بكر الصديق
٠٣٠٣٣٧٠٣٨١	فضيلة الاستاذ الشيخ صادق عرجون	
٠٢٠٥٤٠٠٤٨٠		
١١٠٢٣٩٠٩٣		
١١٠٤٠٧٠٣٧٣	» » السيد عفيق	أبو حنيفة - الامام
٥٤٨		
١٢١	لجنة الفتوى	أجر المأذون - فتوى
١		احتفال الازهر بالعام الهجري
٦٥		احتفال الازهر بعيد الميلاد الملكي
٢٥٧		احتفال الازهر بعيد الجلوس الملكي
	فضيلة الاستاذ الشيخ	اختلاط الجنسين
		أخلاق الشريعة وآدابها
		الامراء - الاحتفال بوليته
		الاسترقاق - فتوى
		الاعتراك في الكتب - فتوى

المرحوم	بسم	صفحة
أموال القصر - إدارتها - فتوى ...	لجنة الفتوى	٤٨٨
أمية الرسول - هل تعلم النبي الكتابة ...	حضرة الأستاذ مدير المجلة	١٩٧
(ب)		
بين رجال الدين والفلسفة ...	فضيلة الأستاذ الشيخ محمد يوسف موسى	٥٦١، ٤٦٥، ٣٤٨ ٦١١
بين لجنة الفتوى ووزارة الشؤون الاجتماعية	...	١١٨، ٩١٦، ٩١٤
بين لسالي الدين بن الخطيب وابن خلدون ...	فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان	٢٨٨
(ت)		
تاريخ الأزهر ...	حضرة الأستاذ علي ماهر	١٢٢
تاريخ علم التفسير ...	فضيلة الأستاذ الشيخ حسن حسين	١١٥، ٢٩٩، ٢٢٥
تاريخ الفقه الاسلامي في مصر ...	» » » محمد المدني	١٦٥، ٨٥
التجديد والمجددون في الاسلام ...	» » » السيد عفتي	٣١١، ٢٣٩، ٩٣ ٤٦١، ٤٠٧، ٣٧٣ ٥٤٨
التصوف والمتصوفون ...	حضرة الأستاذ الدكتور محمد قلاب	٢٧٧، ٢٣٥، ١٤٩ ٤٨٤، ٤١١، ٣٣٣ ٦٠٦، ٥٤٤
التصوف - رأي الامام الغزالي في مذهبه ...	فضيلة الأستاذ الشيخ أبو الوفاء المرافي	٩٧
التصوير واتخاذ المساجد على القبور ...	» » » عبد الرحمن الجزيري	٣٢٨
تطور التصميم والزخرفة في مساجد مصر ...	حضرة الأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق	٥٠٦، ٤٢٩، ٣٠٥ ٦٣٦
تعدد الزوجات وما ...	فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن الجزيري	٥١٦
...	نه صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر	١٩٣، ١٢٩، ٦٧ ٣٢١، ٢٦٠
...	» » »	٥٧٧
...	لشيخ يوسف الدجوي	٥١٣، ٤٥٥، ٣٩٥
...	» »	٦٠٩

مذمة	بتسلم	الوضوع
		(ج)
٢٧٩	حضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب	الجنيد ... ..
٢٨٥	» » » »	الجيلاني ... ..
		(ح)
١١٩	لجنة الفتوى	حجاب المرأة - فتوى ... ..
١٦١	فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الحجوي	الحسد والرقية منه ... ..
٤٦٩، ٣٥٢	حضرة الأستاذ مدير المجلة	الحكمة القرآنية والفلسفة اليونانية ... ..
٤١١، ٣٣٤	الدكتور محمد غلاب	الحلاج ... ..
٥٥٧، ١٧٠	ابراهيم زكي	الحياة الاقتصادية - نشأتها عند العرب ... ..
		(خ)
٣	... ..	خطبة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر في احتفال الأزهر بالعام الهجري ... ..
٦٥	... ..	خطبة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر في احتفال الأزهر بعيد الميلاد الملكي ... ..
٢٥٧	... ..	خطبة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر في احتفال الأزهر بعيد الجلوس الملكي ... ..
		(د)
٤٥٧	فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن الجزيري	دعوة النبي أمته الى توحيد الله ... ..
٣٨٢، ٣١٤	عبد الحليم السبكي	دفع الخطأ من الصواب ... ..
		(ر)
٢٩٤	لجنة الفتوى	رؤية الطبيب المرأة الأجنبية - فتوى ... ..
١٥٧	فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان	الرجعية والتجديد في الأزهر ... ..
٣٨٩	حضرة الأستاذ مدير المجلة	الرسالة المحمدية - إعلانها للدول رسمياً ... ..
٥٣٩، ٣٤٥، ٢٩٤	لجنة الفتوى	الرضاع - فتاوى ... ..
٥٥١	فضيلة الأستاذ الشيخ أبو الوفا المراغي	رمضان ... ..
٤٣٣، ٣٧٥، ٢٨٥	حضرة الأستاذ مدير المجلة	الروح الانسانية - إثباتها حسيماً ... ..

العدد	المجلد	الموضوع
		(ز)
٤١٩٠٣٤٥	لجنة الفتوى	الزكاة - فتوى ... ..
١٩٩	» »	الزنا - حكم الشريعة الإسلامية في عقوبته
٣٨٣	... ..	زيارة رئيس الوزراء لمعهد شبين الكوم ...
٥٨٣	فضيلة الأستاذ الشيخ عبدالرحمن الجزيري	زيارة القبور ... ..
		(س)
٣٦٢	حضرة الأستاذ مصطفى عبدالحيد أوزيد	الساعات الرهيبة في حياة الرسول ... ..
٤٩٠	فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوي	الصحراء - تعلمه وحكمه - فتوى ... ..
١٣٩	حضرة الأستاذ مدير المجلة	مرايا الرسول في الملتقى الخامسة والسادسة
٨٢	» » الدكتور محمد غلاب	سعد الدين التفتازاني ... ..
٢٣٦	» » » »	صفائح الثوري ... ..
٥٤٤	» » » »	المهروردي - عمر ... ..
٥٤٥	» » » »	المهروردي - يحيى ... ..
٨٤	» » » »	السيد الجرجاني ... ..
٤٢٦٧، ١٣٩، ١٨	» » مدير المجلة	السيرة الحمديدية تحت ضوء العلم والفلسفة ...
٣٨٩		
٥٨٧، ٥٢٦، ٤٩٦	فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبدالله الجبوي	السيرة الحمديدية - تعقيبات وملاحظات ...
٥٩٣، ٥٣٩، ٤٩٩	حضرة الأستاذ مدير المجلة	السيرة الحمديدية - ملاحظات وتعقيبات ...
		(ش)
١٦٥، ٨٥	فضيلة الأستاذ الشيخ محمد المدني	القاضي - الامام ... ..
٣٣٣	حضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب	القبلي ... ..
٥٢١	فضيلة الأستاذ الشيخ محمود أبو العيون	الشدائد ودروس وعظات ... ..
٢٥	» » عبدالرحمن الجزيري	الشفاعة عند الله يوم القيامة ... ..
		(ص)
١٦٣	لجنة الفتوى	صلاة الظهر بعد الجمعة - فتوى ... ..
٢٦٧	حضرة الأستاذ مدير المجلة	صالح الحديبية وآثاره ... ..



صفحة	بسم	للموضوع
		(ط)
٣٤٦	لجنة الفتوى	الطلاق - فتوى ... ..
٤٢١٠٣٨٧	حضرة الأستاذ نحر الدين العاصب	الطلاق في القانون المقارن ... ..
		(ع)
٦	حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر	عبد الرحمن ... ..
٦٣٠	فضيلة الأستاذ الشيخ احمد ابراهيم موسى	عدي بن زيد ... ..
٨١٠٣٩	حضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب	عقد الدين الايجي ... ..
٢٢٨	فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف النجوى	عظمته صل الله عليه وسلم ... ..
٢٧٣	» » » عبد الرحمن الجزيري	العمل الصالح وقاية من عذاب الله ... ..
٦٥	... ..	عيد الميلاد المللكي ... ..
٢٥٧	... ..	عيد الجلوس المللكي ... ..
٦٢١	فضيلة الأستاذ الشيخ أبو الوفاء المرافي	العيد ... ..
		(غ)
١٨	حضرة الأستاذ مدير المجلة	غزوة الأحزاب ... ..
١٣٩	» » »	غزوات في السنين الخامسة والسادسة ... ..
		(ف)
٣	حضرة الأستاذ مدير المجلة	فائحة السنة الثانية عشرة ... ..
٣٩٨	فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن الجزيري	الفتوى بغير علم - ذمها ... ..
		فلسفة :
٤٣	فضيلة الأستاذ الدكتور عبد البهي	الفلسفة بين الوجود والفكر ... ..
١٠٣	حضرة الأستاذ مدير المجلة	الفلسفة بين الوجود والفكر ... ..
١٨١	فضيلة الأستاذ الدكتور عبد البهي	الفلسفة الميتافيزيقية ... ..
٢٠٣	» » »	حول خلاف فلسفي ... ..
١٨٤	حضرة الأستاذ مدير المجلة	الميتافيزيقا - ماهي ... ..
٧٤٥	» » »	مقررات العلم والفلسفة في الميزان ... ..
٤٦	» » »	هل من فلسفة إسلامية ... ..
٩٩	فضيلة الأستاذ الدكتور عبد البهي	هل من فلسفة إسلامية ... ..

الموضوع	بسم	صفحة
بين رجال الدين والفلسفة ... ..	فضيلة الأستاذ الشيخ محمد يوسف موسى	١٥٦١، ١٤٦٥، ١٣٤٨ ٦١١
الحكمة القرآنية والفلسفة اليونانية ... ..	حضرة الأستاذ مدير المجلة	٤٦٩، ٣٥٢
كلمات في موضوع بين رجال الدين والفلسفة	» » »	٦١٥، ٥٦٧
(ق)		
القرآن هدى للناس وبينات ... ..	حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر	٥١٣
القرآن والمفسرون ... ..	فضيلة الأستاذ الشيخ حامد محسن	٢١٨، ٣٠
القرآن - في بلاغته ... ..	» السيد أحمد صقر	١١١
القرآن - روعة بيانه ... ..	» إبراهيم أبو الخشب	٦٢٣
قس بن ساعدة ... ..	» أحمد إبراهيم موسى	٣٦٥
القشيري ... ..	حضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب	٤٨٤
القوة في الحق ... ..	فضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم أبو الخشب	٤٣٨
القيمة العلمية لأبحاث المستشرقين ... ..	» الدكتور محمد عبد الله ماضي	٩٠
(ك)		
الكلام والمتكلمون ... ..	حضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب	٨١، ٣٩
(م)		
المتأطون والآداب ... ..	فضيلة الأستاذ الشيخ أحمد إبراهيم موسى	٦٣٠، ٤٤٠، ٣٦٥
مثل من فهم الصحابة في كتاب الله ... ..	» عبد الرحمن الجزيري	١٤٦
مثل من إيذاء المنافقين للرسول ... ..	» » »	٢٠٩
الحجاسي ... ..	حضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب	٢٣٧
الشيخ محمد عبده ... ..	حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر	٣٨٥
محمد محمود باشا - ذكرى ... ..	» » »	١٢٧
عبي الدين بن عربي ... ..	حضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب	٦٠٦
المفردات - حكم الشرع فيها ... ..	فضيلة الأستاذ مفتي الديار المصرية	٤٤٩
المدنية المادية ... ..	» الشيخ أبو الوفاء المرافي	٣٦٠

(ز)

الفهرس العام

منطق	بسم	الموضوع
٤٣٦٩، ٣١٦، ١٧٤ } ٥٧١، ٤٤٤ }	حضرة الأستاذ محمد ناصف	مذاهب العرب في كلامهم ... ..
٣٠٢	فضيلة الأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف	مستقبل الدين ... ..
٢٣٣	» أبو الوفاء المرائي	المسلمون والاسلام ... ..
٣٠٩	» » » »	المسلمون - حاضرهم ومستقبلهم ... ..
٤٥٥٣، ٤٩٢، ٤٢٥ } ٦٢٦ }	حضرة الأستاذ مصطفى عبد الحميد أبو زيد	مقارنة ومفاضلة ... ..
١٧٨	فضيلة الأستاذ الشيخ أبو الوفاء المرائي	مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ... ..
٢٣١	» عبد الجواد رمضان	المولد الشريف - ذكرى ... ..
٣٤٦، ١٦٤	لجنة الفتوى	ميراث - فتوى ... ..
(ن)		
٢٧٨	حضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب	النورى ... ..
(هـ)		
٥٣	فضيلة الأستاذ الشيخ أبو الوفاء المرائي	الهجرة ... ..
(و)		
٢٢٥، ١٥١	حضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب	وحدة الوجود ... ..
٢٥٦، ١٩١، ١٢٦ } ٤٤٧، ٣٨١، ٣١٩ }	فضيلة الأستاذ الشيخ عباس طه	وحى الشريعة المخالفة ... ..
٥٧٤، ٥١١ }	لجنة الفتوى	وقف - فتوى ... ..
٤١٩		



# حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم

يشهد احتفال الأزهر بأول السنة الهجرية الجديدة

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام يلقي خطابة جامعة

كان مساء الثلاثاء أول المحرم من هذه السنة ( ١٣٦٠ ) من الآونة التي تسجل في تاريخ التجديد الديني في بلاد الاسلام ، فهذه أول مرة يشهد فيها ملك يمثل الاسلام في جميع أطراف الأرض ، الاحتفال بعيد الهجرة النبوية ، في حشد حاشد من علماء الأمة ، ورجال الدولة ، وقادة الجيوش ، ليستمع الى إمام الدين ما يسمح به المقام في ذكرى هذا الحادث الجليل .

نعم ، هذه أول مرة يسجل فيها حدوث هذه السنة الكريمة ، وإنها لتجديد عظيم الشأن يضاف الى سائر التجديدات التي سنها حضرة صاحب الجلالة الفاروق في الناحية الدينية ، وكان لها صدى رنان في جميع الأفق الاسلامي ، مما سيكون تقليدا من تقاليد الميامل في جميع الأمصار ، فيتجلى بذلك من حكمة هذا الدين ، ومن سمو نظره ، في التقريب بين الحاكمين والمحكومين ، ما يكون سببا في فهم الناس له ، وتقديرهم لقدره ، وفي حرصهم على إقامة شعائره ، والاهتداء بهديه .

إصلاح بعيد المدى يوفق إليه جلالة الملك الفاروق في عصر ركبت فيه المادية رأسها ، وافنتك من عقولها ، فاقادت الدين ففنتهم سفسطاتها الى حيث يفقد رصدهم ووجودهم ، فهل كنت تتصور أن شيئا ، مهما عظم شأنه ، يستطيع أن يردم الى الصواب على نحو ما تردم مواقف جلالة الملك من احترام الدين وإكباره ، والاحتفال بمواسمه وأيامه ؟

وما يستبشر به المؤمنون أن يتولد هذا التجديد الخطير في عهد الإمام المراغي ، وأن يتولى هو كُتبه ، وهو أقدّر العلماء المعاصرين على إحاطة هذه التجديدات الملكية العالية بما هي أهله من تجلية الروح الإسلامية في أجل ما تستهدفه من إصلاح الأفراد والجماعات ، وأبعد ما ترمى إليه من شريف المقاصد والغايات ، مما ينبه الغافلين الى حقيقة هذا الدين ، ويقوى في نفوس أهله ماضع من الضمور بجلاله وجماله ، وإنها لحظة خطيرة حفظها الله لفضيلة الأستاذ الامام ، ولا يحفظ أمثالها إلا للأفذاذ الموهوبين ، وهو بما توفر على خدمة العلم وأهله ، وتجرد للنظر في وجوه إصلاحهم وإرشادهم ، جدير بأن يكون في طبيعة هذه الحركة العلمية ، التي سبق فيها المسلمون اليوم ، متأثرين ببواعث ليس في مكنة أحد صدها ، والوقوف في وجهها .

استهل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام خطبته بذكر ما يتصل بالنبي صلى الله عليه وسلم نسبا وحسبا ، وشمائل وأدبا ، وما من " الله عليه من عوامل التكميل حتى استأهل أن يكون خاتم المرسلين ، والمبعوث رحمة للعالمين ، بالدين الفطرى ، والصراط السوى . ثم ألم فضيلة الأستاذ الامام بذكر ما أوجب الهجرة من الاضطهادات العنيفة ، ثم بذكر واضح التاريخ من الهجرة ، وهو أمير المؤمنين عمر ، ثم وجه فضيلته القول الى جلالة الملك ، مصرحا بأن جلالة أول ملك مسلم شهد حفلة الهجرة ، وبذلك شارك عمر الفاروق في العناية بها ، وإظهار خطرهما ، وعظم شأنها .

ثم ألم فضيلته بذكر المدنية الفاضلة ، وهنا تجلت كما تجلت في جميع مواقفه الخطابية ، خصوصية فضيلته في البيان والتبسط ، والتأثير البالغ في العقول ، فكان لكلامه وقع عظيم في القلوب . ونحن ندون هنا هذه الخطابة كاملة ، لنوصلها الى أقصى ما يمكن أن تصل إليه مجلة من بلاد المسلمين .

أعاد الله هذا الموسم العظيم على جلالة الملك والامة الإسلامية طاب في يمن وإقبال ، إنه صميع الدعاء ، عجيب النداء ؟

محمد فريد وهبى

## بِشْرِ اللَّهِ الْخَيْرُ الْخَيْرُ

أحمدك اللهم ، وأنت الحقيق بالحمد والنساء ؛ وأصل على أفضل أبيائك وخاتم رسلك ، وعلى آله وصحبه .

وبعد . فقد كان سيدنا محمد بن عبد الله من أوسط العرب نسبا ، وأكرمهم محندا ، ليس في آبائه إلا من هو سيد كريم ؛ وكان جده عبد المطلب شيخا مقدما في قريش ، يصدرون عن رأيه ، ويقدمونه في مهماتهم ؛ وكان عليه السلام أحسن قومه جوارا ، وأكرمهم مخالطة ، وأعظمهم حلما ، وأشدم أمانة ، وأكثرهم حياء ، وأصدقهم حديثا ؛ ذلك إلى شجاعة وعفة ، وكرم وتواضع ، وصبر وشكر ، حتى قال النضر بن الحارث ، وهو أشد قومه خصومة له : قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه للشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم : ساحر ؛ لا والله ما هو ساحر ! ولما سأل هرقل ملك الروم أباسفيان : هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، فقال هرقل : ما كان محمد ليدع الكذب على الناس ويكتب على الله .

ولما بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ، اختاره الله رسولا ، واهه أعلم حيث يجعل رسالته ، واصطفاه لحل أمانة التبليغ عنه وتلقي الوحي ، فكان بشيرا ونذيرا ، أخرج الناس من ظلمة الكفر والجهل ، إلى نور الإيمان والعلم ، ورفع قدر الإنسانية ، وسما بخلقه وأدبه ، وعلمه وتعليمه وهديه ، إلى أعلى مقام يبلغه بشر .

قام بالدعوة أول الأمر سرا ، لا يدعو إلا من وثق به أو توسم الخير فيه ، فلبى الدعوة طائفة من الأشراف كآبي بكر ، وعثمان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، ممن استنارت بصائرهم ، وصفت قلوبهم ، ولم تحجبها ظلمات التقليد والعباد ، عن تلمذ نور الحق إليها ؛ كما دخل في الدين جمع من الموالى . وكان متبعوه لا يتمكنون من إظهار عباداتهم خوفا من تعصب قريش عليهم ومن إيذائهم .

ثم أمر بالجهار بالدعوة ، ونزل عليه قوله سبحانه : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » ؛ فصدع بالأمر ، وبادر إلى الامتثال ، فصعد الصفا ونادى بطون قريش وقال لهم : رأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تفسير عليكم أكنتم مصدق ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذما . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبأ لك ألهذا جمعتنا ؟ ثم نزل عليه قوله سبحانه : « وأنذر عشيرتلك الأقربين » فجمعهم قائلا لهم : إن الرائد لا يكذب أهله ؛ والله لو كذبت الناس جميعهم ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعهم

ما غررتكم ؛ والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ؛ والله لقوم كما تنامون ، ولتبعين كما تسيقظون ، ولتحاسين بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً ، وإنها الجنة أبداً أو النار أبداً . فتكلم القوم بكلام لين غير صريح أبي جهل فانه قال : خذوا على يديه قبل أن يجتمع العرب عليه 1

بدأ الدعوة بالدعوة إلى توحيد الله ، وإفراده بالعبادة ، وإلى ترك الأصنام والأوثان ، والوسطاء والشفعاء ، فانه أقرب إلى العبد من جبل الوريد ، وهو مع العباد أينما كانوا . وطالب الناس بالإحسان وترك الفاحشة ما ظهر منها وما بطن ، وحرم قتل النفس إلا بحق ، وقتل الأولاد خشية الفقر . وطالب بإيفاء الكيل والوزن ، وبالعدل في الحكم ، والوفاء بالعهد .

تجمعت لدى من أمضى الله بصائرهم ، وطمس على قلوبهم من قومه ومن العرب ، شتى الأسباب والدواعي لمناهضته ومقاومته : حسد الأهل وذوى القربى ، وخوف الرؤساء من ذهاب رياستهم ، والغيرة على المعتقدات وعلى الآلهة التي كانوا يعتقدون أنها تقربهم إلى الله زلي ، والغيرة على سيرة الآباء والأجداد ، والحفاظ على تقديس ما كانوا عليه .

من هذا الذي سفه عقولنا وأحلامنا ، وأحلام آبائنا ، وسخر بأهلتنا ؟ من هذا الذي يدعى النبوة ، وما هو إلا واحد منا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، لم يخصه الله دوننا بغيره ، ولم نحول له جبال مكة ذهباً ، ولم تعجز له الأنهار تطرد في خلجان الجنات ، ولم ينزل عليه كثر من السماء ، ولم ينزل السماء علينا كسفاً ، ولم يصمد إلى السماء ثم ينزل ويده كتاب يقرأ ، ولم يأت بالله والملائكة قبلاً ؟

قالوا هذا ، وكانوا شديدي الحرص على معبوداتهم ، وعلى عاداتهم ، وعلى تقديس ما كان عليه آبائهم ؛ فأنجموا أمراً على مقاومته ، وعلى الوقوف في سبيل دعوته ، وعلى خنقها قبل أن تشب من الطوف ، وقبل أن يكثر أتباعه وحنوده ، وقبل أن يعتز بقوة لا يستطيعون ردها .

لحق منهم الجهد والعنت والمشقة ، وصنوا من الأذى متعددة الألوان ، لا يستطيع احتياؤها والصبر عليها ، إلا تمس ذكية طاهرة ، مخلصة فانية في الله ، لا يجول فيها إلا خاطر واحد ، هو هداية الناس ، وأنت تنفجر ينابيع الدين ، فتجري أنهاراً في تلك الصحراء ، ثم تسبح وتنساب إلى سائر البقاع ، وأن يشرق ذلك النور الإلهي على قلوب العرب وقلوب غيرها من الأمم ؛ وكان حريصاً أشد الحرص على هداية قومه ، فاحتمل هذا العنت كله ، طمعا في هدايتهم ، ولم يترحم الهجرة إلا بعد أن صفر وطابه ، ولم يبق معه سهم يرميه .

اتفقوا على مناظرة بني هاشم وبني المطلب أقرب الناس إليه ، وعلى إخراجهم من مكة ، والتضييق عليهم ، فلا يبيعونهم شيئاً ، ولا يبتاعون منهم شيئاً ، ومنعوا التجار من مخالطتهم



ومعامتهم ، وأودعوا ذلك محيفة أودعوها جوف الكعبة . فعلوا ذلك ليُسَلِّمه قومه اليهم حتى يقتلوه .

حزبه الكرب ، وضاعت عليه السبل جميعها ، وظن أن ثقيفا بالطائف تنصره إن هو استنجد بها ، فذهب اليهم فردوه رداً قبيحاً ، وأرسلوا وراهم غلمانهم يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه . واصموا ما قاله إذ ذاك تتبينوا ما كان يحيط به من الألم والهوان : قال صلوات الله عليه وسلامه : « اللهم إني أشكو اليك ضعف قوتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي » . فهو لا يبالي بالألم الحسى في جسده الشريف ، ولا بالألم النفسى من الهوان إن لم يكن بالله غضب عليه . ذلك لأنه كان لله وفي سبيل الله ، ولحق وفي سبيل الحق . وفي هذه الرحلة لم يستطع العودة إلى بلده مكة إلا في حاية المطمئن عدى حيث جرد هو وأولاده سيوفهم لحايتهم . تلس الفرج عند وفود العرب ، فقد إلى الموسم بمكة ، فلاح بصيص من النور . عرض نفسه على القبائل ، فأسلم ستة من الأنصار ، وأسلم جمع في موسم آخر ، وعادوا ، فذاع ذكر الاسلام في دورم ، ولم يبق لهم حديث إلا حديث الاسلام . ثم بايعه في موسم آخر ثلاثة وسبعون رجلاً من الأوس والخزرج . وبدأ الاسلام بعد رجوعهم يذيع أكثر من قبل . ثم أمر المسلمين بالمهجرة إلى المدينة .

هنا حاج الشر ، وتحركت الأحقاد ، وأصابهم من الشيطان . أصبح لمحمد أتباع يذودون عنه كما يذودون عن أولادهم ، وانتشر دينه في ربوع المدينة وما حولها ؛ ومحمد شخصية جذابة قوية التأثير بحديثه وأخلاقه وصفاته ، وييسده كتاب أدركوا قوته وروعته في النفوس ، وجربوه من قبل في أنفسهم .

لا بد لهم من قتله قبل أن يوجد السلطان بيده ، فاتفقوا على أن يأخذوا من كل قبيلة شاباً جليداً ، وعلى أن يجتمع أولئك الشبان أمام داره ليضربوه ضربة رجل واحد ، وإذ ذاك ينثرق دمه في القبائل ، ولا يستطيع قومه أن يقاتلوا كلها .

محمد الآن بين أمرين : إما القتل وزوال هذا الدين ودثور الحق والظلماء بوجه ، وإما النجاة والفرار من هذا الظلم ، وتلس الحرية في أرض توجد فيها الحرية والطمأنينة على النفس والدين ، فبث في الأمر وقرر الهجرة .

كانت الهجرة ، وصاحبها أهوال ، لكن الله ينصر من ينصره ، فوصل المدينة سالماً ، ووجد أتباعاً يفقدونه بالنفس والأولاد ، وتتابع نزول القرآن بالهدى والحق ، وامتت النعمة على المسلمين والعالمين .

لم يكن من غرضي في ذكر الحوادث ، إلا ذكر القدر القوي ينجلي فيه أن الهجرة كانت

حددا فاصلا بين الضعف والقوة ، وبين العز والهوان ، وبين الخفاء والظهور ، وبين الحق والباطل ؛ وأنها كانت من أجل الحوادث في تاريخ الإسلام . والمهجرة سنة من سنن المسلمين ، وسنة من سنن المصلحين من بعدهم . والحرية آمن شيء وأعز له لدى الإنسان ؛ والاعتداء عليها يعادل الاعتداء على النفس ؛ ويجب الدفاع عنها ، والقتال في سبيلها . انظروا قول الله سبحانه : « إن الدين توفاكم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . » ميمى الله سبحانه الصبر على الضيم والذل ، والصبر على ترك الجهر بالحق ، طمعا للنفس ، يجب الفرار منه عند عدم القدرة على دفعه ، ويجب ترك الأوطان والمخرج من الديار والمهاجرة إلى غيرها إذا لم توجد العزة ؛ وإذا ذلك تكون الهجرة هجرة في سبيل الله .

مولاي صاحب الجلالة :

روى الطبري في تاريخه أن العرب لم تكن تؤرخ على أمر معروف يعمل به عامتهم ، وكان المؤرخ منهم يؤرخ بولاية عامل عليهم ، أو بالأمر الحادث ينتشر خبره عندهم ، أو بسنة « مجدبة » في ناحية من نواحي بلادهم . والمشهور أن الفاروق صهر بن الخطاب هو أول من جمع المسلمين لتسوية في أمر التاريخ ، وأنهم عرضوا عليه أمورا . التاريخ لمولده صلى الله عليه وسلم ، والتاريخ لمبعثه ، والتاريخ لوفاته ، والتاريخ لهجرته ؛ فاختار من بين ذلك كله التاريخ لهجرته ، وقال : إن الهجرة فرقت بين الحق والباطل . ورضيه الصحابة رضى الله عنهم .

وقد احترت يا صاحب الجلالة شوقي من الله ، أن تتزوج حفلة الهجرة بشرف حضورك وشهودها ، وأنت — فيما أعلم — أول ملك مسلم شهد حفلة الهجرة . وبذلك شارك الفاروق ابن فزاد ، الفاروق بن الخطاب في العناية بأمر الهجرة ، وإظهار خطرهما في الإسلام .

مولاي :

قد آن للمسلمين أن يفكروا ، ويمادروا إلى اعتناق مدنية فاضلة ، أساسها الدين ، وقوامها الأخلاق والتقاليد التي أثبتت التجارب حسناتها قبل أن يشيع الفساد ، وقبل أن تعبد اللذة والفسوة ، وقبل أن يشيع تقليد الغرب في كل شيء ؛ مدنية تجمع بين تقاليدنا النافعة الواقية من الفساد ، وبين ما هو حسن نافع من مدينيات غيرنا ؛ نأخذ كل ما أحسنه البشر من مميزات نافعة مفيدة ، ونطرد كل ما أهدوه من شر وفساد ؛ وقد نبقت الأديان كلها في الشرق ، فليس بمجب أن نحيا فيه تلك المدنية العاضلة ، إذا تعاضد الناس على الأخذ بيدها وحمايتها . ولا إخال إلا أن الناس قد أدركوا ، وإن لم يكونوا متمسكين بدين ، أن الرجوع إلى الأديان خير مما يتخبط فيه الناس من ضلال . ولعل الذين كانوا يدعون إلى تقليد الغرب في كل شيء ،

والتمسك بمدينته كما هي ، قد أدركوا الآن أنهم لم يكونوا على حق في دعوتهم ، وخصوصا بعد أن رجع أولئك المقلدون المقتندي بهم عن مذاهبهم ، وثبت لهم أنهم كانوا على ضلال مبين . وأوجه من هذا المكان الطاهر تمتثل إلى جميع المسلمين في الأقطار بحلول العام الهجري الجديد ، ضارعا إلى الله سبحانه أن يجعله عام خير وبركة ، ويمن وسلام عليهم وعلى الإنسانية ، وأن يرفع بمنه هذه الشرور الطاغية ، التي جعلت العالم جميعه يحس شدة كربها ، ويرجو زوالها . وأسأل الله سبحانه أن يديم لهذه البلاد حضرة صاحب الجلالة ملكتنا المحبوب : طروقا الأول ، وأن يمز به بالاسلام ويعز به الاسلام ، وأن يرعاه برعايته ، ويدبر له توفيقه . والسلام عليكم ورحمة الله ؟



# مجلة الأزهر

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية  
تصدرها شبكة الأزهر  
في كل شهر عربي  
دوريات

الجزء الأول	الحرم سنة ١٣٦٠	المجلد الثاني عشر
-------------	----------------	-------------------

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد زكي أبو شادي

الاشتراكات منه	الزبدرة
داخل القطر ... .. ٢٠٠	ميدانف الأزهر
لطلبة الجامعة الأزهرية خاصة ... ١٠٠	تلفون : ٨٤٢٢٢
خارج القطر ... .. ٣٠٠	الرسائل تكون باسم مدير المجلة

نمن الجزء الواحد ٢٠ ملما داخل القطر و ٣٠ خارجه

(مطبعة الأزهر — ١٩٤٠)



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### السنة الثانية عشرة لمجلة الازهر

الحمد لله مانح الحكمة للعتيق من عباده ، ومفيض النور على السالكين سبيل إرشاده ،  
والصلاة والسلام على من أرسله بالكلمة الجامعة ، والطريقة الناصعة ، وأمدّه بالحجج الساطعة ،  
والدلائل القاطعة ، غاتم المرسلين محمد ، وعلى آله وصحبه وتابعيه الى يوم الدين .

أما بعد فإنا بهذا العدد تفتتح السنة الثانية عشرة لهذه المجلة ، ونحن على العهد الذي  
قطعناه على أنفسنا يوم أن 'نُذبتا للعمل فيها ، من بذل أقصى وسعنا لا بلانها المسكنة التي يجب  
أن تبذلها مجلة تمثل أكبر وأقدم جامعة إسلامية . فإن كنا قد 'وُفقتا الى ذلك فبفضل الله  
وتوفيقه ، وبما أمد به العلماء والكتاب الذين تفضلوا بمعاونتنا على تحقيق هذا المقصد الجليل ؛  
وإنا نلتمن أن يزيدنا الله فصلا وتوفيقا في الاضطلاع بهذه المهمة الخطيرة .

ومن الحق أن نذكر أن نشر ما يلقى به حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام في المناسبات ،  
من الكلمات الجامعة ، والبحوث المستفيضة ، أثرأ كبيراً في إحلال هذه المجلة محلها الذي تحظى  
به في نظر القارئ . وقد حلينا صدر هذا العدد بما فتحه الله عليه من تفسير ما ورد في وصف  
عباد الرحمن في خمس عشرة آية من آخر سورة الفرقان ، وهو أكل وأوفى تفسير لهذه الآيات  
المحكمات ، مما تدعو إليه الحاجة في هذا العصر ، وسنتبهم بما ألقاه فضيلته من الدروس الدينية  
في شهر رمضان في حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الأول حامي حامي الاسلام ، ومعظم  
شعائره ، ومعلى كلمته ، ومموز شيعته .

أما ما اعتزمنا أن نطرقه من البحوث ، فهو كل ما يكون من أثره إيقاظ العاطفة الدينية  
في النفوس ، وتوجيه الشخصية الانسانية الى الوجهة التي فيها كمالها وسعادتها .

وقد دأبنا منذ ابتدئنا لخدمة الاسلام أن نستانس بالعلوم الكونية ، وبالفلسفة الغربية ،  
علما منا أن اتصال ثقافتنا بالثقافة الغربية ، يحتم علينا أن نلم بالأطوار التي دخلت فيها هذه  
الثقافة الأخيرة من الناحية الادبية ، غير متورعين من إيراد شبهات الماديين منهم وبما كتبنا  
الى أصول العلم ومقررات الفلسفة الصحيحة . وقد أنجح هذا الأسلوب في لفت النظر  
الى ما في الاسلام من حكمة عالية ، ومناعة لا يطعم معها في زهرته . وفقنا الله الى خير ما يتفضل  
به على السالكين إليه ، من مثابة وهداية ، إنه ولي الكفاية .

محمد قريمر وجدي

## حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام

يفتح موسم المحاضرات في جمعية الشبان المسلمين

دعا حضرة صاحب السعادة صالح حرب باشا رئيس جمعية الشبان المسلمين ، حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام ، ليتفضل بافتتاح موسم المحاضرات فيها . فلبى فضيلته هذه الدعوة بما أثر عنه من التشجيع على كل عمل طيب يرجى منه صلاح لفقوون المسلمين ، وعائدة لعمولهم وأرواحهم . فقصده دار تلك الجماعة الموقرة في مساء يوم ٢١ شوال سنة ١٣٥٩ واعلنى منبر المحاضرات في حشد من رجال العلم ، وكبار رجال الدولة ، ولقيف من الأدباء وحلة الأفلام ، وافتتح هذا الموسم الثقافي الجليل ، باسم الله الكريم ، وتتمير خمس عشرة آية من الكتاب الحكيم ، وردت في بيان صفات عباد الرحمن في آخر سورة الفرقان .

جمعت هذه الآيات الكريمة من صفات عباد الرحمن ما لم يجتمع مثله في غير القرآن ، وحصرت من حالتهم النفسية ما يحث على كل سالك سبيله أن يعرفه ، فهي لمن يعرف أسرار المعارف البسيكولوجية الحديثة ، آيات فاطقة بالعجز هذا الكتاب الدماوى ، وبأن الوسم البشري لا يصل الى تصوير هذه المرتبة العليا التي يعمل إليها بعض الناس ، على هذا النحو من التعهد والاسْتِيفاء ، في هذا القالب من البيان الذي تنتهى إليه أسباب البلاغة كلها بأوسع ما فهمت عليه من معان . ومن عجب أنها قد جمعت من أمهات الفضائل النفسية ، والآداب الاجتماعية ما لا مزيد عليه في تكوين الشخصية الكاملة ، المؤاحية بين السمو الروحي والحياة الدنيوية ، وهى ما أعجز الفلاسفة أن يجمعوا بينهما في قلب رجل واحد ، مدعين أن السكال الأدبى ينافى السكال الدنيوى ، لجمع بينهما الاسلام ، وربى عليهما جماعة بزت العالمين في كرامة الناحيتين ، فكانت مثلاً أعلى للجهادات المستقبلية .

وقع اختيار فضيلة الأستاذ الإمام على هذه الآيات ، فتناولها بالفهم المستنير الذى عبده فيه المسلمون ، فجاء ما كل ما يمكن أن يفهم منها في هذا الموطس ، ولم يدع حاجة من نواحي النظر في تلك الآيات الكريمة إلا جال فيها بذكره المصيب ، ونظره البعيد ، فأتى بأحسن ما يستطيع أن يأتى به في هذا الموطن الرهيب .

لم تتجل مواهب الأستاذ الإمام في تصوير المعانى العالية ، وتوصيح الاشارات الخفية في موطس من المواطن ، كما تتجلت في شرح ما نحن بسبيله من الآيات ، فإذا كان ينبغي أن يوضع تفسير عصرى للقرآن ، وجب أن يوضع على هذا النحو ، ونحن نرجو أن يبارك في وقت فضيلته ، وأن يفصح له في الحياة ، حتى يقوم للعالم الاسلامى بهذه الخدمة الكريمة .



وقد بادرت إدارة الإذاعة اللاسلكية المصرية بالتقطت أقوال فضيلة الأستاذ الامام على شريط راديوغرافي وأذاعتها على الناس بعد الاعلان عنها ، فسمع سكان أكثر الأقطار الاسلامية في مشارق الأرض ومغاربها هذا التفسير القيم لصفات عباد الرحمن ، فكان هذا العمل الإذاعي من أورك الأعمال وأولها بالتعبير والتقدير .

والذى نستطيع عمله في سبيل الامانة على إذاعة هذه المحاضرات الثمينة أن نشرها في مفتتح المجلد الثانى عشر لمجلة الأهرام ، راجين أن نوفق الى طبعا في كراسة خاصة لينتخذا كل مسلم دستوراً له في الحياة الطيبة .

محمد قريش وجري

## صفات عباد الرحمن

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى :

« عِبَادَ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا .  
وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا . إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا . وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا . وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ، وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا . إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا . وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا . وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ، وَإِذَا سُرُّوا بِالْغُشْوِ سَرُّوا كَرَامًا . وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْفَوْا عَلَيْهَا حُصًّا وَمُهَيَّمًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا مُقَرَّةً أَعْيُنَ وَاجْعَلْ لَنَا لِعَمَلِنَا لَهْفًا وَاجِدًا . أُولَئِكَ يُحْمَلُونَ فِي الْعَرْشَةِ حِمًّا صَبْرًا وَيُلْقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا . خَالِدِينَ فِيهَا حَسِلَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا . قُلْ مَا يَعْصِيَا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا » :

جاء الحديث في الآيات السابقة حول المشركين والكافرين ، ومزاعمهم وأحوالهم ، وما أعد الله لهم من العذاب : اتخذوا من دون الله آلهة عبدوها ، لا تملك ضرا ولا نفعا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا . قالوا عن القرآن : افتراء مجذوم وأمانه عليه قوم آخرون . وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا . قالوا ذلك مع اشتغال القرآن على أسرار الكون وعلوم الغيب التي لا يعلمها إلا الله الذي يعلم السر في السموات والأرض . قالوا عن محمد صلى الله عليه وسلم : ما نرى إلا رجلا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؛ ولم يكن هناك رسول قبله إلا كان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق . قالوا : لم لا يكون له كنز أو جنة يأكل منها ؟ كان الرسول يجب أن يكون من أغنياء الدنيا وله القناطير المقنطرة من الذهب والفضة . قالوا : إنه رجل مسعور ؛ وهو الذي دبر أمر تبليغ الرسالة على أحسن وجه ،

وهو الذي ساس أمته في دينها وديارها وحروبها وفنوحها . قالوا ذلك وغيره مما أوحى به الحق والجبل ، وكذبوا بالساعة ، واستكبروا وعصوا عتوا كبيرا ، حتى إذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا ؟ وراهم تقورا . قالوا ذلك مع وصوح الدلالات على وجود الله سبحانه ، وعلى أنه المنصف بجميع الصفات ، ومنها صفة الرحمن ، ومع قيام الأدلة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع ما جاء به ، ومنه إخباره بالساعة وأنها حق لا ريب فيها .

وفي هذه الآيات استأنف الله سبحانه الحديث عن مُخلص المؤمنين من عباده ، فذكر أحوالهم في الدنيا والآخرة ، ووصفهم بصفات كثيرة استعقوا بها وصف العبودية والإضافة إلى اسمه الرحمن ، فدل ذلك على أن صفة العبودية أشرف صفات المخلوقين .

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » :

قرئ عباد بالكسر جمع عبد ، ومُعْتَاد بالضم جمع عابد ؛ وهو على الأول من العبودية ، وعلى الثاني من العبادة . والعبودية إظهار التذلل ، والعبادة غاية التذلل . والعبد قمان : مخاض لله تعالى ، ومنه « واذكر عبدنا أيوب » ، « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان » ؛ وممكنك على خدمة الدنيا ، وإياه قصد صلى الله عليه وسلم بقوله : « تس عبد درهم ! تس عبد الدينار ! » . والهُونُ : الرفق واللين . ومنه الحديث « أحب حبيبيك هونا ما » . والجبل : السفه وسوء الأدب .

من صفات عباد الرحمن ترك الایذاء ، واحتمال الأذى ، حيث لا يترتب على ذلك تهاون بالدين ، أو بالعرض ، أو مذلة لنفس المؤمن .

أشار الله سبحانه إلى الأول بقوله : « يمشون على الأرض هونا » : أي مشيا هينا يرفق لا تكلف فيه ولا تعنع ، فهو لا يتكلف المشي الهين ، ولا يتكلف ضرب الأرض بقدمه أشرا وبطرا ، ولا التبختر خيلا ، بل يرسل نفسه على طبيعتها ، لا يقصد الكبر والعلو ، ولا يقصد بالرفق في المشي الرياء ، ثم يبيت في الأرض فسادا ، صفته في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « وما أنا من المتكفين » . المؤمن الذي هذا شأنه مؤمن يحلم الناس منه ، ومن أذاه ، ولا يريد في الأرض علوا ولا فسادا .

وأشار سبحانه إلى الثاني بقوله : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » : أي سدادا من القول بلفظ سلاماً أو بغيره مما يدل على المناركة وعدم المقابلة بالنسل ، فهو قول لا خير منه ولا شر ، أو قالوا هذا اللفظ نفسه على قصد المناركة لا على قصد التحية ، كما قال إبراهيم عليه السلام لأبيه : « سلام عليك ، سأستغفر لك ربي » . فالمؤمن حلیم وإن جهل عليه . وترك

المقابلة لصفه مستحسن أدبا وشرما و مروءة ، وهو أسلم للعرض ، على أن لا يترتب عليه منة  
وثل للعرض والدين ؛ أما إذا ترتب هذا فقد تدب المؤمن للدفاع . فالإعراض الممدوح إنما  
هو في مقابلة سوء أدب الجاهل الذي ينتهى أمره بالإعراض والصفح .

ومن لطيف ما يروى أن إبراهيم بن المهدي ، وكان منصرفا على كرم الله وجهه ، رأى  
عليا في النوم تقدم الى قنطرة يعبرها ، فقال له : إنما تذهي هذا الأمر بأمرأة ونحن أحق به  
منك . فقال على لإبراهيم : سلاما سلاما ١١ وقص إبراهيم الرؤيا على المأمون ، وقال : ما رأيت  
لعل بلاغة في الجواب كما يذكر عنه . فقال له المأمون : أجابك بأبلغ إجابة ، اقرأ قوله سبحانه :  
« وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » . فخرى إبراهيم واستحيا .

ومن كلام الحسن رضى الله عنه ، وفيه نزعة صوفية : « المؤمنون قوم دُئل ، ذلت منهم  
والله الأصماع والأبصار والجوارح حتى يحسبهم الجاهل مرضى ، وإنهم لأصحاء القلوب ، ولكن  
دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة ، فقالوا الحمد لله الذي  
أذهب عنا الحزن ، والله ما حزنهم حزن الدنيا ، ولا تعظم في أنفسهم ما طلبوا به الجنة  
أبكم الخوف من النار ، وإنه من لم يتميز ببراء الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات ، ومن لم  
يرقه عليه نعمة إلا في مطعم ومشرب فقد قل علمه وحضر عذابه » .

المؤمنون كما وصفهم الحسن : رجاء بينهم ، ولكن إذا دعا داعي الحق ، وتعرض الدين  
أو تعرضت الأوطان للهوان والذل ، كانوا أشداء ، وكانوا البوث تحمى العرين ، يظهر بأنهم  
عند الحاجة ، وليس بينهم بأس ، هكذا يجب أن يكونوا ، فآين هم ١٢ ؟

« والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم

إن عذابها كان غراما . إنها ساءت مستقرا ومقاما » :

البيتوتة : أن يدركك الليل نمت أو لم تتم ؛ وهي خلاف الظلول ، ولذلك صح أن تقول :  
بات فلان فلانا . وقياما : جمع قائم كصيام جمع صائم . وغراما : ممناه : موجعا ملحا لازما .

من صفات عباد الرحمن إحياء الليل كله أو بعضه بالصلاة ، ومن أحياء هكذا قيل : بات  
ساجدا قائما . وقال بعض العلماء : من صلى الركعتين بعد المغرب والركعتين بعد العشاء صح  
أن يوصف بهذا . ولا يلزم في حودية عباد الرحمن إحياء الليل كله أو أكثره بالعبادة ؛ فقد كان  
سلى الله عليه وسلم ينام ويقوم ، إلا ما فرض عليه بقوله تعالى : « قم الليل إلا قليلا ، نصنّه  
أو اتقُص منه قليلا ، أو زد عليه » . وكان يصوم ويفطر ، وقال : « هذه سنتي ، فمن أعرض  
عن سنتي فليس مني » . وقد جعل الله الليل لباسا ، والهار معاشا ، وكلف عباده السعى  
للحصول على الرزق ؛ والاتفاق على من يموله المؤمن واجب ، والصدقات مندوب إليها ،  
فكيف يمكن السعى مع قيام الليل كله ؟ وكيف يكون قيامه لازما في وصف عباد الرحمن ؟

ومن صفات عباد الرحمن أنهم مع اجتهدهم في العبادة وإحياء الليل ، وجلون حذرون خوف العقاب ، ينتهلون الى الله سبحانه دائماً في طلب صرفه عنهم وعدم عنه ، يدكرون أن عذاب جهنم موجد مهلك وملح دائم ، وأنها لهذا نشت المكان الذي ينزل فيه ، وبئست الموضع للإقامة !

والمستقر : ملاحظ فيه معنى القرار . والمقام : ملاحظ فيه معنى الإقامة . وهما في المعنى واحد لا فرق بينهما ؛ فهو من قبيل قول الشاعر :

..... وألقى قولها كنذاً وميناً

والمين هو الكذب . أو يقال : من شأن المذاب في الآخرة أنه مضرة لا نفع منها ؛ وأشير إليه بقوله : « إن عذابها كان غراماً » ؛ ومن شأنه الزوم ؛ وأشير إليه بقوله : « إنها ساءت مستقراً ومقاماً » . والزوم كما يكون في الكفار يلزمهم العذاب دائماً ، يكون في المعصاة يلزمهم العذاب مدة بقائهم في النار . ولا وجه لقولهم : إن الزوم يختص بالكفار .  
« والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً » :

إذا عُرف القوام : وهو الوسط والحد الفاصل بين الإسراف والتقتير ، عُرف الإسراف والتقتير ؛ فإن الإسراف تجاوز الحد ، والتقتير التقصير عن الحد . وقد سمي حد الاعتدال قواماً لاستقامة الطرفين حوله واعتدالهما . ونظير القوام من الاستقامة السواء من الاستواء . وليس من اليسير تحديد القوام في كل الأمور ؛ وقد يسهل في بعضها على وجه ما . مثلاً : يمكن معرفة الجوع والشبع ، والظمأ والرئ ؛ فيكون الأكل عند الجوع ، والكف عنه عند الشبع ، والشرب عند العطش ، والكف عنه عند الرئ ، قواماً . فمن فعل ذلك عد داخل في دائرة القوام من حيث الكمية المتناولة . لكن ما هو حد القوام في نوع الطعام ، ونوع اللباس ، ونوع الصدقات ، وفي غير ذلك مما هو موضع لإتقان المال ؟

بالرجوع الى قواعد الدين العامة ، وما استرشد به العلماء في النفقة على الأقارب ، يُرى أن ذلك متروك الى العرف ، وإلى تحديد القوام العام ، والعرف العام عند طبقات الممتدلين . فعمل الممتدلين في كل طبقة من الطبقات هو القياس الذي يسمى القوام . وطبقات الناس مختلفة في اليسار والإعسار ، وفي الشرف والجاه ، وفي الحسب والنسب ؛ والله سبحانه يقول : « لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ؛ لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ، سيجعل الله بعد عسر يسراً » . وما بعد إسرافاً عند طبقة يعد بحلاً وتقتيراً عند طبقة أخرى . وقد قال الله سبحانه لبيبه : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » . والناس في كل زمان يفرقون بين الإسراف والتقتير ، ويمرغون ذلك بالإضافة الى كل طبقة وإلى كل فرد . والمراد من الناس هنا هم العقلاء الذين

لا يرون المال معبودا ، ولا يرون شيئا لا قيمة له يرى به ذات الجبن وذات اليسار ، بل الذين يعرفون حق نعمة الله منه ، ويعرفون للمروءة حقها ، وللدين حقها ، وللنفس حقها ، والله حقها .

ولا بد من الرجوع الى هدى القرآن وإلى آياته لينصح هذا البحث

قال الله سبحانه « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلموا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفتصل الآيات لقوم يعلمون »

طلب الله سبحانه الثمن للمساجد حسبا يعرفه الناس في عاداتهم وزمائمهم ، كل حسبا بقدر عليه . وروى عن الحسن « أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قام للصلاة لبس أجود ثيابه ، وكان يقول إن الله جميل يحب الجمال » . وطلب سبحانه الأكل والشرب من غير إسراف وتجاوز للحد ، بل مع التزام حدود القصد والاعتدال ، فإن الإسراف في الطعام والشراب مصر بالبشر ، والإسراف فيهما وفي غيرها مضیعة للمال .

والنهي عن الإسراف لا يقتصر على الطعام والشراب ، بل يعم غيرها . وفي الحديث « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير خيلة ولا إسراف » ، قال الله يجب أن يرى أثر نعمته على عبده . وعن ابن عباس : « كل ما شئت واشرب ما شئت والبس ما شئت إذا أخطأك اثنان : سرف ، وخيلة » والخيلة الخيلاء والإعجاب والكبر .

وبين الله سبحانه أن الرينة في الدنيا والطيبات من الرزق ، للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، ويشاركهم غيرهم فيها ، ولكنها في الآخرة خالصة لهم لا يشاركهم غيرهم فيها .

وفي القرآن الكريم أيضا « لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تمنعوا ، إن الله لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون » . فقد نهى الله سبحانه عن ترك الطيبات تنسكا وعبادة ، وطلب عدم تجاوز الحد الى الإسراف الضار بالجسد ، والإسراف الضار بالمال ، وطلب عدم الاسترسال في الشهوات من مطعم ومشرب وغيرهما ، حتى لا تكون الذات مشغولا بها الى حد البحث والطلب والانتظار والألم فهدا أنسى هو العلم ، والمعرفة ، والمعبادة ، واكتناه من الوجود ، والاحسان الى الناس ، والنفع العام للجماعة . وإذا كانت الذات مشغولا بها الى حد البحث والطلب والانتظار والألم هندا فقد هدا ، كان ذلك صارفا عن المقاصد السامية للمؤمن . وقد أسكر الله سبحانه في الآية السابقة على من حرم زينة الله التي أخرجها لعباده ، فإن التحريم والتحليل حق الله لا يشاركه أحد فيه .

أباح الله الطيبات وحرم الجبائث حرم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، وحرم المسكر وكل ضار ، وحرم على الرجال الحرير المشتمت الخالص أو ما كان الحرير غالبا فيه ،

وحرم التقبى بغير المسلمين فى اللباس ؛ وذلك أن يلبس المؤمن ثوبا هو شارة مختصة بطائفة غير مسلمة . ثم أباح ما عدا ذلك على شرط القصد والاعتدال ، وذلك هو الموافق للفقرة ؛ فقد فطرت النفوس على الاستمتاع بالديا والطيبات من الرزق ، وأعطى الاسلام بذلك البدن حقه ، كما أعطى الروح حقه . وقال صلى الله عليه وسلم : « إنما هلك من كان قبلكم بالتشديد ، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم » .

طلب الله القصد والاعتدال . وفى الحديث الشريف : « الاقتصاد نصف الميعة ؛ وحسن الخلق نصف الدين » . وفى الحديث « نمنا المال الصالح للفرء الصالح ؛ وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى » واليد العليا خير من اليد السفلى . وقال فى الوصية : « الثلث ، والثلث كثير ؛ إنك إن تذرهم أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس » .

هذا هو هدى القرآن : لا يحرم الزينة والطيبات من الرزق ، ويتكر على من يحرم ذلك ، كما تفعل بعض الأمم وبعض الملل ؛ لكنه يطلب القصد ، فلا يميز المباركة فى الزينة واللباس والحلى والمباني وغير ذلك ؛ تلك المباركة التى خربت بيوتا كثيرة عامرة بسبب المغالاة فى الأفراح والحفلات واقتناء أداة الزينة التى لا يقدر مقتنيها عليها ؛ وقد كانت هذه المباركة وتلك المغالاة سببا فى خروج الثروة الى أيدي الشياطين ، وكانت سببا فى ضعف حال المسلمين .

هذا هو الهدى ؛ لكن بعض العلماء رووا أحاديث فى الزهد ، منها الموضوع ، ومنها الضعيف . ولا شبهة فى أن بعض الخلفاء وبعض الصحابة وبعض الأئمة زهدوا وتشفعوا ، وأعرضوا عن طيبات الدنيا وعن زينتها ؛ لكن لهذا أسبابا ، منها ضيق ذات اليد قبل أن يفتح الله عليهم أبواب الرزق ؛ ومنها مقاومة الفساد بعد أن فتح الله أبواب الدنيا واستولوا على ملك كسرى وملك قيصر ، ووجدوا ما لم يكونوا يعرفون من قبل ، واندفع بعضهم فى الاستمتاع دون الوقوف عند الحد ، وعند القصد ، وعند القوام .

وفى الرجوع الى الهدى المحمدى تبصرة ونور ، وضياء وشفاء . عن ابن عباس : لقد رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ما يكون من الحلل . وقد لبس صلى الله عليه وسلم الأزار والرداء ، ولبس الجبة والفروج ، وهما ثوبان يشبهان القباء والفرحية ، ولبس الخنصر المصنعة والساذجة ، ولبس فروة مكفوفة بالسندس ، وكان له جبة طيلسانية خمروانية لينة ، وكان له بردان أخضران وكساء أحمر ، وكان يحب السحرة وهى ضرب من البرود ؛ لكن غالب ثيابه وثياب أمهاته نسج القطن والصوف والكتان .

فصلته صلى الله عليه وسلم فى اللباس أن يلبس ما ييسر على أن لا يكون نوعه محرما . وكان يحب فى الطعام الحلى ؛ وقد أكل الضأن والدجاج والجوزور ولحم الحُبَارَى وطعام البحر ، وأكل الشواء والربط والتمر ، وشرب اللبن خالصا ومشوبا ، وشرب نقيع التمر ، وأكل القديد

والدُّبَاءُ ، والقر بالزبد ، وكان لا يشرب إلا الطيف العذب ، ويحب البارد الخلو ، وكان يجلب إليه الماء العذب من مسافة يوم أو يومين .

لم يكن صلى الله عليه وسلم في الطعام واللباس رد موجودا ، أو يشكف مفقودا ؛ وما قرب إليه شيء من الطيبات إلا أكله ، إلا أن تعافه نفسه فيتركه من غير تحريم ؛ وما طاب طعاما قط ، إن اشتهاه أكله ، وإلا تركه .

هذا هدى القرآن والهدى الحمدي في تناول الطيبات ؛ فن تركها زهدا وتدينا وعبادة فلا حق له ؛ ومن أسرف في الزينة والهذات فلا حق له ؛ ومن بخل على نفسه وعلى غيره وعشيرته فلا حق له ؛ ومن اتبع القوام فهو من عباد الرحمن الذين وصفهم الله سبحانه بأنهم إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان أمرهم بين ذلك قواما .

ومالك رضى الله عنه إمام في الدين ، وإمام في التقى ، لبس الدقاق ، وأكل الرقاق ، وجلس على الوطى ، واتخذ حاجبا . وماله يحيى بن زيد النوفلى ، فقال له مالك : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » . غير أن مالكواضع فقال إن ترك ذلك خير من الدخول فيه . وربما كان الترك خيرا حتى لا يزيد الناس على مالك فيسرفوا ، وهو قدوة ، فيكون عمله سببا في إسراف غيره .

« والذين لا يدعون مع الله الها آخر ، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ،

ومن يفعل ذلك يلقَ أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن وحمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما . ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا » :

الأثم . جزاء الأثم ، مثل النكاح والوبال وزنا ومعنى . والخلود : المسكت الدائم ، ويستعمل في المسكت الطويل .

من صفات عباد الرحمن التفكير في خلق السموات والأرض ، واستعمال العقل واحترامه فيما هو خاص بسلطانه ويمكن أن يصل إليه ، فهم يستدلون بالعالم المصنوع على الخالق الصانع وعلى وحدته ووجوبه ، واختصاصه بالعبادة لاختصاصه بجميع صفات الكمال ؛ ولذلك لا يشركون في عبادة الخالق أحدا ، حيا أو ميتا ، في السماء أو في الأرض ، لأن كل ما عده لا يضر ولا ينفع ، ولا يحيى ولا يميت ، ولا يملك عند الله شفاعة إلا بإذنه ، فهو وحده المعبود ، وهو وحده المستعان ، وهو وحده المقصود بالضراعة لتفريج الكرب وكشف سوء .

ومن صفاتهم عدم الاعتداء على النفس التي حرم الله قتلها ، فلا يقتلونها إلا بحق ، من كفر بعد إسلام ، أو زنا بعد إحصان ، أو قتل نفس .



ومن صفاتهم المحافظة على العرض ، فلا يقربون ما حرم الله قرطانه عليهم .  
 إلى الله سبحانه عن عباد الرحمن هذه المنكرات الشنيعة ، بعد أن وصفهم بالصفات السابقة  
 من العبادة ، والخوف من النار ، ومن حق هذه المنكرات أن يسبق تعيها على ذكر الأوصاف  
 السابقة ، فإن الموصوف بالأوصاف السابقة لا يمكن أن يكون متصفا بشيء من هذه  
 المنكرات . وسبب هذا هو التعريض بما كان عليه أعداء المؤمنين من قريش وغيرهم ، كأنه  
 بعد أن وصف عباده بالصفات السابقة قال : والذين هم مطهرون مما أثم عليه .

وعن ابن مسعود : قلت : يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو  
 خلقك . قلت : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك . قلت : ثم أي ؟ قال :  
 أن تزاني حيلة جارك .

بعد أن نفي الله سبحانه عن عباد الرحمن هذه الموبقات ، بنى عقاب مقترفها فقال : إنه  
 يلقي نكالا ، ويضاعف له العذاب يوم القيامة ، ويخلد فيه محتقرا ذليلا ، يجمع بين العذاب  
 المادى والعذاب الروحى .

وإسم الإشارة في قول الله . « ومن يفعل ذلك » حائد على الأمور الثلاثة ، وهى : الشرك ،  
 وقتل النفس ، والزنا ، كما هو الظاهر . ولا خلاف عند العلماء فى مضاعفة العذاب والخلود  
 لهؤلاء إذا فسرت مضاعفة العذاب بالتشديد فيه ؛ أو قيل إن الكفار يعذبون على المعاصى ،  
 ويعذبون على الشرك . وأما إذا قيل إن الكفار لا يعاقبون على المعاصى فلا بد من إرادة  
 الشدة فى تفسير مضاعفة العذاب . ولا شبهة فى أن العذاب على الكفر شديد . ويدل على أن  
 اسم الإشارة مرجعه الأمور الثلاثة ما ذكر فى الاستثناء من قوله سبحانه : « إلا من تاب  
 وآمن وحمل عملا صالحا » فإن نقيض ذلك هو الشرك وغيره من المعاصى ، وهى هنا قتل  
 النفس والزنا .

بين الله سبحانه جزاء مرتكب هذه الموبقات ، ثم بين أن الذى يقلع عنها ويرجع إلى الله  
 سبحانه ، فيؤمن به ، ويعبده لا يشرك معه غيره ، ويعمل الصالحات ، يبدل الله سيئاته  
 حسنات ، والله غفور رحيم

فما معنى هذا التبديل ؟ وهل هو فى الدنيا أو فى الآخرة ؟

قال قوم : لتبديل فى الدنيا ، ومعناه أنهم يوفقون إلى محاسن الأعمال ، يؤمنون  
 ولا يشركون ، ويجاهدون فى سبيله فيقتلون أعداءه ولا يقتلون أوليائه ، ويعفون  
 ولا يفحرون . فالتبديل تيسير للأعمال الصالحة ، وتوفيق إليها .

وقال بعضهم : التبديل فى الآخرة . وأحسن ما قيل فيه : أنه يضع بدل عقاب السيئة ثواب  
 حسنة ، فهو تبديل الجزاء لا تبديل الأعمال .

والاستثناء في قوله : « إلا من تاب » مع قوله : « فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » ينفي العذاب كما ينفي مضاعفة العذاب بعد التوبة .

ومعنى قول الله سبحانه : « ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب الى الله متابا » أن من يترك المعاصي ويندم على فعلها ويدخل في العمل الصالح ، فإنه بذلك يعد تائبا الى الله متابا مرضيا عنده مكفرا لخطايا ومحصلا للثواب . وقد قيل : الله أفرح بتوبة العبد من المقل الواجد ، والظالم الوارد ، والعقيم الوالد .

وقد قيل : إنها نزلت لبيان أن من يتوب بعد زوطها له حكم من تاب قبل ذلك ؛ فإن المشركين الذين كانت آية « والذين لا يدهون مع الله إلها آخر » تعريضا بهم ، ظنوا أنها خاصة بمن آمن قبل زوطها ، فنزلت هذه الآية لبيان أن حال النائيين سواء .

« والذين لا يشهدون الزور ، وإذا صرخوا بالآغو صرخوا كراما » :

الزور : الباطل . وأصله تحسين الشيء ، وصفه بخلاف صفته حتى يخيل الى من رآه أنه خلاف ما هو به . ومن مادة صاحب الباطل أن يزينه ، فهو يزين الشرك ، وينطق الكذب ، ويمسح المعاصي . وحضور الزور شهوده .

والآغو : كل ما ينبغي أن يطرح وينفى . وأصل كلمة الكريم مأخوذة من قولهم : ناقة كريمة ، إذا كانت تعرض عن الحلب تكريما ، كأنها لا تبالي بما يحلب منها لغزارة لبنها ؛ واستعير ذلك لصفح عن الذنوب .

من صفات عباد الرحمن أن لا يحضروا باطلا ، ولا يساعدوا عليه ، وأن ينكروه ، فهم لا يحضرون مجالس الشرك والمعصيات بأنواعه ، ينزهون أنفسهم عن الشر وأهله ، فإن مشاهدة الباطل إطاعة عليه وشركة فيه . ومن كلام عيسى : « إياكم ومجالسة الخطائين » . وشهادة الزور أمام القاضي من الزور المنهى عنه . ولا يجوز أن ينضم الزور بالشرك أو بالكذب أو بالخوض في القرآن والأنبياء ، بل يجب أن يكون عاما لكل باطل .

لا يحضرون الباطل ، وإذا صرخوا به صرخوا كراما ، معرضين عنه ، منكرين إياه ؛ وإذا قدروا على تغييرهغيروه . وقد يكون من الكرام بالجألة بالسيف ، كما إذا صر على قاطع طريق واستفاد به أحد ، فر الكرام إذ ذاك يكون بالنعدة ولو أدى ذلك الى استعمال السيف .

« والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يحزروا عليها صا وعميانا » :

حزروا : سقط . وإذا قلت : خر أصم ، فعماء الحرف سقط أصمى أصم . ولكن العرب لا تريد ذلك من مثل هذا ، بل تريد : أقبل عليها أصمى أصم . وإذا قلت : لم يحزروا على الآيات

أسمى أصم ، كان معناه لم يقبل عليها كالأصم لا يسمي ، وكالأصم لا يبصر ما فيها ، مع إظهار الحرص عليها .

ونظير هذا التركيب من كلام العرب قولهم : سببت فلانا فقام يبكي ؛ يريدون فظلكي به ، ولا قيام هناك ، ولعله أن يكون مكى قاعدا ؛ ونهيت فلانا عن كذا فقمع يشتنى ، معناه لجمل يشتنى ، وقد لا يكون هناك قعود . جرى هذا على المشتنى وفهموه .

ومعنى الآية : أنهم إذا ذكروا بآيات الله أكبروا عليها وأقبلوا ، سامعين بأذان واعية ، مبصرين بعيون واعية ، فليس حالهم كحال من إذا ذكر بالآيات رأته كالأصم لا يسمي ، وكالأصم لا يبصر ؛ ومن يسمع بأذان واعية وعيون واعية يتدبر الآيات ، ويتذكر ويتعظ ، ويتبصر ، ويقف عند الحدود ، ويرعى حق الواحد المعبود .

« والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماما » :

قرة العين : هي السرور والفرح ، مصدر من قرى عيناك قرة ، أى فرحت وسررت ، لأن الفرح يجعل العين قارة ، أو لأن دمة العين من السرور باردة . والإمام . الحجة المقتدى به . ووحدت القرة لأنها مصدر ، ولا تكاد العرب تجمع المصادر . ووحد الإمام لأنه ذهب به مذهب الاسم لا الصفة ؛ وإذا ذهب به هذا المذهب وُحِد ، ويكون معناه : حجة . تقول : هم إمام ، أى حجة ، كما تقول : هم بيعة . وقال بعضهم : إن الإمام جمع أم ، كصيام في جمع صائم . 'بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لامة جاهلة ، على أشد حالة بعث عليها نبي في فترة ، ما يرون ديننا أفضل من عبادة الأوثان ، فجاء بفرقان فرق بين الحق والباطل ، وفرق بين الوالد وولده ، حتى كان الرجل يرى ولده ووالده وأخاه كافرا ، وقد فتح الله قلبه للإسلام ، وهو يعلم أنه إن مات قريب له من هؤلاء دخل النار ، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار ؛ لذلك كان المسلمون يطلبون من الله أن يهب لهم من ذرياتهم وزوجاتهم من يطيع الله ويعبده لنقر عينهم بهذا . ومن الطبيعي في النفوس أن يحب الشخص قدرته وأهله ما يحب لنفسه ، وأن يتمنى أن تسكون البيئة التي هو فيها من ذريته وأزواجه بيئة سالحة . والبيئة الفاسدة تجعل العيش صعبا ، وتذهب بالفكر وتقسمه ، فلا يستقيم عيش ، ولا تتجبه النفس أنجباها كاملا إلى الخيرات والعبادات والنفع العام .

من صفات عباد الرحمن أن يطلبوا ذرية سالحة مؤمنة ، وأزواجا مؤمنات . ومن صفاتهم أن يطلبوا من الله درجات عاليات في التقوى والطاعة يشار إليها ، ويتقنى بهم فيها .

« أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ، ويلتقون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها حسنت

مستقرا ومقاما :

الغرفة : المُلَيَّية . وكل بناء طال فهو غرفة . وقد ذكرت الغرفة واحدة والمراد الغرفات ، لدلالة الواحد على الجنس ، بدليل قوله سبحانه : « وم في الغرفات آمنون » ، وقوله : « لهم غرف من فوقها غرف » والمراد بها الدرجات العالية في الجنة . والتحية : الدعاء بالتميم . والسلام : الدعاء بالسلامة .

بين الله سبحانه أنه أعد لعباده الموصوفين بالصفات السابقة جميعها جزاء على صالح أعمالهم هو الدرجات العالية في الجنة ، وفيها تتلقا الملائكة بالتحية والسلام ، فيدعون لهم بالتميم والخلود ، ويدعون لهم بالسلامة . هذه الدرجات استحقاقها هؤلاء بصبرهم على الطاعات ، وعلى ترك الشهوات ، وعلى أذى الكفار ومجاهدتهم ، وعلى الفقر والمصائب ، وغير ذلك مما يتعرض للمؤمن من المكروه . وهذا دليل على أن المؤمنين يستحقون الجنة بأعمالهم . وهذا الاستحقاق بوعد الله سبحانه ، وهو صاحب الفصل في وعد عباده بالجنة ، وبهذا الوعد استحققت الجنة .

« قل ما يعبا بكم ربى لولا دعاؤكم ، فقد كذبتهم فسوف يكون لزاما » :

يقال : ما أعبا بفلان ، أى ما أصنع به ، كأنه يستقله ويحتقره ، فوجوده وعدمه سواء وهو بمنزلة قولهم : لا وزن له عندى .

أمر الله سبحانه رسوله أن يقول للناس إنه لا وزن لهم عنده لولا العبادة ، فلولاها ما اكترت بهم ؛ ولا يوجد معنى آخر ينظر إليه الله سبحانه في عباده سوى العبادة ، لأنه قال : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » . فلولا الإيمان والعبادة والتوجه إليه في الشدائد ، وشكره على الإحسان ، لما نظر إليهم نظرة اعتداد ، وهو في غنى عن العبادة لا شبهة ؛ وما طالبهم بها إلا لمصلحتهم ومصلحة الخلق ونظام العالم .

ثم وجه إليهم الخطاب فقال : « فقد كذبتهم فسوف يكون لزاما » : يعنى فقد خالفتهم بالتكذيب حكى ، وسوف يلزمكم أثر ذلك التكذيب ، فتكيبون في النار . ونظير ذلك أن يقول ملك لمن استعصى عليه : من عادى أن أحسن إلى من يطيعنى ويتبع أمرى ، فقد عصيت فسوف ترى ما أحله بك بسبب العصيان .

والخطاب موجه إلى الناس عامة ، ومنهم مؤمنون طابون ، ومنهم مكذبون طاصون ، فخطبوا بما وجد فيهم من العبادة بقوله : « قل ما يعبا بكم ربى لولا دعاؤكم » ، وبما وجد فيهم من التكذيب بقوله : « فقد كذبتهم فسوف يكون لزاما » .

والآن نلخص أوصاف عباد الرحمن : فهم هينون لينون لا يمشون في الأرض فسادا ، وم صابرون على الأذى لا يجهلون على من يجهل عليهم ؛ وم قاعمون الليل في عبادة الله ،

قانتون وجلون ، يطلبون النجاة من العذاب ؛ وهم على الهدى والتقصد في أموالهم لا يسرفون ولا يفترون ، ولا يعبدون غير الله سبحانه ، ولا يقتلون النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق ، ولا يفجرون ويمتدون على من حرم الله ، ولا يحضرون مجالس الباطل ، وإذا مروا بها مروا كراما ، وإذا ذكروا بآيات ربهم أقبلوا عليها مستمعين واعمين ؛ وهم لا يحبون وسط السوء وبيئة المعصية ؛ فهم يطلبون ذرية صالحة ، وأزواجا صالحات ؛ وهم راغبون في الطاعة يطلبون أن يكونوا أئمة فيها يشار إليهم ويقندى بهم .

هؤلاء هم عباد الرحمن الذين أعد الله لهم غرفا في الجنة ، ودرجات عالية ، تحييهم الملائكة وتسلم عليهم ، ووعدهم الخلود في تلك الغرف ، وهو نعم المستقر ونعم المقام .

وقد اشتملت هذه الأوصاف على ما يسى الضروريات ، وهي حفظ النفس والعرض والمال ، وحفظ العقل من التبدى في الرجز والإشراك والمعتقدات الفاسدة ؛ وعلى حال العبد مع الله ، وحله مع الناس .

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من عباد الرحمن في غرفات الجنات ، نلقى من الملائكة تحية وسلاما .

# السيرة المحمدية

## تحت ضوء العلم والفلسفة

المعركة القاصلة بين المسلمين والمشركين — وقعة الأحزاب

إن الحالة القبلية التي كان عليها العرب لم تكن لتسمح لهم أن يجتمعوا على أمر يقومون به مجتمعين ، وإن كان له أكبر تعلق بهم كافة . ولم يكونوا من الناحية الدينية أيضا على شيء مما يدفع غيرهم إلى التكافل للذود عن عقائدهم الموروثة ، فلم يكتروا لظهور دين جديد يعيب عليهم وثنياتهم ، ويحقر آلهتهم ، ويتوعددهم بالهلاك وسوء المقلب . هذه الحالة تكشف عن مبلغ التمسك الذي كانوا عليه ، وعن لحود العاطفة الدينية فيهم . فإذا كانت قريش قد تحركت لمساخنة المسلمين في دار هجرتهم مرتين قبل هذه ، فإن ذلك منها كان يرجع إلى عوامل اقتصادية ، لإزالة العقبة التي أقامها المسلمون في طريقهم إلى الشام . ولولا ذلك لما حدث أحد في قريش نفسه لغزو المسلمين في يثرب .

ولسكن اليهود الذين نزلوا بين أظهرهم مهاجرين منذ أجيال ، وتعلموا لغتهم ، ونسبوا بمنزل أصحائهم ، كانوا على غرار إخوانهم في جميع بقاع الأرض ، يعرفون الوحدة الاجتماعية ، والجامعة الدينية ، ويدركون ما ينتق على انتشار دين مبين المقاصد والغاية في البلاد العربية ، من الوحدة الاجتماعية والسياسية ، وهم مع كفرهم بهذا الدين كانوا يرون فيه خطرا على وجودهم هنالك ، وكانوا يظنون أن المسيحيين إذا كانوا على ما أمروا به من الرحمة والعطف ، يباعدون في اضطهادهم ، فلا يعقل أن يجيء أهل دين يكونون أرق قلبا منهم ؛ لذلك هالهم أن يستتب الأمر للإسلام في دار هجرته الجديدة ، فلا يلبث أن تصبح له دولة وصولة ، فيجدوا أنفسهم مضطرين للهجرة ، وإلى أين هذه المرة ، وليس في المأمور من يرحب بقادم عليهم من أهل مكة غير ملتهم ؟ حملهم هذا كله أن يقتدب جماعة من علييتهم ، منهم سلام بن مشكم وابن أبي الحقيق وحيي بن أخطب ، خرجوا من خيبر وقدموا على قريش في السنة الخامسة من الهجرة ، وأخذوا يحسنون لهم أن يؤولوا العرب على حرب عدا وجماعته ، حتى يستأصلوهم أو يفرقوا وحدتهم ، ويبطلوا دعوتهم ، خشية أن تصبح لهم دولة فلا يكون لهم ولا لغيرهم محيص عن الخضوع له ، والخلول في دينه ، وهو ما قد لا يرضاه منهم . وما زال هذا الوفد يحسنون لقريش هذا الأمر

ويسولونه لهم حتى زعموا أن ما عليه المشركون من الدين خير من الاسلام الذي يدعو إليه محمد . وكبير من أمة موحدة أن تدهن أمة وثنية الى هذا الحد الشائن ؛ وقد سجل الكتاب الكريم هذا الخزي عليهم بقوله تعالى : « ألم تر الى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبّيت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا » . فسر المشركون من هذه الشهادة وقبلوا دعوتهم ، لا لأنهم يأنهون بالدين ، ولكن ليتخلصوا من عدو منع عليهم القلب في البلاد ، وتلمس الرزق منها . ثم جاء هذا الوفد بنى غطفان وكلموم في غزو المسلمين ، وما كان لهمهم هم أيضا أمر الدين ، ولكنهم رشوم بمحصول تمر خبير سة ، فقبلوا دعوتهم .

فخرجت قريش وغطفان ومعهما حلفاؤهما ، فكانت عدة الأولين أربعة آلاف معهم ثلاثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير ، ولاقتهم بنو سليم وهدم سبعمائة ، تحت قيادة سفيان بن عبد شمس ، وتبعهم بنو أسد تحت قيادة طلحة بن خويلد . وخرجت غطفان تحت قيادة هبينة بن حصن ، وبنو مرة تحت إمرة الحارث بن عوف ، وبنو أشجع تحت زمامة مسعر بن ربيعة ، وخرج من يتصل بهم من القبائل حتى بلغ عديم عشرة آلاف ، وقبل هؤلاء المتحالفون أن يكونوا جميعا تحت قيادة أبي سفيان بن حرب سيد قريش وقائدها المحك .

لما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبر خروج هذا الجيش ، نذب أصحابه للجهاد ، فكان عديم ثلاثة آلاف ومعهم ست وثلاثون فرسا .

وبينما ينظرون قدوم المشركين أشار سلمان الفارسي رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم ، أن يتق المعبرين عليه بخندق على حافة قومه . فقبل النبي هذه المفورة وأمر بعمله ، وسام بنفسه في حفرة ، ورفع التراب على طاقه . وامتنع أكثر المنافقين عن العمل . وكان سلمان يعمل عمل بضعة أشخاص ، مدفوعا بشدة إيمانه . فتنافس فيه الصحابة ، فقال الأنصار : سلمان منا ، وقال المهاجرون : بل هو منا . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « سلمان منا آل البيت » .

ولما أقبلت القبائل المتحالفة ذهب حيي بن أخطب اليهودي الى سعد بن أسد القرظي سيد بني قريظة من اليهود المخالفين للمسلمين ، وما زال به حتى أغراه على نقض عهده والانضمام الى القبائل المتحالفة ، ولكنه ما عثم أن يرجع مما قاله ولم ينضم الى المعبرين .

وخرج المسلمون من المدينة في ثلاثة آلاف تحت قيادة النبي صلى الله عليه وسلم ، جعلوا ظهورهم الى جبل سلع وصكروا إزاء المشركين وبينهم الخندق . وعظم البلاء على المسلمين ، وجاهر المنافقون بما تكنه صدورهم ، وقد حكى الله ذلك عنهم فقال : « وإذا يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غورا » ، وقالوا : « يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجموا » وقالوا : « إن بيوتنا عورة ( أي غير حصينة ) » ، واستأذنوا في الرجوع

ليحموها . وقال معتب بن قشير ، وكان منهم : كان يجد يرى أن ما كل من كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الفأط .

عند ذلك رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يحاول فعم جماعتهم بما يؤثر على أنفسهم من منافع الدنيا ، فبعث إلى عيينة بن حصن الفزاري قائد بني خطفان ، وإلى الحرث بن عوف المري قائد بني مرة ، أن يرجعا عن قتاله ولهما ثلث ثمار المدينة . ولكنه أراد قبل أن يبت في الأمر أن يستشير زعيميهما الكبيرين : سعد بن معاذ وسعد بن عباد ، فطلبهما ، ولما حضرا استشارهما في ذلك . فقالا يا رسول الله هذا أمر تحبه فنعنمه ، أم شيء أمرك الله به ، أم شيء تصنعه لنا ؟ فإن كان أمرا من السماء فامض له ، وإن كان أمرا لم تؤمر به ولك فيه هوى ، فسمما وطاعة ، وإن كان هو الرأي ، فالزم عندنا إلا السيف . فقال رسول الله : لو أمرني الله ما شاورتكما ، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر شوكتهم إلى أمرا ، وأبطل ما عزموا عليه .

لما قدم جيش القبائل المتحالفة ، نزلت فريش بمجتمع السيول بين مكانين حيال المدينة يسميان بالجرف والغابة ، هم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة ، ونزلت غطفان ومن تبعها من أهل نجد إلى جنب جبل أحد .

أما جنود المسلمين فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع ، كما قدمنا ، واخذوا بينهم وبين القوم . ولما تصاف الفريقان للقتال ، أقبل نوفل بن عبد الله بن المغيرة على فرس له ينظر من أي ناحية يقتحم الخندق ، فهوى فيه واندقت عنقه ، فعمق ذلك على المشركين وطلبوا إلى رسول الله أن يسلمهم جثته ليدفنوه ويدفعون إليه عشرة آلاف درهم ، فسلمه إليهم ليدفنوه ولم يقبل الهدية . وقف المشركون دون الخندق حائرين لا يدرون ماذا يعملون لافتحامه ، وكان كبار قادتهم يفتشون عليه ، فكان أبو سفيان يندو إليه يوما ، وخالد بن الوليد يوما ، وعمر بن العاص يوما ، ولم يكونوا قد أسلموا بعد ، ويندو غيرهم كذلك ، يجيئون خيلهم يفترون مرة ويجمعون أخرى ، يناوشون المسلمين ويناضلونهم بالنبل .

وبينا الجيشان على تلك الحال ، والمسلمون في قتلهم مستسلمون لقبول ما قدر عليهم ، مع ترابطهم ترابطا لا تفصم له هروء ، إذ هبت ريح صفراء عصفت بالمعسكرين معا ، واشتد البرد والظلام ، حتى اضطر أكثر المسلمين إلى اللجأ إلى دورهم خشية الهلاك ، ولم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم في ميدان القتال غير ثلاثمائة ، ولم يقتصر أمر هذه الريح على ما أثارته من الرمال ، وما أحدثته من برد قارس ، ولكنها ما لبثت أن اشتد هبوبها حتى قلمت الأوتاد ، وأطفت النيران ، وألقت الحياض وكفأت القدور ، وسفت التراب ، وأثارت الحصباء ، فرأى المشركون أن المقام على هذه الحالة متعذر ، وخاصة بعد أن أقاموا إزاء الخندق أسبوعين ، وقيل أربعة



وعشرين يوما ، وقبل شهرا ، لم يجدوا وسيلة لفتحهم ، فقرروا العدول عن هذه الغارة ، وأول من أعلن ذلك قائم أبو سفيان إذ قال :

« يا مشر قريش والله إنكم لستم بدار مقام ، وقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ( وكانت امتنعت عن الانضمام إليهم ) ، ولقينا من هذه الریح ما ترون ، فارتحلوا فإني مرتحل » . وأخذ يزمام بميره بقوده ويقول قناس : ارحلوا ارحلوا ! فجعلوا يرحلون حتى لم يبق منهم أحد ، ونجى الله المؤمنين من غائلة المشركين ، وكانت هذه الغارة خاتمة محاولاتهم الشريرة التي رموا بها إلى إطفاء نور الله فإني الله إلا أن يتم نوره .

وقد ذكر الله هذه الغارة في سورة الأحزاب من كتابه الكريم ، وذكر فيها من أحوال المنافقين ودسائسهم ما فيه معتبر . قال الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود ، فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأنصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا . هنالك اتلى المؤمنون وزلزلوا زلاლა شديدا . وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا حورة ، وما هي بعورة ، إن يريدون إلا فرارا . ولو دخلت عليهم من أفتارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار ، وكان عهد الله مستولا . قل إن ينصركم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ، وإذن لا تمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذي يمسككم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا . قد يعلم الله المعوقين منكم والقاتلين لأخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . أشحذ عليكم فإذا جاء الخوف رأيتم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت ، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالنسنة حداد ، أشحذ على الخير ، أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم ، وكان ذلك على الله يسيرا . يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ، وإن يأت الأحزاب يدوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون من أنبيائكم ، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا . لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا . ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما . ( أي أنهم لما رأوا الأحزاب مقبلين يتوقدون حماسة ، قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله من نزول الشدائد امتحانا لإيمان عباد ، وقد صدق الله ورسوله في أن العاقبة للصابرين ، وما زادهم هول ما رأوا إلا إيمانا وتسليما ) . من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فنهى من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا . ليجزي الله

الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء ، أو يتوب عليهم ، إن الله كان غفورا رحيما .  
ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا ،  
رأينا في هذه الغارة الفاشلة :

الذى تبيناه من النظر في عوامل هذه الغارة وأدوارها عدة أمور :

( أولا ) أن قريشاً وسائر العرب كانوا بسبب ما هم عليه من القصور الاجتماعي والديني قليلي الاكتراث لما يحدث بعيداً عنهم من التطورات لطائفة أخرى ، حتى ما كان منه عائدا بالضرر على معاشهم . وهذا الضعف في الشعور نتج من حالة التفكك التي كانوا عليها ، واجتمع كالنرد إن لم يتم تآلقه ، وبكل تشككه ، لا تظهر فيه خصائص الاجتماع ولا حوافظه . ولو لا أن رجالا من اليهود انتدبوا لاهاجة قريش وبعض القبائل المتحالفة لهم على الغارة على المسلمين ، لما فعلوا . ولما كانوا قد دفعوا إليها دفعا باغراء غيرهم ، فإن ما حدث من ثورة الريح في تلك المنطقة كان كافيا في إرجاعهم عن قصدهم . نعم إن العواصف التي ثارت في سنة ( ١٥٨٨ ) على أسطول فيليب الثاني ملك أسبانيا ، أمام شواطئ إنجلترا ، كفت هذه المملكة شره ، وكان أقوى أسطول في العالم ، وقد دعى (أرمادا) ومعناها الذي لا يقهر ، ولكن كان لحبيته سبب مادي وهو أن تلك العواصف حطمت أكثره على صخور الجبل البريطانية فلم يعد يصلح لعمل ، فعاد ما سلم منه على أسوأ حال . ولكن الريح الباردة التي ثارت على الجيوش المتحالفة لم تحدث من الخسائر المادية ما يقتضى أن يرجعها أدراجها ، وقد دل الكتاب الكريم على ذلك بقوله تعالى :  
« وجنودا لم تروها » وهذه الجيود هي العوامل الروحية التي نفثت الرعب في قلوبهم ، وسولت لهم النكوص على أعقابهم ، فلو كانت تلك الريح تسكن وحدها في أخذهم لما عززها الله بهذه العوامل .

والذى يدل على أن العرب كانوا في قصور بعيد المدى من الناحيتين الاجتماعية والدينية ، أن بنى غطفان قبلوا أن يأخذوا ثلث عمر المدينة تمنا لحياة حلفائهم ، مستهينين بالغرض الكبير الذى دعا الى تألقهم ، وليس هذا بمجيب في حياة القبائل .

( ثانيا ) أن إشار الانصار للدفاع عن حوزتهم بالسيف ، حين استشارهم رسول الله في بث روح التضاد بين المشركين ، بالتنازل لمعضهم عن ثلث عمر المدينة ، يكشف عن مبلغ استخفافهم بقوة أعدائهم ، واستهانتهم بخطر جموعهم التي حشدوها لقتالهم ، وهذا لا يكون إلا لتسرع نفوسهم باليقين في التغلب عليهم ، وثقتهم بسعة العقل الذى يتولى قيادتهم .

( ثالثا ) أن عدم تحاذلهم حيال هذه المجموع الأخيرة التي خفت لقتالهم ، وقلة اكترائهم لإجماع قبائل العرب واليهود على استنكار ما هم عليه ، يبين عن إيمانهم الراسخ بأن ما هم عليه

هو الحق ، وأن ما عليه خصومهم هو الباطل ؛ وهو أمر يلفت نظر البسيكولوجيين ويحيرهم . فإن الخس السنين التي قضوها في الإسلام ، وهم من شعب معروف بضعف العاطفة الدينية ، وبعدم التعصب لأي مذهب من المذاهب الفلسفية ، يعتبر من الانقلابات الأدبية التي لم يعهد ما يشهها في تاريخ النفس الإنسانية . فإن هذه المدة القصيرة لا تكفي لأن تحمل نفوس جماعة قليلة العدد للإستقامة في الدفاع عن عقيدة ، والاستشهاد في سبيلها ؛ لا سيما وهذه الغارة ظهرت فيها الحمية الجاهلية كاشرة عن أسيانها ، معتزلة أن تخوض غمرة حرب ماحقة لراحة فيها ولا هوادة . فالوقوف حيال هذا التوثب الجنوني لا يفسر بالشجاعة البالغة أقصى حدودها بحسب ، ولكن يفسر بنزعة من التضحية لا توجد إلا في أدوار الانتقالات الذريمة في تاريخ الاجتماع البشري . فشكل متأمل في موقف هاتين الطائفتين وفي الروحين اللتين تقودهما إلى التناحر ، كان يحكم لأول وهلة أن هذه الطائفة القليلة تصحى بنفسها في سبيل عقيدتها ، فإن قدر لها النصر يورك لها في وجودها ، وثبتت عقيدتها ، وآلت إليها الدولة في نهاية الأمر .

( رابعها ) أن ثبات جماعة المسلمين إزاء هذه الكارثة الفادحة ، وهم من بيئات مختلفة ، ومتأثرون بأحقاد قديمة لا تزال صورها حية في نفوسهم ، يدل على مبلغ قوة الرباط الاجتماعي الذي كان يحكمهم . فأهل يثرب كانوا من الأوس والمخزرج وهما قبيلتان كانتا في حالة تناحر منذ عشرات من السنين ، وفي حالة نزاع مع القبائل اليهودية التي كانت قريبة منهم ، ومعهم بضع عشرات من أهل مكة آمنوا بالذي صلى الله عليه وسلم ، وهاجروا معه فرارا بدينهم وحياتهم ، ولم يتوقع أهل يثرب ولا أحد ممن كانوا معهم أن يصبحوا في يوم من الأيام هدفا لمجموعة من القبائل يرى ببداهة العقل أنهم لا يقوون عليها ، أفلا يكون ثباتهم على ترابطهم حيال هذه البازلة دالا دلالة لا تقبل النقض على قوة الرابطة التي كانت تجمع بينهم ، قوة لا توجد وسيلة في الأرض تستطيع أن تحلها أو أن تضعف من استحكامها ؛ وأية وسيلة أفعل من هذه الوسيلة وهي أن تتألب أقوى القبائل العربية عليها ، يقودها قواد مشهورون بسعة الحيل في إدارة المعارك ، وفرسان معروفون بشدة البأس في مجالدة الأبطال ، والصبر على الأهوال ؟

( خامسها ) أن اليهود الذين تخيروا أن يجعلوا البلاد العربية دار هجرتهم ، كان لهم يد قوية في حمل المشركين على التألب على المسلمين حرصا على طمأنينتهم ، وسلامة وجودهم ، ولو كانوا أبعد نظرا لمساعدوا المسلمين على التغلب على الجاهليين ، لأن الإسلام بما جاء به من سعة الصدر ، وحماية الضعفاء ، والوفاء بالعهد ، كان أجدى عليهم من سلطان أهل الشرك . وقد تبين ذلك فيما طاملهم به من العدل والكرم بعد أن دالت له الدولة ، فبذل أن يحفظ عليهم ما قاموا به من التأليب عليه في عهد تكوُّنه ، وصلى بالإحسان إليهم والبر بهم وبسائر أهل الكتب السماوية ، فكان وجوده ورحمة لهم .

وإننا ننبه الى هذا هنا نبروا لما قام به النبي صلى الله عليه وسلم بعد هذه الوقعة من إخلاء من بق منهم عن حصونهم ، دفعا للقوائل التي تنطرق الى جماعة المسلمين من ناحيتهم ، وهذا حق مشروع لكل جماعة تود أن تنال نصيبها من الوجود ، ما دامت لا تضر لجماعة سقيمة نفسية ، ولا تصدر فيها فعله عن المصيبة الجاهلية .

(سادسها) لما أشار سلمان الفارسي رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق ، لم يتردد في الأخذ برأيه ، فأمر بحفره وساعده فيه بنفسه ، فغضب أكل الأمان للتعاون الفعلي بين القيادة العليا والجيش ، وهو حمل خطير لم يسبق اليه ، وخطورته تبدو من ناحية أدبية أخرى وهو عدم التورع من الأخذ بما ثبت نفعه ولو تقلا عن المشركين . وهو من ناحية ثالثة يسوغ التجديد بل يحتمه ما دامت حاجة الجماعة تستدعيه . وقد سار أصحاب النبي وجميع من جاءوا بعدهم على هذا السمت ، فنقلوا كلها رأوه من الأمور النافعة في الجماعات التي احتكوا بها ، ولم يدعوا العلوم والفلسفة حتى ما كان منها مهجورا في بطون الكتب الأجنبية ، فكلفوا بها يهودا ونصارى ومجوسا من عرفة القنات قاموا بترجتها وإذاعتها ، فكان ذلك سببا في تحويل المسلمين زمامة العلم والمدنية في الأرض فروناطوية ، وفي الأكار والإعجاب الذي يحيط به المؤرخون المليون تاريخهم الخافل لمعظم الأمور ؟

محمد فريد وجدي

## بلاغة الاعتذار

روى أبو العيناء محمد بن القاسم الهاشمي قال : كان أحمد بن يوسف الكاتب قد تولى صدقات البصرة ( أي جمع زكاة أهلها ) ، لجار فيها وظلم ، وكثر الشاكي له والداعي عليه . ووافى باب أمير المؤمنين زهاء خمسين رجلا من جلة البصريين يشكون منه . فعزله المأمون وجلس لهم مجلسا خاصا ، وأقام أحمد بن يوسف لناظرهم ( وهو المتهم نفسه ) . فكان مما حفظ من كلامه أن قال : يا أمير المؤمنين لو أن أحدا ممن ولي الصدقات سلم من الناس لسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الله عز وجل : « ومنهم من يلزك في الصدقات ، فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » فأعجب المأمون بجوابه وخلي سبيله .

# الشيعة

## الشفاعة عند الله يوم القيامة

عن أنس رضي الله عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يجمع الله الناس يوم القيامة ، فيقولون : لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا ! فيأتون آدم فيقولون : أنت الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، فاشفع لنا عند ربنا ، فيقول : لست ههناكم ، ويذكر خطيئته ، ويقول : اتنوا نوحا أول رسول بعثه الله ، فيأتونه ، فيقول : لست ههناكم ، ويذكر خطيئته ، اتنوا إبراهيم الذي اتبعه الله خليليا ، فيأتونه ، فيقول : لست ههناكم ، ويذكر خطيئته ، اتنوا موسى الذي كلمه الله ، فيأتونه ، فيقول : لست ههناكم ، فيذكر خطيئته ، اتنوا عيسى ، فيأتونه ، فيقول : لست ههناكم ، اتنوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فيأتوني ، فاستأذن على ربي ، فاذا رأيته وقعت له ساجدا ، فيدعني ما شاء الله ، ثم يقال لي ارفع رأسك ، وسل تعطه ، وقل يسمع ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأحمد ربي بنحميد يطمئني ، ثم أشفع ، فيحذلي حذاء ، ثم أخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ، ثم أعصود فأقع ساجدا مثله في الثالثة أو الرابعة حتى ما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن ، وكان قتادة يقول عند هذا : « أي وجب عليه الخلود » .  
رواه البخاري في كتاب الرقاق .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معنى الحديث إجمالا . (٢) بيان معنى الشفاعة عند الله يوم القيامة ومن يستحق أن يشفع . (٣) بيان معنى خطيئة الأنبياء التي وردت في الحديث .

(١) روى البخاري أيضا هذا الحديث في تفسير سورة البقرة ، فقال : « يجتمع المؤمنون يوم القيامة ، فالمراد بالناس هنا المؤمنون الذين كانوا يصدقون بالرسول ويتبعونهم في هذه الحياة الدنيا . أما الكافرون الذين أشركوا مع الله غيره فقد ورد في الصحيح ما معناه أنه ينادى مناد لتسمع كل أمة معبودها ، ويؤتى لكل أمة عما كانت تعبده فيكون إماما لها يقودها إلى النار . أما المؤمنون الذين صدقوا بالله ورسوله فهم الذين يذهبون إلى الرسل ليشعروا لهم عند ربهم في فصل القضاء . فقد ثبت أن الناس يصيبهم ذهول عظيم يوم القيامة

كما قال تعالى : « إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سُكَّاري وما هم بسكاري » . وورد في الصحيح ما معناه أن عائشة رضي الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل يحشر الناس عرايا ؟ فقال لها : نعم ، فقالت كيف يختلط النساء بالرجال وهم على هذه الحالة ؟ فقال لها : الأمر أخطر مما تظنين ، لأن الناس في ذلك الوقت يكونون في شغل عظيم وهم كبير ، كل واحد مشغول بنفسه ، فلا يعرف الوالد ولده ، ولا الولد أباه من شدة القهول والهول . نعم إن بعض المؤمنين العاملين يكونون بمنجاة من ذلك الهول العظيم ، كما ورد في الصحيح أيضا ، ولكن السواد الأعظم من الناس لا ينجون من ذلك الهول وإن تفاوتت حالتهم شدة وضعفا .

وقوله : « فيأتون آدم فيقولون أنت الذي خلقك الله بيده الخ » . أجمع المسلمون على أن الله تعالى منزّه عن الجارحة ، فليست له يد تشبه يد عباده ، بل هو سبحانه منزّه عن جميع المواد « ليس كمثل شيء » ، وأنه سبحانه خالق لجميع الموجودات ، سواء كانت مادية أو مجردة عن المواد ، وسواء كانت إنسانا أو حيوانا أو مجادا ، وأنه سبحانه هو مصدر لجميع الكائنات باتفاق العقلاء الذين عرفوا معنى الألوهية وما تستلزمه من الكمال . فقولوه في الحديث : « أنت الذي خلقك الله بيده » معناه : أنت أول آثار قدرة الله تعالى من النوع الإنساني ؛ فاليد معناها هنا القدرة الإلهية . وأما من يقول إن الله خلقه بيد لا نعرفها فهو متفق مع الذين يترهبون الله تعالى عن المادة والجارحة ، ولكنه يقف من أمثال هذه الآيات موقف الذي لا يعرف المراد منها تورما عن الخوض فيها لا يكلفنا الله معرفة حقيقته . ولكن مثل هذا الرأي قد لا يلتقي مع صراحة القرآن الكريم ودلالته البليغة على كل معنى يريد التعبير عنه ، وما دامت اللغة العربية تتفق مع التأويل فمن الحسن أن يحمل كلام الله على هذا التأويل . وظاهر أن معنى القدرة يصح التعبير عنه لغة باليد ، لأن آثار القدرة تظهر على اليد ، فعنى يد الله قدرة الله .

وقوله : « لست هناكم » معناه أن هذا المقام ليس لي بل لغيري . فهذه العبارة كناية عن أن منزلته دون المنزلة المطلوبة . ولا يخفى ما في ذلك من نواضع الرسل وخوفهم من ربهم العليم القدير .

وقوله : « ائتوا أولا رسول الخ » : في ذلك إشكال وهو أن قبل نوح رسل ، وهم آدم على الصحيح ، وشيث ، وإدريس . وقد أجاب بعضهم بأنهم كانوا أنبياء لا رسلا ، ولكن هذا الجواب ليس بشيء ، لأن الله تعالى قد خاطب آدم فقال له : « اسكن أنت وزوجك الجنة » الآية بطريق الوحي الصريح ، وفي هذه الحالة يجب على آدم أن يبلغ رسالة ربه إلى زوجته ، وليس من المعقول أن يتناسل آدم ذرية بدون أن تعرف ربه ، فلا يد من أن يرسل إليهم آدم

ليعلمهم كيف يعيشون ، وأما شيت فقد ورد أنه كاتب مرسلا في حديث صححه ابن حبان . وكذلك إدريس ، فإنه ورد أنه هو إلياس .

والذي يظهر لي في الجواب : أن نوحا كان أول رسول ناصل قومه ، ومكث يدعوهم إلى عبادة الله ألف سنة إلا خمسين عاما ، ويحتمل من قومه كل محنة وشدة . أما آدم وشيت وإدريس فإن رسالتهم كانت مقصورة على عدد معين ، ولم يلاقوا شيئا مما لاقاه نوح ، فلذا صح بأن يصبر عنه بأنه أول رسول .

وقوله : « حتى ما يبق في النار إلا من حبسه القرآن » : قد فسر قتادة معناه بقوله : « أي وجب عليه الخلود » ، وظاهر هذا التفسير صريح في أن النبي صلى الله عليه وسلم يشفع في الكبائر ، إلا إذا أريد من الخلود طول المكث كما صرح به القرآن في قوله تعالى : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالد فيها » فالخلود هنا طول المكث ، لأن القتال ليس بكافر على التحقيق ؛ وعلى هذا فتكون الجرائم المتعلقة بمحقوق العباد لا يشفع فيها الرسول . نعم قد يقال في الجواب إن الله سبحانه يرضى أصحاب الحقوق فيساعون بشفاعته النبي صلى الله عليه وسلم .

(٣) أما الشفاعة لمعناها في اللغة السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم ، والشفيع بفتح العاء هو الذي تقبل شفاعته ، والشفيع بكسر الفاء هو الذي يقبل الشفاعة . وقد تطلق الشفاعة لغة على كلام الشفيع لملك في حاجة يسألها لغيره . وتطلق الشفاعة أيضا على الطلب من الغير ، يقال : شفيع إليه في أمر ، طلب إليه أن يفعله ؛ ويقال شفيع لي يشفع شفاعته ؛ وتشفع طلب لي كذا . ولا يخفى أن المعنى الأول للشفاعة وهو السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم فيما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة يصح أن يراد منه الشفاعة عند الله تعالى ، لأنه عبارة عن الدعاء بأن يتجاوز الله سبحانه وتعالى عن بعض ذنوب عباده الذين يستحقون العقوبة . فالشفاعة في قوله تعالى : « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » معناها الدعاء . وقد نقل ذلك صاحب لسان العرب عن المبرد وتعليل .

وقد ذكر في حواشي المواقف أن الشفاعة تطلق في العرف على دعاء الرجل لغيره كما يدل عليه اشتقاقه من الشفع ، فكأن المفخوخ له فرد يجعله الشفيع شفعا يضم نفسه إليه . وهذا المعنى يناسب قول المبرد وتعليل من أن الشفاعة في الآية معناها الدعاء . وعلى كل حال فالغرض إنما هو تزيه الله سبحانه عن أن يقبل التاثر الذي تحدثه الشفاعة عند الناس من تغيير إرادة أو تحويل عن أمر إلى آخر .

هذا وقد أجمع المسلمون على ثبوت أصل الشفاعة المقبولة له عليه الصلاة والسلام ، لا فرق بين المعتزلة وغيرهم في ذلك ، ولكن أهل السنة يقولون إن الشفاعة تكون لأهل الكبائر في إسقاط العقوبة عنهم . أما المعتزلة فإنهم يقولون إن الشفاعة إنما هي لإزالة الثواب

لا لبراء العقاب ، بناء على قولهم إن الكبار لا تمحوها إلا التوبة . فمن مات مصرا على كبيرة يكون جزاؤه الخلود في النار . وقد عرفت مما قدمنا لك غير مرة أن الشريعة الإسلامية تنافي اعتقاد ذلك ، لأن الله سبحانه لا يظلم الناس شيئا ، ولا يضيع الحسنات من أجل سيئة من السيئات ، قال تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » . وقد استدلل المعتزلة على أن الشفاعة لا تنفع أهل الكبار بقوله تعالى : « واتقوا يوما لا تجزي نفس من نفس شيئا ، ولا يقبل منها عدل ، ولا تنفعها شفاعة » فهذه الآية صريحة في أن الشفاعة لا تنفع الجرمين وأهل الكبار يوم القيامة . وقد أجيب عن هذا بأن الآية واردة في قوم معينين وهم اليهود ؛ قال تعالى : « يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ، وأني فضلتكم على العالمين . واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا الخ » . وقد أجيب عن ذلك بأن الضمير في قوله تعالى : « ولا تنفعها شفاعة » راجع إلى النفس الثانية وهي نكرة في سياق النفي فتكون عامة وإن كان سبب نزولها اليهود . وعلى هذا فالشفاعة لا تنفع الجرمين والكافرين مطلقا ، إذ المعتبر في دلائل القرآن إنما هو عموم اللفظ لا السبب الخاص .

والجواب عن هذا أن التخصيص في الآية لا بد منه ، إذ معناها أن الشفاعة لا تنفع هؤلاء اليهود في ذلك اليوم الخصوص ، فإذا قلنا إن الشفاعة تنفع في زيادة الثواب والأجر كما يقول المعتزلة فإن ذلك يتنافى مع عموم الآية أيضا ، لأن زيادة الثواب فيه تقع عظيم ، فلا بد للمعتزلة من أن يخصصوا عدم النفع بهذا الحال الخاص . وأيضا ماذا نصنع في قوله تعالى : « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » ؟ أليس في هذا الاستثناء دلالة صريحة على أن الشفاعة عند الله تكون بإذنه ؟ ثم ماذا نصنع بالأحاديث الصحيحة الصريحة الواردة في أن النبي صلى الله عليه وسلم يشفع فيمن يستحق النار ؟ وماذا نصنع بقوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الذي معنا : « ثم أخرجهم من النار وأدخلهم الجنة بشفاعتي مرارا وتكرارا » ؟ لا شك أن الإقدام على إنكار الشفاعة والحكم بإلغاء هذه الأحاديث الصحيحة جرأة على الله ورسوله لا تليق بأولي العلم .

(٣) أما الكلام على عصمة الرسل فقد بيناه في بعض أعداد المجلة الماضية . والذي تريد أن تقول الآن هو أن المسلمين يؤمنون إيمانا جازما بأن الله سبحانه لا يرسل رسلا إلا إذا كانوا بميدين من كل ما يحفل بمقامهم الكريم ويتنافى مع تبليغ رسالتهم واحترامهم عند الناس . وكل ما ورد في القرآن من أن بعض الأنبياء قد ارتكب ذنبا فانه إما أن يكون خطأ كما هو الحال في قصة موسى وقتله شخصا بلطمة ، فإن موسى لا يقصد قتله طعنا ، وإما أن يكون في نظر فاعله خطيئة وليس كذلك كما قال نوح في بيان خطيئته . إنني قد دهرت على أهل الأرض ، وإنني سألت الله تعالى أن ينقذ ابني . وظاهر أن الأمرين لا خطيئة فيهما ، لأن قومه



قد استحقوا ذلك الاغراق حتما سواء دعا أو لم يدع ، وأنه لا مانع من الطلب من الله تعالى المرة بعد المرة ، فانه تعالى لا يسد بابه عن الداعين مطلقا ؛ ولكن عظم مقام نوح وخسوفه من ربه قد أخجله بسبب هذين الأمرين . وأما آدم فالأمر فيه معروف وهو أن معصيته هذه ترتب عليها إيجاد النوع الانساني وما يكون عليه من عصيان الله والرجوع اليه للتوبة وقبول هذه التوبة . وعلى هذا القياس فالرسل في نظر الشريعة الاسلامية مترهونون عن كل حريجة تخل بمقامهم الكريم . على أنه قد ثبت أن سيدنا محمدا صلوات الله وسلامه عليه هو خير الرسل وأكرمهم عند الله تعالى ، فلهذا كان هو صاحب الشفاعة المعظم .

عبد الرحمن الجزيري

## عاطفة بعاطفة

روى الزبير بن بكار قال : كان المسور بن مخرمة ذا مال كثير فاسرع فيه على إخوانه فذهب . فسأل امرأته ، وكانت موسرة ، فتمته وبخات عليه . فخرج يريد بعض خلفاء بني أمية منتجما (أي طالبا معروفه) .

فلما كان ببعض الطريق نزل ماء يقال له بلاكت . فقال له غلامه : كيف يقال لهذا الماء ؟ قال : يقال له بلاكت . فقال :

بينما نحن من بلاكت بالفا ع سراها والعيس تهوى هوى  
خطرت خطرة على القلب من ذكر الكبر والها فإصنعت مضيا  
قلت لبيك إذ دعاني لك الشوق ، وللهادين كروا الطيبا

فقال المسور لغلامه : هن بدن إن لم تكرها رواجع ! قال غلامه : قد أشرفن على أمير المؤمنين . فقال له المسور : هن بدن إن لم تكرها رواجع ! فرجع ودخل المصلى ليلا فوجد رجال قريش حلقا يتحدثون . فقالوا له : زاد خير . فأجابهم : زاد خير ، ثم انصرف الى داره . فقالت له امرأته : زاد خير . فأنشدها الأبيات التي كانت سبب رجوعه من وسط الطريق . فقالت : كل ما أملاك في سبيل الله إن لم أشاطرك مالى ! فشاطرته ما لها حزاء عاطفته .

قوله : هن بدن ، أى هن من التوق التي تسحر بمكة إن لم ترجعها . وبدن جمع بدنة . وزاد خير : كلمة ترحيب للراجع من سفر .

# دراسة في القرآن الكريم

## القرآن والمفسرون

مسارعتهم الى القول بالنسخ في القرآن

قال الله تعالى : « والذين يُتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاها الى الحول غير إخراج ، فإن حرجن فلا جناح عليكم فيها فعلن في أنفسهن من معروف ، والله عزيز حكيم » .

يقتصر كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية على القول بأنها منسوخة ، فيقولون في بيان المعنى المنسوخ : كان الحكم في ابتداء الاسلام أنه إذا مات الرجل لم يكن لزوجته من ميراثه شيء إلا النفقة والسكنى مدة سنة ، وكانت عزمة عليها في الصبر عن التزوج ، ولكنها كانت مخيرة بين أن تكمل السنة في بيت زوجها أو تخرج منه قبل تمامها ، غير أنها متى خرجت سقطت نفقتها ، ويكون حله ما في الآية من تشريع هو أمرين اثنين : أحدهما وجوب الوصية على الأزواج ، والثاني وجوب الاعتداد حولاً كاملاً . فأما الوصية فينبون نسخها على أن القرآن قد ورث الزوجة فجعل لها في حالة الربع وفي أخرى الثمن ؛ ثم إنه الى هذا قد ورد في السنة أنه لا وصية لوارث ، فمجموع القرآن والسنة قد نسخ وجوب الوصية بالنفقة والسكنى . وأما وجوب الاعتداد حولاً كاملاً فيحملون بسخه بأية « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يترصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ... »

على هذا التأويل يقتصر كثير من المفسرين . وبعضهم يذكر في الآية وجهين آخرين ، يميز أحدهما « لمجاهد » ، ويميز الآخر « لابي مسلم الأصماني »

فأما مجاهد فيرى أن الآية ليست منسوخة ، بل يجعل للمرأة في الاعتداد حالتين : إحداهما أن تختار الإقامة في بيت زوجها حولاً ، وأن يتفق عليها من مال زوجها مدة ذلك الحول ، وفي تلك الحالة تكون عدتها حولاً كاملاً ، وهو ما قرره تلك الآية التي معنا . والحالة الثانية أن تختار الخروج من بيت زوجها قبل الحول وترد الإتيان عليها من ماله ، وفي تلك الحالة تكون عدتها أربعة أشهر وعشراً ، على ما قرره الآية الأخرى .

وأما أبو مسلم فراه في الآية أنه لما كان الحل في الجاهلية أن الأزواج يوصون لأزواجهم بالنفقة والسكنى حولاً كاملاً ، وكان يجب على المرأة أن تمتد مدة ذلك الحول ، فقد نزلت هذه الآية لتبين فقط أنه ليس بواجب أن تقيم كل الحول وأن تمتد به ، بل المدة هي الأشهر الأربعة والثلاث . وعليه فجملة هذا التأويل إنما هو إبطال ما كان عليه الجاهلية لبيان مدة المدة المتوفى عنها زوجها ، فإن ذلك قد تكفلت به الآية الأخرى .

هذا يحصل ما ذكره المفسرون في الآية من تأويل . وإنما قبل أن نبداً بما نراه صحيحاً في هذا لا بد أن نعرض لبيان ما يرد على ما ذكروه من تأويلات في الآية :

أما أولاً : فإننا حتى مع مجازاتهم لما ذكروه في الآية من إعراب ، لا نجد لها من دلالة إلا على وجوب الوصية على الأزواج لأزواجهم ، فإنهم قد جعلوا التقدير في حال ما يكون لفظ الوصية مرفوعاً « فمليهم وصية » ، وجعلوا التقدير في حال النصب فليوصوا وصية ، وليس فيها بعد ذلك ما يفيد وجوب الاعتداد حولاً كاملاً ، لا بطريق العبارة ، ولا بطريق الإشارة ، ولا بأي وجه من وجوه الدلالات ، فلا في جملة من جعلها ولا في مفرد من مفرداتها ، بل ولا في حرف من حروفها يمكن أن ننظر بما يفيد ذلك من قريب أو بعيد . وعلى العموم فسواء نظرنا إلى ما قدرنا أو لم ننظر إليه فليس في لفظ من ألفاظ الآية ما يدل على وجوب الاعتداد حولاً كاملاً كما يقولون ، لا بالمطابقة ولا بالالتزام ، لا بالحقيقة ولا بالهجاز ، لا بالمنطوق ولا بالمفهوم ؛ وإلا فقل لي بربك أي لفظ من ألفاظها له في تصريح أو تلويح دلالة على وجوب المدة حولاً : أي لفظ وصية ، أم في لفظ متاع ، أم في لفظ حول ؟ إنه لكما نرى ليس في واحد منها دلالة على شيء من ذلك ؛ وإن كانت الشبهة قد قامت في لفظ الحول فذلك ما لا يصح ، إذ لفظ الحول قد ذكر مجروراً بالي متعلقاً بمتاع ، بما قد أفاد صراحة وتنصيصاً أن الحول ظرف المتاع وليس ظرفاً للمدة . من هذا يتضح لك جلياً أن الآية ليست من تقرير مدة بأي مدة ، فضلاً عن حول أو نصف حول ، في ورد ولا صدر .

وأما ثانياً : فإنه بمقتضى إعرابهم الآية تكون الوصية واجبة ؛ ومن بيانهم للمعنى الذي كان معمولاً به في صدر الإسلام تبهم أن الاعتداد قد كان حولاً كاملاً ؛ ومن مجموع الإعراب وبيان المعنى تبهم أن الاعتداد حولاً كاملاً إنما توجب الوصية . وعلى هذا فنحن نسألهم : ماذا كان يكون الحال قبل نسخ الآية لو أن الزوج ترك الوصية ؟ أكانت تكون المدة مدة حول واجبة كما لو أوصى ؟ إن كان كذلك فلا معنى إذن لذكر الوصية في الآية ، أم كانت المدة تكون حينئذ غير واجبة وللمرأة أن تتزوج قبل تمام الحول وفي أي جزء منه ؟ إن كان كذلك فالأمر يكون أكثر إيهاماً وأعظم إشكالاً .

وأما ثالثاً : فانه قد اتهم من كلامهم أنهم قد بسوا النسخ لوجوب النفقة والسكنى على مجموع

أمرين : على أن القرآن قد نص على كون المرأة من الورثة ، وعلى أن السنة قد نصت على أن لا وصية لوارث ، فبمجموع الكتاب والسنة تكون الأرواح ممن لا تصح لهم الوصية ، مع أن منافع الحول بالنفقة والسكنى مقرب على الوصية ، وبنوا نسخ المدة حولا كاملا على آية التبرص أربعة أشهر وعشرا .

هذا قولهم ، وإنه لمردود عليهم ، لما أن الوصية في قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا وصية لوارث » إنما أريد بها وصية خاصة ، وهي أن يوصى إنسان لأحد الورثة بجزء من التركة ، أما الوصية في الآية التي معنا فليست بذلك المعنى ، بل المراد منها العطف والرحمة بالمرأة ، والمرأة أحد الضعيفين ، وقد كسر الى ذلك خاطرها بموت عشيرتها ومائلها ، المراد العطف والرحمة بإمتاعها حولا بالنفقة والسكنى ، والنفقة والسكنى ليسنا جزءا من التركة . وأما قولهم إن الاعتداد حولا قد نسخ بالآية الأخرى ، فقد علمت مما قدمنا أنه ليس في الآية ولا في أى آية أخرى من القرآن الكريم ما يدل على أن مدة المدة كانت حولا ، وإذا لم يكن هناك منسوخ فليس هناك إذاً ناسخ .

وأما رابعا : فإن المقرر المعروف أن المدة أمر ذو بال لما يرتبط به من عظيم الشؤون ، وكلما كان التشريع ذا خطر وبال كانت الممارسة في تشريعه أوفر بيانا وأشد وضوحا ، وكان من الحكمة أن تكون العبارة أبعد به عن توقفه على قيود ، وأناى به عن الارتباط بشروط ، حتى لا يفتتح أمام المكلف باب الاعتذار عن تناقله في الامتنال بعدم قيد ، أو التعلل بتخلف شرط . لهذا نقرأ قوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا » الآية ، تقرأها فتجد أنها في دلالتها على الغرض بيينة واضحة ، ثم هي لم تربط وجوب الاعتداد بأى شيء آخر ، بل جعلت التبرص مطلقا منهن خاصة دون أن يتوقف على شيء ، أو أن يرتبط بشيء ، حتى الرقابة عليهن لم يجعلها لأحد من الناس مهما اشتدت علاقته بهن ولو كان أبيا أو أما ، بل وكلت حراستهن لأنفسهن ، فأنفسهن هي الرقبة على أنفسهن ، حتى تبت خيوط الأعداء ، وتغلق أبواب التمللات . انظر الى قوله : « يتربصن بأنفسهن » ، ثم انظر بعد ذلك الى إشار مادة التبرص على مادة الانتظار ، لما أن التبرص انتظار في تفوق ويقظة ، ففي التشوف لنهاية مدتها الارتقاب لما أحل الله والانفعال مما حرم الله ، وفي اليقظة الحيطه والحذر ، فكأنهن مأمورات في الآية بدقة الحيطه وشدة الحذر ، والنحرز مما يحل في هذه المدة مما كلفن به من صيانة أنفسهن وحفظهن لحدود الله . اقرأ هذه الآية تجد هذا الذى بيناه لك ، ثم اقرأ الآية التي معنا تجدها بميدة كل البعد عن إعادة المدة على أى وجه من وجوه الدلالات . وقد عرفت أن المدة من الشؤون ذات الخطر لما يرتبط بتحقيقها من عظيم الآثار ، وبتركها من كبير الشرور ومشاكل المجتمع ، مما يستدعى الحديث عنه في بيان تشريعه وضوح العبارة وجلالة الدلالة .

وأما خامسا : فإن النسخ لمن أول ما هو ذو شأن خطير ، لأن حاصله ترك العمل بحكم من أحكام الله الى العمل بحكم يخالفه على أنه من أحكام الله ؛ وما ذلك شأنه فلا ريب أنه لا يقدم عليه إلا في تأن متأن وتمهل متمهل ، مع الاستناد الى قاطع من الأدلة ليس في أفقه من سحاب الشبه لا الوفاء منها ولا الجها ، ولا في ساحة من غمار الاحتمالات لا العثير منه ولا القنাম . وأنت ترى أنه ليس معنا في هذه الآية دليل على النسخ حتى ولا الظن الرجح فضلا عن اليقين القاطع ؛ كما أنه ليس هناك أوهى داع لخطور النسخ في الآية على البال ، فإنه ليس من تعارض بين الآيتين ولا شبه تعارض بينهما حتى يحتال لدفع التعارض بكون إحداها منسوخة ، فإن إحدى الآيتين نص صريح في تقدير المدة بأربعة أشهر وثلاث ، والآخرى نص صريح في الاستحرام للمرأة ما متاعها حولا بالنفقة والسكنى .

وأما سادسا : فإنه قد كان من أول ما يقتضيه النظام في التشريع حتى عند الناس ، فضلا عن بارئهم الحكيم ، أن يكون المنسوخ أولاً والناسخ ثانيا ، حتى لا يكون المنسوخ دائما أحضر في ذهن التالى والسامع من الناسخ مع أن الحكمة تقتضى النقيض ، وحتى يكون ترتيب التلاوة وفق ترتيب النزول .

الى هنا قد فرغت مما أردت أن أورد من الإشكالات على هذا التأويل . وإذا كان كذلك فينبغى أن يسلك في تأويل الآية سبيل يتفق مع أسلوب اللغة ، ويسار ما جاء به القرآن من مكارم وآداب ، ويحارى ما يجب من تثبت وتأن في الحكم على أحكام الله .

وتأويل الآية الذى يحقق ذلك كله ، هو أن الله تعالى هو الذى يوصى أى يسترحم ذوى الشأن من أولياء الميت ومن حكام وفقهاء للمرأة المتوفى عنها زوجها أن يمتنعوا بالاتفاق عليها من مال زوجها حولا كاملا ، وأن لا يخرجوها من بيته بل يبقوا عليها فيه الى نهاية الحول ، على أن يكون البقاء في بيت زوجها والخروج منه موكولا لإرادتها ، حتى لا يخرج هذا العطف وتلك المواساة بالاتفاق والسكنى حولا من كونه رحمة وجبرا الى كونه إكراها وعسلا ، فقد يكون خروجها قبل تمام الحول إنما هو للزواج مادامت قد أتمت مدة العدة أربعة أشهر وعشرا ، فلم يجعل لها الخيار في الخروج لمعاد العطف إيذاء . والزواج هو المعنى بالمعروف في قوله تعالى : « فيما فعلن في أنفسهن من معروف » ؛ فأنه تعالى يسترحم الأولياء للنساء مع الاحتياط لتلك الرحمة مما يقلبها مضارة وإيذاء ، بأعفائهم من التمتع إن هن خرجن وفعلن في أنفسهن المعروف ، حتى لا يضلوهن بحجة إمتاعهن إذا لم ينس على نفي الجناح عن الأولياء في ذلك . وعلى الجلة فالآية ليس لها صلة بتقرير عدة بأى مدة على أى وجه من وجوه الدلالة ، بل الآية إنما تدعونا الى الرحمة بهؤلاء الضعفاء باصل خلقتهن ، وقد زادت الحوادث في ضعفهن ببعض أجنحتهن ، واستلاب الموائل والحوامى لهن .. إنما تدعونا الى الابتعاد عن القدر

بعمود الراحلين ، وعن الغلظة المفضية الى عدم المبالاة بمصاب المصابين ، وعن القسوة على المسكومين . وإنه ليس من شك في أن المرأة يموت زوجها هي أوفر من جميع أقارب نصيبا من الهم ، وأوطأ حظا في الحزن ، وأشدّهم بعده وحشة ، وأصحهم جرحا ، على قدر نصيبها في حياته من خيره وأنسه . لهذا فكل ذي صلة بالميت تكون الزوجة أولى منه بالتمزية والمواساة ؛ وواضح أنه إذا انقطع عنها يموت زوجها ما اعتادته من تفقة في حياته ، وخرجت عما اعتادته من سكنى معه ، كان في ذلك تعميق لجرحها ، وتكبير لمصابها ، وإلهاب لحزنها ؛ فإذا أبقي عليها أولو الشأن ممن للميت من أولياء ومن حكام وفقهاء ، إذا أبقوا عليها في بيت زوجها ، وأبقوا كذلك على ما اعتادته من تفقة ، كان في ذلك من تمزيقها ما يطفىء من حزنها ، ويخفف من مصابها ؛ كما أن في ذلك من ناحية أخرى إيراد الأولياء الميت في معرض الوفاء والبعد عن الغدر بعهد راحلهم ، وإظهار الهم في مظهر البذل وتجنب الشح .

على ذلك لا تكون الوصية في الآية مصدرها الميت كما يزعمون ، إنما يكون مصدرها هو الله تعالى ، أي أوصيكم يا أولي الشأن للأزواج اللاتي توفى منكم أزواجهن وصية ، وأسترحكم لمن رحمة . أو يكون لفظ الوصية معمولا لفعل أمر من الوصية موجه الى أولي الشأن بمعنى الرحمة وزيادة الخير المسدى اليهن . وأما على الرفع فيكون المعنى : عندكم وفي ذمتكم وصية وعهد لزوج من توفى منكم . وإنما لم يجعل مصدر الوصية في الآية هم الأزواج المتوفين على أن تكون واجبة عليهم كما هو مقتضى ما قدروه في إخراجها رفعا ونصبا ، لأنه مع كون الآية ليست نصا في الإسناد الى الأزواج المتوفين ، فإن المتوفى ليس محلا للتكليف ، فكيف يفهم أن الأزواج إذن هم المكلفون بالوصية ، وأنها واجبة عليهم ؟ والتخلص من ذلك بأن في الكلام مجاز المشاركة ، وأن المراد من المتوفى من شارف الوفاة ، غير صحيح ، لأن المشاركة ليست بالأمر المحدد المضبوط فيمكن للناس علمه حتى يتأتى لهم أن يوصوا عند مشاركة الوفاة ؛ فكم من شخص قد باغته الموت وأخذ على قرة دون أن يكون قد خطر له الموت على بال ؛ وكم من مريض ظن أنه ناج من مرضه ثم هو يفتك به ويقتله ؛ وكم من مريض ظن أن مرضه قاتله ثم نجى منه قماش طويلا طويلا . . . وعلى هذا فالمرضى هو الله ، أو هو تعالى الأمر لأولى الأمر بالوصية . والمرضى به هو تمتيعهم حولاً بالإتفاق وعدم الإخراج من بيوت الأزواج مدة ذلك الحول ؛ والمطالبون بذلك هم المخاطبون في قوله « منكم » وهم آل الميت ، وأهل الحل والمقد من حكام وفقهاء .

هذا هو التأويل الذي ينبغي أن يحمل عليه الآية ، لما أن شواهد الحق فيه واضحة عالية ، ومعالم الصواب بينة بادية .

أما أولاً : فلما قدمنا من إشكالات ومبطلات لما ذهب اليه المفسرون في تأويل الآية ، ذلك الوجه الذي أفضى الى الحكم عليها بأنها منسوخة .

وأما ثانياً : فإنا إذا استعرضنا الآيات التي وردت في هذا المقام ، أي الآيات المتعلقة بالفرقة بين الزوجين على أي وجه من وجوه الفرقة : فرقة طلاق قبل الدخول أو بعده ، أو فرقة وفاة ، إذا استعرضنا ذلك نجد أنها قد بدأت ببيان العدة على وفق أنواع الفرقة ، ثم بعد أن أتمت القول في بيان العدد أخذت في بيان أنواع المتعة ، فسكنا أنها بينت عدة المطلقة أولاً وانتظم ما تعلق بها من القول في سلك ما تعلق بالعدد ، ثم بينت متعتها ثانياً وانتظم ما تعلق بالمتعة من القول فيما تعلق بالمتع ، وجب أن يكون الأمر كذلك في شأن من توفي عنها زوجها : تبين عدتها أولاً ، ثم تبين متعتها ثانياً ، حرياً مع النظام الذي رسمته آيات القرآن في هذا الشأن . فآية « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً .. » المنتظمة في آيات العدد ، لبيان العدة ، والآية التي معنا المنتظمة في آيات المتع ، لبيان المتعة ، فالنظام الذي رسمته آيات هذا الموضوع تقتضي أنه لو كانت تلك الآية التي معنا من آيات العدد لوجب أن تكون في سلك آيات العدد ، أما وقد انتظمت تلك الآية في آيات المتعة فقد وجب أن تكون لتقرير المتعة ، خصوصاً بعد ما عرفت أنها لا صلة لها ، بمقتضى مواد اللغة وأساليبها ، بالعدة ، لا في جملة من جملها ، ولا في مفرد من مفرداتها ، وخصوصاً بعد أن ذكرت فيها مادة المتعة صراحة وتخصيصاً .

وأما ثالثاً : فإن كتاب الله قد شرع للمرأة المفارقة بالطلاق متعة ، والمتعة إنما شرعت جبراً لكسر المرأة لطلاقها ، وأحياناً لجرحها ، وتخفيفاً لآلامها ، وإذا كان الأمر كذلك في شأن المرأة المفارقة بالطلاق ، فلجبر المرأة المفارقة بالوفاة أحق وأولى ، ولهي إليه أحوج وبه أجدر ، فلو أننا تناسينا ما تقتضيه اللغة أسلوباً ومفردات لحملنا الآية التي معنا على العدة كما يزعمون ، لحلا القرآن عن تقرير متعة للمرأة المفارقة بالوفاة ، وفي ذلك منافية لبائع حكمة الله ، ومنافضة لشامل عدله .

ومجمل القول في ذلك ، أن الآية إنما أنزلت لتقرر متعة ، لا لتقرر عدة .

وأما رابعاً : فإننا لو أغفلنا ما تزديه الآية من معنى بمقتضى اللغة أسلوباً ومفردات ، فسلمنا حداً لا أنها تدل على أن الحول ظرف العدة لا ظرف المنع ، لوجب أن لا يكون القيد كما في الآية ، أعني قوله : « غير إخراج » ، بل كان يجب أن يكون القيد هكذا « مناهاً إلى الحول ما نعيمهم من الخروج » ، لأنه إذا كان الحول عدة كنّ بذلك ممنوعات من الخروج لا مخيرات فيه ، لأنه ليس أحفظ لمن في عدتهن من أن يحسن من إقامتهن في بيوت أزواجهن تحت رعاية أولياء المتوفين رجالاً ونساء ، لما في خروجها من الإخلال بما يجب أن تكون عليه المرأة في عدة ، لا سيما عدة الوفاة ، من مظاهر الوفاء لزوجها الراحل ، ولاهله الذين يؤلمهم أن يروها قد اتفنت عيناها نحو رجال غير زوجها ، والقرآن فيما يليق فينا من إرشاد ، وما يوجه إلينا من

تهديد ، لا يقف بنا دون أعلى درجات الشرف وأسمى مراتب الكمال . ذلك من التعبير ما كان يجب أن يكون لو أن الآية كما يزعمون لتشريع العدة حولا ؛ أما والتعبير في الآية قد جاء على ما جاء عليه ، فلا شك أنه لغير ما يزعمون ؛ ولكنه فيها هو الغرض من الآية والمقصود منها على أبلغ أسلوب وأدق تعبير في بيانه وتحديد . ولقد علمت أن الغرض من التقيد هو أن الله تعالى لما استعطف أولياء الميت على زوج ميتين لمجتمعها حولا بالاتفاق والإقامة في بيت زوجها ، أراد أن يكون هذا المعطف وتلك المواساة بعيدة كل البعد عن أي شائبة تشوب وظاهم لميتين ، أو تسكدر عطفهم على زوجة ، فلم يطلب إليهم سوى أن لا يخرجوها حتى يبقى لها كامل إرادتها في الخروج وعدمه ؛ ولو كلفهم بقاءها لكان في ذلك سلب إرادتها وخنق حريتها ، مما يقلب المنعة والمعطف إكراها وعضلا ، وأذى وإيلاما . ومن هذا تدرك نواحي البلاغة في القرآن ، ودواعي السجود لاسلوبه فيه ؛ فإنا من عبارة غير هذه يمكن أن يكمل بها الغرض ، ويتم بها المراد . وكما أنه لم يكلف أولياء الميت أن يمنعوها الخروج ، فهو لم يكلف النساء أن يبقين في بيوت أزواجهن ؛ وفي ذلك أيضا دلالة واضحة على أن الحول لم يكن ظرفا للعدة ، وإلا لحظر عليها الخروج وكلفها البقاء ، ولكنه لم يوجه إليهن تكليفا ، بل وجهه إلى الأولياء ، مع أن الزوجات هن المكلفات بالاعتداد .

وهناك ناحية غير هذا وذلك ، وهو أن التكليف والخطاب في الآية لم يوجه إلى النساء ، فلم يطلب إليهن شيئا ، ولم ينهن عن شيء ؛ ولو كانت الآية لتقرير العدة والسدة هن المكلفات بها ، لما وجه التكليف والخطاب إلا إليهن ، ولما وجه إلى ذوي الشأن ، لأن كل نفس لا تكلف غير فعلها ، والذي هو من فعل الأولياء إنما هو الامتناع بالاتفاق وعدم الإخراج .

وأما خامسا : فإن قوله تعالى : « فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف » قد أفاد بطريق النص بعد استفادته بطريق الإشارة أنهن مخيرات في الخروج وعدمه أثناء الحول ، ولو كان الحول عدة كله لما أباح لها الخروج أثناءه ، إذ أن أكل ما مضى عليه المرأة عدة الوفاة هو احتفاظها بمظاهر الوفاء لزوجها الراحل ، وإنما يتم لها ذلك حين تكون مدة العدة تحت إشراف آل زوجها من نساء ورجال ، إذ في ذلك صيانتها من تعرض وفاتها للنساء رميات من نظرات راغب ، أو كلمات من خليع غير ذي حياء ؛ فانه لو اوضح أن أعظم ما تصان به من ذلك هو أن تكون تحت إشراف آل زوجها ، ثم هي إلى هذا ما دامت في بيت الزوج التقيد فهي مقرونة في الأذهان بالماثم والأحزان ، وإن ذلك لمن أقوى ما يحول عنها الانظار ويدفع عنها الكلام . وإذا كان بقاءها في بيت زوجها هو أكل حال تؤدي عليه المرأة عدتها فلو كان الحول ظرفا للعدة لما أباح لها الخروج ، بل كان يجب أن يحتم عليها البقاء به كل الحول ؛ فإباحة الخروج دليل أن الحول ليس ظرفا للعدة ، وإنما هو ظرف للإمتناع .



وأما سادسا : فإن الآية قد نفت الحرج والنبهة ممن توحه إليهم الخطاب من أولياء وحكام وفقهاء فيما تفعله المرأة بنفسها إن هي اختارت الخروج من بيت زوجها على البقاء فيه ؛ والمراد بالمعروف هنا هو الزواج ومروجاته من تحسين وتجميل . وإعنا حملنا المعروف على ذلك لما هو مقرر ومعروف من أن قوانين القول وقواعد الكلام أن لا ينفي الحرج عن فعل إلا إذا كان هناك ما يؤم الحرج فيه ، وليس لدينا ما يتوهم فيه حرج إلا الزواج ومروجاته التي تتقدمه من تزين وتجميل ؛ فلو كان الحول كله عدة لما نفي الحرج ممن عليهم الزافة والاشراف على المرأة في مثل هذا الشأن ، بل كان يجب أن يلقى عليهم الحرج ثقيلًا ، والنبهة سرهقة ، إن هم تركوها تفعل شيئًا من ذلك ، لأن هذا الأمر الذي يسماء معروفًا لو فصل أثناء العدة لكان من أقطع المنكرات ، لأنه من شر عوامل الفساد في المجتمع ، ومن أقوى دواعي الإحلال به .

هذا ولا يفوتني أن أنبه إلى أن من شواهد حمل المعروف على الزواج ومروجاته هو أنه في الآية الأخرى ، أعني قوله تعالى : « والذين يشوفون منكم ويذرون أزواجًا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ، فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف » نص في ذلك ، إذ قد رتب نفي الجناح عنه ، وتسميته معروفًا ، على بلوغ الأجل أي انتهاء العدة ، إذ هو الذي كان محظورا قبل انتهائها ، وهو الذي كان فيه الجناح قبل بلوغ الأجل . وعليه فالمراد بالمعروف هنا هو المراد هناك .

وأخيرا فاجعل القول في الآية أن الله يوصي ويستعطف أو يأمر أولى الشأن بالوصية والرحمة ، على وفق ما قدرنا آنفا من أنه : أوصيكم أو لتواصوا بأزواج من توفيت أزواجهن ، كي يجبروا من كسرهما ويضمدوا من حراحها ، بامتناعها حولًا بالاتفاق والسكنى في بيت زوجها ، حتى لا يفعلن بتغير في أحوالهن ولا تبدل في عوائدهن ، وحتى لا يحسن بفتنة ، بأنهن قد صرن مائلات أنفسهن وقد كن بالأمس معولات مدللات ؛ فإذا مضى على المصائب حول كامل هان الحادث وخف الخطب بتقادم العهد وبعد الذكريات . ثم إنه تعالى ببالغ حكمته قد احتاط لتلك المواساة من أن تله شرا أو تستتب فسادا ، لجعل للمرأة الخيار في الإقامة ببيت زوجها كل الحول أو الخروج أثناءه متى آتت أربعة أشهر وعشرا ، فلم يكلف الأولياء إلا عدم الإخراج ، ونفى عنهم الحرج فيما يفعلنه في أنفسهن من معروف ، حتى لا يتحكوا في شأنها ويستبدوا بأمرها فيقبلوا الوصية والرحمة عضلا وإكراها . هذا ما عنته الآية ، وهي لا صلة لها بالعدة من قريب أو بعيد .

وأما ما يراه « مجاهد » في الآية من أنها تقرر إحدى حالتين للمرأة المتوفى عنها زوجها ، وأن آية الأشهر الأربعة تقرر لها حالة ثانية ، فتكون عدتها على ما يراه مجاهد تارة حولًا كاملا وهذا إن اختارت الإقامة كل الحول ببيت الزوج ، وتكون تارة أخرى أربعة أشهر وعشرا

وذلك إن اختارت الخروج وأبت الاتفاق . . . أما هذا فهو كما ترى يحمل ما زاد عن الأشهر الأربعة والثلاث موكولا الى اختيار المرأة ؛ وإذا كان الزائد موكولا الى اختيارهن لم يبق لكونه من العدة معنى ما دام قد تخلت عنه صفة الوحوب ؛ وبذلك يرجع الأمر الى ما قررنا من أن العدة إنما هي أربعة أشهر وعشر . وعلى ذلك يرجع قول مجاهد الى ما أولنا به الآية من كل وجه ، اللهم إلا في تسميته الزائد عدة حين تختار إقامة الحول كله . وعلى العموم فالذي يعيننا من رأى مجاهد هو أنه قد وافقه ما نراه فيها من أنها ليست منسوخة كما يزعمه المفسرون دون استناد الى يقين أو شبه يقين ، بل كل ما بأيديهم إنما هي ظنون متصدعة لا تنفق فيها هو دون النسخ لكتاب الله ، فضلا عن كتاب الله الخالد على مدى الأيام .

وأما ما يراه « أبو مسلم » من أن الآية تقصر أن الأزواج إذا وصوا لأزواجهم فليست الوصية ملزمة لمن بإقامة الحول في بيت الزوج بل لها أن تخرج أثناءه ، فهو يفيد أن الوصية غير واجبة على الأزواج . وأنت ترى أنها إذا كانت غير واجبة أدت الى التفرقة بين الزوجات في المنعة ، فمنهن من يجتمعن حولاً وهن من ظفرن بوصية الزوج ، ومنهن من لا تمتع الحول وهن من لم يوص لهن الأزواج ؛ وحكمة الله البالغة تقتضى المساواة بينهن في العطف والرحمة . وأما ما قررنا في الآية فهو يقتضى المساواة بينهن . وعلى العموم فالذي يعيننا من قول أبي مسلم هو أن الآية ليست منسوخة كما يزعمه بعض المفسرين غير متحرجين لكتاب الله خطره ، ولا متهيئين له قدسه .

رب أخلصت لك عملى فأهدنى للصواب ؟

مامر محبسه

## في المجلس وآدابه

قال المهلب بن أبي صفرة : العيش كله في المجلس الممتع .

وقال سميد بن الماس : لجلسى على ثلاث : إذا دنا رحبت به ، وإذا جلس وصمت له ، وإذا حدثت أقبلت عليه .

وقال أيضا : إني لا أحب أن يمر الذهاب بجليسى مخافة أن يؤذيه .

وقال زياد : ما أتيت مجلسا قط إلا تركت منه ما لو جلست فيه لكان لى ، وترك ما لى أحب الى من أخذ ما ليس لى .

وقال هو أيضا : إياك وصدور المجالس وإن صدرك صاحبها فإنها مجالس قلعة ( أى وقتية فقد يطلب أن تخليها لمن هو أرفع قدرا منك ) .

والقلعة : ما لا يدوم من المال ، والمال المارية .

## الكلام والمتكلمون

- ١١ -

منفلسو المتكلمين - عضد الدين الايجي

هو عبد الرحمن بن أحمد عضد الدين الايجي الشيرازي ، ولا يعرف التاريخ عنه أكثر من أنه ولد في « إيج » وأنه كان أحد أكابر فقهاء الشافعية المتصوفين ، وأنه عين قاضياً ثم مدرساً في شيراز في سنة ٧٥٦ هـ - سنة ١٣٥٥ م .

أما مؤلفاته فهي كثيرة . وقد ذكر منها الأستاذ « بروكلمان » طرفاً ، ولكن أهمها كتاب « المواقف » الذي سنعنى هنا بتحليله في شيء من التفصيل . ومن مؤلفاته القيمة أيضاً كتاب « المقائد المضدية » الذي عني بشرحه أكثر من واحد من العلماء المتأخرين ، والذي كتب عليه المفقور له الأستاذ الشيخ محمد عبده حاشيته الشهيرة التي لا تزال الى اليوم تدرس في الجامعة الأزهرية . والآن اليك إجمال الكتاب الأول وتحليله :

### كتاب المواقف :

هو دراسة هامة في علم الكلام ، مزجه المؤلف بكثير من الآراء الفلسفية المعروفة في عصره . يتكون هذا الكتاب من مقدمة وستة مواقف وتعقيب الحق به . وقد قسم المواقف الى مراصد ، والمراصد الى مقاصد ، فكان مثالا من مثل النظام والتبويب ، وفق اليه المؤلف بعد أن استفاد من اطلاعه الواسع الذي يحدتنا عنه في مقدمته .

عرض الايجي في المقدمة للإنسان وما يجب عليه أن يشغل به حياته إذا كان يحس بكرامته وإنسانيته ، فذكر أنه يتفق مع الجداد في شغل قدر من الفراغ ، ومع النبات في التغذي والنمو ، ومع الحيوان في الإحساس والشهوات ، وأن ميزته الخاصة به إنما هي القوة الناطقة ، فإذا لم يستغلها ولم يبرز أثرها في حياته ، فقد قضى بنفسه على الميزة التي ترفعه على الحيوان .

ولا ريب أن هذا أحد آثار أرسطو على المؤلف ، إذ أنه صرح في عدة مواضع من كتبه بمثل هذه العبارات (١) .

انتهى الايجي بعد ما قدمناه الى النتيجة الطبيعية لهذه الآراء ، وهي أن الإنسان يجب أن يفرغ مجهوده للحياة العقلية . ولما كان لا يوجد بين العقليات علم أنبل من العلم الذي يتخذ

(١) انظر صفحة ١٠٦ من الجزء الثاني من كتاب الفلسفة الأخرية لكاتب هذه السطور .

موضوعه مبدع الكون ، وهو علم الكلام ، فقد عزم على الاشتغال به لضرورة ذلك لكل عاقل يشعر بحاجة الى أن يمتاز عن الكائنات المعجم ، وهو في هذا يقول :

« فإذا ، الواجب على العاقل الاشتغال بالأمم ، وما الفائدة فيه أتم . هذا ، وإن أرفع العلوم وأعلاها ، وأنعمها وأجداها ، وأجراها بمقدار المهمة بها ، وإلقاء الشرائع عليها ، وآداب النفس فيها ، وصرف الزمان إليها ، علم الكلام المتكفل بآيات الصالح وتوجيهه وتزويده عن مشابهة الأجسام ، وإتصافه بصفات الجلال والاكرام ، وإثبات النبوة التي هي أساس الاسلام ، وعليه مبنى الشرائع والأحكام ، وبه يترقى في الإيمان باليوم الآخر من حرجة التقليد الى درجة الايقان ، وذلك هو السبب للهدى والنجاح ، والفوز والفلاح ، وأنه في زماننا هذا قد اتخذ ظهريا ، وصار طلبه عند الأكثرين شيئا فريا ، لم يبق منه بين الناس إلا قليل ، ومطمح نظر من يشتغل به على التسدرة قال وقيل . فوجب علينا أن نرغب طلبه زماننا في طلب التدقيق ، ونسلك بهم في ذلك العلم مسلك التحقيق » (١)

غير أن هذا الاشتغال بعلم الكلام لم يكن ليبرر في نظره العكوف على تأليف مثل هذا الكتاب ، بل كان يكفي أن يدرس هذا الفن في مؤلفات من سبقوه ، ولكنه أحاط بهذه المؤلفات وتلفل إلى أحماقها فلم يجد فيها ما ينتفع غلة ، لأنه ألغاهما إما ناقصة مفردة ، أو مسرفة مفردة ، أو حاكية مقلدة ، أو مهوشة أو ملفقة ، فأراد أن يسد هذه الثغرة فكتب كتاب « المواقف » . وإليك عبارته التي صور بها هذا الموقف ، والتي تعد نموذجا راقيا من نماذج النقد الذي لا يطمع المحدثون في أدق منه ، قال :

« وإنى قد طالعت ما وقع لي من الكتب المصنفة في هذا الفن ، فلم أر ما فيه شفاء لعليل ، أو رواء لغليل ، سيما والمهم قاصرة ، والرغبات فائرة ، والدواعي قليلة ، والصوارف متكاثرة ، فاختصرتها قاصرة عن إعادة المرام ، ومطولاتها مع الاساءة مدهشة للأفهام ، فمنهم من كشف عن مقاصده القناع ، ووقع من دلائله بالإقناع ، ومنهم من سلك المسلك السديد ، لكي يلحظ المقاصد من مكان بعيد ، ومنهم من غرضه نقل المذاهب والأقوال ، والتصرف في وجوه الاستدلال ، وتكثير السؤال والجواب ولا يبالي إلا بالأم المآل ، ومنهم من يلفق مغالطات لترويج رأيه ، ولا يدري أن النقاد من وراءه ، ومنهم من ينظر في مقدمة مقدمة ويختار منها ما يؤدي إليه بادي رأيه وربما يكر بعضها على بعض بالإبطال ، وينتقل إلى المقاصد بسببه الاختلال ، ومنهم من يكبر حجم الكتاب بالبسط والتكرار ، ليظن به أنه بحر زخار ، ومنهم من هو كحاطب ليل ، وجالب رجل وخيل ، يجمع ما يجده من كلام القوم ينقله نقلا ، ولا يستعمل عقله ، ليعرف أغث ما أخذ أم ممين ، وسخيف ما ألغاه أم متين ، فغداني الحسب على أهل

الطلب ، ومن له في تحقيق الحق أرب ، الى أن كتبت هذا كتابا مقتصدا ، لا مطولا مملا ولا مختصرا مملا ، أودعته لب الآليات ، وميزت فيه الفشر من اللباب . ولم آل جهدي في تحرير المطالب ، وتقدير المذاهب ، وتركزت الحجاج تبختر انصاحا ، والشبه تنضال اقتصاحا ، ونهت في البقد والتزييف ، والهدم والترصيف ، على نكت هي بسايع التحقيق ، وفقر تهدي الى مظان التدقيق ، وأما أنظر من الموارد الى المصادر ، وأتأمل في الخارج قبل أن أضع قدمي في المداخل ، ثم أراجع الفهقرى أتأمل فيما قدمت هل فيه من قصور ، وأرجع البصر كربة بعد أخرى هل أرى من فطور ، حافظا للأوضاع ، رامزا مشبعا في مقام الرمز والإشباع ، حتى جاء كما أردت ، ووفق الله وسدد في إتمام ما قصدت . جاء كلاما لا عسوج فيه ولا ارتياب ، ولا لجلجة ولا اضطراب ، متناسبا صدوره وروادفه ، متعاقبا سوابقه ولواحقه ، بكرا من أبكار الجنان ، لم يطمئنها من قبل إنس ولا جان » (١) .

بعد هذه المقدمة تناول المؤلف في الموقف الأول البحث في العلم بوجه عام ضروريه ومكتسبه ، ثم في العلم النظري ، ثم في المعرفة الحسية ، وفي المبادئ الأولى أو البديهيات ، ثم حلل الآراء القائلة بضرورة العلم أو بعدم ضرورته ، ونقد الضعيف منها في رأيه نقدا سليما مستقيا ، ثم عرض في هذا الموقف أيضا للتصور والتصديق والقياس والبرهان ، وذكر الفرق بين الدليلين العقلي والنقلي ، وسرد بعض الآراء المختلفة التي تباينت في إقامة الدليل النقلي اليقين أو عدم إقامته .

أما الموقف الثاني فقد عني فيه المؤلف بأمور ، أكثرها مينا فيزيكي مثل نظرية الموجود واللاموجود التي أفاص فيها ، فذكر الآراء الأربعة المختلفة حولها ، وهي : (١) إن المعدوم ليس بثابت ولا واسطة . (٢) المعدوم ليس بثابت والواسطة حق . (٣) المعدوم ثابت ولا واسطة . (٤) المعدوم ثابت والحال حق . ثم أبان الفرق الممتنقة لكل واحد من هذه الآراء وأوضح وجهة نظرها فيما تذهب اليه ، ثم عرض بعد ذلك للوجود وهل هو عين الموجود أو غيره أو جزؤه ، وأبان المذاهب المتعارضة في ذلك ، وتحدث عن الحال التي هي الواسطة بين الموجود والمعدوم وعن الماهية ، ثم عرض لمذهب أفلاطون في الجبردات ، فنتى أن لها وجودا حقيقيا إذ قال : « وأنت قد علمت أن الجبرد لا وجود له ، وأن القابل للمتناوبات الماهية من حيث هي . وأما وجود فرد يكون قابلا كزيد وعمره ، فضروري البطلان ، ولا يوجد في الخارج إلا الهويات الجزئية » (٢) .

لا شك أن الابجى يسير في هذا الجبرد للوجود الذاتي للمجردات على مذهب جميع المتكلمين الذين أسلفنا لك في أكثر من موضع أنهم إما اسميون (Nominalistes) وهم القائلون بأن

(١) انظر صفحتي ٤٠ و ٤١ من اللواتف . (٢) انظر صفحتي ٦٠ و ٦١ من اللواتف أيضا .

المفاهيم ليست إلا أسماء ابتدعتها الأذهان البشرية ، متأثرة في ابتداعها بإياها باصطلاحات المسميات الخارجية ، ولهذا لا ثبات لها ، وهو مذهب السوفسطائيين . وإما مفهوميون ( Consensualistes ) وهم القائلون بأن المفاهيم لها وجودان : أحدها في المحسوسات قبل وقوع الحواس عليها ، وثانيهما في الأذهان بعد انتزاعها من المحسوسات . أما الوجود الذاتي المستقل عن هذين الموضعين ، فلا حقيقة له ، وهو مذهب أرسطو . أما المذهب الثالث فهو مذهب الحقيقيين ( Réalistes ) وهو القائل بالوجود الذاتي المستقل عن المحسوسات والأذهان لجميع المجرىات . وقد قال به أفلاطون كما فهمه اللاحقون .

مرض المؤلف بعد ذلك في هذا الموقف للوجوب والإمكان ، ولواجب لذاته والممكن لذاته ، ثم تقدم والحدوث ، والوحدة والكثرة ، والعلو والمعلول ، بتفصيلات دافعة للحاجة وافية بالفرض .

أما الموقف الثالث فقد خصمه فمرض وما دار حوله من جدل بين الفلاسفة والمتكلمين ، ثم بين أهل السنة والمعتزلة ، ثم أورد شيئاً من المأخذ التي ترد على خصوم أهل السنة في هذه المشكلة . وقد قاده البحث في المرض إلى المقولات ، ثم استطرده فأسهب في السكيات والكيفيات ، وعرض للحرارة والرطوبة واليبوسة ، والنور والظلمة ، وغيرها من المبصرات والمسموعات والمذوقات والمشمومات والمفوسات . وبعد ذلك تناول الأمور النفسية فتحدث عن الحياة وأبأن وجوداتها المختلفة في الكائنات الحية ، وأثبت أن الموت هو عديمها ، ثم أفاض في العلم فذكر بجله ومفصله ، وما هو منه فعل واقعالي ، وما هو بالقوة وما هو بالفعل ، وعرض للجهل فشرح ببيته ومركبه ، ثم تناول العقل فقسّمه إلى مراتبه الأربع ، الأولى : « العقل الطيولاني » وهو الاستعداد المحض ، وهو قوة خالية عن الفعل كما للأطفال . الثانية العقل بالملكة ، وهو العلم بالضروريات . . . الثالثة العقل بالفعل ، وهو ملكة استنباط النظريات من الضروريات بحيث متى شاء استحضرت الضروريات واستنتجت منها النظريات . وقبل : بل حصول النظريات بحيث يستحضرها متى شاء بلا روية . الرابعة العقل المستفاد ، وهو أن يحضر عنده النظريات بحيث لا تغيب عنه « (١) » .

وبعد أن أوضح هذه المراتب التي هي في الحقيقة من أدق مسائل الفلسفة ، قرر أن العقل هو مناط التكليف ، ثم عرض بعد ذلك للإرادة والقدر ، ثم تحدث عن الخلق فذكر حده كما وضعه الأخلاقيون ، ثم تناول فضائل الحكمة والعفة والشجاعة وأبأن أن كلا منها وسط بين رذيلتين على نحو ما فعل أرسطو في كتاب « الأخلاق إلى نيقوماخوس » ، ثم أعاد الكرة على بعض المقولات كالآتي والاضافة فجلا غوامضها بهيئة تقنضى الإعجاب « « يقع »

## الفلسفة بين الوجود والفكر

يذكر كثير من مؤرخي الفلسفة ، وفي مقدمتهم فندلبند Windelband ، أن الفلسفة لا يحددها تعريف واحد ، وليس لها ضابط عام ، لاختلاف الموضوعات التي تناولها الفلاسفة بالبحث في العصور المتعددة ؛ ويذكرون أن كل فيلسوف كان يحددها بالموضوع الذي يحيل أو قد يضطر إلى بحثه ؛ وهذا صحيح إلى حد ما .

ولكن لو ألقينا نظرة عامة على ما تناوله البحث الفلسفي منذ القدم حتى الوقت الحاضر لوجدنا أن هذا الذي تناوله البحث الفلسفي ، على سبته وتغصب أطرافه وكثرة تقاسيله ، يرجع إلى موضوعين أساسيين : إلى « الوجود » وإلى « الفكر » . وطبيعة العصر هي التي كانت توجه نظر المفكرين إلى بحث واحد دائر بينهما على أنه الأصل وعلى أن الآخر إضافي له .



فالفلسفة منذ أن تقلب الإنسان حتى آخر القرون الوسطى ، أي إلى آخر القرن الخامس عشر تقريباً ، كان موضوع بحثها الرئيسي هو الوجود ، وكانت صبغته العامة هي الصبغة الميتافيزيقية . فإفلاطون يقول . الفلسفة هي معرفة الوجود ؛ وعند أرسطو : علم ما وراء الطبيعة . والمصور الدينية بعد ذلك على تنوعها تراها في بحث الوجود وعلة الكون . ومعنى أن الفلسفة إلى آخر القرون الوسطى كانت تبحث في « الوجود » أنها كانت تحاول تحديد أصل الكون ، وتحديد هذا العالم ، وتحديد علاقته بعلة الكون ، وتحديد فائته ومصيره . ومما اختلفت الفلاسفة في هذه الفترة ، اختلف طابعهم ، من غرضي خيالي ، أو منطقي طبيعي ، أو ديني . ومما اشدت التباين في طرق بحثهم وفي المبدأ الذي حاولوا منه الشرح والتعليل ، ففائتهم جميعاً كانت واحدة وهي معرفة الوجود الأزلي - أو الله - وتحديد درجات الموجودات الأخرى منه .

نرى إفلاطون ، وهو أول فيلسوف إغريقي له نظام فلسفي خاص به ، يضع مبدأ « المثل » ليمثل منه إلى التمييز بين « الوجود » الباقي « والوجود » الفاني ، أو بين الوجود الحقيقي وما له شبه بالوجود ، وليتخذ من هذا الوجود الحقيقي علة لشبه الوجود ، وشرحاً لما هو حاصل فيه . وبهذا يجعل من عالمنا الفاني تابلاً لما هو علة له ، وهو الوجود الحقيقي - الله ، أو المثل ، وعلى رأسها مثال الخير - في النشأة وفي المصير . و« الوجود » إن كان - في نظر إفلاطون - في غاية

الكمال ، فـا هو شبيه به ( وهو العالم ) يطرأ عليه القصر بسبب ما خالطه من مادة . والإنسان جزء من هذا العالم فعليه أن يسعى لتكامل نفسه بعدم تلبية رغبات المادة ، بل زهد وبالعلم . ومع أن إفلاطون لا يلقب بالفيلسوف المنطقي — لأن عنصر « الفرض » يسود تفلسفه ، ولأن معظم ما كونه من آراء لا يمكن التحدى في تعليقه ، ولا في مناقشته مناقشة عقلية — لا يفتقر من أرسطو المنطقي إلا في الطريقة التي سلكها كل منهما في تفلسفه ، وفي شرحه للوجود . فغاية أرسطو في بحثه كانت أيضا تحديد الوجود الواجب ، وتحديد علاقته بالوجود الممكن ، وتحديد المبدأ الأول وعلاقته بالعالم وهو وإن لم يصرح بتبعية الثاني للأول — لأنه طبيعى يحاول شرح الشيء من نفسه لا من أمر خارج عنه كما هو شأن الإلهي ، وهما طريقتان في البحث الفلسفي — إلا أنه في شرح أحدهما بالآخر يجعل غاية الوجود الممكن ، وهو هذا العالم ، السعى إلى التقرب من الوجود الواجب ، والوصول إلى درجته في الكمال . وبني ذلك على ما فرضه من مبدأ عام له ، وهو مبدأ التطور ، أو مبدأ الصورة والمادة .

وليس بغريب أن أهمية البحث الفلسفي الإغريقي تكاد تكون وقفا أولاً وبالذات على «الوجود» ، وأن تكون فكرته الرئيسية هي « فكرة الوجود » ، لأن تفلسف الإغريق لم يكن كله ابتكاراً بل غالبه « انتزاع » لآراء كانت مسنونة في الأساطير الدينية Mythologie ، وتعديل قائم على النقد لبعض العقائد الشعبية الموروثة ، فلم يتخلص تماماً من الدين ، ولا من أصل فكرته ، وإن لم تكن له قداسته . وطبيعة الدين تعنى أول ما تعنى بإعطاء صورة عن الخالق — وهو المبدأ الأول أو الملة الأولى في تعبير الفلاسفة — في غاية الكمال تستحق وحدها وصف الوجود ، ثم بإعطاء صورة أخرى عن علاقته بمخلوقاته . وعم على كل حال دونه مرتبة وكالا .

فالفلسفة وإن ادعت الاستقلال في البحث ، بعيدة عن التأثير بمصادر الدين ، فقد قلده — على الأقل في عهدها الأول — في اتجاهه ، وفيما يعنى به . فانحجبت إلى « الوجود » وعينت بشرح « مبدئه » ، وأطلقت على ذلك « ما وراء الطبيعة » ، وسماء الدين « مصدر الفيض » . والدين فيما يحكيه عن مصدر الفيض أو مصدر الوجود يعتمد على الوحي المجاوى ( العلوى ) ، بينما تعتمد الفلسفة في بحثها في « ما وراء الطبيعة » على أداة من نفس الطبيعة ، أي على الإنسان . ولذا كان حكمه ، مهما بدا في صورة منطقية ، على عالم ما وراء الطبيعة ، حكم الأجنبي على غير بيئته ، حكم المتخيل غير المحرب .

والفلسفة الدينية ، وهي الفلسفة المسيحية والإسلامية واليهودية ، لم تخرج من تقليد الفلاسفة الإغريقية في العناية بموضوع « الوجود » وإن كانت على أساس التقيد بما ورد في العقيدة الدينية . ولذا كانت ترى أن مهمتها في التوفيق بين ما ينسب إلى فلاسفة الإغريق من جهة ، وبين ما يقوله الدين من جهة أخرى ، أكثر من الاستمرار في البحث على أساس



الاستقلال ؛ الأساس الذي تميزت به الفلسفة عن الدين . رجال الأفلاطونية الحديثة ، والفنوسطية ، وآباء الكنيسة ، وفلاسفة المسلمين ، وفلاسفة اليهود — كوسى بن ميمون — هُتِنُوا ببحث الوجود ، وعلة الكون أيما عناية ، محاولين تفلسف الدين ، أى التقريب بين وجهتي نظر الفلسفة والدين .

وإذا فقد كان قوام تفلسف الاغريق فيما قبل الميلاد ، وتفلسف رجال الدين فيما بعده حتى آخر القرون الوسطى ، واحداً ، وهو تحديد « الوجود » ؛ ولكن في نظر الفلاسفة باسم علة العلل ، وفي نظر علماء الدين باسم الله . وليس معنى ذلك أن بحث الفلاسفة كان قاصراً على تعرف العلة الأولى ، وبحث رجال الدين لم يتجاوز الله ، بل العلة الأولى أو الله كان بدء البحث — وجوهه كذلك — في نظر الفريقين .



منذ عصر النهضة ، أى منذ أن تحول البحث وتحول الاتجاه فيه عن « ما وراء الطبيعة » الى الطبيعة نفسها ، وعن علة الكون الى الكون نفسه ، انتقلت عاية البحث الفلسفي بالتدريج شيئاً فشيئاً الى الانسان وإلى « عقله وعكسه » ؛ وابتدأنا نرى ديكارت يعرف الفلسفة بالعلم لأصول المعرفة الانسانية ؛ وهيجل من بعده يحدها بعلم العقل المفكر . وحل الفكر الانساني فيما بعد عصر النهضة محل « الوجود » أو المبدأ الأول في العهد القديم ، سواء أ كان في العناية ببحثه أو في الاعتداد به . ولكن مع ذلك ، وإن كان منزلة إضافية الى حد بعيد ، لم ينقل هنا بحث ما وراء الطبيعة ، كما لم ينقل هناك في المصور الأولى لفلسفة بحث الانسان .

هذا التحول يرجع في مده الامر ، أى في أول النهضة ، الى رغبة الباحثين في تجنب الاحتكاك برجال الكنيسة خفية أن يالهم من سلطانهم أذى ، ثم فيما بعد الى تحديد معنى العلم الذي تأثر الى حد كبير بالأبحاث الطبيعية التجريبية والأبحاث الرياضية البصرية . ففي القديم كان معيار العلوم المفاهيم الكلية ثم المطلق الصوري . والآن أصبحت التجارب والتحديدات الرياضية هي المقياس الذي يحتكم إليه في وصف « المعرفة » باليقين أو الاعتبار العام . ولا شك أن نتائج البحث النظري في الإلهيات تبعد كثيراً عما يطلبه المقياس العلمي الحديث . فنترض الباحث لها إذا — على أنها الأهم كما كان الحال في القديم — حكم منه على نفسه بالعزلة عن بيئة الوقت العدية ، وعن موضوع التنافس في البحث . ولذا رأى « كانت » أن اختصاص الفلسفة كعلم هو الناحية العملية وتحديد الحياة الواقعة . أما القسم الإلهي فإن بحثه فلا يحق لها أن تطلب لهذا البحث صفة العلم اليقيني .

وقد كان من أثر هذا التحول والاتجاه أن تطرف بعض الباحثين ، وهم المنقبون بالمعتلين

(Rationalisten) ، في تقويم الانسان ، فقطعوا صلته بالعالم العلوي ولم يصبح « منحدرًا منه » ولا في معرفته معلقًا به ، كما كان الحال في مدارس الاغريق ( أفلاطون وأرسطو ) . ولم يصبح علمه « فيضا » ولا غاية « تشبها بالله » أو « اتحادا به » كما أرادت المدارس الدينية بعدها ، بل أصبح علمه من « ذاته » وإرشاده من « نفسه » ، وأصبح هو الذي يفيض من نفسه على نفسه ، وصاحب الكلمة في هذا الكون .

وكما مال المقياس العلمي الى الحرية والى التعديد المادى ، مال البحث في دائرة الانسان عن الناحية التى يشوبها الظن أو الخيال فيه ، الى الناحية التى هى أقرب الى المشاهدة . وبهذا تولدت ، منذ آخر القرن التاسع عشر ، الرغبة في بحث تصرفات الانسان أكثر من بحث عقله ، وفى بحث طريق اكتسابه المعرفة أكثر من إمكان استغلال معرفته عن التجارب أو عدم إمكانها . وأصبحنا نرى أبحاثا نفسية مجرية بجانب الأبحاث الانسانية العقلية . أصبحنا نرى علم النفس التجريبي بجوار « نظرية المعرفة » وبجوار « مبدأ الواجب » .

فإذا كانت أبحاث ما وراء الطبيعة هى التى لعبت الدور الاول فيما قبل الميلاد حتى القرن الخامس عشر بمده ، فالأبحاث الايتروبولوجية هى التى تركز فيها تفكير الانسان منذ عصر النهضة حتى أوائل القرن العشرين . وإذا تميزت فلسفة الماضى البعيد بأنها (transjendenz) فلسفة الحاضر والنهضة من قبل ( Immanenz ) . محمد البهى

مدرس علم النفس والفلسفة بكلية أصول الدين

## هل من فلسفة اسلامية ؟

نشرنا هذا البحث الممنوع لحضرة الاستاذ الدكتور محمد البهى ، ولنا نقاب على ما كتبه لئلا عليه ، فان كل ما كتبه صحيح في ناحية الفلسفة المادية ، ولكن مجلة الأزهر متى كتبت في الفلسفة فلا يجوز لها أن تقتصر على الناحية المادية منها ، ولا أن تغفل ذكر ما أصاب هذه الفلسفة من تدهور وسقوط أمام المكتشفات الحديثة .

ذكر حضرة الفلسفة الدينية وقصرها بأنها المسيحية والاسلامية واليهودية ، وذكر أن مهمتها كانت التوفيق بين ما ينسب الى فلاسفة الاغريق من جهة وبين ما يقوله الدين من جهة أخرى ، أكثر من الاستمرار في البحث على أساس الاستقلال ، الأساس الذى تميزت به الفلسفة عن الدين . ولكن منذ عهد النهضة في أوروبا ( أى في القرن الخامس عشر والسادس عشر ) تحول البحث عن ( ما وراء الطبيعة ) الى الطبيعة نفسها ، وعن علة الكون ( أو الله ) الى الكون

نفسه . ثم قال : إن نتائج البحث النظري في الإلهيات تعد كثيرا عما يطلبه المقياس العلمي الحديث ، فتمرض الباحث لها ، كما كانت الحال قديما ، حكم منه على نفسه بالعزلة من بيئة الوقت العلمية . . . الخ .

هذا كلام لاشبه فيه من ناحية تصوير النزعة الإلحادية للفلسفة المادية ، وكل ما يعنى من إرادته أن أنبه القارئ أن لا توجد في الاسلام فلسفة مستمدة من الخارج يمكن أن توصف بالدينية أو الاسلامية ، وكل ما وجد في عهد نهضة المسلمين ، أن أفرادا منهم انغمروا بالثقافة اليونانية القديمة ، فأخذوا إخذها في الفلسفة ، واشتغلوا بدراسة مذهب أفلطون وأرسطو ، وأوسعوها قليلا وشرحا ، حتى صاروا زعماءها على عهدهم . ولست أنكر أن هؤلاء حاولوا تطبيقها على الاسلام ؛ ولكن أئمة الدين ، في كل زمان ومكان ، أنكروا عليهم ذلك ، وجاء حجة الاسلام الغزالي في القرن الخامس من الهجرة ، فبُني قصر نظرم ، وضعف أدلتهم في كتاب مشهور له ، دعاه بتهافت الفلاسفة . وانهافت لغة : التساقط قطعة قطعة هلاكا وتلاشيا . فيقال : تهافت القوم : أي تساقطوا موتا ؛ وتهافت النوب : أي تساقط ويلي .

فلذا كان قد حدث في الفلسفة تطور منذ عهد النهضة العلمية الحديثة ، فرجع عن أساسها الاغريقي وهو البحث فيما وراء الطبيعة الى البحث في الطبيعة نفسها ، وعن البحث في علة الكون أو الله الى الكون نفسه ، واعتبرت الفلسفة القديمة لهذا السبب عتيقة رثة ، لا يجوز أن يشتغل بها إلا من يريد أن يتخطى المقياس العلمي الحديث ؛ قلنا إذا كان قد حدث هذا وهو لم يحدث إلا في ناحية الفلسفة المادية ، فلا يصيب الاسلام منه شيء ، وإنما يصيب تلك الفلسفة التي اشتغل بها رجال من أهله منذ نحو ألف سنة . بل يشهد هذا الرجوع عنها ببعد نظر أئمة المسلمين الأولين الذين كرهوا الاشتغال بها على الأسلوب اليوناني ، وبنقوب رأى حجة الاسلام الغزالي في وصف الدين كانوا يشتغلون بها بالتهافت .

ليس فيما نقوله ما يؤيد قول خصوم الاسلام إنه يصد عن الفلسفة ، ولكنه يؤيد أنه يصد عن الخط فيما ليس في متناول العقل الانساني القاصر إدراكه من حقيقة هذا الوجود الصخم ، وعن الجرد على خيالات تعتبر مسلمات ، ويبنى عليها ما يشاء الهوى من أوهام لا تقف عند حد ، ثم يبين فسادها فيما بعد .

كان أساس الفلسفة اليونانية أن للوجود أصلا هو الجوهر الفرد . وما هو هذا الجوهر الفرد في نظرم ؟ كانوا يقولون إنه جرم مادي متناه في الصغر ولا يقبل الانقسام ، تألفت منه جميع ما في العالم من الأجرام العلوية ، وما على الأرض من الأجساد النباتية والحيوانية . وهذا الأصل المادي قديم أزلي . وقد اختلفوا في علة تنوع الصور التي نشأت منه ، فبعضهم

كان يقول إنها نشأت بإرادة إله قادر حكيم ، قدّر لكل منها الصورة التي هو عليها ؛ وبمضهم كان يقول بأنها نشأت على طريقة الاتفاق والخطب .

وكان الأولون يشتنون للانسان روحا غير مادية ، تختلف في عالم أرق من هذا العالم ؛ والآخرين ينكرون الروح ويؤمنون أن الانسان يقضى بفناء جنانه ؛ وللمفريقين في إثبات الروح ونقيها ، وفي إثبات المعاد ونقيها ، أقوال كلها مستمدة من عالم الخيال . فهي ملتئم من نظريات ساذجة ، وأوهام باطلة ، ليس عليها من صحة العلم إلا ما اودعته من المبارات المؤنقة .

قلنا إن أئمة الاسلام قاوموا الفلسفة اليونانية في أول ظهورها ، وتأثروا على منابذتها لا بالوسائل التصفية كما فعل سوام ، ولكن في مجال البحث الحر ، ومما فعلوا ذلك ليعيشوا بدون فلسفة ، معيقة السذج البلبه ، ولكهم فعلوه لأن الاسلام نفسه أتام بحكمة ذات أصول مقررة في كتابه ، وجدوا الفلسفة اليونانية بجانبها قاصرة . ونحن الذين 'بلينا في هذا العهد بوجوب الأخذ بفلسفة تقوم بها عقولنا ، ونسترشد بأصولها في ثقافتنا ، وجب علينا أن نعرض على أفعالنا مبادئ جميع الفلسفات ، وما انتهت اليه العقول من أشكائها لتأخذ بأحسنها .

فلنترك هذا الموضوع جانبا الآن لنعود اليه بعد .

قلنا إن كل ما كتبه حضرة الأستاذ الدكتور البهي صحيح من ناحية الفلسفة المادية . فهي التي حولت البحث عما وراء الطبيعة الى الطبيعة نفسها ، وعن علة الكون ( أو الله ) الى الكون نفسه .

ونريد هنا أن نقول : إنها فعلت ذلك ذهابا منها أن ليس للطبيعة وراء غير العدم ، فإذا ترجى أن نجد في العدم ؟ وأن ليس الكون علة أوجدته ، فهو قد تم عاداته وقواه ، فعلام البحث عن الله ؟ ولكن ليس جميع المفكرين على هذا الرأي ، وخصوصا في هذا العهد الذي حطمت فيه المكتشفات الحديثة أصول المذهب المادى تحطيا ذريعا ، فقد ظهر فيه صمليا أن مذهب الجوهر الفرد المادى وم من الأوهام ، وهو أساس الفلسفة المادية ، إذ ثبت ثبوتا قاطعا أن المادة المحسوسة مؤلفة من كهارب ، وقد اكتشفت وسيلة لتحليلها وأحالتها الى قوة مجردة عن المادية . وقد قام علماء كثيرون نتجارب على الشخصية الانسانية فشوه ذلك أنها وجودا مستقلا واتصالا بعالم أرق منها ، فأصبح بذلك كشف ما وراء الطبيعة أمرا لا بد منه لا يمكن فهم الوجود المادى على حقيقته . وقد تأثرت العقلية الفلسفية بهذه المكتشفات الى حد بعيد ، حتى أحدثت انقلابا خطيرا في وجهات النظر العلمية . جاء في مجلة المقتطف في مجلد سنة ( ١٩١٨ ) تحت عنوان ( البحث الفلسفى الحديث ) ما يأتى :

« من يطالع ما ينشر من الكتب والمقالات الفلسفية يجد أن أصحابها مالوا عن الطريقة العلمية الى الطريقة الروحية » .

ثم أُنحت المجلة على هذا التحول بالاستسكار ، فرأينا أن نلاحظ على هذا الاستسكار بمقال أرسلناه لتلك المجلة ، ونشرته في عددها الذي صدر في يناير سنة ١٩١٩ ، قلنا فيه بمد أن أوردنا قولها :

« هذا كلام صريح بأن الميل العام أخذ يتجه غير الوجهة المادية في المباحث الفلسفية . وهو حادث جدل في تاريخ الفلسفة الأوروبية لا يصح أن يهمل أمره ، ولا أن يملأ تعليلًا بنظرة مجمل ، فإن أوروبا التي باغت أشدها في المباحث المادية ، وذاتت ثمار جهادها فيها عدة قرون ، لا تظهر فيها مثل هذه الحركة اعتباطا ، ولكن لا بد لذلك من علل جذرية بالعام النظر . » ثم طالبنا المجلة بوجوب النظر في تلك العلل وتقديرها .

ونقول هنا : إن العالم العاسق لم يكن في عهد من عهود تاريخ الإنسانية العقلي ، على مثل ما هو عليه اليوم من التدهام والتفكك ، جميع النظريات العلمية الكبرى التي كان يظن أنها تمثل الحقائق الثابتة وُضعت اليوم في الميزان ، وظهرت الثغرات التي كانت محجوبة عن الأنظار فيها ظهورا أفقدها الثقة التي كانت لها إققادا لا مرد له ، وأصبح الناس يتطلعون الى نظريات على الوجود والموجودات تناسب المكتشفات الحديثة في عالم المادة والروح معا .

قال الفيلسوف الكبير ( جيو ) ( Guyau ) في كتابه « لا دينية المستقبل » ( l'Irreligion de l'Avenir ) نافدا المذهب المادى ، وهو كما يدل عليه اسم كتابه ليس من أنصار الأديان : « إذا وُسِّع المذهب المادى وجب عليه أولاً نسبة الحياة الى المنصر العام ، بدلا من أن يفترضه مادة صماء . قال الفيلسوف ( سبنسر ) : « كل حيل من الطبيعيين يكتشف في المادة الموصوفة بالصمى ، قوى ما كان يحلم بوجودها أعلم علماء الطبيعة قبل ذلك بسنين معدودة » : ذلك لأننا لما رأينا أجساما جامدة تحس رغمها عن جهودها الظاهر بتأثير قوى لا يمحى عددها ، ولما أثبتت لنا آلة التحليل الطبقي ( السبكتروسكوب ) بأن الذرات الأرضية تتحرك بالاتفاق مع الذرات الموجودة في الكواكب ، ولما اضطررنا الى أن نستنتج من ذلك أن ذبذبات لا يمحى لها عدد تحترق الفضاء في كل وجهة وتحركة ، لما رأينا ذلك كله وجب علينا أن ندرك كما يقول سبنسر : « أن الوجود ليس بمؤلف من مادة ميتة ، بل هو وجود حي في كل جهة من جهاته ، حتى بأهم معاني هذه الكلمة إن لم يكن بأخص معانيها » . ثم ماد جيو فقال :

« الإصلاح الثانى الذى يحتاج إليه المذهب المادى لكى يفي بحاجة البحث عن العلل الأولية ، هو أن يفترض أن للعادة مع الحياة جرثومة روحانية . وبما أن هذه المادة الأولية هى عبارة عن قوة صالحة للحياة وللفكر معا ، فليس هذا ما يفهم عمليا ولا علميا من معنى

المادة ، فضلا عما يفهم من معنى الأيدروجين ( الذى يظن البعض أنه المادة الأولية ) . فلما دى البحث الذى يأس بيديه كرة الدنيا معتمدا على الحاسة الغليظة ، وهى حاسة اللمس ، يصبح قائلا : الكل مادة ! ولكن المادة نفسها تستحيل فى نظره الى قوة ( كما ثبت من تحليلها ) ، والقوة ليست إلا صورة من صور الحياة ، وعلى هذا يستحيل المذهب المادى الى مذهب روحانى . ونجد مضطرا أمام الكرة الأرضية الدائرة لأن يقول إنها حية . وإذا ذلك يتدخل شخص ثالث يضرب هذه الكرة برجله كما فعل غاليليه ، ويقول نعم هى قوة ، بل حركة ، بل حياة . ومع ذلك فهى أيضا شىء آخر لأنها تفكر فى ، وتدرك ذاتها فى . ، انتهى كلام الفيلسوف جيو .

نعود نحن فنقول : ما الذى حدث فى العالم حتى أصبحت المذاهب التى كانت تزعم أنها راسخة رسوخ الجبال ، تتطاير شمعاً أمام البقد الصارم ؟ حدث ما يحدتلك عنه الأستاذ الكبير ( جوستاف لوبون ) مكتشف تحليل المادة الى قوة ، كما جاء فى كتابه تحول المادة : ( La transformation de la matière ) .

« دامت الثقة فى صحة المقررات الكبرى لعلم المعصرى حافظة لقوتها الى أن حدثت فى الأيام الأخيرة مكتشفات غير منتظرة قصت على الفكر العلمى ( تأمل ) ، الذى كان لا يرى صدوقه إلا عدد قليل من العقول العالية ، بأن يتزعزع ثقة بفكرة عظيمة ، وصارت التناقضات ، والمحاللات العقلية التى فيه ظاهرة للعيان ، بعد أن كانت من الخفاء بحيث لا تبلغها الظنون .

« أدرك الناس على مجل أنهم كانوا مخدوعين ، وأسرعوا يتساءلون : هل كانت الأصول المؤلفة للمقررات اليقينية لمعارفنا الطبيعية ، أكثر من افتراضات واهية تحجب تحت فساتينها جهلا لا يسبر له غور ؟ »

وقال الأستاذ العلامة الرياضى هنرى بوانكاريه العضو بالجمعية العلمى الفرنسى ، فى مقدمة كتابه العلم والافتراض ( La science et l'hypothèse ) صفحة ١ :

« لما تروى العلماء قليلا لا حقوقا مكان الافتراضات من هذه العلوم ، ورأوا أن الرياضى نفسه لا يستطيع الاحتفاء عنها ، وأن التحرة لا تستفى عنها كذلك ، حين ذاك سأل بعضهم بعضا : هل هذه الصروح العلمية على شىء من المثانة ؟ وتحققوا أن نفخة واحدة تجعل عاليها سافلها . فن ألحد على هذا الوحه صار سطحا أيضا ، فان الشك فى كل شىء أو الاعتقاد بكل شىء يعتبران حلين قليلي الكلفة ، فان كلا منهما يفيينا من إصمال الروية . »

نفخة واحدة قد تنسف هذه المقررات العلمية المعتبرة اليوم يقينية ، وتجعل عاليها سافلها ! هكذا يقول الأستاذ الرياضى الكبير هنرى بوانكاريه ، فإذا يكون كلام المحين للعلم ،

الراغبين في أن يروا له حرماً آمناً من الانقلابات والزلازل ، كما كان الناس يتحولون ذلك له من قبل ؟

ذلك ما لا سبيل إليه ، فإدام الوجود غير محدود ، ووسائل الإنسان لدراسته قاصرة على ما تؤتينا به حواسنا الخمس ، وهي لا ترى منه إلا القشور الظاهرة وفي ناحية منه صغيرة ، فلا يمكن أن ينتهي الانساق منه الى مقررات يقينية لا تتزعزع .

وقد أجاد العلامة الكبير ( الدكتور جوستاف لوبون ) مكتشف تحليل المادة فيما قاله في هذا الصدد في كتابه تحول المادة المذكور آنفاً :

« من حسن الحظ لا نرى أكثر ملاءمة للترقي من هذه الفوضى العلمية . فالوجود مغمى بمجهولات لا زواها ، والحجاب الذي يحجبها عنا منسوج غالباً من الآراء الضالة أو الباقصة التي تفرضها علينا تقاليد العلم الرسمى ، فلا يمكن عمل أية خطوة الى أمام إلا بعد تفكك هوى الآراء السابقة . والأمر الشديد الخطر على ارتقاء العقل الانساني ، هو تقديم الظنيات للقراء لا بسة حلل الحقائق المقررة ، على نحو ما تفعله كتب التعليم ، والتناول لوضع تخوم للعلم ، ورسم حدود لما يمكن معرفته كما كان يود ذلك اجوست كومت » .

تقول : إذا كان العلم الذي كان معتمداً في قرار مكين من الثبوت والرسوخ قد انتهت مقرراته السابقة الى ما ترى من زعرع الأركان حيال المكتشفات الجديدة ، فاطنك بالفلسفات وهي لا تقوم إلا على تلك المقررات ، ولا توصف باليقينية لأنها من عالم التفكير والاستنتاج ، وقد اختلف فيها حتى بلغت بأصحابها أبعد حدود التناقض ، وهو أمر لا يحتاج لبيان ؟

وبعد :

فإن ما نشهده في هذا العصر من هذه الثورة العلمية والفلسفية ، ستكون له آثار بعيدة المدى في الطائفة من كبرياء علماء الطبيعة والفلاسفة مما ، فقد كانت وصلت بهم الخيلاء الى أبعد حدود التردد ، حتى زعموا أنهم يستطيعون أن يعلموا جميع الظواهر الوجودية ، حتى الروح الانسانية والقوى العقلية ، بعدد قليل من النوايس الطبيعية ، وهذا من الغرور الذي لا علاج له إلا ما أصابهم من هذا الإيلاس الذي عاجأهم من هذه المكتشفات في عالم الطبيعة المادية نفسها ، لا في عالم الروح كما قد يتوهمه بعض قراء هذه المجلة .

ونحن حين نقدم لقومنا ثمرة ما حصلناه من العلوم والفلسفة ، لا يجوز لنا أن نقدمها إلا على هذا النحو من النقد والتحجيس والتنقلية ، فإن المسلمين عا طولوا به من إقامة مبدأ التثبيت عملاً بقوله تعالى : « يتثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » لا ينبغي أن نحمل اليهم المعلومات إلا عاطلة بوسائل التثبيت والنقد ، لكي يستطيعوا أن يستصفوا

منها الباب المحض فباخذوا به ، أو يتميزوا الظنى المرجوح فيعرفوه ولا يفتروا به . وقراء هذه المجلة الذين يستزلون المعرفة الحقة من ناحيتها لم الحق في هذا الاحتياط نفسه .

لو سرنا على هذا السمت خدمنا المسلمين وقراء مجلة الأزهر خدمة توثق ثمراتها البانمة مباركة موفورة ، وحينئذ من نهاية الآراء الضالة التي قد تنق مائة للدراسة مدة طويلة قبل أن تأخذ طورا جديدا كما يقول الأستاذ الدكتور ( جوستاف لوبون ) في مقدمته التي نشرنا هنا فقرات منها ، فقد قال :

« لا مشاحة في أن الأصول التي كان العلم يختال بها اختيالا لم تنزل كل الزوال ، ولكنها ستبقى أمدا طويلا في نظر الدهاء كحقائق مقررة ، وستستمر الكتب التعليمية على نشرها ، ولكنها قد فقدت كل ما كان لها من مكانة في نظر العلماء الحقيقيين » .

ولما كانت العلوم الطبيعية وفلسفتها أصبحت تنهم على دور الدراسات الاسلامية ، فقد أضفى واحبا على مجلة الأزهر أن تقف لها بالمرصاد ، فتنبه على جهات الضعف فيها ، وعلى ما رآه النقاد من ثلثها ، مع شغفها بتفصيل العوامل التي قضت على العلماء بأن ينهبوا لاختراعهم بها .

هذه الدراسة التحليلية لنظريات العلوم وفلسفتها المبينة عليها إن اعتبرت واجبة في ذاتها ، فهي لطلاب الحقائق الدينية أوجب ، لأنها تؤمنهم خطر التدهور في مزدقات الآراء الاتحادية ، وتهدبهم الى طرق تحييصها بحيث يئس صريدهم فتنتهم أن يهاجمهم من قبلها .

لقد كانت العلوم الطبيعية وفلسفتها في جميع أدوارها خضعا عيدا لطلاب الحقائق العلوية ، حتى جاء زمان كان لا يجرؤ فيه الباحث فيما وراء الطبيعة من العالم غير المنظور أن يظهر نفسه ، تفاديا من أن يسخر منه الناس ويعتبروه من ذوى العقول الساذجة ، ولكننا أصبحنا في زمان يعتبر فيه من يغفل هذا البحث ، مكتفيا بالقشر من الباب ، وليس هذا من سلامة المطرعة ، ومحة النظر في شيء . فعلينا أن نمضي مع المسلم والفلسفة حيث مضى ، وأن نجول معها حيث حالا ، ولكن لا يجوز لنا أن نقف معها حيث وقفا من نعاليمها نفسها يمتقدان أنها وقتية ، بعد ما بلغا رشدهما وتحققا أن الوجود حافل بالمجهولات ، وأن اكتشافا جديدا قد يحدث فيهما انقلابا ما كان يحظر على قلب أوسع الناس تخيلا .

ولم يأت على الناس عهد شهد العلم فيه على نفسه بالعجز ، واعترفت فيه فلسفته بالقصور ، مثل العهد الذي نعيش فيه . فلنتخلص من فتنة الآراء الضيقة ، ولنتقبل علما أرفع ، وفلسفة أوسع ، نستشرق منها نور الحق « ومن لم يحمل الله له نورا فإنه من نور » .

محمد فريد وهدي



## الهجرة

كلما دار الفلك دورته ، وأقبل العام المحررى ، وحزمت المسلمين المطوب ، واشتدت عليهم الكروب ، وأظلمت أمامهم مشا كل الحياة ، هفت قلوبهم ، وتطلعت نفوسهم الى سيرة النبي الكريم ، يستروحون منها ، ويتسمون طائر شذاها ، ويستلهمونها العبر ، ويستوحونها الرشاد .  
 وإنها لرياض تزدهر بجلائل الأعمال وعظام الأمور ، ويرف في ظلها الخير والهدى .  
 وإنها لدستور لو طبقه المسلمون على سائر أممهم لكانوا سادة الأمم وقادة الشعوب ، ولرقت أفرادهم وجماعاتهم ، ولظل بأيديهم صولجان الملك في سائر الأقطار ، ولكانوا الرءوس لا الأذنان ، ولسحبوا الشعوب ولم تمسخ منهم الشعوب .

ولكساجملنا القدوة غيرها فضلتنا ، وحملنا الامام سواها فتجربنا ، وذهبت بنا المذاهب ، وتفرقت بنا الأهواء والشهوات ، فصرنا شيما تنقادنا الأمم تقاذف الكرات ، لا حول لنا ولا قوة ، ولا إرادة إلا حيث يرامنا أن تكون لنا إرادة .

ويقضى الأمر حين تغيب نجم ولا يستأذنون وهم شهود

فإنهم تنفعة من نفعات رسولك ، وشعلة من جذوة إرادته تصلح أحوالنا ، وتعيد مجدنا وسلطاننا ، وتجمع المنفرد من قلوبنا وأهوائنا .



في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مثل عليا للفضائل الانسانية ؛ فيها مثل أعلى للخير والبر والصفاء والوفاء ، والنبات في البأساء ، والصبر على اللاأواء ؛ فيها مثل أعلى للأمانة في أداء الرسالة ، والنضحية في سبيل المبدأ والدفاع عن الحق ، وحسن السياسة والبراعة في القيادة ؛ فيها مثل أعلى للحياء والتواضع ، والشكر والزهو ، والعفة والقناعة ، والجود ، وحسن العشرة ؛ وفيها غير ذلك مما يقصر عنه الوصف ويقف دونه البيان . وضرب الأمثال لهذه الخصال يضيق به هذا المقال .

لولا عجائب صنع الله ما نبئت هدى الفضائل في الحلم ولا عصب

وإذا كان النداء والتصحبة مما يحمد للناس ويقدرونه ، وتلهج بذكره ألسنتهم في هذه الظروف خاصة ، فإن حادث الهجرة وما فعله النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وعلى رضي الله عنهما ، يعتبر مثلاً أعلى للتصحبة والنداء في سبيل المبدأ والمصلحة العامة .

فإنني صلى الله عليه وسلم هاجر من وطنه - والوطن حبيب الى النفس لاصق بالروح -

وفارق أهله وأنصاره وقومه ، أشد ما يكون تعلقاً بهم وحرصاً على البقاء فيهم ، وأعظم ما يكون جهاداً في هدايتهم ، وهدماً على تعديهم في غوايتهم ، حتى عزاه الله بقوله : « إني لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » ، وقوله « فلعلك بارح نفسك على آثامك إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » . ولكن قريشا صاقت به ذرماً بعد أن تعنتت في إيذائه ، وأدافته وصحبه من المذاب ألواناً ، فلم تصل إلى غايتها فيمتنع عن تبليغ رسالته . وضاق محمد بقريش ذرماً بعد أن كشف لهم عن ظلمات الباطل بنور الحق ، فسخر من آلهتهم ، وعاب معتقداتهم ، وسفه أعلامهم ، وضلل آباءهم . فلم يكن من الهجرة من مكة إلى المدينة يد ، حيث تجد الرسالة تربة صالحة تثبت فيها وتنمو وتزدهر ، وتؤتي أكلها بإذن ربها .

فهاجر عليه السلام بعلأ اليقين قلبه بنجاح دعوته ، وركب في رحلته من المراكب أوعرها ، واحتمل من المخاطر أشدها ، وسلك من السبل ما لم يسلك من قبل ، وأوى إلى الكهف هو وصاحبه أبو بكر ثلاثة أيام خوف أن تظفر به قريش ، وأن يلقأ في يده مصباح الرسالة فلا يسطع ضوءها على البشرية ، ولا تتنسم روح السعادة التي قدرها الله . وصرت به عليه السلام لحظات كان الموت قاب قوس منه لولا عناية الله .

روى أن المشركين ظلموا فوق الغار فأشفق أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام : ما ظنك بأثنين الله ثالثهما ؟ فأحسهم الله عن الغار ، فرجعوا يترددون حوله فلم يروه . وروى أن أبا بكر قال للنبي صلى الله عليه وسلم لو نظر أحدهم إلى قدميه لآما .

عناية ضل كيد المشركين بها وما مسكايدهم إلا الأباطيل  
إذ ينظرون وهم لا يبصرونهما كأن أبصارهم من زيفها حول

ولقد طمحه أبو بكر حرارة فراق الأهل والأحبة والوطن ، وشاطره مخاوف الطريق ونصب السفر ، واحتمل خشوة الميش وألم السجن في الغار ثلاثة أيام ، وهو من نبلهم وقاهية وثراء ومكانة في قومه ، وقدّم نفسه في مواطن كثيرة فداء للنبي صلى الله عليه وسلم . قبل إنه لما دخل الغار مزق برده وحشى ما بالغار من رجسرة ، وبقي جحر واحد فسد به عقبه خوف أن تؤذي الحيات والهُوام رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لها ما يقول الناس فيهما نهاراً ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر . وأمر طاهر بن فهيرة مولاه وراعي غنمه أن يريهما عليهما من الغار ليلاً ليأخذنا حاجتهما من لبنها . وكانت أمعاء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما . وعرجت قريش على دار أبي بكر فخرجت إليهم أمعاء فقالوا : أين أبوك ؟ فقالت : لا أدري ، فرفع أبو جهل يده ، وكان فاحشاً ، فطعم خدّها لطمعة طرح من جرائها قرطها ثم انصرف !

وكذلك فعل علي رضي الله عنه : فلقد هزم على الهجرة مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن النبي رأى أن يستقيه بمكة حتى يرد الودائع إلى أربابها ثم يلتحق به — ومكة وقتئذ حميم تسعها قريش بالمؤمنين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم — وقدّم نفسه فداء للنبي صلى الله عليه وسلم فنام على فراشه ليلة أزمع على الهجرة ، وتذثر بردته ليخضع قريشا عنه ، وهو يعلم أنهار قريش عليه ، وحشدهم له ، وتحذرم لقلته ، ويعلم أنه قد بدفهم حرصهم على قتل النبي صلى الله عليه وسلم أن يتمجوا قتلته قبل أن يتميزوا شخصه ؛ كان يعلم ذلك كله ولكن حبه لصاحب الدعوة وتغلغل عقيدة الاسلام في قلبه جملة برخص نفسه وبقف هذا الموقف من الفداء والنضحية !



هذه لحة خاطفة مما كان من النبي وأبي بكر وعلى في حادث الهجرة ، وهي صفحة مشرقة في التاريخ الاسلامي ، فيها المثل الاعلى للفداء والنضحية في سبيل الحق والمقيدة والخير العام .

ولقد حققت الهجرة فني وصاحبيه ما كانت تصبو اليه نفوسهم من نجاح الدعوة وتبليغ الرسالة ، فقد كانت المدينة الثرية الخصبية التي ازدهرت فيها الدعوة واستفاضت الرسالة وعم دورها الافطار والامصار ، ووجد بها عهد ومن هاجر معه أنصارا محليين وأعوانا مجاهدين ، حملوا معه أعباء الرسالة ، وآزروه بأموالهم وأنفسهم ، وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذي أزل معه ؛ فرضى الله ورسوله عنهم . ولهذا اعتبر حادث الهجرة حادثا خطيرا في تاريخ الدعوة الاسلامية ، إذ كان مبدأ لاتتصار الرسول في جهاده في تبليغ الدعوة ، وتوفيقه السياسي في الدافع عنها . وكان من حكمة سيدنا عمر أن يجعل ذلك الحادث مبدأ لتاريخ الهجري ، تخليدا لذكرى ذلك الامر الخطير ، يذكر به المسلمون صفحة من تاريخ نبهم وأصحابه ، ويذكرون ما كان منهم من جهاد في سبيل الحق وفداء في افتدائه . ولقد تنه المسلمون حديثا الى هذا المعنى في ذلك الحادث لجروا على إحيائه في كل عام ، إحياء لتلك الذكريات التي لاحظها عمر القاروق رضي الله عنه ، وسموه عبدا هو في الحق من أجدر الأعياد بالاحتفاء وأولاهها بالإحياء .

ونعد : فاني أتوجه الى المسلمين في هذه المناسبة بأخلص التهانى بعيد الهجرة المبارك ، وأضرع الى الله أن يحول حالهم الى أحسن الاحوال ، ويوجه قلوبهم الى صاحب الذكرى صلوات الله عليه ، ويوفقهم للتأسي بسيرته ، ويغيض عليهم من بركاته ما يصلحهم في دينهم وديارهم .

أبو الوفا المرفعي

## حَيَاتُ خَلِيفَةِ الْأَسْبَابِ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقِ

آية النبوة الأولى ، وتمثل الإسلام الأعلى ، وصنيعة الوحي المثلى ، ومعجزة الشريعة الكبرى ، ومظهر أسرارها ، ومبسط عرفاتها ؛ مَعْدَى التَّقَى ، ومراح الهُدَى ، ومثوى الإخلاص ، وكهف الإيمان ، وملجأ الأمة إذا ادلهمت أمورها ، ومارز الدين عند تفاقم الخطوب ؛ شيخ المؤمنين ، وأول الخلفاء الراشدين ، الذى رأب شعب الأمة ، وكشف بحزمه عنها الغمة ، وجمع بمحكته لها الكلمة ، ولم شعث المسلمين ، وشقت شمل المنافقين ، وقهر المرتدين ، وأعاد الدين فتياً قوياً ، عالياً طاهراً ؛ أرجع الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إيماناً ، وأصنام سريرة ، وأظهرهم خليفة ، وأنقام فطرة ، وأرسلهم يقيناً ، وأعظمهم ديناً ، وأكلمهم نفساً ، وأرهفهم حساً ، وأهداهم عقلاً ، وأخصبهم إنسانية ؛ أرحم المؤمنين بالمؤمنين ؛ أعز الله به الدين ، وأيد به اليقين ، وشده به أزر سيد المرسلين .

عظمة مستسرة ، ونبل يكنفه الجلال ، وعبقريته فذة فاصدة ، سارت فى شوطها على سواء ، كالحلقة المفرغة ، لا يعرف أين بدأت ، ولا أين انتهت ؛ ممو منطور ، وكال منشور ، وفضل منظور ، وسمت مشهور ، وأدب من السماء مصدره ، ومن قدس العزة مورده . وما وزى الحياة لرجل . عمر بن الخطاب ، فاروق الإسلام ، وهو من هو ، فى دوى عظمته وجلاله ، إنما هو حسنة من حسناته ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وهم فى فنون الشرف والعبقرية من هم ، إنما كانوا دعوة من دعوته ؟

وفى الحق إن الباحث فى شخصية أبى بكر الصديق رضى الله عنه ليحار ، ويأخذه البُهر إذا أراد أن يعرض لها صورة تحليلية ؛ فهي كالشمس ، يراها الناظر ، ولكنه لا يستطيع أن يسبر بنظره الكليل غورها ، أو يتعرف كنهها ، أو يحيط بفنون ألوان أشعتها ، فهو يحس حرارتها ، ويرى ضوءها ، ويشهد ثورتها ، ولكنه لا يستطيع أن يحصى عناصر تكوينها .

كذلك كان موقفى حينما أخذت القلم لا كتب عن الصديق الأعظم ، فأنا أعلم وأؤمن أنه أفضل المسلمين وأعظمهم ، ولكن ما هى عناصر هذا السمو الذى أخذ بأرجاء الأرض ثم صعد حتى لامط بالسماء ؟ ما هى ذه أشعة ممو الصديق تضرب بأكتاف الدنيا ، فأنا أراها وأحسها ، ويفعمنى الشعور بها ، ولكنى عاجز عن حصرها ، فتبليت أن أكتب فى سيرته على غرار

ما كتبت في سيرة الخلفاء من رجال الإسلام ؛ وكان الصديق رضوان الله عليه أحق بالتقدمة ؛ وهذا هو سر الاعتدال عن محارزة هذا الحق ، لأنني خشيت أن يأخذني الحديث عنه في محنت لا تواتيني عدتي على إكمال شوطه ، فأردت أن أستاذس بسيرة من استطاع التواريخ أن يرسم لهم صوراً مقاربة تلعب من ثناياها أصواء حياتهم ، حتى يكون ذلك وسيلة لرسم صورة مجملة لشخصية الصديق تنبئ ببعض الحق ، وتوحي إلى قادة الإصلاح في عصرنا طرائق من الخير تعتمد على منازع نفسية من صنع الصير ، ولا تنأيه هذه المظاهر الجوفاء ، ولا تمأباً بصخب الحياة واضطرابها .

في الحديث الشريف أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : « تذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ميلادهما عندي ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم أكبر . » والنسابة يذكرون أن أبا بكر ولد بعد الفيل بعامين وأشهر ، وهم على شبه اتفاق أن النبي صلى الله عليه وسلم ولد عام الفيل ، فالفرق بين سفيهما عامان بنقص أو زيادة على اختلاف الروايات ، يفرع بهما النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ، وهذا الفرق في المعاصرة لا يمثل شيئاً ، فأبو بكر تنسم نسيم الحياة في الزمن الذي تشرفت فيه الدنيا بوجود المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وحاش في البلد الذي عاش فيه ، والبيئة التي نشأ فيها ، فنهض وشب في مكة حول البيت الحرام ، من بيت قرشي ، في بيئة عامة على أفسد ما تكون ، وأحط ما عرف الناس من نظام اجتماعي وكيان حلق ، هي الجزيرة العربية وما تجم به من قبائل متنافرة متناحرة ، عاشت على سفك الدماء ، ونهب الأموال ، وهتك الأعراض ؛ يمددون الأوثان ، ويمتقدون الخرافات ، ويلطفون بالبيت مرايا ، ويتكسبون بأعراض النفاق ؛ يدمسون الخمر ، ويتشدون البنات خيفة العار ، ويقتلون الأبناء خشية الإملاق ، ويستقسمون بالألرام ، ويذبحون للأصنام ، ويلعبون الميسر ، ويدبنون بالهامة ، ويتطرون ، ويتشاءمون ، يستوى في ذلك منهم السيد والمسد ، والفعمسوا في حاتمها ، واتخذوها شعارهم ، واعتدوا بذائلها فضائلهم ، فتصانت في نفوسهم ، فدافعوا عنها دفاعهم عن حياتهم .

وإلى جانب ذلك البيئة الخاصة التي لامست عن قرب أو ملاصقة شخصية أبي بكر في بيت أبي قحافة أحد رجالات بني تيم بن مرة ، فرع قريش سيدة القبائل العربية ، ذات الفخر والخيلاء ، والنظر والكبرياء ، والعنحية الجهلاء ، وخادمة البيت الحرام ، وحامية الدين ، وسادة الأصنام ، وطريق القوافل التجارية قادية ورائحة ، وسوق التجارة للعرب عامة ، تتبادل فيها سلمها ، وتمازج فيها لهجاتها .

فما أثر هاتين البيئتين في تكوين شخصية أبي بكر ؟ وهل استطاعتا أن تجعل منه مثالا يضرب لها كغيره من أبناء العرب ؟ أو أن هناك عوامل خفية أو ظاهرة فوق البيئات انتفعت

أبا بكر من بيته وسببته في غير صوغها ، وأقامته على خلاف طرزها ؟ إن الشذوذ هما ألف الناس من مناهج الطبيعة وقوانينها كثيرا ما يكون من سن خالق الطبيعة تدليلا على إطلاق القدرة الإلهية ، وتقييد العقول البشرية في مداها الخاص مهما بلغت من القوة والنفوذ .

نشأ أبو بكر في مكة أم القرى ، والعرب على ما هم عليه ، لا يحسون بشيء من أحداث الكون إلا ما يجلب لهم الطيز والماء ، لا يبالون في سبيل الحصول عليهما أية طريق حلّكوا ، فلم يكن أبو بكر كأحدهم يشهد بحالهم ، ويقرّ آفامهم ، ويأثي مكرانهم ، ويدين بأبائهم ، ويمتدح حرافتهم ، ويأبه لقرهاتهم ، ويخجل بمرامهم ندينهم ، كلا ، ولكنه كان خلّقا وحده ، وأمة في نفسه ، رأى أن الخمر تنقص العقل فحرمها على نفسه وامتنع عن شربها تمززا وتكرما ، ورأى أن السجود لهذه الأصنام بلادة في الفطرة فترفع عنها ، ورأى أن واد البنات سواة في المروءة ووهن في العرض فلم يأتها مطلقا ، ورأى أن قتل الأولاد حشية الإملاق عجز عن الكسب من أشرف طرائقه فأبى أن يفعله ، ورأى في جميع ما عليه قومه من سوء الخصال ومنكر الحلال مطعنا في رحوته ومفمزا لإسائته ، فاعتزلهم إلا في المحامد والمكارم ، قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب : « وكان أبو بكر في الجاهلية وجيها رئيسا من رؤساء قريش ، وإليه كانت الأشناق ، والأشناق الديات ، كان إذا حمل شيئا قالت قريش : صدقوه ، وأمضوا حمالته وحمالة من قام معه أبو بكر ، وإن احتملها غيره خلفوه ولم يصدقوه » .

ورأى أبو بكر محمد بن عبد الله من بين لداته وأقرانه من شباب قريش أكملهم وأزكاهم ، فصادقه ولازمه وجعله قدوته ، ومجد صلى الله عليه وسلم أكل الخليفة نفسا ، وأعظمهم خلقا ، وأكبرهم قلبا ، وأطهرهم روحا ، وأجلهم أدبا ، وأصدقهم حديثا ، فطرة الله التي فطره عليها ، فتألفا وتحابا ، وأخذ أبو بكر من أخلاق محمد ما اتسمت له فطرته ، وتنبأ له استمداده ، وهذا هو سر ما اشتهر عن أبي بكر من مشابهته لبعض أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة .

ومن أظهر شواهد ذلك حديث ابن الدغنة : روى البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير « أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين ، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفي النهار بكرة وهدية ، فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا نحو أرض الحبشة حتى بلغ بؤك الجهاد لقبه ابن الدغنة وهو سيد القارة ، فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال أبو بكر : أخرجني قومي ، فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربّي ، فقال ابن الدغنة : فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج ، وإنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقرى الصيف ، وتعين على نوائب الحق ، فأنا لك جار ، أرجع واعبد ربك ببلادك ، فرجع واتحل معه ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة عهية في أشراف قريش ، فقال لهم : إن أبا بكر لا يخرج مثله ، ولا يخرج ،

أُتُخْرِجُونَ رَجُلًا يَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ ، وَيَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَيَقْرَأُ الصَّيْفَ ، وَيَعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ ۚ فَلَمْ تَكْذِبْ قُرَيْشٌ بِجَوَارِ بْنِ الدُّغَةِ ، وَقَالُوا لَا بِنَ الدُّغَةِ : صِرَ أَبَا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ ، فَلْيَصِلْ فِيهَا وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ ، وَلَا يُوْذِنَا بِذَلِكَ ، وَلَا يَسْتَمْلِنَ بِهِ ، فَأَنَا نَحْشَى أَنْ يَفْتَنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا ، فَقَالَ ذَلِكَ ابْنُ الدُّغَةِ لِأَبِي بَكْرٍ : فَلَبِثَ أَبُو بَكْرٍ بِذَلِكَ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ وَلَا يَسْتَمْلِنُ بِصَلَاتِهِ وَلَا يَقْرَأُ فِي غَيْرِ دَارِهِ ، ثُمَّ هَذَا لِأَبِي بَكْرٍ قَابَتِي مَسْجِدًا بِنِجَاءِ دَارِهِ ، وَكَانَ يَصِلُ فِيهِ ، وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ ، فَيَتَقَذِّفُ عَلَيْهِ نِسَاءَ الْمُشْرِكِينَ وَأَسَاؤُهُمْ ، وَهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْهُ وَيَسْطَرُونَ إِلَيْهِ ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَاءَ لَا يَمْلِكُ عَيْنُهُ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ ، فَأَفْرَجَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَأَرْسَلُوا إِلَى ابْنِ الدُّغَةِ ، فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالُوا : إِنَّا كَسَا أَجْرَنَا بِمَا بَكَرَ بِجَوَارِكَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ ، فَقَدْ جَاوَزَ ذَلِكَ قَابَتِي مَسْجِدًا بِنِجَاءِ دَارِهِ ، فَأَعْلَنَ بِالصَّلَاةِ وَالْقِرَاءَةِ فِيهِ ، وَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتَنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا ، فَانْهَ ، فَإِنْ أَحْبَبَ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَعَلَّ ، وَإِنْ أَبَى إِلَّا أَنْ يَطْلُ بِذَلِكَ فَسَلِّ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ ذِمَّتُكَ ، فَإِنَّا كَرِهْنَا أَنْ نُخْثِرَكَ وَلِسْنَا مُقَرِّينَ لِأَبِي بَكْرٍ الْأَسْتِمْلَانِ . قَالَتْ عَائِشَةُ : فَأَتَى ابْنَ الدُّغَةِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ : قَدْ عَلِمْتُ الْاَلَّتِي مَاقَدْتُ لَكَ عَلَيْهِ ، فَأَمَّا أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَى ذِمَّتِي ، فَإِنِّي لَا أَحْبِبُ أَنْ تَسْمَعَ الْعَرَبُ أَنَّي أَخْخَرْتُ فِي رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَأَتَى أَرْدَ لَكَ جَوَارِكَ وَأَرْضِي بِجَوَارِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ ضُرُوبٌ مِنَ الْعِلْمِ وَفَنُونَ مِنَ الْفَضَائِلِ ، وَأَوَّلُ ذَلِكَ مَا يَشُدُّ هُنَا فِي صَدْرِ الْحَدِيثِ مِنْ حَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَآلِهِ وَبَيْتِهِ ، وَمُدَاوِمَةُ زِيَارَتِهِ لِهَمِّ طَرَفِ النَّهَارِ فِي أَشَدِّ الْأَوْقَاتِ عَلَيْهِ وَأَحْرَجَهَا ، وَذَلِكَ يُشِيرُ إِلَى مَا ذَكَرْتَاهُ مِنْ اخْتِصَاصِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَبِي بَكْرٍ بِمُحَمَّدَةٍ وَصِدَاقَتِهِ قَبْلَ النَّبُوَّةِ ، فَلَمَّا جَاءَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ وَقَامَتِهِ قُرَيْشٌ أَشَدَّ الْمَقَاوِمَةِ لَمْ يَجِدْ فِي هَذَا الْحَرْجِ مُتَنَفِّسًا إِلَّا بَيْتَ أَخِيهِ وَمُصَاحِبِهِ وَحَبِيبِهِ وَصَفَى شَابَهُ أَبِي بَكْرٍ يَفْضِي إِلَيْهِ بِبَعْضِ مَرَّةٍ .

وَفِيهِ أَيْضًا أَنْ الْأَذَى اشْتَدَّ بِأَبِي بَكْرٍ مَعَ مَكَانَتِهِ فِي قَوْمِهِ نَفْرَجَ مُهَاجِرًا بِدِينِهِ . وَفِيهِ أَنْ سَيِّدَ الْقَارَةِ ابْنَ الدُّغَةِ أَسْكَرَ أَنْ مِثْلَ أَبِي بَكْرٍ يُخْرِجُ أَوْ يُخْرِجُ مِنْ مَلِكِهِ ، وَأَفْرَعَهُ ذَلِكَ مَعْلَلًا بِذِكْرِ بَعْضِ مُنَاقِبِ أَبِي بَكْرٍ ، وَهِيَ صِفَاتٌ مِنْ أَنْفَرِ مُفَاخِرِ الْعَرَبِ ، وَأَصْلُ فَضَائِلِ الْإِنْسَانِيَةِ . وَمِنْ أَلْفِ مَا فِي ذَلِكَ وَأَبْدَعَهُ أَنْ هَذِهِ الْأَوْصَافُ الدَّبِيَّةُ هِيَ تَقْصِبُهَا الَّتِي وَصَفَتْ بِهَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَبْدَأِ الدَّعْوَةِ ، قَالَ السَّلَامَةُ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْإِصَابَةِ : « وَمِنْ أَعْظَمِ مُنَاقِبِ أَبِي بَكْرٍ أَنْ ابْنَ الدُّغَةِ سَيِّدَ الْقَارَةِ لَمَّا رَدَّ إِلَيْهِ جَوَارَهُ بِمَكَّةَ وَصَفَهُ بِنَظِيرِ مَا وَصَفَتْ بِهِ خَدِيجَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَعَثَ ، فَتَوَارَدَا فِيهِمَا عَلَى نَعْتِ وَاحِدٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَوَلَّاهُ عَلَى ذَلِكَ ، وَهَذَا قَائِمٌ فِي مَدْحِهِ ، لِأَنَّ صِفَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْذُ نَفَاكَاتٍ أَوْ كَلِّ الصِّفَاتِ . »

وفي هذا الحديث أيضا أن أبا بكر كان مشهورا معروفا بين قبائل العرب بالخير والفضائل ، حتى أن قريشا لم تكذب بجوار ابن الدغنة حينما أنكر عليهم إخراجهم ، وهو متصف بجميع الخير والبر ، ذكر ابن حجر في الإصابة أن ابن اسحاق قال في السيرة الكبرى : « كان أبو بكر رجلا مؤلفا لقومه محببا مهلا ، وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلمهم بما كان منها من خير أو شر ، وكان تاجرا ذا خلق ومعروف ، وكانوا يلقونه لعمه وتجاربه وحسن مجالسته » . وفي هذا الحديث أيضا إبانة عن أثر الإيمان في نفس أبي بكر ورسوخ أول ما نزل في قلبه . وفيه بيان رقة قلبه وأنه لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن لما يفتح الله عليه من جلائل أسرار .

وفي بيان أثر الإخلاص في أفسى القلوب وأشدّها إعراضا ، حتى أن نساء المشركين وأبناءهم جعلوا يتقذفون على أبي بكر يعجبون منه ، وحتى خشي عليهم منه صناديدهم . وفيه تنجلى ثقة أبي بكر وضوأن الله عليه بربه عز وجل ، وردّه جوار ابن الدغنة ، وركونه إلى حماية الله تبارك وتعالى ، ورضائه بجواره الكريم ما صانوا إبراهيم محروبه

### معدوم يخنى مدينة

كان الحكم بن حنطب من سرة الناس وأجوادهم . قيل لنعيب بن رباح : لقد خرف شمرك أبا محجن ( يريد أنه نضب ) . قال لا ، ولكن خرف الكرم . لقد رأيتني ومدحت الحكم بن حنطب فأعطاني ألف دينار ومائة ناقة وأربعمائة شاة .

وسأل أعرابي الحكم بن حنطب فأعطاه خمسمائة دينار ، فبكي الأعرابي ، فقال ما يبكيك ، لعلك استقلت ما أعطيتك ؟ قال : لا والله ولكني أسكني لما أكل الأرض منك ، ثم أنشأ يقول :

وكان آدم حين حلت وفاته أوصاك وهو يحود بالحواء  
بينه أن ترام فرعتهم فكفبت آدم صلة الإبناء

الحكم بن حنطب هذا قال عنه رجل من أهل منبج : قدم علينا الحكم بن حنطب وهو مملق فأغنانا . فسأله سائل : كيف أغناكم وهو مملق ؟ قال غمنا المسكارم ، فماد غنينا على فقيرنا .



## من أخلاق الشريعة وآدابها

عرضنا في بعض الأعداد السابقة لمأما المبلغ ما أفاضته الشريعة السمحة على الوجود من البر به والحذب عليه ، وما أشادته في بناء الإنسانية وصرح المجتمع من المثل العالية المبنة في الكائنات .

فالأخلاق المثالية المتوارثة تنمو وتزداد نماء على هدى الفرقان والسنة ، لأنها أخلاق بقاء ما بقى هذا الوجود يشع في أجزائه المثل الصالحة . فالشريعة التي حملت الى الإنسانية بين أطوائها فيما حملت الخص على اعتناق الآراء الصحيحة والعقائد السليمة والمبادئ القيمة والمثل العالية ابتغاء توجيهها الى خير طريق وأبلج محجة ، وتحميها الآراء الفطيرة والمعتقدات الصارة الفاسدة التي ترديها في مباءة الشهوات الجائعة والزوات الطامعة ، شريعة البقاء السرمدي ، ووحى الخلق المثالي . ثم هي بعد ذلك تدعو الناس فيما تدعو الى تجنب الأخلاق الصارة الوبيئة الماغبة ، كظن سوء والحقد والحسد ، وتتبع العورات والكبر والاختيال والغبية والتميمة ، ثم تتسامى بالمجتمع فقرشده الى أن الاغراق في المديح لثة أخلاقية لا ينبغي للمسلم أن يتخذها له شعاراً ، وأن السب والقذف واللعن والفحش واحتقار المسلم وهجره والجدل والمراء والهبل وسوء الخلق والكذب والنفاق مما ينبغي لسكل مسلم أن يترفع عنها ، وأن يقي نفسه ضرورها وما كتمها .

أخرج الشيخان في صحيحهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والظن فان الظن أ كذب الحديث ، ولا تحمسوا ولا تجسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً » .

وأخرج أبو داود في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إياكم الحسد فان الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار العشب » .

وهل أبلغ في الدعوة الى اعتناق المثل الفضلى والسير بالإنسانية في أفضل وسائلها وأعلى أنماطها بنبد الفحشاء والبغضاء في القلوب والقضاء على إحن الصدور ووساوس النفوس لتتعاون اللهم العلية الصادقة المؤمنة في بناء صرح الانسان الكامل حتى يؤدي كل رسالته الى المجتمع على طاقته ، من تلك المبادئ النبوية السامية ؟

فنظرة فاحصة الى قصة مثالية يرويها الزبير بن العوام فيما يروي عن الرسول الاعظم تقوم آية الآيات على سمو الدعوة المحمدية بالإنسانية الى أوج الكمال الانساني وأعلى مراتبه . فقد أخرج الامام الترمذي في صحيحه عن الزبير بن العوام رضي الله عنهم عن النبي صلى الله عليه

وسلم أنه قال: «دب إليكم داء الالم قبلكم . الحسد والبغضاء ، هي الحائقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين ، والذي نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أنبئكم بما يثبت ذلكم ؟ أفشوا السلام ببيكم » .

ثم يأتى دور تتبع العورات ، وتتبع العورات من القائص الخلقية التى كفل الشارع حماية المجتمع منها ، فإنها مفسدة لحاق والدين . فالمتبع لعورة أخيه المسلم إنما يبتغى أن تشيع الفاحشة الخلقية فى المؤمنين ، فيأخذ الله لهم بالجزاء حيث يتبع الله عورته ، فإن بدا للمرء ما يحمل على الزينة فى شأن أخيه والتظن به فلا يبينه له أن يأخذ أخاه بذلك الزينة ، وإنما يأخذه باليقين وصادق البينة . فقد أخرج أبو داود والترمذى فى صحيحهما عن أبى رزة أن النبى صلى الله عليه وسلم صعد المنبر فنادى فى الناس بصوت رفيع : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يفيض الايمان الى قلبه : لا تؤدوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورة المسلم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله » .

وقيل لعبد الله بن عمر رضى الله عنه : هذا فلان تقطر لحيته خمرا ، فقال : إنا همينا عن النجس ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به . فالمعبرة المستخلصة من ذلك أن زعيم البيت أو الجماعة أو الأمة إذا حاول أن يستريب فى قومه وأن يشرف مثالبهم على غير بيئة وحجة ، أشاع فيهم الفساد والفرفرة واتقسام الكلمة ، ودلهم على شر مستطير أفله التبرم به والكيد له واخراجهم على أوامره .

ويأتى فى أثر السيوب الاخلاقية الكلام عن الكبر والخيلاء . والكبر والخيلاء خلة تستتبع المقت من الناس بعد المقت من الله ، فقد انفراد سبحانه بالعظمة والكبرياء ، فالمستكبر ينازعه فيهما ويتعداه عليهما .

أخرج أبو داود وسلم فى صحيحهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى : « الكبرياء ردائى والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحدا منهما قفلنفته فى النار » . وأخرج مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » قال رجل : يا رسول الله إني الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا قال : « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وضغط الناس » . وأخرج مسلم أيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم » شيخ زان ، ومالك كذاب ، وطائفة مستكبر » .

فالعبر المستخلصة من تلك المبادئ الاخلاقية شواهد صدق على أن الشريعة السمحة قد أحاطت المجتمع بسياج من الخير صفيق ، وأوحت اليه الشعور بصدق رسالة الانسان الى أخيه الانسان . وإلى الغد ؟

# فعل المؤلف الجليل

خواطرى — تحت ضوء القمر

أحسن ما توصف به الرسالة التي تحمل هذا الاسم أنها عبارة تفكير فاضح صديق في الحياة الإنسانية ، وفي لوجود الذي قذف بها إليه لتتطور فيه ، وفي عوامل هذا التطور ، وفي القواطع التي تحتوشها ، وفي الأهواء والآهوام التي تلازم الطبيعة البشرية وتلوث بها ما تندفع إليه بألوان خداعة ، وفي الجماعة وسلطانها ، والوراثة وتأثيرها ، والتقليد ونتائجها ، وفي النفس والقوى المستكنة فيها ، والمادة التي تستطيع أن تتقي بها شرور المجتمع لو أرادت الخ.

تفكير صديق في كل هذه المناحي مبرر عنه ببارات طلبة أخاذة من قبيل الشعر المنشور يتراوح بين الابداع والاجادة ، وإن كان لا يخلو أحيانا من غموض ، وهو أقل ما يصادف في هذه الرسالة .

أتدري لمن أهدى رسالته هذه ؟ لا الى ذى جاه ، ولا الى ذى مال ، ولكن :

الى الحائر بين أكوام الحياة وضجورها .

الى المظل من نافذة الحياة على الرادى العميق .

الى العالق بصره بالقبح الرائع في جوف الزمن .

الى اللثائم بين الأشواك والرهور .

الى السائر تحت الشعاع المنصب من السماء الى الأرض .

الى الذين انتزعت من حياتهم المعاني .

نما يزيد في إعجابنا بهذه الرسالة أنها لطالب في الجامعة الأزهرية لم تتجاوز سنه العشرين ، هو الأستاذ الشيخ محمود حسين مرمرى . وكنا نود أن ننقل منها فقرات كثيرة ففطنا ضيق الصحيفة ، فنحزى ببعض ما كتبه في مقدمتها وهو قوله :

وسواء أأصنى هؤلاء الحيارى لصوتى أم جعلوا أصابعهم في آذانهم فاني لم أكتبه إلا إجابة للصوت الذي يهنف في داخل الانسان ، وإلا رغبة في أن ينتبه هؤلاء قبل أن نهوى النفوس في الحفر العميقة .

ونحن ندعو لهذه النفس الطيبة الباشطة أن تتأدى الى أفضل ما يذكره عن النفس الهادئة المطمئنة ، وأن يثبت فيها يعتقد ، وأن يبلغ بإيمانه الراسخ الغايات البعيدة ، ليصبح واحدا من

الألمعيات الكثيرة التي تنفذت أحكامها بين أكاف الأزهر ، ويخدم المجتمع الاسلامي في الناحية التي يعمل فيها ، وهي أخمس نواحي الانسانية العاصرة .

### الشموس المشرقات في الخلفات النبوية

يسمع الناس عن الخلفات النبوية ولا يعلمون عنها شيئاً يعنده ، فقبض الله لسد هذه الثلمة في المطبوعات المصرية حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ حسين محمد الرفاعي من أفاضل علماء الأزهر ومن كبار موظفي دار الكتب المصرية ، فوضع كتاباً حافلاً بالمعلومات الدقيقة عن الخلفات النبوية وحلله بصورها . فبدأ بما كان لهي صلى الله عليه وسلم من الأرقاء ومن السيوف والدرع والاقواس والرايات والخيول والدواب والنوق والجمال والأغنام .

ثم نثى بسرده ما هو موجود الى اليوم من تلك الخلفات . فتكلم عن القضيبي والبردة والهمامة والخاتم ، والسري والمنبر . وذكر ما وجد من قدميه صلى الله عليه وسلم في الصغور والمعالم التي كان يلعبها والركاب والشعرات . ويلي ذلك كله سيرة كاملة للنبي صلى الله عليه وسلم . هذا الكتاب فذ في بابه لما اشتمل عليه واستوعب تاريخه مما لا يستر عليه في كتاب آخر . فنشكر لفضيلة مؤلفه حسن صنعه ، ونرجو له زيادة من التوفيق لخدمة دينه وبلاده .

### بحر الأنساب ، وبحر الأنساب المحيط ، ونور الأنوار

هذه ثلاثة كتب مجموعة في كتاب واحد أولها تأليف الاستاذ السيد محمد بن أحمد ابن حميد الدين علي الحسيني النحفي المسابة . والثاني والثالث تأليف حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ السيد حسين محمد الرفاعي ، مؤلف الكتاب المتقدم . فأما الكتابان الأولان فقد تكفلا ببيان أسماء وأنساب وأصول وفروع وتواريخ ووفيات ومناقب ومشاهد جميع الأشراف المبشرين في بقاع الأرض . وهو عمل جد خطير يقتضي من التحقيق والتحصيل والتثبت ما لا يقدم عليه إلا كبار الفيورين على حفظ نسب البيت المحمدي ، وتطهيره من الدخيل . فنشكر فضيلة واضعه ، معجبين بغيرته ، مثنين على همته ، راجين لكتابه الحظ الوفير من الانتشار والذيع .

### الاشتراكات الجديدة

بهذا العدد تبدأ مجلة الأزهر سنتها الثانية عشرة . اشتراكاتها تدفع مقدماً بإذن على يريد الأهر . وتقل تسيط الاشتراك كرجية الطالبين . ونفبه هنا أن لا يكتب في الإذن أمام مكتب البريد ( مصر ) ولكن يكتب بكثابة كلمة الأزهر فقط .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## احتفال الازهر

### بعيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة الملك

حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام يلقى كلمة قيمة فيه

احتفل حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام في مساء الاثنين ١٠ من فبراير ١٩٤١ بعيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ؛ فأتم المسجد أجلة العلماء ورجال الدولة ، وجمهور من كبار الموظفين والوجهاء وطلاب العلم ، حتى حفل بهم على سقته ، فلما كانت الساعة الرابعة نهض حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام وألقى كلمة انتظمت من مناقب جلالة الفاروق في كلمات جزلة منتخبة ، وعبارات فخمة منتخبة ، ما نفذ الى القلوب قبل الاستماع ، حتى ضج الحاضرون بالدهاء لجلالته بأن يحفظ الله وجوده ذخرا لمصر والاسلام ، وأن يطيل من أيامه السعيدة حتى تباغ هذه الأمة في ظل وعائنه كل منها من الرقي والسودد والسلام . ومن أولى من فضيلة الاستاذ الامام بالتحدث عن شمائل جلالته وفضائله في مثل هذا المقام ؟

قال فضيلته حفظه الله :

تقام في أنحاء البلاد حفلات كثيرة ، لأغراض مختلفة ، لكن الحفلات التي تقام في المناسبات الخاصة بصاحب الجلالة الملك فاروق الأول - أعزه الله - لها طابع خاص تمتاز به عن سائر الاحتفالات ، هو طابع الحب الخالص ، والولاء الخالص ، هو الحب الذي يجازى حبه لبلاده ، والإخلاص الذي يجازى إخلاصه لبلاده .

يعرف ذلك من لهم شرف الاتصال ، قليلا أو كثيرا ، بجلالته ، ويدركه الجمهور بالآثار الظاهرة التي تنجدد دائما كلما جد سبب ، وكما وقع نظره الكريم على شيء يلفت النظر .

تعملون أن الحفاء في مصر منتشر بين الطبقات الفقيرة من طبقات العمال والفلاحين ؛ وتعملون أنه داء قديم وقت عليه من قبل أنظار ولاية الامور ، وأنظار الانقياء ، ولم تحرك نفس أحد لمعالجه ، ولم تهز الأريحية أحدا لتخفيفه أو القضاء عليه . وقد سمعتم أخيرا أن جلالة الملك الصادق في براء وإحسانه ، توجه عاينته الى هذا الموضوع ، فرصد له مبلغا دعا الناس الى القدوة ، وإلى انهمار سيل التبرعات للمشروع .

مسألة قد تبدو حقيرة ، لكنها جلية الشأن بأثارها ، وبما تدل عليه . فهي فضلا عن أنها تخفف آلام البؤساء والمعوزين ، وتزيل عن مصر هذه الالامة من العار ، تدر خيرا كثيرا على جميع الصناعات المتعلقة بالجلود ، وتزيد في عدد عمال هذه الصناعات ، فتخفف ألم البطالة عن المتعطلين ، وتنبه المومنين الى واجهم نحو الفقراء وأعمال البر العامة .

وهي أيضا تدل على شدة اليقظة والانتباه من جلالة لآحوال رعيته . والتنبيه الى الامور الصغيرة أمانة التنبيه الى كبريات الحوادث ، والى العظائم من الامور .

أيها الاخوان من العلماء ، والأبناء من الطلبة : لا تمجبوا إن قلت لكم : إنه شرفى صرات بالقاء أسئلة دقيقة على في طريق التعليم والتعلم ، وفهم الأغراض العامة من الدين ، وفي طريق استفادة الأمة من أحكام دينها ، واستفادة جمهور الأمة من علماء الدين . فهو - أعزه الله - شديد الية بأمركم ، كما أنه شديد العناية بأمر غيركم .

وحدث في نفسه الكريمة مرة من المرات ، مرارة من الطرق التي تتبع في بعض المسائل العامة ، والتي لا تأتي قواعد الدين أن تغير بطرق أخرى أفضل منها . ووجدته شديد الإشفاق على تلامذة المكاتب والمدارس ، وعلى غيرهم ممن لا يحسنون قراءة القرآن في المصاحف بسبب صعوبة قراءة الرسم العثماني عليهم . وسألني هل تأتي قواعد الدين العامة إلا هذه الطريقة ؟ فقلت لعل الله يحدث بحد ذلك أمرا ، ولعلنا نجد من آراء بعض سلف الأمة ما يساعد على هذه المشكلة ، ويحقق هذه الرغبة السامية .

لجلالة المليك - حفظه الله - وللأمة آمال جسام في علماء الدين وطلاب العلوم الدينية ، هي الواجبات التي يفرضها الدين ، ويطلبها الوطن ، ويدعو اليها العلم الذي تقتشفون بالانقباض اليه . فان لم تحققوا هذه الآمال فقد جلبتم على أنفسكم الهم ، وحبستم على العلم . والإخلاص لا علم ، والإخلاص لله ، هما أساس النجاح ، وسر القلاح .

وإن نفس أحدا لتتضائل أمامه كلما التفت بظرفه فرقع على ذلك الجهد الجبار ، والآثار الخالدة التي تركها أسلافنا في أصول الفقه وأصول الدين ، وفي الفقه واللغة وفروعها ، وفي غير ذلك ، مما يشير المعجب ، ويدعو الى أجل التقدير . حاولوا الوصول الى أقصى أسرار الدين وأسرار اللغة ، وأحاطوا بذلك كله بسور من القواعد الجلية ، وحاولوا تقريب ذلك كله الى الناس بكل ما عرفوه من الأساليب .

فاذا لم يكن لنا مطمع في زيادة هذه الثروة ، فلا أقل من أن يكون ماتحنا حفظها وفهمها وتقريبها الى الناس . ذلك يكون بأن توهب النفوس للعلم ، وأن تخلص لله .

أسأل الله أن يديم البلاد والعلم والدين ، صاحب الجلالة الملك فاروق الاول ، وأن يرواه برعايته ، ويعينه دعونه ، ويؤيده بتوقيقه ، إنه سميع الدعاء .

# تفسير سورة الحديد

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي  
شيخ الجامع الأزهر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«سَبِّحْهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» :

سبَّحْتُهُ : بَعَّدْتُهُ عَنِ السُّوءِ ، مَاخُذْ مِنْ سَبِّحْ إِذَا ذَهَبَ فِي الْمَاءِ وَأَبْعَدَ .

و « مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » : مَا هُوَ مُسْتَقَرٌّ فِيهِمَا ، وَمَا هُوَ مُتَّصِلٌ بِهِمَا عَلَى أَى نَحْوٍ مِنْ أَنْحَاءِ الْإِتِّصَالِ ؛ فَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ عُلْوِيَّةٍ وَسُفْلِيَّةٍ . وَالْآيَةُ عَلَى هَذَا مُسَاوِيَةٌ لِلْآيَةِ الْآخَرَى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِغْ بِحَمْدِهِ » . جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ تَتَزَعُّهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ حَتَّى لَا يَلِيْقُ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ ، وَتَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ الْوَاحِدُ ، الْمُتَّصِفُ بِجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ ، الْمُبْرَأُ عَنْ صِمَاتِ النُّقُصِ ؛ وَتَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَفْعَالَهُ صَادِرَةٌ عَنْ ذَاتِهِ عَلَى وَفْقِ الْعِلْمِ وَمَقْنُضَى الْحِكْمَةِ ، وَعَلَى أَنَّ جَمِيعَ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ مِنَ الْأَحْكَامِ يَصْدُرُ عَلَى حَسَبِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ لَخِيَرِ الْمَبَادِ ، وَفَقِ النَّظَامِ الْعَامِ الَّذِي قَدَرَهُ .

وَالْأَصْلُ فِي مَعْنَى سَبِّحْ : نَطَقَ بِسُبْحَانَ اللَّهِ أَوْ غَيْرَهَا بِمَا يَدُلُّ عَلَى التَّنْزِيهِ ؛ فَهَلْ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ : « سَبِّحْهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » ، أَوْ هُوَ مَحْمُولٌ عَلَى مَعْنَى آخَرَ غَيْرِ هَذَا ؟ لِلْعُلَمَاءِ فِي هَذَا خِلَافٌ ؛ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى حَمْلِهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، وَأَنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ يَسْبِغُ تَسْبِيحًا اخْتِيَارِيًّا بِصَارَةٍ تَدُلُّ عَلَى التَّصْبِيحِ ، وَأَنَّا نَفْقَهُ بَعْضَ هَذِهِ الْعِبَارَاتِ كَالْعِبَارَاتِ الصَّادِرَةِ عَنِ الْإِنْسَانِ ، وَالصَّادِرَةِ عَنِ الْمَلَائِكَةِ ، وَلَا نَفْقَهُ بَعْضَ هَذِهِ الْعِبَارَاتِ كَالْعِبَارَاتِ الصَّادِرَةِ عَنِ الْجَمَادِ وَبَعْضِ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ . وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِغْ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » ؛ فَقَدْ أَثْبَتَ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ شَيْءٍ تَسْبِيحًا ، وَثَبَّتَ أَنَّا نَفْقَهُ بَعْضَهُ وَلَا نَفْقَهُ بَعْضَهُ ؛ وَلَوْ كَانَ هَذَا التَّسْبِيحُ اعْتِبَارِيًّا يَرْجِعُ إِلَى الدَّلَالَةِ الْعَقْلِيَّةِ

لما كان لهذا التقسيم وجه ، فإن جميع الناس متساوون في إمكان إدراك الدلالة العقلية ، وهي دلالة الموجودات على موجدتها . وأكثر الصوفية على هذا الرأي .

وقد استبعد جمهور العلماء أن تكون للجملات تسميحات اختيارية لا تعقّبها ، وأن تكون الحيوانات تسميحات اختيارية لا تفهمها ، فصرفوا اللفظ عن ظاهره الى معنى آخر ، فالانس والآفاق والسموات والأرض وما فيها من دقة الصنع ، والحكمة العالية في الوضع ، والأسرار الباهرة في الوجود ، والسنى التى يقضى الزمان قبل أن يشاؤها الإدراك « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » ، هذا كله يدل دلالة قاطعة ، وإن كانت متفاوتة حسب تفاوت العقول ودرجاتها ، على إله ، نزه عن النقص في ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه ، إله واجب الوجود ، يشرق وجوده على جميع الموجودات ، ويشرق علمه على جميع المعلومات . وهذه دلالة هي التسبيح المشار اليه بقول الله : « سبح لله ما في السموات والأرض » . ولما كان بعض الناس لم يدرك هذه الدلالة وأنكر الإله والمخلوق ، صح أن يقول الله سبحانه : « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » أى لا يفقه بعضهم هذا التسبيح . وتذييل الآية بقوله سبحانه : « وهو العزيز » الذى يدل على القهر ، يشير الى أن هذا التسبيح فهرى ، والتسبيح الفهرى هو تسبيح الدلالة .

وينبغى أن يعلم أن من الدلالات ما هو اختياري يقع بإرادة الدال كدلالة النطق والاشارة والكتابة عند الانسان ، ومنها ما هو غير اختياري كدلالة المصنوع على الصانع ، والمخلوق على الخالق . والدلالة الثانية لا يعرض لها الكذب ، أما الأولى فهي محتملة للصدق والكذب .

وكل ما في الوجود يدل دلالة عقلية على الله سبحانه ، وعلى تربيته ، يشترك في ذلك الموجودات العاقلة وغير العاقلة ؛ وللموجودات العاقلة عبارات تدل على التنزيه أيضا ؛ لا خلاف في هذا كله ، وإنما الخلاف في أن الجمادات والحيوانات غير الناطقة وما أشبه ذلك هل تسمح لعبارة خاصة بها تدل على تنزيه الله كما يسبح الانسان ، فيكون لها تسبيح اختياري وتسبيح غير اختياري ، أولا تسبح على هذه الصفة ، فلا يكون لها ، لا تسبيح غير اختياري هو تسبيح الدلالة ؟

وقد ذكر التسبيح في هذه السورة بلفظ الماضي ، وكذلك جاء في سورة الحشر وصورة الصف ، وذكر في سورة الجمعة وسورة التغابن بلفظ المضارع . والماضى يدل على الحصول الى زمان الإخبار ، والمضارع يدل على الاستمرار في الحال والاستقبال ، فاكنتفت الصيغة بقسميها جميع الأزمنة ، ودل هذا على أن التسبيح يلزم الموجودات في جميع الأوقات ، وأن ذلك شأنها ودينها ودأبها . ولفظ سبح يتعدى بنفسه ، وقد عدى هنا باللام ؛ ونظير ذلك نصحته ونصحت له ، زيدت اللام لتقوية وصل الفعل بالمفعول .



« وهو العزيز الحكيم » : العزة : حالة تمتع صاحبها من أن يغلب ، مأخوذ من قولهم : أرض عزاز أي صلبة . والحكمة : إصابة الحق بالعلم والعقل ، وإذا أسندت إلى الله سبحانه كان معناها معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الأحكام .

« له ملك السموات والأرض ، يحيى ويميت ، وهو على كل شيء قدير » :

الملك بالضم : صبط الشيء المتصرف فيه بالحكم والملك ؛ فهو أخص من الملك يحيى ويميت : يخلق الحياة والموت ، يفيض الحياة على الميت فيحيى ، ويسلبها عنه فيموت .  
والقدير : البائع القدرة .

بعد أن تبارك الله سبحانه أن جميع الموجودات تنزهه عن كل نقص ، تبين أنه الغالب القاهر الذي لا ينازعه شيء ؛ أوجد كل شيء قدرته ، وأحسن صنعه بحكمته ، لولا جوده ما وجد موجود ، ولولا علمه الواسع وحكمته لما وجد هذا النظام الذي نمار فيه القول ونضل الأفهام « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » . فهو المتصرف في السموات والأرض وما فيهما تصرف المالك الضابط ، المحرك في تصرفه ، القادر القاهر في ملكه ؛ ومن أظهر آفاره الإحياء والإماتة ؛ فهو الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ؛ وهو الذي يفيض على الأحياء الحياة ويسلبها عنهم في الأوقات المقدرة حسب علمه . وهذا الذي صرح به من صفاته لازم للدلالة العقلية التي تدل بها الموجودات على تسبيحه ؛ ولذلك جاء بها عقب التسبيح ؛ وستحى صفات أخرى في الآيات الآتية .

« هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم » :

الأول : السابق في الوجود على جميع الموجودات . والآخر : الذي يبقى بعد فناء جميع الموجودات . أما أنه أول هذا المعنى فأمره ظاهر ، لأنه واجب الوجود ، وجوده مقتضى ذاته ، أو هو الوجود الحق وكل ما عداه فهو هالك في ذاته يحتاج في وجوده إلى إشراق الوجود الحق ، وليس هناك ما يسبق الوجود الحق ، ولا ما يساوى الوجود الحق . وأما أنه آخر بهذا المعنى فليس موضع اتفاق ، وأكثر العلماء على خلافه ؛ فن الناس من ذهب إلى أن كل شيء ينفي وينفى الله وحده « كل من عليها فان وينقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » ، « كل شيء هالك إلا وجهه » ؛ والله تعالى يوصل الثواب إلى أهل الثواب ، والعقاب إلى أهل العقاب ، ثم ينفي الجنة وأهلها ، والنار وأهلها ، والعرش والكرسي ، والملك والملك ، ولا

يبقى مع الله شيء أبداً ، ولا يبعد بعد ذلك شيئاً أبداً ، وكما كان الله ولا شيء معه سيكون الله ولا شيء معه أبداً الآباد . وهذا المذهب ، إن صح ، هو تفسير الآخر . ومن الناس من جرى على هذا الرأي وخالف في الإمامة ، فقال : إن الله بعد أن يقضى كل شيء ويبقى وحده وبذلك يكون آخر (١) يبعد كل شيء مرة أخرى ويبقى أبداً ، وقالوا : بما لا شبهة فيه إمكان بقاء العالم . وهناك إجماع من المسلمين على أبدية الجنة والنار ، والآخرة التي وصف الله بها نفسه لا تتحقق إلا بعد فناء الجميع وبقائه وحده جل وعلا ، وأبدية الجنة والنار المجموع عليها لا تتحقق إلا إذا أعيدت الجنة وأهلها ، والنار وأهلها ، وبقي الكل بعد ذلك أبداً الآباد .

وهناك آراء في تفسير الآخر غير منظور فيها إلى فناء الجنة وأهلها والنار وأهلها ، تدور كلها على اعتبار الأولوية ذاتية كما سبق ، والآخرة اعتبارية . فنها أنه وصف نفسه بأن المرجع والمصير إليه ، فقال : « وإليه ترجع الأمور » ، وفي آية « وإليه المصير » . ومنها أن أول ما أدركه الإنسان ويدركه هو آثار الله سبحانه ، وبهذه الآثار عرف الله ، فهذه الموجودات أدلة عند الإنسان في الحس ، ومنها توصل بالنظر والدليل إلى معرفة الله ، فله سبحانه هو الآخر عند العقل .

وقال حجة الاسلام : الأول يكون أولاً بالإضافة إلى شيء ، والآخر يكون آخراً بالإضافة إلى شيء ، ولا يتصور أن يكون الشيء الواحد من جهة واحدة أولاً وآخر بالإضافة إلى شيء واحد ، فإذا نظرت إلى سلسلة الموجودات المترتبة فله سبحانه بالإضافة إليها أول ، لأنه هو الموجود بذاته وجميع الموجودات استفادت وجودها منه ، وإذا لاحظت ترتيب السلوك في المعرفة وراقبت منازل السالكين فهو تعالى آخر ما ترتقى إليه درجات العارفين ، وكل معرفة تحصل قبل معرفته فهي مرتبة إلى معرفته ، ومعرفته هي المنزل الأقصى ، سبحانه ، فهو أول بالإضافة إلى الوجود ، وآخر بالإضافة إلى السلوك ، سبحانه وتعالى إليه المرجع وإليه المصير . والأول والآخر لا يقالان في صفات الله سبحانه إلا مزدوجين ، وكذلك الظاهر والباطن ، وسبأني بيانهما .

« والظاهر والباطن » : إدراك كنه الموجودات المعكسة بالعقل صير أو مستحيل ، فما باله إدراك الذات الإلهية ، وقد قيل : إن إدراكها هو المعجز عن إدراكها فوجود الله سبحانه تضافرت الأدلة العقلية عليه ، وأجمع عليه الناس ، إلا من أحمى الله بصائرهم . وقد وصفه العلماء الذين لا يمتنعون بدين بما هو لائق بذاته ، وحقيق مجلاله ، وبما تكررهم اليوم وتندارسه . ويؤكد يكون الاعتراف بالإله الخالق فطرياً ضرورياً في غير حاجة إلى الدليل . ولكنه ذات الإله

(١) وعليه سيكون الآخرة في وقت ما ، وليست أبدية كما هي على الرأي الأول .

لا يمكن الوصول اليه بالعقل ، كما أنه لا يمكن إدراك الله أيضا من طريق الحواس . فإذا نظرت اليه من خزانة العقل فوجوده ظاهر ؛ وإذا نظرت اليه من خزانة الحواس فوجوده باطن ؛ كذلك هو باطن في خزانة العقل من جهة السكينة ، فله ظاهر الوجود إن طلب بالعقل ، والله باطن إن طلب كنهه بالعقل ، أو طلب بالحواس .

« وهو بكل شيء عليم » : لا يغيب عن علمه شيء ؛ وهذا الصنع الفتيق في العالم العلوي والسفل شاهد على أن الذي أبدعه محيط به .

« هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش » :

يقال : استوى فلان على هائلته ؛ ومتى عدى بعل اقتضى معنى الاستيلاء ، كقوله : « الرحمن على العرش استوى » ؛ وإذا عدى بالى اقتضى معنى الانتهاء إما بالذات أو بالتدبير ، مثل « ثم استوى الى السماء وهي دخان » .

العرش : يقال : عرشت الكرم وعرشه ، إذا جعلت له كهنة سقف . ومضى مجلس السلطان عرشا اعتبارا بعلوه ، ويكنى به عن العز والسلطان والمملكة .

خلق السموات والأرض من آيات الله الكونية الدالة على وجوده وقدرته ورحمته ، وعلمه الواسع ، فيه آيات بينات يهر الناظرين بمض ظواهرها ، فكيف حال من اطلع على ما فيها من عجائب كشف العلم عن بعضها ، ودل ما عرف على ما لم يعرف ، وهو لا نهاية له ؟

والاحرام السماوية طوائف يبعد بعضها عن بعض بسدا شاسعا ، ولكل طائفة منها نظام عام ، وأقرب تلك الطوائف اليها ما يسمى النظام الشمسي ، منسوب الى الشمس التي يفيض نورها فيكون سببا للحياة في الأرض . وكوكب الشمس يتبعه كواكب مختلفة في أبعادها ومقاديرها ، وقد استقر كل كوكب في موضعه ومداره ، وحفظت النسبة بينه وبين غيره من الكواكب ؛ كل ذلك بسنن إلهية أوجدها القادر الحكيم ، ولولا هذه السنن لتفشت هذه الكواكب السابحة ، وصدم بعضها بعضا ، وهلك العالم .

وقد قلنا إن المراد بالسموات والأرض هو الموجودات ؛ وقد تطلق السموات على ما دون العرش من العالم العلوي ، وبخاصة إذا وصفت بالسبع .

وفي هذه الآية بين الله سبحانه أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ؛ وقال في آية أخرى : « قل أنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجملون له أندادا » ، ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قلنا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات في يومين ، وأوحى في كل سماء أمرا ، وزيّن السماء الدنيا

بمصابيح ، وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم . « . ففي هذه الآية الأخيرة تفصيل لما أُجمل في آية الحديد ، حيث جعل السموات يومين ، وجعل خلق الأرض يومين ، ثم أوجد الرواسي فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في يومين ، فيكون مجموع ما أخذته الأرض وما فيها أربعة أيام ؛ وذلك قوله : « في أربعة أيام » ، أي فعل ذلك كله في أربعة أيام . وجعل ما أخذته السماء يومان : « فقضاهن سبع سموات في يومين ، وأوحى في كل سماء أمرها » .

ولا يعقل أن تكون الأيام الستة في هذه الآية من جنس أيامنا ؛ فإن هذه الأيام وجدت بعد خلق الأرض ؛ ولا بد أن تكون من أيام الله التي يعلمها هو ؛ وقد قال في يوم القيامة : « في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » ، وقال في آية أخرى : « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » . وقد تكون السنة سنة نورية . فالأيام مقادير لأطوار مرت على الخليقة يعلمها الله سبحانه وتعالى ، ويجب أن تقف عن تحديدها ، فإنها لم تحدّد بأخبار صحيحة ؛ والله سبحانه يقول : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » . وقد روى عن أبي هريرة ما يدل على أن الأيام من أيامنا ؛ وتكلم فيه البخاري وغيره من الحفاظ ، وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار ، ولم يجعلوه مرفوعا . والذي قاله البخاري هو الذي يجب التعويل عليه . وفي الاسرائيليات شيء كثير ، وفيها بيان لما صنع في أيام الأسبوع ؛ ولو كانت هناك أية فائدة في بيان جنس الأيام وفي بيان ما صنع في الأيام لأخبرنا الله سبحانه بذلك ، فهو الجواد . والعبرة إنما هي في المخلوق وفي جملة أطوارا . وقد أرشد الله سبحانه في آية فصلت إلى أنه استوى إلى السماء وهي دخان ؛ وقال في سورة الأنبياء : « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقنهما ، وحملنا من الماء كل شيء حي ، أفلا يؤمنون » . وهذا يدل على أن السموات والأرض كانتا مادة واحدة متصلة وفصل بعضها عن بعض ، وهي مادة تشبه الدخان ، ومن هذه المادة خلق السموات ، بدليل « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها ؛ وبذل على أن مادة الدخان بعد الفصل تحول جزء منها إلى ماء ، وبعد ذلك تكونت اليابسة والرواسي ، وبعد ذلك ظهرت الحياة والأقوات . فالأطوار التي مرت على الأرض : الدخان ، ثم الماء ، ثم اليابسة ، ثم الأحياء والأقوات .

ونحن نؤمن بأن الله خلق السموات والأرض في ستة أطوار يعلمها هو ؛ ونؤمن بأن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقنهما ؛ ونؤمن بأن خلق السموات في يومين ، وخلق الأرض وما فيها في أربعة ؛ ونؤمن بأن كل شيء حي فن الماء خلقه ، وأن كل شيء خلقه بقدر ، وما أنزل شيئا إلا بقدر معلوم . وإذا كشف العلماء عن تفاصيل في مادة المخلوق وأطواره لا تنافي ما قرره القرآن فلنا أن نقبلها . وما قيل حتى الآن لا يخرج عن دائرة الظنون والفروض ، فلا يجوز لنا أن نرد به شيئا من القرآن .

« ثم استوى » : مثل مالك عن قوله : « استوى على العرش » كيف استوى ؟ فوجد وجدا شديدا وأخذته الرثخضاء ، ولما سُرى عنه قال : السكيف غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وأخاف أن تكون ضالا ؛ وأمر به فأخرج . وروى عنه أنه قال له : استوى كما وصف نفسه ، وكيف ، عنه مرفوع ، وأنت رجل سوء صاحب بدعة .

ونحن نؤمن بأنه استوى على العرش كما وصف نفسه ؛ وعرشه لا يعلمه البشر إلا بالاسم ، وليس حامله كما يتوهمه الناس ، وتعالى الله عن أن يكون محمولا أو في جهة أو خير ، وتعالى الله عن سمات المخلوقين : « ليس كمثل شيء » وهو السميع البصير . والقرآن يدل على أن العرش لم يزل مستمليا منذ وجد ، بدليل قوله : « وكان عرشه على الماء » . وأقرب ما يقال في الاستواء عند إرادة التأويل أنه التصرف في الموجودات والتحكم منه مع عدم المنازع والمغالبة ، عبر عنه بما يفهمه الناس من استواء الملك على العرش وتمكنه من التصرف في شؤون الملك . وقد نزل القرآن على أساليب العرب ومناحيها ، فنه المجاز ومسه الكناية ، والعقل هو الذي يصرف الالفاظ عن ظاهرها الى ما يليق بجلاله . ولا يجوز أن يتحكم أولئك الجهالة في تفسير القرآن والحديث النبوي ويحملوا الالفاظ على ظاهرها فيوقعوا الناس في التجسيم ولوازم التجسيم . ولولا طائفة من علماء السلف تحقق فيهم الدوق العربي ففهموا دقائق العربية وأسرارها ، ووجد عند المقلد الراجح والعلم الناضج في معرفة الموجودات وطرق الاستدلال ، لضل الناس في فهم القرآن ومناحيه وأسارده ، ودخل في العقائد مالا يريد الله ولا يريد رسول الله ، ودخل في التشريع مالا يريد الله من مجاهدة مصالح العباد .

« يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير » :

الولوج : الدخول في مضيق ، والروج : ذهاب في صعود . ولقطة مع تقتضى الاجتماع في المكان أو الزمان أو الشرف أو الرتبة ؛ وقد تقتضى معنى النصرة فيكون ما يضاف إليه لفظ مع هو المنصور ، نحو « إن الله معنا » « إن الله مع الذين اتقوا » .

ويقال البصر للجراحة المعروفة ، ولقوة الإبصار التي فيها ؛ ويقال لقوة القلب المدركة بصيرة ؛ ويقال لها بصر أيضا .

يعلم الله سبحانه كل ما هو في الأرض من جامد وسائل ، وكل ما يخرج منها من نبات ، وكل ما هو عليها من حيوان وإنسان ؛ ويعلم كل ما ينزل من السماء من مطر وملائكة ورحمة

وعذاب ، وكل ما يصعد إليها من دعاء وملائكة ؛ ويعلم جميع المخلوقات ما خفي وما ظهر ، وهو مع جميع المخلوقات في كل لحظة ، ولو لم يكن معها في كل لحظة لتفتيت ، فإنه موجودها وبجوده أشرق وجوده عليها ، وهو بصير بأعمال العباد ، فإنه قدرها وأرادها قبل أن توجد ، وقد أقدرهم عليها . وقد أجمعت الأمة على تأويل قوله سبحانه : « وهو معكم أينما كنتم » وقوموا أن يكون المراد بها المعية الذاتية ؛ وجعلوها من قبيل التمثيل لإحاطة العلم ، والتصوير لعدم حروجه من علمه أينما كانوا . وعن ابن عباس « وهو معكم » : أي عالم بكم . وهذا الإجماع منهم إجماع على وجوب تأويل كل ما أوم ظاهره تشبيهه الله بالمخلوقات .

« له ملك السموات والأرض ، وإلى الله ترجع الأمور » :

له السلطان المطلق ، والحكم النافذ في السموات والأرض ، وإليه يصير الخلق فيقضى بينهم بحكمه .

« يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وهو عليم بذات الصدور » :

قال عكرمة : « يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل » : قصر هذا في طول هذا وطول هذا في قصر هذا . ومعناه أنه يدخل ما نقص من ساعات الليل في النهار فيجمله زائدا في ساعاته ، ويدخل ما نقص من ساعات النهار في الليل فيجمله زائدا في ساعاته . وفي هذا تنبيه على آثار نعمته وآثار قدرته . واختلاف الليل والنهار وطول هذا بقصر ذاك يجري بحسبان مطرد في جميع البلدان والاقطار . ومثله اختلاف الفصول باختلاف مواقع الطول والعرض ؛ وهذا الاختلاف أثر من آثار مقابلة الأرض للشمس وحركتها بإزائها . وفي اختلاف الفصول والليل والنهار منافع للناس واضحة بينة ، وفيها دلائل على قدرة الإله ، ووحدته هذا النظام البديع المطرد ؛ والناس جميعهم يعرفون منافع هذا كله ، وبعضهم يعرف منافعه ويعرف أسبابه . وقد أرشد الله إلى ذلك كله بقوله : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبينوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب . وكل شيء فصلناه تفصيلا » .

« وهو عليم بذات الصدور » : أي بالنيات الخفية في الصدور ، وبكل ما يهجر فيها

من الخواطر .

# حياة حلال لسان الله

أبو بكر الصديق

- ٢ -

كلما ازداد الباحث إمعاناً في سيرة الصديق الأكبر رضى الله عنه ، ازداد تهيئاً لدراسة حياته دراسة علمية تحليلية ، وتصويرها ترجمة تاريخية ، لأن حياة أبي بكر من طراز خاص بين شخصيات عظماء الوجود ، فليس لها ذلك الدوى الذى يطن في أذن التاريخ لأبطال الحروب ، وقادة الجيوش ، وزعماء الثورات الانقلابية الكبرى في العالم ، ولكنها شخصية تستمد عظمتها الفاعمة من منابع الجلال الروحي الذى اخنص به الأنبياء ، وأحاد من أتباعهم ياتون على رهوس مراحل الحياة ، رموزاً لروحانية النبوة ، ومرآياً تنمكس على صفحتها ظلال الهداية الإلهية ، ومثلاً حياً تحكى للناس تاريخ إشراق شمس الوحي في آفاق الكون حقبة من الزمن تتصل فيها حلقات الخير والإصلاح .

فهم أقدار الدنيا ، والأنبياء قموسها ، ولشمس قوتها ووجها ، ولقمر نوره وصفائه ، ولولا أشعة الشمس ما أضاء القمر ، وإذا أشرقت الشمس ذابت في توجها إشعاعات الكواكب ، واحتجبت أجرامها في كسف وتهاجة من موجات ضوئها ، حتى إذا انخرقت الشمس الى أفق جديدها الكواكب سيرتها الأولى نيرة هادية ، تختلف في قوة الناعما بحسب مواضعها دلواً من مصدر فيضها .

هكذا تنطبع في النفس صورة أفذاذ الصديقين من حواربي الأنبياء ، ووارثي مقامهم في الدعوة الى الخير والهدى ، ومرآيا أنفسهم في صفاء السرمرة ، ومظاهر تعاليمهم في سموها ، ومثل شرائعهم في تكليفهم بها ، فهم أصدق معجزات الرسل ، وأوضحها ، وأوفاهها ، وأسرعها انطلاكا الى القلوب ، وأدعاهها الى الإيمان ، وأهداها الى اليقين ، وتاريخ النبوات في جميع مراحل الحياة مزيل بآيات وشواهد من حياة الصديقين ، ولكنها مغلفة لا تقرأ إلا إذا اكتملت أسفار السورة ، لأنها إعادة لأصدائها ، وتذكير بعبرها ، وتأكيد لحقائقها ، وحفظ لأصولها ، وتثبيت لقواعدها .

ومن ثم كانت هذه العظمة المستسرة في وداعة الإيمان ، والإذعان المطلق في فناء الذات ، ما دامت شمس النبوة مشرقة ، وما دام منبعها فياضاً بالحياة ، هي سر الإبحار في النبوة ،

وسر العبقرية في الصديقية ، وهي نفسها — إذا انتقلت شمس النبوة الى أفق الخلود — تلك العظمة الفذة الفاعمة ، القوة القاهرة ، التي تتضاءل الى جانبها كل مفخرة لكل عظيم ، وتنأج في تيارها داويات العبقریات .

ذاك أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، نسيج وحده في عظمتة الهائلة ، تلك العظمة التي هي أعظم شاهد على ما صورنا به حياة أفاض الصديقين ، صنعه الله على عبده ، فأنزلت من ألال بيئته ، وتساهى من عادات قومه ، فنشأ فيهم أربيا ، نبلا ، حكما ، مافلا ، كريما ، عطوفا ، يواسى الفقراء ، ويعين الضعفاء ، صادق في شبايه أصنى الناس مريوة ، وأظهرهم نفسا ، فكانت تلك الصداقة صيقل نفسه ، ومعنى أنسه ، ومرهف حسه ، وآمن حيث كفر الناس ، وأتقى في سبيل الله حيث أمسك الناس ، لم يكدر يمرض عليه صديقه وصنى نفسه أنه مرسل من عند الله ليخرج الناس من الظلمات الى النور ، حتى أجاب الى الإيمان فلم يتلجلج ، وأسرع الى الاسلام فلم يتخلج ، فكانت له ذخرا خالدا في سجل عظمتة على لسان الصادق المصدوق صلوات الله عليه ، وقال متحدثا عن مفخرة الصديقية في السبق الى الاسلام انسياقا مع العطرة الطاهرة : « ما دعوت أحدا الى الاسلام إلا كانت له كبرة غير أبى بكر » .

فلم يكن شئ أبهج لنفس النبي صلى الله عليه وسلم من إسماع أبى بكر في استجابته لدعوته ، فجاه الصديق لبداره الى تصديقه في كل ما جاء به ، وكان على بن أبى طالب يخلف أن الله تعالى هو الذى سمى أبى بكر على لسان رسوله صديقا .

وهذه لعمر الحق أعظم نزاهة أبى بكر في إسلاميته ، وبها كان الصديق أعظم المسلمين ، وأفضل المؤمنين ، لأن أبى بكر كان أنف قومه ، وكان قومه يضربون بمرق قريح الى أرومة قريش أعز العرب ، حتى لقب كصماء نسبة عتيقا ، ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب ، وابن حجر في الإصابة : أن مصعبا الزبيرى وطائفة من أهل النسب قالوا : « إنما سمى أبو بكر عتيقا لأنه لم يكن في نسبه شئ يعاب به » . وكان وجبها في العرب ، معروفا بالخير والبر ، وكان أنسب العرب وأعلم قريش بأيامها ، وكان من أكثرهم مالا ، روى أبو داود في سننه : أنه أسلم وله أربعون ألف درهم . فلم تكن بأبى بكر حاجة الى التماس وسيلة من وسائل المياداة الدنيوية في غير ما يمكن له حظه من أسباب .

لما سر الجاذبية التي عرجت بأبن أبى قحافة من جاهلية قومه وبلده الى مماء الاسلام ؟ ذلك السر هو شخصية عظمة الصديق التي انطوت عليها نفسه منذ عقدت الحياة بينه وبين حبيبه محمد بن عبد الله أواخر الحب وعصرى الصداقة مذ كانا شابين يستوحيان فطرتهما في كراهية ما عليه الناس ، فسمرت له منه نقعة إنسانية كان بها أبو بكر ذلك الرجل المصطفى لأول قطرة من غيث الهداية الإلهية ، فلما بعث الله محمدا رحمة للعالمين كان أبو بكر أول منازل



تلك الرحمة ، فامن بقلبه وعقله ؛ آمن بقلبه لأنه عرف عملاً صلى الله عليه وسلم فأحبه وصدقته ، وآمن بعقله لأن عمداً صلى الله عليه وسلم أرشده الى كتاب الوجود فقرأ فيه آيات الله شاهدة على عظيم قدرته وجليل حكمته .

وبهذا كان أبو بكر الصديق أول الناس إيماناً ، وأسبقهم إسلاماً ، وأرسخهم يقيناً .  
فالذين يذهبون الى أسبقية علي بن أبي طالب رضي الله عنه الى الاسلام إنما يفتنون إسلام القلب والعاطفة ، لأن علياً كرم الله وجهه كان يوم أن جاء الله بالحق والهدى غلاماً يكنفه النبي صلى الله عليه وسلم بتربيته ، ويرعاه بمحبته ، ويحفظه بنفسه ، فمن الطبيعي أن تكون روحه وعواطفه وإحساساته وشعوره وسلوكه أسيرة توجيه النبي صلى الله عليه وسلم ، فآمن بقلبه وروحه وعواطفه ومشاعره ، وهي كل ما يملك يومئذ من مدارك ؛ أما إيمان التكليف والعقل فاعما يكون إذا استوفى العقل مُنته التكليفية في اعتبار الشريعة المطهرة ؛ ولم نعلم أن أحداً من علماء الاسلام زعم أن علياً كرم الله وجهه حين إيمانه صبيّاً كان مخاطباً بهذا الإيمان خطاب التكليف .

ومهما يكن من أمر فإن كثيراً من آفة الاسلام ذهبوا الى أن أبا بكر رضي الله عنه أول الناس إسلاماً ، وفي طلبعة القاهيين الى هذا خبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ؛ روى الموثقون من أصحاب السير من الشعبي أنه قال : سألت ابن عباس : أي الناس كان أول إسلاماً ؟ فقال : أما سمعت قول حسان :

إذا تذكرت شجوا من أخى ثقة	فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية أتقاها وأصلها	بهد النبي وأوطاها بما حملا
والثاني التالي المحمود مشهده	وأول الناس قدما صدق الرسلا
وثاني اثنين في الفار المنيف وقد	طاف العدو به إذ صعد الجبلا
وكان رجب رسول الله قد علموا	خير البرية لم يعدل به رجلا

وليس استدلال ابن عباس بمجرد شعر حسان ، ولكنه راجع في الحقيقة الى تصديق النبي صلى الله عليه وسلم وإقراره ، بل استحسانه لشعر حسان ؛ وروى ابن عبد البر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان : هل قلت في أبي بكر شيئاً ؟ قال نعم ، فقال : قل وأنا أسمع ، فأنشده هذه الأبيات ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أحسنت يا حسان . ومن ذهب الى ذلك جماعة من التابعين ، منهم إبراهيم النخعي ، وابن الماجشون ، وعبد بن المكدر ، والأخلس ، وجبرم بن القسطلاني في مواهبه ، فقال : وكان أول ذكر آمن بعدها ( السيدة خديجة ) صديق الأمة وأسبقها الى الاسلام أبو بكر ، فأزوره في الله .

ولعلنا نستشف ما ذهبنا إليه من توجيه أسبقية إسلام أبي بكر من قول محمد بن الحنفية

وقد سئل - كما في الإصابة - لاي شيء قدم أبو بكر حتى لا يذكر فيهم غيره؟ قال: لأنه كان أفصلهم إسلاماً حين أسلم، فلم يزل كذلك حتى قبضه الله إليه. وبعض العلماء يذهب إلى التوفيق بين الروايات المختلفة؛ قال الطبري: الأولى التوفيق بين الروايات كلها وتصديقها، فيقال: أول من أسلم مطلقاً خديجة، وأول ذكر أسلم على بن أبي طالب، وهو صبي لم يبلغ، وكان مستغنياً بإسلامه، وأول رجل عربي بالغ أسلم وأظهر إسلامه أبو بكر بن أبي قحافة. قال القسطلاني في المواهب: ويؤيد هذا ما روى عن الحسن أن علي بن أبي طالب قال: سبقني أبو بكر إلى أربع لم أوتهن: سبقني إلى إنشاء الإسلام، وقدم المحبرة، ومماحبته في الفار، وإقام الصلاة، وأنا يومئذ بالشعب، يظهر إسلامه وأخفيه.

وهذه الشهادة من أمير المؤمنين أفضل ما يخرج به على مكانة الصديق في الإسلام، وأنه أول الناس بمد النبي صلى الله عليه وسلم استطاع أن يجسّد أنف الوثنية بإظهار التوحيد، وأن يجسّد الباطل بصورة الحق، وأن يفضي الإسلام في محافل غطارفة قريش وروم الشرك، وأن يقف وحده إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم يباذل ماله في سبيل تبليغ دعوته، ويقوم دونه متعملاً معه أشد أنواع الأذى، صابراً محتسباً، يرى أن أفضل جزاء يناله أن يغدي رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه حتى يبلغ دعوة ربه؛ وروى البخاري في الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال: «يبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلف ثوبه في صفة، فثقبه خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر فأخذ بمنكبه فدفنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: اتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله!». قال العلامة القسطلاني في مواهبه: وقد ذكر العلماء أن أبا بكر رضي الله عنه أفضل من مؤمن آل فرعون، لأن ذلك اقتصر حيث انتصر على اللسان، وأما أبو بكر فانتصر اللسان يداً، ونصر بالقول والفعل مجداً صلى الله عليه وسلم.

وقد امتزج الإيمان بروح الصديق وجسمه وحواصيه، فلم يكن لأشد الآلام تصيبه في سبيل الله، بل قابلها بقطرة الهادئة الوادعة رضاء بقضاء الله، وتأييداً لرسول الله؛ وإذا ثارت نفسه أو غضبت رجولته فإيها هي الثورة لله، والغضب لدين الله، لا يبالى ما يلاقيه في شخصه أو ماله أو أهله؛ وروى ابن عبد البر في الاستيعاب عن أسماء بنت أبي بكر أنهم قالوا لها: ما أشد ما رأيت المشركين بلغوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت: كان المشركون قعوداً في المسجد الحرام، فتذاكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما يقول في آلهتهم، فبينما هم كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاموا إليه، وكانوا إذا سألوه عن شيء صدقهم، فقالوا: ألسنت تقول في آلهتنا كذا وكذا؟ قال: بلى، فتشبهوا به بأجمعهم، فأتى الصريح إلى أبي بكر، فقيل له أدرك صاحبك، فخرج أبو بكر حتى دخل المسجد فوجد رسول الله صلى

الله عليه وسلم والناس مجتمعون عليه ، فقال : ويلسكم ! أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ فلهوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبلوا على أبي بكر يضربونه ، قالت أمّاء : فرجع إليسا فجعل لا يس شيئاً من غداؤه إلا جاء معه ، وهو يقول : تباركت يا ذا الجلال والإكرام !

وكان أبو بكر رضى الله عنه أول خطيب دعا إلى الله تعالى ، وأُتِيَ في إظهار الدعوة ، والنبي صلى الله عليه وسلم بعد الله في قلّة من أصحابه مستخفياً ، فلم يزل به أبو بكر حتى خرج وأظهر أمره ، فقال أبا بكر من الأذى ما كاد أن يأتي على نفسه ، فلم يزد ذلك إلا إيماناً وثباتاً وحباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذكر ابن هشام وغيره في السيرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل دار الأرقم لبعده الله هو ومن معه من أصحابه سرا ، ألح أبو بكر رضى الله عنه في الظهور ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا أبا بكر إنا قليل ، فلم يزل به حتى خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الصحابة رضى الله عنهم ، وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ، ودعا إلى رسول الله ، فهو أول خطيب دعا إلى الله تعالى ، فنار المشركون على أبي بكر رضى الله عنه وعلى المسلمين يضربونهم ، فضربوه ضرباً شديداً ، ووطئ أبو بكر بالأرجل وضرب ضرباً شديداً ، وصار عتبة بن ربيعة يضرب أبا بكر بنعلين مخصوفتين ويحرفهما إلى وجهه حتى صار لا يعرف أنفه من وجهه ، فجاءت بنو تميم يتعادون ، فأجلت المشركين من أبي بكر إلى أن أدخلوه منزله ولا يشكون في موته ، ثم رجعوا فدخلوا المسجد ، فقالوا : والله لئن مات أبو بكر لنقتل عتبة ! ثم رجعوا إلى أبي بكر ، وصار والده أبو قحافة وبنو تميم يكلمونه فلا يجيب حتى آخر النهار ، ثم تكلم وقال : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فمدلوه فصار يكرر ذلك ، فقالت أمه : والله ما لي علم بصاحبك ، فقال : اذهبي إلى أم جميل فاسألها عنه ، وخرجت إليها وقالت لها أن تسأل عن عبد بن عبد الله ، فقالت : لا أعرف هذا ولا أبا بكر ، ثم قالت : تريد أن أخرج معك ؟ قالت : نعم ، فخرجت معها إلى أن جاءت أبا بكر فوجدته صريماً ، فصاحت وقالت : إن قوما نالوا منك هذا لأهل فسق ، وإنى لأرجو أن ينتقم الله منهم ، فقال لها أبو بكر رضى الله عنه : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : هذه أمك ! قال : فلا عين عليك منها ، قالت : سالم ! هو في دار الأرقم ، فقال : والله لا أدوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قالت أمه : فأهلئناه حتى إذا هذأت الرّجل وسكن الناس ، خرجنا به يتكلى ، على حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرق له رقة شديدة ، وأكب عليه يقبله ، وأكب عليه المسنون كذّك ، فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ما بي من بأس إلا ما نال الناس من وجبي ، وهذه أمي برة بولدها فعسى الله أن يستغفرها بك من النار ! فغدا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاها إلى الإسلام فأسلمت .

وفي هذه القصة غير ما قدمناه ضروب من مغاخر الصديق الإسلامية ، ففيها أن رؤساء المشركين كانوا يرون في أبي بكر رضي الله عنه شخصية خطيرة عليهم في مؤازرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك لما يعرفونه عنه من محاسن الشيم وجليل المناقب ، وسعة الثراء ، ورفيع المسكنة ، والشهرة في أحياء العرب ، مما سيكون له أعظم الأثر في نشر الدعوة الإسلامية ، فكانوا يمحسونه بأقصى ألوان الأذى ليفتنوه عن دينه ، ولكن هيهات للدامل أن يصمد طويلا لسطوة الحق وقوة الإيمان !

وفيها إيابة عن مكانة أبي بكر في قومه بنى تيم ، وشرفه عندهم ، وعظيم منزلته بينهم ، فقد فضّلوا حبة له ، وأقسموا إن وقع به شيء ليقنان فيه عتبة ، وهو من هو في سادة قريش ورؤساء المشركين .

وفيها أصدق تصوير لما يكنه أبو بكر من الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو لم يكذب ينيق من غشيته لشدة ما ناله حتى يبادر في أول كلمة يشق بها ، وقومه حواليه ، وهم على غير دينه : « ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ »

وفيها تصوير لحالة المؤمنين في بدء الإسلام ، وأنهم كانوا مغزعين يحشون كل شيء ، فهذه أم جميل مؤمنة صادقة الإيمان ، لم تأمن أم أبي بكر على شيء من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق ، فنشكر معرفتهما ، ولكن قلبها يحذنها شيء فتعنتل حتى تصل إلى أبي بكر ، ولم تملك نفسها إذ رأتها صريحا أن اندفعت صريحة الإيمان ، تدعو بالويل والثبور على من ظلموا منه ، فيتبادلك أبو بكر رغم ما به ويسألها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليطمئن على حياته المقددة ، فتأبى إلا الحذر والشك في أم أبي بكر ، لأنها كانت لا تزال على دين قومها ، فيكشف لها الصديق عن ثقته في أمه ، وتخبره حين تطمئن إلى أنه لا عين عليها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في عافية من كلاءة الله ورحابته . وهنا تتجلى صفات الإيمان الصديقي ، وتظهر معزة الحب الذي ينسى أمر الآلام ، فأبو بكر لم يكذب بسمع إعافية رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ينسى ما حل به ، ويتعامل على نفسه وعلى أمه ليرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويطمئن عليه ، فيرق له رقة شديدة ، ويكذب عليه يقبله ، ويقبله المسلمون .

موقف تعجز أروع الأفلام وأبينها ، وأطلق الألسنة وأفصحها ، عن كشف سرائره العاطفية ، وآياته الوجدانية البالغة ، ولكنه معبر عن نفسه بصورته وآثاره ، وحسبك أنه مرت منه نقعة إلى قلب أم الصديق ، وقد جاءت تسند ولدها ليرى حبيبه ، وهي مشرقة ، ومادت معه بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم تمشي في جناح الخلد إلى عليين !

## الكلام والمتكلمون

- ١٢ -

### تمة الحديث عن متفلسفي التكلمين

أما الموقف الرابع ، فأكثره في الطبيعيات ، إذ عالج فيه المؤلف الجسم المركب وتألفه من بسائطه ، ثم مشكلة قبول الأجسام للنجو إلى غير النهاية أو عدم قبولها ذلك ، وأورد حجج المتكلمين والفلاسفة فيها ، ثم تناول الهوى والصورة وذكر أدلة الفلاسفة على وجودها ، ثم عرض بعد ذلك للأفلاك فذكر دعوى الفلاسفة أنها تسعة ، وتحدث عن الأفلاك المشغولة منها كفلك الثوابت ، وفلكى الشمس والقمر ، والأفلاك الحسة الأخرى ، وعن الخسوف والكسوف والبدر وما شاكل ذلك ، ثم عن العناصر الأربعة ، وأبان أن أولها خفيف مطلق حار يابس وهو النار ، وثانيها خفيف نسبيا ، وهو حار رطب إذا خلى وطبعه ، وبارد بمجاورة الأرض وهو الهواء ، وثالثها ثقيل مطلقا ، وبارد يابس ، وهو الأرض ، ورابعها ثقيل نسبيا ، وهو بارد رطب جامد إذا خلى وطبعه ، ولكن الشمس تذيبه وهو الماء ، وأبان بعد ذلك أن هذه العناصر قابلة للسكون والفساد ، ثم انتقل إلى مشكلة الأرض فقرر أنها كروية ، وأنها من العالم بمثابة المركز .

تحدث بعد ذلك عن النفوس الفلكية والبشرية ، فذكر أنها كلها كائنات مجردة ، وأن النفوس الناطقة حادثة . ثم اختتم هذا الموقف بالحديث عن العقل ، وأنه أول الموجودات عند الحكماء ، وكيفية ترتيب هذه الموجودات في رأيهم .

أما الموقف الخامس — وهو في الإلهيات — فقد تناول فيه المؤلف إثبات الصانع ومخالفته لكل من عده ، وقرر أنه لا ندله ، ثم انتقل بعد ذلك إلى تلك المشكلة التي شغلت الفلاسفة والمتكلمين زمنا طويلا ، وهى : هل وجوده عين ذاته أو غيرها ؟ ثم أثبت بعد ذلك أن البارئ ليس جسما ولا حوهرًا ولا عرضًا ، ولا بمحددة زمان ولا مكان ، ولا يتحد بغيره ، وأن ذاته ليست محلا للحوادث ، وأنه واحد ، حى ، عالم ، مريد ، قادر ، صحيح ، بصير ، متكلم . ثم عرض بعد ذلك لأصناف الاختلاف فيها ، فذكر طائفة من أوجه النظر المتعارضة حولها ، ثم تناول ما يجوز في حق الله وما لا يجوز ، وتكلم في مسألة رؤيته تعالى ، وأبان أوجه الخلاف فيها وفي مثيلاتها من النظريات التي كانت منار جدل عنيف بين الجماعة والمعتزلة كسائل أعمال العباد ، والحسن والقبح ، والمصلح والإصلاح ، وأسماء الله وهل هى توقيفية أولا ، وما شاكل ذلك .

أما الموقف السادس — وهو في السمعيات — فقد أُلِم فيه المؤلف بمسائل النبوات ، ومعنى النبوة والمعجزة ، ونوطة عهد ، والمعاد وحشر الأحصام وآراء الحكماء في ذلك ، ومسألة الجنة والنار وهل هما مخلوقتان ؟ ومسائل الفعو عن الكبيرة ، والحياة في القبر ، وشفاة النبي والصراط والميزان ، والمحوض المورود ، وقراءة سجلات الأعمال ، وشهادة الأعضاء وغيرها مما ورد به الظير ، ثم درس بعد ذلك مسألة حقيقة الإيمان والكفر ، وهل الإيمان يزيد وينقص أولا ؟

وأخيرا عرض لمسألة السياسة ، فتحدث عن الإمامة وما تستتبعه من شروط ، وذكر آراء الفرق المختلفة فيما وقع بعد وفاة النبي من فتن بين المسلمين بسبب الخلافة .

أما التذييل فهو — كما أسلفنا — في ذكر فرق المسلمين ومذاهبهم ، على نحو ما فعل الأشمري والرازي والشهرستاني . وقد ذكرنا أم هذه الفرق وطرقا من آرائها في موضعه ، فارجع اليه . هذا هو مجمل أم ما في كتاب « المواقف » من آراء . ونحسب أنك توافقنا بعد ذلك على أن هذا الكتاب هو أجل ما أنتجه المتكلمون في جميع عصورهم ، وأنتك توافق مؤلفه على أنه قد سد الثغرة التي أحس بها بعد انتهائه من مطالعة كتب أسلافه ومعاصريه .

#### (٨) سعد الدين النفزازي :

##### حياته ومؤلفاته :

هو سعد الدين مسعود بن ممر النفزازي ، وقد ولد في صفر سنة ٧٢٢ هـ سنة ١٣٢٢ م في تفنازان إحدى قرى خراسان الكبرى ولما نشأ تلقى العلم على الأبيجي ، وعلى قطب الدين الرازي . وقد روى بعض المؤرخين أنه هو وأستاذه كانا في عصرهما من العلماء المقربين لدى الملوك والحكام ، وأنه هو الذي قدم الجرجاني إلى المظفر . وحينما احتل تيمور تلك الأصقاع دعاه إلى صمرقند وقربه من مجلسه ومنحه منحة عظيمة . ولما استولى على شيراز في سنة ٧٨٩ هـ سنة ١٣٨٧ م جاء صديقه القديم الجرجاني إلى صمرقند وأقام بها ، فحدثت بينهما منافسة علمية لم تلبث أن تحولت إلى بغض وحقد بينهما جعللا يدها إلى مناقشات عنيفة يلعب من خلالها النحامل أكثر مما تلوح عليها أمارات حب الحقيقة أو خدمة العلم . وقد وجدت نماذج هذه المحاورات الحادة في كتب السيد الجرجاني . وقد حدثتنا خرافة منتشرة في بعض الكتب العربية أن الجرجاني سأل سعد الدين سؤالاً محرجاً في جمع من العلماء والأمراء فلم يعرف جوابه فأت لساعته ، وكان له حفيد طام ، فلما عرف سبب موت جده ، صمم على الأحذ بشأه بنفس الطريقة ، فاتهز فرصة وجود الجرجاني في حفل كبير وألقى عليه سؤالاً عويصاً كانت نتيجته أن خر الجرجاني صريماً جزاء وفاقا . ونحن لا نرتاب في أن هذه خرافة مصنوعة ، ولكن صانها صور فيها بلباقة ودقة ما كان يحدث بين هذين العالمين المتنافسين من مناضلات حادة .

وأخيرا توفي التفتازاني في صمر قند فيما بين ٧٩١ و ٧٩٧ هـ — ١٣٨٩ و ١٣٩٥ م .  
أما مؤلفاته فهي كثيرة جدا ، إذ أنه كتب في علوم مختلفة ، وهذا هو أهمها :

#### في المنطق :

(١) شرح الرسالة الظمسية ، وهو معروف في الهند تحت عنوان « السعدية » ، وهو شرح لكتاب نجم الدين علي بن عمر القزويني . (٢) « تهذيب المنطق والكلام » أو « غاية تهذيب الكلام » في تحرير المنطق والكلام ، وهو مشهور ، وقد نشر عدة مرات . (٣) « المقاصد » وهو معروف . (٤) شرح العقائد النسفية ، وهو ذو قيمة جليلة في البيانات العلمية ، ولا يزال يدرس في الجامعة الأزهرية . وقد أشرنا إليه حين تحدثنا عن الفسفي . (٥) كتاب ضد مخالفات الدين التي وردت — فيما يرى المؤلف — في كتاب « فصوص الحكم » لابن عربي . وربما كان عنوانه : « فضيحة الملحدين » .

#### في التفسير :

(٦) « كشف الامرار وهذه الأبرار » ، وهو تفسير بالفارسية . (٧) شرح الكشاف .

#### في الفقه والأصول :

(٨) « المفتاح » وهو في الفروع الشافعية . (٩) « اختصار شرح تلخيص الجامع الكبير » وهو موجز غير تام لشرح مسعود بن محمد علي تلخيص الخلاطي لكتاب الجامع الكبير للشيباني في الفروع الحنفية ( ١٠ ) مجموعة من فتاوى الحنفية . ( ١١ ) « التلويح الى كشف حقائق التنقيح » وهو شرح لكتاب « تنقيح الأصول » تأليف « صدر الشريعة الصغير » المتوفى في سنة ٧٤٧ هـ — سنة ١٣٤٦ م . ( ١٢ ) « شرح المختصر في الأصول » وهو شرح على شرح الايجي لكتاب « المختصر المنتهى » لابن الحاجب .

#### في البلاغة والنحو :

(١٣) « المطول » . (١٤) « مختصر المعاني » . (١٥) « شرح القمم الثالث من المفتاح » . (١٦) « شرح التصريف العزى » وهو تفسير رسالة عز الدين عبد الوهاب بن ابراهيم الزنجاني . ( ١٧ ) « الإرشاد الهادي » أو « إرشاد الهادي » وقد كتبه خصيصا لابنه .

#### في اللغة :

( ١٨ ) « الهم السوانغ في شرح الكلم النوانغ » وهو تفسير لكتاب الزمخشري المعنون : « الكلم النوانغ » .

## (٩) السيد الجرجاني : حياته ومنتجاته :

هو علي بن محمد السيد الشريف ، ولد في قرية قريبة من سراياذين همدان وبغداد في سنة ٥٧٤ هـ سنة ١١٣٩ م ولا يعرف التاريخ شيئاً يذكر عن شبابه أو عن دراسته ، وإنما هو مبتدئٌ محدثنا منه حين قدمه سعد الدين التفتاراني الى الشاه ، فينبئنا بأن هذا الأخير لم يكده يكتشف دكاهه وعلمه حتى حينه أنشأ في شيراز في سنة ٧٧٩ هـ . وحينما افتتح « تيمور » شيراز بعث به الى سمرقند في سنة ٧٨٩ هـ . ولما توفي تيمور في سنة ٨٠٧ هـ - سنة ١٤٠٤ م استطاع الجرجاني أن يعود الى شيراز ، فماد وظل فيها حتى توفي في سنة ٨١٦ هـ - سنة ١٤١٣ م .

أما مؤلفاته فكثيرة العدد ، كتب بعضها بالعربية ، وبعضها بالفارسية ، وهي في الفلسفة والفلك والفقه . وبين هذه الكتب عدد غير يسير موضوع ، والباقي شروح في هذه المواد المتقدمة . ومن أهمها ما يأتي :

- (١) كتاب التريفات . (٢) شرح موجز على الكشف للزمخشري . (٣) « علم المعاني والبيان » وهو شرح للقسم الثالث من كتاب « مفتاح العلوم » للسكاكي . (٤) شرح على المطول للتفتاراني ، وعلى تلخيص المفتاح . (٥) شرح على الفرائض السراجية للسجاوندي . (٦) حاشية على شرح قطب الدين الرازي على الرسالة الشمسية في القواعد المنطقية للكاتبي . (٧) حاشية على شرح البخاري على كتاب « حكمة المين » . (٨) شرح على كتاب « المواقف » . (٩) « الأصول المطلقة » .

من هذا العرض الموجز الذي أسلفناه لحركة المتكلمين في عصورهم الثلاثة : عصر ما قبل الترجمة ، وعصر سيادة الفلسفة ، وعصر ما بعد الغزالي ، يتبين لنا الدور الذي قام به أولئك المفكرون المتقيدون بالاسلام في أكثر مناحيهم ، والذين بعد أن درسوا الفلاسفة الإغريقية وعضموا كثيرا من نظرياتهم واستفادوا منها أكبر الفائدة ، نصبوا أنفسهم لمهاجرتها ومحاولة النيل منها ، فوفقوا حيناً وأخفقوا أحياناً ؛ وكان إخفاقهم إما لأن النظريات التي كانوا يعرضون أنفسهم لمهاجرتها كانت قسبة الى حشد لم تصل معارفهم إليه ، وإما لأنها تقلت إليهم مشوهة فكانت ردودهم في الحالتين على أساس غير متين ، ولكنهم فيها عدا ذلك كانوا في تاريخ الفكر البشري أعلام شرف ومجد لا ينبغي إغفالها أو التغاضي عنها . ولم لا ؟ ليس الفلاسفة المدرسون الذين تباها بهم أوروبا في العصور الوسطى صورا توشك أن تكون أمينة لأولئك المتكلمين المسلمين في أكثر نزعاتهم العسكرية ، وهم مع ذلك قد حسبوا في عداد الفلاسفة عند الأمم التي تقدر نابضها ؟ وفوق هذا فإن تلك الأمم الناهضة أنفسهم قد ثبتت أسماء عدد غير يسير من هؤلاء المتكلمين المسلمين في سجلات المفكرين الخالدين . ولا ريب أن هذا يجعلنا على المساهمة في إبراز ما خفي من نواحي هؤلاء الأعلام النابغين ؟

البركتور محمد مغرب



## تاريخ الفقه الإسلامي في مصر

— ٩ —

الشافعي

حياته ، مهده بمصر ، هل أثرت مصر في فقهه ،  
أو تأثرت به ؟ نقصد على رأي مشهور .

حياته :

كان الشافعي ، رضى الله عنه ، رجلا كبيرا الهمة ، وثابا المزيمة ، نظارا الى المال ، متطلعا الى الكمال ؛ وكان يساعفه على ما يريد ، ويحده الى ما ينتهى ، طبع صاف ، وعقل حاضر ، وذكاء موهوب ؛ وقد ظلت هذه الصفات تدفعه نحو الكمال منذ حداثة حتى أصبح رجلا من الرجال العالمين ، وسجل اسمه في سجل الخالدين .

حياة بطلا جوانبها النشاط والعمل ، والسعي والدأب ، ورجل يتصل بعضها ببعض ، في صبر وعناية ومثابرة ، وانتهاز لفرص ، وحرص على الانتفاع بكل شيء والنظر في كل شيء ؛ لا أن ترسله الى المعلم كسائر الصبيان ، حتى يلعب المعلم نبوغه ، ويثيب محابيل عبقريته ، فيرضى بأن يحلقه في صملا إذا غاب عنه ؛ ولكن الصبي لا يكتب بهذه المترلة التي يناها من بين إخوانه ، ويلطمع في مترلة أسمى ، فيتردد الى المسجد حيث يجالس العلماء ، ويستمع الى أحاديثهم ، ويسألهم ويحاورهم ، ويحفظ عنهم ، فيلفت بذلك نظر أمه الى ذكائه وحسن استعداده ، فإذا هى ترسله الى البادية ، وتنزله في هذيل ، يقيم معها ما أقامت ، ويرحل معها إذا رحلت ، ويتعلم كلامها ، ويحلق لغتها ، ويروى أشعارها ، ويبلغ من ذلك كله مبلغ العلماء المتأدين ، حتى يقرأ عليه مثل الأصمعي أشعار الهذليين ، ثم لا يكتب بآذان ذلك والبراعة فيه ، ولكنه يتخذ وسيلة الى علم أكبر ، وفنيل أظهر ؛ فهو إذ يتوجه الى مكة راجعا من هذيل ، يلتقي في طريقه رجلا من الزبيديين ، فيتحدث أحدهما الى الآخر حديثا يظهر به الشافعي فني فصيح اللسان عبقرى الذكاء ، فيقول له صاحبه : أيها الفتى ! لمز على ألا يكون مع هذه القصاحة وهذا الذكاء

فقه تسود به أهل زمانك ! فقه ؟ تطرق هذه الكلمة مع الشافعي فتصادف من نفسه هوى لعله كان يحبسه ، وتحدد له معنى لعله كان يضطرب في فؤاده ، فإذا القلب القوي يتوجه الى العلم القوي توجهها ، ويلتفت اليه التفانا بتغير به مجرى حياة هذا الشاب الجريء ، فهو يكشف على الفقه ، فيستوعب ما عند مسلم بن خالد الزنجي منه ، ثم ما عند ابن عيينة والفصل بن عياض ؛ ثم يشرب الى مالك بن أنس إمام دار الهجرة ، فيرحل اليه ، ويقرأ عليه موطأه ويسمع منه ، ويومئذ يرى فيه مالك من علام النجابة مارآه الناس فيه من قبله ، فيقر به اليه ، ويعلم إعجابه به ويتقى على ذكائه ، ووجوده حفظه ، ويصله بمزيل المطايا ، فيذيع في الناس ذكره ، ويطير في الأفاق سيرته ، وتسبقه أينما حل شهرة تفتح أمامه المغاليق ، وتذل له الصعاب ، وتجعله ملء المسامع والأفواه والمقل !

فهل يقف الشافعي عند هذا الحد ؟ وهل يكتفى بهذه المنزلة السامية ؟ كلا ، ولكنه يظل يرحل ويتعلم ويتتقف ، فيجوب أنحاء المملكة الإسلامية طولاً وعرضاً ، ويجادل ذوي الآراء ، وينظر غول العلماء ، ولا يثنيه عن طريقه أن تستيقظ له عيون الحاسدين ، وأن تنثر من حوله التهم والمطاعن ذات الشمال وذات اليمين ، لأنه غلص لله ، واثق بالله ، مطبش الى نفسه .

عنده بمصر :

قدم رضى الله عنه الى مصر في أخريات صمره سنة ١٩٩ هـ بعد أن شرتق في البلاد وغرب ، وبعد أن تعلم وتكلم ، وجادل وناظر ، وكتب وألف ، واستوى ونضج .

وكان كل شيء في مصر يدعوهم إليها ، فله فيها تلاميذ يحبونه ويحرصون على أن يقيم بينهم ؛ والناس في مصر فريقان - كما ذكرنا : فريق يمتنق مذهب الحنفية ويتمصب له ، وفريق يميل الى مذهب المالكية ويواصل معه ؛ فلهذا إذا صار إليهم أن يأتيهم بما يفتنهم به من المذهبين جميعاً ، أو لعل الله يصلح به بين المتخاصمين ؛ ثم هو بحاجة الى أن يستقر قراره ، ويطلق عصا الترحال ، وينفرغ الى كتبه فيدونها ، وينقحها ، ويسجل فيها علمه وآراءه وما استماده طول حياته ؛ ولعله كان أيضاً يحس بدنو منيته ، وقرب أجله ، وأن من الخير له ولاهله أن يقيم بعد طول مارحل 1 وهكذا قدم رضى الله عنه الى مصر ، واشتغل فيها بالفقه والتدريس ، فكان يقرأ كل يوم في مسجد الفسطاط ، ويأبى دروسه وكتبه على تلاميذه ، وكان ينظر العلماء من كل مذهب ، ويشير من حوله نقد الماقدن أحياناً ، وإعجاب الممجين أحياناً ، وحسد الحاسدين ، ولعن الطاعنين ، ولكنه مع ذلك كله كان مثالا يحتذى في العلم والأدب ، والصبر على المساكرة ، وتحمل المحاق ، كما كان مثالا في النشاط ، والمثابرة ، والدأب على الدرس والتحقيق . وقد أمل بمصر كتاب الأم ، والرسالة الأصولية التي تصف لنا منهجه في اجتهاده ، وطريقته في استنباطه ، والتي تحدث فيها عن كثير من مسائل علم الأصول ، وعدها بها أول مؤلف في هذا الفن .

والشافعي مذهبان : قديم ، وجديد ؛ وقد أملى مذهب الجديد بمصر ، ولذلك اشتهر بين كثير من الناس أن هذا المذهب الجديد مصري .

ومن حق القراء أن يساءلوا : أيهما قد تأثر بالأخر ؟ أفقه الشافعي تأثر بمصر ، أم مصر هي التي تأثرت بفقه الشافعي ؟

وكثيرا ما وجهت الى نفسي هذا السؤال ، وربما كنت أميل الى شقه الاول ، وأرى أن الشافعي ما وضع مذهب الجديد إلا بعد أن رأى ما لم يكن قد رأى ، وسمع ما لم يكن قد سمع ، وبعد أن تلقحت هذه العقلية الجبارة بلباق جديد من العلم والرأي والظفر . وقد رأيت كثيرا من الباحثين قد اغتر بمثل ما اغترت به فقرر أن الشافعي قد تأثر في مذهب الجديد بمصر تأثراً ظاهراً ؛ ومن هؤلاء الأستاذ الفاضل أحمد بك أمين .

وقد تبينت — بعد البحث والتأمل — خطأ هذا الرأي ، وأصبحت أجزم بأن الشافعي هو الذي أثر في مصر أثراً ظاهراً ، وأن مصر لم تؤثر فيه أثراً يذكر .

ويحسن لي أن أعرض أمام القراء نص كلام الأستاذ أحمد بك أمين ، ليتبينوا رأيه ، ثم نبع ذلك بنقدي له ، حتى إذا انتهيت من هذا وذاك بسطت رأبي ، إن شاء الله .

يقول الأستاذ أحمد بك أمين (١) :

« والعلماء يقسمون فقه الشافعي الى مذهبن : قديم ، وجديد ؛ فأما القديم فهو ما كتبه وقال به في العراق ؛ وأما الجديد فهو ما كتبه وقال به في مصر ؛ ذلك أنه لما جاء مصر عندل عن بعض أقواله له كان ظاهراً من قبل ؛ وسببه أنه حاط علماء مصر ، وسمع ما صبح عندهم من حديث ، وسمع تلاميذ الليث بن سعد ينقلون عنه آراءه وفقهه ، ورأى بعض حالات اجتماعية تخالف تلك التي رآها في الحجاز والعراق ، فغنى ذلك من فقه الشافعي في بعض أقواله ، وأطلق عليه المذهب الجديد » .

ويقول الأستاذ أيضا (٢) :

« إنه كان للمصريين معاملات لا يتعامل بها أهل العراق ولا الحجازيون ، ونظام الري للنيل في مصر غير نظام دجلة والفرات ، وذلك يستتبع اختلافا في الخراج وما اليه ، وكلاهما يختلف في ذلك عن بلاد لا تعرف أنهاراً كالحجاز ؛ كل هذا وأمثلة كان له أثر كبير في تكوين مذهب الشافعي » .

ويقول الأستاذ في التمهيد لهذا التأثر (٣) :

« ثم هو متأثر بالمصرية أحيانا ، فإذا أراد أن يمثل بصيغة لوقعية مثل لذلك بوقف بيت في القسطنطينية من مصر ؛ ويتكلم في الطين الذي يعرف بالطين الآرميني ، والطين الذي يقال له

(١) سمي الاسلام ج ٢ ص ٢٣١ (٢) سمي الاسلام ج ٢ ص ٢٢١ (٣) سمي الاسلام ج ٢ ص ٢٣٢

طين البحيرة ، وهما يَدْخُلان في الأدوية ، ويقارن بين الطين الآرمي وطين رآه في الحجاز ؛ ويتكلم في القراطيس « وهي مصرية » ، وبين متى يجوز أن تسلف ومتى لا يجوز ؛ ويتكلم في شهادة الشعراء ومن يجوز شهادته منهم ومن لا يجوز ، فيستمل — فيما يظهر — من حال الشعراء في مصر ، إلى أمثال ذلك .

هذا هو رأي الأستاذ أحمد بك أمين كما يصوره قلعه .

وهذا الكلام يمكن ضبطه بإرجاعه إلى مقدمات ونتيجة .

فأما المقدمات فهي :

(١) الشافعي سمع من المصريين بعض الأحاديث التي لم يكن سمعها ، أو أقوى بروايتهم بعض الأحاديث التي كانت ضعيفة عنده من قبل .

(٢) الشافعي رأى من الحالات الاجتماعية في مصر ما يخالف الحالات التي بالعراق والحجاز ، يعني أنه كان للمصريين عرف يخالف عرف العراقيين والحجازيين .

(٣) الشافعي رأى بمصر موضوعات جديدة ، ومسائل فقهية لم ترد على ذهنه في الحجاز والعراق كالقراطيس المصرية مثلا .

وأما النتيجة فهي :

« كل هذا وأمثاله كانت له أثر كبير في تكوين مذهب الشافعي ... غير ذلك من فقه الشافعي في بعض أقواله ، وأطلق عليه المذهب الجديد » .

بهذا قد أصبح رأي الأستاذ مفهومًا راجعًا إلى نقط يمكن مناقشتها وبيان وجه الخطأ فيها ؛ وإليك أيها القراء هذا البيان :

١ — من المعروف أن الشافعي لم يقدم إلى مصر إلا في أواخر حياته بعد أن تركزت ثقافته وتكوينه ، وأنه قد اشتغل بالتدريس في جامع عمرو بن العاص منذ قدومه ، وكان على كتبه التي أنقها من قبل على تلاميذه ؛ وواضح أن ما عليه في هذا النحو لا يمد تأليفاً مصرياً تأثر بمصر والمصريين .

٢ — أن الشافعي لم يبق في مصر أكثر من أربع سنوات كان فيها موضع منافسة ومزاومة ، كما كان مشتغلاً بتوطيد مقامه في هذا الوطن الجديد ؛ ومثل هذا الزمن لا يكفي لتكوين فكرة جديدة تستحق أن يلغى من أجلها مذهب كونه العمر ، وركنونه الرجل والأسفار والمدارسات .

٣ — إن من يرجع إلى المذهب الجديد يرى أكثر المدارك التي يعتمد عليها راجعة

الى الحديث ؛ والتأثر الذي يكون سببه الحديث ، لا يصح أن ينسب الى مصر ، فان أهلها في الرواية متأثرون بغيرهم من الصحابة ، وأعلام المحدثين ، وليسوا مؤثرين .

على أن أخذ الشافعي بحديث ظهرت له صحته لا يجعله متأثرا بأقليم بخصوصه ، فان مذهبه الذي اشتهر وعرف به هو الذي عبر عنه بقوله : « إذا صح الحديث فهو مذهبي » ؛ فإذا بنى مسألة من المسائل على حديث ميمه بالعراق ، فانه لا يكون بذلك متأثرا بالعراق ؛ وكذلك إذا بنى على حديث ميمه بالحجاز أو بمصر ، فان ذلك لا يعد تأثرا بالحجاز أو بمصر ، وإنما هو تأثر بالحديث ، اللهم إلا إذا كانت إضافة هذا التأثير لمصر لأدنى ملازمة كما يقولون !

٤ — التأثر الذي سببه العرف والحالات الاجتماعية ، كما يقول الأستاذ ، لا يكاد يوجد في المذهب الجديد ، ولا يكاد يشعر به من فقهاء الشافعية أحد .

على أن لا تحب أن تقطع لعدم وجود شيء من ذلك ، فلنفرضه موجودا ، ولنفرض أنه كثير ، ولكن العلماء لا يعدون مثل هذا مذهبا جديدا ، فان الاختلاف الذي يكون أساسه العرف لا يعد اختلافا على الحقيقة ، وإنما هو رأي واحد له شقان يطبق أحدهما في عرف ، ويطبق الآخر في عرف غيره .

ولذلك يأتي البَطْنِيُّوسِي والشاطبي أن يعدا العرف من أسباب الاختلاف ، فاذاروى مثلا من فقهيين اختلاف في اعتبار الكفأة في الحُرْف أساسه العرف ، بأن تكون حرفة ما شريفة في عرف قوم ، وضئعة في عرف آخرين ، فلا ينبغي أن يعد ذلك خلافا على الحقيقة ، إذ لو شاهد كل إمام ما شاهد الآخر لقال بما قال .

وإذا لم يعد مثل هذا خلافا حقيقيا مع أن في المسألة قولين ، لكل فقيه قول ، فأولى ألا يعد قول القائل الواحد معتقلا مع نفسه ، ولكن علينا أن نعد الرأي الثاني بمثابة القيد في الرأي الأول ، كأنه قال : الحكم كذا بحسب هذا العرف فإذا تغير فالحكم كذا ؛ ومن الواضح أن المسألة على هذا الوصف لا يظهر فيها كيف أثرت مصر في فقه الامام الشافعي .

أما الأمثلة التي أوردها الأستاذ كشواهد على تأثر الشافعي بالمصرية فلها حديث بعد

هذا الحديث ؟ محمد محمد المرنى

المدرس بكلية الشريعة

## القيمة العلمية لأبحاث المستشرقين

ليس هناك من يستطيع أن ينكر فضل المستشرقين فيما قاموا به من جهود جبارة ، وما أدوا من خدمات في محيط البحث العلمي ؛ فلقد حققوا الكثير من المسائل العلمية ، وأناروا الكثير من البحوث القيمة ، كما نشروا الكثير من أمهات الكتب التي كانت تعتبر مفقودة ، وكان لا يعرف عنها المشتغلون بالعلم إلا الاسم كما وردت في كتب بعض المؤلفين عن النفعوا بها في تأليفهم ؛ ونشرها المستشرقون بعد أن بذلوا غاية ما يمكن من جهد في التقيب عنها في مظانها ، وفي الحصول على أصولها المخطوطة ، غير باخلين بذفع الثمن لأصحاب هذه الأصول مهما بلغ ، وبعد أن أهدوها للانتفاع بها على خير وجه ، بفصل الإخراج المتقن ، والتنظيم العلمي الموافق لقواعد فن الإخراج الحديثة .

وهم لهذا وغيره يستحقون الشكر منا على ما قدموا وبذلوا في سبيل العلم ، كما نستحق أفعالهم عناية الباحثين بتناولونها بالنقد العلمي والترجمة . وإنا نرى بحمد الله هذه العناية تزداد يوما بعد يوم ، ونقرأ للكثيرين في الأيام الأخيرة ما يترجمونه من كتب المستشرقين وأبحاثهم ، وما يتحدثون به عن المستشرقين وعن أعمالهم ، وهو ولا شك حديث قيم يثير اهتمام من له صلة علمية بمؤلاه العلماء ، أو بموضوع الحديث على المواء .

يبد أن الباحث لا بد له من الحيلة والحذر حينما يريد معالجة رأى أو بحث من البحوث الاستشراقية ، حتى لا ينجح في تحديد القيمة العلمية لهذا الرأي أو لذلك البحث المعين بما لصاحبه من صحة علمية طيبة ، وحتى يكون أقرب إلى الصواب والعدل في حكمه وتقديره ؛ فعليه ألا يأخذ الكلام على علته ، وألا ينقله قضية مسلمة ، وإنما يرجع به إلى أصوله ويرده إلى ما أخذه ، ويمتنع صحة الاستنتاج فيه ليرى مقدار تمثيه مع قواعد الحكم الصحيح ؛ وخاصة إذا كان ذلك فيما ينصل بالاسلام وعلومه ؛ فكثيرا ما يكون الأساس الذي اتخذته المستشرق في بحثه وبنى عليه إصدار حكمه في مسألة ما غير صحيح ، وكثيرا ما يكون هدم الفهم للعوامل الأساسية ، أو القياس مع الفارق ، أو الحكم على الاسلام بأعمال المسلمين المخالفة لتعاليم الدين بعد اعتبار أنها صورة من صور الاسلام ، كثيرا ما يكون أحد هذه الأشياء أو غيره سببا لخطأ المستشرق في حكم من أحكامه العلمية .

وقد يكون سبب الخطأ في الحكم قصد المستشرق إلى أن ينتقد الاسلام ، ويظهر في تعاليمه وجهها من وجوه المأخذة ؛ فما لا شك فيه أن بعض الغربيين المختغلين بالعلوم الاسلامية لم يمن بدراسة مبادئ الاسلام وعلومه إلا ليكون ذلك وسيلة لأن ينتقده ، وطمعا في استطاعته

بهذه الوسيلة أن يرد شيئا من مبادئه . وهذه الطائفة من الباحثين كانت في مبدئها تتمد الى تحريف الحكم عن مواضعه ، فتقدم الى شعوبها باللغة اللاتينية أو بلغاتها المختلفة صورة مشوهة للإسلام ، ثم تمقب على ذلك بإصدار أحكامها المفروسة في تحديد القيم للمبادئ الإسلامية ؛ وهذه الأحكام المبينة المبنية على التحيز والصادرة عن الغرض ، كانت تصادف هوى في نفوس المسيحيين وترضى طائفة بغيرهم للشعوب المسلمة . وما زالت هذه طريقته في مناوأة الإسلام وكناباتهم عنه بنقلهم المبادئ الإسلامية مشوهة الى شعوبهم ، ما زالوا كذلك حتى سلك الأستاذ هادريان ريلاند Hadrian Reland (١) في ذلك سبيلا آخر ، فعمد أولا الى تقديم صورة صحيحة لتعاليم الإسلامية ، والى تصحيح الأخطاء التي كانت شائعة في ذلك الوقت عن مبادئ الإسلام في كتابين (٢) ألفهما باللغة اللاتينية ؛ وكان بذلك أول من أعطى صورة علمية صحيحة لتعاليم الإسلام من علماء الغرب كما يقول الأستاذ ( Gustav Pfannmuller ) (٣) . ولقد قامت ضجة كبرى في الأوساط المسيحية عند ظهور كتاب ريلاند الثاني ، واتهم عمالان للإسلام ضد النصرانية ، ووصف بأنه من دعاة الإسلام المبشرين به ، وانخذلت الكنيسة ضد الإجراءات التي كانت متبعة في ذلك الحين ضد « الملحدين » فأثبت كتابه في قائمة الكتب المحرمة ( Index librorum prohibitorum ) . ولكن الأمر كان على غير ما يتخفى الكنيسة ، وكان في عملها أكبر دعاية للكتاب ، فراج رواجا كبيرا ، ولم تمنع هذه الضجة التي قامت حول ظهوره — كما يقول الأستاذ Pfannmuller — من ترجمته الى الانكليزية والفرنسية والألمانية والهولندية والاسبانية ، ومن أن يصبح مرجعا للباحثين في تعاليم الإسلام من الغربيين .

والمبرة في هذا هي أن الأستاذ ريلاند ما كان يبغى بتصحيحه للأخطاء الشائعة في وقته عن المبادئ الإسلامية ، وبترديده للشعوب المسيحية صورة صحيحة عن تعاليم الإسلام ، ما كان يبغى بهذا إلا وضع أساس علمي على الطريقة التي يرضاها لما كان ينويه من مهاجمة الإسلام باسم النصرانية التي كان يمتنعها دينه ، ويريد الدفاع عنها بمهاجمة ونجريح الإسلام ، ذلك الدين القويم صاحب التعاليم القوية والمنطق الصحيح ؛ فهو يريد أولا أن يدرس المبادئ الإسلامية كما يعرفها ويقرها المسلمون ، يريد أن يقدم لها صورة صحيحة ، ثم يحاول بعد هذا إيجاد مأخذ وفتح باب يلجحه للمهاجمة والنقد . هذا ما قصد إليه ، وذلك ما دافع به عنه

(١) عاش الأستاذ Reland من ١٦٧٦ — ١٧١٨ م وكان أستاذ اللغات الشرقية بجامعة أوترخت Utrecht الهولندية . (٢) ما كتاب ( Compendium theologiae ، Mohammedicae arabice et latine ) . (٣) ( De nonnullis quae falso ، Mohammedanis tribuntur ) . (٤) راجع ص ٦٤ من كتاب Handbuch der Islam-Literatur للأستاذ المذكور طبع سنة ١٩٢٤ م وإخراج دار الطباعة ببرلين لصاحبها Walter de Gruyter .

أستاذة ومقدروه فيما بعد ، أمثال الأستاذ Pfamuller (١) ؛ وأيضا هذا هو ما صرح به ويلاند نفسه في مقدمة كتابه ، وقد كتبها طعما قبل صدور الكتاب ، وقبل أن تثار الضجة حوله ؛ فلا شك أنه يقصد ما يقول ؛ فإنا نرى هذا الباحث الناثر بعد أن يصرح بأن الاسلام ، كسائر الأديان ، قد افترى عليه معارضوه ، واعتدوا على أتباعه ، وأشاعوا عنه ما ليس منه ، إما عن قصد وعمد أو عن جهل وعدم فهم ، كما كان موقف الوثنيين مع اليهودية والنصرانية ومع اليهود والنصارى ، وكما فعل الكاثوليك مع لوتر وأتباعه ومع سائر المصلحين الدينيين من المسيحيين وقت ظهورهم . بعد أن صرح بهذا وصرح بأنه سيقدم على إخراج كتابه فيلشر بذلك صورة حقيقية لتعاليم الاسلام ، كما تنفذ في المساجد وتدرس في مدارس المسلمين ، لا كما شوها بعض الغربيين ، وبأنه سيفعل ذلك بالرغم من اعتقاده بأن أعداءه سيتهمزون هذه الفرصة للتشهير به والنيل منه ، فهو لا يبالي بما عساه يحدث لأنه من طلاب الحقيقة ، وم يبحثون عنها ويطلبونها أنى كانت وحيث وجدت ؛ نراه بعد أن يصرح بكل هذا يقول ما معناه : (٢)

« حقا إن الاسلام دين خطير ، دين شديد الأضرار بالديانة المسيحية ؛ ولكن أيجوز لنا هذا أن نهمله ولا نغنى بشأنه وندرسه ؟ أم الواجب علينا هو أن نبخته ونكشف عن خفاياه ، كما نبحت عن خفايا الشيطان ونكشف عن حيلته ؟ نعم الواجب علينا هو أن نغنى كل العناية بأن يكون من أغراضنا العمل على معرفة الدين الاسلامي ودراسته على حقيقته ، فذلك أعون لنا على مكافحته ومعارضته بقوة وثبات » .

فهو إذاً يشارك غيره من طائفته في العزم على مكافحة الاسلام ومعارضته بقوة وثبات ، وإن اختلفت الطرق .

تلك جملة من الأسباب التي قد تدعو الى خطأ بعض المستشرقين في بحوثهم المتعلقة بالاسلام والمعلوم الاسلامية ؛ وسنضرب للقارئ في مقال آخر بعض الامثلة لهذه الاخطاء التي ترجع الى اعتبار من الاعتبارات التي ذكرناها . والآن نود أن نصرح بأن التنقيب عن مثل هذه الاخطاء الملحية ورد الحق الى نصابه فيها مهمة ليست بالسهلة ، ولكنها مهمة أولئك الذين اتصلوا بالمستشرقين وعنوا ببحوثهم التي فيها الكثير من الغناء والنفع ؛ فليهم أن يضطلعوا بهذه المهمة ، وخاصة منهم أعضاء المصنات الأزهرية الذين جمعوا بين الثقافتين : الثقافة الاسلامية الشرقية ، والثقافة الغربية ؛ فهم أولى وأجدر بالاضطلاع بها ، وعليهم قبل غيرهم تقع التبعة إذا هم قصروا في التنقيب عن مثل هذه الزلات في بحوث المستشرقين ، والكشف عن وجه الشبهة فيها ، حتى تسفر الحقيقة ويستقر الحق في نصابه .

محمد عبد الله ماضي  
أستاذ التاريخ الاسلامي بكلية أصول الدين

(١) راجع ص ٦٣ أيضا من المرجع السابق . (٢) راجع ص ٦٤ من المرجع السابق .



## التجديد والمجددون في الاسلام

الامام الاعظم أبو حنيفة - دراسات في مذهبه

هل أثر أبو حنيفة العمل بالرأى والقياس على العمل بأحاديث الآحاد ؟

هذا البحث يستدعي سرد جميع أبواب الفقه لمعرفة ما حصلت فيه المخالفة أو الترك إن كان حصل شيء منهما في مذهب أبي حنيفة ؛ ولما كان هذا من التطويل بحيث يحتاج الى سفر برمته ، فنقتصر الآن على ذكر قواعد إجمالية هي أصول هذا المصنوع ، وفيها غنية عن الإطناب والتطويل ، فنقول :

١ - زعم بعض العلماء أن الامام أبا حنيفة خالف في مذهبه أحاديث صحيحة ، وفضلا عن ذلك فقد ترك العمل ببعض أخبار الواحد . والسبب في زعمهم هذا أنهم لم يتأملوا قواعد الامام ، ولم يحققوا النظر في أصول مذهب ؛ إذ منها كما قال الامام ابن عبد البر في كتاب « الكافي » : « أن من مذهب أبي حنيفة في أخبار الآحاد أنه لا يقبل منها ما خالف أصول الشرع المجمع عليها ؛ فأنكر عليه ذلك أصحاب الحديث ، ورموه تارة بنقض السنة وعدم الاعتراف بها ، وتارة بقصور باعه فيها ؛ وحاشاه من كل ذلك ؛ وهذا مسنده الذي جمعه أبو المؤيد في ثمانمائة صفحة كبيرة دليل على ذلك ، وهو مطبوع عصر سنة ١٣٢٦ هـ وما يقال من أن أبا حنيفة لم يصح عنده أو لم يبن مذهب إلا على سبعة عشر حديثا ، قول باطل ، ففي الفتوحات الإلهية أن أبا حنيفة انفرد بتخريج ٢١٥ حديثا غير ما اشترك في إخراجها مع بقية الأئمة ؛ وقد روى في مسنده من رواية الحسكي في باب الصلاة وحدها ٢١٨ حديثا ، كما روى في كل باب من بقية أبواب الفقه الأحاديث الكثيرة ، فكيف يصح بعد كل هذا أن يرميه خصومه بأنه ببذل السنة ؟

٢ - وقال ابن عبد البر أيضا في كتابه « العلم » : ليس لاحد من علماء الأمة أن ينبت حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم يردّه دون ادعاء نسخ ذلك بأثر مثله أو بإجماع أو بعمل يجب الانقياد اليه أو ظن في مسنده ؛ ولقد طأ الله الامام أبا حنيفة وجميع أئمة المسلمين من ذلك ؛ فان صح أن الامام أبا حنيفة ترك العمل ببعض أحاديث الآحاد ، أو خالف حديثا كما زعموا ، أو قدم القياس أحيانا ، فانه لم يضل ذلك إلا لموجب شرعي ، ولم يفعل عبثا ، أو ردا للحديث مع سلامته من القوادح والمائل ؛ وعلى كل حال فما كان هذا الترك أو هذه المخالفة إلا لأمور حثيت على ناقديه ، ولم يقفوا على أصول مذهبه فيها . منها :

أولاً - عدم اتصال علم الامام الاعظم بالأحاديث التي زعموا أنه ترك العمل بها ، وليس

أبو حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد أنبياء معصومين ، وإنعام أئمة الهدى المتهندون ، يخطئون ويصيبون ، ولهم على تقدير الخطأ أجر ، وعلى تقدير الإصابة أجران كغيرهم من المسلمين .

ثانياً — أن يكون خبر الواحد مخالفاً لعموم القرآن الكريم أو ظاهره ، وأبو حنيفة لا يرى تخصيص عموم القرآن أو نسخه بخبر الواحد ، لأن عمومات القرآن وظواهرها إذا أفاقت اليقين فلا يجوز تخصيصها ومعارضتها به ، لأن في ذلك ترك العمل بالأقوى من الدليل بما هو أضعف منه وهذا لا يجوز . مثال ذلك : قوله صلى الله عليه وسلم : « الحرم لا يمسح عاصيا ولا طارأ بدم » هذا الحديث يخالف قول الله تعالى : « ومن دخله كان آمناً » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب » يخالف عموم قول الله تعالى « فافروا ما تيسر منه » ، غفر الواحد ظلي ، والقرآن الكريم يقينى ، ولا يجوز تقديم الدليل الظنى على الدليل اليقينى ، وتقديم أقوى الدليلى واجب دائماً . فلا يجوز عنده ترك العمل بالكتاب الكريم لهذه الأحاديث .

ثالثاً — أن لا يكون مخالفاً للسنة المشهورة ، لأن الخبر المشهور فوق خبر الواحد ، لأنه أقوى منه ومقدم عليه ، حتى جازت الزيادة به على الكتاب الكريم ، ولم تحزن بخبر الواحد ، فلا يجوز ترك الأقوى بالأضعف . مثال ذلك : الحكم بالشاهد واليمين ، فإنه ورد مخالفاً للحديث المشهور ، وهو ما روى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « البينة على المدعى واليمين على من أنكر » . وبيان المخالفة من وجهين أحدهما : أن الشرع جعل جميع الأيمان في جانب المذكر دون المدعى ، لأن اللام تقتضى استغراق الجنس ، فمن جعل يمين المدعى حجة ، فقد خالف النص المشهور ولم يعمل بمقتضاه وهو الاستغراق . (ثانيهما) أن الشرع حمل الخصوم قسمين : قسماً مدعياً وقسماً منكراً ، وحمل الحجة قسمين : قسماً بينة وقسماً يميناً ، وحصر جنس يمين على من أنكر ، وحسن البينة على المدعى ، وهذا يقتضى قطع الشك وعدم الجمع بين اليمين والذينة في جانب ، والعمل بخبر الشاهد واليمين يوجب ترك العمل بموجب هذا الخبر المشهور ، فيكون مردوداً . وعبر بعض العلماء عن هذا الحكم بأن يكون في حديث الآحاد زيادة على القرآن الكريم ، فإن القرآن نص على : « شهيدان من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان » . فالشاهد واليمين زيادة على القرآن الكريم .

رابعاً — كون الحديث الذى تركه أبو حنيفة أو خالفه لم يصح عنده ، لأنه لا يصح الأخذ بحديث غير صحيح ، ولا يجوز بناء الأحكام الشرعية على مثل هذه الأحاديث . خامساً — حمل الراوى بعد ما روى حديثاً بخلاف ما رواه ، لأن الراوى إذا حمل بخلاف ما رواه ، فالمبرة عنده بما رأى لا بما روى ، لأن الراوى العدل الموثق إذا روى حديثاً

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل بحلافه دل ذلك على شيء ثبت عنده : إما نسخ ، وإما معارضة ، وإما تخصيص ، أو غير ذلك من الأسباب . مثال ذلك : ما روى الشيخان حديث ابن عباس مرفوعاً : « من بدل دينه فاقتلوه » ، وصح من قوله : « إن المرأة لا تقتل » .

سادساً — كونه خبراً واحداً مما تم به البلوى أى كل أحد يحتاج الى معرفته ، لأن المادة تقتضى استفاضة نقل ما تم به البلوى ، لأن فيما تم به البلوى لا يقتصر اليه صلى الله عليه وسلم على مخاطبة الآحاد ، بل يلقيه الى عدد يحصل به التواتر والشهرة مبالغة في إشاعته لحاجة الخلق إليه ، فانفراد واحد به قدح فيه . ومثاله : حديث الجهر في الصلاة بالبسطة ، وهو ما رواه أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجهر بالبسطة ، فإنه لما شذ مع اشتها الحادثة لم يعمل به ، وحديث من الذكر الذى روته بسرة ، فإنه شاذ لانفرادها بروايته مع عموم الحاجة الى معرفته ، فدل ذلك على ضعفه ، إذ القول بأن النبي صلى الله عليه وسلم خصها بتعليم ذلك ، ولم يعلم به الصحابة مع شدة الحاجة إليه — لأن كل مسلم يجب أن يعرف هل من الذكر ينقض الوضوء أو لا ينقضه — فالقول بأن الرسول خصها بهذا ولم يعلم به الصحابة شبه المحال .

سابعاً — أن لا يكون متروك الحاجة به عند ظهور الاختلاف بين الصحابة ، فإنهم إذا تركوا الاحتجاج به مع وقوع الاختلاف فيما بينهم يكون هذا الخبر مردوداً عند بعض الحنفية المتقدمين وعامة المتأخرين ، لأن الصحابة وهم الأصل في نقل الدين لم يهتموا بترك الاحتجاج بما هو حجة والاشتغال بما ليس بحجة مع أن عنايتهم بالحجج أقوى من عنايتهم غيرهم ، فترك الاحتجاج والعمل به عند ظهور الاختلاف فيما بينهم دليل ظاهر على سهو عن رواد بعدم ، أو على أنه منسوخ . مثال ذلك : ما روى عن زيد بن ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الطلاق بالرجال » ، فإن الصحابة اختلفوا في هذه المسألة ، فذهب عثمان وزيد ومائشة الى أن الطلاق معتبر بحال الرجل في الرق والحرية كما هو مذهب الشافعي ، وذهب على وابن مسعود الى أنه معتبر بحال المرأة كما هو مذهب الحنفية ، وعن ابن عمر أنه يعتبر بمن رقه منهما حتى لا يملك الزوج عليها ثلاث تطليقات إلا إذا كانا حريين ، وأنهم تكلموا في هذه المسألة بالرأى ، وأعرضوا عن الاحتجاج بهذا الحديث — مع أن راويه وهو زيد فيهم — فدل ذلك على أنه غير ثابت أو منسوخ ، ولشئ ثبت فهو مؤول بأن يقع الطلاق الى الرجال .

ثامناً — كونه خالف القياس الجلى أو الذى عضده حديث آخر .

تاسعاً — معارضته حديثاً آخر ثابتاً عنده يؤيده القياس .

عاشراً — طعن بعض السلف فيه كحديث القسامة ، فقد طعن فيه عمرو بن شعيب بن عبد الله بن عمرو بن العاص .

حادى عشر — كونه ورد في الحدود والكفارات لأنها تسقط بالقبهة ، ويحتمل أن راويه كذب أو سها أو أخطأ ، فكان ذلك شبهة في دره الحد . هذا مذهب الامام الكرخي .

٣ — قال المحققون : لا يستقيم الحديث إلا باستعمال الرأى فيه ، بأن يدرك معانيه الشرعية التي هي مناط الأحكام ، ولا يستقيم العمل بالرأى إلا بانضمام الحديث إليه . مثال الاول . أن بعض المحدثين مثل عن صبيتين ارتضعا على شاة ، هل تثبت بينهما حرمة الرضاع ؟ فقال بأنها تثبت عملا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « كل صبيين ارتضعا على ثدي حرم أحدهما على الآخر » فأخطأ لقوات الرأى ، وهو أنه لم يتأمل أن الحكم متملق بالحزبية والبعضية ، وذلك إما يثبت بين الآدميين لا بين الشاة والآدمي . ومثال الثاني : أن الرأى لا تنقض الطهارة بالقهقهة في الصلاة لأنها ليست بخارج نجس كما أنها ليست بحدث خارج الصلاة ، ولكن ثبت بحديث الأعرابي أنها حدث ، فوجب ترك الرأى فيه ، وثبت أن الحديث لا يستقيم إلا باستعمال الرأى فيه ، وأن العمل بالرأى لا يستقيم إلا بانضمام الحديث إليه ، وأن كل واحد منهما لا يستقيم بدون الآخر .

٤ — فيمقتضى هذه القواعد وأمناها ترك الامام أبو حنيفة العمل بأحاديث من الآحاد . وما يدل على اعتناؤه بالأحاديث أيضا أنه قدم العمل بالأحاديث المرسلة على العمل بالرأى ، فأوجب الوضوء من القهقهة وهي ليست بحدث في القياس ، وإنما ترك القياس لاختيار المرسلة فيها ، ولم يوجبه في صلاة الجنائزة وسجود التلاوة لأن النص لم يرد إلا في الصلاة ذات الركوع والسجود ، فاقصر على مورد النص . ومن هذا الباب إذا أكل المصائم أو شرب ناسيا لم يفطر ، والقياس الفطر لوجود ما يصاد الصوم ، وهو قول مالك ، وترك أبو حنيفة في هذا القياس لحديث « تم على صومك » ، وقدم قول الصحابي لاحتمال سماعه ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٥ — من علم هذا امتازت في نظره دعواهم أن أبا حنيفة خالف أحاديث الرسول أو ترك العمل بخبر الواحد بلا حجة ، وثبت أنهم لم يفهموا قواعد الامام وأصوله ، وأن أبا حنيفة ما كان حاطب ليل يقبل كل خير صح أو لم يصح ، ولكنه كان كبير العقل ، شديد الاحتياط في الدين ، إماما نقادا لا يقبل خبرا إلا بعد عرضه على محك النقد ووزنه بمبرانه وتطبيقه على أصول الشرع ، فإذا ثبت عنده بعد ذلك صحته أخذ به ، وهذا يدل على أنه قد بلغ المرتبة العليا في فهم القرآن والسنة وحكمة التشريع وأمراره .

السيد هفيضي

## رأى الامام الغزالي في مدعى التصوف

لم يمتنعنا بما نعلمه المقول به حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم  
 هكذا وصف العارف بالله البوصيري الدين الاسلامي في اجمال وإفهام ، فالاسلام من بين  
 الاديان السماوية دين وضعت تعاليمه ، فليس بينها أصل فاض ، ولا فرع مبهم ، لا يقتضى فهمها  
 والعمل بها إلا الفطرة السليمة والطبيعة الخالصة من شوائب الشهوة والعناد . كانت آياته تنلى على  
 العربي الجلف في شعاب الجبال وبطون الاودية ، فتملك عليه نفسه وعقله ، ويلبى دعوة الله غلصا  
 ولعل هذا المعنى من أنجح العوامل وأنجحها في الدعوة إليه ، وجذب النفوس نحوه ، فهو في  
 واقعه وحقيقة أمره ، دين خوطب به العاوي كما خوطب به الفيلسوف . على أنه ابتلى قديما  
 وحديثا بأفاس نحوله دعاوى كاذبة ، وألصقوا به تعاليم باطلة ، صادفت هوى في نفوس  
 المتبطلين فدبروا على نشرها وترويجها حتى كدرت من صفائه ، ونالت من بهائه ، تلك هي دعاوى  
 الجذب والسطح التي يتظاهر بها مدعو التصوف من أهل البطالة ، الذين ثقلت نفوسهم  
 بتكاليف الاسلام الصحيحة ، وأعرضوا عن فهم عقائده الخفية ، وأعجزهم كسب العيش من  
 وجوهه المشروعة ، حتى استشرى شرهم ، وتفاقم خطبهم ، وحاول كثير من أولى الأمر بشق  
 الوسائل ردعهم فلم ينجحوا في استئصالهم ، ولا زالت جمهرة من المسلمين يؤمن بدجلهم ونهاب  
 مكانهم ، وتحسن الظن بأحوالهم ، بل ما زال بعض الخاصة يؤمن بقداستهم ويعتقد فيما يدعون  
 من أنهم أحباب الله وأصفياءه ، وأنهم في مقامات الوصول رفعت عنهم التكاليف وأزيلت  
 دونهم الحجب !

وإن مما يؤلم الغيور على الاسلام ويخرج ماطلته الدينية ، أن هؤلاء المتمخرفين قد يتخدّم  
 دعاة السوء ورسل الشر من الأجانب عنوانا على الدين الاسلامي ، ويقعدرون أثره في نفوس  
 أتباعه بما يظهره أولئك الدجالون من سوء في القول والفعل والعباس والطعام ، وقد يلتقطون  
 لهم صورا قهقسية في هيات مزرية يتوسلون بها الى غاياتهم الدنيئة ، وهي تشويه جمال الاسلام  
 وتصويره أمام الراغبين فيه بأبغ الصور ، وفتنة بأفبح الاوصاف .

ولقد تنبه لخطر تلك الطائفة على الدين كثير من أهل النظر والفيرة ، وكان أقدرهم على  
 تصوير خطرهم رجل اتلى بهم وبلام ، ومنحه الله بسطة في العلم وقدرة في البيان . ذلك هو  
 الامام الغزالي ، وحرصا على حسن بيانه ولطيف معناه ، وخروجا من نمة الكذب ، أسوقه الى  
 القارئ الكرام دون تحوير . قال الامام الغزالي في إحياء علوم الدين :

« وأما الشطح فنمى به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية :

« أحدهما الدعاوى الطويلة المريضة في العشق مع الله تعالى ، والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة ، حتى ينتهى قوم الى دعوى الاتحاد وارتقاع الحجاب ، والمشاهدة بالرؤية والمشاهدة بالخطاب ، فيقولون : « قبل لنا كذا وقائنا كذا » ، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الخلاج الذى صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس ، ويستشهدون بقوله : أما الحق . وبما حكى عن أبي يزيد البسطامي أنه قال : سبحاني سبحاني ، وهذا فن من الكلام عظيم ضرره في العوام ، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم ، وأظهروا مثل هذه الدعاوى ، فإن هذا الكلام يستلذه الطمع ، إذ فيه البطالة من الأعمال ، مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال ، فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم ، ولا عن تلقف كلمات غريبة مزخرفة . ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا : هذا إنكار مصدره العلم والجدل ، والعلم حجاب ، والجدل عمل النفس ، وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق . فهذا ومثله مما قد استطار في البلاد شرره ، وعظم في العوام ضرره ، حتى من تلقى بشئ منه فقتله أفضل في دين الله من إحياء عشرة . وأما أبو يزيد البسطامي رحمه الله فلا يصح عنه ما يحكى ، وإن سمع ذلك منه فقلعه كان يحكيه عن الله عز وجل في كلام يردده في نفسه ، كما لو سمع وهو يقول : إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ، فإنه ما كان يلينى أن يفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية .

« الصنف الثانى من الشطح : كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة ، وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل ، وذلك إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط في عقله وتقويض في خياله ، لقلة إلمامه بمعنى كلام قرع سمعه ، وهذا هو الأكثر ، وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره ، لقلة ممارسته للعلم ، وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعاني بالالفاظ الرشيقة ، ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ، ويدهش العقول ، ويحير الأذهان ، أو يحمل على أن يفهم منها معاني ما أريدت بها ، ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « ما حدث أحدكم قوماً بحديث لا يفقهونه إلا كان فتنة عليهم » . وقال صلى الله عليه وسلم : « كلوا الناس بما يعرفون ودهوا ما يشكرون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله » ؟ وهذا فيما يفهمه صاحبه ولا يبلغه عقل المستمع ، فكيف فيما لا يفهمه قائله ؟ فإن كان يفهمه القائل دون المستمع فلا يحمل ذكره . وقال عيسى عليه السلام : « لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ، ولا تسموها أهلها فتظلموهم . كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء في موضع الداء » . وفي لفظ آخر « من وضع الحكمة في غير أهلها فقد جهل ، ومن منمها أهلها فقد ظلم ، وإن للحكمة حقاً ، وإن لها أسلاً ، فأعط كل ذى حق حقه » .

ذلك هو نمس كلام الغزالي ورأيه في مدعى التصوف ، وللإمام الغزالي مكانة بين المسلمين نرجو أن تلفت نظرهم الى تفهم كلامه والعمل به ؟  
أبو الوفاء المرقسي

## هل من فلسفة إسلامية ؟

تمت هذا العنوان كتب الأستاذ مدير هذه المجلة معلقا على ما نشرته في مجلة الأزهر في عددها الأول لسنة ١٣٦٠ هـ بعنوان « الفلسفة بين الوجود والفكر » ولكن لا يرد عليه ، بل لأن مجلة الأزهر ترى من واجبها تنبيه قرائها الى ما في بعض المذاهب الفلسفية من ضعف و « ثبافت » إذا عرضها بعض الكتاب على صفحات هذه المجلة باسم الفلسفة ، « ونحن - يقول - حضرت - حين تقدم لقومنا مرة ما حصلناه من العلوم والفلسفة لا يجوز لنا أن نقدمها إلا « محاطة » من النقد والتحصيل والتفلية ، فإن المسلمين بما طولبوا به من إقامة مبدأ التثبيت عملا بقوله تعالى : « يثبت الله الدين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » ، لا ينبغي أن نحمل اليهم المعلومات إلا محاطة بوسائل التثبيت والنقد لكي يستطيعوا أن يستصفوا منها الباب المحض فيأخذوا به ، أو يتميزوا الظني المرجوح فيصرفوه ولا يفتروا به . وقرأ هذه المجلة - مجلة الأزهر - الذين يستنزلون المعرفة الحقة من ناحيتها ، لم الحق في هذا الاحتياط نفسه . لوسرنا على هذا سمت خدمنا المسلمين وقرأ مجلة الأزهر خدمة تؤتي ثمراتها البانعة مباركة موفورة ، وحينئذ من تباينة الآراء الضالة التي قد تنق مائة لدراسة مدة طويلة قبل أن تأخذ طورا جديدا . . . ص ٥١ ، ٥٢ .



وتمليق الأستاذ الكبير على كلتي باسم هذه الغاية يفهم منه أن كلتي كانت :

- (١) تمثل مذهباً فلسفياً ، ومذهباً فلسفياً بالطلا .
- (٢) ثم يوحى هذا التمايق كذلك بأنه كان يجب على - كمالم أزهري أولاً ، وكشفغل بالفلسفة ثانياً ، وكبحوث للأزهر في أوروبا لغرض خاص أهم معرفة الدفع عن الدين ثالثاً - على الأقل أن أشارك المجلة في عرضها ، فلا أدع الكتابة في ناحية فلسفية إلا محاطة بوسائل التثبيت والنقد ليستخلص منها المسلمون الباب المحض . . .

وفعلا تضمن تمليق مرته :

- (١) التساؤل عن وجود فلسفة إسلامية .
- (٢) ودحض ما صورده ، لنفسه ، مقال « من مذهب فلسفي مادي وماله من نزعة إلحادية دلت المكتشفات الحديثة على تدهوره وسقوطه » .
- (٣) وتحديد الغاية للكاتب في الفلسفة ، وبمباراة أدق تحديد الغاية الصحيحة للفيلسوف .



١ - تسأل حضرة عن وجود فلسفة إسلامية ، ثم ذكر « أنه لا توجد في الإسلام فلسفة مستمدة من الخارج يمكن أن توصف بالدينية أو الإسلامية ... وعليه إذا اعتبرت الفلسفة القديمة عتيقة رثة فلا يصيب الإسلام - من هذا الاعتبار - شيء . » ص ٤٧ .

والمعروف في تاريخ الفلسفة أن الفلسفة (١) الدينية شيء آخر غير ما في مصدر الأديان ، وأنها فقط عنوان على تراث الاغريق الفلسفي الذي اشتغل به رجال الدين . ومن اسم الدين الذي ينتمى اليه هؤلاء الرجال يشتق مؤرخو الفلسفة وصفا لما اشتغل به ذلكم في تراث الاغريق من تنظيم أو شرح ، أو تعديل بحذف أو تأويل ، حتى لا تبسود معارضة للدين . فيقال الفلسفة المسيحية ، ويعنون بها مؤرخو الفلسفة مسائل الفلسفة الاغريقية التي اشتغل بها علماء المسيحية ، ويقال الفلسفة اليهودية ، ويقصدون بها أيضا مسائل الفلسفة الاغريقية ذاتها التي اشتغل بها علماء اليهود ، ويقال الفلسفة الإسلامية ، ويريدون بها كذلك تلك المسائل بالذات التي اشتغل بها نثر من علماء المسلمين .

فالفلسفة الدينية واحدة في جوهرها عند مؤرخي الفلسفة . وتنوعها بين مسيحية ويهودية وإسلامية لاختلاف المذاهب الدينية التي كان ينتمى اليها ذلكم العلماء ، الاختلاف الذي من شأنه أن يحصل تمايزا في كيفية التعديل أو الشرح للمسائل الاغريقية . وكثيرا ما تسمى الفلسفة الإسلامية بالفلسفة العربية . فليس ملحوظا في هذه التسمية على الإطلاق صلتها بالدين نفسه . والاحتمال إذا الذي نقاه حضرة مدير المجلة « لمدلول الفلسفة الإسلامية » احتمال يمرض لهذا التعبير لا من حيث هو اصطلاح معروف ، مؤرخي الفلسفة ولقراء الفلسفة والمتصلين بالثقافة الفلسفية .

٢ - ذكر حضرة أن ما كتبه ونشرته المجلة في عددها السابق صحيح من حيث هو تصوير للمذهب المادي وأثرته الفلسفية الإلحادية . وبناء عن فهم هذا التصوير رأى حضرة أن يكشف عن ضعفه ... ليعين المسلمين على التثبت الوارد في قوله تعالى : « يثبت الله الدين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » .

وهذا غرض ديني نبيل في ذاته . ولكن كلامي كما يبدو من عرضه لا يصور إلا تاريخا لتحول التفكير الفلسفي ، وتحول غاية الفكر الإنساني من موضوع الى موضوع في عصر من المصور لموامل دعت الى هذا التحول .

فذكرت أن الفكر الإنساني في بدء تفلسفه كان يعنى يبحث الوجود ويبحث ما وراء الطبيعة ، وكانت فلسفته لهذا فلسفة ميتافيزيكية . والعامل المشترك الذي حمل على بحث الوجود

(١) وهي غير فلسفة الدين



في كل مدة محنة ( من قدماء اليونان الى آخر القرون الوسطى ) طبيعة الثقافة في ذلك الوقت — والثقافة من أهم عوامل تكوين الفلسفة — فتقافة الإغريق كانت الى حد كبير دينية ، وثقافة رجال الدين ( منذ الميلاد الى عصر النهضة ) كانت بطبيعة الحال كذلك دينية . وشأن الدين — أيًا كانت قيمته — أن يعنى أولاً وبالذات بتوجيه النظر الى ما وراء الطبيعة ، الى موجد الكون . وليس ذلك العامل هو الندى إذ لم يعرف الندين لفلاسفة الإغريق ، ولمنشى المدارس الفلسفية المختلفة حتى عصر النهضة .

ثم ذكرت أن البحث الفلسفي منذ عصر النهضة تحول الى بحث الطبيعة ، وعملت هذا التحول بخشية الباحثين من نقب رجال الكنيسة ، إذا بحثوا فيما وراء الطبيعة وفاهيمها في رأى من آرائهم ؛ وكذلك برغبة الباحثين في أن يصلوا في أبحاثهم الى يقين ترتصيه التعارب والتجديدات الرياضية . وليست هذه الرغبة بمحققة في بحث ما وراء الطبيعة ، لأن ما وراء الطبيعة أوسع من محيط تفكير الإنسان فضلاً عن أن يحض لنحاربه . — وليس عامل التحول هنا ( كما لم يكن عامل توجه الفكر هناك هو الندى ) هو عداوة الدين أو نزعة إلحادية . وإن احتمل أن يكون أيضاً كره رجال الكنيسة وعدم الخضوع لتعاليم الكنيسة ، كفكرة الخلافة في السلطان عن الرب ، وفكرة صكوك الفقراء . . . ولكن رجال الكنيسة ليسوا هم حواربي عيسى ، وتعاليم الكنيسة في القرون الوسطى ليست هي المسيحية (١) — .

وإذا كان هذا التحول في البحث عن « ما وراء الطبيعة » الى « الطبيعة » نفسها يحدد لما يسمونه المذهب الطبيعي Naturalism وهو محاولة شرح الطبيعة من الطبيعة ذاتها ، فلا يصور لنا الا في قليل ولا كثير المذهب المادى Materialism لأن هذا المذهب له نواح ثلاث :

( أ ) الناحية النظرية . وهي ناحية مينا فيزيكية تحاول شرح الطبيعة من ما وراء الطبيعة — على القيقض من المذهب الطبيعي — ؛ هي ناحية تفرض وجود شيء مستقل Substantia نفاً عنه هذا العالم ؛ هذا الشيء المستقل فهمه ديموقريط وإبيقور من فلاسفة الإغريق على أنه توطان من المادة : نوع غليظ وهو أصل الاجسام ، ونوع دقيق وهو أصل النفوس . وفهمه هوبز Hobbes ولا مارتى Lamettrie وبوخز Buchner من الفلاسفة المحدثين على أنه في جوهره واحد وهو أصل الاجسام . أما الظواهر النفسية والعقلية في نظرم فخاصة من خواص الاجسام أو أثر من آثارها .

( ١ ) هيجل الفيلسوف القيس الالماني ألم في محاضراته عن فلسفة الدين في جامعة هيدلبرج ضرره كثيرة من التنترقة بين تعاليم الكنيسة في القرون الوسطى والمسيحية . ومن أشهر هذه الفسوف نست الى المسيحية مبدأ الوحدة في التاليه .

ويسمى فهم فلاسفة الاغريق المذهب المادى بالمذهب المادى الثنائى ، وفهم غيرهم من المحدثين بمذهب الوحدة للمادة .

( ب ) والناحية العلمية ( الأخلاقية ) : وهى حصر الغرض من الحياة الانسانية فى التمتع بالملذات الحسية ، واحتقار القيم المثالية .

( ج ) والناحية التاريخية : وهى اعتبار الجانب الاقتصادى فى الحياة هو الأساس المحدد لمصير المدنية حتى لثقافة العقيدة .

على أن بعض فلاسفة المذهب المادى منذ القرن الثامن عشر أمثال هول باخ Holbach ( الفيلسوف الألماني المتوفى سنة ١٧٨٩ م ) ولينين Lenin ( الفيلسوف الروسى المتوفى سنة ١٩٢٤ ) قد نحا بالمذهب المادى فى شقه النظرى ناحية أبعد من الفهم الحسى الساذج من أن هناك شيئاً مستقلاً اسمه المادة نفاً عنه الكون وما فيه من أجسام ونفوس . فالمادة فى نظر هذا البعض ليست إلا كلة - وتمبيراً - تدل على معنى الوجود كما يبدو لنا فى أجزاء الكون وحوادثه ، وكما يتضح لنا هذا الوجود بالمعرفة شيئاً فشيئاً .

فالمذهب المادى إذاً فى جزئه النظرى - وهو الذى يمكن أن يفهمه رجال الدين أو مدافعو الدين على أنه يتعارض مع الدين - مذهب ميتافيزيكى . وأنا فيما ذكرته فى تصوير البحث الميتافيزيكى حتى عصر النهضة لم أتعرض الى التحديدات المختلفة للفلاسفة فيما عساه فيها وراء الطبيعة أن يكون علة للطبيعة والكون حتى أكون قد أشرت الى المذهب المادى مجلة فضلاً عن تصويره .

( ٣ ) قصد حضرتته أيضاً من محاولة هدم المذهب المادى Materialism تعرض آراء أمثال المؤرخ جوستاف لوبون ، ومن ترجيع المذهب الروحى Spiritualism نصرة الدين من جهة الفلسفة : « فلنتخلص من فتنة الآراء الصيقة ولنستقبل علماً أرفع وفلاسفة أوسع نستشرق منهما نور الحق » ومن لم يجعل الله له نورا فإنه من نور ، ص ٥٢ . وهذا يحدد مهمة التفاسف أو مهمة كاتب الفلسفة .

وهذا غرض دل تاريخ تملسف الدين ، أو تاريخ التبتاك انفسافة مع الدين لخدمة هذا الأخير ، ودلت بسيكولوجية الدين الحديثة ، على أنه غرض يسى - من غير قصد - الى العقيدة فى الصميم . إذ تملسف العقيدة ، فضلاً عن أن يعقدها ويقال من قداستها ، يعرضها للنقلب فى نظر البحث بين الصحة والخطأ . لأن الآراء الفلسفية نفسها التى تعالج الموضوع الذى يعالجه الدين - وهى الآراء الفلسفية الإلهية - والتى تجذب أحياء لغاية تأييد الدين ، عرضة للتبديل والتغيير ، وموضع لتخطئة والتصويب .

وما أحكم نظر (كاس) إذ يقول : « لنندع القول فيما وراء الطبيعة للدين فلسنا بقادرين على أن نأثي فيه بيقين » . وما أحكم نظر ماكس شيلير Max Scheler (الفيلسوف الألماني المتوفى سنة ١٩٢٨) إذ يقول : « للدين قيمته واعتباره فيما يحكيه عن الله ، وللفلسفة قيمتها واعتبارها فيما تحكيه عن الانسان » .

إن محاولة الاستدلال على صحة العقيدة الدينية في الله من طريق الفلسفة ظاهرة من ظواهر هدم الثقة باستقلال العقيدة في وجودها بذاتها .

لندع عاطفة الانسان الدينية في قوتها وحرارتها ، فإن وضع العقيدة موضع النقاش والنقد إضعاف لقوة الإيمان بها .



وأخيرا يطلب النقد العلمي الحديث ، إذا أريد إبطال رأي فلسفي أو تأييد رأي آخر ، أن يلجأ الكاتب الى الفلاسفة ذاتها . ومعنى ذلك أنه في حل من أن يلجأ الى الدين في إبطال المذاهب الفلسفية أو تأييدها ، ولكن فقط تحت عنوان ديني وليس باسم الفلسفة . فالزج لم يمد وسيلة من وسائل البحث العلمي الحديث ، وإن بقيت له قيمته في نظر الشعب والجمهور .

والإمام الأكبر المراغي ، وهو قائد نهضة الأزهر الدينية والعلمية ، في مناقشة رسالة « العرف » لشيخ أحمد فهمي أبي سنة بدار كلية الشريعة في ٢٠ يناير سنة ١٩٤١ ، قد حدد شعار البحث في الأزهر الجديد : وهو الفصل بين القيم الذاتية ، لاه أقر التفرقة بين الفقه

الإسلامي والدين

محمد البهي

مدرس علم النفس والفلسفة  
بكلية أصول الدين

## الفلسفة بين الوجود والفكر

رأى حضرة الأستاذ الدكتور محمد البهي أن يلاحظ على ما كتبناه تعقيبا على ما نشره تحت العنوان السابق في العدد الماضي ، وقد نشرت ملاحظاته ورأيت التعقيب عليها ، لا إثارا للجدل ، ولكن لأن في تعيين الأسلوب الآكل في مزاولة الفلسفة في هذا العصر ، حدا فاصلا بين الأوهام وإن دمجت بالفلسفة ثلاثين قرنا متواليمة ، وبين الحقائق العلمية التي تمجست في هذا العهد ، لا سيما ونحن هنا في طليعة نهضة ثقافية يجب أن نجردها من كل ما يلبسها من أضاليل سابقة .

يشهد كل من اطلع على ما كتبت أنى تجردت للموضوع ولم أمس ما عداه ، وسأسلك في هذا التعقيب ذلك السمت نفسه فلا أبأوزه ، ولذلك لا أناقش في غيره مما سمح لنفسه به حضرة الدكتور من العبارات .

بدأ الأستاذ ملاحظاته بتقرير أن الفرض من إطلاق كلمات يهودية ومسيحية وإسلامية على الفلسفة ، هو تعيين ما اشتغل به من الفلسفة الاغريقية أصحاب هذه الأديان الثلاثة . والذي أراه أما أن هذه التسمية لا تصح ، وخاصة في معرض الكلام على الفلسفة عند المسلمين . وكل ما قرأناه في كتب الفرنجة أنهم يعبرون عن هذه الفلسفة بقولهم ( الفلسفة عند العرب ) La philosophie chez les Arabes ، وقد أردفوا ذلك بقولهم : إن عناية المسلمين بالفلسفة كانت قليلة فليس لهم فلسفة مستقلة .

ثم قال حضرة ما خلاصته :

« إن كلامي لا يقصد منه إلا تصوير تاريخ تحول التفكير الفلسفي من البحث فيما وراء الطبيعة ، الى البحث في الطبيعة ، وكانت ثقافة الإغريق والأوروبيين الى عصر النهضة دينية ، وشأن الدين أن يعنى قبل كل شيء بتوجيه النظر الى ما وراء الطبيعة ، الى موحد الكون . وعلت هذا التحول بخشية الباحثين من تعقب رجال الكنيسة إذا خالفوهم في رأى مما وراء الطبيعة ، ویرغبة الباحثين في أن يصلوا بأبحاثهم الى يقين ترتضيه التجارب والتعديلات الرياضية (١) ، وليست هذه الرغبة بمحققة في بحث ما وراء الطبيعة ، لأنه أوسع من محيط تفكير الانسان ، فضلا عن أن يخضع لتجاربه (٢) . وليس مامل التحول هنا هو عداوة الدين أو نزعة إلحادية ، ولا يصور هذا التحول المذهب المادى ، لأن هذا المذهب له نواح ثلاث : نظرية ، وعلمية ، وتاريخية ، وفي هذه النواحي يتعارض هو والدين ؛ ولكنى فيما ذكرته لم أنعرض للتعديلات المختلفة للفلاسفة فيما عسى أن يكون علة وجوده ، حتى أكون قد أشرت الى المذهب المادى جملة فضلا عن تصويره . فهذا المذهب هو الذى يتهمة رجال الدين بأنه يناقض الدين . وأما فيما ذكرته لم أنعرض الى التعديلات المختلفة للفلاسفة فيما عداه أن يكون علة للطبيعة والكون حتى أعتبر أنى قد أشرت إليه فضلا عن تصويره . »

وأنا أعقب على هذا بقولى :

الفلسفة من المحاولات العقلية التى لا يمكن وضع تعريف جامع لها . جاء في المعجم الفلسفي للأستاذ جوبلو Goblol قوله : « لما كان لكل مذهب فلسفى وجهة نظر خاصة في تحديد الفلسفة ، وعلاقتها بالعلوم وبالحياة ، فانه من المحال أن يعطى لهذه الكلمة تعريفا يصح عليها جميعا » انتهى

ولكن للفلسفة من ناحية عامة معنى مستقرا في وجدان الناس ، وقد عبرت عنه دوائر المعارف بقولها : « الفلسفة إلمام عام بالكائنات والأصول والأسباب »

كذلك انقسمت الفلسفات الى مذاهب شتى من حيث وجود أصل حيوى عام مستقل عن المادة، أو عدم وجوده ، وظهور الحياة في الأحياء كثمرة للتفاعلات الكيميائية . هذه المذاهب يجمعها اسمان عامان : المذهب المادى والمذهب الروحى . Matérialisme et Spiritualisme . فالأول يقول بوجود كائنات غير مادية . وفسر المعجم الفلسفى هذه الكائنات بقوله : « إنها لا تقع تحت سلطان الحواس وليس لها صورة ولا حجم ولا حيز الخ ؛ منها مذهب ديكارت فإنه كان يقول بوجود نوعين من الكائنات ، أولها مادى والآخر روحانى ؛ ومنها مذهب لىبنتر ، ومذهب باركللى ، وكاما لا يسلمان بوجود صحيح إلا الكائنات الروحانية »

وقد اعترف الدكتور البهى نفسه في مقدمة بحثه ، بأن الفلسفة لا يجدها تعريف واحد . ثم عاد فقال : « إنها ترجع الى موضوعين أساسيين : الوجود والتفكير » وانهى من ذلك الى القول بأنه « قد تحول البحث في الفلسفة عما وراء الطبيعة الى الطبيعة نفسها ، وعن علة الكون الى الكون نفسه »

ثم قال : « ولا شك أن نتائج البحث النظرى في الإلهيات تبعد كثيرا عما يطلبه المقياس العلمى الحديث . فتمرض الباحث لها — على أنها الإهم كما كان الحال في القديم — حكم منه على نفسه بالمرقة عن بيئة الوقت العلمية ، وعن موضوع التنافس في البحث . ولذا رأى ( كانت ) أن اختصاص الفلسفة كعلم ، هو الناحية العملية وتحديد الحياة الواقعة . أما القسم الإلهى فإن بحثه فلا يحق لها أن تطلب لهذا البحث صفة العلم البقىنى » انتهى .

فاذا كانت الفلسفة في قسمها المامين لا يمكن أن تخرج عن كونها إما روحية كذهب ديكارت وسبينوزا ولىبنتر وباركللى وغيرهم ، وعدد لا يحصى من أئمة الفلاسفة المحدثين وعلى رأسهم العبرى ( هنرى برجسون ) Bergson الذى توفى في الشهر الماضى ؛ وإما هى فلسفة مادية لا تعتمد بغير البحث المادى ، ولا تنلس في تمليلاتها للحياة والمقل والروح الانسانية غير الملل المادية ؛ قلنا إذا كانت الفلسفة لا تخرج عن هذين القسمين ، فأين يصح أن توضع الفلسفة التى يكتب عنها الدكتور البهى والتى قطع صلتها عما فوق الطبيعة ؟

يمكن أن يقال إنها لا توضع في واحد منهما ، لأنها اختارت لنفسها خطة مستقلة تجري عليها في البحث عن الحقائق غير متقيدة بصيغة معينة .

نقول : هذا كان يصح لو لم تقيد نفسها بأصول مذهبية مقررة ، وتحد للأخذ بها مجال البحث تحديدا لا يسمح له بتخطيه ، فإذا كان الدكتور البهى يتصل من تصوير المذهب المادى محتجا بأنه لم يترص للتحديدات المختلفة للفلاسفة ، فأى تحديد أشد من قطع الصلة بين

الفكر الانساني وحالم ما وراء الطبيعة ، وبينه وبين علة الكون ، وحصر التفكير كله في الطبيعة المادية ؟ أليس في قطع هذه الصلة تأكيد ضمني بأن ليس وراء الطبيعة شيء ، يمكن التحسن منه ، ولا للبحث في علة الكون موجب يوجبه ، بعد ما تبين أن الوجود قائم بذاته ، ولا يحتاج في قيامه الى فيوم فوقه ؟ أليست هذه ميتافيزيكا أشد تطرفا واستبدادا من ميتافيزكة هوبس ودلامتري وبوختر ؟

ومن ناحية أخرى :

إن مقالة الدكتور الهبي تصلح أن تصور نزعة لفلسفة مميبة ، أكثر مما تصلح أن تكون مدخلا على الفلسفة على وجه عام ، فقد ذكر الاستاذ في أول كلامه أن الفلسفة لا يحدها تعريف واحد ، وليس لها ضابط عام الخ ؛ وكل الناس يعرفون أن الخلافات في المبادئ والاصول الفلسفية لا تقف عند حد ، وخاصة في العصر الحاضر ، وأن من المخالفين للمذهب الذي يقنع الصلة بما فوق الطبيعة رجالا يعتبرون من أرق من أنجيهم الانسانية ، لا يقطعون الصلة في الفلسفة بما فوق الطبيعة ، ويرون لهذه الصلة ضرورة عقلية وعلمية ؛ فهل نفعل ذكر مذهب كل هؤلاء الفحول في عرض ذكر الفلسفة ، ونكتفي بذكر مذهب واحد من أهد المذاهب المادية تطرفا ، فيتوهم القارئ أن الفلسفة قد تأدت على وجه عام الى هذه البيئة القاحلة ؟

يقول الدكتور الهبي في بيان مؤدى هذا المذهب : « إن نتائج البحث النظري في الإلهيات تبعد كثيرا عما يطلبه المقياس العلمي الحديث » . والذي نفهمه أنا منه أن مؤسسه الأوروى يقصد بالبحث النظري في الإلهيات مسائل ما يسمونه عند علم التبولوجيا ، وهي مسائل كهنوتية متشعبة مبنية على الآراء والظنون والنقول ، لا مجرد القول بوجود خالق مدبر للسكائن لا تدركه الأبصار ، وتمحز عن فهم كنهه العقول . لأن المقياس العلمي الحديث لم يأب الاعتراف بالآثير كافتراض علمي لا بد منه لا يمكن تعليل أكثر الظواهر ؛ والآثير لم يره أحد ، ولا يمكن نقل خواص صفاته في شيء من الأشياء . فالذين لم يأنقوا أن يفترضوا ما لم يروه ، وأن ينحلوه صفات لا يمكن ، ليتوصلوا بذلك الى تعليل بعض الظواهر الطبيعية ، لا يجوز لهم أن يعتبروا البحث في وجود قدرة أزلية حكيمة بعدا عن المقياس العلمي الحديث .

أما قول ( كانت ) إن اختصاص الفلسفة كعلم لا يجوز أن يدخل فيها القسم الإلهي ؛ فهو قول لا غبار عليه ، ولكن من ناحية اعتبار الفلسفة علما ، لأن العلم لا يصح إلا بالتجربة ، والإلهيات غير مادية لا تخضع للتجربة . فتحصيل اليقين بالإلهيات من فلسفة منتحلة أهم العلم غير ممكن لهذا السبب .

ولكن اعتبار الفلسفة علما أو انتحال الفلسفة مهمة العلم ، قد انقضى زمنه منذ قرون ، بعد وضع ( بيكون ) Bacon المستور العلمي ، وبعد تحديده مناطق النشاط العقلي ، وتسمية

كل منطقة باسمها الحقيقي . فليس في عصرنا الراهن من يطلق كلمة فلسفة على العلم . فالعلم يبحث في الكائنات التي تقع تحت الحس وتتناولها التحرية ، وأما الفلسفة فتنتظر في مقررات العلوم نظرة إجمالية ، وتستخرج منها أدواتها من الاستقراء والاستدلال والاستنتاج والتحليل والتركيب ، معرفة عامة عن الوجود والموجودات والاصول والعقل .

وفلسفة طريق متهيج يعرفها فيلسوف كويجسبرج الكبير ( كانت ) تأدى من طريقها الى درجة اليقين بالخالق الحكيم ، والى وجود الروح وخلودها بعد الموت .

وهل الفلاسفة الذين بلغوا درجة اليقين من هذه العقيدة ، ويعتبرون من أكبر أقطاب الفلسفة العصرية ، وصلوا اليه إلا من طريق النظر العقلي ، والاستدلال المنطقي ؟ ألا توجد مبادئ عقلية ضرورية هي في تحصيل اليقين في مثل قوة الحس بل أشد ؟

وإذا كانت الفلسفة تبرا من الذين يتأملون في الكون ، لتعرف علة الوجود في عالم ما وراء الطبيعة ، فأى دأه ترجى بعدها لتعميل حكم ينلج عليه الصدر إنبانا أو ( نقيا ) في هذه المسألة ؟ أليس تجريد الفلسفة من النظر فيما فوق الطبيعة يعتبر بعد هذا من تعاليم الماديين الأقحاص ، والفلسفة التي تقول به تعتبر مادية متطرفة ؟

تفلسف الدين يضر أكثر مما ينفع !

قال الدكتور البهي ما ملخصه :

« قصد حضرته ( يعني ) هدم المذهب المادى بعرض آراء أمثال المؤرخ جوستاف لوبون لنصرة الدين من جهة الفلسفة . ثم قال ( يعني أيضا ) : فلنخلص من فتنة الآراء الضيقة ، ولتستقبل علما أرفع ، وفلسفة أوسع ، نستشرق منهما نور الحق . وبهذا يحدد ( يريدنى كذلك ) مهمة التفلسف أو مهمة كاتب الفلسفة . وهذا غرض دل تاريخ اشتراك الفلسفة مع الدين ، ودلت سيكولوجية الدين أنه يسيء الى العقيدة في الصميم الخ الخ » .

ونحن نقول :

إننا بما قلناه لم نرد تحديد مهمة الفلسفة ولا مهمة كاتبها ، وكيف نهم بذلك ونحن القائلون فيها كتبنا في ملاحظتنا « علينا أن نحصى مع العلم والفلسفة حيث مضيا ، وأن نجول معهما حيث جالا ، ولكن لا يجوز لنا أن نقف معهما حيث وقفا من تعاليمهما نفساهما يمتقدان أنها وقتية ، بعد ما بلغا رشداهما ، وتحققا أن الوجود حافل بالمجهولات ، وأن اكتشافا جديدا قد يحدث فيهما انقلابا ما كان يخطر على قلب أو سمع الناس تخيلا » .

فقولنا : علينا أن نحصى مع العلم والفلسفة حيث مضيا ، وأن نجول معهما حيث جالا ، معناه أن لا نضع في سبيلهما المراقيل ، وأن ندعهما حرين في مجاليهما ، فكيف نُسهم مع هذا

بأننا نحدد لفلسفة مهمتها أو مهمة كاتبها؟ لا محل لهذا الاتهام ، ولكننا ننصح مزاولها أن لا يقف معها حيث وقفت من تعاليم هي نفسها تعتقد أنها وقتية بعد ما بلغت رشدها . فهل نلام على هذا الاحتياط الذي أصبح شعار أهلها وأهل العلم في هذا الزمان الأخير كما رأيت ؟

يقول الدكتور البهي : إنني سلكت هذا المسلك لنصرة الدين ، على حين أتى لم أذكر الدين في كل ما كتبت ، وإنما ذكرت العقل والتبصر والاحتياط وعدم الانخداع بالمعلومات المؤقتة ، واستشهدت بأقطاب العلم المعصرى على ضرورة وقوف هذا الموقف إزاء جميع المقررات العلمية والفلسفية . وقد حاول الدكتور البهي أن يحيط من أقدار هؤلاء الأقطاب كأنهم أتوا أصراً إدّاءاً ، فوصف أولهم بأنه مؤرخ ، وأن الباقيين من أمثاله . والواقع أن الدكتور حوستاف لوبون فيلسوف وطبيعى كبير ، واليه يرجع الفصل في تحليل المادة وإحالتها الى قوة ، وهو أكبر اكتشاف علمى حدث في القرن العشرين . وأن ماري جان حويو من أشهر الفلاسفة المعاصرين ، وقد اشتهر كتابه ( لا دينية المستقبل ) في العالم كله . أما سبسر فاشهر من أن يذكر ، وكذلك العلامة الكبير هنرى يوانكاريه ، والرياضى الجليل وعضو الجمع العلمى الفرنسى . فهؤلاء أئمة عالميون ليس في المشتغلين بالعلم والفلسفة من يحلهم ، وهم ليسوا متدينين ولا من أنصار التدين ، ولم يقولوا شيئاً يوجب السخط عليهم ، فهم وعدد لا يحصى من أمثالهم الأقطاب يمينون خطر الانخداع بالعلم والفلسفة ، ويهيئون بالأساس الى استقبال عهد جديد لهما ، وهذا لا يتأتى حدوده إلا بعد تحطيم الأوهام المحيطة بهما . فهل أسأؤا أم وأسأنا نحن في وقوفنا هذا الموقف المشرف للعقل الانسانى ، والمبشر بفتوحات عظيمة في العلم والفلسفة ؟

يقول الأستاذ البهي : إن اشتباك الفلسفة مع الدين يسئ الى العقيدة في الصميم . ومعنى هذا أن الدين لا يقوى على منازلة الفلسفة ، فإذا حدث الدين نفسه بذلك أصيب في الصميم .

وأما مع عدم ذكرى للدين فيما كتبت ، ومع عدم تحاملى على الفلسفة إلا من الساجية التى يحمل عليها منها الأقطاب الذين أقفوا من غرورها القديم ، أحب أن أرى كيف تصيح فلسفة أساسها العقل والعلم والدليل ، خطرة على دين أساسه العقل والعلم والدليل ؟

على أن القول الذى أتى به الدكتور البهي قرأناه كثيراً في كتب الفلاسفة الماديين ، واسكنهم بوجهونه الى أدیان ليس أساسها العقل والعلم والدليل ، وليس يتعه إليها منه شيء ، فنحن على دين نقصر بأنه يقاوم كل حملة يمكن أن تحملها عليه أية فلسفة في العالم ، ولولا ذلك لكنا شاكين فيه ، وقد خبرنا ذلك بأنفسنا ، فإن كان في الأرض من يستطيع أن يعطينا مثالا من صراع دينى فلسفى ، يصاب منه الاسلام في الصميم ، فليفضل علينا به ، فزبه أنه وام فيما يقول . ألا إن أخوف ما أخافه على المسلمين ، وخاصة على علمائهم ، أن يتسرب إليهم هذا الوم من الفلسفة الى هذا الحد فلا يبقى لهم دين !



وقال الدكتور البهي : « إن محاولة الاستدلال على صحة العقيدة في الله من طريق الفلسفة ، ظاهرة من ظواهر عدم الثقة باستقلال العقيدة في وجودها بذاتها . لدفع عاطفة الانسان الدينية في قوتها وحرارتها ، فإن وضع العقيدة موضع النقاش والتقدُّصاضاف لقوة الايمان بها . »  
ونحن نقول :

إن الاستدلال على صحة العقيدة من طريق النظر والتأمل ، هي الوسيلة التي اتفق الفلاسفة والمفكرون قديما وحديثا على القيام بها . ولم يقل أحد من المفكرين إنها ظاهرة من ظواهر عدم الثقة باستقلالها ، بل لا يفهم هنا معنى لاستقلالها ووجودها بذاتها ، وهي ثمرة عقلية لا أقل ولا أكثر .

إن العقيدة مدرك عقلي يقوى ويضعف ويؤزل كسكل مدرك عقلي آخر . وقد لجأ أهل الأديان جميعا قديما وحديثا الى النظر والاستدلال لتحصيل العقيدة ، واتفق الفلاسفة القدامى والمحدثون على تسخير المنطق وقوى العقل في هذه السبيل ، وزاد الدين الاسلامي على هؤلاء جميعا فطالب كل معتقد بالدليل ، حتى قال أصوليوه . إن إيمان المقلد غير جائز ؛ فهل لم يفتن كل هؤلاء الى أن هذا الجهاد العقلي منهم لتثبيت العقيدة ، ظاهرة من ظواهر عدم الثقة باستقلالها ؟ وما معنى استقلال العقيدة ووجودها بذاتها مقطوعة عن جميع وسائل التفهم والتعقل والتدليل ؟ وهل التفهم والتعقل والتدليل شيء غير الفلسفة الحرة من قيود الماديين ؟  
الفلسفة لا تكافح إلا بفلسفة مثلها لا بالدين .

قال الدكتور البهي : « إذا أريد إبطال رأي فلسفي أو تأييده وجب أن يلجأ في ذلك الى الفلسفة لا الى الدين »

ونحن نقول : يشهد الله والناس أننا لم نلجأ في يوم من أيام حياتنا في مكافحة رأي فلسفي الى الدين . ألم يرني الدكتور قدجأت في مكافحة ما كتبه الى آراء كبار الفلاسفة الأوروبيين ، وهل في كل ما كتبه ذكر الدين أو الى مخالفته للدين ؟

وإني في كل ما حاولته في مؤلفات سابقة لي ، وأحاوله في هذه المجلة ، أهمل على حماية النابذة الاسلامية من الانخداع بكل ما يورد اليها محمولا في كتب الدراسة من الآراء المصالة ، في عهد وضعت فيه جميع الآراء العدية ، والمذاهب الفلسفية في الميزان ، واعتُرف فيه بأن بعد ما كان يُظن خلوصه من التجريح ، لا يخلو من عوج يجب تقويمه ، حتى لا يؤدي فيما يبتنى عليه الى انهيار شليح .

هذه الحالة النفسية الجديدة للعلماء الأوروبيين فضلا عن أنها لا يجوز أن تؤلنا ، يجب أن نسرنا الى حد بعيد ، لأن ما نحصله بعد اليوم ، ونحن على هذه الحالة من الحذر ، والخلوص

من الانخداع ، يكون إما حاصلا على جميع ضمانات الحق اليقين ، وإما موسوما لطابع من الشك حتى يُفتح على الناس فيه سلطان مبین .

أى موقف أولى لطلاب الحقائق ؟ أن يعيدوا فيها يسونه بالعلم والفلسفة في ضلال يزيد كل يوم بعدا عن الحق ، ودنوا من الباطل ، وتغافلا في الهماية ، أم أن يحيطوا علما بحقيقة موقفهم فلا يخدعوا به ، وخاصة إذا كان هذا التثبت يقوم به اليوم أقطاب الفلسفة والعلم في بلاد المتحمدين ؟

وإني مختم هذه الملاحظات بما اختتمت به الملاحظات السابقة وهو .

« علينا أن نحصى مع العلم والفلسفة حيث مضى ، وأن نحول معها حيث حالا ، ولكن لا يجوز لنا أن نقف معها حيث وقفا من تعاليمها نفسها يمتقدان أنها وقتية ، بعد ما بلغنا رشدنا ، وتحققنا أن الوجود حافل بالمجهولات ، وأن اكتشافا جديدا قد يحدث فيهما انقلابا ما كان يحظر على قلب أوسع الناس تخيلا .

« ولم يأت على الناس عهد شهد العلم فيه على نفسه بالمعز ، واعترفت فيه فلسفته بالقصور ، مثل العهد الذى نعيش فيه ؛ فلنتخلص من فتنة الآراء الضيقة ، ولنستقبل علما أرفع ، وفلسفة أوسع ، نستشرق منها نور الحق ، « ومن لم يجعل الله له نورا فجعله من نور » .

محمد فريد ومبرى

### اقتذار

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد البهى مقال جديد من سلسلة المقالات الفلسفية التى وعد بنشرها في مجلة الأزهر ، اضطررنا الى إرجائه للعدد المقبل لضيق المقام ، وسنشره في العدد المقبل . وقد اضطررنا هذا السبب نفسه لإرجاء نشر مقالنا في السيرة المحمدية ومقالات أخرى جمعت حروفها ولم نجد لها مكانا في هذا العدد لضرورة نشر فتاوى جاءت متأخرة . فتعذر لحضرات الكرام الكاتبين ، ولعندم بذل ما أرسلوه في العدد المقبل ، إن شاء الله .

## في بلاغة القرآن

حدثتك في حديث مضى عن بعض الأسماء اللاغية في قوله تعالى : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأنت أكلها ضامين » . ولست أزعج أني أشرفت على الأمد ، وأوقيت على معجزة الأبد فيما أفصت القول فيه « فان هذا أمر ضيق كثير الالتواء لمن تلمس جوانبه ، وافتحم مصاعبه ، وما أشبه القرآن في تركيب إعجازه ، وإعجاز تركيبه ، بصورة كلامية عن نظام هذا الكون الذي اكتشفه العلماء من كل حبة ، وتماوروه من كل ناحية ، وأخلقوا جوانبه بحنا وتفتيشاً ، ثم هو بعد لا يزال عندهم على كل ذلك خلقاً جديداً ، ومراماً بعيداً ، وإنما بلغوا منه إذ بلغوا زراً تهيأت لصعفه أسبابه ، وقليلاً عرف لقلته حسابه ؛ وبقي وراء ذلك من الأمر المتعذر الذي وقفت عنده الأعذار ، والابتغاء المعجز الذي انحط عنده قدر الإنسان ، لانه مما سمت به الأقدار » . وإنما الذي أستطيع أن أزعجه في غير ما خيلاء ولا تطاول ، أني استطعت بتوفيق الله أن أتوسم هذه الآية على ضوء العلم الحديث ، وأن أنق على هذا التشبيه المعجب الذي احتوته ، بصيصاً من النور يخالعه أضواء جوانبه ، وبين دقائقه ، وجملها على أعين الناس لعلمهم يشهدون أن هذا القرآن « لا تنقض عجائبه » كما قال الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم ، وأن الكلمة فيه ليست كما تكون في غيره « بل وجه السموفيا على الكلام أنها تحمل معنى ، وتوحى الى معنى ، وتستمتع معنى ، وهذا ما ليس في طاقة البشر ، وهو الدليل على أنه « كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .

لقد جاء هذا المثل العبقري متما للصورة البيانية الرائعة التي رسمها الله لمن أتقى ماله رثاء الناس ، وهو غير مؤمن : « يأبى الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالن و لاذى كالذى ينفق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فقله كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل فتركه صلداً ، لا يتقرون على شيء مما كسبوا » ، فإنه سبحانه لما ضرب مثل من أتقى ماله رثاء الناس وهو غير مؤمن ، ذكر ضده بتمثيل محسوس للذهن ، كي يتصور السامع تفاوت ما بين الضدين ، ويختار لنفسه أنسب الأمرين ، وأطيب المثلين ؛ وهذا من بدیع أساليب فصاحة القرآن الكريم . ومن يقايس بين المثلين يجد أنه تعالى لما وصف صاحب النفقة بوصفين قابل ذلك هنا بوصفين ؛ فقله : « ابتغاء مرضاة الله » مقابل لقوله : « رثاء الناس » ، وقوله : « وتثبيتاً من أنفسهم » مقابل لقوله : « ولا يؤمن بالله واليوم الآخر » ، لأن المراد بالتثبيت توطين النفس على المحافظة عليه وترك ما يفسده ، ولا يكون إلا من يقين بالآخرة .

وهنا بدأ بالوصف الثابت وهو كونها ربوة ، ثم بالوصف المعارض وهو أصابها وابل ، وجاء في وصف صفوان قوله : « عليه تراب » ثم عطف عليه بالتاء ، وهنا لم يطف بل أخرج صفة ، على ما ذهب إليه أثير الدين . ولو أنعم الناس النظر في هذه الصورة البيانية الرائعة ، وجعلوها نصب أعينهم ، وتعمقوا لأسرارها ، لحببت إليهم البذل انتفاء مرضاة الله ، وكرهت إليهم المن والأذى ، فرقا من أن يبطل الله بذلمهم ، ويأباه عليهم كما أباه على الكفار والمساكين . « قل أنفقوا طوما أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين » وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ، ولا ينفقون إلا وهم كارهون » ، « إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم » ، « إن الذين كفروا وماتوا وهم ككار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ، أولئك لهم عذاب أليم ، وما لهم من ناصرين » .

لقد توهمت فى هذه الآية الأخيرة أنها أتت على غير وجهها البلاغى ؛ ولو جاءت عليه لقل « لو افتدى به » بدون الواو ... فاسر هذا القلب ؟ وما معنى محى هذه الواو ؟ ذهب كثير من العلماء الى أنها زائدة ، وأنا أرى فى هذا الموطئ رأى أبى العباس المبرد ، قال له مدهبا سديدا فى جملة الحروف التى يقولون عنها إنها مزيدة فى القرآن ، وهو أنه ليس شئ من الحروف جاء فى القرآن إلا لمعنى مفيد ، ولا يجوز أن يكون لآلة مطّرحا ، ولا خاليا من الفائدة صغرا ؛ وذلك أن الزيادات والنقائص فى الكلام إنما يصطر إليها ويحمل عليها الشعر لئلا هو مقيد بالأوزان والنساق ، وينتهى الى غايات وحرام ، فإذا نقصت أجزاء كلامه قبل لحاق القافية اضطر الشاعر الى أن يزيد فى الحروف فيمد المقصور ، ويقطع الموصول ، وما أشبه ذلك . وإذا زاد كلامه - وقد هجم على القافية فاستوقفته عن أن يتقدمها ، وأخذت بمحنقه دون تجاوزها - اضطر صاحبه الى التقصان من الحروف ، فقصر الممدود ، ووصل المقطوع ، وما أشبه ذلك حتى يعتدل الميزان ، وتصح الأوزان ؛ فأما إذا كان الكلام محلول العقال ، مخليع العذار ، ممكسا من الجرى فى مضماره ، غير محجور بينه وبين غاياته ، فإن شاء صاحبه أرسل عناته فخرج جاعا ، وإن شاء قدح لجأه فوقف جانحا ، لا يحصره أمد دون أمد ، ولا يقف به حد دون حد - فلا تكون الزيادات الواقعة فيه إلا عيا واستراحة ، ولغويا وإلاحة ؛ وهذه منزلة ترفع عنها كلام الله سبحانه ، الذى هو المتعذر المعوز ، والممتنع المحض ، وكل كلام إنما هو مصل خاف سبقه ، وقاصر عن بلوغ أدنى غاياته ؛ بل قد يرتفع عن هذه المنزلة كلام الفصحاء المتقدمين ، والبلغاء المحذفين ، فصلاهما هو أعلى طبقات الكلام ، وأبعد مقدرات الأنام .

وإذا كان ذلك كذلك فما معنى هذه الواو ؟ ما كدت أوجه هذا السؤال الى جانشنى حتى تذكرت - والله كرى شجون - سؤالا من هذا القبيل وجه الى أبى العباس المبرد ، وقد

قرأ قوله تعالى : « هذا بلاغ للناس ولينذروا به » سأل سائل فقال : قد علمنا أن هذه اللام لام كي فامع إدخال الواو عليها إن لم تقدرها مزيدة ؟ فقال له المبرد : ألت تعلم أن قوله تعالى : « هذا بلاغ » مصدر ، وقوله : « ولينذروا به » فعل موضوع في موضع المصدر ، لأن الأفعال تدل على مصادرها ؟ فالتقدير : هذا بلاغ للناس وإنذار ؛ فبطل أن تكون الواو جاءت لغير معنى . وقد أحسن المبرد في هذا الجواب غاية الاحسان . فإحسن جواب في واو الآية التي نحى بسددها ؟ قال الزمخشري : « فإن قلت : كيف موقع قوله : « ولو افتردي به » ؟ قلت : هو كلام محمول على المعنى كأنه قيل : فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتردي بملء الأرض ذهباً » (١) وهذا المعنى الذي ذكره لا يتسق ونظم الكلام . والذي يقتضيه التركيب وينبغي أن يحمل عليه ، أن الله تعالى أخبر أن من اخترم كافراً لا يقبل منه ما يملأ الأرض من ذهب ، على كل حال يقصدها ، ولو في حالة الافتداء به من العذاب . ومن المعروف في النحو : أن لو تأتي منبهة على أن ما قبلها جاء على سبيل الاستقصاء ، وما بعدها جاء تنصيهاً على الحالة التي يظن أنها لا تندرج فيما قبلها كقوله : « أعطوا السائل ولو جاء على فرس ، وردوا السائل ولو نطلف محرق » كأن هذه الأشياء مما كان لا ينبغي أن يؤتى بها ، لأن كون السائل على فرس يفسر بثرائه ، فلا يناسب أن يعطى ؛ وكذلك الظاف المحرق لا غنى فيه . فكان يناسب أن يقبل منه ملء الأرض ذهباً لكنه لا يقبل ؛ ونظيره قوله تعالى : « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » لأنهم نفوا أن يصدقهم على كل حال حتى في حالة صدقهم ، وهي الحالة التي ينبغي أن يصدقوا فيها ؛ ولو هنا لتعميم النفي والتأكيده ، فكان الله سبحانه لما قال : « فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً » هم وجوه القبول بالنفي ، ثم فصل سبحانه لزيادة الإيضاح والبيان . . . ولو لم ترد هذه الواو لم يكن النبي طاماً لوجوه القبول ، وكان القبول كأنه مخصوص بوجوه الفدية دون غيرها من وجوه القرية . . . وهكذا تتكشف لك دقائق الإعجاز في القرآن إذا أحملت الفكر ، وأرهفت الخاطر ، ويتبين لك جلياً أن « الحرف الواحد من القرآن معجز في موضعه لأنه يحسك الكلمة التي هو فيها ، ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة ، ولأنه ما من حرف إلا ومعه رأي يسبح في البلاغة من جهة نظمه ، أو دلالاته أو وجه اختياره بحيث يستحيل البتة أن يكون فيه موضع قلق ، أو حرف تافه ، أو جهة غير محكمة ، أو شيء مما تفقد في نقده الصنعة الإنسانية من أي باب من أبواب الكلام إن وسعها منه باب . وهذا هو السر في إعجاز طامته ، والدليل الناصع على أنه كتاب أحكت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، خلق الإنسان علمه البيان ؟

السيد احمد صقر

## بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتَاوَى

### بين لجنة الفتوى ووزارة الشؤون الاجتماعية

حضرة صاحب المعالي وزير الشؤون الاجتماعية

السلام عليكم ورحمة الله :

وبعد ، فقد ورد الى لجنة الفتوى بالأزهر استفتاء من جماعة من المسلمين فيما نشر بمجلة الشؤون الاجتماعية في أعدادها ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ من آراء يرونها تمس المبادئ الإسلامية ، وقد ضروا لذلك أمثلة كثيرة ، وطلبوا بيان حكم الله في هذه الآراء ، وفي نشرها في مجلة رسمية على جمهور يدين بالإسلام ، وفي دولة دينها الرسمي الإسلام .

وقد رجعت لجنة الفتوى الى المقالات التي تضمنت هذه الآراء في الأعداد المشار إليها ، فتبين لها أن بعض الكاتبين ومحرري المجلة قد تجمع بهم أقلامهم فتصور الآراء والأمكار صوراً تحمل في طياتها بعضاً من الغمز والتعريض ، وتهجم على مقامات سامية يحترمها العالم كله ، ويؤمن بتعظيمها كل ذي دين سماوي ، كما أنها تحاول أن تخلع على بعض المبادئ الإسلامية ثوب الرحمة البالي وأنها لا تمهض بالإصلاح الاجتماعي المنشود ، ثم تنوء بشأن نظم أخرى لا يقرها الدين ولا يعرفها المسلمون . وإلى معاليكم أمثلة من ذلك :

١ — في العدد الرابع من المجلة تحت عنوان (الطفولة المشردة) يقول الكاتب : « أليست حضارة العالم تقوم الآن على تعاليم موسى وعيسى ومحمد ؟ هل كان أحد هؤلاء الثلاثة شيئاً يذكر عندما كان في مرحلة الطفولة ؟ ألم يكن أولهم لقيطاً على الوصف الذي ورد في التوراة ؟ ألم يكن ثانیهم في حكم اللقيط ينتسب الى نجار ١٢ » ١ هـ

ولا يخفى على معاليكم أن كلمة « لقيط » ساوت بحكم العرف العام الحاضر من الالفاظ التي تلبس عنها الامم في البيئات المتوسطة ، وتنحاشها ألسنة كثير من العامة ، فضلاً عن البيئات الراقية المثقفة .

وأنت في التعبير عن سيدنا عيسى روح الله وكلته بأنه ينتسب الى نجار تعريضاً شليماً بسيدنا عيسى الرسول وأمه مريم البتول عليهما السلام ، وأن حسن النية في استعمال هذه الكلمات الجارحة لا يقتلح من نفس القارئ حرارة الألم الذي يساوره حينما يقع نظره عليها .

إن قداسة الأنبياء شأن من الشئون التي تكفلها الأديان جميعا ، والتي يفار عليها جميع المتدينين ؛ وإنها لأجل وأعظم من أن تكون مضرب المثل للطفولة المشرقة في عصرنا الحاضر .

٢ - في المبدأ الخامس تحت عنوان ( الأسرة الأوربية والدعائم التي تقوم عليها ) تنويه بشأن النظم الأوربية في الطلاق والزواج ، إذ يقول الكاتب . « ففى بعض الأمم الأوربية وخاصة التي تدعى بالمذهب الكاثوليكي يكاد الطلاق يكون من المستحيلات . . . ثم يقول : « ولكن هذه القوانين ليست كل ما سمحت إليه الشعوب الراقية من وسائل الحماية ، بل هناك أنواع أخرى ، منها أن الأوربي على وجه عام متمصب بطبعه وآدابه أشد التمسك بالزواج بواحدة ؛ وتعدد الزوجات جناية يعاقب عليها متركبها بالسجن سنتين أو أكثر ، اهـ .

ومما لا يخفى فيه أن الدعوة إلى إصلاح الأسرة بهذا الأسلوب تتضمن الغرض من المبادئ الإسلامية التي تشرع الطلاق لأسبابه الموقوفة ، وتبيح تعدد الزوجات لمن تطمئن نفسه إلى العدل والقيام بالحقوق ، كما تتضمن الترويج بأن هذه المبادئ تنافى ورقى الأمم وتقدمها .

وإذا كان المسلمون يقرءون في مجلة تصدرها حكومة إسلامية تصوير أحكام دينهم بهذه الصورة ، فإن ثقتهم في هذه المجلة لنضعف وتلاشى ، وإن الشك ليساورهم في القائلين على أمرها .

٣ - في المبدأ الرابع والخامس أيضا دعوة شديدة إلى أنه يجب أن تطول مدة الخطبة قبل الزواج ، وأن يترافق الخطيبان ويتعارفا حتى يتاح لكل منهما أسباب الوقوف على فضائل الآخر وعلى عيوبه .

ولا شك أن الدعوة إلى هذا المبدأ إيمان في تسهيل ذرائع الفساد ، وأن حوادث الفتنك بالأمراض التي تقع في ظل تعارف الخطيبين لأكثر من أن تحصى ، وأن في بعضها ما يكفي لهدم هذه الدعوة التي يراود أهل المسلمين عليها .

إن الإسلام أباح للرجل أن يرى خطيبته ، ولكنه حرم تحريرا بأنما أن يختل بها قبل العقد ، أو يعاشرها معاشرة الرفقة والتعارف على الوجه الذي تدعو إليه المجلة ، وتعتبره من وسائل تدعيم الأسرة والمحافظة عليها .

وبعد ، أفلا يرى معالي الوزير أن نشر مثل هذه المبادئ والآراء وترويجها بين المسلمين في مجلة حكومية ، يدعو الشباب وأنصاف المتعلمين إلى التمسك بها وازدراء غيرها ؟ أفلا يرى معاليه أن نشر المبادئ الأوربية في مجلة الشئون الاجتماعية لا يمكن أن يعتبره الرأي الإسلامي مجرد عرض لصور الحياة الاجتماعية عند الأوربيين ؟ !

أفلا يكون الرأي العام معذورا إذا هو اعتقد في القائلين على تحرير المجلة أنهم يريدون تقريب المبادئ الأوربية إلى المجتمع الإسلامي ، ودعوته ضمنا إلى اعتناقها والعمل بمقتضاها ؟

إن لجنة الفتوى لا يخامرها أدنى شك في أن معالي الوزير يقدر هذه المسائل قدرها ،  
ويعطيها المكانة اللائقة بها من المخطورة ، فيعمل على تلفيها ، وتطهير المجلة منها ، وتوجيهها  
الوجهة الصالحة . والله الموفق .

والسلام عليكم ورحمة الله .  
رئيس لجنة الفتوى  
محمد عبد اللطيف النمام

## رد وزارة الشؤون الاجتماعية

حضرة صاحب الفضيلة رئيس لجنة الفتوى بالأزهر الشريف .

والسلام عليكم ورحمة الله .

ولمعد ، فقد تشرفت بقلم كتاب فضيلتكم المتضمن رأيكم في فقرات وردت بمقالين  
نشرتهما مجلة الشؤون الاجتماعية خلال العام الماضي . وإنه ليسرني بداءة ذي بدء أن أرى  
فضيلتكم تقررون أن حسن النية متوافر في الأقلام التي جرت بهذه الفقرات . وعلى ذلك  
لا يبقى إلا أن يكون التعبير قد خاض تلك الأقلام ، فجاءت عبارتها تحتل العباس والتخريج .

ولقد راجعت المقالين اللتين أشرتم إليهما فوجدت الأولى لحضرة الاستاذ وهيب بك  
دوس المحامي وعضو مجلس الشيوخ ، وقد عرض فيها لحال الطفولة المهملة في مصر ، وأخذ  
يبحث على وجوب العناية بتعليمها وتهذيبها بغية إنضاج ما قد يكون كامناً في بعضها من  
الدكاه والبوغ ، وضرب لذلك مثلاً بمصر في العهد الماضي فقال : إنهم لا ينتمون  
إلى أسرة كبيرة معروفة ، وإنما انتزعوا من أوساط رقيقة الحال ، فعملوا وهذبوا ، ثم نجحوا  
في وضع أساس حضرة مصر الحاضرة ، وترقى من ذلك إلى ضرب المثل بالأنبياء موسى وعيسى  
ومحمد عليهم السلام ، وذكر في مقام تعجيد عقربتهم والإشادة بانوارهم أن حضارة الانسانية  
كلها على مدى المصور إنما قامت على تمايلهم مع أن أحدهم كان لقيطاً على حد رواية التوراة ،  
وأن الثاني مطعون في نسبه في رأى لليهود ، وأن الثالث كان يتينا على حد قول القرآن الكريم .

هذا هو سياق الكلام ومفهومه ومرماه . فإذا كانت التعبير عنه لم تراع فيه بعض  
الاعتبارات فهو على كل حال تعبير رحل مسئول لا يمكن أن يشك في حسن قصده وسلامة  
نيته ، ولو كانت إدارة المجلة تتوقع أن كلامه سيفسر بممان غير التي يريد لها لاستشارته  
في إدخال بعض التمديل على ألفاظه .

أما ما جاء في الفصل الخامس بالأمرة الاوربية والدعائم التي تقوم عليها فلا يخرج من كونه



عرضاً للنظم التي تقسم عليها الأسرة في الغرب ، ولا يقصد منها سوى تعرف هذه النظم ، لتوازن بين صرامتها في مسألة الطلاق وتعدد الزوجات ، وبين ما تفتش عندنا من القوضى في هذه المسائل ، نتيجة لانحرافنا عن أصول الاسلام وتعاليمه الصحيحة ، عسى أن تفضي هذه الموازنة الى كبح جراح بعض النفوس ، أو التنبيه لوضع قيود ترد نظام الأسرة الى أصول الدين . ولا شك أنه كان بعيداً جداً عن تفكير كاتب المقال أن يحاول الغش من سلامة المبادئ الاسلامية التي أباحت التعدد والطلاق لأسبابهما المعقولة ، بدليل ما تقيص به أبحاث هذا الكاتب نفسه في أعداد المجلة من الدفاع عن تلك المبادئ ، مع المطالبة بالحرس على توحى حكمة الشارع في وضعها . ولا شك أيضاً في أنه أول الأسفين على أن يحمل كلامه محلام يقصده ولم يخطر له ببال .

وأما ما يتعلق بإطالة مدة الخطبة قبل الزواج فليس معناه أن يباح للعطيين اختلاط مطلق من كل قيد قد يستغل فيه ضعف الطبائع والفرائز ، وإنما أراد به الكاتب أن يفسح الوقت للشايبين ، في حدود مشروعة ، ليتعرف كل منهما حقيقة الآخر قبل أن يرتبط به ارتباطاً يبقى مدى الحياة ، وأن يفسح الوقت أيضاً للأمرتين حتى يتعرف كل منهما من دغائل الآخر ما لا تسمح المصاهرة المرجحة أو السريعة بتعرفه .

وبعد ، فاني أستطيع أن أطمئن فضيلتكم على أن مجلة الشؤون الاجتماعية قد عهد بها الى موظفين من أحرص الناس على دينهم وأحلافهم ، وأن هؤلاء الموظفين خاضعون لرقابة نقطة لا تتسامح ولا تهاون ، وهي كفيلة بأن تسير المجلة في الطريق المستقيم ، وبأن تحمل ملاحظاتكم محل الاعتبار .

وفي الختام أرجو من فضيلتكم أن تعتبروا المسألة منتهية عند هذا الحد ، وأن تتقبلوا  
وافر تحبتي واحترامى

وزير الشؤون الاجتماعية

محمد عبد الجليل

## تعليق اللجنة

وقد اطلعت لجنة الفتوى على خطاب معالي الوزير وطلبت إلينا نشر ما يأتي :

إن لجنة الفتوى يسرها أن حضرة صاحب المعالي الوزير قد سجل في خطابه « أن كانت المقالات » موضوع الاستفتاء « قد خاتمتهم أقلامهم خاتمت عباراتهم تحتل اللبس والتفريغ » . ونحن لا نشك أن معاليه يوافقنا على أن الأمر يحتاج إلى شدة اليقظة والحيلة حتى لا نخون الأقاليم أصحابها ، وخاصة فيما يتعلق بقراءة الأنبياء والمرسلين ، موضع النجاسة والاحترام عند جميع الأديان .

ولا نشك أيضا أن معاليه يرى أن مما زل به القلم في هذه المقالات أن تنفذ الأنبياء الثلاثة مضرب النمل للظموكة المشردة ، وأن يقال من سيدنا عيسى عليه السلام — تأييدا لذلك — « إنه ينسب إلى نجار » . هذا تعبير بفتح ، وطمع صريح من الكاتب لا يقره عليه أحد ، ولا يحتاج معه إلا أن تتوقع المجلة أولا تتوقع تفسيره بمعنى غير الذي يدل عليه .

وقد كان يسر لجنة الفتوى ، كما يسر كل حريص على صالح المجتمع ، أن تنشر وزارة الشؤون الاجتماعية فتوى اللجنة بنصها الكامل ، وألا تحتفظ هذا الاحترال الذي قد يعتبر في عرف الناس محاولة للتخلص ، فالحق أسمى من أن يخضع لاعتبار ما .

وبعد ، فقد اطلعت لجنة الفتوى إلى ما أكدته حضرة صاحب المعالي الوزير من أن موظفي المجلة خاضعون لرقابة يظن لا تقصاح ولا تهاون ، وأن تلك الرقابة كفيلة بأن تسيّر المجلة في الطريق المستقيم ، وأن تحمل ملاحظة لجنة الفتوى محل الاعتبار ، فإن الإصلاح الذي تنشده لجنة الفتوى وتنشده معها وزارة الشؤون الاجتماعية ليقضى بهذا التصامن ، وبالرجوع إلى الحق والاعتداد به ، والعمل على إقراره .

ومن هنا تستطيع لجنة الفتوى أن تشر المسألة منتهية . والله يوفقنا جميعا إلى ما فيه خير الدين والوطن .

رئيس لجنة الفتوى بالأزهر

محمد عبد اللطيف الفحام

## حجاب المرأة

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

أرجو التفضل ببيان ما اعتمدته وصححه فقهاء الاسلام من الحكم الشرعى لوضع الحجاب وستر وجوه النساء فى الطرقات أمام الرجال الأجانب ، مع بيان حكمة المشروعية ، وتوضيح معنى قوله سبحانه وتعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْرِنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ، ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ يُمَرَّقْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » .

يافا — الأمير عبد القادر الشهبانى

**الجواب :**

قال الله تعالى فى سورة النور : « وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَنْضَضْنَ مِنْ أَعْيُنِهِنَّ ، وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ، وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلِيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ » : تضمنت هذه الآية الكريمة الأدب الذى يجب أن تكون عليه المرأة بالنسبة الى الرجال الأجانب ؛ وانصلت بالآية فى ذلك أحاديث صحيحة فى البخارى ومسلم وغيرهما .

وقد اختلف الفقهاء فيما يباح للمرأة كشفه من أعضائها أمام الرجال الأجانب ، وما لا يباح لها كشفه ، تبعاً لاختلافهم فى فهم هذه الآية وتلك الأحاديث .

فالإمام أحمد بن حنبل والإمام الشافعى ، فى أحد قوليه ، يرى كل منهما أنه لا يباح للمرأة المسماة أن تكشف أى جزء من أعضائها أمام الرجال الأجانب إلا إذا دعت الى ذلك حاجة ، كما فى حالة المصاح ، والشهادة فى المعاملة فى البيع والشراء ، والغلبة للزواج . ويرى كل منهما أن المراد بقوله تعالى : « إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا » بعد قوله : « وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ » استثناء ما ينكشف من غير قصد من المرأة : كأن تكشف الرمح عن صدرها أو ساقها ، فانه لا إثم عليها فى ذلك ولا هرج .

ومذهب الحنفية ، والرأى الثانى للشافعى ، والقول المفتى به عند المالكية : أنه يباح للمرأة أن تكشف وجهها وكفها فى الطرقات وأمام الرجال الأجانب . ويرى أصحاب هذا الرأى أن المراد بالآية نهى النساء عن إبداء شئ من أعضائهن إلا الأعضاء الظاهرة بعادتها ، وهى الوجه والكفان .

وقد قيدوا هذه الإباحة بحالة أمن الفتنة . أما إذا كان كشف الوجه واليدين يثير الفتنة ويفرى بالمرأة من لاخلق له فانه يجب عليها سترها كما تستر بقية أعضائها . فانه مما لا شك فيه

أن من مقاصد الاسلام العمل على سد الدرائع ، وقطع دابر الفتن ، وصيانة الآداب ، وحفظ الأعراض .

هذه هي مذاهب العقهاء فيما يحل للمسئلة أن تكشفه من أعضائها أمام الرجال الأجانب ، وما لا يحل . وقد بنيت كما سلف على اختلافهم في فهم المراد من قوله تعالى في آية النور : « إلا ما ظهر منها »

#### الخلاصة :

والخلاصة : أن بعض الأئمة لا يبيع للمرأة أن تكشف شيئاً من جسمها أمام الرجال الأجانب من غير حاجة ، وأن جمهورهم يبيع لها كشف الوجه واليدين أمام الرجال بشرط أن لا تخاف الفتنة ، فإن خيفت الفتنة فلا يسوغ لها أن تكشف شيئاً من جسمها لا الوجه ولا غيره .

ولجنة الفتوى ترى — تحشياً مع القاعدتين الإسلاميتين العظيمتين : « يسر الدين ومماجنه ، وسد ذرائع الفساد » — ترجيح الرأي القائل بأن وجه المرأة وكفيها ليصت من العورة ، فلا جناح عليها أن تكشف شيئاً منها أمام الرجال الأجانب ، دفعا للحرج والمشقة في معاملاتها العامة والخاصة ، وأنه إذا خيفت الفتنة يجب عليها ستر جميع بدننها سداً لدرع الفساد .

واللجنة تقرر في الوقت نفسه أن كشف الوجه واليدين مزينة بالأصباغ المعروفة نوع من التبرج الذي يحقته الشرع ويشدد في المكبر عليه ، وأن الكشف المباح إنما هو لوجهه واليدين على طبيعتها التي خلقها الله عليها ، خالية من أصباغ وألوان ، وهي تناشد المسلمين حرصاً على سماعتهم أن يمينوا بهذا الأدب الاسلامي الكريم على نسايتهم وفتياتهم ، ويشعروهن بأن مخالفة هذا الأدب توجب غضب الله تعالى وسخطه ، فضلاً عن أنها تدهور كيان الأسرة الخلقي . ونهيب اللعنة بهم أن يحملوا نصب أعينهم دائماً قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة » .

أما قوله تعالى في سورة الاحزاب : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين ... الآية » فقد جاء ضمن آيات سبقت لمعالجة حالة خاصة نشأت بين المنافقين والمؤمنين ، وهي أن المنافقين كانوا يتصدون للمسلمين بكثير من أنواع الايذاء ، نارة في أشخاص المسلمين ، ونارة في أشخاص المسلمات ، بما ألفوا أن يقابلوا به لغايا الجاهلية من غش القول وبذيء الكلام ، فنزل قوله تعالى : « إن الذين يؤذون الله ورسوله لنعمهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً . والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً . يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ، وكان الله غفوراً رحيماً . لئن لم يفقه المنافقون والذين في قلوبهم مرض

والمُرْجفون في المدينة لغيرك بهم ثم لا يجاوروك فيها إلا قليلا . ملعونين ، أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا .

فسحلت هذه الآيات الكريمة ، حسماً لتلك الحالة وردما ل هؤلاء المنافقين ، أنواعا من العلاج يرجع بعضها الى تهديد المنافقين ووعدهم بسوء عاقبتهم الآخروية والديوية إذا استمروا على إيداء المؤمنين والمؤمنات ، ويرجع بعضها الى بيان ما يتحصن به المؤمنات من تعرض المنافقين لا يذاتهن ، وكان من هذا ما تضمنته آية : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ . . . الخ . فقد أصر فيها نساء المؤمنين أن يتخذن في زين ما يميزهن ويجعلهن معروفات لمن يحاول التصدي لمن بالإيداء تحت ستار الجهل أو النعاهل بهن . يشير الى هذا قوله تعالى في بيان حكمة ذلك الأمر : « ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين » .

ولا شك أن إيداء الجلباب على نساء المؤمنات بحيث يغطي جميع أجسامهن ، يميزهن عن غيرهن ، وهو مع ذلك أنسب بالتصون والمبالغة في مظهر العفاف المطلوب منهن ، وأبعد بهن عن معاني الريبة ومواقع الإيذاء .

هذا هو ما توجه اليه الآية الكريمة ، وهو المراد منها . ويؤخذ من دلالة هذا العلاج أن المرأة المسلمة يجب عليها بوجه عام وفي جميع الاوقات والشؤون أن تبعد عن مواطن الريب ، وأن تسمو بنفسها عن مساقط الإيذاء ، صوتا لدينها ، وحفظا لكرامتها وكرامة ذويها ؟

## أجر المأذون

وجاء الى اللجنة أيضا :

ما الحكم في الأجرة التي يأخذها مأذون عقود الانسكة : هل هي حلال أو حرام أو مكروهة ؟ لأن الرواتب التي تصرف على أئمة المساجد ومؤذنيها وخدمتها من هذه الأجر ، فإن ألغيت أهملت المساجد وتمطل الأمر المعروف والنهي عن المنكر ، حيث إنه لا وقف هناك يقوم بكفاية المدكورين ، إلا أن يكونوا حالة على الناس ؟  
عبد الرحمن الخطيب  
إمام الجامع العمري بالكرك

الجواب :

أخذ الأجرة على تسجيل عقود الزواج حلال ولا شيء فيه . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

## تاريخ الأزهر

بواحث التفكير في وضعه وإذاعته

هذا بحث عرضت لموضوعه منذ خمس سنين ، ثم صرفتني عنه شواغل كثير .  
وأشهد لقد كان الحافظ الذي أهاب بي أن أعرض لموضوع هذا البحث ، مستمدا وجوده  
من لحظات سعيدة أمضيتها مع صحفي من « كوينهاج » عاصمة الدانمرك .  
كان هذا الصحفي يؤدي لصحيفته جولة ميدانية بلاد الشرق ، وقد شخص الى مصر ،  
وتعرف فيها الى قادتها ، وتحدث إليهم وأدرك عنهم جبهة التيارات الفكرية التي تتحاذب  
مصر الإسلامية بمد أن استقامت لها على العالم الإسلامي زعامة يقول بها كل موطن يدين  
بالإسلام أهله ...

وقال لي الصحفي الدانمركي : لقد دخلت البيت من بابه ا

فقلت له : كأنك صرت قبل الآن على أن تدخل البيوت من نوافذها ... ا

فاستطرد وهو يضحك : كلا ، فإ الى هذا الذي ترى إليه أقصد ، وإنما أقصد من  
ذلك الى القول بأنني وقد قصرت بحثي في مصر على الدوافع التي مهدت لها زعامة العالم  
الإسلامي رأيت الخير كل الخير في أن أدرس هذه العوامل في الجامع الأزهر ، لأنها تجتمع فيه  
وتصدر عنه ، ومن هنا كان حديثي مع الأستاذ الأكرم الشيخ المرافعي أضع حديث صحفي  
ظفرت به من الشرق ... ا

ثم قال : إننا نعرف الأزهر في « كوينهاج » ، ونعرف أن المسلمين في سبيلهم الى الاحتفال  
بعيده الألفي ...

قلت : وهذا ما لا يحبه أي أحد في جنبات الأرض ...

ففى الصحفي الكوينهاجي يقول : إنني أعرف ذلك وأعلمني الى أنه الحق ، ولكنني  
أرجو أن تصنع معي معروفا .

قلت : وإياه ليسعدني حقا أن أوفق في ذلك الى ما تريد .

فقال : أريد أن ترشدني الى الكسب التي يدرس الأزهريون فيها تاريخ الأزهر من باكورة  
هده بالوجود الى اليوم ، فانها على التحقيق لن تخلو من متاع طيب في أن أكون أول من ينقله  
الى « البلاد الواطئة » . فقد نقلت إليها فصولا ممتعة عن كتاب قيم يتحدث عن جامعة « براج »  
وهي الجامعة التي أحسبها تؤاخذ الجامع الأزهر في طول العمر وامتداد صفحة الوجود .

قلت . ولكنك لم تظهر في حتى الآن على اليسوع الذي صدرت إليه وانصرفت عنه وأنت على معرفة بأن الجامع الأزهر معهد يدرس فيه الطلاب ، وأنه يتبها لاستقبال عيده الآتي .

فقال . أما هذا « اليسوع » فإنه لا يزيد عن ذلك الفصل القصير الذي كتبه « فولز » في دائرة المعارف الإسلامية « الانجليزية » ، وعن فصول قصار أخرى كتبها أفلام أدركت الآن أنها لم تسير المادة في طائفة غير قليلة مما عرضت له من المسائل الموصولة بالأزهر من ناحية تاريخه ، ومن ناحية المهاج النفاق الذي ينهض بأعباء إشاعته وجمع كلمة المسلمين من حوله ، ولقد صححت غير قليل من هذه الأخطاء بعد أن استمعت الى حديث الأستاذ الأكبر الى .

وافترقا قبل أن أقول له إن القدر الذي يعرفه من تاريخ الأزهر عن طريق الفصل القصير الذي كتبه « فولز » قد لا يعرف مثله الأزهريون الذين يحصلون العلم في أقدم جامعة إسلامية في هذا الوجود .

كان هذا الحديث مع الصحفي الكوينهاجي إذن هو الحافز الذي أهاب بي أن أجمل من « تاريخ الأزهر » مضطعة الفراغ ، ومسألة الساعة التي تملأ من مسائل .

والحق أقول . إنه ما من أحد يستطيع وحده أن يعرض لتحقيق التاريخ الأزهرى خلال ألف عام دون أن يلترمه العناء ، أفدح العناء ، ويسجود عليه الصيق ، كل الصيق ، من هذه الأخاديد التي تعترض طريق التاريخ الأزهرى في هذه الحقبة التي تجمع الى طول الأمد وجوها كثيرا من النقائص والاضداد ، وألوانا كثيرا من التيارات التي تختلف بين السياسة من ناحية تفاعل السلطات التي تعاقبت على عصر تفاغلا نوع من ضرب النظر الى الأزهر والى ما يلقي من منبره أو على أديمه من بحوث .

ولكن العناء والصيق اللذين يعرض لهما الباحث الواحد ، قد لا يتعرض لهما من يبحث التاريخ الأزهرى في جبهة من الذين يؤرخونه البحث ويتوفرون عليه معه ، فلا خلاف على أن إنتاج الجماعة في هذه الناحية يكون أقرب الى التوفيق ، وأهمر بالخصوصية ، وأعمق في السداد .

ولن يكون التعرض لهذا العناء المحمودة مغبته ، شرا من الألم الذي يلمسه الأزهرى بيديه حين يسأله السائلون : ماذا يعرف من تاريخ الأزهر ، فلا يرى أنه يعرف من تاريخه إلا أنه جامع أنشاء القاطميون في مصر ليروجوا من منبره لمذهبهم في الدين ، وأنه يتعهد طلابه بطائفة من فنون المعرفة ، ويجرى عليهم أرزاقا حبسها على أهل بعض الملوك وبعض السادة ، وبعض السيدات . . . . .

ولن يكون الجهد الذي ينفق في سبيل تحقيق تاريخ الأزهر وإخراجه ليتدارسه طلابه ، جهدا تنطوي نتائجه على أية ظاهرة من العبث أو مضیعة الوقت والمال ، لما يعرف الأزهر

في مصر ، وفي غيرها من بلاد الله ، على أنه مدرسة ينصرف إليها الطلاب ، ليصدروا عنها علماء يقولون في الفقه والنحو والتوحيد ، وما إلى ذلك من فنون العلم التي يتألف منها منهاج الدراسة الأزهرية وحسب ، وإنما يعرف الأزهر على أنه الموطن الذي تتلاقى فيه أمزجة العالم الإسلامي ، والذي تنصرف منه دعاوة لرأى فاداهو الرأي الدائع الشائع ، أو تنصرف منه دعاوة ضد فكرة فإذا هي الفكرة البائدة الخاطئة .

وكيف كان ذلك ؟

كان ذلك ، لأنه ما من مسألة شغلت أذهان المسلمين في دينهم إلا ومستها ألسنة الأزهريين بحديث حرى من مقاعد الشيوخ التي كانت مستقرة على حصير الأزهر من أقدم الحقب ، فالمداهب الدينية كلها ، حتى تلك المذاهب التي اجتمعت الكلمة على رفضها ، قد قال فيها الشيوخ القدامى والمحدثون كلاما من حق الأزهريين أن يعرفوا تفصيل أمره حتى يعلموا لاي سبب توافدت هذه المسائل على الأزهر لتبحث فيه ، ولأي سبب كان استبعاد بعضها عن حوزته وكان استبقاء بعضها الآخر مستقرا في مقصورته .

وكان ذلك ، لأنه ما من أحد أمسك بيده مقاليد الأمر في مصر إلا وأبقى في الأزهر أثرا يدل عليه ويفصح عنه ويسجل حقيقة مزاجه ، سواء أكان هذا الأثر تعلية لمكانة الأزهر وتوسيعا لأوراق أهله ، أم كان هو التبدل بهذه المكانة إلى القاع ، والتصديق على الأزهريين نضييقا بصرفهم بمض الشيء من التزام التفرغ للتحصيل . . .

وكان ذلك ، لأنه ما من أمة يعرف أهلها الإسلام إلا وكان منهم من عرف الأزهر وأخذ عن شيوخه ، ونقل إلى مواطنيه ما تهيأ له أن يقتبسه من علومه ، فمن الخير إذن أن يعرف الأزهريون ، وفيهم الآن بضع مئات من الطلاب الأجانب الذين لا تنصرف منهم فئة إلا لتستقر في مكانها فئة أخرى . . . من الخير حقا أن يعرفوا المعهد الذي استروح الأزهر فيه أنفاس الفوج الأول من طلابه الغرباء ، وأن يلجوا بالبواغث التي دفعت بالبعوث تبعث اليه من كل حاسب . وكان ذلك ، لأنه ما من مشكلة تعرضت لها مصر ، وكانت مشكلة في الدين أو الأدب أو السياسة أو نظام الحكم ، إلا وكان للأزهر فيها رأى ، وكان له في موضوعها توجيه ، فمن الخير كذلك أن يتعرف الأزهريون إلى مارمحه الأزهر من هذه المشكلات وإلى ما خسر منها ، لأنهم سيدركون من ذلك طائفة من حقائق الحياة المصرية التي لا يستطيعون إدراكها إلا في ضوء معرفتهم هذه الجواب من تاريخ معيهم ، ثم هم يفيدون منها ، على هذا كله ، معرفة صادقة بمراحل الحياة الفكرية والسياسية والدينية في مصر ، لأن الذي يعرف تاريخ الأزهر من هذه الناحية ، ويعرف قدرا من تأثيره في الحياة المصرية ، ومن تأثير الألوان التي سادت الحياة المصرية فيه ، إنما يكون في ذلك كله قد عرف التاريخ المصري في أوضح حقائقه وأحفل صورته بالدلالة على طابعه الأميل . . .



ثم كان ذلك ، لأنه ما من عمود من هذه العمدة القائمة في الجامع الأزهر إلا وافترت بأسماء طائفة من حلة الأشياخ الذين أحسنوا فيما توغروا على تأديته من رأى قالوا به في الدين واللغة وما يتصل بهما من مسائل العلم وفنونه ، حتى لقد كان « شيخ العمود » أكبر الامنيات التي تنطوي عليها أضرالع الأزهرى وهو مقبل على الأزهر ليستمع فيه الى شيوخه منهلها الى اليوم الذي يستطيع فيه أن يظفر بمثل مقدم الى جانب واحد من هذه العمدة التي اشتهرت بأسماء الشيوخ الكفاة الذين استندوا إليها وهم يرسون على طلابهم خير ما يقال في فنون العلم ؛ فمن الغير إذن أن يعرف الأزهريون عما يستطاع التفصيل فيه من تاريخ هؤلاء الاعلام ، وأن يجمعوا الى ألبابهم طائفة محققة منسقة من ألوان التراث الثقافى الذي أنتجوه .

وكان ذلك ، لأنه ما من ناحية يدين أهلها بالاسلام في هذه الدنيا إلا وبسط الأزهر عليها ظله بواسطة البعوث التي استقبلها من أهل هذه المواطن ، وفي الرسائل التي تعبها محفوظاته ، في العهد الأخير ؛ فمن الغير إذن أن يعرف الأزهريون هذه الناحية حتى تتوفر لهم الدراية الكاملة بالجانب الاجتماعى من حياة معهدهم ، لأنها تضم إليها ألوانا تؤلف الصورة التي يطالع العالم فيها وجه الرقاعة الدينية على العالم الإسلامى .

وقد اقتعد أربكة الرياسة على الأزهر شيوخ فيهم من ارتفع بمكانة العلماء الى الأوج ؛ فمن قائمة الأزهريين أن يلماوا بالخصائص التي أكتبت أولئك القيوخ منزلة الذين كانوا يتمتعون بالكلمة العليا ، لا في البيئة الأزهرية وحدها ، وإنما كانوا يتمتعون بالكلمة العليا في البيئة الحاكمة أيضا .

ومن قائمة الأزهريين أن يعرفوا البواعث التي حفزت أكثر الدين ولوا الأمر في مصر أن يكونوا على حاية ملحوظة بالأزهر ، ففي هذه البواعث ألوان من التوجيهات يستطيع الأزهرى المعاصر استغلالها لنفسه لتكون حياته العامة نفعيا محضا ، وخيرا خالصا .

وقد اكتملت الأزهر سلسلة طويلة من الانقلابات ينمى على طلابه أن يكونوا على دراية بها ليعلموا منها جهرة المراحل التي اجتازها حتى انتهى الى هذا العهد الذي صار اليوم اليه ، وليعرفوا الجهود التي أنفقها في سبيل المحافظة على التراث الدينى الذى ائتمن عليه

كل هذا ولم أقل لك ، إنه في مقدور طائفة من كفاة العلماء ومعهم طائفة من المؤرخين إذا تصدوا لتحقيق تاريخ الأزهر أن يواتوا أطماعنا في إخراج هذا التاريخ الى أكثر مما نأمل فيه .

ولو أتبع لتاريخ الأزهر أن يشهد الضوء بين دفقى كتاب يضم اليه مراحل هذا التاريخ كله ، لكان ذلك أنفس ثروة ثقافية يمد بها هذا الجيل ما يأتى بعده من الاجيال .

وعسى ألا يذهب هذا الصوت في البطاوة لتلك التفكير سدى !

على عامر

## من وحي الشريعة الخالدة

مما لا خلاف فيه أن الأوضاع السماوية بما حملته في أطوارها من صور المبادئ\* وراجع الآراء ونبيل المقاصد ، كانت ولا تزال مرد الكائنات كلها فيما يصدر عنها من تفاعل إيجابي أو سلبي ، لأن قوانين المجتمع الصالحة لاغتناها والسير على هداها كانت منذ البشرية الأولى تنعثر في أذيال الإخفاق تارة ويكتب لها النجح توما ما تارة أخرى ، بما تستهدف له البشرية من تبدل في الأطوار وتغير في البرامج والانعطاف ، تبعاً لتلك الأحداث الإيملائية التي تفرسها الملاحظات الملمعة ، وتزعم في أفقها صورها مختلفة تقع على هدى تلك الأحداث وفي ظلها . ومن أجل ذلك كان الوجود في افتقار مطرد إلى الرسل والأنبياء ، وإلى المصلحين والعلماء ، وإلى القادة والزعماء ، لأن العقل البشري بما اكتشفه من شهوات النفوس وما أحاط به من نزعات الآراء ، ليس بقادر وحده على أن يقين في جميع الأحوال الأخلاق المتتالية ، أو الصور البدائية التي ترسم في لوحة هذا الوجود سعادته الدائمة وعظمته الموافية ، فكان إرسال الرسل ضرورة قضى بها ناموس الاجتماع ، فهو من هذه الناحية خاضع لوحى الصائر الزهية التي استمدت سعادتها وسؤدها من تعاليم وحي السماء ، ووحى السماء رسول أنظر ، وملوك القرائز ، وقانون الطوائع ، وما الخير والشر عما يندرج تحت مدلولها إلا مجرد صور تتلاقى تحت الوجود وبين آفاقه المتباعدة أو المتقاربة ، فإذا أفاض ذلك الوحي السماوي من الخير قسطاً على بعض النفوس صيرها نفوساً ملائكية تراءى لها أوضاع الكائنات في صور مثالية ، وتصبح آفاقها بصيغة القممائل كلها ، فتخلص تلك النفوس من ظلمات الهوى ويواجهها النور الإلهي في ساحة القدسية الخالدة والسرمدية الدائمة ، والعكس بالعكس .

وما الخلاف الذي شجر بين فريق من علماء الأخلاق حين عرضوا لنظرية مشهورة وهي افتقار المجتمع إلى الخير والشر ، إلا أثر من تلك الآثار التي شيد علماء الأخلاق عليها نظرياتهم ، فقد ذهب غير واحد منهم إلى أن الخير والشر وما يقع في مدلولها ملك هذا المجتمع وعتاده وقوته وزاده ، ورتبوا على ذلك الاتجاه أن إرشاد المرشد وهدى الهادي قائم على الفصل بين الآثرين للخير والشر ، لكنه لا يستطيع أن يجحد أن النفوس المنفصلة بالخير ليس لها من المزيد غنى ، وأن النفوس المنفصلة بالشر في حاجة قصوى إلى إرشاد المرشد ، ينهبها إلى ممكن دثها ويدل بها إلى أسباب حثفها تبصرة وذكرى لقوم يعتبرون ، ومن هنا نغامت وظيفة الرسول والمرشد والعالم والواعظ ، فكانت تلك الوظيفة أداة قضاء على الرذيلة وإشادة لمعالم التفضيلة . فلو افترضنا أن العالم كله أمسى خيراً محضاً أو شراً محضاً ، لزمزع نظام الكائنات ، وفقدت

الاتجاهات ، لأن الخير لا يعلم إلا بنقيضه ، ولأن ما في أطواء الوجود ، لا يخلو من خير وشر ، فالخير ما كان فيه خير وإلى جانبه شر ، والشر ما كان فيه شر وإلى جانبه خير ، فليس ثمة خير محض ، ولا شر محض ، ولم تتمحض للخير إلا المبادئ السامية التي استمدت قوتها وجذبتها ونمائها من وحى القرآن وآداب القرآن وتعاليم القرآن ، وبما ورد بالأسنة الرسل مبشرين ومنذرين لتلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

الحق أن الخير والشر متلازمان في هذا المجتمع ، ولكل أعوان وخلان ، وأن وظيفة المرشد تستزيد من الخير عند الخيرين ، وتحاول اجتناب عوامل الشر من النفوس الشريرة ، فلهذا قد بعثوا للخير والشر على فرق بينهما . قال حجة الإسلام الغزالي في أخلاقياته : « ليس ما في المجتمع من خير وشر إلا كان شغل العلماء والهداة والمرشدين ، فقد وضعوا للخير حدوداً وأحكاماً ، ونصوا له مقاييس وأعلاماً ، ثم وضعوا للشر فروقاً وأحكاماً » « فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الصلاة » . والكشف عن تفاريم ذلك صرتهن بالأعداد القادمة ، فيلى الغد القريب ما

عباس ط

### أحياء ذكرى فقيد مصر العظيم

نظراً لما كان للفقيد العظيم ( محمد محمود باشا ) من الفضل العظيم في المحافظة على الروح الدينية ، والأخلاق الإسلامية ، بإنشاء قسم الوعظ والارشاد ، وتعميمه في أرجاء البلاد .

نظراً لهذا ولما كان عليه الفقيد العظيم من صفات بحسب الدين ويحضر عليها ويبحث على إنقاذها ، من عفة لسان ، وأدب خصومة ، وطهارة في كل ناحية من نواحي الرجولة ، وبعد عن الدنيا ، وأمانة في أموال الدولة .

نقول : نظراً لكل هذا وغيره ، جمع فضيلة شيخ معهد عيين السكوم حضرات المدرسين والمطلاب عقب آخر حصّة من يوم الثلاثاء ٤ فبراير سنة ١٩٤٩ وألقى فيهم كلمة عن صفحات مجيدة من صفحات هذه الشخصية الخالدة ، وحضهم جميعاً على أن يحبوا ذكراه العظيمة ، بأحياء المبادئ السامية بين ذويهم وأصحابهم ، حتى يكون ذلك خير جزاء له على حسن ما قدم لدينه ووطنه ، فيحبه الله بفضل ، ويسبغ عليه واسع رحمته .

سكرتير المعهد

محمد الحسيني

# فِعَالُ الْمُؤَلَّفَاتِ الْجَدِيدَةِ

## الرد على سير الاوزاعي :

الأوزاعي إمام الشام في القرن الثاني ، يروى عنه أنه لما اطلع على كتاب السير الصغير لمحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة قال : « ما لأهل العراق والتصنيف في هذا الباب ، فانه لا علم لهم بالسير ، ومنغزى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانت من جاب الشام والحجاز دون العراق فانها محدثة فتعا » . فرد عليه محمد بن الحسن بكتاب فمها كتاب السير الكبير . وصنف الاوزاعي كتابا رد فيه على سير الامام أبي حنيفة نفسه . فرد عليه صاحبه أبو يوسف بالكتاب الذي هو بين أيدينا الساعة . وقد كان نادر الوجود . قرأت لجنة إحياء المعارف بالمند أن تعنى بنشره ، فقام بتصحيحه والتعليق عليه فضيلة الأستاذ أبو الوفا الأفغانى رئيس لجنة إحياء المعارف ، وأشرف على طبعه عصر فضيلة الأستاذ الشيخ رضوان محمد رضوان بالقاهرة . فنشكر لجنة إحياء المعارف عملها على نشر هذا الكتاب التاريخي القيم . ونرجو لها المزيد من التوفيق .

## كتاب السبع وأمه على ضوء العلم :

عالج مؤلف هذا الكتاب حضرة الدكتور الفيور ابراهيم محمد مرزوق موضوعا لم يطرقه أحد قبله ، وهو تفسير حدوث الحمل بعيسى عليه السلام بدون وساطة بشرية ، كما خلق آدم مباشرة من التراب . فقال في آدم : إن حدوثه نشأ من أن الله خلق خلية أولية من التراب مباشرة ، فتمت على الأسلوب الذي تنمو به الخلايا في عالم الطبيعة ، فتم تكوين آدم . وقال في عيسى عليه السلام : إنه نشأ على هذا النحو ، ولكن ليس في التراب ولكن في أحشاء والدته مريم عليها السلام ، فقال : « إذا كان المراد إيجاد خلية تناسلية للغاية التي نحن بصدددها ومن مادة ترابية ، فالأولى والأجدر اتخاذها من أم الخلايا ، من المبيض الذي تحمله مريم لمثل هذه الغاية ، وكانت النتيجة هي الرجوع للوضع الطبيعي من حيث نشأة عيسى من بويضة أم مريم الخ » . ولكن حضرة الدكتور لأجل أن يصل الى هذه النتيجة ، أفاض في ذكر موضوعات علمية عالية ينكشف منها للقارىء ماحية مبهمة لاكثر الناس من نواحي علم التوالد ببيان شاف وتفسير شائق .

إننا نحض على وجوب قراءة هذا المؤلف لأنه يسن أسلوبا جديدا لفهم آية من أكبر آيات التوالد البشرى ، فإن فات القارىء الاقتناع بنظريته ، فلن يفوته الإلمام بالاصول العلمية الكثيرة التي استعان بها الدكتور لبناء مذهبه . فله منا الشكر الكثير والاعجاب الجمل .

and hardship. Strong and steadfast must have been the motives which enabled him, amidst such opposition and apparent hopelessness of success to maintain his principles unshaken. No sooner was he released from this restraint than, despairing of his native city, he went forth solitary and unaided to At-Taif, and there summoned its rulers and inhabitants to repentance, with the message which he said he had from his Lord ; on the third day he was driven out of the town with ignominy, while blood flowed from wounds inflicted on him by the populace. Retiring to a little distance, he poured forth his complaint to God, and then returned to Mecca, there to resume the same outwardly hopeless cause, with the same high confidence in its ultimate success. We search in vain through the pages of profane history for a parallel to the struggle, in which for thirteen years the Prophet of Arabia, in the face of discouragement and threats, rejection and persecution, retained thus his faith unwavering, preached repentance, and denounced God's wrath against his godless fellow-citizens. Surrounded by a little band of faithful men and women, he met insults, menaces, and danger with a lofty and patient trust in the future. And when at last the promise of safety came from a distant quarter, he calmly waited until his followers had all departed, and then disappeared from amongst an ungrateful and rebellious people.

"Not less marked was the firm front and unchanging faith in eventual victory which at Medina bore him through seven years of mortal conflict with his native city ; and enabled him, sometimes even under defeat, and while his influence and authority were yet limited and precarious, even in the city of his adoption, to speak and to act in the constant and undoubted expectation of victory."

**Denunciation of Polytheism and Idolatry :** "From the earliest period of his religious convictions, the Unity, or the idea of One Great Being guiding with almighty power and wisdom all creation, and yet infinitely above it, gained a thorough possession of his mind. Polytheism and idolatry, at variance with this grand principle, were indignantly condemned, as levelling the Creator with the creature. On one occasion alone did Mohammad swerve from this position, when he admitted that the goddesses of Mecca might be adored as a medium of approach to God<sup>(1)</sup>. But the inconsistency was soon perceived, and Mohammad at once retraced his steps. Never before, nor afterwards, did the Prophet deviate from the stern denunciation of idolatry."

---

(1) This is a great mistake on the part of the biographer caused by a misconception of the peculiar verse of the Koran which refers exclusively to the heathens' own conviction of the successful intercession of their idols. Qadi Ayad.

acknowledged the hand of God. A fixed persuasion that every incident, small and great, is ordained by the divine will, led to the strong expressions of predestination which abound in the Koran. It is the Lord Who turneth the hearts of mankind, and alike fast in the believer, and unbelief in the infidel, are the result of the divine fiat. The hour and place of everyman's death, as all other events in his life, are established by the same decree, and the timid believer might in vain seek to avert the stroke by shunning the field of battle. But this persuasion was far removed from the belief in a blind and inexorable fate; for Mohammad held the progress of events in the divine hand to be amenable to the influence of prayer. He was not slow to attribute the conversion of a scoffer, like Omar, or the removal of an impending misfortune (as the deliverance of Medina from the Confederate hosts), to the effect of his own earnest petitions to the Lord."

**Unwavering Steadfastness at Mecca:** "The growth in the mind of Mohammad of the conviction, that he was appointed to be the Prophet and Reformer, is intimately connected with his belief in a special Providence embracing the spiritual as well as material world; and out of that conviction arose the confidence that the Almighty would crown his mission with success. While still at Mecca, there is no reason to doubt that the questionings and aspirations of his inner soul were regarded by him as proceeding directly from God. The light which gradually illuminated his mind with a knowledge of the divine unity and perfections, and of the duties and destiny of man,—light amidst gross darkness,—must have emanated from the same source; and He Who in His own good pleasure had thus begun the work, would surely carry it through to a successful ending. What was Mohammad himself, but an instrument in the hand of the Great Worker? Such, no doubt, were the thoughts which strengthened him, alone and unsupported, to brave for many weary years, the taunts and persecutions of a whole people. In estimating the signal moral courage, thus displayed, it must not be overlooked that for what is ordinarily termed physical courage Mohammad was not remarkable.

"It may be doubted whether he ever engaged personally in active conflict on the battle fields. Though he often accompanied his forces, he never himself led them into action, or exposed his person to avoidable danger. And there were occasions, on which he showed symptoms of a faint heart. Yet even so, it only brings out in higher relief, the singular display of moral daring. Let us for a moment look to the period when a ban was proclaimed at Mecca against all citizens, whether professed converts or not, who espoused his cause or ventured to protect him; and when along with these, he was shut up in the 'Shi'b' or quarter of Abu Talib, and these for three years, without prospect or relief, endured want

Obaida, son of Hanth, fell a martyr at Badr, and his widow Zainab, daughter of Khuzaima, was taken in marriage by the Prophet in the same year. In the next year, Abu Salma died, and his widow Um-i-Salma was taken to wife by the Prophet. As Christian criticism lays too much stress upon the Holy Prophet's marriage with Zainab daughter of Jahsh, a full explanation of the events in connection with this marriage is necessary :

Zainab was the daughter of the Prophet's own aunt ; she was one of the early converts to Islam, and the Holy Prophet proposed to her brother that she should be given in marriage to Zaid, his adopted son and freedman. Both brother and sister were averse to this match and only yielded under pressure from the Holy Prophet. It is related, that they both desired that the Holy Prophet himself should marry Zainab<sup>(1)</sup>, but the Prophet insisted that she should accept Zaid.

The marriage was, however, not a happy one. Zainab was harsh of temper, and she never liked Zaid, on account of the stigma of slavery which attached to his name. Differences arose, and Zaid expressed a desire to the Holy Prophet of divorcing Zainab. The news was grievous to the Prophet, for it was he who had insisted upon the marriage, and he therefore advised Zaid not to divorce her. He feared that people would object, that a marriage which had been arranged by the Prophet, was unsuccessful. It is to this circumstance, that the verse in the Koran 37 · XXII refers : "And, you feared men, and God had a greater right that you should fear Him<sup>(2)</sup>."

Let us now revert to Sir William Muir's views of the character of the Prophet.

**Conviction of Special Providence :** "Proceeding now to consider the religious and prophetic character of Mohommad, the first point which strikes the biographer is his constant and vivid sense of a special and all-pervading Providence. This conviction moulded his thoughts and designs, from the minutest actions in private and social life to the grand conception, that he was destined to be the Reformer of his people and of all Arabia. He never entered a company but he sat down and rose up with the mention of the Lord. When the first-fruits of the season were brought to him, he would kiss them, place them upon his eyes and say : 'Lord, as Thou hast shown us the first, show unto us likewise the last.' In trouble and affliction, as well as in prosperity and joy, he ever saw and humbly

---

(1) Al Razi ; Abul Fida, Ibn Athir & c.

(2) On the other hand, an end had to be put to the old custom of the Arabs' condemning a man's marriage with a woman who was once wedded to his adopted son. Hence, Koran's verse.

*faithful husband to her alone.* It is obviously absurd, to think that a man whose character was such, could have any 'range of uxorious inclinations.'

Sir William Muir asserts, that "it was not until the mature age of fifty-four, that the Prophet made the 'trials' of Polygamy." It is obviously a contradiction, unworthy of a fair and impartial critic, to think for a moment that at such an advanced age, a man who had 'lived in his youth a virtuous life,' and who, 'at the age of twenty five, married a widow, forty years old, during whose life-time, for five and twenty years, he was a faithful husband to her alone,' should have sexual inclinations. To any really impartial biographer and also to any thoughtful reader, this is quite impossible.

But the marriages of the Holy Prophet have furnished his critics with their chief weapons of attack, and the interested missionary has gone so far as to call him a voluptuary, although some of his own revered spiritual leaders and prophets were chronicled to possess even as many as a few hundred wives<sup>(1)</sup>. For this reason I give here a few particulars regarding the Prophet's marriages.

His first marriage was contracted when he was twenty five years of age, and the widow, Khadija, whom he married was forty years old, that is fifteen years his senior. It was with her and her alone, that he passed all the years of his youth and manhood, until she died three years before the Hijra, or emigration to Medina, when he was already an old man of fifty. This circumstance alone is sufficient to give the lie to those who would belittle him and call him a voluptuary. After her death, while still at Mecca, he married Sauda and Ayesha, the latter of whom was his only virgin wife, and she was the daughter of his intimate and illustrious friend and helper Abu Bakr. Then followed the emigration to Medina, and subsequent to the emigration, he had to fight many battles with his enemies, the Koreish, or such tribes as sided with the Koreish and persecuted the Moslems. The result of these battles, was a great discrepancy between the number of males and females, and as his favourite followers fell in the field of battle, fighting his enemies, the care of their families devolved upon the Prophet and his surviving companions. In the battle of Badr fell Khunais, son of Huzafa, and the faithful Omar's daughter Hafsa was left a widow. Omar offered her to Othman and Abu Bakr in turn, and she was at last married to the Holy Prophet in the third year of the Hijra.

---

(1) David had six wives and numerous concubines, (2 Sam. v. 13. 1 Chron. iii 1-9, xiv 3) Solomon had as many as 700 wives and as many as 300 concubines, (Kings xi 3) Rehoboams had 18 wives and sixty concubines (2 Chron. xi 21)



space in refuting the numerous mis-representations made by hostile biographers. However, as one instance of the false charge of cruelty, brought against the Prophet or his followers without foundation, I quote a statement on the subject by Mr. George Sale : — "Dr. Prideaux, speaking of Mohammed's obliging those of Al Nadir to quit their settlements, says that a party of his men pursued those who fled into Syria, and having overtaken them, put them all to the sword, excepting only one man that escaped 'With such cruelty,' continues he, 'did those barbarians first set up to fight for that imposture they had been deluded into(1)'. But a learned gentleman has already observed, that this is all grounded on a mistake which the doctor was led into by an imperfection in the printed edition of Elmacinas ; where, after mention of the expulsion of the Nadirites, are inserted some incoherent words, relating to another action which happened the month before, and wherein seventy Moslems, instead of putting others to the sword, were surprised and put to the sword themselves, together with their leader Al Mondar Ebn Omar, Caab Ebn Zeid alone escaping. (Vide Gagnier, not. in Abulf. Vit. Moh. p. 72)(2)."

Sir William Muir continues his remarks on the person and character of the Prophet as follows :—

**Domestic Life :** "In domestic life, the conduct of Mohammad was exemplary. As a husband his fondness and devotion were entire. As a father he was loving and tender. In his youth, he lived a virtuous life ; and at the age of twenty-five he married a widow, forty years old, during whose lifetime, for five and twenty years, he was a faithful husband to her alone. Yet it is remarkable that during this period were composed most of those passages of the Koran, in which the black-eyed 'Houries' reserved for Believers in Paradise, are depicted in such glowing colours."

Sir William Muir, following the example of other Christian writers, has attributed the Prophet's polygamy to 'unchecked range of his uxorious inclinations,' and when viewing the social and domestic life of Mohammad, 'fairly and impartially,' he saw it to be chequered by light and shade ; and that, "while there is much to form the subject of nearly 'unqualified' praise, there is likewise much which cannot be spoken of but in terms of reprobation."

Sir William Muir himself, as quoted above, states that in his youth the Prophet lived a virtuous life ; and at the age of twenty five married a widow, forty years old, *during whose life-time, for five and twenty years, he was a*

---

(1) Prid. Life of Mah. p. 82.

(2) G. Sale, Trans. of Al Koran P. 405, Fred Warne & Co.

with others ; and was sedulously solicitous for the personal comfort of every one about him. A kindly and benevolent disposition pervades all these illustrations of his character."

**Friendship :** "Mohammad was also a faithful friend. He loved Abu Bakr with the close affection of a brother ; Ali, with the fond partiality of a father. Zaid, the Christian slave of his wife Khadija, was so strongly won by the kindness of the Prophet, that he preferred to remain at Mecca, rather than return home with his own father : 'I will not leave thee,' he said, clinging to his patron, 'for thou hast been a father and a mother to me.' The friendship of Mohammad survived the death of Zaid, and his son Osama was treated by him with distinguished favour for the father's sake. Othman and Omar were also the objects of his special attachment ; and the enthusiasm, with which at Al Hodeibiya, the Prophet entered into 'the Pledge of the Tree', and swore that he would defend his beleaguered son-in-law even to the death, was a signal proof of faithful friendship. Numerous other instances of Mohammad's ardent and unwavering regard might be adduced. And his affections were in no instance misplaced ; they were ever reciprocated by a warm and self-sacrificing love "

**Moderation and Magnanimity :** "In the exercise of a power absolutely dictatorial, Mohammad was just and temperate. Nor was he wanting in moderation towards his enemies, when once they had cheerfully submitted to his claims. The long and obstinate struggle against his mission, maintained by the inhabitants of Mecca, might have induced its conqueror to mark his indignation in indelible traces of fire and blood. But Mohammad, excepting a few criminals, granted a universal pardon ; and, nobly casting into oblivion the memory of the past, with all its mockery, its affronts and persecution, treated even the foremost of his opponents with gracious and even friendly consideration. Not less marked was the forbearance shown to Abdallah and the disaffected citizens of Medina, who for so many years persistently thwarted his designs and resisted his authority, nor the clemency, with which he received the submissive advances of tribes that before had been the most hostile, even in the hour of victory(1)."

Some Christian biographers of the Prophet dwell too much on what they termed his cruelty towards his enemies. Honestly speaking, cruelty was nowhere shown in the conduct of the Prophet, as the reader will have observed in his Life, as given in this book.

It is not the intention of the author of this book to occupy too much

---

(1) Vide Sir William Muir's "The Life of Mohammad "

**Simplicity of his Life :** "A patriarchal simplicity pervaded his life. His custom was to do everything for himself. If he gave an alms, he would place it with his own hand in that of the petitioner. He aided his wives in the household duties, mended his clothes, tied up the goats, and even cobbled his sandals. His ordinary dress was of plain white cotton stuff, made like his neighbours ; but on high and festive occasions he wore garments of fine linen, striped or dyed in red. He never reclined at meals. He ate with his fingers ; and when he had finished, he would lick them before he wiped his hands. He lived with his wives in a row of low and homely cottages, built of unbaked bricks, the apartments separated by walls of palm-branches, rudely daubed with mud, while curtains of leather, or of black haircloth, supplied the place of doors and windows. He was to all easy of access,—'even as the river's bank to him that draweth water from it'—yet he maintained the state and dignity of real power. No approach was suffered to familiarity of action or speech. The Prophet must be addressed in subdued accents and in a reverential style. His word was absolute ; his bidding law. Embassies and deputations were received with the utmost courtesy and consideration. In the issue of rescripts, bearing on their representations, or in other matters of state, the Prophet displayed all the qualifications of an able and experienced ruler, as the reader<sup>(1)</sup> will have observed from the numerous examples given. And what renders this the more strange, is that he was never known himself to write."

**Urbanity and Kindness of Disposition :** "A remarkable feature was the urbanity and consideration, with which Mohammad treated even the most insignificant of his followers. Modesty and kindness, patience, self-denial and generosity pervaded his conduct and rivetted the affections of all around him. He disliked to say No. If unable to answer a petitioner in the affirmative, he preferred silence. 'He was more bashful,' says his wife Ayesha, 'than a veiled virgin ; and if anything displeased him, it was rather from his face, than by his words, that we discovered it : he never smote anyone, but in the service of God, not even a woman or a servant.' He was not known ever to refuse an invitation to the house even of the meanest, nor to decline a proffered present, however small. When seated by a friend, 'he did not haughtily advance his knees towards him.' He possessed the rare faculty of making each individual in a company think that he was the favoured guest. If he met any one rejoicing at success, he would seize him eagerly and cordially by the hand. With the bereaved and afflicted, he sympathised tenderly. Gentle and indulgent towards little children, he would not disdain to accost a group of them at play, with the salutation of peace. He shared his food, even in time of scarcity,

---

(1) i. e. the reader of Sir Wm. Muir's 'Life of Muhammad'.

power of working miracles. Whatever he had said he could do, his disciples would straightway have seen him do. They could not help attributing to him miraculous acts which he never did, and which he always denied he could do. What more crowning proof of his sincerity is needed? Mohammed to the end of his life claimed for himself that title only, with which he had begun, and which the highest philosophy and the truest Christianity will one day, I venture to believe, agree in yielding to him, that of a Prophet, a very Prophet of God(1)."

## VIII

### The Person and Character of the Prophet Mohammad

It is only right that, before bringing the biography of the Prophet to a conclusion, I should give illustration of his chief traits and character, as already brought to light and passed as authentic by distinguished European critics.

Sir William Muir writes(2),

**Personal Appearance and Gait (of the Prophet) :** "His form, though little above mean height, was stately and commanding. The depth of feeling in his dark black eyes and the winning expression of a face otherwise attractive, gained the confidence and love of strangers, even at the first sight. His features often unbended into a smile full of grace and condescension. 'He was' say his contemporary biographers, 'the handsomest and bravest, the brightest faced and most generous of men.' Yet when anger kindled in his piercing glance, the object of his displeasure might well quail before it. His stern frown was an augury of death to many a trembling captive. In later years, the erect figure began to stoop; but the step was still firm and quick. His gait has been likened to that of one descending rapidly a hill. When he made haste, it was with difficulty that one kept pace with him. He never turned, even if his mantle caught in a thorny bush, so that his attendants talked and laughed freely behind him, secure of being unobserved."

**His Habits :** "Thorough and complete in all his actions, he took in hand no work without bringing it to a close. The same habit pervaded his manner in social intercourse. If he turned in conversation towards a friend, he turned not partially, but with his full face and his whole body. In shaking hands he was not the first to withdraw his own; nor was he the first to break off in converse with a stranger, nor to turn away his ear."

---

(1) Vide 'Mohammed and Mohammedanism' by Bosworth Smith, p. 340.

(2) Vide 'The Life of Mohammad' by Sir Wm. Muir

Mr. Bosworth Smith, apparently an unprejudiced English historian in his "Mohammed and Mohammedanism" comments as follows.

"Mohammed did not, indeed, himself weld together into a homogeneous whole a vast system of states like Charles the Great. He was not a philosophic king, like Marcus Aurelius, nor philosopher, like Aristotle, or like Bacon, ruling by pure reason the world of thought for centuries with a more than kingly power, he was not a legislator for all mankind, nor even the highest part of it, like Justinian, nor did he cheaply earn the title of the Great by being the first among rulers to turn, like Constantine, from the setting to the rising sun. He was not a philanthropist, like the Greatest of the Stoics.

"Nor was he the apostle of the highest form of religion and civilisation combined, like Gregory or Boniface, like Leo or Alfred the Great. He was less, indeed, than most of these in one or two of the elements that go to make up human greatness, but he was also greater. Half Christian and half Pagan, half civilised and half barbarian, it was given to him in a marvellous degree to unite the peculiar excellences of the one with the peculiar excellences of the other. 'I have seen,' said the ambassador sent to the triumphant Quoraish at the despised exile at Medina 'I have seen the Persian Chosroes and the Greek Heraclius sitting upon their thrones, but never did I see a man ruling his equals as does Mohammed.'

"Head of the state as well as of the Church, he was Caesar and Pope in one; but he was Pope without the Pope's pretensions, Caesar without the legions of Caesar. Without a standing army, without a fixed revenue; if ever any man had the right to say that he ruled by a right divine, it was Mohammed, for he had all the powers without its instruments, and without its supports . . . . .

"By a fortune absolutely unique in history, Mohammed is a threefold founder of a nation, of an empire, and of a religion. Illiterate himself, scarcely able to read or write, (1) he was yet the author of a book which is a poem, a code of laws, a Book of Common Prayer, and a bible in one, and is revered to this day by a sixth of the whole of the human race, as a miracle of purity of style, of wisdom and of truth. It was the one miracle claimed by Mohammed—his standing miracle he called it, and a miracle indeed it is. But looking at the circumstances of the time, at the unbounded reverence of his followers, and comparing him with the fathers of the church or with mediæval saints, to my mind the most miraculous thing about Mohammed is, that he never claimed the

---

(1) All trustworthy commentators and Moslem Historians agree in that the Prophet Mohammad was absolutely illiterate. He could never read or write (Cf. Ibn Athir, Ibn Hisham Al Wakidi; G. Sale; Sir. Wm. Muir; The Koran)

can possibly be written by the pen of a European historian. In his lecture "The Hero as Prophet," Thomas Carlyle writes "Mohamet himself, after all that can be said about him, was not a sensual man. We shall err widely if we consider this man as a common voluptuary, intent mainly on base enjoyments—nay, on enjoyments of any kind. His household was of the frugalest, his common diet barley-bread and water, sometimes for months there was not a fire once lighted on his hearth. They record with just pride that he would mend his own shoes, patch his own cloak. A poor hard-toiling, ill-provided man, careless of what vulgar men toil for. Not a bad man I should say, something better in him than hunger of any sort, or these wild Arab men fighting and jostling three-and-twenty years at his hand, in close contact with him always, would not have revered him so. These were wild men, bursting ever and anon into quarrel, into all kinds of fierce sincerity, without right, worth and manhood, no man could have commanded them. They called him Prophet, you say? Why he stood there face to face with them, bare, not enshrined in any mystery, visibly clouting his own cloak, cobbling his own shoes, fighting, counselling, ordering in the midst of them, they must have seen what kind of a man he was, let him be called what ye like. No emperor with his tiaras was obeyed as this man in a cloak of his own clouting. During three and twenty years of rough actual trial, I find something of a veritable hero necessary for that of itself.

"His last words are a prayer, broken ejaculations of a heart struggling-up in trembling hope towards its Maker. We cannot say that his religion made him worse; it made him better, good not bad. Generous things are recorded of him. when he lost his daughter, the thing he answers is, in his own dialect everyway sincere, and yet equivalent that to that of Christians, 'The Lord giveth and the Lord taketh away, blessed be the name of the Lord.' He answered in like manner of Zaid, his emancipated well-beloved slave, the second of the believers. Zaid had fallen in the war of Tabûc, the first of Mahomet's fighting against the Greeks. Mahomet said it was well, Zaid had done his Master's work, Zaid had now gone to his Master—it was all well with Zaid. Yet Zaid's daughter found him weeping over the body, the old grey-haired man melting in tears! 'What do I see?' said she. 'You see a friend weeping over his friend.' He went out for the last time into the mosque two days before his death, asked, if he had injured any man? Let his own back bear the stripes. If he owed any man? A voice answered 'Yes me three drachms borrowed on such an occasion.' Mahomet ordered them to be paid 'Better be in shame now', said he, 'than at the day of judgment.' You remember Khadijah and the 'No, by Allah!' Traits of this kind show us the genuine man, the brother of us all, brought visible through twelve centuries, the veritable Son of our common Mother" (1)

---

(1) Lectures on Heroes by Thomas Carlyle, p. 66.

made lawful; nor have I prohibited aught, but that which God in His Book hath prohibited." Then turning to the women who sat close by, he exclaimed "O Fatuma, my daughter, and Safia, my aunt, Work ye both that which shall procure you acceptance with the Lord; for verily I have no power to save you in any wise." He then rose and re-entered the house of Ayesha. (1) After this, the Prophet never appeared at public prayers. A few hours after he returned from the mosque, the Prophet died whilst laying his head on the bosom of Ayesha. As soon as the Prophet's death was announced a crowd of people gathered at the door of the house of Ayesha, exclaiming, "How can our apostle be dead?" "No," said Omar, "he is not dead, he will be restored to us, and those are traitors to the cause of Islam who say he is dead If they say so let them be cut in pieces." But Abu Bakr entered the house at this moment, and after he had touched the body of the Prophet with demonstration of profound affection, he appeared at the door and addressed the crowd with the following speech. "O Muslims, if any of you has been worshipping Mohammad, then let me tell you that Mohammad is dead. But if you really do worship God, then know you that God is living and will never die. Do you forget the verse in the Koran 'Mohammad is but an apostle, before whom other apostles have already passed?' and also the other verse 'Thou shalt surely die (O Mohammad) and they also shall die?' Upon hearing this speech of Abu Bakr, Omar acknowledged his error and the crowd was satisfied and dispersed.

Al Abbas, the Prophet's uncle, presided at the preparation for the burial, and the body was duly washed and perfumed. There was some dispute between the Koreishites and the Ansars as to the place of burial, but Abu Bakr settled the dispute by affirming that he had heard the Prophet say, that a prophet should be buried at the very spot where he died. A grave was accordingly dug in the ground within the house of Ayesha, and under the bed on which the Prophet died. In this grave the body was buried, and the usual rites were performed by those who were present.

Thus the glorious life of the Prophet Mohammad ended. The Arabs, being then united in one faith and under one banner and one prince, found themselves in a position to make those conquests which extended the Mohammadan faith over so great a part of the world. (2)

The following comment on the Prophet's life by Thomas Carlyle, will be found to be as true a picture of Mohammad's character as

---

(1) Ibn Hisham, *Al Wakidy*; Ibn Athir

(2) G. Saxe in his *Preliminary Discourse* to his translation of the Koran.

He soon succeeded in gaining over his tribesmen, and with their help reduced to subjection many of the neighbouring towns. He killed Shahr whom the Prophet had appointed as Governor of Sana in the place of his father, Bazan who had just died. Bazan had been the viceroy of Yemen, under Chosroes of Persia, and after he had adopted Islam, was allowed by the Prophet to remain as Governor of Yemen. He was able to convert to Islam all the Persian colony in that province. Al Aswad, the conjurer, had now killed Shahr, but soon after, he was massacred by the Persians of Yemen. The other two pretenders, Tulayha and Haroun by name, were not suppressed until after the death of the Prophet, during the reign of Abu Bakr. Haroun, better known as Mussaylamah, addressed to the Prophet a letter which ran as follows: "From Mussaylamah, the Prophet of God to Mohammad the Prophet of God. Peace be to you. I am your partner. Let the exercise of authority be divided between us. Half the earth will be mine, and half will belong to your Koreish. But the Koreishites are too greedy to be satisfied with a just division." To this letter the Prophet replied as follows: "From Mohammad, the Apostle of God, to Mussaylamah, the liar. Peace be to those who follow the right path. The earth belongs to God. It is He Who maketh to reign whomsoever He pleaseth. Only those will prosper who fear the Lord."

The health of the Prophet grew worse. His last days were remarkable for the calmness and serenity of his mind. He was able, though weak and feeble, to lead the public prayers, until within three days of his death. He requested that he might be permitted to stay at Ayesha's house, close to the mosque, during his illness, an arrangement to which his other wives assented. As long as his strength lasted, he took part in the public prayers. The last time he appeared in the mosque, he addressed the congregation, after the usual prayers were over in the following words: "O Moslems, if I have wronged anyone of you, here I am to answer for it, if I owe aught to anyone, all I may happen to possess belongs to you." A man in the crowd rose and claimed three dirhams which he had given to a poor man at the request of the Prophet. They were immediately paid back with these words: "Better to blush in this world than in the next." The Prophet then prayed and implored God's mercy for those who had fallen in the persecution of their enemies. He recommended to all his followers the observance of religious duties and the leading of a life of peace and good-will. He concluded his advice with the following verse of the Koran: "The future mansion (of paradise) We will give unto them who do not seek to exalt themselves on earth or to do wrong, for a happy issue shall attend the pious." Then he spoke with emotion, and with a voice still so powerful as to reach beyond the outer doors of the mosque: "By the Lord in Whose hand lies the soul of Mohammad," he said, "as to myself no man can lay hold on me in any matter, I have not made lawful anything excepting what God hath



ye appear before the Lord, as this day and this month is sacred for all; and remember, ye shall have to appear before your Lord Who shall demand from you an account for all your actions. Ye people, Ye have rights over your wives, and your wives have rights over you.... Verily ye have taken them on the security of God and have made their persons lawful unto you by the words of God. And your slaves, see that ye feed them with such food as ye eat yourselves, and clothe them with the stuff ye wear, and if they commit a fault which ye are not inclined to forgive, then part with them, for they are the servants of the Lord and are not to be harshly treated. Ye people, Listen to my words and understand them. Know that all Moslems are brothers. Ye are one brotherhood; but no man shall take aught from his brother, unless by his free consent. Keep yourselves from injustice. Let him who is present tell this to him who is absent. It may be, that he who is told this afterward may remember better than he who has now heard it."

The Prophet concluded his sermon by exclaiming, "O Lord, I have fulfilled my message and accomplished my work." The assembled multitude all in one voice cried, "Yea, verily thou hast." The Prophet again exclaimed, "O Lord, I beseech Thee, bear witness unto it."

Having rigorously performed all the ceremonies of the pilgrimage, that his example might be followed by all Moslems for all succeeding ages, the Prophet returned with his followers to Medina

The eleventh year of the Hijra, being the last year of Mohammad's life, was spent at Medina. There he settled the organisation of the provincial and tribal communities which had adopted Islam and become the component parts of the Moslem federation. More officers had to be deputed to the interior provinces for the purpose of teaching their inhabitants the precepts of the religion, administering justice, and collecting tithes. Muaz-Ibn-Jabal was sent to Yemen. On his departure to that distant province the Prophet enjoined him to use his own discretion, in the event of his being unable to find express authority in the Koran. Ali was deputed to Yamama in the south-east of the Peninsula. To him the Prophet said: "Never decide between any two parties who come to you for justice unless you first hear both of them."

A force was now being prepared under Osama, the son of Zaid, who was killed at Muta, against the Byzantines, to exact the long delayed reparation for the murder of the envoy in Syria, when the news of the Prophet's sickness and failing health caused that expedition to be stopped. This news was soon noised abroad and produced disorder in some districts. Three pretenders had arisen who gave themselves out as prophets, and tried by all kinds of imposture to win over their tribes. The most dangerous of these pretenders was known as Al Aswad. He was a chief of Yemen and a man of great wealth and sagacity, and a clever conjurer.

turned to their homes and before the following year was over the majority of them were Moslems.

During the tenth year of the Hijra as in the preceding one, numerous embassies continued to pour into Medina from all parts of Arabia, to testify to the adhesion of their chiefs and their tribes. Teachers were sent by the Prophet into the different provinces to teach the new converts the principles and precepts of Islam. These teachers were invariably given the following injunctions when they were about to depart on their mission: "Deal gently with the people, and be not harsh, cheer them, and do not look down upon them with contempt. Ye will meet with many believers in the Holy Scriptures, (1) who will ask you 'What is the key to heaven?' Answer them that it (the key to heaven) is to bear witness to the Divine truth and to do good." (2)

Thus, the mission of the Prophet Mohammad was now accomplished, the whole work was achieved in his lifetime. Idolatry with its nameless abominations was entirely destroyed. The people who were sunk in superstition, cruelty and vice, in regions where spiritual life was utterly unknown, were now united in one bond of faith, hope and charity. The tribes which had been, from time immemorial, engaged in perpetual wars were now united together by the ties of brotherhood, love and harmony. Henceforth, their aims are not confined to this earth alone; but there is something beyond the grave — much higher, purer and diviner — calling them to the practice of charity, goodness, justice and universal love. They could now perceive that God was not that which they had carved out of wood or stone, but the Almighty, Loving, Merciful the Creator of the Universe.

On the return of the sacred month of the pilgrimage, the Prophet, under the presentiment of his approaching end, determined to make a farewell pilgrimage to Mecca. In February 632, he left Medina with a very considerable concourse of Moslems. It is stated that from 90,000 to 140,000 persons accompanied the Prophet. (3) On his arrival at the holy places, from which every trace of the old superstition had been removed, and which in accordance with his orders of the previous year, no idolater was to visit unless he assumed the pilgrim garb. Before completing all rites of the pilgrimage, he addressed the assembled multitude from the top of the Mount Arafat, in the following words: "Ye people! Listen to my words, for I know not whether another year will be vouchsafed to me after this year to find myself amongst you. Your lives and property are sacred and inviolable amongst one another until

---

(1) I.e. Jews or Christians.

(2) Ibn Hisham.

(3) Ibn Hisham, Ibn Athir Vol. II

Arabs for its idolatrous priesthood. A small detachment under Ali was sent to reduce them to obedience and to destroy their idols. The prince of the tribe was Adi, the son of the famous Hatim, whose generosity was spoken of all over the peninsula of Arabia. On the approach of the Moslem force, Adi fled to Syria, leaving his sister with some of his principal clansmen, to fall into the hands of the Moslems. These were conducted by Ali with every sign of respect and sympathy to Medina. When the daughter of Hatim came before the Prophet she addressed him in the following words "Apostle of God, my father is dead; my brother, my only relation has fled into the mountains, on the approach of the Moslems. I cannot ransom myself, I count on your generosity for my deliverance. My father was an illustrious man, the prince of his tribe, a man who ransomed prisoners, protected the honour of women, fed the poor, consoled the afflicted and was deaf to no appeal." "Thy father," answered the Prophet, "had the virtues of a true Moslem; if it were permitted to invoke the Mercy of God on any whose life was passed in idolatry, I would pray to God for mercy for the soul of Hatim." Then, addressing the Moslems around him, he said: "The daughter of Hatim is free, her father was a generous and humane man, God loves and rewards the merciful." With the daughter of Hatim, all her people were set at liberty. She proceeded to Syria, and related to her brother the generosity of Mohammad. Adi, touched by gratitude, hastened to Medina where he was kindly received by the Prophet. He professed Islam and returned to his people, and persuaded them to abandon idolatry. They all submitted and became devoted Moslems. (1)

Hitherto no prohibition had been enforced against idolaters entering the Holy Kaaba or performing their abominable rites within the sacred precincts. Towards the end of the ninth year of the Hijra, during the month of pilgrimage Ali was delegated by the Prophet to read a Proclamation that ran as follows "No idolater shall after this year perform the pilgrimage; no one shall make the circuit of the temple naked (such a disgraceful custom was practiced by the heathen Arabs), any treaty with the Prophet shall continue in force, but four months are allowed to every man to return to his territories, after that there will be no obligation on the Prophet, except towards those with whom treaties have been concluded. (2)

The vast multitude who had listened to the above declaration re-

---

(1) Cf. Ibn Hisham, Ibn Athir Vol. II., Tabari Vol. II., Amir Sayed Ali, *Spirit of Islam*.

(2) Abul Feda; Ibn Athir; Ibn Hisham.

him to set free their families. The Prophet replied that he was willing to give back his own share of the captives and that of the children of Abdul Muttalib, but that he could not force his followers to abandon the fruits of their victory. The disciples followed the generous example of their teacher and about six thousand people were in a moment set free (1) The spirit of liberty influenced the hearts of several members of the Tha'qif tribe who offered their allegiance and soon became earnest Moslems.

The Prophet now returned to Medina fully satisfied with the achievements of his mission.

The ninth year of the Hijra is known as the year of embassies, as being the year in which the various tribes of Arabia submitted to the claim of the Prophet and sent embassies to render homage to him. Hitherto the Arabs had been awaiting the issue of the war between Mohammad and the Koreishites, but as soon as that tribe — the principal of the whole nation, and the descendants of Ismail, whose prerogatives none offered to dispute — had submitted, they were satisfied that it was not in their power to oppose Mohammad (2) Hence their embassies flocked into Medina to make their submission to him. The conquest of Mecca decided the fate of idolatry in Arabia. Now deputations began to arrive from all sides to render the adherence to Islam of various tribes. Among the rest, five Princes of the tribe of Hmyar professed Islam and sent ambassadors to notify the same. These were the Princes of Yemen, Mahra, Oman and Yamama.(3)

The idolaters of Tayef, the very people who had driven the Preacher of Islam from their midst with violence and contempt now sent a deputation to pray forgiveness and ask to be numbered amongst his followers. They begged however, for temporary preservation of their idols. As a last appeal they begged for one month's grace only. But this even was not conceded. The Prophet said Islam and the idols could not exist together. They then begged for exemption from the daily prayers. The Prophet replied that without devotion religion would be nothing. At last they submitted to all that was required of them. They, however, asked to be exempted from destroying the idols with their own hands. This was granted. The Prophet selected Abu Sufian and Mughira to destroy the idols of the Tayefites, the chief of which being the notorious idol of Al Lat. This was carried out amidst cries of despair and grief from the women of Tayef.

The conversion of this tribe of Tayef is worthy of notice. This tribe which hitherto had proved hostile to the new faith was noted among the

(1) Cf. Tabari, Vol. III, Ibn Hisham, Ibn el Athir, Vol. II.

(2) Cf. Sale, *Intro. to Koran*.

(3) Cf. Abul Feda, Cf. Sale; *Intro. to Koran*.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَٰكِمِ

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي  
شيخ الجامع الأزهر

- ٢ -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ :

« آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » :

الخلافة : النيابة عن الغير إما لغيبة المتوب عنه أو موته أو عجزه . ويقال خلف فلان فلانا : قام بالامر عنه ، إما معه أو بعده .

والآخر : ما يهود على العامل من ثواب العمل ، دنيويا كان أو أخرويا . ويقال لما كان عن عقد أو ما يجري مجرى العقد ، ولا يقال إلا في النفع .

بعد أن بين الله سبحانه أنواعا من الدلائل على وجوده ووحدته وقدرته وحكمته ، وأنه لا يصدر منه إلا ما هو خير ومصلحة ، توجه إلى العباد وأمرهم بالإيمان بالله ورسوله ، وبالاتفاق في سبيله . والخطاب موجه إلى الناس جميعهم من آمن منهم ومن لم يؤمن ، أما من آمن فبطلب الثبات على الإيمان وعدم الزيغ والنفاق ، وأما من لم يؤمن فبطلب الإقرار بالله ورسوله ثم الاتفاق ، والمخاطبون مختلفون ؛ والخطاب يتوجه إلى كل واحد بما يليق به ؛ كما يقال لأهل بلد من البلاد : صلوا وأنفقوا وأوفوا الكيل ، فيفهم كل واحد من الخطاب ما هو لائق به ، من كان يصلي تأخر على الصلاة ، ومن كان لا يصلي صلى ، ومن كان يخسر في الكيل أوفى ، وهكذا .

طلب الله سبحانه الى عباده الإتفاق بما بأيديهم في سبيل البر ، ونهبهم الى أن الأموال التي في أيديهم ليست أموالهم على الحقيقة ، بل هي أموال الله سبحانه ، أنشأها وخلقها وخولم الاستمتاع بها ، ومكنهم من التصرف فيها ، فهم خلفاؤه ووكلاؤه ، وإلى أن هذه الأموال انتهت إليهم عن غيرهم ، وستنقل عنهم الى غيرهم ، فهم خلفاء ممن قبلهم وسيخلفهم من بعدهم ، وإذا كان المال مال الله تداولته الأيدي ، فلا وجه للحرص الشديد عليه ، وخير أن يدخره الإنسان عند الله ليكون له أجره يوم الحساب من أن يخرج الى الوارث ، أو يخرج بجائحة من الجوائح . وفي الحديث الشريفه يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفريت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت . ١

« فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » : كان الظاهر أن يقال : آمنوا وأنفقوا توجروا ، لكنه عدل عن الظاهر الى هذه الجملة الاسمية ، وأعيد ذكر الإيمان والإتفاق ، وغم الأجر بالتكثير ، ووصف بالكبير ، كل هذا دلالة على غرامة الأجر واستمراره ، وتعظيم الإيمان والإتفاق . وقد سمى الله ما يعود على فاعل الخير أجرا ، لأن الله سبحانه وعد الصالحين أن يجزيهم جزاء حسنا ، فكأن هناك تماقدا بين العبد وربه ، واتقانا على أن يوفى جزاء عمله .

« وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » :

« لا تؤمنون » : حال من معنى الفعل في ما لكم ، كما تقول : مالك قائما ، بمعنى ما تصنع قائما . « والرسول يدعوكم » : جملة حالية أيضا ، فهما حالان متداخلتان . والمعنى : ما لكم كافرين بالله والرسول يدعوكم ويتلوا عليكم الآيات ويقيم عليكم البراهين ، وقد أخذ الله من قبل عليكم الميثاق بالإيمان حين ركب فيكم العقول ، ونصب لكم الأدلة ، ومكنكم من الفطر ، وأزاح عنكم الملل ؟ لا عذر مع هذا كله ، فإن كنتم مستعدين للإيمان فقد وجب ، وهذا وقته ، والأسباب متوافرة ، والموانع غير قائمة . فقوله : « إن كنتم مؤمنين » شرط جوابه فهذا وقته أو فقد وجب .

بين الله سبحانه أن لا عذر لأحد لأن الأدلة السمعية قائمة هي دعوة الرسول وآياته ، والأدلة العقلية قائمة هي دلائل الآفاق والآنفس ، ووجود العقل المستمد للسطر والاستدلال . وحمل بعض المفسرين الميثاق على ما هو مشار إليه بقوله سبحانه : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى . وهذا الجمل غير

لائق لأن الميثاق على هذا النحو (١) لم يعرف إلا من جهة الرسول ، وقبل تصديق الرسول والايمان به لا يكون قوله سببا في إلزامهم ، وإنما الذي هو سبب الإلزام - كما نفهم - هو الدليل العقلي القائم المشاهد بالحواس ، والذي يتصرف العقل فيه بوجود النظر والاستدلال .

« هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَعَاطِفٌ رَّحِيمٌ » :

الآية : العلامة الظاهرة . وحقيقتها شيء ظاهر ملازم لشيء آخر غير ظاهر ظهوره ، فإذا أدرك الظاهر منهما علم أنه أدرك الآخر . مثلا : إذا علم شخص أن العسل يلامز النجس ثم وجد العلم ، علم أنه أدرك الطريق ؛ وإذا علم شيئا مصنوعا علم أنه لا بد له من صانع .

والبيينة : الدلالة الواضحة عقلية أو حسية . والبيان قيمان : بيان بالتهجيز وهو بيان الأشياء التي تدل على حال من الأحوال من آثار الصنع ، وبيان بالاختبار بالنطق أو بالإشارة أو بالكتابة وما أشبه ذلك .

والظلمة : عدم النور ، ويعبر بها عن الجهل والعمى والفسق ، كما يعبر بالنور عن أضدادها .  
والرأفة والرحمة : واحد ، وهي رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم . وتستعمل في الرقة المجردة ، وفي الإحسان المجرد ؛ وإذا وصف الله بها فليس معناها إلا الإحسان والإتمام .

بعد أن بين الله سبحانه أنه لا هذر في ترك الإيمان لوجود الميثاق ودعوة الرسول ، يتبين في هذه الآية أن دعوة الرسول موجهة إليهم من قبل الله سبحانه رأفة بهم ورحمة ، فهو الذي نزل على عبده الآيات البينات المفصلات الواضحات ليخرجهم من ظلمة الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم ؛ وما على الرسول إلا البلاغ ؛ وما كنا معذبين حتى ننبعث رسولا ، فقد قطع العذر يبعث الرسل ، وأنهم الحجة على خلقه .

« وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلٌ ، أُولَٰئِكَ أَطْعَمَ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ اتَّقَوْا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا ، وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى ، وَالَّذِينَ يَعْمَلُونَ خَيْرًا » :

(١) هذا جريا على أن الميثاق في الآية ميثاق خطاب لا ميثاق الادلة . وما رأينا مفسرين .

الورثة : انتقال قبة الى شخص من غيره من غير عقد ولا ما يجري مجرى العقد . وقد وصف الله نفسه بالوارث لأن مصير الأشياء جميعها اليه سبحانه

الحسنى : الحسن . كل مبهج مرغوب فيه ، والحسنة نعمة تنال الانسان وتسره في نفسه أو بدنه أو أمواله . والحسن يقال في الأعيان والأحداث ، والحسنى لا يقال إلا في الأحداث .  
الخبير : الخيرة : معرفة بواطن الأمور ، والخبر : العلم بالأشياء من جهة الخبر . وإذا قيل :  
الله خبير بما نعملون ، صح أن يكون معناه : الله عالم بأخباركم ، وأن يكون معناه :  
عالم بواطن أموركم .

ومعنى الآيات : أي غرض لكم في ترك الإتيان في سبيل الله ، والله سبحانه سيرث السموات والأرض وما فيهن ، والأموال صائرة إليه ؟ فإذا لم تنفقوها في سبيله ذهبت منكم بعد موتكم دون مقابل فلم تلتقموا منها بشيء ، أما إذا أنفقتموها في سبيله فسينالكم الحظ والأجر ، وتكون مدخرة عنده . وهذا نذب الى الإتيان ، وحث شديد عليه ، وتقريع على تركه ، وكأنه يقول إنه لا يتصف بهذا حافل ولا برضاء ، لأن أنصرف العقل يجب أن يكون له باعث ومصلحة ، ولا مصلحة في ترك الإتيان ، بل المصلحة في الإتيان لئلا الأجر . وهذه الآية أقوى في الحث على الإتيان من الآية السابقة .

وقد كان هناك قتالان أحدهما أفضل من الآخر ، وكان هناك نعمتان إحداهما أفضل من الأخرى : كانت النفقة والقتال قبل فتح مكة أفضل من النفقة والقتال بعد فتح مكة ، فالذين أنفقوا وقاتلوا قبل الفتح أعظم درجة من الذين أنفقوا وقاتلوا بعد الفتح ، لأن الأولين فعلوا ما فعلوه عند مسبب الحاجة الى النصر بالأنفس والأموال ، نقله عدد المسلمين وفقهم ، وكثرة أعدادهم ويسرهم ، ولأنه لم يكن إذ ذاك غنائم تنتظر ، ولا كان الوثوق بالنظر ، فكانت النفقة أشق على النفس ، وكانت الحاجة إليها ماسة ، وكذلك شأن القتال ، فالنفقة والقتال قبل الفتح من أعظم الأدلة على الإيمان والإخلاص ، وعلى أنها ابتغى بهما وجه الله . وهذا معنى قوله سبحانه : « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل » أي لا يستوى هو ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل . وقد دل على هذا قوله : « أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » .

ففي الله استواء المريقين في الأجر ، ولكنه أثبت لهما معاً الحسن ، وهي المثوبة في الدار الآخرة ، وهي الجنة ورضوان الله سبحانه .

والله سبحانه خبير بأعمال العباد ظاهرها وباطنها ، وعالم بأخبارهم ، وسيجازي على مقدار الأعمال وما يحيط بها من الملايسات ، وما يدفع إليها من الغايات والنيات .



« مَنْ دَا أَلَدَى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسًّا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ » :

**القرض** : ما يدفع من المال على شرط رده . وإذا وصف الله بالكرم فمعناه إحسانه وإنعامه المتظاهران ؛ وإذا وصف الإنسان بالكرم فهو اسم للأفعال والأحلاق الحمودة التي تظهر عليه ؛ ولا يقال هو كريم حتى يظهر ذلك منه . وكل شيء شرف في باب يقال له كريم .

سمى الله سبحانه قرضاً ما ينفق في سبيله وفي وجوه الخير ابتغاء مرضاته . والقرض كما سبق بيانه . ما يعطى على شرط الرد ؛ ففي ذلك دلالة على أنه سيرده الى المفق . ثم ذكر صراحة أنه سيمطيه أجراً كريماً ، وأنه سيضاعف هذا الأجر الكريم . ولا يوجد ما هو أبلغ في الحث على الصدقة والإحسان من هذا التعبير . يقول الله سبحانه : هذه يدى بسطنها أريد قرضاً سأرده ، وسأجزى عليه أجراً كريماً مضاعفاً ؛ فمن الذى يسمع هذا ولا يبادر الى الإجابة ويتم عقد القرض مع الله ؟ فالجلة مسوقة مساق التمثيل ، وأثرها ظاهر فى النفس ، وهى أبلغ من كل عبارة تقال فى الحث على الصدقة . وقد ذكروا أن يهودياً قال عند نزول هذه الآية ما استقرض إله محمد حتى افتقر فلطمه أبو بكر ، فشكا اليهودى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لا بى بكر : ما أردت بهذا ؟ قال : ما ملكت رضى أن لطمته ، ولم يقلها اليهودى إلا استهزاء وحفا وجهلاً .

وقد ذكروا فى شروط القرض الحسن وجوها : أن يكون حلالاً ، فإن الله طيب لا يقبل إلا الطيب ؛ وأن لا يكون رديناً ؛ وأن يعطى للأحوج فالأحوج ؛ وأن يكتم الصدقة ولا يتسها المن والأذى ؛ وأن يقصد بها وجه الله دون الرياء ؛ وأن لا يسكتها وإن كانت كثيرة ؛ وأن تكون من المال المحبوب عنده ؛ وأن لا يرى لنفسه مرة الفنى ويرى للفقير ذلة الفقر ؛ وأن يكون الاتفاق فى حال رجاء الحياة وطول الأمل .

وقد أكثر الله سبحانه فى القرآن من الحث على الصدقات بأساليب مختلفة ؛ وفى سورة البقرة طائفة من الآيات ، يورد بعضها هنا تنمة لموضوع الصدقة :

« الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَسًّا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَى ، وَاللَّهُ غَنِيٌ حَلِيمٌ » ، « وَمِثْلَ الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَشْدِيدًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَثَلٌ جَنَّةٍ رُبَّ بَوَّاعٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَاتَتْ أَكْثُلَهَا ضَعْفَيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يَجِبْهَا وَابِلٌ فَغَطَّلَتْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » ، « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَرْجَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، وَلَا تَيْسَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفَقُونَ وَلَسْتُمْ بِأَخْسَفِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ » ، « إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنَعِمًا هِيَ ، وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا

الفقراء فهو خير لكم ، ، وما تنفقوا من خير فلا تنفك ، وما تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يؤف إليكم وأنتم لا تظلمون . للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض ، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم ، لا يسألون الناس إلحافاً ، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم .

في هذه الآيات ترغيب في النفقة ، وفيها شروط القرض الحسن التي مر ذكرها . وهناك أحاديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم مرغبة في الصدقة . وكل هذا يدل على روح الاسلام وحبه للنعاون والتناصر ، تحقيقاً للوحدة التي يبتغيها ، وتزهيدها في المال إذا وجدت مصارفه وبأن موضع الحق فيه . وهذا يدل على قيمة المال ، وعلى أن له قدراً عظيماً ، فإنه وسيلة إلى تحصيل الأجر العظيم من الله ، ووسيلة إلى أن يعقد المؤمن مع الله قروضا ، وهو وسيلة في إغراز البلاد وإعزاز الدين إذا ما تعرض المسلم للجهاد ، فلا يجوز التزهد في المال على معنى عدم طلبه وعدم جمعه ، وإنما يكون التزهد فيه على معنى عدم حبه الحب الموجب لادخاره ، وكيف يزهد في المال مع أن الله وعد منفقته بالأجر العظيم ، وبالأمن والمصرة ، حيث قال : « لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ؟

استمر السلف الصالح يفهمون هذه الآيات ويعملون بها ، فصانوا بلادهم وأنفسهم ، وأيدوا الوحدة الاسلامية والتضامن بين أفراد الأمة ، وقويت الروابط بينهم ، فلم يحقد الفقراء على الأغنياء ، ولم ينظر الأغنياء إلى الفقراء نظر المدلل الفخور ، ثم نسي ذلك وقست القلوب ، فظلم الناس في جمع المال ، وظلموا في ادخاره . ولا سبيل إلا بالرجوع إلى الله وكتابه ، ولا فلاح إلا بالإيمان والتقوى ، والاتفاق في سبيل الله .

« يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم » :

السعي : المشي السريع دون المسدود . وبشرته : أخبرته بخبر سار بسيط بشرة وجهه . ويقال للخبير السار بشرة وبشرى . والفوز : الظفر بالخير مع حصول السلامة .

بعد أن رغب الله سبحانه في الاتفاق ، وحث عليه ، ووعد بالآجر الكريم عليه ، وبالمضاعفة ، بين أن ذلك الأجر المضاعف يكون يوم القيامة . وقد اختلف العلماء في تفسير ذلك النور : فمن ابن مسعود وقتادة : هو ضياء حقيقى المؤمنين والمؤمنات يضي نورهم بين أيديهم وعن أيمانهم ، ونورهم على قدر أعمالهم ، فمنهم من يسمي نوره كما بين عدن ومنعاه ، ومنهم من يكون نوره مثل الجبل ، ومنهم من لا يضي نوره إلا موضع قدميه ، وأذنانهم

نورا من يكون نوره على إلهامه فينطق مرة ويتقد أخرى . وقال بعضهم : هو نور الهداية الى الجنة ، ونور الأعمال الصالحة والمعارف الحقة .

وقوله تعالى : « وبأيديهم » هو خبر (١) والمبتدأ محذوف . والمعنى : يسمى هدام بين أيديهم ، وبأيديهم كتبهم وسجل أعمالهم ، وهى فى ذلك نظير قوله تعالى : « فأما من أوتى كتابه يمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه » . ونور البصيرة والمعرفة إذ ذلك هو الآحق بأن يسمى نورا ، ومقادير الأنوار يوم القيامة على حسب مقادير المعارف ، والله سبحانه هو النور الحقيقى ، والنور المشتق من نوره هو نور الهداية والمعرفة . ولو كان المراد الضياء الحقيقى لما خص بالسمى بين الأيدي ، بسل كان يعم جميع الجهات ، والتخصيص بالسمى بين الأيدي دليل على أنه على معنى آخر .

وقوله : « بشرأكم اليوم جنات » : أى يقال للمؤمنين فى ذلك اليوم : ما تبشرون به اليوم هو جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها لا تتحولون عنها ، وهذا الخلود فى الجنات هو الظفر والتنجيع العظيم .

يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل أارجعوا وراءكم فالتيسوا نورا ، فضرِبَ بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتم الأماني حتى جاء أمر الله ، وغرتم بالله الفرور . فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار ، هى مولاكم ، وبئس المصير .

التفائق : الدخول فى الشرع من باب والخروج عنه من باب آخر .

انظرونا : قرأامة قراء المدينة والبصرة وبعض أهل الكوفة : انظرونا موصولة ، بمعنى انظرونا ؛ وعامة أهل الكوفة : انظرونا مقطوعة الألف من انظرت . وذكر الفراء أن العرب تقول : انظرنى وهم يريدون انتظرنى قليلا . قال ابن جرير : والصواب من ذلك قراءة

(١) يرى بعض المفسرين أن قوله « وبأيديهم » معطوف على أيديهم ، وأن الباء بمعنى من . وهذا الشيخ عن هذا لأن النور إذا كان يسمى بين الأيدي فهو ينشر بطله الى الإيعان فلا يفيد ذكر الإيمان سوى جديدا . على أنه كان يكنى مجرد المظهر بدون ذكر اناء والموضع لمن . وقد هي المحذوف بالآية على استعمالها .

الوصل لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب إذا أريد به انتظرنا ، وعلى قراءة الوصل يصح أن يكون المعنى : انظروا إلينا .

والقبس : هو المتناول من الشعلة ؛ والاقْتَبَسَ : طلب ذلك ، ويستعار لطلب الهداية .  
التمسوا : أي اطلوا . والمس : إدراك بظاهر البشرة كاللمس ، ويعبر به عن الطلب ؛ ومنه قوله : وألمسه فلا أجده ، وقول الله سبحانه : « وأما لمننا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا » .

وأصل الفتى : إدخال الذهب النار لتظهر حودته من رذاته ؛ واستعمل في إدخال الناس النار ؛ ويستعمل أيضا فيما يحصل منه المذاب ؛ ومنه « ألا في الفتنة سقطوا » . ويستعمل استعمال البلاء فيما يدفع اليه الإنسان من شدة .

والتربص : الانتظار بالشيء ، مثل ترص غلاة السلعة أو رخصها ، وتربص زوال الشيء أو حصوله . ويقال : ربى ربيا واربى إرباة . والرب : أن تتوهم بالشيء أسرا ما فيكشف مما تنوهم . وسمى ربب المنون ربيا مع أنه لا شك فيه باعتبار الشك في وقته .

والغسرة : غملة في البقطة ؛ يقال : غررت فلانا إذا أصبت غرته وثلت منه ما تريد . وعرّ الغيوب أثر كسره ؛ ومنه قيل : اطوه على غره . وغره كذا غرورا كأما طواه على غره .

والنقى : تقدير شيء في النفس ونصوبه فيها ، قد يكون عن ظن ، وقد يكون عن روية وباء على أصل ، وأكثره ما كان عن تخمين ؛ فصار الكذب له أملاك . وأكثر النقى تصور ما لا حقيقة له .

والفدية والفداء : حفظ الإنسان عن النائية بما يسدله عنه .

والماوى : اسم للمكان الذى يأوى اليه أى ينضم اليه . ويقال : صار الى كذا أى انتهى اليه فى تنقله وحركته . ومنه « وإليه المصير » .

بعد أن صور الله حالة المؤمنين يوم القيامة ، وبين أن نورهم يسمى بين أيديهم ، وأنهم يشعرون بالغلود فى الجنة ، صور فى هذه الآيات حال المنافقين الذين دخلوا فى الاسلام من باب وخرجوا منه من باب ، فهم فى الظاهر مع المؤمنين وفى الباطن مع الكافرين ؛ ولذلك قال الله تعالى فى حقهم : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيرا » .

وقد روى عن ابن عباس : بينا الناس فى ظلمة إذ بعث الله نورا ، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه وكان النور دليلا على الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا تبعوهم فأظلم الله على المنافقين ، فقالوا حيثئذ : انظرونا نفتيس من نوركم فاما كنا معكم فى الدين ؛

قال المؤمنون ارجعوا من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا النور هناك ، فضرب الله بين الفريقين بسور ، وهو حاجز بين أهل الجنة وأهل النار .

وهذا التصوير ظاهر على رأى القائلين بأن النور نور حقيق هو ضياء ، وعلى أن معنى انظرونا أمهلونا حتى نسير معكم فى نوركم فإننا لا نرى حولنا إلا ظلمات لا نستطيع السير فيها ، ويكون الاقتباس وانحما أيضا ، لأنه تناول النور من الشعلة .

أما على رأى القائل بأن النور نور الهداية ، فيكون المعنى : انظرونا نسير فى هديكم معكم ؛ ويكون الاقتباس معناه الانتفاع بالهداية ، ويكون معنى قول المؤمنين لهم : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا : ارجعوا فاطلبوا الهداية من خلفكم لأن عندنا ، إما من الدنيا بتحصيل الأعمال الصالحة التى ثمرتها الهداية يوم القيامة ، وإما من الموقف المظلم قبل أن يشع نور الهداية للمؤمنين ؛ وكلا الأمرين مستحيل ، لأن الرجوع الى الدنيا غير ميسور ، وحصول الهداية من الموقف المظلم غير ميسور .

وعلى كل حال فتفسير انظرونا بانظروا اليها فإياكم إذا نظرتم اليها وقع نوركم أمامنا فأمكن من السير ، غير واضح ، لأنهم إذا نظروا اليهم وتقابلوا كيف يمكن السير ؟

ومواء : كان النور ضياء أم كان هداية ، فقد بين الله سبحانه أنه يفصل فى ذلك اليوم بين الفريقين محاربه باب باطنه من قبل المؤمنين رحمة وسلام ، وظاهره من قبل المنافقين عذاب ، وأن المنافقين يتادون المؤمنين : ألم تكن معكم نعمل أعمالكم من صلاة وصيام ونقيم الشعائر ، فلم تمتازون علينا وتخصون بهذه السم ؟ فيقول لهم المؤمنون : حقا كنتم معنا ولكم أوقعتم أنفسكم فى البلاء ، ومهلم ما هو سبب فى دخول النار ، وترتصم أن تدور الدائرة علينا فيضنف أمرنا ، ويهون شأننا ، ويروى من الوجود ظلما ، وشككم فى الدين ، وغرتكم الأمانى التى كنتم تقدرونها وتمنون أنفسكم بها من زوال الإسلام وانكسار أمر المسلمين ؛ ظلتم على هذا الحال حتى جاء أمر الله وهلكتم ، وفارقتم الدنيا ، وعجزتم عن اكتساب صالحات الأعمال ، وغرركم الشيطان وزين لكم التفات بما أوقع فى صدوركم من الأمانى ، وبما لوح لكم من صفو الله ؛ فالיום لا سبيل الى النجاة ، ولا سبيل الى دفع العقوبة والبذل الذى يؤخذ منكم للنجاة من النار ؛ النار أولى وأحق بكم ، والنار ناس المصير الذى اتهمتم إليه بعد طول التنقل . وعلى هذا فكلمة مولى نوع من اسم المكان لوحظ فيه معنى أولى لأنه مشتق منه . ومثله لفظ مشة ، تقول : فلان مشة الكرم ، أى هو مكان تقول القائل : إنه الكرم . وقد يكون معنى المولى الناصر ، أى لا ناصر لكم غير النار ، من قبيل قوله : نجية بينهم ضرب وجيع . معنى الضرب الوجيع نجية على معنى أنه لا نجية لهم إلا الضرب الوجيع ، فإنهم لا يستحقون غيره نجية .

هذا التصوير لحال المؤمنين وحال المنافقين ، مما يبعث الرغبة الى الاتفاق في نفس المؤمن ،  
 ايزيد نوره في ذلك اليوم ، ويكون مع المؤمنين الذين يسرون الى الجنة كما يسير الدبرق  
 الخاطف ولا تنالهم أهوال يوم القيامة ، ولا يكون مع المنافقين الذين يتخبطون في الظلمات ،  
 ويقنّبسون النور فلا يمكنون منه ، وينهم عليهم المؤمنون بقولهم : ارجعوا وراءكم  
 فالتسوا نورا .

وقد رغب الله فيما سبق من الآيات في الاتفاق على وجوه شتى :

أولها : وعد الدين أنفقوا بأن لهم أجرا كبيرا .

وثانيها : تلبيةهم الى أن هذه الاموال ليست أموالهم بل هم وكلاء مستخلفون  
 في التصرف فيها .

وثالثها : أنها ستذهب عنهم وتصور الى الله وارث السموات والارض .

ورابعها : هذا التصوير القوي لحال المؤمنين وحال المنافقين .

« يفتح »

# السيرة المحمدية

## تحت ضوء العلم والفلسفة

غزوات ومرايا فيا بني من السنة الخامسة وفي السنة السادسة للهجرة

لما آتى النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة الأحزاب ، وهم أن يخلع لبوس الحرب ، أوحى إليه أن يقاتل بني قريظة ، وهم من اليهود المهاجرين للمدينة ، تأديبا لهم على خيانتهم العهد ، وعلى مما لا تحم للعشكرين عندما قدموا لمقاتلة المسلمين . فوسع النبي صلى الله عليه وسلم وقد أسر بأن يغزوم على العور إلا أن قال لأصحابه : لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة . فصدعوا بالأسر وخرجوا طالبين ديار بني قريظة ، وتبعهم رسول الله ، وكانت عدتهم ثلاثة آلاف مقاتل لواؤم بيد علي بن أبي طالب .

فلما وصلوا إلى أرض بني قريظة بأدر هؤلاء فاعتصموا بمحصونهم ، فحاصرهم المسلمون خمسا وعشرين ليلة ، فرأوا أن لا مناص من التسليم ، فطلبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من ترك السلاح والجللاء بالأموال ، فلم يقبل منهم ذلك . فطلبوا أن يجلبوا بأنفسهم تاركين سلاحهم وأموالهم ، فأبى طالبا إليهم أن يتزلوا على حكمه . فرجوه أن يرسل إليهم بأحد رجاله أتى لبابة ، وكان حليفا لهم في الجاهلية ، ليستشيره . فأرسله إليهم . فلما استشاروه قال لهم : انزلوا ، وأشار إلى حلقه ، يريد أن الحكم الدج .

قال أبو لبابة هذا محدثا عن نفسه : ولم أبارح موقفي بعد إفضائي لهم بما قلت حتى أدركت أنى حنت الله ورسوله . وما كان منه إلا أن رجع من فوره إلى المدينة ولم يقابل النبي خجلا منه ، وربط نفسه في سارية من سوارى المسجد ، آخذا على نفسه أن لا يزال موثقا فيها حتى يقضى الله فيه بأمره . وسأل عنه النبي فأخبر بما كان منه فقال : أما لو جاءني لاستغفرت له ، أما وقد فعل ما فعل فتتركه حتى يقضى الله فيه .

لم يسع بني قريظة إلا النزول على حكم رسول الله ، فأمر بتكتيف الرجال . فجاءه رجال من بني الأوس حلفائهم في الجاهلية ، وسألوه أن يعاملهم كما عامل إخوانهم بني قينقاع . فقال لهم : ألا يرضيكم أن نحكمكم فيهم واحدا منكم ؟ فقالوا نعم ، واختاروا زعيمهم سعد بن معاذ . وأمر النبي بإحضاره ، وكان جريحا ، فحمل على حمار وعُنى به جماعة من قومه كانوا طول الطريق يرجونه أن يترفق بهم .

فلما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم قال له : احكم فيهم يا سعد . فقال : أحكم أن يقتل رجالهم ونسبى نساؤهم وذرايرهم . فنقض هذا الحكم فيهم . ولم يبق بعد هؤلاء مجاور للمسلمين من اليهود غير بقية من كبارهم بخير .

أما أبو لبابة الذي أوثق نفسه في سارية المسجد ، فما زال على تلك الحال حتى نزل فيه قوله تعالى : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم » لخل وثاقه واستراح قلبه .

( سرية أنقرطاه ) : طائفة من بني بكر كانوا يترلون بتناحية قصرية وهي على بعد سبع لبال من المدينة في طريق البصرة . أمر النبي صلى الله عليه وسلم عبد بن مسلة أن يغير عليهم في ثلاثين مقاتلا . ففعل وقتل منهم عشرة وقيل عشرين ، واستاق ما كان معهم من الماشية وهي مائة وخمسون بعيرا وثلاثة آلاف شاة .

واتفق رجال هذه السرية مائدون ، أن صادفوا ثمامة بن أثال من رجالات بني حنيفة فأمرؤه ، وهم لا يعرفون من هو ، وقدموا به على النبي صلى الله عليه وسلم . فقال لأصحابه : أتدرون من أخذتم ؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفي ، وأمر به فربط إلى سارية من سوارى المسجد لينظر حسن صلاة المسلمين واجتماعهم ثم أقبل عليه بعد الصلاة وقال له : ماذا عندك يا ثمامة ؟ قال خير يا محمد ، إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن نمن نمن على شاكرك ، وإن كنت تريد مالا فسل تمط منه ماشئت فتركه حتى كان الغد . ثم قال له : ما عندك يا ثمامة ؟ فأطاد عليه ما قاله أمس ، فتركه حتى بعد الغد ، ثم عاد إليه فساله كما فعل أولا وثانيا . فقال ثمامة : عندي ما قلت لك . فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بإطلاق سراحه . فخرج إلى نخل قريب من المسجد فأغتسل ، ثم عاد إلى المسجد معلنا إسلامه ، ببشره النبي بخيري الدنيا والآخرة . فشحخص إلى مكة ليعتمر . فلما سمعه المشركون بنى الشريك لله ، قال له قائل : صأنت عن ديك ؟ فقال : لا ولكني أسلمت لله رب العالمين مع عبد رسوله ، ولا والله لا تأتبعكم من البيامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي صلى الله عليه وسلم . وكان أهل مكة في حاجة إلى استيراد حنطتهم من البيامة لله ثمامة ، فحشوا إنهم قتلوه أن يقاطمهم أهل بلده فتصميمهم جماعة . ورأوا أن يكتبوا إلى رسول الله أن يأذن لثمامة في عدم حبس حنطة البيامة عنهم . فكتب إليه النبي أن يخلى بينهم وبين حاجتهم منها . وهذا من الصفات المالية التي تؤثر عنه صلى الله عليه وسلم ، قال قبوله إمداد أعدائه بما يقوتهم مع تمكسه من إضاعته وتصديق الخلق عليهم ، يدل دلالة صريحة على أنه يرى أن للتضال آدابا يجب مراعاتها ، وأن للإنسانية حقوقا فوق جميع الاعتبارات ينهض الوفاء بها . وسلاح إجابة الأعداء لتضييق المنادح عليهم مشروعة ، ولكن والحرب قائمة ، أما والسلام ضارب أطبايه ، فلا تصح مهما كانت درجة التوتر في العلاقات بين الفريقين .



غزوة بني لحيان :

بنو لحيان قبيل من العرب كانوا قد قتلوا حاصم بن ثابت ورجالا معه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما كان ربيع الأول من السنة السادسة للهجرة سنحت فرصة للاقتصاص منهم ، فأمر بعض أصحابه بالاستعداد للحرب ، وخرج في مائتين منهم قاصدا بني لحيان . فلما بلغهم الخبر تفرقوا في الجبال . فأقام النبي بديارهم يومين يبعث سرايا فلا يعثرون بأحد منهم ، فرجع إلى المدينة .

غزوة الغابة :

كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مشرون لكعبة تسمى بالغابة (١) فأغار عليها مغير يدعى عبيدة بن حصن في أربعين راكبا واقتادها . فأبلغ هذا الخبر إلى النبي سلمة بن الأكوع ، وكان عداءه ومن مهرة الرماة . فأمره أن يتصل بالقوم ويشغلهم بالنبل حتى يلحق بهم . فأدركهم سلمة في الطريق فأخذ يشغلهم بالنبل . فكانوا يركضون خيولهم ليقتضوا عليه فيعوثها ، فإذا كفوا عنه عاد لميهم ، حتى اضطرم لإلقاء كثير مما كان معهم من الرماح والأبراد ليخففوا أثقالهم ، فيسهل إيلاتهم من جنود المسلمين .

في هذه الأثناء نذب النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه للخروج معه ، فدفع لواءه للعقداد بن الأسود وأمره بالخروج ولحق به القرسان ، فأدركوا مؤخرة العدو ، فحدثت مناوشة قتل فيها مسلم ومشركان ، واستنقذ المسلمون أكثر المقاتلين ، وهرب أوائل القوم بالبقية .

فطلب سلمة بن الأكوع إلى النبي أن يرسله في جماعة ليدرك الحاربين ويأخذهم على غرة وهم نازلون على أحد مياههم . فقال له صلى الله عليه وسلم : « قد ملكت فأسرح » أي قد غلبت فأحسن العفو . ثم رجع بعد خمس ليال .

إحدى عشرة سرية :

(أولاهها) — أن بني أسد كانوا يؤذون من يمر بهم من المسلمين ، فأرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم عكرشة بن محمد في أربعين راكبا ليقاتلهم . فلما بلغهم الخبر هربوا ، فاستاق المسلمون ما وجدوه من نَعَم العدو وكانت مائة بعير ، وعادوا بها إلى المدينة .

و (ثانيها) — أن النبي صلى الله عليه وسلم علم أن المتقبيين بذى القصة (٢) يريدون الإغارة على ماشية المسلمين التي تسمى بالهيفاء (٣) فبعث إليهم محمد بن مسلمة في عشرة من المقاتلة . فلما وصلوا كان الليل قد أرخى سدوله ، وكان المشركون قد حللوا بخيولهم وكسروا لهم . فلما

(١) القصة : الساة المطوب للفرقة الذين . والغابة : موضع قريب من المدينة .

(٢) ذو القصة : موضع على بعد ٣٤ ميلا من المدينة . (٣) الهيفاء : موضع آخر قرب المدينة .

ناموا أخذ الأعداء يرمونهم بالببل ، فتواثبوا الى أسلحتهم ولكن بعد ما فات الوقت ، فقتلوا كلهم إلا قائدهم . فأرسل النبي إليهم أبا عبيدة عامر بن الجراح ليعاقبهم على ما فعلوا . فلما بلغ ديارهم وجددم قد هربوا ، فاستاق أنعامهم ورجع .

و ( ثالثها ) — أن بنى سليم كانوا يعا كسون الذين تحزبوا مع المسلمين في غزوة الخندق عند ما كانوا يمحرون بديارهم . فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة ليعاقبهم . فلما بلغ أرضهم وجددم قد فروا . فأخذ المسلمون ما عثروا عليه من أنعامهم وشاتهم ، ووجدوا رجالا قأسروهم ومادوا الى المدينة .

و ( رابعها ) — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى إليه أن قافلة تجارية أقبلت من الشام زيد مكة ، فندب لاعتراضها زيد بن حارثة في مائة وسبعين رجلا ، فاستولى عليها وأسر رجالها ، وكان فيهم أبو العاص بن الربيع وهو من رجالات فريش ، زوج زينب بنت النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت قد هاجرت الى المدينة وترك زوجها هذا مشركا ، فاستجار بها بعد أسره ، فأجارته وأعلنت ذلك . فقال رسول الله : « المسلمون يد واحدة يحجبر عليهم أديانهم » ، وقد أجرنا من أجرته . ورد على زوجها حريته وماله . فرجع الى مكة ثم عاد الى المدينة مسلما ، فرد عليه رسول الله زوجته زينب .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « يحجبر عليهم أديانهم » تقرير لمبدأ المساواة لم يكن معروفا لا عند عرب الجاهلية ، ولا عند اليونانيين ولا الرومانيين ممن بلغوا في القدم درجات عالية في المدنية . فقد كان لا يحجبر عندهم إلا كبار الرجال ذوو الجاه والمكانة المالية ، أما أدنى القوم فقد كان لا يأبه بهم أحد ، بل كان أهل الطبقة الدنيا في المدنية الرومانية يدخلون في حماية السراة ، حتى لا يكونوا عرضة للعدوان وإلا بطش بهم الأقوياء .

و ( خامستها ) — أن رسول الله بلغه أن بنى ثعلبة ، الذين قتلوا أصحاب محمد بن مسلمة كما أوردناه في تاريخ السرية الثانية هنا ، يقيمون على بعد نحو ستة وثلاثين ميلا من المدينة ، فوجه إليهم زيد بن حارثة في خمسة عشر مقاتلا فنأثر منهم ، فهربوا من وجه السرية ، فاستولى المسلمون على أنعامهم وشاتهم ورجعوا الى المدينة .

و ( سادستها ) — أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل زيد بن حارثة ليشن على بنى فزارة غارة عقابا لهم على ما تعرضوا لزيد المذكور وهو آيب من الشام بتجارة واتهبوا ما معه . فقصده القوم في وادي القرى وهو موضع شمال المدينة . فأحاط بالقوم برجاله وقتل منهم رجالا كثيرين .

و ( سابعها ) — أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل عبد الرحمن بن عوف في سبعمائة من المقاتلة ، لدعوة بنى كلب الى الاسلام ، وكانوا في دومة الجندل ، وهي قرى فيها حصن على بعد خمس عشرة ليلة من المدينة ، وتقع على بعد خمس ليال من دمشق . وقبل أن يسير الجيش أوصاهم قائلا :

« اغزوا جميعا في سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ولا تغفلوا (١) ، ولا تصدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا ، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم » .

فلما حلوا بديار القوم دعوم الى الاسلام ثلاثة أيام ، وفي الرابع أسلم رئيس القوم الأصغر ابن عمرو وكان على النصرانية ، وأسلم معه كثيرون من قومه ، ورضى الباقر أن يدفعوا الجزية باعتبار أنهم من أهل الكتاب .

و (ثامنتها) - أن رسول الله أرسل على بن أبي طالب في مائة مقاتل لمحاربة بني سعد بن بكر بفدك (٢) لأنه اتصل به أنهم على وشك الاتفاق مع يهود خيبر لمقاتلة المسلمين . فاتفق لهم أن عثروا بالطريق على جاسوس لهم ، فأمنوه على نفسه في مقابل دلائهم على موضع القوم ، فذهب عليهم ، فأغار المسلمون على ما شية القوم واستاقوها الى المدينة ، وكانت خمائة بعير وألفي شاة .

و (ثاسعتها) - أنه لما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عتيك وأربعة رجال معه لقتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق زعيم يهود خيبر ، وكان لغناه ومكانه من قومه كثير التأليب على المسلمين ، ونجح ابن عتيك في قتله بعد أن دخل في حصنه بحجة تحصل بها اليه ، وولى اليهود أمرهم أسير بن رزام ، ووجه رسول الله من يأتيه بخبر القوم ، فعلم أن هذا الزعيم الجديد ليهود خيبر يعمل على الاتفاق مع بني غطفان للنار من المسلمين . فبعث النبي اليه بعبد الله بن رواحة في ثلاثين من رجاله ليستميلوه الى المسالمة .

فلما قدم هذا الوفد خيبر عرضوا على أسير بن رزام أن يقدم معهم الى المدينة ويترك ما عزم عليه من الخصومة ، فيعترف به النبي صلى الله عليه وسلم رئيسا لخيبر ، ويحول ما بين الطرفين من الحفاء . فقبل أسير بن رزام هذا العرض وخرج في ثلاثين من رجاله ، فجعل كل واحد منهم رديفا لواحد من المسلمين ، وجعل نفسه رديفا لعبد الله بن رواحة ، فبينما هو بالطريق ندم على خروجه وأهوى بيده الى سيف مرده ليلسته ، فجذبه منه وأسرع في النزول وضربه على خذه فقطعها ، وتولى كل مسلم رديفه فقتله .

و (عاشرتها) - أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد قدم عليه جماعة من بني عكل وهرينة فتظاهروا بالدخول في الاسلام وكانوا مصابين بأعراض سوء التقدي من رقة حالهم ، فتعطف عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فأمر راعيا له أن يعطيهم حاجتهم من ألبان بعض إبله ، وأشار عليهم أن ينتقلوا الى مرمى تلك الابل حتى تعود اليهم صحتهم ، فصدعوا بالأمر ؛ ولما آمنوا في أنفسهم القوة بعد شفائهم قتلوا الراعي ومثلوا به وأخذوا الابل وفروا فأمر رسول الله

(١) غل كذا أخذه خفية ودسه في متاعه (٢) غمرة بينها وبين المدينة ست ليال .

كرز بن جابر القهري أن يأخذ عشرين فارساً ويلحق بهم ويقتادهم . فلما جرى بهم إليه أمر أن يمتثل بهم كما مثلوا بالراعي ، فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وسحرت أعينهم ، وألقوا خارج المدينة حتى ماتوا .

أما ما ورد من الهوى عن التمثيل بالأعداء فقد حدث بعد هذه الحادثة .

(حادثة عاشرتها) - أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل عمرو بن أمية الضمري وكان رجلاً فانتكافى الجاهلية ، وأحببه يمين له ، ليقتل أبا سفيان بن حرب غيلة ، جزاء له على إرساله رجلاً ليقول النبي غيلة .

فلما دفع عمرو بن أمية إلى مكة فوجهه ورفيقه ليطوقا بالبيت ، فعرف رجل من المشركين صمراً وأذاع الخبر ، فرأى عمرو أن ينجو بنفسه قبل أن يقبض عليه ، فرجع هو وشريكه إلى المدينة وبقي أبو سفيان حياً حتى أسلم عندما شرع رسول الله يفتح مكة .

أما خبر الرجل الذي كان أرسله لاغتتيال النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن أبا سفيان قال يوماً وهو ينادي قومه : ألا رجل يذهب لمحمد فيقتله غيلة لستريح منه ؟ فنهض إليه رجل وتهدد له بذلك . فأعطاه راحلة ونفقة . فلما وصل إلى المدينة كان النبي بمسجد بني عبد الأشهل فذهب إلى ذلك المسجد ، ولما وقعت عينه على رسول الله قصده متظاهراً بالطاعة وانحنى عليه ، فغشى أسيد بن حضير أن يكون قد أسر شراً فجذبه من إزاره ، فسقط الخنجر الذي أعده له ، فافتضح أمره ، وسأله النبي عن الحامل له على سوء نيته ، فصداقه وأسلم من ساعته .



#### نظرة على ما سبق .

إنما لم نعمل في كل ما مر في هذا الفصل إلا - مرد الحوادث التي وقعت في السنتين الخامسة والسادسة للهجرة ، وكنا نستطيع أن نقف عند الحد الذي انتهيا إليه لستأنف بقية السيرة الحميدة في الأعداد التالية ؛ ولكننا شعرنا أن القارئ سيحس بشيء من الحيرة عندما يقرأ ما هو مل به المستسلمون من بني قريظة من الشدة ، وما حكم به على الجماعة من عكس وعريضة من التمثيل ، جزاء قتلهم رجلاً واحداً وتمثيلهم به ، وما كان يُرسل من أهل المرأة والفنك لقتل بعض رؤساء الخصوم غيلة ؛ فلهذا رأينا أن التعقيب على هذه الحوادث واجب .

جاء الإسلام لينشر إصلاحاً يشمل الأديان والأصول والمبادئ التي كانت تقود الجماعات الانسانية وأخرجت من حدودها ؛ ولبت أصول ومبادئ أدبية جديدة لا بد منها لتكسب أدوات التطور الاجتماعي ، تكيلاً لا يحتاج بعده لأدوات أخرى ؛ واقتضى هذا الإصلاح أن تقام له دولة تمثله وتدافع عنه . لأنه ثبت أن كل إصلاح ديني أو اجتماعي لا تنقسم روحه

دولة ، تسامح العوامل المحللة دونه ، يضمحل ويذول كأن لم يكن . والدليل المحسوس على هذا أنه لم يوجد ولا يوجد دين أو نظام مدنى قام بدون دولة . وهذه الديانة النصرانية ظلت فكرة مضطهدة مدة ثلاثة قرون متوالية حتى قامت لها دولة ، سُفكت في سبيلها دماء ، وُهدمت هياكل وبيع ، فقويت واشتدت ونشرت ووافها على أوروبا برمتها ، وعلى بقاع كثيرة من القارات الأخرى .

فكان لابد للإسلام من أن يقيم لنفسه دولة ؛ والدولة حمل إنسانى يقتضى ككل حمل إنسانى أن يناسب البيئة التى يعمل فيها ، والنفوس التى يحتك بها ، ويحطم العقبات التى تقوم دونه .

وهذا العمل الانسانى فى البيئات التى لم تصل بعد الى أرفع درجات السمو الادبى لا يجرى فيه القيام على المثل العليا إلا بعد أن يصل الى غايته القصوى ؛ أما وهو لا يزال فى دور التكوين فلا بد للقيام به من أن ينتزل الى استخدام الأساليب التى لا تتأثر النفوس اراهنه إلا بها . وإذا كان من النفوس من تكفيها الإشارة ، ومنها من لا يؤثر فيها إلا السوط يلهب ظهور أصحابها ، فمن الجماعات ما تحزى فى زجرها المثل العليا من العدالة ، ومنها ما تفسدها هذه المثل العليا نفسها ، ولا ينفع معها إلا معاملتها بمثل ما تعمل لتقتاد الى ما يصلحها .

إذا أنصف خصوم الاسلام وجب عليهم أن يعجبوا كيف لم تشع هذه المعاملة الشديدة فى الدور الأول من تأسيس الدولة الاسلامية ، وتكون هى الأسلوب الصلى لتقويم أمة جاهلية من الطراز المتحجر ، لا أن تقتصر على حادثين أو ثلاثة فيه ، فان معالجة الجماعات التى فسدت نفوسها بالعيش آلافا من السنين على حالة البداوة ، وقست قلوبها حتى صارت كالصخور أو أشد قسوة ، تضطر أرق المصلحين لها أن يعمدوا كارهين الى وسائل توائم ما هى عليه من التحجر المستعمى ، وخاصة إذا كان المراد نقلها عما هى عليه ، خلافا لسنن النطور ، فى سنين معدودة .

ليس يدرك صحة ما نقول إلا من ابنى باصلاح رجل واحد من نذكر ، ورأى كيف لمعجز جميع وسائل التقويم المعروفة فى علاجه ، وكيف يلقى المنطق سلاحه ، وتنحطم نصال الأدلة الماضية دون إصراره وعناقه .

على أن حادثين أو ثلاثا مما لاحظته لخصوم واقتضتها أحوال خاصة ، لا تكدر صفو تاريخ حافل بآيات ، أصغر واحدة منها تنحى أمامها الرؤوس إجلالا ، وتفيض منها القلوب إيمانا ، وتزداد بها العقول عرفانا .

محمد فريد وجدى

# السُّنَّةُ

## مثل من فهم الصحابة في كتاب الله

عن صالح عن ابن شهاب قال : « أخبرني عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله تعالى عنها ، قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى : « حتى إذا استيأس الرسل ، قال : قلت : أ كذبوا أم كذبوا ؟ قالت عائشة : كذبوا . قلت : فقد استيقنوا أن قومهم كذبهم فما هو بالطن . قالت : أجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك . فقلت لها : وظنوا أنهم قد كذبوا ؟ قالت : معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها . قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقهم فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر حتى إذا استيأس الرسل من كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك » . رواه البخاري في كتاب التفسير .

(١) معنى هذا الحديث أن عروة بن الزبير سأل خالته السيدة عائشة رضى الله عنهما عن معنى قوله تعالى : « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا » الآية . والذي أشكل على عروة في هذه الآية أمران : أحدهما : يأس الرسل من نصر الله تعالى مع أن الله تعالى قد وعد الرسل بالنصر ، ثانيهما : ظن الرسل أنهم قد كذبوا ( بالتحريف ) أى أخبروا بالكذب ، ( يقال كذب الرجل بضم الكاف وتحفيف الدال إذا أخبره غيره بالكذب ) مع أن ذلك لا يجوز في حق الرسل عليهم السلام ، فأجابته السيدة عائشة بأن كذبوا مثقلة لا مخففة . فالآية وظنوا أنهم قد كذبوا بمعنى أن قومهم كذبهم ، فلا ارتباط لإخبار الله تعالى بإمام بهذا ، ولكن عروة لم يقتنع بهذه الإجابة ، فقال لها : إن الرسل قد استيقنوا بأن قومهم كذبهم ، والقرآن يقول : وظنوا أنهم قد كذبهم قومهم ، فكيف يتفق هذا مع ذلك ؟ فقالت له : أجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك . فقال لها عروة : إذا استيقنوا بأن قومهم قد كذبهم فلا يكون للآية معنى إلا أن الرسل قد ظنوا أنهم قد أخبروا بالكذب ، لأنه لا واسطة بين هذين المعنيين ، فالمسألة إما أن تقرأ الآية بتشديد الدال ويكون المعنى أن قومهم كذبهم ، وهذا لا يتناسب مع قوله : وظنوا أنهم قد كذبوا ، لأن قومهم قد كذبهم بيقين ، وإما أن تقرأ بتحفيف الدال ويكون المعنى أن الرسل قد ظنوا أن الخبر الذي وعدوا فيه بالنصر قد كذبوا فيه . فقالت له

السيدة مائشة : معاذ الله ! لم تكن الرسل تظن ذلك برها ! فقال لها عروة : فما معنى هذه الآية حينئذ ؟ فقالت له : هم أتباع الرسل ، والمعنى أن أتباع الرسل الذين آمنوا برهم وصدقهم فطال عليهم الاضطهاد من أعدائهم وتأخر النصر الذي وعدوا به ، يشعرون من اقتضائهم على من كذبهم من قومهم ، وغنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك .

وحاصل ما تريد السيدة مائشة رضى الله عنها من هذا الجواب أن تقول : إن الذين استيقنوا بتكذيب الرسل هم غير أتباعهم ، والآية إنما يراد بها أتباع الرسل الذين آمنوا بهم ، فهؤلاء الأتباع الذين وعدوا على لسان الرسل بالنصر على خصومهم الكافرين قد ظنوا أن الرسل قد كذبوهم فيما وعدوهم به من النصر ، وقوله : « استيأس الرسل » ( أى يشعرون ، فالسين والتاء زائدتان للدلالة على شدة اليأس ) ، ومعناه أن الرسل قد يشعرون من إيمان من كذبهم من قومهم ، وخالة الرسل بإزاء ذلك تكون حرجة كل الحرج ، لأنهم بين ظن أتباعهم الكذب في خبرهم ، وبين تحادى الكافرين من غير أتباعهم المكذبين بهم ، وعند ذلك يحس النصر الذى وعدهم الله به . ولعل حكمة هذا التأخير هو امتحان المؤمنين الذين صدقوا برسلهم ، وتمييزهم على احتمال الشدائد والمشقات ، ليضاعف الله لهم الاجر ، ويزيد في سرورهم بالنصر على أعدائهم الذين آذوهم وآذوا رسلهم ، فإنه سبحانه قد ينشئ المؤمنين بالمصائب الدنيوية حتى يعلم الصابرين منهم فيجزئهم على الصبر أحسن الجزاء .

وقد ورد في كثير من القرآن الكريم ما يؤكد ذلك المعنى : قال تعالى : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين » ، وقال : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع وقس من الأموال والأنفس والثمرات » وبشر الصابرين « الى غير ذلك .

هذا الذى فهمته السيدة مائشة رضى الله عنها من الآية الكريمة ، هو الظاهر المتبادر ، ولا يرد عليه شيء . إلا أن ظاهر هذا إنكار القراءة الواردة بتخفيف الدال من كذبوا ، وهى قراءة متواترة ، قرأ بها حفص ، وهى قراءة ابن عباس وعلى كرم الله وجهه وابن مسعود ومجاهد وطلحة والأعمش ، وبها قرأ الكوفيون ، وعلى هذا فإذا يكون التأويل ؟ وقد عرفت أن كذبوا بضم الكاف وكسر الدال مخففة معناه أنهم أخبروا بالكذب ، وهو فعل مبنى للمجهول ، فمن الذى أ كذبهم أو أخبرهم بالكذب ؟ لا ريب في أن الذى أحبرهم بذلك هو الله عز وجل هو الوحي ، وهو معصوم عن الخطأ فضلاً عن الكذب بلا حراء ، فليس من المعقول أن الرسل تظن أن الوحي قد أخبرهم عن الله كذباً ، وظن ذلك محال على الرسل ، لأنهم بذلك الظن يهدمون الشريعة التى جاءوا بها من أسامها ، فإن من أهم صفات الرسل التى يجب اعتقادها العصمة عن الخطأ في كل ما يبلغ اليهم من ربهم ، ولذا قد أنكر المحققون حديث الفرائيق المشهور ، وقالوا إنه موضوع ، لعصمة الرسل عن الخطأ فيما يبلغونه عن الله ، وليس من المعقول

أيضا أن يقدر القائل : أنفسهم أوراؤم فيقال : كذبهم أنفسهم حين حدثهم بالنصر ، أو كذبهم رجاؤم النصر ، لأن هذا إنما ينفع إذا لم يكن النصر قد أوحى به اليهم ، ومتى أوحى به اليهم فكيف تكذبهم أنفسهم الوحي الذي يحيثهم من عند الله ؟ ومن الصعب جدا ما روى عن بعضهم من أن ابن عباس قال : كذبوا بمعنى أخلفوا وكانوا بشرا . فإن هذا لا يصح أن يقوله ذلك الامام الجليل ، فإن معنى ذلك أن الرسل ظنوا أن الله تعالى قد أحلفهم وعده بالنصر . وهل هذا يليق بالرسل سواء قلنا إن الظن بمعناه المشهور وهو إدراك الطرف الراجح ، أو بمعنى الشك أو الوم ؟ لا ريب أن مقام الرسل فوق هذا . ولهذا ذكره المفسري بمبارة تدل على إنكاره فقال : إن صح هذا عن ابن عباس فقد أراد بالظن ما يحظر بالبال ويهدس في النفس ، وحديث النفس لا يترتب عليه شيء من المأخضة لأنه من مقتضى الطبيعة البشرية ؛ أما الظن وهو ترجيح أحد الطرفين فلا يليق بالمسلم فضلا عن الرسول . وهذا حسن لا شك فيه ، لأنه لم يرد عن ابن عباس أنه فسر بهذا التفسير من طريق صحيح ، بل يستحيل على ابن عباس أن يجوز على الرسول أن نفسه تحدته بأن الله يخلف وعده ؛ ولا بد أن يكون المعنى الذي ذكرته السيدة عائشة هو الذي أراده ابن عباس . فقوله تعالى : « حتى إذا استأنس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا » بتخفيف الدال ، معناه : حتى إذا يتس الرسل من إيمان الكافرين ، وظن أتباعهم أن الرسل قد كذبهم ، جاءهم النصر من عند الله . وقد روى الطبري هذا المعنى عن سعيد بن جبير فقال : يتس الرسل من قومهم أن يصدقهم ، وظن المرسل اليهم من أتباعهم أن الرسل كذبوا . وهذا هو الذي يليق بابن عباس رضي الله عنهما .

بقي إشكال آخر ، وهو أن ظاهر الكلام يفيد أن عائشة تنكر القراءة بتخفيف الدال مع أنها من القراءات المتواترة . وقد أجاب بعضهم بأن عائشة لم تنكر القراءة وإنما أنكرت التأويل الذي ترتب عليها ، فإن قراءة كذبوا بالتخفيف تحتل المعنى الذي لا يليق فهمه بالرسل ، بخلاف قراءتها بالتشديد فإنها لا تحتل . ففرض السيدة عائشة من ردّها على مروءة تفهيمه أن الرسل يتسوا من إيمان قومهم ، وأن المؤمنين من قومهم ظنوا أن الرسل قد كذبهم . وهذا المعنى تدل عليه القراءة بالتشديد حتما ؛ أما القراءة بالتخفيف فإنها توم أن الرسل يتسوا من وعد ربهم وظنوا أن الله قد كذبهم وعده . فإذا انتفى هذا الإيهام وأولت الآية على الوجه الذي ذكرته فإنها لا تنكرها . وهذا هو اللائق بمقام السيدة عائشة التي كانت مرجعا لكبار الصحابة في فهم كلام الله ورسوله في كل ما يشكل ويغنى . أما الجواب بأنها لم تكن تعلم بهذه القراءة المتواترة بين المسلمين يومئذ فانه بعيد كل البعد .



## التصوف والمتصوفون

- ١ -

كنا قد همنا منذ نحو ثلاثة أعوام بنشر بحوث في نشأة الحركة التصوفية وآراء المتصوفين النظرية وما لها من منزلة بين صفوف أعلام الفكر البشري ، ولكننا - لاسرما - آثرنا أن نعدل إذ ذاك عن متابعة هذه السلسلة بعد أن نشرنا منها فصلين في مجلد سنة ١٣٥٧ من هذه المجلة ؛ غير أن كثيرا من متقني القراء قد ألحوا علينا أن نمنى في بحوثنا بحركة التصوف الاسلامي ، مستندين في ظاههم هذا بأنه لا ينبغي أن تغفل هذه الناحية الهامة من نواحي الفكر في النهضة الاسلامية ، فلم يسمنا إلا أن نعود الى هذه البحوث آمليين أن نوفق الى الاكتمال بها بقدر ما نسمع به الظروف . ولما كنا قد أوجزنا - في الفصل الأول الذي نشرناه من هذه الفصول - الحديث عن نشأة التصوف وكيف أنه كان في أول الأمر صليبا ثم صار نظريا ، وعن معنى كلمة « صوفية » وما ذكر في ذلك من آراء القدماء والمحدثين ، فقد رأينا أن نكتفي بما نشرناه عن هذا كله في حينه . والآن اليك ما بعد تلك التمهيدات :

### نبذة من تاريخهم :

كان المتصوفة في أول نشأتهم متفرقين ، ولكنهم لم يلبثوا أن شعروا بالحاجة الى اجتماعهم وتأليفهم وحدة قوية ، فتمارفوا واجتمعوا فريقين : أحدهما في البصرة ، وثانيهما في الكوفة ، وكون كل فريق منهما مدرسة لها تعاليمها وآراؤها التي تتفق مع ميوها الفطرية .

كان البصريون من التمييز المعطيقين بفطرتهم الى الواقعية والتقد الجاف ووضع القواعد التي يندرج فيها الاستثناء وتحديد النحو ، وكبح جناح الشعر في دائرة الحقيقة بقدر الامكان ؛ وكانت آراؤهم سنية مع النزعة الى حرية الفرد من آراء القدرية ؛ وكانوا يقولون بوجوب استكناه بواطن الاحاديث ورفض الاخذ بظواهرها . ولهذا كان من الطبيعي أن يحتفظ متنسكوها بشيء من هذه الصفات ، وهذا هو الذي حدث ؛ فكان رئيس نساكها الحسن البصري المتوفى في سنة ١٩٠ هـ - سنة ٧٢٨ م زاهدا من الطراز الأول ، وناقدا حقيقا ، ومنطقيا سليم العقل وقوي الحجة جبهة تسترعى الانتباه ، وسنويا معقولا ، ومن أنصار حرية الفرد فيما يزعم كثير من زعماء المعتزلة . ومن نساك المدينة أيضا : مالك بن دينار ، وفضل الرقاشي ، ورياح بن صهر القيسي ، وصالح المري ، وعبد الواحد بن زيد الذي أسس جماعة النساك الشهيرة في مدينة عبادان ، والمتوفى في سنة ١٧٧ هـ وصية ٧٩٣ م .

أما الكوفيون فقد كانوا بطونا يمنية تنزع نحو المثالية العليا في كل شيء . كان شعرم

أفلاطونياً دون أن يعرفوا أفلاطون ، وخبياهم متطلعا نحو الكواكب ؛ وكانوا يقولون بوجود الأخذ بظاهر الحديث ، ويثيرون لعل ، ويدنون بمبادئ المرجئة . وقد ظهرت هذه النزعات كلها في فسادهم كذلك ، فربيع بن خيثم المتوفى في سنة ٦٧ هـ - سنة ٦٨٦ م ، وأبو إسرائيل الملائى المتوفى في سنة ١٤٠ هـ - ٧٥٧ م ، وجابر بن حيان ، وكليب الصيدائى ، ومنصور بن مزار ، وأبو المناهية ، وعابدك ؛ كل أولئك آيات ناصعة على ما أسلفناه من اختلاف نساك الكوفة عن نساك البصرة في زمانهم .

وهؤلاء الثلاثة الآخرون ذهبوا في أواخر حياتهم إلى بغداد التي كانت قد صارت مركز الحركة التنسكية كما هي مركز الحركة العلوية عامة ، والتي كانت حلقات المحاضرات التنسكية قد بدأت تنعقد في قاعاتها منذ سنة ٢٥٠ هـ وهو نفس العصر الذي انفجرت فيه الممارك الصريحة بين النساك والمنكلمين ، وحقق فيه في قضية ذى النون الناسك المصرى ، ثم في قضية النورى وأبي حزة فيما بين سنتي ٢٦٢ - ٢٦٩ هـ ، ثم في قضية الحلاج في سنة ٣٠١ هـ .

لم يكن الأولون من النساك يتوقعون أن تنشب الحرب بينهم وبين الفقهاء يوما ما ، وأن يدس لهم أولئك عند الخلفاء دسا ينهى بقتل بعضهم واضطهاد البعض الآخر .

وفي الحق أنه لم يكده المتصوفون يعلنون أنهم يحاسبون القلوب والضائر ، ويفشلون بالبوطن دون الظواهر ، حتى ثارت لأثرة الفقهاء ، وهبوا يتهمونهم بالمروق عن الشريعة التي نعلن في وضوح أنها تحكم بالظواهر والله يتولى السرائر . وليس الفقهاء وحدهم الذين داوا الصوفية ، وإنما سبقهم إلى ذلك القدرية والإمامية وغيرهم من الغلاة فرموم بأنهم لا يقصدون من وراء تنسكهم إلا « الرضى » الذى يعفيهم من إجلال الأئمة الاثنى عشر ، وهذا إثم كبير .

أما المعتزلة والظاهرية ، فقد كانوا يمجدون من غير المقول الموافقة على ما تسميه الصوفية بالمشق بين الخالق والمخلوق ، لأنه نظريا يقتضى التنسبه ، وحمليا يستلزم الملامسة والحلول . وأما السنية فقد كانوا يأخذون عليهم الإفراط فى التأمل إلى حد طفياته على الأدعية الصوتية ، وكذلك ادعاؤهم وضع الروح في حالة صلة ثابتة مع الإله لعفيها من الاشتغال بمعرفة المباح والمحظور .

غير أن هذا كله لا يمنعنا من أن نقرر هنا أن المتصوفين العمليين لم يلبذوا من حظيرة الاسلام ، بل إن أهل السنة طالما اعترفوا كثيرا من تعاليمهم الاخلاقية وأدبياتهم النقية من مؤلفات أولئك المتصوفين ، ككتابتى « قوت القلوب » لأبى طالب المكي ، و « الإحياء » للغزالي (١) .

(١) الطريقت الاستاذ ماسنيون لصفحة ٧١٥ وما بعدها من المجلد الرابع من دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية .

### نشأة فكرة الاتحاد وتطورها :

لم يكبد المتشككون يأخذون بصيب من الحركة الفكرية العامة حتى أيقنوا بأن هذا الجدل الذي أشعل الفلاسفة والمتكلمون أواره قد عجز عن حل مشكلة الكون ، وأنه لا سبيل الى المعرفة إلا الزهد ونزع علائق المادة التي هي الغشاء الحائل بين عالم الأرض وعالم السماء . ولقد كانت هذه النزعة الى الضعف خليقة بأن تسخط القائلين على أمر الشريعة لنبوها عن روح الاسلام الحث على القوة والمغالبة ، ولكن ما حيلتهم ومصاحب الشريعة نفسه قد أقر الزهاد على زهدهم ، بل أمر باحترامهم ؟ فلم يسمهم إلا الانحناء لما أقره النبي ، فظلوا يجلون المتفكرين حتى زعموا الى التصوف النظري الذي ظهرت فيه فكرنا وحدة الوجود والحلول الآتيتان من فلسفتي الهنود والاسكندرانيين ، واللتان كانتا السبب الأول لكل ما نزل بالتصوفين من كوارث ، كما سنشير الى ذلك في حينه .

نشأ التصوف النظري إذاً عندهم من فكرة وجوب ملازمة العادة الخالصة ، وضرورة التحرر من نير الشهوات . وبجل ذلك أنهم أيقنوا بأن العبادة المخلصة المنحصة توجد في النفس ما يسميه المتصوفون بـ « الفوائد » وبأن علم القلوب ينشئ فيها المعرفة التي تقتضى ضرورة انسجام الإرادة مع الفيض المنوح .

وعندهم أن علم القلوب هو الذي يرمم طريق السفر نحو الإله ، ويحدد مقامات هذا الطريق وأحواله . ولا تخرج هذه المقامات وتلك الأحوال عن فضائل مكتسبة وأفضال بمنوحة . وقد اختلف المتصوفة في تحديد المقامات والأحوال ، ولكنها لا تخرج عند الجميع عن أمثال هذه المبادئ : الصبر ، التوبة ، التوكل ، الرضى .

وقاية هذا السفر عند المتصوفة هي الوصول — بعد التخلص من علائق المادة وفروايش الحس — الى الإله الحق الذي تصبو اليه الأرواح ؛ ولكن لما لم يمكنهم وضع حد لا يتناهى مع العقيدة لهذه الحالة الخاصة ، فقد لجأوا الى تعبيرات المتكلمين المعروفة في عصرهم ، فأدخل شقيق الى التصوف « التوكل » ، وأدخل ذو النون والبسطامي « الفناء » ، وابن كرام وذو النون « المعرفة » ، وأدخل الخراز « عين الجمع » ، والترمذي « الولاية » ؛ ولكنهم أساءوا استعمال هذه الكلمات كما يرى الأستاذ « ماسينيون » . وفوق ذلك فأنهم بعملهم هذا أسقطوا التنسك الاسلامي في فخ « ميتافيزيكية » المتكلمين المادية المؤسسة على نظرية « الذر » الديموكريتي المنخبط بماء ، والمقود بالمصادفة المحضة ، والتي تقتضى ضرورة وجود خلود النفس ، بل وجود روحانياتها ، والتي خلطت بين وحدة الوجود والوحدة العددية ؛ وهذا يوضح كيف أن النظريات الصوفية لم تكبد تنشأ حتى وجد فيها الاستعداد الكامل للهوى في الحلولية .

غير أنه لم يكبد القرن الرابع محل حتى كانت الفلسفة « الهيلينية » قد حملت عملها في البينات الإسلامية ، فسمح ما استحدثته في لغة العرب من تعبيرات ميتافيزيكية مضبوطة للصوفية بأن يستولوا على ما يحتاجون إليه في نظرياتهم ، فصرحوا بلامادية الروح ، وتحدثوا عن الفكر العامة والملل والمملولات وما شاكل ذلك . ولكن لما كانت هذه المفردات الميتافيزيكية مستثناة في مختلف المؤلفات الفلسفية ، وممتزجة بالمثاليات الأفلاطونية ، والانفصافات الأفلوطينية ، فقد لجأ المنصوفون إلى البحث عنها في هذه المطولات ، فتأثروا بنظرياتها أثناء بحثهم فيها . وقد ظهر هذا الأثر على الأخص في آرائهم عن الصلة الإلهية حيث انقسمت إلى ثلاثة أقسام : الأولى : « اتحادية » ابن مسرّة والفارابي وإخوان الصفاء . ومجملها انطباع العقل الفعال الذي هو الفيض الإلهي في النفس السلبية .

والثاني : « إشراقية » المهروردي الحلي ، والدواني ، وصدر الدين الشيرازي ، وهي تتلخص في مجوهر الروح .

والثالث : « وصولية » ابن سينا وابن طفيل وابن سبعين التي تقرر أن النفس بوصولها إلى الإله تدرك وجودها التام الذي لا يقلل التبدل .

أخفت هذه النظريات الثلاث تميز وتطور حتى انتهت إلى وحدة الوجود المغالية التي أطلق عليها خصومهم من أجلها اسم « الوحدانية » ، والتي سنعرض لها عند كبار الصوفية .

« يتبع »

الركنور محمد مغروب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

## العناية بالادب

قال حماد الراوية : دعاني أبو مسلم ليلاً فراعني ذلك ، فلما دخلت عليه سألني عن شعري فيه ( أوتاد ) . قلت : من قائله ؟ قال لا أدري . قلت : قائله جاهل أم إسلامي ؟ قال لا أدري . فبدر إلى وجهي شعر الأقوياء الأزدي :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهلهم سادوا  
والبيت لا يبتى إلا له صمد ولا صمد إذا لم ترس أوتاد  
فان تجمع أوتاد وأصدة يوماً فقد بلغوا الأمر الذي كادوا

فقلت : هو للأقوياء الأزدي ، وأنفذته الأبيات . فقال : صدقت ، انصرف إذا شئت . فلما خرجت لحقني رجاله يندرة من المال ، فعرضت عليهم شيئاً منه فأبوا .

# حَيَاتُ أَحِبَّائِ الْإِسْلَامِ

## أبو بكر الصديق

- ٣ -

الطوى أبو بكر على الاسلام ، لانه رأى فى مرآة آدابه حقيقة نفسه ، ولقى فى سماحته عناصر فطرته ، والطوى الاسلام على أبى بكر ، لأن شخصيته كانت صورة حية لأرفع نماجيه وأسمى معاني روحانيته ، فسيط الإيمان بلحمه ودمه ، وامتزج بروحه وعقله ، فباع الصديق نفسه لله سمحاً بها رضا ، وغدت حياته فداء لرسول الله ، ولدين الله ، وغدا ماله — وما هو بقليل المال — رفداً فى سبيل الله ، وغدا أهله وولده ووطنه قرباناً لرضا الله .

أودى رضى الله عنه حتى كادت نفسه تنلف فلم يكن له م في نفسه وحياته ، وإنما كان همه الأعظم فى مافية رسول الله وسلامته ، لأن فى سلامة الرسول وعافيته حياة الانسانية وتخليصها من عار الوثنية ، ورفع شأنها الى ما هيئت له من سيادة الوجود وتحرير الافكار عند ما تبلغ رشدنا ، فان يهلك أبو بكر فاعما هو رجل واحد من الناس يموت كما يموت الناس ، وإن يُعصَّب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعما هو الحق ، والخير ، والهدى ، والنور ، والبر والرحمة ، والمعدل ، والاحسان ، تمحى من سجل الحياة فيذوى عودها ، ويحرف ماؤها ، فاذا هى شجرة مصوَّحة فى أرض قاحلة ، لا تنمر طائفة من عواطف الخير ، ولا ينبت على أديمها إحساس من أحاسيس البر والاحسان .

هكذا كان أبو بكر يقدر حياته الى جانب حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهكذا أدرك أبو بكر مهمة رسول الله فى بعثته رحمة للوجود ، وروى الزمخشري فى كشفه : أن المشركين لما ظلموا فوق الفار أشفق أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن نصب اليوم ذهب دين الله » ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ما ظلمك باثنين الله ثالثهما ؟ » . وفى مواهب القسطلانى : أن أباً بكر لما رأى الثقافة اشتد حزنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « إن قتلنا فاعما أنا رجل واحد ، وإن قتلنا أنت هلكت الأمة » ، فعندئذ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تحزن إن الله معنا » .

ولأرباب القلوب من الأصفياء هنا كلام لطيف تأنس به الأرواح فى هروجها الى منازل التقديس ، ونهش له العقول المهيأة لتلقى أسرار الوجود ، قال العارف شمس الدين بن الهبان :

« وتأمل قول موسى عليه السلام لبني إسرائيل : « كلا إن معي ربي سيهدين » ؛ وقول نبينا صلى الله عليه وسلم للصديق : « إن الله معنا » ، فومى خص بشهود المعية ولم يتعد منه الى أتباعه ، ونبينا تعدى منه الى الصديق ، ولم يقل « معي » لأنه أمدأ بكر بنوره فشهد من المعية ، ومن ثم مرى سر السكينة على أبي بكر ، وإلا لم ثبت تحت أعباء هذا التجلي والشهود ؛ وأين معية الربوبية في قصة موسى عليه السلام من معية الإلهية في قصة نبينا صلى الله عليه وسلم ؟ »

ثم تأمل في أن نبى الله صلوات الله عليه لما رأى حزن الصديق قد اهتمد إهتماما عليه ، جذب روحه الى مسارح الأنس بشهود المعية ، وقوى قلبه ببشارة « لا تحزن إن الله معنا » ليكون الخبر من الحبيب حكاية ليقين الشهود ، وكانت تحفة « ثاني اثنين » مدخرة له دون الجميع ، فهو الثاني في الاسلام ، والثاني في بذل النفس والعمر ، لما وقى الرسول صلى الله عليه وسلم بحاله وقصه جوزى بحواراته معه في رسمه تخليدا لخليفة الصديقية ، وإلى هذه الخليفة يشير أبو محجن النقي في قوله :

وتمتعت صديقا وكل مهاجر      سواك يسمى باسمه غير منكسر  
سبقت الى الاسلام والله شاهد      وكنت جليسا بالمريش المشهر  
وبالفار إذ تمت بالفار صاحبها      وكنت رفيقا لثني المطهر

والها يشير ما يرويه أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب : أن رجلا من أبناء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في مجلس فيه القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق : والله ما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من موطن إلا وعى معه فيه ؛ فقال القاسم : يا أخى لا تخلف ، قال : هلم ، قال : بلى ، ما لا ترده ، قال الله تعالى : « ثاني اثنين إذ هما في الفار »

وقد كانت إشتاق أبي بكر رضى الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم أبلغ وأعظم مما تتصوره الأفكار ويرسمه الخيال ، ففي قصة الهجرة أن أبا بكر رضى الله عنه لما خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم متوجها الى الفار جعل طوراً يمشى أمامه ، وطورا يمشى خلفه ، وطورا عن يمينه ، وطورا عن شماله ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ما هذا يا أبا بكر ؟ » فقال : يا رسول الله أذكر الرصيد فأحب أن أكون أمامك ، وأتخوف الطلب فأحب أن أكون خلفك ، وأحفظ الطريق يميناً وشمالاً ؛ فقال عليه الصلاة والسلام ، إني ناسا وثبينا للصديق : « لا بأس عليك يا أبا بكر ، الله معنا » .

ولما وصلا الى الفار أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يدخله ، فقال له أبو بكر : والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخل فأسبره قبلك ؛ فدخل الصديق رضى الله تعالى عنه قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقية بنفسه ، فجعل ينلص بيديه جوانب الفار وزواياه في ظلمة الليل

خفاة أن يكون فيه شيء يؤذى رسول الله ، فرأى أجباعارا متعددة ، فعمد الى أبوابه يقطع منها ما يسد به الأجباعار ، وبقي جسر لم يجد له ما يسد به ، جلس قريبا منه وألقمه عقبه ، فجعلت الحيات والأفاعي تضرنه وتلسعه ، ورسول الله قد نام ووضع رأسه في حجره ، فجعلت دموعه تنحدر من شدة الألم وهو لا يتحرك ، حرصا على راحة رسول الله صلى الله عليه وسلم لثلاث يوقظه بعد ما لقي من جهد جهيد استبكي أبا بكر ، فقال : « نظرت الى قدمي رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار وقد تقطرتا دما فاستبكيك وعلقت أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن تعود الحفا والجفوة » ولكن دموع الصديق غلبته فسقطت على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « مالك يا أبا بكر ؟ » فقال : « لدغت فداك أبي وأُمي ! » فتفل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم على موضعها فذهب ما يجده . وفي خبر سرافقة بن جعشم المدلجي أنه تعرض لرسول الله وصاحبه في طريق هجرتهما ، فبكى أبو بكر ، وقال : يا رسول الله أتيتا أ فقال « كلا » قال سرافقة : فركت فرسي تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ، ساخت يدا فرسي ، فسألتها الأمان ، فأمنا ، وقال : أخف هنا .

هذه أحاديث تنطوي عليها سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة صاحبه الصديق الأعظم ، يقرؤها كثير من الناس طارئين ، دون أن يفقوا معنا وقفة البصيرة النيرة ، والفكرة النفاذة ، والمطرة الصقيية ، ليستوحوا منها دروس المبرة الصادقة ، والعظة البالغة ، والأسوة الفاضلة ، ولتكون لأنفسهم ضياء ، ولأرواحهم غذاء ، ولتكن لنا نحن هنا لا نريد أن نتمجبل انطوى ، لأن من أم أمرنا في كتابة سيرة رجال الاسلام وبناء مجده ، أن تكون دروسا لنا ولأبنائنا من طلاب العلم في معاهد الاسلام ، وإخواننا المسلمين في مشارق الارض ومغاربها ، تنمرف منها في ريث وأناة قيم العناصر التي هيأت لأولئك المباشرة تكوين شخصياتهم العظيمة ، هذا التكوين الذي كان في حقيقته قوة الاسلام القاهرة ، وممجزاته الباهرة ، وروحه التي سار بها في أرجاء الأرض فأنما وناشرا لواء العدالة والرحمة في ظل رجاله الفر الميامين .

فلنقف متأملين الى جانب هذه الأحاديث الصديقية نجتلى بعض أسرارها ليرى معنا شباب الاسلام أن أسلافنا لم يملكوا ناصية الحياة ، وقيموا بناء أعظم « إمبراطورية » عرفها التاريخ في مدى زمن هو في أعمار الأمم والممالك كالיום بل الساعة في أعمار الأفراد ، بالكلام يلقي هذا وهناك ، وإنما بنوا هذا الصرح الشايع للعظمة الاسلامية التي تطل علينا من توافذ التاريخ بالدماء في لباس الغداء والتضحية ونكر أن الذات ، والتفاني في سبيل العقيدة ، والإيمان بالحق إيماننا يجعل الحياة رخيصة إذا لم تكن قائمة على الحرية الفاضلة والعدالة السكاملة ، والاخلاص لله تعالى ، والثقة به ثقة تعمم النفوس من مزالق النفاق في صورة الذوق المستعمار والمجاملات الزائفة

أحب أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم حبا ملك عليه كل شيء ، فجاء بنفسه فداء حياة رسول الله ، وآمن به فقدر رسالته حق قدرها ، وعرف أنه رحمة مهداة للإنسانية ليخرجها من الظلمات الى النور ، فإن لم يبلغها صيحة الحق بقيت تنوء تحت أعباء الجهالة وبلادة الفكر وسوء العقيدة ، وترزح تحت أنقال الظلم والاستبداد ، فقدم حياته فداء لعقيدته وإيمانه في شخص رمز تلك العقيدة وذلك الإيمان : سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بهذا قد كتب في ديوان الحياة سفرا خالدا ، سورة وآياته عناصر الشخصية التي ينهض على يديها الاسلام ، والشخصية التي تمتاز بها الأخلاق الاسلامية ، والشخصية التي يصبو اليها الوفاء في أشرف معانيه وأرفع صوره ، والشخصية التي يحتاج اليها المصلحون والزعماء والقادة ليعملوها مثلا حافزا لضائهم فيما يطلبون من إصلاح .

فهل قرأ شباب الاسلام هذا السفر من حياة أبي بكر رضى الله عنه ؟ من قرأ فليفتحه ، ومن لم يقرأ فليرض نفسه على أن تصبح في رحلة الى مغاى الخلود على ضفاف التاريخ ، فسيمود إذا وصل ورأى إشراق الشمس في أفق الدهر شيئا آخر في رجولته وإسلاميته ، وإيمانه بنفسه وأمنته وإنسانيته ، فنحن أحوج ما نكون الى الإيمان بأنفسنا وأمتنا أمة الاسلام ، وفي الأخير الى الإيمان بأنسانيتنا ، فهل فصل ؟ هيا والى اللقاء ؟  
صادق إبراهيم صريهون

### التلطف في الاقتناع

حدث سعيد بن عبد عن نصر بن علي عن الأصمعي قال : كان معاوية يعيب على عبد الله ابن جعفر صمغ الفناء ، فأقل معاوية عاما حاجا ، فنزل المدينة فريلة بدار عبد الله بن جعفر ، فسمع عنده غناء على أوتار ، فوقف ساعة يستمع ثم مضى وهو يقول : أستغفر الله ، أستغفر الله . فلما انصرف آخر الليل مر بداره أيضا ، فإذا عبد الله قائم يصلي ، فوقف ليستمع قراءته ، فقال الحمد لله ، ثم نهض وهو يقول : خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم . فلما بلغ ابن جعفر ذلك أهد له طعاما ودعاه ، وأحضر ابن صياد المغني وقال له : إذا رأيت معاوية واضعا يده في الطعام لحرك أوتارك وغن . فلما أقبل معاوية وشرع يأكل حرك ابن صياد أوتاره وغنى بغير عدى بن زيد :

يا بني أوقدى النارا إن من تهوين قد حارا

فطرب معاوية حتى رفع يده عن الطعام وجعل يضرب برجله الأرض . فقال له عبد الله : يا أمير المؤمنين إنما هو مختار الشعر يركب عليه مختار الألحان فهل ترى به بأسا ؟ فقال معاوية : لا بأس بحكمة الشعر مع حكمة الألحان .



## الرجعية والتجديد

في الأزهر

كانت نهضة الإصلاح الاجتماعي الديني ، في مؤخرة نواحي النهضة المصرية الحديثة ، التي مضى بمجدها مؤسس الأسرة المالكة الكريمة وأعضاء بيته من بعده ، لأسباب منها اختلاف هذه النهضة عما سبقها من نهضات الإسلامية الأخرى ، كالنهضة العباسية ، في أن الدولة في العصر العباسي كانت في إبان نشاطها ، وفورة قوتها ، فنهضت ما دخل عليها من علوم الأمم الأخرى وصبغت بصبغتها العربية الإسلامية ، فأما النهضة الحاضرة ، فقد وامت الأمة وقد نهكتها ثلاثة قرون عجاف ، منذ الفتح التركي ، تركت أبناءها يساقون كالأنعام ، لا علم ، ولا حرية ، ولا رأي .

ومنها ، نمش الانتقال الاجتماعي فجأة من حال إلى حال ، وتغور الشرقيين من تقليد الغربيين ، لما ركب في طباع الأمم من التمسك بآدابها وطايرها وتقاليدها الموروثة ، ولا سيما ما كان منها متعلقا بالدين ، يقول المحاضر : « قداء المنشأ والتقليد ، داء لا يحسن علاجه جالينوس » وتعظيم الكبراء ، وتقليد الأسلاف ، وإلف دين الآباء ، والألس بما لا يعرفون غيره ، يحتاج إلى علاج شديد . وضرب الأمثال بأنبياء زرادشت في فارس ، وعبد البند في الهند ، والاسنام في الجاهلية ، مع سمو مداركهم عن ذلك ، وإنما هو الإلف والمنشأ . ومنها ، أن النهضة كانت في أول أمرها نهضة عسكرية ، ثم علمية ، ولم تشمل الدين والآداب إلا في العصر الثاني من عصورها : عصر المنفور له اسماعيل باشا وما بعده ، بخلاف نهضة سوريا ، فانها كانت نهضة دينية أدبية ، لأن المرسلين الغربيين ، هم أول من نهض فيها .



ولا ريب أن قبس الحرية الشخصية ، الذي تحملته البعث المصرية إلى أوربة ، فيما حادت به إلى مصر من علوم وآراء ، إلى شيوع العلوم الطبيعية ، وأخذ كثير من العرب والمسلمين بأسبابها ، هو منشأ ما ظهر من نهوض بعض دعاة الإصلاح السياسي والاجتماعي والديني في مصر ، فقام الأستاذ الامام محمد عبده ، بمحاول التوفيق بين الاسلام والعلوم الحديثة ، وقام قاسم أمين يطالب بتحرير المرأة ، ثم قام مصطفى كامل وغيره يدعو إلى الإصلاح السياسي . الخ . بيد أن شيوع الحرية والعلوم الطبيعية ، كان بجانب ناحيتين المصلحة ، ناحية أخرى هادئة ، وهي ترعرع النقد الحر « النقد العالي » الذي يطرح الأديان على بساط الشك ، وينقدها نقد غيرها مما ليس دينا ، ولا عقيدة ، ويعمل الحوادث كما تتجلى للعقل ، لا كما ترى الشرائع

والأديان ، وأعان على ذلك ومضى بأوقى قسط من إنجه ، شيوخ مذهب النشوء والارتقاء ، الذى أسمى فهمه ، وأخذ الكتاب والباحثون يطبقونه على جميع الأشياء ، تطبيق من لا يرى مؤثرا سواء ، ولا علة إلاه .

وكان طبيعيا أن تلتى الدعوة الى الإصلاح الدينى إنكارا ومعارضة عنيفة ، لما أسلفنا من الأسباب ؛ ولم يكن غريبا ولا عجيبا أن تستغنى الحكومة شيخ الجامع الأزهر « الأنباي » ومفتى الديار المصرية « محمد البنا » فى : « هل يجوز تعليم المسلمين العلوم الرياضية ، كالمهندسة والحساب والهيئة والطبيعات وتركيب الأجزاء ، المعبر عنها بالكيمياء ، وغيرها من سائر المعارف ؟ » . لما استجابت لدعاة الإصلاح الأزهرى ، وهزمت على إدخال العلوم الطبيعية والرياضة فى منهجه ، ولكنها خشيت عواقب مفاجئة الجمهور بهذا الإصلاح المخالف لما رسخ فى أذهانهم من تقبيح العلوم الطبيعية ، ورى المشتغلين بها بالإلحاد والكفر . فكانت فتوى الشيخ والمفتى يجوز تعليم هذه العلوم وتعلمها لنفعها فى الدين والدنيا ، تمهيدا لا بد منه ، لتشريع هذا الإصلاح ، والسير فى طريق تنفيذه . ولست أخطئ الصواب إذا ما قررت أنه كان لشخصية الامام محمد عبده ، أثر غير صغير فى معارضة الدعوة الى الإصلاح ، لما كان معروفا عنه فى المحيط الأزهرى من التدين ، وخلاط التمدنين والغريبيين ، مما كان كافيا وحده فى إساءة الظن به ، ومقابلة كل ما يجيئ به بالريبة والحذر ، فكيف وهو - مع كل أولئك - أحسن تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى ، الذى كانت جمهرة الأزهريين لا تطلعت الى تعاليمه ، ولا ترتاح الى مذاهبه فى الإصلاح ؟ ولعله لو قام بهذه الدعوة - أول أسرها - شيخ ممن توافرت الثقة به ، من كبار العلماء ، لمضى الإصلاح فى طريقه ، بخطأ أوسع مما سار بها .

ومهما يكن من شيء ، فقد اتخذ الإصلاح الدينى الأزهرى طريقه الى القلوب ، وإلى العمل ؛ وكان من المحال أن يجمد الزمن يتحرك ، حتى لو لم يتم دعاة الإصلاح بالدعوة ، لأن طبيعة الحياة تأبى ذلك الجود الجردى ، فى جسم يتحرك ، إلا لشلل يصيب ذلك الجزء ، وهو ما تنفيه علام الصحة الكاملة ، التى كانت تبدو واضحة فى أسرار الأزهر الشريف إذ ذاك ؛ والمعارضة والإنكار ، أبرز دلائل الحياة . ولئن كان نجاح الاستاذ الامام فى تطبيق الإصلاح محدودا ، إنه لم يمس لسبيله ، حتى نفثا من التلاميذ ، وجمع من الانصار من تسلموا منه لواء الدعوة ، ومضوا قدما فى سبيل الإصلاح ، يعاونهم فى ذلك روح الزمن ، وحمل الطبيعة ؛ وانتشروا فى أنحاء العالم الاسلامى ، فانبعث النور فى آثارهم ، واستقامت المعاهد العلمية على الطريق المستقيم .



لا جرم أن الامام محمد عبده ، هو إمام الدعوة الى الإصلاح الأزهرى ؛ ولا خلاف فى أنه منح فى بذر بذوره واستنبتها ، وتدريب من يتعهدا بسنده بالتنقية والإرواء والحفاظ ؛

ولا ريب في المراد نحوها وترعرعها وازدهارها ، في كل يد تملأها بعده ، لأن نحوها داخلي ذاتي مركب في طبيعتها ، غير محتاج الى العوامل الخارجية الطبيعية ، إلا بوجه ساجي ، تكفلت به طبيعة الزمن ، ونواميس العمران . ولئن بدت حركة التجديد والإصلاح لطيفة جدا ، فليس ذلك لأنها ضعيفة ، بل لأن الحركة إنما تبدو بوضوح فيما خف وصغر من الأجسام ، فأما ذلك المحيط الآخر ، فإن حركته وإن كانت أثبت وأرسخ ، هي في مرأى العين دقيقة خفية ، وأسرع عقارب الساعة حركة ، هو عقرب الثواني ؛ كما أن أثبت الخطأ ، خطوة المترث المتأني ، وقد يكون مع المستعجل الزلل . هل أن الأزهر لو أراد الحركة السريعة ما استطاعها ؛ ذلك بأن محله منوط بالمحافظة على قديم الاسلام ، فالتجديد الناقض فيه يقبل حقيقته ؛ وإنما ينجع فيه التطعيم النقائى التدريجي الذى يعمل في التقريب بين الجديد والقديم ، ويوائم بين عناصرها في أمة ورفق ، ويؤلف بين طبيعتهما تأليفا منصهما معتدلا ، فيه جلال القديم وفيه جلال الجديد ، فيه المخبر وفيه المظهر ، فيه الشكل وفيه الجوهر ؛ بخلاف غير الأزهر من المدارس المدنية ، فانها كلما اقتربت من الجديد ، كان النفع منها أكبر ، والغير منها أكثر ، لأنها إنما أنشئت على غرار الجديد ، فلنكن - إذن - جديدة في الشكل وفي الصميم . ومن أبلغ الجور على الشرق أن توحد المدرسة فيه ، على الرغم مما لتوحيدها من المزايا الجسام .



سار الأزهر في طريق التجديد على هذا النسق ، وكانت الجدة في الشكل والمظهر ، أوضح منها في الجوهر - كما قلنا - فأصبحت أما كن الدراسة على الطراز الحديث : نظيفة صحيحة نظامية ؛ وتمايزت فيه الوحدات التعليمية ؛ وفتح صدره لجميع طوائف المدوسين ، ولشكل التمايز أو جلها ؛ وأصبح رجاله ، وزملائهم الآخرون ، يتعاونون على عملية التصغير والتقريب من مقتضيات الزمن بقدر الإمكان ؛ ونمت هذه الجهود بممراتها القريبة ، فلتأ من الكاتب والخطاط والمؤرخ والخطيب والمعلم ؛ وقامت الجماعات لتيسير الأحكام في الأحوال الشخصية ، والمذاهب الدينية ؛ وارتقت البحوث اللغوية والأدبية ، وتحمر النقد الأدبي من القيود والحدود الخارجية منه ، والتي كانت تشل من حركته ، وتضعف من نشاطه ، وصارت أحدث الآراء الأدبية تناقش فيه مناقشة حرة من كل قيد ، فيقبل منها المفيد النافع ، وي طرح منها ما لا يثبت على النقد الصحيح ، دون نظر الى القائل ، ولا مزج للشخصيات ، ولا العقائد ، ولا للأديان ، بالقضايا النفسية ، والبحوث العلمية ؛ كما كان الشأن غالباً ، لأول عهد الأزهر بالنهوض . فأما الثمرة الحقيقية البعيدة ، من تجسيد كتب الدراسة وتهذيبها ، ومن إصلاح مناهج الدرس والبحث ، فتلك مرتبة ، تأتي في الترتيب بعد التطعيم ، والمضم ، كما حصل في العصر المباسي ؛ فإذا تطلبا الأزهر قبل أوانها ، جناها غضة فجأة ، ضررها أكبر من نفعها ، وشرها أكثر من خيرها ؛ وجنابتها على الثقافة والدين ، أقرب محققاً من إحسانها اليهما ؛ فلنكن هذه

الخطوة مما يؤثره الجبل المخضرم العامل ، للجيل المتعلم الناشئ ، حتى تنضج تلك الثمرة في إبانها ،  
وتجني في أوانها ، وإن كان قد أخذ في أسبابها فعلا .



أما بعد - فقد رأيت في أخريات هذا الزمان ، وبعد أن أصبحنا نحشى على الأزهر عثرات  
التجديد ، أكثر مما نحشى عليه جهود المحافظة - من يرى الأزهر بالرجعية ، وبأنه بيئة غير  
صالحة للبحوث الحديثة ، والأفكار الجديدة ، وينعى على البحوث الأزهرية تباطؤها في نشر  
ما اجتلبت من ثقافات ، وما استحدثت من آراء تماهض هذه الرجعية ، وتطاردوها ، وتلقى  
على آثارها السيئة في الأزهر الشريف . ولم تؤلئ هذه التهمة ، وإنما أثار في نفسى عوامل  
الشفقة والرأء ، لهذه الصبيحة التي تنطلق ، وقد :

سارت مشرقة ، وسرت مغربا شتان بين مشرق ومغرب !

أجل إنها صبيحة جاءت متأخرة كل المتأخرة ، ضائعة جد ضائعة ، فأين نحن من الرجعية ،  
وأين الرجعية منا ؟ لقد قطع الأزهر مراحل بعيدة المدى في التجديد والتطور ، في الفروع ،  
والأصول ، والعلوم والآداب ، وليس ينقصه الآن من نواحي البحث والدرس والنقد ، إلا  
النقد العالمى ، أى طرح الاسلام على بساط البحث ، للوصول الى محمته أو فسادة ، فهل هذا  
ما يريده رماة الأزهر بالرجعية من كتاب آخر الزمان ؟ على أن نقد المذاهب الدينية للفرق  
الاسلامية ، لا يزال يبحث ويدرس في المعاهد الأزهرية ، وهو - بلارب - نوع من  
النقد العالمى ، إلا أنه على الطريقة الاسلامية ، لا على ماسن تيوبودور الفرنسى ، في كلته المأثورة :  
« الكفر أول خطوة الى الفلسفة » .

فاذا لم يكن هذا مرادهم ( وهو خير ما تتناه ) فهل لهم أن يضموا أصابعهم على مواضع  
التقص في المناهج الأزهرية ، حتى نستدرك ما فات ، وأن يدلو لنا على النقائص التي قد أباهها الأزهر  
على طلابه وأساتذته ، فرفع هذا الحظر ، و - أخيرا - أن يمرسوا علينا نماذج للأراء الحديثة ،  
والأفكار الحديثة ، والنقائص الحديثة ، حتى نعرف مبالغها من التجديد والرق الحديث ؟ !

إننا نتنظر ذلك ، ونتطلع اليه بملء الرغبة ، ونقدم وعدا صادقا أننا سنأخذ به عن بيئة  
أو نبرجه عن بيئة ، فأما إلقاء الكلام على عواصمه ، واتهام البرهانه ، والفت في أعضاء العاملين ،  
فذلك شأن المعوقين ، وخلق المرييين ، وما أهونه في نظر المخلصين أو كم هود - بجذع الأنف -  
أن تنقح الكتب ، وتهذب أساليب الدراسة ، بيد أننا نعد من أشنع ضروب الإفلاس ،  
أن نترك ما في أيدينا من قديمنا ، قبل أن يحصل فيها ما يغنى عنها من الجديد .

فأما البقية الباقية من الرجعيين ، فما لنا نتمجل بها الزمن ؟ على أن لها وظيفة ضرورية ،  
هى تمثيل الطرف المحافظ ، حتى تترن خطا المتطرفين ، فيردون الى صفوف المعتدلين ؟

كلية اللغة العربية - عبر الجولودرمضاد

## الحسد والرقية منه

الحسد ثابت في القرآن والسنة . وقد قال ابن عباس وعبد بن كعب ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم في قوله تعالى : « وقال يا آسئ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة » : إنه خاف عليهم العين ، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة ، ومنظر وجاه ، نفثى عليهم يعقوب عليه السلام أن يصيبهم الناس بعيونهم .

وبالجملة فالمسرون المتقدمون مطبقون في تفسير الآية على هذا . وقد كان صلى الله عليه وسلم يعود الحسن والحسين فيقول : « أعيذكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة » . ويقول : « هكذا كان يعوذ أبوكم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق » . وقد روى أن عبادة بن الصامت قال : « دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول النهار فرأيتني شديد الوجع ، ثم عدت إليه آخر النهار فرأيتني معافى ، فقال : إن جبريل عليه السلام أتاني فرأني فقال « بسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، ومن كل عين وحاسد ، الله يشفيك » . وروى أن بنى جعفر بن أبي طالب كانوا غلمانا بيضا فقالت أمهم : يا رسول الله إن العين إليهم سريعة أفأسترق لهم من العين ؟ قال : نعم . وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم : « العين حق ، ولو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين » . وكان صلى الله عليه وسلم يأمر العائن أن يتوضأ ثم يفصل من وضوئه المعين الذي أصيب بالعين .

وأما الذين أنكروه كآبى على الجبائي وهو رأس من رهوس المعتزلة ، فليس معهم شبهة فصلا عن حجة .

والتحقيق في ذلك . أن الحسد تأثير روحي ، وللأرواح تأثير ليس على قانون ما تعرف من تأثيرات الأجسام ، فلا يشترط فيه اتصال ولا قرب ولا غير ذلك ولا يخفى في ذلك إلا من غلبت عليه أحكام الحمايات ونواميس الماديات ، فقد يكون التأثير نفسانيا محضا ولا يكون للجسمية دخل فيه . وقوانين النفوس البشرية مجهولة لأكثر الناس . وليس يخفى عليك أن الإنسان إذا تصور كون فلان مؤذيا له ، حمل في قلبه غضب فيفسخ مزاجه جدا . فبدأ تلك السخونة ليس إلا ذلك التصور النفساني ؛ ومبدأ الحركات البدنية ليس إلا التصورات العسائية . فما المانع إذا من كون بعض النفوس تؤثر في غيرها ، والتجارب من الزمن الأقدم تشهد لذلك وتنطق به ؟ وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما سحره لبيد بن الأعصم اليهودي فأحدث به بعض الأذى في بدنه ( لا في عقله ونفسه ) عندما جرى له بتلك العقدة التي عقدها لبيد المذكور كان يقرأ عليها المعوذتين ، فكلمها قرأ آية انحلت عقدة ، فقام كأنما نفض

من مقال . وروى الترمذى عن ابن أبى خزيمة عن أبيه قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله : أرايت رقى نسترقى بها ، ودواء نسدأوى به ، وتقاة نتقى بها : هل ترد من قدر الله شيئا ؟ قال : هي من قدر الله » . قال الترمذى : هذا حديث حسن .

وأما الرقى والتعاويذ فقد اتفق الاجماع على جوازها إذا كانت بآيات من القرآن ، أو كانت واردة فى الحديث . وبطل على صحة ذلك أن جبريل رقى النبي صلى الله عليه وسلم كما قلنا . وعن حوف بن مالك رضى الله عنه قال : « كنا نرقى فى الجاهلية ، فقلنا يا رسول الله كيف ترى فى ذلك ؟ فقال : « امضوا على رقاكم » ، ثم قال : « لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك » . رواه مسلم وأبو داود . وعن حابر رضى الله عنه قال : « لدفت رجلا منا عقرب ونحن مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال رجل : يا رسول الله أرقى ؟ قال : من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل » . وعن أنس رضى الله عنه قال : « رخص لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الرقية من العين والحمة (١) والنملة (٢) » . رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى . وقد رقى أبو سعيد سيد الحلى الذى الذى زلوا به بعامة الكتاب ثم أخبروا النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « وما يدريك أنها رقية ؟ » الى آخر ما جاء فى الحديث ، وهو صحيح لا مطعن فيه .

ولا بأس أن نذكر لك من تلك الرقى التى كانوا يرقون بها فى الجاهلية وأقرها صلى الله عليه وسلم ولم ينه عنها : « العروس تحتفل وتكتحل ، وكل شيء تفعل ، غير ألا تمصى الرجل » . وأما من أسكر الحسد وتأثير النفوس من التفرق الضالة فردود عاياه ولا يلتفت اليه . وإن من العلم ما يكون وبالا على صاحبه ، فانه يفتح له باب التناويل فيضل صلا لا بعيدا ، وإنما الهدى هدى الله .

وقد قال بعضهم فى بيان سر تأثير الحسد : إن اهتمام الحاسد بالمحسود يوجب توجيه نظر الحاسد اليه والتمعات نفسه له على وجه الغضب ، ونفس الحاسد حينئذ تتكيف بكيفية خبيثة تؤثر فى المحسود بسبب ضعفه وقوة نفس الحاسد شرا قد يصل الى حد الإهلاك ؛ ورب حاسد يؤذى بنظره .

أسأل الله أن يقينا شر للشريرين ، ويحفظنا من الرايين الموفقين بحمده وكرمه .

يوسف الدجوى

عضو جماعة كبار العلماء

(١) الحمة : سم القرب . (٢) النملة : قروح تظهر فى الجنب ، فكانت لسان العرب ترقبها بذلك الكتاب مرآت صياحا ومرآت مسا .

## بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتْوَى

### صلاة الظهر بعد الجمعة

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :

١ — ما قولكم زادكم الله علما ونورا في صلاة الظهر بعد تأدية فريضة الجمعة، وهل هي واجبة أم مستحبة أم بدعة ؟

٢ — هل للامام الشافعي رضى الله عنه فيها قول ؟ وما هي حجته ؟

سيد على

رئيس جمعية التعاون على البر الاسلامي

### الجواب :

ورد عن الشافعي أنه قال : « لا تقام في البلد إلا جمعة واحدة مهما كبر البلد واتسع » . وقد تمسك بظاهر هذا النص بعض أصحابه ، فتمنعوا تعدد الجمعة ولو دعت اليه حاجة ( كأن يكون البلد كبيرا ) ، ورأوا أنها إذا تعددت كانت الجمعة الصحيحة هي السابقة ، وأنه يجب صلاة الظهر على أصحاب الجمعة المتأخرة .

ويرى الحنفية في معتمد المذهب أن الجمعة يصح أداؤها في أماكن متعددة من المصير الواحد لحاجة ولغير حاجة . وعليه إذا أدبت جعتان أو أكثر في بلد واحد صح الجميع ولا يجب صلاة الظهر على أحد منهم .

ويرى المالكية والحنابلة وجهور الشافعية أنه لا يجوز تعدد الجمعة في البلد الواحد إلا إذا دعت الى ذلك حاجة ، فإذا تعددت الجمعة لحاجة صححت الجمعة للجميع ، ولا يجب صلاة الظهر على واحد منهم حينئذ .

وأما إذا تعددت لغير حاجة فمالكية يرون أن الجمعة للصحيحة هي التي أدبت في المسجد الذي أقيمت فيه أول جمعة في هذا البلد ، والشافعية والحنابلة يرون أن الجمعة الصحيحة هي السابقة ، ويرى هؤلاء جميعا في هذه الحالة أنه يجب صلاة الظهر على من لم تصح جمعة .

ومن هنا يتبين أن الحنفية يرون عدم وجوب صلاة الظهر بعد صلاة الجمعة ، واحدة كانت أم متعددة .

وأن جمهور الفقهاء يرون في معتمد مذاهبهم صحة الجمعة إذا تعددت الحاجة . ولا شك أن البلاد التي تقام فيها الجمع الآن تتحقق فيها الحاجة الماسة الى ذلك التعدد . وعلى ذلك تكون الجمعة فيها صحيحة ، ولا تجب فيها صلاة الظهر ، بل لا تندب إلا على بعض الآراء خروجا عن الخلاف .  
والجنة ترى أن صلاة الظهر بعد صلاة الجمعة من المسائل التي توسع فيها الفقه الإسلامي ، فلا ينبغي للمسلمين أن يتخذوا منها مثارا للجدل والخلف الذي يفرق الجماعة ويجعل المسلمين في دين الله وعبادته شيعا وأحزابا : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء » . والله أعلم ؟

### في الميراث

وجاء الى اللجنة أيضا الاستفتاء الآتي :

توفيت هانم بنت سوريال بن عماد الله القبطية مما يأتي :

١ — هيلانه سمعان خالتها الشقيقة ، وفي الوقت نفسه بنت عم أبيها .

٢ — باقى نكله سمعان ابن خالها الشقيق ، وفي الوقت نفسه ابن ابن عم أبيها .

والمراد ببيان : هل الميراث كله لباقي نكله ابن خال المتوفاة بوصف أنه العاصب لأنه ابن ابن عم أبيها ، أو تكون المسألة من باب توريث ذوى الأرحام ؟ وما نصيب كل منهما على هذا ، مع صراحة وصف القرابة من الجانبين لكل منهما ؟

بشارة فرج الشطاوى

بقليوب — البلد

### الجواب :

الميراث كله للعاصب ، ولا شيء فيه للخالة التي هي بنت عم أبي المتوفاة لأنها من ذوى الأرحام ، والعاصب مقدم على ذوى الأرحام في الميراث . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد هبة اللطيف القمام



## مَجْلَدٌ فِي الْمَسَائِدِ الْفَنَائِيَّةِ

### تاريخ الفقه الإسلامي في مصر

- ١٠ -

الشافعي

لم يتأثر الشافعي بمصر ، وإنما تأثرت مصر به .

- لا يكون الفقيه متأثراً بغيره من الأشخاص أو البيئات إلا في حالة من أربع حالات :
- ( ١ ) أن يرجع عن أصل من أصوله التي كان يبني عليها ، كأن يكون ممن يقدمون خبر الواحد على القياس ، ثم يصبح من الذين يقدمون القياس على خبر الواحد .
- ( ٢ ) ألا يرجع عن أصل من أصول مذهبه ، ولكن يختلف فهمه في تطبيق بعض الأصول ، فيفتي في مسائلين متضابتين برأيتين مختلفتين مع اتفاق الظروف فيهما ، فيعتبر ذلك تمديلاً في التطبيق لا في الأصل .
- ( ٣ ) أن يحكم بحكم عام لا يختصه بمخصص ، ثم تعرض له حالة من الحالات لم يكن يتوقعها ، فيدعوه ذلك إلى أن يختص ذلك المموم .
- ( ٤ ) أن يتأثر في مجموعة ثقافته وميوله ببيئة من البيئات تأثراً يجعله يستحسن ما لم يكن يستحسن ، أو يكره ما لم يكن يكره .
- تلك هي الحالات التي يسوغ معها للباحث أن يحكم بأن فقيهاً ما تأثر بغيره من الأشخاص أو البيئات .

فهل ما ذكره الأستاذ الفاضل أحمد بك أمين من الامثلة يعود إلى حالة من هذه الحالات ؟ فلننظر في ذلك .

#### المثال الأول :

كان أول هذه الامثلة : أن الشافعي فيما كتبه عن الوقف كان إذا أراد أن يمثل بصيغة وقفية مثل تلك بوقف بيت في القسطة من مصر .

ولست أدري : كيف يصلح هذا المثال دليلا على التأثير الفقهي ، وإنما هو مثال حاف أوحى به ظروف المكان ، فرأى أن يمثل به لتلاميذه ، ولم يفهم منه تلاميذه قطعا أن الحكم خاص بهذا البيت أو غيره من بيوت القسطنطين .

فإذا كان الأستاذ يرى أن الشافعي تأثر بهذا الطرف المسكاني فظهر ذلك فيما جرى على لسانه من مثال ، فنحن لا ننكر هذا النحو من التأثير ، ولكن الذي ننكره هو أن يعد هذا التأثير السطحي تأثرا في الاتجاه الفقهي ، والنظر العلمي ؛ فليس هذا النوع من التنبيل يرجع إلى صميم المسألة الفقهية ، وقد يصلح شاهدا يستأنس به الباحث على أن الشافعي كان يميل هذا الفصل في القسطنطين مثلا .

#### المثال الثاني :

يقول الأستاذ : إن الشافعي كان يتكلم في الطين الأرمني والطين الذي يقال له طين البحيرة ويقارن بين أولهما وطين رآه في الحجاز .

ولا شك أن هذا أيضا لا شأن له بالتأثير الفقهي ، فن الواضح أن أحدهما لو تكلم في المياه المعدنية في أوروبا ، وقارن بينها وبين مياه حاران مثلا ، لما صح أن يقال إنه قد تأثر في أفكاره بأوروبا .

فإذا كان الأستاذ يريد أن يقول إن الشافعي أعطى الطين الأرمني حكما لم يكن قد أعطاه للطين الحجازي ، فليس هذا عدولا عن حكم قديم إلى حكم آخر جديد ؛ وإنما هما نوعان من الطين عرف أحدهما فأعطاه حكمه ، ثم عرف الآخر فأعطاه حكمه ؛ ولو وصف له الطين الأرمني وهو في الحجاز لأعطاه نفس الحكم الذي أعطاه إياه وهو في مصر .

#### المثال الثالث :

كان الشافعي يتكلم في القرامطيس «وهي مصرية» ويبين متى يجوز أن تسلف ومتى لا يجوز . وهذا أيضا لا يعد اختلافا في مذهب الشافعي ورجوعا عن قديم إلى جديد ، لأن القرامطيس لم تكن معروفة له من قبل ، ولم يكن له رأي سابق فيها ، ولا دخل لمصر في حديثه عنها إلا أنها أتاحت له موضوعا جديدا يبحث فيه ويطبّق فقهه عليه ، فهذا الموضوع هو الذي تأثر بفقه الشافعي لأنه اكتسب منه حكما فقهيا ، ولقد كان الشافعي وهو في مصر يأبى أن يعطي الأوراق التي كان يتعامل بها المصريون حكم المقد ، فلما كان متأثرا بمصر لما أتى ذلك .

#### المثال الرابع :

كان الشافعي يتكلم في الشعراء ومن تجوز شهادته منهم ومن لا تجوز ، فيستعمل فيما يظهر « هكذا يقول الأستاذ » من حال الشعراء في مصر .

والاستاذ - فبا يظهر - غير مطمئن الى هذا المثال كما يبدو من تعبيره ، وحق له ألا يطمئن اليه ، فان الشعراء في بيئة الشافعي الاولى كانوا أكثر منهم في مصر ، والفقهاء والقضاة وأهل العلم عامة كانوا ينظرون إليهم نظرة تنفق مع قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واديه يميّون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا واتقوا من بعد ما ظفروا » .

ولست أدري أصح عن الشافعي أم لم يصح قوله .

ولولا الشعر بالعلماء يزدري لكنت اليوم أشعر من لبيد !

ولكنه على كل حال يصور بعض الذي كان بدور بنفوس العلماء من الشعراء يومئذ . فاذا كان الشافعي يتحدث من تجاوز شهادته منهم ومن لا تجاوز شهادته ، فليس ذلك بمحدث جديد يستمل فيه من حال الشعراء المصريين خاصة ، وإنما يكون جديدا لو كان في القديم يحيز شهادة الشعراء إطلاقا أو بمنعها باطلاق ثم رجع عن ذلك أو غيّر في بعض تفاصيله .

هذه هي الأمثلة التي أوردها الاستاذ ، ولست أدري إن كان لديه أمثلة غيرها لم يذكرها في كتابه أولا . ولكن هذه الأمثلة التي ذكرها لا تنهض دليلا على تأثير الشافعي في فقه مصر ، فليس فيها رجوع عن أصل عام كان يجري عليه ، وليس فيها اختلاف في التطبيق الفقهي يرجع الى تغير في الفهم ، وليس فيها رجوع عن حكم عام ، وليس فيها تأثير بالبيئة الخاصة ببنى عليه كراهة أو استحسانا .

ومن الغريب أن هذا الباحث العاقل بينما يستدل في كتابه ونفى الاسلام ، بهذه الأمثلة على تأثير الشافعي بمصر ، تراء في كتابه « فجر الاسلام » ينقد نظرية لابن خلدون يقرر فيها أن مدينة البلد التي نشأ فيه الامام أو بداوته لها أثر خاص في تكوين مذهبه ، فيقرر بأن هذه النظرية واضحة في بعض الخلافات المذهبية ، ثم يقول :

« والظاهر أن هذا المنزع ، أعني تقرير الإمامة للظروف التي تحيط به ، وتأثيرها في آرائه إنما يكون حيث لا يصح نص عند الامام ، فاذا صح فلم يكن لهذه الظروف أثر في تكوين رأيه ، ودليلا على ذلك مثلا ما نرى من أن مذهب أبي حنيفة اعتبار الكفاءة في الزواج نسبا ، فقرش عنده أ كفاء ليمض ، وليس سائر العرب أ كفاء لقرش ، والموالي ليسوا بكفاء للعرب . مع أن الامام مالكا يقول : لا تعتبر الكفاءة إلا في الدين لأنه صح عنده قوله عليه الصلاة والسلام : « الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على عجمي » ، إنما الفصل بالتقوى » . ولو كانت المسألة لتقدير الظروف فقط لانعكس المذهبان (١) .

وهذا نقد جيد من الأستاذ أحمد بك أمين ، ما كان أجدره بأن يطبقه على نظريته عن الشافعى ليعلم أنه لم يتأثر بمصر في فقهه ، وإن كان قد تأثر بها في أمثلته أو موضوعات مسأله أحيانا !



بقى علينا بمد هذا أن نشرح رأينا الذى نراه من أن الشافعى هو الذى أثر في مصر ، وهذا التأثير له مظاهر ترجع الى ما يلى :

(١) كان المصريون قبل الشافعى فريقين : فريق يرى مذهب الحنفية ، وفريق يمتنق مذهب المالكية ، ثم كادوا يجمعون على مذهب المالكية ، لأنه مذهب أهل المدينة ، ولأن الناس - كما يقول الليث بن سعد فقيه مصر - « تبع لأهل المدينة التى إليها كات الهجرة ، وبها نزل القرآن » ، فلما جاء الشافعى اجتمع له المصريون ، واتصل به بعض فقهاء المالكية وأخذوا عنه ، حتى أُلِمَ ذلك بعض كبار المصريين ، فغسوا على الشافعى هذا النجاح ، وجعلوا يكيّدون له ويدبرون لايذائه . وقد روى ابن خلكان والكندى شيئا من ذلك ، وروى ياقوت أن هذا قد انتهى بالاعتداء على الشافعى وهو في حلقة العملية اعتداء حمل معه الى مرمله عليلا ولم يزل به حتى مات (١) .

(٢) توفي الليث بن سعد قبيل قدوم الشافعى الى مصر ، وكان الليث في مصر منزلة سامية ، ورأى مشهور ، فكان من هوامل ضياع مذهب الليث ، وانقراضه بين المصريين ما شغلهم به الشافعى من حضوره إليهم نفسه وقطاعه عن آرائه ، فكان أصحاب الليث رأوا فيه عوضا عن فقيدهم ، ولأمر ما قال الشافعى في الليث : « هو أفقه من مالك ، ولكن أصحابه ضيعوه » .

(٣) أركى الشافعى بين المصريين روح المناقشة والمناظرة والجدال ولم يكونوا من قبل يعرفون المناظرات الفقهية ، ومما يدل على ذلك ما رواه صاحب تاريخ بغداد من مناظرة الشافعى مع ابراهيم بن اسماعيل المعروف بابن عليه في تثبيت خبر الواحد مما أدى الى أن يضع ابن عليه وعيسى بن أبان كتابا من الشافعى والرد عليه ، والى أن يضع داود بن علي الأصمبغاني ردا عليهما (٢) .

(٤) انتشر مذهب الشافعى في مصر انتشارا عظيما بهمة أصحابه ، ومحسن استقبال القبائل العربية النازحة من بلاد العرب الى مصر إياه ، ولأمر ما نرى المذهب الشافعى سائدا في كثير من الأقاليم التى ينزع سكانها الى الأصل العربى كالأقاليم الشرقية مثلا .

(١) مجمع الادب ج ٦ ص ٣٩٥ .

(٢) انظر كتاب « فى الادب المصرى الاسلامى » للأستاذ محمد كامل حسين ص ٥٤ .

(٥) ظلت آثار الشافعي في مصر بعد وفاته ، حتى اشتدت المنافسة بين أصحاب مالك والشافعي ، وانخفضت شكلا غنية بات يخشى معه على الأمن والنظام ، فقد جاء في كتاب « المغرب في أخبار المغرب » قوله : « وفي سنة ٣٢٦ هـ عاد أصحاب مالك والشافعي الى القتال في المسجد الجامع المتين ، وكان في الجامع للمالكيين خمس عشرة حلقة ، وللشافعية مثلها ، ولاصحاب أبي حنيفة ثلاث حلقة ، فلما زاد قتالهم أرسل الاخشيدي ونزع حصرهم ومساندم وأغلق الجامع . وكان يفتح في أوقات الصلوات ، ثم سئل الاخشيدي فيهم مردم ، ( ص ٢٤ ج ٤ من المغرب ) .

تلك بعض الآثار التي أثرها الشافعي في مصر ، فلم يلب ذلك أن يكون قد وضعت المسألة في وضعا صحيح . وإنما غنيت بمناقشة نظرية الأستاذ أحمد بك أمين وتبيين ما فيها لأمرين : أحدهما : أنني على كثرة ما بحثت لم أفر على مسألة من المسائل الفقهية التي يظهر بها حلها كيف تأثر الشافعي بمصر ، وقد استعنت بكثير من فضلاء الشافعية في الأزهر ، فلم أجد أحدا منهم يؤيد هذه الفكرة أو يذكر مثالا واحدا مما مر به يشجع على القول بها . والثاني : أنني رأيت هذه الفكرة مقتبسة بنصها في كتاب « تاريخ التشريع الاسلامي » الذي يدرسه الطلاب في كلية الشريعة ، فلم أر بدا من التنبيه الى وجوه الخطأ فيها ، رعاية لحق الطلاب على .

ولست مع هذا بمجاهد فضل الأستاذ العلامة أحمد بك أمين ، فان بحوثه العلمية الهادئة أمثلة شاهدات على فضله ونبوغه . « يتبع »  
 محمد محمد المرنى  
 المدرس بكلية الشريعة

### من كلام عمر بن عبد العزيز

من ذلك ما كتبه الى عدي بن أرطاة عامله على العراق : « إذا أمكنك القدوة على الخلق فادكر قدرة الخالق القادر عليك . واعلم أن ما لك عند الله أكثر مما لك عند الناس » .  
 وكتب الى عماله : « مروا من كان قبلكم فلا يبقى أحد من أحرارهم ولا ممالئكم صغيرا ولا كبيرا ذكرا ولا أنثى إلا أخرج عنه صدقة فطر رمضان : لمدئين من قمح ، أو صاعا من تمر أو قيمة ذلك نصف درهم . فأما أهل المطء فبوخذ ذلك من أعطياتهم من أنفسهم ومالائهم ، واستعملوا على ذلك رجلين من أهل الأمانة يقبضان ما اجتمع من ذلك ثم يقسمانه في مسكنة أهل الحاضرة ، ولا يقسم على أهل البادية » .

## دراسة البحث العلمي متون

### نشأة الحياة الاقتصادية عند العرب

لقد كانت البيئة العربية قبل الاسلام بسيطة التركب تتكون من بدو رحل لا تربطهم بالأرض وشيعة قوية لكثرة تنقلهم سعيا وراء منابت العشب ومساقط المياه ، وأخيراً استقرت في مدن أشهرها مكة حول البيت الذي بناه ابراهيم عليه السلام ، فكان يفتد اليهم رجال القبائل حاحين مزودين بخيرات من عسدم يقدمونها قرايين وصدقات ، وأدى كثرة تنقلهم في أنحاء الجزيرة الى تنمية روح المجازفة عندم ، وضرورة التجارة بينهم ، وكانت مكة محطاً تتجه اليه حركاتهم لمسكاتها المقدسة من الكعبة ، وكانوا قد ملاوها أصناماً لكل قبيلة صنم يقطعون الميافى ليحجوا اليه ، حتى إذا قضوا مناسكهم طجوا على مكان قريب من المدينة يضربون به خيامهم ، ويعرضون فيه سلعمهم .

في ذلك الزمان كان للرومان مدينة مزدهرة في شمال الجزيرة العربي ، ولفرس أخرى في شرقها ، وللاحباش حضارة في جنوبها الغربي ، وتولدت في تلك الشعوب الحاجة الى التبادل التجاري ، ولم يكن النقل في البحر مأموناً ، فكانوا ينقلون بضائعهم عبر الجزيرة ، وتتيخ قوافلهم في المدن الكبيرة ليتزودوا منها لسفرهم ، وكانوا يحملون من منتجات البلاد العربية معهم ، فنشأت عن ذلك حركة تجارية في بلاد العرب كانت مورد رزق لكثير من المدائن التي انتشرت على طول خط سير القوافل في الشرق والغرب .

وكان عرب اليمن يأتون معهم بالمبيد من الحبشة وسواحل أفريقيا الشرقية وبيعونهم في الاسواق ، فيشتريهم ثروة القوم من التجار والزارعين ، ليحملوا لهم بضائعهم ، أو ليعلموا لهم حقولهم وبساتينهم ، واعتمدوا عليهم في ذلك اعتماداً جمل للاسترقاق قيمة كبيرة في الكيان الاقتصادي للبلاد العربية . وانصرف القوم من أغنياء العرب وساداتهم الى اللهم والكلام ، وتمطت مواهبهم العملية ، فلم تعرف لديهم مهنة ولا حرف غير التجارة والزراعة . فكان أطباؤهم الشيوخ الذين اشتهروا بالكهانة والعرافة ، وكان علاجهم الكي والحجامة ، وكان صناعتهم سقل السيوف ، وعلماءهم العارفين بالاسباب وقائمة الآثار . فتجارة العرب لم تكن منظمة ولا على أساس كغيرها في البلاد المجاورة لها مع أهميتها ، فهي من ذلك النوع المعروف

الآن بتجارة الترانسيت والتي تحيى منه انجلترا ومصر أموالا طائلة . ذلك لأنه لم يكن عند العرب نظم مالية ، ولا ضرائب مفروضة ، ولا حواجز مشروطة ، وكان التبادل بينهم وبين غيرهم يقوم على أساس مساومة ساذجة يعود منها السوري واليهودي والفارسي بنصيب الأسد ، وكانوا إذا تعاقدوا فبالكلام ، وإذا تذاينوا فبالضمان .

ولما تولدت في العرب الحاجة الى الاتجار في تلك البقاع ، رتبوا تجارتهم في رحلتين : رحلة في الشتاء الى اليمن ، ورحلة في الصيف الى الشام ، وبدأت تسير قوافلهم بانتظام في تلك الرحلات الموسمية تنقل حاصلات الحجاز وما جاوره وتعود محملة بسلع الشام واليمن ، وقد برع بعضهم في فنون المساومة ، فكانوا يستأجرونهم في الاتجار في عروضهم وأموالهم . وقد جلبوا معهم ضمن ما كانوا يستوردونه من اليمن والشام بذور فواكه وخضروات لاقت في جو الطائف مئبنا خصبا ، فأثمرت وآتت أكلها . وازدهرت الزراعة في تلك الجهات ، فزاد فيها عدد السكان لاطمئنانهم فيها الى رزق مستديم ؛ كما أن كثيرين من اليهود الذين اضطروا اضطهاد الروم في الشام والأحباش في اليمن الى المهاجرة ، نزحوا الى بلاد العرب واستقروا بجوار يثرب ، بعد أن حالت عصيبة المجوسية في فارس من دخولهم أرضها ، أو أنهم اختاروا ذلك المكان لأن كتابهم يبشّرهم برسول منتظر يخرج من جزيرة العرب .

وقد استعمروا تلك الجهة وزرعوها ، وبذلك أصبح في جزيرة العرب جهات زراعية تبدو عليها آثار السعة والغنى ، فشيدت بها بيوت ، وغرست حدائق ، وأقبل العرب فيها على الترف وامتلاك العبيد والجوارى وتمدد الزوجات ، بينما تضرب قبائل أخرى خيامهم على مقربة منهم تحت رحمة الرياح ، إن اشتدت حلفتها وشنت سكانها ، وإن ترفقت أبقتها وتركزت أهلها يرعون إبلامهم ، ويجمعون الكفاف لسد رمقتهم . لذلك كانوا يتحينون الفرص لاسطو على القرى والقوافل ، خصوصا أنه لم يكن هناك سلطة تنفيذية ، ولا هيئة مسؤولة تبطن بالمعتدين منهم .

وكان المجتمع العربي في المدن مؤلفا من كبار الملاك الرعاة والزارعين ، وأصحاب المروض والتجارة ، وطبقة الرقيق المسييين من بلاد متمدنة ، وقد أدى هؤلاء خدمات جليلة في نواح اقتصادية كثيرة بما نقلوه من النظم المنبعة في بلادهم ، فنهضوا بالزراعة ، ونظموا عرض السلع في الأسواق ، وحذقوا بعض الصناعات الأولية ، كتنجيف البلع وصناعة الرحي لدش الشعير ، وإنما كان يقوم بها الرقيق لاحتقار العرب للصناعة ، لأن خلق العربي وزمنه الى الكلام والحرية ، وأثر حالة الرعي التي تقتضى دوام التنقل في الفضاء في تكوينه الاجتماعي ، يجعل من الصعب عليه أن يجلس نفسه أمام قطعة يصنمها أو داخل مصنع ضيق وطبيعة إقليمهم القحل الصحراوي وعدم توفر المواد الأولية به لا يدعو الى قيام صناعات فيه ؛ لذلك لم يتجه تفكيرهم الى النواحي العملية اتجاهاه ناحية نظم القوافل .

وقد اشتهر من بين العرب قريش في الحجاز وأهل تهامة ، وثقيف في الطائف ، والتبابعة باليمن أمام الحبشة ، والمناذرة على مقربة من المعجم ، والغساسنة على حدود سورية . وقد غلبت مدنيتا الحبش والمعجم والروم على الثلاث الجهات الأخيرة ، فقامت بها نهضات زراعية وصناعية كانت تزدهر حينما فتتقدم فيها فنون هندسة الزراعة والعمارة ، كما يدلنا على ذلك إقامة سد مارب في اليمن لحجز مياه الأمطار لتنظيم رى الأراضى الزراعية ، وتدهور أحيانا لتصادم المطامع والمنازعات السياسية والدينية ، أو نتيجة ما أصاب المسيحية والمجوسية من الضعف والانهلال .

إلا أننا نعتقد أن الأفراد من أهالي تلك الجهات قد عنوا بالمسائل المالية الناتجة من مزاوله التجارة والزراعة وغيرها ، ولابد أن يكونوا في حدود مصالحهم الشخصية قد صموا على تنمية ثروتهم . كان ذلك حنا ، وإنما كان يجرى بطرق فردية لا رابط بينها ، فلم تكن هناك سياسة مرسومة للقبيلة ، إنما كانوا يقلدون الأمم المجاورة فيما ابتدعه أفرادها لأنفسهم من نظم .

وكانت قريش تعيش من سقاية الحاج وسدانة الكعبة ، ورعى المواشى ، والانحجار في البصائع الواردة ؛ وكل هذه أشياء تزيد أو تنقص حسب الظروف ، ولكنهم لم يعبأوا بذلك بل كانوا مسرفين مترفين ، فلم يدخروا لمستقبلهم . وربما كان يرجع ذلك الى أن ثقافات معيشة العربى قليلة ، فطعامه كان الشعير أو البلع أو اللحم ، ولبن شاة أو بعير ، وهذا متوفر في الصحراوات ، وكان سكنه في بيوت صغيرة أو خيام ، فلم يفكر في تحسين مستوى معيشته لقصوره في النواحي الصناعية والعلمية ، حتى إنهم عجزوا عندما أرادوا إصلاح الكعبة عن القيام بأعمال التجارة الأولية فاستدعوا تجارا من مصر . كما أن صفاتهم التي اشتهروا بها كالمبالغة في السكرم والحساسة وكثرة الحروب والانفاس في القهوس سببت إصرافهم وضياع أموالهم ، مع العلم بأن وجود الادخار ورءوس الأموال من أهم الشروط الضرورية لبناء الدول .

إلا أن وجود الكعبة جعل أفئدة من الناس تهوى الى الحجاز من جميع البقاع العربية ، وتنظر الى قريش باكبار واحترام ، إذ هم خدمها وسدنتها ، فذاع بذلك سيئتهم ، وذر عليهم أموالا كثيرة في مواسم الحج ، كما أنه أثار الحقد والغيرة في قلوب أهل اليمن ، فطعم ملكهم في انتزاع مكانة قريش ومحويل تلك الأموال الى اليمن ، فبنى بيتا وأثنه بأغزر الأثاث ، وجهز جيشا مزودا بالمعدد اللازمة لهدم الكعبة ، وسار لتنفيذ عزمه .

وكان لتلك الغزوة آثار بيضاء ، فإنه ما كاد يتحرك الجيش ويعلم الناس بفرضه حتى زلزلوا وهالهم الأمر ، وأرادت بعض القبائل صده فمحرت وأسر رؤساؤها حتى وصل الجيش الى الطائف ، فغشى أهله على زراعتهم وأسرع بعضهم الى قائده يخبرونه أن البيت الذى يقصده ليس بحبيهم ، وساروا معه يرشدونه الى مكانه ، فلما اقترب من مكة دها قريشا كرب عظيم . فلما أباهم



القائد أنه أتى لهدم الكعبة فإن خلوا سبيله دونها لم يتعرض لأحد منهم بسوء ، حرص عبد المطلب شيخ قريش على طلب إبله التي أخذها الجيش وترك حماية البيت لربه .

وتدلى تلك الظاهرة على مبلغ اختلال النظام القبلي وقلة استعداده وعجزه عن صد قوى دولة منظمة قد رتبت شئونها وطمعت في بسط سيادتها على غيرها . فأهل الطوائف يخشون على زراعتهم ويرشدون الجيش إلى البيت ليمعدوه عنهم ، ويتركونه يهدم الكعبة وفيها رمز وجودهم ، وقريش ينغلون عنها وهم يكون عليها لضعفهم وقلة حيلتهم وهي مورد رزقهم وسبب شهرتهم وفيها آلهتهم وعبادتهم . وفي خشية أهل الطوائف على بسايتهم وحرص قريش على أموالهم دليل على نمو الفكرة المادية عندهم .

وفعلت تلك الغزوة بمد أن قضى الله على هذا الجيش ، فزاد إكبار الناس لمكة واعتقاد العرب في الكعبة وتقديسهم لها وتشوقهم للحج إليها ، وبذلك زاد دخل قريش وعلت مكانتهم ، ولكنهم احتفظوا بنظام القبيلة ، وزاد ترف سادتهم وأغنيائهم ، وعاشوا حياة معطلة كلها طو وعجوز واستتار ، ولم يمتدوا لصالح الجماعة وتنظيمها ، بل استمر المجتمع العربي قائما على غير أساس ثابت كالنبت ينمو على حافة الأنهار من تلقاء نفسه بغير ترتيب ، ويرجع ذلك إلى جهلهم وركودهم العلمي .

وكما هو الحال في كل بيئة ضعيفة جاهلة ، انتشر البغاء بين العرب لكثرة ما كان يجلبه تجار الرقيق الأبيض والخمر من فتيات الروم وبنيد الشام المنعق الذي أولعوا به وأدمنوا تعاطيه ، وأدبرت في أحبابهم بيوت الدمار ، وراجت بينهم سوق الفساد ، وفي طبع العربي الإسراف . ثم إن هذه الظاهرة نفسها أخرجت الكثيرين منهم إلى التدخين ، وأدى ذلك إلى تفشي الربا الفاحش ، كما دعا إلى تجمع الثروة في أيدي نفر قليل أغلبهم أجانب عن العرب ، حتى قلت ثروة المجموعة ، وزاد انحطاط مستوى معيشة القوم .

وهكذا استمروا على تلك الحالة ، لم تؤثر فيهم غزوة الفيل ، ولم ينقموا للكيان الدولي الذي كان يمثل جيش أبرهة ، بل عادوا إلى حياتهم الأولى ، حياة النزاع والنضال ، والحسد والبغضاء ، فكانت حرب التجار ، ودارت رحى حرب بين الأوس والخزرج . لذلك لم يكن هذا المجتمع يعيش بقيام دولة موحدة ، تحت لواء حاكم واحد ، وفي كنف نظام سياسي ومالي عام .

وهكذا بقي العرب مفككي الاوصال في حالة فوضى اجتماعية حتى بعث النبي الأمي عليه الصلاة والسلام ، فجاء بالمعزة الاجتماعية الكبرى ، وسن الآلة التشريعية الخالدة ، ووضع الأسس الاقتصادية المحكمة ، التي تضمن للناس سعادتهم في الدنيا والآخرة . وهذا ما سنصله

في البحث القادم ، إن شاء الله ؟

أبراهيم زكي

## مذاهب العرب في كلامهم

مناحي القول كثيرة ، ومذاهبه متشعبة ، لم تحتجزها لغة من لغى البشر ، ولم تقتطعها لهجة دون أخرى ، فبعض وجودها ومصر تكوينها شائعا في الأذهان ، وإن تباعدت البيئات والجدران ، فكل قبيل له في ذلك سهمه ، وكل أمة لها منه قسطها ، وكل لغة تنوعت فيه طرقها ، فالتقارب والتباعد والتوافق والتباين وفنون القول جميعها ، أقدار سائرة بين الناس ، قد عقدت أطرافها على الأغوات جميعا . غير أن هناك من المذاهب ما تفردت به لغة العرب أو بالغت فيه مبالغة جعلتها كأنها متفردة به . وفي هذا المنحى سنجرى القول من هذا البيان ، ونضم إليه من مذاهب القوم ما يجيىء به الكلام وأفيا ، ويكون المعنى فيه واسلا . ونقدم القول بأن هذه المذاهب تدلنا على ما كان للعرب من صفاء الذهن ، وجودة الطبع ، وسلامة الإدراك وقوة التصرف ، حتى إنهم كانوا يحملون الكلام على فهم السامع وسبق الزمن ، وتقوم الإشارة مقام الحالة ، مما جعل متكلميهم كالطبيب الحاذق يعتمد بدوائه إلى موطن الداء فيحسمه .

فن مذاهبهم في ذلك : الحذف ، وقد بذل العرب فيه غيرهم ، وفاقوا من عداهم ، وهو قسبان : حذف يدل عليه سياق الكلام فيسهل فهمه ويدنو إدراكه ، وآخر يختنئ دليله فيطلب فهمه عسرا ومشقة قال المهاجرون : « يا رسول الله إن الأنصار فصلوا ما ظم آؤوا ونصروا ، وفعلوا وفعلوا » فقال : أنصرفون ذلك لهم ؟ قالوا نعم ، قال : فإن ذاك . ليس في الحديث غير هذا ، يريد أن ذاك شكر ومكافأة لهم . وقام رجل من قيس على عمر بن عبد العزيز في حاجة له وجعل يمت إليه بقرابة ، فقال عمر : وإن ذاك ، فذكر الرجل حاجته ، فقال عمر : لعل ذاك . لم يزد على هذا ، ومساء وإن ذاك كما قلت ، ولعل حاجتك أن تقضى . وجاء في الشعر لعبد الله بن قيس :

بكرت على\* عسواذلى يلحيتنى وألومهنه  
ويقان شيب قد علاك وقد كبرت فقلت : إنه

وقال الأسدي لعبد الله بن الزبير : لاحت ناقة حملتى إليك اقال إن وراكبها . ولما قرأ عمر كتاب أبي عبيدة في الطاعون استرحم ، فقال الناس : مات أبو عبيدة ؟ قال : لا وكأن قد . وقال النابغة :

أزف الترحل غير أن ركبنا لما نزل برحالنا وكان قد  
وأشد ابن الأعرابي :  
إذا قيل أمي قلت إن وربما أكون وإنى من فتى لبصير

وقال صهر بن الخطاب : إني لاستمين بالرجل الذي فيه وأراد قول الأسدي :

سويد فيـه قابضوما سواه أئيناه وإن بهاء تاج

أما ما يقوم دليله فكان بحذفوا صدر الجملة أو يحذفها ، وقد يحذفون جملة كاملة أو جملا متعددة .

ومن كلامهم مذهب يذهب السامع فيه الى معاني أهله والى قصد صاحبه ، كقول الله تعالى : « وزى الناس سُكاري ومأم سُكاري » ، وقال : « لا يموت فيها ولا يحيى » ، وقال : « ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت » ، وقال لبيبة : « فان كنت في شك مما أزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك » . قالوا لم يشك ولم يسأل . وقال صهر في جواب كلام تقدم : متعتان كانتا على عهد رسول الله أنهى عنهما وأصرب عليهما . وقال رجل لبلال مولى أبي بكر وقد أقبل من جهة الخلبة : من سبق ؟ قال : سبق المقربون ؛ قال : إنما أسألك عن الخيل ، قال : وأنا أجيبك عن الخير .

ومن مذاهبهم تشبيه الشيء بالشيء في دقة تكاد تخفى الصلة بينهما ، قال الشاعر :

بدا البرق من نحو الحجاز فشاقى وكل حجازي له البرق شاقى  
مرى مثل نبض العرق والليل دونه وأعلام أبلى كلها والأساق

وقال آخر :

أرقت لمرق آخر الليل يلمع مرى دائبا فيه يهب ويجمع  
مرى كاحشاء الطير والليل ضارب بأرواقه والصبح قد كاد يسطع

ومن مذاهبهم في الكلام جعل بعضه على بعض ، ويقولون : أصاب الهدف إذا أصاب الحق في الجملة ، أو قرطس فلان إذا كان أجود إصابة من الأول . فإن قالوا رعى فأصاب الغرة ، فهو الذي ليس فوقه أحد . ومن ذلك قولهم : نفل الحز ، ويطبق المفصل ، ويصع الهناء ، واضع النقب . ومن جعلهم بعض الكلام على بعض قول الله تعالى : « هذا نزلهم يوم الدين » والعذاب لا يكون نزلا ولكنه لما أقام العذاب لهم في موضع النعيم لغيرهم ، سماه باسمه ؛ وقوله تعالى « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » وليس في الجملة بكرة ولا عشى ولكن على مقدار البكر والعشيات . وعلى هذا قوله تعالى « وقال الذين في النار لحزنة جهنم » والحزنة الحفظة وجهنم لا يضيع منها شيء فيحفظ ، ولا يختار دخولها إنسان فيمنع ، ولكن لما قامت الملائكة مقام الحافظين الخازن صيغت باسمه . وقال الشاعر :

يأدار قد غيـرها بلاها كأنما بهـلم عـصاها  
أخربها حمران من بناها وكر عصاها على مفتاحها  
وطلقت سحابة نفضاها تبكي على عراسها عينها

فلما بقي الخراب فيها وقام مقام الممران في غيرها سمى بالممران ، وعيناها هنا للسحاب ،  
وجعل المطر بكاء من السحاب على طريقة الاستمارة وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه .  
وقال غيره :

يا مجتبل الرحمن بالهذاب لعاصرات البيت بالخراب

يعنى الفار . يقول : هذا ممرانها ، كما تقول : ما نرى من خيرك ورفدك غير ما يبلغنا من  
فكك في أعضادنا .

ومن مذاهبهم الإيجاز وتحميل الألفاظ القليلة معاني كثيرة ، وهو مذهب بذ العرب  
فيه غيرهم ، وساقوا فيه كثيرا من كلامهم وحكمهم وأمثالهم . وجاء في الحديث من ذلك :  
« يا خيل الله اركبي . لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين . المسلمون تنكأ دماؤهم ، ويسمى  
بذمتهم أذانهم ، ويرد عليهم أقصام ، وهم يد على من سواهم » . فانظر قلة حروفه وكثرة معانيه .  
وقال : « اليد العليا خير من اليد السفلى . ابدى من تمول . لن يهلك امرؤ بعد مشورة .  
المستشار مؤتمن . رحم الله عبدا قال خيرا فغم أو سكنت فسلم . إياي والتشادق . أيها الناس  
إنما بئسكم على أنفسكم . إياكم والمشاركة فلها تمت القرة ، ونجى العرة . دب اليكم داء الأمم  
من قبلكم : الحسد والبغضاء . ليس من أخلاق المؤمن الملقى . وقال على : للناس بأزمانهم  
أشبه منهم بآبائهم » .

ومن الإيجاز والاعجاز والجزالة والبلاغة وحسن التقسيم وكمال الوصول قوله تعالى :  
« وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي  
وقيل بعدا للقوم الظالمين » . فهذه الألفاظ القليلة جمعت قصة كاملة ، وهي بعد مهلة سائنة  
قد وصلت بالمعنى إلى غايته ، فلو سألت متوسط الذكاء عما أوجزت بالغ بك من فهمها إلى  
ما تريد . وهذه الآية لها قصة بل قصص قديمة وحديثة ، وآخر ما رأيت منها أن بعض  
علمائنا المعاصرين تناولها بالتفسير لجعل سبب إيجازها مخاطبة ما لا يمكن وتنفيذه ما أمر به ،  
فأخرج الإيجاز عن النظم والمعنى معاً ، وحوله إلى حصة خارجة لا أدرى كيف تصور لها ،  
فإذا كانت مخاطبة الجناد مدحاة الإيجاز ، فإن العرب قد خاطبوا الأطلال والنبور والنياق وغيرها ،  
وإذا كان الجاد عقل وتقد ما حوّل به فانه لا فضل لنظم القرآن في ذلك .

ومن مذاهبهم الإطالة والوحى والإشارة ، قال أبو دؤاد بن جرير الإيادي :

يرمون بالخطب الطوال ونارة وحى الملاحظ خيفة الرقابة

وقد يلحأون إلى ترديد المعنى إذا اقتضاه المقام ، كما فعلوا عند استنفاذ الناس ، وفي الأوامر  
السلطانية وولاية العهد ، وعند الحشد العام ، ليصح في الأنعام ما يتصدون إليه من معنى معين .  
وقد تردد في الذكر الحكيم بعض القصص والألفاظ كقصة موسى وهارون وهود وشعيب

وعاد ولوط وعمود وذكر الجنة والنار وغير ذلك ، لأنه خاطب الأمم كافة وفيها القبيح الغافل ، والمشتغل بالسام ، والقوى المعاند ، وتعلق بهذا المذهب كثير من الكتاب ، ودافع عنه الجاحظ في كتاب البيان ، وأخذ به كما أخذ به أديب كبير من أدبائنا المعاصرين ، ولكنه يدور في اللفظ كثيرا بخلاف القدامى فانهم يدورون في المعنى لبقائه وتنبئته .

ومن مذاهبهم تنويع الخطاب وما سمع المتأخرون التفاتا ، فينتقل بك من حالة الى أخرى لحكمة تقتضيها ، وقد يضيفون الى الكلمة حرفاً أو ينقصونها حرفاً فينقلب معناها الى ضده ، وقد يذهبون باللفظ أو المعنى في غير ناحية ، وإن كنت أرى أن هذا نشأ من اختلاف القليل وتمدده .

وجاء علماء العباسيين فأضاف البياضيون منهم مذاهب أخرى نوعوا فيها الكلام تنويهاً ، وورقشوه برفشة جعلتهم يقيمون لها فناً قائماً وعلماً كاملاً . وكانت إضافتهم سائغة مقبولة ، وسهلة غير مردولة ، ولكن المتأخرين بالغوا في ذلك مبالغة أئيمة ، وقيدوا بعضها قيوداً ثقيلة يعجزها ذوق اللغة وفهم أسرارها . وقد أنكر عليهم ذلك علماء عصرنا وأخذوا في محاكاة القرون الأولى ، وإن جاء اليوم منهم من يدخل أساليب الترجمة ويقلدها . وقد تحدثت عن ذلك بعد ؟

محمد ناصف

## الاعتذار عن البخل

روى عن أبي الأسود الدؤلي أنه قال لبنيه : لا تجاودوا الله فإنه لو شاء أن يغني الناس كلهم لفعل ، ولكنه علم أن قوماً لا يصلحهم الغنى ، ولا يصلح لهم إلا الفقر ، وقوماً لا يصلحهم الفقر ، ولا يصلح لهم إلا الغنى .

وجاء رجل من ثعلب لرجل من كندة طالبا جدواه ، فقال له : يا أخا بني ثعلب إني لن أصلك حتى أحرم من هو أقرب الي منك ، وإني والله لو مكنتهم من داري لنقضوها كينة لبنة ! والله يا أخا بني ثعلب ما بقي بيدي من مالي وأهلي وعرضي إلا ما منعت من الناس ! وقال بخيل متفلسفا : من أعطى في الفضول ، قصر في الحقوق .

وقال رجل لسهل بن هارون : هبني مالا مرزأة عليك فيه . قال سهل : وما ذاك يا ابن أخي ؟ قال الرجل درهم واحد . فقال سهل يا ابن أخي لقد هونت الدرهم وهو طابع الله في أرضه الذي لا يمضي . والدرهم ويحك عشر العشرة ، والعشرة عشر المائة ، والمائة عشر الألف ، والألف دية المسلم ، ألا ترى يا ابن أخي الى أين انتهاء الدرهم الذي هونتته ، وهل يبوت المال إلا درهم على درهم ؟

## مولد الرسول

صلى الله عليه وسلم

الاحتفال بالحوادث الجسام ، وخاصة الحوادث التي أفادت البشرية وأمدتها بسبب من السعادة ، سنة جرت عليها الأمم ونوارتها الأجيال ؛ وقلما تخلو أمة استضاءت بنور المعرفة من احتفال بذكرى بطل من أبطالها ، أو واقعة حربية ذهبت بمفاخر الظرف فيها ، أو اكتشاف علمي هدى إليه عالم من علمائها .

وأم ما يقصد من ذلك إغراء الشباب بالسعي في طريق الرقى ، والسير على سنن ذلك البطل أو العالم ، حتى يصل إلى ما وصل إليه ، وينفذ أمره ووطنه كما أفاده ، فضلاً عما في الاحتفال من تكريم المحتفل به وتخليد ذكره .

والأنبياء عليهم السلام أبطال التاريخ ، جلت ما كرم في أمهم ، وأفادت منهم في دينها ودنياها ، واحتملوا في سبيل ذلك - كما جاء في القرآن الكريم والتاريخ الصحيح - ما جملهم أهلاً لتبجيل والتكريم .

ومجد عليه الصلاة والسلام بطل الانطال في تاريخ الأنبياء والانسانية عامة ، واجب على الانسانية أن تكرمه ، وتحتفل بذكرى مولده . وإن كان حقاً على المسلمين أن يحتفلوا بذكرى محمد كرسول أشرقت به شمس الهداية ، وحمل إليهم رسالة الإسلام ، وفرحوا بها من الظلمات إلى النور ، وساروا على هديها في طريق السعادة في الدنيا والآخرة ، وأصبحوا في وقت قصير أمة ودولة بعد أن كانوا أوزاما لا رابطة بينهم ، ولا جامعة تجمعهم . واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفاخرة من النار فأنقذكم منها .

إن كان حقاً على المسلمين أن يحتفلوا بمولد محمد كرسول ، فإن حقاً على غيرهم أن يحتفلوا بمولده كححر للانسانية ، رفع شأنها ، وأعلى قدرها ، ووضع عنها إصرها والأغلال التي كانت عليها فعاقتها عن السير في طريق الرقى والإنتاج ، وقصرتها على رسوم باطلة في العقائد والأعمال ؛ وكانت أعمالها وأقوالها قبل البعث وبعدة جهادا في تحريرها وإعدادها للنهاية التي أرادها الله لها ، من استثمار الأرض ، وتسخيرها وما فيها في خيرها وإسعادها .

فقد رغب بفطرته قبل البعث عن عبادة الأصنام ، وقومه ما كفون عليها حريصون على تقديسها ، ورثوا ذلك عن آباؤهم ، وأشرىوا حبها في قلوبهم - احتراماً لمقتله وإنسانيته -

وانصرف عنها ينفي معبودا يستحق أن يخلص له نفسه ، ويخضع له قلبه وجوارحه ؛ وشارك في إحياء الفضائل الانسانية كالتعاون ودفع المظالم ونحو ذلك .

روى في كتب السيرة أن محمدا عليه السلام حضر حلف الفضول ( وهو حلف عقد بين بعض قبائل قريش لدفع المظالم ورد الظالم ) وكان يقول : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلعا ما أحب أن لي به حر السم ، ولو أدعى به في الاسلام لأجبت » . وروى أن قريشا لما اختلفت في وضع الحجر الأسود حين بناء الكعبة وأبدى لهم الشر ناجذيه ، حكوه بينهم في شأنه ، فقال : هلم الي ثوبا ، فأتى به ، فنشره وأخذ الحجر فوضعه بيده فيه ثم قال : ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب ، ووضعه في موضعه . وبذلك انحسم الخلاف وانهمز الشر . والامثلة التي ضررها عليه السلام قبل المبعث لاحترام الانسانية وتكريمها وتقديرها قدرها ، كثيرة ، تفيض بها صحف التاريخ .

أما فضله على الانسانية وإزالتها منزلتها بعد بعثه ، فلا يحيط به الوصف ، ولا يحصره البيان ؛ فلقد كان أساس دعوته توحيد الله وتنزيهه عن الانداد والشركاء : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » ، « الله لا إله إلا هو الحي القيوم » ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما في السموات وما في الأرض » .

وبذلك عارض الانسانية عار الشرك ، وأطلقها من ذل التقليد البغيض ، وصرفها الى عبادة من يستحق العبادة .

ودعا الى استمهال العقل والتفكير في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ، ونهى على الناس التقليد من غير روية ولا تدبر : « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ؟ » « أولم ينفكروا في أنفسهم ؟ ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأحل مسمى ، وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون » ، « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أمر الله قالوا بل نتبع ما أفئنا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يملكون شيئا ولا يهتدون ؟ » فرفع بذلك قدر العقل ، ودفعه الى العمل بمد أن شلت حجب التقليد حركته ، فأنتج نتاجه العلمي ، فكانت العلوم والمخاضات التي ترتع الانسانية في غياضها ، وتمرح في رياضها ، وتتم بثمارها .

وحث على طلب العلم واحترام العلماء : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » . « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، « العلماء ورثة الانبياء » ، « لموت قبيلة أيسر من موت عالم » . الى غير ذلك من الآيات والأحاديث .

ودعا الى الإخاء والمساواة : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » ، « يأبى الناس

إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم .  
« الناس سواسية كأسنان المشط » « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » .

وقدس الحرية وطلبها ، وذم من رضى بالذل والعبودية ، ووصفه بأنه ظالم لنفسه ،  
قال تعالى : « إن الذين يوفون الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في  
الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا .  
ودعا الى التعاون في البر : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان » .  
وربط ما بين الطبقات برباط متين من المودة ، ففرض الزكاة ، وندب الى الصدقة : « خذ  
من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » ، « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ، « يحق  
الله الريا ويرى الصدقات » .

ودعا الى الوحدة والتآلف : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » .

واعتبر الناس كلهم سواء أمام العدل : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء  
لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا  
المهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » .

ووضع الحرب نظما وقواعد تحمّل في طبائنها الرفق والرحمة ، فأمر ألا يقتل شيخ ولا طفل  
ولا امرأة ، وألا تهدم ديار الأعداء ولا تحرق أشجارهم ، وقد كانت فوضى لا حدود لها  
ولا قواعد ينيرها القوي متى لاحت له بؤادر الظفر والغنينة ، ويستبيح فيها العرض  
والشرف والمال .

ويطول بنا القول إذا استرسلنا في تعداد المبادئ الإنسانية السامية التي وردت في القرآن  
والسنة ، والتي قام محمد ساميا لها ومدافعا عنها . وحسبنا ما ذكرنا كنموذج لهذه المبادئ لنستطيع  
أن نقول : إن محمدا عليه السلام خدم الإنسانية مائة ، وإنه إن وجب على المسلمين الاحتفال بمولده  
كرسول اصطفاه الله لأداء أكل رسالة الى البشر ، فإن حقا على غيرهم أن يحتفلوا بمولده كخدام  
للإنسانية أخلص في خدمتها وتحريرها وتليبيتها الى مكانها الذي وضعها الله فيه ، حيث فضلها  
على كثير مما خلق ، وتحمل في سبيل ذلك من العنت والعناء والكفاح والجلاد أعظم مما تحمله  
خدام لها .

ونحن في عصر من قضاياه المرددة أن خدام الإنسانية أهل لتكريم الإنسانية ، وأن  
التمصّب للجفّس والدين واللغة خصلة بغيضة مرذولة . فإن كان صدقا ما يقوله أهل العصر فن  
حق محمدا عليهم جميعا في مشارق الأرض ومغاربها أن يحتفلوا بمولده ولعمري هجرته ، وإلا غلبه  
جزاء الله وإكرامه ، واحتفال الملائكة والمؤمنين به : « إن الله وملائكته يصلون على النبي ،  
يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما »  
أبر الوفا الراغبي



## نظرة الفلسفة الميتافيزيقية

### إلى الانسان

الفلسفة الميتافيزيقية : ناحية من البحث الفلسفي تحاول شرح الطبيعة من شيء خارج عنها ؛ من « ما وراء الطبيعة » . وهي طريقة من طرق التفكير سيطرت عليه أطول مدة عرفها تاريخ الفلسفة . فتمتد منذ الفيلسوف المنظم ، المركز حول مبدأ معين — ومن قبل هذا النوع كذلك في الثقافات الدينية الشرقية القديمة — حتى عهد البحث الطبيعي ( إلى نهضة العلوم في أوروبا ) . فتصور نشأة هذا الكون عن أصل غير ذاته ؛ عن قوة هي المثل ، أو عن المادة ، أو عن ما هو أشبه من المثل أو المادة (١) ؛ عن الله ؛ بحسبه مؤرخو الفلسفة بأنه تصور ميتافيزيكي ؛ والتقيتد به في تحليل الكون وما فيه من موجودات وأحداث مختلفة وظواهر متعددة يطلق عليه هؤلاء أيضا نهجا في البحث ميتافيزيكي .

والانسان واحد من موجودات الكون المتعددة ، ولكنه من بينها أهمها في الواقع وفي نظر الإنسان نفسه . ولذا يضع البحث الميتافيزيكي عناية كبيرة على توضيح نسبة الانسان إلى الأصل العام للكون ، لأن في توضيح هذه النسبة على الأخص توضيحا لنسبة الكون عامة إلى مصوره الخارج عنه .



لندع عصر الديانات الشرقية القديمة وما نقل عنها من تصورات تحدد علاقة الإنسان بموجده — وفي تحديد هذه العلاقة تبيين منزلته وقيمه — لأن هذه الديانات وإن اعتبرت من الوجهة التاريخية الفلسفية كمصدر مؤثر على المدارس الفلسفية المنظمة ، وهي مدارس الإغريق المختلفة ، إلا أنها مع ذلك تمثل هيدا مستقلا غير عهود الفلسفة بمعناها المتعارف .

إفلاطون ، كأول فيلسوف ميتافيزيكي منظم ، يرى أن الانسان مكون من جزأين مستقلين : من النفس والجسم . فالنفس جزء علوي إلهي انحدري — أو هو صورة — من النفس الكلية التي هي نفس العالم ، أي التي باثرت التأثير فيه . والجسم جزء سفلي من المادة حلت فيه النفس . وكما أن من أخص صفات النفس ( قبل حلولها في الجسم ) الطهر أو الخيرية ، والعلم والحكمة ، فن لوازم الجسم الدنس أو الشرية . واجتماع النفس مع الجسم أمر مقضى به من سابق ١١ . وإذا كل منهما ، في نظر إفلاطون ، مستقل عن الآخر ، وكل منهما من طبيعة غير طبيعة الآخر .

(١) المادة التي ينسب إليها المذهب الفلسفي الميتافيزيكي ليست على النحو الذي يهيمه علماء الطبيعة المحدثون .

والنفس بحلولها في الجسم نسبت ما كان لها من معرفة بسبب كثافته . فالمعرفة التي كانت من لوازمها عبارة عن معرفة « المثل » التي تكون عالم الوجود الحقيقي الأبدى . وقد كانت النفس بحكم طبيعتها العلوية مع هذه المثل . وكلما عصيت النفس رغبات الجسم وشهواته كلما تضاءلت وخفت أمها كثافته فتذكرت من معرفتها الأولى . والنفس السعيدة هي التي تعود إليها معرفتها الأولى .

ولكن لا سبيل الى هذه السعادة — في رأى إفلاطون — إلا أن تكف النفس عن الشهوات ، بالزهد والتريث الهذين قد يلفظان حد الفناء . ومهما كان حرص النفس على عدم تلبية مطالب المادة فإنها لا تبلغ ما تصبو إليه من تمام المعرفة ، التي ترى فيها سعادتها الكاملة ، إلا بعد فناء الجسم . عندئذ يزول عنها غشاء المادة فترى من جديد ما كانت يجانبه أمس من المثل .

فالنفس في نظر إفلاطون بطبيعتها مستقلة عن الجسم ، وعالمة في الأزل ، وتسمى في الحياة الدنيا لأن تتشكل بالعلم الذي أنساها إياه الجسم ، وتترقب في كل لحظات هذه الحياة في لطف وولع عودتها الى مقرها الأول . وإفلاطون بذلك يحدد مهمة الانسان في هذا العالم ، ويحدد بها السعي الى العلم والمعرفة عن طريق كفاح المادة ، عن طريق الزهد واثقاء رغبات الجسم . ويحدد ، تبعاً لذلك ، مهمة الجماعة الانسانية ، ويرأها في إقامة دولة العلم والحكمة ، دولة الفيلسوف . فالفيلسوف بما حصلته من معرفة تفوق معرفة غيره ، يمثل النفس الانسانية في صفاتها وفي خيريتها ، يمثل النفس التي لم يتحكم فيها الجسم وشهواته . فهو أجدر بأن يكون صاحب السكامة ، وغيره أجدر بأن يكون المطيع ، إذ أن كلمته عن تبصرة ، وتعبير عن رشد ، وأبعد عن معنى الفواية . ومن هنا نرى أن نظرة إفلاطون الى الانسان نظرة مزدوجة : مرة الى النفس باعتبار ، ومرة الى الجسم باعتبار آخر . وهذه النظرة المزدوجة في رأى إفلاطون هي الأساس عنده لشرح تصرفات الانسان وتعليل تباينها . فمصدر الخير من الانسان « حكمته » ، ومصدر الشر « جهله » أو مطاوعة الميولات الجسمية . والعلم إذاً مصدر الفضيلة أو هو نفسها ، والجهل أصل الرذيلة أو هو نفسها . والانسان في جلته مصدر الخير ومصدر الشر والفواية . وفقط أحد المصدرين فيه سابق في الوجود عن الآخر .

ومن هنا نرى كذلك أن إفلاطون في الواقع يعود بمصدر الخير في الانسان الى صلاته بموجده وهو « منال » الخير أو إله الخير في عالم « المثل » ، كما يرجع أصل الشر فيه الى هذا العالم ، الى المادة التي تكونت منها الاجسام . ولكن لماذا كان هذا العالم شرًا ؟ سؤال لم يجب عنه إفلاطون وإن كان جوابه فيما تأثر به من ثقافة .

إفلاطون يحدد مهمة الانسان في الحياة الدنيا بتحصيل العلم عن طريق الزهد ، يرى أن

الإنسان مسئول عن تصرفاته الشهوية ؛ عن تصرفاته غير الحكيمية ، لأنه يكون وقتئذ مقصراً في السعي لبلوغ غايته . ولذا كان الشرير من الإنسان عقاب المهمل المفرط من ناحية ، أو عقاب المقترف للجريمة من ناحية أخرى . وعلى كل فالعقاب على ترك واجب أو فعل منهى عنه . كما أن الإنسان إذا حصل المعرفة كان له ثواب المطيع ؛ في الدنيا بارتفاع المنزلة ، وبعد فناء الجسم بالصعود إلى الخير المحض . وفي كلتا الحالتين : حالة الإهمال وحالة تحصيل المعرفة ، للإنسان كسب واختيار .



هذه الاملاطونية التي تميزت الآن نظرنا إلى الإنسان :

( أ ) بالقول بعدم تبعية كل من النفس والجسم للآخر ؛

( ب ) وباختلافهما في الطبيعة ؛

( ج ) وباختلافهما في المميز — أحدهما فان والآخر باق —

لقيت تقديداً شديداً من أرسطو ، لأنه نهج في البحث الفلسفي نهجاً آخر ؛ نهجاً طبيعياً ، أي أنه حاول شرح الطبيعة من الطبيعة ذاتها . وتبعا لاختلافه في النهج كانت نظرته إلى الإنسان مغايرة لمظرة أستاذه إفلاطون ، سنبينها عند عرض « نظرة الفلسفة الطبيعية إلى الإنسان » في مقال آخر .

ولكنها لم تذهب ضحية نقد أرسطو ، بل نجدد لها اعتبارها ، وعادت إليها حيويتها بعد قرنين تقريباً من نشأتها ، وبعد ما شككت الجماعة الإغريقية قبل الميلاد تحت ضغط الرومان وظلمهم في قيمة الفلسفة ، وبالأخص فلسفة أرسطو ، كصفات لسيادة العدل في الوحدة الإنسانية ، وتخفيف غريزة السلطان في نفس الحاكم المشرف . لأن أرسطو ظالم في إعماجه بالإنسان وبقدرة — لسيادة الفلسفة والحكمة — على تحقيق المساواة لأفراد الجماعة البشرية .

رجال اليهودية قبل الميلاد ، ورجال المسيحية من بعده ، بمنوا مذهب إفلاطون من جديد وجعلوه المحور الذي يدور عليه تفلسفهم ، لغاية خاصة ابتغوها من تفلسفهم ، وهي تثبيت الدين أو ترويجه في نظر الخاصة باسم العقل والفلسفة حتى يضمنوا بقاء الأمة مجتمعة على دين واحد ، إذ العامة يكفر فيها في الاقتناع عنوان العقيدة « Logme » ولكن طبيعة الخاصة تطلب التعليل . وكان مذهب إفلاطون بالذات هو محور تفلسف رجال الدين ، لأن نهجه في البحث يوافق نهجهم في أن كلا منهما ميتافيزيكي يعلق الوجود في وجوده وفي مصيره بأمر خارج عنه ، ولأن كثيراً من حقائقهما يتفق بعضها مع بعض .

ونشأ تبعاً لغاية رجال الدين من التعلُّف تعدّل في الأفلاطونية أعطاهما لونا جديداً ، وهو اللون الدينى ، وصميت من أجله باسم آخر يرمز الى الأصل وهذا الطارىء ؛ صميت بالأفلاطونية الحديثة .

ورجال اليهودية والمسيحية وإن أخذوا في تفلسفهم من فلسفة الاغريق ، كعنصر أساسى ، المذهب الأفلاطونى ، إلا أنهم لم يقللوا مذهب أرسطو ، بالأخص في نظريته الى الانسان . فجذبوه كذلك . وبهذا صار شعار فلسفتهم المزج ؛ المزج لمذهبى افلاطون وأرسطو بمضمهما ببعض ، ومزجها كذلك بالدين . ولكنها بالرغم من هذا المزج لم تخرج عن كونها فلسفة ميتافيزيكية ، لأن عنصر الأفلاطونية كعنصر الدين كان السائد فيها . وهما ميتافيزيكيان ؛ فلم تتحول بدخول فلسفة أرسطو الى فلسفة طبيعية .



وطبيعى أن تكون نظرة هذا المذهب الفيلسوفى الميتافيزيكي الجديد الى الانسان نظرة مقايير لمذهب افلاطون الخالص ، لانه دخل في تكوينه عنصران آخران لها نظرتهما الخاصة الى الانسان كذلك . ومقاييرها — كما سيتضح لنا في المقال التالى — عبارة عن اضطراب في تكوينها ، سببه الخلط المرفق والمزج المتكلم ؟

محمد البهى

مدرس علم النفس والفلسفة بكلية أصول الدين

## ماهى الميتافيزيقا

أنا أشكر الأستاذ الدكتور محمد البهى ، فقد أتاح لى فرصا للكتابة في الفلسفة كنت أمنى النفس بها فلا أجد عليها باعنا .

الفلسفة بقدر ما هى أئبع نمرات التفكير الانسانى ، وأدل على قوة سلطانه ، هى بذلك القدر نفسه أحوج الى قوامه العلم فانها في الواقع قطعة من قفصاته . والعلم لا يزال في ميعه صباه ، والمجهولات الوجودية محدقة بالانسان من كل جانب . وهذا العلم لم يفه بكلمة نهائية في أى فرع من فروع المعارف ، بل هو اليوم ، وقد سلخ قرونا طويلة في البحث والتنقيب ، أحير ما يكون حيال مسائل كان يظن أهل الاقربون الى عهد قريب أنهم وصلوا منها الى العلم اليقين ، حتى قال الأستاذ ( ايزوليه ) Izoulet المدرس بجامعة باريز في مقدمة كتاب للكاتب الكبير جولوا : « هل ما نسميه اليوم علما غير جهل مرتب ؟ »

وأنت خبير بقيمة ما يبتقى على هذا الجهل المرتب من صروح الوم المرتب ، وهو أمر يعرفه أهل الرسوخ في الفلسفة كما يعرفون أبناءهم ، ولكن لفلسفة في جميع أدوارها ، حتى

حينما كانت بأفانيسوس المعجزة أشبه ، نفوة إذا لعبت بهوس غير الراسخين تخيلت إليهم أنهم  
هتكوا حجاب المسائر الكونية فاطلموا على حقيقتها ، وهنا موطن الخطر على الفلسفة نفسها ،  
وعلى الذين يحمسون لها . ومن أهم أغراض مجلة الأزهر معالجة هذه النقطة بأحالة الفلسفة الى  
قيمتها الحقيقية ، بالاستعانة بأعها الذين أفاقوا من غرورها .

### كلمة في الميتافيزيقا :

الذى يفهمه القارئ من مقال الدكتور البهى أن الميتافيزيقا ناحية من الفلسفة تحاول  
تعليل الطبيعة بسبب خارج عنها ، وقد استمرت هذه النزعة المناسبة لسداجة القدماء حتى بعد  
استحالة الفلسفة الى بحث منظم على عهد أفلاطون فلما نبغ تلميذه أرسطو نقد آراء أستاذه ،  
ونجح بالفلسفة نهجا طبيعيا ، أى أنه حاول تعليل الطبيعة من الطبيعة . ولكن الميتافيزيقا  
ماد اليها اعتبارها بعد أرسطو وبقي سلطانها الى عهد نهضة العلوم فى أوروبا ، أى الى ما قبل نحو  
قرنين أو ثلاثة ، ومن ذلك العهد استعالت الى قيمتها الخيالية .

هذا ما يؤخذ من مقال الدكتور البهى ، وهو لا يعطى القارئ فكرة صحيحة عن  
ماهية الميتافيزيقا ومهمتها ، ويقود الى الاعتقاد بأن العقل الإنسانى قد تخلص نهائيا من  
أوهامها ، وأصبح مكتفيا بتعليل كل ما فى الطبيعة بقوى الطبيعة نفسها ، وأن هذه الطريقة  
هى النزعة العلمية ، التى يعتبر كل محاف لها بعيدا عن بيئة العصر الثقافية .

ونحن لأجل تجلية هذا الموضوع نقول : إن أرسطو الذى قال الدكتور البهى إنه ناقض  
أستاذه فى مقرراته الميتافيزيقية ، هو نفسه واضح الميتافيزيقا ، أو هم تلاميذه الذين وضعوها ،  
وإن له كتابا اسمه ( الميتافيزيقا ) ، وإنه كأستاذه أفلاطون علل الوجود بسبب خارج عنه ، وإن  
الميتافيزيقا لم تزل شاغلة مكاتبتها الرفيعة من البحوث الفلسفية ، إلا لدى طائفة من الماديين  
الذين لم يبق لمدىهم قيمة علمية بعد حدوث مكتشفات طبيعية محضة جعلت أسوهم تحطيا ،  
كما سيتبين القارئ ذلك هنا .

ونحن لأجل أن نجعل لما نقوله صبغة رسمية نأفى على تعريف علم الميتافيزيقا من أقوال  
أئمة الفلسفة العصرية ، فننقل الى العربية ما كتبه البروفسور إميل بواراك فى دائرة المعارف  
الفرنسية الكبرى تحت كلمة ميتافيزيقا ، قال :

« إن كلمة ميتافيزيقا أى ما بعد الطبيعة يصمد تاريخها الى أرسطو . بل الى تلاميذه الذين  
أطلقوها على أحد مؤلفات هذا الفيلسوف ، واقتضى موضوعه أن يجعل بعد علم الطبيعة .  
فى هذا المؤلف حالج أرسطو ( الفلسفة الأولية ) وعرفها تارة بقوله هى : « علم الأصول  
الأولية وعلم الملل الأولية » وتارة أخرى بقوله هى : « علم الكائن فى حدود كينونته » ،  
معتبرا هذا العلم النقطة المركزية العليا للمعرفة الإنسانية . ومن هذا العهد وصفت الميتافيزيقا

على وجه عام بأنها أعلى أقسام الفلسفة ، فهي التي تعالج وتحاول حل المسائل الأساسية المتصلة منطقيا بكل فكرة وبكل تحقق من وجود كائن . هذا هو المعنى الذي أراده أرسطو من تعريفه السابقين .

« فأما تعريفه الأول وهو قوله : « إن الميتافيزيقا هي علم الأصول الأولية والعلل الأولية » ، ففهمه أن في كل العلوم التدليلية توجد أصول لا نستطيع البراهين أن نصل إليها ، وهي مع ذلك ضرورية للتدليل بها على حقائق أخرى ؛ ومن ناحية نجد في جميع العلوم المستندة من المراقبة والتجربة أن حوادثها تفسر بأحالتها إلى علل ، وهذه العلل تفسر بعلم أخرى . ولكن هذا التسلسل ينتهي إلى وقوف جميع التفسيرات عند حدود عال أولية أو نهائية ، مهما كان نشاء ، يستحيل الصعود إلى ما فوقها . والمعروف أن جميع العلوم الخاصة لا يمكن أن تتألف إلا بافتراض مجموعة من أصول وعلل تحقق وجودها بدون إمكان تحديدها ولا تحليلها ، وكثيرا ما لا يستطيع إثباتها . من أمثلة ذلك العلوم الرياضية فإنها تفترض وجود عدد وزمان وحيز الخ ؛ وعلم الطبيعة والكيمياء فإنهما يفترضان وجود مادة وحركة وقوة ونواميس طبيعية الخ ؛ وعلم الفيزيولوجيا فإنه يفترض وجود الحياة الخ . ولكن ما هو الحيز ، وما هي المادة ، وما هي الحياة ؟ لا يستطيع واحد من هذه العلوم المذكورة أن يحل هذه المسائل ، ولا أن يناقش فيها . ومع هذا إذا كانت المعرفة الانسانية لا ينبغي أن تكون كبناء لا أساس له ولا رأس ، فلا شك في أنه سيأتي يوم تمكن فيه المناقشة في هذه المسائل ؛ وإذا قدر لهذه المسائل أن تحل تدريجيا لا بواسطة واحد من العلوم الخاصة كالرياضة والطبيعة والفيزيولوجيا ، ولكن بواسطة علم يتوحد جميع العلوم ويطلع فيها وحدة من طريق التوفيق والتأليف ، فهذا العلم الذي يكون موضوعه الأصول الأولية أو العلل الأولية هو الميتافيزيقا التي نحن بصدد الكلام فيها .

« فلننظر الآن في التحديد الثاني لأرسطو وهو قوله : « الميتافيزيقا هي علم الكائن في حدود كينونته » فنقول : إن الموضوع الأساسي لجميع العلوم هو الكائن ؛ ولكن منها ما يبحث في بعض أنواع الكائنات ( كالطبيعة والكيمياء والبيولوجيا الخ ) ؛ ومنها ما موضوعه درس خصائص الكائن مستقلة عن وجوده الذاتي ( كعلم الرياضيات ) ؛ وليس من بينها علم يدرس الكائن في ذاته وفي خواصه العامة في حدود كينونته . فالميتافيزيقا هي على التحقيق العلم الذي يعني بدراسة هذه النواميس والعلل العامة الموجودة لذلك الكائن ، وهي تندرج كما هو واضح في الأصول الأولية وفي العلل الأولية .

« وقد عرفت الميتافيزيقا أخيرا بأنها علم العالم المطلق . وهذا التحديد يمكن استنتاجه من التعاريفين السابقين ، فإتينا ينطويان على هذه النتيجة وهي : أن موضوع علم الميتافيزيقا

ليس تعميل الكائنات والظواهر الطبيعية والنواميس ، وهي الموضوعات التي تدرسها العلوم الخاصة ، ولكن موضوعها الأساس المشترك ، والينبوع العام للكائنات والظواهر والنواميس ، أى الحقيقة المسترة الخالدة التي لا نهاية لها ، والتي يستمد منها كل شيء علة وجوده . وهذه الحقيقة هي الكائن الموجود بذاته ، أى الموجود المطلق . إن جميع العلوم إنما تعالج الحوادث الطبيعية أى الظواهر ، ولكن الميتافيزيقا تحاول فيما وراء هذه الظواهر أن تصل الى الكائن الحقيقى الموجود بنفسه .

« فأنت ترى الآن كنه العلاقات التي تربط الميتافيزيقا سواء أبا لعلوم الأخرى أم بسائر أجزاء الفلسفة . فالقيمة العلمية للمعلوم مستقلة في الواقع عن الميتافيزيقا ، ولكن من الناحية النظرية نرى تلك العلوم ناقصة وغامضة ما دامت مسائل الميتافيزيقا المنورطة في مقرراتها لم تُدرس ولم تُحل . ونناء على هذا المسمى يمكن أن يقال إن الميتافيزيقا في مقدمة جميع العلوم . ومن ناحية أخرى لا تكون البسيكوجيا ( علم النفس ) بدون الميتافيزيقا إلا وصفا ساذجا لطائفة خاصة من الظواهر ، وعلما أجدر أن يكون تابعا الى الفيزيولوجيا من أن يكون جزءا مكملا للفلسفة ، إذا لم يعتمد في دراسة النفس الى تلمس بصيص من نور يكشف الصميم من طبيعة الذات البشرية . ويجرى أيضا المطلق وعلم الأخلاق هذا الجرى قيبقان ناقصين ومبهمين معا ، إذا لم يجدا في عالم الاطلاق الأصل الأول للحق والخير .

ثم قالت دائرة المعارف الفرنسية الكبرى :

« في رأى ( أوجوست كومت ) لا موجب لوجود الميتافيزيقا لأن علماءها لم يتفقوا على أصول هذا العلم المزعوم . فهو تمثل ، على مقتضى القانون ذى الثلاثة الاعتبارات اللاهوتية والميتافيزيقية والوضعية ، دورا متوسطا من أدوار التطور للعقل الإنسانى ، وعجازا بين الديانة والعلم ، ويجب أن يستعاض عنها ( بفلسفة ) حسية محضة ، أى ( فلسفة ) مؤسسة على النتائج العامة للمعلوم الخاصة .

« ولكن ( الفلسفة ) التي يوصى أوجوست كومت بها أليست ضربا من الميتافيزيقا ؟ أى أن غرضها سيكون محاولة تأليف وتعليل عامين بقدر ما تسمح به حالة العلوم الخاصة ؟ فأوجوست كومت بهذا الرأى لم يهدف الميتافيزيقا ولكنه يقترح أسلوبا جديدا تسير عليه .

ثم قالت :

« إن الدليل الذي يُقنع العقل بعدم ضرورة الميتافيزيقا يقتضى أن يُثبت بتحليل الإدراك الإنسانى بأن موضوعها يخرج عن دائرة تناوله . وقد خُيل ( لسكانت ) أنه أقام هذا الدليل في كتابه نقد العقل المحض فقال : إن الميتافيزيقا تتناول الى معرفة الأشياء على ما هي عليه ،

على حين أن العقل الانساني لا يستطيع معرفة شيء على حالة مطلقة . وإقامة ميتافيزيقا من طريق التسليم بدون دليل مما لا يمكن قبوله .

« ولكن النقد الذي يثبت من طريق الافتراض هذه الاستحالة أليس يعتبر هو نفسه مملا ميتافيزيقيا ؟ فالميتافيزيقا إذن ضرورية حتى لإثبات استحالة وصولها الى حلول يقينية ، لجميع المسائل التي تعالجها . فهي وحدها التي تختص بإثبات وتعليل هذه الاستحالة . هنا يجب أن نتذكر قول أرسطو في ضرورة الفلسفة ، فقد قال : إذا كانت الفلسفة ضرورية وجب استكمالها ، وإن لم تكن ضرورية وجب استكمالها أيضا للتدليل على عدم ضرورتها .

« وغير هذا إما إن عدنا العلم المطلق بطبيعة الأشياء ، فإن العقل الانساني يستطيع أن يحاول الوصول الى علم نسبي عنها ، فإن لم يصل إليه أيضا اكتفى بافتراضات ذات درجات مختلفة في الرجحان . وإذا كانت هذه الافتراضات تعتبر غير وافية من الناحية النظرية فإنها لا تعدم أن يكون لها قيمة عملية ، لأنها تكون عرضة دائما للبحث والمناقشة .

« بناء على ما تقدم فالميتافيزيقا ، حتى لو افترض أنها لا تستطيع أن تقضى الى حلول يقينية لجميع المسائل التي تعالجها ، هي وحدها التي يختص بها أن تبرهن على هذه الاستحالة وأن تعالجها . وهي ليست كما زعمه فيلسوف معاصر ( هو الميسور ريبو في مقدمة كتابه البسيكولوجيا الانجليزية الراحنة ) أن الميتافيزيقا فن ونوع من الخيال المجرد ، لأنها تسد في الجلة حاجة أساسية للعقل هي في درجة حاجته الى العلم ، وهي حاجة ترتيب آرائنا عن الأشياء في مجموعة قائمة بنفسمها . والفاوق بين الميتافيزيقا وبين العلم في هذا الاعتبار أن هذه المجموعة يجب أن تشمل الحقيقة في مجملتها ، ولهذا فإن تنظيمها لسمة نطاقه يكون أشد صعوبة وأكثر تعرضا للخطأ من المجموعة العلمية . ولكنها تعتبر مشروعة ، وقد تكون الحاجة إليها أشد ، لأنها باعتراف أوجوست كومت نفسه تتعلق بها نظام الفكر ونظام الحياة الانسانية . ينتج من هذا أن الآراء الميتافيزيقية على أية صورة كانت تسلط على العقلية الانسانية وتقودها .



هذا ما كتب على الميتافيزيقا في أكبر موسوعة علمية ، وهو يدل على مبلغ اعتداد الفلسفة الرممية بها ، وحرصها عليها ، ولا عبرة بشذوذ طائفة من الماديين عنها .

إننا نعتز كغيرنا بأن الحكم على العالم الكلى المطلق ، ليس في قدرة العقل الانساني الجزئي المقيد ، ولكننا لسنا بسبيل تحديد شئون تفصيلية منه ، بل بسبيل ربط القوى التي تعمل في عالمنا الجزئي بالقوى الكلية المحيطة بالكون كله ، ووصل الملل الطبيعية المحدودة في عالمنا بأصول أولية لها وجود ثابت في عالم الاطلاق ، وهذا أمر تقضى به الحاجة العقلية الفطرية ، فإن البحث عن ملل الحوادث أمر لا بد منه في عالم الطبيعة ، ويتبع الملل الجزئية تنتهي الى



علة يشعر العقل ببدايته أنها هي نفسها محتاج الى علة ، وهذه العلة لعدم وجودها في الطبيعة يشرب العقل لتصورها في عالم بئمه يسميه عالم الأصول الاولية أو الميتافيزيقا .

فإذا حرم العقل من هذا الجوه لعالم ما بئد الطبيعة أصبح علمه محصورا في دائرة ضيقة ، ومقطوع الصلة في نهاياته بعلم يكله ، ولو من ناحية عامة أو افتراضية ، وهو موقف لم يستطعه العقل في عهد من عهوده ، ولم يستطعه في هذا العهد أيضا وقد بلغ رشده . ليس لأنه اعتاد القناعة بالأوهام ، ولكن لأنه يرى أن علومه تصح مبتورة لوقوفها عند حدود ليست هي حدودها النهائية ، فتدفعه الحاجة لوصلها بما يكلها من نوعها ولو افتراضا ، منتظرا أن يفتح عليه بشئ يقربه من الحقيقة المحصورة عنه . هذا موقف لا يستطيع العقل عنه تحولا ، لأن منطق العلم يتطلب ، ونظام العقل يقتضيه . لهذا قال الأستاذ إميل بوراك فيما نقلناه عنه من دائرة المعارف الفرنسية الكبرى : « إن الآراء الميتافيزيقية على أية صورة كانت تتسلط على العقلية الإنسانية وتقودها » .

بقي الكلام عن أرسطو :

قد عمت مما نقلناه عن الموسوعة الفرنسية الكبرى أن الميتافيزيقا من وضع أرسطو أو تلاميذه ، وأن له كتابا اسمه ( الميتافيزيقا ) . وقد ذكر الدكتور الهبي في مقاله المنشور هنا أن أرسطو خالف أستاذه أفلاطون فعمل الطبيعة بالطبيعة ، وهودى هذا أنه لم يعول على الميتافيزيقا ، والواقع أنه وإن خالف أستاذه في مواضع من الفلسفة سببها ، لم يخالفه في الاعتداد بالميتافيزيقا كتكملة للعالم الطبيعي ، وقد علل فيها الطبيعة بشئ خارج عنها وهو الله والأرواح العلوية . فقد قال في كتابه ( التومولوجيا ) : « إن العالم قسآن مهابى وأرضى . أما المهابى فتمتع بحركة دائرية صادرة من الله مباشرة . والسجوم أزلية خالدة وهي مكونة من الأثير ولذلك لا تقلل الفساد . وسمااء النجوم الثوابت هي مقر السكون والحياة الكاملة والظام الثابت . وهذه النجوم كائنات لا يمتربها الهرم حية حياة سعيدة ودائمة على العمل بدون كلال ، وهي أقرب للألوهية من الإنسان » .

وقال في كتابه « الميتافيزيقا » :

إن وجود الله يثبت لدى العامة من رؤية التكل التدريجي للكائنات ، وبالغايات المقدرة لها في عالم الطبيعة . ولكن وجوده عند الخاصة يقوم علميا على تحليل أحوال الحركة العالمية . ومن ذكر الحركة ذكر معها الفاصل فيها . ولما كانت الحركة أبدية فوجودها يجب أن يكون أبديا . وهذا الموجد هو الله ، وهو متره عن الحد والنقص والتغير ، فهو ثابت وغير متغير ( وخارج عن العالم ومتميز عنه ) ، كما يكون القائد للجيش متميزا عنه .

وقال إن للإنسان تقسين : تقسا حيوانية وهي فانية مع الجسم ، وروحاً إلهية وهي خالدة ، ومتنزلة عليه من ( خارج ) الطبيعة المنخيرة الفانية .

هذا بعض ما نأثى به من مؤلفات أرسطو إزدلالاً على ثقافته في الشؤون الميتافيزيقية ، وخوضه فيها بما لا يدع حاجة في نفس مرید الاستدلال على مذهبه فيها .

هذا ما يجب أن يعرفه طالب الفلسفة عن الميتافيزيقا قديماً وحديثاً ، وما حفزنا إلى الالتئان به إلا استكمال عناصر فهم الفلسفة على وجهها الأكمل ، ولست بما أوردته من مذهب أرسطو أريد أن أنتصر لما يقرره ، فقد أصبح بخيالات الصبيان أشبه ، والميتافيزيقا ليست بمسئولة عنه ، وقد مر العلم الطبيعي نفسه بدور مثل هذا الدور الطفلي ، فكانت مقرراته قبل ألف سنة تم من سذاجة مضحكة ، فانتقأت تدريجياً إلى ما هي عليه اليوم ، وإن كان من سيخلفنا عليها بعد ألف سنة سيرون أن بيتنا وبينهم بونا شاسعاً في سعة المعرفة والبعد عن الأوهام .

من كل ما مر يتضح أن الميتافيزيقا لم توضع لغرض ديني ، ولكنها وضعت بواسطة أرسطو أو تلاميذه لغرض فلسفي ، ولم يلق بها إلى عالم الأوهام منذ نهضة العلم في أوروبا أي منذ نحو قرنين أو ثلاثة ، ولكنها لا تزال قسماً من الفلسفة الرسمية إلى اليوم ، وهي من الأدوات العقلية التي لا بد منها للوصول إلى فهم الوجود الذي نعيش فيه ، فإن كنا لم نصل إلى تحقيقه على مقتضى الدستور العلمي فليس بمستحيل أن نحظى بفتح جديد في العلم تنكشف لنا منه أمور يسكون لها أكبر أثر في تقريبنا من الحقيقة

وإذا صدق الطبيعيون في قولهم إن الطبيعة غير مصرفة فيما تعمل ، ساغ لنا أن نقول إن هذا التمتعش من العقل في البحث عن علل الموجودات ، وتتبُّعها حتى تصل إلى نهاية في العالم المحسوس لا يتلج الصدور عليها ، ثم لجوءه إلى النظر فيما وراء العالم المحسوس ، وتشبُّهه بهذه المحاولة بنهمة لا تنهدأ ، إن هذا الولوع المفرط بالوصول إلى ما وراء العالم المحسوس لا يمكن أن يكون قد وُضع فيه عبثاً ، ولا بد من أنه سيحفزه إلى بلوغ درجة من العلم تناسب درجة هذا العامل المستعصى فيه . ومن يجمل الطرف في كل ما حصله الإنسان من الفتوحات العلمية والعملية يتحقق أنها لم تكن إلا ثمرة هذا الحافز العلوي . فهل فسر من يحاول كبته أنه إنما يحاول كبس أكرم غريزة تقمية كانت سبباً في إيصال الإنسان إلى كشف مساهير كان لا يحظر ببال أحرأ المتفائلين أنه سيصل إلى كشفها ، وستوصله إلى ما لا يحلم به من أسرار هذا الوجود الذي لا نهاية له ؟

محمد فرير وجرى

## من وحي الشريعة الخالدة

ما من ظاهرة أخلاقية تخففت عنها أطوار الوجود وأبرزتها إلى آفاق المجتمع بين الظواهرات النافعة أو الضارة ، إلا كان لها من الشريعة مرد بين الأوامر والنواهي ، وبين ما صيغته في الوجود من ألوان ، وما ألقت فيه من عظات بالغات ، ومثلات سابقات .

فللشريعة الخالدة سلطانها الأعلى في إضافة الخير على المجتمع في مختلف آفاقه وشقي عصوره ، بقدر ما لها من الوارع المنبث في أطرافه ومناحيه ؛ وهل أبلغ أثرا وأعم سلطانا وأكثر لمصالح البشرية تحريما واستقصاء من تلك التي أحاطت الوجود منذ مرحلته الأولى ببيض الفعل ونوازع الاتصال ، وحكمته بأنماط لاخير مثالية ، فرسخت فيه عوامل الفضيلة ، ونادت بلسان الرسل والأنبيا في صيحة واحدة بين الناس كافة بما تقوم عليه السعادة للمجتمع ، وما يشق به إذا صدف عن المحبة أو رغب عن المحبة ؟

فشريعة الكمال والبقاء هي تلك الشريعة التي أوحى إلى الإنسانية للشعور بأعبائها الثقيل ، فأنصرفت إلى خيرها وتجنبت شرها بمقدار ما تتفعل به النفوس من دعوة البهائم ، ورسالة الوعظة والهداية .

فهي تدعو الناس فيما تدعو إلى الصدق والبر ، والترحم والنجدة ، والسخوة والكرم والسخاء ، وحفظ السر ، والاحتفاظ بالأمانة والعدالة ؛ ثم هي فيما وراء ذلك وما إليه تدعوهم إلى مجابة الأضداد كلها ، فتدعو إلى الكف عن الإطراء في المدح ، وترى أن ذلك الإطراء في بعض جوانبه الممدوح قد يكون عليه إنما ووبالا ، وقد يجر إليه غرورا وخيالا .

فعلماء الأخلاق يرون أن الإطراء نوعان : نوع يراد به الممدوح في عارفة من عوارف هذا الكون تسلك فئة من الناس في أفق من الخير ينتعمون به ويسرون بحطامه غرضا من أغراض الحياة ولأوائها ؛ وهذا النوع من البر بالإنسانية والجذب عليها ليس في شيء من الخطر أن يكون الممدوح عليه إذا مثالا يحتذى ، ونمطا يقتدى ، وقبسا يستضاء به في الظلمات الموراثية . وبما يلتحق بهذا النوع أنواع شتى لا عداد لها ، كالرئيس في قومه يقيم فيهم المعدلة ويرفع بينهم علم اليقين ، وينشر عليهم سلطان الحق المبين ، لا يمدل به عن الصواب بصر ، ولا ينأى به عن مظاهره المظلومين ريع من التعجب أو الكيد . أما المطربون على غير حقيقة ابتغاء الرأى وبلوغ المآرب أو حقير المطالب ، فذلك هو الإطراء الذي دونه الملق والرياء ، وفي مرتبته ضعف الثقة برب السماء ، مع التشبث بالخلقين الضعفاء . هذا النوع هو الذي

تضافرت الشرائع كلها على اطراحه من بين ظاهرات البشرية ، وقد أهلك فيمن أهلك أمما وأباد شعوبا وقبائل ، وصيرم مثلا في الآخرين .

روى الشيخان في صحيحيهما عن أبي موسى رضى الله عنه قال : « سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يشي على رجل ويطربه في المدحة فقال : « أهلكم ، أو قطعتم ، ظهر الرجل » . فالحديث في ظاهر أسلوبي ينكر على الرجل مدحته لآخيه في محضر النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن الرجل لم يسلك في طريق مدحه ما كان يجب اتباعه ، وما يجب اتباعه في امتداح الخليفة به أن يسند إلى تقديره وأن يكله لحسابه ، فإذا أطلق في المدح كان معناه أن المدح منفرد بالثناء عن كل أحد ، وأنه استحق بذلك تعجيده وتقديسه . فالفروض في المباشرة الإفذاذ في كل فن وفي كل عصر وحيل أن تبسط فيهم ألسنة المادحين ابتغاء لما لهم أو جاههم أو تشجيعهم ، أو طلبا للثكاة من أعدائهم ، أو ما إلى ذلك . ولكن على المادح أن يكون في مدحوه مقسطا في حد مفاخره وتبيان عوارفه .

وقد أبحاث الشريعة الغراء أن يمدح المؤمن في وجهه لأنه لا يفتن بهذا المدح ، فلا يستعيل به على النظراء ، ولا ينتقم به من الأعداء ، ولا يحابي به فريقا من الأولياء والنصراء ، بل يفكر الله على أن بؤاه في الوجود مكانا عليا .

وأخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي بكر رضى الله عنه قال : « ذكر رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فأتى عليه رجل خيرا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ويحك قطعت عنق صاحبك » يقوله مرارا ، إن كان أحدكم مادحا لا محالة فليقل أحسب كذا وكذا إن كان يرى أنه كذلك ، وحسب الله ، ولا يركى على الله أحدا » .

ولما كان هذا الموضوع كثير الشعب طويل الدوايب ، وكانت المجلة لا تتسع للتبسط فيه في البحث الراهن ، فقد أرجأنا ذلك إلى بحث تالية .

هباسع طه

## تصحیح

وقع في المدين السابقين خطأ نصحه فيما يلي :

صواب	خطأ	ص	ص	في العدد الاول
وفي الاصل : أبي لهب	أبي حبل	٤	د	
» صغيرة	حقيرة	١	٦٦	في العدد الثاني

by God Himself, and to sink their tribal dissensions in the common weal of the brotherhood of faith. "O men, verily, we have created you of one male and one female; and we have divided you into peoples and tribes, that ye might have knowledge one of another. Truly, *the most worthy of honour in the sight of God is he who feareth Him most.* Verily, God is knowing and cognisant<sup>(1)</sup>."

Equality of rights was thus the distinguishing feature of the Islamite commonwealth. A convert from a humbler clan enjoyed the same rights and privileges as one who belonged to the noblest Koreish. Even a slave was admitted as a brother from the very moment of his conversion, and the highest dignitary in the state thought it no dishonour, to partake of his repast with him. Nor in the place of worship were suffered artificial differences between man and man: the high and the low, the prince and the peasant, the rich merchant of Mecca and the roaming bedouin of the desert, stood shoulder to shoulder in the presence of their common Deity. This equality and fraternity was, and is even to-day, though much weakened, the key-note of Islam and the secret of its power as a world-religion<sup>2</sup>. This levelling principle, underlying the tenets of the new faith, proved a veritable blessing to the Arabs in particular. Tribes and races, hitherto at war with one another, were, in the embracing fold of Islam, welded into one nation, imbued with common ideas, common aims and aspirations, and devoted to a common cause. Conflicting interests were harmonised from a loyal desire to advance the public good. The Holy Koran laid down certain principal laws, intended to govern their new relations as members of the state, to extinguish the fire of the old tribal jealousy, and to affect a union of hearts unknown before. The laws soon succeeded in bringing order out of chaos and confusion and made civic life possible for the first time in Arabia. "O believers," so run the fine verses of the Koran, "if any wicked man come to you with news, make a thorough inquiry, lest through ignorance ye harm a people and have to repent on the morrow of what ye have done; and know that an apostle of God is among you. Should he submit to you in most matters ye would certainly fall into difficulty. But God hath endeared the faith to you, and hath given it favour in your hearts, and hath made unbelief and wickedness and disobedience hateful to you. Such are they who pursue a right path,—a bounty from God and a grace — and God is knowing and wise. If two bodies of the believers are at war, then make ye peace between them with fairness and do justice; God loveth those who are just. Those who believe, are brethren; wherefore make peace between your brethren, and fear God, that ye may obtain mercy.

---

(1) Koran, ch. "The Apartments."

(2) T. W. Arnold, 'The Preaching of Islam.

noble in its doctrine of the duty of man to the lower creatures. There is little in it of superstition<sup>1</sup>, less of complexity of dogmas : it is an exacting religion without the repulsiveness of asceticism ; severe but not merciless.

"Nothing in fact is more odious, according to the doctrines of Islam, than the self-inflicted torments and voluntary penance of the ascetics. It always recommends the cultivation of the social virtues and the practice of those qualities which form the graces of a corporate life. Islam laid the foundations of a social system which breathes the spirit of charity, friendship, and mutual trust among its members. So impressively did the Prophet bring these high lessons home to the Arab mind, both by precepts and example, that the tribal jealousies of centuries soon became extinct, the old spirit of revenge, inherent in the nation, died away, and the hearts of the true believers were knit together in the closest bond of sympathy and fraternity. They now felt themselves as the brethren of one and the same faith, and citizens of the same commonwealth, enjoying equal rights and privileges.

"Islam penetrated into the very hearts of the Arab people, and the old spirit of jealousy and vengeance, of hostility and ill-will, yielded place to a happy consciousness of the power of love, sympathy and fellow-feeling ; the very character of the Arab mind was changed, and many of the evils rooted in the nation were fast eradicated. Within the Islamic commonwealth the internecine wars, which were the cause of much wanton bloodshed, soon became a thing of the past ; and hostile tribes were united in faith and obedience ; and the valour which had been idly spent in domestic quarrels, was vigorously directed against a foreign enemy<sup>2</sup>."

### XIII

## The Political System of ISLAM

When the Prophet settled at Medina, he established a commonwealth based, not upon the old basis of consanguinity, but upon Religion, with the Prophet himself as the chief magistrate. The spirit of blood-revenge, derived from the fiery and sensitive temper of the Arabs which was responsible for the long-protracted blood-feuds between clan and clan, waned away, and in its place there grew up in each member of the new commonwealth a genuine, earnest desire to see the peace and unity of the community maintained. The sense of tribal pride and superiority lost much of its keenness ; the bond of consanguinity was greatly relaxed. They were taught to reverence the new institution, planted through the Prophet,

---

(1) There is not the slightest superstition in Islam.

(2) S. L. Poole's 'Lectures on Islam.'

## XI

### The Social Changes Brought about by the Prophet

Dealing with the social changes brought about by the Prophet, Dr. Noldeke states<sup>1</sup>: "One fact among others, by which we can estimate the striking impression the Prophet produced upon the Arabs, is that as each tribe submitted, or adopted his religion, it renounced the right of retaliation for the bloodshed in the struggle. Under other circumstances, this renunciation of blood-revenge, or of wergild at least, would have seemed to the Arab the lowest depth of humiliation. This was, indeed, so striking a feature of the new brotherhood that it could not fail to make a silent but deep impression upon the unbelieving multitude who now began to feel the power of the new religion.

"To those who seek miracles, this glorious result, achieved in less than a decade, constitutes a real and splendid miracle of Islam, which alone gives it the title, to be ranked as a great religion and a wonderful civilising agency. In an exquisitely beautiful passage, full of grace and wisdom, the Holy Koran draws a contrast between the life and manners of the Arabs in the shade of Islam and those in pre-Islamic times; and urges upon the true believers a true union of hearts, and dwells on the real purpose of the advent of the new religion. Here is a translation of the verses: 'O ye believers, fear God as He deserveth to be feared; and die not but as true Muslims. And hold ye fast by the cord of God, all of you, and do not scatter yourselves, and remember God's goodness towards you, *how that when you were enemies, He united your hearts, and through His grace, ye became brethren*, and when ye were on the brink of the pit of fire, He drew you back from it; thus clearly God showeth His signs, that ye may be guided. And let there be among you a people who invite to the good, and enjoin the right, and forbid the wrong: and these are they who shall succeed. And be ye not like those who have broken into divisions and fallen into variance, after the clear proofs have come to them, and for those there waita a terrible chastisement."

## XII

### The Political Organisation Wrought by the Advent of Islam

"Islam", writes Mr. Stanley Lane Poole, "is a form of pure theism, simpler and more austere than the theism of most forms of modern Christianity<sup>2</sup>, lofty in the conception of the relation of man to God, and

(1) Dr. Noldeke's Book on Islam.

(2) In fact there is not to be found such a pure theism in any other religion than Islam,

concubines, why should not they raise the same objection against such of the Old Testament prophets whose number of wives and concubines had by far exceeded that number ?

David had six wives and numerous concubines (2 sam. v. 13 ; 1 Chron iii, 1-9 ; xiv. 3) ; Solomon as many as 700 wives and as many as 300 concubines, (Kings xi. 3). Rehoboam had 18 wives and 60 concubines (2 Chron. xi. 21), a plurality expressly forbidden to the sovereign of Israel, who was commanded not to multiply wives to himself (Deut. xvii. 17).

Honestly speaking, prejudice and partiality alone reign over all the writings of Christian missionaries, when they deal with the person and character of the Holy Prophet.

The mere fact that the Prophet Mohammad entered into polygamous relationship, should not be made the pretext for attacks on his unsullied character, vouched for by friends and foes alike. The circumstances, connected with the marriages of the Prophet must be taken into consideration, in order to come to a right conclusion. As already stated<sup>1</sup>, he passed his adult days with an elderly widow and did not condescend to enter into another wedlock, even though the Meccan elders gladly agreed to place the most beautiful damsel of the wealthiest family at his disposal. However, later on, in the declining years of his life, he married a number of wives who, with the solitary exception of Ayesha, were either widows or divorced women. These facts, viewed in the light of the truth that the Prophet passed his days in preaching and actively pushing the cause of his new faith, and his nights in prayer, and that the Prophet was universally believed to be an honest man, endowed with all the qualities of moral greatness and all the attributes of virtuous manliness, bring home the conviction to every sound mind, that sensuality as a motive of action, is conspicuous by its absence in the life of the Holy Prophet of Islam. Each of his marriages brought a world of social and political good to the Moslem community, and these marriages were a valuable instrument in welding together the contending factions of Arabia into a united community. Had polygamy, allowed by the Prophet under reasonable restraints and limitations, been a social bane, as some prejudiced critics try to assert, it would have hampered the moral elevation of the corrupted Arabs. But with the adoption of Islam as a moral code the moral improvement grew apace, and the transformation wrought in the moral condition of Arabia, is without a parallel in the history of the world.

---

(1) Vide pp. 66—70 of this Book.



"It is this perfect abnegation of self, connected with this apparently heartfelt piety, running throughout the various phases of his fortune, which perplex one in forming a just estimate of 'Mahomet's' character. However he betrayed the alloy of earth after he had worldly power at his command, the early aspirations of his spirit continually returned and bore him above all earthly things. Prayer, that vital duty of Islamism, and that infallible purifier of the soul, was his constant practice. 'Trust in God', was his comfort and support in times of trial and despondency. On the clemency of God, we are told, he reposed all his hopes of supernal happiness. Ayesha relates that on one occasion she inquired of him, 'Oh, prophet, do none enter Paradise but through God's mercy?' 'None, none, none,' replied he, with earnest and emphatic repetition. 'But you, Oh prophet, will not you enter excepting through His compassion?' Then 'Mahomet' put his hand upon his head, and replied three times, with great solemnity, 'Neither shall I enter Paradise, unless God cover me with His mercy.'

"When he hung over the death-bed of his infant son Ibrahim, resignation to the will of God was exhibited in his conduct under this keenest of afflictions; and the hope of soon rejoining his child in Paradise was his consolation. When he followed him to the grave, he invoked his spirit, in the awful examination of the tomb, to hold fast to the foundations of the faith, the unity of God, and his own mission as a prophet. Even in his own dying hour, when there could be no longer a worldly motive for decency, he still breathed the same religious devotion, and the same belief in his apostolic mission. The last words that trembled on his lips ejaculated a trust of soon entering into blissful companionship with the prophets who had gone before him<sup>1</sup>."

## X

### Attacks of Christian Divines against the Private Character of the Prophet

The manner, in which Christian divines have attacked the private character of the prophet, is indeed very surprising. They seem to reject the sacred mission of the Prophet Mohammad merely on account of his polygamous marriages etc., when yet they receive as inspired the sayings of Balaam, David or Solomon. Missionaries should not, as a rule, attack the character of Mohammad.

If the prophetic mission of Mohammad should be rejected by the ministers of the church on account of his having had nine wives and two

---

(1) W. Irving's *Life of 'Mahomet'* (Bell & Daldy, London) p. 200.

To assail it, must draw on himself the hostility of his kindred, the indignation of his fellow-citizens and the horror and odium of all his countrymen who were worshippers of the Kaaba.

"Was there anything brilliant in the outset of his prophetic career to repay him for these sacrifices, and to lure him on ? On the contrary, it was begun in doubt and secrecy. For years it was not attended by any material success. In proportion as he made known his doctrines and proclaimed his revelations, they subjected him to ridicule, scorn, obloquy, and finally to an inveterate persecution, which ruined the fortunes of himself and his friends ; compelled some of his family and followers to take refuge in a foreign land ; obliged him to hide from sight in his native city, and finally drove him forth a fugitive, to seek an uncertain home elsewhere. Why should he persist for years in a course of 'imposture' which was thus prostrating all his worldly fortunes, at a time of life when it was too late to build up anew ?

"He was forty years of age before he first broached his doctrines. He suffered year after year to steal away, before he promulgated them outside of his own family. When he fled from Mecca, thirteen years had elapsed from the announcement of his mission, and from being a wealthy merchant, he had sunk to be a ruined fugitive. When he reached Medina, he had no idea of the worldly power that awaited him ; his only thought was to build a humble mosque where he might preach ; and his only hope, that he might be suffered to preach with impunity.

"His military triumphs awakened no pride nor vainglory, as they would have done had they been effected for selfish purposes. In the time of his greatest power he maintained the same simplicity of manners and appearance as in the days of his adversity. So far from affecting regal state, he was displeased if, on entering a room, any unusual testimonial of respect were shown him. If he aimed at universal dominion, it was the dominion of faith ; as to the temporal rule which grew up in his hands, he used it without ostentation, and he took no step to perpetuate it in his family.

"The riches which poured in upon him from tribute and the spoils of war were expended in promoting the victories of the faith ; and in relieving the poor among its votaries ; insomuch that his treasury was often drained of its last coin. Omar Ibn Al Hareth declares that 'Mahomet' at his death, did not leave a golden dinar nor a silver dirham, a slave nor a slave-girl, nor anything but his gray mule Daidal, his arms and the ground which he bestowed upon his wives, his children, and the poor.

His intellectual qualities were undoubtedly of an extraordinary kind. He had a quick apprehension, a retentive memory, a vivid imagination, and an inventive genius. His ordinary discourse was grave and sententious, abounding with those aphorisms and epilogues, so popular among the Arabs; at times, he was excited and eloquent, and his eloquence was aided by a voice musical and sonorous.

He was sober and abstemious in his diet, and a rigorous observer of fasts. He indulged in no magnificence of apparel, the ostentation of a petty mind, neither was his simplicity in dress affected, but the result of a real disregard to distinction from so trivial a source. His garments were sometimes of wool, sometimes of the striped cotton of Yemen, and were often patched. He forbade the wearing of clothes entirely of silk; but permitted a mixture of thread and silk.

He was scrupulous as to personal cleanliness, and observed frequent ablutions. In his private dealings he was just. He treated friends and strangers, the rich and the poor, the powerful and the weak, with equity, and was beloved by the common people for the affability, with which he received them, and listened to their complaints. He was naturally irritable, but had brought his temper under great control, so that even in the self-indulgent intercourse of domestic life, he was kind and tolerant. 'I served him from the time I was eight years old,' said his servant Anas, 'and he never scolded me for anything, though things were spoiled by me.'

## IX

### The real Motives of the Prophet

W Irving, seeking to discover the real motives of 'Mahomet', 'in giving himself for a prophet of God', put the following questions, which he himself answered :—

'Was it riches? His marriage with Khadija had already made him wealthy, and for years preceding his 'pretended vision', he had manifested no desire to increase his store. Was it distinction? He already stood high in his native place, as a man of intelligence and probity. He was of the illustrious tribe of Koreish, and of the most honoured branch of that tribe. Was it power? The guardianship of the Kaaba, and with it the command of the sacred city, had been for generations in his immediate family, and his situation and circumstances entitled him to look forward with confidence to that exalted trust. In attempting to subvert the faith, in which he had been brought up, he struck at the root of all these advantages. On that faith were founded the fortunes and dignities of his family,

**Earnestness and Honesty of Mohammad at Mecca :** "As he was himself subject to convictions thus deep and powerful, it will readily be conceived that his exhortations were distinguished by a corresponding strength and cogency. Master of eloquence, his language was cast in the purest and most persuasive style of Arabian oratory. His fine poetical genius exhausted the imagery of nature in the illustration of spiritual truths ; and a vivid imagination enabled him to bring before his people the Resurrection and the Day of Judgment, the joys of believers, in Paradise, and the agonies of lost spirits in Hell, as close and impending realities. In ordinary address, his speech was slow, distinct, and emphatic ; but when he preached, his eyes would redden, his voice rise high and loud, and his whole frame agitate with passion, even as if he were warning the people of an enemy, about to fall on them the next morning or that very night."

**His disposition :** "When Ayesha was questioned about Mohammad, she used to say - 'He was a man just such as yourselves ; he laughed often and smiled much' If he had the choice between two matters, he would always choose the easier, so that no sin accrued therefrom. He never took revenge, excepting where the honour of God was concerned. When angry with any person, he would say : 'What hath taken such a one that he should soil his forehead in the dust?'"

**Humility :** "His humility was shown by his riding upon asses, by his accepting the invitation even of slaves, and when mounted, by his taking another behind him. He would say : 'I sit at meals as a servant doth, and I eat like a servant, for I really am a servant ;' and he would sit as one that was ready to rise. He discouraged supererogatory fasting, and works of mortification. He hated nothing more than lying ; and whenever he knew that any of his followers had erred in this respect, he would hold himself aloof from them, until he was assured of their repentance."

**Attitude at Prayers :** "He used to stand for such a length of time at prayer that his legs would swell. When remonstrated with, he said : 'What, shall I not behave as a thankful servant should ?' He never yawned at prayer. When he sneezed, he did so with a subdued voice, covering his face. At funerals he never rode ; he would remain silent on such occasions, as if conversing with himself so that the people used to think he was holding communication with the dead<sup>1</sup>."

The following are abstracts of Washington Irving's account of the characteristics of the Prophet Mohammad<sup>2</sup>.

---

(1) Sir William Muir's *The Life of Mohammad*.

(2) *Life of Mahomet* by Washington Irving (Bell & Daldy, London 1864).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَاشِيَةِ

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي

شيخ الجامع الأزهر

— ٣ —

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ :

أَيُّ الشَّيْءِ يَأْتِي أَيْ إِذَا جَاءَ وَقْتُهُ ، وَالْخُشُوعُ : الضَّرَاعَةُ وَالْإِقْبَادُ ، وَأَكْثَرُ مَا يَسْتَعْمَلُ الْخُشُوعُ فِيمَا يَوْجَدُ عَلَى الْجَوَارِحِ ، وَأَكْثَرُ مَا تَسْتَعْمَلُ الضَّرَاعَةُ فِيمَا يَوْجَدُ فِي الْقَلْبِ ، وَلِذَاكَ قِيلَ : إِذَا ضَرَعَ الْقَلْبُ خَشَعَتِ الْجَوَارِحُ .

وَالْحَقُّ : مَا دُمَا إِلَيْهِ الْعَقْلُ ، وَهُوَ الَّذِي مِنْ عَمَلٍ بِهِ نَجَا ، وَمَنْ عَمِلَ بِخِلَافِهِ هَلَكَ ، وَهُوَ مَطْلُوبُ كُلِّ عَاقِلٍ فِي نَظَرِهِ وَإِنْ أَخْطَأَ طَرِيقَهُ .

وَذَكَرَ اللَّهُ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ إِضَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَى الْفَاعِلِ ، فَيَكُونُ الذِّكْرُ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا وَاحِدًا هُوَ الْقُرْآنُ ، وَلِلْقُرْآنِ صِفَتَانِ : صِفَةٌ أَنَّهُ ذِكْرٌ وَمَوْعِظَةٌ ، وَصِفَةٌ أَنَّهُ حَقٌّ نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ إِضَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَى الْمَفْعُولِ فَيَكُونُ ذِكْرُ اللَّهِ تَذَكُّرُ اللَّهِ ، وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ هُوَ الْقُرْآنُ . وَنَظِيرُ ذَلِكَ « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجَّاتِ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تَلَّيْتِ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا » .

وَقَدْ رَوَى عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ قُرِئَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَعِنْدَهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ ، فَبَكَوا بَكَاءً شَدِيدًا ، فَقَالَ : هَكَذَا كُنَّا حَتَّى قَسَتْ الْقُلُوبُ . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ اللَّهَ اسْتَبْطَأَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَاتِبَهُمْ عَلَى رَأْسِ ثَلَاثِ عَشْرَةِ سَنَةٍ مِنْ نَزُولِ الْقُرْآنِ . وَهَذَا أَحَدُ عَنِ أَبِي الْخَوَارِزْمِيِّ قَالَ : بَيْنَا أَنَا فِي بَعْضِ طُرُقَاتِ الْبَصْرَةِ إِذْ صَعِمْتُ صَمْعَةً ، فَأَقْبَلْتُ نَحْوَهَا

فرايت رجلا قد خر مغشيا عليه ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : رجل حاضر القلب سمع آية من كتاب الله نحر مغشيا عليه ، فقلت : ما هي ؟ ف قيل : « ألم يأت الذين آمنوا أني تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق » .

وهناك قصص كثيرة تدل على مقدار تأثير القرآن في قلوب سامعيه ، وهذا التأثير يتبع حضور القلب وفهم معانيه وتذوق اللغة العربية وأساليبها . وللذين يتدبرون القرآن أحوال عجيبة ، وأسرار تهبط عليهم من قبض الله وجوده . أما الذين يتلون القرآن للتبرك بتلاوته ولا استخراج ما فيه من قواعد اللغة العربية ووجوه الإيجاز ، فهؤلاء لا يسألهم من جود الله إلا التندر لليسر .

وهن الأسمى : أقبلت من جامع المصرية فطلع أعرابي على قعود له فقال : من الرجل ؟ قلت : من بنى أسمع ، قال : من أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يتلى فيه كلام الرحمن ، فقال : اتل عليّ ، فتلوت : والداريات ، فلما بلغت قوله سبحانه : « وفي السماء رزقكم » ، قال : حبسك ، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدير ، وعهد إلى سيفه وقوسه فكسرها ، وولى . فلما حبست مع الرشيد طقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق ، ظننت فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفر ، فسلم عليّ واستقرأ السورة ، فلما تلوت الآية صاح وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ! ثم قال : وهل غير هذا ؟ فقرأت « ف ورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » ، فصاح وقال : يا سبحان الله ! من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف ! لم يصدقوه بقوله حتى ألجؤا إلى البين ! قالوا ثلاثاً ، وخرجت معها نفسه .

والمعنى : ألم يحجى الوقت الذي تخشع فيه القلوب وتلير ضارعة إلى الله سبحانه عند سماع القرآن ، وفيه الذكر والمظة ، وقد نزل بالحق من عند الله سبحانه ، وتنقاد الجوارح لأوامره ونواهي ، وتمكف على العمل بما فيه ، وتتدبر أسرار ، وتحافظ عليه ، ولا تزيد ولا تنقص كما فعلت الأمم من قبل ، حيث كانوا أول أمرهم يحول الحق بينهم وبين شهواتهم ، وكانوا إذا سمعوا التوراة أو الإنجيل خشعت قلوبهم لله وركعت ، ثم لما طال عليهم الزمان من وقت تنزيل الكتب وبث الرسل عليهم الجفاء والقسوة ، فاختلفوا وأحدثوا ما أحدثوه من البدع والتعريف ، خرفوا الكلام من مواضعه ، وحدثت الفرق ، وانهى الأمر بكثير منهم إلى الفسق والخروج عن الدين ، ورفض ما جاء على لسان أنبيائهم . هكذا نبهنا الله سبحانه لنتنبه بأحوال الماضين . وقد نبهنا إلى ظاهرة نفسية من ظواهر الانفس ، فإن طول الأمد على الحوادث يُخلق جذتها ، ويذهب رواءها ، ويضعف التأمل فيها والحساس لأجلها ، وإلغ الشيء يورث التهاون به ، ولذلك يحتاج الدين دائماً إلى مذكر ومجدد ، وليس من وظيفة المجدد أن يحدث في الدين جديداً ، وإنما وظيفته أن يحافظ عليه كما هو ، وأن يعيد إلى النفوس قهقهة وفهمه ، وأن يلهو عنه ويبعد ما ليس منه . وقد ورد « إن الله يبعث إلى هذه الأمة على

رأس كل قرن من يجدد لها أمر دينها . والسنة الإلهية لا تتبدل ، والفرائض الإنسانية تعمل عملها . وعلى القادة والمرشدين أن يلبسوا دائماً الى هذه الظواهر ، والى المعبر بأحوال الماسئين ، اقتداء بكتاب الله المبين ، سبحانه وهو أحكم الحاكمين . وما أحسن ما قيل : لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتفسد قلوبكم ، فإن القلب القاسى بعيد عن الله ، ولا تنظروا الى ذنوب المباد كأنكم أرباب ، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عباد ؛ والناس رجالان : مبتلى ، ومعاق ، فارحموا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية .

﴿اعلموا ان الله يحيي الارض بعد موتها ، قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ :

هو تمثيل لآثر الله ذكر في القلوب . والله الذي يحيي الأرض بعد دثورها ودروسها فتنبث إذا تمهدها العامل بالحرث والعمل ، وتمهدها بالسقى ، أو أصابها الفيث ، يحيي القلوب الميتة إذا تمهدها العبد بالله ذكر وتذكر الآيات ، وراضها على الصالح من الأعمال ، فتعود الى الرقة بعد القسوة ، وتعود الى الطاعة والالتقياد بعد الغلظة والجفوة .

«قد بينا لكم الآيات» : وهي الحجج الواضحة ، والدلائل الباهرة ، وضربنا لكم الامثال لعلكم تعقلون وتأخذون بمقتضى أحكام العقل ، فتعاضطوا على الشكائيف الشرعية ، والأخلاق الراضية .

﴿إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ، ولهم أجر كريم﴾ :

قري المصدقين والمصدقات بالتشديد والتخفيف ، وهما قراءتان صحيحتان ؛ وعلى قراءة التشديد يكون المعنى : إن الذين تصدقوا والذين أقرضوا ؛ وعلى قراءة التخفيف يكون المعنى : إن الذين آمنوا والذين أقرضوا .

﴿والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون ، والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾ :

في قوله سبحانه : « والشهداء عند ربهم » رأيان : الأول : أنه مرتبط بما قبله وليس كلاماً مستقداً ؛ والمعنى على هذا : والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون عند ربهم وهم الشهداء عند ربهم ، فكل مؤمن صديق ، وكل مؤمن شهيد . قال مجاهد : كل من آمن بالله ورسوله فهو صديق وهو شهيد ، وتلاه هذه الآية . وإنما كان المؤمن صديقاً لأنه كثير الصدق ، وكان شهيداً لأن المؤمنين شهداء عند

رهبهم على أعمال العباد ، وهم المدبول الذين تقلل شهادتهم . ويتبين أن يحمل الإيمان في هذه الحالة على الإيمان الكامل . ثم بعد أن أخبر الله عن المؤمنين بأنهم صدیقون وشهداء ، أخبر بأن لهم أجرهم ونورهم ، أي لهم ثواب أعمالهم ونورهم الذي يهتدون به إلى الجنة .

والرأي الثاني : أنه كلام مستأنف وقد انتهى الأول عند قوله : هم الصدیقون ، وابتدأ هنا قوله : والشهداء ، والمعنى على هذا المؤمنون هم الصدیقون ، والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ، ونظير قوله : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون » ، فرحين بما آتاهم الله من فضله . قال ابن جرير : والظاهر أن الإيمان لا يوجب اسم الشهداء ، فهنا غير متعارف ، والرأي الثاني أولى ، وأنا أيضا أرى هذا ، وأزيد على ذلك أن الله سبحانه في هذه الآيات أراد أن يعطى حكم أربعة أصناف : حكم المنفقين المصدقين ، وحكم المؤمنين ، وحكم الشهداء ، وقد أشار إليهم سابقا بقوله : « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى » ، فهناك من قاتل قبل الفتح وبعده لم يعط حكما إذا لم يحمل قوله : « والشهداء عند ربهم » مستأنفا كما هو الرأي الأول . أما إذا جعل مستأنفا كما هو الرأي الثاني فإن هذا الصنف يكون قد أخذ حكما . والصنف الرابع هم الكفار ، وقد حكم عليهم في الآية الآتية :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۖ ﴾

هؤلاء الذين كفروا أشير إليهم بقوله سبحانه : « فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا » ، كما أشير إلى الشهداء بقوله : « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ... » ، وبعد أن بين الله سبحانه أحوال المؤمنين ، وأحوال المقرضين ، وأحوال الشهداء ، بين في هذه الآية أحوال المكذبين بالله وآياته ، وحكم عليهم بأنهم أصحاب الجحيم ، يلزمونها كما يلزم الصاحب صاحب ، لا يفارقونها بل يخلدون فيها ما دامت السموات والأرض ، إلا ما شاء ربك ، إن ربك فعال لما يريد .



## هل تعلم النبي الكتابة بعد النبوة

رد شبهة وردت في بعض الكتب

لم يكن للكتابة في هذا الموضوع من داعية ، لولا أن كاتبني جريدة البورس اجبسين التي تنشر بالفرنسية في القاهرة قد كتب تحت عنوان ( ايميريد ) Ephemérides كلمة في موضوع الامية ، مدح الاسلام فيها بأنه يدعو لمكسفة الامية ، جاء في عرض كلامه ما يؤخذ منه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ ويكتب ، فقد قال : « وإذا ذكرنا أن الاسلام من أول وجوده رفع من قدر الكتابة الى حد أن عدها من العبادة ، وأنه عظم الكتاب والام التي لها كتاب كالنصارى واليهود ، وإذا ذكرنا أيضا أن نبي المؤمنين كان هو نفسه كاتباً مبداً Styliste وعلماً مكتملاً Scribe accompli يلقي الناس الفريضة ، وأن الشعوب العربية قد اشتهرت بحبها الشديد لتذوق الآداب الرائعة ، إذا ذكرنا هذا كله كان من حقنا أن نحكم بأن بقاء هذا العدد العديد من الاميين بين ظهرائي فلاحى النيل ، من التقصير الذي لا يغفر » .

واننا مع شكرنا لحضرة الكاتب على شهادته الحققة للنبي صلى الله عليه وسلم وللمسلمين كافة ، نلاحظ أنه مال الى رأي العدد القليل من علماء المسلمين الذين قالوا بأن الله بعد النبوة علم رسوله القراءة والكتابة .

فهم هذا قول نسب الى بعض علماء المسلمين من أشهرهم الشعبي ومجاهد ومال إليه القاضي عياض . وعندما عورضوا بقوله تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك » أجابوا بأن ذلك كان قبل نزول القرآن .

وقد استند هؤلاء القائلين بأن الله علمه أن يقرأ ويكتب على حديث رواه البخاري والنسائي وأحمد بن حنبل ، مؤداه أن النبي لما كان يحلى على علي بن أبي طالب شروط صلح الحديبية ، وسفير المشركين حاضر ، وأمل هذه العبارة وهي : « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » اعترض السفير قائلاً : لو تعلم أنك رسول ما منعناك شيئاً . فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي : ابع رسول الله . فتخرج علي من ذلك . فأخذ رسول الله الكتاب وليس بحسن يكتب فكاتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله الخ .

هذا مستند الذين قالوا بأن الله علم نبيه القراءة والكتابة . ولكن أكثر علماء المسلمين لا يرون هذا مستندين الى رواية مسلم ، وفيها أن سفير المشركين لما اعترض على عبارة ( رسول الله ) وتأنم علي من محوها ، قال صلى الله عليه وسلم لعلي : أرى مكانها ، فأراه مكاناً فجعلها .

وقد اعتد جمهور العلماء الاسلاميين بهذه الرواية لموافقتها لنص الكتاب من ناحية ،

ولعدم وجود ما يحتم الأخذ بالرأى المخالف غير عبارة حديث البخارى والترمذى وليس هو بالتنوير حتى يتحتم الأخذ به كما يتحتم الأخذ بالقرآن .

والمعقول أن الامية التى اعتبرها الكتاب نفسه معجزة للنبي وكررها أكثر من مرة لا يصح أن تتخلف عنه على مدى الأزمان . فأقل تكلفنا من كل هذا أن يقول نصا البخارى والترمذى وأن يصرفا عن ظاهرهما .

على أنه لو ثبت ثبوتنا قاطعا أن النبي صلى الله عليه وسلم تعلم القراءة والكتابة فى آخر أيامه ، بل لو سلم للملحدين جدلا أنه كان قارئاً وكاتباً فى أثناء نزول القرآن وقبله ، فهل فى ذلك ما يقلل من قيمة المعجزات الكبرى التى اختص بها وهى إثباته بكتاب حافل بأهميات الأصول الأدبية والنفسية والاجتماعية ، التى لم يصل البشر إليها إلا تدريجياً وبعد عهده بمئات السنين ؛ ونجاحه فى القضاء على الوثنية والجاهلية فى أمة رمتها ، وإقامتها على التوحيد الخالص ، والمدنية الخلقية الصحيحة ؛ وتوحيد قبائلها وتوجيهها وجهة فاضلة ، وتحليتها بجميع الصفات التى تبين الجماعات الراقية ، والخصائص التى تضمن تطورها ، والخواص التى تمنع ارتكاسها حتى تصل الى درجة خلافة الله فى الأرض ، وزعامة العالم كله فى العلم والحكمة والسياسة وأمادا طوية ؟

إذا كان مجرد القراءة والكتابة توصل صاحبها الى هذه المكانة ، وهو يخفى بين جنبيه روح الاحتيال والتدليس بإدعائه النبوة وهو ليس بنبي ، وانتحال الامية وهو ليس بأمى ، وإيهامه أنه يوحى اليه وهو لا يوحى اليه ، قلنا إذا كان مجرد القراءة والكتابة والافتراء على الله والناس يوصل الى مثل هذه المكانة ، لم يوجد معيار يفرق بين الحق والباطل ، ولبطلت جميع ما قرره التجارب من أن النفوس الملتاعة بأفصح الصفات لا تصالح لإقامة نداء أدبى ينفع البشر . فإذا كان النزاع بين الطرفين فى أن النبي كان قارئاً كاتباً أم أمياً ، هو لأجل حماية معجزته من الشبهات ، فإن هذه المعجزة لا تمس بسوء لكثرة الأدلة عليها ، ولتصاورها على إثباتها .

يحرص خصوم الاسلام على إثبات أن النبي كان قارئاً كاتباً ليتوصلوا بذلك الى أنه قرأ التوراة والإنجيل وألف منهما القرآن وأدعى أنه تنزيل من حكيم حميد . والذى يقرأ القرآن الكريم يعرف أنه اتفق وهذين الكتابين فيما هو حق ، وخالفهما فى أمهات من المسائل ، ورد على ما تقتضى الرد منهما ، فهل يريد الخصوم أن يقولوا إن هذين الكتابين ليس فيهما حق يمكن الاتفاق وإيهام عليه ؟

إن الذى يجب أن يستوقف النظر فى القرآن الكريم هو النقد المنطقي الذى وجهه الى أهل الكتاب ، والتعديل العلمى المعجز الذى دهم اليه ، وهذا هو الذى يجب أن يتأمله الماقلون ليدركوا بدليل جديد أن القرآن أزل لإصلاح عالمى عام ، وأنه بهذا الوصف سيبقى أبدي الأبدى . محمد فريد وجدي

## بَابُ الاسْتِئْذَانِ وَالْفَتْاوَى

### حكم الشريعة الإسلامية في عقوبة الزنا

ورد إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر خطاب من حضرة صاحب العزة محمود بك لطيف عضو مجلس النواب ومعه مذكرة عنوانها «دراسة في عقوبة الزنا» للاستاذ مرقص فهمي الحماني، وقد طلب في خطابه بيان حكم الشريعة الإسلامية فيما جاء بهذه المذكرة خاصة بعقوبة الزنا في الإسلام. ولاهمية هذا الموضوع رأيت اللجنة أن تستوعب ما جاء في المذكرة متصلاً بعقوبة الزنا في الإسلام دراسة وتعميماً، فتبين لها أن هذه المذكرة تضمنت النقاط الآتية :

- (أولاً) أن الزنا إذا وقع في غير علانية ليس جريمة ، لا عقوبة عليه .
- (ثانياً) من الخطأ أن يقال في واقعة الزنا إنها من أشد الجرائم على الجماعة .
- (ثالثاً) الزنا إذا وقع علناً فليست العقوبة عليه بإعشاره زناً ، وإنما العقوبة على إشاعة الفاحشة .
- (رابعاً) إنما قرر الإسلام عقوبة الزنا تهديئة لطواغر الناس ، ومن باب مخاطبتهم على قدر عقولهم .
- (خامساً) الزنا ليس معطلاً للفصل .
- (سادساً) واجب الزوج ، أمام زوجته الزانية ، أن يصفح ويستر .

وإلى القارئ بيان حكم الشريعة الفراء في هذه النقاط :

أولاً — إن الإسلام يعتبر كل اتصال جنسي قائم على أساس غير شرعي زناً تترتب عليه العقوبة وبإلحاح التهديد والوعيد ، وأن الزنا كيفما وقع (مستوراً أو غير مستور) جريمة معاقب عليها ؛ والله تعالى يقول : «والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » والمعادون هم الذين يتجاوزون حدود الله ويفتكون حرمة ؛ وقد قال الله تعالى : «ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » وقال جل شأنه : «ومن يظلم منك نفعه عذاباً كبيراً » ويقول تعالى : «والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ؛ ومن يفعل ذلك يلقِ أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً » .

فليس صحيحاً ما قاله الأستاذ في صفحة ٢١ أن الزنا إذا وقع في غير علانية ليس جريمة لا عقوبة عليه ، بل هو جريمة من أغشى الجرائم ، ومعاقب عليه أشد العقاب . نعم لا يقيم القاضي على الزاني حد الزنا إلا إذا ثبت لديه بطريق الإثبات التي سنها الشارع .

وليس معنى هذا أن الزنا إذا لم يثبت أمام القاضي لعدم توفر أدلة الإثبات عليه لا يكون جريمة ، بل هو في الواقع ذنب وجريمة ، وإثم يستوجب من الله الغضب والعقوبة الأخروية . ومثل الزنا في ذلك مثل سائر الجرائم إذا لم تثبت بدليلها ، فانها لا تستوجب العقوبة الدنيوية

مع كونها جرائم في الواقع ونفس الأمر تستوجب العقوبة والغضب من الله وسوء العقوبة في الآخرة .

ثانياً — ولما كان للاتهام بالزنا أثر سيء في سقوط الرجل والمرأة ، وانتهيار كرامتهما أمام قومهما ، وإلحاق العار بهما وبأسرتيهما وذريتهما على طول الدهر ، شدد الشارع الحكيم في طريق إثبات هذا الجرم الشديد ، ورفع نصاب الشهادة فيه إلى أربعة رجال يشهدون به مفسراً أمام القاضي ، حتى يسد السبيل على الذين يتهمون الأبرياء جزافاً أولادني حزازة بعار الدهر وفضيحة الابد . ولكن الأستاذ صاحب المذكرة يزعم أن الاسلام ما شدد في إثبات الزنا إلا استهانة به ، وإلا ليجعله في معزل من كل جنائية ، إذ يقول في مذكرته صفحة ١٥ بمد أن ساق آية القذف : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة » ، قال : بهذه الآية خرجت واقعة الزنا من حدود التشريع الجائى كله ... فاذا بها ليست تلك الجريمة التي يقال خطأ إنها من أشد الجرائم على الجماعة لا بد لها من عقوبة سريعة شديدة ، بل وضعها الشارع في معزل من كل جنائية لا تلحقها العقوبة إلا استثناء وفي النادر القليل ، بل العقوبة فيها أقرب إلى الاستعالة منها إلى الإمكان اهـ .

بهذا الأسلوب يتناول الأستاذ التشريع الاسلامي ، ويحاول أن تلين له قناته . كلا ! إن جريمة الزنا هي التي يقال حقاً إنها من أشد الجرائم على الجماعة ، ولا بد لها من عقوبة شديدة ، بل لا نجد جريمة يترتب على دعواها والقذف بها ما يترتب على دعوى الزنا والقذف به من لصوق العار الابدى بلنتهم وأسرته وقومه ومعارفه . فـ هنا ومن هنا فقط رفع النصاب في الشهادة على الزنا إلى أربعة رجال عدول يندر أن يتآلفوا على قذف الأبرياء ، وتقرر كذلك حبل القاذف ثمانين جلدة إذا لم يأت بهؤلاء الشهود الأربعة .

ثالثاً — والاسلام يقرر العقوبة إذا ثبتت الجريمة شرعاً — على الجريمة نفسها — وهي الزنا ، لا على إشاعة الفاحشة ؛ فقد قال تعالى : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله » ، فعلق العقوبة على الزنا لا على شيء آخر . فغير صحيح ما ذكره الأستاذ في صفحة ٢٢ إذ يقول : أما إذا وقعت الواقعة علناً فقد تمت إشاعة الفاحشة فاستحققت العقوبة لأجلها لا لأجل الزنا .

واللجنة كانت تود أن يكون الاستناد على ذكر ما يقوله الأصوليون ورجال القانون : من أن العقوبة إذا عُلقت على وصف كان الوصف هو المسبب لها ، فحين تقول المادة ( ٢٥٣ ) من القانون المصري : « يعاقب أيضاً الزاني بتلك المرأة » يكون معنى ذلك حتماً أن الزنا سبب العقوبة ، وأنها تترتب عليه ولا تترتب على شيء سواه ؛ والآية الكريمة « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » فيها هذا الترتيب نفسه ، أي توقيع العقوبة على الزنا

ومن أجله فقط ، وليس لإشاعة الفاحشة في الآية ذكر . فدعوى أن إشاعة الفاحشة هي السبب في العقوبة إغفال للسبب الموحود ، واختراع لسبب غير موجود .

رابعا — والاسلام قد تدرج في تقرير بعض الاحكام حدودا وغير حدود ، كالذي حصل في محريم الخمر ، والذي حصل في تشريع الصوم ، والذي تراه أغلبية الفقهاء في تقرير حد الزنا ، حيث كانت العقوبة أول الامر الايداء بالتوبيخ والتنقيف «واللذان يأتيناها منكم فاذوها» ، ثم تدرج من ذلك الى الحبس في البيوت «واللذان يأتيناها منكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا» ، ثم استقر أمر العقوبة على حلد الرأى غير المحصن مائة جلدة ، ورحم المحصن حتى يموت . ولم يكن هذا التدرج استجابة من الشارع لمطابقة من عواطف الناس ، ولا تهديته لخطا طرأ ، وإنما كان تدرجاً في ترقية المجتمع ، وإخراجهم على رفق وهوادة من ظلمات الشرك والنوضى الى نور الإيمان وحسن النظام ، حتى لا يشق على الناس هذا الانتقال ، وحتى لا يكون عليهم في الدين من حرج .

وكيف يتصور عاقل أن يكون هذا التدرج حاضعا لهوى فرد أو فريق من الناس وهو قد حصل في العبادات كما حصل في غير العبادات ؟ ومحال أن يتصور هذا الهوى في العبادات التي هي علاقة محضة بين المرء والمرء وخالفه لا شهوة للمرء فيها ولا غرض «بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون . ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » .

فليس صحيحا ما يمزوه الأستاذ للاسلام من أن التدرج في عقوبة الزنا إنما قصد به تهديته لخطا طرأ من باب محاسبة الناس على قدر عقولهم ، وتكرار هذا المعنى في مذكرته ، ففي صفحة ١٤ يقول : « فالواقع أن الوحي قصد في تشريعه الأول أن يجعل الزنا مخالفة تقسية جزاؤها التنقيف والتوبيخ ، ولكن غير العرب لم يرد أن تطنن ، فترلت الآية الثانية بالحبس في البيوت . وقال في صفحة ٨٤ : ثم أخيرا ولتهديته القوم رفعت العقوبة الى الجلد . ١ هـ

ولئن صح أن يقال كلام مثل هذا في القوانين الوضعية التي تستمد مبادئها من رغبات البشر وآرائهم ، فما كان يصح أن يقال في جانب التشريع الإلهي المخترع من الهوى والغرض . خامسا — والاسلام يصون الاعراض أيما صيانة ، ويحفظها من التلوث والدخالة ، لأن الاعراض الطاهرة تستوجب الطمأنينة السعيدة في الأسرة ، فتنصب ذرية قوية ماجدة شريفة ترفع الانسانية وتسمو بها ، وما من شك في أن الأسرة المنهدمة لا تنسل أمة نبيلة ولا شعبا كريما ، وأن الشعوب التي يشوقها الزنا يسارع اليها الخراب المادي والادبي ، ويستحيل أهلها الى شرذم منهدمة لا تناصر بينهم ولا تعارف ، والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تزال أمتي بخير ما لم يفش فيهم ولد الزنا ، فإذا فشا فيهم ولد الزنا أوشك أن يممهم الله بمقاب » .

فليس صحيحاً ما يقول الأستاذ في مذكرته صفحة ٣٣ « أن الزنا ليس معطلاً للفلس... بل إنه معطل للفلس القوي الصالح المتناصر، وقاطع الرحم التي تكون بين الناس، والتي على نظامها وتقديرها تبنى كافة الروابط من الأبوة والبنوة والأخوة وسائر القربات: « يأبها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شملوا وقبائل لتعارفوا »، « واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ».

سادساً — والاسلام ينسب العفاف بين الناس، ويدعو الى التمسك بالطهر، ولذلك يرغب في التزوج بالصالحات المصونات؛ وقد فطع رسول الله صلى الله عليه وسلم السكوت على الخنا، وأن يعلم المرء على زوجته سيئة ويسكت، فقال عليه الصلاة والسلام: « لا يدخل الجنة ديوث ». فمن الخطأ ما جاء في مذكره الأستاذ في شأن الزوجة الزانية حين يقول: « وإن كانت الزوج يحبها فواجبه الصحيح أن يصفع ويستر، وكانت هذه نصيحة النبي صلى الله عليه وسلم .. الخ ». وقال في صفحة ٨٦: « وصحلاً بنصيحة النبي طلق أو فاستر عليها الخ ». وقال أيضاً في صفحة ١١١: « نصيحة النبي والأئمة في شأنه الطلاق أو التستر » اهـ.

وقد زعم الأستاذ أنه يستند في شأن هذا الذي سماه نصيحة النبي الى حديث نقله عن النيسابوري، فقال في صفحة ٢٠: جاء في النيسابوري صفحة ٥٣ جزء ١٨ « روى أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لي امرأة لا ترد يد لامس، قال: طلقها، قال: إني أحبها، قال: فأمسكها ». وهذا الحديث لا يصح التمسك به لضعفه واضطراب أقوال العلماء فيه.

فالنيسابوري نفسه يشير الى أن هذا الحديث لم يصل الى درجة الصحة، إذ تراه يسوق الرواية في أسلوب المتبري، فيقول: « روى أن رجلاً » ولم يذكر المروى عنه؛ ومن القواعد المقررة في مصطلح الحديث أن الراوي إذا لم يذكر المروى عنه كان ذلك دليلاً على ضعف الحديث وعدم الوثوق بصحته.

وقد نقل الحافظ ابن حجر عن ابن الجوزي عن الامام أحمد أنه قال: لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب شيء، وأن هذا الحديث ليس له أصل. وتمسك ابن الجوزي بذلك فأورد الحديث في الموضوعات.

وبعد: فإن لجنة الفتوى بالأزهر الشريف ترجو من الأستاذ صاحب المذكرة وغيره ممن تدفعهم أممهم الى التعرض للسائل التشريعية الاسلامية، ألا يتخذوا من مواقفهم التصائية وأعمالهم الخاصة فرصة للغرض في التعاليم الاسلامية الثابتة فيظهرها على غير وجهها الصحيح بأساليب تشوه من جمالها، وتفتح باب التأويل الفاسد، وتثير الشكوك والريب.

والله ولي التوفيق والهداية، يهدي من يشاء الى صراط مستقيم.

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

## خلاف فلسفي

بينى وبين صاحب « على أطلال المذهب المادى »

كتبت في الجزء الأول من مجلة الأزهر ، من مجلدها الثانى عشر ، مقالا بعنوان :  
الفلسفة بين الوجود والفكر ، وعلق عليه في الجزء نفسه حضرة الأستاذ محمد بك فريد وجدى  
تحت عنوان : هل من فلسفة إسلامية ؟

وردت على تعليق حضرته بعنوانه نفسه : هل من فلسفة إسلامية ؟ في الجزء الثانى من  
المجلة ، وعقب حضرته على هذا الرد في الجزء عينه بعنوان : الفلسفة بين الوجود والفكر .  
ونشرت لي المجلة في جزئها الثالث مقالا بعنوان : نظرة الفلسفة الميتافيزيكية الى الانسان ،  
وعقب عليه فريد بك في الجزء ذاته بعنوان : ماهى الميتافيزيكية ؟

وكل ما يستخلص من الكتابة ، والتعليق ، والرد ، والتعقيب ، ينحصر في أن الخلاف بيننا :

- (١) في تحديد بعض الاصطلاحات الفلسفية ؛
- (٢) وفي أسلوب البحث الفلسفى ؛
- (٣) وفي قيمة الجمع بين الدين والفلسفة وأثره ؛
- (٤) وفي تحديد المذهب المادى والمذهب الطبيعى وقيمة كل منهما ؛
- (٥) وفي الميتافيزيكية والمنهج الميتافيزيكي فى التفلسف .



### بعض الاصطلاحات الفلسفية :

فعند ما كتبتُ مقال « الفلسفة بين الوجود والفكر » وأشرت الى موضوع الفلسفة  
الإسلامية ، والى ما كان من إعراض علماء النهضة عن موضوع البحث في فلسفة القرون الوسطى  
عامة ، ومنها موضوع الفلسفة الإسلامية ، علق الأستاذ فريد بك نافيا وجود فلسفة إسلامية  
استمدها « الاسلام » من خارجه . وكان ردى عليه أن هذا المعنى المنئى للفلسفة الإسلامية  
لا يدخل في مفهومها حتى يُبنى ، لأن التمييز « بالفلسفة الإسلامية » اصطلاح لمؤرخى الفلسفة  
وضمعه للفلسفة الاغريقية التى نقلت الى المسلمين في ثوب الافلاطونية الحديثة والفيثاغورية  
الحديثة واعتُخل بها فريق من علماء المسلمين كالفارابى وابن سينا وإخوان الصفاء ، بدليل  
أنها كثيرا ما تذكر في تاريخ الفلسفة باسم الفلسفة العربية . فاعللاف بيننا أنى التزمت التعبير الفنى ،  
والتزمت ما يقصد منه ، فيما هو أضاف اليه معنى - لينميه ثانيا - يحتمله التعبير في نفسه بعض  
النظر عن كونه اصطلاحا .

ولم أفهم بعد هذا التوضيح من تعليقه الثانى في الجزء الثانى للمجلة بعنوان « الفلسفة

بين الوجود والفكر « أنه يشكر على أن « الفلسفة الإسلامية » تعبير اصطلاحى خرج من صوم المعنى القوي وأريد به ما أردت . وكنت أنتظر من فريد بك - وهو يكتب باسم العلم - أن يصرح بموافقتي لا أن يدع هذه الموافقة مسنورة في كتابته .



#### أسلوب البحث الفلسفى :

وعندما تعرض حضرتي في تعليقه : هل من فلسفة إسلامية ؟ لقيمة المذهب المادى ، لم ألتخذ في ردى على هذا التعليق بالعنوان نفسه موقفاً تجاه رأيه ، لأنى لم أكن بصدد بيان القيم المختلفة للمذاهب الفلسفية ، وإنما خالفته لحسب في شيئين :

أولاً : فى أن كتابتى فى « الفلسفة بين الوجود والفكر » لم تتعرض لتصوير مذهب من المذاهب الفلسفية - وما زلت أخالقه فى هذا - بل كانت فقط عرضاً تاريخياً لتغير موضوع البحث الفلسفى فى الأزمنة المختلفة وأسباب هذا التغير .

وثانياً : فى أن قيمة أى مذهب فلسفى فى نظر تاريخ الفلسفة لا تتوقف على رأى الدين فيه ، فضعف المذهب الفلسفى لا يكون من حيث إنه « يصور نزعة إلحادية » بل لأن أسسه أصبحت فرضية بالنظر لما اتفق عليه الباحثون فى عصر من العصور فى أن يكون مقياساً « للحقيقة واليقين » . وكذلك قوته لا تكون من حيث إنه يمثل « الإيمان الكامل » بل لمطابقتها لذلك المقياس . نعم جاء عصر ، وهو عصر القرون الوسطى أو عصر الفلسفة الدينية ، كان مقياس « الصحيح والفاقد » من الفلسفة هو الدين نفسه . ولكن العدول عن الدين كمقياس كان قريناً للرغبة فى توجيه البحث الفلسفى نحو الطبيعة أكثر من بقاءه على بحث ما وراء الطبيعة ؛ أى أنه استبدل بغيره منذ عصر النهضة . وليس معنى هذا أنى أوافق الباحثين أو أخالفهم فيما عدلوا إليه ، إذ ذلك شئ آخر له بحث آخر غير العرض التاريخى الذى قصدت إليه .

وفريد بك وإن أكد أنه يسلك فى بحثه الفلسفى ، إذا ما ناصر مذهباً فلسفياً أو حاول إضافته ، سبيل الفلاسفة الذين لا يمزجون بين مصدر للمعرفة ومصدر آخر ؛ فلا يسترضون مثلاً على مبادئ التصوف ، وهى قائمة على المعرفة الصوفية ، بطريق أهل المنطق ، ولا على النظريات المؤسسة على معرفة هؤلاء بطريق « الفيض والتمثل » وهكذا . . . وهو وإن أكد ذلك إلا أنه بقى مع هذا التأكيدي شدة الغموض وصفه للمذهب الفلسفى المادى ، فى سياق التدليل على صغفه ، بأن هذا المذهب « يصور نزعة إلحادية » أى نزعة غير دينية .



#### قيمة الجمع بين الدين والفلسفة :

الأستاذ فريد بك فى تعليقه فى الجزء الثانى من المجلد بعنوان : « الفلسفة بين الوجود



والفكر» يرى أن سند الدين في الفلسفة ، وأن القرآن لا تبرز حكته ولا قيمته الداتية إلا في ضوء العلم والفلسفة . بل ذهب الى أبعد من هذا : ذهب الى وضع (١) منطق للدين يُتعرّف بواسطته الحق والباطل منه ( من الدين ) كما وضع أرسطو في القرن الرابع قبل المسيح منطقهُ الصوري لمعرفة الصحيح والخطأ من الأحكام العقلية ، وكما وضع سيكون في القرن السابع عشر منطقهُ التجريبي تكملة لمنطق أرسطو . ومنطق الدين في نظر فريد بك يجب أن يتكون من الأبحاث العلمية والنفسية الراهنة ومن أم هذه الأبحاث في رأيه بحث « الأثير » وبحث « استحضار الأرواح » و « التنويم المغناطيسي » الذي أثبت وجود الروح في الجسم بتجارب حاشية ! ! مستقلة عنه يمكن إخراجها منه بواسطة التنويم العميق ، فتتجسد على صورته تجسدا خفيفا مستعيرا جسده من مادته يمكن تعيين وزنها بما تقص من جسم المنوم ، وتظهر حاصلة على عقليته ونفسيته ، وكل مميزاته ، ظهورا يلمس ويصور ، وتصدر منها أفعال مادية لا تدع في النفس شبهة (٢) .

فالحق من الدين والصحيح من المعاني الدينية في نظر فريد بك ما وافق هذه الأبحاث ، وهذه الأبحاث وحدها ، رغم عدم استقرار نتائجها ، هي الحكم والمرجع للحقائق الدينية . وأنا أرى ، انعطافا من تاريخ الفلسفة ، واعتمادا على الأبحاث الحديثة لسيكولوجية الدين ، أن قوة الدين في عزله عن الفلسفة ، وليست قوته رهبا على مواجهة حقائقه بعض آراء الفلاسفة ؛ كما أرى أن اتصال الدين بالفلسفة بغية طلب العون منها لم يكن له من أثر - وليس له من أثر - سوى تعقيد العقيدة ، فضلا عن إصعاف قوة الإيمان بها ، لوضعها موضع النقاش والجدل (٣) . ولا أريد أن أذهب بعيدا عن ثقافتنا الإسلامية ، ولا بعيدا أيضا عن الطور الذي اشتبكت فيه العقيدة الإسلامية بالفلسفة الإغريقية لتصوير هذا الأثر .

دخلت الفلسفة الاغريقية تشرح رجال مدرسة الاسكندرية ، منذ عصر المأمون في آخر القرن الثاني الهجري ، في ثقافة المسلمين ؛ وتناولت مما تناولته بالبعث المبدأ الأول للكون ،

(١) مجلة الأزهر ص ١٤٦ ج ٢ من المجلد العاشر

(٢) من كلام فريد بك في العدد السابق

(٣) يقول الإمام المراغي في درسه الديني الثالث الذي ألقاه مساء الخميس ٢٢ من شهر رمضان سنة ١٣٥٦ بمسجد أبي الملا بالقاهرة في شأن الجمع بين الدين والفلسفة : « وجد الخلاف بين المسلمين في المقائد والأحكام العقبية ، ووجد عندهم مرض آخر وهو الغرور بالفلسفة وتأويل القرآن ليرجع اليها ، وتأويله لبعض النظريات العلمية التي لم يقر قرارها ، وذلك خطر عظيم على الكتاب ، فإن للفلاسفة أوهاما لا تزيد على هذيان المصاب بالحمى . والنظريات التي لم تحتقر لا يصح أن يرد اليها كتاب الله ... »

وصفات هذا المبدأ ، ونشأة العالم المشاهد عنه ، والانسان ومستقبله وقايته الاخيرة التي يرى فيها سعادته ؛ ووضعت أمام العقل الاسلامي نظرية الواجب والممكن ، ونظرية وساطة العقل الفعّال بين الله والعالم ، ونظرية الصورة والهيولى ، ونظرية للعقول المجردة ، ونظرية فيض النفس الكلية على النفوس الجزئية . . .

ولم يشأ العقل الاسلامي أن يعالجها في عزلة عن الدين ، ولا أن ينقدها - إذا نقدها - من غير رعاية للدين ؛ بل حاول جهد طاقته ، في بدء اشتغاله بها ، أن يشرح بعض حقائق العقيدة بما ورد فيها من آراء الفلاسفة ، ثقة منه بأن ذلك هو طريق تأييد العقيدة ، وفي بلوغ ذلك بلوغ الكمال . « فإذا انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال » (١) ؛ وثقة منه كذلك بأن الدين والفلسفة حقيقة واحدة ، وبأن كلا منهما يرمى الى غاية واحدة . « وهل الحكمة إلا مولدة الديانة ؟ وهل الديانة إلا متممة للحكمة ؟ وهل الفلسفة إلا صورة النفس ؟ وهل الديانة إلا سيرة النفس ؟ » (٢) ، « لا خلاف بين أحد من العلماء بالفلسفة ولا بين أحد من العلماء بالشريعة بأن غرض الشريعة هو غرض الفلسفة على الحقيقة » (٣) .

على هذا النحو يصور لنا العلماء الاسلاميون الصلة بين الدين والفلسفة ، بمد ترجمتها منذ القرن الثاني الهجري . ولم يعمد بعض العنصر في أهم حدود الصلة بينهما بهذا القدر ، لأن الفلسفة الاغريقية وردت إليهم في ثوب ديني صوفي في كثير من تقطعها - نتيجة عمل رجال الاسكندرية - ولأن منطلق أرسطو الذي ترجم أولاً ، في عصر المنصور ، أحدث في نفوس المسلمين شبه يقين برجاحة العلم اليوناني وعصمة الحكمة اليونانية .

وتبعا لهذه الثقة أصبحنا نرى علماء العقيدة يسندون على مغايرة الله للعالم بنظرية الواجب والممكن التي فرعها أرسطو على نظامه في الصورة المحضة والهيولى المحضة ، والتي استتبعت مما استتبعت من صفات ، وحدة الوجود الواجب بمعنى عدم تعدد ذاته ، وعدم تركيب ذاته الواحدة من أجزاء . وقد قال فريق من المسلمين في إبراز وحدة الوجود الواجب فني صفات الباري ، كلها أو الكثير منها ، لأن إيمانها يقتضى - في نظره - التركيب . وسلك فريق آخر من الراغبين في إثبات الصفات - تمشيا مع ظاهر القرآن - وفي الوقت نفسه من الحرصين على نفي ما يورم عدم الوحدة ، طريقا هو كما يقول : دى . بور ، أقرب الى التلاعب بالألفاظ منه الى الاتيان بنصيب جوهرى إيجابى في حل هذا الاشكال ، وهو الجمع بين إثبات الصفات والوحدة ، فقال : « له سفة كذا ... وهي عين ذاته » .

(١) مقابسات أبى حيان التوحيدي ص ٤٥ ، المطبعة الرحمانية سنة ١٩٢٩

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٠ (٣) الفصل في الملل والنحل ص ٧٩

كل هذا بعد أن كان يفهم المسلم ، وبعد أن كان في استطاعة كل مسلم كذلك أن يفهم ، أن المعبود واحد لا شريك له ، وأنه غير ما في الكون من مخلوقات ، إذا تليت عليه آيات ربه الداعية إلى التوحيد ، مثل قوله تعالى : « وإلهكم إله واحد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » ، وبعد أن كان يتكفيه في التندليل على صحة هذه الدعوى كي يقنع بها ، مثل قوله تعالى : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفقك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » .

تبعا لهذه الثقة أصبحنا نسمع لآبي الهذيل الملاف من شيوخ المعتزلة رأيا في أن كلمة التكوين ( قول الله للشيء - كن ) التي تعبر عن الإرادة الإلهية ، حادثة لا في عمل ، وأن الإرادة تغاير المريد والمراد . وعلى هذا ، فكل كلمة التكوين في المكان الوسط بين الخالق والأزلي وبين العالم المخلوق الحادث . وهذه الكلمات المعبرة عن الإرادة الإلهية هي بمثابة جواهر بسيطة تشبه المثل الأفلاطونية وعقود الأملاك .

يقرا كثير من المسلمين لآبي الهذيل هذا الرأي ، ولكن الذي يفهم المراد منه قليل ، وهو الذي يفهم المثل ، ويفهم لأي غرض وضع أفلاطون نظرية المثل ؟ ولماذا كان القول بالوساطة بين المبدأ الأول ( الله ) والعالم ؟ بينا المسلم إلى عهد الترجمة كانت نفسه مطمئنة إلى الإيمان بخلق الله على أية كيفية ، وكانت حرارة هذا الإيمان تممرقابه حتى أنتج وساد ، وكان لا ميزة لأحد على غيره بخصوصية في تصور تأثير الله في العالم ، ولا في معرفة كيفية له مختصة به .

تبعا لهذه الثقة أصبحنا نرى الملائكة تحدد بأنها : « جواهر ، بسيطة ، علامة ، فعالة ، وبأنها صور مجردة عن الهوى ، مستمثلة للأجسام ، مدبرة لها ، ومنها أفعالها (١) » . كما رأينا هذا المحدد يتخذ أساسا من أسس الإيمان : « والثاني من الأمور التي يضعها واضع الشريعة - في نظر إخوان الصفاء - ثم يبنى عليها سائر ما يعمل ، أن يرى ويتصور موجودات عقلية مجردة من الهوى ، كل واحد منها قائم بنفسه ، متوجه نحو ما نصب له من أمره ، وهم ملائكة الله تعالى وخالص عباده (٢) » .

فما معنى الجوهر ؟ وما معنى بساطته ؟ وما معنى كونه علامة ؟ وما معنى كونه فاعلا ؟ وما معنى الصورة ؟ وما معنى تجريدها عن الهوى ؟ وعلى أي كيفية يكون تدبيرها الأشياء ؟ . لا شك أنها معان لا تتهمها إلا فئة من الخواص فضلا عن أن تتهمها طامة المسلمين . ومع ذلك ملولب المسلمون بالإيمان بها في نظر فريق من علماء المسلمين ، في نظر إخوان الصفاء . تبعا لهذه الثقة رأينا الشريعة الإلهية تحدد بأنها : « جبهة روحانية ، تبدو من نفس

جزئية في جسد بشري ، بقوة عقلية تفيض عليها من النفس الكلية ، بإذن الله تعالى ، في دور من الأدوار لتجذب النفوس الجزئية ، وتخلصها من أجساد بشرية متفرقة ليفصل بينها يوم القيامة (١) .

لماذا وحدثت النفس الكلية ؟ ولماذا كانت المصدر المباشر للفيض ، أو لماذا كانت القوة التي تتولى نقل الأثر من الله الى هذا العالم ؟ وما معنى جذب النفوس الجزئية الى النفس الكلية ؟ لا شك أنه لا سبيل الى فهم ذلك إلا لمن اطلع على فكرة النفس الكلية في الأفلاطونية وفي الرواقية وفي الأفلاطونية الحديثة ، وإلا لمن اطلع على فكرة « جذب » الصورة المحضة للهبولي في رأى أرسطو .

تبعا لهذه الثقة نرى فريقا من المسلمين يتعرض لبيان الروح أو النفس فيقول : « ومعرفة الانسان نفسه تكون بأبواب : منها أن يعلم أنه مركب من جوهرين متباينين : أحدهما الجسد الجسماني . . . والآخر هذه النفس التي هي جوهرية ، بسيطة ، روحانية ، معقولة ، سماوية ، ثورانية ، علامة ، دراجة ، فعالة (٢) . . . » .

تبعا لهذه الثقة نرى اللجنة تفسر بأنها عالم الأفلاك والعقول المجردة ، ونرى النار تفسر بأنها عالم ما تحت تلك القمر ، وهو العالم الأرضي ، عالم الكون والفساد ، وربما هذه الآية الكريمة : « كلما فضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » تفسر بفكرة التنازع ورجعة الأرواح الى الأجسام في عالم ما تحت تلك القمر ( وهو النار ) ، وربما كذلك « الشهداء » الذين ذكرهم الله في قوله تعالى : « فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » تعالى تسميتهم بالشهداء أعاهدتهم تلك الأمور الروحانية المفارقة للهبولي .

هذه بعض أمثلة لشرح حقائق العقيدة الاسلامية بالفلسفة الاغريقية ، أو لتفلسف الدين ونصرة الدين بالفلسفة .

هلا يرى متى الآن فريد بك أن من خدمة الدين عدم تعقيد العقيدة ؟ وأن تفلسف الدين تعقيد لحقائقه ؟

وهلا يرى متى الآن أني لم أكن « واهما » حينما ذكرت أن العقيدة الاسلامية بعد شرح حقائقها بالفلسفة الاغريقية مالت الى التعقيد والغموض بعد أن كانت واضحة ، وأصبح فهم كتبها وقفا على الخاصة وسرا من أسرارها بعد أن كان المسلمون - تقريبا - في مرتبة واحدة في فهم ما يراى من كتاب الله وما ذكر فيه من عقائد ؟

(١) المصدر نفسه ج ٤ من ١٨٢ (٢) المصدر نفسه ج ١ من ١٨٠

# السنة

مثل من إيداء المنافقين والمشركين للرسول بعد الهجرة

عن الزهري قال : أخبرني عروة بن الزبير « أن أسامة بن زيد رضى الله عنهما أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمار على قطيفة فدركته وأردف أسامة بن زيد وراءه يعمود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر ، قال : حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي بن سلول ، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي ، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين صدق الأوثان واليهود والمسلمين ، وفي المجلس عبد الله بن رواحة ، فلما خشيت المجلس حاجة الدابة خضر عبد الله بن أبي أنفه برده ، ثم قال : لا تغربوا علينا ، فلم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ثم وقف ، فنزل فدعاهم إلى الله ، وقرأ عليهم القرآن ، فقال عبد الله بن أبي ابن سلول : أيها المرء إبه لا أحسن مما تقول ، إن كان حقا فلا تؤذنا به في مجالسنا ، أرجع إلى رحلك ، فوجاهك فاقصص عليه ، فقال عبد الله بن رواحة : بل يا رسول الله فانفضنا به في مجالسنا فانا نحب ذلك ، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يرزل النبي صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكنوا ، ثم ركب النبي صلى الله عليه وسلم دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا سعد : ألم تسمع ما قال أبو حباب ؟ ( يريد عبد الله بن أبي ) قال كذا وكذا قال سعد بن عبادة : يا رسول الله اغفر عنه ، واصفح عنه ، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق لقدي أنزل عليك ولقد اصطلاح أهل هذه البصرة على أن يتوحدوه فيعصونه بالعصاة ، فلما أتى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله تفرق بذلك ، فذلك فعل به ما رأيت . ففما عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعمفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ، ويصبرون على الأذى . قال الله عز وجل : « ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا — الآية » ، وقال الله : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم — إلى آخر الآية » ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتأول المغر ما أمره الله به ، حتى أذن الله فيهم ، فلما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرأ فقتل الله به صناديد كفار قريش ، قال ابن أبي ابن سلول ومن معه من المشركين وعبد

الأوثان : هذا أمر قد توجه ، فبايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، فأسلموا .  
رواه البخاري في كتاب التفسير .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه إجمالاً . (٢) بيان بعض ما لقيه النبي وأصحابه من المشركين والمنافقين من الأذى في سبيل الدعوة إلى الله . (٣) بيان معنى الآيتين السكريتين المذكورتين في الحديث .

( ١ ) يستفاد من هذا الحديث إجمالاً أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا ينفك عن الجهاد في سبيل الله بالقول والفعل ، مهما لاقى من عنت وعناء ، ومهما صادفه من إساءة وإيذاء ، وأنه كان قدوة حسنة لأمنه في كل حركة وسكون ، فلا تصدر عنه إلا الفضائل الخلقية ، والمكارم التي تقرها العقول السليمة ، وترضاها الانسانية الكاملة ، وتؤمن بها الأنفس الراضية الطاهرة .

بيان ذلك : أنه صلى الله عليه وسلم ذهب ليعود مريضاً من أصحابه ، وعبادة المرضى من الأهل والصحب سنة من سنتي شريعتي الطاهرة ، بشرط أن لا يترتب على زيارتهم أدى لهم أو لغيرهم من الأصحاء ، فلا يحل الاختلاط بالمريض إذا كان مصاباً بمرض من الأمراض المعدية التي تنتقل إلى الأصحاء ، أو كانت الزيارة تؤدي المريض ، فإذا ترتب على مخالطة المرضى ضرر لهم أو لغيرهم فإن الشريعة الإسلامية تنهى عن مخالطتهم ، وتحث على السؤال عنهم بدون مخالطة . ومن هذا يتبين أن سعد بن عباد كان مصاباً بمرض خفيف لا تنتقل عدواه إلى الناس ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد خاطبه وتحدث معه .

وقوله : « ركب على حمار على قطيفة فدكية وأردف أسامة بن زيد خلفه » : فيه إشارة إلى تواضعه وعدم اهتمامه بزينة الحياة الدنيا ومظاهرها الكاذبة ، فلقد كان عظماء العرب يومئذ يفخرون بركوب الخيل المسومة ، وبيالغون في إرهاق المييد والخدم فلا يقرّبونهم منهم ؛ أما هو صلى الله عليه وسلم فقد ذهب لعبادة المريض راكباً على حمار ، وخلفه أسامة بن زيد الذي كانوا يعتقدون أنه من الأرقاء وإن كان الواقع غير ذلك ، فإن زيدا لم يكن رقيقاً بل كان قد اختطفه بعض العرب واسترقه ، إلى آخر ما هو معروف في ترجمة زيد رضي الله عنه .

ومعنى « قطيفة فدكية » : كساء غليظ منسوب إلى فدك ( بفتح الفاء والذال ) وهي بلد مشهور بينها وبين المدينة مرحلتان .

وقوله في « بنى الحارث بن الخزرج » معناه في منازل بني الحارث . وبنو الحارث هم قوم سعد بن عباد .

وقوله : « قبل أن يسلم عبد الله بن أبي » . فيه إشارة إلى أن الإسلام معناه الانقياد الظاهري وإن كان غير مصدق بالقلب ، لأن عبد الله بن أبي لم يكن مؤمناً ، بل كان رأس المنافقين كما بيناه في غير هذا المقال .

وقوله : « أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود والمسلمين » : في هذه العبارة تكرار لفظ المسلمين ، وفي بعض الروايات حذف المسلمين الثانية ، وهو الظاهر . وبمضممهم يقول : إنها زيدت تأكيداً للمعنى بشأن المسلمين .

وقوله : « فلما غفيت المجلس بحاجة الدابة خرج عبد الله بن أبي آتفه بردائه » : معناه أن مشى الدابة آثار الغبار على المجلس الذي به عبد الله بن أبي ، فغطى آتفه بردائه . فغنى بحاجة الدابة : الغبار الذي آثاره مشياً . ومعنى حر آتفه : غطى آتفه بردائه .

وقوله : « إنه لا أحسن مما تقول الخ » : يريد ابن أبي بذلك أن يتف في سبيل الدعوة ، فيسلم بحسن ما يقوله الرسول ولكنه لا يؤمن به لا هو ولا قومه ، فعلى فرض أنه حسن وحق فانه يتأذى منه ، وعلى هذا فلا يصح للرسول أن يؤذى الجالسين بالدعوة إلى الله . ولا ريب في أن ذلك جحود وسفه ، لأن الذي يتأذى من الحق ويضيق صدره من سمائه ليس بإنسان كامل ؛ فعبارة ابن أبي سقيمة على هذا ؛ ولقد راواها بعضهم : لا أحسن مما تقول بضم أوله وكسر السين ، أي لا أفهم شيئاً مما تقول . وعلى كل حال فان هذا ظاهر في المكابرة والعماد .

وقوله : « اصطلح أهل هذه البحرة على أن يعصبوه بالمعابة » : معناه اصطلاح أهل هذه المدينة على أن يتوجوه رئيساً عليهم . فالبحرة تطلق على البلد وعلى القرية . وبمضممهم يقول : إنها اسم للمدينة . والمعابة : شارة خاصة بالرؤساء يمتازون بها .

وقوله : « هذا أمر قد توجه » : معناه ظهر وجهه فلا معنى لمعارضته والوقوف في سبيله موقف العداء ، فأسلم هو ومن معه ظاهراً وقلوبهم ممتلئة حقداً وتغافاً .

( ٢ ) من هذا يتضح بعض ما كان يلقاه النبي صلى الله عليه وسلم من الأذى في سبيل الدعوة إلى الله ؛ فقد كان وهو بمكة يلاقى من إيذاء قومه واضطهادهم إياه هو ومن آمن معه ما لا يحتمله بشر سواه ؛ فلما هاجر إلى المدينة ووجد من الأنصار عضداً وإخلاصاً سخط اليهود من انضمام الأنصار إلى الرسول ، وعاصبوه العداء هو ومن معه . وما يوجب المحب في هذا المقام أن اليهود كانوا يبشرون بظهور النبي العربي في زمانهم ، وكانوا يخبرون بصفاته التي تنطبق عليه تمام الانطباق ، وكانت المدينة بلدتهم ووطنهم ؛ أما الأوس والخزرج فقد كانوا من أهل سبأ الذين يعبدون الأوثان ، فلما أرسل الله عليهم سيل المرم هاجروا واتخذوا لهم موطناً بجوار المدينة ، ثم أخذوا يزاحمون اليهود حتى ضايقهم ، وابتدءوا يظهرهم عليهم ؛ فكان اليهود دائماً يقولون لهم : إن الله سينصرهم عليهم بظهور النبي العربي الذي سيرسله الله قريباً . ولكن الله تعالى أبي إلا أن يهتدى هؤلاء المشركين ويجمعهم أنصار ذلك الرسول الأمين ، فذهب بعض هؤلاء المشركين إلى مكة في موسم الحج بتجارة لهم فسمعوا بظهور

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فشقوا إليه وآمنوا به ، وأخذوا معهم رسلا من المسلمين إلى المدينة ، وأخبروا قومهم بالإسلام ، فهدى الله الأوس والخزرج إلى الإسلام ، ثم بعد ذلك هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فأنقلب اليهود على الرسول وأصحابه وناصبهم العداء ، وجحدوا الحق الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ووقفوا في صيبل الدعوة إلى الله كما كان المشركون يفعلون في مكة ، إلا أن شرمهم كان أهون من شرم مشركي مكة ، لأن الإسلام في المدينة كان له أنصار مخلصون أشداء ، فلم يستطع اليهود أن يقاوموا الدعوة إلى الله ، وفي كلتا الحالتين كان صلى الله عليه وسلم يحتمل من الأذى ما لا يستطيع احتمالها بشر سواه . فانظر إلى سعة صدره وقوة احتماله للإساءة عندما قال له ابن سلول : « اذهب إلى رحلك ولا تؤذنا بدعوتك » فإنه صلى الله عليه وسلم أبى أن يثور أنصاره على أعدائه ، وأخذ يسكن غضبهم حتى هددت ثأرتهم ؛ ولما قص الأمر على سعد بن عساة قال له « ألم نسمع ما قال أبو حباب ؟ يريد بذلك ابن أبي ، فذكره لسعد بكينته تمقيها له ، ولم يستفزه الغضب فيخرج به عن حلمه وحسن خلقه الذي لا يجاريه فيه أحد من خلق الله تعالى .

ولعل ذلك أهون ما لقيه صلى الله عليه وسلم من أعداء الحق ، فقد لقي وهو بمكة من الأذى والمدوان والتأمر على قتله وقتل من يؤمن به ما لا يستطيع أن يحتمله بشر سواه ، وكان في كل أحواله يقابل الصينة بالحسنة ، مشفقا على أعدائه ، حريصا على إخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد الخالص ، بل كان يحزن حزنا شديدا قائلا لعدم إيمان المشركين والمنافقين : « قال تعالى مخاطبا إليه : « لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين . إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أصافهم لها خاصمين » . ومعنى هذا أن الله سبحانه يقول لنبيه : إنك مكلف بتبليغ ما يوحى إليك وتنفيذ ما تؤمر به من قبل الله عز وجل ، وبذلك تكون قد بلغت رسالة ربك ، وأديت الأمانة التي حملتها ، ولم تكلف بما وراء ذلك من الحزن والأسى حتى تكاد تقتل نفسك . فعنى باخع نفسك . قاتل نفسك لعدم إيمانهم . ثم أراد الله تعالى أن يهون على رسوله الأمر فيبين له أنه سبحانه قادر على هدايتهم بأن ينزل عليهم آية يخضع لها عظماءهم الذين يسوقونهم إلى حيث يشتهون ، ولكنه سبحانه أزل عليهم من الآيات البينات ما لا يجعل لهم معذرة في تماديهم على الشرك والضلال ؛ وهذه هي سنة الله في خلقه ، فإنه سبحانه قد أرسلك لهم وأيدك بالكتاب المبين الذي فيه كفاية لقوم يتدبرون ، ومع ذلك فقد انصرفوا عنه عبادا واستكبارا ، واستكانوا لأصافهم ( رؤسائهم ) وأطاعوهم في كل ما أمرهم به من عاربة الله ورسوله ، فاستحقوا غضب الله وعقابه بما اقترفوه باختيارهم من الشرك والضلال بعد ما تبين لهم الحق ، ووضحت أمامهم سبله ، فكانوا لأنفسهم من الظالمين ؛ وإذا كانت هذه حالهم التي لا يتفكرون عنها فلماذا تحزن عليهم وعلى عدم إيمانهم ذلك الحزن المصني الذي يكاد يذهب بحياتك ؟



على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مع هذا كله لا ينفك عن الجهاد السلمي واحتمال الأذى الشديد والصبر عليه ، لعل هؤلاء القوم يتسددون ما جاءهم به من آيات بيّنات فيسمعون في الدنيا والآخرة ؛ وقد حقق الله رجاءه فأمن به الكثير من قومه ، وظهر نور الحق على يديه ، فأصبحوا أمة عزيزة الجانب ، قوية الإرادة ، لا تبالي بالموت ، ولا تنهاب المصائب ، ولا تخشى الأذى ، فجاهدوا في الله حق جهاده ، ومحووا ظلمات الشرك ومظالم الطغاة من القياصرة ولرؤساء ، وكان رائدكم من بعده صلى الله عليه وسلم كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وما تمعوه من أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله . جراء الله عن أمته ودينه خير الجزاء .

(٣) أما معنى قوله تعالى : « لتبذلوا في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا » فهو أن الله سبحانه وتعالى يقول للمؤمنين : إن هذا الذي تسمعون من المنافقين والمشركين واليهود هو أمر ضروري لا بد من وقوعه لكل من يجاهد في سبيل الله ويقوم بالدعوة إلى الله ، والله سبحانه وتعالى يعلى للكافرين به ورسله وأنصار رسله ثم يأخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر ، فما عليكم إلا أن تصبروا وتحملوا الأذى والانتلاء حتى يأتيكم الله تعالى بالصبر والفتح المبين .

وأما قوله تعالى : « ودكنير من أهل الكتاب لو يردوكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ، فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ، إن الله على كل شيء قدير » فالغرض منه حمل المؤمنين على الصبر والأناة ، واحتمال ما يلقونه من إيذاء أهل الكتاب الذين يعرفون الحق بقلوبهم ولكن الحقد والحسد قد طغى عليهم فاستول على أنفسهم ، وحملهم على إنكار ذلك الحق والعمل على إزالته بكل ما أوتوا من قوة ، بل دفعهم العناد والجحود إلى مجارة أعدائهم الطبيعيين من المشركين ليستعينوا بهم على محاربة الحق الذي يعرفون أنه الحق ؛ وذلك من شر ما منيت به الفضيلة ، فإن الذي يحارب الحق وهو يعلم أنه الحق انتقاماً من خصمه وانتصاراً لشهوته لم يحر من أنفس الناس وأشقاهم .

وقوله تعالى : « فاعفوا واصفحوا الخ » هو محل الشاهد الذي سيقت من أحله هذه الآية ، فإنه سبحانه قد أمر المسلمين باحتلال الأذى والصفح عن المؤذنين إلى أن يأمرهم الله تعالى بقتالهم . والله عز وجل ذو انتقام .

عبد الرحمن الجزيري

# حياة الإنسان

أبو بكر الصديق

— ٤ —

الممبود في طبائع الوجود ، جرياً مع سنن الله تعالى ، أن للإنسان في حياته أطواراً يتنقل في مراحلها حتى ينتهي إلى ما قدّر له من مكان يقف عنده متخلفاً عن قافلة الحياة ، لا ينخطاه ولو امتطى الفلك ، أو سابر القيل والنهار ، ولكل طور أمد لا بد من قضائه في مرحلته المقطرة له ، لأن الطفرة لم يجعلها الله تعالى من نواحي الوجود العامة ، وألوان الحياة معها اختلفت ، راجعة إلى ذلك المعنى العام الشامل في طرائق النمو عند الأحياء ، وخاصة لأطوار التكوين في أصناف الموجودات .

بيد أن هذا القانون الطبيعي على شموله لا ينطبق على حياة المبشرين من أفاضال الرجال ، وقادة الإصلاح ، وممثل الإنسانية الفاضلة ، فإن هؤلاء المصلين امتازوا في خصائصهم الذاتية بالشذوذ عن قوانين العامة ، وإن كان لا بد لحياتهم أن تتدرج تحت قانون يضبط سيرها ، فقانونهم هو ذلك الشذوذ من الممبود في مجرى حياة عامة الناس ، لأن الله تعالى لم يجعلهم بما ركب فيهم من خللاق خاصة خاضعين لتلك القوانين ، بل جعلهم فوقها ، وجعل أطوار حياتهم مولودة معهم ، يسرون اليها مدفوعين بدوافع خفية تسوقهم إلى عظام الأمور ، ولا يستطيعون ردها حتى تنتهي بهم إلى طور المنظمة دون حاجة إلى تلبث زمني في تخطي مراحل الأطوار التكوينية ، لأن النمو الروحي عندهم قائم على قانون الطفرة — إذا صح أن للطفرة قانوناً — والطفرة أخص خصائص المبشرين في العالم ، منذ أتيح للمبكرة الإنسانية توجيه الحياة وجهة الخير والإصلاح .

ولسنا في حاجة إلى تلمس الشواهد من أسفار التاريخ ، وحسب الباحث أن يعيد إلى أي مبكر من عباقرة الإنسانية فيفسر بين يديه كتاب حياته ليقرأ تاريخ نشأته ، فيجده في بدء أسره إنساناً كأفراد الأنامي ، لا يمتاز بشيء يرفعه فوق تاريخ أقرانه ، فإذا تابع الباحث النظر انقطعت به سلسلة التدرج ، ووثب به التاريخ على غير انتظار أو تهيؤ إلى طور جديد ، جديد في كل شيء ، لا يكاد يرتبط فيه حاضره بشيء من الماضي القريب أو البعيد ، فهو في الماضي إنسان يولد كما يولد الناس ، وينشأ نشأتهم ، ويحيا حياتهم ، ويميش عيشتهم في بيئة تسيطر على

جانب مبكر

عقله وروحه ، وتتحكم في أخلاقه وعاداته ، ولكنه في حاضره إنسان جديد ، وأول مظاهر هذه الجدة أنه يرتفع روحه وعقله فوق بيئته ، وتحكم فيها بأخلاقه وأفكاره ، وقادها الى طرائق في الحياة لم تسلكها من قبل ، فإذا هي عبادة هداية وإصلاح ، ولو حاول الباحث أن يطل لهذه الظاهرة في حياة المبصرة لاهياء أن يجد من الاسباب الطبيعية ما يصلح عللها ، لأنها في الواقع فوق ما يعهد الناس من علل وأسباب .

هذا أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، أعظم من انفجرت منهم دعوة الانبياء والمرسلين من السابقين واللاحقين . انشربين يديك بحبب حياته ، فإذا هو في بدء أمره طفل فمعجب به أمه كما فمعجب كل والدة بوليدها ، ثم هو غلام يافع بين غلمان قريش ، فشاب ناهد في شباب مكة ، فرجل في عداد رجالها ، يحمل عبء نفسه وحياته وأسرته ، لا تسكاد تحمس به الحياة في مدى قرابة أربعين عاما إلا كما تحمس بأى إنسان في بوادى العرب من أولئك الذين يضطربون في فجاجها بتجارتهم ، ولكن ... ما هى إلا دورة الفلك حتى أشرقت شمس الهداية في بطحاء مكة ، فإذا أبو بكر يشب الى طور العبقريّة وكبّا ، يفصله عن ماضيه ، ويرتفع به الى سماء العظمة الاسلامية ، فيصبح سيد المؤمنين ، ووزير أعظم المرسلين ، ثم أول الخلفاء الراشدين ، يتحدث فيصنئ الى الزمن بسمعه ، وينادى فتاوى الدنيا طيعة ، وتتكشف نفسه عن خصائص لم تبد منه أيام فتوة شبابه ، يؤمن بدعوة الاسلام فيرجع إيمانه بإيمان أهل الأرض ، روى البهيقي في المحاسن عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال : « لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم » ، ويتغلغل في نفسه هذا الإيمان فيملك عليه روحه وعقله ، فلا يحيا إلا به ، ولا يفكر إلا فيه ، فكان إيمانه عند نفسه أعظم من نفسه وماله وولده .

وقد تحدثنا فيما سبق عن روائع الإيمان في نفس الصديق رضى الله عنه ، فكانت تلك الخصيصة الممثلة في التضحية بالنفس إحدى سموات أبى بكر التى طار إليها فذأ على أجنحة المبقرية الوادعة ، فأشرقت منها شمس حياته الاسلامية المباركة ، وإذا كنا قد أعطينا قارئنا صورة مصغرة عن بعض مواقف الصديق في بذله نفسه دون حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودون الدعوة الاسلامية في شتى مظاهرها ، فكان المثل الأعلى في الدفاع عن العقيدة وحرية الفكر ، ومناهضة الجور والتكبر والتقليد البليد ، حتى انطلقت الافكار من عقلاها ترحل في ظلال الاسلام وتعاليمه ، شاهدة على الحيوية الناضجة التى أشعها في روح الاسامية ، فكانت انقلاباً ثورياً جديداً دياجنها ، وهذب أفكارها ، وفتح أمامها طرائق للتقدم الى غايتها السامية ، فن حق البحث علينا أن نقرن بين الخصائص التى تفسر بها الصديق فكانت منها عناصر عظيمة الخالدة ، وإذا كانت تلك الصورة في بذل النفس فلنتحدث هنا في بذل المال — وهو شقيق الروح — لئلا نرى أن مبلغ الصديق في هذه السبيل كسبغته في تلك ، لم يساهم فيها

11/11/11

أحد من الناس ؛ روى أبو داود عن عروة بن الزبير أنه قال : « أسلم أبو بكر وله أربعون ألفاً أنفقها كلها على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيل الله » . وقال عروة أيضاً : « وأخبرتني عائشة أنه مات وما ترك ديناراً ولا درهما » .

كان أبو بكر رضى الله عنه ينظر الى المسلمين في بدء الدعوة فيرى استضعافهم وحاجتهم الى المونة ؛ وكان رجلاً معروفاً بالتجارة فيمد يده إليهم يعولهم وينقذ المستعبدين منهم ؛ فقد أعنتى من ماله سبعة كلهم يمتد في الله تعالى ؛ أعنتى بلالا وطاسر بن فهيرة ؛ وأعنتى حمداً من النساء ؛ وقد قدم المدينة في هجرته ولم يبق له من ماله الكثير سوى خمسة آلاف كان يعمل فيها ما فعل بمكة من قيامه بحاجات المسلمين ؛ وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرى أن مال أبي بكر ماله ؛ ولم يعط هذه المنزلة لأحد من أصحابه سوى أبي بكر ؛ روى أنه صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وأراد بناء المسجد الشريف قال : « يا بني الحجار فامنوني بحائطكم » قالوا : لا نطلب ثمنه إلا الله تعالى ، فأبى ذلك صلى الله عليه وسلم ، وابتاعها بعشرة دنانير أداها من مال أبي بكر رضى الله عنه ؛ وكان خرج من مكة عماله كله .

ومن بارع الأخبار في ذلك ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصدقة ووافق ذلك ما لا أعصى ، فقلت : اليوم أسقى أبا بكر إن سبقته ، فجئت بصنف مالى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أبقيت لأهلك ؟ قلت : النصف ؛ وجاء أبو بكر بكل ماله ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ما أبقيت لأهلك ؟ قال : الله حقا ورسوله ؛ فقلت : والله لا أسبقك الى شيء أبداً » . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم منة أبي بكر عليه بماله ونفسه في مواقف كثيرة إظهاراً لفضيلة الصديق ؛ روى أبو سعيد الخدري رضى الله عنه قال : « خرج علينا رسول الله في مرضه الذي مات فيه وهو عاصب رأسه حتى صعد المنبر ، فقال : « إني لقاتم الساعة على الخوص وإن عبداً عرضت عليه الدنيا وزينتها ، فاختار الآخرة » ؛ فلم يظن لها أحد إلا أبو بكر رضى الله عنه ، فقال : بأني أنت وأمي ، بل نفسيك بأبائنا وأبنائنا وأنفسنا وأموالنا ، وبكى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تبك يا أبا بكر ، إن من آمن الناس على في محبته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذاً حبلاً من الناس لامتدت أبا بكر ، ولكن أخوة الاسلام ، لا يبقى في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر » . فبكى أبو بكر ، وقال : أنا ومالى لك يا رسول الله » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « بينا النبي صلى الله عليه وسلم جالس وعنده أبو بكر رضى الله عنه وعليه عباءة قد حلتها في صدره بحلال إذ نزل جبريل عليه السلام ، فقال : يا رسول الله ، مالى أرى أبا بكر عليه عباءة قد حلتها في صدره ؟ قال : أنفق ماله على قبل الفتح ، قال : فافترقه من الله عز وجل السلام ، وقل له : يقول لك ربك تبارك وتعالى : أراض

أنت عنى في فترك أم ساخط ؟ فقال أبو بكر : أعلى ربى أغضب ؟ أنا عن ربى راض . وروى ابن عبد البر في الاستيعاب قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما تعنى مالٌ ما تعنى مال أبى بكر » . وعن أبى أمامة الباهلي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله أبا بكر : زوجته ابنته ، وحملنى الى دار الهجرة ، وأعنتى ملالا من ماله » .

وروى البخارى في صحيحه عن أبى الهرداء قال : « كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أقبل أبو بكر آخذًا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبتيه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما صاحبكم فقد قامر ( ألقى نفسه في شدة ) فسلم ، وقال : يا رسول الله إنه كان بينى وبين ابن الخطاب شيء فأسرعت اليه ، ثم ندمت فسألته أن يغفرلى فأبى على ، فأقبلت إليك ، فقال : يغفر الله لك يا أبا بكر ، ثلاثا ، ثم إن امر قدم ، فأتى منزل أبى بكر ، فسأل : أتم أبو بكر ؟ فقالوا : لا ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فسلم لجعل وجه النبي صلى الله عليه وسلم يتمش ( بتغير غضبا ) حتى أشفق أبو بكر فجنا على ركبتيه ، فقال : يا رسول الله ، والله أنا كنت أظلم ، مرتين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله بعنى اليكم فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدق ، وواسأنى بمسسه وماله ، فهل أتم تاركولى صاحبي ؟ مرتين ، ها أودى بعدها » .

وهذا الحديث من أعظم الأصول في منقبة أبى بكر وفضيلته ، وفيه من فنون العلم ضروب ، فأنت ترى فيه كيف صور ما بين الشيخين ، وكيف رجع كل منهما ليرضى صاحبه ، وكيف أن نفس أبى بكر لم تحتل غضب أخيه صر حتى أذهله ذلك بعض الشيء ، ورفع ثوبه حتى كشف عن ركبتيه ، وكيف أن صر أدرك أنه اشتد إذ لم يغفر لأبى بكر هفوته فطاف يسأل عنه ليراضيا ، وكيف أن أبا بكر سارع الى الملجأ الأعلى ليستغفر له وليصلح بينهما ، وكيف أظهر النبي صلى الله عليه وسلم مرة أبى بكر في نفسه ومكانه في الاسلام بما ظهر عليه من دلائل التغير في وجهه الشريف ، وكيف حتى أبو بكر من عواقب غضب النبي صلى الله عليه وسلم فقرصاه ، ثم هذه الكلمات الخالدة التي ألقاها النبي صلى الله عليه وسلم في جوارح أصحابه في تدريرهم مكانة الصديق ، ثم هذه الاضافة التشريعية في قوله « فهل أتم تاركولى صاحبي » الدالة على مرعظة الصديق ، وفاقا لقول الله تعالى : « فأتى اثنين إذهما في النار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » .

صاحب إبراهيم حرصوب

# دراسة في القرآن الحكيم

## القرآن والمفسرون

### نظرة تكيلية في توجيهاتهم

قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْثَالًا مَضَاعَفَةً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » :

تقرأ هذه الآية فتراها تقتضى قانون اللغة وأساليبها تشفهم أن حظر الربا والنهي عن تعامله إنما يكون فيها إذا كان أضعافاً مضاعفة ، ويقابل هذا أنه إن قل عن ذلك فلا حظر ولا تحريم . وإنما كان هذا هو مفاد الآية لأن القيود في الجمل هي دائماً محط قصد المتكلمين ، وهي دائماً منطوق الإفادة ، فإذا كان المتكلم ناهياً فإليها يقصد بالنهي ، وإن كان ناهياً أو أمراً فإليها يقصد بالامر والنهي ، وإن كان مثبتاً أو مستثماً أو راحياً فالامر في جميعها كذلك . وإذا رجعنا إلى الآية وجدنا أن « أضعافاً مضاعفة » قد وقعت في أسلوب الآية حالاً ، والحال قيد في عاملها كما أنها قيد في صاحبها تبعاً لذلك ، وعلى هذا فمناط النهي في الآية إنما هو هذا القيد ، وبذلك يكون الحظر منتفياً إذا لم يبلغ الربا أن يكون أضعافاً مضاعفة ، فلو دان امرؤ أخاه بدينار مثلاً على أن يأخذه ديناراً وزيادة فلا يحرم عليه أخذ تلك الزيادة حتى يأخذ مع ديناره ستة دنانير ، إذ ضعف الدينار ديناراً ، والضعف قد ذكر في الآية مجسوماً ، وأقل الجمع ثلاثة ، ثم إن الآية لم تقف عند حد الجمع ، بل زادت كونه مضاعفاً ، وبذلك يبلغ الزائد على الأصل وهو رأس المال ستة دنانير ، أما إذا كانت الزيادة دون ذلك فقتضى الآية أنه غير منهي عنه ولا محظور .

هذا هو ما تفيد به الآية بمقتضى قانون اللغة ، ولما كان القرآن قد نص في موضع آخر على تحريم الربا دون قيد بقليل ولا كثير ، بل أطلقه إطلاقاً مما يقتضى تحريمه قليلاً كان أو كثيراً ، قال عز من قائل في سورة البقرة : « وَأَحْلَلْ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا » ، لما كان القرآن كما ترى صريحاً في تحريم الربا مطلقاً ، كان لا محالة مقتضى الآية التي نحن بصددناها الآن مشكلاً غير مفهوم .

أما المفسرون فإنهم في هذه المرة لم يهاجوا القرآن بالنسخ والتهديم ، بل سلكوا للخلاص من هذا الإشكال سبيلاً آخر : قالوا دفع هذا الإشكال : إن الآية إنما نزلت للنهي عن الصورة

التي كانوا يتعاملون بها حين نزول تلك الآية ؛ وصوّروا كيف كان يبلغ الربا الى الاضعاف المضاعفة بأن المدين كان إذا عجز عن أداء الدين عند حلول الأجل ، ذهب الى الدائن وسأله أن يزيده في الأجل في مقابل أن يزيده في المال ، وهكذا يتكرر أن يزيد الدائن في الأجل وأن يزيده المدين في المال حتى يكون الربا أضمافا مضاعفة .

هذا ما قالوه لدفع الإشكال في الآية ؛ ولكنهم لم يدروا أنه قد ظنهم أن ذلك لم يغير من الأمر شيئا ، إذ الآية بما قالوه لم يتغير مفادها ، بل لا يزال تدل على أن الربا لا يحرم إلا إذا بلغ الأضعاف المضاعفة ، وهي بهذا باقية على مناقضتها لآية البقرة ، ولما عليه فقهاء الأمة ؛ فهل هم يريدون أن يقولوا : إن الآية إنما نزلت لفريق من الناس خاص وفي وقت خاص وقد انتهى هذا الفريق من الناس وانتهى باتهامهم ذلك الوقت ؟ إنهم إن أرادوا ذلك فهم بهذا يكونون قد قرروا النسخ في الآية ما دام قد انتهى هذا الفريق وهذا الوقت . وليس من المفهوم المقبول أن يقال : إن هذه الصورة من صور الربا لما كانت من أقطع الصور فقد خصت بالهي للاهتمام بشأنها ؛ نعم ليس من المفهوم ذلك ، لأن الآية لو وجهت النهي الى قليله وأكدت حرمة ذلك القليل بمقدار ما لحقه المعاملة من ضرر بالمجتمع ، لو فعلت ذلك لكان الى كثير الربا أشد توجها وأشد تأكيداً ، ولكان الى الأكثر مضاعف التأكيّد . وليس من الخفى على من مارس اللغة أن من أساليب التفسير عن الشيء أن يقطع القليل منه ليفيد أن كثيره أشد قطاعة ما دام الضرر من لوازم ماهية ذلك الشيء وحقيقته ، كما يوضح لك هذا قوله تعالى : « ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما » إذ نهى عن أقل أنواع الإيذاء ليكون الأكثر من هذا أشد في النهي عنه وأوفر في الخطر والتحريم . ثم يبقى حتى لو صح هذا القصد أن يكون أسلوب الآية منهما ما لا يصح كما بيناه آنفاً .

هذا أولاً . وأما ثانياً : فإن الآية إنما تخاطب المؤمنين ، وليس بمعقول أن المؤمنين وهم في عهد الوحي ورسول الله لا يزال بين ظهرائهم أن يقدموا على أقطع صور الربا بعد ما نزل القرآن بتحريمه على الإطلاق دون تفرقة بين القليل منه والكثير ؛ فلو أننا إذ أجرنا على المؤمنين في ذلك العهد أن يخالفوا أمر ربهم كما قد أجرنا عليهم أن يخالفوا الى أقل صور له لا الى أشدها وأفظمها لكان أقرب الى التصور والافتهام ؛ أما أن يخالفوا الى أبلغ صور الربا وأكبرها فذلك ما لا نعرفه لهم ، ولا يمكن أن نفهم منهم ، بل ذلك في جانبهم مما يتأخّر المستحيل . نعم ذلك ما لا نفهمه في جانب المؤمنين في ذلك العهد ، لأن ما نعرفه لهم من الحرص على الاستجابة لله تعالى ، ومن إيمانهم وثيق امتلاّت به قلوبهم ، ومن قوة مراقبة ربهم ، ومن تحقير الدنيا وزهدها فيها ، إن ما نعرفه للمؤمنين من ذلك كله مما لا يمكن معه أن يقدموا على أقل صور ما حرم الله عليهم ، فضلاً عن أن يقدموا على أكبرها وأفظمها . وعلى هذا فكيف ينهم ما يقوله المفسرون من أن الآية إنما نزلت للنهي عن الحالة التي كانوا يتعاملون بها وقت نزول تلك

الآية ؟ فانه لمن المقطوع به أنه لم يكن بين المؤمنين في ذلك العهد تعامل بالربا على هذا الوجه الذي يتناق مع ما كان للقرآن في ذلك العهد من بناء المسكارم وطايل الاخلاق في نفوسهم . الى هنا قد اتضح لك فساد ما سلكه المفسرون في تأويل تلك الآية . وعليه فلا بد لنا أن نسلك في تأويلها سبيلا غير هذا السبيل . وإني في ذلك أستسلم لله ما يمنحه المخلصين من توفيق الى الصواب :

وإليك أيها القارئ الكريم ما أردنا أن نسلكه في تأويل تلك الآية :

إله لما كان الربا من المعاملات المتفشية المنتشرة بين الشعوب والأمم ، حتى لا يكاد يخلو منها زمان أو يخلص منها مكان ، حتى كأنها طبيعة للمجتمع لا يستغنى عنها كالأزم من لوازم العمران وضرورة من ضرورات الحياة ؛ وإنا نرى أنه ليس من سر في ذلك إلا أن كل مجتمع من البشر لا بد أن يكون فيه المترون والمموزون ، وقد جيلت النفوس البشرية أن تفرح على المال وأن تحبه حبا جما ، وأن تحاول دائما الاستزادة منه ، كما أن النفوس كذلك قد طبعت على الأثرة وحب الدفات ، ولا بد للمموزين أن يدفعهم إغوازم الى مد أيديهم الى المتزين ، والمترون قد حال بينهم وبين أن يمدوا أيديهم للمموزين بالمال الى الميسرة والقدرة على الأداء ما جيلوا عليه من الحرص والأثرة مما هو في الحقيقة آفة الخير وجائحة المروءات ، وإذن فلا بد للمتزين من أنهم لا يخرجون أموالهم من أيديهم إلا أن تكون مستمرة الزيادة مطردة التواء ، ولا بد للمموزين أن يقبلوا ذلك استجابة لنداء الضرورات الملحة القاسية .

ولما كان الأمر كذلك كان تكليف الناس بتركه تسكينيا شائعا ، لما رأيت من أن تركه كالمفاض لما هو طبيعة أو كالطبيعة فيهم ، حتى ليكاد بمض الناس أن ينزل هذه المعاملة من حياة المجتمع منزلة الضرورات التي لا يمكن أن يستغنى عنها .

لهذا كان لا بد لرد الناس ودفعهم عنها ، كان لا بد لأحذم بهذا التكليف في رغبة وقوة ، أن يبين الله لمباده ما في تلك المعاملة من الأضرار الاجتماعية مما نفى إليه من تدمير وتخريب لا بد أن يؤدي بين الدائين والمدتين الى إثارة حفاظ وأحقاد تكون هي الهاشجة للقلق بين الناس ، والمثيرة للاضطراب فيهم .

وعلى هذا فمضى الآية إذن : « يا أيها الذين آمنوا » أي أيقنوا بالله ربا عليا حكيما ، وبمحمد رسولا من عند الله ، وبالاسلام الذي جاء به دينا هو وحده إن يأخذ به الناس سر سعادتهم ، وناشر السلام والطمانينة بينهم ، « لا تأكلوا الربا » : لا تتعاملوا به والحال أن مآله ومصيره أن يكون أضمافا مضاعفة ، يعني وما يكون له هذا المآل وذلك المصير يكون إقدامكم عليه إقداما على آفة اجتماعية شرها بعيد وفسادها مديد ، وما تكون هذه عاقبته وتلك نتيجته لما ينهض عليكم أيها المؤمنون أن تتحاموه . أما أن هذا هو مآل الربا ومصيره ، سواء قل مقداره



في مبدأ الاستدانة أو أكثر ، فذلك ما ليس فيه شك ولا مرأى ، حتى ولو كان المقدر للعامة من الجنيئات جنبها واحدا فإنه بتكرير الآجال وتكرير الزيادة في مقابل ذلك لا بد أن يصل يوما ما إلى كونه أضعاضا مضاعفة ، فإنه ليس للمدين مهما كان شأنه من يضمن له ولاء الأيام وسلام الليالي ومواتاة الأقدار بما يتمكن معه من الأداء عند حلول أول أجل ، فما أقرب أن تتكرر الأيام وتنحهم الليالي ويقلب الدهر ظهر الحص ، وتعاكس رياح الحوادث اتجاه سفينة الحياة فتفقد بالمدى إلى حال لا يستطيع معها سد ضروراته ، فصلا عن أداء ديونه . ومن هذا يتضح لك ما قلنا من أن الربا وإن قل إلى أبعد مدى في مبدأ الاستدانة ، فإن له ذلك المآل وهذا المصير ، وبهذا تدرك في وضوح أن الربا حرام مطلقا سواء كان قليلا أو كثيرا ما دام هذا المآل وأن يكون يوما ما أضعاضا مضاعفا غير مأمون الوقوع في جابه بما ليس منه مانع ولا له دافع ، من محاربة الأيام ومعاكسة الأقدار . فليس مناط النهي في الآية إذن كون الربا أضعاضا مضاعفا بالفعل ، وإنما مناط النهي والتحريم هو كونه أضعاضا مضاعفا بالقوة والاستعداد . وإنه لكاف جدا في النهي عنه والتشديد في تحريمه أن يكون هذا المصير محتمل الوقوع ، فإن تحقق هذا المصير لنصف ما يقع للناس من نوع تلك المعاملة ليكني لإشغال بيران الأحقاد والخصام ، واضطراب جبل الطمأنينة والسلام . وعلى العموم فإن الآية تطل تحريم الربا بأن له تلك العاقبة الوخيمة وذلك المآل المهيء الذي كثيرا ما أخرج أناسا من أموالهم ، واقتلهم مما يملكون من عقار وغيره ، فأمسوا في العراء بعد شيد البناء ، وفي ذل الحاجة بعد هزة الاستفناء ، وما كان ذلك لأن الربا كان لأول ما استدأوا أضعاضا مضاعفا ، وإنما كان لأخرم عن الأداء وتكرار الزيادة بتكرار الآجال حتى يباغ الأضعايف المضاعفة ، إما لغواية تستولى عليهم ، وهوى يملك نفوسهم فيجملهم ينفقون غلات أعيانهم وعقاراتهم في مسارح اللهو ومعارض الفساد ، وإما لعدم مواتاة الظروف ، ومساعدة الأقدار . ولا ريب في أن تلك العاقبة كما قلنا مئثار حقائق وخصومات من لوازمها زعزعة الأمن واضطراب النظام ، فلا جرم أن كان الربا لهذا محظورا أيضا حظره ، وعمرما أيضا تحريم .

وهنا قد يقف بالقارئ عن متابعة القراءة أن توجيه « أضعاضا مضاعفا » في الآية على الوجه الذي سلكناه في تأويلها لا ينفع وكونه في أسلوب الآية حالا ، لأن المعروف أن الحال من شأنها أن تقارن عاملها وصاحبها في التحقق والوجود مع أن الربا بناء على هذا التأويل لا يتصف بكونه أضعاضا مضاعفا في مبدأ الاستدانة ، وإنما يصير كذلك بعد مرور الزمان وتكرير الزيادة بتكرير الآجال ، فلا يكون الحال حينئذ جارية على ما هو الشأن فيها من مقارنتها لمعاملها وصاحبها في التحقق والوجود .

وإنما لدفع هذا الخطأ عن نفس القارئ يقول : إننا حتى لو قطعنا النظر عن تقسيم النحاة

للحال وحملهم من أقسامها الحال المنتظرة ، أى التى لا تكون مقارنة فى الوجود بل تكون مستقبلية الوقوع ، لوقفنا النظر عن هذا لاتنا لسنا بحاجة اليه ، لو جدنا الحال فى الآية جاريا على ما هو الغالب من المقارنة . فإننا لم نرد من كون الربا أضعافا مضاعفة كونه كذلك بالفعل ، بل كونه كذلك قوة واستعدادا ، ولا شك أن تلك حالة مقارنة للربا من مبدأ الاستدانة .

هذا هو التأويل الذى يجب أن تقول به الآية حتى يبقى القرآن على ما هو مراد منه من أنه هدى للناس كافة ، وإرشاد للبشر جميعهم ، وحتى يبقى القرآن على ما أريد به من أنه أصول عامة ، وقوانين شاملة ، لا يختص به فريق من الناس دون فريق ، ولا يقصر على وقت دون وقت ، كالتى يقتضيه ما سلكه المفسرون فى تأويلهم للآية . وقد قلنا : إن هذا الذى سلكوه هو على الحقيقة نسخ للآية وإبطال لمقتضاها . هذا من ناحية . ومن ناحية ثانية : ترى أن مفاد القيد فى الآية أى قوله تعالى « أضعافا مضاعفة » على تأويلنا الذى سلكناه ، تراه بيانا للحكمة التحريم وسر الخطر ، حتى إذا علم الناس ذلك تحاموه لماله من تلك العاقبة الخطرة والمآل السيئ والضرر البالغ الذى يجنى بالاجتماع دائيين منهم ومدينين ، وترى القيد على ما سلكه المفسرون مجرد بيان للحال الذى يحظر فيها الربا ، وبذلك يفوت تحديدهم وتفسيره عنه على أى حال يكون ، قليلا كان أو كثيرا .

هذا ، وإنك لتعجب كثيرا حين ترى المفسرين لما أرادوا بيان كيف يكون الربا أضعافا مضاعفة قد سوروا ذلك بأنه كان الرجل إذا استدان ثم حل الأجل ولم يستطع الاداء ذهب الى الدائن وطلب اليه أن يزيده فى الأجل ليزيده فى المال وهكذا يتكرر ذلك حتى يصير الربا أضعافا مضاعفة ، ثم تزامم يقررون مع هذا أن ذلك كان حالا للربا وقت نزول تلك الآية ، إذ لسنا ندرى ما هو السر فى أن يجعلوا ذلك المآل للربا خاصا بفريق من الناس خاص ووقت خاص ، ولم يعمموا فى كل الناس وفى جميع الأوقات ، مع أننا نرى فى كل يوم حوادث تقع بمرأى منا وسمع من نوع ما صوروا به أن يكون الربا أضعافا مضاعفة . وعليه فهذا المآل للربا الذى قرروه هو مآل له باطراد وفى كل وقت ، فما كان الربا أبدا أضعافا مضاعفة لأول ما يستدين المدين ، بل مصيره أضعافا مضاعفة إنما كان لتكرير الزيادة بشكرير الآجال وما دام الأمر كذلك فقد وجب أن يكون هذا القيد فى الآية إنما هو لبيان ذلك المآل حتى تتبين الحكمة فى حظر الربا ونجريمه .

هذا موقفنا مع المفسرين . أما موقفنا مع هذا الفريق من الناس الذين قد ولعوا فى كثير من الأمور التى تخالف أحكام الدين وقواعد الاسلام أن يتلصوا لها مستندا من كتاب الله أو من سنة رسوله ، فانا نقول لمن حاول منهم أن يجعل الربا قسمين : ما كان منه قليلا وما كان منه كثيرا ، فيبيح القليل منه ويحرم الكثير استنادا لتلك الآية استنادا غاشيا عن فهمها

خطأ : إن هذا القيد المذكور في الآية نفي قوله « أضعاها مضاعفة » قد تبين أنه لم يكن لتحديد الخال التي يحرم فيها الربا ، وإنما هو لبيان المساك وأنه مأكّل لكل وما قل في المبدأ أو أكثر مما يقضى بأن كل ربا محرم محظور ما دامت تلك العاقبة له محتملة الوقوع . على أننا لو جازينا القيد لما كان ما جملة هذا الفريق محرما محرما ، لأنهم لم يباغوا في تقدير المحرم أن يكون أضعاها مضاعفة ، بل فرقوا بين أن يكون ربا المائة تسعة أو ستة ( كتعبير المعتاد ) ، وبين أن يكون ربا المائة عشرين ، جعلوا الأول مباحا والثاني حراما مع أن مقتضى القيد أن هذا أيضا ليس بحرام ، لأن العشرين لم تبلغ أن تكون أضعاها المائة المضاعفة ، مما يدل على وضوح على أنه استناد غير صحيح ، وعلى أنها تفرقة باطلة . ألا فليذكر أولو الألباب .

هذا هو القصد الأول من مرضنا لتأويل تلك الآية ؛ وقد بيناه في شيء كثير من الوضوح .

بقي أنه لا بقوتنا أن نمرض لشيء من دقائق البلاغة في تلك الآية :

ومن أول ذلك أنك ترى الآية قد قالت في النهي عن الربا بدل : لا تأخذوا الربا أضعاها مضاعفة ، مثلا : « لا تأكلوا الربا أضعاها مضاعفة » . وسر ذلك : أنه قد قصد الإهارة إلى مصرف المال والغاية منه وأنها إتفاقه في ألا كل ليسكون ذلك إذا ما به وان تلك الغاية وخفتها ، إذ هي لا تستدعي كل ذلك الحرص ، ولا تقتضي كل ذلك الحب الذي دفع الناس إلى ارتكاب هذه القفلة ، فعلة الربا ، فجعلتهم بماى عن فضيلة التعاون ومكرمة الإمداد ، ومطالبة إخوانهم المموزين إلى ميسرة وقسرة على الأداء ؛ ولو أن الناس قدروا ما للمال من غاية ومصرف تقدروا جميعها ، وأنها تلك الغاية التي تؤدي بقليل المال كما تؤدي بكثيره ، إذ ليس في اختلاف المأكل بكيته أو كيفيته أثر في مواهب الشخص أو استعماده أو فيما يؤديه من عمل في المجتمع ، لو أنهم قدروا ذلك تقدروا جميعها لما كان منهم كل ذلك الحرص الذي دفعهم عن الفضيلة إلى الرذيلة ، وعن التناصر والتواد مع إخوانهم إلى التباغض والقطيعة . وإنما أشار القرآن إلى تلك الغاية فقط التي هي ألا كل دون غايات أخرى تؤدي بالمال كالماء فمكن وكالملبس وكأموال أخرى غير ذلك ، لأنك لو استعرضت كل ذلك وقارنته بحاجة الطعام لوجدت الطعام أكثر من كل هذه الغايات طلبا للمال ، فله هو المتكرر في كل يوم ، وهو المتكرر في اليوم الواحد ؛ أما المصارف الأخرى فليس لها من المال بالقياس إلى الطعام إلا النزر اليسير . فانظر إلى ذلك المسك الذي يأخذ بالقلوب حين تنأمله . انظر كيف هو من مصرف المال وكيف حقر فانيته ؟ فإن في ذلك دفعا قويا للحريصين عن حرصهم ، وللطامعين عن مطامعهم .

وثاني ذلك : قوله تعالى : « لعلكم تملحون » . إذ تراه رتب الفلاح على ترك الربا الذي هو مظهر التقوى لصيغة الرجاء ، مع أن الحقيقة في الفلاح أنه مما يستتبعه ترك الربا لما علمته فيه من الظلم والفساد ، وتدمير الثروات ، وتخريب البيوت ، مما بهيج الحماظ ، ويشمل نار

الفتن والأحقاد، وإن أمراً شأه ذلك، لا شك أن في تركه الخير والفلاح. وهذا يكون الفلاح من الثمرات المترتبة على اجتناب تلك المعاملة؛ فملاقة الفلاح بترك الرأى علاقة العدة الغائبة بالمعلول، فأوضح موضع التعليل لا موضع الرجاء؛ وحتى لو صح أن يكون موضع رجاء فإنه لا يصح في هذا الموضع، والكلام كلام الله، والله هو المرجو في كل شيء، فكيف يكون مع هذا هو الرجاء؟

وإليك سر العدول عن أسلوب التعليل إلى أسلوب الرجاء :

ذلك أنه قد أريد إبراز الفلاح في صورة المرجو لبث في النفوس استشرافاً إليه يعنيها إلى تحصيله، وإلهاها نحو تحقيقه، لما في إبرازه في صورة المرحوم ما يشعر باحتياجه في التحقق إلى محاولة وعلاج. وإن شيئاً من هذا كله لا يكون لو سلك في التعبير سبيل التعليل فقيل : « لا تأكلوا الربا واتقوا الله لنفلحوا » إذ في وضعه وضع العلل ما يجعله شيئاً مستقبلاً كالذي لا يحتاج في تحقيقه إلى محاولة وعلاج، وفي ذلك فت في النفوس نحوه، وإطفاء للاستشراف إليه، لعوات تخيبيه وإبرازه في صورة الأمر المرجو المحبوب. وأما أن هذا الكلام كلام الله وذلك يقتضي ألا يصح التعبير بالرجاء، فذلك إنما يقال ويفهم لو كان المنظور إليه في أساليب الكلام هو ذات المتكلم، وذات المتكلم في مثل هذا غير منظور إليها، بل المنظور في ذلك هو ما وضعه الله في هذا الكون من نواميس الارتباط بين شئونه، فيجاء من المبارات بأبلغ ما يقتضيه مثل هذا المقام من غير نظر إلى ذات المتكلم، بل إلى معتاد الأساليب العربية. هذا ما أردت أن أحرص له في تلك الآية. وإني لأرجو الله تعالى أن يوفقني إلى صواب القول فيما أؤول به آيات كتابه العزيز، إنه عليم بذات الصدور.

حامد مجبوم

## ما البلاغة

قال رجل للعنابي : ما البلاغة ؟ فأجاب بقوله : كل من بافك حاجته وأفهمك معناه بلا إعادة ، ولا حجة ، ولا استعانة ، فهو بليغ .

قال الرجل : قد فهمنا الإعادة والحجة ، فما معنى الاستعانة ؟

قال العنابي : أن يقول المتكلم عند مقاطع كلامه : اسمع مني ، وافهم عني ، أو يسمع عشوانه ، أو يفتل أسانعه ، أو يكثر التفاته من غير موجب ، أو يتساعل من غير سعة ، أو ينهر في كلامه . وقال الشاعر :

ملء بهر والتفات وسعة ومسحة عشون وفل أصابع

وهذا كله من النسي .

المننون : الحجة ، وكل ما فضل منها ، وقيل طولها .

## تاريخ علم التفسير

بينما فيما تقدم أن لتاريخ هذا العلم الجليل مرحلتين : الأولى قبل أن يصير علما مدونا ،  
والثانية بعد أن كان كذلك .

والمرحلة الأولى تبدأ بتفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ، والاجماع منعقد على  
أن السنة تبين القرآن ، والسنة هي أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته .  
ومستند الاجماع في هذا ، أي في أن السنة تفسر القرآن ، قوله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر  
لتبين للناس ما نزل إليهم » ، وقوله تعالى . « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » ،  
وقوله تعالى . « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » .  
وذكر ابن عبد البر في كتاب العلم له عن عبد الرحمن بن يزيد : أنه رأى عمر ما عليه ثيابه ،  
فنهى المحرم ، فقال : ألقني بأية من كتاب الله تعالى تنزع عني ثيابي ، قال : فقرأ عليه « وما آتاكم  
الرسول فخذوه » الآية . وعن هشام بن حجير قال : كان طلوس يصلي ركعتين بعد العصر ،  
فقال ابن عباس . أتركهما ، فقال : إنما نهى عنهما أن تتخذتا سنة ، فقال ابن عباس . قد نهى  
رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة بعد العصر ، فلا أدري ألعذب عليهما أم تؤجر ، لأن  
الله تعالى قال : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة  
من أمرهم » . وروى أبو داود عن المقدام بن معد يكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
أنه قال : « ألا وإنني قد أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول :  
عليكم بهذا القرآن فإ وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ،  
ألا لا يحل لكم الحار الأهل ، ولا كل ذي ناب من السباع ، ولا لقطة معاهد ، إلا أن يستفتى  
عنها صاحبها ، ومن زل بقوم فعليهم أن يقرؤه ، فإن لم يقرؤه فله أن يعقبهم بمثل قراءه » .  
والحديث يكاد يكون صريحا في الدلالة على المعنى المراد الذي أوردناه لأجله . واليك البيان :  
قوله صلى الله عليه وسلم : « أوتيت الكتاب ومثله معه » يحتمل وجهين : أحدهما أنه  
أوتي من الوحي الباطن غير المتلو مثل ما أعطى من الظاهر المتلو ، والثاني أنه أوتي الكتاب  
وحيا يتلى ، وأوتي من البيان مثله ، على معنى أنه أذن له أن يبين ما في الكتاب ، فيم ويخص  
ويشرح ما في الكتاب ، فيكون في وجوب العمل به و لزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن .  
وقوله صلى الله عليه وسلم : « يوشك رجل شبعان الخ » يحذر بهذا القول من مخالفة السنة التي  
سنها مما ليس له في القرآن ذكر . وقد خالفت الخوارج والرافض هذا النص ، فتعلقوا بظاهر  
القرآن وتركوا السنة التي تضمنت بيانه .

فأنت ترى أن هذه الأدلة من الكتاب والسنة متضاربة على أن الرسول صلوات الله عليه  
بين القرآن ، ولا معنى للتفسير إلا البيان .

هذا هو الرأي السائد بين العلماء في هذا الموضوع . وهناك أحاديث وردت يخالف  
ظاهرها هذا الرأي ، وقد أجاب عنها العلماء وبينوا أن ظاهرها غير مراد . وأشهر هذه  
الاحاديث ثلاثة : حديث روثه السيدة عائشة رضى الله عنها ، وحديث رواه ابن عباس رضى  
الله عنهما ، وثالث رواه جندب رضى الله عنه . ويحسن أن نورد هنا الاحاديث الثلاثة وأجوبة  
العلماء عنها استيفاء للبحث ، ونوقفا للقارىء على أصول هذه المسائل الرفيعة السامية :

حديث عائشة :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : « ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسر من كتاب  
الله تعالى إلا آيآ بعدد علمه إياهن جبريل » .

حديث ابن عباس :

روى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « انقوا  
الحديث على إلا ما علمتم ، فمن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ، ومن قال في القرآن  
برأيه فليتبوأ مقعده من النار » .

حديث جندب :

عن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد  
أخطأ - وزاد رزين : ومن قال برأيه فأخطأ فقد كفر » .

أما حديث السيدة عائشة فأجوبة العلماء بالنسبة له تتلخص في أن هذا الحديث في مفيئات  
القرآن مما لا سبيل اليه إلا بتوقيف من الله تعالى ، ومن جملة مفيئاته ما لم يعلم الله به ، بل  
استأثر بعلمه ، كوقت قيام الساعة ونحوها مما يستقرى من ألقاظه ، كعدد النفخات في الصور،  
وكرتية خلق السموات والأرض ، ونحو ذلك .

وأما حديث ابن عباس ، وحديث جندب ، فقد قال أبو بكر عبد بن القاسم بن بشار الانبارى  
في كتاب الرد (١) : فسر حديث ابن عباس تفسيرين : أحدهما : من قال في مشكل القرآن بما  
لا يعرف من مذاهب الأوائل من الصحابة والتابعين فهو متمرض لسخط الله تعالى .  
وثانيهما ، وهو أثبت القولين وأصحهما معنى . من قال في القرآن قولاً يعلم أن الحق غيره فليتبوأ  
مقعده من النار .

(١) هو كتاب ألهمه الانبارى في الرد على من خالف مصحف عثمان رضى الله عنه .

وقال في حديث جندب : حمل بعض أهل العلم هذا الحديث على أن الرأي مسمي به الهوى ، من قال في القرآن قولاً يوافق هواه لم يأخذه عن أئمة السلف فأصاب فقد أخطأ ، لحكمه على القرآن بما لا يعرف أصله ، ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والنقل فيه .

قال ابن عطية معلقاً على قول الأباري : ومعنى هذا أن يسأل الرجل عن معنى من كتاب الله عز وجل فيتصور (١) عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء أو اقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول .

وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته ، والنحويون نحوه ، والفقهاء ممانيه ، ويقول كل واحد بجتهاده المبني على قوانين علم ونظر ، فان القائل على هذه الصفة ليس قائلاً لجرد رأيه .

وسنعرض لبقية البحث في مقال آت إن شاء الله

عمن حسين

(١) من قولهم : تصور الحائط إذا صعد عليه ، والمراد التهم على تفسير القرآن بدون بصيرة .

## الجود مع الاقلال

فيل لبعض الحكماء : من أجود الناس ؟ قال : من جاد من قلة ، وصان وجه الدائل من المذلة . وقال حماد مجرد :

أبرق بخير تؤمل للجزيل فما	ترجي الثمار إذا لم يورق العود
بث النوال ولا تمنك قلته	فكل ما صد فقرا فهو محمود
والبخيل على أمواله علل	زرق العيون عليها أوجه سود

وقال حاتم :

أضاحك ضيفي قبل إزال رحله	ويخضب عندي والمحل جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى	ولكننا وجه الكريم خصيب

وقال عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين : ما كنت أحب أن أحدا ولدني من العرب إلا عروة بن الورد ، لقوله :

أنهزاً مني أن سمحت وأن ترى	بجسمى من الحق والحق جاهد
لأنى امرؤ طاف إنائي شركة	وأنت امرؤ طاف إنائك واحد
أقسم جسماً في جسوم كثيرة	وأحسو قراح الماء والماء بارد

## عظمته صلى الله عليه وسلم

ووجوب محبته

رأينا أن نكتب كلمة في هذا الموضوع الخطير بمناسبة ذكرى مولده صلى الله عليه وسلم ، وقد جاء في هذان البيتان حقوا بهذه المناسبة :

أحب رسول الله تحظ بما لها      فان جميع الخير في ذلك الحب  
وكن راضيا بالله مولى وسيدا      وأخرج جميع الكائنات من القلب

فنقول : لا شك أنه يأخذ منك العجب كل مأخذ ، ويمضى بك اليقين بعظمته صلى الله عليه وسلم الى أعلى غاياته ، إذا تأملت في نظره الى بواطن الخلق وظواهرهم وتربيتهم بما هيأهم لأعلى الدرجات وأسمى الغايات .

فانظر الى سياسته العامة والخاصة ، وحسن سيرته مع الجميع ، وما نقل عنه من مكارم الاخلاق ومحاسن التعاليم وأحكام الشرائع ، دون تعلم سقى ، ولا ممارسة تقدمت ، ولا مطالعة للكتب ، إذ هو النبي الأسمى الذي جيل على أفضل الفرائد تهيت له من خالقه عز وجل كي يكون رسولا لجميع الأمم في جميع الأزمان الى يوم القيامة .

ولا غرو ، فشريعته جاءت بكل ما يحتاج اليه نوع الانسان في كل عصر وجيل الى يوم البعث والنشور ، مما كان برهانا ساطعا على نبوته ، وأنه خاتم المرسلين ، وأن كتابه تنزيل من رب العالمين . وعندى أن معجزاته المعنوية أكثر وأبهر من معجزاته الحسية لدى أرباب العقل والبصيرة . وقد قال وهب بن منبه : قرأت في واحد وسبعين كتابا أن النبي صلى الله عليه وسلم أرجح الناس عقلا ، وأفضلهم رأيا . وقد قال جرير عليه السلام للإبراق لما استصعب عليه ليلة الامراء : « ما ركبك أحد أفضل منه صلى الله عليه وسلم » . ولعمري إن ذلك ثابت بشهادة العقل والنقل .

ومن كرامته على ربه أنه نوه به في كتب الرسل السابقين والأنبياء المتقدمين : « يحدونه مكتوبا عدم في النوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الغيبات ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون » .

ومن كرامته على ربه أنه أخذ الميثاق على جميع الأنبياء أنهم يؤمنون به وينصرونه إذا أدركوه ، وأكد ذلك غاية التأكيد ، اعتناء به وإشادة بشرفه وعظمته ، فقال : « وإذا أخذ



لله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ، قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأما معكم من الشاهدين . فانظر الى هذا التأكيذ وهذه العناية العجيبة حيث يقول : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ، قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين .

وانظر الى ثناء الله عليه في الآيات الأخرى حتى أصبح قرآنا يتلى كي لا يغيب عن الأذهان ، فقرأه يقول : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم » . فقد أعطاه في هذه الآية كما قال بعضهم اسمين من أسمائه تعالى حيث سماه رءوفاً رحيماً . ويقول : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً » . فانظر الى ذلك الثناء العاطر ، والتسوية الباهر ، وما زاد في مدح الشمس على أنها سراج . ولا غرو فهو صلى الله عليه وسلم شمس الوجود ، ومظهر العمل والجود . ويقول في حق أمته : « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

ثم انظر الى ما يهر عقلك ، ويدهش لبك ، ولا يستسيغه إلا إيمانك ، حيث يقسم تعالى بحبائه فيقول له ملائمة معظما : « لعمرك إهم لني سكرتهم يعمهون » . ويقول في بيان صفاته الكريمة وأخلاقه العظيمة : « وإنك لعلی خلق عظيم » . ونأهيك بأمر يظمه الله في علاه ، ويثني عليه في كتابه الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ويقول له : « فبأ رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لاتفضوا من حولك » .

وإعلمنا الأدب في مخاطبته صلى الله عليه وسلم فيقول : « لاتحملوا دماء الرسول بينكم كدماهم بمصكم لبعضا » . ويقول : « يا أيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتعلمون » . ولا أدري مبالغة أكثر من هذا ، حيث كان رفع الصوت فوق صوته صلى الله عليه وسلم محبطا لعمل . أسأل الله أن يوزقنا الأدب معه كما يحب ويرضى .

ويقول : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » . الى آخر ما جاء في الكتاب العزيز من تعظيم قدره والتسوية بذكره ، فاذا بمدح المادحون ، وماذا يكتب السكتون ؟

إذا الله أننى بالذى هو أهله عليه ما مقدار ما بمدح الورى

والله در من قال :

محمد كل الحسن من بعض حسنه وما حسن كل الحسن إلا محمد

وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يعلمنى حقيقة إلا ربى » أو كما قال . ولتختتم كلمتنا هذه بقول الله تعالى : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم أنزواحكم

وعفيرتكم وأموال اقترتموها ونجارة تخشون كسادها ومساكن تروصونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترىصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين .  
فكفى بهذا حسداً وتنبهاً ودلالة وحجة على إزام محبته ووجوب فرضها وعظم خطرها واستحقاقه لها عليه السلام ، إذ قرع تعالى من كان ماله وولده وأهله أحب إليه من الله ورسوله ، وأوعدهم بقوله تعالى : « فترىصوا حتى يأتي الله بأمره » ، ثم فسقهم بنام الآية وأعلمهم بأنهم ممن ضل ولم يهده الله تعالى :

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَمَلَأَ قُلُوبَنَا بِمَحَبَّتِهِ ، وَأَنْ يَجْعَلَنا مِنْ حُدَّامِ شَرِيعَتِهِ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ ؟

بِرْسَف الدرموي

عضو جماعة كبار العلماء

## تقويم اللسان

قال عبد الملك بن مروان : اقهن في الكلام أفصح من التفتيق في الثوب ، والجدرى في الوجه .  
وقيل له : لقد سجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين . قال : شيبني ارتقاء المسابر ، وتوقع اللعن .  
كان العرب في صدر الاسلام يرون اقهن شينا في الكلام العادي ، ويعتبرونه كالجدرى في الوجه ، فإذا يكون حكمهم اليوم والناس يلعنون في الكتابة ، ولا يعرفون وجه اللعن فيها ؟  
وقال الحجاج بن يوسف لابن يعمر : أسمعني ألحن ؟ قال : لا ، ربما سبقك لسانك بيمضه في آن وآن . فقال الحجاج : إذا كان ذلك فمرفى .

انظر كيف قبل الحجاج وهو من أكبر ولاية الدولة وقوادها أن يردده سامعه الى الصواب إذا لحن ، وكيف يترفع اليوم من هو دونه بمراحل أن يراجع في كلامه فتأخذه العزة بالاثم ، ويؤثر أن يمضى قدماً في ارتكاب الأخطاء على أن يهدي الى الصواب !

وقال عبد الملك بن مروان : الإعراب جلال للوضع ، والقهن محنة على الشريف .

وقال : تعلموا النحو كما تعلمون السنن والفرائض .

## ذكرى المولد الشريف

تجرت ذكراك ، فابتهج الإمام  
ربيع الكون والدنيا محمول  
ولدت ففتت الدنيا احتفاء  
وطاولت السماء الأرض غفراً  
هنا وهناك آلاء وبشر  
سطمن فأبصر الأعمى ، وردت  
في الأجاديب عادت رياضنا  
وقاض الماء فيها كوثرنا  
ويا لك حجرة أمت تحجنا  
جنا ظهرو الملائك في رواها

حلبك صلاة ربك والسلام  
وبدر التم والدنيا ظلام  
وقال الدهر : قد ولد الإمام  
وجدد قدسه البيت الحرام  
هنا وهناك آيات جسام  
عبيراً ، مثلما تفتح البشام  
على صديقاتها غنى الحمام  
وأتحل أذفر المسك الزحام  
على أبوابها اشتد الزحام  
وطافوا حول كتبها وقاموا



بنفسى يوم مبعثه رسولا  
فنظم من رماه القاء صفاً  
حداه الوحي وضاحاً ، فلما  
سبيل الدين واضحة الهيأ  
سلوا الكبرار : كم أردى كاة  
سلوا سعداء سلوا الجراح : ماذا  
سلوا فتناك غزوم نجبكم  
أولئك عواهل الاسلام قلوا  
تمسوا قدماً ، فلكفرا نهدام  
ركا عزم السعادة في ذراها  
ومتمتع بالكرامة كل حر

وقد فاض الشقاء والانقسام  
مضى الاسلام فيه والسلام  
تعدى الشر غشاها الحسام  
كذلك المجد : هدى واعترام  
تضيم الفارحين ولا تضام  
أفاد هدوء الجيش الهام  
بأرض المعجم أجنات وهام  
كباً الحرب التي فيها هرام  
وللاسلام أعلام تقام  
وقر الحق ، واقطع الكلام  
له بمكارم الدين اعصام

ببعثة أحمد انبعثت حياة      بأيجاد الخلود لها انتماس  
محت بؤس الوجود فماد سمداً      إذا حل الهدى ، وكلى الظلام



شباب الشرق ماضيكم مجيدٌ      بنى تاريخه العربُ الكرام  
وهذا الغربُ أصبح أشعبيّاً      بروم النيرات ولا يُرام  
فذودوا عن حياتكم ، وهبوا      فليس الجسد يدركه التيام  
حياة الشرق إيمانٌ صحيح      وعزم — بعد ذلك — والنشام  
وفى ذكرى النبي بشير سعد      على الله المعونة والتمام



رسول الله لست أنا قريض      ولكنى الحبّ المتهم  
تقاصر دون قدرك جهد نظى      فمقّ الشعر ، وانتثر النظام  
لئن أعيامدى دوت قصدى      فلى حقّ عليك ، ولى ذمام  
اليك فررت من عتّ الثبالي      عليك صلاة ربك والسلام

عبد الجواد رمضان

مدرس بكلية اللغة العربية

## وجوب اصلاح المعيشة

قال أحد حكماء المسلمين : من أشبع أرضه عملاً ، أشبعته خبزاً .

هذا من أبلغ الحكم الزراعية ، فإن الأرض إذا لم تخدم الخدمة اللازمة لها ، على الأصول الفنية المقررة بالتجارب المنكورة ، وجدد موادها التي تستنفدها النباتات المختلفة ، قصرت في إيتاء صاحبها بحاجته ، وربما أعملت وأصبحت في عداد الأراضي السبعة . وقد دلت الاستقراءات التي حملت في بلادنا أن الأراضي التي تعطى حقها من الحرث والقلب والتشميس والتسميد والري الخ تعطى أربعة أضعاف ما تعطيه الأراضي المهملة من كل ذلك .

وقال أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان : من كان في يده شيء فليصلحه فإنه في زمان إن احتاج فيه فأول ما يبنيه دينه .

وهذه من أروع الكلم ، فإن الحاجة الملحة تدفع بالإنسان الى تجاوز الحدود التي أخذ نفسه بعدم تجاوزها ، وأول ما يصادفه منها حدود الدين فيتساح فيه ، وكلما ألتفت به الحاجة ازداد تسامحاً في سائر الحدود حتى يخرج الى الإباحة فيخسر دينه ودينه معا .

## المسلمون والاسلام

لأمنى بعض الناس على كلمة كتبها في عدد من مجلة الأزهر، صورت فيها بعضا من أمراض الجماعة الإسلامية التي أعجزتها عن مجاراة الجماعات الأخرى في رقيها الخلقى والثقافى والاقتصادى ، ونهت بوجه خاص الى مرض التفرق والتخاذل والتحاسد لأنه من أخطر الأمراض على الجماعات . ولقد كتبها كما يعلم الله وأنا كاسف البال ، شديد الحسرة والالَم ، على بلاد جماعتنا به واستفحالها فيها ، كما أتى لم أكن متجنبيا ولا مسرفا ، بل كنت عادلا منصفنا ، أمور ما أرى ، وأسجل ما أسمع فى أمانة ، متوخيا إغراء المسلمين بعيوبهم ليصلحوها ، ولقت نظرم الى أمراضهم ليعالجوها ، فلقد كنت أستعرض كثيرا من الطوائف فأحس بذلك الداء يسرى فى أعضائها ، ويهد من كيائها .

أنظر الى طوائف السياسيين فلا أجد طائفة منها تنهى على أخنها ، والى طوائف التجار فلا أجد طائفة منها تنصف الثانية وتمدح عملها وتعترف بفضلها ، والى طوائف الصناع فلا أجد لها تفضل غيرها .

وأنظر حتى الى الطوائف العلمية ، فأجد أن هذا الداء قد نال منها ، وأخذ من نفوس رجالها ، وتفرقوا شيعا فشكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

وأستعرض أحوال الأفراد وأعمالهم ، فأجد كثيرا منها على البقيض مما أمر به الاسلام . فالاسلام يأمرنا بالتعاون والتسبحة ، والصدق والشجاعة ، والعدل والأمانة ، وإنجاز الوعد والوفاء بالعهد ، والجد فى العمل ، والاقتصاد فى الانفاق ، وأعمال كثير منا تباين هذه الفضائل ونجافها .

وكننت أوازن بين طوائف المسلمين وأفرادهم ، وبين أمثالهم من الأمم الأخرى ، فبتمسكنى الدهش والأسف . فبينما نحمدنا نحن المسلمين - إلا قليلا منا - قد قرطنا فى فضائلنا الإسلامية ، نجد هؤلاء أحرص الناس عليها ، وأشد تمحقا بها ، حتى إن بعض هذه الفضائل قد صار عناوين على بعض هذه الأمم ، فالصدق عنوان على أمة ، والاقتصاد عنوان على أخرى ، والجد عنوان على ثالثة ، وهكذا ، وأخرج من هذه الموازنة بالأمم الممض والحسرة البالغة ، وتزججى الهوة العميقة بين أعمال المسلمين وتعاليم الاسلام .

والى القارئ مجموعة من تعاليم الاسلام فى القرآن الكريم والسنة السمحة ، أحب أن يطبقها على أعمال المسلمين ليعلم كيف جفا المسلمون الاسلام ، حتى أصبح العامل بدينه غريبا فيهم ، ينظرون اليه فى دهش واستغراب ، ويتهمونون بالجمود والتأخر ، لقرط ما ألفوه من الأوضاع المستعثة فيهم ، أو المستعارة من غيرهم :

قال الله تعالى : « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة » ، وقال تعالى : « إن الذين يرمون المحصنات الفاعلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم » ، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » ، وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ، ولا تلعزوا أنفسكم ، ولا تنازوا باللقاب ، بلئس الاسم الفسوق بعد الإيمان » ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون . يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ، إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله ، إن الله تواب رحيم » ، وقال تعالى : « والذين يكتزون الذهب والنفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بمذاب أليم » ، وقال تعالى : « لن تتأوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ، وقال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » ، وقال تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث » ، وقال تعالى : « ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش في الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل غفاله غفور . واقصد في مشيك واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الخير » ، « ولا تمش في الأرض مرحا إلك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » . وعنه أنه قال : « من تقس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا تقس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » ، وعنه أنه قال « من غشيا فليس منا » ، وعنه أنه قال « ليس منا من لم يوقر كبيره ويرحم صغيره » ، وعنه أنه قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، وعنه أنه قال « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يسله » . وعنه أنه قال : « المسلمون تشكافاً دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدفاهم ، وهم يد على من سواهم » .

هذه أمثلة من تعاليم الإسلام أسوقها مجملة ، وهي في وضوحها غنية عن الشرح والتطويل . وأعتقد أن القارئ بعد أن يستعرضها ويستعرض أعمال المسلمين يشعر بمقدار حقوق المسلمين لديهم ، وبأن ما هم فيه من سوء وهوان ، وما يتهددهم من خطر ، إنما هو جزاء العقوق والتفريط ، وبأن على الهداة أن يأخذوا بأيديهم ، ويصبروا بمواطن الرشد في أمورهم ، ويذكروهم بحدود الله في أعمالهم ، وهداة المسلمين علماءهم الذين ورثوا النبي في رسالته ، فعليهم أن يثردوها ويتحملوا في سبيلها ما تحمله من سبر وجهاد ، لا يبالغ ما يقال فيهم ، فإسلم داع إلى الخير من جاحد ومبغض وسفيه ، ومن كان في الله جهاده ومحملة فاقه جازيه وناصره :

أبو الوفا المراقبي

« إن تصبروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

## التصوف والمتصوفون

- ٢ -

### تنمية البحث في نشأة وحدة الوجود :

زعم متأخرو الصوفية أنهم تلقوا وحدة الوجود عن بعض آيات القرآن ، وعن تعبيرات الزهاد الأولين ، وعن قول الأشعرية بأن جميع الحوادث الكونية أفعال إلهية محضة ، وعن عبارات البساطي والحلاج وأمثالها من الوجدانيين الذين لم ينقصهم في هذا المذهب إلا الاسم الفنى ؛ ولكنهم استمدوها في الحقيقة - فيما يرى الأستاذ ماستينيون - من مزج فكرة النور الحمدي الذي هو عند الكثيرين مبدأ الخلق بفكرة العقل الفعال الهيلينية . ويقرر هذا الأستاذ أن ابن عربي هو أول من صرح تصريحاً قاطعاً بهذا المذهب ، وأعلن أن جميع الكائنات انبثقت عن العلم الإلهي الذي سبق وجودها فيه - وهو المعروف بالثبوت - وجودها الخارجي ، وأن الأرواح بعد الموت تعود إلى الجوهر الإلهي ، وأن الفرغاني والجيلي لم يدخل على هذه النظرية إلا تعديلات طفيفة ، وأنها لا تزال إلى اليوم عقيدة المتصوفين الإسلاميين ، كما لا تزال موضع تغنى الشعراء الفارسيين ، بل إن الكوراني والتابلسي قد أهاجا في القرن السابع عشر سخط أهل السنة حين أعلنوا أن وحدة الوجود هي المعنى الصحيح الدقيق الذي ينطبق على وحدانية الإسلام . وأكثر من ذلك أن الجيلي وابن عربي قد قررا أن ( الشهادة ) معناها حلول الإله في جميع مخلوقاته ؛ وهذا يقتضى أن تكون مجموعة الكائنات في جميع أحوالها جديرة بالعبادة . ولهذا حكم الجيلي برد شرف إبليس ، وحكم ابن العربي برد شرف فرعون (١) .

أما نحن فنرى أن من البواعث التي حملتهم على نشر فكرة وحدة الوجود ، أنهم لما اعتقدوا أن أسلافهم قد انهلوا بعالم المملوكوت على أثر قطع علاقتهم بالمادة ، أيقنوا أن المادة لم تكن إلا حجاباً بين الفرع الذي هو النفس البشرية ، والأصل الذي هو الإله ؛ وإذا كان ذلك هكذا ، كان السكل صادراً من الباري ؛ وما طاد إلى مصدره استنضاء ، وما ابتعد أظلم ؛ وما منقأ ظلمة المادة إلا ابتعادها عن مصدرها الذي هو السكل الواحد . ولا ريب أن هذا هو مذهب الأفلاطونية الحديثة . وقد أدخل عليه المتأخرون منهم بعض تغييرات أخذوها من فرقى الاعمالي والرافضة ، مثل القول بقطب الوقت المتصرف في شئون الكون ، وما عا سكل ذلك ، وفي هذا يقول ابن حلدون : « إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف ، وفيما وراء الحس ، توغلوا في ذلك ، فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة »

(١) انظر صفحتي ٧١٧ و ٧١٨ من المجلد الرابع من دائرة المعارف الإسلامية الفرنسية .

كما أشرنا إليه ، وملاً والصحف منه ، مثل المروزي في كتاب « المقامات » له ، وغيره . وتبهم ابن العربي وابن سبئين وتلاميذهما ابن العفيف ، وابن الفارض ، والنجم الإسماعيلي في قصائدهم . وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية والمتأخرين من الرافضة الدائنين أيضاً بالحلول والهيئة الأئمة ، وهو مذهب لم يعرف لأولهم ، فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر ، واختلط كلامهم ، ونشأبت عقائدهم ، وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب ، ومعناه رأس العارفين ، يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله ثم يورث مقامه لآخر من أهل المرطان (١) .

#### أعيان المتصوفين :

أوصل المؤرخون طبقات المتصوفين الى عشرين طبقة ، وذكر أسماء أفراد كل طبقة ومؤلفاتهم . ولما كانت ما يعنيننا هنا أشهر مشاهير الصوفية لا جميع أفراد طبقاتهم ، فقد ائرننا أن نلهم بأولئك الألفاذ حسب ترتيبهم الزمني ، مغضين عن الطبقات التي احتوتهم ، وعن الأمكنة التي عاشوا فيها . وإليك هذه الإلمامات :

#### (١) سفيان النورى :

هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق النورى الكوفى . وقد ولد فيما بين سنتي ٩٥ و ٩٧ هـ — ٧١٣ و ٧١٥ م . ولما نشأ تلقى الحديث على والده الذي كان أحد مشاهير علماء الكوفة ، والذي توفى حوالى سنة ١٢٦ هـ . ولما تم الأمر لبني العباس كان سفيان أحد الذين أرادوا أن يعلنوا كراهتهم للحكم الحاضر برفضهم مناصب الدولة التي عرضتها عليهم السلطات الجديدة . وفي سنة ١٥٠ هـ عرض أبو جعفر على سفيان منصب القضاء فرفض وفر الى اليمن ، ولكن حكومة بغداد جعلت تتبعه ، فأحس بذلك فارتحل الى مكة ، غير أن أمير مكة محمد بن ابراهيم تلقى أمراً من الخليفة بتعقبه ويقول بعض المؤرخين إنه كان أمراً بقتله . ولعل هذه إشاعة مفضوفا أن الشعب في ذلك العهد كان يقندر في الخفاء بأوامر العباسيين قائلاً : إذا عثرت عليه فأصلبه ! إلا أن النورى وابن حجر يؤكدان أنه كان أمراً جديداً .

ومهما يكن من شيء فإن سفيان قد تنبه الى ذلك قبل فوات الفرصة ، ففر الى البصرة وفيها اختبأ في منزل أحمد بن سعيد ، وهناك نصح له بعض أصدقائه أن يحسن علاقته بالتصير . وبالعزل بدى في المفاوضات بينه وبين بغداد ، ولكنه مرض قبل تمامها ، وتوفى في شعبان سنة ١٦١ هـ سنة ٧٧٨ م .

هذا هو ما يحدنا به التاريخ الصحيح عن ذلك المنسك ، ولكن حياته قد أحيطت بسياج من الخرافات آثرنا أن نغضى عنه .

(١) انظر صنفى ٤١٢ و ٤١٣ من مقممة ابن خلدون .



ومن غرائب الأمور أن بعض المؤرخين يضعونه في الصف الأول ويقدمونه على مالك ابن أنس، وأن الذهبي يدعو بالحجة والثبت على الرغم من أنه كان من كبار المدلسين في عصره، فكان مثلاً يعزو بعض الروايات في الحديث إلى شخصيات عظيمة لم يلقها عنها، بل تلقاها عن وسائل غير موثوق بها. وقد ذكر لنا الفهرست عدداً من مؤلفاته كالجامع الكبير والجامع الصغير والفرائض، ولكن لم يبق شيء من هذه الكتب. ويروى بعض المؤرخين أن الثوري آتبه ضميره قبل موته على هذا التدليس فكلف أحد أصدقائه بإحراق كتبه.

كان سفيان من كبار فقهاء عصره، بل إنه حاول إنشاء مذهب ولكنه لم يوفق في ذلك، وكان من أهل السنة الذين يؤمنون بالمفاتيح، وبأن القرآن غير مخلوق، وبأن علامات الإيمان: القول والعمل والنية، وأنه يمكن أن يقوى ويضعف، وأن أبا بكر وعمر مقدمان على علي. وله آراء أخرى مثل قوله بصلاة الجمعة والميدن خلف أي إمام، وبالعناية باختيار الإمام في الصلوات الأخرى، وقوله بتفضيل الأسرار بالبسملة على الجهر بها، وبمجاوز المسح على الخفين بدون ضرورة، وبوجوب الخضوع للسلطان عادلاً كان أو ظالماً.

على أنه لم يرتب أحد في أنه كان يباشر التصوف العملي بين جماعة من رفاقه، منهم السيدة رابعة العدوية المتوفاة بالبصرة في سنة ١٣٥ هـ.

#### (٢) المحاسبي :

هو أبو عبد الله الحارث بن أسد العنزي. وقد ولد بالبصرة، ولم يحدد التاريخ الذي بين أيدينا سنة مولده. ولما نشأ تلقى الفقه على علماء الشافعية فكان أحد أعلامهم، وتبحر في علم الكلام وكان فيه من أنصار العقل، ولكنه كان يستخدم مفردات المعتزلة ومنطقهم لمهاجمتهم. وأخيراً اعتزل الحياة العامة، وألقى بنفسه بين أحضان التنسك، بعد أن تأمل ردحا من الزمن فيما هو قادم عليه، كما وصف ذلك بأسباب في وصاياه. وقد اشتهر بالزهد القاسي في عصره، حتى لقد قيل: إنه كان إذا انتهى لونا من ألوان الطعام ومد إليه يده، تحرك في أسفه عرق بذراعه، فيمتنع عنه. وقد أطلق عليه لفظ المحاسبي لكثرة محاسبه نفسه على ما فيه من أعمال.

غير أن هذا الزهد لم يحل بينه وبين الاستزادة من العلوم الظاهرية والارواء منها، بل إن مؤلفاته ومناظراته في علم الكلام قد احتوت من النظريات والمجادلات ما أحق عليه فقهاء عصره كما حققوا على جميع علماء الكلام. وقد ظهر هذا الخلق في حجة أحمد بن حنبل وأنصاره على أولئك العلماء، تلك الحجة التي كان من نتائجها أن اضطر المحاسبي وانقطع عن المجالس العلمية العامة في سنة ٢٣٧ هـ واعتزل الحياة كلها زهاء عشرة أعوام. وأخيراً توفي في عزلته في سنة ٢٤٣ هـ — سنة ٨٥٧ م.

### أما مؤلفاته فمن أهمها ما يلي :

(١) « الرماية لحقوق الله » وهو كتاب في المبادئ التي يجب على المتصوفة اتباعها ، وهو واحد وستون فصلا في صورة نصائح مملأة على أحد المريدين ، ويعتبر منهجا كاملا للإرشاد النفساني . وقد عكف الغزالي — قبل أن يؤلف كتاب الإحياء — على دراسته والعمل بما فيه زمنا طويلا ، وظلت تعاليمه ذاتمة في بينات الصوفية ، ولا سيما في الطريقة الشاذلية ، هذه قرون رغم ما وجه إليه من حملات الخصوم . وهذا الكتاب يوجد في مصر ، (ب) «رسالة في المبادئ» المثمرة الموصلة الى السعادة . ويوجد في برلين . (ج) «شرح المعادن وبذل الصبيحة» ويوجد في برلين . (د) «البحث والنشر» ويوجد في باريس . (هـ) «رسالة في الأخلاق» . وتوجد في مكتبة محمد باشا الاسلامبولي . (و) كتاب «التوهم» . (ز) «ماهية العقل ومناه» (ح) «رسالة في العظمة» . (ط) «رسالة في فهم الصلاة» .

### شيء من آرائه :

يعد المحاسب أول صوفي سنى دلت مؤلفاته على ثقافته الواسعة في علم الكلام . ومن آيات هذه الثقافة ذلك المنهج الذي وضعه لبحوث النفسانية ، والذي أظهر أنه من الممكن تحقيق صلة بين أفعال الأعضاء الخارجية وبيات القلوب ، فأبان أن سلسلة الأحوال يمكن أن تنتهي الى نقاء كامل على شرط أن يخضع الشخص لقاعدة الحياة النفسكية والأخلاقية ، وأن هذه هي الرهبانية الحقة . وقد خالف بهذا الرأي أبا الهذيل وأكثر المشككين في عصره ، فحملوا عليه وانضم إليهم الفقهاء وأهل الحديث بحجة أنه ضل حين فرق بين الإيمان والمعرفة ، وبين العلم والعقل ، وحين أقر خلق اللفظ وقال بأن المختارين في الجنة سيدعون الى الاستمتاع بالذات الإلهية (١) .

غير أن هذا لم يمنع الأشعرية من أن يجلوه ويعدوه القبس الأول لمذهبهم الذي لم يحمده كما حمد الدين لم يفرضوا للعقل وجودا ، ولم يسرف كما أسرف الدين فبذوا كل ما عدا العقل ما

« يتبع »

الدكتور محمد غنوي

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

(١) انظر بحث الأستاذ ما-ينيون في صفحة ٧٤٧ من المجلد الثالث من دائرة المعارف الاسلامية للفرنسية.

## التجديد والمجددون في الاسلام

الامام الاعظم أبو حنيفة والقياس

تحمّل بعض المتكلمين وبعض المحدثين على مذهب أبي حنيفة لأخذه بالقياس والاستحسان وتوسمه فيهما ، فقالوا : إن الشريعة تعبد محض لا مجال فيها للرأى ولا لقياس ، فهم يرون أنه لا يجوز البحث في علل الشريعة ، ولا في الروابط التي تربط المسائل ببعضها ببعض ، ويقولون : إذا قلنا إن للشريعة عللاً أو مصالح مقصودة التحصيل ، لزم تعليل أفعال الله تعالى ، وأنه يعمل نفع من خلقه ، ويلزم أيضاً التعسّس والتقصّيع العقليان ، وهذا مدار الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة . وأما أهل الحديث من ذلك البعض فيرون أن السنة أصل من أصول التشريع الاسلامي مكلل بقرآن الكريم ، من غير نظر الى علل الاحكام والقياس عليها ، أو الى الأصول العامة والأخذ بالاستحسان ، وإذا لم يجدوا نصاً امتنعوا عن الفتوى وقالوا : لا ندرى ، ولذلك يسمون بالمشرعين الحرفيين ، ودرعوا أن مذهب أهل الرأى والقياس فلسفة تجعل الشرع الإلهي من أوضاع البشر .

ومن حق النظر في هذه الانتقادات وحدها تم من جهل أصحابها بحقيقة الشريعة ، فهي ليست - بنص الكتاب والسنة - تمسدية غسب ، ولكنها شريعة عامة لجميع الشئون الدنيوية والأخروية ، روعيت فيها المصالح العامة والخاصة ، وحقوق الخلق ، والحرية الشخصية والفكرية وسائر أنواع الحريات ، كما روعيت فيها النوااميس الطبيعية .

فن أسكر القياس وزعم أن الشريعة كلها تعبد غسب ، فقد عطل الحكمة ، ولم يفهم الشريعة ، وجعلها شريعة جهود وآصار . وفي مسألة النسخ والحكمة التي شرع لأجلها إرشاد الى أن الاحكام روعيت فيها المصالح الراجعة الى سعادة الناس في الدنيا والآخرة .

وكان ابراهيم النخعي شيخ حماد بن أبي سليمان شيخ الامام أبي حنيفة وأضرابه من كبار الأئمة ، يرون أن أحكام الشرع مشتملة على مصالح راجعة الى الامة ، وأنها بنيت على أصول محكمة فهمت من الكتاب والسنة وشرعت لينظم بها أمر الحياة ، فدرا يجتهدون في معرفتها ؛ فأحكام الله تعالى لها غايات أي حكم ومصالح راجعة اليها ، كما يدل على ذلك أمثال قول الله تعالى : « ويسألك من اليتامى قل إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فخالطوهم ، والله يعلم المقصد من المصالح ، ولو شاء الله لأعنتكم ، إن الله عزيز حكيم » . فكان الفقهاء يبحثون عن تلك العلل والحكم التي شرعت الاحكام لأجلها ويعملون الحكم دائراً معها وجوداً وعدمًا . وكان أبو حنيفة على طريقة شيوخه هؤلاء ، فنظر في الاحكام كي يجد لها عللاً ، فما وجده

بطريق الكتاب أو السنة أو الاجماع أخذه ، وإلا استنبطه من أصول الشرع ، فكلما وجد فرعا مشتملا على تلك الملل طرد الحكم فقام وأحسن القياس ، وعلى هذا سار علماء الشرع إلا شذازا من الغلاة ، فانص وإن كان خاصا لكنه يصير عاما إذا علمت علة الحكم ، فكل ما وجدت فيه تلك العلة كان من مشتملات النص ، ولم يكن تشريعا بالمعقول والأفكار والأخذ بالرأى ، ولا فلسفة كما يزعمون ، وفي تاريخ التشريع والفقه تفصيل لهذا الاجمال .

ومن هنا اتسع علم الفقه وعظمت دائرته ، وعم المصالح ، وأصبح قانونا عاما للمجتمع الانساني ، كافلا المصالح والمافع ، دافعا المضار ، وكل هذا بفضل القياس وما اليه ، ولو لم يؤخذ بالرأى الممدوح والقياس والاستحسان لكان الفقه في غاية الساطة والضيق ، بل ولا نعرف عنه الناس لعدم وجودهم فيه ما يكفي التوازل التي تنزل بهم من أحكام ، فالقياس من أهم العوامل التي تحفظ لشرعية جديتها وبقاء العمل بها وكفايتها المجتمع في التشريع والأحكام ، في كل زمان ومكان ، وفي جميع الأحوال . واقعد أخذ أهل المذاهب الأربعة بالقياس ، ولم يقطعوا النظر عن روح التشريع وسرعة المعاني ، ولم يجمدوا على ظواهر النصوص ، بل نظروا الى المقاصد ورأوا أن ألفاظ الشرع وسائل لتلك المعاني . ولا ريب في أن هذا المذهب هو المناسب للترقيات والنهضات في جميع العصور ، ولتطورات الزمان والمكان ، بخلاف مذهب هؤلاء الشذاز فانه مخالف لتأموس العمران والاجتماع ، لذلك طاب أصحاب المذاهب الأربعة أولئك الجامدين الذين لا يأخذون بالقياس ، وروموم بالجود وعدم فهم المعاني المقصودة من روح التشريع .

ولما في القياس من منافع ، أرشد الله تعالى عباده اليه في غير موضع من القرآن الكريم ، وضرب الأمثال وعصرها في الأنواع المختلفة ، وكلها أقيسة عقلية ينه بها عباده على أن حكم الشيء حكم مثله ، وقد اشتمل القرآن الكريم على بضعة وأربعين مثالا تتضمن تشبيه الشيء بنظيره والتسوية بينهما في الحكم ، فالقياس في ضرب الأمثال من خاصة العقل ، وقد ركز الله في فطر الناس وعقولهم التسوية بين المتماثلين وإنكار التفريق بينهما ، والفرق بين المختلفين وإنكار الجمع بينهما . قالوا : ومدار الاستدلال جميعه على التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين كما قال ابن القيم . ولقد برهن ابن تيمية وابن القيم على أن من محاسن هذه الشريعة الاسلامية ومن الله علينا بها أنها شريعة العقل ودين الفطرة التي فطر الله الناس عليها . ولابن تيمية في تجلية هذه الحقيقة كتاب اسمه « بيان صريح موافقة المعقول لصحيح المنقول » . والقول بالقياس ليس مخصوصا بالمذهب الحنفي ، وإنما أخذ به الصعابة والتابعون والأئمة الأربعة وسائر علماء الاسلام إلا قليلا منهم . قال الحافظ ابن عبد البر : قال الامام المرني : الفقهاء من عصر الرسول الى يومنا وهم جريا استعمالوا المقاييس في الفقه في جميع الأحكام ، وأجمعوا على أن نظير الحق حق ، ونظير الباطل باطل ، وذلك لا يتنافى كون السنة أصلا أميلا

في التشريع إذا توافرت فيها الشروط ، أما عند فقدها فالقياس أصل يرجع إليه إذا وجد له أصل معين يقاس عليه ، وإلا فنرجع إلى الأصول العامة وهو الاستحسان كما قال بعض المحققين .

وقال ابن خلدون : نظرنا في طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة فإذا هم يقيسون الأشباه بالأشياء منها ، ويناطرون الأمثال بالأمثال بإجماع منهم وتسايم بعضهم لبعض في ذلك ؛ فإن كثيرا من الوقائع بعده صلوات الله وسلامه عليه لم تندرج في النصوص الثابتة ، فقايسوها بما ثبت وألحقوها بما نص عليه بشروط في ذلك الإلحاق تصحح تلك المساواة بين الشبهين أو المثليين حتى يغلب على الظن أن حكم الله تعالى فيهما واحد ، وصار ذلك دليلا شرعيا بإجماعهم عليه وهو : القياس . فالقياس مناط الاجتهاد وأصل الرأي ، ومنه يتشعب الفقه وأساليب الشريعة ، وهو المقضى إلى الاستقلال بتفاصيل أحكام الوقائع مع انتفاء الغاية والنهاية ، فإن نصوص الكتاب والسنة محصورة مقصورة ، ومواقع الإجماع معدودة مأثورة ، وهي على الجملة متناهية ، ونحن نعلم قطعا أن الوقائع التي يتوقع وقوعها لا نهاية لها ، والرأي المبتوت به عند كثير من الأئمة أنه لا تخلو واقعة عن حكم الله تعالى متلقى من قاعدة الشرع ؛ والأصل الذي يسترسل على جميع الوقائع هو القياس وما يتعلق به من وجوه النظر والاستدلال ، فهو إذاً من أحق الأصول باعتبار الطالب ، ومن أحاط به فقد احتوى على مجامع الفقه كما قال إمام الحرمين .

وعلى الجملة فقد اتفق جمهور العلماء على أن مصادر الأحكام الشرعية أربعة : الكتاب والسنة والإجماع والاستنباط ، وهو القياس على هذه الأصول الثلاثة ، لأن الله تعالى جعل المستنبط من ذلك علما وأوجب الحكم به فرسا ، فقال تعالى : « ولو رددوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » .

ولقد أخذ أبو حنيفة بهذه الأصول الأربعة وبنى مذهبه عليها ، فقال : « إني أخذ بالقرآن الكريم ، فإن لم أجد فبالسنة ، فإن لم أجد فبقول الصحابة ، فإن اختلفوا أخذ بما كان أقرب إلى الكتاب والسنة من أقوالهم ولا أخرج عنهم ، فإذا لم أجد لأحد منهم قولاً لا أخذ بقول أحد من الثابتين ، وإنما أجتهد كما اجتهدوا » . فكيف بعد هذا يعاب أبو حنيفة على الإخذ بما أخذ به جماهير علماء وأئمة المسلمين ، ولا يجوز أن يغيب عن العقول أن القياس من أهم عوامل التحديد في الدين وتوسعة الفقه وكفايته للمجتمع .

ظهر مما تقدم أن جمهور العلماء والأئمة أخذوا بالقياس ولم يصرفوا النظر عن روح التشريع وسراة المعاني ، ولم يعمدوا على ظاهر النصوص . وقد أخذ أبو حنيفة بما أخذوا به ، ولا ريب في أن هذا المذهب الشرعي هو المناسب لنهضات الأمم وتطورات الزمان والأحوال ، وهو الملازم لأموس العمران والاجتماع ؟

السيد هبة

وهلا يرى معنى الآن أن النهج الأفوم إزاء الحقائق الدينية هو نهج القرآن وما سلكه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من إيمانه؟ يحكى القرآن الكريم « ويسألونك عن الروح » قل الروح من أمر ربي » ، ويقول : « يسألونك عن الآلهة ، قل هي موافقت للناس » . وجمع (١) الرسول صلى الله عليه وسلم طائفة من الجدل في ذات الله تفكرا في جلاله وتصرفا في أعماله ، ويخوفهم بقول الله تعالى : « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال » . وروى عن الوليد بن مسلم أنه قال : « سألت مالك بن أنس وسفيان الثوري والليث بن سعد عن الأحبار التي جاءت في الصفات ( بمعنى صفات الله تعالى ) فقالوا : أمرؤها كما جاءت بلا كيف » . وسئل ربيعة الرأي عن قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » كيف استوى ؟ فقال : « الاستواء مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق » . وروى عن مالك بن أنس أنه سئل : كيف استوى ؟ فأطرق رأسه ثم قال : « الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » .

وهلا يرى معنى فريد بك أن الغزالي حينما نقد فلاسفة المسلمين ، وحينما كشف عن تهافهم . وما نقد إلا غرورهم بالفلسفة ومسلكتهم في الجمع بين الدين والفلسفة — كان صاحب « إحياء علوم الدين » ، وكان غيوراً على الدين ، وفي الوقت نفسه محبا للعلم ؟

وهلا يرى معنى فريد بك أن عدم الإفاضة وعدم المغالاة في شرح حقائق الدين بالآراء الفلسفية التي هي عرضة للتغيير والتبديل ( كشرح الله وخالق الكون من نظرية الأثير ، وشرح الروح وحقيقتها من الأقوال في استحضار الأرواح والتنويم المغناطيسي ، وما يسمى « بالدلائل الحسية التجريبية » على انفصال الأرواح (٢) ) ، أجدى على المسلمين في وحدتهم ، وأجدى على الاسلام في بقاء حقائقه سهلة في تناول الأفهام وفي الدعوة اليه ؟

وهلا يرى معنى فريد بك الآن إذا كان لابد من البحث في الدين بحثا علميا فأولى أن يكون ذلك بتعليل مبادئه وبيان « حكمة التشريع » ، أو ببيان قيمته من وجهة البحث السيكولوجي والأبحاث النفسية الدينية ؟ كتعليل مبدأ الزكاة في الاسلام مثلا ، وحمل حظ الذكر في الميراث مثل حظ الأنثيين ، ومبدأ صلاة الجماعة ، ومبدأ الحج ... الخ ؛ وكتعليل : لماذا كانت طبيعة الدين تحتم وجود أمور تعبدية في العقيدة ؟ أو لماذا كان الدين ضرورة اجتماعية وعنفرا أساسيا في التنشئة والتهديب ؟ أو لماذا كان القانون المرتكز على الدين أشد

(١) المال والحمل للشهرستاني .

(٢) وهو صنيع صاحب « المنطق الديني » ص ١٤٦ ج ٢ من المجلد العاشر لمجلة الأزهر .

تأثيراً في النفوس من القانون الوضعي؟ وتعليل مثل هذه الأشياء لا يتعمد لحقائقها بالشرح والتحديد بالأراء الفلسفية كما يتعرض له تفلسف الدين على نحو صنيع المتقدمين والمعاصرين .



### المذهب المادى والمذهب الطبيعى :

فريد بك يصير على أن المذهب المادى هو المذهب الطبيعى ، وأن المذهب الطبيعى هو المذهب المادى ، وله إصراره رغم ما ذكرت من التفرقة الفنية بينهما في تعقبى على تعليقه بصوان : هل من فلسفة إسلامية ؟ في الجزء الثانى من المجلة . ولكن فقط نرى فريد بك يناقض نفسه في الحكم على قيمة المذهب المادى أو قيمة المذهب الطبيعى — لأن كليهما في نظره سواء — :

فمرة يحكم عليه بأنه مذهب ضعيف يمثل نزعة إلحادية ضد الدين ، فيقول (١) : « ولكن مجلة الأزهر متى كتبت في الفلسفة فلا يجوز لها أن تقتصر على الناحية المادية ، ولا أن تغفل ذكر ما أصاب هذه الفلسفة ( وهى الفلسفة المادية الطبيعية ) من تدهور وسقوط أمام المكتشفات الحديثة » . ويقول (٢) : « هذا كلام لا شبهة فيه ( وهو الكلام في الفلسفة المادية الطبيعية ) من ناحية تصوير النزعة الإلحادية للفلسفة المادية » .

ومرة يحكم عليه بأنه من أقوى الوسائل لهدم أثر الدين ، وأنه لا يصور النزعة الإلحادية إلا في رأى قصير النظر وقليل المعرفة به ، فيقول (٣) تحت عنوان : صفحة من الإبداع الإلهى : « ومن المحيب أن بعض الناس يتوهمون أن التوغل في العلم الطبيعى يوقع صاحبه في الإلحاد لا محالة لما يبينه من علل الموحودات وتسلسل وجودها ورجوعها كلها الى علة واحدة هى القوى الطبيعية ( وهذا هو المذهب الطبيعى المادى الفلسفى ) ... !! »

« وهذا وهم عظيم على القليل فيما يتعلق بالمصر الحاضر ، فإن علماء الطبيعة اليوم بعد ثبوت تحليل المادة وفنائها ، وبعد قيام الدليل على أن المادة ليست بشيء غير ذبذبات ذات عدد معين فى الأثير ، وبعد تحطيم جميع المدرجات القديمة على الجوهر الفرد والمذاهب التى حاول بها أصحابها تعليل وجود الكون وما فيه الخ ، بعد هذا كله فقد الإلحاد أقوى أركانه وأصبح لا مبرر تكبر له من العلم يقوم عليه ... »

« هذه الحالة العقلية ستزداد رسوخاً وذيوماً بين الناس ، وهى مقدمة لتطور آخر يأتى بعد

(١) ج ١ ص ٤٦ من المجلد الثانى عشر من مجلة الأزهر .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٧ (٣) مجلة الأزهر ، ج ٨ ص ٥٧٤ ، من المجلد الثامن

حين ، وهو الذى سيلتح فيه الادب النفسى أرفع ما قدر له ، وفى هذا العهد تتجلى الحقائق الاولية ويصبح كل ما فى العلم أدلة لها ، لا شبها عليها ، وليس هذا العهد بعيد .

لماذا لا يصور المذهب المادى الطبيعى ، إذا تفلسف فيه فريد بك ، نزعة إلحادية ؟ ولماذا كان دعامه قوية للدين ؟ ولماذا ، إذا ذكره غيره فى عرض تاريخي ، صور هذا المذهب نزعة إلحادية يخشى أثرها على العقيدة ، وتظهر مجلة الأزهر بمظهر الغيور المدافع عن الدين ، والناصح المرشد الأمين لأبناء الأزهر من الانخداع بالفلسفة والعلم وأوروبا ؟ جواب ذلك عند صاحب « على أطلال المذهب المادى » !

\*\*\*

### الميتافيزيكيا والمزج الميتافيزيكى فى التفلسف :

ذهبت فى « نظرة الفلسفة الميتافيزيكية الى الإنسان » إلى أن أرسطو فى شرحه الانسان وفى تحديده علاقة الروح بالجسم كان طبيعيا ، ولم ينجح المنهج الميتافيزيكى فى هذا الشرح ، أى لم يشرحه من أمر خارج عن طبيعة الانسان نفسه ، فلم ير مثلاً أن نفس الانسان « انحدرت » من عالم علوى نورانى ، من عالم ما وراء الطبيعة أو عالم العقول المجردة ، واتصلت بهذا الجسم المادى ، بل رأى أن « نفس » الانسان كاملة فى طبيعته ، وأنها خاضعة لقانون التطور ، وأن النفس والجسم كلا منهما يكون وحدة واحدة . وعلى العكس من ذلك كان إفلطون . فهو يرى أن نفس الانسان انحدرت من النفس السكلية ، لأمر ما ، فى هذا الجسم ، وهى تعيش فيه عيشة السجين المقضى عليه بالمقاب فى سجنه حتى يزول هذا الجسم وتصدر الى عالم المثل . وليس معنى أن أرسطو فى نظره الى الانسان كان طبيعيا ، أى نهج المنهج الطبيعى ، أنه لم يعالج موضوع المبدأ الاول للكون ، ولم تكن له لهذا ميتافيزيكيا أى بحث فيما وراء الطبيعة . وفريد بك فى تعليقه فى الجزء الثالث يقول : إن أرسطو كان له ميتافيزيكيا . وأنا لم أنكر هذا . والجديد حقا ، وفيه خدمة لتاريخ الفلسفة كذلك ، لو تفضل حضرة فأبان أن أرسطو فى نظره الى الانسان كان ميتافيزيكيا ولم يكن طبيعيا . عندئذ أصرح له بأنه صحيح صدق خطأ ذكرته فى « نظرة الفلسفة الميتافيزيكية الى الانسان » .

\*\*\*

وبعد : فلنقرأنا لبعض مؤرخى الفلسفة بأن تحديد العبارات من مهمة الفلسفة ، لوجدنا فى هذا القول صوابا كثيرا ، لأن الجدل كثيرا ما يقوم على الاختلاف فيما يرى اليه التمييز ؟

محمد البرهوى

مدرس علم النفس والفلسفة  
بكلية أصول الدين



## مقررات العلم والفلسفة في الميزان

تطور خطير للعقلية الانسانية في القرن العشرين

ملاحظاتنا على ملاحظات حضرة الدكتور محمد البهي

إن كل جهد يبذل لتحميم الفلسفة لا يمد نتائجها ، وخاصة في عهد اشتد فيه تناحر مذاهبها طلباً للبقاء . وإن من مصلحة الناس الإشراف على هذا الصراع ، فانهم هم الذين سيقعون تحت نير ما يكتب لها النصر من ضروب النظريات المتنازعة .

للفلسفة اعتبار خاص في نظر الناس ، وللمقرراتها سلطان عظيم على عقولهم أكثر مما يجب أن يكون لها في الواقع ؛ لأن جمهورهم يجهلون تاريخها وتطوراتها وجهات ضعفها ، وما آلت اليه اليوم من الانحلال والتفكك والسقوط .

إن جمهور القارئ يجب أن يعرفوا هذه الحال والملل التي أوجدتها ، لينضج لهم أن عهد الغرور بالفلسفة قد انقضى ، وأن العقل الانساني على وشك تطور جديد لا يعرف مداه إلا مبدعه . فكل مناقشة وتحميم في الفلسفة يجب أن يقابل بما يليق به من الاكبار ، لأن ثمرته إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وإقامة الانسان على الجادة الموصلة الى الالباب ، وهي مهمة المصلحين والمهذبة في كل زمان ومكان .

وقد أرسل إلينا حضرة الدكتور محمد البهي ملاحظات جديدة له نشرناها ورأينا أن نعمق عليها بما يلي :

يخصي الدكتور البهي وجوه الخلاف بيني وبينه ويمجدها تحساً ، وهو يعلم أن الفلسفة صناعة كلامية ، إذا اتنع فيها هذا الأسلوب من الأخذ والرد فلا يصدم كل من المنارعين حجة يلجأ اليها لتخليها آية في الإقحام . فلو كانت الفلسفة مما تُفنى فيها الأدلة ، وتنمر المجادلات ، لما وجدت بين أقطابها خلافاً ، ولرايتهم كلهم أجمعوا على فلسفة واحدة .

أما أنا فلا أعلم أن بيني وبين الدكتور البهي غير وجه واحد من الخلاف ، وهو أنه يريد أن يصور للقارئ أن الفلسفة انتهت منذ عصر النهضة العلمية في أوروبا الى المذهب الطبيعي ، الذي لا يلجأ في تحليل شيء في الطبيعة إلا الى الطبيعة نفسها ، غير شاعر بحاجة الى اللجوء الى عامل خارج عنها ، وأنا تؤكد للقارئ ، وأسرده على صحة قولي أدلة ، بأن هذه الفلسفة الطبيعية قد سقطت من منزلتها ، واعتري أقطابها الإيلاس والحيرة من ظهور مكتشفات جديدة في العالم الطبيعي نفسه ، هدمت مذهبهم من أساسه ، وتركهم حيرى على أنقاضه .

هذا هو الوحدانية من الخلاف الذى بينى وبينه ، وهو الذى أعنى به هنا وأقف كل جهودي على توفيقه حقه ، لأنه بداهة تطور علمى سيكون نصيب العقل والقلب منه موفيا بمباحثهما من كل وجه ، وهو التطور النهائى لفلسفة التى تخيلها أقطاب الرجال فى كل عهد .

### كيف وحدثت الفلسفة ؟

خلق الإنسان ومُسح إدراكا لا يقف عند حد ، فأنصرف فى أول عهده لحفظ وجوده ؛ فلما أس على ذاته من هذه الناحية ، نظر فى نفسه وفيما حوله ، حاربا على سمجته فى تطلب العلل ، وتحري الأسباب ، بقدر ما يسمح له به عقله فى ذلك الدور من الطقولة البشرية ؛ فاهتدى إلى معارف أولية ، واستعان بما أوتيته من غاسة الكلام ، فانتشرت فى آحاده ، وكانت مزججا من معلومات على كل ما أهمه من دين وأخلاق وطب وعلاج وزراعة وهبنة الخ . . .

ولما اكتشفت الكتابة دون كل تلك المعلومات ومماها علما ، وأخذ الرجال الذين أسند إليهم سدانة هياكله فى تدارسها وزيادة مادتها ، وكان للشرقيين فى هذه الثقافة العقلية ميزة السبق . وقد تلبه اليونانيون قبل الميلاد بأكثر من ستمائة سنة إلى وجوب أخذ العلم عن الشرقيين ، فخصص إلى الشرق رجال منهم ، وتلقوا عن أهل كل ما كان لديهم ، وعادوا به إلى بلادهم مطلقين عليه اسم الفلسفة ، فكان الفيلسوف لاهوتيا وطبيعيا ومهندسا وطبيبا وزراعيا الخ آمادا طويلة ، حتى تميزت المعلومات بعضها عن بعض فى الزمان الأخير .

ولما نبغ الملامة (بيكون) الانجائزى (١٥٦١ — ١٦٢٦) ووضع للبحث العلمى دستورا ، وأخرج من العلم كل ما فيه من ظنون وآراء ، وقصره على ما يثبت بالنجربة والتحليل والترقيب ، تأثرت الفلسفة بهذا الأسلوب بعض التأثر ، ودخل إليها عنصر جديد من التثبت ، ولكنها استمرت معتمدة على مجرد النظر العقلى ، والاعتداد بالعالم الروحانى . وكان يكون نفسه يعتمد به ، فلم يهمل فى فلسفته الكلام عن الملائكة والأرواح .

أما الذى يمتدنى العهد الأخير عميدا المذهب الشبية أى القول بوجود عالم روحانى فوق العالم المادى ، فهو (ديكارت) الفرنسى (١٥٩٦ — ١٦٥٠) ، وجرى على شاكلته (سينوزا) و (لينتزر) و (كانت) و (فيخت) و (شليز) و (هجل) من أعلام الفلسفة ؛ ولا يزال هذا المذهب قائما وله أنصار من أقطاب الفكر إلى اليوم ، ناهيك أن المبقرى (برجسون) الذى يعتبر مجددا من درجة الافذاذ الأولين من أنبياء هذا المذهب .

### مق وكيف نشأ المذهب الطبيعى فى الفلسفة ؟

يقول الفيلسوف الكبير (بوخر) Buchner الالماني : إن المذهب المادى والفلسفة قديم يتصل بعهد قدماء المصريين والهنود وغيرهم .

قال : وقد وجد في اليونانيين قبل ظهور سقراط ( سنة ٤٤٩ ق . م . ) فلاسفة اشتغلوا بتعليل وجود العالم بالعلل الطبيعية نحو آمن قرن ونصف قرن ، وكان أولهم طاليس ( ٦٤٠ ق . م . ) ثم تلاه فلاسفة عديدون كان أريستيب أحرم ، ثم ظهر سقراط تغلا الجو للفلسفة النظرية . فالمدب الذي كان يرى تعليل الطبيعة من الطبيعة ، قديم كما يقرر بوختر . والمهم في هذا أن يدرك الفارء ، أنه ليس وليد نهضة علمية ، ولكن وليد مزاج مادي بحث ، وقصر نظر مميب ، وإعفاء عقل شديد .

وكيف لا يكون مصدره ما وصفت وقد بدأ والعلم لا يزال في مهده ؟ ومن يستعرض تعليقات أئمة الأولين لا يتالك نفسه من الضحك لشداجتها ، وظهور بطلانها .

ولما نبغ سقراط ( ٤٦٨ - ٤٠٠ ق . م . ) نشر فلسفة الثنية الروح والمادة الذي كان أول من أسسه أناغزاعور ( ٤٢٨ ق . م . ) وتلاه تلميذه أفلاطون ، ثم أرسطو ، واستمرت الدولة لهذه الفلسفة حتى ظهر أبقور ( ٣٤١ - ٢٧٠ ق . م . ) فأحيا مذهب الطبيعيين ، ولما مات هجعت الفلسفة المادية ، وظهرت المسيحية فقصت عليها ، وأحيت فلسفة أرسطو .

استمر المذهب المادي هاجما الى القرن الخامس عشر حيث نبع الفيلسوف الايطالى بطرس بومبوناثيوس فأسكر خلود النفس ( ١٥١٦ ) م .

وفي سنة ( ١٥٤٣ ) أصدر يقول كورنيك كتاب دوائر الاجرام السماوية فزعزع أركان الإيمان .

وفي سنة ( ١٥٩٢ ) نشأ ( جاساندى ) في فرنسا لحد المذهب المادي ورد على ديكرت في استقلال الروح عن الجسد . وكان على شاكلته توما هوبس وجون لوك ودافيد هيوم من الانجليز ، وبطرس بيل وكوندياك ودولامترى وديدرو ودالامير وهنفيوس من الفرنسيين .

#### الفلسفة في القرن العشرين .

كانت الفلسفة والعلم مترجين الى عهد قريب ، فلما نبغ العلامة ليكون ونقى العلم من الآراء والظنون ، وجعل لكل فرع منه حدودا ، بدأت الفلسفة تستقل عن العلم حافظة لنفسها مكانة طالية ، باعتبار أنها في عدم تقيدها بالتجارب والملاحظات تمنح للعلم مجالات جديدة ليرودها بما يملكه من وسائل السبر والتحقيق .

والعلم حافظة منقطعون له يزيدون مادته بمكتشفاتهم ، ويرتبون الاشياء والنظائر ، ويتعرفون النواميس التي تسودها ، والقوى التي تعمل فيها الخ الخ .

هؤلاء وحدهم يدركون جلالة ما هم بسيله من مسانير الكون ، واستفلاق ما يحاولون

فهمه من قواه ، فسكتوا كثيرا ما يكتفون فيها بالمرجحات . على هذا السعير وضعوا للوجود صورة ذهنية ، وأطلقوا على بعض ما وقفوا عليه من قواه اسم الواميس .

ولكن كان دون هؤلاء طبقة تخيل أن كل ما صدر عن هؤلاء الحفظة من المعارف حقائق خالدة لا يمتريها تبديل ، وأن العلم قال كلته الأخيرة في أصل الوجود وفي وامييه وقواه المختلفة ، فلم يبق عليه إلا أن يخلق ما يريد .

قال الدكتور الكبير (جوسناف لوبون) في كتابه (محول المادة) (La transformation de la matière) : «شيرا الى هذا الغرور العلمي في القرن التاسع عشر :

« دامت هذه العقيدة في المقررات الكبرى لعلم المصري حافظلة لقوتها الى أن حدثت في الأيام الأخيرة مكتشفات غير منتظرة قضت على الفكر العلمي بأن يكاد من الشكوك ما كان يعتقد أنه قد تخلص منه أيد الأبدن . فان الصرح العلمي الذي كان لا يرى صدوعه إلا عدد قليل من العقول العالية ، تزعزع فجأة بشدة عظيمة ، ( تأمل ) وصارت التناقضات والمحاللات التي فيه ظاهرة للعيان ، بعد أن كانت من الخفاء بحيث تسكاد لا تبلغها القنون . فأدرك الناس على عجل أنهم كانوا مخدوعين ، وأسرعوا ينشأون : هل كانت الأصول المكونة للمقررات اليقينية لمعارفنا الطبيعية غير افتراضات واهية تحجب تحت غشاها جهلا لا يسبر له غور ؟ الخ الخ » .

فما هي هذه المكتشفات غير المنتظرة التي قضت على الصرح العلمي بهذا التصدع الخطير ؟ (أولها) إثبات العلامة الفرنسي (باستور) أن الحى لا يتولد إلا من حى ، بعد أن كان العلماء يعتقدون بأن الحياة تتولد من الجادات بواسطة القوى الطبيعية وحدها ، فعادت مشكلة كيفية نشأة الحياة الى أشد مما كانت عليه من إعضال .

(ثانيها) ثبوت أن جميع المواد الأرضية التي كان يعتقد أنها لا تتلاشى ، تفنى ببطء بواسطة الإشعاع ، وأن منها ما يمكن الاستفادة من إشعاعاتها في معالجة الأمراض كالراديوم . وهذه الإشعاعات تنقص من وزنها تدريجيا الى أن تتلاشى ولو بعد آماد طويلة .

(ثالثها) أن الوجود تخترقه تيارات شتى من الأشعة لا يعرف مصدرها ، ولها خصائص مختلفة ، اهتدى العلامة (روتغن) الى واحد منها وسمى باسمه ، أمكن بواسطته أن ترسم الأشياء من خلال الأغلفة الكثيفة ، حتى توصل به الى تصوير العقظام المكسوة بالعضلات ، وكشف ما في الأحشاء من الأعراض .

(رابعها) التوصل الى إحالة المادة الجامدة الى قوة ، فسقطت نظرية الجواهر المفردة ، وسقط بسقوطها كل ما بُنى عليها من فلسفات طبيعية .

(خامسها) ثبوت تحالف الأنواع النباتية والحيوانية بالانتقالات الفعائية ، كما بينه بالتجربة

العلامة دوفريس De Vries الهولامدى ، فسقطت بها نظريات التطورات المتعاقبة فى الآماد الطويلة ، وهى ما بنى عليه لامارك ودارون نظريتهما فى التحول التدريجى بواسطة تأثير البيئة وناموس الانتخاب .

(سادسها) ظهور نظريات النسبية ، وإثباته أن الوجود المادى محدود ، وحقنه لناموس الجاذبية العامة ، وإقاماده علم الملك على قواعد جديدة .

كل هذه المكتشفات الانقلابية دلت الناس بأدلة محسوسة على أن ما كانوا يعتقدونه مقررات يقينية ، ليست إلا افتراضات قابلة للتطور ، وسوَّغت لمثل العلامة هنرى بواسكرىه الرياضى الأشهر العضو بجمع العلماء الفرنسى أن يقول :

« لما تروى العلماء قليلا لاحظوا مكان الافتراضات من هذه العلوم ، ورأوا أن الرياضى نفسه لا يستطيع الاستغناء عنه ، وأن التجربة لا تستغنى عنه كذلك . حينذاك سأل بعضهم بعضا : هل هذه الصروح العلمية على شيء من المثانة ؟ وتحققوا أن نفخة واحدة تكفى لجعل طابها سافلا » .

قد يستغرب الذين يسمعون عن العلم ما يملأ قلوبهم تهيبا منه ، صدور مثل هذه التصریحات عن أقطابه ، ونحن لأجل إزالة استغرابهم ووقفهم على جليلة أمرها نوجز لهم المسألة فى كلمتين .

للمرأه غرضان : ( أولها ) التأمل فى علاقات الكائنات بعضها ببعض ، والبحث فى بسائط موادها ومركباتها ، وتعرف نظم استعمالها وتطوراتها ، والاستفادة من ذلك فى الشئون الحيوية . و ( ثانياها ) إدراك كنه المادة ، وضبط الواميس العاملة فيها ، وإعطاء فكرة صحيحة من الوجود المادى والقوى المؤثرة فيه .

فأما الغرض الأول فقد بلغ منه العلماء حدا بعيدا ، فأوسموا المواد تحليللا وتركيبا ، واستخدموها فى والقوى المنسلطة عليها فى المسافع الانسانية ، ولا يزال المجال مفتوحا أمامهم للمزيد .

وأما الغرض الثانى فلا يزال مبنيًا هندسًا على الظنون والمرجحات ، على حين أن السواد الأعظم من الناس يعتبرونه من اليقينيّات ، ويننون عليه القصور والصروح من الأوهام . وقد وقع فى هذا الوهم نفسه كثير من العلماء أنفسهم حتى كان القرن العشرين ، فقضت المكتشفات الجديدة بأن يبقوا من غرورهم جميعا ، وأخذ أقطابهم يبينون للناس أسباب هذا الغرور ، والخطر الذى يبتلى على استمراره .

ونحن لأجل كشف الحجب المسدولة على عقول الناس هنا نترجم لهم ما يقوله هؤلاء الأقطاب :  
نقل العلامة هنرى بواسكرىه الرياضى الكبير فى كتابه ( قيمة العلم ) La valeur de la science ، تعريف الفيلسوف الكبير ( لوروا ) Le Roy للعلم وهو قوله :

« العلم ليس قائماً على شيء غير أمور اتفاقية ، ولهذا السبب يشاهد عليه مظهر الأمر اليقيني .  
فالمقررات العلمية في الواقع لا تقوم إلا على المرجحات ، والنواميس ليست شيء سوى مدارك  
صنعها العلماء أنفسهم . فالعلم والحالة هذه لا يستطيع أن يعطينا شيئاً عن الحقيقة » .  
أما ما يقال من المادة فقد غلصت دائرة المعارف الفرنسية الكبرى جميع الآراء التي  
أبدت فيها ثم قالت :

« وعلى هذا فجميع الافتراضات التي أبدت في المادة لا تزال عاجزة عن حل تناقضاتها  
الذاتية ، ولا تنطبق على الحوادث . فإذا استنتج من هذه الحال غير أن مداركنا العلمية  
في المادة ، لا تستطيع أن تزعم أنها الحقيقة المطلقة ؟ » .

هذا رأي العلم في المادة في العصر الحاضر ؛ أما رأي في النواميس وهي مظاهر القوى  
الكونية فتبين مما قاله الكيماوي الكبير السير وليم كروكس من أكبر علماء الانجيز ومن  
رؤساء المجمع العلمي البريطاني في خطبة له في ذلك المجمع كما ورد في مجموعة خطبه :

« متى امتحنا من قرب بعض النتائج العادية للظواهر الطبيعية نبدأ بإدراك إلى أي حد  
هذه النتائج أو هذه النواميس - كما نسميها - محصورة في دائرة نواميس أخرى ليس لنا بها  
أقل علم . أما ما ظن عدم اعتدادي برأس مالي العلمي الوهمي قد طغ حدا بعيداً ، فقد تقبض  
عندي هذا التسيج العنكبوتي للعلم - كما عبر به بعض المؤلفين - إلى حد أنه لم يبق منه إلا  
كرثة صغيرة تكاد لا تدرك .

« ولست بأسف من الحدود التي تضعها أمامنا الجهالة الانسانية ، ولكنني أعتبرها منقذاً » .  
هذا مثال من عقلية علماء الطبيعة في القرن العشرين ، وقد أعلنوها على رؤس الأشهاد ،  
إنقاذاً للناس من الفروور العلمي الذي كانوا قد وقموا فيه ، تحت تأثير فلاسفة ومفلسفين حردوا  
لهم الوجود من كل ما سوى المادة والنواميس ، وادعوا أنه أصبح مفهوماً جملة وتفصيلاً  
بحيث يستطيعون أن يحددوا مناطق التفكير ، وأصول التعليل ، قال هؤلاء المحددين  
الجامدين بوجه الفيلسوف الكبير ( هيرت سبنسر ) في كتابه الأصول الأولية قوله :

« شيء وظيفة تؤديها هذه الأصول في تكوين هذا الفهم ؟ هل تستطيع واحدة منها أن  
تعطينا وحدها فكرة عن هذا الوجود ، أم هي من مجموع ظواهر الوجود الذي لا يمكن  
إدراكه ؟ وإذا اعتبرناها مجتمعة ، فهل تستطيع أن تعطينا فكرة تساوي جلاله هذا الوجود ؟  
وإذا رتبنا وجمعت مذهباً ، فهل نستطيع أن نكون لنا هذه الفكرة المرجوة ؟ ليس لنا على  
كل هذه المسائل إلا جواب واحد وهو : لا ! » .

بمد كل هذا نعود إلى الفلسفة فنقول :

إذا كان هذا حط مقررات العلم من التعرزع والقلق في المصنف الأخير من القرن

التاسع عشر واثمة القرن العشرين ، فما ظنك بالفلسفة وهي تستمد وجودها من تلك المقررات ، وخاصة الفلسفة الطبيعية التي تترسم خطوات العلم ، وتسير تحت لوائه ، وتُبدل على جميع الفلسفات بقيامها على تحديثاته ؟

هل بقي من الغرور بالعلم أثر في رهوس المتتبعين لأطواره ، حتى يبقى فيها أثر من الغرور بفلسفته ؟

أناشدك الله والرحم أن تخبرني أي أثر يحدثه في نفسك أن تقرأ البروفسور أندريه كريسون مدرس الفلسفة في جامعة ليون في كتابه ( قواعد الفلسفة الطبيعية ) Les Bases de la Philosophie Naturelle par le prof. A. Cresson هذه العبارة بعد فصول تفصيلية : « ما هي الفلسفة الطبيعية اليوم في الواقع إن لم تكن عقيدة فوق متناول العلم ؟ هل يقتصر الفيلسوف الطبيعي على قول ما يعرفه ؟ هل يمتنع عن الحكم على الأشياء التي يجربها ؟ لا ! ولكنك ترى مذهبه يكبر ويمتد ، لأنه في كل خطوة من خطواته يحمل الفلسفة ما ليس عندها . »

ألي أن قال : « فالتى يغتر بمقررات الفلسفة الطبيعية لا يجوز له أن ينسى أن هذه النتائج لم تثبت ثبوتاً مطلقاً ، ولا يمكن أن تصل الى هذه الدرجة أبداً » انتهى .

فإذا كان العلم يعلن على رهوس الأشهاد ، عقب مكشفات طبيعية حديثة ، أن كل ما كان يعتمد به من نظرياته في المادة ونواميسها قد تصدّع ، وأن نفخة واحدة قد تكفي لنفسه من أساسه ؛ فهل لفلسفة في الأرض أن ترفع رأسها فتعلن أنها أقوم من سواها طريقة ، وأدنى منها الى الصواب أسلوباً ؟

وإذا كان يمثل الفلسفة الطبيعية ومدرستها في جامعة من أشهر الجامعات المالية ، وهو البروفسور أندريه كريسون يقول « ما هي الفلسفة الطبيعية اليوم في الواقع إن لم تكن عقيدة فوق متناول العلم ؟ » ، فهل لمنتصر لها أن يدعى أنها الفلسفة الحققة ، وأنها يجب أن تتحكم في العقول وتحدد لها ولاتها حدوداً ، وتحمل لها مجالات للنظر وتحرم عليها أخرى ؟

وإذا كان رجل كالاستاذ ولیم كروكس وهو من أكبر كيميائي المصير ، وأعرف الناس بالمادة ونواميسها يقول : « إن عدم اعتدادي برأس مالي الملمى الوهمي قد بلغ حداً بعيداً . وإنى أعتقد بأنى لست أنا ولا أحد سواي أهلاً لأن تعين مقدما ما ليس بوجوده في الكون . » فهل لفلسفة أن تعتمد بنفسها الى أبعد حد ، وأن تعين ما هو موجود وما ليس بوجوده ، وأن تستبد بالعقول فتصممها عن الحولان في غير المناطق الضيقة التي ترسمها ؟

إذا كان شعار العلم في القرن العشرين الاعتراف بالجهل ، فالفلسفة أولى منه بهذا الشعار ، وكل فلسفة تشذ عن هذا التواضع تكون ( بصيلة عن البيئة العفوية ) .

### كلمة في رد الدكتور البهي علينا :

وبعد : فقد رأى الدكتور البهي أن يقابل تعقيباني بكثرة ملطفة عليها ، وأما لا أرى بأسا من مقابلتها بالمثل فأقول :

(١) إن ما ذكرته أما في موضوع الفلسفة الإسلامية وحواجز تسميتها بهذا الاسم أو عدم جوازها لا يحتمل أكثر مما قلته فيه ، فأدعه لفطنة القراء .

(٢) ويقول الدكتور : إنه فيما كتب أولا لم يتعرض لتصوير مذهب من المذاهب الفلسفية ، ولكنه كان يعرض تاريخ البحث الفلسفي ونحوه وأسباب هذا التحول .

وأنا أقول . إن كان هذا قصده ، كان يجب عليه أن لا يقول : إن كل من لم يقتصر في الفلسفة على تحليل الشئون الطبيعية بالطبيعة نفسها يكون ( بعيدا عن البيئة العلمية ) ، لأنه يعرف جميع المطلمين على الفلسفة يعرفون أن جمهورا كبيرا من الفلاسفة المعاصرين وفيهم أفذاذ ممتازون يقولون بوجود عنصرين مستقلين في الوجود : المادة والروح Spiritualistes ، وهؤلاء القائلون بالنشئة لا يصح اعتبارهم ( بعيدين عن البيئة العلمية ) وفيهم أفطابها المقدمون .

(٣) ويقول الدكتور : إن قيمة أي مذهب فلسفي في نظر تاريخ الفلسفة لا تتوقف على رأي الدين فيه .

وأنا لم أجعل الدين حكا في مذاهب الفلسفة ، فإني إن عبرت عن المذهب المادي بأنه ذو نزعة إلحادية ، فأنا أقصد من ذلك وصفه باعتبار أنني خصمه ، وهذا شيء والقول بأنه باطل لأنه يناقض الدين شيء آخر . وقد قلت الأول ولم أقل الثاني .

(٤) ويقول الدكتور : إني أقرر أن سيد الدين الفلسفة ، وأن القرآن لا تظهر حكته إلا تحت ضوء العلم والفلسفة .

أقول : نعم ، ولكن أي فلسفة ؟ الفلسفة التي بدأها البحث عن الحقيقة بحثا مجردا عن القيود ، والتي تدرك عظمة الوجود فلا تعين ما هو موجود وما ليس بموجود ، والتي لا تستبد بالمقول فتجوز لها النظر في محالات ، وتحرم عليها النظر في أخرى ، والتي تصرح بأنها تنشد الحقيقة فتقبلها متى قام عليها الدليل المحسوس ، ولا ترفضها لمجرد أنها لا تنطبق على الأصول التي قررتها من قبل .

وأي علم ؟ العلم الذي يقوم على التجارب المدققة ، والملاحظات المحققة ، لا على الظنون والآراء على ما بينته في هذه المقالات ، وتبرأ منه العلماء أنفسهم .

هذه هي الفلسفة وهذا هو العلم اللذان يبينان حكمة القرآن ، ويدلان العقل على أنه يهدي للتي هي أقوم .



(٥) ويقول الدكتور : إنني أحمل على وضع منطق الدين بالاستناد الى العلم والفلسفة .  
نعم بالاستناد الى السكيات العلمية الكبرى التي ثبتت بالتحرة والملاحظة ، وأى ماب  
على في ذلك ، ما دام العلم يتحكم في العقلية الانسانية فلا يستطيع عقل أن يقبل ما يجاهيه أو مالا  
ينطبق عليه ؟ هل ترى أو تتخيل وجود رجل يعتقد بالعلم في أعماله ، ولا يعتقد به في اعتقاده ؟  
من هو الذي يستطيع أن يأخذ بفلسفة تقول له : لا يجوز تحليل الشؤون الطبيعية إلا بالطبيعة ،  
وإن لم يفعل ذلك يكن ( بعيدا عن بيئة العلم ) في العصر الراهن ؛ ويأخذ الى جيب هذه الفلسفة  
بدين كل ما فيه خاص بما فوق الطبيعة ، وهو طرف أنه في تدينه ( بعيد عن البيئة العلمية ؟ )  
ليسمع لي أن أقول : إذا كان العلم ، وهو المتحكم في تقية المعاصرين اليوم ، لم يصل الى  
كشف شيء يدل على وجود عالم ما فوق الطبيعة ، على مقتضى أسلوبه من السبر والتمحيص ،  
فلا يعقل أن يستقر في قلب الأخذين به إيمان بشيء يتصل بذلك العالم مهما كان مصدره .  
فأنا إن حاولت أن أضع للدين منطقا قائما على الفلسفة الحققة والعلم الصحيح ، وما ثبت  
بالأدلة القاطعة بواسطة البحوث النفسية القائمة في أوروبا وأمريكا منذ تسعين سنة ، من وجود  
الروح واستقلالها وبقائها بعد الموت ، فاني أحاول أمرا عظيما يجب أن يشغل عقول الذين  
يغارون على مصلحة العالم الانساني .

على أني لست بدعا من هؤلاء الغيورين ، فانه في سنة (١٩٢٠) اجتمع مؤتمر في لوندون لإبداء  
رأى المسيحية في البحوث النفسية التي استفاضت في العالم ، وبعد أن احتبر أدلتها وأعلن رأيه  
فيها ، كتب الفيلسوف الكبير ( جان فينو ) الفرنسي في مجلته ( المجلة العالمية ) ، وهي أكبر  
المجلات الأوروبية ، في العدد الصادر في ١٥ يناير من سنة ( ١٩٢١ ) فقال :

« في مؤتمر الاساقفة الانجليكاني الذي عقد في قصر ( لامبيث ) من ٥ يوليو الى ٧  
أغسطس سنة ١٩٢٠ وحضره ٢٥٢ من رؤوس الكنيسة ، منهم مطارنة كاتر بوري ويورك  
وسدني وكيناون والمهند الغربية وميلبورن وإمارة بلاد الغال الخ . وهذا غير مائة أسقف  
من أكبر الاساقفة ، تقرر النظر في أمر الاسبرنزم والعلم المسيحي والنيو صوفية ، بسبب تأثيرها  
العظيم في عقلية أهل العصر الحاضر . وامتدح بقيمة هذه البحوث الروحية التي تكافح  
المادية بنجاح عظيم .

الى أن قال الفيلسوف جان فينو :

« فالعلم القديم المتأخر يكره هذه الفتوحات الجديدة ، ولكن من الظلم ومما يؤسف له  
( تأمل ) إغلاق النواخذ التي فتحت أمام أهيئنا فهرتها منها هذه الأنوار العلمية » انتهى .  
فاذا كان رجال الدين في أرق أمة أوربية يضطرون لعقد مؤتمر خاص لإصدار حكم في هذه  
البحوث النفسية على كراهتهم لها ، وسبق محاولة وضع للمراقيل في سبيلها ، فعنى ذلك أنها

اكتسبت القول بقيامها على الأدلة المحسوسة ، وأصبحت بحيث تحمل رجال الكنيسة على الاعتراف بمكائنها للمادية مكافئة تكلفت بنجاح عظيم .

فهل من طاب على طالب الحقيقة الفلسفية ، أن يستعين بهذه الحركة (العلمية) على تلمس مخرج مما دفعه اليه أصحاب (الفلسفة) المادية أو الطبيعية ؟ هل من طاب عليه أن يعتمد بأدلتها بعد أن قال (العلم) ممثلاً في ألوف من أقطابه كلته الحاصصة فيها ؟ .

يقول الدكتور البهي : إن هذه بحوث لم تصل بعد الى درجة الاستقرار . ويقول الأستاذ وليم جيمس السيكلولوجي المالبي المدرس بجامعة هارفرد بالولايات المتحدة في كتابه ( إرادة الاعتقاد ) La volonté de croire : « إن دقة هذه الدراسات النفسية تفوق في عدد تجاربها وكثرة المشغلين بتمحيصها ، دقة أية دراسة أخرى في الموضوعات الفزيولوجية » ، فليختر القارئ لنفسه الأخذ بأوجه القولين .

عدم الاستقرار هذه كلمة قالها المسكرون عند ظهور النتائج الأولى للدراسات الروحية ؛ ولا يزالون يقولونها بعد أن أصبح محققوها من كبار العلماء يمدون بعشرات الألوف ، وبعد أن مضى عليها تسعون سنة قُلبت فيها على كل وجه ؛ وسيقولونها إلى أن تقوم الساعة . . .

فهل تريد الكنيسة الإيمجليكانية بالاستعانة بهذه البحوث النفسية أن يتفلسف الدين ؟ لا ولكنها تريد أن يستفيد أتباعها من الأدلة العلمية المحسوسة على وجود الروح وخلودها ، ووجود عالم روحاني وراء هذا العالم إجمالاً بدون تفصيل .

وهذا ما نريده نحن من الاستعانة بهذه البحوث .

ونحن في انحازنا هذا إنما نتجه إلى ( العلم ) لا إلى الفلسفة ، فإن القدي يتولى الحركة الروحية اليوم هو ( العلم ) ، بأدواته العملية من التجربة والتمحيص ؛ فقول الدكتور البهي من أن « طلب المعون من الفلسفة لم يكن له من أثر سوى تعقيد العقيدة الخ الخ » قول لا موجب له ، ولا موجب كذلك لسكل ما أتى به من تخليطات فلاسفة العرب ، ولم يقبلها المسلمون .

و ( العلماء ) الذين يبحثون في إثبات وجود الروح عملياً بالتنويم المغناطيسي وغيره ، لا يبدون آراء في الدين ولا في الأمور المتعلقة به ، ولكنهم يبحثون في أمرين اثنين : هل في الحسد روح مستقلة عنه لها بقاء بعد الموت ، وهل يوجد عالم محجوب عنا وراء هذا العالم ؟ هاتان المسألتان لا أقول يجوز بل يجب على كل مسلم الاهتمام بهما ، وتفتح تطوراهما ، دفعا لما ينسب عليهما يوميا من التشكيكات فيهما ، سواء من ناحية المتعاملين أم من ناحية المتفلسفين .

فهل يريد الدكتور من وجوب عزلة الدين ، أن يصم أهله آذانهم عن الأدلة المحسوسة التي هُدى إليها ( العلم ) في الزمان الأخير ، مع بقاء الفلسفات المادية تتسرب إليهم في مدارسهم ،

وفي الكتب والمجلات التي تتراعى اليهم ، فيتناولوا منها الشبهات الداحضة للدين ، ولا يتناولوا من ( العلم ) علاج هذه الشبهات بالدليل المحسوس ؟

هل رأى الدكتور أيديت الدين بالفلسفة العربية ، التي أكثر من النقل منها ؟

وهل رأى استدلت على وجود الخالق بنظرية الأثير كما قال ؟

وهل رأى شرحت الروح ( وحقيقتها ) من الأقوال في استحضر الأرواح ؟

كل ما يستطيع أن يثر به من إكتاوى الكتابة في البحوث النفسية هو أن ( العلم ) يشغل اليوم بآثبات وجود الروح وخلودها ، وإثبات وجود العالم الروحاني ، ولم أزد على هذا . وهذا التثويه واجب حيال الشكوك التي تساور العالمين اليوم من كل مكان ، على يد الفلسفة الطبيعية .

#### المذهب المادى والمذهب الطبيعى

يرى الدكتور الهى أنى أمر على عدم التفرقة بين المذهب المادى وبين المذهب الطبيعى فى الفلسفة . ويرى أنى أقض نقضى ، فرة أذم المذهب الطبيعى ومرة أمدحه ! وقد نقل كلاما لى فى ذمه ، وكلاما آخر لى فى مدحه ! ولست أنمرض لى إياه فهو صحيح . ولكى أنمرض لآتهامه إياى بمدحه ، فأنقل ما قاله فى هذا الموضوع ، قال :

« ومرة بحكم عليه بأنه من أقوى الوسائل لهدأ أزر الدين ، وأنه لا يصور النزعة الإلحادية إلا فى رأى قصير النظر قتل المعرفة به ، فيقول ( يهدى أما ) تحت عنوان صفحة من الإبداع الإلهى « من المعيب أن بعض الناس يتوهمون أن التوغل فى ( العلم الطبيعى ) يقع صاحبه فى الإلحاد لا محالة . . . وهذا وهم عظيم الخ . . . »

وأما لدفع هذه التهمة عنى ، وما بناء عليها أقول : فرق عظيم بين ( الفلسفة ) الطبيعية وبين ( العلم ) الطبيعى ، فالعلم الطبيعى لا يذمه إلا ما فوقك ، وهو لا يوقع فى الإلحاد ، إلا كل قصير النظر ما أقول . وهو الذى قلت ولا أزال أقول إنه يؤدى إلى الحق وإلى الحكمة ، وإلى الإيمان الصحيح .

والميتافيزيقا ؟

يقول الدكتور الهى : « لو تفضل حضرتى ( يهدى ) فأبان أن أرسطو فى نظره لى الإنسان كان ميتافيزيقيا ولم يكن طبيعيا ، عندئذ أصرح له بأنه صحيح عندى خطأ . »

أقول : إن أرسطو قرر فى كتابه الميتافيزيقا أن للإنسان روحا إلهية متنزلة عليه من الخالق ، ومتميزة عن الطبيعة ، فهل هذا القول لا يعتبر ميتافيزيقيا من ناحيته فى نظر الفلسفة الطبيعية ؟

محمد فريد وجدى

## من وحي الشريعة الخالدة

أسلفنا لقراء هذه المجلة شطرا من الكلام عن التأدب بأداب الإسلام والتخلق بخلقها ، وكيف أن الشريعة أحاطت المجتمع بسياج من الخلق الصديق ، كما من ظاهرة من ظاهرات هذا الوجود تخلع عليه الخير وتقيه مظان السوء ومواقع البهتان إلا كان لها من الشريعة مرد ، ومن آدابها مرجع .

فالشريعة تحدثنا فيما تحدث عن فئة المطربين من الناس ، وكيف أنهم لا يأخذون أنفسهم بأساليب المدح والاطراء فيما أحل حلالا أو حرم حراما ، ولا يصدفون عن الجادة الواضحة إذا مدحوا على ألسنة المادحين ، وتجاوبت الأصدا زلنى المزدلفين ، فإن المدح على غير وجهه مدخل من مداخل الهوى والغرور ، وأفن الرأى وسوء المعير ؛ وفي مرتبة السب حين يبدأ أحد المستبين صاحبه بما هو منه برى ، فتعود قالة السوء الصادرة عنه إليه ، ويصبح مسئولا عنها ديانة وقضاء .

والمثل الأعلى ما رواه البخاري ومسلم الترمذي في صحيحهم « أن رجلا جاء الى عثمان رضي الله عنه فأنهى عليه في وجهه ، فأخذ المقداد بن الأسود ترابا غنا في وجهه وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا لقبتم المادحين فاحنوا في وجوههم التراب » . وروى الإمام أحمد وأبو داود « أن وفد بني عامر جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : أنت سيدنا ، فقال : السيد الله ، قالوا : وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا ، فقال : قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجربنكم الشيطان » . وتلك أمثلة قائمة على أن الإطراء ليس مما يجرى على سنن واحد ، وأن المدح لغير الله غير جائز حتى في عرف المروءة ، إلا إذا قصد بذلك تشجيع المطربين الى عمل دائم الثمرات جميل البركات كثير المنويات . فلا سير على ما حققه علماء الاخلاق أن يريد المادح فيما ذهب اليه توجيه المدح الى الطريقة المثل ، وحمله على بذل سلسلة من العوارف لنوع من أنواع الانسانية قد استأهله . ولا ضير على المادحين أن يسلكوا نوما من البشر في سلسلة من النماء ومرحلة من الإطراء ليشجعوا غيرهم على المضى في سبيلهم وورود منهم . وهذا في الظن الكثير قليل .

من أجل ذلك كان الرسول الأعظم يوجه المادح الى أقوم السبل في مدحه ، ويصره بمقابلة إفراطه . وهكذا يتسق وحي الشريعة لاحكام البشرية الساق لا يفادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها مما سنأى عليه في بحوث تالية ؟

عيسى ط

will clearly show that the number of illegitimate births is alarmingly greater in Christian than in Moslem countries. The honour of the fair sex is more in jeopardy in the former than elsewhere, and the freedom of the softer sex is nowhere so cruelly abused and insulted as in Christian lands. Islam enjoins upon its followers to live and act under a constant sense of the fear of God. Whatever a Moslem does, he does it God-fearingly. Fear of God is the prevailing passion with a Moslem, and governing all his thoughts, words, and actions. Even in conjugal relations and connubial dealings, fear of God is the main motive of action.

I give, below, in extenso, the nuptial sermon, universally preached on the occasion of marriage, in imitation of the Holy Prophet —

“O ye believers, fear God as He deserves to be feared, and die not without having become Moslems. O men, fear your Lord Who hath created you of one progenitor, and of the same species created He his wife, and from these twain hath spread abroad so many men and women. And fear ye God, in Whose name ye ask mutual favours, and reverence the wombs that bore you. Verily, God is watching over you. O believers, fear God and speak with well-guided speech, that God may bless your doings for you and forgive you your sins. And whoso obeyeth God and His apostle, with great bliss he surely shall be blest.”

The sermon is a collection of Koranic verses, and their repetition at each and every wedding, is meant to remind the Moslem men and women of their duties and obligations. It opens with a commandment to fear God, and the self-same commandment is repeated quite a number of times in the course of the sermon, showing that the whole of the ceremony is to be carried through with fear of God so that from beginning to end it may be a pure, moral bidding, and no selfish equivocation or hypocritical prevarication may mar the sanctity of the sacred rite. The obligations accepted by the pair at the time when the marriage sermon is delivered, will thus be real and will exercise a lasting influence on the future life of the couple, as man and wife. The institution, based solely on fear of God, is bound to be holy and those who hold to such a holy institution cannot be charged with sinister motives, if they are true Moslems. Such a sacred system can never be productive of sex-indulgence. A man who God-fearingly enters into a contract and binds himself to certain obligations, cannot be termed a sexual man. The verses clearly give the Moslem to understand that the ultimate object of the marriage contract is to win the pleasure of God. When acting from such motives, it cannot be conceived that a Moslem considers himself to be pleasing God, while indulging in sensuality. Sensuality is an abomination to God, and a Moslem knows that fact from the Koran, more than anybody else. It is

ye that I am come to give peace on earth ? I tell you, nay, but rather division.' Once more we read in the Gospel : 'Then said he unto them, but now he that hath no sword, let him sell his garment and buy one' It is now as clear as the day, that if Jesus had had the opportunity of gaining political strength, he would have filled the earth with war and bloodshed, notwithstanding his saying 'Love your enemy' Peace is the thing a Moslem is called upon to maintain by whatever means he can ; but peace, according to the above statements attributed to Jesus, is the very thing Christ came to destroy<sup>1</sup>."

Instead of the Christian commandment, 'Resist not evil, but whosoever smiteth thee on the right cheek, turn to him the other also,' the Moslems follow their Koranic verdict, to wit "Ward off evil in the best possible manner<sup>2</sup>."

If evil is not to be resisted, it would be allowed to grow unchecked, and eat away the very vitals of humanity All jails, reformatory schools, and law-courts should be abolished forthwith, so that under the charitable teachings of the Christian faith, evil may have perfect freedom and run riot in whatever way it can. When it is a sin to resist evil, the natural consequence is the abject toleration, or rather encouragement, of all sorts of nefarious designs and mischievous courses. Human nature is not safe under the assumed Christian teachings ; therefore it naturally, revolts against them. Never has mankind, even in the very heart of civilisation which is said to be the direct result of Christian teachings, acted upon these teachings which are against the intellect, nature and instincts of humanity The Holy Koran strikes at the very root of evil. It stops the very source of it. It says - "Ward off evil in the best possible manner." The measure to be taken for the removal of evil is not positive non-resistance which is not a sensible policy at all, but on the contrary the most effective methods ought to be used for the extirpation of evil. The means suited to particular cases are to be employed, whether they be harsh or mild. Whatever is productive of desirable results should be resorted to for the eradication of evil.

## 2.

### **"Mohammadanism : A Religion of Sex-Indulgence."**

As regards the assertion that Islam is a religion of sex-indulgence, nothing can be farther from the truth. A comparison of the moral conditions of the countries, populated by Moslems and Christians respectively,

---

(1) Qazi Abdul Haque, 'The Review of Religion' (Sept. 1913).

(2) Koran.

enmity, if it is possible to do so, a Moslem should be sincerely loving. But if the cause cannot be removed, our hostilities should not be active and aggressive, for we are, in the honest discharge of our religious duties, bound to wish for peace under all circumstances and all events.

I have already stated with sufficient fulness, and need not repeat it over and over again, that Moslem wars, as allowed in the Koran and explained by the sayings of the Prophet, were entirely defensive, and therefore the attacks recommended are never aggressive. The religion of Islam is essentially for peace, and even in fighting the aim was nothing but peace<sup>1</sup>.

The defensive wars of the early Moslems are a matter of history. It is an historical truth, and no reasonable person can refuse to accept it. After thirteen long years' persistent persecution, when all peaceful measures had failed and proved unavailing, when war or death were the only alternatives, it would not have been right to act upon the Gospel verdict "Love your enemies and do good to them that hate you," and thus to allow the enemies of Islam to revel in the wholesale massacre of harmless worshippers of the one true God, and to sweep the only living faith out of existence. Moslems who were bent upon the preservation of their beloved faith at all hazards, Moslems who loved God above all worldly considerations, even their very lives, Moslems who were by all sorts of ruthless tortures and merciless butcheries, goaded by natural anger, so far kept down by the peaceful ordinances of Islam, could not of course adopt the "love your enemy" maxim as their guide. The enemy of God and his blessed dispensation which preaches love, peace and fellow-feeling, can scarcely be expected to deserve real love at the hands of a sincere lover of God. A Moslem cannot afford to love an enemy who hates God. He cannot go against human nature. His ideal will be peace, he refuses to play the aggressive part, he takes the initiative in the reconciliation and shows sincere love there-after. A zealous enthusiastic Moslem writer makes the following remarks on the attitude of Christian critics who lay great stress on the defensive wars of the Holy Prophet, as follows .—

"Our Christian friends love to conceal facts while dealing with Islam. They are ever prepared to dwell upon the defensive wars of the Prophet and his holy followers, but they take good care to keep us away from what Jesus is reported to have said with positive definiteness. 'Think not that I am come to send peace on earth. I came not to send peace, but a sword.' Again we read 'I am come to send fire upon the earth and what will I if it be already kindled.' We read again in the Gospels 'Suppose

---

(1) Vide T. W. Arnold 'The Preaching of Islam'

deal of fighting, and although much of this later fighting had little to do with religion, there is certainly nothing in it, to blame the Moslems for. The political development of a nation is another problem which needs careful handling and which I leave for students of politics to examine. With regard to those verses of the Holy Koran, in which war is enjoined upon Moslems against the infidels, and that "wherever they are found they shall be taken and killed with a general slaughter," these verses and their likes, as already stated, bear upon the defensive war of the Holy Prophet. The Moslems can produce any number of verses from the Holy Koran which enjoin all courtesy, politeness and civility, even in the case of severe persecutors. The example of the Prophet is clear on this point. He granted pardon to the Meccan persecutors when, quite vanquished, they threw themselves on the mercy of the Holy Prophet. God says: "And the servants of the God of Mercy are they who walk upon the earth softly; and when the ignorant address them, reply 'Peace'; and they pass the night in the adoration of their Lord, prostrate (at times) and standing (at others) for prayers."

I appeal to the good sense of the readers as to whether there can be found a higher ideal for humanity to pursue. God's servants are required to walk humbly and harmlessly, and when they are confronted with ignorance which is only another name for lack of manners and manly behaviour, even there, when hedged round by ill manners and ill-treatment, the true Moslem is called upon to wish for peace. His sole object in his social capacity should be to spread peace, even when harassed by bad behaviour and inconsiderate treatment. Peace is the Moslem's watchword, whatever circumstances he has to pass through. When comparing this highly practical ideal with the Christian injunction "Love your enemy," a Moslem is constrained to admit his impression that the Christian code of morality is only a set of fair seeming platitudes, not meant for practice, but merely for controversial purposes. It is all very well to love one's enemy, but is it, a Moslem asks, in consonance with human nature, to be able to show anything like real and true love, where there exists enmity? Our enemy, if he is an enemy at all, in the natural sense of the word, cannot be expected to feel favourably disposed, much less loving and affectionate, to us. However pious and godly we may happen to be, hatred and contempt, the necessary characteristics of enmity, must re-act on us, and our attitude, at best, will be supposed inactive hatred, and in no case real love. Love begets love, and hatred begets hatred. This is the law of nature, and a wise man cannot ignore the course of nature, and frame a line of conduct conflicting straightway with it. Islam does not require us to be hypocritical lovers of our enemies, but calls upon us to be reconciled with our enemies, and to be at peace with them. Thus, removing the cause of



pondered over the fact, that the early Moslems were so much devoted to the letter, as well as the spirit of this Book, that they sacrificed everything to obedience to the injunctions contained in it, and did not swerve even a hair's breadth from the path laid down in their Book. If the Book enjoined force and compulsion for the spread of Islam, then the Moslems must have fought and worked havoc for the propagation of Islam. There is not even a single verse in the Holy Koran which directly or even indirectly insinuates the alternative of death or Islam for the unbelievers. "There is no compulsion in religion" trumpets forth loudly the peaceful spirit of Islam. The commandment is absolutely positive and admits of no exception. The use of force and compulsion is, then, totally forbidden, and the imperative and highly dictatorial character of the injunction leaves no room for any chance of making an exception in favour of the employment of war like means, for the purpose of popularising Islam. The mere fact that in the history of Islam one meets with fighting and bloodshed, can in no way lead to the conclusion that Islam was spread by the sword. There is no religion, the history of which is not stained with blood. The Crusades, the Christian conquest of Spain, the subsequent persecution and expulsion of the Moslem Moors, the days of the Inquisition, the massacres of St.-Bartholomew's day and other similar tragedies, perpetrated in the name of religion, recurring to the memory, send a new horror and dismay throughout the world.

No reasonable person will therefore be prepared to accuse the adherents of any religion, of allowing force and compulsion, on the flimsy ground that the story of such religion makes mention of bloodshed and fighting. Islam will be to blame, if it can be proved that it sanctions the use of force and compulsion for the propagation of the faith. But on the contrary, we find clear and explicit injunctions forbidding force for the purpose of religion. The only possible conclusion that can be drawn from the above considerations, is that if the Moslems were acting in accordance with the teachings of Islam, they did not take up arms for the sake of forcing conversions. A glance at the history of those days will bring to light the fact, that they were persecuted, and were subjected to all sorts of torture and ill-treatment. They left their homes to save their lives, but the merciless enemies followed them. At last, when all peaceful means had failed, and the aggressive spirit of their antagonists reached its zenith, the enemies having made up their minds to annihilate the embryo dispensation, the handful of Moslems were driven to have recourse to arms. They fought and fought, till there was no danger left to retard, free growth and expansion of Islam. If facts alone are looked at, there should be no difficulty in realising the real situation of the early Moslems who had to fight for the sake of self preservation. Later on there was also a good

us to worship one God, to speak truth, to keep good faith, to assist our relatives, to fulfil the rights of hospitality, and to abstain from all things impure, ungodly, unrighteous. And he ordered us to say prayers, give alms, and to fast. We believed in him; we followed him. But our countrymen persecuted us, tortured us and tried to cause us to forsake our religion, and now we throw ourselves upon thy protection. Will thou not protect us ?”<sup>1</sup>

Dealing with this great spiritual revolution, Sir W. Muir observes as follows — “Never since the days when primitive Christianity startled the world from its sleep, had men seen the like arousing of spiritual life. Thirteen years before the ‘Hijra’, Mecca lay lifeless in this debased state. What a change had those thirteen years now produced. A band of several hundred persons had rejected idolatry, adopted the worship of one God and surrendered themselves implicitly to the guidance of what they believed a Revelation from Him, praying to the Almighty with frequency and fervour, looking for pardon through His Mercy and striving to follow after good works, alms-giving, purity and justice. They now lived under the constant sense of the omnipotent power of God and of His providential care over the minutest of their concerns. In all the gifts of nature, in every relation of life, at each turn of their affairs, individual or public, they saw His hand. Mohammad was minister of life to them, the source under God of their new-born hopes, and to him they yielded an implicit submission.”<sup>2</sup>

## XV

### Refutation of Certain False Charges by Prejudiced Writers against Islam

#### I.

#### “Force and Compulsion Were Employed for the Dissemination of Islam”

Islam took its birth, and has since lived, in the broad daylight of history. The Moslems adhere to the faith of Islam not because they were born and bred in this faith, but because it is the most historical religion and can bear with perfect safety even the severest possible criticism.

If those who brought the above charge, had cared to deal with their subject in an honest, straightforward manner, they should have gone through the teachings of Islam, as embodied in the Holy Koran, and then

---

(1) Sir William Muir, cf. pp. 36, 37 of this book

(2) Sir William Muir's “Life of Mohammed.”

The Holy Koran inculcates the softer virtues, such as friendliness, good temper, affability of manners, hospitality, forgiveness, fairness in dealing, regard for superiors, kind treatment of inferiors, respect for women, care of orphans, tending the sick, helping the helpless and the destitute, with a force and persuasion which it is difficult to find elsewhere<sup>1</sup>. The critics of Islam have for the most part expressed their unstinted admiration for the heroic, or sterner virtues, to wit patient endurance, fortitude, love of truth under personal risk, courage and manly independence, which Islam has always exalted and in the practice of which the Prophet himself and the early Moslems were so marvellously distinguished; but these critics often forget that Islam enjoins with equal emphasis the cultivation of the gentler virtues too. Lessons of modesty and benevolence and charity have been so often re-iterated in the Koran, and again, these virtues form so conspicuous an element in the life and conduct of the Prophet and his companions, that Islam can justly claim to be ranked as a Religion of Love. Every chapter of the Holy Koran begins with the name of "God, the Merciful, the Compassionate."

The Prophet of Islam has been denominated in the Koran as "the tender, the compassionate," and "the mercy for the universe." Himself the tenderest and the most loving of men, he was never tired of preaching to his followers the brotherhood of man and humanity to all God's creatures. "How do you think," he asks, "God will know you when you are in His presence?—"By your love of your children, by your love of your kin, of your neighbours, of fellow-creatures." He displayed the greatest consideration for the feelings and sensibilities of others. He loved his wives, and was kind to his servants. He was particularly fond of little children and discouraged the use of the rod for their correction. He enjoined humanity even to dumb animals.

Such being the ethics of the Koran and the teachings of the Apostle of Islam it is easy to form some idea of the exact nature and extent of the change wrought thereby in the life and thought of the Arabs. Some of the first few converts to Islam, unable to bear persecutions at the hands of the idolaters, sought refuge in Abyssinia. When asked by the Negus as to the reason why they had left their country, Jaafar, a cousin of the Prophet, spoke thus as the mouthpiece of the small band of refugees:—"O King, We lived in ignorance, idolatry and unchastity; the strong oppressed the weak, we spoke untruth; we violated the duties of hospitality. Then a prophet arose, one whom we know from our youth, with whose descent and conduct and good faith we are all acquainted. He told

---

(1) Stanley Lane Poole.

O believers, let not a people laugh, another people to scorn who haply may be better than themselves; neither let women laugh women to scorn who haply may be better than themselves. Neither defame one another, nor call one another by bad names. Wickedness is such a bad quality to adopt, after becoming true believers, and whose repent not (of this) are wrongdoers. O believers, avoid frequent suspicions; verily some suspicions are a crime, and pry not into others' secrets, neither let the one of you traduce another in his absence. Would any of you like to eat the flesh of his dead brother? Surely you would loathe it. And fear ye God, for God is ready to turn, and Merciful. O men, verily We have made you of one male, and one female, and We have made you peoples and tribes that ye might know one another. Truly, the most worthy of the honour before God is he who feareth Him most. Verily God is Knowing, Cognisant<sup>1</sup>."

Such were the principles, on which the political system of Islam was grounded. It was thoroughly democratic in character. It recognised individual and public liberty, secured the person and property of the subjects, and fostered the growth of all civic virtues. It Communicated all the privileges of the conquering class to those of the conquered who conformed to its religion, and all the protection of citizenship to those who did not. It put an end to old customs that were of immoral and criminal character. It abolished the inhuman custom of burying the infant daughters alive, and took effective measures for the suppression of the slave-traffic, it prohibited adultery and incestuous relationship; and on the other hand, inculcated purity of heart, cleanliness of body, and sobriety of life<sup>2</sup>."

#### XIV

### The Social Organisation of Islam

The Prophet Mohammad did not only promulgate a religion, but he also laid down a complete social system, containing minute regulations for a man's conduct in all circumstances of life, with due remarks and penalties, according to his fulfilment or otherwise of these rules. The social and the religious parts of Islam are so inseparably bound up that it is impossible to cut off the one from the other without destroying both. Religion according to Islam should not only lay down the law of relation of man to God, but should also regulate and distinctly define the proper relation between man and his fellow-creatures.

---

(1) Koran, ch. The Apartments.

(2) Bosworth Smith, "Mohamed and Mohamedanism."

## عيد جلوس حضرة صاحب الجلالة فاروق الاول

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام يحتفل به في الأزهر

احتفلت الأمة المصرية بعيد ولاية حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الاول الملك ، فتجلى فيه ما تكنه هذه الأمة لحلالته من خالص الولاء ، وعظيم الاخلاص ، وما يعبر قوادها من صادق الشكر له عز وجل على ما منحه في شخصه المحبوب من راع جمع في ريق شبيبته بين حنكة الشيوخ ، ومضاء الشباب .

وكان في مقدمة الهيئات التي احتفلت بهذا اليوم السعيد الجامع الأزهر المعمور تحت رئاسة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخه الجليل . فوافت الساعة الخامسة من مساء اليوم الخامس من شهر مايو سنة ١٩٤١ ، حتى حفل الأزهر بالعلماء ، وكبار رجال الدولة ، والوجهاء وطلاب العلم ، يترقبون أن يحظوا من بيان الأستاذ الامام بما اعتادوا أن يحظوا به في كل عام ، فكان عظم موفورا من الحكم القيمة ، والتعاليم النيرة ، والاصول البينة ، ولست بمبالغ إن قلت إن خطبة هذا العام قد جمعت من أمهات الإصلاح ما يجب على كل من عهد اليه بنصيب من سلطان الأمة ، أن يتخذة دستورا له في حياته العملية . وقد ختمها فضيلته بفذلكة موفقة في سمائل حضرة صاحب الجلالة الملك ، جلت من مواهبه العلية ، وفضائله السنية ، ما طار صيته في الآفاق ، وأصبح مثلا أعلى للقادة في سائر الأقطار .

قال فضيلته حفظه الله :

كان من سعادة الأمة المصرية في هذه الأوقات التي تعصف فيها بالأم عواصف الشر والبلاء ، أن وليكها ، وحامل تاجها ، ورب عرشها : هو صاحب الجلالة فاروق الاول ، أعزه الله ، وأدام توفيقه ، وزاده حكمة .

لقد أجمت الأمة على حبه وتقديره مذ تبرأ العرش ، وتماقت به القلوب تعلقا لم ينله أحد قط من ولاية مصر قبله ، وكان مصدر هذا الاجماع إلهاما فطريا من حادثه أن يرل على الجماعات فيهدبها الى الصواب ، فلما خبرته تأكد هذا الحب ، وزاد ذلك التقدير ، ودلت التجربة على صدق الإلهام ، وعلى أنه ريان ماهر ، وهاد خبير ، ودليل صادق ، وقائد حكيم .

وكما منحت الأمة الفاروق حبها وإخلاصها وولاءها ، منحها حبه وبره وعطفه ورعايته وسهره على مصالحها . فلا شيء عنده أعز من بلاده ، ولا شيء عنده أحب إليه من أمته . فهو شديد الحرص على كرامتها وعزها ، ومجدها واستقلالها ، وسلامتها وأمنها ، ويسرها ورخائها ؛ لا يغفل عن ناحية من نواحيها . فكما يسأل عن المدرسة والعلم والتأليف ، يسأل عن المزرعة والفلاحين ، وعن المصنع وعماله ؛ وكما يسأل عن الجيش وجنوده ، يسأل عن المحكمة وقضااتها ؛ وكما يهتم بكبار رجال الدولة وأولى الأمر فيها ، يبحث عن مساعديهم .

إنه في تفكير دائم في كل شأن من شؤونها ؛ أعز أمانيه أن يرى البلاد تسير على نظام اجتماعي يستند إلى دينها وتقاليدها ، وأن تكون عناية الحكومة موجبة إلى إصلاح الجمهور ، ترفع عنه الجهالة ، وتيسر له عيشا سعيدا هنيئا ، وتشعره بمعدل الدولة في حكمها وشفقتها على الرعية ، حتى يعيش الضعيف آمنا على نفسه وعلى حقه ، ويشعر بيسر الطريق في الوصول إلى حقه ، حتى يجد كل واحد من عمله ما يكافئه ، فيجد الفلاح والمعامل غذاء صالحا ، وملبسا مناسباً ، ومسكناً لائقاً ، وحتى لا يظني القوي على الضعيف يستلب رزقه فلا يعطيه أجر عمله كاملاً متناسباً مع جهده .

هذه الرغبات الحقة هي التي يجب أن تكون مقصد الحكومات وقادة الأمة وساستها . فيجب أن يبذل جهد وافر لإصلاح حال الشعب ، جسمياً وخلقياً وتديبياً ، ليكون منه رجال أقوياء الأجسام ، صالحون للحياة الكاملة ، وليكون منه سلاسل قوية تستطيع الكفاح في الحياة ؛ ثم توفر لهذا الشعب أرزاقه وأقواته ، حتى يعيش راضياً مطمئناً النفس هادئ البال . ويجب أن يجمع عنه أذى الوسطاء ؛ فهذه الثمرات التي تؤتيها الأرض المصرية الطيبة لا ينال منها العاملون عليها ما يوازي جهدهم وكدهم ، ثم لا ينفق عليهم مما تجببه الدولة ما يجب أن تنفقه الدولة عليهم .

وفي الحق أن الشعب لم يجد حتى الآن ما يستحقه من العناية ، وقد غنى الناس حتى الآن بالزينة وترك مقومات الحياة

كل شيء صدنا في حاجة إلى دراسة ، وفي حاجة إلى إصلاح ، وأكثر الأشياء أجسام لا أرواح فيها ؛ وأساس الخير كله أن يشعر الحكم بأنهم أجراء لهذا الشعب ، وأن يستشعروا خوف الله ، فلا يأكل أحد أجره دون أن يعمل بأجره .

نعود إلى الحديث عن جلاله الفاروق ، والحديث عنه يحلو ويطيب :

إنه لا يرمجل الآراء أو تلقى إليه الآراء فيهم ويلقى بين عينيه عزمه وينكب جانبا عن ذكره المواقف ؛ كلا ؛ إنه يدير الرأي ويقلب وجوه الأمور ، فإذا بدا له وجه الصواب وأشرق نوره واختمر الرأي عنده ، أمضى الأمر لا يفتقه شيء إلا أن يكون قدرا مقدورا . فهو كما قال القائل :

أني في البلاء وأنى أسرؤ إذا ما تبينت لم أرتب

وقد تعددت شواهد بره بالضعف والبائسين ، فليست في حاجة الى ذكرها وتعدادها .  
لكنى أقول : إنه يتبع قول الله سبحانه : « إن تبدوا الصدقات فنعما هي » ، وإن تخفوها وتؤتوها  
المفراء فهو خير لكم ، ويكفر عنكم سيئاتكم ، والله بما تعملون خبير » . فهو يؤثر الخير عند  
الله لا يبدو من إحسانه إلا ما لا سبيل الى كتمان .

أيها الاخوان :

لا أعلن أني في حاجة الى تعداد ما آثره على الأزهر وأهله وجبه للعلماء ، وعطفه على طلبه  
العلم ، فهو في هذا مثابر على طريقة والده العظيم المغفور له الملك فؤاد ، رفع الله قدره في الجنات ؛  
يحوط أهل الدين بعناية خاصة ، لأنه يعرف قدر الدين ومنزلته ، وأنه وسيلة السعادة ، وطريق  
الاصلاح الحق ، وأساس الخلق القويم ، ودواء المجتمع الانساني من شروره ؛ فهو يمز أهل  
الدين لأنه يحب الدين . أبقاه الله حارسا للدين وأهله ، مدافعا عنه وعن أهله .

أيها الاخوان :

إن على العلماء وطلبة العلم في هذه الحقبة التي يتطاير فيها الهب من بقعة الى بقعة في الأرض ،  
واجبا لا مناص من أدائه ، هو إرشاد الجمهور الى ما يقضى به العقل ويوجبه الوطن على أهله :  
سلامة الوطن وأمنه ، والسعى الى ذلك فريضة على كل أحد أن يحتمل نصيبه منها ؛  
المحافظة على قواعد الدين ونظمه وعلى تقاليدنا التي لا تنافي الدين فريضة يجب على كل  
وطى أدائها . . .

هناك نزعات الى الشر يجب أن تقاوم ، وهناك أوهام تسود الناس في مثل هذه الظروف  
يجب أن ترد الى العقل ، وأن يرشد الناس الى الخير والحق .

لقد حافظنا على تراث الإسلام وآثار الإسلام ؛ فنحن حملة القرآن الكريم والسنة النبوية  
المطهرة ، ونحن خادمو القرآن الكريم والسنة المطهرة ؛ ونحن الذين حافظنا على علوم الإسلام  
وعلوم اللغة العربية ؛ ونحن ورثة السلف في علومهم وآدابهم ولقنهم وآثارهم وكتبهم ، وقد  
عرفنا بأننا أمة تحفظ العهد وترعى الجيل .

فن الحق أن نلاحظ هذا وأن يفهمه جيدا ، وأن نقبه الى أن الاعتداء على هذا البلد الآمن  
الذي لم يسيء الى أحد ولم يكن من الجناة على أحد ، إجرام في حق الانسانية ، وفي نظر العدل  
والخلق . والامة في هذا وغيره من الحقوق العامة يجب أن تكون صفا واحدا ويدا واحدة .

أسأل الله الذي تباركت أسمائه وتمالت ذاته وصمت رحمته وشملت حكمته ، أن يرينا الحق  
حقا فنقبه ، ويرينا الباطل باطلا فنتجنبه ، وأن يبارك لهذه الامة وللأم الإسلامية في جلالة  
المليك المحبوب فاروق الاول ، أعزه الله وأيده بنصره .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَاشِيَةِ

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي

شيخ الجامع الأزهر

— ٤ —

اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو، وزينة وتهاور بينكم، وتكاثر في الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراهم مضطربين، ثم يكون حطاماً، وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور.

قيل: اللعب: ما رغب في الدنيا، واللهو: ما ألهى عن الآخرة. وقال مجاهد: كل لعب لهو، لأنه يلهى عن الآخرة.

وهاج: تحرك إلى أقصى ما يثنى له، أوجفت بعد الحضرة.

والخطام: الهشيم المتكسر.

والمقصود من هذه الآيات تحقير أمر الدنيا، وتعتيم أمر الآخرة، والدنيا دار فناء، والآخرة دار بقاء، والعاقلة لا يبيع الباقي بالفاني. واللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر أمور محقرات عند العقل لا يجوز أن تكون مقصدا للعاقلة، ويجب أن يكون مقصده الاسمي هو المغفرة والرضوان والنجاة من النار.

في الدنيا لعب ولهو يتفكك الناس بهما، وأكثر ما يكون الأول للعبيان، وأكثر ما يكون الثاني للشبان، وأكثر ما تكون الزينة للنساء ومن في حكمهن من الرجال. وفيها تفاخر بالأسباب والقدرة وغيرها من الصفات، وفيها مباراة في الإكثار من المال والولد والجيوش؛ وكل هذه عرضة للتبدل والزوال، فهي فانية، ويطلب أن تقع الحسرات بعد اللهو والذوات على أنها مريضة الاتقضاء، مذهبة للممر والمال.



وقد ضرب الله مثلا للدنيا في سرعة تقضيها وقلة جدواها ، وفي بهجتها عند إقبالها وعيوسها عند إدبارها ، فقال : إنها كالنبات يستوى على سوقه وينحصر ويعجب به الزراع ، ثم يحف ويصفر ويكوف هشيما وحطاما متكسرا ؛ في الطور الأول جمال وفتنة وسحر للناظرين ، وبهجة للنفس وراحة للعين ، وأنسى لا يقدر قدره ، لكن هذا الطور لا يدوم بل ينقضى بسرعة ، ويحل الطور الثاني ؛ وفي هذا الطور الثاني يزول الجلال والسحر والفتنة وراحة العين ، ثم لا يبقى من تلك الأعواد البديعة إلا حطام لا تستريح النفس الى رؤيته ، وتذروه الرياح .

قال سعيد بن جبير : الدنيا متاع الغرور إذا ألهتك عن طلب الآخرة ، أما إذا دفعتك الى رضوان الله فنعيم المتاع . لكن الله سبحانه لما علم حب النفوس لخريف الدنيا ، وعلم فتنتها وإعجاب الخلق بها ، أراد أن يحط من قدرها لتضعف شهوة الرغبة فيها ، وشدة الحرص عليها ، وليوجه الناس الى الآخرة بالإحسان في طلب الدنيا ؛ فهي ذات صورتين : صورة منهما على هذه الصفة التي ذكرها الله سبحانه هنا ، وصورة أخرى جميلة أشير إليها بقوله سبحانه : « سابقوا الى مغفرة » ، وسبأني بيان ذلك . هي متاع الغرور ، أي الغفلة عن الآخرة ، ومما يلبى أن يكون عليه المريض اليقظ .

﴿ سَاقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ﴾

سارعوا الى الأعمال الصالحة التي هي أسباب مغفرة الله ، وأسباب دخول الجنة ، مسارعة المتساقين . وقد وصفت الجنة بأن عرضها كعرض السماء والأرض مجتمعتين ؛ وإذا كان العرض كذلك كان الطول أكثر امتدادا . والظاهر أن هذا تمثيل لعباد بما يعقلونه ويقع في أفكارهم ونفوسهم ؛ وأوسع شيء يقع في نفوسهم هو مقدار السماء والأرض . وقد جاء في آية آل عمران : « وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » ، ولا أرى فرقا بين الآيتين فيما تدلان عليه من السعة ، لأن السماء تطلق ويراد بها السموات كما في قوله سبحانه : « ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات » ، فتكون الآية في آل عمران قرينة على أن المراد بالسماء هنا الجمع . هذا إذا كان الغرض التحديد ؛ أما إذا كان الغرض إعادة السعة لا غير فالأمر ظاهر . وقال بعض المفسرين : إن البشارة بها أهم من البشارة في سورة آل عمران ، لأن البشارة هنا للمؤمنين ، وفي آل عمران للمؤمنين . ولا أرى ذلك . ويجب أن يحمل المؤمن هنا على المتق ، لأن قواعد الاسلام العامة تقضى بأن عصاة المؤمنين

يدخلون النار أولاً ويطهرون فيها ثم يدخلون الجنة ؛ فالجنة لم تعد لهم وإنما أعدت للمتقين ؛ وإذا جاز أن يقال إن الجنة أعدت لهم بعد دخولهم النار ، جاز أن يقال إن النار أعدت لهم لأنهم سيدخلونها أولاً . وحمل الآيات بعضها على بعض أولى .

« ذلك فضل الله » ٠ من الناس من قال : إن نعم الجنة تفضل محض من الله سبحانه غير مستحق بالعمل ، واستدل بهذه الآية ؛ ومن الناس من قال : إنه مستحق بالعمل . وعندى أنه لا تنافى بين كونه مستحقا وكونه فضلا ، فالذى جعله مستحقا هو الله صاحب الفضل في ربط نعم الجنة بالأعمال الصالحة ، وهو الذى قال : « ورحتى وسعت كل شئ » ، فسأكتنبا للدين يتقون ، وهو الذى قال : « فن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعیه » ، ووعدته حق لا يتخلف ، وهذا الوعد فضل منه ، والله ذو الفضل العظيم ؛ وإذا كان فضله عظيما فتوابه عظيم ، وعطاؤه عظيم .

وصف الله سبحانه الدنيا في الآية السابقة بأنها لعب ولهو ، وأنها زينة وتفاخر وتكاثر ، وأنها متاع الغرور ؛ وطلب في هذه الآية المسابقة إلى الأعمال الصالحة الموصلة إلى الجنة والمغفرة ، وهذه المسابقة في الدنيا لا شك ؛ وإذا كان ذلك كذلك فلقدنيا صورتان : صورة جد تكون فيها مطية الجنة ومررعة الآخرة ، وتكون ثمراتها نعم الله ورضوانه ومغفرته ، إذا أحسن المبدأ في العمل ، واستمتع بزينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، ولازم حدود الله لم يتمدها ، وأدى حقوق المال كاملة ، وحقوق الله كاملة ؛ وصورة لعب ولهو تكون فيها الدنيا مطية النار ، وتكون ثمرتها غضب الله وسخطه ، إذا كثر بالأموال والأولاد ، وافتخر والحنال ، وبخل وحمل الناس على البخل ، واسترسل في الشهوات ، وأضاع حقوق الله وتمدى حدوده ، وظلم عباد الله لجمع المال من غير وجه ثم اكتنزه . فالدنيا متاع الغرور ، والدنيا متاع العقل والشرع ؛ غير أن أكثر الخلق لما كانوا مشغولين بالدنيا على الصورة التى صورها بها القرآن في هذه الآية ، أطلق الله فيها القول إطلاقا ، وجاء بهذه الصورة على سبيل النص . ولما كان القليلون منهم هم المشغولين بالدنيا على وجهها الآخر ، حبب الله اليهم التسابق في طلب المغفرة ، ووعدهم الجنة ؛ وكان هذا إشارة إلى الصورة الثانية من صور الدنيا .

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ :

اختصت المصيبة عرفا بالثابتة ، ومنه « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها » ، « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » ؛ وقد استعمل أصاب في الخير أيضا كما استعمل

في الشر ، ومنه « إن تصيبك حسنة نسؤم ، وإن تصيبك مصيبة ... » ، « ولئن أصابكم فصل من الله » . والإصابة في الخير اعتبرت بالصوب وهو المطر ، وفي الشر اعتبرت بأصابة المصهم ، وكلاهما يرجع إلى أصل واحد . ومعنى برأ : خلق .

ذهب أكثر المفسرين إلى حمل المصيبة في الآية على الشر فقط اعتباراً بالأشهر فيها وباختصاصها عراً بالناتبة ، وفسروا المصيبة في الأرض بقحط المطر وآفات الزرع والنار وغلاء الأسعار وما أشبه ذلك ، وفسروا المصيبة في الأنفس بالأمراض والأوجاع والفقر وفقد الأهل والولد ، والكفر والمعاصي .

وذهب بعضهم إلى أن المصيبة هنا تم الخير والشر ، بدليل قوله سبحانه : « لكيلا تنسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » ؛ وأرى ترجيح هذا الرأي الآخر ، لأن الكتاب سواء أريد به علم الله سبحانه أو أريد به شيء غير العلم ، وهو ما يسمى اللوح ، شامل لسعادات الأنفس وشقاها ، وخيرات الأرض وشرورها ، ولا وجه لتخصيص الشرور بأنها ثابتة في الكتاب .

وإنما خصصت الأرض والأنفس بالذكر مع أن علم الله شامل لما في السموات والأرض ، ولما هو في الجنة والنار ، لأن ذلك هو الذي يعنينا الحديث عنه ، وهو الذي نشاهده . لكن إذا أريد بالكتاب ما يسمى اللوح المحفوظ فلا يمكن أن يشمل نعم الجنة وعذاب النار مما هو غير متناه .

كل شيء من الخير والشر في الأرض والأنفس والأبدان ثابت في علم الله قبل أن يخلق الأرض والأنفس والأبدان ، وقبل أن يخلق الخير والشر ، بل قبل أن يخلق العالم ويفطر السموات والأرض . وهذه الحلقات جميعها في سلسلة الوجود من أول حلقة إلى آخر حلقة معلومة لله سبحانه ، مبرومة بأسباب وسنن لا تبدل ولا تتغير ، كما أن العلم لا يتبدل ولا يتغير ، ولها نظام عام شامل مقدر هو خير كله ، والشر يمرض للأفراد كما يمرض الخير . ذلك كله مكتوب في لوح العلم ، وذلك على الله يسير ، بل هو واجب لذاته سبحانه ، ولا يمكن إلا أن يكون معلوما مقدرا .

لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ، والله لا يحب كل مختال فخور :

الآمن : الحزن . وحقيقته إتباع الفئات بالغم .

والغيلاء : التكبر عن تخيل فضيلة تراعى للإنسان في نفسه .

والفخر : المباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه .

والفقير : صفة تكثير من الفقر .

واللام في « لكبلا تأسوا » تفيد لغة جمل أول الكلام سببا لآخره .

والمعنى أن الله سبحانه أخبر بأن ما يصيب الأرض والانس ثابت في كتاب لكيلا يشتد حزنكم على ما فاتكم من الخيرات ، ويشد فرحكم بما أعطاكموه . والله سبحانه لا يطلب أن لا يكون فرح ، وأن لا يكون حزن ، بل يطلب أن لا يكون فرح يطفى ويكون معه الأثر والبطر ، وأن لا يكون حزن يهلك النفس ويقوت عليها ثواب ما سلب من النعمة . أما المرح بالنعمة والشكر عليها فخير مذموم ، وأما الحزن الطبيعي الذي هو غريزة للنفس ، والذي لا يلها عن تذكر ثواب الله بالصبر ، فلا يمكن النهي عنه ، وليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ، ولكن الأمر كما قيل : اجعلوا للمصيبة صبرا ، وللخير شكرا .

والله سبحانه لا يحب المتكبرين الذين يباهون الناس ويفخرونهم ، لأن الكبر والفخر يبعدان عن تذكر نعمة الله ، ويؤذيان عباد الله . ومن علم أن كل شيء مقدر له في كتاب ، وأن كل نعمة فن الله ، توجه بالشكر إليه ، ومن الشكر الاحسان الى عباده بالتواضع وإظهار الخشوع لله سبحانه ، وكذلك لا يشتد فرحه بما يناله من الخير ، ولا يشتد حزنه على ما يصيبه من الشر ، خصوصا إذا تذكر جزاء الصابرين على ما أصابهم ، وتذكر أن عليهم صلوات الله ورحمته . وهذه العقيدة : عقيدة أن كل شيء من عند الله سبحانه ، تحفز النفوس الى طلب الآخرة ، والى التسامح ، والبعد عن المشاحة في التعامل ، وترك الحسد والحقد . ومن لم يفرح لموجود ولم يحزن لمفقود ، يهون عليه أمر الدنيا ، ويأخذها من ناحية الخير التي تؤدي الى مغفرة الله ورضوانه .

﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد ﴾ :

الذين يبخلون ، بدل من كل محال ؛ ذلك أن المحتال الفقير الذي يطفئه الرزق ويرى المال نعمة توجب العز ، يحرم عليه غالبا ، ويرى الحرم فضيلة يدعو الناس إليها ، فتراه يبخل ، وتراه يأمر الناس بالبخل ، ويعدده مذهباً ورأياً محموداً يستحق الدهوة والاحتجاج له ؛ لكن الله غني عن الاتفاق ، محمود في ذاته ، لا يضره إهراض الناس عن الاتفاق ، ولا يضره ألا يتقرب الناس إليه بالبذل ، فمن يتول منهم ويعرض عن أوامره فهو الظالم لنفسه ، وهو الذي حرمها الأجر ، والله غني حميد .

وهنا شيء لا أرى أن أفوته ، وأرى من الواجب أن أقول كلمة فيه :

أكثر العلماء من التعلق بهذه الآيات « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في

كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور ، والاستدلال بها على مذهبهم ؛ فالجبرية وجدوا فيها دليلا على الجبر ، لأن ما هو في كتاب الله لا يمكن أن يتخلف ، ولا بد من حصوله ، فلا يقدر الممد على مخالفته ؛ والقدرية وجدوا في قوله « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » مستقندا للاختيار والنسك من فعل المرح وتركه والحزن وتركه . والمراض على الاستدلال ، والملم بقواعد الدين العامة ، ومن تهديه الفطرة والبديهة الى الحق ، يعجب من الجبرية ويرثي لهم ، كما يشفق على القدرية .

الامة مجمعة على شمول علم الله سبحانه للأشياء ، لا فرق في ذلك بين قدرى وجبرى ؛ ومجمعة على أن علمه حق مطابق لواقع ، وسيطابق الواقع كلما برز منه شيء الى الوجود ؛ ولو لم يكن الأمر كذلك لا قلب علمه جهلا ، ولو لم يكن كذلك لكان جاهلا ؛ تعالى الله سبحانه عما يقول الظالمون .

والامة مجمعة على فائدة إرسال الرسل ؛ والله يقول : « وما كنا معذنين حتى نبعث رسولا » فهو يقرر أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قطع المنذر ، وبعد البيان ونصب الأدلة « إن علينا للهدى وإن لنا للأخرة والأولى » . والام جميعها لا فرق بين المتدينين وغيرهم يجمعون على فائدة التربية والتهديب ، وفائدة القدوة الصالحة ، وعلى ضرورة وضع القوانين الزاجرة لحماية الناس بعضهم من بعض .

هذا كله يوجب ملابى اعتراف البشر واعتراف الأديان بوجود الاختيار عند الانسان ، وبأنه يستطيع اختيار أحد الطريقتين . طريق الخير أو طريق الشر . ويؤكد هذا أيضا قول الله سبحانه : « وهديناه النجدين » فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ؟ فك رغبة « الى آخر الآية » وقول الله سبحانه : « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه » ؛ وقول الله سبحانه : « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ؛ وقد وعد المتقين الجنة ، ووعد العصاة النار . ولا شبهة بعد هذا في أن القول بالجبر يصادم العقل ، ويناقض ما أجمت عليه الأمم ، ويهدم حكمة إرسال الرسل ، وحكمة التشريعات ، سواء أكانت وضعية أم سماوية ؛ والفاؤلون به يجب عليهم أن يتركوا أنفسهم في الحياة تسيرها الرياح كما تشاء ، وليس لهم أن يتعلقوا بقواعد التهذيب ، وليس لهم أن يلوموا فاسقا ولا كافرا ، ولا يرتكب أية كبيرة أو أية مصيبة . وهذا قول نعوذ بالله منه ومن شروره . واتفاق الأمم جميعها في التسليم والحديث على خلافه دليل على أنه مناقض للفطرة كما هو مناقض للعقل .

نعوذ الى الحديث عن علم الله وعن إثبات كل شيء في الكتاب ، فمقول : إن علم الله سبحانه يجب أن يتبعه إرادته ، والعلم صفة انكشافية لا إزام فيها . والعلم الصحيح هو المطابق للمعلوم

مطابقة تامة ، فلا أثر لعلم الله سبحانه في أفعال العباد ، لأن أفعال العباد لا تتبعه ، بل علم الله هو الذى يتبع أفعال العباد ؛ والله سبحانه في مرتبة وجوده قبل أن يخلق الخلق قدر الخلق ووضع هذا النظام التام الذى هو خير كله ، والذى يمرض قبه الخير والشر للأفراد ، أما النظام نفسه فلا يمرض له الشر بحال ، لأنه هو الصادر عن الجود ، وعن الحكمة ، وعن العلم التام ؛ وقد علم الله سبحانه ما سيختاره كل أحد من خلقه فوضعه في كتاب ؛ وفعل العبد تابع لاختياره المحض لا ارتباط له بالعلم إلا ذلك الارتباط الحاصل بين العلم والمعلوم ؛ وإذا كان ذلك كذلك فلا دلالة في الآية على الجبر ، وهى كغيرها قد تدل على الاختيار .

لكن القدر سلوى المؤمن ، والمؤمن مطلوب منه أن يتحرى وجوه الصواب ، ويروض نفسه على الفكر وسؤال أهل الذكر ، وعلى التدبر وأخذ الحيلة ، وتقليب وجوه الرأى ، ومشاورة العقلاء ؛ فإذا قدر له أن يصيب الخير ووجه الحكمة وينال النعمة ، طلب الله سبحانه منه ألا يطغيه الفرح وتطغيه النعمة ، وأن يذكر أن هذه النعمة ثابتة في كتاب لم يكن هناك بد من حصولها ، ولم يكن هناك بد من اختيارها إذا كانت مما تقع تحت الاختيار ؛ وإذا قدر له الأخرى وأصابه شر ، طلب الله منه ألا تذهب نفسه حسرات ، وأن لا يليه الحزن عن تذكر ثواب الله ، وأن يذكر أن هذا مقدر في كتاب ، ولم يكن هناك مفر منه ، ولم يكن هناك بد من أن يختاره إذا كان ذلك مما يقع تحت الاختيار .

والحق أن هذا تهذيب من الله سبحانه ، إذا روى كان المؤمن دائماً رضى النفس ، صابراً على البلاء ، غير غفور بالنعمة ، وكان مطمئناً ، هادئ البال ، مثلوج الصدر ، غير ضجر بالحياة ولا برم بها ، ولا مزهو بالنعم يدل على الناس بما أعطاه الله .

أشرت فيما مضى الى أن هذا النظام كله خير إذ هو صادر عن الجواد الكريم ، وكله حكمة لأنه صادر عن العليم الحكيم ، فلا يمرض له الشر قط ، وكله خير ، وإذا كان هناك في الوجود شر فذلك الشر يمرض للأفراد ، ويمرض للجزئيات . وإذا لاحظنا هذا أمكن أن نعرض لنا شبهة الجبر ، وهذه الشبهة لا يمكن أن تعرض من ناحية التسجيل في الكتاب ، ولا من ناحية أى دليل آخر غير هذا ؛ لكن عروض الشبهة ينفيه العقل ، والأدلة القائمة ، وإجماع الأمم ، والفطرة . والبحث عن التوفيق بين ما تهدى إليه الفطرة وما يهدى إليه العقل من أن النظام خير كله ، بحث عن سر القدر لا يجوز للمؤمن أن يدخل فيه وأن يمدو طوره .

# السيرة المحمدية

## تحت ضوء العلم والفلسفة

الجهاد الأدبي يبرز الجهاد الحربي — صلح الحديبية وما أحدثه من هدم الوثنية

في السنة السادسة من الهجرة أحبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بأنه يريد العمرة ، والمعركة هي الطواف بالبيت في غير وقت الحج ، وطلب إلى الأعراب المحيطين بالمدينة أن يخرجوا معه ، ولكنهم تلبكأوا ثم قالوا له : قد شغلنا أموالنا وأهلنا فاستغفر لنا . وكان السبب الصحيح في تناقلهم أنهم ظنوا أن المشركين يفتكون بالمسلمين ، وقد أشار إلى ذلك الكتاب الكريم في قوله تعالى : « سيقول لك المخلفون من الأعراب (١) شغلنا أموالنا وأهلنا فاستغفر لنا » يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضررا أو أراد بكم نفعا ، لم كان الله بما تعملون خبيرا . بل علمتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبدا ، وزين ذلك في قلوبكم ، وغلغلت عن السوء وكنتم قوما بورا ، أي هالكين .

فتركهم النبي صلى الله عليه وسلم وخرج في ألف وأربعمائة من أصحابه ليس عليهم من السلاح شيء غير السيوف ، وساروا حتى وصلوا عسفان ، فجاءه الخبر بأن قريشا أحست بمجيئهم وأجمعت على صدمهم ، واستعدت للحرب تحت قيادة خالد بن الوليد ( ولم يكن أسلم ) . فاتبع المسلمون طريقا غير الطريق المعروفة ، فلم يفرق القرشيون إلا والمسلمون بجوارهم في مستوى سهل يملك مكة من أسفلها . وأمر النبي أصحابه بالنزول في أقصى مكان اسمه الحديبية فيه ير تحمل هذا الاسم . وهناك أقبل سفير لقريش يدعى بديل بن ورقاء يسأل عن سبب قدوم المسلمين . فأخبره النبي بأنه جاء معتمرا .

ثم أرسلوا حليس بن علقمة سيد الأحابيش ، وهم أعراب لا أحباش كما يتوهم بعضهم ، فلما قدم على المسلمين وجدهم بلبون ، فقتل من يريد العمرة لا الحرب ، فعاد إلى قريش وأحبرهم بأن القوم جاءوا معتمرين ، ولا مهم على منهم .

فقالوا له أنت أعرابي وليس لك علم بالمسكائد ، وأرسلوا عروة بن مسعود الثقفي سيد أهل الطائف ، فأقبل على رسول الله وكله قائلا : يا محمد قد جمعت أوباش الناس وحثت إلى هشيرتك لتنفضها بهم . إن قريشا قد طاعتت الله أن لا تدخلها عليهم غزوة ، وأيم الله لكأنى جهؤلاء

(١) الأعراب : سكان البادية من العرب . والعرب : اسم جنس ، ويطلق على المنتصرين

فذا انكشفوا عنك . وكان عروة يتكلم وهو يس لحية النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان المغيرة ابن شعبه يقرع يده كلما أراد ذلك .

ثم رجع عروة وقد أدهشه ما يمجده رسول الله من تبجيل أصحابه له ، فقال لقومه : يا معشر قريش والله لقد جئت كسرى وقبصر فما رأيت ملكا في قومه مثل محمد في أصحابه . فاقبلوا ما يعرضه عليكم فاني أخاف أن لا تنصروا عليه .

فتأثرت قريش بما قاله عروة لهم ولكنها أصرت على المصاراة . واتفق أن رسول الله رأى أن يرسل عثمان بن عفان في عشرة من أصحابه سفيرا من قبله لإبلاغ قريش ما قصده من محبته . فبلغ عثمان رسالته الى قريش . فقالوا له : إن عددا لن يدخلها علينا هنوة ، وحبسوه هو وأصحابه هندم . ففزع عند المسلمين أن عثمان قد قتل .

#### بيعة الرضوان :

لما ذاع خبر قتل عثمان دعا النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه لمبايعته على الموت في قتال المشركين ، فبايعوه على ذلك تحت شجرة هناك سميت بعد ذلك بشجرة الرضوان ، ونسبت إليها تلك البيعة .

وكانت قريش ، وقد اعترمت أن تلجأ الى الشدة ، قد أرسلت خمسين رجلا تحت قيادة مكرز بن حفص ليطوفوا بصكر المسلمين عسى أن يصيبوا منهم غرة ، فشمع بهم الحرس فأسروهم وأقلت قائدهم . فلما بلغ ذلك قريشا أرسلت كتيبة لتناوشة المسلمين ، فأمر المسلمون منهم اثني عشر رجلا ، وقتل من المسلمين واحد .

عند ذاك خشيت قريش مغبة هذا المركب الحشن ، فلانت عريكتها ولجأت الى الملاية ، وأرسلت سفيرا من قبلها هو سهيل بن عمرو طالبة الصلح . فلما قابل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا محمد إن الذي حصل ليس من رأي عقلائنا ، بل هو شيء قام به السفهاء منا ، فأبعت الينا بحس أسرت . فقال له النبي : حتى ترسلوا الذين عندكم .

عند ذلك أرسلوا عثمان والعشرة الذين كانوا معه ، وقدم سهيل الشروط التي تطلبها قريش وهي أربعة :

- (١) تقرير هدنة بين قريش وبين المسلمين أربع سنين .
- (٢) إذا لجأ رجل من قريش الى المسلمين فعليه رده ، وإذا فر واحد من المسلمين الى قريش فليس عليها رده .
- (٣) أن يعود المسلمون هذا العام بغير حمرة ، ويأتوا في العام الذي يليه فيدخلوا مكة بعد أن تخلوها لهم قريش ثلاثة أيام ، ولا يكون معهم من السلاح إلا السيوف والاقواس .



(٤) من أراد أن يدخل في عهد محمد من غير قريش فله ما أراد ، ومن طلب أن يدخل في عهد قريش فله ما أراد كذلك .

فقبل النبي صلى الله عليه وسلم هذه الشروط دون تردد ، ودخل المسلمين منها أمر عظيم ، وأجمعوا على أن يكلموا النبي فيها . فكان مما قالوه له : يا رسول الله كيف ترد إلى المشركين من جاءنا منهم مسلماً ، ولا يردون هم إلينا من فر اليهم مرتدا ؟

فقال لهم النبي : إن من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فيسبجل الله له مخرجا .

وبلغ من شدة وقع هذا الصلح على المسلمين أن عمر بن الخطاب نفسه قصد إلى أبي بكر وأظهر امتعاضه منه . فقال له الصديق : إنه رسول الله وليس يعمى به ، وهو ناصره .

فلم يقتنع عمر بما قاله له صاحبه ، وذهب إلى رسول الله ، وقال له مثل ما قال لأبي بكر . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني . فاستدعى النبي أوس بن خولة وأمره أن يكتب الشروط . فاعترض سهيل وطالب أن يكون الكاتب علي بن أبي طالب أو عثمان بن عفان .

فأمر النبي عليا أن يكتب ، وأملأه بسم الله الرحمن الرحيم .

فاعترض على ذلك سهيل وقال : إن قريشا لا تعرف إلا باسمك اللهم .

فصيح المسلمون من هذا التشدد ، وأمر عليا أن يكتب باسمك اللهم .

ثم قال له اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله .

فاعترض سهيل على ذلك ، وقال : لو كنا نعرف أنك رسول الله لم نقايلك ولم نصعدك عن البيت ، ولكن اكتب باسمك واسم أبيك .

فقال النبي لعلي : ابع رسول الله يا علي . فصعب عليه أن يحويه ، فناول النبي الكتاب ومحا بيده ، وقال لعلي اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو .

بعد كتابة هذه الشروط وتسلم كل من المعسكرين نسخة منها ، وأصبحت نافذة ، أقبل رجل من المسلمين يدعى أباجندل بن سهيل لاحقا إلى المسلمين ، وكان القرشيون قد منعوه من الهجرة . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : إيا قد عقدا مع القوم صلحا وأعطيناهم وأعطونا عهدا فلا نفدر بهم . فاصبر واحتسب فإن الله جاعل لك وللمستضعفين مخرجا .

لما تم أمر التعاقد أمر رسول الله أصحابه أن يتحللوا من صرتهم وذلك بأن يحلقوا رؤسهم ، وينعروا هديهم . فأصابهم من ذلك كرب عظيم جعلهم على عدم المبادرة بالامتنال . فدخل النبي على زوجته أم سلمة ، وكان قد استصحبها معه ، وقال : هلك المسلمون ، أمرتهم فلم يمتثلوا .

فقال له : يا رسول الله اعذرهم ، فقد حملتهم أمرا عظيما بهذا الصالح ، وكاوا يريدون أن يفتحوا مكة ، فهم لذلك مكرويون ؛ فأيذا يا رسول الله بما تأمرهم به ، فإذا رأوك فعاتبهموك . فاتبع النبي مشورتها ، فلما رآه المسلمون يتحلل من الأمرة فعلوا مثل ما فعل ، وعادوا معه . ما كاد المسلمون يستقروا في مدينتهم حتى لحقت بهم أم كلثوم بنت عقبة أخت عثمان لأمه ، فطلبها المشركون . فقالت : يا رسول الله إني امرأة ، وإن أرجعت إليهم فتنوني في ديني ، ففرل على النبي في ذلك حكم وهو قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامنعوهن ، الله أعلم بإيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى الكفار ، لا هن حل لهم ولا يحلون لهن ، وأنوهم ما أنفقوا ، ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتهن أجورهن ، ولا تمنعوا بيعهن الكوافر ، واسألوا ما أنفقتم ، وليسألوا ما أنفقوا ، ذلكم حكم الله بحكم بينكم ، والله عليم حكيم » .

مؤدى هذا الحكم أن المرأة المؤمنة إذا جاءت مهاجرة استعلفت بأنها ما خرجت رغبة بأرض من أرض ، ولا من انقض زوج ، ولا لانتباس دنيا ، ولا لرجل من المسلمين ، ولكن حباً لله ولرسوله ؛ فإن حلفت فلا ترد ويعطى زوجها المشرك ما أنفق عليه . وكذلك يفعل مع الزوجة المشتركة فتد إلى أهلها بعد أن يعطوا زوجها المسلم ما أنفق عليه .

وحدث أن أبا بصير عتبة بن أسيد الثقفي فر إلى رسول الله فأرسلت قريش في أثره رجلين يطايبان تسايحه إليهما . فأمره صلى الله عليه وسلم بالرجوع معها . فرجع مع صاحبيه . ولما قارب ذا الحليفة عدا على أحد حارسيه فقتله وهرب منه الآخر . ورجع إلى رسول الله ثانية قائلاً له : قد وفيت ذمتك . فقال له : لا ، اذهب حيث شئت ولا تقم بالمدينة . فخرج إلى ناحية على طريق الشام تمر به تجارة قريش ، فأقام به ، واجتمع به نفر من كانوا مسلمين بمكة ونجوا ، ولحق به أيضا أبو جندل بن سهيل اللاتذ الأول ، وأخذوا يقطعون الطريق على تجارة قريش ، فاضطر المشركون أن يرسلوا إلى رسول الله يرجونه إبطال هذا الشرط من المعاهدة ، فقبل منهم ، وعما الله من تلك المعاهدة ما كان يجحد منه المسلمون ألما مضا .

#### التأثير العظيم الذي أحدثه صلح الحديبية :

روى الامام أحمد وأبو داود والحاكم عن مجمع بن حارثة الاوسي قال : شهدنا الحديبية فلما انصرفنا منها وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفا عند كراع الغميم ، وهو موضع أمام عسفان ، وقد جمع الناس وقرأ عليهم : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا . الآيات » فقال رجل : يا رسول الله أو فتح هو ؟ قال : إى والذى تسمى بيده إنه لفتح .

قد يصعب القارى لأول وهلة أن يصف الكتاب الكريم بالفتح المبين ما اعتبره جيش برمنه ضعفا واستسلاما ، ما عدا واحدا هو أبو بكر .

وقد رأى المؤمنون بأعينهم ثمرة هذا الصلح ، وتبين أنه كان أجل أروا وأعظم طائفة على جماعتهم من أي فتح تقدمه ، بل رأوا أنه كان يجب أن توجد هذه الهدنة لتمهيد السبل أمام الاسلام بفتح القلوب له من طريق الاقتناع العقلي ، لا من طريق السيف وحده . فإن كل فتح في تاريخ البشرية اعتمد على القوة وحدها انهار عقب قيامه مباشرة ، مادام لم يصحبه تأثير أدبي في النفوس تتألف منه عقيدة تحاط بالعقول والقلوب ، وتصبح بذلك حاجة روحية للقائمين به .

فالحق سبحانه وتعالى ، الذي كتب للاسلام أن تكون له دولة تتحدث في العالم من ضروب الانتقالات الأدبية والاجتماعية ما لم تحدثه الفتوحات الكبرى مجتمعة ، أراد أن يكسر عهده القديم يصبح لهم الاسلام عقيدة متغلغلة الى أحمق ما نصل اليه عقيدة من ضلالتهم ، ليقوموا به كحاجة قلبية لهم ، الى جانب ما هو عليه كحاجة اجتماعية لوجودهم . وكيف يتسنى هذا في وسط المعارك الدامية ، والسخام المستعرة ؟ فكان لابد من وجود هدنة يُلدَق في السلاخ جانباً مدة كافية لينمكن العقلاء من الناحيتين من التقابل والتفاهم ، والاحذ والرد ، والاقتناع والاقتناع ، حتى يكون في الجماعة رجال كثيرون انضموا اليها منقادين لأصوات ضلالتهم ، لا مستسلمين لمامل المنفعة ، فلا يلبثون بعد ارتفاع اليد الماسكة عنهم أن يعودوا لما كانوا عليه من جاهلية وما وورثوه وألقوه من وثنية .

من أراد أن يعرف الفرق بين هاتين الحالتين بدليل محسوس ، أحياه الى حقيقة تاريخية وهي : أنه على أثر قيام الجماعة الاسلامية على صورة دولة قبيل فتح مكة وبمدها ، دخلت القبائل العربية المنتشرة في جزيرة العرب في الاسلام ، وكان دخولها فيه المحافظة على وجودها ، ولا تقاء قارعة تحمل بها من حراء هذوذها ؛ فلما انتقل رسول الله الى الرفيق الأعلى شقوا عصا الطاعة على من حلفه ، وعادوا الى وثليتهم ، ومنعوا الاموات التي كانت تقاضاهم إياها الدولة ؛ فاضطر أبو بكر الى مقاتلتهم وإعادتهم الى الطاعة بالقوة . وكان هذا العمل مما يستحيل حدوثه لو كان السواد الأعظم من مقبى تلك الدولة على شاكلة هذه القبائل التحقوا بالاسلام طلباً للمصلحة ، لا من اقتناع راسخ بمحبة .

ولكن الذي كان أن السواد الأعظم من أولئك الأصحاب والانصار كانوا يمتدنون عقيدة راسخة بأنهم يمثلون ديناً هو حاجة روحية لهم ، ويقومون بنظام اجتماعي وأدبي سينفذ الانسانية من أدوائها القاتلة ، وأنه سيملا ويمتد حتى يؤتى أهله بخلافة الله في الأرض ، ويعيش الناس في رعايته على أكل ما تكون عليه الانسانية من سعادة مادية ومعنوية . هذا العامل الأدبي دفعهم لأن ييذلوا أموالهم وأرواحهم في سبيل الديار عن حوضه ، والدافع من بيضته ، وإعادة المنشقين منه الى حظيرة .

فأنت ترى أن هذا العامل الأدبي الذي أدت اليه العقيدة الراسخة ما كان لينتشر في ألوف

من الناس لو اعتمد ناشروه على القوة وحدها . وكيف كانت تنهياً البيئة لتبادل الآراء فيه ، وإقامة الأدلة عليه ، فولا عهد طويل من السلام يحدث فيه اختلاط بين رجال القبيلين يفضى كل منهم الى خصمه بما هو عليه ؟

هذا من لباب العلوم الاجتماعية التي لم يفتح بها على الناس إلا في القرون المتأخرة ؛ ناهيك أن الناس عز عليهم أن يفهموا ما عماء كتابهم فتحنا مبيناً ، في الوقت الذي كانوا يمتقدون فيه أنه مظهر من مظاهر الاستخذاء والتقصير لعدوم .

ولم يطل العهد على الذين أنكروا هذا الصلح ، فقد تجأت لهم حكته في أجلى مظاهرها بعد عقده بستين عند فتح مكة . فقد روى سعيد بن منصور بإسناد صحيح عن الشعبي في قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » أنه قال : « لم يكن في الاسلام فتح قبله أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب أوزارها ، وأمن الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا وتفاوضوا في الحديث والمباذلة ، لم يكلم أحد ذوقاً في تلك المدة في الاسلام إلا دخل فيه . ولقد دخل في تينك السنين مثل من كان دخل في الاسلام قبل ذلك أو أكثر ، وبدل عليه أنه صلى الله عليه وسلم خرج الى الحديبية في ألف وأربعمائة ، ثم خرج بعد سنتين الى فتح مكة في عشرة آلاف » . اهـ

لا جرم أن هذا من أعظم دلائل النبوة ، فإن إقدام النبي على عمل استنكره أصحابه كلهم ، والتشدد في إمضائه الى هذا الحد ، لم يكن من مآذته صلى الله عليه وسلم ؛ فقد أثر عنه أنه كان يستشير أصحابه ويعمل بمشورتهم فيما لم ينزل فيه وحى . وقد أخبرهم في هذه المرة بأنه نزل في هذا الصلح وحى ، ودعاه الكتاب الكريم بعد إتمامه فتحاً مبيناً ، خلافاً لما كان يراه فيه الناس كلهم ، وقد ظهر أنه يستحق هذا الوصف بعد ظهوره بستين اثنتين .

لو كانت الأمور تجري على عادتها ، لكان هذا الصلح الذي اعتبره الملحون مدلاً لهم ، قد زاد المشركين غروراً بقوتهم ، وتمسكاً بوثبتهم ؛ أما وقد أخرج عكس ما كان ينتظر منه ، وصدد الكتاب في تمحيته إياه فتحاً مبيناً ، فهذا مما لا يمكن تعليله إلا إذا اعتبر وحياً إلهياً ، لا تدبيراً بشرياً .

إن أمثال هذه المعجزات هي التي يعتمد بها العلم ، ويرى فيها مظهراً من مظاهر الاتصال بعالم أرفع من هذا العالم ، يتمد منه الإنسان بما لا تعطيه الطبيعة المجردة من خطط العمل ، ولا سيما فيما يتعلق بالشؤون الاجتماعية التي لا يدركها إلا الذين حذقوا العلم بأحوال النفوس ، وطبائع البيئات ، وعوامل التطور ، وأين هم من هذا كله في ذلك العهد من الظلام الدامس ، وفي تلك البقعة من قرارة البداوة الموحلة ؟

محمد فرير وجري

# السنة

## العمل الصالح وقاية من عذاب الله

عن جابر رضى الله عنه قال : « لما زلت هذه الآية » قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعوذ بوجهك . قال : « أو من تحت أرجلكم » قال : أعوذ بوجهك . « أو يابسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا أهون ، أو هذا أيسر . رواه البخارى فى كتاب التفسير . يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : ( ١ ) معنى الحديث إجمالاً . ( ٢ ) طاعة الله وقاية من عذابه الدينى والأخروى . ( ٣ ) ما ذا يجب على المسلمين أن يفعلوه عند الشدائد ليحفظوا أنفسهم من الهلاك .

( ١ ) معنى هذا الحديث واضح ، لأنه تفسير لقوله تعالى : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ... الخ » ، وذلك لأنه تعالى يذكر الناس بقدرته القاهرة ، ويهددهم بالمقاب الصارم الذى حاق بالأمم السابقة فأباده . وقد اختلف العلماء فى المعنى المراد بالعذاب فى هذا المقام ، فقال بعضهم : إن العذاب من فوق : هو الرجم ، ومن تحت : هو الخسف . وقال بعضهم : إن للعذاب من فوق هو حبس المطر ، ومن تحت هو منع الثمرات . ولكن التفسير الأول هو المعتمد الذى تؤيده الآيات الأخرى . وعلى كل حال فإن عذاب الله للكافرين شديد فى الدنيا والآخرة . ولكن الذى ينبغي الاهتمام به حقاً هو : هل هذا العذاب الدينى يشمل المؤمنين الذين يخالطونهم فى وطن واحد ، أو هو مقصور على الكافرين والعاصين الذين يجاهرون بالمعصية ؟ وهل هذا العذاب واقع لا محالة ، أو قد رفعه الله تعالى بعد رسالة نبيا صلى الله عليه وسلم ؟

أما الجواب عن السؤال الأول فسيأتى فى البحث الذى بعد هذا .

وأما الجواب عن السؤال الثانى فإن ظاهر هذا الحديث يفيد أن بعضه واقع لا محالة ، والبعض الآخر قد رفعه الله تعالى بمسند بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما الذى رفع فهو الرجم والخسف ، وأما الذى بقى فهو محاربة بعضهم بعضاً ، واختلاطهم فرقا مختلفين على أهواء شتى ، كل فرقة تشايح حاكما خاصا حسب أهوى أنفسهم ، فينشب القتال بينهم ويختلطون

فيه . وهذا معنى قوله تعالى : « أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض » . ويدل على هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد استعاذ بالله من العذاب الذي من فوقهم أو من تحت أرجلهم ، ومعنى استعاذته بالله منه أنه طلب من الله تعالى أن يرفعه عن الناس ولا يعذبهم في الدنيا بذلك ، فاستجاب الله له . أما العذاب باختلاطهم شيعا وإذاقة بعضهم بأس بعض ، فإنه لم يستعذ بالله منه ، بل قال : هذا أهون أو هذا أيسر . ويؤيد ذلك ما رواه ابن مردويه من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « دعوت الله أن يرفع عن أمي أربعة ، فرفع عنهم ثنتين وأني أن يرفع عنهم اثنتين : دعوت الله أن يرفع عنهم الرجم من السماء ، والغسف من الأرض ، وأن لا يلبسهم شيعا ، ولا يذيق بعضهم بأس بعض ، فرفع الله عنهم الغسف والرجم ، وأني أن يرفع عنهم الآخرين » .

وروى بعض الأئمة أن الغسف والرجم لم يرتقيا وأنهما يقعان في هذه الأمة ، واستدل لذلك بما رواه الترمذي من حديث عائشة مرفوعا . « يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسح وقذف » ، وبما رواه أحمد والترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية « قل هو القادر » إلى آخرها ، فقال : أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد » ، وبما رواه أحمد والطبري من حديث أبي بن كعب في هذه الآية « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم - الآية » قال : « هن أربع وكلهن واقع لاحالة » ، إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على وقوع العذاب الدنيوي بعد بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وتحقيق هذا المقام يستلزم تفسير قوله تعالى : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » ، وقوله تعالى : « ولو لا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى » . فمعنى الآية الأولى أن الله تعالى قد وعد نبيه عليه الصلاة والسلام برفع عذاب الاستئصال والابادة للأمم الذين كذبوه . ومعنى الآية الثانية أن خروج المشركين عليه وتكذيبهم إياه ومحاربة دينه بكل قسوة وغلظة يستدعي إبادتهم كما أبعدت الأمم الفاجرة من قبلهم ، ولكن الله تعالى قد وعد نبيه بقوله : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » برفع هذا العذاب عنهم ، فهو سبحانه يقول لنبيه : ولو لا هذه الكلمة التي سبقت مني لكان عذاب الأمم السالفة لازما لهذه الأمة .

وقد بين الحديث الذي مراد بالعذاب الذي رفع عن الناس بعد بعثة الرسول ، فإنه صرح بأن ذلك العذاب هو المسح والرجم الذي يستعمل للأمم ويبيدها ، أما غير ذلك من أنواع العذاب فإنه لم يرفع .

وما ورد في الأحاديث التي تدل على أن الغسف والرجم لم يرتقيا بعد بعثة الرسول وأنهما سيقعان لاحالة ، لا يناق ذلك ، فإن الأحاديث الدالة على أن الله رفع هذا النوع من العذاب بعد بعثة رسول الله ليس فيها ما يدل على رفعه دائما ، بل الآية تدل على أن رفعه محدود له أجل

مسمى ، كما يدل لذلك قوله تعالى : « ولو لا كلمة سبقت من ربك لكان لأجل مسمى » ، فإن قوله : « وأجل مسمى » معطوف على « كلمة » . والمعنى : ولو لا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان عذاب الاستئصال لازماً لكل أمة تجاهر بها بالعصيان وتكفر بآياته وتحارب رسله الذين يريدون بهم الخير . ولهذا قال في فتح الباري : إن طريق الجمع بين هذه الأحاديث أن الإضافة المذكورة في حديث جابر ( الذي نشره الآن ) وغيره مقيدة بزمان مخصوص وهو وجود الصحابة والقرون الفاضلة ؛ وما بعد ذلك فيجوز وقوع ذلك فيهم . ومعنى ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قبلت استعاذته من هذا النوع من العذاب وأجل تنفيذه إلى أجل مسمى ، وهو الذي يريد الله فيه أن يبطش بالفجار الذين خرجوا عليه وعلى نظمه المعقولة النافعة واتبعوا أهواءهم وشهواتهم بعد أن أمهلهم أزمان كثيرة وقرونا طويلة .

( ٢ ) مما لا ريب فيه أن فساد الناس وخروجهم على دينهم يستوجب العقوبة ويستنزله العذاب ، ولكن قد يكون من الناس الفجار من لا يستحق العذاب ، بل قد يكون فيهم الصالحون الذين يؤمنون بالله ويتبعون ما أمرهم به ؛ فهل هؤلاء الصالحون يذهبون ضحية هؤلاء الفجار ويهلكون مع المالكين ؟

والجواب عن ذلك أن طاعة الله سبحانه وتعالى وقاية من العذاب الدنيوي والآخروي ، ولكن طاعة الله تعالى ليست مقصورة على أداء العبادات الخاصة بالشخص كالصلاة والصيام ونحو ذلك ، بل طاعة الله تعالى تتناول كل ما أمر الله به أو نهى عنه . فإذا أمر الله المسلمين أن لا يتجأروا بالفسوق والعصيان ، وأن يأمر بعضهم بعضاً بالمعروف وينهى بعضهم بعضاً عن المنكر ، وأن يستعملوا كل الوسائل التي تجملهم أقوياء في أديانهم وفي أخلاقهم وفي أموالهم وفي قوتهم المعنوية والمادية ، فأعملوا ذلك كل الإعمال واتبعوا كل شيء تدفعهم إليه شهواتهم الفاسدة وتزينه له أهواؤهم الضارة بالخلق والمال والقوة ، فأنهم لا يجديهم بعد ذلك أن يصلوا ويصوموا ، أو نحو ذلك من العبادات . ثم إن هؤلاء يتأبون على أداء هذه العرائض ويخرجون عن المسئولية أمام الله تعالى في الآخرة ، أما في الدنيا فإن الله تعالى قد جعل الحياة فيها منوطة بوسائل معروفة وسنن متبعة ، وقال لنا : يجب عليكم أن تمسكوا بهذه السنن ، وأن تقاوموا شهواتكم الضارة بكل ما أوتيتهم من بطش وقوة ، فإن لم تفعلوا خسرتم كل شيء في هذه الحياة ؛ خسرتم الصحة ، والقوة ، والشرف والكرامة ، وتداعت عليكم الأمم كنداعي الآكلة إلى قصعتها . ويؤيد ذلك قوله تعالى : « أئحينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس بما كانوا يفسقون » ، فإن ذلك صريح في أن الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا يرضون عن الفسق والفساد ويقاومونه بكل ما أتيهم من قوة ، يكونون بمنحاة من عذاب الله تعالى . وما ورد من أن العذاب الدنيوي يمس المفسدين والصالحين

فانه خاص بالصالحين الذين لا يقومون بالامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، أما الذين يقومون بواجباتهم ولا يبالون بما عساه أن ينالهم من عنت وشدة في سبيل محاربة الفساد ، فان الله تعالى يجعل لهم سبيلا من النجاة لا علة . ولذا قال تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » ، فان معنى هذه محاربة الشرور والفتن المضارة بالدين والدنيا قبل استئصال أمرها وتفاحش شرها .

فن المؤكد أن طاعة الله تعالى وقاية من عذاب الله الدنيوي والآخري ، بشرط أن لا يخلط الانسان قواعد الدين ، فلا يظن مثلا أن الصلاة تغنيه عن العمل لندياه ، ولا يظن أن الدعاء وقراءة الأحزاب تغني عن وسائل القوة التي يريها أعداء الدين ، لأن الله تعالى قال : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » الى غير ذلك مما ذكرناه غير مرة .

(٣) ولعل قائل يقول : ماذا يصنع المسلمون الآن ، وقد فرط أسلافهم من قبل وتفرقوا شيئا حتى تمكن منهم الضعف الخلفي ، وزين لهم الشهوات الفاسدة ، وحجب إليهم الخروج على الأدب والحياء ، بل أصبحوا في حالة صعبة العلاج ، لأنهم يرون التهنك والمخلاعة والمجون مدنية لا مناص للإنسانية منها ، ويرون الجذ في القول والعمل جورا يتناقى مع المدنية والإصلاح ؟ والجواب : أن المسلمين ما داموا متدفعين في هذا التيار فإنهم سيرون من عقوبة الله وبطشه بهم مالا يخطر لهم على بال ، ولا بد أن يسلط الله عليهم أعداء كثيرين يسومونهم سوء العذاب ، أو يأخذهم بنوع من أنواع العذاب الذي أخذ به من كان قبلهم .

فلا مناص لهم الآن من أمرين : الاتحاد ، وترك الرذائل الخلقية جانبا ، فإذا اتحدوا وتجنبوا وسائل العظمة الكاذبة ، وطرحوا الرذائل الخلقية جانبا ، فإن الله تعالى يرفع عنهم مقتته وعذابه الذي حاق بالأمم السالفة . وهذا علاج قد يكون عزيزا ، بل قد يخيل للناس أنه محال لأن قادة الأنكار فيهم مختلفون في مشاربهم ومذاهبهم وأخلاقهم ، وهذا الاختلاف يستحيل معه الوفاق . ولكننا لا نرى شيئا في هذه الحياة مستحيلا ، فاعلى المسلمين إلا أن يحاولوا هذا الاتحاد ، وعليهم أن يحنقوا المفسدين الإباحيين وينزلهم المنازل اللائقة بهم ، وعند ذلك يأمنون عقاب الله وسخطه ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

عبد الرحمن الجزيري

## الحلم يقهر الجهل

قال شاعر حكيم :

وذى رحم قلت أنظار جهله	بحلى عنه حين ليس له حلم
إذا ممتته وصل القرابة سامي	فطيبتها تلك السفاهة والأثم
فسداوته بالحلم والمرء قادر	على سهمه ما كان في كفه السهم



## التصوف والمتصوفون

— ٣ —

كان النظام يقضى علينا بأن نتناول في هذا المقال بعد الدين قدمنا من أعيان المتصوفين ، ذا النون المصري ، وأبا يزيد البسطامي ؛ ولكن لما كنا قد أشرنا الى هذين المتسكين في فصل نشرته لنا هذه المجلة منذ أعوام ، فقد آثرنا أن نتركهما نجنباً للإعادة ، وإن كان لا يفوتنا أن نقرر أن ثانيهما وهو البسطامي يعتبر أحد مؤسسي التصوف النظري الذي أسسه أصحابه على فكرة وحدة الوجود ، وأنه كان أول من نشر فكرة « الفناء » في البيئات العربية ، وأن طريقته تدعى حيناً بالليفورية ، وحيناً بالبسطامية ، ولا تزال بقاياها الى هذا العصر الحديث في بسطام حيث يوجد قبره . والآن اليك من يكون هذين المتصوفين :

ابراهيم بن آدم :

لا يعرف التاريخ عنه إلا قصصاً مشوبة بالخرافات والأساطير ، فهو يتحدثنا أنه أحد أمراء بلخ ، وأنه كان في أحد الأيام يصطاد الطباء في جمع من أفراد حاشيته ، فطار دظبية حتى ابتعد عن أتباعه ، فلما اختلت به الظبية سأله في لغة فصيحة رشيقة قائلة : المثل هذا أنت خلقت في هذا العالم ؟ ومن الذي أمرك أن تعيش على هذا النحو ؟ فلم يكده يسمع هذه العبارات حتى تدم واعتزل الناس ، وحاش عيشة الفقراء يأكل من حمل يديه . وأخيراً ترك العمل وتغلغل في الصحراء ، فجعل الطعام يأتيه من طريق غير طبيعي ، وأخذ يستقبل الخضر الذي كان يزوره كثيراً ، ويلقى عليه دروساً في العلم والتفكير .

ونذكر رواية أخرى أنه وهو أمير في بلخ كان نائماً في غرفته ذات لية ، وكان الحارس نائماً فوق سطح هذه الغرفة ، فسمع ضجيجاً ووقع أقدام فوق السقف ، فسأل من مصدر هذه الجلبة ، فأطلت كائنات من نوافذ الغرفة وأجابته قائلة : إننا نبحث عن جلال . فسأل إبراهيم قائلاً : وهل يبحث عن الجلال فوق السقف ؟ فأجابته الأشباح قائلة : وأنت كيف تحاول الاتصال بالله وأنت جالس فوق العرش ؟ فأثرت هذه العبارات في نفس الأمير تأثيراً دفعه الى مفادرة قصره وهجران ثروته . ومنذ ذلك العهد انقطع عن العالم وتفرغ لعبادة والتأمل في مصنوعات الله حتى صار من أجلاء الصوفية ، وأصبحت الوحوش والطيور تأتمر بأمره .

هذه هي الصورة التي قدمتها إلينا الأساطير عن إبراهيم بن آدم . أما تاريخه الصحيح ،

وكيفية تخليه عن الحياة وانصرافه إلى الزهادة، ومرتبته الحقيقية بين المتنسكين، فقد ظلت محببة عن الباحثين تماماً. ولهذا نحن نكتفى في جانب هذه الشخصية الهامة بذكر تلك الأساطير التي تشبه أساطير بوذا، بل لعلها مأخوذة منها، إلى أن تكشف البحوث الحديثة حقيقة أمر هذا الرجل العظيم.

إلى هنا ينتهي الفريق الأول من الطبقة الأولى، وهو فريق العصر الإعدادي، أو فريق المتنسكين العمليين. وسندرس فيما بعد طائفة من أعيان متصوفى عصر الإزهار، وهم الذين اشتهروا بأرائهم النظرية المبينة لظاهر الشرع.

غير أنه ليس معنى هذا أن جميع متصوفى عصر الإزهار كانت لهم آراء متعارضة مع الشرع، كلا، فإن بينهم من لم يؤثر عنه هذا التعارض كالجنيد والنورى مثلاً، وإنما أكثر أعيان متصوفى ذلك العصر كانوا ذوي آراء نظرية تأثرت بالفلسفة الاغريقية والمتنسكين: الهندي والمالوي، وبوحدة الوجود والحلولية الاسكندريتين، وبالرهبة المسيحية، وسنرى بيان ذلك فيما بعد:

#### النورى:

ولد أبو الحسن أحمد بن محمد البراوى فى بغداد، ولا يعرف بالضبط تاريخ مولده. ولما شب تعلم على سرى السقطى عم الجنيد، فكان ذلك سبباً فى الاتصال بينه وبين الجيد كزميلين ثم كصديقين. وفى أثناء هذه الدراسة أخذوا يتعاونان معاً على شرح وبسط بعض النظريات الإلهية والأخلاقية للمعاشى، وعلى الأخص نظرية المحبة الإلهية التى كان المعاشى (فيما يظهر) أول من تناول الكتابة عنها فى البينات الإسلامية. وقد قرر النورى فى هذه المسألة أن آية هذا الحب الإلهى هى تحمس المؤمنين لأداء العبادات دون أى أمل فى مكافأة، وليست العبادة التى ينتظر أمحاحها من ورائها الجزاء. وقد رأى الحلّاج فيما بعد أن المكافأة العليا التى يمنحها الله عباده المطيعين هى رؤيته فى الجنة، لا ما فيها من متع مادية.

غير أن أمحباب النورى كابى حمزة البغدادي وأضرابه قد غالوا فى هذه النظرية، ورمزوا لها برموز مادية سخيفة، حيث قرروا أن هذا الحب يقرب صاحبه قرباً حسياً من الإله، فنجحد النورى هذه المغالاة، ولكن أحد خصومهم من الصوفية وهو أحمد بن محمد الباهلى أبلغ عنهم الخليفة الموفق، فأمر باعتقال النورى وأمحبابه وهددم الموت. ولما كان الجنيد من المتصلين بهذه الجماعة، فقد فر وخلع لباس الصوفية، وأعلن أنه فقيه لا يلقى على تلاميذه إلا الشريعة الإسلامية الواضحة.

أما خطة النورى فقد كانت برهان البطولة والشجاعة، إذ أنه — مع جعوده لهذا رأى

الذى كان سبب محنته — كان أول من قدم نفسه الى الموت في هدوء واطمئنان ، فتأثر محاسب الغليفة بهذه الشجاعة وعفا عنهم جميعا .

لم يفقد المورى بعد هذه الحادثة شيئا من تحمسه لما يعتقد ، ولم يعدل عن الاسر بالمعروف والنهي عن المنكر أيا كان شأن ذلك الخالف ، حتى قيل إنه كان ينهى الغليفة في هنف عن مخالفة الشرع . وأكثر من ذلك أنه رأى في أحد الأيام شخصا يحمل وعا مملوءا بالنبيذ ليدخله الى القصر ، فكسر الوعاء ونهر حمله .

وأخيرا توفي المورى بسبب سقوطه فوق حدود مدبب وهو في حالة الغيبوبة ، وكان ذلك في سنة ٣٩٥ هـ .

#### الجنيد - حياته ومؤلفاته:

هو أبو القاسم بن عبد الخراز الفواريزي ، وقد ولد وترعرع في نهاوند ، فلما شب ارتحل الى بغداد ، وبها عرف عددا من أجلاء الأساتذة وتلقى عنهم العلوم المختلفة ، فكان في المقام تلميذ أبي نور الكلبى ، وفي التوحيد تلميذ المحاسبي ، وفي الأخلاق البيهقي تلميذ معروف الكرخي ، ثم صار بعد ذلك من أكار رجال الحديث ، ولكنه بعد انهماج النورى وقف بمجهوده الملمى على المقام . وقد كان من الأساتذة الأساسيين الذين كونوا الخلاص .

كان الجنيد شديد الورع ، ولم يمنعه تصوفه عن التمسك بأهداب الشريعة ، لأنه كان يؤمن بالمبدأ القائل : المتصوف هو الذى لا يطنى نور معرفته نور ورعه ، ولا يشكلم باطن ينقضه عليه ظاهر الكتاب ، ولا تحمله الكرامات على هنك محارم الله . وله تعبيرات صوفية شهيرة ، ومطبوعات معروفة . وقد توفي في شوال سنة ٢٩٨ هـ .

أما مؤلفاته الموثوق من صحة نسبتها إليه فى أهمها ما يلى :

- (١) « كتاب السكر » (ب) « كتاب دواء الأرواح » (ج) « كتاب الفناء » .
- (د) « كتاب الميثاق » . (هـ) « كتاب الألوهية » . (و) « كتاب آداب الفقر » .
- (ز) « كتاب التوحيد » . (ح) « كتاب آداب المعتقر الى الله » . (ط) « كتاب سر أنفاس الصوفية » . وله غير ذلك رسائل هامة وأجوبة على أسئلة ذات قيمة .

#### مذهبه :

صدر الجنيد فى مذهبه عن مسألة الميثاق الوارد فى القرآن ، والذى أقسمت الأرواح بمقتضاء أن تؤمن بالله قبل أن يخلق أبدانها ، واستخلص من هذا أن كل حقيقة الانسان كانت موجودة فى تلك اللحظة التى تمهدت الأرواح فيها لخالقها بالإيمان . وإذا ، فهذه الحقيقة الانسانية تنحصر فى جوهره الروحاني . أما البدن فباطل لا يقام له وزن . ثم قرر أن مصير

الإنسان قد تحدد نهائياً في ذلك اليوم الذي عقد فيه الميثاق ، فاختار الله السعداء وافصل فيهم من الأشقياء . وعبارة الجنيـد نفسها هي « اعترل الله بهم » أي أن ألوهيته قد انكشفت لهم في ذلك الوجود النقي الذي كانوا فيه قبل عالم الأشباح ، والذي لا يزال الإله يجذبهم الى العودة إليه من خلال هذه الحياة ، ولكن هذه العودة لها درجات ، أولاها المعرفة ، وهي تبدأ بالتوحيد ، ثم بتعدد الوجدانية الإلهية ، وهذا التعدد لا يتحقق إلا بوجود الكيف والحيث والآين وهو التنزيه ، ولكن الوصول الى هذه الدرجة لا يكفى في تحقيق الغاية المثلى ، لأن الله لا يلحق بهذه الغاية إلا من يشاء عن طريق السكر التنسكي ، وهو نوع من الجنون الفعائى والغير الطبيعى يمنحه الله الانسان فيصير بوساطته في حالة يقول ويفعل فيها ما يشاء دون أن يكون مسئولاً عما يقول أو يفعل ، ودون أن ينتزل الإله الى التوفيق بين هذه الأفعال والأقوال وبين أوامره الموحى بها . ومن يتخلى الله عليه بهذه المرحلة ، يستول عليه بمنف جليل ، ويحوّله الى تراب قبل أن يمته ويهلكه ويدفنه ثم يبعثه دون أن يذكر أى شيء عن حياته الأولى التى ارتقى فيها الى مرتبة السكر .

في هذه المرتبة ينزل الالهى من المادى . وبعبارة أخرى : نهاية الانسان تعيده الى مبدئه ، أى أن الله يعيد المصطفين عند وصولهم الى الدرجة العليا الى نفس الحالة الإلهية المحضة التى كانوا عليها قبل حلولهم فى الأشباح ؟

الركنور محمد غروب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

## من صنوف الناس

قال لبي صلى الله عليه وسلم : « كن طاماً أو متاملاً ، ولا تكن الثالثة فتهاك » .  
أقول : لست أذكر أنى فيما قرأت للحكاه شرقيين وغربيين ، أنى صادفت حضاً على طالب العلم أرفع ، وأوقع فى النفس ، وأبلغ فى الإيجاز ، من هذا الخضم .  
لا جرم ، أنه من جوامع الكلام التى خص بها النبي صلى الله عليه وسلم .  
وقال حكيم :

الإخوان ثلاثة : فأخ يخلص لك وده ، ويذل لك رفته ، ويستفرغ فى مهمك جهده ؛  
وأخ دونية يقتصر لك على حسن نيته دون رفته ومعونته ؛ وأخ يملق لك بلسانه ، ويشاغل عنك بسانه ، ويوسعك من كذبه وأبحاثه .

وقال شاعر :

وما الداء إلا أن تعلم جاهلاً وزعم جهلاً أنه منك أعلم

# حَيَاتُ خَلَاتِ لَا سِيَا إِلَّا

## أبو بكر الصديق

- ٥ -

هجرة الى المدينة

أنام أبو بكر رضى الله عنه بحكمة ما أنام فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ردها للمسلمين ، يحولهم برأيه ، ويحنو عليهم ، ويمينهم بنفسه وماله ، يقتدى أركاءهم ، ويفك ما بينهم ، ويرش فقيرهم ، ويعملهم الى حيث يأمنون على دينهم وأنفسهم ، حتى أصبح وله في قلوب المؤمنين ما كتب الله له من الفضيلة الفارقة ، والشرف الأسبق ، والحب الخالد ، وحتى أصبح للمشركين شجاء ، ولاسكفر داء عياء ، يكيد به براصخ إيمانه ، ويطعنه في مقاتله بأشرف خصاله ، فضاخوا به ذرعا ، وجملوه في عداوتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم عدلا ، وأرادوا بهما كيدا ، فقدروا وديروا ، وكان الله خير الماكرين .

اشتد الأذى بالصديق رضى الله عنه كما اشتد بسائر المؤمنين ، فهاجروا هجرة الفتح والنصر المؤزر الى يثرب ، حيث المنعة والقوة ، في سبيل الله ، باذن من النبي صلى الله عليه وسلم ، بعد أن وطأ لهم أواصر الاخاء مع البهايل من بني قيلة ، وبقي أبو بكر مع نفر قليل من الصحابة بحكمة ، فكان ذلك دافعا أصناديد الكفر الى اشتداد ضغينتهم على المؤمنين ، وقسوتهم في ألوان الأذى بهم خفية أن يلحقوا بأخوانهم ، وصرفوا أكبر همهم الى أبى بكر ، وتفننوا في إيذائه ، ومنعوه القيام بحقوق ربه ، فحس أن يتحرك له فومه عصية لجينهم فيتفقم الخطر في غير عائدة على عقيدته ودينه ، فاستقر رأيه على إحقاق بأخوانه مهاجرا الى الله بدينه . قال صاحب المواهب : « وكان الصديق كثيرا ما يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة ، فيقول : لا تفعل ، لعل الله أن يجعل لك صاحباً ، فيطمع أبو بكر أن يكون هو . وهذا مظهر من أعظم مظاهر حفاوة النبي صلى الله عليه وسلم بالصديق ، واختصاصه بنفسه دون غيره من سائر الناس ، وهو أيضا مظهر من مظاهر تعلق نفس الصديق بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وإرادة ملازمته في غدواته ورواحاته .

ويحدثنا الامام البخارى في الصحيح من حديث طويل عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « ومجهز أبو بكر قبل المدينة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : على رسلك ، فاني أرجو

أن يؤذن لي ، فقال أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبي أنت ؟ قال : نعم ، فخبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصعبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السر ( وهو الخبسط ) أربعة أشهر ، قالت عائشة رضي الله عنها : فبينما نحن يوما جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنما في ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر : فداء له أبي وأمي ! والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر ! قالت عائشة : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن فأذن له فدخل ، فقال لأبي بكر : أخرج من عندك ، فقال أبو بكر : إنعام أهلك بأبي أنت يا رسول الله ، قال : فاني قد أذن لي في الخروج ، فقال أبو بكر الصعابة بأبي أنت يا رسول الله ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، قال أبو بكر : نخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتني هاتين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : باليمن ، قالت عائشة : فجهزناها أحث الجاهز ، وصنعنا لها سفرة في جراب ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سميت ذات النطاقين .

وفي هذا الخبر من فنون المعرفة والآداب ما يجعلنا نتقف معه لتزيدها تبيينا وتوضيحا ، لنكون للمؤمنين تبصرة وذكرى ، ولعلماء منار هداية وإرشاد ، وللمصلحين خير أسوة : فأبو بكر رضي الله عنه رأى أن مكة لم تعد سالحة في ذلك الحين لنشر شرائع الحق فيها ، وأنها عبات نفسها لوقوف في وجه الدعوة الجديدة ، وأنها متشبثة بأوثانها ، فاستعد للهجرة زمنا طويلا ، ولكنه كان يتطلع الى محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل يحس إحساسا قويا بمصاحبة النبي صلى الله عليه وسلم في هجرته ، لأنه اطمأن الى بشارته برجاء أن يجعل الله له صاحبا ، ملوئا الى ذاته الغريفة ، فأعد الصديق لهذا اليوم راحلتين ليحمل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤنة التفكير وسائل هذا السفر ، وتدير أسيابه المادية كدأبه في جميع موافقه النبيلة .

ولا يخفى ما أشاعه ذلك في نفس أبي بكر من البهجة التي صورها في هذه العبارة الهادئة الرائعة بعد قول النبي صلى الله عليه وسلم له : على رسلك فاني أرجو أن يؤذن لي ، وهل ترجو ذلك بأبي أنت ؟ ولا يفوت أرباب القلوب هنا الالتفات الى مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوكل المطلق ، حيث لم يتخذ لهذه المحرة وهو يرجوها أي سبب من الأسباب المادية ، والى مقام الصديق رضي الله عنه حيث أعد العدة واتخذ الأسباب .

وفي هذا الخبر أبرع تصوير وأدق لمكانة أبي بكر وآله عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانه لم يكذب يأتبه الإذن من الله تعالى بالهجرة حتى يذهب الى بيت صاحبه في ساعة لم يكن يجيئهم فيها ، وبأمره أن يحلو إليه بإخراج من عنده ليس إليه أمرا هو أخطر ما عرض لامتناعان الدعوة في هذه المرحلة القصيرة ، فيجيبه أبو بكر بأن لا عين عليك ، لأن هؤلاء الذين عندي إنعام أهلك الذين يشاركونني في فدائك بأنفسهم ، فيقول رسول الله صلى الله

عليه وسلم : « فإني قد أذن لي في الخروج » ، فطلب الصديق في لفظة ، الصجبة ، فيجواب بما يقر عينه . وهنا اعتذر للقلم بما اعتراه الهر فلم يستطيع تصوير حال أبي بكر في هذه الساعة التي تحققت فيها أعظم أمانيه ، ثم هو رجو من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقلد منه إحدى راحتيه ، فيقبلها ولكن بشئها لتكون هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم متعضة إلى الله تعالى ، وفي هذا تعظيم شأن الهجرة . قال العلامة القسطلاني : « فإن قلت فلم لم يقبلها إلا باليمن وقد اتفق عليه أبو بكر من ماله ما هو أكثر من هذا فقبل ؟ أحبب بأنه إنما فعل ذلك لتكون هجرته إلى الله بنفسه وماله رغبة منه عليه السلام في استكمال فصل الهجرة إلى الله ، وأن يكون على أتم الأحوال » .

وفي هذا الخبر يمثل فن من فنون أدب الخطاب ، وأدب الحب الروحاني ، فما يكاد أبو بكر يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو في خطابه يهديه بآية وأمه تعظيما لقدرة العظيم ، فأين ما هذه القدوة فيما ابتدئناه في أساليبنا المتحدثة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، حتى أصبح أقربنا إلى التأسي من « يصلم » أو يكتفي مشيرا إلى هذه « الصلعة » بحرف « ص » ؟ ! فما أخرج المسلمين إلى إشعار قلوبهم في كل لحظة بعظمة النبي صلى الله عليه وسلم ، وإيقاظها طليح الألسنة وحط الأقلام اقتداء بأعرف الناس بقدر الحياة وأوزنهم لحظات الأزمان ؟ أين نحن من الحياة وقد زعمنا أننا نكتفي بالإشارة إلى الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بهذه « الصلعة » الجوفاء حرصا على « الوقت » و « المداد » و « الورق » بالنسبة إلى بناء مجد الإسلام وواضح أساس أعظم دولة في العالم ، وما كانوا يرون في تردد ذكرهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإظهار تعظيمه بالصلاة عليه إلا أشرف حافز لهم على تناول أسباب السيادة العادلة بإيمانهم .

إنهم جدوا وهزلوا ، وفأصوا على الباب وتشدنا بالقشور ، فسادوا وتعبدنا ، ونحمرروا وقلدنا ، وتقدموا وتخلفنا . وما أحرانا أن نتأمل قول الصديق الأعظم رضى الله عنه : « إن هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله ، ولا يحتمله إلا فصلكم وأملككم لنفسه » .

وفي هذا الخبر يمثل وزن العقيدة الصادقة في النفوس العظيمة ، فلا عزازة الوطن ، ولا لصوق المال بالروح ، ولا محبة الأهل والولد ، بأخرى أن تكون في كفة ميزان مع العقيدة الراسخة إذا لفت في جوانبها الإيمان بالحق ، وما قيمة وطن لا يطمئن فيه المرء على إعلان كلمة الحق ، ولا يستطيع أن يؤدي فيه حقوق خالقه ، ولا يستطيع أن يرد باطلا ، أو يتصر مظلوما ؟ وما قيمة مال لا يعرف فيه حق الممهم به ، ولا يتسنى فيه ، واساة الفقراء والمساكين ، ولا إيمان به على نوائب الحق ؟ وما قيمة أهل وولد لا يستجيرون لدمرة الحق ، ولا يؤازرون في سبيل

الله ؟ إن حلاوة الإيمان تجعل كل أولئك في جانب العقيدة الصحيحة لا يزن عند صاحبها شيئا ، وكذلك كان المؤمنون الصادقون في صدر الاسلام .

ويتمثل في هذا الخبر دستور المؤمنين المخلصين إذا احتوشنهم بيئات شحها الفساد في كيانها الاجتماعي والخلق حتى لم يمد لصيحة الحق فيها أثر ، بل إن فسادها لاستفحاله يصور لها باطلها حقا ، تدافع عنه ، فتضطهد دعاة الحق ، وتؤذى المصلحين ، وتزيمهم بكل قاصمة ، وتسد في وجوههم سبل الارشاد ، فلا يبقى لهم طريق الى قلوبهم ، والحق رحمة الله الى الانسانية عامة أينما وجدت ، فإذا استيأس المصلحون أن تنبت بذور الخير في بيئة انتقلوا الى غيرها حتى تلاقهم فطر مكتنرة الحيوية ، لا يمشيها ضوء الحق ، وهناك يستبشرون حتى يستمروا ، فإذا امتلأت أيديهم وفلوبهم طادوا الى ما استعصى عليهم مطهروه ومزجوا آخرهم بأولهم ، وضموا الى وطنهم أوطاننا ، وإلى أموالهم أموالنا ، وإلى أهلهم أهلا وولدا ، وهذا عهد الله تعالى في قوله : « ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض سرًا كثيرًا وسعة » . قال جابر الله في الكشاف عند تفسير قول الله جل شأنه : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » : « وهذا دليل على أن الرجل إذا كان في بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب لبعض الأسباب ، والعوائق من إقامة الدين لا تنحصر ، أو علم أنه في غير بلده أقوم بحق الله ، وأدوم على العبادة ، حققت عليه الهجرة » .

خرج الصديق رضي الله عنه مهاجرا الى الله تعالى في محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقه بنفسه ، وكان أبو بكر مقصودا للمشركين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يبال بالموت وهم يترصدونهم في كل مكان . روى عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت : « ولما خفي علينا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانا نفر من قريش ، منهم أبو جهل بن هشام ، فخرجت إليهم فقل : أين أبوك ؟ فقلت : والله لا أدري ، فرفع أبو جهل يده - وكان قاحشا خبيثا - فلطم خدي لكمة خرج منها قرطى ، ثم انصرفوا » .

وحديث الهجرة ينشر فضيلة السيدة الجليلة أسماء الصديقية ، فهي كانت ممن أطلع على سر الهجرة ، وكانت مقصرة تمام التقدير حظورة موقف المهاجرين في تلك الساعة الحرجة ، فلم تفقد من شجاعتها شيئا ، فادلم تجد ما تربط به على فم الجراب عمدت الى نطقها تفقه لتجعل لحظات من الزمن يتقدم فيها الرسول وصاحبه الى غرضهما النبيل ، وبذلك كتبت في بياض التاريخ سطورا حالدا أضاف الى اسمها اسمها جديدا كان من مفاخرها الى مفاخر آل الصديق في الاسلام .

صالح إبراهيم حرموه



## اثبات الروح الانسانية حسيا

أدلة جديدة على مقتضى الدستور العلمى

نشرنا فى العدد الأخير من أعداد السنة الماضية أن العلم اهتدى الى أدلة جديدة على وجود الروح الانسانية مستقلة عن الجسد ، وأنه قد توصل الى تصويرها خارج الجنان ؛ فأقام بذلك دليلا محسوسا على بقائها بعد الموت . وقلنا لنا من ترجم ما ألفه فى ذلك الموضوع الأستاذ الكبير (ارنست بوزانو) العلامة البسيكولوجى الايطالى ، وترجمه الى الفرنسية المسيو (جبريل جويرون) . وقد نقلنا مقدمته فى ذلك العدد . ومضت الأعداد الأربعة من السنة الرابعة ولم نجد فيها مكانا يتسع لتلك الترجمة ، واليوم نعود لانجز ما وعدنا به من متابعة النقل فى هذا الموضوع الخطير ، لأنه يعتبر من أعظم الفتوحات العلمية ، التى يحقق الله بها ما وعد به فى كتابه ، من موالاته العالم بالآيات فى الآفاق وفى الأنفس ، حتى يبين أن ما أوطاه الى رسله هو الحق . ولست أستطيع أن أقدر قدر الانقلاب الأدبى الذى يحدثه اعتراف العلم بوجود الروح ووجودها من طريق أسلوبه المؤسس على الأدلة المحسوسة .

### الطائفة الأولى من تلك الأدلة المحسوسة

كتب الأستاذ المؤلف فى هذه الطائفة نحو عشرين صفحة ، أثبت فيها أن الذين يُبتر بعض أعضائهم يحسون بوجودها إحساسا يقينيا ، مع أن مادتها غير موجودة . فمن نُترت ذراعه أو ساقه ، شعر بوجودها وحركها وفركها بين أصابعها بإرادته ، على حين أنه ميتور الذراع أو الساق المادية . فرد المنكرون على هذا بقولهم : إن هذا الشعور من الميتور وهى محض ، لأنه صاحب العضو الميتور سنين كثيرة من حياته ، فلما قُطع اتقى له الشعور الذى ألفه ؛ وهذا يمكن تعليله بشدة النوم لا بشئ آخر .

ولكن الأستاذ البسيكولوجى المشهور (وليم جيمس) الأمريكى ، المدرس بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة ، رد على هذا التعليل بإيراد ما كتبه العالم الفيزيولوجى الألمانى فالانتان فى كتاب له وهو قوله :

« شوهدت بفت سنها خمس عشرة سنة ، ورحل منه أرمدون سنة ، لم يكن لكليهما إلا يد واحدة صحيحة ، أما الثانية فكانت معيبة إذ كان فيها بدل الأصابع بروزات لحية لأعظم فيها ولا عصلات . وكان الاثنان رغبا عن هذا التمهش يشعران موقفين بوجود أصابع فى تلك اليد تفتنى بالإرادة كلما ثنيا تلك البروزات الجمجمة الشوهاة . ويشبه هذا ما يشعر به الذين أولدوا وإحدى يديهم أقصر من الأخرى ، فانهم يؤكدون بأنهم يشعرون أن يدمم القصيرة فى مثل

طول يدم الطبيعية . وشوهد أشبه آخر يكاد يكون لاساعد لذرعه ، بحيث كانت يده الضامرة تظهر كأنها ملتصقة بالرفق ، كان يشعر بأن ذراعه طبيعية ، وأن طولها لا يقل عن طول ذراعه الأخرى . اهـ

لا شك في أن شعور المولودين شوقاً بسلامة أعضائهم المصيبة ، يدل دلالة قاطعة على أن هذا الشعور ليس مجرد وهم ، وأنه يشعر بأن لهم أرواحاً على شكل أجسادهم لا يمتريها النشوء الذي يعتري أعضائهم ، فتبقى سليمة ، ويبقى شعور المشوهين سليماً أيضاً .

ومما يقوى هذا القول شهادة أهل الكشف من الناس ، وهؤلاء أفراد وهبوا خاصة رؤية المراتب اللامادية ، والاشعاعات الخفية ، فقد أجمعوا على رؤية الصور الأثيرية للأعضاء المبتورة على حالة طبيعية (١) .

وقد كان عهد إلى الأستاذ الدكتور الألماني الكبير كرنر Kerner أن يعالج شابة عصبية كانت تدرك الأجساد الأثيرية للأرواح ، ورأى من صحة رؤيتها لها مدهشات محققة حملته على وضع كتاب فيها أسماء ( كاشفة بريفورست ) جاء فيه ما يأتي :

« وعند ما كان يتفق للمريضة أن تلاقى شخصاً فقد عضوا من أعضائه ، كانت ترى مقابلة من جسمه الأثيري متصلاً ببقية الأعضاء ؛ أي أنها كانت تراها كما كانت ترى صور الأجساد الأثيرية للموتى هذه الظاهرة المفيدة تسمح لنا بتعليل الإحساسات التي يشعر بها المبتورون بوجود العضو المقطوع ؛ وأن بقاء صورة العضو المبتور غير منظورة ، واتصالها اتصالاً مستمراً بالجسم المنظور ، يثبت لنا إثباتاً كادياً أنه بعد انهدام الجسم المحسوس تبقى صورته محفوظة بواسطة السيل العصبي » .

نقول : إن الذي يهنا من نقل هذه العبارة شهادة الأستاذ ( كرنر ) لما يراه أهل الكشف من صور الأعضاء البائدة عن الأجساد الحية ، وما يستدل به هو عن صحة ما يخبر به المبتورون من إحساسهم بوجود أعضائهم إحساساً كاملاً كأنه أمر واقع .

ولا عبرة بتعليله ظهور تلك الأعضاء بالاشعاعات العصبية ، لأنه لم يثبت قط أن للقوى العصبية خاصة التشكل ؛ فأنى لها أن تتشكل إلى ساعد وكف وأصابع ، أو إلى ساق وقدم بجميع مميزاتها على نحو ما كانت عليه قبل أن تُبتر ؟ والصحيح أن ما يرى هو صورة الجنان الأثيري المتوسط بين الروح والجسد .

(١) أيدت المعنونة العسية ما قاله الفلاسفة الاقدمون ، وأهل الكشف من المحدثين ، أن بين الجسد المرنى للآسان والحيوان والنبات ، وبين الروح الإلهي المدبره ، جسداً متوسطاً من مادة أثيرية غير قابلة للفناء على صورة الجسد المادي . وقد نقل عن الامام مالك أنه قال عن الروح : إنها صورة كالجسد . فإياه أهل الكشف الذين نذكرهم هو صورة هذا الجسد المتوسط .

عذر الأستاذ كرز أنه لم يدرك الباحث الأخيرة التي حملت لإثبات وجود جسم متوسط بين الروح والجسد، مكون من مادة أثرية لا تبلى، هو الذى يقيم فى الجسم مدى الحياة؛ حتى إذا عجز الجنان عن حفظه خرج منه على صورة صاحبه، حاصل على الروح الإلهى الذى أودعه، وبقي حيا فى عالم الأرواح لا يتعيفه تحلل، ولا يعثره زوال.

ولكن الدليل الذى يعتبر قاطعا فى هذا الموضوع هو ما توصل اليه الباحثون من تصوير تلك الصور الأثرية التى أخبر عنها أهل الكشف. وكان أول من وُفق إلى إقامة هذا الدليل المحسوس، البعثة المشهور (ألفونس بوفيه)، فقد اتخذ وسائل علمية، معتمدا على خواص بعض الألوان الناتجة من التحليل الطيفى. فأنجح فى تصوير الأعضاء الأثرية لتلك الأعضاء المبتورة، ونشر تفصيلا واما عن الوسائل التى تدرج بها، والنتائج التى وصل إليها، فى مجلة بيسيبيكا (Psychica) صفحة ١٩٢ من مجموعة سنة ١٩٣١، ونقلها عنه الأستاذ إدنست بوزانو فى كتابه الذى نحن بصده، ثم ختم الأستاذ المذكور هذا الفصل بقوله:

« بهذه التجارب الأخيرة نجد أنفسنا، كما ترى، حياjal أدلة عملية حاسمة على صحة وجود الأعضاء المبتورة على صورة أثرية؛ وهذا يؤدى على وجه لا يقل حسما إلى صحة وجود الجسم الأثيرى فروح داخل الجسم المادى المنظور.

ثم قال:

« هذا هو البرهان الأساسى الضرورى للتدليل (العلمى) على وجود الروح الانسانية وخلودها.

« ونزيد على هذا بأنه لما كانت هذه الظواهر تمثل الدرجة الأولى لتطوّر خروج الروح من الجسد ثم عودتها إليه فى بعض الحالات، فهى تعيننا على أحسن وجه على تشكيل الأدلة التجريبية الضرورية على صحة ما نحن بسبيله؛ وهذه الظواهر فى أكل صورها، عند ما يكون الشبح النفسانى المنفصل عن الجسد حاصل على الوعى والعقل والذاكرة فى أتم أحوالها، والخصائص النفسية الدلوية كلها، تهى لنا مشاهدة محسوسة حافلة بالنتائج النظرية، وهى: أن بقاء الروح الانسانية بعد موت جثمانها المادى، أصبح أمرا تجريبييا يمكن إقامة الدليل العلمى عليه، حتى لو اقتصرنا على هذه الظواهر وحدها. » اهـ

وبعد: فإننا اقتصرنا على تلخيص الباب الأول من كتاب الأستاذ بوزانو، لأن فى تلخيصه غناء، ولكننا سنأتى على كل ما أتى به من المشاهدات فى أبوابه الأخرى لمعظم خطرهما، وخلال أثرها، فى تدعيم عقيدة وجود الروح وخلودها على دعائم علمية جديدة، لا على المنطق مخسب.

محمد فرير ومجربى

## بين لسان الدين بن الخطيب (١)

وعبد الرحمن بن خلدون

لعلامة ابن خلدون في النقد الأدبي ، ذهن خصيب ، وآراء حصيفة ، ونظرات تدل على تقاذ بصر ، وإحاطة بخصائص الكلام الجيد ، وتميز طبقاته ، ومراتب رجاله ، وبالوسائل التي لا بد منها لبلوغ الإجابة ، وبالأسباب المباشرة وغير المباشرة لتربية الملكة الشعرية ، وما إلى ذلك مما يتصل من الشعر بسبب قريب أو بعيد . له في كل أولئك الأصول الثابتة ، والقواعد ، التي لا يجحد الناقذ عنها عددا ، ولا إلى الخروج عليها سبيلا .

انظر إلى قوله : « اعلم أن لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطا ، أولها الحفظ من جنسه ، أي من جنس شعر العرب ، حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها ، ويتخير المحفوظ من الحر التقي الكثير الأساليب ، وهذا المحفوظ المختار أقل ما يمكن فيه شعر شاعر من التحول الاسلاميين ، مثل ابن أبي ربيعة ، وكثير ، وذو الرمة ، وجبري ، وأبي نواس ، وحبیب ، والبحتري ، والرضي ، وأبي فراس ، وأكثره شعر الأفاقي ، لأنه جمع شعر أهل الطبقة الاسلامية كله ، والمختار من شعر الجاهلية ، ومن كان غالبا من المحفوظ ، فظمه قاصر رديء ، ومن قل حفظه أو عدم ، لم يكن له شعر » .

وقوله : « ولا يكون الشعر سهلا إلا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى القهن ، ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله ، يعميرون شعر ابن خلدون شاعر شرق الاندلس ، لكثرة معانيه وازدهارها في البيت الواحد ، كما كانوا يعميرون شعر المتنبي والمعري بعدم التسجع على الأساليب العربية » .

وقوله : « ذكرت يوما صاحبا أبا عبد الله بن الخطيب « يعني لسان الدين » وزير الملوك بالاندلس من بني الأحمر - وكان الممدد المقدم في الشعر والكتابة - فقلت له : أجد استصعابا على في نظم الشعر متى رمته ، مع بصري به ، وحفظي لجيد الكلام ، من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب ، وإن كان محفوظي قليلا ، وإنما أتيت - والله أعلم - من قبل ما حصل في حفظي من الأشعار العلمية ، والقوانين التأليفية ، فاني حفظت قصيدتي الشاطبي : الكبرى والصغرى في القراءات ، وتدارست كتابي ابن الحاجب في الفقه والأصول ، وجل الموحجي في المنطق ، وبعض كتاب التسهيل ، وكثيرا من قوانين التعليم في المجالس ، فاهللا محفوظي من ذلك ، وخدش وجه الملكة التي استعددت لها بالمحفوظ الجيد ، من القرآن والحديث

(١) ولد لسان الدين في ٢٥ من رجب سنة ٧١٣ ، وتوفي سنة ٧٧٦ . وولد ابن خلدون في رمضان سنة

وكلام العرب ، فمائق القريحة عن لونها . فنظر الى ساعة معجبا ، ثم قال : لله أنت ا وهل يقول هذا إلا مثلك ؟ » .

تقرأ هذا وغيره من روائع أصول القدر للعلامة ابن خلدون ، وتراه يطبقها بدقة وعناية ، حتى على نفسه ؛ ولكن يروعك ، ويدهشك ، ويعلم نفسك عجباً ، رأيته في وزير المسلك بالأندلس من بني الأحمر : لسان الدين بن الخطيب ، إذ يقول في الموشحات بعد أن ذكر ابن سهل وموشحته : « وقد نصح على منواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب شاعر الأندلس والمغرب لمصره » .

ويقول بعد أن ذكر سلسلة الرجالين : « ثم من بعدم لهذه المصور صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب إمام النظم والمثر في الملة الاسلامية غير مدافع ١١ » .  
ويقول - كما سبق آنفاً : « وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة » .

الى غير ذلك من الاحكام المفضضة ، التي يستعصى على النظر قبولها ، ويعسر على الناقد تأويلها . ولقد حاولت أن أورد ذلك الى طائفة ودية بين الرجلين ، فعكر على هذا الخاطر ، ما ذكره ابن خلدون في تاريخه ، من أنه لما كان بالأندلس ، وحظى عند السلطان أبي عبد الله ومحمد بن الخطيب ، شتم من وزيره ابن الخطيب رائحة الانقباض ، فقوض الحال ، ولم يرض من الإقامة بحال ، ولعب بكرته صوالجة الأقدار ، حتى حل بالقاهرة المعزية واتخذها خيراً دار . . . ومن المفارقات الغريبة : أن الشيخ ابراهيم الباعوني الشافعي يقول : كنت أوثر الاجتماع بابن خلدون بالقاهرة المحروسة للعودة الحاصلة بيني وبينه ، وكان يكثر من ذكر لسان الدين بن الخطيب ، ويورد من نظمته ونثره ، ما يقنف به الأصماع ، وينمقد على استحصانه الإجماع ، وتنقاصر عن إدراكه الإطلاع . اهـ

فاصرار ابن خلدون على المغالاة بابن الخطيب ، على رغم المنافسة الخفية بين الرجلين ، هي عقدة الرواية ، وهي موضع الحيرة ، وهي محل النظر .



لسان الدين بن الخطيب : عالم ، كاتب ، شاعر ، وشاح ، زجال . وقد نستطيع أن نعدّه في المصدر من علماء عصره وكتابه ؛ ولكن حكنا على شعره ، يجب أن نعهد له بتأديج منه ، حتى نهيم للقارئ الكريم أن يتأمننا في تعرف حقيبات الحكم ؛ فنقول : قال المعري في فتح الطيب :

« ومن أبدع ما صدر عن لسان الدين رحمه الله تعالى ، لا مينته المشهورة ، التي خاطب بها سلطانه حين عاد من المغرب الى الأندلس ، وأعاد الله تعالى عليه ملكه الذي كان خلق منه .

ويقال إن السلطان أمر بكتب هذه القصيدة على قصوره بالجرا ، إعجابا بها ، وإنها إلى الآن لم تزل مكتومة تلك القصور التي استولى عليها العدو الكافر ، أمادها الله تعالى للإسلام . وأول هذه القصيدة :

الحق يعلو ، والأباطل تسفل والله عن أحكامه لا يسأل

قال لسان الدين رحمه الله تعالى : نظمها للسلطان ، أسعده الله تعالى ، وأنا بمدينة سلا ، لما انفصل طالبا حقه بالأندلس ، كان صنع الله تعالى براعة استهلالها ، ووجهت بها إليه إلى رعدة قبل الفتح ، ثم لما قدمت أشدتها بعد الفتح وفاء بندرى ، وصميتها : المنع الغريب ، في الفتح الغريب . ومنها :

وإذا استنحالت حالة وتبدلت	فأله عز وجل لا يتبدل
واليسر بعد العسر موعود به	والعسر بالمرج الغريب موكل
والمستعبد لما يؤمل ظافر	وكفناك شاهد : قيدوا وتوكلوا !
أحمد والحمد منك صعبة	بجليلها دون الوري تتجمل
أما سعورك ، فهو دون منازع	تقد بأحكام القضاء مسجل
وذك السجيا للفر والقيم التي	بغريبها يتمثل المتمثل
وذك الوفا إذا تزلزلت الرجا	وهفت من الروع المصائب المثل
هوذكك ما استطعت فانه	قد تنقص الأشياء مما يكمل
ناب الزمان إليك مما قد جنى	والله يأمر بالكتاب ويضبل
إن كان ماض من زمانك قد مضى	باساءة ، قد سرك المستقبل

وهي طوية ، وكلها من هذا الطراز .

وعندي أن هذه المعلقة على الطراز الحديث ، التي انعقد إجماع الملك والرعية ، على روعتها وعلى الإعجاب بها ، وتحدث عنها ناطقها مباهيا تباها ، لو قالها أحد مخضرمي طلبة الشيخ الجليلي بالقسم العام ، نصب عليه شؤوب تلجى من النقد اللاذع ، والسخرية الآلية ، ولكانت منبتا خصبا للسكتة والتندر على الأيام . وحسبى أن أضع للقارى الكريم خطأ ، تحت : والأباطل تسفل ، وتحت قضية : والله عز وجل لا يتبدل ، وتحت : قيدوا وتوكلوا ، التي أشار بها إلى الآخر الشريف : اعقلها وتوكل ، فأخطأ لغة النبوة ولغة الشعر معا ، وتحت : فهو دون منازع عقد بأحكام القضاء مسجل ، وتحت : وهفت من الروع المصائب المثل ، وتحت : قد سرك المستقبل ، إذ قد جرد فيه الجواب المفروق بقدر من الفاء ، وهو خطأ . الخ .

ولأندرى ، كم يلهى أن أقيم في الخلقاء ، حتى أقنع نفسي ، بأن قائل مثل هذه القصيدة ، جدير بلقب : إمام النظم والنثر في الملة الإسلامية غير مدافع ، ويمس ! إنه من العلامة ابن خلدون ١١ .

فأما موشحات ابن الخطيب ، فهي - بلا ريب - أروع طليقة من شعره ؛ ولا غرو ، فإن دولة الموشحات ، قامت على اقتراض دولة الشعر ، ولم تزدهر ويطرد رقيها إلا في النصف الثاني من القرن الخامس ، بعد أن مضى لحول شعراء الأندلس ، مع أن ابتكار الموشحات - كما قالوا - يرجع فضلُه إلى مُقدم بن معافر القريري مؤلف شعراء الأمير عبد الله بن عبد المرواني ، (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) . ولو استطنعنا أن نصدق ابن خلدون في أن ابن عبد ربه قد أخذ عن مقدم فن الموشح ، ولكن لم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر ، وكسفت موشحاتهما ، فأننا لا نستطيع أن نعلل عدم معالجة أمثال ابن هاني ، والرمادي ، وابن زيدون ، وابن خفاجة ، وأضرابهم من كبار الشعراء ، نظم الموشحات ، إلا بأن ضعف الشعر ، ووقوفه ، كان حاملا من عوامل نهوض الموشحات ، إلى حاجة الغناء الملحة ، إلى تيسير انطلاق ألسنته ، في آفاق أرحب من آفاق البحور الخليلية ؛ ويؤيده حال العصر الحاضر ؛ فقد أصبح عصر الموشحات والأزجال ، بعد أن وقف الشعر ، وذهبت ريحه ، ونذر الإقبال عليه .

ولابن الخطيب كثير من الموشحات ، أشهرها موشحته التي طارح بها موشحة ابن سهل الاسرائيلي ، وكنائهما معروفة ؛ ومنها موشحته التي يقول في مطلعها :

رب ليل ظفرتُ بالبدر ونجوم السماء لم تدر  
حفظ الله ليلنا ورعى أي شمل من الهوى جما  
غفل الدهر والرقيب معا ليت نهر النهار لم يجبر  
حكم الله لي على الفجر

\*\*\*

ومن أبدع موشحاته :

كم ليوم التفراق من غصة في فؤاد العميد  
نرفع الأمر فيه والقصة للولي الجيد

\*\*\*

رحل الكعب قطع البعيدا سفين النياق  
كل وجناه تتلع الجيدا وتبذل الرقاق  
حببت ليلة اللقاء عبداً فهي ذات احتياق  
صالحات لا تقبل الرخصة قبل فطر وعيد  
فهي منذ أمته مختصة بجهاد جهيد

\*\*\*

فأما الأزجال، فليس لها في ديوان الشعر حساب .

نعود من هذه الشطحة فتساءل : لماذا كان حكم ابن خلدون على أدب ابن الخطيب فضفاضاً على خلاف ما عرف عنه من دقة النظر، وتحري مواقع الصواب ؟

\*\*\*

ابن خلدون أحدث سنا من ابن الخطيب، وأرفع منه جاهاً في الأندلس، وفي غير الأندلس، وأوسع منه حيلة وتصرفاً في بلاده، وفي غير بلاده . وقد تفصل ابن الخطيب فقرح لابن خلدون، في كتابه « الإحاطة في تاريخ غرناطة » ترجمة حافلة بالبناء، جاء فيها : « عبد الرحمن ابن عبد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي، من ذرية عثمان أخي كريب، المذكور في نهج نوار الأندلس، ويلقب سلفهم الى وائل ابن حجر، وحاله عند القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة، وانتقل سلفه من مدينة إشبيلية عن نباهة وتمتين وشهرة، عند الحادثة بها أو قبل ذلك، فاستقر بنونس منهم ثاني المصدين : محمد بن الحسن، وتماثلوا على حشمة ومراوة ورسوم حسنة، وتصرف جند المترجم به في القيادة، وأما المترجم به فهو رجل فاضل، حسن الخلق، جم الفضائل، باهر الغصائل، وقيع القدر، ظاهر الحياء، أميل المجد، وقور المجلس، خاصي الرئي، عالي الهمة، عزوف عن الضيم، صعب المقادة، قوي الجأش، طامح لقن الرئاسة، خاطب للحفظ، متقدم في فنون عقلية وتقلية، متعدد المزايا، سديد البحث، كثير الحفظ، صحيح التصور، بارع الخط، مفرى بالنجدة، جواد، حسن العشرة، مبذول المشاركة، مقيم لرسم التعين، ما كلف على رعي خلال الأصالة، مفض من مفاخر الترخوم المغربية .. الخ . الى أن قال : « وأما أثره وسلطانياته السجعية، فخصج بلاغة، ورياض فنون، ومعادن إبداع، يفرغ عنها براعه الجري، شبيهة البدايات بالخطوات، في ندادة الحروف، وقرب العهد بجزيرة المداد، وتقوذاً أمر القريحة، واسترسال الطبع . وأما نظمه، فنهض لهذا العهد قسماً في ميدان الشعر، ونقده باعتبار أساليبه، فاشال عليه جوده، وهان عليه صمبه، فأثنى منه بكل غريبة » . اهـ

ثم أورد - بعد هذا - كثيراً من قصائده، منها قصيدته المشهورة، التي مطلعها :

أسرفن في هجري وفي تمذيبي      وأطلن موقف عبرتي ونحيبي  
وأبين يوم البين موقف ساعة      لوداع مشخوف الفؤاد كنيبي

وقد خاطب بها ملك المغرب ليلة المولد الشريف عام ٧٦٢، ومنها :

ياسيد الرسل الكرام ذراعة      تقضى مني تقضى، وتذهب حوبي  
طقت ذنوبي عن جنابك، والمني      فيها تعلني بكل كذوب



لا كالألى صرفوا الزائم للتي      فاستأثروا منها بخير نصيب  
لم يخلصوا الله حتى فرقوا      في الله بين مضاجع وقلوب  
ومن قصائده ، قصيدة خاطبه بها عند وصول هدية ملك السودان إليه ، وفيها الزرافة ؛  
جاء منها في وصفها :

ورقية الأعطاف حالية      ووشية بوشائع البرد  
وحشية الأنساب ما أنست      في موحش البيداء بالقرود  
نسمو بجيد بالبح صعدا      شرف الصروح تغير ما جهد  
طالت ردوس الشاعشات به      ولربما قصرت عن الوهد  
قطعت إليك تنائما وصلت      إسآدها بالنص والوخد  
تحدى على استصحابها ذللا      وتبيت طسوع القرن والقند  
وشعر ابن خلدون ، أرفع طبقة من شعر ابن الخطيب ، شاعر الملة الإسلامية غير مدافع !

\*\*\*

وأما بعد - فمن جملة ما تقدم ، نعرف أن رأى ابن خلدون في ابن الخطيب ، من باب مرغان  
الجميل ، وتقارض الثناء ؛ وذلك أبلغ عيوب تأريخ الأحياء ما

عبد الجواد رمضان

المدرس بكلية اللغة العربية

## معرفة الاقدار فضيلة

قال جعفر بن سليمان : سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول : ما رأيت أحدا أفسط من  
شعية ، ولا أعبد من سفيان ، ولا أحفظ من ابن المبارك .  
وقال : ما رأيت مثل ثلاثة : عطاء بن أبي رباح بمكة ، وطاوس ومحمد بن سيرين بالعراق ،  
ورجاء بن حيوة بالشام .

وقيل لأهل مكة : كيف كان عطاء بن أبي رباح فيكم ؟

فقالوا : كان مثل العافية التي لا يعرف فضلها حتى تفقد .

ومن العجب أن عطاء بن أبي رباح هذا كان أسود أعور ، فطس أشل ، أعرج ، ثم هي ،  
وأمه سوداء كانت تسمى بركة . فانظر كيف ستر جمال روحه كل هذه العيوب الجذابة فيه ؟  
وأنجب من هذا تقدير الناس للفضائل حتى شبهوه بالعافية .

## بَابُ الاسْتِئْذَانِ وَالْفَتْوَى

### رؤية الطبيب المرأة الأجنبية

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :  
ما قولكم فى امرأة توفيت واشتبه فى وفاتها أنه حصل جنائى أو عن مرض وبائى عام ،  
ولا يكشف الأمر فى ذلك إلا رؤية الطبيب لها ، فهل يجوز الكشف عليها من طبيب أجنبى  
لإقرار العدالة فى مقرها أو لدفع شر الوباء عن المجتمع ؟ والمفروض أن ليس فى النساء من  
يقوم بهذه المهمة .

نرجو تبين حكم الشرع الإسلامى فى ذلك .  
على أحمد حامر  
خان الخليلي — القاهرة

#### الجواب :

من القواعد المقررة فى الشريعة الإسلامية ، وخرج عليها الأئمة فى جميع المذاهب كثيرا  
من الجزئيات والوقائع ، قاعدة « الضرورات تبيح المحظورات » .  
ولا ريب أن معرفة سبب الوفاة عند الاشتباه فيه بمرض وبائى أو حادث جنائى ، شأن من  
الشئون الضرورية التى تهتم بها الشريعة ، حفظا للدماء من الإهدار ، ووقاية للناس من الأمراض  
الوبائية .

ونناء عليه : ترى اللجنة أنه يجوز للطبيب أن يرى هذه المتوفاة لوقوف على أسباب  
وفاتها ، كما يجوز فى حال حياتها أن يرى منها ما تدعو اليه الضرورة للتداوى ونحوه من  
الواجبات إذا لم يوجد من النساء من يستطعن القيام بهذه المهمة .  
ولا بد فى الحالتين أن يكون لخص الطبيب مقدرا بقدر الضرورة التى تحقق الفرض  
المقصود . والله أعلم .

### فى الرضاع

وجاء الى اللجنة أيضا :

رجل تزوج ابنة عمه وورث منها بطفلين ، أحدهما نوق وهو الذكر ، والاخرى باقية على  
قيد الحياة ؛ وبعد مضي أكثر من أربع سنوات على زواجه أخبرته والدته أنها أرضعت أخت  
زوجته التى فكبر عنها بستين على أخيه الذى يكبر عنه بستين أيضا .  
فهل تحرم عليه هذه الزوجة بسبب هذا الرضاع ؟  
حسن على النحاس

## الجواب:

إنه لا عبرة بإخبار الأم وحدها بالرضاع في مثل هذه الحالة ؛ وإذا فرضنا ثبوت هذا الرضاع بطريقه الشرعى فإنه لا يكون مستوجبا تحريم هذه الزوجة على زوجها .  
وبناء عليه : فإن الزوجية بينهما لا تزال صحيحة وقائمة لا أثر لهذا الرضاع فيها . والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد المطلب الفحام

## الاشتراك في الكتب

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى

ما قول فضيلتكم في الكتب التي ندفع اشتراكها قبل أن تطع وننظرها الى تمام الطبع ،  
فإن بعضهم يقول إنه حرام . فنرجو إيذاء رأيكم في هذا الموضوع على صفحات مجلة الأزهر .  
أبقاكم الله ذخرا للإسلام والمسلمين بمنه وكرمه ؟ جزيرة النجدي — إبراهيم سيد نصار

## الجواب:

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

أما بعد : فقد وصلني خطابك ، وأكتب هذا من غير بحث ولا مراجعة ، بمتكئة نفسي بأن  
الاشتراك في الكتب التي تطبع لا شيء فيه ، فإنه داخل في بيع الموصوف المعروف ولو إجمالا ،  
ومدة الطبع تكاد تكون معلومة بالعرف والعادة ، ودين الله يمر . وليس هناك مفسدة تترتب  
على مثل هذا . فروح الشريعة لا تأباه مادام خاليا من الضرر والأذية في غالب الأحوال . ويكون  
غلبة الظن . وهذا هو الأليق بالشريعة السمحة . وهذا ما حضرني في الوقت . والسلام عليكم  
ورحمة الله ؟

يوسف الدجوى

عضو جماعة كبار العلماء

## جمال الدين بن هشام

النحوى المصرى

فدث من الافذاذ ، وعلم من الاعلام ، تحرك في عصر الركود ، وأضاء في عهد الظلمات ، ورفع اسم مصر فوق الاسماء .

ولد هذا الرجل العظيم بمدينة القاهرة سنة ثمان وسبعمائة ، أى في مفتتح القرن الثامن الهجرى ، ومات بها في سنة إحدى وستين وسبعمائة ، ودفن خارج باب النصر ، ولا يزال قبره ظاهرة الى الآن في نقطة يتعرض فيها للاسطدام بعربات نقل الاحجار النازلة من المقطم أو الصاعدة إليه . ولو أنصف هذا الرجل لخلد ذكره بين كبار الرجال ، ولصين قبره من الابتذال ، ولحفظ عليه من الدور والزوال .

لو لم يكن لجمال الدين بن هشام غير كتابه المسمى « مفى اللبيب عن كتب الاعراب » لكتبى به أثر يرفعه الى مقام عظماء الرجال ، فكيف يكون الحال إذا علمنا أن لهذا الرجل كتباً قيمة في أمهات الكتب كما سترى فيما بعد ؟

تتناثر كتب جمال الدين بن هشام بميزتين : أولاها الابتكار ، وثانيتهما التجرد من الصفات التى تخرج من دائرة علم النحو ، والى أقصاها النحاة فيه بلا موجب ولا مبرر . فبن هشام من هاتين الناحيتين يعتبر معلماً ، بل قل إن شئت : إنه خالق بأن يطلق عليه اسم ( المعلم الاول ) ، فقد كان على تأخر زمانه ( أنحى من سيبويه ) بشهادة ابن خلدون نفسه .

ولتوضيح هذا نأتى هنا ببعض عباراته التى أوردها في خطبة كتابه ( المفى ) :

قال رحمه الله تعالى : « واعلم أنى تأملت كتب الإعراب فإذا السبب الذى اقتضى طولها ثلاثة أمور : أحدها التكرار ، فإنها لم توضع لإفادة القوانين الكلية بل للكلام على الصور الجزئية ، فترام يتكلمون على التركيب الممين بكلام ثم حيث جاءت نظائره أعادوا ذلك الكلام . » ثم قال : « والأمر الثانى » إيراد ما لا يتعلق بالإعراب كاللحاح فى اشتقاق ( اسم ) ، « أهو من السمة كما يقول الكوفيون ، أم من السمو كما يقول البصريون ، والاحتجاج لكل من الفريقين ، وترجيح الراجح من القولين » . « كاللحاح على ألفه ( يعنى ألف اسم ) لما حذف من السمة خطأ الخ » . ثم قال : « والثالث ( أى الأمر الثالث ) » إعراب الواضحات كالمبتدأ وخبره ، والفعل ونائبه ، والجار والمجرور ، والعاطف والمطوف الخ » .

أقول : والناظر فى فهرس مواد كتاب المفى هذا يرى أن الباب الاول منه ( فى تفسير المفردات وأحكامها ) إنما هو معجم نفيس مرتب على حروف ألف باء لمراجعة ما يعرض

للمشتغل بالإعراب من الألفاظ والعوامل . وهذا الباب النفيس يستغرق الجزء الأول من الكتاب ، وقسماً لا بأس به من الجزء الثاني .

وما أظن أن جمال الدين بن هشام قد سبق إلى هذا ؛ ومن سئم تحكّم له بالابتكار والاجتهاد ، فهو من هذه الناحية أمة وحده ، بل لا نبالغ إذا قلنا : إنه ( إمام مجتهد لا مقلد في علم النحو ) .

ويمحسّن في بعد ذلك أن أجيب على ترجمته فأقول :

هو عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري ، الشيخ جمال الدين الحسني النحوي ، الفاضل العلامة المشهور أبو محمد . ولد في دى القعدة سنة ثمان وسبعمائة ، ولزم الشهاب عبد اللطيف بن المرحل ، وقرأ على ابن السراج ، وسمع على أبي حيان ديوان زهير ابن أبي سلمى ، ولم يلازمه ولا قرأ عليه غير هذا الديوان ، وحضر دروس التاج التبريزي ، وقرأ على التاج الثاكناني ، وتفقه للشافعي ، ثم تحبّل لحفظ مختصر الخرق من كتب الحنابلة في دون أربعة أشهر ، وذلك قبل موته بخمس سنين . وأتقن رحمه الله العربية ففاز الأقران بل الشيوخ ، وحدث عن ابن جماعة ، وتخرج به جماعة من أهل مصر وقبرم ، وتصدوا لنفع الطالبين ، وانفرد بالفوائد الغريبة ، والمباحث الدقيقة ، والاستدراكات العجيبة ، والتحقيق البارع ، والاطلاع المرط الواسع ، والافتقار على التصرف في الكلام ، والملكة التي كان يتمكن من التعبير بها عن مقصوده بما يريد ، سهياً وموجزاً ، مع التواضع ، والبر والشفقة ، ودماثة الخلق ، ورقة القلب ، ولين الجانب .

قال ابن خلدون : « ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أمحي من سيوفه » .

وكان ابن هشام كثير المخالفة لأبي حيان ( مع أن أبا حيان رحمه الله من أكبر علماء العربية في ذلك العصر ) ، بل لقد قرأ عليه صاحبنا ديوان زهير بن أبي سلمى كما أسلفنا في صدر هذه الكلمة .

أما مصنغات ابن هشام فهي : ( مفتي القليب عن كتب الأمازيغ ) ، ( التوضيح على الألفية ) في مجلد ، ( دفع الخصاصة ) في أربعة مجلدات ، ( عمدة الطالب في تحقيق تعريف ابن الحاحب ) في مجلدين ، ( التحصيل والتفصيل ) في عدة مجلدات ، ( شرح التمهيد ) ، ( شرح الشواهد الكبرى ) ، ( القواعد الكبرى ) ، ( القواعد الصغرى ) ، ( شذور الذهب وشرحه ) ، ( قطر الندى وشرحه ) ، ( الجامع الكبير ) ، ( الجامع الصغير ) ، ( شرح الملحّة لأبي حيان ) ، ( شرح بافت معاد ) ، ( شرح البردة ) ، ( كتاب التدكرة ) في خمسة عشر مجلداً ، ( المسائل السفريّة في النحو ) ، وفوق ذلك عدة حواش على الألفية والتمهيد .

ولابن هشام شعر جزل ، فن ذلك قوله :

ومن يصطبغ للعلم ينظر بذبله      ومن يختطب الحسناء يصير على البذل

ومن لا يذل النفس في طلب العلا      يسيرا يمش دهرها طويلا أبا ذل

توفي ابن هشام في ليلة الجمعة خامس ذي القعدة سنة إحدى وستين وسبعمائة . ولقد رثاه ابن نباتة الشاعر المشهور بقوله :

سقى ابن هشام في الثرى نوره رجة      يجسر على منواه ذيل غمام

سأروى له في سيرة المدح مشدداً      لما زلت أروى سيرة ابن هشام

أقول : وقد دفن هذا المفرد العلم في قبر متواضع خارج باب النصر ، الى يسار الخارج من هذا الباب ، عند ملتقى شارع باب النصر المؤدى الى قرافة باب النصر الى بين الداخل من ذلك الشارع ، وهو في نقطة مرور مررات تقل الاحجار ، وكثيرا ما تصطدم به في ذهابها وإيابها .

ويجب حتما على أهل الأزهر الذين يعدون المدة للاحتفال بعيد جامعتهم الآلى ، أن يزوروا قبر هذا الرجل العظيم ، وأن ينقلوا رفاقه الى مكان آخر أكثر لياقة به وبمكانته ، أو يحيطوه على الأقل بسياج يمنع اصطدام العربات به ، ويحمله في مظهر يلقي بمقام ساكنه . على ساكنه ورحمة الله ورضوانه ؟

مصطفى عبد الحميد أبو زبير

## تحديد البلاغة

قيل لبليغ : ما البلاغة ؟

قال : يجيز الكلام ، وحذف الفضول ، وتقريب البعيد .

وقيل لطلبيب : ما البلاغة ؟ قال : أن لا يؤثرى القائل من سوء فهم السامع ، ولا يؤثرى

السامع من سوء بيان القائل .

معنى هذا أن البلاغة تقتضى أن يكون الكلام مرتباً مترابطاً بحيث لا يفهم على السامع ، وأن يكون بيئاً واضحاً بحيث لا يعجز عن تبينه فهم السامع ؟ والثبته في كلتا الحالتين واقعة على القائل .

وقال معاوية لصهار العبدى : ما البلاغة ؟

قال محار : أن تجيب فلا تبطل ، وتصيب فلا تخطى . ثم قال : أقلنى يا أمير المؤمنين .

قال معاوية : قد أقلنتك .

فقال محار : البلاغة أن لا تخطى ولا تبطل .

كأنه شعر أنه زاد في الالفاظ ما لا حاجة اليه وهو ضد البلاغة ، فحذف الريادة .

# دراسات في القرآن الكريم

## تاريخ علم التفسير

وإذا قد فرغنا من إثبات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر القرآن ، فننتقل الى بيان طبقات المفسرين . ويمكن حصرها في أربع طبقات :

الأولى : طبقة الصحابة والتابعين وأتباع التابعين .

الثانية : طبقة المحدثين ، وهم الذين صنفوا التفاسير بطريق التحديث والإسناد ، وأوردوا أقوال الصحابة .

الثالثة : المعسرون من أهل السنة الذين صموا التأويل الى التفسير ، فتكلموا على معاني القرآن وأحكامه وإعراجه وبلاغته وإعجازة وما فيه من تشبيهات واستعارات ، وربط آية بعضها ببعض وغير ذلك .

الرابعة : طبقة المفسرين من غير أهل السنة كالمعتزلة والشيعة وغيرها .

أصحاب الطبقة الأولى هم الذين يسمون بحق مفسرين ، وكذلك أصحاب الطبقة الثانية ، وإن كان أكثر العلماء يسمونهم « نقلة » . أما أصحاب الطبقة الثالثة « مؤولون » ، ولهذا يسمون كتبهم غالباً بالتأويل . وأما أصحاب الطبقة الرابعة ، فمنهم مفسرون وهم الذين شايخوا علياً كرم الله وجهه في عصره ، فلم يدخلوا في تفسيرهم أحكاماً استنبطوها ، ولا مسائل ابتكروها ، مما يكسب تفسيرهم صفة التأويل ؛ ومنهم « نقلة » وهم المتأخرون عن هؤلاء الذين رووا تفسيرهم بطريق الإسناد والتحديث ( وإن كانت أسانيدهم مقصورة على أهل البيت ) ؛ ومنهم مؤولون وهم الجبهة المتأخرة عن عصر التابعين وأتباع التابعين ، وهؤلاء لهم في تأويلهم واستنباطهم الأحكام ، وبيانهم معاني القرآن ، أسلوب خاص وطابع خاص ، سنعرض له فيما بعد . وهذا التقسيم خاص بالشيعة . أما المعتزلة فكلهم مؤولون ، ولم كذلك في تأويلهم أسلوب خاص ينفق وما قرروه من مبادئ ، مخالفين في ذلك مبادئ أهل السنة .

نعود الآن الى الكلام على الطبقة الأولى مبينين طريقتهم في تفسير كتاب الله تعالى ، وأرى هنا أن أنبه القارئ الى ما سبقت الإشارة إليه في مقالاتنا في العام الثالث ، من أن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتخرج من تفسير كلام الله تعالى خوفاً من الخطأ فيه . وما هو شيخهم الجليل أبو بكر الصديق ، وقد سئل عن تفسير حرف من القرآن ، يقول :

« أي سماء تظلني ، وأي أرض تقلني ، وأين أذهب ، وكيف أصنع إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى » ١٢

قال ابن عطية : وكان جملة من السلف كسعيد بن المسيب ، وطاهر الشعبي وغيرها يعظمون تفسير القرآن ، ويتوقفون عنه تورط واحتياطاً لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم . قال أبو بكر الإبراري في تعليل ذلك : « وقد كان الأئمة من السلف يتورعون عن تفسير ( المشكل ) من القرآن ، فبعض بقدر أن الذي يفسر لا يوافق مراد الله تعالى فيحجم ، وبعض يشفق من أن يجمل في التفسير إماماً يبنى على مذهبه ، ويقتنى طريقه ، ولعل منأخراً أن يفسر حرفاً برأيه ويخطئ فيه ويقول : إمامي في تفسير القرآن بالرأي فلان الإمام من السلف » اهـ .

ومن هنا ياتضح السبب في توقف بعض الصحابة عن التفسير مع أنهم الأئمة المبرزون ، وهم الذين ماصروا الرسول صلوات الله عليه ، وتشرفوا بصحبته ، وتلقوا العلم منه في محالسه . ونحن نحمد الله سبحانه وتعالى على أن هذه الفكرة - على سموها - لم تنغلغل في نفوس جميع الصحابة فلم يحسكوا عن تفسير القرآن فيقع من يعدم في غاية الحرج والمشقة ، بل كان من لطف الله سبحانه وتعالى أن هياً جبهة من الصحابة لتفسير القرآن ، فتمشوا مع قول النبي صلى الله عليه وسلم : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » . قال الخطيب أبو بكر أحمد بن علي البغدادي : وهذه شهادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم أعلام الدين ، وأئمة المسلمين ، لحفظهم الشريعة من التحريف والانتحال للباطل ، ورد تأويل الأبله الجاهل ، وأنه يجب الرجوع إليهم ، والتعويل في أمر الدين عليهم » اهـ . فكان ذلك من رحمة الله تعالى بالأمة الإسلامية على اختلاف طبقاتها في جميع العصور .

ومن المبرزين في التفسير من الصحابة : عبد الله بن عباس ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله ابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وعبد الله بن الزبير ، وأنس بن مالك ، وبأهريزة ، وجابر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وغيرهم ، رضي الله عنهم أجمعين .

ومن المبرزين في التفسير من التابعين :

أولاً — أصحاب عبد الله بن عباس ، وهم علماء مكة . ومن مشاهيرهم : مجاهد بن جبر المكي ، المتوفى سنة ١٠٣ هـ ، واعتمد على تفسيره الإمام الشافعي والبخاري ، ومنهم سعيد ابن جبير ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وطاوس بن كيسان ، وهطاء بن أبي رباح ، وغيرهم .

ثانياً — أصحاب عبد الله بن مسعود ، وهم علماء الكوفة . ومن مشاهيرهم : حلقمة بن قيس ، والأسود بن زيد ، وإبراهيم النخعي ، والشعبي وغيرهم .



ثالثا — أصحاب زيد بن أسلم ، ومن مشاهيرهم : عبد الرحمن بن زيد ، ومالك بن أنس ، والحسن البصري ، وعطاء بن أبي سلة ، وأبو العالية رقيق بن مهران اليربوعي ، والضحاك بن مزاحم ، وعطية بن سعيد ، وقتادة بن دحامة السدوسي ، والربيع بن أنس ، وغيرهم .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسرون القرآن على نطق تفسير الرسول ، فكانوا يبينون الأحكام ، ويروون السنة المخصصة للعام ، والمقبضة للمطلق ، وكانوا أعلم الناس بالناسخ والمنسوخ ، والمحكم والمتشابه ، وغير ذلك من علوم القرآن . ولا عجب ، فهم أصحاب الرسول ، وأصحاب محاله ، وهم الذين تلقوا عنه صلى الله عليه وسلم بالمشافهة ، وهم أصحاب الحوادث والوقائع التي كانت أسبابا في نزول القرآن مقررا أحكامها ، فهم أعلم الناس بمد رسول الله بكتاب الله وبسنة رسوله . وكثيرا أقرم الرسول صلوات الله عليه وسلامه على أحكام استنبطوها بمحضته ، على رأى من يقول من الأصوليين بمجاوز اجتهاد الصحابة بمحضته صلى الله عليه وسلم ، وهم كثيرون من الأصوليين ، واستدل لهم ابن الحاجب في مختصره ، وأورد أقوال المخالفين ورد عليها . ولهم في هذا جدل وحجاج ليس هذا موضعه . وكل ما أريد أن أقوله هو أن الصحابة رضوان الله عليهم تخرجوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأدبوا بأدابه ، واهتدوا بهديه ، واستنوا بسنته ، وتعلموا طريقة تخرجه وإفاته ، وحفظوا سنته .

فلا عجب أن كان تفسيرهم للقرآن على نطق تفسيره ، كما سنعلم من النماذج التي سنوردها لك فيما بعد .

نعم إن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كان يستند في تفسير غريب القرآن على شعر العرب ، فكان يسأل عن الكلمة من القرآن فيقول : هكذا وهكذا ، أما سمعت الشاعر يقول كذا وكذا ؟ ومن ذلك أنه سئل عن قوله تعالى : « ذواتا أفنان » قال : ذواتا ظل وأغصان ، أما سمعت قول الشاعر :

ما هاج شوقك من هديل حمامة      تدهو على فنق الغصون حماما  
تدعو أنا غرخين صادف طائرا      ذا مخيلين من الصقور قطاما

والمراد بغريب القرآن ما يوجد فيه من الألفاظ البعيدة المعنى عن أفهام العامة كلفظ أفنان مثلا ، فقد لا يوجد في العامة ولو كانوا عربا خلعا أن يعرفوا أن معناه أغصان وأنه جمع فنن .

وتفسير غريب القرآن بالشعر ليس بدعا ، إذ غريب القرآن هو غريب اللغة ، والشعر ديوان العرب . وقد طال بنا القول ، فلنرعى\* إيراد النماذج الى مقال آت ، والله الموفق .

## مستقبل الدين

دحض شبهات ودفع ظنون وأوهام

إنها والله لبدعة المصير، ومرض الباحثين في هذه الأيام، أن يصع في العلم صليح المصير، يتنبأ بمستقبل العلم والاجتماع البشرى، ويستطلع الغيب في النظم القائمة والاحوال الجارية، ليس هذا مما يصح، لأن العالم الأدبي — كما يقول الدكتور جوستاف لوبون — كالعالم الحسى، مستير بنواميس ثابتة لا تقهر؛ وأما ما نسميه مصادفة واتفاقاً، فليس سوى سلسلة طويلة من العلل غير المتناهية التي لا نعرفها؛ وإن اشتباك هذه العلل يجعل كل تكهن صريح فيها مستحيلًا، إذ الإنسان لا يصح أن يتوصل إلى تفهم الحوادث الاجتماعية قليلاً، ولا إلى كشفها قبل وقوعها، إلا إذا بحث عن كل عامل في تكوينها على حدة، ثم عن التأثير المتبادل لهذه العوامل؛ وعند ما يكثر عدد العناصر المؤثر بعضها في بعض، فإن العالم الحاضر يصرح بعجزه عن اكتشاف نتيجتها القاطمة.

ويقول الدكتور لوبون: إن الإنسان مسير بالبيئة والاحوال التي تحيط به، ولا سيما عزائم الأموات، أى بالقوى الارثية الخفية الحية فيه، فهذه القوى متسلطة على أكثر أعمالنا، وعلى نسبة خفائها تكون قوتها، وأما أفكارنا الشخصية فلا تؤثر إلا في الأجيال التي لم تحلق بعد. ولما كانت أفعالنا صادرة عن ماض بعيد، فإن جميع نتائجها لا تقع إلا في مستقبل لا نراه. ثم إن الساعة الحاضرة هي التي لها قيمة عندنا، مع أن هذه الساعة لا قيمة لها في حياة الإنسان الطويلة. وإنه ليستحيل علينا أيضاً أن نقدر الحوادث التي تقع أمامنا حق قدرها، لأن تأثيرها في مصيرنا يدفعنا إلى المبالغة في بيان أهميتها. وما أشبه هذه الحوادث بالأمواج الصغيرة التي تحيا وتموت على سطح النهر من غير أن تؤثر في مجراه.

نعم إن الإنسان يسعى دائماً في كشف الغطاء الذي يحجب عنه المستقبل الكثيف؛ وإن ذلك لفريضة متمكنة من طبعه؛ والفلاسفة أنفسهم لم يكبحوا جماهم عن هذا التطلع؛ ولكنهم — على الأقل — يعرفون أن نبوءاتهم ليست سوى فروض مشتقة عن حوادث الماضي المتشابهة، أو مستخرجة من أخلاق، لأمم؛ كما أنهم يعرفون أن أصدق النسوءات في ظاهرها هي الخاصة بمستقبل قريب؛ وإن من الممكن أن يكذبها كثير من الحوادث المجهولة؛ ومن ثم فإن النفس العلمية لا تقدر على الاتيان بنبوءة اجتماعية صادقة خاصة بالمستقبل البعيد؛ وكيف تقدر على الإتيان بالمستقبل ونحن نمجهل كل شيء في العالم الذي نعيش فيه، ونصطدم بمحدار يتعذر خرقه عند ما نريد كشف علة الحوادث والبحث عن الحقائق الهجوية خلف الظواهر؟

إننا نسح عمياً في بحر محيط من الأمور المجهولة ؛ وإنما نرى أحياناً في هذا الفضاء التامض بضغ أشعة شاردة ، أى بضغ حقائق نسجها نواميس ، وهى وإن كانت أدلة ضعيفة فمظننا لا ينفذ إلا إليها ، ولا شئ غيرها يستمد منه العلم (١) .

لقد تقدم الانسان في العلم درجات ودرجات ، ولكنه لا يزال عاجزاً عن إدراك حقيقة نفسه وما يتصل به وجوده ، وليست حياة الأمم على ما يحسب لبعض الناس ، تصنع في مكاتب السياسيين وكتب المفكرين ، ولكنها تخضع لنواميس وقوانين فوق متناول ذهن البشرى وأكبر من طاقته ؛ وإن الرجل المفكر مهما أوتي من الإحاطة وصحة العرفان وقوة الذكاء فلن يقنع من فهم العالم وإدراك الحياة إلا موقع الذبابة من تمثال « باقاريا » في تمثيل الفيلسوف الألماني ماكس نورددو ؛ وماداً ياترى يكون موقف تلك الذبابة إزاء ذلك البناء الضخم ، وماداً تكون حيرتها وتمعجها ، وماداً يكون إنكارها واستهعامها ؟ لا شك سترى الذبابة في ذلك التمثال كتلة لا شكل لها ولا مبدأ ولا نهاية ، ولا أدنى آية على عقل أو حكمة أو نظام أو غرض ؛ فإذا قبض لهذه الذبابة أن تقضى أيامها في جوف هذا التمثال وكانت ممن يستطيعون التعبير عن آرائهم ، لاوسعته طعنا وإزداء ، ولوحده من مثيلاتها من يؤمن بما تقول ويمجب به .

وثمة حقيقة لا يصح أن ننحى على ذى الخاطر اليقظ ، وهى أن الباحث مهما تحرج وتحرج ، فانه لا يستطيع أن يخلص من شعوره وهواه نحو المستقبل ؛ وإنه لن يكون في النظر الى الغد إلا على ما يشيع في جوانب نفسه من خير أو شر ، وما يسيطر على ميوله من تفاؤل أو تشاؤم ، وما يحيط به من تعقيد أو بساطة ؛ فالمفكر المتوتر الأعصاب ، الذى ينظر الى الدنيا دائماً بمظنار أسود قاتم ، يثبتك بأن نور الشمس سينطفى ، وأن آية الليل ستصحو آية النهار ، فالدنيا صائرة الى الشقاء لا محالة ، والعمران سينقلب على عقبه ، والانسانية ستعود الى الهمجية كيوم ابتدأت تاريخها على وجه الأرض ؛ وأما المفكر المبتهج النفس ، الذى يفيض قلبه بالهجة والقبطة ، وتمنئ جوانحه بالسرور والبشاشة ، فانه ينظر الى المستقبل نظيرة الشاعر الى الماء والروض والوجه الحسن ، فالدنيا في رأيه بخير وسعادة ، والعالم صائر الى جنة عرضها السموات والأرض ، وستمطر السماء ذهباً وفضة ، وستفيض الأنهار بالخير كما تفيض بالماء ، وسيتم الإخاء بين الكائنات الحية حتى ليصطحب الذئب والكلب ويتصافى القط والغار ، وويل لطالب الحقيقة من كل هذا البهتان !

ونحن إذ نحمل القلم لنكتب في مستقبل الدين فلسفاً نصنع صنيع القوم ، وإنما نحن نكتب في الموضوع مجاوبة لبعض الباحثين ، فهم يزعمون أن الوقت الذى كان الدين فيه يسيطر على المشاعر ويستولى على القلوب قد فات وانقضى ، وأن الزمن الذى كان الناس فيه يتطلعون

(١) راجع ما كتبه الدكتور لوبون عن مستقبل الاشتراكية في الفصل الذى كتبه عن مستقبل الاشتراكية

نحو السماء قد ذهب وانعجى ، وأن هدى الأنبياء والحكماء قد ضاع أثره من قرارة النفوس ، وتقد سحره من شغاف القلوب ، وإذا كان الدين في القديم قد استطاع أن يهز مشاعر الناس وأن يستبد بأهوائهم وميولهم ، حتى فنوا فيه ، وعاشوا من أجله ، وكان مظهر سلوكهم وفنهم ومدنيتهم ، فلا شك أن العلم قد حل عندم مكان الدين في هذا كله ، ذلك لأن الانسانية تجري في ارتقائها على أطوار ثلاثة كما يقول أصحاب الفلسفة الوضعية : طور الطفولة وهو الاعتقاد بأن العالم محكوم بالأرواح والآلهة ، وطور الشباب وهو البحث فيما وراء الطبيعة ، ثم طور الرجولة وهو طلب الهيئة الاجتماعية والخضوع للعقل وتفع الناس بدافع الواجب . ولا شك عندم أن الانسانية قد بلغت الطور الثالث في نضجها وتفكيرها ، فبقي الآن تسير هدى العقل وتفكيره ، وتنزل على حكمه وتقديره .

تلك هي تكهنات القوم في مستقبل الدين ، وإنها لنجد عند بعض الناس مسمعا ، وتحتل من إدراكهم موضعا ، وهذا ما حملنا على مناقشة تلك الأقوال ورددها على أهلها في حدود المسطق والعقل ، وعلى مقتضى الإدراك والفهم . ولما كان الدين من جهة اتصاله بالشاعر حقيقة وحدانية ، ومن جهة أثره في سلوك الشخص قاعدة أخلاقية ، ومن جهة سيطرته على الجماعات روحا اجتماعية ممرانية ، فنحن القول في كل هذه المساحي ما أمكن ، وسنحرى مع القوم الى آخر الشوط ما وسع الجهد ، إن شاء الله ؟ « يتبع » محمد فهمي هبر اللطيف

### التذكير بذمام متقدم

لما آلت الخلافة للأمون قال له ثمامة ابن أشرس ، وكان من جلسائه أثناء ولاية عمده : يا أمير المؤمنين كان لي أملان : أمل لك ، وأمل لك ، فأما أمل لك فقد باقته ، وأما أملى بك فلا أدرى ما يكون منك فيه .

قال الأمون : يسكون أفضل ما رجوت وأملت . وجمله من ممانه وخاصنه ولما صارت الخلافة الى هشام بن عبد الملك ، خر أصحابه الجالسون معه سجودا إلا الأبرش السكبي .

فقال له هشام : يا أبرش ما منكم أن تسجد كما سجدوا ؟

قال : يا أمير المؤمنين لأنك ذهبت عنا وتركتنا .

قال هشام : فإن ذهبت بك معي ؟

قال الأبرش : أو تفعل يا أمير المؤمنين ؟

قال هشام : نعم . قال الأبرش : فالآن طاب السجود ، ثم سجد .

## تطور التصميم والزخرفة في مساجد مصر

التصميم والزخرفة قبل قيام الدولة الطولونية

لا يمكن لكتب التاريخ وحدها أن تجلو على الباحث صورة واضحة من الحضارة الإسلامية في عصورها المختلفة ، بل نعمة مراجع أخرى أصدق في التعبير عن جلال هذه الحضارة وعظمتها . فالتأمل فيما تركه المسلمون من المساجد والقصور ، والنظر فيما خلفوه من التحف المختلفة ، يكشف قباحين عن صور مادية لهذه الحضارة تنم عن سمو ذوق هؤلاء الأجداد . نعم هذا التراث الثقي لا يضي وحده من النظر في كتب التاريخ ، ولكنه في الواقع يكملها ، ويبيّن في حقائقها روحاً تردها إلى الحياة .

ولمصر ميزة يحق لها أن تفخر بها على غيرها من الأقطار الإسلامية ، إذ هي تضم تحت سمائها سلسلة من المساجد في العصور الإسلامية المختلفة . وسنبدأ بدراسة أول مسجد أسس في مصر . ولئن كانت يد التغيير قد لعبت فعلاً بهذا المسجد حتى لم يبق من آثار مؤسسه الأول عمرو بن العاص إلا البقعة التي شيده عليها ، فإن المؤرخين قد احتفظوا لما يوصفه في مراحل نموه ، إذ أمدونا بصور متعاقبة من التغييرات التي حدثت به ؛ وما كان هذا المسجد ، عند ما اختطه عمرو في سنة إحدى وعشرين من الهجرة ، بأكثر من بناء قايّة في السجاجة ، لا يزيد كثيراً عن المساجد المبينة في قرانا اليوم إن لم يقل عنها : مساحته كانت تقرب من خمسمائة متر ، وله أبواب ستة ، وسقف وعلوّه جدا محمول على جذوع من النخل ، ومحراب مسطح .

وقد ظل هذا المسجد الصغير ينمو ويكبر طوال أيام الدولة الأموية ، وكلما ازداد عدد المسلمين في مصر وارتقت حياتهم ، وارتفعت عن سجاجة البداوة ، انعكس ذلك على مسجدهم هذا ، فاقسمت رفعتة ، وزادت أبوابه ، فأصبحت أحد عشر ، وفرشت أرضه بالحصر بدل الحصاة ، وارتفع سقفه ، واستبدلت بمجذوغ النخل حصد من الرخام ، وبدلت في تصميمه مظاهر مهارة جديدة لم تكن فيه من قبل كالمحراب المجوف والمآذن .

أما المآذن فلم تكن معروفة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، بل كان بلال يؤذن من أعلى سطح يحاور مسجد المدينة .

ولقد بنى مسلمة بن مخلد وإلى مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان لمسجد عمرو أربعة أبراج فوق أركانه الأربعة ، وجعل الوصول إليها من صراق خارج الجامع ، ونقش عليها اسمه .

أما المحراب المجوف فقد أحدثه عمر بن عبد العزيز - على قول المقرئ - عند ما أعاد

بناء مسجد المدينة . وظهر في مصر لأول مرة على يدى قره بن شريك والى مصر من قبل الوليد بن عبد الملك فى سنة اثنين وتسعين هجرية .

أما العمدة الرخامية فلم يؤثر عن المسلمين أنهم عنوا بقطعها وإعدادها ، بل كانوا يستخدمون ما تصل اليه أيديهم من عمد المعابد المهتمة . ولقد كان شأنهم فى ذلك شأن الرومان من قبلهم ، إذ كانوا يفضلون نقل العمدة اليونانية من المعابد القديمة الى معابدهم على أن يكلفوا أنفسهم مشقة حمل عمد جديدة . ولقد نسج مسلمو مصر فى ذلك على نفس المنوال الذى نسج عليه مسلمو الكوفة من قبلهم ، الذين أقاموا ظلة مسجدهم على أساطين كانت للأكامرة كما يقول الطبرى .



تسلت الدولة العباسية هذا الجامع الذى أصبح له فى النفوس مكانة سامية ، ولم نسا أن تقف عند حد المحافظة عليه ، بل وجهت إليه عنايتها ، فزادت فى رفقته حتى وصلت مساحته الى القصر الذى هو عليه الآن أى ثلاثة عشر ألفا ومائتى متر تقريبا على يدى عبد الله بن طاهر والى مصر من قبل المأمون الخليفة العباسي .

ترى كيف كان نصيب هذا الجامع قبل الأعمال العظيمة التى قام بها فيه ابن طاهر ؟ هل احتفظ بالتصميم القديم الذى كان عليه يوم أنشئ : أى ظل مسقوفاً بأكله كما كان ؟ أم صار يتكون من صحن مكشوف يحيط به من جهاته الأربع أروقة مسقوفة ؟ أم كان له تخطيط آخر ؟ هذه الاسئلة لم نظفر لها بجواب حتى الآن . سكنت عنها المؤرخون جميعاً ، ولم يكشف البحث الأثرى الذى قامت به لجنة حفظ الآثار العربية عما يحيط اللثام عن هذه الغموض .

ولكن الواقع الذى لا مجال للشك فيه ، والذى ثبت فعلاً من الأبحاث الأثرية التى قام بها الأستاذ محمود أحمد باشا مدير إدارة حفظ الآثار ، ومن التحليل الذى قام به الأستاذ كرزول أستاذ العمارة الإسلامية بالجامعة ، أن المسجد بعد زيادة ابن طاهر ، أصبح مكوناً من صحن مكشوف يحيط به أربعة أروقة يشتمل كل من الروافق القبلى والبحرى على سبعة صفوف من العقود تجمرى فى موازاة حائط القبلة ، ويتكون كل صف من صفوف الرواق القبلى من تسعة عشر عقداً تتكئ على عشرين عموداً ، كما يتكون كل صف من صفوف الرواق البحرى من عشرين عقداً ترتكز على واحد وعشرين عموداً ، ومن المحتمل أنه كان فيما بين العقود طلاقات صغيرة الغرض منها تخفيف البناء .

والرواق الشرقى به سبع طارات ، فى كل منها أربعة عقود ترتكز على خمسة أعمدة ، ونسب فى اتجاه الصفوف السابقة .

أما الرواق الغربى فيختلف عن ذلك قليلاً ، إذ به أربعة صفوف من العقود بكل صف ثمانية تتجه من الجنوب الى الشمال ( على عكس العقود الأخرى فهى تتجه من الشرق الى الغرب ) .

ولقد كان في المسجد محاريب ثلاثة : محراب وسط الحائط الجنوبي ، وواحد على سمت محراب عمرو ( في النصف الشرقي من المسجد الحالي ) ، وثالث في النصف الغربي من المسجد . ويرجح أن ارتفاع الحوائط كان يزيد على تسعة أمتار بقليل ، وأن جدار القبلة كان به سبع عشرة نافذة يقابلها مثلها في الجدار البحري . أما في كل من الجدارين الشرقي والغربي فيوجد اثنا عشر وعشرون نافذة متقابلة . وهذه النوافذ جميعا يعلوها عقد مدبب قليلا تنكس على أعمدة مندوجة من الرخام ، وبين كل نافذتين من الخارج دخله سقفها معقود مضلع وترتكز على أعمدة صغيرة من الطوب ، وقد زاد عدد الأبواب فأصبح ثلاثة عشر بابا ( خمسة في الجدار الشرقي ، وأربعة في الجدار الغربي ، وثلاثة في الجدار البحري ، وواحد في جدار القبلة ) .



هذا هو تصميم مسجد عمرو قبل قيام الدولة الطولوية . وهو وإن كان لا يطابق تماما شكل المسجد القائم الآن ، إلا أنه من اليسير جدا على الزائر أن يبين في سهولة التصميم الأصلي للمسجد ، بصرف النظر عما هنالك من تغيير . فأسس الأعمدة الباقية في الرواقين الشرقي والغربي ، وبقياء العقود النائمة في هذين الجدارين ، والنوافذ التي سدت ولكن معالمها لا تزال واضحة ، والنوافذ التي تقطعها العقود الحالية ، هذه الشواهد جميعا تنطق بأجلى بيان بما جرى لهذا الجامع من التغيير . وليس هنا مجال الإفاضة في ذلك ، فحسبنا أن نعلم أن صفوف العقود في رواق القبلة ( وهو الجزء المحفوظ بكيانه دون باقي أجزاء المسجد ) قد تغير وضعها وأصبحت الآن عمودية على حدار المحراب بعد أن كانت موازية له ، وأن وقف عند حد التصميم الذي تركه عليه ابن طاهر لأنه أساس لتصميم المساجد التي أتت بعد ذلك .

ولكن هل ظل الجامع حائلا من الزخرفة رغم اتساعه وظهور تلك العناصر المعمارية فيه ؟ لا شك أن سنة التطور قد اقتضت أن يتدرج في سلم الرقي من ناحية الزخرفة كما تدرج من ناحية التصميم . فالإنسان بطبعه يحب الجمال ويقدره ويميل إلى الشيء الجميل ويؤثره على غيره ، ولقد أشار المؤرخون إلى أن الجامع قد بيض وزخرف وذهبت تيجان بعض أعمدته ، وهذه الأقوال لا تترك مجالاً للشك في أن المسجد قد خرج عن بساطته الأولى ، فتعاوان الفنان مع البناء على إناسه حلة قديمة من الجمال اللقي ، وأضفيا عليه رواء لم يكن له من قبل .

ويرى الآب لامنس ، وبساطره الأستاذ كريزول رأيه ، أن فكرة تزيين الجوامع عامة إنما ترجع إلى زياد بن أبيه ، أحد رجال معاوية بن أبي سفيان الذين استعان بهم على تثبيت ملكه ، ذلك أن زيادا عندما أدرك للقيمة السياسية للجوامع ، ورأى أنها كانت في الواقع دار الندوة التي فيها يبسط الحاكم سياسته ، ويدعو الناس إليها ، ووجد أن للمساجد المحلية خطراً على هذه السياسة لأنها كانت مراكر تنقد فيها تصرفات الحكومة ، وتدس فيها الدسائس ، وتدبر بين جدرانها المؤامرات ، وليس من اليسير على الحكومة القائمة أن تراقبها مراقبة دقيقة

لجأ الى وسيلة يجذب بها معظم المسلمين من مساجد أحيائهم الى جامع العاصمة ، فزينه وحلاه وأصبح عليه من الزخرفة رداء جعله يكسف بروعته وأبهته مساجد الأحياء ، ويدعو الى ساحته أفواج المسلمين ، وبذلك تتاح له الفرصة لكي ينشر آراءه ، ويؤيد وجهة نظره في الحكم ، ويقيم حجته أمام أكبر عدد ممكن من رعيته .

ولئن صح ذلك فانه في الواقع لا يكفي وحده لتعليل هذا الأمر ، ولا ينهض بمفرده دليلا عليه ، ولكنه قد يكون مأملا مساعدا لحسب ، ذلك لأن مسألة زخرفة الموامع ليس فيها من الغموض ما يحمل على التماس العلل لها ، إذ هي أمر طبيعي اقتضته سنة الارتقاء . فالتدريج المألوف من شبه جزويتهم الصعراوية الى بلاد عريقة في المدنية وشاهدوا فيها الأبنية الفخمة والمآثر العظيمة ، فاقنبتسوا من زخارفها وتصميماتها مالا لم طبعهم ، ووافق رغباتهم ، وطلبوا الى فناني هذه البلاد سواء أكانوا من الذين دخلوا في الاسلام أم من الذين بقوا على دينهم أن يستخدموا مواهبهم الفنية في زخرفة جوامعهم ، فكان ذلك .

ولئن كان يعوزنا معرفة الزخارف التي ازدان بها جامع عمرو على عهد الدولة الأموية ، ولم يسمع المؤرخون رغبتنا في هذه الناحية ، فلم يصفوا لنا هذه الزخارف وصفا فنيا دقيقا ، فان الأجزاء الصغيرة من الزخرفة التي كشفت عنها الأبحاث الأثرية في هذا المسجد ، لتتضاعف قيمتها في نظرنا لأنها تعتبر في الواقع أقدم زخرفة مصرية إسلامية وجدت قائمة في مكانها .

هذه الزخارف التي كان يزdan بها الجامع على عهد ابن طاهر ، بعضها محفور على الخشب وبعضها على الجص . أما الأولى فقد وجدت على بعض الطابقي الخشبية التي تصلح تيجان الأعمدة الموجودة في الرواق البحري الى عيين الداخل ، وفي الجهة الغربية من الايوان القبلي ، كما أنها تشاهد أيضا على النوافذ الموجودة في الجدار الغربي . وهي على قلتها ليس لها شبيه في زخارف العمارة الإسلامية في مصر ، وهي تمت بصلة وثيقة الى بعض زخارف قبة الصخرة التي بناها الوليد بن عبد الملك سنة ٧٢ هـ بيت المقدس ، وقوامها فروع نباتية متموجة يتصل بها أوراق العنب ، أو حلقات حلزونية من النسات المعروف باسم شوك اليهود . ويرى الأستاذ هرسفيلد في هذه الزخرفة مثالا ناطقا على اعتماد الزخرفة الإسلامية على التقاليد الفنية السابقة على الاسلام ، لا سيما التقاليد البيزنطية .

ولقد بين الأستاذ كريزول في وضوح كيف أن هذه الزخرفة تمثل الدور الأخير من أدوار تطور ذلك المنصر الزخرفي الذي كان مألوا في الشام قبل الفتح الاسلامي بنحو قرن أو قرنين . أما الزخرفة المنصورية على الجص فتشاهد في حنية في الجدار الغربي ، ولم يثر على زخارف جصية قائمة في مكانها قبل هذه الزخرفة . ولقد ألقى اكتشافها ضوئا على المؤثرات التي استمد منها جامع ابن طولون تصميمه وزخارفه .

محمد هبيل العربي

الأمين المساعد بدار الآثار العربية



## المسلمون

### حاضرهم ومستقبلهم

ليس أحب الى نفس الغيور على المسلمين ، الراغب في نهوضهم ، الحرص على رقيهم ، من أن يتفقد مواضع الضعف منهم ، والنقص في أخلاقهم ، وينبهم اليها في تحير مواربة ولا استحياء ، ولا مسالة بما عسى أن يناله من أذى ، أو يعترضه من صعاب . والذي يأخذ نفسه بذلك إنما يكون حاله حال الطبيب الذي يظفر بموضع الداء من المريض فيصوره له ويصف العلاج ولا يكتمه شيئا ، ليكون على علم بعلمته ، ويشدد عليه في استعمال الدواء وإن كان مرًا ، ليكون من وراء ذلك الشفاء المقدور له . أما من يرى المنكر في المسلمين ويفضى عنه ، ولا تتور الحية في نفسه لدفعه ، ولا يزججه انحلال أخلاقهم ، خاشيا التهمة في نصحه ، والنحرع في عمله ، فهو كالطبيب يرى الداء يستفعل ، والعلّة تستشري ، ثم لا يصارح المريض بالخطر ، فيستبين بالأمس ، ومن وراء استهانته الهلاك والفناء . كلا الرجلين مقصر ومولوم .

لا شك أن المسلمين اليوم ، ومن زمن طويل ، في حال لا ترضى ولا تفر ، فقد امتدت غفلتهم ، بل طال نومهم ، وأريدوا على ما لا يرضاه لهم دينهم من الدل والهوان ، وطال عليهم الأمد فألفوه واستساقوه ، وأصبح الناصح المذكر غريبا فيهم ، وموضعا للسخرية منهم ، فيرميه خاصتهم وكثير من طائفتهم بشئ التهم ، حتى زهد في النصيح والتذكير من هو أهل لها ، إلا نقرأ قليلا أهمتهم أمور المسلمين ، وأزعجتهم أحوالهم ، فصبروا على ما أصابهم من أذى ، وثابروا على النصيح ، وأخلصوا في الدعوة ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الإصلاح ، ولم يبالوا بقالة السوء فيهم من حاسديهم ، وكانت جهودهم بذورا صالحة ثماء ، ولكنها ككل غراس ، في حاجة الى من ينمدها حتى تثبت وترعرع ، وتثمر ثمرتها ، وتصل الى غايتها .

المسلمون اليوم أشد ما يكونون احتياجا الى هداة ذوي بصائر نافذة ، يتلون عليهم آيات الله ، ويذكرونهم بهدى رسوله ، وسيرة أنبيائه ، وماضي سلفهم الصالح ، ويقفونهم على الفروق بين ماضيهم وحاضرهم ، ويدعونهم الى التفكير في مستقبلهم .

ألا إن المسلمين ماضيا مجيدا ، وتاريخا حافلا بالمعظم ، يعرفه المسلمون ، ويعرفه كثير غيرهم ، بل يعرفه الناس جميعا .

يعرف الناس أن الدنيا خلعت لهم بالفتح والسلطان ، ودانت لهم الأمم بالإصلاح والتدبير ، وسادت بها ثقافتهم وعلومهم ، وهذبها أخلاقهم وحكمتهم ، وأصلحتها عاداتهم وتزاهتهم ، وآمنتها قناعتهم وقناعتهم .

يعرف المسلمون ذلك ويفخرون به ، ولكن ماذا تفنى المفارقة بالماضى ، وما هى إلا كالوقوف بالأملاال ، والبكاء على الدمن ، بل ما هو إلا إفلاس من الحياة ؟ قد يفنى الماضى التليد إذا كان موصولا بمن الطريف وعظمته وسلطانه ، وليس ذلك شأن المسلمين اليوم ، فالملة بين حاضرم وماضيهم صلة ضعيفة ، فاضيهم كما أسلفنا مملوء بالجلال والمفاخر ، وحاضرم كما نرى مجز وتقصير . تقوم الدنيا وتقدم ، ويضطرم العالم بالحوادث ، ويزدهم بالأهوال ، وتتل عروش وتنحل دول ، وتفنى شعوب ، ويضطرب العالم اضطرابا سيمجز التاريخ عن وصفه ، ويسفر السفراء فى السلم والحرب ، وفى الشرق والغرب ، وموقف الأمم الاسلامية موقف يضيق المقال والمقام بالافاضة فى وصفه ، وإجماله معروف للجميع .

إن حاضر المسلمين إذا قورن بماضيهم ، خلس منهما للتأمل حال مؤسف ميبك ، غير أنى البكاء فى المصائب ليس شأن الرجال ، وإنما شأنهم الرجوع الى الصواب ، والاستفادة منها اعتبارا واستبصارا .

إن أحكم بيت قاله شاعر من المعاصرين هو قول شاعرنا شوق :

فانما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فأخلاق الأمم هى قوام وجودها ، وعناصر كيانها ، وروح حيوتها ، إذا توافرت لها توافرها كل حظ من الحياة ترحوه ، وكل سؤدد فى البقاء تتطلبه ، وكل كرامة بين الجماعات ترمى إليها .

إن الله عز وجل قد صدق آباءنا وعده ، فبانم أسرع بلاده جنابا ، وأكثر مما لكه صرانا ، وأسخطها تربة ، وأصمها مناخا ، فزادوها صرعا وصرانا ، وبلغوا بها أوجا من المدنية أرفع مما كانت فيه حتى أصبحت مطمح أنظار العالم ، يفدون إليها للاستفادة من علومها ، والافتباس من صنائعها ، والتزود من آدابها وأصولها . وقد شهد بهذا جميع المؤرخين حتى مالا تربطنا وإياهم رابطة أدبية أو مادية ، فما لما نتعرف من جادة أسلافنا ، ونكسب على شهوات نفوسنا ، ونقتساح فما لا يجوز أن يتساح فيه من الأخلاق المنافية للحياة الفاضلة ، لنضيق ما بقى بأيدينا من تراث آباءنا ، وليس هذا شأن الأمم الفاعرة بوجودها ، الهمة بتبعات حياتها ؟

« ألم بأن للذين آمنوا أن نخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » ، « وكأين من قرية هنت عن أمردها ورسله لحاسبناها حسابا شديدا ، وهذبنا عذابا نكرا . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا . أعد الله لهم عذابا شديدا ، فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا ، قد أنزل الله إليكم ذكرا » .

أبو الوفا المرافى

## التجديد والمجددون في الاسلام

الامام الاعظم أبو حنيفة — دراسات في مذهبه

### الاستحسان في مذهبه :

أنكر بعض الناس على أبي حنيفة القول بالاستحسان ، وقالوا : إنه يحلل ويحرم بالهوى من غير دليل ؛ حتى فسر هذا الاستحسان ابن حزم في كتابه « الأحكام » بأنه : ما اشتبهته النفس ووافقها خطأ كان أو صواباً . ومن أحاط بمذهب أبي حنيفة خبيراً ، علم أنه لم يقل بهذا الاستحسان الذي عزّوه إليه بغير حق ، كما لم يقل به أحد من أصحابه ومن سار على منهاجه ، بل لم يقل به فقيه من فقهاء المسلمين . ولا أدل على هذا من أقوال جمهرة العلماء ، فقد قال ابن السمعاني : « إن كان الاستحسان هو القول بما يستحسنه الإنسان ويشتبهه من غير دليل فهو باطل ، ولا أحد يقول به ؛ وإن كان هو المدلول عن دليل إلى دليل أقوى منه فهو مما لم ينكره أحد » . وقال غيره « الاستحسان هو المدلول عن قياس إلى قياس أقوى ، أو هو تخصيص قياس بأقوى منه » . وقال ابن العربي : « الاستحسان عندنا وعند الحنفية هو العمل بأقوى الدليلين » . وقال القاضي : « الاستحسان مذهب أحمد بن حنبل ؛ وهو أن يترك حكم إلى حكم هو أولى منه » وهذا لا ينكره أحد .

وقد أنى كبار الأئمة على الاستحسان وأخذوا به ، من ذلك ما قاله الامام مالك : « الاستحسان ثمة أعشار العلم » . وما قاله الامام أئيب : « الاستحسان عماد العلم » . وتضمن كلام الشافعي في الموافقات « أن الاستحسان ليس هو الرجوع إلى مجرد الذوق والتشهي ، ولكنه الرجوع إلى ما علم من قصد الشارع ، وذلك كالمسائل التي يقتضى القياس فيها أمراً ، إلا أن ذلك الأمر يؤدي إلى فوت مصلحة أو جلب مفسدة ، فيكون إجراء القياس على إطلاقه يؤدي إلى حرج ومشفقة ، والله تعالى يقول : « وما جعل عليكم في الدين من حرج » .

فإن هذه الكلمات تظهر وجهة النظر العامة في الاستحسان إجمالاً عند جمهور الأئمة ؛ أما وجهة نظر الحنفية الخاصة به ، فقد آثرنا الامام المجتهد في مذهب أبي حنيفة أبا بكر الرازي الجصاص ليحدثنا عنها ، فهو الذي يحق له أن يتكلم في هذا الموضوع الدقيق المداركة ، وقوله فيه هو الفصل ؛ قال : « جميع ما يقول فيه أئمتنا - الحنفية - بالاستحسان ، ما قالوه إلا مقروناً بدلائله وحججه لا على جهة الشهوة واتباع الهوى ، ونحن نذكر هنا جملة تقضى بالناظر فيها إلى معرفة حقيقة قولهم في الاستحسان بعد مقدمة القول في جواز إطلاق لفظ « الاستحسان » فنقول : لما كان ما حسنه الله تعالى بإقامته الدلائل على حسنه مستحسن ، جاز لنا إطلاق لفظ

الاستحسان فيما قامت الدلالة بصحته ، فقد نذب الله تعالى الى فعالة ، وأوجب الهداية لفاعليها فقال عز من قائل : « فيشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » . وروى عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما رآه المسلمون حسن فهو عند الله حسن ، وما رآه المؤمنون سيئا فهو عند الله سيئ » .

ولفظ الاستحسان يكتنفه معنيان : أحدهما : استعمال الاجتهاد وغلبة الرأى فى إثبات المقادير الموكولة الى اجتهادنا وآرائنا ، نحو تقدير متعة المطلقات ، قال تعالى : « ومنعوهن على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره ، متاعا بالمعروف حقا على المحسين » . فأوجبها على مقدار يسار الرجل وإعصاره ، ومقدارها غير معلوم إلا من جهة أغلب الرأى وأكثر الظن ، ونظيرها أيضا تفقات الزوجات ، قال الله تعالى : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » . ولا سبيل الى إثبات المعروف من ذلك إلا بطريق الاجتهاد ، ونظائر هذا أكثر من أن نحصى ، وقد سمي أصحابنا هذا الضرب من الاجتهاد « استحسانا » ، وليس فى هذا المعنى خلاف بين الفقهاء ، ولا يمكن أحدا منهم القول بخلافه .

وأما المعنى الآخر من ضربى الاستحسان ، فهو ترك القياس الى ما هو أولى منه ، وذلك على وجهين : أحدهما أن يكون فرع يتجاوزه أصلا ، يأخذ الشيء من كل واحد منهما ، فيجب إلحاقه بأحدهما دون الآخر لدلالة توجيهه ، فسموا ذلك استحسانا ، إذ لو لم يمرض شبه لوجه الثانى لكان له شبه من الأصل الآخر ، فيجب إلحاقه به ، وأنقض ما يجيىء من مسائل الفروع وأدقها مسلوكا ما كان من هذا القبيل ، لأنه محتاج فى ترجيح أحد الوجهين على الآخر الى إنعام النظر واستعمال الروية فى إلحاقه بأحد الأصلين دون الآخر .

والخلاصة : أن الاستحسان فى اللغة عد الشيء حسنا ، وفى اصطلاح الأصوليين يطلق على الدليل الذى يعارض القياس الجلبى ، سواء كان هذا الدليل نصا من كتاب أو سنة ، أو إجماعا أو قياسا حقيقيا ، وإجماعا استحسانا لاستحسانهم ترك القياس الجلبى به ، فكان هذا مستحسنا ، وشاع فى كتب الأصول أنه إذا أطلق الاستحسان يراد به القياس الحقيقى ، كما غلب اسم القياس على القياس الجلبى ، فالقياس الحقيقى وإن اختلف باسم الاستحسان لا يخرج عن أن يكون قياسا شرعيا ، وهو حجة عند الحنفية ويعملون به إذا كان أقوى من القياس لأنهم يقصدون به دليلا من الأدلة المتفق عليها فى مقابلة القياس الجلبى . قال فى مسلم الثبوت : إن أريد بالاستحسان ما يمدد العقل حسنا ، فلم يقل بثبوته أحد ، وإن أريد به ما أرادته الحنفية ، فهو حجة عند الكل ، فليس هو أمرا يصلح للنزاع .

فلا خصوصية لأبى حنيفة فى الأخذ بالاستحسان ، وإنما الأئمة - إلا قليلا منهم - يشاركونه فى القول به ، فلما لكية والخاتمة أخذوا به ، وقد سبق من أقوالهم ما يدل على هذا ، ولم يخل

الامام الشافعي رضى الله عنه من الأخذ به ، أما ما روى عنه في الرسالة وفي الامم مما ظاهره إنكار الاستحسان ، فهو محمول على الاستحسان المحرم الذي هو التحليل والتحریم بالهوى من غير دليل ، وما روى عنه من قوله : « من استحسن فقد شرع » فقد حمله ابن العربي في الفتوحات على مدح الاستحسان ، وقال : إن مراد الشافعي بهذا القول : أن من استحسن فقد صار بمنزلة نبي ذي شريعة ، فقصوده المدح ، ولكن أتباع الشافعي لم يفهموا كلامه .

هذا ما تضمنه كلام الشيخ الأكبر في الفتوحات المكية . ومن الأدلة على أن الأئمة الأربعة أخذوا بالاستحسان المسألة الآتية : فقد ثبت عن الامام الشافعي رضى الله عنه أنه قال : إن مدة الحل أربع سنوات ، مع أن القياس يقتضي أن تكون تسعة أشهر لأنه غالب ما يقع ، والشريعة جاءت بالحكم بالغالب ؛ وقال أبو حنيفة : إن مدة الحل سنتان ، وعن أحمد روايتان : المشهورة كذهب الشافعي ، والأخرى كذهب أبي حنيفة ؛ وعن مالك روايات : أربع سنين ، وخمس سنين ، وسبع سنين ؛ وقال الزاهري : تسعة أشهر تمسك بالغالب الذي هو القياس . ولا مستند لهذه الأقوال المختلفة في مدة الحل سوى الاستحسان ، ولم يكن في المسألة نص فاطع من الشرع .

ومما تقدم تبين حقيقة الاستحسان وأنه ليس هو التحليل والتحریم بالهوى من غير دليل كما افتروا على أبي حنيفة ، وإنما هو الأخذ بأقوى الدليلين ، ولم يخرج عن كونه دليلا شرعيا من الأدلة المتفق عليها ، وليس هو دليلا زائدا عليها . والذين جابوا أبا حنيفة لأخذه به إما حساده ، والله تعالى يقول : « يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » ، وإما أنهم لم يفهموا مدارك مذهب أبي حنيفة الدقيقة ، وإما أنهم غير منصفين .

ولم تزل قلة الإنصاف ظلمة بين الأمام ولو كانوا ذوي رحم  
أما ما نقدوا أبا حنيفة عليه من أخذه بالتحليل الشرعية أو الخروج من المضائق ، فمستكلم على هذا بمد إن شاء الله تعالى .  
السيرة هيفي

## من أوهام العامة

سأل رجل عمرو بن قيس عن الحصة يجدها الإنسان في ثوبه ، أو في حفه ، أو في حبهته من حصص المسجد .

فقال له عمرو : أرم بها .

فقال الرجل : زعموا أنها تصيب حتى تمرد إلى المسجد .

فقال عمرو : دعها تصيب حتى يفتق حلقها .

فقال الرجل : سبحان الله ألها خلق ؟ قال عمرو : فن أين تصيب ؟

## بَحْوثُ فِي الْمَسَائِدِ الْفَهْمِيَّةِ

### دفع الخطأ عن الصواب

الامام الشافعي بين القديم والجديد

ليس جديداً على الناس أن يتحدث إليهم واحد من الأزهر أو من غير الأزهر من الشافعي رضى الله عنه ، وعن مذهبه القديم في العراق ، ومذهبه الجديد في مصر .

وليس جديداً في العلم أن يقول قائل : إن الشافعي بعد أن وفد على مصر اتجه الى تحرير مذهبه وتصفية مسأله مما هسى أن يعويها من غموض أو ضعف ، وتدعيمها بما انتهى إليه من أدلة صحيحة ، وما وصل اليه اجتهاده في الفهم ، وما استقر عليه رأيه من صواب الاجتهاد .

وليس كذلك قريباً على العقول ، ولا إحساناً في الدين ، ولا بمبدأ مما يقول به علماء الاجتماع وتشهد به التجارب الملموسة ، أن يكون الشافعي رضى الله عنه كغيره من أهل العلم يؤثر في البيئة ويتأثر بها ؛ وشاهد ذلك أن الشافعي دون في العراق ما دون ، ولما وفد على مصر ووجد فيها من دواعي البحث ما لم يكن وجد ، وتوفرت لديه أدلة لم تكن تنبأت له من قبل ، وتكشف له من حادات الناس ما لم يكن عرف في العراق ، كان له من ذلك كله حافظ جديد - إذ لم يكن طوى صحيفته ، ولا ألقى راعته ، ولا فض حلقه درسه - على استئناف البحث فيها مضى ، فحيا الكثير وعدل الى غيره ، وأثبت القليل ( نحواً من عشرين مسألة ) ، ونهى عن الأخذ بما سواه مما أخذ عنه في العراق . وكذلك كان من آثار البيئة العملية لدى الشافعي رضى الله عنه أن ظهر له في جبهة من المسائل قولان مثلاً بدلاً من قول واحد ، تبعاً لظهور أدلة جديدة صحت عنده ولم ينف بعضها بمضا .

ذلك شأن مفروغ منه ، وكتب الطبقات وكتب التاريخ وكتب العقه وما إليها حافلة بالكلام في هذا . فلذا تحدث صاحب كتاب قديم أوجد يد بأن الشافعي تأثر بالبيئة فعناه ما قدمنا لك ، وهذا لا ينفي أنه أثر في البيئة فأوجد فيها وأقدها ما لم يكن لها من قبل .

ولا يمكن أن يحمل الكلام على غير ما عرفنا من تأثير البيئة ، وليس يتأتى لمدح أن ينفي هذا ، إلا من تخيل إبطال البداهيات الأولية .

فمن شاء بعد ذلك أن يكون ضمن من كتبوا في تراجم الفقهاء فالسبيل مبعدة أمامه ، ويسير من الجهد يصل به الى غايته دون أن يتكلف عسيراً ، أو يصادف شاقاً .

ما كان لي أن أعرض لهذا ، أو أشغل القراء بشيء منه ، لولا أن مجلة الأزهر نشرت في عددها الأسبق والذي قبله طرفاً من الكلام عن الشافعي ثميل مدرس معنا بكلية الشريعة ، وكان من المؤسف ، أن يشطوع زميلنا هذا بتجربتنا في نهاية مقاله الأخير .

ذلك أنه أخذ على الأستاذ أحمد أمين بك ما تحدث به في كتابه « ضحى الإسلام » من تأثير البيئة في الإمام الشافعي ، وبعد أن أثبت نفسه كثيراً في إبطال ما ذكره أحمد بك أمين هم على كتابنا - تاريخ التشريع الإسلامي - الذي يدرس بكلية الشريعة ، ونسب إلينا أننا اقتبسنا فيه بالنص ذلك الخطأ البير .

وإن يكن بين كلامنا وكلام الأستاذ أمين بك اتفاق في الفكرة ، أو شبه اتفاق في الأسلوب ، فقد سجلنا نحن في كتابنا أن من بين مراجعنا كتب الأستاذ أحمد بك أمين ، فلا غرابة أن يكون بيننا تقارب ما . وعلى ذلك فلم يكشف الثميل سرا كتماناه ، ولا اهتدى إلى خبيثة غابت عن سواء ، وقليل من التؤدة كان يكفيه لتوجيه كلامنا إلى الصواب الذي يتمثل فينا كتبنا واضعاً خاصاً . ولو أن في الكتاب شيئاً يؤخذ علينا حقاً لكان من مقتضيات الصلة العلمية ، ومن مظاهر صدق النية بين الزملاء ، أن يصادف لدى الأخ حسن تمثيل ، وجميل اعتذار منا أمام الطلاب .

أكتب هذا لأزيل ما علق بالأذهان ، وليس حبا مني في الجدل ، ولا تهاقنا على إثارة الخلاف ، فليس من خلق النزوع إلى شيء من هذا ، والله يهدينا ويهدي الناس بالتقادة من أعمالنا ؟

عبد اللطيف البكي

## العقل والحق

جاء في الأثر : أن الله عز وجل لما خلق العقل قال له أقبل ، فأقبل ، ثم قال له أدبر ، فأدبر ، فقال : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحب إلى منك ، ولا وضعتك إلا في أحب الخلق إلى . ولما خلق الحق قال له أقبل ، فأقبل ، ثم قال له أدبر ، فأدبر ، فقال : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أبغض إلى منك ، ولا وضعتك إلا في أبغض الخلق إلى .

وقال الأحنف بن قيس : أنا لما قل المدير ، أرجى مني لللاحق المقبل .

وقال شاعر :

يعد رفيع القوم من كان ماقلاً      وإن لم يكن في عومه بحسب  
وإن حل أرضاً طاش فيها بمقله      وما ماقلاً في بلدة بغريب

## مذاهب العرب في كلامهم

من مذاهب العرب أنهم يلتزمون في الاستفهام بهل أو ، فيقولون مثلا . هل تحب العلم أو المال ؟ وفي الاستفهام بالهمزة أم ، كما قال تعالى : « آله أذن لكم أم على الله تفترون » . ومن مذاهبهم أنهم قد يصيغون إلى الجلة حرفا كقد مثلا ، فيجعل لها معنى ، فإذا حذفت منها كان لها معنى آخر ، كقوله تعالى : « قد أفلح من تزكى » . وهذا من الفروق الدقيقة التي تميز لغة العرب عن غيرها .

ويحسن أن أشير هنا إلى أن بعض الكتابين قد ينحرف عن القصد في هذا الحرف فيلحق به نفيا ، فيقول : قد يكون كذا وقد لا يكون ، والعرب لا تعرف هذا ولم يرد عنهم . ومن مذاهبهم أنهم يجمعون بين معنيين متفايرين للكلمة في وقت واحد ، كما فعلوا في الاستفهام الإنكارى مثلا ، نحو « أتقولون على الله ما لا تعلمون » ، فهو استفهام وإنكار معا . ومنها أنهم يحكون القول المتقدم وبقونه على إهرايه ، فيقولون : من هذا ؟ في جواب من قال : أرأيت هذا ؟ ولكن السعاة يعتبرون أن هذا عرض للمشابهة ويردون الإهراي إلى وضعه الأول .

ومن مذاهبهم الإتيان ، فيجرون الكلمة التالية على حكم السابقة « كَحَصَنَ بَسَسَ » . ومن مذاهب القول عند العرب أنهم يربطون المعنى بعدد الأحرف ، فيجملون زيادة المبنى زيادة للمعنى ، مثل قتل وقتل ، كأنهم يزنون الكلام وزنا ، أو يصبون المعاني في أكسية لا تفيض أطرافها ولا تنقبض أزلالها .

ومن مذاهبهم أنهم يلقون على الساكن الذي سكن ما بعده لتقييد حركة الإهراي ، كقول الشاعر :

عجبت والدمر كثير عجيبه من عنزيرة سبتى لم أضربه

ومن مذاهبهم أنهم يطلقون على بعض الأشياء اسما مؤنثا فيشمل المؤنث والمذكر معا ، كما فعلوا في الحيوان ، مثل حمامة ودجاجة ، فنقول : هذا حمامة وهذه حمامة ، فلا يفرق بينها إلا بإضافة كلمات إليها . وقد يخص بعض الاسماء كثرة وديك ، ولكن هذا لا يمنع من أن تقول في الثور : هذا بقرة ، وفي الديك : هذا دجاجة ، وهكذا . وقد يطلقون التانيث في كل ما لم تظهر أنوثته وذكرته .

ومن مذاهبهم النحت والإبدال والاشتقاق .



ومنها أنهم أحيانا يحملون الكلام على السياق ، فتلا لا يذكرون ما يعود عليه الضمير إذا كان معلوما من السياق ؛ ومن ذلك قوله تعالى : « حتى توارت بالحجاب » أى الشمس .  
ومن مذاهبهم أنهم يصلون الكلام فى موطن ويفصلونه فى موطن آخر . وهذا باب جليل ، ومعرفة من الدقة بحيث جعلها بعضهم البلاغة كلها .

ومن مذاهبهم القريبة أنهم قد يقتضرون فى الغرض على كلمة أو بعض كلمة ، ويتروكون لتسامع أن يفهم ما يريدون . قال الأصمى : سمعت العرب تقول : « درس المنا » أى المنازل . وأشير هنا الى أنه يأتى فى القصص العرب حذف قال وقلت ، فيظن بعض المتأدبين أن هذا الأسلوب تنكره مذاهب العرب ، ولكنه عربى صحيح . فن مذاهبهم أنهم يحذفون هذا الفعل كثيرا قال ويقول من كلامهم : قال تعالى : « وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم » أى يقال له هذا فى الآخرين . وقال تعالى « فأما الذين أسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم » أى فيقال لهم .

وجله القول أن العرب مذاهب كثيرة فى كلامهم تحمل لفتهم من الالفاظ بين لغات العالم بحيث تنسج لكل ما يلحق فيها من الأساليب الحديثة . فلما جاء المتأخرون لونوا الكلام ألوانا مختلفة ، وجعلوا لها فنا قائما ، ولكنهم استندوا فى جملة ما فعلوا الى أصول العرب التى ذهبوا اليها ، وأصافوا من عندهم إضافات جاء بعضها مقبولا وبعضها الآخر مردولا ، كإسرافهم فى تكلف السجع ، ودرجوا على ذلك حتى عصرنا الحاضر ، وكاد يكون ما ابتدعوه موضعيا فى أول أمره ، خصوصا الشعر ، فقد كان للمشاركة المواليا ، والقوما ، وكان وكان ، وغيرها ، وللمغاربة عروض البلد والزجل وغيره ، وللمصر أوزانها البلدية وخصوصا « الواو » .

وقد استحدث الأندلسيون فنا سموه الموشح ، ينظمونه أشماتا وأغصانا يكثرون منها ومن أماريتها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بينا واحدا ، ويلتزمون عند قوافى تلك الأغصان وأوزانها متتاليا واحدا الى آخر القطعة ، وأكثر ما تنتهى عندهم الى سبعة أبيات ، ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمقاصد . وأول من اخترعها مقدم ابن معافر القيروى ، وأخذ عنه صاحب المقد الفريد .

ومن أحسن ما قيل فى ذلك لمباداة بن القزاز :

بدر تم ، قمى ضحى غصن قها ، مسك شم  
ما أتم ، ما أوضعا ما أوقسا ، ما أتم  
لا جرم ، من لها قد عشقا ، قد حرم

وهناك موشحة لسان الدين ، وقد طارت شرقا وغربا ، ويتغنى بها بعضهم الآن ، نذكر منها البيت الآتى :

جارك الفيت إذا الفيت هما يا زمان الانس بالاندلس  
لم يكن وصلك إلا حلسا في الكرى أو خلسة المختلس  
وقد التزموا الإعراب في الموشحات، وأما المواليا فقد نجى. معربة، وأكثر ما تكون  
ملحونة، وما عداها ملى كله.

ومن المذاهب القريبة في التصور وطريقة التفكير، لا في الصورة والوضع، ما يذهب  
إليه أحيانا بعض الشعراء، فيلتوى عليهم قصدهم، وتعتل طريقتهم، ولم يكن نهجهم من الحق  
أو الواقع في شيء.

نذكر من ذلك ما ذهب إليه الكيت في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول:

فاعتَبْ الشوقُ من فؤادى والفقرُ، الى من اليه معتبُ  
الى السراج المنير أحد لا تعدلنى رغبة ولا رهب  
عه الى غيره ولو رفع الناس الى العيون وارتقبوا  
وقيل أفرطت، بل قصدت ولو عنفى القائلون أو تلبوا  
اليك ياخير من تضمنت الأرض ولو طاب قول العُيب  
تجبتُ بتفصيك افسان ولو أكثر فيك العجاج والعجب

فمن رأى أن من يمدح الرسول في أرض مسلمة، وللإسلام شوكنه، يلقي من العنت واليوم  
والتعنيف ما يزعمه الكيت في شعره؟ ألا إنه المخطأ في الفكر والاضطراب في الخيال.

بلى أن ننظر بعد ذلك في مذاهب القوم في فهمهم وفي طريقة تفكيرهم، فالى المقال الآتى  
إن شاء الله.

محمد ناصف

## جمعية المحافظة على القرآن الكريم

سنجى جمعية المحافظة على القرآن الكريم بالقاهرة مسابقتها السنوية لامتحان الطلبة  
صغار السن في حفظ القرآن الكريم وتلاوته وأحكامه، من كل بلاد القطر، في صباح يوم السبت  
٩ أغسطس سنة ١٩٤١ بمقرها بشارع الملكة مازى رقم ١٢ على جوائز مالية وشهادات.

والطلبات تقدم من الآن باسم سعادة رئيس الجمعية ومرفق معها شهادة الميلاد، على شرط  
ألا يزيد سن الطالب من ١٤ سنة فقط لغاية أغسطس سنة ١٩٤١، ولا تقبل شهادة تقدير  
الطبيب، ولا يكون ممن أخذ مكافأة السنين الماضية.

## من وحي الشريعة الخالدة

لقد كان فيما تجلى بين الناس مما يسود الأنظمة البشرية ويسلكها في طلق واحد هو الجدل المطلق والسعادة القيمة ، وما يردّها في شتى مرافقها ومنازع وجودها الى سُبل من الحياة لا هداد لها وآفاق مختلفة لا تقاس اليها القوانين الوضعية في قليل ولا كثير - أنبل ما عرف التاريخ في أطوار الماضي البعيد ، وأقوم ما احدثت اليه البشرية في مختلف صورها ومحيط آفاقها . فالعريضة التي تعنى بإحكام أعماط المجتمع ، وبث المثل العليا في أطرافه ، ودعوة الناس الى أن يستجيبوا تلك الدعوة العامة ترسم لهم المناهج في أحوالهم الشخصية ، وتقيم بنيانهم على أسس من الجدل منيعة ، وبرامج من السعادة رفيعة ، وتدلّ بهم الى أن حياة الفرد التي تتألف منها حياة الجماعة والأمة أخرى بها أن تكون حياة وثيقة الاتصال بالحياة الدائمة ، حتى لا يتسرب اليها وهن ، ولا يعتورها ضعف وانحلال - هي شريعة السرمدية والبقاء ، وناموس الخلود المستمد من وحي السماء . ولم ترسم الشريعة فيما رسمتها أحكاما خلت من العبرة ، ونبت من الموعظة ، بل رسمت كما رسمت من طرائق الجدل أحكاما تعلم الانسان كيف يكون فقيها في دينه ودنياه .

ومن فقه العبد في دنياه أن يكون بصيرا بعقبي أمره ، مضطلعا بالخطوب وما يجد له عنها فرجة ، وما يستدفع غوائلها من حجب بالغات ومثلثات سافغات .

ومن فقه العبد بدنيته أن يكون حذرا في متركه ومأثاه ، ومتبلفه وغاية مناه ، لا يتخذه مراب الأمل ، ولا تهيّج به نوازع المني فنصده عن جادة العمل ، يعتبر بالماسين ، ويتقو أثر السابقين ، فله اليهم غاية ، وله بهم وشيجة رحم ولحمة قرابة . قال الله سبحانه جل وعلا : « واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ، واعلموا أن الله غفور حلیم » . وحذر العبد من الله أن يكون بصيرا بعقابه ، قائما على سره ونجواه ، صادقا في طائفته وبلواه ، فلا يخدع إلا من حيث يعلم أنها خدعة الصبي على اقلين ملائحته تلك الخدعة ظاهرة من ظاهرات الضعف وضيق المعطن ، ولا نهبط به بين عارفيه الى وهدة الغفلة والراحة وفطير الرأي ، بل ينبني أن يكون العبد ذا دراية وحكمة إذا خدع مرة فلا يخدع أخرى ، بل إن الخدعة الاولى تعلمه كيف يسجو من الخدعة الثانية ، لأنها ميسم التجربة ودليل الجدة ومشكاة الظلام .

حكى بعض رجال الحديث في السيرة أن الشاعر أبا غرة كان هجاء مستطيلا على منازل الناس وكراهم المطلق ، أمر يوم بدر فضرع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم في فك أمره ، وكان يعلم منه أنه رجل يقع في الاعراض والسكرامات ، ليس له من خلقه وازع ولا من عقله رادع ،

غير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طأهده على أن لا يمود سيرته ، فقال أبو غرة نعم . عند ذلك أطلق النبي صلى الله عليه وسلم مراحه . لكنه ما لبث أن لحق بقومه وطأ الى ما كانت تخلع عليه خلاقه من التحريض والهجاء والإقذاع . وللأيام دورتها ، وللأفلاك مدارها ، فأمر أبو غرة مرة أخرى في واقعة أحد ، وجيء به موثقاً الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله المن ، فأباه عليه صلى الله عليه وسلم وقال : « لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين » .

ظلم من كيس فطن . وكياسة المؤمن ألا يؤخذ على غرة ، فلا تستخفه أحلام ، ولا نعبث بيقينه أو هام ، وإنما يرى الرأي مجتهداً فيه صادق العزمات ، مسدد الوثبات ، ظن أخطأ فله أجر وإن أصاب فتنها هي . فالخطر من الناس هو الذي يبلغ من الحياة أوطارها ، وينال منها بلغته ، وهو بما يحمل من عين ساهرة ، وفكرة من اليقظة مترافدة ، نادر المثال ، لأنه المفرد العلم في قومه ، فيترجمون خطاه ، ويضربون على قبائره . وإلى هذا يشير رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « تعبدون الناس كابل مائة لا يبعد الرجل فيها راحلة » . وهذا الحديث يعني أن الناس وإن كثروا عدداً ظلم الفرد العلم الذي يمكن أن يكون فيهم ملاك الفضائل أندر وجوداً وأعز مثلاً ، كما أن المائة من الأبل مثلاً تكون بين مملك وبصرى فلا تقع فيها على راحلة قوية سهلة السير مأمونة الجانب سلسلة القيادة إلا نادراً . والناس يتسكثرون عدداً ولكنهم يقلون ثمناً :

إني لأفزع عيني حين أفتنحها على كثير ولكن لا أرى أحداً

عابس ط

## اعلان لحضرات المشتركين

نرجو الذين يودون متابعة الاشتراك ودفعوا نصف قيمته أن يبعثوا إلينا بالنصف الثاني حتى لا تتأخر عنهم المجلة .

But the best remedy to avoid future unpleasantness lies in the hand of the woman in Islam, where marriage is a civil contract and can be saddled with adequate conditions, to violate which would in itself bring marriage to nullity. Thus, a woman who fears the possibility of a second marriage on the part of her betrothed, can make provisions against its unpleasant effects, before she is married. She may get such special damages, as are provided in the contract of marriage, when the contingency arises; she may have the option of living separately from her husband with a suitable maintenance; or get herself divorced and lead an independent life, and recover damages as well. But this should all be provided for in the contract of marriage.

"Polygamy in a word, in Islam, is a remedy. It has its uses and abuses. Islam guards against the latter, and allows the former under restrictions and within stringent limits. More knowledge of human needs and exigencies would enlighten the world and enable it to see the necessity of allowing an institution, like polygamy, with its rare and limited use as in Islam<sup>1</sup>."

**Polygamy is not an institution originated by Islam.** "Now Mohammed," writes Mr. B. Smith, "was a legislator and a statesman, as well as the founder of a religion and why is the defence which we allow to Solon, and the praise we bestow upon the limited scope of the Mosaic legislation, denied to Islam ?

"Polygamy is, indeed, next to caste, the most blighting institution, to which a nation can become a prey. It pollutes society at the fountain-head, for the family is the source of all political and all social virtues. Mohammed would have more than doubled the debt of gratitude the Eastern world owes to him, had he swept it away; but he could not have done so, even if he had fully seen its evil. It is not fair to represent polygamy as a part of Mohammedanism any more than it is fair to represent slavery as a part of Christianity. The one co-exists with the other, without being mixed with it, even as the muddy Arve and the clear Rhone keep their currents distinct, long after they have been united in one river bed. Perhaps it is strange that they ever could have co-existed, even for a day; but we have to deal with facts as they are, and it is a fact, that slavery has co-existed with Christianity, nay, has professed to justify itself by Christianity even till this nineteenth century. Mohammed could not have made a 'tabula rasa' of Eastern society, but what he could do he did. He at least put strict limitations on the unbounded licence of Eastern polygamy, and the facility of

---

(1) H. H. Nawab Sultan Jahan Begam Sahiba, Ruler of Bhopal, India.

the institution under restrictions which gradually proved to be a most efficacious check to polygamy, and made the largest portion of the Moslem world observe strict monogamy. The best check indeed has been provided in the very verse of the Koran which is held to authorise polygamy : "Then marry what seems good to you of women, two, three or four (wives), but if ye fear that ye shall not act equitably, then one (wife) only".

In this verse the licence given to polygamy is curtailed by the proviso which enjoins strict equity and justice towards all wives as obligatory on man. In case a man feared that he could not act equitably and justly between his wives, he was directed to be content with one wife only. The word 'fear' in the verse deserves special notice; that is to say, if a man is afraid that he will not be able to comply with the proviso, he must not go beyond one wife. And it need hardly be pointed out, how difficult it is to give every one his (or her) own just due; nor is every one able to do it. Nay, the Book of God itself admits in another verse the inability of man, to observe the required equality of treatment in every respect to all of his wives, and thus emphasises the desirability of having only one wife; but suggests, at the same time, a very wise course to those who under unavoidable circumstances have been compelled to have more than one wife. The verse is as follows : "And ye can never act equitably between women, although ye covet (it); but turn not with all partiality (towards one of them) nor leave the other like one who is in suspense; but if ye be reconciled, and fear (to do wrong), verily God is Forgiving, Compassionate<sup>2</sup>." Again : "And if a wife fear ill-usage or aversion from her husband, it shall be no crime in them both that they should be reconciled among themselves with some reconciliation; for reconciliation is best. And souls are prone to avarice; but if ye be good and God-fearing, verily God knows what ye do<sup>3</sup>."

It will thus be clear from the above instructions that when a man has married two wives in the belief that he is able to treat them equitably, and he then finds that he is inclined towards the one to a degree amounting to aversion against the other, and is prepared to divorce one of his wives, the above verses lay down directions for the guidance of both man and wife, namely, that they should come to an understanding between themselves and be reconciled—the wife by foregoing some of her rights, and the man by self-control. This would save each of them the troubles attendant upon a divorce.

---

(1) Koran IV : 3.

(2) Koran IV : 129.

(3) Koran IV : 128.

of the law in the West which, practically speaking, condones what it condemns under the name of bigamy. Marriage after all is only a union of man and woman which under specified formalities received the sanction of society. Therefore, if the special circumstances of an age do demand the multiplication of units in a nation, why not legalise what has already received the sanction of practice and usage, and save thousands and thousands of souls from the ignominy of being called 'bastard' sons or daughters, and thus give them the right to inherit from those who gave them their body? It would tend to improve morality, and enhance the sacredness of nuptial rights. Thus, polygamy sometimes becomes a national necessity.

This institution has also its legitimate uses in individual cases as well. Propagation of one's species is the most important of all the purposes of marriage, and if all hopes of an issue through the first wife are at an end, there seem to be only three ways open to a man : either to divorce his wife ; to deny himself the pleasure of having issue—the desire of nearly every married man ; or to wait till the death of the wife, and spoil his whole life. Is not then a second contemporaneous marriage to be preferred to any of the above alternatives ? A man may do it and save heart-burnings, if he is strongly attached to his first wife. The case of Napoleon presents a good illustration. He had to divorce his well-beloved wife, Josephine, a lady possessing virtues and abilities of a very high order. There was the warmest attachment between the two, but Napoleon could not have issue from her, and the country therefore insisted upon her divorce. The account of her divorce, as related by historians and biographers, is extremely pathetic. Napoleon married another wife, he reigned splendidly and enjoyed the benefits of a prosperous kingdom ; then came calamities, upon him, which continued until his death. Josephine had been divorced, but their love for each other underwent no change. She remembered him with ardent love and sympathy in his troubles and calamities as in the days of happiness. But the strong cord which bound them together had snapped asunder. If polygamy had been allowed and this was, I say, one of the rare occasions where the jurists of Islam have sanctioned polygamy—Napoleon and his widow, would not have suffered this extreme affliction. Moslem ladies have often allowed their husbands in such cases to take another wife and beget an issue<sup>1</sup>.

Of course, those who indulge in polygamy without obvious reasons, are not acting in accordance with the spirit of their religion. Islam placed

---

(1) 'Muslim Home' by H. H. Nawab Sultan Jahan Begam Sahiba, Ruler of Bhopal, India.

of wives, let him live with one wife, and Islam will not be a bar in his way.

**Polygamy is not essential in Islam.** To consider polygamy an essential in Islam, would be an unpardonable mistake. In fact, the teaching of the Koran is to the contrary, and strongly recommends monogamy, as already shown. Islam claims to be a universal religion. It was not revealed to meet the requirements of a particular race or age, with its world-wide mission, Islam had to look to the requirements of all ages, countries, and civilisations. Besides the substantial laws, the code of Islam, as every wise legislation must do, provides certain ordinances which may be looked upon as auxiliary or remedial laws, with an elasticity to meet the contingencies of place and time. It deprecates their abuses, and lays down proper restrictions as to their use.

The events of the world sometimes give rise to circumstances which cause appreciable paucity in the number of men. Inter-tribal or international wars often lead to the same result; and leave numberless members of the weaker sex without home or protection. The great European war (1914-18) is a quite recent example of international calamity that caused an unimaginable decrease in the number of males, leaving hundreds of thousands of females without guardians or protectors. With all our refined ideas of chivalry and broadmindedness, no other institution than marriage can safely come to save the situation. Other measures under similar circumstances have been schemed and resorted to, but they could not avoid undesirable results. To maintain strict continence and piety in society, Islam would not recommend any woman to seek refuge under the roof of any man who does not stand in marital, or within the prohibited degree of relation to her. Our experience also goes far to endorse the advisability of Islamic policy in this respect. Polygamy is the only specific remedy to meet the need. But woman has not been left without her own choice in the matter. To secure her peace, comfort, and happiness, if she needs no other help or protection, no Moslem would compel her to marry a man who is already the husband of another woman. Thus polygamy, as said before, is a sort of remedial law in Islam which may come into operation when opportunity arises, and should not be resorted to when there is no occasion for it. It is not only for connubial purposes, that equality of number in men and women is a necessity. In human life there are occasions when only men are in requisition. How to fill up the shattered ranks, if similar calamities cause the dearth of men? The only two resorts left are either to encourage bastardy or adopt polygamy. To recruit the number no one having the least sense of decency, would recommend the former measure. One, indeed, cannot understand the wisdom



is always very high and there is no province where the returns are more lamentable than Bengal. In the annual report of the Sanitary Commission for 1912, it is stated that nearly 34,000 children died during the first year of their existence, this representing a loss of twenty one per cent of the births. Under these conditions the only way to protect the numerical strength of the human race against the undermining effect of infantile diseases, is to resort to polygamy. Heat that engenders sickness cannot be prevented; therefore it is impossible to better the climate of the hot region in this direction at least. As long as the maladies, fatal for children, cannot be effectively combated, it is unwise not to adopt another counter-active measure. If mortality cannot be reduced, the birth rate should be increased to a very high degree. The fatal influence of the sickness can be encountered by producing a large number of healthy children, so that a good number of children may survive the bad effect of the climate. This necessitates Polygamy. By two or more wives one can beget more children, and thus contribute to the preservation of the human race. The high number will make up for the increased death-rate among the young, and keep the population from dwindling.

This is one of the many natural reasons that go to prove the necessity of polygamy<sup>1</sup>.

The writer takes this opportunity to point out, that our critic friends have no cause to lose their temper at the mention of polygamy. Islam does not enforce polygamy. It enjoins marriage where no disabilities stand in the way. Monogamy is the general rule, polygamy is a provision for urgent emergencies. It is unwise to question the general wisdom of an institution in exceptional cases. If a man can be content with one wife, Islam does not compel him to resort to polygamy. If Christian critics find that their way of living obviates the necessity of a plurality of wives, they are not bound to have recourse to polygamy. Let them live with one wife and refrain from reviling Islam, as Islam does not make polygamy obligatory. If they clearly understand the problem of polygamy, I hope they will come to entertain a better feeling towards the law of the Holy Prophet. Islam simply permits polygamy, if one cannot live in happiness and piety with one wife. But if Christians can live piously and happily with one wife, Islam does not interfere. Islam is as much monogamous as Christianity, the difference being, that the former makes a provision for urgent needs, with due regard to the rights of the wife, whereas the latter does not. Should a man fail to find any emergency calling for a plurality

---

(1) Physical inability on the part of a married woman to fulfil the duties of marriage is evidently a justification of polygamy, for instance.

like other cravings of nature, being duly gratified, may lead to the perfect safety and the complete security of social morality. Thus the Islamic system of marriage, harmonising with the practical need and requirements of mankind, gains fresh lustre when brought under the search-light of unbiassed criticism. The Prophet's example in the matter of marriage is specially striking. It refutes the commonplace objection of ignorant people, that it is impossible to deal fairly with more than one wife. One need not waste time and energy in discussing the practicability of monogamy or polygamy for mankind. The example of the Prophet is vividly before us. He had as many as nine wives, but how lovingly and fairly he behaved towards them, is known to all students of religion. The love he bore to each individual wife, and the consummate spirit of good will that characterised the mutual relation of the Prophet and his wives, is above the possibility of suspicion. We have the absolutely credible evidence of the wives themselves. They state him to be the embodiment of love and justice<sup>1</sup>. Never was there any real grievance on the part of the wives against his treatment. The Prophet with his perfect example has proved up to the hilt, that it is quite possible for a polygamous husband to maintain justice and equality of treatment among his wives, if only he has a mind to do so. When the Prophet could do perfect justice towards nine, there should be no reason why we cannot do justice towards only four, even less than half the number. The excess allowed to the Prophet is not to permit him to indulge in sensuality, as certain critics would have us believe, for the Prophet's life is unsullied and above such base charges, but it is meant to show to the world how the Prophet was endowed with superhuman feeling of love and affection towards his wives. It was also intended to show the Moslems how it was within the range of possibility, to deal kindly and justly with a plurality of wives. He left no room for discussion. He acted and asked his followers to act. Polygamy must not be discarded, if it be found conducive to social happiness, on the clumsy pretext that it is impossible to live smoothly with more than one wife. The Prophet did live peacefully with nine wives, and we Moslems can also do so, under given conditions, with four wives, if we follow the noble example of the Holy Prophet in all our doings and actions. It is only when we fail to live up to the standard of the Prophet's perfect manners, that we fail to secure a peaceful and loving attitude towards a plurality of wives, nay even towards a single wife.

The natural causes that go to prove the necessity of polygamy are many. According to the Pioneer (Allahabad, India) infant mortality in India,

---

(1) Ibn Athir, Abul Feda, Sir W. Muir & c. & c.

discover their hidden ornaments. And be ye wholly turned to God, O ye believers ; then it shall be well with you<sup>1</sup>."

Thus, both men and women are required to refrain from unnecessarily looking at each other. The softer sex is required to walk about so carefully as not to be a stumbling block for any weakling, and therefore the social morality and individual chastity are kept intact. Promiscuous intermingling of both sexes, and the reckless display of charms on the part of the fair sex, have gone a long way towards undermining the moral tone of Christian countries.

A learned man<sup>2</sup>, commenting on the charge that Islam stimulates sex-indulgence, writes in the *Review of Religions* :—

"The living facts speak volumes for themselves, and no one who has had occasion to read up certain articles in the *Encyclopaedia Britannica*, can afford to question the truth of the sad state of affairs so strikingly brought to light in them. We cannot shut our eyes to the ennobling influence of the growing civilisation of Europe, but civilisation with all its softening and elevating forces, has not yet been able to obviate the necessity of food, and alleviate the pressure of all the cravings of nature. If, therefore, attraction of charms, is a natural aptitude, as surely it is, one cannot help admitting, that unlike other natural desires, this craving of nature also remains unaffected by the advance of civilisation. No amount of learning and no sort of culture and scholarship can alter human nature ; and it follows, therefore, that civilisation can scarcely prove a bar to the inborn desire of man for woman, and vice versa. To assert that civilised Europe is proof against the resistless onslaught of passion, is a ridiculous statement when, civilisation has failed to do away with other natural desires of mankind. To give a moral lift to the Christian countries, it is necessary to introduce the Islamic moral code which pays equal attention to the intellectual, moral and social advancement of the people. But under the present circumstances, it is sad to note that Christian Europe improves the intellectual side at the sacrifice of the moral one."

### (3)

## Islam and Polygamy

Islam enjoins marriage, whether monogamous or polygamous, as the conditions of life necessitate, with due regard to piety, so that there may be no violence to human nature ; and the desire for sexual intercourse,

---

(1) Koran.

(2) Qazi Abdul Haque.

impossible, therefore, to incur displeasure where the avowed object is to win approval. Thus it is clear that Islamic marriage makes life pure and chaste, and does not afford occasion to taunt any one with the vice of sensuality.

Whether a Moslem weds one wife or the fullest admissible number of wives, he cannot lose sight of the object of his life. He is not born for anything but the adoration of God. He turns heretic if he even for an instant, even in the moment of sexual intercourse—the moments of utmost enjoyment and therefore of utmost self-forgetfulness—banishes from his mind the purpose, for which he was brought into being. Marriage, whether monogamous or polygamous, is for a Moslem the means of attaining the nearness of God<sup>1</sup>.

The Gospel's commandment "Every one that looketh on a woman to lust after her, hath committed adultery with her already in his mind," shows us that an evil look is forbidden; but a look having no wicked intention behind it is permitted. Moslems, however, are bound by their religion not to look repeatedly and freely at a strange woman, for the pleasure of doing so. According to human nature a woman, on account of her charms, is an object of temptation; and whoever exposes himself freely to temptation prepares the way for his moral destruction. Too much indulgence in the habit of looking freely at beauties, as it seems to be allowed according to the Gospel's text, leads to evil. The best way to guard against evil, is to avoid the path that leads to temptation. The Koran forbids both pure and impure free looks; for too much recourse to pure looks is likely to prompt impure ones. To be safe, temptation must be kept at arm's length and not nourished freely to exhaust one's patience and power of resistance. The Koran's injunctions on the subject are as follows :—

"Ask the believers to cast down their eyes and observe continence. Thus will they be more pure. Of a truth, God is well aware of what they do. And ask the believing women to refrain their looks and observe continence, and to display not their ornaments except those which are external, and to draw their veils over their bosoms, and to display not their ornaments, except to their husbands or their fathers or their husband's fathers or their sons, or their husbands' sons, or their brothers or their brothers' sons or their sisters' sons or their women or their slaves or male domestics who have no natural force, or to children who note not women's nakedness. And let them not strike their feet together, so as to

---

(1) Al Obazali.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# تفسير سورة الحديد

لخضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي  
شيخ الجامع الأزهر

— ٥ —

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾  
﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ أَنَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرَسُولُهُ بِالْغَيْبِ﴾  
﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ :

الوزن : معرفة قدر الشيء . والمتعارف في الوزن عند العامة ما يقدر بالقبض ونحوه .  
وقوله تعالى : « وَأَقِيمُوا الزَّانَ بِالْقِسْطِ » أمر بمراعاة المعدلة في جميع ما يتعراه الناس  
من الأفعال والأقوال .

والقسط : النميپ بالمعدل . والبؤس والبأس : الشدة والمكروه .

والغيب : يستعمل في كل غائب عن الحواس وعما يغيب عن علم الإنسان . ويقال للشيء  
غييب وغائب باعتبار البأس لا باعتباره سبحانه وتعالى ، فإنه لا يغيب عنه شيء .

طلب الله سبحانه في الآيات السابقة الإيمان به والإيمان برسله ، وتبين أن ما يدعو إليه  
الرسول منزل من عنده أراد الله سبحانه به إخراج الناس من الظلمات إلى النور رافة منه  
ورحمة بهم ؛ وفي هذه الآيات بين الغرض من إرسال الرسول وإزالة الكتب والموازين ،  
وهو أن يقوم الناس بالعدل ، فيأخذ كل واحد حقه لاغير ويعطى حق غيره . وما اشتملت  
عليه الكتب السماوية جميعه ، سواء كان متعلقا بالمعاشد أو بالأخلاق أو بنظام الأسر والمجتمع  
أو بقواعد التعامل بين الأفراد والجماعات ، عدل كله ، وحق كله ، وفي العمل به نصبة وقيام  
بالقسط ؛ فإذا نزهت الله سبحانه عما لا يليق به وآمنت به وبرسله ، فذلك عدل وإعطاء للحق ؛

وإذا تخلقت بالأخلاق الحقة الفاضلة ، فقد زكيت نفسك وأعطيتها حقها ، ويتبع ذلك أن تعامل الناس بالحسنى وتمطيهم حقهم ؛ وإذا عاملت الناس على وفق أحكام الله المنزل ، فقد أعطيتهم حقهم وأخذت حقك وقت بالقسط .

أرسل الله الرسل بالبينات والأدلة والمعجزات الدالة على نبوتهم ، وأزل الكتب لتكون معهم يدعون الناس إلى هديها ، وفي هذه الكتب مقاييس العدل وموازينه ، وهذه المقاييس والقواعد هي الميزان الذي أنزله الله سبحانه ؛ فليس الميزان شيئاً آخر مادياً ، وليس شيئاً غير ما في الكتب .

أنزل الله الميزان ليعدل الناس ، كما أنزل الحديد ، أي خلقه وجعله ذا بأس وشدة وسكابة ، وأودع فيه منافع لا عداد لها ، ليستعمله الناس فيما خلق له ، وليستعمله الناس في السكابة بأعداء الله الظالمين عباده ، وفي الانتصار للحق ، حتى يعلم الله من يصره وينصر رسله وهو غائب لا يبصره . والله قوي عزيز . والقوى هو الذي لا يلحقه ضعف في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، فلا يحسه نصب ولا تعب ، ولا يدركه قصور ولا مجز . والعزيم هو الذي لا يقهر ولا يفلب ولا يعارض .

فسرنا إزال الحديد بخلقه وتبليته ، وذلك مروى عن الحسن ؛ ونظيره قوله سبحانه : « وأرسل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » ؛ وتبعنا في تفسير الميزان جمهوراً من العلماء . وقد قال الغزالي رضي الله عنه : أنظن أن الميزان المقرون بالكتاب هو ميزان النور والشعر والذهب والفضة ؟ أم تنوهم أنه العليار والقبان ؟ ما أبعد هذا الحسبان وأعظم هذا البهتان ! واعلم يقينا أنه ميزان معرفة الله وملائكته وكتبه ورسله وملكوته .

ذكر الله سبحانه الكتاب والميزان والحديد ، وقرنها بعضها ببعض ؛ فالكتاب إشارة إلى الأحكام المقتضية للعدل والإنصاف ؛ والميزان إشارة إلى سلوك الناس على وفق هذه الأحكام ؛ والحديد إشارة إلى ما يحملهم على اتباع هذه الأحكام إذا تمردوا ؛ والله سبحانه وهو العليم الحكيم لا يضع للخلق من القوانين إلا ما فيه مصلحتهم ؛ وخيار المطلق تكفيهم تلاوة الكتاب وعلمه لاتباع ما فيه ؛ وغيرهم لا بد له من الوازع وهو سلطان الحاكم الممار إليه بالحديد ؛ ولذلك وجدت التعاريف في الإسلام ، ووجدت الحدود ؛ أما ترك الناس أحراراً من غير وازع فهو ضار بالجمتمع الانساني ، وموجب للثراخي في إقامة العدل واتباع القانون ؛ جرب هذا في العصور المختلفة ، وقامت الشواهد الناطقة في العصر الحديث عليه ، وعلم أن الأمم التي لم تحط أخلاقها بوازع انحدرت إلى الدرك الأسفل ، وأضلها الشهوات . وقد كانت دولة صمر سلكا قويا للنظام الاسلامي ، فلما رفعت ضعف ذلك الرماط .

وقد ذكر الله للحديد قائدين . الاول : أن فيه البأس والشدة والسكابة ، فآلات الحروب

جميعها منه أو محتاج إليه ، وبخاصة إذا أريد بالحديد جنس المعادن ، كما عليه بعض المفسرين ؛ فنه الرماح والسيوف والدروع قديما ، ومنه المدافع والقنابل والطائرات والدبابات والسيارات ، وسفن البحر على اختلاف أنواعها مما يسبح فوق الماء أو يغوص فيه ؛ وعلى الأجمال فقد كشف العصر الحديث عن ذلك البأس بما لا يدع مجالاً للبحث .

والفائدة الثانية : أن فيه منافع للناس ، وذلك واضح ، فما من شيء من ضروريات الحياة أو كالياتها إلا وللحديد دخل فيه ؛ فهذه سفن الملاحة وطرق السكة الحديدية وما يتبعها من قاطرات وعربات ، وأدوات الحثرت والطحن والغرل والنسيج ، وآلات البناء ومواده ، وسيارات الركوب ، وآلات الطباعة والطباعة والأكل ، وأدوات الرينة ؛ كل ذلك من الحديد ، أو يرجع إليه ، أو يحتاج إليه .

امتن الله سبحانه على خلقه بالحديد ، ولم يمتن في هذا الموضع بما هو أغلى قيمة منه كالذهب والفضة ، لأنه أعم وجودا ، وأسهل تناولا ، وأكثر فائدة ؛ ومن نعمة الله سبحانه أن سهل كل ما تشد إليه الحاجة وجعل وجوده أكثر . وأعظم الأشياء قيمة في الحياة ؛ أكثرها وأسهلها تناولا ، وأحق الأشياء قيمة في الحياة أندرها وجودا وأغلاها ثمنًا ؛ فما هي قيمة الجواهر الكريمة للحياة إذا قيست بالهواء والماء ، أو قيست بالبر والشعر ؟ وهكذا إذا نظرت إلى الأطعمة وجدت ما هو لازم منها وضروري ، أرخص مما هو غير لازم لزومه .

بعد أن امتن الله بالكتب والميزان والحديد ، بين أنه قوي عزيز مستغن عن خلقه ، وأنه لم يفعل ذلك إلا لإقامة العدل والدفع عنه ؛ والدفع عن العدل هو نصرة الله والرسول ؛ وبهذا البيان أعذر من لم ينصره ، وأشار إلى أنه لا عذر له . وقد قال بعض الناس في قوله سبحانه : « وليعلم الله من ينصره ورسله » : أي وليعلم حزب الله ومتبعوه من ينصر الله ورسله ، فرارا من توهم أنه حدث له علم بعد أن لم يكن ؛ والواقع أنه عالم من ينصره قبل أن ينصره ، ولا داعي إلى هذا ، فإن المعنى : ليعلم من ينصره علما يتعلق به الجزاء ، وذلك لا يكون إلا بعد وقوع النصرة .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ، فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ :

نوح أول الرسل إلى الأرض ؛ وإبراهيم قد انتسب إليه أكثر الأنبياء ، وعظم في كل الأديان ، ومن ذريته الأنبياء الذين جاءوا بالكتب الأربعة : التوراة ، والإنجيل ، والزمور ، والفرقان ؛ وهو من ذرية نوح أيضا ؛ فالنبوة والكتاب لا يخرج عن ذريتهما ، ولذلك خصا بالذكر .

وقوله سبحانه : « فثم مهتد وكثير منهم فاسقون » معناه أن بعض هذه القرية اهتدى بكتب الانبياء واتبعها ، والبعض فسق عن أمر ربه وخل السبيل ، فخرج على الدين جملة وكفر به ، أو بقى فيه وارثكب الإثم والعصيان ، وهؤلاء كثيرون .

﴿ ثُمَّ قَفَيْنَا عَلَى أَنَاثِهِمْ بِرُسُلِنَا ، وَقَفَيْنَا بِمِيسَى بِنِ حَرِيمٍ ، وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ ، وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَنِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ، فَاذْهَبْهَا حَقَّ رِهَايَتِهَا ، فَأَتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ :

التقنية : جعل الشيء في إثر الشيء على الاستمرار .  
والآثار : جمع إثر بالكسر ، تقول : خرجت على إثره أى عقبه .  
والرأفة والرحمة : اللين والشفقة .

والرهابية : الخصال والأفعال المنسوبة الى الرهبان بفتح الراء وهو الخائف ، فملا من رهب كخشيان من خشى .

والابتداع : ابتداء أمر لم يحتد فيه على مثال . والبدعة منه ، وسيأتى بيانها .  
ومعنى الآيات : أن الله سبحانه أرسل عقب نوح وإبراهيم على التتابع رسولا بعد رسول حتى انتهى الأمر الى عيسى فأعطاه كتابه المسيح بالإنجيل ، وجعل الله في قلوب الذين آمنوا به واتبعوه رأفة ورحمة على عبادته ، وجعلهم أيضا رجاء فيما بينهم ، كما كان المؤمنون في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم زاد الله في ألطافه معهم حتى قويت دواعيهم الى الطاعة والتشدد في العبادة ، فأحدثوا الرهينة وابتدعوا ابتغاء رضوان الله ومقفرته ، ولم يكتبها الله سبحانه عليهم . أحدثوا هذه الرهينة فرماها الأولون المخلصون حق رهايتها ، ثم خلف من بعدم خلف تظاهروا باتباعها ورهايتها ، ولكنهم تركوها باطنا ، وضعفت عندهم دواعي التشدد في الطاعة ، فأخلوا بما ماهدوا الله عليه ونذروه ، وبذلك فسقوا وخرجوا على المهدي ، فليس لهم حظ من الاجر ، وهؤلاء كثيرون . أما الذين آمنوا ورعوا ذلك المهدي وحافظوا عليه فقد قام الله أجركم .

ومعنى تلك الرهبانية التي ابتدعوها : تحمل الكلف الزائدة على ما كلفوا به ، فهم قد زهدوا في الدنيا ونسكوا ، وحببت إليهم الخلوات واعتزال الخلق . لبسوا الخشن ، وأكلوا الغليظ من الطعام ، وتركوا النساء ، وتعبدوا في الكهوف والغيان ، وخلصوا أنفسهم للعبادة متحملين ضروب العنت والمشقة حبا في طاعة الله .



هذه أوصاف أتباع عيسى كما وصفهم القرآن ، فما الذي بقي من أوصافهم وأوصاف أتباع محمد ؟ ندم هذا تحييب عليه الحوادث ، ويحيب عليه الواقع .

وقوله سبحانه : « ابتدعوها » إما صفة لرهبانية ، أو معمول لمامل محذوف تقديره :  
وابتدعوا رهبانية ابتدعوها ابتداء رضوان الله . والاستثناء في قوله : « إلا ابتغاء رضوان  
الله » منقطع ، ومعناه لكن ابتدعوها .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلًا مِّنْ رَّحْمَتِهِ وَيُخْلِلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيُغْفِرْ لَكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ :

من الممكن أن يكون الخطاب لمن آمن بالأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، وطلب إليهم أن يؤمنوا به ، ووعدوا نصيبين من الأجر : نصيب على الإيمان بالأنبياء قبله ، ونصيب على الإيمان به ، ووعدوا أيضا ذلك النور الذي يسعى أمام المؤمنين يوم القيامة هاديا لهم إلى الجنة ، ووعدوا المغفرة على ما فرط منهم من العصيان . ومن الممكن أن يكون الخطاب لمن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وطلب إليهم التقوى والاستمرار على الإيمان ، ووعدوا نصيبين من الأجر أيضا : نصيب على إيمانهم به ، ونصيب على إيمانهم بالأنبياء قبله ، كما وعدوا النور والمغفرة .

﴿ إِنَّمَا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُزِيلُهُ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ :

اللام في « لتلا يعلم » زائدة ، بدليل القراءة الثانية : ليعلم أولكى يعلم .

كان بنو إسرائيل يقولون : إن الوحي والرسالة فيهم ، والشرع والكتب لهم وحدهم ،  
 خصوا بهذا كله ، وموسى آخر الأنبياء لا تلتصق شريعته . فتق الله سبحانه هذه المزامع ،  
 وبين أن الفضل بيده يؤتية من يشاء ، ولا يملك أحد أن يخص به واحدا أو يخص به أمة ،  
 فهم لا يقدر أن على تخصيص فضل الله بهم أو بغيرهم ، ولا يملكون حصر الرسالة فيهم .

نفى الله هذه المزاعم حيث طلب إليهم أن يؤمنوا بمحمد ، وبين لهم أنهم لا يبالغون في النور والمغفرة إلا بالإيمان به ، وأوحيث طلب من أمة محمد الاستمرار على الإيمان به ، وبين لهم أنهم لا يبالغون في المغفرة إلا بذلك . وعلى كلا الحالين فهناك فضل لمحمد صلى الله عليه وسلم ثابت من الله ، والإشمار بهذا الفضل إعلام لبنى إسرائيل وغيرهم بأنهم لا يقدرُونَ على شيء من فضل الله ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، وأنه صاحب الفضل العظيم .

لم يذم الله سبحانه أتباع عيسى على الابتداع ، لكنه ذمهم على عدم رعايته ، فهل الشأن في الاسلام كهذا أو البدعة شأن آخر ؟

عن أبي وائل عن عبد الله قال : « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطبا طويلا وقال : هذا سبيل الله ، ثم خطبنا خطوبا أخرى من يمينه وعن يساره وقال : هذه سبيل وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ، ثم تلا « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتشترق بكم عن سبيله » .

وعنه صلى الله عليه وسلم « من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد . أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » . وكان عمر رضي الله عنه يقول : « إنما هما اثنتان : الكلام والهدي ، فأحسن الكلام كلام الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ، ألا وإياكم ومحدثات الأمور فإن شر الأمور محدثاتها ؛ إن كل محدثة بدعة »

وقال مالك : « من ابتدع في الاسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدا خان الرسالة . والمبتدع بأحدثاته جديدا أنزل نفسه منزلة الشارع » .

فهذا يدل على ذم البدعة في الاسلام ؛ لكن تمييز البدعة عن غيرها قد يكون سهلا وقد يثق ؛ إلا أنه يجب ألا يفتى عن الفكر هذه القاعدة ، وهي أن المبادات من الأمور التي وضعا الله سبحانه لمصلحة عباده ، فلا يجوز أن يزداد في العبادة شيء على ما ورد به الشرع ، فلا تستحدث عبادة جديدة ، ولا يزداد شيء في كية عبادة مشروعة أو في كيفيتها وهيئتها ، ولا يكثر وقت معين في عبادة لم يرد فيها تعيين .

وكما تكون البدعة في إحداث جديد ، تكون في ترك شيء من الأشياء المباحة على سبيل التدين والتعبد ، كترك نوع من الأطعمة ونوع من اللباس أباحه الشارع لكنه تركه زهدا وقصد بذلك العبادة ؛ ففي هذه الحالة وضع نفسه منزلة الشارع في اعتبار الترك عبادة ، والشارع لم يشرع ذلك إلا فيما عيّن ، لكنه إذا ترك لا على نية العبادة لم يكن الترك بدعة . وأهم خصائص البدعة قصد التعبد والتدين فيما أحدث ، سواء أكان فعلا أم تركا .

ومادة بدع تدل على الاختراع على غير مثال سابق ؛ ومن ذلك قوله سبحانه : « يذبح السموات والأرض » أي اخترعهما على غير مثال سابق متقدم ؛ وقوله سبحانه : « قل ما كنت بدعا من الرسل » معناه : ما كنت أول من جاء برسالة من عند الله . وبناء على هذا يقال : ابتدع فلان بدعة . أي اخترع طريقة لم يسبقه إليها سابق ؛ ثم خصت البدعة في لسان الشرع بعمل لا يوجد دليل عليه من الشرع ، على أن يقصد بهذا العمل المبالغة في التعبد ، وعلى أن يقصد به مضاهاة الأمور الشرعية ، ويلبس به على الناس ، ويومضه أن له أصلا في الشريعة .

بناء على هذا لا تشمل البدعة شيئاً مما أحدثه الناس لمصلحتهم الدنيوية النافعة في الزراعة والتجارة والأكل والملبس والحروب وطرق المواصلات وطرق نقل الأخبار ، ولا يكون استعمال شيء من هذا ابتداءً ، وإنما هو انتفاع بمباح ، وبزينة أخرجها الله لعباده .

وهناك أمور يمرض لها أن تكون بدعة وأن لا تكون بدعة ؛ مثلاً : الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم ويوم الهجرة وبالعمل ، إذا فعلت هذه على أنها عبادة وتدين كانت بدعة بلا شبهة ، لأنه إحداث عبادة لم تكن ولم يؤذن فيها ؛ أما إذا فعلت على سبيل العادة ، وعلى أن الاحتفال بالهجرة وبمولد النبي صلى الله عليه وسلم احتفال بذكرات عزيزة كانت سبباً للخير وموجبة للشكر ، لتنبعث نفس المؤمن إلى التمسك بالهدى وبخالق الكريم ، لم تكن بدعة لأنه لم يقصد بها التدين ، ولم يرد إحداث شيء في الدين . لكن إذا حفت هذه المحدثات التي ليست بدعاً بما هو بدعة ، وبما هو مخالف للشريعة ، حرمت ، لما هو ملائس لها من البدع ، ولما هو ملائس لها من المعاصي . وكل معصية فشت لا تسمى بدعة ؛ لجميع ما يقع في الأسواق والمجمعات والمساجد ، وكل ما أطلق الناس لأنفسهم فيه العنان مما هو مخالف لقواعد الشريعة ، لا يسمى بدعة ، وإنما هي معاص ومحرّمات .

وملاحظة ضوابط البدعة يساعد كثيراً على معرفة البدعة . وقد قلنا إن أهم الميزات والخواص أن يحدث الشيء على أنه دين يتعبد به ، وعلى أن يقصد فاعله التعبد والتدين والتقرب إلى الله سبحانه به .

هناك أمور قد نطن بدعاً وهي عبادة ؛ مثلاً : تدوين الحديث ، وتدوين اللغة ، ودراسة علم الكلام ، والمنطق ، ودراسة جميع المعارف النافعة ، هذه اخترعت على غير مثال سابق مع أن المسلمين يعتقدون أنها عبادات ؛ وفي الحق أنها عبادات ؛ وسبب ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » ، والفقه في الدين موقف بلا شك على الإحاطة باللغة ، والحرم على أن تكون سليمة موقف على التدوين ، وحماية المقائد الإسلامية والحجاجة للإيمان بالله والرسول ، وأصله موجود في الكتاب ، موقف على دراسة الكلام والمنطق ؛ فلهذه الأشياء سند من قواعد الدين العامة ، وسند من المصالح المرسلات ؛ وخاصة البدعة ألا يكون لها سند .

وأكتفي الآن بهذا ، والوقت لا يفسح لأكثر منه .

وهذه السورة الكريمة التي يصر الله أن تكون موضع الأحاديث الدينية في هذا الشهر المبارك ، يمكن أن يطلق عليها سورة الإيمان ، وسورة البر ؛ فقد صدرت بأقوى الدلائل على وجود الله وكلامه ، وصيغت فيها الآيات الحامية على البر والصدقات بأرفع الأساليب وأقواها تأثيراً على النفوس .

# السُّنَّةُ

## التصوير واتخاذ المساجد على القبور

في نظر الاسلام

عن مائشة « أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرا كنيسة رأيتها بالحبيشة فيها تصاويرُ فذكرنا للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فبات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور ، فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » . رواه البخاري في كتاب الصلاة .

ينطلق بشرح هذا الحديث أمور : ( ١ ) معنى الحديث وحكم التصوير في الشريعة الإسلامية . ( ٢ ) حكم بناء المساجد على القبور ، وهل يصح تكريم الموتى بما لا يقره الدين ؟

( ١ ) معنى هذا الحديث ظاهر ، وهو أن أم حبيبة وأم سلمة من زوجات النبي صلى الله عليه وسلم كانتا من بين المهاجرات الى الحبشة ، فنظرتا كنيسة يقال لها مارية هناك فيها تصاوير ، فذكرنا له صلى الله عليه وسلم هذه الكنيسة وما رأين بها من التماثيل والصور ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن أولئك ( بكسر الكاف وفتحها ) إذا كان فيهم الرجل الصالح . . . الحديث .

أما حكم التصوير فهو محل خلاف الأئمة المجتهدين ؛ فمنهم من بالغ في منعه وتحريمه ، ومنهم من تسمح فيه بعض التسامح . وقد يقال لعائنين المتشددين : إن البحوث العلمية النافعة للمجتمع الانساني قد تنوقف على التصوير في بعض النواحي كالصور الانسانية المتخذة من الجبس أو الشمع ، فإن تلاميذ الطب الذين لا يجسدون الأجسام الانسانية التي يتعاملون منها ومن تشريحها ما يفيد النوع الانساني ، لا بد لهم من هذه التماثيل في دراساتهم الطبية ومعرفة تركيب أجزاء الجسم واتصال بعضها ببعض . وكذلك الحال فيما إذا اقتضت ضرورة العلم أو الاحلاق تصوير جسم الانسان في صورة مجسدة كاملة ، فإن من الجور الذي تأباه الشريعة الاسلامية أن يقال إن التصوير ممنوع في مثل هذه الاحوال ، وهي تلك الشريعة السمحة المبينة على تحصيل المنافع العامة في كل قواعدها وأحكامها ؛ فالتصوير علم من العلوم التي لا يصح إهمالها لأن الحاجة الملحة قد تدعو إليه .

وهذا الكلام حسن لا نزاع فيه ، ولكنه لم يفت العلماء المتقدمين الذين بحثوا هذه المسألة طبقا لقواعد الدين الاسلامى .

ولعل أكثر المذاهب الأربعة تساعا في هذه المسألة هو مذهب السادة المالكية ؛ فقد قالوا : إن النوع المحرم من التصوير هو أن تكون الصورة المحسنة كاملة الأعضاء الظاهرة التى لا يمكن أن يعيى الانسان أو الحيوان بدونها ، فإن تقب بطنها أو رأسها تقبا لا يمكن أن يعيى الانسان أو الحيوان معه كان ذلك النوع جائزا لاشئ فيه .

ومن السهل أن يوفق المصورون من المسلمين بين هذه القاعدة وبين فن التصوير ، إذ من الممكن أن يتقب المصور تقبا صغيرا في أعلى الرأس أو في العظمة التى وراء الأذن ، أو في أى جزء من الأجزاء التى لا يعيى الانسان مع تقبها ، ثم يغطى ذلك التقب بالفر أو غيره بحيث لا يظهر للرأين ولا يقدح في الفن الذى يحرم المصورون على إتقانه .

على أن المالكية قد صرحوا بجواز التصوير في النوع الذى تقتضيه الحاجة أو ترتب عليه مصلحة ؛ فقد صرحوا بجواز تصوير الدئى ( العرائس التى تلعب بها البنات ) في صورة مجسمة لغرض نافع وهو تدريب البنات على تربية الأولاد ، وفي حكم ذلك طبعا تصوير جسم الانسان كاملا في صورة مجسمة لتعليم تلاميذ الطب ، أو غير ذلك من الأغراض العلمية التى تنفع المجتمع الانسانى . وبذلك يندفع الإشكال من أساسه .

أما الحنفية والحنابلة فإنهم وإن كانوا يوافقون المالكية على جواز تصوير الانسان أو الحيوان في صورة مجسمة بشرط أن تكون ناقصة تقعا لا تبقى معه الحياة ، كأن تكون بلا رأس أو تكون كالتماثيل النصفية ، إلا أن ظاهر عبارتهم تبيد أن يكون ذلك النقص محسا ، لأنهم صرحوا بأن تكون الصورة ناقصة عضوا لا يمكن أن يعيى الانسان أو الحيوان بدونه . ومعنى هذا أنه لا بد من نقص عضو من الأعضاء الرئيسية ، فلا يكفى التقب الصغير . فإن كان مرادهم بالنقص ما يقول به المالكية كانت المسألة محل وفاق . وعلى كل حال فإن المالكية قد ذكروا بصريح العبارة أن الصورة الكاملة المحسنة التى تتعلم بها البنات الصغار تربية الأولاد جائزة كما ذكرنا ، وهذا الصريح في أن المسألة تتبع المصلحة العامة ، فكل ما يترتب عليه مصلحة للنوع الانسانى فإنه جائز عندهم . وكذلك الصور التى لا يترتب عليها مصلحة فقد أجازوها إذا كانت منقوبة تقبا لا تتأنى معه الحياة .

أما الصور التى ليس لها جسم كالصور ( الفوتوغرافية ) المطبوعة على الورق فإنها جائزة عند بعض المالكية ، ومكروهة فقط عند البعض الآخر . وعلى كل حال فالأمر فيها سهل ؛ ووافقهم الحنفية والحنابلة على ذلك ، وقالوا : إنه يشترط أن لا تكون الصورة معظمة بل حوازا مشروط بامتثالها ، كأن تكون على وسادة أو بساط أو نحو ذلك حتى لا يكون في ظاهر هذا احترام الوثنية التى حرم من أجلها التصوير .

وظاهر عبارة الشافعية تقتضى عدم جواز التصوير مطلقا ، وإنما الكلام فى التفرج عليها بعد تصويرها ، فقالوا إنه جائز إذا كانت غير مجسدة أو كانت مجسدة ولكنها ناقصة عضوا لا تصح معه الحياة وإلا حرم التفرج عليها . ولكن نقل فى التفتح عن النووى أن أبا حنيفة والشافعى ومالكا اتفقوا على جواز التصوير إذا كانت الصورة غير محترمة ، سواء كان لها ظل أولا ، ثم اعترضه بما لا حاجة الى ذكره هنا .

هذا هو رأى المذاهب الأربعة فى هذا الموضوع . وقد اعترض بعضهم على من حرم التصوير اعتراضا وجيها ، فقال : إن الله تعالى قد أمّن على سليمان بقوله تعالى : « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل » الآية ؛ وقد نقل الطبرى عن مجاهد أن التماثيل كانت صورا من نحاس ؛ وقال بعضهم : إنها كانت من خشب ؛ وبعضهم يقول : إنها كانت من زجاج . وعلى كل حال فهى صور مجسدة .

وقد أجاب بعضهم بأن ذلك كان جائزا فى شريعة سليمان ، وقد نسخ فى شريمتنا بالأحاديث الصحيحة . ولكن هذا الجواب على ما فيه فاته ليس بشيء ، لأن الأحاديث الواردة فى هذا الباب ظاهرة فى النهى عن الصور المقرية من الوثنية ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « إن أشد الناس عذابا عند الله المصورون » ، ولا يعقل أن يكون المصورون أشد عذابا من المشركين أو القتلة أو الزناة أو غيرهم من المجرمين . ومهما حاول شراح الحديث فى تفسير كلمة أشد فإن الحديث لا يفهم فيها صحيحا تسترجم اليه النفس إلا إذا كان المراد بالمصورين صنّاع الأوثان التى تعبد من دون الله ، فهؤلاء مع كفرهم بالله ورسوله يصنعون التماثيل التى تعبد من دون الله ، فهم ضالون مضلون يعذبون على ذلك أشد المذئاب . ومتى كان معنى هذا الوعيد مقصورا على الوثنيين الذين ينتحون الأوثان فلا تعارض بينه وبين الآية ، لأن التماثيل التى كانت تصنع فى عهد سليمان بأمره كانت لأغراض صحيحة كالأقراض التى أشرنا إليها . ومحال أن تكون أوثانا تعبد فى منزل سليمان كما هو مذكور فى التوراة المحرفة ، فانها قد صرحت بأن سليمان قد ارتد وعبد الأوثان لنأثره بزوجاته الحسان الوثنيات المصريات . أما القرآن الكريم فانه قد برأ سليمان من ذلك ووصفه بأحسن الصفات وأحلمها ، وهو رسول كريم معصوم عن الجرائم التى ألصقتها به التوراة .

وأغرب من هذا أن بعضهم يستدل على النسخ بالحديث الذى نشرحه ، وذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال لزوجتيه : إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك هم شرار الخلق . فهذا النص صريح فى نسخ ما كان يعمل فى الأمم التى من قبل .

والجواب أن هذا الفهم ليس بشيء مطلقا بل لا ينبغي لمالم أن يفهمه ، لأن هذا الحديث

صريح في أن الذين كانوا يعملون ذلك شرار الناس ، فكيف يدخل في هذا الوعيد عمل الأنبياء ؟ وكيف يكون هذا وحيا من عند الله ينسخ في شريعتنا ؟ بل الذي يفهم من هذا الحديث أنهم كانوا يعملون عمل الوثنية فيبنون المساجد على القبور ويصورون فيها التماثيل ، وهؤلاء وإن كانوا يتدينون بدين ، ولكنهم في الواقع يعملون عمل المشركين الوثنيين ، فأولئك هم شرار الناس بلا نزاع . وهذا الحديث غير ناسخ للآية بلا نزاع .

والذي يدفع هذا الإشكال هو ما ذكره ابن حبان بأن هذا الحكم خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا عمل بهذا الرأي كان رافعا لكل إشكال في هذا الموضوع ، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم كانت داره مهبط الوحي ، فكل ما كان يستعمله الوثنيون يومئذ من صورة أو جرس أو اقتناء كلب كان من المعلوم أن يتزده عنه منزل الرسول ، خصوصا أن الوثنية كانت محبة إلى النفوس يومئذ ، فلا بد من مضي زمن حتى تفسى صورها وآثارها . أما في الجهات التي ليست فيها وثنية ، أولا تتخذ من تلك الصور آلة لعبادة والاحترام ، فانه لا وجه لتحريمها بها . ويدل لذلك ما رواه ماصم عن عكرمة أنه قال : كانوا يكرهون ما نصب من التماثيل نصبا ، ولا يرون بأسا بما وطئته الأقدام . فظاهر هذا وغيره يرشدنا إلى حكمة تحريم التصوير ، فانه إنما حرم إذا كان يبعث إلى الوثنية أو يجر إلى عبادة الصور ، وإلا فلا .

( ٢ ) أما حكم بناء المساجد على القبور فهو غير جائز باتفاق . وهذا الحديث الذي معنا صريح في النهي الشديد عن بناء المساجد على القبور ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم وصف الذين يتخذون المساجد على القبور بأنهم شرار الخلق . وقد ورد في البخاري أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال قبل أن يتوفى بخمس : « لا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهار عن ذلك » . وهذا يدل دلالة صريحة واضحة في أن النهي عن بناء المساجد على القبور لم يتطرق إليه احتمال نسخ أو غيره ، فهو محكم لا شك فيه ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قاله في آخر حياته ، ولم ينقل أحد عنه حديثا بعد ذلك في هذا الموضوع . فلا نزاع حينئذ في أن بناء المساجد على القبور غير جائز ، ولذلك قال الحنابلة : إن الصلاة تبطل على القبور إذا كانت أكثر من اثنين .

وروى مسلم : « لا تجلسوا على القبور ، ولا تصلوا إليها أو عليها » . وهذا يدل على أن الصلاة في المقبرة لا تجوز على أي حال . ولذا روى عن عمر رضي الله عنه أنه رأى أنسا يصل إلى القبر فناده : القبر القبر ! فتنهى أنس عن الصلاة إليه .

ومن هذا تعلم أن ما ذكرته الفتاة التي قيل إنها دفنت وأخرجت من قبرها بعد دفنها من أن الشيخ هارون طلب إليها بناء مسجد على قبره ، قول باطل لا تقره الشريعة الإسلامية ، بل كل روايتها المتعلقة بالشيخ لا ينبغي لعامل أن يصدقها ولا يعول عليها ، فإن غرضها ظاهر

وهو جلب النذور للشيخ كما هو الحال في المساجد التي اتخذت أضرحتها لهذا الغرض الفاسد الذي نهت عنه الشريعة الإسلامية نهيًا صريحًا وحرمة تحريمًا باتًا .

وقد صرح بعض أئمة الحنفية بأن المال الذي يودع على ذمة الصالحين من الموتى بصفة نذر أو غيره مال خبيث ، وأن الذين يتخذون الوسائل لتحصيله يمثل هذه العقيدة الفاسدة إنما يأكلون حرامًا باتفاق .

ولا ينبغي للمسلمين أن يظلوا على هذه الحالة التي تدل على جهالة بديهم ، وبما تقتضيه المواميس الكونية والسنن الإلهية من ارتباط الأسباب بحسباتها . فلا بد للناس من التحكم بالأسباب التي أمرهم الله بها في معاشهم ومعادهم ، ولا بد لهم إذا أرادوا نجاحها من الاعتماد عليه وحده . أما الصالحون من الموتى أو غيرهم فإن إكرامهم إنما هو بالاعتناء بهم في القمك بالدين الصحيح ، لا يمثل هذه الأباطيل التي يحترعها الدجالون الكدبة ، وسيلفون جزاءهم عند ربهم مرتين .

هذا وقد سألتى بعضهم عن جواز إعادة الحياة إلى الميت وبعثه في الدنيا .

والجواب : أن ذلك جائز ، بل وقع فعلا مع العزير . ولكن كان هذا لأغراض عظيمة القيمة ، منها التمدليل للعزير على كيفية إحياء الميت الذي كان يستعظمه ، ومنها إimate العزير زمنًا طويلاً ثم يمته بعد ذلك لمحاربة الوثنية بين قومه ، وإعادة أحكام التوراة التي أضاعوها بوثنيتهم ، إلى غير ذلك من الحكم التي لها آثار عظيمة بين الناس . أما إimate شخص مادي لا قيمة له ثم إحياءه بعد ذلك حقيقة ليضرب الناس بخبر كاذب يضر الدين الإسلامي ، فذلك محال بلا كلام .

عبد الرحمن الجزيري

## حب البنات

دخل عمرو بن العاص على معاوية وبين يديه بنته عائشة ، فقال عمرو : من هذه ؟ فقال معاوية : هذه تفاحة القلب .

فقال عمرو : انبذها عنك ، فوافقه إنهن ليلدن الأعداء ، ويقربن البعداء ، ويورثن الضغائن .

فقال معاوية : لا تقل ذاك يا عمرو ، فوافقه ما سرّض المرضى ، ولا نذب الموتى ، ولا أمان على الأحزان مثلهن ، ورب ابن أخت قد تقع خاله .

وقال المعل الطائي :

لولا بُكيات كزُغِب القطا      خططن من بعض إلى بعض  
لكان لي مضطرب واسع      في الأرض ذات الطول والعرض



## التصوف والمتصوفون

- ٤ -

الشبلي:

هو أبو بكر بن جعفر الشبلي ، قد ولد في بغداد في سنة ٢٤٧ هـ ، ولما شب بدأ حياته العملية بفعل منصب سياسي هام ، إذ كان والياً على مدينة « داماواند » ، ثم اتصل بأحد أصدقاء الجنيد من الصوفية فترك الحياة العامة ونفسك ، وكان مالكي المذهب ، وقد تبع آراء المحاسبي في التوحيد ، وكان شاعراً شهيراً في عصره .

اعتنق الشبلي الحياة التنسكية بتحمس دفع الجنيد الى أن يقول عنه ما يلي : « إن كل بلد يحمل فوق رأسه تاجاً ، وإن تاج بلادنا هو الشبلي » .

كان الشبلي يدين بنفس الآراء التي كان الحلاج يدين بها ، ولكنه حين رأى الحلاج قد قدم الى المحاكاة انزعج وأسرع الى جحود مذهب وحدة الوجود الذي كان الصوفية يمهرون عنه بـ « عين الجمع » .

غير أن هذا الجحود لم يكن كافياً في طمأنته ، لأن الروايات الصرية عن اتهامه وعن عدم كفاية تبرئه من آرائه قد تعددت ، فلم ير منجاة لحياته إلا في ادعائه الخنون فتظاهر به . وأكثر من ذلك أنه اندمج في وسط الجاهل يوم تمذيب الحلاج واشترك في سبه ، ولكنه لم يلبث أن ندم على هذه الفعلة التي لم تكن تليق بالعامة فضلاً عن الخاصة والمتنسين .

ظل بعد ذلك يزاول حياة غريبة متباعدة الاطوار ، فاذا رأى من يخشى عاقبة الحديث معه تظاهر بالخل ، وإذا اختل بتلاميذه وأصدقائه أطلعهم على حقيقة آرائه ، وبشر أمامهم بمذهبه . ومما كان يقوله أمام أولئك الأنصار العبارة التالية : « أنا والحلاج لم يكن لنا إلا رأي واحد ، ولكن جنوني المزعوم نجاني ونصيرته أضاعته ، هو أظهر رأيه ، وأنا أخفيت » .

وقد روى عنه الامام القرافي في أكثر من موضع أنه لم يكن ينطق بشهادة أن لا إله إلا الله ، بل كان يكرر دائماً : الله الله ، فلما سئل عن السبب في هذا أجاب مخاطباً الإله قائلاً : « إن المنزل الذي تقطنه ليس في حاجة الى مصباح » . ومما أثر عنه أيضاً ارتيابه في كل حقيقة ما عدا ذاته ، كما فعل الحلاج من قبل .

ومن هذا كله يتبين أن الشبلي كان يدين بكل آراء الحلاج ، ولكن حرصه على الحياة أنقذه من ذلك المصير المرعب الذي انتهى اليه الحلاج على ما سيجيء . وأخيراً توفي هذا الصوفي في سنة ٣٤٤ هـ .

## الحلاج - حياته .

ولد الحسين بن منصور الحلاج في بيضا حوالي سنة ٢٤٤ هـ ، ولما شب تلقى العلم في تستر على سهل بن عبد الله القسري . ولما بلغ من العمر ثمانية عشر عاما ارتحل الى البصرة ثم الى بغداد حيث تعلم على عمرو بن عثمان المكي مدة ثمانية أشهر ، ثم تزوج أم الحسين ابنة أبي يعقوب الأنطع ، فتسبب هذا الزواج في غضب أستاذه عليه ، فافترقا ، وارتحل الحلاج الى مكة فادى فريضة الحج ومكث فيها سنة ، ثم عاد الى بغداد فالتقى بالجنيدي وكان يعرفه من قبل . وفي أحد الأيام وجه اليه سؤالاً فلم يجبه الجنيدي عليه احتقاراً له ، لأنه كان يرى أنه رجل أطماع ، فانجرحت كرامة الحلاج وغادر بغداد الى تستر فظل فيها سنتين قاسى أثناءها عنه شديداً ، لأن سوفيية هذه المدينة كانوا يهاجونه في عنف ، ولما بلغ الغضب من نفسه أقصاه ، زرع ملابس الصوفية وألقى بها جانباً ، ثم ارتحل الى خراسان وسجستان فأقام متنقلاً بين هاتين المدينتين خمسة أعوام ، ثم ارتحل الى مكة فادى الحج للمرة الثانية ، ثم عاد الى بغداد ، ثم ارتحل منها الى خراسان ، فالى الهند ، فالى الصين . وفي هذه المدن الثمانية قد عرفت قيمته ، ففى الهند كانوا يدعونه بالشفيع ، وفي الصين كانوا يسمونه المظم ، وفي خوزستان كانوا يلقبونه بحلاج الاسرار ، وفي بغداد بالقيسوي ، وفي البصرة بالنهر .

وبعد ذلك عاد الى مكة فحج للمرة الثالثة وأقام بها سنتين ، ثم ألقى عصا النسيار أخيراً في بغداد حيث بنى فيها منزلاً وأخذ يلقي دروساً عامة على المتعلمين ييسط فيها آراءه الصوفية ، فلم يلبث أن صار موضع جدل وزعاع بين سامعيه ، فقرر بعضهم أنه ساحر ، وجزم البعض الآخر بأنه مجنون ، وأكد فريق ثالث أنه يأتي بكرامات .

وأخيراً علا صيته ونسب اليه أصحابه عدداً من الكرامات ، فأثار ذلك عليه حقد الفقهاء ، فأبلغوا عنه الخليفة ، واستشهدوا على كفره بمسند موقع عليه من هدد كبير من القضاة والفقهاء ، فأمر الخليفة بالقبض عليه في « سوز » في سنة ٣٠٦ هـ وألقى به في السجن ثمانية أعوام . وفي نهاية هذه المدة جدد الفقهاء الشكوى في حاشية أعظم من الأولى وعالوا بقتله ، فأجابهم الخليفة الى سؤلهم وأمر بتسليمه الى الجلاد وأوصى أن يعذب قبل قتله بضربه وتقطيع أطرافه . وقد سرد فريد الدين التمارسى قصة تعذيبه المؤثرة التي يحمر لها وجه التاريخ خجلاً ، فقال :

« أسعد الجلاد الحلاج فوق منصة عالية تحوط به الجماهير الغفيرة من عامة الشعب ملقبة عليه الاحجار والأوحال ، وهو لا ينفك عن تكرير تلك الكلمة التي كانت السب في قتله ، وهي : « أنا الحق أنا الحق » ، ولما طلب اليه أن يطق بالشهادة ساح مخاطباً الإله قائلاً : « إن وجوداً أنت فيه غير محتاج الى مشعل ينيره » .

ونحن نرى أن هذه العبارة هي نفسها التي عبر بها الشبلي ، ومعناها أن وجود الله واضح

وليس محتاجا الى أن يؤيده الحلاج بشهادته . ولما سئل ما هي الصوفية ؟ أجاب بقوله : « هي مالا تمة طيعون أن تهيموه » . فأخذ الجلاد يضربه بالسوط وهو يتمم ، فلما فرغ من ضربه قطع يديه ورجليه فقابل ذلك بالابتسام ، وجمل يلطخ وجهه بدم ذراعيه المتدفق ، ولا يدري أحد ما حكمة ذلك عنده ، ثم فقا الجلاد عينيه . وفي نفس اللحظة التي تم الجلاد فيها بقطع لسانه كان هذا الانسان ينطق بالاستغفار لذلك الجلاد ولمن اشتركوا معه في تعذيبه . وبعد موته أحرقوا جسده وألقوها في نهر دجلة ، وقيل إن رأسه أرسل الى خراسان .

هذه هي رواية فريد الدين ، وقد روى كثيرون غيره هذه الحادثة على صور تختلف قليلا عن هذه الصورة . فثلا أنبأنا ابن الحلاج نفسه أن والده وهو سائر الى موضع الصلب كان يرقص في أغلاله فرحا ، وأنه سمعه بعد قطع يديه ورجليه يتأجج ربه فيقول : « يا إلهي إني سأؤى الى مقر رغباني ، وسأشاهد ههالك » !

وقد حدثنا كذلك أن أبا بكر الشبل قدم الى والده أثناء التعذيب وأخذ عليه أنه باح بسر الإله ، ففعل به ما فعل . وأنبأنا كذلك أنه ضرب قبل قطع يديه ورجليه خمساثة سوط ، وأن تلميذه ابراهيم بن فائق قد رأى بعد موت الحلاج بثلاثة أيام الإله في المنام فسأله قائلا : مولاي ماذا فعل الحسين بن منصور حتى يلقى هذا العذاب ؟ فأجابه الإله قائلا : إني أوحيت إليه الحقيقة ، ولكنه دعا إليها الناس من نفسه فأزلت عليه العقاب الذي رأيت .

وقد حدثنا أحد كتاب الحكومة الرسميين أن رئيس الشرطة قد أحضر الحلاج أمام باب الطاق في اليوم الرابع والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ٣٠٩ هـ وأمر بضربه ألف سوط ، ففرض ستائة دون أن ينطق بكلمة ، ثم قال لضاربه بعد ذلك : دعني أحذئك فإن لدى نأ هو خير خلفية من مدينة القسطنطينية ، فقال له : إني قد أنبت أنك ستعذني بأكثر من هذا ، ولكن لا سبيل الى الكف من ضربك ، وأخذ يصربه حتى أتم الألف ، ثم قطع الجلاد يديه ورجليه ثم رأسه .

هذا هو قليل من كثير من الروايات المتباينة التي أوردتها المؤرخون في موت الحلاج ومزجوا ما فيها من حقائق بأضماها من الخرافات .

#### مؤلفاته :

كتب الحلاج كثيرا من المؤلفات ، ولكنها فقدت كلها تقريبا ولم يبق منها إلا شذرات متناثرة وفقرات متفرقة . وقد ذكر لنا ابن السديم قائمة بستة وأربعين كتابا من هذه الكتب تدل عناوين أكثرها على أهميتها في الناحية الصوفية من الحركة العقلية الإسلامية . وهالك أهم هذه الكتب :

(١) « طس الأزل والالتباس » وهو الآن موجود تحت الفصل السادس من كتاب « الطواسين ». (٢) « الجواهر الأكبر والشمعة الزئبوتية المباركة النورية ». (٣) « الأحرف المهددة والأزلية والأسماء السكية ». (٤) « الظل الممدود والماء المسكوب والحياة الباقية ». (٥) « حمل النور والحياة والروح ». (٦) « تفسير قل هو الله أحد ». (٧) « الأبد والمآب ». (٨) « قراءة القرآن والفرقان ». (٩) « خلق الإنسان والبيان ». (١٠) « كيد الشيطان وأمر السلطان ». (١١) « الأحوال والتروع ». (١٢) « مر العالم والمبعوث ». وهذا الكتاب موجود. (١٣) « العدل والتوحيد ». (١٤) « السياسة والخلفاء والأمراء ». (١٥) « علم البقاء والفناء » وقد بقي قسم منه. (١٦) « شخص الظلمات ». (١٧) « نور للنور ». (١٨) « المتجليات ». (١٩) « الهياكل والعالم والعالم » وهو موجود. (٢٠) « مدح النبي والمثل الأعلى » وهو موجود تحت الفصل الأول من الطواسين. (٢١) « غريب الفصيح ». (٢٢) « النقطة وبهاء الخلق » وقد بقيت منه شذرات. (٢٣) « القيامة والقيامات ». (٢٤) « الكبر والمظنة ». (٢٥) « الصلاة والصلوات ». (٢٦) « خزائن الخيرات الألف المقطوع والآلاف المؤلف ». (٢٧) « مواجد العارفين ». (٢٨) « الصدق والاحلاس ». (٢٩) « الأمثال والأبواب » وهو موجود تحت الفصائل الرابع والخامس من الطواسين. (٣٠) « اليقين ». (٣١) « التوحيد » وهو موجود. (٣٢) « النجم إذا هوى ». (٣٣) « الذاريات ذروا ». (٣٤) « الذي أنزل عليك القرآن » ولعله هو الفصل الثاني من الطواسين. (٣٥) « الدرة » وهو موجود. (٣٦) « السياسة ». (٣٧) « هو هو ». (٣٨) « كيف كان وكيف يكون ». ولا يوجد منه إلا شذرات في الطواسين. (٣٩) « الوجود الأول ». (٤٠) « الوجود الثاني ». (٤١) « الكبريت الأحمر ». (٤٢) « السكيفية والحقيقة ». (٤٣) « السكيفية والجهاز ».

أدكتور محمد محمود

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

## رذيلة الوشاية

قال رجل لطبيع بن إبليس: جئتكم خاطباً مودتكم. فقال له: قد زوجتك على شرط أن تجعل صداقها أن لا تسمع في مقالة الناس.

وقال محمد بن بشار:

نائب أخاك إذا هفأ      وأعطف يودك واستمده  
وإذا أتاك بغيره      واش فقل لم تستمده

# حياة حلالنا لينا لله

## أبو بكر الصديق

- ٦ -

مضى أبو بكر رضي الله عنه في هجرته إلى الله تعالى رفيقا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يرتاد له المنازل إذا حل ، ويخبر له خبر الطريق إذا ارتحل ، ويسهر عليه إذا نام ، ويحذره إذا استيقظ ، ويرد السائلين عنه بالطف جواب ، حتى يأمن عليه الطلب ، وينعو وإياه من الدرك ، فراراً بدين الله من وجه البني والمدوان . روى البخاري في الصحيح عن البراء بن مازب قال : « اشتري أبو بكر رضي الله عنه من مازب رجلاً بثلاثة عقر درهما ، فقال أبو بكر لمازب : « مر البراء فليحمل إلى رحلي ، فقال مازب : لا ، حتى نحددنا كيف صنعت أنت ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرجنا من مكة والمشركون يطلبونكم ، قال أبو بكر : أحذ علينا الرصد نخرجنا ليلاً ، فأحبينا ليلتنا ويومنا حتى قام قائم الظهيرة ، فمررت ببصري ، هل أرى من ظل فأوى إليه ، فإذا صخرة أتيتها ، فنظرت بقية ظل لها فسويته ، ثم فرشت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فروة موى ، ثم قلت له : اضطجع يا نبي الله ، فاضطجع النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم انطلقت أنظر ما حولي ، هل أرى من الطلب أحداً ؟ فإذا أنا براع قد أقبل في شنيعة يريد من الصخرة مثل الذي أردنا ، فسألته : لمن أنت يا غلام ؟ قال : أنا لرجل من قريش معاه فمرفته ، فقلت : هل في غنمك من لبن ؟ قال : نعم ، قلت : هل أنت حالب ؟ قال : نعم ، فأمرته فأعقل شاة من غنمه ، ثم أمرته أن ينفذ ضرعها من الضار ، ثم أمرته أن ينفذ كفيه ، فحلب لي كئيباً من لبن ، وقد جعلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم إداوة من ماء عليها خرقة ، فصبيت على اللبن حتى برد أسفله ، فانطلقت به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فوافقته قد استيقظ ، فقلت له : اشرب يا رسول الله ، فشرب حتى رضيت ، ثم ارتحلنا والطلب في أثرنا .

وكان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً مروفاً في العرب ، فإذا مر على قبيل منهم وهو رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سئل عنه : من هذا الرجل الذي بين يديك ؟ فيقول : هذا الرجل يهديني السبيل ، فيحسب الحاسب أن أبا بكر إنما يعني الطريق ، وهو رضي الله عنه إنما يعني سبيل الخير ، وهذا من لطيف المعارض التي يخرج بها المتكلم من مضائق السؤال دون أن يشعر سائله بأعراض عن إجابته ، أو يطلع على سر من أسرار نفسه ، وهو مذهب من أدق مذاهب الأسلوب العربي والطفه .

وفي حديث أنس بن مالك « أنه صلى الله عليه وسلم أقبل المدينة وهو مردف أبو بكر وأبو بكر شيخ يعرف ، والنبي صلى الله عليه وسلم شاب لا يعرف » . قال بعض العلماء : وإنما كان أبو بكر معروفا لأهل المدينة لأنه كان يمر عليهم في سفره للتجارة . والمعول عليه في التاريخ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أنس من أبي بكر رضى الله عنه ، غير أن الصديق كان قد شاب ، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يغب . وعند ابن سعد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر : أله عنى الناس ، فكان أبو بكر إذا سئل : من أنت ؟ قال : يا بني حاجة ، فإذا قيل : من هذا منك ؟ قال : هذا يهدينى السبيل . وفي البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر لما وصلا إلى المدينة ونزلا في بني عمرو بن عوف « قام أبو بكر للناس وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتا ، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي أبو بكر ، حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك » .

وفي مجموع هذه الأخبار الصادقة ما يزيدنا يقينا بمكانة الصديق في الإسلام وقبلة ، ويزيدنا إيمانا بما حباه الله به من المزايا السامية التي جعلت منه رجل الإسلام الأول في كل موطن من مواطن البطولة والتفاني في سبيل الخير والحق .

باستقرار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالمدينة المنورة ، واتخاذها موطن الدعوة ، اتجه المسلمون إلى حياة الجهاد والقوة ليقنعوا أمام الحق الطريق إلى قلب الإنسانية الظمأى إلى الإيمان بما يبعث إليها الهداية والرشاد ، وكان أعظم مظاهر ذلك وأحزرها غزوة النصر « بدر الكبرى » ، خرج إليها النبي صلى الله عليه وسلم فيمن نطط من أصحابه وعن يمينه أبو بكر الصديق ، وعن يساره عمر الفاروق ، وأمامه السعدان سيدا الأنصار ، يقدمهم الحق ، ويحموهم الإيمان ، وتجمعت لها قريش بخيلها ورجلها ، تحاد الله ورسوله بباطلها وأقيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريض من جريد ، فدخله ومعه أبو بكر الصديق ، وقام سعد ابن معاذ على باب العريض متوشحا سيفه ، والتي الجمال ، وتقدم فتيان قريش في صف العنجهية يطلبون أقرانهم من المسلمين للمبارزة ؛ وهنا موقف لأبي بكر الصديق رضى الله عنه هو آية الآيات في باب البطولة والنضحية بالنفس ليكون مثلا مضروبا لكل من تبطن عقيدة الحق وحبل بينه وبين حرية الدعوة إليها :

شكتم الإبرو حرة نصره  
ذلك أنه كان فيمن خرج إلى المبارزة ابن لأبي بكر الصديق ، فأتاه أبو بكر وعرفه حتى ناشد رسول الله صلى الله عليه وسلم طالبا أن يأذن له في الخروج إليه ، فقال : يا رسول الله دعني أكون أول الرعيل . ولكن أبا بكر هو القائد الثاني لجيش الإسلام ، يحتاج المسلمون إلى رأيه وعقله المدبر ، فلم يأذن له القائد الأعظم ، وأخبره بالحاجة إليه ، فقال له : « متعنا

بنفسك يا أبا بكر ، أما تعلم أنك عندى بمنزلة محمى وبصرى . قال جبهة من المفسرين : وفى هذه الحادثة نزل قول الله تعالى : « لا تعبدوا ما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » .

حسب عظمة الصديق رضى الله عنه أن يسجل فى سجل مفاخرها هذه المنقبة الباهرة التى تدل على أن منزلته من نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تعدلها منزلة أحد فى الدنيا ، وفى قوله له : متعنا بنفسك يا أبا بكر ما يوصى الى مقام الاحتصاص الذى تفرد به الصديق ، وليس بعد مجمع رسول الله وبصره منزلة فى العزة والحببة ، وفى مسارعة الصديق الى مبارزة ابنه وفلذة كبده واستثذانه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون فى الرجل الأول ما يكشف عن حقيقة الإيمان ورسوخ العقيد التى تسمو بصاحبها الى حيث تسنم أبو بكر مكانه فى ذروة الإسلام .

تراحف الناس وذنا بعضهم من بعض ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى العريش معه الصديق كثرة عدد المشركين ووفرة عددهم ، فقام يناشده ما وعده من النصر ، واستشعر قلبه الشريف الشفقة على أصحابه وهو بال مؤمنين رهوف رحيم ، فألح فى الدعاء حتى سقط وداؤه عن منكبيه ، فأخذ أبو بكر الرداء وألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ، وقال : يا بنى الله ، كفارك مناشدتك ربك ، فانه سينجز لك ما وعدك . قال الخطابي : لا يتوم أحد أن أبا بكر كان أو تقربه من النبى صلى الله عليه وسلم فى تلك الحالة ، بل الحامل للنبى صلى الله عليه وسلم على ذلك شفقتة على أصحابه ، وتقوية قلوبهم ، فباللح فى التوجه والدعاء والابتهاال لتسكن نفوسهم عند ذلك ، لانهم كانوا يعلمون أن وسيلته مستجابة ، فلما قال له أبو بكر ما قال ، كف عن ذلك وعلم أنه استجيب له لما وجد أبو بكر فى نفسه من القوة والطمانينة ، ، فلهذا عقبه بقوله : سبهم الجمع ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم فى تلك الحالة فى مقام الخوف ، وهو أكل حالات الصلاة .

انكشفت المعركة فإذا لواء النصر بيد المسلمين ، وإذا الله تعالى قد أنجز لرسوله ما وعده ، فقتل كثير من صناديد قريش ورهوس الكفر ، وحاد المؤمنون الى المدينة وفى أيامهم الضائقة وفى شتاتهم أزمة الأسرى بقودهم بأنوف ذليلة راغمة ، وعقد مجلس الفورى برئاسة سيد العالمين ، وعن يمينه الصديق الأعظم وزيره الأول ، وعن يساره الفاروق ، وفى الثيتان على بن أبى طالب ، يحف بهم القرم الميامين من المهاجرين والأنصار ليضموا للانسانية أول مادة فى دستور الديمقراطية الفاضلة ، وليؤسسا صرح الحرية على دعائم الفورى ، تحقيقا لقول الله تعالى : « وأمرم شورى بينهم » ، وعملا بقوله تعالى : « وشاورهم فى الأمر » .

هؤلاء رهوس الشرك فى أيدينا أظفرنا الله بهم ، فماذا نصنع فيهم ؟ وهل غير القتل

وقوله تعالى  
« وأمرم شورى بينهم »  
« وشاورهم فى الأمر »  
« ولا تعبدوا ما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم »

يستحقون ؟ لا ، بل تسر لهم نار في واد كثير الخطب فيلقون فيه ؟ إنهم أئمة الكفر الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أشد الإيذاء ، وصدوا الناس عن سبيل الله ، وأخرجوا المؤمنين من ديارهم وأموالهم . إن الأمر جد خطير ، فهذه جرثومة قريش في غطارقتها الذين كذبوا رسول الله وأخرجوه وقتلوه ، إن هلكوا بأيدينا فقد شفيينا صدورنا منهم ، ولكن أليس من الجائز أن يكون في هذه الأصلاب من ادخر لانتفاذ الإنصاف حين تضرب بها أمواج الحياة ؟ أو ليس في هذه الأنفس نفس يجوز أن يهب عليها نسيم الرحمة الإلهية فاذا هي أهدي سبيلا ، وأقوم قبلا ، وأرشد رشدا ؟ كل ذلك جائز أن يكون ، فليسمع القائد الأعظم صلوات الله عليه من وزرائه آراءهم وله من بعد ذلك الرأي الأعلى . وهنا تتجلى خصيصة الإسلام في مراعاة الفطرة الصديقية والفاروقية ، والإسلام دين يجمع بين عنصرى العقاب الحازم والعفو الرحيم ، فيأخذ الصديق الأعظم بجانب الرحمة المطلقة ، ويأخذ الفاروق بجانب القسوة الزاجرة ، ويسقط رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحكم ، فيحقق الغيب بحكمة الصديق ، ويأتي التشريع على وفق سياسة الفاروق ، وسنبلين ذلك إن شاء الله ؟

صالح إبراهيم هريمو

## آدب الحديث والاستماع

قال حكيم : رأس الآدب كله حسن الفهم والتفهم ، والاستماع للنكلم .  
وذكر الشعبي قوما فقال : ما رأيت مثلهم أشد تناوبا في مجلس ، ولا أحسن فهما من محدث .  
ووصف الشعبي عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي فقال : ما علمته إلا آخذا بحسن الحديث إذا تحدث ، وبحسن الاستماع إذا تحدث ، وبأيسر المؤنة إذا خالف ، تاركا لجأوبة التيم ، ومعاراة السفية ، ومنازعة القجوج .  
وقال حكيم لابنه : يا بني تعلم حسن الاستماع ، كما تتعلم حسن الحديث ، ولتعلم الناس أنك أحرص على أن تسمع ، منك على أن تقول ، فأحذر أن تسرع في القول فيما يجب عنه الرجوع بالفعل ، حتى يعلم الناس أنك على فعل ما لم تقل ، أقرب منك إلى قول ما لم تفعل .  
وقال آخر : من حسن الآدب أن لا تغالب أحدا على كلامه ، وإذا سئل غيرك فلا تجب عنه ، وإذا تحدثت بمحدث فلا تنازعه إياه ، ولا تقنعم عليه فيه ، ولا تُره أنك تعلمه ، وإذا كُلت صاحبك فأخذه حجبتك ، فحسن مخرج ذلك عليه ، ولا تظهر الظفر به ، وتعلم حسن الاستماع ، كما تتعلم حسن الكلام .  
أقول : إذا عمل الناس بهذا الآدب بطل كثير من الفضول والعجاج والتشاد ، وحل محل ما يجب أن يكون بين العقلاء من الوفاق والنبيل والتحاب .



## ابن حزم الاندلسي

حياته وفلسفته

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ، ينتهي نسبه الى عبد شمس الاموي ، وأصل آيائه من إقليم الرواية من كورة نبله غرب الاندلس . وكان مولده بقرطبة آخر يوم من شهر رمضان سنة ٣٨٣ هـ وكان أبوه أبو عمرو أحمد بن سعيد أحد وزراء المنصور بن أبي حامر .

كان ابن حزم وزيراً لعبد الرحمن المستنصر بالله ، ثم المقتدر بالله ، ثم ترك الوزارة وأقبل على قراءة العلوم وتبديد الآثار والسفن ، وأوغل في الاستكثار من علوم الشريعة حتى نال منها ما لم ينله أحد قط بالاندلس .

مكانة ابن حزم في التأليف :

قام ابن حزم بتأليف رسالة في المفاضلة بين الصحابة ، عرض فيها لمضى الفضل ووجوه المفاضلة ، وأبدى رأيه في فضل أزواج الرسول ، ثم وازن بين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، وبينت الأسباب التي دعت الى ترتيبهم في الفضل ، مستندا الى الاسانيد القوية التي قام عليها هذا الترتيب ، وأجل ما يمتينا في هذه الرسالة أن ابن حزم التزم فيها ترتيب أفسكاره بطريقة منطقية محكمة ، فاستعرض في القسم الاول منها آراء المخالفين لرأيه في المفاضلة بين الصحابة ، وشرع في تمهيد الاحتجاج لرأيه والرد على جميع الآراء المختلفة ، فكان موقفا في الرد مبرزاً في الاحتجاج والتفوق العقلي عليهم . وفي القسم الثاني سرد حججه في فضل أزواج الرسول مستمدة من الكتاب والسنة ومجيب الخبر ، واقفا عند النصوص ممعنا فيها تدقيقاً وتحليلاً واستنباطاً ، وناقش نصوصها مناقشة فنية من جهة الحديث والأصول . وهنا يدرك تمكنه من الدين وعلومه ، ثم ذكر جميع الاعتراضات والشبه حتى إذا دفع جميع الاعتراضات ، ذكر الرأي في تفضيل عائشة وخديجة على سائر أمهات المؤمنين . وفي القسم الثالث عين لنا أفضل الصحابة بعد أمهات المؤمنين مهتايصورة خاصة بمجدال الشيعة وآرائهم . وخاتمة الرسالة في ميزة الإسلام وتسويته بين الناس كافة ، وإهداره تقديم القراءة ، واعتداده في القيمة بالعمل لا بأي شيء آخر .

أما كتابه « طرق الحامة » المطبوع في ليدن سنة ١٩١٤ ، فقد أحدث فكرة جديدة عن فن الحب ، حتى لقد تناولته أقلام الكتاب في أوروبا وأمريكا بالنقد والتحليل . وكان من المعجيب حقاً أن يكتشف الباحثون أنه كان في أواخر القرن الرابع الهجري كاتب عربي

يتناول حديث الحب الوجداني البريء في أسلوب جذاب ، وله دراية في فهم أسرار النفس والقلب .

ما كاد هذا الكتاب يظهر على يد الأستاذ بيتروف صاحب الفضل في الكشف عنه ، وقد كاد أن يندثر ، حتى صدره بمقدمة طويلة بالفرنسية عام ١٩١٤ . ومن هنا أقبل على ترجمته والتعليق عليه جمهرة من كبار المستشرقين أمثال دوزي وبروكلمان ومرسيه وغيرهم .

أما ابن حزم فقد رجع في كتابه العاطفي الى ذكرياته في عنوان الشباب ، وتعب على الدين من أهوائه ورغباته ، وحلل التيارات الفكرية والوجدانية التي كانت تصطبغ بين حنبيه ، وطال الأزمة النفسية التي استولت عليه . ثم ما لبث أن تحول ابن حزم في باب قبح المعصية وفضل التعفف ، الى واعظ ديني يدعو الى محاربة الشهوات ، وإحلال الفضيلة مكانها ، حتى يتغلب الجانب العاطفي في النفس على الجانب الدنيء منها ، كما يتغذى الجسم بالغذاء المناسب لتقوم كيانه ، ومن هنا جاء كتابه عن الحب وجدانياً وأخلاقياً مما ، وكان خير كتاب أخرج للناس في هذا الباب .

#### الفلسفة عند ابن حزم :

بعد موت الخليفة الحكم سنة ٣٩٩ هـ الذي عني بعلوم الأوائل وعمل على انتشارها والإقبال عليها ، أمر المنصور بن أبي عامر بإحراق جميع الكتب المؤلفة في العلوم القديمة ، وبخاصة المنطق وعلم النجوم ، وكان المنصور يعتمد في تأييد حكمه على رجال الدين ، حتى إذا ما ظهر ابن حزم كان من المؤيدين لعلم المنطق على الرغم من تحمسه الشديد لنصرة السنة .

ولدراسة المنطق عند ابن حزم قيمة خاصة ، فنراه يقول ( الملل والنحل ج ٢ ص ٩٥ ) :  
إن الكتب التي جمعها أرسطو في قواعد المنطق كلها كتب سائلة مفيدة ، بها يتعرف كيف يتوصل الى الاستنباط الصحيح ، وكيف تؤخذ الالفاظ على مقتضاها ، وكيف يعرف الخاص من العام ، والجمل من المنفصل ، وبناء الالفاظ بعضها على بعض ، وغير ذلك مما لا غناء للفقيه المجتهد لنفسه ولأهل ملته عنه .

وقد ذكر أحد معاصريه ونفى به القاضي أبا القاسم صاعد بن أحمد قاضي طليطلة المتوفى سنة ٤٦٢ هـ ، قال صاعد :

« عني ابن حزم بعلم المنطق وألف فيه كتاباً سماه ( التقريب لحدود المنطق ) ، بسط فيه القول على تبين طرق المعارف ، واستعمل فيه أمثلة فقهية وجوامع شرعية ، وخالف أرسطو في بعض أصول هذا العلم » .

ومن هنا نستنتج أن اشتغال ابن حزم بالمنطق كان من أجل خدمة نظرياته الدينية والفلسفية .

وكان يصرح أن الفلسفة الحقيقية قايئها إصلاح النفس ، وتلك الغاية بعينها هي غاية الشريعة ، ولا تعارض بين الاثنين ( الملل والنحل ج ١ ) .

ولابن حزم مصنفات كثيرة العدد ، شرعية المقصد ، ومعظمها في أصول الفقه وفروعه ، وقد روى عنه الفضل المكني أبا رافع أن تأليفه في الفقه والحديث والأصول والملل والنحل والأدب تبلغ نحو أربعمائة مجلد ، تشمل على ثمانين ألف ورقة . وقال ياقوت في ذلك : هذا شيء ما علمناه لأحد ممن كان في دولة الإسلام قبله إلا لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري .

ويعتبر كتابه الملل والأهواء والنحل من أهم المراجع لفروع الفلسفة ، ومذاهب المتكلمين ؛ فهو يعطينا فكرة قوية وصادة عن الفرق الدينية التي ظهرت في المملكة الإسلامية كالغزارج والشيعة والمعتزلة والمرجئة والتسدرية وغيرهم ، كما يبحث عن اختلاف الديانات كاليهودية والمسيحية ومدى انتشارها ، وأثر هذه الأديان في نفوس معتنقيها . ثم يخرج من هذا البحث إلى نتيجة أثر اليهودية في الثقافة الإسلامية ، وتسرب هذه الثقافة إلى المسلمين ، معتمدا في بحثه على التاريخ والرواية الصحيحة .

#### شخصية ابن حزم :

كان ابن حزم فيلسوفا ومؤرخا وعالما ، وكان له أثره العظيم في تاريخ بلاده . ومؤلفاته مرآة جليلة تبدو من خلالها مواهبه الفنية على أكلها ، وهو فوق ذلك مررب ذو بصيرة وقادة ، قضى حياته ثابت النفس ، مصيب الفكر ، قوى العقل .

وبما نكسب به في حياته حرق مؤلفاته وتزييقها علانية ، من قبل أعدائه . وفي ذلك يقول :  
وإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي      تصننه القرطاس بل هو في صدري  
يسير معي حيث استقلت ركائبي      ويتزل إن أزل ويدفن في قبري  
وقال يخاطب حشاده :

هنالك ندرى أن للعبد قصة      وأن كساد العلم آفته القرب  
وأن مكانا ضاق عني لضيق      على أنه فيسح مهامه مهيب  
وأن رجلا ضيعوني لضُيُوع      وأن زماما لم أقل خصبه جديب

إلا أن الأحداث الشديدة التي تواترت على الفيلسوف ابن حزم لم تكن لتغير من تراثه العلمي ، أو تقل من حدة ذهنه الوثاب . فإن أهم ما كتبه في مؤلفه الملل والنحل من أبحاث هو تاريخ الأديان وفلسفة التاريخ . فهو إذا تناول مسألة من المسائل الدينية أو التاريخية لم ينظر إليها نظرة تحليلية تتناول التفاصيل ، وتعني بما هو حزئي ذو قوام مادي ، وإنما ينظر إليها نظرة تركيبيّة عامة لا تقيها التفاصيل إلا من حيث إنها مظاهر ومعارض لتيارات روحية كبرى ، ودوافع باطنة قوية تحكم التطور التاريخي وتسوده وتوجهه .

ولا عجب فأن ابن حزم أعظم من بحث في المذاهب الإسلامية وفي علم الكلام والحديث ، ولعله كان من أقدر الباحثين الذين استطاعوا أن ينفذوا الى طبيعة الحياة الدينية في الإسلام ، وأن يحلّوا انجاساتها ويكشفوا عن جوهرها ، والموامل المؤثرة فيها .

جيم الفيلسوف ابن حزم الى ناحية الخلق المتن ، شخصية المفكر الحرفي عقيدته ، معتمدا على بصيرة حادة نافذة الى باطن الأشياء ومرها الكامن ، وعلى وجدان مرهف يستطيع أن يكون هو وجوهر الشيء الذي يحاول إدراكه شيئا واحدا ، بأن يكون بينه وبين هذا الشيء نوع من المشاركة الوجدانية والاتصال الحى النابض .

ولكنه لم يكن يكتفى بهذا الضرب من الاتصال ، بل كان يربط المسألة الواحدة بجميع المسائل الأخرى المرتبطة بها ، ناطقا الكل في سلك تاريخي واحد ، ناظرا إليه كوحدة لها صفاتها الذاتية ، معتبرا ذلك كنسيج حى متصل الأجزاء .

بهذه القدرة العالية استطاع ابن حزم أن يجعل منهج بحث الأديان الذي أودعه كتابه القيم ( الملل والأهواء والنحل ) خصباً في يديه ، ومؤدياً الى أخصب النتائج وأعمقها . ويكفى أن يكون كتاب الملل والنحل منبها حيويًا يستلهم منه المؤرخ وطالب المثل الأعلى ما لفيلسوف ابن حزم من شخصية خدمت الدين الإسلامى والسارى العام الى يومنا هذا ؟

عبد الحميد سامى ييوى

## رذيلة النخمة

أحسن ما رأيت من الرجز المعنى عن النخمة ما روى عن الأسكندر المقدوني ، فقد قيل : إنه دخل عليه رجل فوشى برجل آخر راجيا بذلك أن يوقع به الأسكندر .

فقال له الأسكندر : أتحب أن تقبل منه عليك ، ومنك عليه ؟

فقال الرجل : لا ، وانصرف .

وقال ذو الراسين : قبول النخمة شر من النخمة ، لأن النخمة دلالة ، والقبول إجازة ، وليس من ذل على شيء كمن قبله وأجازته .

وذكر الوشاء عند المأمون فقال : لو لم يكن في عبيهم إلا أنهم أصدق ما يكونون ، أبغض ما يكونون الى الله ، لكفام ذلك عقابا .

وقال المأمون أيضا لبعض ولده : إياك أن تصفى لقول السماء ، فانه ما سمى رجل برجل إلا انحط من قدره عندي ما لا يتلافاه أبدا .

وقال شاعر :

لمعرك ما سب الأمير عدوه      ولكننا سب الأمير المبلغ

## بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتْوَى

### في الرضاع

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر من محمد سعيد الخطيب بشرق الأردن الاستفتاء الآتي :  
محمد نايف ومحمد وحيد الدين ابنا عم ، وقد رضع الأول من أم الثاني ، فهل يجوز لثاني  
أن يتزوج أخت الأول ؟

#### الجواب :

أنه يجوز بإجماع المذاهب لمحمد وحيد الدين في هذه المسألة أن يتزوج أخت محمد نايف .  
والله أعلم .

وجاء الى اللجنة الاستفتاء الآتي من سيد عبد الخالق :

ما قولكم دام فضلكم في امرأة ادعت أن بنتها وضعت من أم ضرتها ، ولما سئلت أم ضرتها  
قالت أما عرضت عليها ثدي مرة واحدة فلم تقبله ، وفي ذلك الوقت كان عمرها ستة أشهر ،  
فما يكون الحل مع العلم بأن المدعية للرضاع أم الزوجة الأولى ، وقد قالت أم الزوجة الثانية  
أعني المرضعة: عرضت عليها ثدي فبكت ولم تقبله ، وكان عمرها ستة أشهر وهي مرة واحدة ،  
ومع العلم أيضا بأن أم الزوجة الأولى تريد أن تفرق بين الزوجة الثانية وزوج بنتها ، أعني  
الزوجة الأولى ، والزوج نافل لكونه جمع بين الاختين في الرضاع ، فإذا كان فيه حرمة أفيدونا  
بالفتوى حتى ينتهي المشكل .

#### الجواب :

لا يثبت الرضاع بمثل الكلام المدون في الاستفتاء ، فلا بأس على الزوج أن يقيم مع زوجته ،  
ولا يؤثر هذا الكلام في الزوجية . والله أعلم .

### في الزكاة

وجاء الى اللجنة أيضا الاستفتاء الآتي من عثمان مر صالح .  
اعتاد أهالي أجتره مركز دلبو بالسودان إخراج زكاة الفطر من القمح والتمر والذرة والقمح

والشمير لأن التمر والذرة على الخصوص هما غالب قوت هذه الجهات ، وقد زارهم أخيرا مطالب من معهد أم درمان فألقى بعدم جواز إخراج زكاة الفطر تمرا لأنه ليس بقوت .

### الجواب :

أن التمر مما يقتات ويدخر ، وما دام أهل الجهة المذكورة يقتاتونه كما هو نص الاستفتاء ، فإن المذاهب الأربعة تميز إخراج زكاة الفطر منه ، متى كان هو غالب قوت أهل الجهة ، والله أعلم .

## في الميراث

ورود الى اللجنة من عبد الفتاح السيد بميت يزيد الاستفتاء الآتي :  
رجل توفي وترك أنا لاب وأختين شقيقتين وبنتين وزوجة ، فما نصيب كل ، مع أن المرأة لها صداق مؤخر ؟

### الجواب :

يخرج مؤخر الصداق من التركة أولا ويعطى للزوجة ، ثم يقسم الباقي هكذا :  
للبنين الثلثان ، وللزوجة الثمن ، وللأختين الشقيقتين الباقي ، ولا شيء للأخ للأب .

## في الطلاق

وورود منه أيضا :  
رجل حلف بالطلاق ثلاثا على زوجته أنها لا تذهب الى أخيها وإن ذهبت تكون مطلقة ، وذهبت عناداً له .

### الجواب :

أن هذه عين يقصد بها الحث على الامتناع من الذهاب الى أخيها ، ويرى كثير من الفقهاء أنه يقع إذا ذهبت .

ويرى كثير من الأئمة عدم وقوع الطلاق الذي قصد به الحث على الامتناع عن شيء . وعلى هذا جرى العمل في المحاكم الشرعية . واللجنة تفتي بما جرى عليه العمل تيسيراً على الناس ، وتوجيهاً لهم وجهة واحدة فيما يعود عليهم بالغير والمصلحة . وعليه لا تقع هذه البين ولو ذهبت الزوجة الى منزل أخيها . والله أعلم .

وجاء الى اللجنة الاستفتاء الآتى من حضرة محمد زكى افندى راضى المدرس بكلية الهندسة :  
زوج حلف على زوجته فى غيبتها بالطلاق الثلاث ألا يخرج من المنزل إلا بصحبته ، ثم عقب  
على عيبه بأنه إن وقع هذا الطلاق فلا يردده ، والغرض من اليمين منها من كثرة الخروج لإمامه ،  
ثم حدث أن خرجت الزوجة وحدها .

### الجواب :

أن هذه اليمين يقصد بها الحث على امتناع الزوجة عن خروجها منفردة . ويرى كثير من  
الفقهاء أنها تقع لو خرجت وحدها .

ويرى بعض الأئمة أن اليمين التى يقصد بها الحث على الامتناع عن شيء لا تقع ولو وقع  
ذلك الشيء ، وعليه جرى العمل فى المحاكم الشرعية ، وبه تفتى اللجنة تيسيراً على الناس وتوجيهاً  
للمسلمين وجهة واحدة تعود عليهم بالاتحاد ، وعليه تكون هذه اليمين لأغية ولا يترتب بها  
شيء من التأثير فى العصمة . والله أعلم .  
وجاء الى اللجنة الاستفتاء الآتى :

رجل زوجه لا يحب لها المشجار مع الغير ، ويكره جداً أن تفتبك مع أى كان سواء بالقول  
أو العمل ، دخل مرة فوجدها تصبح وتصبغ ، ثم تمارك حائل ، فاستشاط غضباً وقال : « أنت  
طالق بالثلاثة وزى أى وأختى » وكررها ثلاث مرات .

فما حكم التريمة وآراء الأئمة فى هذا الموضوع ؟ ابراهيم دويدار

### الجواب :

يرى بعض الفقهاء أن الطلاق بلفظ الثلاث يقع ثلاثاً ، ويرى بعض الأئمة أن الطلاق بلفظ  
الثلاث لا يقع إلا طلاقاً واحداً ، وعلى هذا الرأى الأخير جرى العمل فى المحاكم الشرعية ،  
والجنة تفتى به تيسيراً على الأمة وتوحيداً لتفسيرها واتجاهها فى العمل بالشريعة القراء .

أما كلمة « زى أى وأختى » الواقعة بالمعطف ، فالظاهر أنها لتوكيد معنى الثلاث المذكور  
فى لفظ الطلاق ، ولا يعتبر معنى جديداً ، كما أن التكرار مجرد التوكيد .

ونناء عليه لا يقع باليمين المذكورة إلا طلاقاً واحداً . والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف النحام

## بين رجال الدين والفلسفة

اعتبرت كتابة هذه الكلمات لهذه الظاهرة التي تحققتنا بمد طول التجربة ، وهي أنه قد يكون من العسير أحيانا إقناع فلان من الناس - وهو منتقف أو في طريقه للثقافة الفكرية العالية - برأى أو فكرة في العلم أو الفلسفة يعتقد بادي الأمر أنها لأحد المفكرين الأحرار أو الفلاسفة الذين ومهمهم بالألحاد أو الكفر . فإذا أسندت هذا الرأى نفسه أو هذه الفكرة ذاتها لصاحبها وعرف أنه الامام الغزالي مثلا ، رآها صحيحة سهلة المضم ومعتولة ، وسلم بها ! معنى هذا أن للعاضى قداسته وقوته العارمة ، وأن أحكام الغزالي ومن لفه لفه على الفلاسفة بالكفر لا يزال لها أثرها الذى رجاء وحمل له من نزاع الثقة بهم وتغيير الناس منهم (١) . ومعنى هذا أيضا أن جانباً كبيراً منا لا يزال يخلط في هذه الخصومة التى أذكرى نارها رجال الدين ضد الفلاسفة والمفكرين ، بين ما كان منها للدين وما كان للدنيا ، وبين الحكم بالألحاد عن يقين والحكم به عن هوى أو تقليد . وكأن هذا الفريق منا يعتقد أن الله أعفانا من النظر بعقولنا ، وقد نظر حجة الاسلام وقدر وحكم ، فترام يصدر من رأيه ويتقبلون حكمه ، ويرفضون أن يسمعوا لمخالفيه رأياً وإن كان صحيحاً ، ومن ثم ما يلقاه الباحث من عسر وصعوبة في إقناع الغير وإن كانوا تلاميذه ببعض ما يقتنع من آراءه .

من أجل ذلك رأيت معالجة هذا الأمر والتصدى لهذا البحث الشائك ، وأعنى به تبين العلاقة بين رجال الدين والفلسفة ، حتى نسير على بينة من أمرنا ، وحتى نعطى - فيما نبحت وتناقش - مالم يصير لقيصر وما لله . والغرض الذى أهدف إليه هو معرفة الموقف الصحيح الذى كان لرجال الدين مع الفلسفة وما يتصل بها ، وتبين البواصت التى جعلت من الأولين خصوماً لثانيات الفلاسفة والمفكرين ، والغايات التى قصدوا إليها من هذا العدد فى الخصومة والإيمان فى الكيد ، والحكم على بعضهم بالألحاد فى الدين ومحادثة الله ورسوله ، وبيان أن من الفلاسفة من كان مستوجباً لبعض ما اتهم به ، وأن منهم من كان يرى الحيلة فى الأمر فلا يرضى بتعليم تلاميذه طرقاً من الفلسفة إلا بعد تثبتهم من الدين وحقق علومه التى تعتبر منه عملة الأصول ، وذلك لما يعلمه من أنها - أى الفلسفة - مزلة لغير المتثبت من دينه قبل كل شيء . ويتصل حتماً بهذا الغرض أو الأقراض تعرف الجهود التى بذلتها الفلسفة

(١) هذا الغرض بين كثيرا من أقوال الغزالي : مثلا المنقذ من الملل طبع دمشق من ٨٩ - ٩٠ .

١٠٤ - ١٠٥ ، للتهافت طبع الاب جريج بيروت من ٦ - ٧ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ١٧٧ - ١٧٧ .



التوفيق بين الدين والفلسفة ، وبيان أنهما رصيعا لبيان (١) ، فما كان يصح في العقل المستقيم أن يكون بينهما إلا كل تعاون وتأزر في البحث عن الحقيقة وتجليتها . كما نذكر أيضا أن هذه الخصومة ليست مما يعيب الاسلام في شيء ، وإن عانت بعض رجاله ، وأنها ليست مما اختص به الاسلام ورجاله .

حقيقة ليس الاسلام بدعا في هذه الخصومة التي تقتضيها طبيعة الدين وطبيعة الفلسفة ؛ ذلك أن تاريخ العلم والفكر في القرون الوسطى المسيحية حافل بأعنف ألوان الصراع بين العلم ورجاله ورواد الكشف والاختراع ، وبين الكنيسة وجماعاتها ، لأمور ما كان يجوز - في رأى الباحث اليوم - أن يفتطح فيها هتزان .

هذه الخصومة شبت ناراها في أزمان مختلفة لبواحت تتقارب وتتباعده وتتقابه وتختلف ، لافرق بين المسيحية في هذا والاسلام ، إلا أن يكون عنف الخصومة وتفاهة أسبابها أظهر في الأولى .

الدين مصدره القلب الذي يفتح للعقيدة بالهام قوة عليا ، فترسخ هذه العقيدة بحيث يهون لدى المؤمن التضحية بالنفس في سبيل الدفاع عنها والمساقة دونها . والفلسفة أدواتها العقل الذي يستقرى ويحلل ويستدل ثم يعتقد دون أن ينتقيد بأدى الأمر يرى أو عقيدة لم يتم عليها دليل . من أجل هذا يكون عدم الائتنام بين الدين والفلسفة لاختلاف مصدرهما ، وتكون الخصومة والإلحاح فيها واضطهاد الفلاسفة أحيانا ، واجبا في رأى بعض رجال الدين دائما عنه ، ووقوف في سبيل المعتدين عليه المناهضين له على ما يرون .

على أنه لو أنصفنا الحق وفهمنا الأمر على وجهه ولم نطلب الدنيا بالدين ، لرأينا - لما سيجيء ذكره من أسباب - أنه لم يكن ليصح أن يقوم بين الدين الذي يستند الى العقل في ترسيخ قواعده واستكناه أسرارهِ وبين هذا العقل الذي لا يستغنى عن الدين ، خلاف أو خصومة في حال من الأحوال . ورغم الله الغزالي حين يرى أن العقل كالأس والشرع كالبناء ، وأنه لن يفتى أس ما لم يكن بناء ، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس (٢) . ولينه صرف بعض جهده الجبار في التوفيق بين الدين والفلسفة - مادام يرى هذا الرأى - بدل الحرب التي أوث نارها ضد الفلسفة والفلاسفة بلا هوادة ولا رحمة ، وبلا إنصاف أحيانا ؛ بمد هذا تدخل فيما قصدنا إليه أولا ، وهو عرض ما كان من هذه الخصومة في الاسلام ، فنقول :

عاش العرب قبل مجيء الاسلام في بيئتهم القاسية في جوحها وأرضها وسماها ، فكافوا مضطرين أن يلتجئوا الغيث ويتشموا مواقع الفطر ، وأن يحبوا حياة قلق مضطرة لا قرار

(٢) كتاب فلسفة ابن رشد لشريلير (Muller) بمؤرخ عام ١٨٥٩ ص ٢٦ .

(١) معارج القدس الطبعة الأولى عام ١٣٤٦ ص ٥٩ .

فيها يساعد على النظر أو يدفع اليه ؛ لذلك نجدهم شغلوا بضرورات الحياة عن العلم والفلسفة إلا ما كانوا مضطرين اليه من أنواع المعارف المختلفة . ولهذا يقول صاعد بن أحمد الأندلسي في كتابه طبقات الأمم (١) : « وكان لعرب معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها ، وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها ، على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة ، لاحتياجهم الى معرفة ذلك في أسباب المعيشة ... وأما علم الفلاسفة فلم يمنعهم الله عز وجل شيئا منه ، ولا هيا طباعهم للعناية به . »

ولما جاء الاسلام ونزل القرآن ، بهرتهم تعالجه ، وأخذتهم روعته ، ووجدوا فيه بعد أن تقبلوه غذاء لقلوبهم ومنعاً لنفوسهم وإرضاء لطلعتهم ، فأنصرفوا به عن الفلسفة . لم يكن لهم في صدر الاسلام حاجة للتفلسف وقد أغنم القرآن عن البحث في الألوهية ، وخلق العالم ، والقضاء والقدر ، وخلود النفس ، والحياة الآخرة ، وما الى ذلك من المشاكل والمسائل التي شغلت ولا تزال تشغل الفلاسفة بعد أن رأوا فيها نزل الله على رسوله ما اعتبروه حلالاً لهذه المسائل . إذن انصرف العرب في جاهليتهم عن التفلسف لقسوة الحياة التي كانوا يعيشونها ، وانصرفوا أيضاً عن الفلسفة طوال العصر الأول من الاسلام لأنهم وجدوا في القرآن غنية عنها .

ثم اتصل المسلمون بالثقافة اليونانية ، وانتفع علماء الكلام لاسيما المعتزلة بها في تأييد آرائهم والرد على مخالفيهم . وهكذا بالترجمة وبموامل أخرى انسابت الفلسفة اليونانية أو علوم الأوائل بين المسلمين بما فيها من آراء لا تتفق مع الاسلام في رأى كثير من المسلمين ، فأوجسوا منها شراً ، ورفضوها جملة وتفصيلاً ، ورأوا في رجالها وأشياءها أعداء للدين يجب الحذر منهم والتنكيل بهم ما وجدوا الى ذلك سبيلاً ؛ إلا أن هذه المحصومة كانت تشتد حيناً وتخف حيناً ، وتستعلن آناً وتستتر آناً ، تبداً لتعصب رجال الحكم أو تساعدهم ، ولقوة رجال الدين أو ضعفهم ، ولغير هذا وذاك من العوامل التي كان لها أثرها في تلك الأيام .

هذه المحصومة بل هذا المداء لم يكن بين رجال الدين والفلاسفة وحدها ، بل كان بين الأولين ورجال علم الكلام أيضاً ، كما كان كذلك بين أهل السنة والمعتزلة . فالباحث المؤرخ للحالة العلمية في القرن الثالث والرابع من الهجرة يرى أن أهل السنة كانوا في القرن الثالث يظهرون الكراهية والاحتقار للمعتزلة ويناصبونهم العداء ، وأنه في أثناء القرن الرابع كان أصحاب مذهب أهل السنة القدماء ( أى قبل الأشعري ) يضيقون على المعتزلة الخناق في جميع البلاد لاستماتتهم بالفلسفة وإدخالها في علم الكلام (٢) . بل إن أبا حسن الأشعري الذي كان معتزلياً ثم خرج على أصحابه وبدأ يحاربهم بصلاحهم — وهو النظر العقلي الذي يستند بعض

(١) الطبعة المصرية ص ٥١ . (٢) المضادة الإسلامية في القرن الرابع الهجري المستشرق الألماني

آدم مزر ج ١ ص ٣٣٩ من الترجمة العربية للاستاد محمد عبد الهادي أبي ريد .

الشيء لفلسفة اليونانية - لم يصدم من رجال الدين المتزمين خصوماً لداً في خصومتهم ذلك أن المذهب الأشعري لم يكذب يأخذ في الانتشار بالعراق نحو عام ٣٨٠ هـ حتى بدأت تظهر آثار اضطهادهم ؛ ومن ذلك ما حاوله الحنابلة من منع الخطيب البغدادي المتوفى عام ٤٦٣ هـ من دخول المسجد الجامع ببغداد لا شيء إلا لأنه كان يذهب مذهب الأشعري (١) وبلغ من لحد الحنابلة في الخصومة وتحاملهم على الأشاعة في ذلك العصر ، أن وقع بسبب إقارنتهم العامة قتال في شوارع بغداد سببه الاختلاف في الرأي وقصر النظر وضيق العطن ، وأن لم يتورع شيخ الحنابلة حوالي عام ٤٠٠ هـ من لعن أبي الحسن الأشعري (٢) .

هذه مثل تبين نظر رجال الدين الأوائل لعلم الكلام على مذهب الأشعري أو مذهب المعتزلة ، وملف الخصومة التي كانت بينهم والكراهة التي كانوا يحسونها لرجال الكلام عامة ، والاضطهاد الذي لاقاه هؤلاء من الأولين . ولكن يحسن ألا ننتهي من هذه الكلمة قبل أن نغير إلى ثلاثة أمور تبين بجلاء لا خفاء فيه ولا لبس موقف رجال الدين عامة من علم الكلام ؛ هذه الأمور هي :

( ١ ) يذكر ابن الأثير في تاريخه عند عرضه أخبار عام ٢٧٧ هـ أنه كان من المفروض على النساخ المحترفين ببغداد في ذلك العام أن يقسموا بأنهم لن يشتغلوا بانتساخ أي كتاب في الفلسفة ، وكان هذا القرار - كما يروون - يشمل تحريم الاشتغال بنسخ كتب علم الكلام أيضاً (٣) .

( ٢ ) إن الحجة التي أثيرت ضد المتكلمين وبخاصة المعتزلة ، والتي حمل لواءها الحنابلة ومشايخهم ببغداد ، حملت الحكومة على أن تتدخل رسمياً لوضع حد لتلك الماسزعات الدامية أحياناً ؛ فأصدر الخليفة القادر بالله العباسي عام ٤٠٨ هـ كتاباً ضد المعتزلة يأمرهم فيه بترك الكلام والتدريس والمناظرة في الاعتزال والمقالات المخالفة للإسلام ، وأنذرهم بحلول النكال والعقوبة الصارمة إن خالفوا أمره (٤) .

( ٣ ) إن المقرئ ذكر في خطبته - في الفصل الذي عقده لبيان الحال في عقائد أهل الإسلام في الزمن الأول إلى أن انتشر مذهب الأشعري - أنه لما حدث مذهب الاعتزال وتسكلم المعتزلة فيما تسكلموا فيه عن العدل والنوحيد وإثبات أفعال العباد إلى غير ذلك من مسائلهم « تبهم خلائق في بدعهم ، وأكثروا من التصنيف في نصرة مذاهبهم بالطرق الجدلية ،

(١) المرجع المذكور ج ١ ص ٣٣٩ . ويرجع أيضاً المقرئ في الخطط ج ٢ ص ٣٥٨ .

(٢) الطبقات قسبكي ج ٣ ص ١١٧ .

(٣) انظر أيضاً التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ص ١٣٥ .

(٤) الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٣٤٠ .

فنهى أئمة الاسلام عن مذهبهم ، واذموا علم الكلام وهجروا من يقتله ، (١) . ثم ختم المقرئى هذا الفصل الاول بقوله : « فهذه جملة من أصول عقيدته ( أى عقيدة الأشعرى ) التى عليها الآن جماهير أهل الأمصار ، والتى من جبر بخلافها أريق دمه » (٢) .

وموعدنا إن شاء الله تعالى العدد الآتى لبيان ما يأخذه الباحث من هذه النصوص التاريخية والواقعات النابتة ، ليستطيع أن يحدد فى وضوح تام موقف رجال الدين من علم الكلام وكتبه ورجالهم ؟

محمد يوسف موسى  
المدرس بكلية أصول الدين

(١) ج ٤ ص ١٨٣ (٢) ج ٤ ص ١٨٨ .

## الحكمة القرآنية والفلسفة اليونانية

نشرنا المقال السابق لتفضيلة الأستاذ النابه الشيخ محمد يوسف موسى ، وموضوعه خطير ، وهو إيجاد عهد سلام بين الاسلام والفلسفة ، وقد اضطر لأجل الوصول الى هذه الامنية أن يسرد تاريخ المسلمين فى مجاعة الفلسفة اليونانية متابعين فى ذلك أئمتهم ، ثم قال : « ومعنى هذا أيضا أن جانباً كبيراً لا يزال يخلط فى هذه المخصوصة التى أذكر نازها رجال الدين ضد الفلاسفة والمفكرين » ، وذكر حجة الاسلام الغزالي فقال : « إن أحكام الغزالي ومن لف لفه على الفلاسفة بالكفر لا يزال لها أثرها الذى رجاء ومحمل له » . وقال فيه أيضا : « ليتنه صرف بعض جهده الجبار فى التوفيق بين الدين والفلسفة ( ما دام يرى أن العقل كالآس والشرع كالبناء ) ، بذل الحرب التى أرثت نازها ضد الفلسفة والفلاسفة بلا هوادة ولا رحمة ، وبلا إنصاف أحيانا » .

ونحن نقول : إن هذا يعينه رأى الفرنجة ، وهم يملونه بأن أئمة المسلمين وقفوا هذا الموقف جهلاً منهم واستبقاء لسلطانهم على العامة . ولنا نرى نحن هذا الرأى ، وليس بحث مسألة الفلسفة على هذا الوضع يؤود الى عدم مادة المخصوصة بينها وبين الاسلام ، ولا هو يمتنع مع أمر جليل قام به المسلمون الاولون ولم يدون مثله فى تاريخ ملة من الملل ، ألا وهو أخذهم كل ما صادفوه فى الناحية العلمية الطبيعية من الفلسفة اليونانية حتى بزوا فيها أصحابها ، مع إصرارهم على رفض الناحية الفلسفية المحضة منها ، وكراحتهم لها الى أقصى حد .

فكيف يعقل أن الأئمة الذين لم يمنعوا ذويهم من الأخذ بما نضج من ثمرات العلم مهما كان مصدره ، والذين قردوا وجوب تأويل كل نص يخالف ظاهره حكم العلم ، يسمدون إلى مصادرة الفلسفة اليونانية ، مع شغفهم بأخذ كل جديد صادفوه لدى الأمم ؟

السبب في ذلك هو ما ذكرناه في عدد سابق ووعدنا ببسط القول فيه ، أن المسلمين لم يحافوا الفلسفة اليونانية سذاجة وبلاهة منهم ، ولكن لأنه كان لديهم فلسفة آتاهم إياها القرآن ، تسمو على كل فلسفة في الأرض ، وتجليها على ما هي عليه في الواقع أوهاما لا يقام لها وزن .

### ما هي الفلسفة القرآنية ؟

لا عبرة بالتسمية ، فكلمة فلسفة يونانية معناها محبة الحكمة ، وقد أطلقوها على ثمرات تفكير عقلائهم في الوجود وموجده ، وفي القوى العامة في الكون ، وفي الإنسان وعلاقته بالعالم ، وفي النفس البشرية وخصائصها الخ الخ ؛ جاعلين أسامي إنتاجهم العقل وقوة التصور . وقد اختلفوا في مذاهبهم بقدر ما اختلفوا في هذين الأساسين ، حتى كان منهم المثبت إثباتا مطلقا ، والثاني نفيا مطلقا ، بل كان منهم من أنكر المحسوسات مؤكدا أن الوجود وهم في وهم .

وقد جرت الفلسفة على هذا السمت نحو أئني سنة حتى تخلص العلم من الأوهام والظنون واتخذ لنفسه دستوراً أساسه الملاحظة والتجربة ، فأثري بكل فلسفة خيالية من حائق ، وأسس الآخذون إخذه فلسفة دعوها بالفلسفة الطبيعية ، جعلوا قاعدتها المكتشفات العلمية . وقد أريناك من أقوالهم إلى أي حد من الأدب والتعظيم وصلوا ، في مقالنا الفلسفي المنشور في العدد الرابع .

بعد هذه المقدمة الوجيزة ننسأل : هل جاء القرآن المسلمين بفلسفة ؟

نعم جاءهم بفلسفة تيز في سموها أرقى فلسفة ، وأطلق عليها ما يقابل هذه الكلمة من اللغة العربية ، وهي ( الحكمة ) ، وقد نوه بها القرآن في آيات كثيرة ، وأفردها بالذكر في مقامات تقتضيها ، إشارة إلى أنه سيأتي يوم يكون النضال فيه حول هذه الكلمة شديداً ، وتكون المقاتلة بينها وبين مزاحمتها من الفلسفات الأجنبية متعنتا .

نبدأ بمحنتنا في هذا الموضوع بإثبات صحة نظرنا في وجود ( الحكمة ) القرآنية بالاعتبار الذي يبناه ها ، ثم تأتي ببيان الأصول التي تقوم عليها ، لتتبع اسمها ومعنى ، وتتمكن المقاتلة بينها وبين أرق فلسفات العالم ، والمناخلة عنها على أساس علمي لا تتأثر بالملاحظة فيه .

بعض الآيات التي تثبت ادعاءنا في وجود الحكمة القرآنية :

قال الله تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب ( والحكمة ) يعظكم به ، واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم » .

وقال تعالى : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب ( والحكمة ) ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .

وقال تعالى : « وأنزل الله عليك الكتاب ( والحكمة ) ، وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما » .

وقال تعالى : « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب ( والحكمة ) ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .

وقال تعالى : « واذكرن ( الخطاب لنساء النبي وسائر النساء ) ما يشلى في بيوتكن من آيات الله ( والحكمة ) » .

هذا بعض ما ورد في القرآن الكريم من التنويه بالحكمة ؛ وفي خَصصها بالذكر إشارة لا يجوز أن نخفى على أحد اليوم ، فلا يجب أن يستعصى الدين أنزلت اليهم ( حكمة ) أساسها العقل والعلم والمجاهدات ، على حكمة أجنبية قدمت اليهم تحت اسم فلسفة أساسها الظنون والخيالات والأوهام .

بهذا وحده يمكن تمثيل تسارع المسلمين الأولين الى تلقف ما صادفوه لدى الأمم من العلوم الطبيعية ، وشفغهم بما قام لديهم الدليل على صحته منها ، حتى أولوا في سبيله ما يناقضه من ظاهر الكتاب ، وتوقفوا عن أخذ الناحية النظرية من الفلسفة كل التوقف .

نعم إن المسلمين أصرروا أن يبادروا الى تصيد ( الحكمة ) حيث وجدت ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها ولو من مشرك » ؛ ولكن هذا لا يصح إلا فيما لم يكن لديهم ما يقابلها ؛ وقد قامت لديهم الادلة على سمو ما لديهم على جميع منافساتها ، كما سيوضح للقارئ مما سنعرضه عليه من أصول الحكمة الاسلامية ، وأصول الفلسفة اليونانية .

ومما يدل على أنهم جروا من هذا التخير على أساس صحيح ، مبادرتهم الى اقتباس المنطق من القسم النظري من الفلسفة اليونانية ، لأنهم رأوا أن المنطق أداة نافعة للتدليل ، وواقية من الخبط في وضع المقدمات واستخراج نتائجها ، وكان هذا المنطق مما استقدموه من الوسائل لنقض الفلسفة اليونانية التي اختلفت الأمم بها ، ثم اضطرت لأن تتركها لما ارتقت العلوم والمقول ، ورأت أنها لا تقوم إلا على الخيال الذي لا يغنى أمام الحقائق اليقينية شيئا . فبطلت الفلسفة اليونانية وبقيت ( الحكمة القرآنية ) قائمة ؛ وحيثضح للقارئين كافة أنها من الحقائق الخالدة ، وأنه كان لدى أمتنا الأولين بصيرة نافذة في التعويل عليها ، ورفض ما عداها رفضا لا هوادة فيه ، ولأنهم رأوا أن لا أساس لها إلا الظنون والخيالات ، وقد نهتهم حكمتهم عن الأخذ بالظنون التي لا تستند الى برهان .

## أصول الحكمة القرآنية :

الحكمة القرآنية تتناول جميع ما يتصل بحياة الإنسان المادية والأدبية ، وهي تبتدئ من قواعد الآداب العادية وموجباتها الحيوية ، إلى الحالات العالية للنفسية الانسانية ، وبواعثها من العوامل الروحية ؛ ومن أوليات الأصول الاجتماعية ، إلى نهايات الوحدة الانسانية بل العالمية ؛ ومن بسائط الأسس الادارية والاشرافية ، إلى أعلى المبادئ الحكومية والدستورية ؛ ومن أوضح القواعد الثقافية ، إلى أعمى وأدق القوانين الفلسفية والعلمية . الخ

هذه الأصول كلها مبنوثة في الكتاب الذي أمر المسلمون أن يتخذوه دستوراً لهم في جميع ما تدفعهم إليه الحياة الدنيوية ، والأغراض الأخروية . وهي كما ترى ذات نواح متعددة قد درسنا كثيراً منها في عدد عظيم من بحوث نشرناها هنا . وحاجتنا اليوم ماسة إلى استخراج ما يتصل منها بالقواعد الثقافية ، والأصول الفلسفية والعلمية ، وشهوة العقل للوصول إلى الحقائق الوجودية ، لمقابلتها بأصول الفلسفة اليونانية وأصول الفلسفة المصرية .

الأصل الأول : الإنسان لم يحصل من العلم إلا قليلاً : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » .

الأصل الثاني : يجب على الإنسان أن يتعلم لمصلحته المادية ومصلحته الروحية : « وقال رب زدني علماً » ، « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » بكسر اللام . « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ، « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

الأصل الثالث : العلم لا يحصل إلا بالنظر في الوجود والموجودات ، والتأمل في أحوال الكائنات ، لا بالظنون والأوهام : « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » ، « وكان من آية في السموات والأرض يمدون عليها وهم عنها معرضون » ، « وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم ، أفلا تبصرون ؟ » .

الأصل الرابع : إقامة سلطان العقل ، والرجاء إلى حكمه في كل خلاف ، مع البعد عن الأهواء والجنوح إلى الأباطيل : « أفلا تعقلون » ، « لعلمكم تعقلون » ، « ويحمل الرجس على الذين لا يعقلون » ، « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » ، « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون » .

الأصل الخامس : الاعتقاد في تحقيق المسائل إلى تقرير العلم المحض لا إلى الأوهام ولا المقررات الموروثة : « وإن كثيراً ليضلوا بأهوائهم بغير علم » ، « سقها بغير علم » « عتدوا بغير علم » . « يضلونهم بغير علم » . « قل هل عندكم من علم » فنضربوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا كثر ضلون » أي تكذبون .

الأصل السادس : عدم متابعة الظيالات فيما ليس وراءه علم يستنده ، ويمدل من تطرف الناظر فيه : « ولا تَنقُصْ (أى ولا تتبع) ما ليس لك به (علم) إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا » .

الأصل السابع : وجوب التثبت في العلم وعدم الأخذ بدون دليل : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » ، « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ، الأصل الثامن : تحريم التقليد للأباء في العلم ، والتعصب لأرائهم : « قالوا بل نتبع ما آتينا عليه آبائنا ، أولو كان آباؤهم لا يفعلون شيئا ولا يهتدون » .

الأصل التاسع : عدم الجود على المعلومات المخترنة ، وضرورة سماع كل رأى والأخذ به إن كان حقا : « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب » .

الأصل العاشر : وحوب الحذر من الظنون والاهوام ، فانهما كآلة السبب في تحليل الناس وإفساد نفوسهم في جميع الاحيال : « فإذا بعد الحق إلا الضلال » . « وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ، إن الظن لا يغنى من الحق شيئا ، إن الله عليم بما يفعلون » .

كره الاسلام لقويه الاعتماد على الظنون حتى فيما يتعلق بفهم القرآن نفسه ، فقرر أن فيه نوعين من الآيات ، أولها يقتصر على الحلال والحرام ، وأصول الشريعة والأخلاق ، وما تحتاج اليه الأمة في كل ما يتصل بحياتها الاجتماعية والاقتصادية ، وهى جليلة صريحة لا تترك عابها الانهام ، وسمى هذا النوع ( محكما ) . ( وثانيهما ) يتعلق بأمور تعلو متناول العقل البشرى ، ولو عولجت به اختلفت عليها الآراء ، وتباينت فيها التأويلات ، وصارت مثارا للجدال والنزاع ، وسمى هذا النوع ( متشابها ) ، وفرض على الآخذين به النظر فى الأولى ، والمعمل بها ، وحرّم عليهم الجدل فى الثانية ومحاولة تأويلها ، فقال تعالى : « هو الذى أزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب (أى أصله) ، وأخر متشابها (أى لا يتضح مقصودها لكونها غير موافقة للظاهر ) ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله » .

فاذا كان مذهب الحكمة القرآنية هدم جواز الخوض فى الظنيات ، حتى فيما يتعلق بفهم القرآن ، فهل يسمح به فى سبيل الناحية النظرية من الفلسفة اليونانية ؟

القرآن لم يحرم النظر فى الوجود بل حث عليه ومطالب به ، ولكنه نهى على أن الحكم على شئ منه لا يجوز أن يكون إلا إذا كان مستندا الى (علم) ، أما الى مجرد الأهوام والخيالات فلا ؛ وهذه نزعة فلسفية لم يسمع بها إلا فى القرن التاسع عشر ، واعتبرت خطوة نهائية فى



سبيل إبلاغ الفلسفة أوج تطورها ؛ فهل يلام أئمة المسلمين الأولين على توقعهم عن الأخذ بالفلسفة اليونانية ، عملاً بأصول حكمتهم ، وخاصة بعد ما ثبت في القرون الأخيرة أن بضاعة تلك الفلسفة في حاجتها النظرية كانت وليدة الظنون والأوهام ؟

المقرر المعلوم أنه كانت للفلسفة اليونانية ناحيتان : ناحية علمية طبيعية ، وناحية نظرية افتراضية ؛ فأما الناحية الأولى فقد أخذها المسلمون منهم ، وأوسعوها بحثاً وتحصيماً ، وزادوا مادتها زيادة عظيمة ، حتى بزوا فيها أصحابها الأولين . ولم يكتفوا بذلك بل أضافوا إليها كل ما صادفوه منها لدى الأمم الأخرى كالمصر والهنود والصينيين ، مما جعل جامعاتهم عظمى رجال طلاب العلم من جميع الشعوب .

وأما الناحية النظرية الفكرية التي اعتمد اليونانيون فيها على الآراء والظنون ، فقد أهملها المسلمون عملاً بالحكمة المنزلة إليهم من عدم إضاعة الوقت سدى وراء ما ليس لهم به ( علم ) ، ولا يمكن تحقيقه بدليل محسوس .

فهل يلام أئمة المسلمين على إهمالهم التوفيق بين دينهم وبين الناحية النظرية الافتراضية من الفلسفة اليونانية ، وليس لديهم لتحقيق مبحثها إثارة من علم يقين ؟

#### أثر هذه التعاليم في تقسية المسلمين :

هذا الدفع المتواتر في وجوه الأوهام والظنون ، وهذا الجور المتتابع لعدم التمويل على خواطر الصدور ، وهذه الانذارات المتوالية للغتساعين في الأخذ بدون دليل ، يضاف إلى هذا كله الوسايا المشددة بوجوب التثبت مما يقال ، والاستيثاق من صحته ، تقاديا من الوقوع في الضلال ؛ كل هذا أنشأ لعقلية المسلمين مناعة عظيمة ضد الآراء والظنون ؛ مناعة حملتهم على نقس كل شيء حتى أحاديث نبيهم ، فأنفأوا صوابه وأرواية ، لم يسبقهم إلى مثلها سابق من العالمين ، وصاروا لا يقبلون ما يروى لهم منها إلا سألوا من جميع علل الرواية والرواة والمؤلفين .

هذه المناعة تقسها خدمتهم في أخذهم بالعلوم الطبيعية ، فقد أوسعوها نقداً ، وتمكنوا بذلك من تعميمها وتثبيتها على قرار مكين .

وهذا كان السبب الرئيسي في تمهرهم في العلوم الطبيعية ، وحلولهم مكانة الرامة منها دون سائر الأمم التي كانت عريقة فيها . وهذه ظاهرة اجتماعية لم يدونها تاريخ البشرية لغير الأمة الإسلامية . ذلك أنه لم يشاهد قط أن أمة تفتخل ، وهي في دور حاشتها الدينية ، بالعلوم المادية ، فضلاً عن أن تبرز فيها حاملي لوائها بين العالمين .

فإن تعجب من هذه الظاهرة الفذة في تاريخ العقلية الإنسانية ، فإن الفضل فيها لتوجيهات

(الحكمة القرآنية) لاهلها من الناحية الثقافية ، ولو كان المسلمون كتبوا عنها الى الفلاسفة اليونانية ، لما بلغوا المسكاة التي وصلوا اليها ، وغلطوا بين المقول والمقول خلطاً يتعذر عليهم بمده أن يخلعوا من تبعاته ، ولا يحرف دينهم الفطري عن صراطه ، كما انحرفت الأديان التي سبقت ، ولا اضطروا الى محاولة إصلاحه ، وهذه المحاولة نجح بطبيعتها الى فصم عروة وحدته ، وفي فصمها الشر كله على أهله كما لا يخفى على خبير .

وليس في بقاء الاسلام تقياً خالصاً من الشوائب ، فضل يعود الى شيء غير (الحكمة) التي قرنت به ، فانها ألقت بحيث تحميه من كل عدوان يوجه اليه ، وحليت من الحوافظ بما يجعله بئامن من كل انحراف يؤثر فيه ؛ وكان من أقوى هذه الحوافظ سدها الطريق على الظنون والأوهام والتأويلات التي جعلته ينبذ كل فلسفة ظهريا ، ودفعته لتطلب العلم الثابت دفعا حتى جعلت نجاة الآخذ به مطلقا عليه . ألم يقل الله تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » ؟ أو لم يقل أيضا : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ؟

ومن آثار (الحكمة القرآنية) في عقلية المسلمين كراهة أفتهم أن تُعتبر آراؤهم قضايا مسلمة لدى تلاميذهم ، فهوم عن الأخذ بها بدون نقد ولا تمحيص ، فاشتغل هؤلاء التلاميذ بمرضاها على الموائين العلمية ، واستدركوا على أساتذتهم في بعضها ، وأعلنوا ذكك للباحثين .

هذه الحيرة في البحث لم تؤثر إلا عن المسلمين ، وهي من أئبع ثمرات (الحكمة القرآنية) التي نمرضاها اليوم على الناظرين .

وكان من النتائج الطبيعية لهذه الحيرة ، أن اعتبر باب التجديد مفتوحا في وجوه الناس الى يوم الدين .

### رجوع الفلسفة الغربية الحديثة الى أصول (الحكمة القرآنية) :

إذا كان في القرن العشرين ما يجب اعتباره مموا لا مرتقى بمده للعقل البشري ، ونضجا لا يخشى عليه معه الانخداع بالأوهام ، فهو ما تحققه هذا العقل نفسه بمد طول مراسه لنظواهر الوجود ، أنه لم يصل من حقائقها إلا لثرو لا يسمح له أن يُزكى به ، وأن يعتر نفسه بسببه قد وصل الى شيء يحسن به أن يجمد عليه .

وقد صرح بهذه الحقيقة أعلام الباحثين في الكون ، وقد قلنا بعض أقوالهم في مقالنا المنشور بالعدد الرابع من هذه المجلة ؛ ونرى أن نحمل مقالة اليوم بواحدة منها للفيلسوف المشهور هربرت سبنسر الانجليزي منقولاً عن كتابه (الأصول الأولية) في فهم حقيقة الكون ، قال :

« أي وظيفة تؤديها هذه الأصول في تكوين هذا الفهم ؟ هل تستطيع واحدة منها أن

تمطينا فكرة عن هذا الوجود ، أعنى عن مجموع ظواهر الوجود الذى لم يمكن إدراكه ؟ وإذا اعتبرناها مجتمعة ، فهل تستطيع أن تمطينا فكرة تماوى جلاله هذا الوجود ؟ وإذا رُتبت وجعلت مذهبا ، فهل تستطيع أن تكون لنا هذه الفكرة المرجوة ؟ ليس لنا على كل هذه المسائل إلا جواب واحد ، وهو : لا ! .



نقول : فى هذا الدور من التطور البعيد المدى للعقلية الانسانية ، تنفق الفلسفة العصرية ( والحكمة القرآنية ) ؛ فإذا طُلب الى المسلمين أن يوفقوا بينهما لمصلحة الثقافة العامة ، فهما قد اتفقتا كل الاتفاق فى هذه النهاية المناسبة لسمو المراهب الانسانية .

وأما ما كان يُرجى أن يقوم به الامام الغزالى من التوفيق بين ( الحكمة القرآنية ) والفلسفة اليونانية ، فى الوقت الذى كان فيه العقل لا يزال فى درجة الطفولة ، نخدعه العبارات المنسقة ، والالفاظ المبهرجة ؛ والذى كانت فيه الفلسفة مجموعة ظنون وأوهام وخيالات ، فإن ذلك مما كان يمجز عنه الامام الجليل كل العجز ؛ وكان أجل موقف يستطيع أن يقمه : هو أن يكافح تلك الفلسفة ويبعد خطرها عن عقلية المسلمين ، كما فعل أسلافه من قبل .

#### خلاصة القول :

خلاصة القول أن الحكمة القرآنية تأبى قبول أية فلسفة تستند على مجرد الظنون ، فهى تشترط للاخذ بها أن تكون قائمة على ( علم ) يؤيدها ؛ قال تعالى : «نبشئوكم (يعلم) إن كنتم صادقين» « بل اتبع الدين ظنوا أهواءهم بغير ( علم ) » .

( العلم ) فى عرف ( الحكمة القرآنية ) يجب أن يكون محققا بوسائل التحقيق المتفق عليها ، فإن ظفرت بشئ من ذلك أمرت الى اقتباسه ، واستلجته منه كل ما يمكنه من ثمرات مادية وأدبية . وهل يراد منها فى سبيل احترام العلم اليقين ، أكثر من صرف الآيات عن ظواهرها إن ناقضت ما ثبت منه بالدليل المحسوس ؟

( فالحكمة القرآنية ) بطبيعة تركيبها ، ومقتضى أصولها ، هى من الضرب الذى اتفق على تسميته حديثا بالفلسفة العلمية ، وهى التى تقرر أنها الفلسفة الحقة التى لا يجوز تجاوز حدودها ، بمد ما ثبت أن مالا يقوم على ( العلم ) فلا يبعد أن يكون وهما من الأوهام ، وهو ما يجب أن يتقيه الانسان ، وخاصة بمد ما بلغ رصده الفيلسوف فى هذا الزمان ؟

محمد فريد محمد

## المدينة المادية

وهل أفلس في إسعاد البشرية

وفق العلماء في الثلاثة القرون الأخيرة إلى مخترعات كانت مثارا للدهش والاستغراب ،  
نقيل إلى الناس أن حلم السعادة المنشودة قد تحقق ، وأن البشرية تستقبل عصرا ملوئا بالهناء  
والرخاء ، وأنها لن ترى بعد ذلك بؤسا ولا شقاء ، وأن نعيم الآخرة الذي وصف في الكتب  
السموية سيتحقق في هذه الحياة ، فمعظم شأن العلم الطبيعي في أعيانهم ووصحوا هذا العصر بعصر  
النور ، وعنوا بالنور نور المعرفة والعلم ، وغفلوا عن أن الذي يفتنهم من هذه المدينة هو الجانب  
الصناعي ، وهو كما ولد الوسائل والآلات المعنية على تسهيل الحياة ، وتخفيف الآلام ، ولد  
بجانها البوارج والمدمرات ، والقواصات والطائرات ، والقابل المهدمة والمفرقة ، والمهلكات  
من جميع الأنواع .

هذه هي أهم مظاهر المدينة التي اغتبط بها الناس وظنوا بها خيرا ؛ ولكنها لم تحقق  
الظن فيها ، فلم تفتح لهم بابا من أبواب السعادة إلا فتحت عليهم أبوابا من الويلات لم تعدها  
البشرية في تاريخها . فما إن أخذت هذه المخترعات مكانها من الوجود وتميزت وطاقها وتوزعت  
الدول كل على قدرها ، حتى تجاوزت نذر الحروب ، فشهد الناس تلك المخترعات الجهنمية نصب  
الحديد والنار في البحر والجو ، وفي الأرياف والأصهار ، وفي كل بقعة من البقاع ، حتى لم يبق  
بها ملاذ يمتصم به النساء والولدان ؛ وأتى يكون ملاذ وقد سلطت الطائرات على الناس تطمرهم  
بوابل من القذائف بلا تمييز بين محارب ومسلم ، وشيخ وشاب ، وسليم ومريض ، وبلا رقيب  
ولا محاسب ، وسلطت القواصات والطرادات على مراكب المسافرين وسفن التجارة في البحار  
تغرق وتحرق ما تظفر به من غير مبالاة بما تحمل من إنسان أو بضاعة .

وجعلت السيارات تنقل عدد الحرب وعتاده ، وتحمل أوزارا من الذخيرة والجنود  
إلى ميادين الحرب أو إلى المجازر البشرية التي أحدثتها المدينة المادية ، وحولت المصانع بأنواعها  
إلى مصانع حربية ، وزاومت مظاهر الحرب مظاهر السلام ، حتى أصبح العالم كله في تناحر وصيال  
كان الناس إلى ما قبل ربع قرن يعرفون أن معنى الحرب أن جنود الامتين المتخاصمتين  
يقتتلون في ساحات معينة ، فمن هزم خصمه أملى عليه الشروط التي يرضاها ، لأن يصبح جميع  
أفراد الأمم في خطوط السارحى المرمى والزمنى والنساء والأطفال ، وكانوا يعرفون أن هناك  
معاهدات تحترم ، وقوانين حربية لا تنقض ، تحترم فيها حياة الزمنى والمرمى والنساء والولدان .  
ولكننا لم نعم أن رأينا الحرب قد انقلبت إلى تناحر حيواني بين الجماعات قد أهدرت فيها هذه

النظم ، ثم انقضت تلك الحروب وحلقت القوضى في نواح كثيرة بدرجة كبيرة حتى فشا الاتحاد والزندقة ، وتدهورت الاخلاق ، فشاغ التهلك بين الرجال والنساء ، وتعردوا على المعادات الصالحة والتقاليد الكريمة ، وأمسى فهم الحرية ، تخيل لاهل الاهواء أن كل منكر يمكن أن يرتكب باسم الحرية ، وتحلل الناس من الفضائل باسم المدنية ، وانعكست موازين الأشياء في نظر الناس ، فصار التدين رجعية ، والاحتياط لصيانة المرض رجعية ، ومراقبة الأبناء في تربيتهم رجعية ، وهكذا حملت المدنية المادية في الأم حمل السوس ينخر في العظام ، حتى تهدم كيائها ، وانتقض بنيانها ، ثم استفاق عقلاء الأمم على أفات الأمم ، وصيحات الفزع من هذه الأحوال ، وحاولوا جبر الصدع ، ورموا الرث ، فعقدت المؤتمرات لتتظرفيا أعقبه الحرب من هذا التطور الشديد الخطر على الاجتماع ، وعلى السلام العام ، وجاء توجيه الوجهة النافعة للبشرية .

وفي هذه الأثناء كانت المحترقات تسير في طريق الإيقان والسكال ، وكان أسرعها سيرا في هذا الطريق المحترقات الحرية ، وكان كثير من الأمم في غفلة مما وراء ذلك التقدم من خطر وشر ، وكانت تملئ النفوس بسلام يطول أمده ويحلو مذاقه ، وبينما تسبح الأمم في هذا الخيال إذا الحرب الحاضرة تفرعهم قارعتها ، وتقوم عليهم قيامتها ، وإذا هم يسمعون ويشاهدون من الأخطار والأهوال ما يقصر دون وصفه الخيال .

لهذا أجمع العقلاء بعد ما بلوا هذه المدنية المادية وابتلوا بها ، أنها قد أفلست في إسعاد البشرية ، وذهبوا في تحليل ذلك مذاهب حتى ، أقربها الى الصواب أن تلك المدنية إنما أفلست لأنها فقدت أهم العناصر للوصول الى هذه الغاية : وهو المنصر الروحي ، أو عنصر الدين ؛ فالمدينة إن لم تنتظم هذا المنصر فلن تصل الى غايتها أبدا . ذلك أن الدين يطهر النفوس من الأدوران والأضغان ، ويكسر شررة الأطماع ، ويحرم التناول والطغيان ، ويزيل الفوارق بين الأجناس والألوان ، وينظم العلاقات بين الأفراد والجماعات ، ويقيمها على أسس العدل والمحة والتعاون ، ويحرم سفك الدماء إلا بحق ، لا لجرد الهوى والتسلط ، ويريج النفوس القلقة بما تراه من النفاوت في الأرزاق والدرجات ، ويندب الى المنزل العليا في الفضائل والآداب . تلك هي بعض مزايا الدين الذي تنبه العقلاء بعد أن صهرتهم الحن وكرتهم المخطوب الى وجوب توافره في بناء المدنية .

وقد يكون مما يؤذن بالغير ويبعث على الأمل في المستقبل القريب ، أن شعور هؤلاء لا يزال في ازدياد . وفي الظن أنه لا تنجلي الظلمات الحاضرة حتى يستم يقينهم بضرورة الدين كمنصر هام في مدنية يجب أن يسودها الأمن والسلام .

أبر الوفا المرافى

## الساعات الرهيبة

في حياة محمد صلى الله عليه وسلم

حياة محمد صلى الله عليه وسلم حافلة بالساعات الرهيبة . وما ظلك يرجل قام يدهو الى التوحيد في قوم ألغوا عبادة الأصنام ، وورثوا للشرك كابرا عن كابر ؟  
كان هذا الرسول الكريم في قمة من أتباعه وسط جماهير من الطغاة تألبوا عليه ، وكادوا له ، وفعلوا به الأفاعيل .

خرج الى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف فأعرض عنه أشرا فهم ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به حتى احتمع عليه الناس وألجأوه الى حائط . فلما رأى ما رأى رفع رأسه الى السماء وقال : « اللهم اليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، الى من تكلني ؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي » . فهذه ساعة من الساعات الرهيبة في حياة محمد صلى الله عليه وسلم .

فلما استنأس من قريش بعد أن لقي ما لقي من أذام ، استنصر أهل يثرب من الأوس والخزرج فنصروه ويايموه . فلما علمت قريش أنه صار لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنصار ، وأن أصحابه بمكة قد لحقوا بهم ، خافوا من خروجه الى المدينة ، فاجتمعوا واتفقوا على أن يقتلوه ، فآزمع الهجرة وأمر عليا أن ينام في فراشه ، وخرج الى دار أبي بكر ، وكان ما كان من محبة أبي بكر إياه ، وإقامتهما أياما في غار بجبل ثور ، ثم خروجهما الى المدينة ، وإرسال قريش سراقة بن مالك في إثرهما ، فكانت هذه من الساعات الرهيبة في حياة محمد .

ثم كانت الوقائع بين محمد وبين قريش ، وأولها وقعة بدر الكبرى ، حيث أقبلت قريش في تسعمائة وخمسين رجلا ، فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن معه إلا نحو ثلاثمائة قال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وغرورها تكذب رسولاك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني » . فهذه ساعة من أشد الساعات رهبة في حياة محمد .

وكانت غزوة أحد ، وكان من حديثها أن اجتمعت قريش في ثلاثة آلاف تحت قيادة أبي سفيان بن حرب ، وساروا من مكة حتى نزلوا ذا الحليفة مقابل المدينة ، فخرج محمد صلى الله عليه وسلم في ألف من الصحابة الى أن صار بين المدينة وأحد ، فأنخزل عنه عبد الله بن أبي المنافق في ثلث الناس ، ونزل محمد ومن بقى من الشعب من أحد وجعل ظهره الى أحد ، ثم كانت الواقعة ، فلما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض قامت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان في السرة الثلاثي معها وضربن الدفوف خلف الرجال ، وهند تقول :

وبها بنى عبد الدار\* وبها حماة الأديار\* ضرباً بكل\* بشار\*

وقتل رجل من المشركين اسمه قنق مصلح بن صمير حامل راية رسول الله وهو يظن أنه رسول الله ، فقال لقريش : « إني قتل محمدًا » . ووقع الصراخ أن محمدًا قتل ، فأنكشف المسلمون ، وأصاب فيهم العدو . وكان يوم بلاء على المسلمين استشهد فيه منهم سبعون رجلاً ، ووصل العدو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصابته جاراتهم حتى وقع ، وأصيبت رباعيته ، وشج في وجهه ، وكلمت شفته ، وجعل الدم يسيل على وجهه . ثم سعد أبو سفيان الجبل وصرخ بأعلى صوته وقال : « الحرب سجال ، يوم بيوم يدر ، أهل هبل » . فهذه أيضاً ساعة من الساعات الرهيبة في حياة محمد .

وجاء بعد ذلك نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، فلما فتحت مكة ، نجمت هوازن بنسائهم وأولادهم وأموالهم لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانضمت إليهم ثقيف ( وم أهل الطائف ) ، وبنو سعد بن بكر ، وحضر مع بني جهم ذريرد بن الصمة الشاعر العامري المشهور في الجاهلية ، وهو إذ ذاك شيخ كبير قد جاوز المائة ، واسكنهم جعلوه معهم تيمناً برأيه .

فلما جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم باجتماعهم خرج من مكة وخرج معه اثنا عشر ألفاً من أهل مكة وعشرة آلاف كانت معه يوم الفتح . فأتته رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين والمشركون بأوطاس ، وقال رجل من المسلمين لما رأى كثرة جيش النبي : « لن يغلب هؤلاء من قلة » . وفي ذلك زل قوله تعالى : « ويوم حُصَيْنَ إذْ أُعْجِبْتُمْ كَثْرَتَكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً » . فلما اتفقا انكشف المسلمون لا يلوى أحد على أحد ، وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين في نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته ، فنأداهم العباس في الناس يطلب إليهم العودة إلى الدفاع عن دينهم ونبيهم ، فرجعوا واقتتلوا قتالاً شديداً ، لحقت الهزيمة على المشركين ، ونصر الله المسلمين . ففي هذه الوقعة أيضاً ساعة رهيبة .

ولكن أية هذه الساعات أشدها رهبة في حياة محمد ؟ أم ساعة تسفيهه وسبه في الطائف من سفهاء ثقيف ؟ أم هي ساعة خروجه من مكة وقد ترصدوا له ، يجمعين على قتله وإهدار دمه ؟ أم هي ساعة أدركه سراقة بن مالك في طريقه هو وصاحبه إلى المدينة ؟ أم هي ساعة أقبلت عليه قريش بخيلها ورجلها وخيلاتها وغرها يوم بدر ؟ أم هي ساعة أحد يوم كسرت رباعيته ، وشج وجهه ، وكلمت شفته ؟ أم هي ساعة حين يوم انكشف المسلمون عنه فثبت حتى أيده الله بنصره ؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال يجب علينا أن نعرف أي رجل من الرجال كان محمد ؟ لم يكن محمد رجلاً عظيماً وحسب ، ولكنه كان المثل الأعلى للعظمة ، بل المثل الأعلى للحكمال

الإنسانى بأدق معانيه . كان حكيماً بل كان المثل الأعلى للحكمة ، وكان مؤمناً بالله بل كان المثل الأعلى للإيمان : كان يغضب لله ويرضى لله ، ويحب لله وفى الله ، ويكره لله وفى الله . كان لا يخشى أحداً إلا الله ، ولا يرهب أحداً غير الله . كان كل همه وقصارى إرادته وعزمته أن يبلغ الرسالة ، وأن يعمل كلمة الله ، وأن ينشر هذا الدين الذى يمت به رحمة للعالمين .

انظر الى دعائه يوم أغرت به ثقيف سفهاءها وتدير معاني هذا الدعاء ، قال : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، الى من تسكنى ؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى » . فهذا رجل لا يبالي بغضب الناس بل يبالي بغضب الله ، ولا يستعين بأحد غير الله ، ولا يفكر بضعف قوته وقلة حيلته إلا الله .

ثم انظر الى قوله يوم بدر وقد أقبلت قريش بخيلها ورجالها ، وكبرياتها ، وخيلاتها ، وليس معه يومئذ من الأنصار والمهاجرين إلا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، ووراءه فى يثرب جمهرة من المنافقين على رأسهم عبد الله بن أبى سلول يكيدون له ويقرضون به الدوائر . انظر فيما قال فى هذا اليوم : نظر الى المشركين وما كانوا فيه من قوة فقال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت فى خيلاتها ونفرها تكذب رسوئك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى » ، فلما تراخف القوم قال : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض ، اللهم أنجز لى ما وعدتنى » .

من عبارة هذا الدعاء نستنتج أن أشد الساعات رهبة فى حياة محمد هى تلك الساعة الرهيبة التى كانت فيصلا بين الاسلام والشرك . إن محمداً كان يخشى أن تهلك هذه العصابة ، ويظن أنها إن هلكت فلن يُعبد الله بعدها فى الأرض ، فهو لا يخاف الموت والهلاك على نفسه وأصحابه حبا فى الحياة لذاتها ، ولكنه يخاف الموت والهلاك لأن فيهما القضاء على الاسلام وعلى عبادة الله سبحانه وتعالى فى الأرض .

فاذا قال قائل : « أية ساعة هى أروع الساعات فى حياة محمد ؟ قلنا : هى ساعة الوحف يوم بدر ، وهى الساعة التى أعقبتها النصر على قريش ، فكانت فاتحة مجد الاسلام وإيداعاً بشروق شمس ، وأقول نجم الوثنية والشرك أهد الأبدن ودهر الدهارين ؟

مصطفى عبد الحميد

حقوق



## المثاليون والادب (١)

كان المجتمع العربي قبل الإسلام يمج بألوان متباينة من الفوضى والهمجية ، ويطلق بضروب شتى من السفاهة والضلالة ، ويفيض بالخزيات التي تلبو منها العقول السليمة ، وتنفّر عنها الطباع المستقيمة ؛ فمن وأد بنات خوف مار أو ناقة ، ومن استباحة محارم تلبية لسلطان هوى متغلب أو شهوة جائعة ، ومن معاقرة فخور إشباعاً لنفوس متعطشة الى الهجانة والخلاعة ، ومن شنّ حروب تزهق الأتانس وتبديد الثمرات لقتل جمل أو ناقة ، ومن تأليه حجير أو نجم استعابة لمرض في العقول وتقص في الحلو . . . ١

وسط هذا الجو المكفهر ، وتمت هذه الدماء الملبدة بالغيوم ، وفوق هائيك البقاع التي استشرى فيها الفساد ، وانتشر الضلال ، وعلت الجهالة ، وغلبت السفاهة ، ورفع الشرك عقيرته ، أثمرت شموس الهداية ، وسطعت كواكب العرفان في نفوس آحاد صفت منها العقول ، واستنارت الأفكار ، ورجعت الآراء ، فاهتدت بفطرتها الى أن تكون رباً رفع السماء وزينها بالنجوم ، وبسط الأرض وكساها بالنبات ، فلا ريب أن كان ذلك النفر منبعها صافياً عذباً وسط هذه الصحراء المقفرة التي تتحرق مماؤها ، وتتوقد هواجرها

وقصدنا من هذا الموضوع أن نغيث النام ونكشف الحجاب عن هؤلاء ، وأن نعرض للقارئ صورة صحيحة من أديهم شعرا ونثرا وحكمة ومثلاً ؛ وأن نبز ما حفى به الغموض وحاطه الاضطراب ، في أحسن المعارض وأدقها ، متوخين التحقيق ، ومستمسكين بأوثق المصادر ما وسعتنا الطاقة وواتنا الجهود ؛ وسواء لدينا أكان ناله المثالي من وحي عقل وإلهام طبع ، أم من أثر شريعة وهدى سما .

فن هؤلاء المثاليين الذين جموا بين الشعر والخطابة :

### ١ - قس بن ساعدة الايادي .

نسبه : وللمؤرخين هنا اضطراب لم نشهده في غير قس . وإلما كان فقد أجمع النسابون أنه من إباد ؛ وقد كانت قبيلة إباد من القبائل التي اشتهرت بالخطابة والمصاحبة وعلو الكعب في اللسن والبيان ، حتى ضربت بخطباتها الأمثال . يروى الجاحظ في صفة خطباتها قول القائل .

يرمون بالخطب الطوال وقارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء

( ١ ) يقال : ناله الرجل أى نهده وتسلق . أو ادعى الألوية ، وليس هذا المعنى مقصوداً هنا .

ذكر أبو حاتم المجتاني قسا في المصمريين ، وقال : إنه عاش ثلاثمائة وثمانين سنة ، وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال المرزباني : ذكر كثير من أهل العلم أنه عاش ستائة سنة ، وتقل الأبيشي في كتاب المستطرف أنه عاش سبعمائة سنة . تقرأ ذلك في الكتب ثم نجد إلى جانب هذا اختلافاً في محبته الرسول أو عدم محبته ، فيقول الذهبي : قس بن ساعدة أورد ابن شاهين وعبدان في الصحابة . ويقول ابن حجر في الإصابة : ذكره أبو علي بن السكن وابن شاهين وعبدان المروزي وأبو موسى في الصحابة . وصرح ابن السكن بأنه مات قبل البعثة . وجاء في سيرة ابن سيد الناس بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنه قال : « قدم الجارود بن عبد الله وكان سيداً في قومه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : والذي بعثك بالحق لقد وجدت سفنك في الإنجيل ، ولقد بشر بك ابن البتول ، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنت عبد رسول الله . قال : فأمن الجارود وأمن من قومه كل سيد . فسر النبي عليه السلام بهم وقال : يا جارود هل في جماعة عبد القيس من يعرف لنا قسا ؟ قال : كلنا نعرفه يا رسول الله وأنا من بين القوم كنت أقفواؤه : كان من أوساط العرب فصيحاً ، نمر سبعمائة سنة ، أدرك من الجواريين مسمان ... الخ . فقال له النبي : على رسلك يا جارود فلست أنساء بسوق عكاظ على حمل أورق وهو ينكلم بكلام ما أظن أني أحفظه ... الخ » .

والذي نرجحه : أنه كان من المصمريين ، ولكنه تعبير مقول يزيد عن المائة ولا يبلغ المائتين ، تلك هي السن التي عرفت للمصمريين ، كما أننا نؤمن بأنه مات قبل البعثة ولم تكن له بالرسول محبة ، وإن كان رآه هو أو أبو بكر بخطب على حمل أورق بسوق عكاظ حليفاً العرب وميدان سباقهم في السن والبيان .

#### حياته وعقيدته :

صمد الباحثين في التعريف بالجاهليين إنما هو أثرهم الكلامي من شعراؤثر ، ونحن إذا رجعنا إلى آثار قس بن ساعدة نجد لها حجة عن تصويره في أكل الصور وأجلها ، لقلة ما وصلنا منها ، ولكونه مروياً على وتيرة واحدة ، وفي غرض واحد وهو الغرض الديني . وقد ذكر القس السوري الأدب شيخو خبر الجارود بن عبد الله ووفوده على رسول الله من طريق آخر غير الذي ذكرناه آنفاً ، قال : قيل إن الجارود بن عبد الله لما وفد في وفد عبد القيس على الرسول ، وكان سيداً في قومه ، معظماً في عشيرته ، فأسلم ، سألته عن : يا جارود هل في جماعة عبد القيس من يعرف لنا قسا ؟ قال : كلنا نعرفه ، وأنا كنت من بينهم أقفواؤه ، وأطلع خبره : كان قس حليفاً من أسباط العرب ، صحيح النسب ، فصيحاً ذا شبة حسنة ، يتقفر الثغار ، ولا تسكنه دار ، ولا يقره قرار ، يتعمى في تقفره بعض الطعام ، ويألس بالوحوش والهوم ، يابس

المسوح ، ويتبع الشياح على منهاج المسيح ، لا يغير الرهبانية ، مقرا بالوحدانية ، تضرب  
بمحكمة الأمثال ، وتكشف به الأهوال ، وتنبيه الأبدال ، أدرك رأس الحوارين صمعان .  
فهو أول من تآله من العرب ، وأعبد من تعبد من الحقب ، وأيقن بالبعث والحساب ، وحذر  
سوء المنقلب والمآب ، ووعظ بذكر الموت ، وأمر بالعمل قبل الموت ، الحسن الألفاظ ،  
الغاطب بسوق عكاظ ، المعارف بشرق وغرب ، وإيس ورطب ، وأجاج وعذب ، كآنى أنظر  
اليه والعرب بين يديه ، يقسم بالرب الذى هو له ، ليبلغ الكتاب أجله ، وليوفين كل حامل  
عمله ، ثم أنشأ يقول :

هائج القلب من هواه اذكار      وليال خـلالهن نهار  
وجبال شواخ راسيات      وبحار مياهن غزار  
ونجوم يحنها قر العي      لى ونس في كل يوم تدار  
ضوءها يطمس الميون وإرما      د شديد في الخافقين مشار  
وغلام وأثمط ورضيع      كلهم في التراب يوما يزار  
وقصور مشيدة حوت الخ      ير وأخرى خوت فهن قمار  
وكثير مما تقصر عنه      حدة الناظر الذى لا يحار  
والذى قد ذكرت ذل على الله      نفوسا لها هدى واعتبار

فقال عذ : يرحم الله قسا إبنى لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة وحده .

فذلك الخبر - إن صح - ولا بعد في محته جملة لا تفصيلا ، يعطينا صورة تقريبية عن  
حيلة قس وعقيدته الدينية ، تنفق منه على أنه كان زاهدا في الحياة راغبا عنها ، ذا بصير بالحياة  
ودراية بالمجتمعات ، مقرا بالوحدانية موقنا بالبعث والحساب . وقد أخطأ القس شيخو في  
عده من شعراء النصرانية ، فان خدعه قول الجارود : « ويتبع السياح على منهاج المسيح »  
قلنا له : ليس لك من هذا بتمسك ، فان ذوى الفطر السليمة كثيرا ما يبتدون بعقولهم الى  
توحيد الله والإيمان به ، حتى ليظن بهم أنهم يقتفون شريعة من الترائع . وإنما شبه الجارود  
قسا بعيسى في السياح في الأرض ولبسه المسوح ، وأول من هذا القول بالاعتبار أنه كان من  
الحنفاء الذين عبدوا الله على دين إبراهيم دون كتاب يقرأ أو نص يحتذى .

هذا وقد كان قس مظلما في عشيرته وقومه ، فيروون أنه كان يقدر على قيصر ويزوره ،  
فقال له يوما : ما أفضل المقل ؟ قال : مرفة المرء بنفسه . قال : ما أفضل العلم ؟ قال : وقوف  
المرء عند علمه . قال : ما أفضل المروءة ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه . قال : ما أفضل المال ؟  
قال : ما قضى به الحقوق .

## أوليائه :

يقال : إنه أول من تآله من العرب (١) ، وأول من علا على شرف وخطب عليه ، وأول من قال في كلامه « أما بعد » ، وأول من قال : البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، وأول من اتكأ عند خطبته على سيف أو عصا ، وأول من كتب من فلان إلى فلان .

تلك أوليات يفسبونها لقس ويؤكدون أنه صاحبها . ونحن إذا تأملنا قليلا وجدنا ذلك إسرافا ومبالغة ؛ فليس لأحد أن يقطع - مهما أوتى من قوة البحث - بنسبة هذه الأمور جميعها إلى شخص معين ؛ فعرفة الخالق أمر لم يحل منه عصر ؛ وطبيعة الجماهير تحتم على الخطيب أن يملأ عنهم حتى يتبينوه وحق يستطيع إسماعهم ... الخ . ولكن كثيرا ما تداخل الغفلة المؤرخين فيقبلون كل خبر دون نقد يعين على كشف الحقائق ويبرر الطريق لمن بعدهم من الباحثين .

نكتفي في هذا العدد بهذا التقدير مرجئين إلى ما يليه الكلام في أدب قس وحكته ؟

أحمد إبراهيم موسى  
مختص بالبلاغة والأدب

(١) تآله معناه تمسك وتكس . ومن مآليه ادعى الألوية ، وليس مقصودا هنا .

## احتمال القادة وتجاوزهم

قال أحد جلساء المنصور له ، وقد أراد عقوبة رجل : يا أمير المؤمنين إن الانتقام عدل ، والتجاوز فضل ، والمتفضل قد جاوز حد المنصف ، ونحن نعيد أمير المؤمنين أن يرضى لنفسه أو كس النصبيين ، دون أن يبلغ أرفع الدرجتين .

وجرى بين أبي مسلم صاحب الدعوة للعباسيين وقائد من قواده كلام ، فبدرت من القائد كلمة فيها بعض القلط ، ثم ندم على ما كان منه ، فجعل يتضرع ويتصل إليه .

فقال له أبو مسلم : لا عليك ، لسان سبق ، ووم أخطأ ، وإنما الغضب شيطان ، وإنما جرأتك على طول احتمالك . فإن كنت الذنب متعمدا فقد شاركك فيه ، وإن كنت مغلوبا فإن العذر يسلك ، وقد عفونا على كل حال .

فقال القائد : أصلح الله الأمير ، إن عفو مثلك لا يكون غرورا . فإن عظم الذنب لا يدع قلبي يسكن . وألح في الاعتذار .

فقال له أبو مسلم : عجب لك إنك أسأت فأحسن ، فلما أحسنت آسأت .

## مذاهب العرب في كلامهم

— ٣ —

طريقتهم في القول والفكر

أخذ العرب قسطهم في القرون الوسطى من العلم والمعرفة ، وانبعث نورهم يضيء الآفاق قريبا وسحبتها ، فأخذت عنهم الأمم تراث الفكر القديم مما خلف الروم وفارس وما ابتدعوه من عند أنفسهم ، ولكن تراث الروم كان بينهم أظهر لتعلق أمرائهم ورؤسائهم بالحكمة والفلسفة ، فترجموا ما وصل إلى أيديهم وتفهموه ، ثم شرحوه وعلقوا عليه ، فوافقوا بعضا وخالفوا بعضا ، وجلال في ذلك فلاسفتهم من العرب والمستعربين . هذا الاختلاط في ثروة الفكر حل بعض العلماء من المتأخرين على أن يوازنوا بين العرب والروم في قوة التفكير والتصور ، ولكنهم وضعوا أمامهم صورة البدوى قبل الاسلام ووازوها بعصر سقراط وأرسطو ووصلوا إلى حكم خاطئ " فدعوا به في وجه التاريخ ، فقالوا : ليس للعربي من عمق التصور ودقة التفكير ما لغيره من أمة يونان . غير أن هذه الموازنة تحمل في أطبقها ظلمها ، فانها لم تعرف من دعم الحق وأسس ما يجب أن يتوافر في موازنة سليمة عادلة . فإذا كانت أمة العرب تشبه أمة الروم في النشأة والبداءة والأخلاق وطبيعة البلاد فانه يجب أن تقوم الموازنة بين عهدين متماثلين رقيًا وانحطاطًا ، فإذا حكمت أن البدوى في تهامة ونجد وحجاز واليمن كان ساذجا لا يصل بتفكيره إلى أبعد مما يطبق عليه حواسه ، فقل مثل ذلك عن الآثني والاسبرلي في إبان الجبال الأولى ، ولا تحملن بالبادية هوميرو وأمثالها فانها لم تنحدر عن كبير فكر ، وبدأت قصة صغيرة لشخص خيالي فأخذ الزمن يزيد فيها في مراحلها المتعددة حتى وصلت إلى ما هي عليه ، فهي من هذه الناحية تشبه قصة عترة . فسكنناهما قد صنعت للكعب والتسليية والإشادة بمقايير القدماء ، وصيغت في قوالب من الشعر وبدأت صغيرة ثم كبرت ، وجاءت معانيهما في الشجاعة التي لم يألف الناس مثلها ، وإن كان هنالك بعض الفروق كضخامة الأولى ، ووجود عترة ، بخلاف بطل طرواده ، كما اختلفا في الأسلوب وفي بعض المعاني مما لنا بصدد استقصائه هنا ، وإنما يهمنا أن نقول إن ما نسب إلى اليونان في بداوتهم لا يدل على كبير فكر ، ولم تعجز العرب عن حمل مثله .

فإذا اردت أن توازن بين مصريين ناهصين ، ووقعت على مهد سقراط وفيثاغورس وأضرابهما ، فيجب أن تنظر إلى عصور العرب التي أثبتت التحليل التراييدي وابن الصلاح الكندي وابن رضوان المصري وبنى الحسن وغيرهم من فلاسفة العرب ، وتلك في سلوكهم من أخذ بتماليهم من فلاسفة الموالى كالفارابي وابن سينا وابن طفيل وغيرهم ، فإذا صنعت هذا فإليك واجد للعرب فكرا وحكمة ، وفلسفة ونبوغا ، بل ستجد لهم بجانب الفلسفة اختراعات في الرياضة

والهيئة والمهندسة وقوانين النقل وعلم الحيل والكيمياء والطب والجراحة والتقطير والتصعيد وتركيب الأدوية والرصد وتخطيط البلدان ، واخترعوا الساعة والبندول والوصلة وبيت الآخرة ، وأخذ الفريجة عنهم أرقام الأعداد والجبر والمقابلة ، وغير ذلك مما يدل على أن العرب من الفكر والعلم بمكان كريم . أما العربي قبل الاسلام فلا يطلب منه وهو أي ضارب في العراء أن يعلم أو يفكر في غير ما يحيط به ، فقد كان يفتح عينيه في الأصباح فلا يجد إلا السماء من فوقه والصحراء من تحته ، وفاقته أمامه وسلاحه بجانبه ، فإذا هب فاضجيج الرعاء وهممة الخيل ورغاء الابل وثغاء الغنم وصريح الخيل للنجدة أو للمرعى ، فإذا أخذ عدته وضرب في الصحراء إن خيرا غير وإن شرا ففسر ، فما الذي يمدل به الى البحث والتفكير والتعميد والتفكير وحياته قفزة هيا ووثبة هناك ، إن عرس يوماً فراحل غدا ، وإن رعى الصيف في وادٍ أكمل الشتاء في آخر ؟ فهو غير مستقر في عيشه ، غير مطمئن في تفكيره ، ينتقل به تنقل الحاجة والمكان ، والرويا والزمان ، وتبع ذلك طريقته في القول ، فقد جاء منتقلا من حالة الى حالة ومن مكان الى مكان ، لا يعرف للموضوع وحدة ، ولا للفرض زماماً ، بينما تراه يحدث عن الأرض إذا به يقفز الى السماء لا تربط شعره فكرة ولا تجمع نثيره جامعة ، فهو يرسل من نفسه سورة ما تترك أمام حسه .

قد يكون ميل العربي الى أن يكون حراً طليقاً لا يقبده قيد ولا يخنجه حاجز من أكبر الأسباب التي جعلته يسلك سبيله ، كما أن ميله الى الراحة الفكرية قد جعله ينحو هذا المنحى ، فإن قيام الفكر على موضوع واحد واحتباسه فيه زمناً يجهد أي إجهاد ، ويبيع اليه السأمة والملل ، وكيفما كان الشأن في ذلك فإن العربي قبل الاسلام ينتقل في قوله وتفكيره ، فلا يستقر في مكان ولا تربطه فكرة ، حتى إنه قد يرسل آياته مستقلة لا يحتاج البيت منها الى غيره في تمام معناه . فإذا أردت أن أضرب لك مثلاً ، فهذا شيخهم امرؤ القيس قد بدأ معلقته بذكر حبيبته والديار ، وخرج على الليل والليل ووصف الصيد ، وانتقل الى السماء فأخذ يصف البرق والمطر ، وذكر أباها وما أحاط به ، وما انكشف السبل عنه ، ولم يمد الى ذكر حبيبته التي ساق القصيد من أجلها ، فهذه النقل الكثيرة والاتجاهات المختلفة تدل على طريقة التفكير عندهم ، ولم ينل هذا التنقل من جودة ما يقولون ، فإن الصورة التي يرضون لها قد نجح على صغرها وافتتاحها من أرواح ما يرى الإنسان في شعر ونثر ، وهذا وصف المرتضى لجواده مع اقتصاده فيه قد جاء مضرب الأمثال حتى يومنا هذا ، وليس هذا التنقل في القول والضرب فيه بمنة وشأمة موقوفة على الشعر وحده ، وإنما النثير قدمشي فيه على غراره ، فالعرب هم العرب ولم يدخل عليهم ما يصر فهم عن طريقته . قام أكرم ابن سفيان أمام كسرى فقال : « إن أفضل الأشياء أطالها ، وأهل الرجال ملوكها ، وأفضل الملوك أمهاتها ، وخير الأزمنة أحصها ، وأفضل الخطباء أصدقها . الصدق منحة والكذب مهواة ، والشر لجانة ، والحزم مركب صعب ، والمعجز مركب وطىء . آفة الرأي الهوى ، والمعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر . حسن الثمن ورطة ، وسوء الثمن عصمة .

إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي . من فسدت بطائنه كان كالفاص بالماء . شر البلاد بلاد لا أمير بها ، وشر الملوك من خافه البرى . المرء يعجز لا محالة . أفضل الأولاد البررة . خيرا لأعوان من لم يراء بالنصيحة . أحق الجنود بالنصر من حسنت سريره . يكفيك من الزاد ما بلغك الحمل . حسبك من شر مصاحه . الصمت حكم وقيل فاعله . البلاغة الإيجاز . من شدد نعر ومن تراخ تألف .

لم يبق لنا الرواة ما يدل على الغرض الواضح من هذه الخطبة . ويظهر أنها قيلت لما اختصت به السنة العرب من الحكمة وفصل الخطاب ، فإن وفد النعمان لكسرى تكلم في غير ناحية من فضائل العرب . أما الشعر في جلته فانهم كادوا يحملون كل بيت فيه مستقلا كما قدمت ، بيده وانه بالفضول والنسيب أو يصفون الحيوان والطبيعة ، أو يبيكون الديار والدمع ، أو يخاطبون النجم والشجر ، الى غير ذلك مما تقع عليه أبصارهم أو ينال تقديرهم ، وقد يطلون في ذلك إطالة تلك جبهة ما يقولون .

وقد يعرضون للغرض في أبيات قليلة ثم يفرون منه الى نواح أخرى ، كما درجت عليه طبيعتهم المتنقلة التي لا تعرف الاحتباس ، وإنما تتقل وتضطرد ، وربما لا تعود الى الغرض مرة أخرى ، فرجل البادية ينظر أمامه ويتكلم لا يهمه بعد ذلك أن يقع التناقض وتفصح الفكرة أو تنفرق الأواصر وتنفك العرى ، غير أن هذا النقص والوثوب هنا وهناك لم يكن مطردا في كل ما يقولون منتظما جميع ما ينطقون ، وإنما كان في جلته يقع فيها بحسب التسلية والتفاسيح أو للمدح والذم أو للوصف والفضول ، أما ما يقع موقع الإرشاد والزهد أو موقع الحامسة والنقصر أو يأخذ مأخذ الترهيب والترغيب فإن وحدة الموضوع تدنى أطرافه والتناقض يجمع أشناته ، وتكون جميع الكلمات للموضوع لاسا ولمعناه غراسا .

وها هي ذى كلماتهم في الرشد والحماسة والزهادة ، مما قال الأعشى والنايف وزهير وابن كلثوم وغيرهم ، فالقوم كانوا ينتقلون وينوالبون في الجملة فيما ليس ذا بال ، فإذا جد الجد وحزب الأمر جعلوا كلامهم فنا واحدا ، وصفا قائما ، وأخذت كل كلمة بحجة أختها ، وأمسك كل معنى برقة أحيه . غير أن العلماء والنقاد إنما يسيرون أحكامهم بالكثرة القائمة ، والجمهرة الدائرة ، وجمهور كلام القوم في النقلة والحركة والوثوب هنا والاستطراد هناك ، حتى كأن القصيدة الواحدة تنظم موضوعات عدة . هذه الحالة قد أورثها العربي أولاده ومن جاء بعده ، فدرجوا عليها ونشأوا في ظلها ، ونطقوا بمثلها ، فجاءت عباراتهم وأخيلتهم وأفكارهم وتقاريرهم وتباعدم وفق ما ورثوا وعلى غرار ما ألفوا ، فلا نجد منهم من نبا ، ولا من اتخذ له في القول مذهبا ، قد سلموا في ذلك أيام ما قبل الاسلام وعصر بني أمية حتى كانت الدولة العباسية ؟

## التجديد والمجددون في الاسلام

الامام الاعظم أبو حنيفة — دراسات في مذهبه

الحيل والمخارج والتعامل على أبي حنيفة بسببها :

أخذ بعضهم على أبي حنيفة أنه يميز الحيل والمخارج ، وأنها أصل من أصول مذهبه ؛ وهذا الكلام على إطلاقه غير صحيح ، فإن من الحيل ما هو محرم فلا يجيزه إمام من أئمة المسلمين ، ومنها ما هو جائز ممدوح ؛ فأما الحيل المحرمة فهي التي يتحيل بها على إسقاط حكم شرعي ، ليصير الواجب غير واجب ، والمحرم حلالا ولو في الظاهر ، مع أن الله تعالى إنما أوجب الواجبات ، وحرم المحرمات ، لما تتضمن من مصالح عباده في معاشهم ومعادهم ، فإذا احتال الشخص على تحييل ما حرم الله ، وإسقاط ما فرض الله ، وتعطيل ما شرع الله ، كان ساهيا في دين الله بالفساد .

لا يوجد أحد من المسلمين يقول بهذا الضرب من الحيل ، فكيف أبو حنيفة قدوة المسلمين ، وإمام الأئمة ، الذي أئمنه المسلمون ، وعبدوا الله على مذهبه ، وطامل بعضهم بعضا بموجبه ؟ فإمام هذا شأنه لا يميز منها إلا ما يجيزه الشرع ، ولا يحرم منها إلا ما حرمه الشرع . وهذا الإمام محمد بن الحسن تلميذ أبي حنيفة وصاحبه يعبر عن وجهة نظر المذهب الحنفي في الحيل فيقول : « ليس من أخلاق المؤمنين الفرار من أحكام الله تعالى بالحيل الموصلة إلى إبطال الحقوق » . ويقول : « لا بأس بالحيل فيما يحل ويجوز ، وإنما الحيل شيء يتخلص به الرجل من الحرام ويخرج إلى الحلال ، فإما كان من هذا ونحوه فلا بأس به ، وإنما لا يجوز أن يحتال الرجل في حق لرجل حتى يبطله ، أو يحتال في باطل حتى يوم أنه حق ، أو يحتال في شيء حتى يدخل فيه شبهة ، وأما ما كان على السبيل الذي ذكرنا فلا بأس به » .

ويقول شمس الأئمة السرخسي : « إن الحيل في الأحكام المخرجة عن الإمام الاعظم جائزة عند جمهور العلماء ، وإنما كره ذلك بعض المتصنفين لجهلهم ، وقلة تأملهم في الكتاب والسنة . والدليل على جوازها من الكتاب قوله تعالى : « وخذ بيدك ضغنا فاضرب به ولا تمنث » . هذا تعليم المخرج لأبوب عليه السلام عن يمينه التي حلفها ليضربن زوجته مائة سوط . وأما السنة فإروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم الأحزاب لعروة بن مسعود في شأن بني قريظة : « قلعنا أمرناهم بذوق » . فلما قال له صر رضي الله عنه في ذلك ، قال عليه الصلاة والسلام : « الحرب خدعة » وكان ذلك منه اكتساب حيلة ومخرج من الأثم بتقبيد الكلام « بلعل » .



والآثار في الحيل كثيرة ؛ فأصل الحيل والمخارج في الشريعة مما لا شك فيه ، ولا يخلو منه مذهب . قال السرخسي : « إن ما يتخلص به الرجل من الحرام أو يتوصل به الى الحلال من الحيل فهو حسن ؛ وإنما يكره ذلك أن يحتال الرجل في حق لرجل حتى يبطله ، أو في باطل حتى يموهه ، أو في حق حتى يدخل فيه شبهة ، فإكان على هذا السبيل فلا يجوز » .

وقال ابن القيم ما مؤداه : إن الأئمة ذموا الحيل ، لأن فيها الاحتيال على إسقاط فرائض الله وإسقاط حقوق المسلمين ، واستحلال ما حرم الله ، ولا يجوز أن تنسب الى أحد من الأئمة ، ومن نسبها الى أحد منهم فهو جاهل بأصولهم ومقاديرهم ومنزلتهم في الاسلام ، لأن نسبتها الى إمام قدح في إمامته ، وذلك يتضمن القدح في الأمة ، لأنها انتمت بمن لا يصلح للامامة ، وهذا غير جائز ، ولا خلاف بين الأمة في أنه لا يجوز النطق بكلمة الكفر لغرض من الأغراض إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان حقاً لدمه ؛ وهذا على مذهب أبي حنيفة وأصحابه أشد ، فإنهم لا ياذنون في كلمات وأفعال دون ذلك بكثير ويقولون إنها كفر ، حتى قالوا : لو قال الكافر لرجل : إني أريد أن أسلم ، فقال له : انتظر ساعة ، فقد كفر ، فكيف بالامر بإنشاء الكفر أو المحرم ؟ فالذين يفترون بالحيل الهرمة ليسوا بمعتدين بمذهب أحد من الأئمة ، وإن الأئمة أعلم بالله ورسوله ودينه ، وأتقن من أن يقتوا هذه الحيل أو يبيعوا لاحد الإفتاء بها .

وأما الحيل التي خلصت من المحرم ولم توقع في إثم ، ولم تخالف أصلاً شرعياً ، فهي شرعية جائزة . قال الله تعالى : « إلا المسنعة من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً » . أراد بالحيلة التخلص من الكفار ، أو تخليص المال منهم . وقال تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » . قال كثير من المفسرين : مخرجاً مما ضاق على الناس . ومن أمثلة ذلك ما ذكره الإمام محمد بن الحسن عن أبي حنيفة « أنه أراه أخوان قد تزوجا بأختين ، فزفت كل امرأة منهما الى زوج أختها خطأ ، فدخل بها ولم يسلم ، ثم علم الحال لما أصبحا ، فذهبا الى أبي حنيفة وسألاه المخرج من ذلك ، فقال لهما : هل كل منكما راض بالتي دخل بها ؟ فقالا نعم ، فقال ليطلق كل منكما امرأته التي عقد عليها تطليقة واحدة ، ففعلا ، فقال : ليعقد كل منكما على المرأة التي دخل بها ، ففعلا . فقال : ليض كل منكما الى أهله » .

قال بعض الأئمة : هذه الحيلة في غاية اللطف ، فإن المرأة التي دخل بها كل منهما كان ذلك بشبهة ، فله أن يتزوجها في عدتها ، فإنه لا يمان الرجل عن نفسه ؛ وأمره أن يطلق تطليقة واحدة ، فإنه لم يدخل بالتي طلقها ، فالتطليقة الواحدة تبينها فلا يملك ردها ، ولا عدة عليها منه ، فلآخر أن يتزوجها .

فهذا هو نوع الحيل التي يقول بها الحنفية ، وهي مخارج من المضايق حقاً ، ولا تخالف أصلاً من أصول الشريعة ، فلا حرج في الشريعة ولا ضيق . والآيات والأحاديث الدالة على

ذلك كثيرة . فالحيل عند العلماء على أقسام بحسب الحامل عليها ، فإن توصل بها بطريق مباح الى إبطال حق ، أو إثبات باطل ، فهي حرام ، وإن توصل بها بطريق مباح الى إثبات حق ، أو دفع باطل ، فهي واجبة أو مستحبة ، وإن توصل بها بالطريقة المذكورة الى سلامة من وقوع في مكروه فهي مستحبة أو مباحة ، وإن توصل بها الى ترك مندوب فهي مكروهة ؛ وعلى ذلك فالحيل تعتبرها الأحكام الخمسة ، وهي الوجوب والحرمه والاباحة والكرهية والاستحباب .

الخلاصة : أن الحيلة إذا هدمت أصلاً شرعياً ، أو ناقضت مصلحة شرعية ، فهي ملغاة ولا يجوز الترحيم بها ؛ وما ليست كذلك فلا تلتفت . فالحيل كما قال بعض المحققين ثلاثة أقسام : ملغاة بالاتفاق كحيلة المنافق في إظهار الاسلام وإخفاء الكفر ، وغير ملغاة بالاتفاق كمن نطق بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان حقناً لدمه ؛ ونوع ثالث لم يتبين فيه بدليل قطعي إلحاقه بالقسم الأول ولا بالقسم الثاني ، وفي هذا النوع اضطربت أقوال العلماء وهو محل التنارع بين الحنفية وغيرهم ، ولذا قسمها الأئمة الى الأحكام الخمسة ، فمنها الجائز والحرام والمندوب والمكروه والواجب . أما الحيلة الشرعية فهي ما خلصت من المحرم ولم توقع في إثم . وأبو حنيفة وأصحابه لا يقولون إلا بهذه الحيل الشرعية ، وبها قال الأئمة ، فلا وجهة لمن أخذ الحنفية عليها ؟

السيد مخضبي

## آداب السلام

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أطيبوا الكلام ، وأفشوا السلام ، وأطعموا الأيتام ، وصلوا بالليل والناس نيام » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن أبخل الناس الذي يبخل بالسلام » .  
وأتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : عليك السلام يا رسول الله . فقال رسول الله : لا تقل عليك السلام فإنها تحية الموتى ، وقل السلام عليك .

ودخل رجل على رسول الله فقال له : أبى يقرئك السلام . فقال عليك وعلى أهلك السلام . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يسلم الماشي على القاعد ، والراكب على الراجل ، والكبير على الصغير » .

وقال صاحب حرس عمر بن عبد العزيز : خرج عمر في يوم عيد وعليه قيمس كتان وحمامة على قلنسوة لا ملئة ؛ فقامت إليه وسلمت عليه ، فقال : مه ! أنا واحد وأتم جماعة ، السلام على والرد عليكم ؛ ثم سلم ورددنا عليه ، ومشي فشيننا معه الى المسجد .

ودخل ميمون بن مهران على سليمان بن هشام وهو والي الجزيرة ، فقال : السلام عليكم . فقال له سليمان : ما منعك أن تسلم بالإمرة ، فقال ميمون : إنما يسلم على الوالي بالإمرة إن كان عنده الناس .

## اثبات الروح الانسانية حسيا

أدلة جديدة على مقتضى الدستور العلمى

نأتى فى هذا الفصل على طائفة أخرى مما جمعه الأستاذ الكبير أرنست جوزانو مدرس البسيكولوجيا فى جامعة تورينو فى كتابه خروج الروح من الجسد ثم هودنها إليه. وقد وضع هذه الطائفة نفسها بعنوان ( حالات تجد فيها الشخصية الانسانية خارج الجسد فى جسم إثيرى ) قال :

« إن الحالات المأثورة من هذه الطائفة من المشاهدات تحدث أثناء النوم الطبيعى أو الصناعى ، وتحدث كذلك بتأثير التخدرات المراحية ، وفى أحوال النوم المغناطيسى ، وفى أدوار الهذيان المرضى ، والإغماء ، والتفاهة ، والضعف العصبى ، والهبوط النفسى الخ . وهى تحدث نادرا فى شروط فيزيولوجية وتنسية عادية .

« فى هذه الحالة الأخيرة تحدث تلك الظاهرة فى أثناء الراحة التامة للجسم ، ولا سيما فى البرهة التى تسبق أو تلى النوم مباشرة . وفى هذه الحالة يكون الشعور بها مبهما ومربع الزوال . . .

ثم أخذ الأستاذ فى سرد الحوادث المؤيدة لقوله فقال :

« أقتبس هذه الحادثة من مجلة ( اللايت ) The light الانجليزية ، وهى تدل على الشعور بخروج الروح من الجسم على أثر شتم قليل من الكلورفورم . فقد كتب الدكتور ( جورج ويلد ) ل تلك المجلة ما يأتى :

« فى يوم من أيام سنة ١٨٧٤ اضطرت الى استنشاق الكلورفورم ، لانتخلص من آلام شديدة أصابتنى بسبب مرور حصاة كلوية من الحالب . فاكنت أشمها حتى انقطع الألم فجاء ، ولكنى رأيت نفسى قد انتقلت على صورة روحية الى بعد يقدر بست أو سبع أقدام عن المرير الذى كنت عليه ، ورأيت جسمي ممتدا فوقه مدام الحراك وأنا واقف حياله أنامل فيه .

« هذه الحالة وإن لم تدم إلا بضع ثوان ، فانها أقتنعتنى بأننى قد شهدت انفصال صورنى الروحية عن جنانى المادى » .

« فتحدثت فيما أصابنى الى أطباء آخرين ممن يكثرون استخدام الكلورفورم ، فأخبرونى بأنهم كثيرا ما سمعوا من مرضاهم تنويعا يمثل هذه الحادثة فلم أكتف بذلك وقصدت الى مستشفى أمراض الأسنان ، فأكد لى أطباؤه بما يؤكد له لم مرضاهم من شهودهم لمثل هذه الحالة » .

« والذى رأيته أن هؤلاء جميعا متفقون على اعتبار هذه الحوادث من الأوهام . ولكنى

أنا لا أستطيع أن أقول مثل ما يقولون ، فقد جربت ذلك بنفسى ، وأنا على علم أكيد بأن هذه الحالة حقيقة واقعية وليست من الوهم المزعوم .

وكتب الدكتور ( فرنز هارتمان ) فى مجلة The occult Review سنة ١٩٠٨ ما يلى :

« فى سنة ١٨٨٤ حينما كنت بمدينة كولومبو من جزيرة سيلان ، قصدت محبة صديق لى ، أحد أطباء الأسنان لاقتلاع سن يؤلمنى ، فساكتت أستشق الكوروفورم حتى وقعت تحت تأثيره ورأيتنى واقفا خلف الكرسي الذى عليه جسمى . فكنت أنظر الى نفسى وأشعر بأننى أنا على الحالة الطبيعية ، وكنت أميز جميع الأشياء التى حولى ، وأسمع كل ما كان يقوله الموجودون هناك . ولكنى مع هذا عندما حاولت تناول إحدى الآلات الموضوعة على المنضدة الصغيرة المجاورة للكرسي ، لم أفلح فى محاولتى ورأيت أصابعى تخترق الآلة .

« حصل بعد هذه الحادثة أن روحى انفصلت عن جسمى الطبيعى مرات ، وكان ذلك يحدث على ضربين مختلفين : أولهما كان يحدث مع بقاء جميع خصائصى الواعية فى جسمى المادى ، فكنت أرى جسمى الأثيرى مائلا أمامى الى جانب سريري . وثانيهما كان يحدث مع انتقال جميع خصائصى الواعية الى جسمى الأثيرى ، وفى هذه الحالة كنت أرى جنبائى المادى ممددا فى السرير ولا حراك به .

« ولم يحدث أنى انتقلت فى أثناء حدوث هذا الاتصال الى مسافات بعيدة ، أو على القليل أنى لم أحفظ فى ذاكرتى ذلك . ومع هذا فهذه المشاهدات تكفى فى إقناع من تحدث له بأن للإنسان جسما أثيريا يصلح أن يقوم بنفسه مستقلا عن جسده المادى .

« وقد تنوّه الى الذى ينكلم فى أمر هذا الاتصال الروحانى عن تجربة شخصية ، إنكارات غير مستندة الى دليل ، من الذين لم يوفقوا الى مثلها ، فهذه الإنكارات لا قيمة لها ، ولا ينبغي أن يلتفت إليها بحال من الأحوال ، كما لا ينبغي أن يمتد بإنكار من لم يروا قط المخطوط الحديدية فيحاولون أن يدعوا استعالة وجودها .

بعد أن سرد الأستاذ بوزانو المشاهدات التى تقدمت قال :

« قبل أن نسرّد الحالات التى تشتمل على حوادث من الكشف والنظر من بعد ، يحسن بنا أن نورد مشاهدتين أخريين مشابهتين لتيّن تقدمنا ، ولكنهما أكثر دلالة على صحة الرأى الذى تؤيده هنا . فاقتبس المشاهدة الأولى من جريدة جمعية المباحث النفسية اللوندنية لسنة ١٩٢٩ وقد حصلت فى أثناء الحرب العالمية الماضية ، وقد أرسلها الذى حدثت له الى الأستاذ أوليفر لودج وهو الذى تولى نشرها بالجريدة المذكورة آنفا . قال صاحب المشاهدة وهو من المحاربين فى الحرب الماضية :

« تركنا ( مونفقيه ) بعد الظهر ، وبعد أن سرنا سيرا معنيا فى طريق موحلة اخلطت

حالتها بذائب البرد حتى لا يستطيع الانسان أن يتق فيها الرئق ، وصلنا الى ( بومتر ) من الميدان الفرنسي ليلا . ثم ماودنا السير بعد فترة قصيرة من الراحة قاصدين ( ويللي ) على خط النار ! وهناك دخلنا في خندق متعرج خصنا منه في ماء ووحل ، وكان طوله نحو ميل نخليل البنا أنه غير محدود . وكانت حماته نمل الى ركبتنا ، وفي تلك الاثناء كان ينفج وحوهنا البرد باستمرار ، فكنا والحالة هذه متأثرين بالبرد الى مخ عظامنا . واتهننا أخيرا الى خط الدار ، حيث دعينا لانجباد أورطة فرنسية فكنا في أسوأ الخنادق حالا ، لم يتمده أحد باصلاح منذ شهور ، وكان قد انهار في نواح كثيرة منه فلم يكن يحس رءوسنا من نار العدو . فكان من جميع جهاته يشبه حفرة تجمعت فيها أبوال الحيوانات . فصدر الأمر الى ه . والى أن نذول الحراسة فيه . وكنا من فرط الاعياء بحيث لم نجد من نفسنا القوة على نذب سوء حفظنا . وكنا مع ذلك جياضا ولا نملك ما نأكله ، ولا تقوى على إيقاد نار للاسطلاع بها ، وليس لدينا وطء نسخن فيه ماء لأنفسنا ، ولا نجد قدر أصعب من أرض جافة لأجل أن نجلس عليها ، ولا ماجأ نخدم فيه جوينا بتدخين قليل من التبغ . فكنت أنا وه . متفقين في الرأي على أننا ما كنا لتتصور أن آلاما كالتى منينا بها تتأفى أن تجمعت على كائن حى ، وكنا قد ذقنا ليالى من العذاب لم تطف بخيال أحد .

« مرت علينا ساعات في هذا الموقف المائل ، وإذا بقبدل ذريع حدث في حالتى لم أكن أتوقعه : فقد شمريت مفاحاة شمورا مطلقا بأنى خارج جسمى ، وتأكدت بأن أيتى الحقيقة ووعى وروحى — ولا عبرة بالألفاظ — قد تحررت كل التحرر من جسمى المادى ، فكنت أتأمله من الخارج وهو مهيم ، وعليه بدلة منجارية ضاربة للخضرة ، ولكنى كنت أتأمله بعدم اكتراث ، وأقول في نفسى إلى مع على بأن هذا جسمى فلا يوجد شيء يحمانى أشاطره العذاب الذى هو فيه ، وكنت أنظر اليه كأنه جسد إنسان غيرى . وكنت أعلم أن جسمى هو الذى كان واقعا تحت هذه الآلام الميفة ، ولكنى أنا ، نى روحى ، فما كنت أشعر بشيء .

« وقد ظهر لى طوال المدة التى مكثتها على هذه الحالة بأن ما حدث أمر طبيعى محض . ولكنى لما عدت الى جسمى أدركت أنى شهدت أعجب تجربة فى حياتى . فلا شيء بعد هذا يستطيع أن يززع عقيدتى المطلقة ، واقتناعى التام ، بأن روحى فى تلك الليلة الجهنمية قد انفصلت انفعالا مؤقتا عن جسمى » . ( يتبع )

نقول : إننا ننشر هذه المشاهدات بحسب ترتيبها فى كتاب الأستاذ ( بوزانو ) ، وقد اعتاد العلماء أن يتدرجوا من القوى الى الأقوى فى الدلالة ؟

محمد فريد وجدى

## الطرق

### مشروعيته في القانون المقارن

إن من الأمثلة البارزة التي يمكنني أن أدلل بها على أن التشريع الإسلامي هو تشريع قائم بنفسه وغير مأخوذ عن القانون الروماني، هو تباین التشريعات المختلفة العظيم في مشروعية الطلاق. وإنني سأنتهج في بحثي هذا المنهج الذي سلكته في أبحاثي السابقة تماماً، أي أنني سوف أبحث عن مشروعية الطلاق في (١) القانون الروماني (٢) في القرون الوسطى (٣) في فرنسا إبّان الثورة الفرنسية (٤) في فرنسا في الوقت الحاضر (٥) عند العرب في الجاهلية (٦) في التشريع الإسلامي.

#### (١) الطلاق في القانون الروماني :

كان النكاح يقسم عند الرومانيين الى قسمين : نكاح مع السلطة، نكاح دون ما سلطة . (١) أما في النكاح مع السلطة *Marriage cum manus* فإن المرأة كانت تحت سلطة زوجها كأحد أولاده سواء بسواء، لذلك لم يكن لها أي وسيلة لتخلص من زوجها . أما الزوج فإنه يقدر أن يطلق امرأته ، وذلك بأن يضع حدا لسلطته وسلطانها عليها « *manus* » ، بأن يتبع نفس الأسلوب الذي أدخلها به تحت سلطته . (٢) أما في النكاح دون ما سلطة *marriage sine manus* الذي كان يعتبر حياة فعلية نجمت عن رضا الطرفين فقط ، فإن النكاح يتلاشى بتلاشي هذا الرضا ، وذلك إما أن يكون رضا الطرفين ، أو أن يكون رضا أحدهما سواء أكان الرجل أم المرأة ، وهذا الطلاق يحصل دون وساطة القضاء ، فلأنسان أن يتزوج وأن يطلق بكل سهولة ، حتى إنهم أساءوا استعمال هذا التشريع في باكرة الحكم الإمبراطوري ، حتى إن النساء - كما قال أحد المؤرخين - كن لا يؤرخن السنين بأسماء القضاة كما كان عليه الأمر من قبل ، بل كن يحصين السنين بأسماء أزواجهن (٣) .

أما (أوغست) الذي كان لا يأنو جهدا لمحاربة قلة السكان فإنه كان يجبر من يريد أن يطلق زوجته أن تبلغه ذلك أمام سبعة شهود . أما إبان حكم جوستنيان فإنه كان يوجد أربعة أنواع للطلاق : (١) الطلاق برضا الطرفين ، (٢) الطلاق لأسباب شرعية كالعدم والعلة ، (٣) الطلاق كعقاب لأحد الزوجين ؛ وفي هذا النوع كان للرجل حالات أكثر من الحالات التي يمكن للمرأة أن تطلق بها الرجل ؛ فالرجل يمكنه أن يطلق امرأته إذا ذهبت دون إذنه الى الحمام أو أكلت بصورة علنية أو ذهبت الى الملعب *circus* مع أجنبي ، أو ارتكبت الزنا ؛ أما المرأة فإنها يمكنها أن تطلق زوجها إذا دخل في مؤامرة ضد سلامة الدولة ، أو إذا زنى في منزل الزوجية أو على الأقل في البلدة التي تقم فيها امرأته ؛ (٤) الطلاق دون ما سبب . وفي هذا

النوع يجوز لأحد الزوجين أن يطلق الآخر حتى ولو لم يكن هناك سبب شرعي أو غيره ، فالطلاق وإن كان صحيحا إلا أنه يوجب عقوبة على من يريد إيقاعه على الزوج الآخر (١) .

### (٢) الطلاق في القرون الوسطى :

كان النكاح عند الجرمانيين يحصل بشكل بيع : فالزوج يشتري المرأة من أبيها . وهذا البيع كان حقيقيا في بادئ الأمر ، ثم صار بشكل رمزي ، وللرجل أن يطلق امرأته متى أراد ، ثم صار الطلاق يستعمل بوضا الطرفين .

تأثير الكنيسة : إن الكنيسة عملت منذ البداية ضد مشروعية الطلاق ، وإن هذا الأمر يعود منشؤه إلى كلام صادر عن المسيح عليه السلام . قال مسيو ( بلانيول ) (٢) أحد أساطين وجهات القانون في فرنسا : « لقد حصل خلاف بين الإنجيليين على ذلك : فإن القديس متا يميز الطلاق في إنجيله إذا كان سبب ذلك الزنا ، ولكن القديس مرقس والقديس لوكا لا يميزانه مطلقا ، وإن كثيرا من البابوات كانوا في سعادة قرون عديدة منهم (ترويلينان) يمجزون الطلاق أخذا بنص القديس متا ، ولكن مبدأ عدم تلاشي النكاح المطلق فاز بصورة نهائية في العصر الثاني عشر ، حتى إن كراتيان ، وبيير لومبارد ، قرروا أن الطلاق لا يجوز حتى مع ثبوت الزنا » .

ولكن كان يوجد ما يطف هذا المنع : (١) أن القانون الكنسي كان قد نظم التفريق الجسدي بين الزوجتين Separation de corps إذا أصبحت الحياة الزوجية غير ممكنة بينهما ، وبذلك يعفى الزوجان متباعدين ، ولكن العلاقة الزوجية تبقى قائمة إلى أن يموت أحدهما (٣) ، فالمرأة كانت بصورة خاصة تستفيد من ذلك لأنها يمكنها أن تطلب التفريق الجسدي في كل الأحوال ، أما الرجل فإنه لا يستطيع أن يطلب ذلك إلا إذا زنت امرأته ، (٢) أن كثرة الأسباب المبطة لعقد النكاح - وبذلك يصير النكاح كأنه لم يكن - والتي كان القانون الكنسي يقبلها ، كانت تلطف في بعض الأحيان عواقب هذا المنع ، ولكن هذا التلطيف كان غير تام لأن أسباب بطلان النكاح كانت تعود إلى أسباب سابقة أو مقارنة للمقد ، كعدم حصول الرضا أو الإكراه على الزواج . أما ما يحصل بعد المقد كالزنا وغيره فإنه لا يؤثر عليه قط .

### (٣) الطلاق في فرنسا إبان الثورة الفرنسية :

لقد ذهب رجال الثورة في سنة ١٨٩١ إلى مشروعية الطلاق ، وألغوا التفريق الجسدي لأنه يعود إلى منشأ ديني ، فقد جاء في مقدمة القانون « أن الطلاق ناجم عن الحرية الشخصية ، والمقد الذي لا يمكن تلاشيته يكون مضيعا وحاجزا لهذه الحرية » . وكان الطلاق في هذا

(١) موجز دالوز ، القانون الروماني ج ١ من ٢٢٥

(٢) بلانيول ، القانون المدني ج ١ من ٣٦٧

(٣) موجز دالوز ، تاريخ القانون الفرنسي من ١٧٧

العهد يتم إما برضا الطرفين ، أو لسبب معين ، كأن يرتكب أحدهما خطأ تجاه الآخر ، أو أن لا تتوافق طباع الزوجين وأمزجتهما . ثم ذهبوا الى أكثر من ذلك في التساهل فصدر مرسوم يسمح بموجبه لضابط الأحوال المدنية أن يلفظ الطلاق إذا شهد ستة شهود بأن الزوجين يعيشان متباعدين منذ ستة أشهر على الأقل . أما في القانون المدني الافرنسي الصادر سنة ١٨٠٤ فإن المشرع قد وضع كثيراً من القيود للحصول على الطلاق ، فانه قد نص على أن لا يتم الطلاق إلا بواسطة القضاء ، ووضع شروطاً وقيوداً كثيرة يتطلب الراغب في الطلاق عدة سنين للوصول الى تحقيقها ، وقد حدد له أسباب معينة منها الزنا ، والحكم على أحد الزوجين بعقوبة شاقة ، وسوء العشرة ، إلا أنه مع ذلك كله أجاز الطلاق إذا رضى الطرفان بذلك .

أما في سنة ١٨١٦ فإن الطلاق قد منع ولم يبق مسموحاً إلا بالتفريق الحسدى .

#### ( ٤ ) الطلاق في فرنسا في الوقت الحاضر :

لقد بذلت جهود عدة لإعادة الطلاق في سنة ١٨٣٠ ، ١٨٣٤ ، ١٨٤٨ ، ١٨٧٦ ، وكان الإخفاق رائدها ، ولم تتم الموافقة على إعادة الطلاق إلا في سنة ١٨٨٤ ، وقد قيد المشرع الطلاق بقيود عدة ، وأجازته لأسباب معينة ؛ وهى ( ١ ) زنا أحد الطرفين ( ٢ ) الحكم على أحد الزوجين بالسجن : كالحكم بالأعدام أو الأشغال الشاقة أو النفى أو الحبس ( ٣ ) سوء العشرة كسب وحجز أحد الزوجين للآخر ( ٤ ) *Injures graves* الإهانة العظيمة كاللتم والإهانة باللفظ أو بالكتابة ، وتماطى السكر الدائم والعلى ، وتماطى الميسر إذا كان ذلك قد يسبب إهانة للزوج الآخر ، والامتناع عن القيام بالواجبات الزوجية ، والنشوز .

أما القيود الأخرى فهى أن يقدم الزوج الراغب في الطلاق عريضته بنفسه حتى إنه إن كان ما يمنع عن ذلك ينتقل رئيس المحكمة الى منزله ، وأن يحاول رئيس المحكمة نفسه للتوفيق والصلح بينهما ، ويقرر في الحال السماح للزوجين بعدم السكنى معاً ، ويعين للزوجة المنزل الذى يجب أن تقطن فيه ، وينظم حياة الأولاد ، وما الى ذلك من أمور ، حتى إنه للمحكمة بعد ختام المحاكمة أن تؤجل الحكم سنة أشهر عسى أن يحصل الصلح بينهما . لقد رأى المارشال « بيتان » أن الوسيلة الوحيدة لإنهاء فرنسا بعد كبوتها هو إصلاح نظام العائلة ، لأن الوطن الأصلى مركب منها فلم يأل جهداً في سن التشريعات الجديدة في شتى المناحي لإنهاضها من عثرتها فأذاع راديو الشرق باللغة الافرنسية في ١٣ / ٤ / ١٩٤١ أنه صدر قانون في الجريدة الرسمية يمنع عموجه تقديم طلب الطلاق قبل مضي ثلاث سنين على عقد السكاح ، وأنه يجب على التقاضى بعد تقديم الطلب أن يسعى للصلح بين الزوجين مرتين بين كل مرة سنتان ، أى يجب أن لا يحصل السير في الدعوى إلا بعد مضي سبع سنين على السكاح ، وأمر أن تكون دعاوى الطلاق سرية بعد أن كانت علنية لأنها تضر بالأحلاق .

« يتبع »

نفر الدين صاحب



## من وحي الشريعة الخالدة

كلما اطلع الباحث في آفاق هذا المجتمع وما يجد فيه من أحداث وعبر ، وما يطالعه من عظات ونذر ، وجد كل ما يفهمه من حلول لما استغلق عليه مائلا في وحي الشريعة وأخلاقها . فوحي الشريعة وأخلاقها وآدابها في كل عصر وجيل هو المعقل الحصين ، وهو الركن الركين ، لا بل هو المنهل المذنب الذي تصدر عنه النشيرة منذ فجرها الأول ، وهو الهدى المضيء إذا صميت السبل على الحكماء ، وشملت الحيرة قلوب أهل الخبرة .

والإنسان بما وفر فيه من غرائز حادة وعلل متضادة ، مغمور على الشد النوعي . ومن أجل ذلك جاءت الشريعة في وحيها وحوافزها حير مطهر للإنسانية من درتها ، وطأع بلوثاتها وأكدارها .

وشر ما يبدو في الإنسان شهوة الجسد والمراء ، وقد نعاها الله على الإنسان فقال جل ثناءه : « وكان الإنسان أكثر شئ جدلا » . فالجسد والمراء من خلائق الإنسان ، وخير الموفقين في النظر بالمقصود ونيل المدد المنشود ، أولئك الذين حاسوا شهواتهم في الجسد والمراء ، ثم نماكروا معها إلى العقل الراجح والرأي المكافح ، وأجالوا عيون بصائرهم إلى ما في الأفق الاجتماعي من محاسن ومفاسد ثم جعلوها لهم أهدافا ، واتخذوها من دون غيرها ، كنها . هذا الطريق من الناس بلغ شأوا في السكال مرموقا لا يكاد يصل بين حلقائه في سلسلة مترسلة إلا كان خليقا بالاطراء والحد والثناء والرشد .

وليس الجدل والمراء إلا ظاهرة هجينة في آفاق هذا المجتمع . وكثيرا ما أفسدت تلك الظاهرة على المصلحين ميوهم ، وقذفت بكثير من المشاريع النافعة في أنون من الاحقاد والاحن والسفاهم ، وهجز طلاب الإصلاح عن الاستمرار في مرتجلاتهم أحيانا وأبوا استئنافها أحيانا . وكثيرا ما فاضت القلوب الحيرة بشق الاتجاهات في طرائق الإصلاح ومسارب الجد ولكنهم خافوا أن يقوم حول اتجاهاتهم جدل أو مراء ، وأن يمصف الجسد والمراء بتلك المشاريع النافعة ، وهو أعصى ما يقف في طريق المصلحين من عقبات . وليس الجسد والمراء إلا معولا حادا من معاول هذا السكون ، وحوسا يتخر في عظام بنياته .

ولقد عنى علماء الأخلاق وفقهاء المجتمع بأمرانه كالعلامة المحقق ابن حزم ، والعلامة الغزالي ، والباحث الثبت ابن رشد ومن إليهم ، فخلص العلامة ابن حزم بعد بحوث مستفيضة إلى أن الجدل والمراء عيب خلقي أخرى بالمقول المنثرة أن تتضافر على مناهضته والقضاء عليه بما لا يدع منه أثارة بين طلاب الإصلاح ورواد الهدى .

ولعل قصة ابن أبي السائب رضى الله عنه شريك النبي صلى الله عليه وسلم في فترة من فترات تجارته تلقى على قلوبنا قبسا من نور ، فنتبين منها كيف كان الرسول الأعظم بجانب تلك الخلال ، ويتأمن بخلقه عنها ، فقد روى أبو داود في صحيحه عن ابن أبي السائب أنه قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فجعلوا يثنون على ويذكرونني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أعلمكم به ، قلت : صدقت بأبي أنت وأمي ، كنت شريكي ، كنت لا تدارى ولا تعارى . وأخرج الترمذى في صحيحه عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا ، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا ، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه » .

فالجذل والمراء ثوثة أخلاقية تتجافى عنها أخلاق الكرام وتأبأها الخلائق الرضية .

أما أن الجذل والمراء ظاهرة من ظاهرات العلوم الآلية يتسلح بها العلماء الآليون لتهر خصومهم في قضاء أوطارهم ابتغاء مجد ملبشود وصيت ممدود ، وأن العلماء خلقاء بما يسميه الأخلاقيون جدلا ومراء ، وما يدعونه فيما بينهم محدا وثناء ، وتحقيقا للنجاح الملية التي لا تخلص إلى النفوس إلا بالجذل ، فبحث فرصة سانحة ، فإلى الغد ؟

عباس ط

## دفع الخطأ عن الصواب

أرسل إلينا فضيلة الأستاذ الشيخ عبد اللطيف السبكي ملاحظة على ملاحظة جاءت في حقه بمقال لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد المدني ، فلم تتمكن من نشرها في العدد التالي لاتزام المواد ثم اضطررنا لتلخيصها تفاديا من ارجائها ثانية . وقد جاء في التلخيص هذه العبارة : « ونسب إلينا أننا اقتبسنا فيه بالص ذلك الخطأ البين » وهي في السطر السابع من صفحة ٣١٥ من العدد السابق .

فكتب إلينا فضيلته يقول إن هذه العبارة ليست من كلامه لأنه لا يعتبر الرأي الذي توافق فيه هو والأستاذ أحمد بك أمين خطأ . فرأينا أن نستدرك ذلك بهذا البيان .

\*\*\*

وجه في العدد السابق أيضا ص ٢٦٧ م • :

والعمرة هي الطواف بالبيت في غير وقت الحج ، وصوابه أنها الطواف بالبيت مطلقا .

## زيارة دولة رئيس الوزارة

لمعهد شين الكوم

لما شخص حضره صاحب الدولة حين سرى باشا رئيس الوزارة الى شين الكوم ،  
تفضل فزار المعهد الدينى ، فاستقبل هناك بما يليق بمقامه الكريم ، وألقى حضرة صاحب  
الفضيلة الأستاذ الموقر الشيخ عبد الجليل عيسى شيخ المعهد كلمة ترحيب بدولته ، نثبها هنا ،  
ولنعقبها بما دار بين دولته وحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام من تلافافى الشكر المتبادل .

قال فضيلة الأستاذ شيخ المعهد :

يا صاحب الدولة :

يشرفنى أن أرحب بدولتكم فى هذا اليوم المبارك ، ترحيبا يتناسب وشرف القصد من  
اختصاصكم المعهد بهذه الزيارة الكريمة دون سائر المعاهد فى هذا الإقليم ، فان شعارنا معاشر  
العلماء رد النحية بأحسن منها ، وصبيلنا الاعتراف بالفضل لعدوى الفضل .

يا صاحب الدولة :

تفضلتم فخصتم معهد شين الكوم بزيارتكم ، وهى ظاهرة طيبة تدل على أنكم تترسمون  
خطا صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم « فاروق الأول » فى احترام رجال الدين ، وفى الحرص  
على تعرف أحوالهم ، وفى الخدب على مجاملتهم . واسمحوا لى يا صاحب الدولة أن أقول : إنهم  
جديرون بهذا التكريم ، وخليقون بهذا العطف ، فهم حملة كتاب الله ، وهم طلبة العلم الشريف ،  
وهم رمز القومية فى هذا البلد الأمين .

يا صاحب الدولة :

وسط مشاغلكم الكثيرة فى هذا الوقت العصيب ، تريدون أن تؤدوا واجبكم فى تعرف  
حال الناس ، وفى الاتصال من كتب بنواحي الحياة المختلفة فى أنحاء البلاد ، لتكوتوا على بينة  
من أمر من ولاكم الله أمرهم ، وطالبكم بالمعمل من أجلهم ، وهو شعور طاهر ، وخلق كريم ،  
وأمانة فى الواجب ، وقد كان هذا سبيل الولاية ، وطريق الحكام ، حين كان الولاية والحكام  
يراقبون الله فى عباد الله ، وسهروا الليل ، وقطموا الليالى ، باحثين ومنقبين عن حاجات الناس ،  
وأحوالهم ، وآلامهم ، وآمالهم ، ثم وضعوا العلاج ، ورسموا طريق الإصلاح ، فكانوا ألقى  
بالنجاح ، وأقرب الى التوفيق .

يا صاحب الدولة :

هذا المعهد الذى يتشرف اليوم بزيارتكم ، حديث عهد بالوجود ، فلقد أنشئ منذ أربع

سنوات ، ولا يدهشكم ما قد ترون فيه من إعداد كامل ، ونظام شامل ، فهو ثمرة من ثمرات عهد الملك الصالح « فاروق الاول » ، حفظه الله . وإلى جلالته يرجع الفضل كله في شدد أزر صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ، شيخ الجامع الأزهر ، ذلكم المصلح الفذ ، الذى يعمل الخير الأزهر ، وخير الوطن ، بروح صادقة وقلب مخلص ، وهو فوق أنه مفلور على حب الخير ، وحب الإصلاح ، يستأنهم المساكين ، يحب الخير ، ويحب الإصلاح ، ويحب أهل الخير ، وأهل الإصلاح ؛ يشجعهم ، ويرضى عنهم ، ويقرهم ، ويحسن إليهم .

يا صاحب الدولة :

أعود فأكرر الشكر لدولتكم على هذه الزيارة الكريمة ، وأرجو أن تتقبلوا الفكر منى ، ومن حضرات إخوانى علماء المعهد ، وأنثاى الطلاب .

وسنذكر دائماً أن حضرة صاحب الدولة حسين سرى باشا حين شرف شيين الكوم ، اختص المعهد الدينى زيارته ، فسجل بذلك حبه لرجال الدين ، وتشجيعه لطلاب العلم الدينى ، وفى ذلك تقرب الى الله . ومن كان هذا شأنه ، فأولئك هم المفلحون ، إن شاء الله .

#### صورة البرقية

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر بالقاهرة .  
سررت مما شاهدته اليوم عند زيارتى للمعهد نشيين الكوم ، وأنتهز هذه الفرصة لأعبر  
لفضيلتكم عن شكرى لحضرات شيخ المعهد والاساتذة والطلبة ، وعن خالص تهنئتى  
امضاء  
حسين سرى

#### صورة خطاب الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر

صاحب الفضيلة الأستاذ شيخ معهد شيين الكوم .  
السلام عليكم ورحمة الله .  
وبعد : فقد تلقت البرقية المرسلة صورة منها مع هذا من حضرة صاحب الدولة رئيس  
مجلس الوزراء ، ويسرنى أن أبعث بها إليكم لنعلنوها لحضرات الاساتذة والطلاب مع سرورى  
وتحياتى .  
والسلام عليكم ورحمة الله .  
امضاء  
محمد مصطفى المراغى

of dissolution of marriage, the husband can retain no part of the wife's property, including her ante-nuptial settlement; and, if the administration of the wife's estate was entrusted to him, he must render the wife an account of such administration. Her property is in fact jealously guarded on all sides, and no restrictions are placed on the individual right she has in her belongings. She possesses the right of dividing and alienating her property, and this right of alienation is in regard, not only to her husband but to every body else. She can sue her husband, as she can sue her other debtors, in the open court. She does not require her husband or father, to represent her at law. She can act as an executive and can enter into any contract independently.

A Moslem wife retains her distinct individuality even after marriage, and she never assumes her husband's name. Coverture has no place in the marriage of Islam.

Marriage under Islam is but a civil contract, and not a sacrament, in the sense that those who are once joined in wed-lock can never be separated. It may be controlled, and under certain circumstances, dissolved by the will of the parties concerned. Public declaration is no doubt necessary, but it is not a condition of the validity of the marriage. Nor is any religious ceremony deemed absolutely essential. Two witnesses are required to attest that the contract has been concluded<sup>1</sup>.

---

(1) The whole history of the Christian laws, of marriage and divorce, furnishes a very interesting and instructive reading to a Moslem jurist. For, he perceives, perhaps not without a feeling of just pride, that his Christian brethren are coming nearer to Islam, at least in their conception of marriage and the relations to which it gives rise. In all European countries, the laws relating to marriage and divorce have been revised and recast, and the changes introduced, when examined will be found to exhibit in some of their broad features, a very close analogy to the Islamic laws, framed several centuries before. Thus, in Germany, for instance, the code of 1900 recognises civil marriages alone. 'It is effected by the declaration of the parties before a Registrar, in the presence of each other, of their intention to be married. Two witnesses of full age must be present. The Registrar asks each of the parties whether he or she will marry the other, and on their answer in the affirmative, declares them duly married, and enters them in the register. The marriage must be preceded by a public notice.' Dissolution of marriage has long been recognised in Germany and the United States of America. In England, divorces were very rare till 1857, when the powers exercised in matrimonial matters by the house of Lords, the Ecclesiastical Courts of Common Law were transferred to a lay court termed, 'The Court for Divorce and Matrimonial Causes,' and constituted for the administration of all matters connected with divorce. In France, a similar change came about in the year 1884. In Italy divorces are still almost unknown.

the other half by leading a virtuous life in constant fear of God "

That Islam viewed marriage as means of procreation, and not for gratification of sensual desires, is clear from a short but pregnant saying of the Prophet : "Marry and generate." On another occasion he said : "Marry a woman who holds her husband extremely dear, and who is richly fruitful."

The Prophet advised great circumspection in the selection of the bride, and even permitted that the intended bride be seen, before her betrothal, by him who seeks her hand, lest a blunder in choice or an error of judgment should defeat the very end of marriage.

## 2. Marriage and Divorce

The laws of marriage and divorce were so framed by the Prophet, that they may ensure the permanence of marriage relations, without impairing individual freedom. These laws display a wonderful insight into human nature, inasmuch as they never lose sight of exceptional circumstances, requiring special treatment. In the formulation of the laws of marriage and divorce, extremes have been avoided in favour of a golden mean. If, under certain circumstances, more than one wife is permitted, or dissolution of marriage is favoured, it is because of the operation of the same principle of flexibility that governs the entire body of the Islamic laws. It is certain that the Islamic laws of marriage and divorce have been abused; and sometimes flouted in certain Moslem lands, but the laws themselves are not responsible for the delinquencies of the individual.

The Islamic laws have recognised women as free and responsible members of society, and have assigned to them a convenient position. A Moslem woman is entitled to a share in the patrimony, along with her brothers, and though the proportion is different, the distinction is founded on a just appreciation of the relative position of brother and sister. No male member of the family, not even her husband, can manipulate her property which during the marriage remains absolutely her own and quite at her disposal. The exigible portion of the stipulated dower is payable to her on demand, as soon as the status of marriage is established, and the deferred portion on the termination of the marital relation, unless the woman is guilty of a manifest wrong. Under the Moslem law, the dower settled upon the wife, is an obligation imposed by the law on the husband, as a mark of respect for the wife, the non-specification of which, at the time of marriage, does not affect the validity of the marriage. In the event

best manners, and shows the greatest kindness to his wife and children."

5. "Fear God in regard to the treatment of your wives, for verily they are your helpers. You have taken them on the security of God, and made them lawful by the words of God."

6. Once the Prophet portrayed an ideal wife in the following words. "She is the ideal wife who pleases thee when thou lookest at her, obeys thee when thou givest her direction ; and protects her honour and thy property when thou art away."

7. "The world is full of objects of joy and delight, and the best and the most profitable source of delight is a pious, chaste woman."

8. "Paradise lies at the feet of mothers."

9. "Search after knowledge is obligatory both on Moslem men and Moslem women."

### 1. The Object of Marriage

The object of marriage was defined by the Prophet in clear unambiguous words. It was never meant to be a means of satisfying the sensual appetite ; but, on the other hand, it was instituted, in the first place, as a safe-guard against lewdness and incontinence, and, in the second place, as a means of procreation. It is on these and similar grounds, that he always encouraged a married life in preference to a life of celibacy and laid so much stress on the piety and fruitfulness of women. "Whoever marries a woman solely for her power and position," said the Prophet, "God but increases his humiliation ; whoever marries a woman solely for her wealth, God but increases his poverty ; whoever marries a woman solely for her beauty, God but increases his ugliness ; but whoever marries a woman, in order that he may restrain his eyes, observe continence, and treat his relations kindly, God putteth a blessedness in her for him, and in him for her."

Thus piety and continence are uppermost in the conception of Islam, as the prime motive of marriage. This is clear enough in another saying of the Prophet. "There are three persons," said he, "whom the Almighty Himself has undertaken to help—first, he who seeks to buy his freedom ; second, he who marries with a view to secure his chastity, and third, he who fights in the cause of God."

Another saying of the Prophet is equally clear on this point : "He who marries, completes half his religion ; it now rests with him to complete

there a man who walks with his wife hand in hand, but that God sets it down as a virtue for him ; and if he puts his arm round her neck in love, his virtue will be increased tenfold."

Once again, he was heard praising the women of the Koreish, "because," said he, "they are the kindest to their children while they are infants, and because they keep a careful watch over the belongings of their husbands."

In another instance the Prophet of Islam said - "There are four things, such that if a person is endowed with any one of these, it is as if the blessings of both worlds were showered upon him : first, a heart that is grateful ; second a tongue that utters constantly the name of God ; third, a mind that is patient and calm amid troubles ; fourth, a wife that is never guilty of a breach of trust, either in respect of her own person or in respect of her husband's property."

I will now give some further sayings of the Prophet Mohammad, on the question under discussion, which I hope will shed more light on the position assigned to women in Islam.

1. "Among my followers the best of men are they who are best to their wives, and the best of women are they who are best to their husbands. . . . To each of such women is set down the reward equivalent to the reward of a thousand martyrs . . . Among my followers, again, the best of women are they who assist their husbands in their work, and love them dearly for everything, save what is a transgression of God's laws. The best of men, on the other hand, are they who treat their wives with the kindness of a mother to her children. To each of such men is set down a reward equivalent to that of a hundred martyrs." On being asked by Omar, who afterwards rose to be the second Caliph, why woman's reward should be ten times greater than man's, the Prophet said : "Do not you know that woman deserves greater reward than man ? for, verily, Almighty God exalts the position of a man in heaven, because his wife was pleased with him and prayed for him."

2. "The best among you is he who is the kindest to his wife, and I am the kindest of you all to my wives."

3. "What are the rights that a wife has over her husband ?" asked Moawiyah ; and the Prophet forthwith replied : "Feed her when thou takest thy food ; give her clothes to wear when thou wearest clothes, refrain from either giving a slap on her face or even abusing her ; separate not from thy wife, save within the house."

4. "Verily, of the believers he has the most perfect faith who has the



of unmixed evils. He said : "Let not any Moslem be harsh in his treatment of his wife ; for if certain aspects of her conduct displease the husband, certain others will please him." He neither desired that woman should be the bond-slave of her husband, nor did he countenance the idea, that woman should be so far free as to overstep her proper limits and encroach upon the sphere of her husband. On the principle of division of labour, Islam assigns to each a particular sphere of work, on the faithful discharge of which depends the happiness of hearth and home. Woman, in her capacity of a good mother and a devoted wife, is the queen of her home, while the husband is to protect her from all danger and temptation, earn his bread by the sweat of his brow in the open world, and provide for the maintenance of the family. In connection with this setting apart of spheres of work with regard to the nature, constitution, mental habitude and position of the person concerned, the Prophet of Islam said : "All of you are so many sovereigns, and all of you will be required to render account in respect of whatever persons or things you have under your charge. So the chief who is sovereign over his subjects, shall be questioned about the treatment he accorded to men placed under his control, the head of the family is the sovereign of the house and he shall be questioned with respect to the members of the house ; and woman is sovereign in the house of her husband, and rules her children and she shall be questioned about these, and the slave is sovereign over his master's belongings, and he shall be questioned about them."

The ruling idea in the teachings of Islam with regard to man and woman, is that the husband and the wife should supplement each other, call into play the distinctive excellence of their respective character, and, in mutual confidence, strive to work out their united happiness. Woman is to exercise her beneficent, humanising influence over her husband, soften the hardness of his nature and level down the stiffness of his character ; while man, for his part, is to educate her mind and help her to realise those womanly qualities, in which she by her very nature excels. This is the conception of wife hood which the Prophet of Islam favoured, as is inferred from some of his sayings. "A woman is married for four reasons," said he, "either in consideration of her wealth, or her noble parentage, or her beauty, or her piety. Succeed then in getting a woman of piety for your wife, for she is to her husband a helper in life, and she remains content with little."

On another occasion he told a certain woman who had brought a complaint against her husband. "There is no woman who removes something to replace it in a proper place, with a view to decorate her husband's house, but that God sets it down as a virtue for her. Nor is

observes thus : "Physically, men have the indisputable superiority in strength, and women in beauty. Intellectually, a certain inferiority of the female sex can hardly be denied, when we remember how almost exclusively the foremost places in every department of science, literature and art have been occupied by man . . . It is as impossible to find a female Raphael, or a female Handel, as a female Shakespeare, or Newton." Lecky, however, thinks, and perhaps rightly enough, that morally the general superiority of women over men is unquestionable. Be that as it may, when once we admit the physical and intellectual superiority of man over woman, we cannot deny that woman has to depend upon, and take advantage of, the intellectual resources and superior strength of the opposite sex; and this is precisely what Moslem doctors hold to be the import and significance of the verse under consideration.

Some critics made needless comments on the following saying of the Prophet : "Treat women with kindness, for woman was made of a rib which is crooked in the upper part; if you try to bend it straight, you will break it, and if you leave it as it is, it will remain so." In these words the Prophet only appeals to the good sense of man and the kindness of his heart, by reminding him of the natural weaknesses of the fair sex; so that we may not expect of women things out of proportion to their talents and capabilities; for in such expectations we are likely to be disappointed, and our disappointment may tempt us to accord to them harsh treatment. The Prophet, therefore, exhorts his followers to be rather generous and forgiving than severely exacting and calculating. It is as if the Prophet said to his followers "I am giving you sound advice relative to what your treatment should be towards women, carry out therefore my will respecting them. Do good to them; and be not angry with them, if they act in a way not acceptable to you, unless, of course, the deed involves any positive sin; for, they are made of a crooked rib (and, as such, are naturally liable to error.)

Elsewhere, the Prophet has positively warned us against running after scandals and constant searching after the secrets and faults of women, since such a course of action may impair the conjugal relations, and finally lead to the absolute dissolution of the marriage bond.

Close acquaintance with the teachings of Islam repudiates the false charge, that the Prophet is responsible for the degradation of woman. The Prophet saw the weak points of woman's character, as well as its strong points. He regarded woman as physically and intellectually inferior to man in general, but richer in nobler emotions of the heart, in tenderness and delicacy of feeling. No body can be so bold as to say, that the Prophet saw nothing good in woman, and conceived her to be a bundle

the wrong interpretations that have been put, from time to time, on certain verses of the Koran and certain sayings of the Prophet of Islam, they have a firm hold on the imagination of the critics of the West.

One of the verses of exquisite beauty which have been subject to misconstruction in certain quarters, is . "They (the wives) are a garment for you and you are a garment for them." It is garment that hides one's nakedness ; so do husband and wife, by entering into marriage relations, secure each other's chastity . The garment gives comfort to the body ; so does the husband find comfort in his wife's company, as she in his . The garment is the grace, the beauty, the embellishment of the body, so too are wives to their husbands, as the husbands, to them.

Another verse which has been similarly misconstrued is the verse which the Rev. Rodwell translates thus : "Men are superior to women on account of the qualities, with which God hath gifted the one above the other, and on account of the outlay they make from their substance for them. Virtuous women are obedient, careful during the husband's absence, because God hath of them been careful." From this verse several critics have drawn the erroneous inference that in Islam woman holds a very subordinate position, and that she has been placed under man's tyrannical sway, she having no choice but to submit to his arbitrary dictates and self-willed decrees. Even accepting the Rev. Rodwell's translation of the verse as correct, the sense of the verse appears to be nothing more than this . that man should treat his wife with love and affection and provide for her from his abundance, while woman should preserve her honour, attend to domestic duties and look up to him as her friend, philosopher and guide. Understood thus, the verse has nothing revolting to our feelings, and describes the relationship between husband and wife as it naturally ought to be. There is nothing in the verse to imply that the wife's judgment is in any way fettered, that she is simply the slave of her husband's desires, or that she is at best an 'ornamental article of furniture' . Neither, according to respectable commentators of the Koran, does the verse admit of the meaning which superficial critics have wilfully put upon it. These commentators understand the verse to point out a man's right to exercise a certain control over his wife, and his duty to provide for her security and sustenance. The superiority of man over woman rests on certain innate qualities which man generally possesses in greater proportion, in regard to knowledge and power . In power of endurance, in audacity and courage, man has a decided advantage over his fair sister. Prophets, apostles, distinguished philosophers and commanders of armies have all been men, not women. Lecky, himself undoubtedly a clear thinker and discerning critic, while discoursing on the distinctive difference between the sexes,

Eastern divorce. If the social touch-stone of a religion is the way, in which it regards the poor and the oppressed, Mohammed's religion can stand the test. He improved the condition of women by freeing them from the arbitrary patriarchal power of the parents or the heirs of the husbands, by inculcating just and kind treatment of them by their husbands themselves, by giving them legal rights in case of unfair treatment, and by absolutely prohibiting the incestuous marriages which were rife in the times of ignorance, and the still more horrible practice of the burying alive of female infants. Nor was this all, for besides imposing restrictions on polygamy, by his severe laws at first, and by the strong moral sentiment aroused by these laws afterwards, he has succeeded, down to this very day, and to a greater extent than has ever been the case elsewhere, in freeing all Mohammedan countries from those professional outcasts who live by their own misery, and by their existence as a recognised class, are a standing reproach to every member of the society, of which they form part<sup>1</sup>."

## XVI

### The Status of Women in Islam

It has been said that Islam, as a social system, has been a total failure, because "it has misunderstood the relations of sexes . . . and by degrading women, has degraded each successive generation of their children down an increasing scale of infamy and corruption, until it seems almost impossible to reach a lower depth of vice." This is certainly strong language and calls for an investigation, as to whether Islam has really misunderstood the relations of the sexes, and whether it has really degraded women.

Very few of the critics take pains to determine what actually are the teachings of Islam in this respect, as embodied in the Holy Koran; and fewer still is the number of those who care to study the life of the Prophet, which is the most authentic commentary on the text of the Holy Book. It is therefore most regrettable that misconception should have arisen about the status of women in Islam — a point, on which the attitude of Islam is clear and unmistakable. I am afraid, many in Europe and in America form such strange opinions from a study of the tales of romance or books of travelling, written by professional globe-trotters. They see in the "harem," which is by the way a name in the East for the ladies' apartment, a home of gross sensuality and voluptuous pleasures. Such ideas have unfortunately prevailed in the West for a very long time; and supported by

---

(1) "Mohammed and Mohammedanism" by R. B. Smith, M. A., pp. 174-176.

## الشيخ محمد عبده

كلمة في إحياء ذكره أذيعت بالراديو

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي

إذا كان لا إنسان أن يتحدث بحق معترف به عن الإمام المجدد العظيم الشيخ محمد عبده ، فهو حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي غير منازع . فقد كان فضيلته تلميذه الأول ، ومثابرا على شهود دروسه بالأزهر ، ومتقبعا خطواته في التفكير ، ومما شابه له في وجهة النظر ، عن فطرة لا عن تصنع ، فلما على غراره ، تأثرا على التقليد ، نزاعا الى تجلية الإسلام في نقائه الأول ، معتقدا بأن لا نجاة للمسلمين مما وقعوا فيه إلا بترسم خطوات المجددين الذين نبغوا في خلال القرون الإسلامية ، وطبعت معالم تعاليمهم الصروف المختلفة . نزعات تجلت كلها مجتمعة في كلمته التي ألقاها في مناسبة إحياء ذكرى مجدد الأزهر العظيم الشيخ محمد عبده ، وقد أذاعها الراديو مساء ١٦ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٠ هـ ١١ من شهر يوليو الجاري ، ونحن ننقلها إكبارا لها ، قال حفظه الله :

عبد من عباد الله الذين احتصمهم بمزيد فضله ، ومنحهم من صفات الانسانية الفاضلة ما امتازوا به عن أقرانهم في عصرهم وأمثالهم في عصور أخرى ، وأشرفوا على الناس يأملون لما عليه الناس من انحطاط علمي وخطي وأدبي ، ويحاولون تبديل أمم أخرى بهم . ورجل ممن رزقوا آلة المعرفة ، وأفيض عليهم نور العلم الإلهي ، ففهموا أسرار الدين ، وعرفوا السعادة الحققة على وجهها . منحه الله قوة في الجسم والحواس ، وبسطة في العلم ، وعقلا قويا نقادا ، وفطرة سليمة ، وإلهاما صادقا ، وشجاعة في الحق ، وازدراء للباطل ، وقلبا رحيما بالضعفاء والفقراء ، وحبنا للبذل والإحسان .

نشأ الشيخ في عصر من العصور القائمة ، كل شيء فيه محض مؤلم للنفس الحرية والفطر المصادقة : الأم الإسلامية تتعذر علميا وسياسيا واجتماعيا الى أحط الدرجات ، وليس لطالب الحرية العقلية بينها متنافس ، والدين يفهمه الناس على غير وجهه ، واللغة العربية احتللت بغيرها من لغات المعجم ، والرائي الى الله لها طرق لم يشرعها الله ، والرائي الى الحكام لها طرق لا يرضها ذو مروءة . ذهب ربح المسلمين وتلفت من أيديهم زمام الحياة العامة ، وتداعت عليهم الأمم كما تندهى الأكلة على القصاع ، وليسوا قلة بين الأمم ، ولكنهم كفتاء السبل .

ذهب يتعلم فتعلم كما يتعلم غيره قواعد جافة ليس لها حياة تصلها بمبايعها من الكتاب الكريم والسنة المطهرة ، ولا بأصولها من لغة العرب وأساليبهم وأديبهم ؛ وتعلم القواعد في مختصرات رضيها ذلك العصر المظلم ، لا تفهم إلا بشروح وحواش وصناعة خاصة ، فلا اللغة

العربية بمعمدة على إجادته للنظم والنثر والكتابة والخطابة وعلى فهم القرآن الكريم وفق الأساليب العربية ، ولا نقه بساد حاجة المجتمع وحاجة الحكومات والدول في التشريع والتنظيم ، ولا دراسة الكلام والمنطق بموصلة الى الاستدلال الصحيح الذي يطعن إليه العقل ويقنع الخضم . المتحدث في الاجتهاد وتخريج الأحكام لتطابق الأحكام حاجة العصر ولتلائم أحوال الأمم وأحوال الأزمنة ، مبتدع مخالف لما أجمع عليه المحققون ، والداعي الى سيرة السلف الصالح داع الى مخالفة سيرة العلماء المبرزين ، والداعي الى كتب الأولين مقصر عن فهم كتب المحققين من المتأخرين ، والمناهي بأن كتب الفقه وكتب التفسير وكتب الحديث ماثت بمعلومات خامنة وبأوهام وقصص ثقفها من قبل علماء الامراتيليات ، مخالف لما درج عليه صالحو هذه الامة وجهابذتها .

عاش الشيخ في هذه البيئة العلمية ضيق الصدر مرير العيش ، فن من أصحاب الفطر العاذقة والنظار السليم يؤمن بالقرآن ويعتقد أن فيه هدياً وفيه شفاء ، وأن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم عامة للأمم كلها ولعموم كلها ، يؤمن بأن هذه الدراسة الدينية والعربية تخرج الناس إماماً يهتدون بهديه ، ويشقى أمراض المجتمع في علمه وخلقه ونظامه ، ويضع له القوانين الصالحة والنظم اللائقة ؟

عاش الشيخ في هذه البيئة يلتبس الوسيعة ، وتطلب نفسه مخرجاً منها ، وتطلع الى رجل يشقى صدره ، ويزيل قلق نفسه ، ويشد أزره ، ويبصره بالدين والحياة ، وينضم رأيه الى رأيه في أن هذا الذي يراه ليس هو الدين ، وهذا الذي يعبس فيه الناس ليس هو الحياة ، وهذا الذي يدوسه من الكتب ليس موصلاً الى العلم الصحيح بل هو مبعد عنه ، وهذا الذي يتعارفه الناس في طرق الدراسة ليست هي طرق الدراسة الصحيحة النافعة .

مر بهذا الطور ، ثم أعطاه الله ما كانت تصبو إليه نفسه ، فهبط الى مصر رجال الدين الأفغاني ، وهو رجل فاضل النظم الموحدة جميعها : نظم الدراسة ، ونظم الحكومات ، خبير بأحوال الدنيا وأحوال الأمم ، عليم بادوار التاريخ وما نقلت عليه الأمم الإسلامية من أموار ، خبير بالتأويل العلمي الإسلامي وبغيره من التأويل ، عالم بعلوم الأمم ونحلها ، عالم بالاستدلال وطرقه ، بصير بالدعوة الى الله سبحانه ، وبالذعوة الى ما يريد من الآراء والمذاهب ، يفقه أغراض الدين العامة ، ويحترم العقل ويرف له قدره ، ويضع الرجال مواضعهم لا يطمعهم أكثر مما يستحقون ؛ رحل بحث نصلة نسبته الى صاحب الرسالة ، ويرى أن عليه ديناً جده لا بد أن يؤديه ؛ ذلك الدين هو وقف مواهبه جميعها على تبين هذا الدين وإصلاح حال المسلمين . وحده الشيخ في السيد جمال الدين بغيته ، ووجد ما يسد نهجه ، ويشقى صدره ، ويزيل صداً عقله ويشحذه ، ويرد ذلك الجوهر صافياً نقياً لا معاً كما فطره الله ، ثم يملؤه علماً وبقيناً وإيماناً ومعرفة ، ويعدّه للإصلاح .

أم الشيخ دراسته ، ولا مر ما أراد الله به كماله ، هجر مصر لأسباب سياسية وطوف في بعض بلاد الإسلام وبعض البلاد الغربية ، فاكتمل نضجه ، ثم عاد واشتغل بالقضاء الأهلي ، وعرف أساليب القضاء الحديثة من منابها ، فصار قديراً على الإصلاح في القضاء الشرعي كما هو قدير على الإصلاح العلمي وإصلاح نظم الدراسة .

حيات له الأسباب جميعها تولى إفتاء الديار المصرية ، وصار له شأن في إصلاح الأزهر بعضوية الإدارة فيه ، وكانت مواهبه وجاهه وخبرته بالدولة ورجال الدولة مما جعله المسيطر على الإصلاح في الأزهر وصاحب النفوذ فيه .

عرف الشيخ أن النفوذ والجاه ووضع النظم وما إلى ذلك لا يكونان الرجال العاملين ولا العلماء المجددين ، وأنه لا بد لهذا كله من أن يضاف إليه التعليم الصحيح ، وأن يتولاه بنفسه ، فقرأ في الأزهر كتاباً قديماً من كتب المنطق ، وقرأ رسائله في التوحيد ، وقرأ كتب الشيخ عبد القاهر في البلاغة ، وشرح بفسر كتاب الله .

كانت دروس الشيخ كالغيث ، أما البلد الطيب فقد خرج نباته بإذن ربه ، وأما البلد الخبيث فقد خرج نباته كالكبد ، وكانت دروسه مثلاً طالياً في طريقة الإلقاء والتفهيم ، وفي العبارات التفصيصة المنيرة النافذة إلى القلوب ، وكانت دائرة معارف يجد الغوى فيها حاجته ، والعقيد رغبتة ، والمتكلم بغيتة ، ويجد علماء الاجتماع فيها تطبيق آي القرآن على معارفهم ، وكانت صرخاته المدوية منبهة للغافل ومحركة للجامد ، وكانت طاصعة قوية هزت الأشجار الباسقة القوية فسقطت أوراقها الذابلة ثم أوردت ، أما الشجيرات الضعيفة والحشائش الدبيثة فأفلتت منها ولم تنفع بها .

فاملان من أقسى العوامل وقفاً في طريق الشيخ : عامل الحسد ، وعامل البيئة . ومن الحال أن يوجد رجل كالشيخ في صفاته وعلمه لا يحسد . ولو أنه لم يحسد ، ولو أنه لم يرم بالكفر والصلال ، ولو أنه لم يشتد حسده ولم يقاوم أشد المقاومة بسبب الحسد ، لما كان شيئاً يتحدث عنه ، ولما كان رجلاً من رجال التاريخ . وقد دعا قال الامام الغزالي : « استصغر من علماء الدين كل من بالكفر لا يعرف ، وكل من بالضلال لا بوصف » ، والسلاح القاتل الذي يرمى به علماء الدين هو الكفر والزندقة ، والمقتل الوحيد الذي يقصد بالمهام في علماء الدين هو العقيدة .

وأما البيئة فقد أشرت إليها من قبل ، ولا أبيع لنفسى أن أضرب الأمثال وأقيم الأدلة على أنها بيئة لم يكن من العدل أن ينظر منها مناصرة الشيخ وقبول آرائه وطرائقه في الإصلاح الديني والغوى وغير ذلك ، ولم يكن من الحق أن يطبع الشيخ في مناصرتها إياه ، وبخاصة أنه هاجها هجوماً عنيفاً لا هوادة فيه ، وسئم آراءها في أعز شيء لديها وهو العقيدة .

وسبب ثالث له حطره : وهو أن جهة ذات نفوذ أظهرت عدم الرضا عن الشيخ وساعدت خصومه ، وأن جهة ذات نفوذ آخر ساعدته وشدت أزره ، فظل القوم أنه رجل يريد إفساد

الدين وإفساد العلم وإفساد الأزهر . ومن أشد مظاهر الحسد إذ ذاك أن طالما من كبار العلماء كتب سلسلة مقالات في جريدة المؤيد يحرم فيها تعليم الحساب والجبر والهندسة والتاريخ في الأزهر، لأن الشيخ كان أول المبشرين بتعليم هذه العلوم في الأزهر، وكاد المناد يكون كفرا .

ذهب الشيخ الى جوارحه منذمت وثلاثين سنة، وكان فضله مجهودا، وكان يرى بالكفر والزندقة ؛ لكنه كلما ابتعد الناس عنه بالزمان اقتربوا من معرفته، وزاد المقرون له بالعلم والتقوى والإيمان والغيرة على الدين، والمقرون له بالإصلاح والقدود عن الاسلام والمسلمين .

مات الشيخ وبقيت طريقته في الإصلاح لم تمت، وبقيت آراؤه مدونة في الكتب، ومرسومة في صدور تلاميذه المخلصين، يورثونها الأبناء والأحفاد . إن ذلك المصباح لا يزال يسطع نوره، ولا يزال نوره يمتد في آفاق البلاد الاسلامية وغيرها .

وسينجلي للناس جميعهم، عند ما ينصفه التاريخ ويتقدم العهد، أنه علم من أعلام الامة، ومحدد من مجددى الاسلام، وأنه أحد رجال السلف الصالح تأخر ميلاده عن حير القرون لحكمة أرادها الله، فولد في القرن الثالث عشر الهجرى .

ترك بذور الإصلاح فتعليم الدين وتعليم علوم العربية، وبذور إصلاح القضاء الشرعى، وبذور إصلاح المجتمع الاسلامى والامم الاسلامية، وليس في رجال تفسير كتاب الله من يضارع الشيخ أو يقاربه في تطبيق آى القرآن على سنن الاجتماع، وفي تصوير هدى القرآن، وفي فهم أغراض الدين العامة .

ودعته ليلة سفرى الى السودان لتولى قضاء مديرية دققة في نوفمبر سنة ١٩٠٤، فسانى هل معك رفقاء السفر؟ فقلت : نعم، بعض كتب آس اليها وأستديم بها اتصالى بالعلم، فقال : أو معك كتاب الإحياء؟ فقلت : نعم، قال : الحمد لله، هذا كتاب لا يجوز لمسلم أن يسافر سفرا طويلا دون أن يكون رفيقه . ثم قال لى : أنصحك أن تكون للناس مرشدا أكثر من أن تكون قاضيا، وإذا استطعت أن تحسم النزاع بين الناس بإصلاح فلا تمدل عنه الى الحكم، فإن الأحكام سلاح يقطع العلاقات بين الأسر، والصالح دواء تلتئم به النفوس وتداوى به الجراح . وداعبنى مرة إثر خروجه من امتحان شهادة العالمية : هل تعرف تعريف العلم؟ فقلت له : نعم، وكنت أحفظ إذ ذاك أكثر تعاريف العلم، فسردت بعضها . فقال اسمع منى تعريفا مفيدا : العلم هو ما ينفعك وينفع الناس . ثم سأل : هل انتفع الناس بملكك؟ قلت له : لا، قال : إذا أنت لست بعالم، فانفع الناس بملكك فتكون عالما .

ولم يكن يفوته أن يذكر بالقرآن، وأن يعتبر بالقرآن كلما ذكرت الحوادث وكلما جدد العبر؛ ولم يكن يفوته أن يشهر بالطالمين، وأن يثنى على المخلصين العادلين؛ فقد كان يحب الحق أكثر مما يحب نفسه . عاش للعلم، وعاش للدين، وعاش للاسلام والمسلمين .

رحمة الله ورضوانه عليه، وعلى إخوانه الأئمة المهنيين



# السيرة المحمدية

## تحت ضوء العلم والفلسفة

الرسالة المحمدية عامة للبشر كافة - إعلانها للدول ورمبها

في السنة السادسة من النبوة ، وبعد صلح الحديبية ، رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن الوقت قد آن لإعلان العالم أجمع برسالته العامة ، فأرسل للملوك الذين كانوا يتوزعون الأمم في زمانه سفراء يحملون كتباً منه إليهم ، يدعوهم فيها إلى الإسلام ، موقفاً عليها بخاتم الخلفه منقوشاً عليه ( محمد رسول الله ) . فوجه دحية الكلبي إلى أمبراطور الرومانيين بكتاب جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين (١) و « يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وبعث عبد الله بن حذافة السهمي بكتاب إلى كسرى ملك الفرس جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . أدعوك بدعاية الله ، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . أسلم تسلم ، فإن أبيت فإنما عليك إثم الجحوس » .

وأرسل حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس عظيم القبط بكتاب كان فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإنما عليك إثم القبط . و « يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

(١) الأريسيين أي الفلاحين في القرى . وهذه في رواية ( الأكارى ) وهم الفلاحون أيضاً جمع أكار .

وكلف عمرو بن أمية الضمري أن يحمل إلى النجاشي ملك الحبشة كتابا جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عند رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة سلم . أما بعد ، طائي أحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحسنة ، فحملت بعمسى من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده . وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاته على طاعته ، وأن تتبعني وتوقن بالذي جاءني ، طائي رسول الله . وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل . وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى »

وكتب إلى ملك البحرين ، وإلى ملكي عمان ، وإلى هوزة بن علي ملك اليمامة ، وإلى أقيال اليمن ، وإلى كل من كان يمكن أن يصل إليه كتاب من قادة الجماعات البشرية ، يدعوهم فيه إلى الإسلام ، وينذر من تخلف عن قبول دعوته منهم بسوء المصير .

تأثير هذه الكتب فيمن أرسلت إليهم :

لما وصل كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى قيصر ملك الرومان ، طلب أن يبحث له عن رجال من العرب ليسألهم عن رسول الله ، فاتفق أن كان أبو سفيان بن حرب بالشام في تجارة مع جماعة من فريز ، فدعوم لمقابلة الامبراطور . فلما مثلوا بين يديه ، قال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه رسول ؟

فأجاب أبو سفيان : أنا . لأنه كان من بني عبد مناف أحد أجداد النبي ، فقال له قيصر : ادن مني . ثم سأله : كيف نسب الرجل فيكم ؟ فقال أبو سفيان : هوينا ذو نسب .

فسأله . هل ادعى هذه الدعوى أحد قبله منكم ؟ فقال : لا . قال : هل كنتم تهيمونه بالكذب قبل أن يدعى ما ادعى ؟ قال لا . قال : فهل كان من آبائه ملك ؟ قال : لا . قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم . قال : بل ضعفاؤهم . قال : فهل يزيدون أم ينقصون ؟ قال أبو سفيان : بل يزيدون . قال الامبراطور : هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟ قال : لا . قال قيصر : هل يغدر إذا عاهد ؟ قال أبو سفيان : لا ، ونحن الآن منه في ذمة لا ندرى ما هو فاعل فيها . قال : فهل تأملتكموه ؟ قال : نعم . قال : فكيف حربكم وحربه ؟ قال : هي بيننا سجال مرة لنا ومرة علينا . قال قيصر : فبم يأمركم ؟ قال أبو سفيان : يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، وينهى عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة .

وقد روى بعد هذا أن الامبراطور استنتج من هذه الأجوبة أن محمداً رسول الله حقاً . وقال : إن كان ما كلمتني به صحيحاً فسيملك موضع قدمي هاتين .

ثم روى أن قيصر لما كان يجمع جمع عظماء الروم وأمر أن تطلق أبوابها ، وقال لهم : يا معشر الروم هل لكم في القلاح والرشد ، وأن تبنت ملككم فتبايعوا هذا النبي ؟ فخاصوا حبيصة حمر الوحش الى الأبواب فوجدوها مغلقة . فلما رأى قيصر تفورم استدعاهم وطيب نفوسهم ، وزعم أنه قال لهم ما قال ليخبر بياتهم في دينهم .

أنا أشك في صحة هذه الرواية ، وإنما أثبتنا هنا لإجماع كتاب السير على إيرادها ، وإنما شككت فيها لأنه مما لا يعقل أن يكون قيصر الرومان من سرعة التصديق بحيث يعتمد في إيمانه على رواية رجال لا يعرف مبلغ صدقهم فيما يقولون ، ولم يسألهم عما يجب أن يسأل عنه ذو دين قائم عن الأسباب التي دعت لنسخه بدين جديد ، ولم يبحث في قيمة هذه الأسباب . فإذا لم تكن هذه الرواية مختلفة كلها ، فيمكن أن نحال الى ما يمكن حدوثه عادة ، كأن يظن أن حب الاستطلاع حل أمراطور الروم أن يستعصر بعض من كان في مملكته من تجار العرب ليسألهم عن رأيهم في هذه الديانة الجديدة وفي سيرة القائم بها . أما أنه يتحول اليها بهذه السرعة ويدعو اليها قومه ، وم من أشد المسيحيين تمسكا بالمسيحية ، فما لا يمكن قبوله بوجه من الوجوه .

وكان تأثير كتاب النبي صلى الله عليه وسلم في ملك الفرس أنه غضب منه غضبا شديدا جعله على تمزيقه والقذف به .

أما تأثيره في المقوقس فكان الشك في صحة الرسالة الحمديدية . فانه لما قرأ كتابه قال لحامله اليه حاطب بن أبي بلتمة : ما منع هذا إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده ؟ فقال له حاطب : فما منع عيسى حين قبضوا عليه أن يدعو عليهم ويهلكهم ؟

أجمع كتاب السيرة أن المقوقس أجاب النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب قل فيه : سلام عليك ، أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو اليه ، وقد علمت أن نبيا قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالعام ، وقد أكرمت رسولاك ، وبشت لك بحاريتين لهما مكان عظيم في القبط ، وبنياب ، وأهديت اليك بقة تركها ، والسلام .

وأما أسلم بأن المقوقس أهدى النبي صلى الله عليه وسلم ما ذكر في هذا الكتاب ، وهو أشبه بكرم أخلاق الأقباط ، ورقة طباعهم ، ولكنى لا أسلم بصحة ما ورد في الكتاب المنسوب للمقوقس ، من أنه كان يمتقد ببقاء نبي آخر لم يبعث . فان هذا لا يتفق وعقيدة النصراني ، فاهم كانوا يعتبرون أن ديانتهم قد تمت نحصد الان وصله وافتدائه النضر بنفسه . والذي وضع هذا الكتاب أراد اظهار المقوقس معظير الذي تأثر قابله بالدعوة الحمديدية ، فأخطأ اختيار الاسلوب ، وإلا فما معنى قوله : ( بحاريتين لهما مكان عظيم في القبط ) ، لئى كانت للأروافه مكانات عظيمة في نظر الأمم ؟

وإني إنما أتبه على أمثال هذه المأخذ لشحذ الهمم على تطهير السيرة المحمدية من كل ما لا يتفق والدوق السليم وحكم العقل . فإذا كان بعض القدماء عمدوا إلى إهمال التقدي في بعض ما تناقلوه ، فلا يجوز للمعاصرين أن يتابعوهم فيه ، فقد علموا أن الدلائل على صومسكانة النبي صلى الله عليه وسلم أصبحت تحت ضوء العلم وفلسفته من الكثرة بحيث يعد منها ولا تعد . وأما تأثير كتاب النبي صلى الله عليه وسلم في النجاشي ، فقد روى أنه لما وصل إليه الكتاب وضعه على عينيه ، وزل عن سريه فجلس على الأرض ، ثم أسلم . ودعا بعد ذلك بحق من حاج لجعل فيه كتاب رسول الله وقال : لن تزال الحبيشة بخير ما كان هذا الكتاب بين أظهرهم . ثم أمر أن يكتب له جوابه ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . إلى محمد رسول الله من النجاشي المحممة . السلام عليك يا مبي الله من الله ورحمة الله وبركاته الذي لا إله إلا هو الذي هداني للإسلام . إلى أن قال : فأشهد أنك رسول صادق مصدق . وقد بايعتكم وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يده لله رب العالمين » تقول : لا يحال قلبي شك في أن هذا الكتاب مختلف على النجاشي ، لا لأنه أكبر من أن يخضع لدعوة المحمدية ، فقد خضع لها من الملك من يقهر النجاشي أن يكون خاضعا لسلطانهم ، ولكن لظهور أثر الصنعة في كل عبارة من عباراته ، بل كل كلمة من كلماته ، فأثني النجاشي وهو في قاصية من مجاهل أفريقيا ، وبين ظهري شعب أمي ، يرضن بعقائده الموروثة ضنه بنفسه ، يكون من سرعة التصديق بحيث يستبدل دينه دينا جديدا لجود دعوته إليه ، وينقلب متحمسا له إلى حد أن يستهتر في حبه وحب الداعي إليه على نحو ما رأيت ؟

ليست الدعوة المحمدية في حاجة إلى إظهار عظمتها بمثل هذه المفتريات الساذجة ، وقد سرت في الجماعات والأفراد سريان الروح في الأجساد ، وبسرعة حار في تقديرها العقل ، حتى باع الذين قبلوها مائة مليون نسمة في نحو قرن ، وامتد سلطانها على بقاع من الأرض في ثمانين سنة ، لم يبلغ إلى مثلها ملك الرومان بعد جهاد ثمانية قرون متوالية .

#### الإسلام دين مُتَزَلٍ لِلإنسانية كافة :

لم تصادف الكتب النبوية التي أرسلها النبي صلى الله عليه وسلم للأمم والجماعات التي كان يمكن الاتصال بها على عهده ، نجاحا يذكر ، وما كان هذا النجاح مؤملا ، ولكنها دلت على أمر جلال ، لم يدون له شبيه في تاريخ رسول من الرسل ؛ دلت على أن الإسلام دين عالمي وليس بدين قومي ، وهنا موطن الدهش من هذا الحادث العظيم الفذ في تاريخ البشر .

رجل نهض من بين قبيلة لا عهد لها بكتاب ولا حكمة ، ولا اجتماع جنسي منظم ، ولا رابط أدبي محكم ، ينتدب لدعوة الأمم كافة إلى دين عام يجمعها حول أصل واحد ، وهو لا يزال في وسط الطريق من دعوته لقومه الأقربين ، لا يدري أيُفوز عليهم أم يفوزون عليه ! هذا

حادث عظيم لا يكتفى فيه التعجب ، ولا يشقى منه الدهش ، مادام يقدر بالموازين العادية ؛ ولا يوضع في كفته أن هذا إنما كان يعمل بوحى يصدر اليه ، ويرسم خطة توضع له ويكلف بالجرى عليها . بهذا الافتراض وحده تحمل هذه المويضة حلا يقبله العقل ، ويطلع عليه الصدر ، وتنكشف به عوامل خفية تحمل كثيرا من غوامض النبوة ، ومساير الاتصالات العلوية .

عند كان رجلا من قريش مثل سائر مواطنيه ، لا يعرف من أمر العالم أكثر مما يعرفه سواه ، وإنما امتاز عنهم بأنه كان بوحى اليه ، ويؤمر بما يجب أن يسير عليه ، وقد كلف أن يصارح الناس بهذه الحقيقة : « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم إنى ملك ، إن أتبع إلا ما يوحى الى ، قل هل يستوى الاعمى والبصير ؟ أفلا تتفكرون ؟ »

فألقى أوعز الى محمد أن يدعو الأمم كافة الى ملته ، قبل أن يطمئن على نجاح دعوته في البيئته المحدودة التي كان فيها ، هو الحق الذي كان يوحى اليه القرآن ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته .

فألقى بهم الباحث المستقل أن يعرفه هو : هل فيما أنزل على محمد تصريح بأنه أرسل للناس كافة ، وهو ما لم يصريح به في كتاب أنزل على المرسلين الذين جاءوا قبله ؟

إذا بحث هذا الباحث عن ذلك وجد قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، ووجد تصريحاً خطيرا آخر بأنه خاتم النبيين .

هنا تتور فيه رغبة ملحة أن يرى هل في الدعوة نبأ عظيم يساوى أن يبلغ الى الناس كافة ، وهل في أصول هذا الدين ما يرشحه لأن يكون ديناً تاماً للعالمين ؟

إذا بحث في هذه الناحية تبينت له أمور على أعظم حاس من حلاله القدر ، وهى :

( ١ ) أن الاسلام ليس بدين جديد ولكنه الدين الاول الذى أنزله الله على جميع المرسلين ، وتناوله أتباعهم بالتحريف .

( ٢ ) أن دين الانسانية واحد ولا يجوز التفرق فيه .

( ٣ ) أن الذى أوجب التفرق في دين الانسان هو البنى والتعصب لأغراض دينية ليست من الدين في شيء .

( ٤ ) وأن هذا أمرأ صريحا بالدعوة لوحدة الدين على الأساس الذى تولى بناه بالنبيين .

( ٥ ) وأن الدين العالمى الحق هو أن يؤمن الانسان بجميع المرسلين من غير تفرقة بين أحد منهم ، ويكتب الله كافة ، فإن في جميعها الحق والهدى والنور .

( ٦ ) وأن من يؤمن ببعض المرسلين ويكفر بالبعض الآخر فلا يقبل منه دين . ومعنى

هذا أن الاسلام يعتبر الدين وحدة لا تقبل التجزئة ، وهذه نظرية في الدين تصل الى درجة من الصموليس فوقها مرتقى ، وهى ما يستثول اليها العالم حتما بعد أن يصل به الرق الى أفق رقيق .

( ٧ ) وأن هذا الدين العام هو ما كل البشرية جماء ، ولا معدى عنه مهما سمى في طمس

معامله المضاوون .

اليك الآيات الساطعة بالصصوص الصريحة الدالة على ما نقول .

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعهم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب . فلذلك فادع ( أي لتوحيد الدين قادم ) ، واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أئمالنا ولكم أئمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ( أي لا بحاجة ولا خصومة ) ، الله يجمع بيننا واليه المصير . »

« قولوا آمنا بالله وما أنزل اليها ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم ، لا تفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ، فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنا هم في شقاق ، فسيكفيكم الله ، وهو السميع العليم . »

« إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء . »

« إن الدين عند الله الإسلام ( وهو الدين الأقدم ) وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب . »

« أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها ، وإليه يرجعون ؟ قل آمنا بالله وما أنزل علينا ، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . »

الدين في نظر الاسلام وحدة لا تنحزأ ، وهو دين الانسانية بأسرها ، فمن لم يؤمن به حجة فلا يقبل منه . قال تعالى : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون تؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعدنا للكافرين عذابا مهينا . »

هذه هي بعض الآيات التي أردنا إيرادها . وقد قلنا : هل في الاسلام نبأ عظيم يساوي أن يبلغ إلى الأمم كافة ؟

يسوغ لنا الآن أن نقول بأعلى صوتنا : أجل ! وليس هذا خصب ، بل ستبقى الحاجة داعية إلى تبليغ هذا البأ العظيم للأمم شرقا وغربا ما بقي في الناس قلب يمي وأذن تسمع .

محمد فريد وجدي

# النفس

## فِي الذِّكْرِ الْخَمْسَةِ

« والارض وما عليها » : يقال : طعناها ودحاها ، أى بسطها وأوسمها . والمادة تدل على ذلك ، حتى في قول الشاعر :

طعناك قلب في الحسان طروب بُمَيِّد الشباب عصر حان مشيب

فكأنه يقول : ذهب القلب كل مذهب فلم تضق به النواحي ، ولم ينحصر في مذهب واحد ، يقال : طعنا يطعرو وطعنا يطعى ، فهو من ذوات الواو والياء .

وكان القرآن يرد قول من قال من المبطلين بقدوم السماء والارض وأنها غير محتاجين لمن يوجدها ، فذكر بآياتها وطاعها وهو الله عز وجل .

هذا ، ومن عادة القرآن أن يذكر الناس بآياته الأفقية والفسمية ، وقد قال تعالى : « سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » .

وآيات الارض كثيرة : منها أنها ممكنة بيجوز عليها الوجود والمدم ، فلا بد لها إذا من موجد يرجع وجودها على عدمها . ولا شك أن من أكر الآيات البينات وجودها بصفاتنا المشاهدة ، وقد كان يجوز عليها غيرها . وتخصيصها بما ينفعنا في كل ما نحتاج اليه على ما ستسمع آية كبرى .

ومن آياتها روز جانب منها عن الماء ووجود البحار في جاب آخر على ذلك الخط البديع الذي وصل غاية الإبداع ، وقد انتقمنا به غاية الانتفاع ومنها سمعنا ، على ما أشارت اليه الآية هنا .

ومنها تسطيحها ، كما قال تعالى : « وإلى الارض كيف سطحت » ، ولا ينافي ذلك كونها كروية ، فأنها كبيرة ذات سطح واسع يستقر عليه الانسان والحيوان .

ومنها أنه مهدها وجعلها فراها وذلولا كي تستقر عليها الحيوانات ولا يتألم ما عليها من المخلوقات ، ولولا أنه ذلها لما استطاعت أن تطأها الأقدام ، ولا أن تستعمل فيها الفأس والمحول لدورنا وزرورنا ، فهي ذلول مسخرة لما يريد الانسان منها . فسبحان من جعلها كفاتاً للأحياء تحملهم على ظهرها ، وللأشوات تضمهم في بطنها ، وسبحان من طعناها فدحاها وبسطها ووسمها

وهيأها لما يريد منها ، فأخرج منها ماءها ومرطها ، وشق فيها الأنهار ، وجعل فيها السبل الفجاج . وقد جعلها الله ساكنة لهدأ من عليها ولا يزعج بحركتها .

وإن ذهبت مع الداهيين إلى أنها متحركة حركة سريعة جدا ، كما هو الرأي الجديد ، فالأمر أعجب ، فإن تلك الحركة التي لا نحس بها ولا نعرف لها سببا معقولا ، لا من ذاتها ولا من غيرها ، هي المعبى كله . ولعلك لم تنس ما قلناه في الجاذبية وأن أدلتها لم تتم إلى الآن . ولك أن تختصر الطريق وتقول لهم : ما الذي أمسك الموالم كلها في الفضاء الذي لا نهاية له غير قدرة من يقول للشيء كن فيكون ؟

وبمقد : فلو شاء لجعلها في غاية الصلابة والشدّة كالحديد ، فكان لا يمكن حفرها ولا شقها ولا البناء فيها ولا غرسها ، ولو كانت رحوه غير متساكنة لم يمكن ذلك أيضا ، فانه لا يستقر إذا عليها الحيوان ولا بقية الأجسام . فاقنضت حكته أن تكون بين الصلابة الممرطة ، والدمامة المفرطة . ولو فرضنا أن الأرض كلها من الذهب والفضة أو بقية الجواهر ثقات مصالح الإنسان والحيوان ، وتعمطت المنافع التي تراد منها في سائر ضروب المصالح . لهذا قال بعض الفلاسفة : إن التراب أشرف من الذهب والفضة . ويكفي أنك خلقت من التراب ( وإلى الآن تخلق من التراب ) ، فإن المنطقة من الغذاء ، وهو إما لحوم الحيوانات أو النباتات ، ولحوم الحيوانات من النبات ، والنبات من التراب ، فأنت من التراب حتى الآن . فسيحان الحكيم الخبير ، العليم القدير . وما كان للذهب تلك المنزلة الرفيعة إلا لقلته وعزته ، بخلاف التراب ، بناء على ما استسمعه من القاعدة المطردة في مخلوقات الله تعالى . وانظر إلى الهواء وحاجة الناس إليه ، ولكن لما كان ملء الوجود لم نأبه له ولم نلتفت إليه .

ولا بأس أن نشير إلى حكمة كبرى من حكم الله تعالى التي نوهنا عنها فنقول : إنه سبحانه جعل كثرة الأشياء وسهولتها على قدر الاحتياج إليها ، فلما كان الهواء يحتاج إليه كل أحد في كل نفس من أنفاسه جعله مائلا لوجود كله ، ولما كانت حاجة الناس إلى الماء أقل من حاجتهم إلى الهواء لم يجعله في السهولة كالهواء ، ولكنه جعله كثيرا متيسرا لا يحتاج الإنسان في حصوله عليه إلى نعم ولا مشقة . فمرة الأشياء لا زمة لقلتها لا للاحتياج إليها . وقد قال القائل :

سبحان من خص القليل بمزة      والناس مستغنون عن أحناسه  
وأذل أنفاس الهواء وكل من      في السكون محتاج إلى أنفاسه

ولنرجع إلى بقية الكلام على الأرض وآياتها فنقول :

لم يجعلها سبحانه وتعالى شفافة لأن الجسم الشفاف لا يستقر عليه نور ، وما كان كذلك لا يقبل السفونة فيبقى في غاية البرودة فلا يستقر عليه الحيوان ولا يتأذى فيه إنبات النبات ، لأن ذلك كله بفضل قبولها لأشعة الشمس التي لولاها لم يكن على الأرض نبات ولا حيوان



« ذلك تقدير العزيز العليم » . وكذلك لم يجعلها صقيلة برافة لئلا يحترق ما عليها بسبب انعكاس أشعة الشمس كما يشاهد من احتراق القطن ونحوه عند انعكاس شعاع الجسم الصقيل الشفاف عليه ؛ فانقصت حركته أن يجعلها كثيفة غبراء ، فصاححت أن تكون مستقرا للانسان والحيوان والنبات .

ومن آياته أن جعلها مختلفة الاجناس والصفات والمنافع ، مع أنها قطع متجاورة متلاصقة ، فهذه تصلح لنبات كذا ، وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره ، ليجتاج الناس بعضهم لبعض ( ويلتفع بعضهم من بعض ) ، وهذه سبخة مالحة ، وهذه بصداء ، الى آخر صفاتها الكثيرة وأحوالها المتنوعة . فلها من نوعها هذا التنوع ، ومن فرق أجزائها هذا التفريق ، ومن خصص كل قطعة منها بما خصها به ، ومن ألقى عليها رواسيها ، وفتح فيها السبل ، وأخرج منها الماء والمرعى ، ومن أمسكها عن الزوال ، ومن يارك فيها وقدر فيها أوقاتها ، وأنشأ منها حيوانها ونباتها ، ومن وضع فيها معادنها وجواهرها ومساقمها حتى كان منها الدواء والغذاء « بل الرجال والنساء » ، ومن هيأها مسكنا ومستقرا للأنام ، ومن جعلها ذلولا غير مستمعية ولا متمسعة ، ومن وطأ مساكها ، وذل مسالكها ، ووسع مخارجها ، وشق أنهارها ، وأبنت أشجارها ، وأخرج ثمارها ، ومن صدعها عن الثبات وأودع فيها جميع الأقوات ، ومن بسطها ومرشها ومهدها ، وذلها وطحها ودحاها ، وحمل ما عليها زينة لها ، ومن ألقى بمسكها أن تتزلزل فيسقط ما عليها من دور وقصور ، أو يخسفها بحس عليها فإذا هي غور ، ومن الذي أنشأ منها النوع الانساني الذي هو أبداع المخلوقات وأحسن المصنوعات ، بل أنشأ منها آدم ونوحا ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمدا ، صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين ، وأنشأ منها أوليائه وأحبابه وعباده الصالحين ، ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والأرزاق ، والمعادن ، والحيوان ، ومن جعل بينها وبين الشمس هذا القدر من المسافة ، ولو زادت على ذلك لضعف تأثيرها بحرارة الشمس وبور القمر فتمطلت المنفعة الواصلة الى الحيوان والنبات بسبب ذلك ، ولو زادت في القرب لاشتدت الحرارة والسخونة فاحترقت أبدان الحيوان والنبات . وبالجملة كانت تقوت هذه الحكمة التي بها انتظام العالم .

فإن شئت بعد ذلك فانظر الى تلك البذرة الصغيرة كبذرة التوت مثلا كيف توضع في الأرض فتخرج منها شجرة ذات فروع وأغصان تظلل العدد المديد من الناس .

فيا للأرض من آية تكفى وحدها برهاناً ساطعاً ودليلاً قاطعاً على وجود الخالق وصفات كماله وأفعاله ! ولا بأس أن نلعت نظرك الى وجود هذه العناصر المختلفة المتعددة وما أودع فيها من الخسائص والمنافع ، الى آخر ما لا يحكمسا الإفاضة فيه ، ولا الوصول الى خوافيه .

يوسف الدرموي

من جماعة كبار العلماء

# السنة

## ذم الفتوى بغير علم

عن أبي الاسود عن عروة ، قال : « حج علينا عبد الله بن عمرو فسمعتة يقول : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله لا يزرع العلم بعد أن أعطاهموه اتقوا ، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم ، فيبقى ناس جهال يُسْتَفْتَوْنَ فَيُفْتَوْنَ بِرَأْيِهِمْ فَيُضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ » . فحدثتُ عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم . ثم إن عبد الله بن عمرو حج بعمد ، فقالت : يا ابن أخي انطلق إلى عبد الله فاستبث لي منه الذي حدثني عنه ، فحثته فسألته فحدثني به كنحو ما حدثني ، فأنيت عائشة فأخبرتها ، فمجبت ، فقالت . والله لقد حفظ عبد الله بن عمرو . رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : ( ١ ) بيان معناه إجمالا ، ( ٢ ) ذم الفتوى بغير علم ، ( ٣ ) ذم العمل بالرأي إذا كان مخالفا للنص من كتاب وسنة ، ( ٤ ) حرص المسلمين الأولين على تعلم العلم ، واستنهايتهم بالمشاق في الحصول عليه .

( ١ ) معنى الحديث : أن عروة بن الزبير ، وهو ابن أخت السيدة عائشة ، حدثت عائشة أن عبد الله بن عمرو بن العاص قد قابله بمكة وهو قادم من مصر حاجا ، فحدثه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله لا يزرع العلم من صدور الناس اتقوا بعد أن يتعلموه ، ولكن ينتزعه بقبض العلماء مع علمهم ، وعند ذلك يتصدر الفتوى ناس جهال يفتون برأيهم فيضلون هم عن سواء السبيل ويضلون الناس عن الحق الذي يفتقدونه ، وذلك شر مطلق ، وفساد عظيم ، فلما سمعت عائشة من عروة هذا الحديث انتظرت حتى جاء موسم الحج ، وعلمت أن عبد الله ابن عمرو قادم من مصر إلى الحج أيضا ، فقالت : يا ابن أخي انطلق إلى عبد الله فتنبث منه الذي حدثني عنه ، ففعل عروة ما أمرته به خالته ، ولقي عبد الله بن عمرو في الطواف بمكة فسأله عن أشياء وجعل من بينها السؤال الذي طلبته عائشة ، فحدثه به ثانيا كما حدثه به أولا ، فأنى خالته فأخبرها ، فمجبت وقالت : والله لقد حفظ عبد الله بن عمرو ! والظاهر أن عائشة مجبت من حفظ عبد الله بن عمرو ، وذكره للحديث بعد مرور سنة بدون زيادة أو نقص ، أو أنها كانت تحفظ هذا الحديث وتظن أنها مفردة بحفظه ، فلما ذكره لها ابن أخيها وتأكدت من روايته مرة أخرى مجبت لذلك .

وقوله : « حج علينا عبد الله بن عمرو » معناه مر علينا حاجا . وقوله : « ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم » معناه ينتزعه بقبض العلماء مع علمهم . ففي العبارة بعض قاب كما أشرنا الى ذلك آنفا . فمن حق لفظ « مع » أن يدخل على لفظ علم ، ومن حق الباء الداخلة على لفظ علم أن تدخل على لفظ قبض ، ويكون المعنى : قبض العلماء مع علمهم . وفي بعض الروايات « يقبض العلماء فيرفع العلم معهم » ، وفي بعضها « يقبض العلم بقبض العلماء » ، والمعنى واحد على كل حال ، وهو أن الله لا يعمو العلم من صدور العلماء ولكن يجتبع العلماء فيرفع العلم . ولعل من أمارات انقراض العلم حمله وسيلة من وسائل الكسب والميعة ، وربطه بمظاهر الحياة الدنيا ، حتى إذا فقدت مزاياه التي يتوخاها الناس منه ، انصرفوا عنه انصرافا تاما ، وهجروه هجرا جميلا ، ورعا كان لذلك أسوأ الأثر في المستقبل القريب .

لقد مرت أطوار كثيرة على التعلم والتعليم في مصر وغيرها ، فدللت التجربة الصحيحة على ضرورة جعل العلم نبيدا من العزل والغايات التي يذهب بدعائها . ولذا روى المنزوي أحاديث صحاحا في النهي عن ذلك ، منها قوله صلى الله عليه وسلم : « من تعلم علما مما يبتنى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » يعنى ربحها . وللدنيا علوم خاصة بها فينبغى للناس أن يتعلموها أيضا ولا يخلطوا بين الحالتين فيصلوا ويفشلوا .

ومن ذلك « من أراد الدنيا فعليه بالعلم » الخ ، فإن المراد به علوم الصناعة والزراعة والتجارة ونحو ذلك مما يحتاج إليه الناس في معاشهم . وقد حث الدين الاسلامي على تعلم هذه العلوم والاجتهاد في تحصيلها ، بل جعل ما تتوقف عليه حاجة المجتمع ومصالحه فرصا مقدسا لا يصح إهماله ، وإذا أهملته الأمة كانت من الآمنين ، خصوصا العلوم والصناعات التي يتوقف عليها صيانة الأمة وحفظ كيانتها من الأعداء . وقد وعد الله العاملين الصادقين وعدا حسنا وأجرا كريما .

ذلك هو شرح ظاهر الحديث الذي معنا . ولكن البخاري رضى الله عنه قد عنون له بقوله : « باب ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس » ثم قال : « ولا تقف - تقل - ما ليس لك به علم » . والظاهر أنه أخذ هذا العنوان من قوله صلى الله عليه وسلم « يستفتون فيفتون برأيهم فيضلون الخ » فاعتبر الإفتاء بالرأي وتكلف القياس من الأمور التي ينهى عنها الدين . ولكن ظاهر الحديث صريح في أن المراد الجهال الذين لا يعرفون قياسا ولا يدركون معنى الفتوى ، بل هم يخطبون خبط عشواء فيفتون بما يوافق أهواءهم وشهواتهم بعد انقراض العلماء . وعلى كل حال فقد أثار فهم البخاري في هذا الحديث على هذا النحو الكلام في موضوع الإفتاء بالقياس مما سنبينه لك بعد .

أما تفسير قوله : « ولا تقف ما ليس لك به علم » بقوله : « ولا تقل » ، فذلك قد تبع فيه

ابن عباس رضى الله عنهما ، فإنه قد فسر القفو بالقول ، فعنى لا تقف ما ليس لك به علم لا تقل رأيت شيئاً لم تره ، ولا تقل سمعت شيئاً لم تسمعه . وهذا التفسير حسن ، وقد رواه الطبرى عن السلف ، وقال : إن السلف استعملوا القفو في شهادة الزور أو القول بغير علم أو الرى بالباطل . ثم قال : وهذه المعانى متقاربة اه . ويستعمل القفو في غير ذلك ، فيقال : انطلق فلان يقفو أثر فلان أى يتبعه ، ومنه يقتل أثره أى يتبعه ، الى غير ذلك .

( ٢ ) مما لا ريب فيه أن الفتوى بغير علم إذا صدرت من متعمد تكون مذمومة كل الذم ، إذ هي كذب على الله ورسوله ، وذلك من أفسس الكبائر وأشدها خطراً على الدين . ولا فرق في ذلك بين أن يكون المفتى جاهلاً بالإجابة الصحيحة كما هو صريح الحديث ، أو يكون عالماً ولكنّه يعتمد الإفتاء كذباً لشهوة من الشهوات .

وجزاء من يعتمد الإفتاء بغير علم ، نار جهنم بلا مرء ، لأنه كذب على الله ورسوله ، وقد بشره النبي بالنار . على أن الميزة التي امتاز بها الإنسان عن الحيوان إنما هي للعلم والمعرفة . والعلم مشتمل على قضايا وأصول ثابتة ، فإذا حل محلها الجهل وركز في عقول الناس أن هذا الجهل حقيقة من الحقائق ، فقد الانسان ميزته التي امتاز بها عن الحيوان ، وترب على ذلك أسوأ الآثار التي تضر المجتمع . وأيضاً في القضايا البديهية أن حياة المجتمع الانساني من ضرورياتها التعاون والتآزر بين الأفراد والجماعات ، فلا بد للانسان أن يعي لمعونة غيره في أموره كلها ، فلا غنى للجاهل بأمر من الأمور ، سواء كان متعلقاً بدينه أو متعلقاً بدياره ، من أن يركن الى من ينظره أعلم منه بهذا الأمر وأقدر على هدايته الى الصواب . فإذا دفعه سوء حظه الى من يفنيه بغير علم فإن ذلك يكون من شر ما قد يناله من مصائب دنيوية ودنيوية .

ولذا قال بعض شراح هذا الحديث : إن هذا المعنى لا يتحقق إلا عند اقتراب الساعة ، حيث يفتى العلماء والاختصاصيون من العالم ولا يبقى إلا الجهال . وهذا وإن كان صحيحاً من بعض الوجوه ، ولكن ذلك مشروط بأن تكون البيئة صالحة فلا تصحى إلا للعلماء الاختصاصيين ؛ أما إذا فسدت البيئة واستولى الجهل على عقول العامة فأصبحوا لا يركنون إلا الى الشهوة والنفساد كما هو الحال في زماننا ، فإن هذا المعنى يكون قد تحقق من الآن . وذلك لأن كثيراً من العامة قد يركنون الى من يدهى علم الدجيم والإخبار بالغيب ، ويتهاقنوا على الدجالين الذين يبينون لهم مستقبلهم زوراً وبهتاناً . ومحال أن يحاول عالم تحويل هؤلاء العامة من عقيدتهم ؛ ومحال أن يصحقوا قسوة من أن نبههم على الله عليه وسلم قد هي عن السكينة والإخبار بالغيب ، وأمر بالتمسك بالوسائل الصحيحة والأسباب النافعة ؛ فمن ألم به أمر من مرض أو نحوه فليركن الى أهل الاختصاص ؛ ومن أصابته محنة لا دواء لها فعليه أن يلجأ الى الله وحده . ومن أشد الضالين الذين يصلون عباد الله بغير علم ، عباد الأضرحة ؛ فهؤلاء يفتنون الناس

بما يناقض الدين على خط مستقيم ، وكثير من هؤلاء من يعلم الحق ويعلم أن فتواه باطلة بإجماع الامة ، ولكن حب المال وكسب الحرام يصممهم ويهمل أبصارهم وبصائرهم . فليت الناس لا يستعجلون قبض العلماء من الارض ، ويعملون بأقوالهم ويتركوا الضالين المفسدين . وحسبنا الله ونعم الوكيل !

(٣) أما ما صرح به الامام البخارى من دم الرأى وتكلف القياس ، فهو قول حق لا شبهة فيه ، لانه يريد من الرأى المذموم ما يخالف النص ويعارضه ، وذلك خطر شديد على الدين ، وهدم لقواعده من أساسها ، فان الذى يجرؤ على مخالفة نص شرعى من كتاب أو سنة بحجة أن القياس يقتضى ذلك الحكم ، فانه يستطيع أن يبطل كثيرا من الأحكام أو يعطها ، ويجعل لعقله سلطة التشريع فى الدين ، وذلك ضلال لا شك فيه . إنما الذى يلتصق استنباط الحكم بالقياس لعدم وجود نص شرعى أو خلفائه عليه ، فذلك عمود كل المدح ، إنما المطلوب من المفتى فى هذه الحالة أن لا يتكلف القياس ، وأن لا يتعسف فى إثبات صحة الحكم الجامعة . على أن قواعد الدين العامة قد ضمنت للناس كل ما تدعو اليه حاجتهم من الأحكام ، فإذا لم يوجد نص على مسألة جزئية بخصوصها فانه يمكنه الرجوع الى القواعد الكلية العامة . وقد ذكرنا أمثلة كثيرة منها فى بعض أعداد هذه المجلة ، فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « كل مسكر حرام » ، و « كل حمل ليس علينا أمرنا فهو رد » ، و « كل قرض حر ثما فهو ربا » ، و « كل شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل » ، و « كل أحد حق بحاله من ولده ووالده والناس أجمعين » ، و « كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » ، و « كل معروف صدقة » . الى غير ذلك من القواعد العامة التى يندرج تحتها أنواعها بحسب تجديد الأزمنة والامكنة . ولذا قال بعض المحققين : إنه من المستحيل أن توجد حادثة واحدة من الحوادث لا تشملها نصوص الشريعة الاسلامية العامة . فمن زعم أن النصوص الدينية لا تحيط بأحكام الحوادث ، وأن العمل بالقياس ضرورة لا بد منها فى كل زمان ومكان ، فقد غفل عن عظيمة النصوص الشرعية وجعل أسرار الشريعة الاسلامية تمام الجهل . على أن البحث فى هذا الموضوع طويل لا يسهه هذا المقام . إنما الذى ينبغى معرفته هو أن القياس الصحيح الذى لا يخالف النص الشرعى حجة من الحجج الشرعية ، فإذا لم يوجد نص فى مسألة من كتاب أو سنة أو إجماع فانه فى هذه الحالة يعتمد على القياس الذى لا تكلف فيه ولا تعسف . ولعلنا نمود الى الكتابة فى هذا الموضوع فى فرصة أخرى .

(٤) وبعد : فليعلم الناس الذين استهانوا بالعلم والحصول عليه مع كونه قريبا من دارهم ، يخرجون من رعاية السيدة عائشة رضى الله عنها بالتثبت من رواية حديث واحد من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فانظر كيف ترقبت حضور عبد الله بن عمرو من مصر الى مكة حاجا ، وكيف أمرت ابن أختها عروة أن يسافر الى مكة لينتثبت من رواية هذا الحديث الذي كانت تحفظه وتريد التأكد من حفظها إياه .

إن في مثل هذه الحالة لا كبر عظة وعبرة للقوم الذين يطلبون العلم ، وهم لا يقدرونه حتى قدره ، ولا يعرفون له ميزة سوى أنه سلعة من السلع التي ينخدونها مرزقا لهم .  
نسأل الله أن يوفقنا الى القدوة الصالحة بأمثال هؤلاء الأئمة العاملين ، إنه صميع الدعاء .

عبد الرحمن الجزيري

## البلاغة المرتجلة

أحرف شبيب بن شبة في الدولة العباسية بالبيان الساحر ، والأدب الباهر ، والعبارات المستعذبة على البدئية ، فنفس عليه بمضهم وقالوا لبعض الخلفاء : إن شيبيا يحضّر الكلام ويستعده ليقوله ، فلو أمرته أن يصعد المبر فجأة لافتضح أمره . فرأى أمير المؤمنين أن يسمح عوده ، ويحقق قالة الناس فيه ، فأمر رجلا أن يأخذ بيده ويُصعده المنبر ، ففعل ، فحمد الله شبيب وأثنى عليه ، وصلى وسلم على وصوله ، ثم قال :

ألا إن لأمير المؤمنين أشباها أربمة : فنها الأسد الخادر ، والبحر الزاخر ، والقمر الباهر ، والربيع الناضر . فأما الأسد الخادر فأشبهه منه صولته ومضاؤه ؛ وأما البحر الزاخر فأشبهه منه جوده وعطاؤه ؛ وأما القمر الباهر فأشبهه منه نوره وضياؤه ؛ وأما الربيع الناضر فأشبهه منه حسنه وبهاؤه .

ثم نزل فسدل بما فتح عليه به من بليغ العبارات ، ودقيق الاشارات ، على أنه على عرق من البلاغة هريق ، وعلى أصل من البيان أصيل .

مما يروى من ارتجالاته ما حكاه الشيباني قال : أقام المنصور صالحا ابنه فتكلم في أمر فأحسن الكلام .

فقال شبيب بن شبة : فاقه ما رأيت كاليوم أين بيانا ، ولا أعرب لسانا ، ولا أربط جأشاً ، ولا أبلى ريقا ، ولا أحسن طريقا ؛ وحق لمن كان المنصور أباه ، والمهدي أخاه ، أن يكون كما قال زهير :

هو الجواد فان يلحق بشأوها      على تكاليفه فثله لحفا  
أو يسبقاه على ما كان من مهل      فثل ما قدما من صالح سبقا

# حَيَاتُ أَحْلَا لَيْلِ لَيْلِ لَيْلِ

أبو بكر الصديق

- ٧ -

موقفه في أسرى بدر

واقعة بدر أول واقعة وأعظمها ، اصطدمت فيها قوة الباطل العنيد بوافر مدهدها وعظيم عدتها ، بقوة الحق ، وعدتها الإيمان ورسوخ العقيدة ، فكان النصر المؤزر لجند الحق أول أسس الدعوة العملية لرفع راية الاسلام عزيزة قاهرة ، وكان دوى هذا النصر في أرجاء الجزيرة العربية أعظم عوامل نشر الدعوة وتوجيهها توجيها جديدا ، يحمل في عناء المحنة الساطعة للمقول البيرة والبصائر النقية ، وفي يمراس سيف التطهير واستئصال جذور الشر في نفوس انطمست بصائرهما ، واستعالت فيها الفطرة الانسانية الى ضلالة عمياء لا تعرف من أمر الحياة إلا ما تعرف الخفافيش وخشاش الارض .

قلة في السدد والعدد تنطوى جوانمها على قوة من الإيمان تدك الرواسي دكا ، وكثرة في العدد والمدد تحمل قلوبا استفرغتها المنجية الجاهلة من كل شيء بمت الى الحياة الفاضلة بصله ، فكانت كالمظلم النخرة في منازل الرياح ، يمر بها الهواء فتسمع لها صفيرا قد يروءك صممه ، فإذا أتت ذهبت لتختبرها تمننت وطارت ذراتها مع الريح في مواطئ الأقدام . روى ابن سعد في الطبقات « أن المشركين بعثوا حمير بن وهب الجمحي ، فقالوا له : احزُر لنا محمدا وأمصابه ، فصوب في الوادي وصعد ، ثم رجع فقال : لا مدد لهم ولا كين ، القوم ثلاثمائة إن زادوا زادوا قليلا ، ومهم سبعمون بعيرا وفرسان ، يامعشر قريش : البلاء يحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت النافع ، قوم ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، أما ترونهم خرسا لا يتكلمون ، يتسلطون تلمظ الأفاعي ؟ والله ما أرى أن تقتل منهم رجلا حتى يقتل منا رجل ، فإذا أصابوا منكم عددا فما خير في العيش بعد ذلك ، فركبوا رأيكم . »

هكذا كان لقاء الشرك بخيله ورجله وعدده وعناده مع المؤمنين في واقعة بدر الكبرى التي يسميها بعض السلف « فتح الفتوح » ، انتصر فيها الاسلام أعظم انتصار ، وهزم فيها الشرك شر هزيمة ، ورجع المسلمون الى المدينة وأيديهم مليئة من الغنائم والأسرى ، وفي الأسرى كثير من غطارفة قريش وذوى رأيها ، تمكن منهم المسلمون في وطيس الحرب ومنحهم الله أكتافهم

فلم يقتلوه ، وجاءوا بهم مع الغنائم ليرى فيهم القائد الأعظم صلوات الله عليه وآله ، والاسلام أبه شريعة وضعت دعائم الشورى العادلة ، فجذب النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ليدبر معهم الرأي في شأن هؤلاء الأسرى ، لأن الله تعالى لم ينزل عليه في هذا الأمر شيئا ، روى مسلم في الصحيح من حديث عمر بن الخطاب : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر وعمر : ما ترون في هؤلاء الأسرى ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله هم بنو النعم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية ، فتكون لنا قوة على الكفار ، فمضى الله أن يهديهم للإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قلت : لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكني أرى أن نمكننا فنضرب أعناقهم ، فتمسك علينا من عقيل فيضرب عنقه ، ونمكنني من فلان (نسب لعمري) فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها ، فهو يروى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت . وذكر القرطبي في التفسير من رواية يزيد بن هارون « أنه لما كان يوم بدرجى بالأسارى وفيهم العباس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ترون في هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك ، استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر : كذبوك وأخرجوك وقاتلوك ، قدمهم فأضرب أعناقهم ، وقال عبد الله بن رواحة : انظر وادبا كثير الخطب فأضرمه عليهم . فقال العباس وهو يسمع : قطعت رحلك ! قال راوى الحديث : فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يرد عليهم شيئا ، فقال أناس : يأخذ بقول أبي بكر رضى الله عنه ، وقال أناس : يأخذ بقول عمر ، وقال أناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله يلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، ويشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجر ، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال « فن تبغى فإنه منى ومن عصافى قاتك غفور رحيم » ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى إذ قال « إن تعذبهم فإنه عبادك وإن تغفر لهم فإنه أنت العزيز الحكيم » ، ومثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام إذ قال « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام إذ قال « ربنا اطمس على أموالهم واضدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم » ، أتم حالة فلا ينفق أحد إلا بفداء أو ضربة بعنق ، فأنزل الله « ما كان لبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » إلى آخر الآيتين .

مفسرهم

هذه خلاصة الروايات في هذه القصة ، وهي تمثل مذهبين يأخذان لطرفي الحياة ، أحدهما يمثل الرحمة المطلقة في شخص الصديق رضى الله عنه ، والآخر يمثل أشد ألوان القسوة على أعداء الحق في شخص عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، والصديق والفاروق وزير الاسلام في حياة نبيه الأكرم صلوات الله عليه ، وهما خليفاه بعد مفارقتة الحياة الدنيا إلى الرفيق الأعلى ، وكل من المذهبين ضرورة اجتماعية ، لا غنى للإنسانية عنه في أى عصر من عصورها ، فهي تتطلب



الرحمة لتكون وسيلة لها الى الخير ، تقودها إليه بلطف المحبة وسحر الإخلاص ، وهي تتطلب التسوية لتكون وجها في تأديتها ، وذريعة الى زجرها حتى تستقيم فئاتها ؛ وإلى هذا يشير قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه أنس بن مالك رضى الله عنه : « أرحم أمتى بأمتى أبو بكر ، وأشد هم في دين الله هم » .

روايات الفداء في القصة تفرع بظواهرها أن آية « ما كان لني أن يكون له أسرى حتى يشحن في الأرض » وردت عتابا على أخذ الفداء من الأسرى واستبقائهم كما هو رأى أبي بكر الذي ارتضاه النبي صلى الله عليه وسلم ، بيد أن أسلوب الآية الكريمة الذي يتذوقه من كانت لديه ملكة البلاغة العربية لا يشعر بأنها جاءت عتابا على ما بدا من رأى في شأن الأسارى بعد انفصال المعركة والرجوع بهم الى المدينة ، بل الذي يفيد الأسلوب وتنادى به الآية أنها كانت عتابا على المسارعة الى الفسخ وإنهاء المعركة قبل كسر قنات الشراك كسر لا ينبغي ، استئصالا لجرثومة الشرك في غطارقه وجنده ، وقد أمكن الله منهم ، وذلك هو المراد بالإنحياز في الآية الكريمة . ويرشح هذا الفهم عبارة الآية نفسها ، فانها تعيد أنها إرشاد الى الإتيان بمقام النبوة إذ يمكن الله لها في أعيانها حتى كانت لها عليهم الغلبة ، وأنه ما كان ينبغي للنبي أن يخرج من المعركة وله أسرى حتى ينكسر بأعدائه ويشتد بهم من خلفهم ، فهي عتاب لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على ما كان منهم في المعركة ، لا على ما كان بعدها في شأن الأسرى ؛ وهذا ما ذهب اليه جمهرة المفسرين قبل حمل الآية على روايات القصة ، قال القرطبي في التفسير : « هذه الآية نزلت يوم بدر عتابا من الله عز وجل لأصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذي أوجب أن يكون لني صلى الله عليه وسلم أسرى قبل الإنحياز ، ولهم هذا الإخبار بقوله : « تريدون عرض الدنيا » ، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب ، ولا أراد قطع عرض الدنيا ، وإنما فعله جمهور من مشري الحرب ، وجاء ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في الآية حين لم يمه عنه حين رآه من العريش ، وأدركه سعد بن معاذ وصهر بن الخطاب وعبد الله بن رواحة ولكنه عليه السلام شغلته بغت الأسرى ونزول النصر فترك النبي من الاستبقاء » .

ويؤيد هذا ما ذكره التميمي « أن سعد بن معاذ قال : يا رسول الله إني أول وقعة لنا مع المشركين ، فكان الإنحياز أحب الي » . وأيضا أسند الطبري وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للناس : « إن شئتم أخذتم فداء الأسارى ، ويقتل منكم في الحرب سبعون على هددم ، وإن شئتم قتلوا وسلمتم » فقالوا : نأخذ الفداء ويستشهد منا سبعون ؛ وهذا التخيير كان وحيا كما دلت عليه بعض الروايات المصرحة بأن جبريل عليه السلام نزل على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وإذا ثبت هذا فلا سبيل الى حمل الآية على العتاب فيه لأنه أبيع لهم بالنفس ،

لما كان لني أن يكون له أسرى حتى يشحن في الأرض

فكيف يماثلون فيه ؟ وأورد القرطبي هنا إشكالا ثم أجاب عنه فقال : « وينبأ هنا إشكال وهو أن يقال : إذا كان التخيير فكيف وقع التوبيخ بقوله « لمسكم » ؟ فالجواب : أن التوبيخ وقع أولا لحرصهم على أخذ الفداء ثم وقع التخيير بعد ذلك ، وبما يدل على ذلك أن المقداد قال حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل عقبة بن أبي معيط : أسيرى يارسول الله ، وقال مصعب بن عمير للذي أمر أخاه : شد عليه يدك فإن له أما موسرة . ولو أن الامام القرطبي حمل العتاب على حرصهم في أثناء المعركة وظهور الهزيمة في صفوف المشركين على الغنائم بما فيها الأسرى لكان أسد وأرشد ، لأنه هو المتلائم مع أسلوب الآية وما ساقه من الروايات المفيدة أن بعض الصحابة كان أحب إليه الإلتحان في المعركة ، وبمضد هذا بما روى عن الضحاک أن الآية نزلت حين انهزم المشركون يوم بدر واحتفل الناس بالسلب وجع الغنائم عن القتال حتى خشي ممر أن يملط عليهم العدو .

هذا ما تلمس اليه النفس في أمر بدر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم الرأى مع أجلاء أصحابه ، ويختار بعد التدبر ، ويمثل الشيعيين في موقفهما بأربعة من أولى العزم عليهم السلام بينهم من الفضل ما كان حاملا في طوايا أعظم مناقب الصديق رضى الله عنه . وبعد : فما أعظم ركة الصديق في أسرى بدر ، وما أجل حكمة الله في تعليم المسلمين فقد تكشف الغيب عن سر رأى الصديق ، وأسلم كثير من الأسرى بعد ذلك ، وكانت لهم قدم صدق في نصرته الدعوة الإسلامية وإقامة دعائها ، وأخرج الله من ظهورهم من كانوا أعلام الهداية في الأرض ؟

صالح إبراهيم عرجونه

## من شعر الصحابة

قال راشد بن عبد الله لما ولاه النبي صلى الله عليه وسلم القضاء بنجران :

محا القلب عن سلمى وأقصر مأواه	وردت عليه ما فته تماخر
وحكمه شيب القذال عن الصبا	ولكشيب من بعض الغواية زاجر
فأقصر جهل اليوم وارتد باطل	عن الجهل لما أبيض منى الفدائر
على أنه قد حاجه بعد محصوة	به فرض ذى الآجام عيس بواكر
ولما دنت من جانب الفرض أنصبت	وحلت ولائها سليم وطامر
وخبرها الركبان أف ليس بينها	وبين قرى بصرى وبجران كافر
فألقت عصاها واستقر بها النوى	كما قر هينا بالإياب المسافر

## التجديد والمجددون في الاسلام

الامام الاعظم أبو حنيفة - دراسات في مذهبه

من تجديد أبي حنيفة احتنباطه الفقه التقديرى :

لما لم يكن يد من معرفة حكم الله تعالى في الوقائع ، ولما كانت الحوادث في العبادات والتصرفات مما لا يقبل الحصر ولا المد ، وكان من المقطوع به أنه لم يرد في كل حادثة نص ، كان هذا من الدواعى الى وجوب اعتبار الاجتهاد والقياس ، ليكون بصد كل حادثة لم ينص على حكمها اجتهاد ، وكان من الدواعى التى دعت الامام الاعظم الى إحداثه الفقه المستنبط أو التقديرى ، فوضع المسائل التى لم تقع ، وفرض زول الحوادث التى لم تحدث ، وقدر وقوع الواقعات ، واحتنبط لها الاحكام من أصول الشرع ، حتى إذا وقعت كان جوابها حاضرا ، إذ ليس من المتيسر دائما وجود المفتى الذى يفتى الناس في حوادثهم التى تقع وتحدث لهم في كل يوم وفي كل مكان ، وكان بعض السلف لا يجيب عن مسألة إلا إذا وقعت بالفعل ، ولا يفتى في أمر لم يحدث .

روى الخافظ ابن عبد البر أن قنادة قدم الكوفة ، جلّس في مجلس له وقال : سلوني عن سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم لاجبيكم . فقال جماعة لأبي حنيفة : قم فأسأله . فقام اليه وقال له : ما تقول يا أبا الخطاب في رجل غاب عن أهله ، فظنت امرأته فقدته فتزوجت ، ثم قدم زوجها الاول فدخل عليها وقال لها : يا زانية تزوجت وأنا حي ! ثم دخل زوجها الثانى فقال لها : تزوجت يا زانية وذاك زوج ! كيف يكون المعان ؟ فقال قنادة : وهل وقعت هذه المسألة ؟ فقال أبو حنيفة : وإن لم تقع فأنما نستعد لها حتى إذا وقعت كان جوابها حاضرا . وعمل هذا المنوال أحدث أبو حنيفة الفقه التقديرى ، فكان بهذا وأمثاله مجددا في الاسلام غير مدافع .

ولقد ارتضى جمهور العلماء هذه الطريقة ، فافتدى بأبي حنيفة في هذا فقهاء الأمصار إلا أقلهم ، فقدروا المسائل وفرضوا وقوعها ، ثم استنبطوا أحكامها من أصول الشرع نسجا على منوال أبي حنيفة ، وبذلك نما الفقه الاسلامى واتسع حتى صار بحرا زاخرا لا ساحل له ، وثروة غنية للمجتمع في التشريع والنظم الصالحة ، مع أنه كان قبل أبي حنيفة مقصورا على الحوادث التى وقعت في ذلك العهد الاول .

فهل يجوز في شرع الله فرض المسائل واستنباط أحكامها قبل وقوعها كما فعل أبو حنيفة ؟

هذه مسألة تختلف فيها ؛ ولكن جماهير علماء الإسلام أجازوا ذلك مستدلين بأدلة كثيرة صحيحة ، منها ما روى في صحيح مسلم « ج ٢ ص ٩٨ » عن المقداد بن الأسود أنه قال : « يا رسول الله : أرأيت إن لقيت رجلا من الكفار فقاتلني فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعهما ، ثم لاذنني بشجرة فقال : أسلمت لله ، أفأقتله يا رسول الله بعد أن قالما ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقتله ، قال : فقلت : يا رسول الله ، إنه قطع يدي ثم قال ذلك بعد أن قطعها أفأقتله ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقتله ، فإن قتلته فإنه بمنزلة من قبل أن تقتله ، وإنك بمنزلة من قبل أن يقول كلمته التي قال » . ففي هذا الحديث الشريف لم ينه رسول الله صلى الله عليه وسلم المقداد عن فرض مسألة لم تقع ، بل أحابه عنها وبين حكمها ، فدل ذلك على جواز فرض المسائل واستنباط أحكامها قبل وقوعها ، وكان إحداث أبي حنيفة لهذا الفقه المستنبط أو التقديرى موافقا للسنة النبوية ، بل هو تطبيق عليها ونسج على مواها ، واقتداء بعمل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، فن حاب أبي حنيفة على ذلك فإنه لم يحط بالسنة خبرا ، ولم يعرفوا معرفة أبي حنيفة بها ، بل لم يعرف مذهب أبي حنيفة ولا مداركه الدقيقة .

شيء من تبرز أبي حنيفة في علم القضاء والاستنباط :

من بدائع استنباط أبي حنيفة ، ومقدورته الفقهية ، وتوفد دكانه ، وسرعة خاطره ، وتبريزه في علم القضاء - وعلم القضاء غير معرفة الأحكام ، والبصر بالحلال والحرام ، فقد يكون الرجل بصيرا بأحكام الأعمال ، عارفا بالحلال والحرام ، ولكنه لا يستطيع أن يقوم بفصل القضاء - أقول - من ذلك ما ذكره الامام الحافظ ابن العربي في كتابه أحكام القرآن قال : مما يروى في معرفة أبي حنيفة بالقضاء أن رجلا جاءه وقال له : إن ابن أبي ليلى قاضى الكوفة جلد امرأة مجنونة قالت لرجل يا ابن الزنايين خذها حدين في المسجد .

فقال أبو حنيفة على الفور : لقد أخطأ ابن أبي ليلى من ستة أوجه :

الأول : أن المجنونة لا حد عليها ، لأن الجنون يسقط التكليف ، هذا إذا كان القذف في حال الجنون ، فأما إذا كان يحسن مرة ويفيق أخرى فإنه يحقد بالقذف في حال إفاقته ، إذا قذف في حال إفاقته أيضا .

الثاني : قولها يا ابن الزنايين ، جلدها من أجله حدين ، لكل أب حد ، وهو خطأ ، لأن حد القذف يتدخل ولا يتمدد بتمدد المقذوف ، لأنه حق لله تعالى كحد الخمر والزنا ، ولو أن رجلا قذف قوما ، ما كان عليه إلا حد واحد .

الثالث : أنه حد بدون مطالبة المقذوف ، ولا يجوز إقامة حد بإجماع الأمة إلا بعد المطالبة بإقامته .

الرابع - أنه والى بين الحدين ، ومن وجب عليه حدّان لم يُؤالَ بينهما ، بل يحد لأحدهما ثم يترك حتى يندمل الضرب ، ويستبل المضروب ، ثم يقام عليه الحد الآخر .  
الخامس : أنه حدّها قائمة ، ولا تحد المرأة إلا جالسة مستورة .  
السادس : أنه أقام الحد في المسجد ، والحدود لا تقام في المساجد إجماعا .  
ثم قال ابن العربي : إن هذا الذي قاله أبو حنيفة على البدنية لا يدركه أحد بالرواية إلا العلماء الماهرون الراصون في العلم ، وهو يدل على معرفته بعلم القضاء .

لما بلغ ابن أبي ليلى هذا القدشكا أبا حنيفة لأوالى وقال له : إن الكوفة شابا يمارضني في الأحكام ويشنع علي بالخطأ ، فقمه الوالي من الفتوى ، ولزم بيته . ثم وردت مسائل لعيسى ابن موسى فاستفتي أبا حنيفة فيها ، فأفتى بما استحسنه عيسى وأدق له بالفتوى ، فجلس في مجلسه كما كان . وفي رواية أخرى أن امرأة استفتته يوما بأنه خرج من أسنانها دم وهي صائمة ، فبصقته حتى عاد الريق أبيض ، فهل تقطر إذا بليت الريق ؟ فأمر أبو حنيفة ولده حمادا أن يفتيها وقال لها . إن الوالي منعني من الافتاء ؛ وهذه من مناقب أبي حنيفة في حسن تمسكه بالطاعة لأولى الأمر .

ومن ذلك ما رواه الحسن ابن أبي مالك أحد أصحاب أبي يوسف ، أنه دخل أبو حنيفة إلى قاضي الكوفة ابن أبي ليلى ومعه أبو يوسف ليقتضى حقه ، فلما جلس أبو حنيفة عنده قال ابن أبي ليلى لحاجبه : ائذن لمن حضر من المصوم بالدخول ، كأنه أراد أن يرى أبا حنيفة كيفية الاجراءات التي يتخذها مع المصوم ، وكيفية أعماله في القضاء وإمضائه الحكم ، فدخل عليه المصوم وتقدم إليه جماعة لحكم بينهم ، ثم تقدم إليه رجلان فقال أحدهما : أعزك الله ، إن هذا الرجل قذف أبي بالزنا وقال لي يا ابن الزانية ، وأما أسأل القاضي أن يأخذ لي بحجتي منه ، فقال ابن أبي ليلى للمدعي عليه : ما تقول في هذا ؟ فقال له أبو حنيفة : أنساه من دعواه وليس هو له بمخضم ؟ إنه رمى بالزنا أمه ، فهل ثبتت وكالته عن أمه عندك ؟ قال : لا ، فقال : أقبل على المدعي واسأله أحبته أمه أم ميتة ؟ فإن كانت حية فلا وجه لدعواه إلا بوكالة منها في المطالبة بحجتها ، وإن كانت ميتة كان قولنا آخر . فسأل ابن أبي ليلى المدعي فقال له : أملك حية أم ميتة ؟ قال بل ميتة ، قال له : أقم عندى البينة بوقاتها حتى أعلم ذلك ، فأقام عنده البينة بوقاتها ، فسأل ابن أبي ليلى المدعي عليه عن دعوى المدعي ، فقال له أبو حنيفة : سأل المدعي هل لأمه وارث غيره ؟ فإن كان له إخوة كانت المطالبة له ولهم ، وإن كان هو وحده كان قولنا آخر ، فقال ابن أبي ليلى للمدعي : هل لأمك وارث غيرك ؟ قال لا ، قال : فأقم عندى البينة بذلك ، فأقام البينة أنه وارث أمه ولا وارث لها سواء ، فذهب ابن أبي ليلى ليسأل المدعي عليه عن دعوى المدعي ، فقال أبو حنيفة : سله عن أمه أحره أم أمه ؟ فقال ابن أبي ليلى

للرجل : أمك حرة أم أمة ؟ قال : بل حرة ، قال فأقم عندى البينة ، فأقام بينة بذلك ، فذهب ابن أبى ليلى ليسأل المدعى عليه ، فقال أبو حنيفة : أسأله أمسلة نهى أم معاهدة ؟ قال : هى حرة مسلمة من بنات آل فلان سراة بالكوفة ، قال : فأقم عندى البينة بأنها مسلمة ، فأقام البينة عنده بأنها مسلمة ، ثم أقام البينة على أن أمه عفيفة عن وطء محمد به ، وأن ذلك الرجل لم يقذفها فى حياتها وأنها ساحتها من حد القذف لأنه إذا قذفها وهى حية وساحتها من الحد لم يحد بقذفها . ثم قال أبو حنيفة لابن أبى ليلى بعد ذلك : سألتك الآن ، فسل المدعى عليه عن دعوى المدعى ، فسأله فأنكر ، فقال للمدعى : ألك بينة ؟ قال : نعم جماعة من وجوه أهل الكوفة ، قال : فأحضرم مع خصمك حتى أسمع شهادتهم عليه . ثم نهض أبو حنيفة بعد هذا وانصرف . . .

فن هذه الوقائع يتبين تميز أبى حنيفة فى علم القضاء وبديع استنباطه ، وسرعة خاطره ، وثوقه ذكائه ، ومقدرته الفقهية التى بلغت فى التجديد فى الدين أعلى الدرجات .

نقول : لو صح هذا كله لكان ابن أبى ليلى غير جدير بتولى القضاء ، فإلى ما لاحظته أبو حنيفة عليه من الأوليات الاجرائية ، فنحن نشك فى صحته ، وإنما أوردناه لما فيه من الطرافة ، وإدلالا على اعتراف الجماهير بتقوى نظر أبى حنيفة فى إدارة شئون التقاضى ، مع أنه لما دعى لتولى القضاء أبى أن يقبله تورما ، وشدد عليه فى القبول فأصر على الإيلاء .

السيرة عفيفى

## من أخبار الكرماء

من الكرماء الممدودين يزيد بن المهلب بن أبى صفرة . كان هشام بن حسان إذا ذكره قال : والله إن كانت السفن لتجرى فى جوده .

وقيل ليزيد بن المهلب هذا : مالك لا تبغى دارا ؟ قال : منزلى دار الامارة أو الحبس . إنه بين أن يكون مرضيا عنه فيؤمر ، أو مغضوبا عليه فيحبس . وتلك كانت عادة ذلك الزمان يتردد كبار الرجال فيه بين الامارة والحبس والتجريد من الممتلكات . دخل الفرزدق عليه وهو مغضوب عليه فى الحبس فأنشده :

صح فى قيدك الساحة والهجـ هـ وفك المناة والأغلال

فأمر له بمئة آلاف درهم .

## التصوف والمتصوفون

- ٥ -

تنمة الحديث عن الحلاج

مذهبه :

شرح الحلاج الحديث النبوى القائل : « طلب العلم مريضة على كل مسلم ومسلمة » بأن أداء فريضة السلم لا يتحقق بأن ينقل الشخص الى المؤمنين صحة قراءة القرآن أو القواعد الاجتماعية والمواريث والمعاملات التى وردت فى الكتاب والسنة ، ولا بفهمهم معانى القانون الشرعى ، وإنما يتحقق واجب العالم بأن يجد الحقيقة نفسها ، وأن يسام فيها ويمزجها مما يفنى ، وأن يعبر طويته متفقة مع الامر الإلهى . وإذا فليس منهج الحلاج هو تسهيل القواعد والتقاليد ، ولا موازنة بعض المعانى ببعض ، وإنما هو بحث أخلاقى عميق فى داخل النفس . وقد سبق الحلاج الى هذا الرأى أستاذاه : الجنيد وسهل المكي ، اللذان يعرف مذهبهما بعلم القلوب والخواطر .

لهذا كانت الإلهيات التنسكية أهم آراء الحلاج . وغاية هذه الإلهيات عنده هي توطيد اتحاد حقيقى أبدى بين الانسان وربه ، والمبدأ الذى صدر عنه للوصول الى هذه الغاية هو رياضة الجسم بالأفعال الدينية على الطاعة ، وشغل القلب بالتقوى ، والحرمان من الرغبات ، وامتلاك النفس بالحيلولة بينها وبين شهواتها ، وتنقية الطبيعة من كل ما هو جسدانى . فإذا وصل الى هذه المرتبة حلت فيه روح القدس . ولهذه المرتبة ثلاث درجات : الأولى هي درجة الرياضة والكسح والوعد ، وتدعى درجة المريد ، والثانية درجة الاضطراب والبلاء واستهلاك الناسوتية ، والغلاء والفناء عن الأوصاف البشرية ، وتدعى درجة وحدة الذات أو المراد ، أى الذى أراده الإله ونفى جوهره من كل ما عداه ، والثالثة درجة حياة الاتحاد أو عين الجمع أو رفع الانية وهي عليا الدرجات التى تحقق فيها الاتحاد التام (١) .

يقرر الحلاج متأثراً بروحانية النظام أن لدى الانسان وحدة أساسية هي رياسته المدبرة ، وهي القلب ، ولهذا فإن عملية التنقية السالفة تتم بوساطة القلب . ولما كان هذا القلب مؤلماً من عدة أغلفة كان ذلك النقاء على عدة درجات ، والقسم الأخير من أقسام القلب يدعوه الحلاج

(١) انظر صفحة ٥١٥ وما يبعثها من كتاب الاستاذ ملسينيون

بالسر ، ويسميه باغلوة الخفية الممتنعة على المخلوقات ؛ وهذا الذى عناء السراج بقوله : « أسرار ما بكر لا يفتضها وم وام » . فإدام الله لم يتحل على هذا القسم فإن شخصية الانسان تظل بدون صورة ، أو تظل نوعاً من السريرة المؤقتة أو الأنية والهووية ، ولكنه حين يبدأ الانسان فى التخلّى عن كل شئ ، يخصب الله هذا القسم ويكسبه الضمير وهو شخصيته المحددة ، وحقه فى أن يقول : أنا . وهذا الحق هو الذى يجمع الشخص الواحد من جميع الكلمة الإلهية ، لأن الله هو سر السر وضمير الضمير (١) .

ومن هذا كله يتضح أن مذهب الحلاج كان نوعاً من الحلولية التشريفية التى لا تزيد على نزول التحلى الإلهى فى قلب المُنسك ، وسكب الأسرار الربانية فيه ، وإلهامه الحقيقة العليا التى ترفعه الى مرتبة الاتحاد الكامل ، وتبيح له أن يقول : « أنا الأول والآخِر ، والظاهر والباطن ، أنا الحق والكل ، ووحدى غير محتاج الى دليل ، لأنى فى كل شئ مقيم » .  
ومما أوضح به مذهب هذا قوله :

سبحان من أظهر ناسوته سرّنا لا هوته الشاق  
ثم بدا فى خلقه ظاهراً فى صورة الآكل والشارب  
حتى لقد عاينه خلقه كلحظة الحاجب بالحجاب

أحسب أن فهم فكرة وحدة الوجود وبسطها على هذا النحو لا يدعان مجالاً للريب فى أن المبادئ الإشراقية التى هى مزيج من التنسكات الإغريقية والهندية والاسكندرية ، كانت قد نضجت فى عهد الحلاج فنضجاً يشرف النضج العربية ، ويرفع من شأن الثقافة الإسلامية ، ويشهد بفضل المشرفين على الحركة العقلية إذ ذاك . وإذا أعطينا عن أن يبدأ وحدة الوجود بخالف ظاهر الشرع أو يوافق ويرضى رجال الدين أو يسخطهم ، فإنه لا يسعنا إلا أن نحنى الرأس وإجلالاً لأولئك المفكرين الأعداء الذين حقق عليهم التقهات واضطهدهم الحكام وفارت بهم الجاهير ، وقاسوا من التمزيب والتنكيل ما سببى وصمة فى جهات الذين اقتربوه إرضاء لشهوة خاصة أو مطمع شحمى أو تحلقاً لمتعصبين والعامه ، وهذا الإجلال الذى نحسه لأولئك المفكرين ليس ناشئاً من جدارتهم العلمية وعظمتهم الفكرية لحسب ، بل هو ناشئ كذلك من شعورنا بقوة نفوسهم ، وكبر قلوبهم ، ومتانة إيمانهم بما كانوا يدنون به ، واستماتهم بالحياة فى سبيل مبادئهم . ولا حرم أنه لو سادت هذه القوة النفسية بيئة العلماء واحتقروا عرض الحياة الدنيا فى سبيل مبادئهم لعاد للشرق سلطان العلمى العابر ، ورجعت إليه سيادته التى تفرد بها فى شباب الزمان .

(١) انظر صفتى ٤٨٥ و ٤٨٦ من الكتاب المذكور .



### أنصار الحلاج وخصومه :

لسنا نريد أن نعرض لأنصار الحلاج وخصومه من الفقهاء والمحدثين وطامة المسلمين ، فقد كانت الاكثية الغالبة من هؤلاء جميعا معادية له ، ثم تغيرت آراء بعضهم فيه على الزمن وبقيت آراء البعض الآخر كما هي ، وإنما نقصد أنصاره وخصومه من المتصوفين ، وله من كلا الفريقين عدد عظيم لو تتبعناه لطال المدى . ولهذا سنقتصر على الإشارة الى نماذج من الأنصار والخصوم ، لنقفك على نوع من الوفاء لدى القسم الأول ، ولون من الحقد لدى القسم الثاني . وإليك هذه النماذج :

#### من الأنصار :

ابن عطاء : هو أبو العباس أحمد بن سهل بن عطاء ، عاش في القرنين الثالث والرابع الهجري ، وكان شديد الاحلاس والوفاء لدينه ، قوى التمسك بأهداب السنة الى حد أن اتفق المالكيون - وهم إذ ذاك على رأس المحافظين - أنه من أجلاء السنيين . وكان من ألد خصوم الجنييد بسبب اختلافهما في الاجتهاد في المسائل الدينية . وقد أعلن إيمانه بالخلود الشخصي لنفسه ، وبحقيقة الجنة الموعود بها في القرآن . ومن أشهر ما اختلف فيه مع الجنييد مسألة التفضيل بين النبي الشاكر والفقير الصابر ، إذ قرر ابن عطاء رفعة الاول على الثاني ، بينما قرر الجنييد العكس ، ومسألة التفضيل بين المؤمن الذي قطع الطريق على الفتن فاستراح منها ، والمؤمن الذي لا تزال الفتن تعترض سبيله فيتغاضى منها ، حيث قرر الجنييد سمو الاول ، وأعلن ابن عطاء العكس ، وما شاكل ذلك .

بعد هذه الحياة العادية التي كان الكثيرون من الفقهاء يحبونها ، اتصل ابن عطاء بالحلاج واستحكمت بينهما أواصر الصداقة ، فجعل يشاشره كثيرا من آرائه . فلما سمع الوزير حامد ابن عباس أحضره ومرض عليه اعتقاد الحلاج الذي أدانه الفقهاء من قبل ، وطلب اليه أن يكتب رأيه فيه ، فكتب بخطه هذه العبارة : « إنه اعتقاد حق ، وإنني أدب به ، وكل من لا يدب به لا عقيدة له » . فاستشاط الوزير غضبا وقال : « إذا ، أنت تؤيد هذه العقيدة ! » . فأجاب ابن عطاء قائلا : « ماذا عندك لهذا الرجل ؟ ماذا تأخذ عليه ؟ ولماذا أنت تتعقبه بنفسك ؟ ولماذا أنت تصادر أموال الناس وتقتلهم وتقتلهم ؟ ولماذا يصايحك كلام هؤلاء الأشخاص الأجلاء ؟ » فلما سمع الوزير هذه العبارات الجريئة انبحر غروره وأمر بضربه فوق فكه ، فصاح ابن عطاء محاطا بالآله قائلا : « يا إلهي إني لم تلق في هذه المهانة إلا لتعاقبني على أن دخلت عند رجل مثل هذا » . فأمر الوزير بأن تخلع ثيابه ويضرب بها على رأسه ، فأخذوا يضربونه حتى نزل الدم من أنفه ، ثم أراد الوزير أن يسجنه ، ولكن بعض خلائه نصحوه

الأيمن ، لأن الشعب كان شديد التعلق به ، غشى حدوث ثورة فأمر بحمله الى منزله ، فتوسل ابن عطاء الى ربه أن يميت هذا الوزير موتاً عنيقاً ، ثم توفي بعد سبعة أيام من هذه الحادثة . وقد روى السلي أن هذا الوزير لم يميت إلا بعد قطع يديه ورجليه وإحراق منزله ، وكان ذلك في العام التالي لموت ابن عطاء . وقد حدثنا الأستاذ « ماسينيون » عن « أميد روز » أن الوزير لم يميت على هذه الصورة ، وإنما طرد في سنة ٣٩٩ هـ من الوزارة ثم قبض عليه وسلم الى ابن الوزير الجديد ، وكان له عنده ثرة فديعة ، فألبسه جلد فرد وأمر بترقيصه في الطرقات وضربه كلما تلسكأ في الرقص . وأخيراً قتل . وقيل قدمت إليه بيضة مسمومة (١) .

ومن أنصار الحلاج أيضاً : ابن أبي الخير ، وإبراهيم النصر اباضى ، وغيرها .

#### من المحصوم :

ابن شيبان : هو إبراهيم بن شيبان القرمسيني المتوفى في سنة ٣٣٧ هـ وكان رئيس الصوفية من السنيين في أصفهان . وقد هاجم الحلاج وشنع عليه كثيراً ، ورماه بأنه ما طويح به الى الهاوية التي سقط فيها إلا كبره وغروره .

ومن هؤلاء المحصوم كذلك : ابن أبي زرعة الطبري المتوفى حوالى سنة ٣٥٣ هـ وقد كتب رسالة ضد الحلاج حمل فيها عليه حملة شعواء .

ومنهم أيضاً أبو نعيم الأصفهاني المتوفى في سنة ٤٣٠ هـ وصاحب كتاب « حلية الأولياء » الذي عني بأن ينهى عنه الحلاج بفضا له واستهانة بشأنه . « يتبع »

المكتوب محمد مغرب

(١) انظر صفحة ٢٦٠ وما بعدها من كتاب الأستاذ ماسينيون .

## التحايل على العطاء

كان أبو جعفر المنصور يجلس في حلقة أزهى السان المحدث ، فلما ولي الخلافة قصده أزهى ، فسأله من حاجته ، فقال : إن دارى تهدمت وعلى دين ، فأمر له بأثنى عشر ألف درهم ، وقال له : لا تأتأنا بعدها طالبا . فلما مرت سنة رآه في مجلسه ، فسأله أبو جعفر عن شأنه ، فقال : يا أمير المؤمنين جئت مسلماً ، فأمر له بأثنى عشر ألفاً وقال له : لا تأتأنا طالبا ولا مسلماً . فلما كان بعد سنة أتاه ، فسأله ما جاء بك ؟ فقال جئت طائداً ، فأمر له بأثنى عشر ألفاً وقال له : لا تأتأنا طالبا ولا مسلماً ولا طائداً . فلما مضت سنة جاءه ، فسأله عن مراده ، فقال : صحتك يا أمير المؤمنين تدعو بدعاء لجئت لأستكتبه . فضحك أبو جعفر المنصور ، وقال له : أئتنا متى شئت فقد أعينى فيك الحيل !

# در استنباط القرآن الحكيم

## تاريخ علم التفسير

نماذج من تفسير الصحابة رضوان الله عليهم  
عروة بن الزبير — عائشة

١ — قول الله تعالى : « حتى إذا استقيس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء » ولا يؤذ بأُسنا عن القوم المجرمين » :

روى البخاري بسنده عن ابن شهاب قال : أخبرني عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها ، قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى : حتى إذا استقيس الرسل ، قال : قلت : أكذبوا أم كذبوا ؟ قالت عائشة : كذبوا ، قلت : فقد استيقنوا أن قومهم كذبهم فما هو بالظن ، قالت : أجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك ، فقلت لها : وظنوا أنهم قد كذبوا ؟ قالت : معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك برها ، قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصداقهم فطال عليهم البلاء ، واستأخر عنهم النصر ، حتى إذا استقيس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك .

محاوره شائقة ، و نقاش شريف ، يرمى الى رفع مقام الرسل عليهم الصلاة والسلام الى المستوى اللائق بهم ، حيث اصطفاهم الله وجعلهم هداة العالم وأعلام الحقائق .

والصحابة رضوان الله عليهم هم — كما قلنا غير مرة — خريجو مدرسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المستنون بسنته ، المهتدون بهديه ، فلا عجب أن حذوا في تفسيرهم للقرآن الكريم حذو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كان هناك تفسير للرسول صلوات الله عليه وآله من الآيات نمسكوا به ، وأغناهم ذلك عن مؤونة الاجتهاد ، وإلا اجتهدوا في تفسير الآية اجتهادا مرماها ببيان الأحكام في الآية ، وإيضاح معناها ، وبيان مطلقها ومقيدها ، وطامها وخاصها . الخ ، لا أن يخصصوا أو يقيدوا من عند أنفسهم ، ولكن يبينون ذلك إذا كان موجودا ، فليس لهم ما للرسول صلى الله عليه وسلم من تخصيص عام القرآن أو تقييد مطلقه أو نسخه (١) ونحو ذلك .

(١) يرى الامام الشافعي أن السنة التواترة تلسخ القرآن . راجع كتب الأصول .

وليس تفسير الصحابة كتفسير المتأخرين من علماء الطبقات ، وهم الذين جمعوا بين التفسير بالماثور والتأويل ، فليس فيه تبسيط للمعاني وتنويع لها ، ويبين الاحتمالات الكثيرة في الآية ، وتوجيه كل احتمال - الشائى ذلك كله من أوجه الإعراب والقراءات وغير ذلك مما أدخله المتأخرون من العلماء في علم التفسير - وإنما هو تفسير مقصور على جوهر المعاني ، وصميم الأحكام ، ويبين المراد .

وليس أدل على هذا من الآية التي نحن بصددنا ، فإذا قرئت بين تفسير السيدة عائشة رضي الله عنها لها ، وبينها معنى الآية لعروة بن الزبير ، وبين ما كتبه علماء التفسير على الآية ، وجدت الفرق هائلا والجون شامسا . ونحن كثر حرجين لعلم التفسير ليس من شأننا الدخول في التفاصيل ، وإنما مهمتنا مقصورة على بيان تطورات هذا العلم ، ولكن لأجل أن يستفيد القارئ من هذه التطورات ، رأيت أن أشير إلى مناهج الفروق ، وهدوس المسائل بشيء قليل من الإيضاح ، فأقول :

هناك معنى من المعاني دار بخلفه عروة بن الزبير أقلقه ، إذ رآه منافيا لمقام الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فلم يستغف ، وهذا المعنى هو : أن الرسل ظنت بربها أنه جل شأنه أخلفها ما وعدتها من النصر . لا شك أنه معنى باطل قطعاً ، ويجب استبعادها عن الفهم استبعاداً نهائياً لمنافاته لمقام الرسل .

وعلم عروة أن مناهج هذه الشبهة ومناوها كلمة ( كذبوا ) في الآية الكريمة ، بالتخفيف ، فتفيد بظاهرها نسبة ما لا يليق من الظن إلى الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام ، فسارع إلى السيدة عائشة يسألها ، وجعل مناهج السؤال النص على مناهج الشبهة رأساً ، انظر إلى قوله : قلت : يعنى للسيدة عائشة ( أ كذبوا ) بالتخفيف ، أم ( كذبوا ) بالتشديد ؟ قالت عائشة : ( كذبوا ) تعنى بالتشديد . فالمعنى أنهم كذبوا تكذيباً قطعاً لا أثر لشك فيه ولا إيمان بعده . وهذا من شأنه أن يقاسم مع العلم واليقين لا الظن .

وأدرك هذا المعنى عروة رضي الله عنه على الفور ، وأن هذا العلم وذاك اليقين مصدره الوحى ، وأراد أن يستوثق من فهمه هذا من السيدة عائشة وأن يقررها به ، فقال : قلت : فقد استيقنوا أن قومهم كذوبم فإ هو بالظن ؟ قالت : أجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك ، يعنى من طريق الوحى ، فقلت لها : وظنوا أنهم قد كذبوا ؟ يعنى بالتخفيف ، قالت : معاذ الله لم تكن الرسل ظن ذلك برها ... الخ . علم عروة بعد الجدل والنقاش أن المعنى الذي دار بخلفه ، والذي نشأ من قراءة ( كذبوا ) بالتخفيف ، منفي نفياً باتاً ، فالسيدة عائشة رضي الله عنها لا تقر إلا ( كذبوا ) بالتشديد ، والمعنى على هذه القراءة واضح ، وانتهى النقاش والجدل بينهما على ما سمعت ، وليس شئ وراء هذا .

فهذا مثال من تفسير الصحابة لآية من القرآن الكريم . وإن شئت فقل لآية مشكلة من متشابه القرآن الكريم ، وبذلك يقف المفسر عن الخوض فيها .

انظر الآن الى المواضيع والمسائل التي تناولها علماء الطبقات من المفسرين في الآية السكينة :  
أولاً — بحثوا أول ما بحثوا في كلمة (حتى) وأنها غاية لشيء ، وأن هذا الشيء غير مذكور  
في الآية ، وأنه مقدر دل عليه السياق ؛ ثم اختلفوا في ذلك الشيء المقدر ما هو ، وذهبوا  
فيه مذاهب شتى ، ثم عنوا بالترجيح بين هذه الآراء .

ثانياً — بحثوا في نسبة الاستيئاس الى الرسل ، وأنه مشكل وغير لائق بمقامهم ، بناء  
على ما هو الظاهر من أن الرسل عليهم السلام استيأسوا بما وعدوا به ، وأخبروا قومهم بأنه  
كائن ، وهذا الظاهر غير مراد قطعاً ، وإنما المراد أنهم يئسوا من إيمان قومهم ، وإن كان  
هذا المعنى المراد قد يتنافى ظاهراً مع عطف قوله تعالى : « وظنوا أنهم قد كذبوا » ، فإن ظاهر  
معناه أنهم ظنوا كونهم مكذوبين فيما وعدوا به ، وعنوا بالإجابة عن ظاهر هذا المطف . الخ  
ثالثاً — بحثوا في الظن ، هل هو باق على معناه من إدراك الطرف الراجع فيكون حقيقة :  
أم معناه العلم واليقين فيكون مجازاً ، وما نوع هذا الجواز ؟ أم معناه الوم ووسوسة النفس ،  
فيكون أيضاً مجازاً ؟ ثم إذا كان المراد هو المعنى المجازي فما سر المدول عن التمييز بما يفيد  
على سبيل الحقيقة ؟ الخ .

رابعاً — بحثوا في قراءة (كذبوا) بالتخفيف (وكذبوا) بالتشديد ، وأثبتوا أنهما  
قراءتان سبعيتان ، وعرضوا لتفسير السيدة عائشة المذكور وإنكارها قراءة التخفيف ،  
وأجابوا عليه ، ثم عنوا عناية خاصة ببحث معنى الآية على قراءة التخفيف التي هي مثار الشبهة  
والإشكال ، ووضحوا المعنى عليها من جهات مختلفة ، دخلت فيها الضمائر الثلاث : ضمير (وظنوا) ،  
و ضمير (أنهم) ، و ضمير (كذبوا) ، وهل هي مائدة جميعها على الرسل ، أم على الأمم ، أم بعضها  
على هؤلاء وبعضها على هؤلاء ؟

خامساً — هذا عدا ما بحثوا فيه من إعراب الآية وموقعها من سابقها ، والمعنى العام  
الذي ترمي اليه ، ومعنى التهديد والوعيد لكفار المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم ، المقصود  
ذلك من ربط قوله تعالى : « حتى إذا استيأس الرسل » بقوله تعالى قبل ذلك : « وما أرسلنا  
من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم » ، أي فتراخي نصرهم حتى إذا استيأس الرسل الخ . فالمعنى  
التهديدي حاصله : فلا يغرنكم يا كفار قريش ما أتم فيه فليس حالكم مع رسول الله صلى الله  
عليه وسلم إلا الحال الأمم السابقة مع رسلها .

ومهما يكن من شيء فلست أريد تفسير الآية — كما قلت — وإنما أردت أن أعرض  
الاتجاهات المختلفة التي تثبت الفرق الظاهر بين تفسير المتأخرين من علماء الطبقات ، وتفسير  
الصحابة وضوان الله عليهم .

وفي الختام أن للمفسرين المتأخرين المذكور كل المذكور في كثرة الأبحاث في هذه الآية وتنوع

الانجهايات في معناها ، فالآية مشككة ، وقد أشكل معناها على كثير من السلف فها هو عروة ابن الزبير قد سمعت قصته مع السيدة عائشة رضي الله عنها في صدر هذا المقال .

وها هو مسلم بن يسار قد ألقاه الاشتباه في معنى الآية فذهب الى سعيد بن جبير رضي الله عنه وسأله عن معناها . والقصة بنصها كما أخرجها ابن جرير وأبو الشيخ عن ربيعة بن كَثُوم قال : حدثني أبي أن مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبير فقال : يا أبا عبد الله آية قد بلغت « في كل مبلغ : » حتى إذا استيأس الرسل وطنوا أنهم قد كذبوا ، فإن الموت أن تظن الرسل أنهم قد كذبوا مثقلة أو تظن أنهم قد كذبوا مخففة ؟ فقال سعيد : حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يستجيبوا لهم ، وظن قومهم أن الرسل كذبتهم ، جاءهم نصرنا ... الخ .

فقام مسلم اليه فاعتقه وقال : فرج الله عنك كما فرجت عنى ا وروى أنه قال ذلك بحضر من الضحاك فقال له : لو رحلت في هذه الى اليمن لكان قليلا ؟

من حسين

## بلاغة الاستعطاء

قال أبو عثمان المازنى : وفدت على أمير المؤمنين الوراق بالله ، فقال لى : هل خليت وراءك أحدا يهلك أمره ؟

قلت : نعم يا أمير المؤمنين : أخية لى ربيتها فكانت ابنتى .

قال الخليفة : ليت شعرى ما قالت حين فارقتها ؟

قال المازنى : قلت أنشدتنى قول الأعمش :

تقول ابنتى حين جد الرحيل أروا سوا ومن قد يئيم  
أبانا فلا زلت من عندنا فإننا نخاف بأن نخترم  
أروا إذا أصمرتك البلا د تخنى وتقطع منا الرحم

قال أمير المؤمنين : ليت شعرى ما قلت لها ؟

قال أبو عثمان : أنشدتها يا أمير المؤمنين قول جرير :

بقى بالله ليس له شريك ومن عند الخليفة بالنجاح

قال الوراق بالله : أهلك النجاح ، وأمر له بمشرة آلاف درهم .

## بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتْوَى

### فِي الزَّكَاةِ

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي من حضرة عيسى الباني الخاوي وشركاء :  
تألفت شركة تجارية من أشخاص شافعي المذهب ، ونص في العقد على ما يأتي :  
أولاً — يتولى إدارتها أحد الشركاء على نظام مبين في العقد (البند الرابع من العقد).  
ثانياً — الزكاة الشرعية تصرف على حسب الشريعة الإسلامية (البند العاشر من العقد) .  
وقد مات أحد الشركاء عن قواصر ، هن أمينه وليلى وإلفت وانسراح ، وعينت والدهن  
وصية عليهن ، وعين معها مدير الشركة مشرفاً عليهما .  
فهل الزكاة واجبة فيما نستحق القواصر من هذه الشركة ؟

ومن يتولى إخراج هذه الزكاة بالنسبة للمستحق لمن ، هل يتولاه الوصية أم المشرف ؟  
وإذا أرادت الوصية عدم إخراج الزكاة أو عدم تمكين المشرف من الاطلاع على إخراجها فهل  
له التمسك بالإشراف على إخراجها بمقتضى أنه مشرف ، وبمقتضى أنه منفذ لعقد الشركة الموجب  
لإخراج الزكاة ، واعتبار ذلك من التصرفات الواجب على المدير أدائها ؟

والجواب على مذهب الامام الشافعي رحمه الله

- ١ — أن الزكاة تجب في مال القواصر إذا بلغ نصيباً وحال عليه الحول .
- ٢ — وأن الذي يتولى إخراج الزكاة من مالهن هو الذي يتولى الاتفاق عليهن والقيام  
بشئونهن .

- ٣ — وأن لمشرف حق الاطلاع على إخراج الزكاة والإشراف على التنفيذ ، والله أعلم ؟

### فِي الْوَقْفِ

وجاء الى اللجنة الاستفتاء الآتي من الدكتور عيسى أحمد عيسى :

أنشأ الوائف وقفه على نفسه أيام حياته ثم من بعد وفاته يكون ذلك وقفاً مصرّحاً ريعه  
على أولاده المذكورين وهم فلان وفلان الى آخر ما جاء بكتاب وقفه ، ثم شرط شروطاً منها  
أن يصرف من ريع الألبان الموقوفة ريع اثني عشر قدماً لكل من زوجته وبنتيه بالسوية ،  
هكذا جاء بكتابه ، ثم حدث أن أخذت الحكومة للمناقص العامة مقداراً من هذه الألبان

الموقوفة ، فهل يؤخذ هذا المقدار من جميع المقدار الموقوف بحيث ينقص نصيب الزوجة والبناتين بمقدار ما يخصه من المقدار المأخوذ للنافع ، أو أن نصيبهم لا ينقص منه شيء ، ويؤخذ هذا المقدار المأخوذ للنافع من نصيب الأولاد الذكور فقط ؟

الجواب :

بعد الاطلاع على صورة كتاب الوقف المرسلة مع السؤال تبين أن الواقف وقف ٦٤ فدانا وكسورا على نفسه أيام حياته ، ثم من بعد وفاته يكون منها اثنا عشر فدانا مصروفاً ريمها على زوجته وبناته المسميات بكتاب الوقف ، منها ربع خمسة أفدنة يصرف على إخوته المسمين بكتاب الوقف ، والباقي بعد ذلك يكون لأولاده الذكور على حسب ما في الكتاب المذكور ، ولم يفرز نصيب واحد من هذه الأنصبة عن الآخر بل جعل ذلك كله على الشيوع .

وقد تبين من مشافهة المستفي أن الواقف تولى إلى رحمة الله وآل الوقف إلى أولاده الذكور وزوجته وبناته المسمين بكتاب الوقف .

وبما أن هذه الأنصبة حملت في الوقف على سبيل الشيوع ولم يفرز واحد منها عن الآخر ، فترى اللجنة أن كل ما أخذ أو يؤخذ من هذه الأطنان للنافع العامة أو غيرها فإنه يخص من أصل الوقف ، ويدخل به النقص على كل نصيب من هذه الأنصبة الثلاثة بالنسبة ، ولا يخص به فريق دون فريق . والله أعلم .

## في الاسترقاق

وجاء إلى اللجنة أيضاً الاستفتاء الآتي من محمد عبد الرزاق محمد عيسى بدققة بالسودان :

في الجهات النائية من بلادنا ما ليس لهم دين ، ولا يعرفون عن الإسلام شيئاً ، والناس يسمونهم « المجوس » ويحتلون عليهم أفراداً وجماعات ويبيعونهم بحجة أنهم عبيد أرقاء ، ويستولدون النساء منهم أو يبيعونهم . فما الحكم الشرعي في ذلك ؟

الجواب :

أن هذا العمل حرام ، ولا يجوز بيع مثل هؤلاء ولا شرائهم ، ولا استيلاء نسائهم بغير الطريق الشرعي . وعلى المسلمين وخصوصاً الذين بالقرب منهم أن يرشدوهم إلى دين الله ويهدوهم إلى الإسلام . والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد المنعم النجاشي



## الطهرى

— ٢ —

### (٥) الطلاق عند العرب في الجاهلية :

كان الطلاق عند العرب في الجاهلية مشروعا ، وكان أهل العرب في الجاهلية وأهل الإسلام في الصدر الأول لا حد للطلاق عندم ، فكان للرجل أن يطلق امرأته ما شاء ويرجعها بعد ذلك ، وكان ذلك قد يؤدي إلى الإضرار بالمرأة فتترك لها هي بذات زوج ولا هي خلية تحمل للأزواج . فقد أخرج ابن جرير الطبري عن هشام بن عروة عن أبيه قال : كان الرجل يطلق ما شاء ثم إن راجع امرأته قبل أن تنقضى عدتها كانت امرأته ، فغضب رجل من الأنصار على امرأته فقال لها : لا أقربك ولا تحلين مني ؛ قالت له : كيف ؟ قال : أطلقك حتى إذا دنا أجلك راجعتك ، ثم أطلقك فإذا دنا أجلك راجعتك . قال : فشكت ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأرسل الله تعالى قوله الكريم : « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » . ومن العرب من تمسك بسنة اسماعيل عليه السلام ، وهو أن يطلق الرجل امرأته ثلاثا على التفرقة ، والرجل أحق بزوجه حتى يستوفى الثلاث ، ومنه قول الأعشى حينما تزوج امرأة فرغب بها عنه ، فأتاه قومها فهددوه بالضرب أو يطلقها ، فقال :

أيا جارتى بينى فأنك طالق      كذلك أمور الناس غاد وطائقه  
قالوا : ثانية ، فقال :

وبينى فإن البين خير من المصا      وإلا ترضى فوق رأسك بارقه  
قالوا : ثالثة ، فقال :

وبينى حصان الفرح غير ذميمة      وموموفة قد كنت فينا وواقه

### (٦) الطلاق في التشريع الإسلامي :

لقد ذهب بعض الناس إلى أن إيقاع الطلاق ليس بمباح إلا عند الضرورة لقوله عليه الصلاة والسلام : « لمن الله كل ذواق مطلق » . ولكن الجمهور ذهبوا إلى إباحته بالنصوص المطلقة كقوله تعالى : « ولا جناح عليكم إن طلقتم النساء » ، وقوله تعالى : « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن » . وعلى كل فإن الطلاق مباح لكنه يفيض إلى الله لقول النبي « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » ، فيكره إن لم تكن حاجة إليه لأن ذلك كفران للنعمة وسوء أدب ، وهو يقع بإيقاع الزوج ، فهو حق خالص للزوج دون المرأة ، إلا أن للزوجة أن تفسر عليه وقت عقد الزواج أو بعده أن تكون عصمتها بيدها ، فتوقع الطلاق على نفسها نيابة عنه متى شاءت ، أو أن تملكه بشرط : كأن لا يتزوج عليها مثلا ، وكذلك لها أن تفتدي منه بالمال

فإذا قبل الزوج أن يطلقها مقابل ما سيأخذه منها من المال صح ذلك وصحى خلما ، فقد قال تعالى : « ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ، فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ... » الآية . ويقسم الطلاق الى طلاق رجعى وطلاق بائن ، فالرجعى ما يرتفع به قيد النكاح بعد انقضاء المدة ، والبائن هو الطلاق الذى يرتفع به قيد النكاح فى الحال . وينقسم الطلاق البائن الى قسمين . بائن بينونة صغرى وهو ما كان بما دون الثلاث ، وبائن بينونة كبرى وهو ما كان بالطلقات الثلاث . وعلى ذلك يكون للرجل أن يطلق امرأته ثلاث مرات لأنه ربما يندم بعد طلاقه لها ، فشرعه الله ثلاثا ليحرب الزوج نفسه فإذا ندم على فعلته أرجعها ، قال الله تعالى : « وبمولتهن أحق بردهن » ، ثم إذا طهر الشقاق مرة أخرى له أن يطلقها مرة ثانية وإن ندم له أن يرجعها ، فإذا أوقع الثالثة يكون قد جرب وفقه الحال ، وبعد تعدد الثلاث تبلى الأعذار ، لذلك لا تحل له بعد ذلك إلا إذا تزوجت شخصا آخر ودخل بها وطلقها بعد ذلك ، فقد قال تعالى : « فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ، فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يترابعا إن ظنا أن يقيما حدود الله ، وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون » . والطلاق يكون على ثلاثة أوجه ( ١ ) : حسن ، وأحسن ، وبدعي ، ( ٢ ) فالأحسن هو أن يطلق الرجل امرأته تطليقة واحدة فى طهر لم يجامعها فيه ويتركها حتى تنقضى عدتها ، وبذلك يمكنه أن يرجعها إن ندم فى المدة بدون عقد ، وبعدها بعقد ومهر جديدين . ( ٣ ) والحسن هو طلاق السنة ، وهو أن يطلق المدخول بها ثلاثا فى ثلاثة أطهار ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابن عمر : إن من السنة أن نستقبل الطهر استقبالا ونبطلقها لكل مرة تطليقة . ( ٤ ) وطلاق البتة : أن يطلقها ثلاثا بكلمة واحدة أو ثلاثا فى طهر واحد .

الخلاصة :

والآن يمكننا أن أقول على ضوء هذه الدراسة التاريخية المطولة : إن مشروعية الطلاق يمكن أن تكون على أربعة أشكال :

( ١ ) مبدأ تحريم الطلاق وعدم تلاشى النكاح . ( ب ) مبدأ إباحة الطلاق بصورة واسعة جدا ، وذلك بأن يتم رفع قيد النكاح بإرادة المرأة فقط ، أو بإرادة الرجل فقط ، أو برضا الطرفين كما كان عليه الأمر عند الرومانيين فى النكاح دون ما سلطة . ( ج ) مبدأ إباحة الطلاق بصورة ضيقة نوعا ، دون التقيد بسبب أو تدخل القضاء ، وذلك بأن يتم الطلاق بإرادة الرجل فقط ( كما هو الأمر عندنا وعند الجرمانيين ) . ( د ) مبدأ إباحة الطلاق بصورة ضيقة جدا كأن يكون عقوبة للزوج المذنب ، وأن يكون بواسطة القضاء ولاسباب معينة . وكذلك يمكننا أن نستنتج من هذه المعلومات التاريخية أن الطلاق كالنكاح من الضروريات المفومة لمجتمع . والدليل على ذلك أن مبدأ « عدم تلاشى النكاح » لم يمكن تطبيقه قط حتى

أن التفريق الجسدى الذى وضع أسسه رجال الكنيسة لا يختلف عن الطلاق إلا بمسألة عدم تلاشى النكاح اسما ، لكن النكاح فى الحقيقة قد تلاشى فعلا . فالزوجان (١) يعيشان متباعدين ولم يبق بين الزوجين من أحكام النكاح إلا أمران : وجوب الفقة عند الحاجة (٢) ووجوب المحافظة على فروجهما ، فإذا بحثنا فى الأمر الثانى ألفينا أن كل شخص منهى من الزنا ، وإذا كان سبب التفريق الجسدى هو نفس الزنا يحصل معنا دور : فأحد الزوجين منهى من الزنا ، إلا أنه قد زنى ، لحكم بينهما بالتفريق الجسدى ، وهذا الأخير يوجب أيضا النهى عن الزنا ، فيجب أن يحكم ( إن زنى أيضا ) بالتفريق الجسدى مرة أخرى لأنه لا حكم وراء ذلك . أما نفقة أحد الزوجين على الآخر عند الحاجة القصوى فهى لا تعدى أن تكون كسلة ورابطة القرابة العادية أو إحدى بقايا الروابط القديمة ، لكن معنى الأزواج غير موحود قط .

زد على ذلك أن قيام النكاح اسما بمنعها من الزواج ثانية ، ويكونان كما قال مسيو بلانيول (٣) « قد ضحيا بقاءهما دون ما أمل » ، ويجدان أنفسهما قد حكم عليهما بالعزوبة الاجبارية Cèlibat forcé . وقال أيضا : « إن فى أغلب الاوقات يكون الباعث على استحالة بقاء الحياة الزوجية هو زنا أحد الزوجين أو زنا الاثنين معا » ، فهل يظن إذا فرق بينهما أن يتخليا عن علاقتهما غير المشروعة ؟ ثم ما هو المركز الاجتماعى لمراة مهجورة ؟ وما هو مركز الزوج إذا كانت المرأة تعبت بشرفه حاملة ومجردة اسما واسم أولاده فى كل مكان ، ومعجزة إياه بطلب الدرام ، أو مهددة إياه بفضائح جديدة ؟ ثم قال : « إن التفريق الجسدى لا يزال داء إلا ويستبدله بداء آخر ، فانه لا يوجد البتة صيغة حياة زوجية بين زوجين مكرهين أن يعيشا معا ، ولكن يوجد فضائح علنية تحمل الزوج الآخر على اليأس ، حتى إن الزوجين بعد التفريق الجسدى يمكنهما أن يقترا المساوى أكثر مما قبل » لأنهما متباعدان ، فكل منهما حر طليق يفعل ما بدا له .

ومما يدل أيضا على أن الطلاق كالنكاح من الضروريات المقومة للمجتمع : أن الزوجين الذين يريدان الافتراق يسميان إذا كان الطلاق محرما إلى إبطال عقد النكاح من أساسه بشئ الوسائل ، كأن يدهي أحدهما أنه أكره على المقد أو غير ذلك من الوسائل التى كانوا يختارونها كما كان عليه الأمر فى القرون الوسطى وفى إبان تحريم النكاح فى أوروبا .

فإذا كان تحريم الطلاق غير مجد فهل يجب أن يباح بصورة واسعة جدا أم يجب تقييده بقيد مختلف وفقا لمعادات الشعوب ومبادئهم القانونية ؟ إن إباحة الطلاق بصورة واسعة جدا هى عظيمة الضرر . وإليك شاهدا على ذلك ما حصل عند الرومانيين فى باكورة الحكم الامبراطورى : فإن النساء كن لا يحصى السنين بأسماء القناصل ، بل كن يحصى السنين بأسماء

(١) هو مشتق من الأزواج ، والمراد منه البش ما (٢) موحز دالوز ، القانون المدنى

ج ١ ص ١٢٣ (٣) بلانيول القانون المدنى الامريكى ج ١ ص ٣٦٧

أزواجهن ، أضف الى ذلك أن اتباع هذا المبدأ يقضى أن يجعل الطلاق بيد النساء أيضا ، والمرأة يعقل عليها الهوى ، وقد تكون سريعة الاغترار ، وأكثر شغفها بالدنيا وترتيب المكاييد وإفشاء سر الأرواح . إذن يجب أن يقع مبدأ إباحة الطلاق المقيدة بقيود تختلف بالنسبة للعادات ، وأن يكون الطلاق بيد من يدفع المهر ، فالمرء عند الجرمانيين في القرون الوسطى يدفعه الرجل للمرأة وله الطلاق وحده . وقد جاء الإسلام قبل ذلك فأمر الرجال بدفع الصداقات ، وجعل لهم حق الطلاق ، فالرجل الذى يرى أن الحياة الزوجية قد أضحت لا تطاق يمكنه أن يضحي ما ملك بالمهر من النضع ، لأنه هو المتوخى من النكاح والازدواج . أما إذا كان دفع المهر من المرأة والطلاق للرجل فإن ذلك يكون واسطة لغنى والإثراء (١) . فالرجل يأخذ المهر ويقضى شهوة البطن والفرج ثم يطلق وهكذا . وهى إن قدرت على دفع المهر فى المرة الأولى فإنها قد لا تقوى على دفع المهر فى المرة الثانية أو الثالثة ، فوجب إذن إذا كان دفع المهر من قبل المرأة إما أن يحرم الطلاق وهذا ما ذهب إليه رجال الكنيسة ، وإما أن يقع المبدأ الرابع وهو إباحة الطلاق بصورة ضيقة جدا ، وأن يكون كمقاب يحصل بواسطة القضاء لأسباب معينة كما هو الأمر الآن فى فرنسا ، وإما أن يكون المهر أمانة فى يد الرجل يعيده إليها عند تلاشى النكاح ، وهذا ما فعله جوستينيان وسمى بسبب ذلك ( صديق النساء المتزوجات ) (١) .

إن هذا البحث كما قلت يصح أن يكون دليلا قاطعا وردا منقها على من يدعى أن التشريع الإسلامى مأخوذ ومستقى من التشريع الرومانى ، لأن لسلك منهما مبادئ واحداً وتفاصيل يباين بعضها بعضاً ، فالتشريع الإسلامى لا يعرف مسألة ( السلطة mann's ) وما ينجم عنها من نتائج من طلاق وميراث وغير ذلك ، والرومانيون لا يعرفون الطلاق الرجعى والطلاق البائن وما ينشأ عن ذلك من فروع ، وكذلك لا يأخذ الرومانيون بعين الاعتبار مسألة الواقع والطلاق فى طهر وتعدد الطلقات الى الثلاث . إذن لا يجوز قط أن يقال إن التشريع الإسلامى منقول عن التشريع الرومانى . ومما يزيد فى دحض هذا الادعاء هو أن الرومانيين قد اتبعوا المبدأ الثانى أى مبدأ إباحة الطلاق بصورة واسعة جدا ، فالطلاق عندهم كان يتم بإرادة الرجل أو بإرادة المرأة أو برضا الطرفين ، مع أن الطلاق عندهما هو للرجل فقط .

وقصارى القول وجماعه يمكننى أن أقول : إن الطلاق قد يورث بعض الآلام لاسيما إذا كان هناك أولاد ، ولكن تحمل هذه الآلام هو ضرورى لأنه دواء لمرض عضال عظيم الخطر ، وأن منع الطلاق لما قد ينجم عنه من الآلام هو كتحريم البتر بحجة تفويه المريض .

وفى الحقيقة أن الطلاق لا يقوض دعام النكاح بل الذى يقوض دعام النكاح هو الخلاف بين الزوجين ، والطلاق هو الذى يضع حدا لذلك .

تقر الدريه لصاحب

## مقارنة ومفاضلة

بين الشريعة الإسلامية والشرائع الأخرى

إن من حق الأمة الإسلامية أن تفخر بمراقبتها في الأصول وتبنيها بقدمتها في المبادئ ، لما لها من تراث عريق هو شريعته الخالدة التي استمدت من كتاب الله القديم وسنة رسوله الكريم ، فكانت للناس نبأ يسترشد به التائهون ، ونورا يهتدى به طلاب الحق المستقيم .

شريعة غنية بنظمها ، متينة بقواعدها ، حريصة على صيانة الحقوق والأخلاق والآداب ، هرفت الإنسان مدى واجباته وحقوقه في دائرة الحق الطبيعي ، والنظام الحكيم .

بدأ بناء تلك الشريعة السمحة في عصر خاتم المرسلين محمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، فكانت تنمو وتنكسر تحت رعاية القرآن الذي أنزله الله في إبان تكون الأمة الإسلامية ليكون لها قانوناً ونظاماً ، وحياة وتاريخاً ، وعبراً وأحكاماً ، وقد أتم الله تلك الشريعة بقوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » . فكان محمد صلى الله عليه وسلم أول قاض قضى بين الناس بهذا القانون الكامل لقوله تعالى : « فاحكم بينهم بما أنزل الله » ، وقوله تبارك وتعالى « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكوك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسلياً » .

ولقد كان محمد صلى الله عليه وسلم يقضى إما بنص كلام الله الذي ينزل به الوحي عليه ، أو باجتهاده فيما لم يكن فيه نص .

ولقد قام مقامه بعد انتقاله الخلفاء الراشدون ، فاجتهدوا في تعرف الأمور التي تعرض عليهم ، فكانوا يرجعون فيها إلى كتاب الله ، فإن لم يجدوا نصاً اتجهوا إلى المأثور عن الرسول صلوات الله عليه في مثلها ، فإن لم يجدوا حكماً الآراء وأجهدوا العقول ، حتى يصلوا للحق وبه يحكمون .

من هذا نثبت أن المصادر للفقهاء الإسلاميين كانت أربعة : الكتاب ، والسنة ، والقياس ، والفقه ، وهو تطبيق حكم حالة منصوص عليها على حالة غير منصوص عليها ، والمصدر الرابع الإجماع ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تجمع أمي على ضلالة » .

ولما كان باب الفهم واسماً فقد نشأ عنه خلاف بين المجتهدين يرجع إلى ما يتجه كل منهم لناحية من الفهم ، لاحتمال الالتفات لأكثر من معنى واحد ، كما يرجع إلى الاختلاف في رواية حديث ، ففهم من يرى أن الشواهد كثيرة على صحته ، ومنهم من يرى العكس ، غير

أن اختلافهم لم يكن ناشئا عن تعصب ولا تمسف ، بل كان في سبيل الله والحقيقة ، وتحري الصواب والوصول الى قانون شرعى يطبق على المجتمع .

وبسبب ذلك انسعت دائرة البحث الفقهي ، واطلق المسلمون في كل ناحية من نواحي الأرض لنشر الدعوة الإسلامية وترويج الآراء الفقهية ، فسمت الحضارة الإسلامية ، واتسع نطاقها ، وانتشرت العلوم العقلية ، ووضعت للعلوم ضوابط ، فدوّن النحو واتسع أفق الكلام ، ودرست الناحية العلمية من فلسفة اليونان وفارس ، والهند والصين وغيرها ، واشتغل علماء الإسلام بها ، وعنى بمعرفة السمين من الفث منها ، وتكونت المذاهب ، وانجلي نور الإسلام وسطعت شمس الشريعة فتطبع إليها الجميع . فلما تناولت طائفة من علماء الغرب الشريعة الإسلامية بأبحاثهم ، وأخذوا يتعرفون مبادئها وأصولها دهقوا من متانة أسسها وقوة عائلتها ، وسعة مداركها ،

ولقد قدم كثير من المصيرين المشغولين بالعلوم القانونية بأوروبا موضوعات قيمة في الشريعة الإسلامية كانت سببا في وقوف الكثير من علماء الغرب على نظامها وأحكامها ، وعلى أنها أخصب مصدر للبحث المقارن .

فإذا نحن أرسلنا نظرة الى الشرائع غير الإسلامية كالإيونانية والرومانية التي كانت معاصرة لعهد تكون الشريعة الإسلامية ، نجد المدى بعيدا شاسعا بين الطرفين . إذا رجعنا الى الشريعة الرومانية وهي أشهرها وأوجهها ، رأينا فيها الطابع المميز لحضارة الرومان وريقهم الفكري ، ونشاطهم الفقهي ، وثقافتهم الأصولية ، وهي التي قال عنها العالم الألماني إهرنج Ihering : « إن روما فتحت العالم ثلاث مرات : الأولى بحبيشها ، والثانية بدينها ، والثالثة بقانونها ، وكان الفتح الأخير أكثرها سلاما وأبعد هامدى » . وقال عنها العالم الانجليزي Price ( برايس ) : « القانون الروماني إنما هو قانون عالمي يمثل وحدة الانسانية المدنية ، فما من مسألة من مسائل الفقه إلا عرض لها ، وما من جانب من جوانب العلم السياسى لم يلق عليه نوره » . وقال الأستاذ الأمريكانى شيرمان Cherman : « إن الفضل في هودة المدنية الى أوروبا بعد طوفان المصور المظلمة راجع الى القانون الروماني » .

وإنا لنورد طرفا منها لتبين الفروق بينها وبين الشريعة الإسلامية :

كانت شريعة الرومان أول أمرها عبارة عن تقاليد مبنية على معتقدات دينية خرافية ، كانت أساسا لنظام الملك ، ونظام الأسرة ، وكان الملك هو الرئيس الدينى المشرع ، وهو القاضى الذى يحكم طبقا لهُوى نفسه ، وإن لم يتفق حكمه مع العدالة أحيانا ، وكان من يخالف حكمه يعتبر ممرضا لسخط الآلهة ، وكانت طارق الادماء مبنية على أساليب غريبة معقدة شاقة ، وإشارات وعبارات معينة أقل هئوة فيها كانت تضع الحق على صاحبه . وليبان ذلك

نسوق المثل الذي أورده « جاويس Gaus » وهو يتأخض في أن شخصا قطع أشجارا الجارح  
بغير حق ، فذهب الرجل لرجال الدين يستلمهم صورة الدعوى ، فنحوه الصورة الآتية :  
« أقول إن المدعى عليه قطع أشجارى بغير حق » ، ولكن المدعى عندما ذهب قضاكم القضائي  
وبدا يلقيها لم يقل قطع أشجارى ، ولكنه قال : قطع كرومى ، ظناً منه أن التخصيص أفضل  
من التعميم ، فترتب على هذا التغير اللفظي سقوط الدعوى وضياع الحق .

دع هذا وانظر في الشريعة الإسلامية وإلى ما فيها من اليسر ، تحمد الرسول عليه الصلاة  
والسلام بقول : « إنكم تختصمون إلىّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى  
له على نحو ما أسمع » ، فن قضيت له بحق أخيه فلا يأخذ منه شيئاً ، فأتما قضى له قطعة من نار .  
أليس في هذه المقارنة البسيطة ما يدل دلالة صريحة على أن الشريعة الإسلامية شريعة حق  
وعدل وإنصاف ، وأنها تعنى بإحقاق الحق لذاته ، ولا تعنى بالأعراض ؟

خذ مثلاً آخر عن الشهود وما كانوا يلافونه من مشقة وتمقيد : كان المحصوم يستصحبون  
أصدقائهم وأقاربهم لتأدية الشهادة شفها ، مطابقاً لنصوص معروفة وشكليات مخصوصة ، فإذا  
امتنع الشاهد عن تأدية الشهادة لنسيان طراً عليه لطول عهد الحادثة ، أو لنسيان بعض كلمات  
الصيغة التي عليها عليه رجال الدين ، فإن الشاهد يتعرض للجزاء ، ذلك الجزاء هو أن يذهب  
من طلبه للشهادة أمام داره ، ويلقى بعبارات هي في الواقع لعنات ، ولخطورة هذه اللعنات  
يحول للشاهد إبطال ذلك السباب ، إذا استطاع أن يثبت أنه لم يشهد زوراً ، أو لم ير شيئاً  
يشهد عليه .

وكان عندهم أن للدائن حق الاستيلاء على مدينه إن لم يدفع الدين أو لم يقدم كفيلاً للسداد ،  
وللدائن أن يبيع مدينه كالرفيق ، وله أن يسترده إن سرق منه .

وكان عندهم أن السارق إن ضبط متابسا ، فلعسروق منه أن يبيع السارق كالعبد .  
شرية قاسية في أحكامها ، عنيفة في مبادئها ، يقتل المدين إن لم يسدد ما عليه من الدين ،  
كما أن للمجنى عليه أن يقتص من خصمه بيده .

وكان عندهم أن من يدمى يدين على آخر ولم يثبت ، فللمدعى عليه أن يدموه للمبارزة ،  
ويثبت الحق في ذمة المغلوب .

وكانت عقوبة الموت عندهم شقاً أو حرقاً أو بفصل الرأس عن الجسد ، أو بالجلد أو بالالتقاء  
من صخرة .

لعل معترضا يقول : إن هذه الاجراءات الخرافية والمافية للعادلة كانت في بدء حياة  
الرومان ، وقد تحسنت حالتهم ووصلت بعد تطورها إلى الحالة العظيمة التي جعلت علماء

الغرب يتفنون بذكرها . ونحن نقول : إن الشريعة الإسلامية بدأت متمشية مع العدالة جنبا للجنب ، وقد بعث محمد صلى الله عليه وسلم في قوم أشداء مشركين طغاة منجبرين متكبرين ؛ فيها أودع الله فيه من صميم الحكمة ، ولباب الحق ، وبلاغة الحجّة ، رفع علم الإلصاف والعدل ، فلا ترى في الشريعة الإسلامية من بدتها لأنّ خرافة ، ولا ترى فيها هوجا ، وستظل كذلك ليوم الساعة إن شاء الله .

وقد أُلْمنا إلماا خفيفا عن بعض الفروق بين الشريعة الرومانية والشريعة الإسلامية ، وسنأتى في مقال تال إن شاء الله عن الكثير مما كانت عليه شريعة الرومان غير الذي أسلفناه والشرائع الأخرى .

ونحن في هذا المقام يحق لنا أن نهيّب بحكومتنا بآرك الله فيها أن تعمل على سن قوانين يكون مصدرها الشريعة الإسلامية ، وعندنا والحمد لله رجال صرّت قلوبهم بالتقوى ، وتفقهوا في الدين ، وأظهروا للأئم جلالها ، وسموها على كل الشرائع قديمها وحديثها ، نخص بالذكر منهم حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الأعظم إمام هذا الزمان الشيخ محمد مصطفى المراغى . وفقنا الله للصواب ، وسدد خطانا لما فيه الإصلاح ؟

مصطفى عبد الحميد أبو زير

## التأثم عن الولاية

قال أبو أيوب السخيتاني : طلب أبو قلابة قضاء فهرب إلى الشام فأقام حينئذ رجوع . قال أبو أيوب : فقلت له : لو وليت القضاء وعدلت كان لك أجران .

فقال أبو قلابة : يا أبا أيوب إذا وقع الساج في البحر كم عسى أن يسبح ؟

قال أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان لجلسائه يوما : دلوني على رجل أوليه .

فقال له روح بن زبابغ : أدلك يا أمير المؤمنين على رجل إن دعوتهم أجابكم ، وإن تركتموه لم يأتكم ، ليس بالمخف طلبا ، ولا بالممن هربا ؟ حاضر الشعبي .

فولاه عبد الملك قضاء البصرة .



## تطور التصميم والزخرفة

في مساجد مصر

### التصميم والزخرفة في الدولة الطولونية :

لمسجد ابن طولون مكانة سامية بين الآثار الإسلامية لا في مصر وحدها ولكن في العالم الإسلامي أجمع ، وقبلنا نجد كتابا في المهارة الإسلامية دون أن يكون لهذا الأثر العظيم ذكر فيه . وهو يعرض علينا بتصميمه وزخارفه أروع صفحة في تاريخ المهارة الإسلامية ، ويلخص لنا بخصائصه ومثذنته جانباً كبيراً من العوامل المختلفة التي اشتغكت في تكوين هذا الفن الجليل . فليستخذ طريقاً الى هذا الأثر الخالد لنستوحى منه هذه الحقائق التي ذكرنا :

إنه على روية عالية على جبل يشكر ، ذلك الجبل الذي يقول فيه ابن عبد الظاهر : إن الله تعالى كلم موسى عليه . تحيط به من الشرق والشمال والغرب أسوار عالية ، تتلوها الى الداخل أسوار أخرى موازية لها ، وتزيد عنها ارتفاعاً ، وكلها ماز من الزخرفة إلا من خوصتين يعلوها صف من دوائر في مربعات ، وينتهيان من أعلى بشرقات إن قلت إنها تحكي السنة الذهب ، أو تشبه عرف الديك ، أو تقرب في شكلها من العمامة ، ما عداك الصواب .

يحصر السوران بينهما ساحات أو زيادات على حد تعبير ابن دقاق ، تحيط بالجامع من جميع جهاته عدا جانب القبلة . ترى ما هو الغرض من هذه الساحات ؟ يقول ابن دقاق : إنها أضيفت الى المسجد عندما ضاق بالمصلين لتزيد في رقعته . ولكن الأستاذ كرزول يرحح أنها إنما أنشئت لتحول بين ضجيج الأسواق التي كانت تحيط بالمسجد وبين وصولها الى الداخل حتى لا تعكر على المصلين هدوءهم . وهو يبنى قوله هذا على أن هذه الظاهرة المهارية تستمد أصلها من تصميم المعابد القديمة التي رآها المسلمون في دمشق عندما فتحوها ، والتي كانت محاطة بساحات الغرض منها الفصل بين المبد نفسه وبين ما يحيط به من أبنية ليكون بمعزل عن الضوضاء . وليس ببعيد إذن أن يكون المسلمون قد استخدموا هذه الساحات في مساجدهم للغرض نفسه ، لا سيما وقد كان المسجد في بحر الإسلام ونخاء قلب المدينة النابض . وهو يؤيد رأيه هذا عن طريق القياس أيضاً : ذلك أن جامع عمرو بن العاص كان واقفاً وسط أسواق مدينة القسطنطين كما يقول المؤرخون ، وكانت أبوابه تسمى باسم الأسواق التي تنتهي إليها . ولئن صح تعليل الأستاذ كرزول ، ولا نخاله إلا محبيها ، كان جمل مسجد ابن طولون في وسط ميدان فسيح بهدم ما كان يحيط به من أبنية ، فيه خروج على أصول علم الآثار الذي يفرض علينا احترام

الأثر والإبقاء عليه دون تعديل في جوهره ومظهره ، ولا يمكن أن يرفع في هذا العمل الرغبة في التجميل أو ملاءمة القوق الحديث (١).

لنفذ الى داخل المسجد مخترفين الرواق الشرقي الى الصحن حتى نأخذ المكان بنظرة واحدة ، فنجده أمامنا صحناً مربعاً مكشوطاً طول صلعه اثنان وتسعون متراً تقريباً ، يتوسطه فوارة عليها قبة عالية تشغل مكان الفوارة القديمة التي أنشأها مؤسس المسجد ، ويقوم في شماله ( خلف الرواق البحري ) مثذنة غربية في شكلها ، ويحيط به من جهاته الأربع أروقة مسقوفة ، أو سمها رواق القبة ، إذ يوجد به خمسة صفوف من الدعام ، كل صف به ستة عشر دامة نحمل فوقها سبعة عشر عقداً ، وكلا الدعام والعقود مبنية بالآجر .

أما الدعام فتشورية الشكل ، يندمج في الرواق الأربع لكل واحدة منها أعمدة ، تزينا تيجان تشبه الناقوس في شكلها ، وتنحلي بزخرفة نباتية . وأما العقود فيذكرها تقوسها بعقود إيوان كسرى ، وهي تجرى في موازاة حائط القبة ، وبين كل عقدتين منها طاقة صغيرة تؤدي فرضتين مختلفتين : فهي زخرف تراح العين لرؤيته وسط الفراغ الممتد بين كل عقدتين ، ثم هي وسيلة لتخفيف ثقل البناء .

واستعمال الآجر بدلا من الحجر ، واتخاذ الدعام بدلا من الأعمدة الرخامية ، ظاهران معماريتان جديدتان في العمارة الإسلامية بمصر ، عظمهما قدماء المؤرخين من المسلمين بعملة ، وعظمهما علماء الآثار بعملة أخرى . أما الأولون فيقولون : إن ابن طولون عندما عزم على بناء جامع هذا قال : أريد بناء إن احترقت مصر بقي ، وإن غرقت بقي ، فقبل له : يبنى بالجبر والرماح ، والآجر الأحمر القوي على النار الى السقف ، ولا يجعل فيه أساطين من رخام فإنه لا صبر لها على النار . ويقولون أيضا : إنه قدر للجامع ثلاثمائة حمود ، وقيل لابن طولون إنه لا يجردها إلا إذا أرسل الى السكائن في الأرياف والضياح الخراب لتحمل منها فأذكر ذلك . وأما علماء الآثار فيقولون : إن استعمال الآجر بدلا من الحجر واتخاذ الأرجل بدلا من أعمدة الرخامية من خصائص العمارة العراقية نقلها ابن طولون الى مصر . وينتهي هذا الرواق جنوبا بحائط القبة يتوسطها محراب مجوف لمبت فيه يد التمجيد حتى انتهى الى الصورة التي هو عليها الآن ، والتي ترجع الى عصر المماليك ، ويكتشفه من كل جانب صودان من الرخام متلاصقان يرجعان الى عهد إنشاء المسجد ، تزينا تيجان من الرخام المفرغ على شكل السلال يخالها الناظر أنها من المعدن وما هي كذلك (٢) . ويحترق جدار القبة من أعلى اثنان وثلاثون نافذة قد سدت

(1) Creswell . Early Muslim Architecture Part II. p. 339 - 340.

(٢) في المسجد عدا هذا المحراب محاريب خمسة من الجص موجودة في هذا الرواق متأخرة في إنشائها عن تاريخ بناء المسجد إلا واحدا يظن أنه من أواخر العصر الطولوني .

جميعها بشبابيك من الجص تجلو على الناظر أشكالا هندسية جلية . ولا يعاصر إنشاء المسجد منها إلا أربعة ، قوام زخارفها دوائر متشابكة (١) . كما يخترق الجدار من أسفل أبواب أربعة : الأول والرابع يفضيان الى الطريق ، والثاني يفتح على مخزن صغير ، أما الثالث فكان ينفذ منه الى دار الإمارة . وهذا الأخير يذكرنا بحادثتين تاريخيتين مضى عليهما أكثر من ألف سنة ، ويدل على أنه ما من ظاهرة معمارية في هذه الآثار التي تركها أجدادنا المسلمون إلا ولها حديث صادق ترويه عن هؤلاء الأجداد . أما الحادثة الأولى فقد وقعت في الكوفة سنة ١٧ هـ يوم كان سعد بن أبي وقاص واليا عليها من قبل عمر بن الخطاب ، إذ اتخذ سعد لسكناء قصرًا يفصله عن الناحية القبلية لمسجد الكوفة طريق ضيق ، وكان بيت المال بالقصر ، واستطاع القصور ذات ليلة أن يتقبوا حائط القصر من هذا الطريق ، وأن ينفذوا الى داخل القصر ويسرقوا جانبًا من مال المسلمين ، فشكا سعد الأمر الى عمر فأمره بجعل حائط القبلة ملاصقا لجدار القصر تماما . وأما الحادثة الثانية فقد وقعت في البصرة عام ٤٤ هـ يوم كان زياد بن أبيه واليا عليها من قبل معاوية بن أبي سفيان ، إذ رأى زياد - عندما كان يوسع مسجد البصرة - أنه لا ينبغي للإمام أن يتعطي الناس عند توجهه الى المحراب ، لحول دار الإمارة الى قبل المسجد حتى يخرج الامام من الدار الى الباب الذي في حائط القبلة مباشرة .

ويخترق الجدارين الشرق والغربي لهذا الرواق خمسة نوافذ متقابلة شبيهة بالنوافذ التي رأيناها في جدار القبلة ، كما أننا نرى على إحدى دعامات الصف الثالث لوحا من الرخام يتضمن إنشاء تاريخ المسجد ( ٢٦٥ هـ ) وبعض الآيات القرآنية . أما الأروقة الثلاثة الأخرى ففي كل منها صفان من الدعامات عليها عقود تسير بحذاء حائط القبلة في الرواق البحري وفي موازاة الجدارين الشرق والغربي في الرواقين الجانبيين .

ويحيط بفتحات عقود المسجد صغيرها وكبيرها شريط من الزخرفة يشكون من فرع نباتي متموج تنخله أوراق المنب المنسقة وتتصل به وريقات نباتية . كما يحف بالسقف إزار من خشب محفور عليه حفرا بارزا آيات من القرآن الكريم مكتوبة بالخط الكوفي المربع العاقل من الزخرف . وفي الحق أن هذا الخط الماذج البسيط كان نواة لفن جميل لم يستوح فيه المسلمون فنا من فنون الأمم السابقة عليها ، بل استلقت أنظارهم الحروف العربية برءوسها وسيقانها وأقواسها ومداتها ، فخلقوا منها طرازا زخرفيا رائعا ، سنرى كيف صمما الى قمة الجمال الفني عند التحدث على العصر العباسي .

ويدور حول جدر المسجد أسفل هذا الإزار طراز من زخرفة نباتية يقول عنها هرسفلد إنها شديدة جدا بخلاف المصرية القديمة . على أن أهم زخارف هذا المسجد جميعا هي تلك التي

(١) في الجدار البحري ٣٣ نافذة وفي الغربي ٣٢ وفي الشرق ٣١

تزين بواطن معظم العقود المطلة على الصحن في الرواقين الغربي والبحري ، ففيها نرى الزخرفة الإسلامية الحقة بعد أن تخلصت من رقة تقاليد الفنون التي أخذت عنها ، فيها تتجلى لنا تلك الزخرفة التي أبدعها المسلمون بفضل توجيهات الإسلام ونواحيه ، تذكرنا رؤيتها بموطنها الأصلي الذي وفدت منه على هذه البلاد ، بمدينة ( سر من رأى ) التي أنشأها المعتصم ابن هارون الرشيد عام ٢٢٩ هـ والتي كان يعيش فيها ابن طولون قبل أن يلى الحكم في مصر . والواقع أن زخارف هذه المدينة مكانة ممتازة في الفن الإسلامي ، فقد درسها علماء الآثار وحللوها إلى عناصرها وقسموها إلى أقسام مختلفة واتخذوها نبراسا لهم يهتدون به في أبحاثهم . وهكذا نرى الفن يخلد على صفحة الزمن ذكرى الماضي البعيد ، فقد أنعمت مدينة سامرا ، واندست معالمها ، ولكن اسمها لم يمح ، بل انتقل منها إلى ما كان يزين قصورها ومساجدها من زخرف ، ولا يزال يتردد حتى اليوم على ألسنة علماء الآثار ومؤرخي الفن .

ومثذنة هذا المسجد من أغرب الظواهر فيه ، ظفرت من مناة علماء الآثار بما لم يظفر به أثر آخر ، تسترعى للنظر بشكلها العجيب الذي لا شبیه له في ما دقن مصر ، والذي علله بعض المؤرخين المتقدمين بتعليل أقرب إلى القصص منه إلى البحث العلمي الصحيح ، إذ روى المقرئى وابن دقاق عن ابن طولون أنه « كان لا يعبث بشيء قط ، فاتفق أنه أخذ درجا أبيض بيده وأخرجه ومده ، واستيقظ لنفسه وعلم أنه قد فطن به وأخذ عليه لكونه لم تكن تلك ماذنه ، فطلب الممار الذي على الجامع وقال : تبني المسارة التي لتأذين هكذا ، فقبلت على تلك الصورة » . وظاهر أن هذه القصة لا تنطق في شيء على مثذنة ابن طولون التي تنكون من قاعدة مربعة تعلوها طبقة اسطوانية تنتهى بطبقة مثمثة .

وأما علماء الآثار فقد تخطوا هذا التفسير الساذج إلى البحث عن مصدر هذا التصميم وعن تاريخ الالتقاء ، واشتد الجدل فيما بينهم . ونحن نكتفى بأن ثبت هنا خلاصة ما اتهموا إليه من أن هذه المثذنة متأثرة بمثذنة المسجد الجامع بسامرا ، وأن كليهما استمد تصميمه من تصميم معابد النار الفارسية المروفة باسم الزيجورات ، وأنها متأخرة في إنشائها عن عصر بناء الجامع ، وأنها كانت في وقت ما أشد شبها بمثذنة مسجد سامرا الأعظم منها الآن .

هذا وقد عرف المسلمون الرسم التخطيطي للمباني قبل إنعائها . ويقول المقرئى إن مهندس هذا المسجد رسمه على الجلد وعرضه على ابن طولون . ولئن كان العرب قد نقلوا هذه الفكرة عن الرومان فلن يقلل هذا من فضلهم على حضارة العالم ، لأنهم كما نعلمت عبقرتهم في ابتكار أشياء جديدة ، فقد ظهر حذقهم في بحث ما اندثر من القديم المفيد ؟

محمد عبد العزيز مرزوق

الأمين المساعد بدار الآثار العربية

## اثبات الروح الانسانية حسيا

أدلة جديدة قائمة على قواعد الدكتور العلمى

نعود الى نقل بعض ما أورده الأستاذ الكبير أرنت بوزانو فى كتابه خروج الروح من الجسد ثم عودها إليه ، وإنما نحرص على أن لا يفوت قراء العربية هذا الضرب من المشاهدات الجديدة لأنها تثبت وجود الروح الإنسانية واستقلالها عن الجسد وخلودها بعد الموت ، على وجه لا يقبل الشك ، وفى ثبوت هذه المقيدة على مقتضى الأسلوب العلمى خير عظيم للإنسانية لأنه يحفزها الى التحلى برفع الصفات ، وإلى تطلب السمو الأدبى استكمالاً لأسباب البقاء .

الحادثة التى نحن اليوم بسبيلها حدثت للكاتب ( جيلبرت نوس ) الانجليزى وهو يقاتل الألمانين فى أرض فرنسا فى الحرب الماضية . وقد نشرها فى مذكراته التى أسماها Englishman . وقد نقلها عنه الأستاذ أرنت بوزانو ، وهى تناهض فى أنه أصيب بقذيفة فى صدغه الأيسر ، فسقط فى حفرة أحدثتها قنبلة ، وخرجت الرصاصة من عينه اليمنى ، وهى لوقتئذى ، ومرت طوافه ألمانية فنقلته الى المستشفى ، وبعد أن بقى فاقداً رشده يومين أفاق ، وظل فى الأسر حتى وضعت الحرب أوزارها سنة ١٩١٨ . ونحن ننقل ما كتبه من لفظه فى كتابه ، قال :

« إنى أتردد فى حكاية ما وقع لى ، ولكنى وقد اعترفت أن أثبت على الورق ما شعرت به حينما أصابنى القذيفة فى رأسى ، فسأقوم بذلك فى عبارات بسيطة ، تاركاً للقارئ العساية فى تكوين فكرة لنفسه على ما سأورده عليه :

« لقد أصابنى العمى مفاجأة ، ولن أزال أهمى ما بقيت . ولكن ما أحطت به من الظلمات فى ذلك الوقت تخللته فترة من النور حينما سمعت صوتاً فى أحماق نفسى يقول لى : « قد دنا الموت ، أريد أن تجبى ، إلينا ؟ » ، فما كاد يتم كلامه حتى آلفت حجاب الظلمات يتجلبب عني يسيراً يسيراً ، وإذا بى عدت بصيراً وبصرت بالوجود . فصرخى عند ذاك شعوراً لا يمكن وصفه بالصفاء والسلام . لما أعظمها كانت من سعادة لا يستطيع التعبير عنها بالألفاظ ولاحت من النفاة وأنا على تلك الحال ، وإذا بى أرى جثمانى مطروحاً فى حفرة القنبلة ، والدم ينطف من أحد صدغيه . فقلت فى نفسى : لقد مت وهذه جسدى أمامى هامدة ، ولكنى مع ذلك كنت أشعر بأنى سعيد .

« وكنت كذلك أشعر بأن الصوت الذى سمعته ينتظر منى جواباً . فبدلت جهداً جهيداً ، وصمت ، ولا أدري كيف كان ذلك ، فأثلاً : « إن يومى لم يحس بعد ، فليست بميت » . وما كنت

أنها حتى آنت حجاب الظلمة الذى كان انجباب عنى ماد فانسدل على ، وتحرك جسمى بإرادتى  
وعدت ثانية الى الحياة الأرضية ١

« لقد وصفت الشعورات التى حدثت لى أكل ما استطعت . وإنى أضيف الى ما قدمت  
بأنى لم أكن فاقد الوعي حينما حدث ما ذكرت ، وما كنت قبلها فاقد الوعي أيضا بضع دقائق ؛  
ولما حدث لى ما حدث أدركت الفرق العظيم بين الحالة التى يكون فيها الانسان مادم الوعي  
حقيقة وبين ما كنت فيه .

« والحالة التى دخلت فيها ، ليدعها من شاء هديانا ، أو يعتبرها وهما غنيا . كل هذا  
لا يهمنى ، ولست أقصد أن أؤثر على القارئ بشئ من ناحيتها . ولكنى مكنتف بأن أثبت  
على الورق ما حدث لى من الشعور فى تلك البرهة الخطيرة . أما اعتقادى الشخصى فيها فأنى  
أحتفظ به لنفسى . ولست تضاد به عليك وهو . « بآية علة يطلون الحالة التى حدثت لى ؟  
فإن غامضة الموت قد أصبحت غير موجودة فى نظرى ، وقد أصبحت لا أخشى الموت قط . »  
عاق الأستاذ بوزا هو على هذه المشاهدة بقوله :

« لقد رأيت أنف كل الذين أصابتهم هذه الحالة خرجوا منها حاصلين على اقتناع ذاتى  
لا يتزعزع بأنهم شهدوا انفصال أرواحهم عن أجسادهم ، وكان ثمره ذلك أنهم حصلوا على يقين  
راسخ بأن الروح تبقى بعد موت الجسد . ومن المعلوم بعد هذا أن يصروا على رفض أقوال  
المنكرين من ممثلى العلم الرسمى الذين لم يسددهم الحظ بالوقوع فى مثل هذه الحالة ، ولم يروا أن  
أرواحهم إذا زايلت أجسادهم بقيت حائزة لشخصيتها الواعية المدركة العاقلة ، فلم يقدرروا القيمة  
العملية الحسية لدليل كهذا قائم على التجربة الذاتية . »

ثم قال : إنه سينشر ثلاث حالات أخرى سبق للدكتور ( أوستى ) Dr. Osty أن نشرها  
فى مجلة المباحث النفسية الفرنسية La Revue Métapsychique الفرنسية سنة ١٩٣٠ .

أولى هذه الحالات أرسلها المسبوم . ل . هيمان Hymans الى الأستاذ شارل ريشيه  
مدرس القبز بولوجيا بجامعة الطب الفرنسية وعضو المجمع العلمى . قال المسبوم هيمان :

« أرى أن مما يفيد العلم أن أحيطكم علما بحالة حدثت لى مرتين تثبت بأن الضمير البشرى  
يمكن أن يستمر فى عمله وهو مستقل عن المخ .

« حدث لى مرتين ، وأنا حاصل على كل شعورى ، أن رأيت جثائى بعيدا عنى فى حالة  
همود ، وكنت مقتنعا بأنه شئ أجنبى عنى . ولست أحاول أن أهرف كيف كنت أرى بدلا  
عينين ماديتين ، فأنى إنما أحدث عن حالتين وقعتا لى وكفى .

« الحالة الأولى حدثت لى وأنا على كرمى لطبيب أسنان . فبينما كنت واقفا تحت تأثير

البنج شعرت بأنى قد عدت الى وعي ، وبأنى ساج في أعلى الحجرة ، ومن هنالك كنت أشاهد الطبيب ، وأنا في دهش عظيم ، يعمل في جنبائى ، والطبيب المبنج قائما الى جانبه . وقد رأيت ذلك الجنائى هامدا ، كما كنت أرى بوضوح كل ما فى الحجرة . وكان ما أشاهده يبدو لي منظرًا حيا كل الحياة . ولكن هذا المنظر لم يدم إلا بضعة ثوان ثم عدت الى ما كنت عليه من فقد الشعور ، واستيقظت على الكرسي حافظا كل ما رأيته غاية في الوضوح .

« لما حدثت لي الحالة الثانية كنت بلوندره في فندق . استيقظت ذات يوم مريضا ، بسبب ضعف في قلبي ، وبعد قليل من تيقظي أصابتنى غشية . وما كان أعيد دهشى حينما رأيت نفسى في أعلى الحجرة ، ناظرا ، وأنا في حالة هلع ، الى جسدى ملقى على السرير لاهرا كانه ، وعيناه مقفلتان . حاولت أن أدخل فيه فلم أفلح ، فأيقنت بأنى قد مت . وأخذت أفكر فيما عسى أن يقوله في ذلك رجال الفندق وأهلى وأصحابى . وسألت نفسى هل يجر هذا الامر الى تحريات قضائية ؟ وفكرت فيما ستؤول اليه اعمالى . والذي أنا متحققه انى لم أفقد في تلك الحالة ذاكرتى ولا شعورى بنفسى . وكنت أرى جنبائى لاحياة فيه كأنه شىء مستقل عى ، واستطعت أن أتأمل في وجهى . ومع هذا فلم أستطع أن أزيل الحجرة ، وكنت أشعر بأنى مقيد لا أستطيع أن أبرح الركن الذى كنت فيه .

« وبعد ما مضت ساعة أو ساعتان صممت طرقا على الباب مررات عديدة وهو موصد بمفتاح ، دون أن أستطيع أن أحمل ما يثبت انى في حالة حياة . وبعد قليل رأيت بواب الفندق على شرفة الحجرة ( بلكونها ) صعد اليها على سلم للنجاة . ثم دخل الى الحجرة ، ونظر الى وجهى مكروبا ، وفتح الباب . وبعد قليل دخلت مديرة الفندق ومعها ناس آخرون . وما لبثوا غير هنية حتى حضر طبيب ، فرأيته يهز رأسى ، وينسمع دقات قلبي ، ثم أدخل ملقعة بين شفتى . عند ذاك فقدت وعي ، واستيقظت في سريري . كل هذا كان في نحو ساعتين . وقد علق الأستاذ بوزاو على هذه الحادثة بقوله : إنها على أعظم جانب من القيمة العلمية لأنها تنفى كل شبهة تنشئ من سرعة زوال هذا الشعور بالاستقلال عن الجسد ، فقد بقيت الروح في الحالة المتقدمة خارج جسدها حاصلة على جميع خصائصها الذاتية نحو ساعتين .

ثم نقل الأستاذ المذكور حالة من هذا القبيل حدثت للسيد شارل كارتنيه وهو أحد محررى مجلة المباحث النفسية . قال :

« في شهر سبتمبر من سنة ١٩١٨ كنت قد أصبت بضعف شديد على أثر مرضى بالانفلونزا الموسومة بالاسبابولية ، فكنت وأنا في دور النقاهة كثيرا ما أقع في الانهيار مفاجأة . وفي ذات يوم كنت بعد الظهر مضطجعا على كرسي في زاوية من حجرتى ملتبسا للراحة . في تلك السويدة كانت والدتى تتحدث في فسخة الدار مع بعض الزائرات ، حدث لي بغنة أن انحرفت من الكرسي ، فتدلى رأسى ونصقى الأعلى نحو الأرض ، وبقيت ساقى فوقه .

« تغالج صدري إذ ذاك ثلاثة شعورات مختلفة ، ولست أدري إن كانت كلها في آن واحد أم على التعاقب .

« أحدها شعور بارتياح عظيم جدا لا أستطيع وصفه ، وبإكتمال في خصائص النفسية ، وفي الاحساس بالوجود العام ، وبخفة متناهية ، وفي الجلة بمادة لم أشعر بخلها بعد ذلك .

« ثابها شعور بانزاج مفرط يكاد يكون هلما ، أثاره في وجودي إزاء حالة غير عادية ، بل مستحيلة ، وهي رؤيتي لشخصي خارج جسي كائي أراه في مرآة ، وليس في المحجرة مرآة .

« ثالثها شعور بالغطر من بقاء رأسي مدلى ، وبوجوب بذل الجهد في تعديله ، وحاولت ذلك من خارجه ، كما يحاول رجل أن يعدل رأس رجل غيره . ولكنني لم أفلح في هذه المحاولة .

« بعد ذلك رأيتني انتقلت الى فسحة البيت ، واجتهدت أن ألقت نظر أي الى ما وقع فيه جسي ، فسمعتها تقول لصاحباتها : « انتظرني حتى أرى ماذا حدث لابني فكأنني سمعته يناديني » ، ثم حدث لي غيبوبة ، تنبث منها فوجدتني فوق الكرسي وأني أمامي تبذل لي الصايات المعتادة في حالة الإغماء » اهـ .

هذا ما حدث للمسيو شارل كارتيه محرر مجلة المباحث النفسية ، وقد سُئلت والدته عما شاهدته في هذه الحادثة فأجابت بما يأتي :

« نعم إنني أذكر هذه الحادثة ، كأنها حدثت بالأمس ، كما جرت عادة الناس أن يقولوا ، وقد كانت مذهشة جدا .

« أصيب ولدي بأنفلونزا كادت تقضى على حياته ، ثم شفى ودخل في دور النعق ، واستطاع أن يقوم بركات قصيرة .

« في ذات يوم بعد الظهر كان مستلقيا على كرسي طويل بعد أن مشى بضع خطوات في الحجرة ، وخرجت أما الى الفسحة لمقابلة بعض الزائرات وكنت سيدة وبنيتها . فبدأنا نقابل بعض العبارات حتى صحت بصاحتي قائلة : « عذرا ياسيدي ، فاني أظن بأن ابني يناديني » فقالت لي صاحبتى وبناتها : « ولكننا لم نسمع شيئا » ، فقلت نعم نعم ، إنني واثقة بأنه استدعاني »

« فدخلت الى الحجرة فوجدت مريضى الناقه قد تدلى رأسه من الكرسي الطويل ، وهو مضى عليه ، ولم يبق على الكرسي غير ساقيه :

« وبمجرد ما عاد اليه وعيه ، وكان ذلك بعد أن مكث طويلا في غيبوبته ، حكى لي ما كان من خروج روحه من جسده ، فتأثرت من ذلك كل التأثر ، كما لا يخفى على إسان ، وقد أكثرنا من التكلم في هذه الحادثة ولا تزال الى اليوم .

« ولما كان جسد ابني ثقيل ، تطوحت زائرتي بمساعدتي لإعادة وضعه على السرير . ثم ختمت كلامها بقولها : مثل هذه الحادثة لا يمكن أن تنسى مطلقا » .



علق الأستاذ بوزانو على هذه الملاحظة بقوله :

« إن من الأمور الخطيرة ذات الدلالة القوية هذا الشعور بالسعادة وبالتبسط في الوجود ، وبإكمال الحياة ، وعمومية الوعي لاتصاله بالوعي الشخصى ، كما شعر به هذا المريض ، وكما يشعر به العدد الضخم من الذين يخرجون أرواحهم من أجسادهم مؤقتا . ويجرى هذا الجرى ما يحدث للتصوفة وهم في حالة التواجد ، وما يحدث أيضا لدوى الحياة الطبيعية في أوبنات استثنائية من وجودهم . ينطبق على هؤلاء جميعا ما أتى به الشاعر الانجليزى الكبير ألفريد تينيسون Alfred Tennyson من وصف هذا الشعور كما تحيل لضميره الراقى ، قال :

« إنى لم أجرب قط مسألة الكشف بواسطة المواد المخدرة ، ولكنى كثيرا ما حرت يوما من الذهول ( إنى لم أجد أفضل من هذا اللفظ للإعراب مما أريد ) منذ طفولتى ، وفي الأوقات التى أحد نفسى فيها وحيدا . وقد رأيت أن التجربة كانت تتم بسهولة إذا كررت في نفسى ذكر اسمى باستمرار . في هذه الحالة أجدنى - ولعل شعورى القوي بشخصيتى هو الذى يولد هذه الظاهرة - قد دخلت في حالة تنحل فيها شخصيتى وتتحول الى حالة فوق الحالة العادية ، حالة غير مشوشة ، بل واضحة كل الوضوح ، وحقيقية ككل ما هو حقيقى لا غبار عليه ، ولو أنها مما لا يمكن التعبير عنه بالألفاظ ، حالة فيها يظهر الموت لمن وصل إليها من الحالات المضحكة . فنقد الشعور بالشخصية العادية لا يعنى الغناء ، ولكنه يعنى كما انكشف لى الحياة الحقيقية . وإنى لضائق الصدو من عدم كفاية تمبيرى ، ولكن أما قدمت بأن هذه الحالة لا يمكن التعبير عنها بالهجة الانسانية ؟ »

\*\*\*

نكتفى بهذا القدر لهذا العدد ، وموعدا بغيره الأعداد المقبلة ، ولا أغفل أنه توجد أدل من هذه الأدلة الذاتية على بقاء النفس بعد الموت . إن الذى يفر الناس بنظريات الماديين أنهم لم يجربوا فى أنفسهم ، ولم يُنقل لهم على أساس علمى صحيح ما يثبت لهم أن وراء هذه الحالة العادية حالة أرق منها .

واسكن مما آمن الله به على الناس في هذا العصر ، أن يشتد رجال من كبار العلماء لجمع المشاهدات المحققة المتفرقة في أكساف الأرض من هذا النوع ، ومما ملتها على مقتضى الدستور العلمى بالنقد والتحصيل ، ليجد من يريد الاهتداء الى الحق الصريح ما يسمه بالدليل الذى يطلبه خالصا من جميع الفوائب ، « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » .

محمد رفيع وبهرى

# كتاب في الاخلاق

## القوة في الحق

كان المسلمون في الصدور الاول لا يوارون ولا يدارون ، فإن رأى أحدهم على أخيه عيباً ، أولاً لحظ فيه نقصاً ، أو لحن منه تقصيراً ، نبهه الى ذلك ، وحاول جهداً يستطيع أن يرشده بالتي هي أحسن ، ولقد كانوا يبالبغون في ذرة العيوب ، ورأب الصدوع أكثر من ذلك ، وقد كان منهم من لا يسمح لنفسه أن ينتهك الحرمات ، ويتمدى الحدود ، فيما بينه وبين الله ، دون أن يرفع أمره الى الحاكم ، ويتقدم بين يدي السلطان ، ليأخذه بذنبيه ويقنص منه جزاء وثاقاً .

جاء أحد الصحابة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : يا رسول الله هلكت وأهلكت ، فقال له : ماذا أصابك ؟ قال : واقمت أهلي في نهار رمضان ، فقال له : كثر عن ذلك ، قال : لا أملك ما أكثر به ، فأطرق النبي ، وأطرق الرجل ، وأطرق الصحابة من حوله ، وبينما هم كذلك جاءت الى النبي صلى الله عليه وسلم هدايا تمر ، فأشار الى الرجل أن يأخذ منها شيئاً يتصدق به ، عسى الله أن يكفر عنه ، ويتوب عليه ، فقال الرجل : أعلی أفقر مني أتصدق يا رسول الله ؟ والله ما بيني وبينها من يجد ما أجدر من الخصاصة والفقر ! فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : كلها فقد كفر الله عنك !

ونحن نعلم ما اعتاده العرب في صيامهم ، وما تحفى به التشريع الاسلامي معهم في المبدأ ، ونعلم من ذلك أنه إذا جاء وقت الإفطار ، وكان الرجل نائمًا ، تحتم عليه ألا يأكل ولا يأتى أهله حتى يجيء المغرب من اليوم الثاني ، وأن عمر رضى الله عنه تمرد على هذه العادة فتيقظ من نومه بعد المغرب فأكل ثم أتى أهله ، فلم يسع زوجته إلا أن تشكوه الى النبي صلى الله عليه وسلم . فانظر الى مبلغ هذا الورع وتمسك منه ما شئت . فإن كان عمر قد استحميا أن يشكوه نفسه وكفر عن خطيئته بينه وبين الله ، فإن امرأته لم ترض منه ذلك ، فكشفت الامر غير خاضية لومة لأثم . فبمثل هذه العزمات الصادقة عز الاسلام ، وبمثل هذا الايمان الراسخ ثبتت أصوله ، وآتت أهله خلافة الله في الارض .

وقد خفف هذا الحكم بعد ذلك وأحل للمسلمين ما كان حرم عليهم في هذه الناحية .

والذي يتدبر التشريع الاسلامي ويعرف ما احتواه هذا الدين من مزايا وخصائص ، يعلم أن المسلمين الاولين في ترابطهم كانوا أشبه بالاسرة الواحدة . وقد أراد النبي صلى الله عليه

وسلم أن ينه أمته الى هذا المعنى فضرب لهم المثل في الائتلاف ، والتماسك ، والترابط ، يقوم قد ركبوا سفينة بعضهم في أعلاها ، ولعصم في أسفلها ، وأن أهل الأسفل كانوا إذا أرادوا الشرب ، اجتازوا الركاب ، وتخطوا أهل العلو ، وأنهم حينما وجدوا هذه المشقة ، حدثتهم أنفسهم أن يخرجوا في أسفل السفينة خرقا ، يشربون منه ، فكان أهل الملو حينئذ يبن أسرى : إما أن يسكتوا على هذا الخرق فيهلك الركاب جميعا ، وإما أن يضربوا على يد المالك فلا يخرج هذا الخرق ، وهنالك ينحو الركاب جميعا . ولعل هذا هو المعنى الذي تشير اليه الآية : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

وقد تدلى بعض المسلمين بعد ذلك في عقيدتهم ، وانحطوا في فهمهم لهذا الدين ، الى درجة أن صار الرجل منهم لا يبالي بغير وزره ولا يعبا إلا بحريته ، فإن رأى منكرا لم يغيره بيده ، أو بلسانه ، أو بقله ، وربما احتج لذلك بينه وبين نفسه ، أو بينه وبين الناس بظاهر الآية . وفي حلافة أبي بكر رضى الله عنه ، فهم بعض الناس من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » أن الإنسان لا يسأل إلا عن نفسه ، فلم يسمعه رحمه الله إلا أن يرقى المنبر حائقا غاضبا ، وقال : أما بعد ما بال رجال يقولون في كتاب الله بغير ما أراد ، يأخذون بظاهر قوله تعالى : « عليكم أنفسكم » ثم يفهمون من ذلك أن الرجل منهم لا ينبغي له أن يعنى إلا بخاصة نفسه ، وكأنما يغضون الطرف عن الآية الأخرى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

لعل هذا المعنى الذي يتحدث عنه أبو بكر هو الذي يشير اليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « المؤمن للمؤمن كالبليان يشد بعضه بعضا » .

والمسلمون لا يزالون يخبر ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . هكنا يقول النبي صلى الله عليه وسلم في كثير من أحاديثه . فهل نجد بيننا من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقول للمخطئ : أخطأت وللمعصّر قصرت ، أم نجدهم جميعا يغضون العين على القذى ؟

لقد امنطيت سيارة « الأتوبيس » يوما وقد ركبها فيمن ركب غلام صغير قد اختنى بين الركاب ونوارى عن أعين الناظرين ، فما جاء المفتش رأيت رجلا عليه وقار المسلمين وصحات الصالحين يحمره من مكنته ويبرزه من مخبئه ، ويقول له : ادفع ! ادفع ! ادفع ! أجز ركوبك ! فلما انصرف المفتش طاب الغلام ، وعاتبه الناس ، وأصر ذلك الرجل على أنه أصاب في ذلك وأنهم أخطئوا . فقلت أنا : يا الله هذا هو الدين الاسلامي ، وهذه هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها ! فكيف يستنكر الناس الحق ويتجهمون للمعروف ، ويفضون لسلوك الصحيح ؟ هذا مظهر من مظاهر التدليس ، وأشباه ذلك كثير . « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها

ابراهيم على أبو القسب

من دابة »

## المتألهون والادب

### أدب قس وحكته :

يقول الجاحظ في كتابه البيان والتبيين : « ومن الشعراء الخطباء الأبيناء الحكماء قس ابن ساعدة الإيادي . والخطباء كثير والشعراء أكثر منهم ، ومن يجمع الخطابة والشعر قليل » . فقد جمع قس بين الخطابة والشعر ، فكان من أولئك السفر القليل الذين امتازوا بذلك الميزة ، حتى ضربت به الامثال في الحكمة والبيان ، فقال فيه أعشى بني قيس بن ثعلبة :

وأحكم من قس وأجراً ملئدي      بذى الغيل من خفان أصبح حاردا  
وقال الخطيئة :

وأقول من قس وأمضى إذا مضى      من الرمح إن مس النفوس نكاثها  
وقال آخر :

كقس إياد أو كقسيط بن معنيد      وعذرة والمنطيق زيد بن جندب

وقبل أن نحكم على منزلته في الخطابة والشعر ، نقدم بين يدي القارئ شواهد من خطبه وشعره ، حتى يكون الحكم واضحاً جليلاً لا لبس فيه ولا خفاء :

لقس خطبة مشهورة توجد في أمهات كتب الأدب ، قد رويت من طرق مختلفة ، وقل أن نجد لها في مصدر قد اتفقت معها في المصدر الآخر ، فمن زيادة ونقص ، وتبديل وتغيير ، وتقديم وتأخير ، بل ومن سند يغاير السند وبخالفه ، ومع ذلك فالغرض منها لم يختلف ، والمغزى لم يتبدل ، مما يجعلنا نقول : إنه لا يبعد أن يكون شيء منها مذكوساً على قس ، وأنها ليست كلها له ، وإن كان له منها أوفر حظ وأكبر نصيب . وليست هذه أول الخطب التي وقع فيها التزهد ، بل أمثالها كثير . ولا نقول كما قال غيرنا : إنها جميعاً منحولة عليه وليست له ، إكباراً للرواة وثقة بهم ، إذ لا يقول إنسان بأن زيادة مقرة أو فقرات في خطبة من الخطب تخرجها عن دائرة الصحة ، وتقطع الصلة بينها وبين صاحبها . وهما هي تلك خطبته نقلها عن كتاب المعشرين لأبي حاتم السجستاني ، قال :

قال أبو حاتم : وذكروا أن وفد بكر بن وائل قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : هل فيكم أحد من إياد ؟ قالوا : نعم . قال : ألكم علم بقس بن ساعدة ؟ قالوا : مات يا رسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كأنني أنظر إليه بسوق عكاظ يخطب الناس على جبل أحر وهو يقول : « أيها الناس : اجتمعوا واهتموا وعزوا : من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل

ما هو آت آت ، ثم قال : أما بعد ، فإن في السماء ظهرا ، وإن في الأرض لظهرا ، نجوم تقور ، وبحار تقور ولا تقور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، أقسم قس قسا بالله وما أثم ، لتطلبن من الأمر كسحطا ، ولئن كان بعض الأمر رضا إن الله في بعضه سخطا ، وما هذا لعبا ، وإن من وراء هذا عجبا ، أقسم قس قسا بالله وما أثم ، إن الله ديننا هو أرضى من دين نحن عليه ، ما بال الناس يذهبون فلا يرجعون ، أنعموا فأناموا ، أو تركوا فناموا ؟

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . وصمته لفظ بشعر ولساني لا ينطابق به . فقال بعضهم : أما أحفظه يا رسول الله فهل ترى على فيه شيئا ؟ قال : لا ، الشعر كلام ، حسنه حسن ، وقبيحه قبيح ، فهاته ، وذكروا أنه ابن عباس ، فقال ، وهو يومئذ غلام لم يبلغ الحلم ، فأنشده :

في الداهيين الأولين من القرون لنا بصائر  
لما رأيت موارد لصوت ليس لها مصادر  
ورأيت قومي نحوها يعضي الأصغر والأكابر  
لا يرجع الماضي ولا ينجو من الباقي غابر  
أيقنت أني لا محال حيث صار القوم صائر

وقال أبو حاتم : ذكر حزم بن أبي راشد قال : أُملي على رجل من أهل خراسان من مواعظ قس : « مطر ونبات ، وآباء وأمّهات ، وذاهب وآت ، وأموات بعد أموات ، وضوء وظلام ، وليال وأيام ، وغنى وفقير ، وشقى وسعيد ، ومسي وعسن ، أين الأرباب العملة ( أو قال القمعة ) ، إن لكل عامل عمله . كلا : بل هو الله إله واحد ، ليس بمولود ولا والد ، أماد وأبدى ، واليه المهاد غدا . أما بعد : يا معشر إياد ، فأين نمود وعاد ، وأين الآباء والأحداد ، وأين المعروف الذي لم يشكر ، والظالم الذي لم ينتقم ؟ ( أو قال لم يتكر ) كلا ورب السكبة ، ليعودن ما باد ، ولئن ذهب يوما ليعودن يوما » .

وحدث الأديب القس لويس شيخو في كتابه شمراء النصرانية قال : « أخبر بعض معاصريه عنه قال : لقد رأيت من قس عجبا : أشرف في جبل على واد ، وشجر من شجر عاد ، مورقة موققة ، وقد تهدل أغصانها ، قال : فدوت منه فإذا بقس في ظل شجرة بيده قضيب من أراك ينكت به الأرض وهو يترنم ويقول :

يا ناعي الموت والملحد في جدث  
عليهم من بقايا خزيم خرق  
دعهم فإن لهم يوما يصاح بهم  
فهم إذا انتهوا من نومهم فُرق  
حتى يعودوا بحال غير حالم  
حلفا جديدا كما من قبلها خلقوا  
منهم عمرة ومنهم في ثيابهم  
منها الجديد ومنها المستهجن الخلق

قال : فدوت منه وصلت عليه ، فرد على السلام ، وإذا بعين خمرارة ، في أرض خمرارة ،

ومسجد بين قبرين ، وأسدين عظيمين ، يوذان به ، ويتمسحان بأثوابه ، فأراد أحدهما يسبق الى الماء ، وتبعه الآخر يطلب الماء ، فضربه قس بالقضيب وقال : ارجع شكلتك أمك حتى يشرب الذي ورد قبلك ، فرجع ، ثم ورد بعده . فقلت له : ما هذان القبران ؟ قال : هذان قبر أخوين لي كما يعبدان الله معي في هذا المكان لا يشركان بالله شيئا ، فأدركهما الموت فقبرتهما ، وهما ما بين قبريهما حتى ألقى بهما ، ثم نظر الى السماء فنغررت عيناه بالدموع ، وانكب عليهما وجعل يقول :

خليلٌ هبنا طالما قدر قدما      أجبت كما لا تقضيان كرا كما  
ألم تعلمنا أني لسمعان (١) مفرد      وما لي فيها من خليل سوا كما  
أقيم على قبريكما لست بارحا      طوال الليالي أو يحجب صدا كما  
الى أن قال :

كانكما والموت أقرب غاية      بروحي في قبريكما قد أنا كما  
قضيت بأنني لا محالة هالك      وأني سيمروني الذي قد مرا كما  
فلو جعلت نفس لنفسي وقاية      لجلت بنفسي أن تكون فدا كما  
سأبكيكما طول الحياة وما الذي      برد على ذي عوثة (٢) إن بكا كما

نقول : ينشأ أوردنا هذه الرواية على ما فيها مما لا يعقل من أمر الاسدين : اللاتيان بما فيها من الشعر المنسوب لقس .

ومن خطب قس بن ساعدة : « أيها الأشهاد : أين تعود وعاد ؟ أين الآباء والأجداد ؟ أين ذهب أبرهة ذو المنار ، وعمرو ذو الأذمار ؟ هل تدرون الى ما صار إليه عبادة الفتح ، وأذينة المسيح ، وجذبة الوضاح ؟ عزوا فقهروا ، ونهوا وأمروا ، وجددوا المصانع والآثار ، وجددوا الآثار ، وغرسوا الأشجار ، واستخدموا الليل والنهار ، فهجمت الأحوال دون الآمال ، ألا وإن كل شيء الى الزوال . ثم أنشد :

قد كنت أسمع بالزمان ولا أرى      أن الزمان يطبق تنف جناحي  
فأراه أسرع في حتى أصبحت      بيضا مُتَوْنُ عوارضي وصفاحي  
وأنا الكبير لنسبة في قومه      هيات كم ناهجت من أرواحي  
صاغت داجدن وأدرك مولدي      شمير بن عمرو يُتقى بالراح  
والقيل ذولان رأيت محله      بالقهر بين جنادل وصفاح  
فتك الزمان بملك حير فتك      تسى بكل عشية وصفاح

فترى من هذه الشواهد أن قسا كان خطيبا مقوها ، وحكيما مهذبا ، وتراه مع هذا قد

وهب فطرة وسليقة في الشعر جعلته يتبع الخطبة بآيات تناسبها وتتفق معها في الغرض الذي قيلت فيه .

وقد أنكر بعض الباحثين المعاصرين نسبة هذه الخطب والأشعار لقس ، وذهب إلى أنها منحولة ومدسوسة عليه ، استنادا إلى هذه الرقة في الألفاظ ، والسهولة في التعبير ، والبعد عن الغريب ، والخوشى من الكلام ، زاعما أنها لا تلائم طبيعة الزمن الذي كان قس يعيش فيه . قد يكون هذا صحيحا ، ولكنه يزيد من قدر قس ، فإن الشخصية التي يمزى إليها ما لم نقله تكون من رفعة المنزلة بحيث ينتهل اسمها لترويج العبارات البليغة ، والآويل الحكيمة . وإلى هذا فقد كان قس متعبدا متأثما ، يعظ الناس ويذكرهم بأيام الله ، ويدهورم إلى التوحيد وببذ الإشراف ؛ وكل خطبه وشعره يدور حول هذا الغرض كما رأيت .

#### وفاة قس :

روى أن قسا توفي في رَوْحِينَ ، وهي قرية قريبة من حلب وفي لحف جبل . وقد قال أبو جعبل الألبيري لما زار قبره :

هذه منازل ذي الملا	قس بن ساعدة الأيادي
كم عاش في الدنيا وكم	أسدى إلينا من آياد
قد نالها بحلى البلا	غة منصحا في كل ناد
قد قرء في بطن الثرى	منفردا بين العباد

هذا كل ما أعر عليه البحث ، وهدى إليه الفكر ، في الكشف عن حياة قس ، وبيان

شعره وخطبه ؟

أحمد إبراهيم موسى  
تخصص البلاغة والأدب

## راحته في الأملاق

قال أبو الفتح ، وكان أدبيا طريفا مهزارا ، وهو من أهل القرن الثاني للهجرة :

برزت من المنازل والقباب	فلم يمر على أحد حجابي
فنزلى الفضاء وسقف بيتي	سماء الله أو قطع السحاب
فأنت إذا أردت دخلت بيتي	حتى مسلما من غير باب
ولا خفت الإتيان على عبيدي	ولا خفت الهلاك على دوابي
ولا حاسبت يوما قهرمانا	محاسبة فأغضب في حسابي
وفي ذا راحة وفراغ بال	فدأب الدهر ذا أبدا دوابي

## مذاهب العرب في كلامهم

تأثير القرآن فيها

— ٤ —

قد يظن بعض العلماء أنه يبدو غريبا أن تطرد سنة القول عند العرب حتى آخر عصر بني أمية ، وقد حدث في العالم ما هو أركان وغير مجرى الحياة في جزيرة العرب فنال من نظامهم وأخلاقهم وعاداتهم ؛ ذلك هو الإسلام . ولكنه قد فاتهم أن الإسلام قد غير في كثير من حياة العرب حقا ، ولكنه كان لهم مادة وفكرا ، ونظاما وعلما ، ودينا وحكما ؛ أما ألسنتهم ونظام القول عندهم فإنه قد جاء مبدعا لها ، مرقيا لآساليبها . وإن الإنسان ليدهش لو فكر في مبلغ ما قام به من القرآن من نقل اللغة العربية من صحفية البداوة وسذاجة الأمية إلى سلامة الحضارة وبلاغة الثقافة . والعلة في ذلك بيّنة ، فإن المحاهلين قصرهم همهم على تنازع البقاء وانصرافهم إلى الحروب والغارات ، لم يتسع لهم الوقت للمحاولات التي لا يتسع إلا تحت ظلال السلام . ولضيق مجالات العمل لديهم ، واقتصرها على اتخاذ الماشية كإداة للعيش ، خلت لغتهم من كل ما يتعلق بالمعنويات والمجردات ، فكل ما تصادفه من أشعارهم وخطبهم تجده لا يتعدى ذكر الطمن والصرب ، وشقاء الأحقاد ، والاحذ بالثأر ، والتنكيل بالأعداء ، وتجاوز الحدود في الاعتداء ، والتدح باحتقار المخاوف ، والتباهي بركوب المخاطر . فإن راموا الضرب في بيد الخيالات الشعرية لم يجدوا أمامهم غير التبسط في ذكر الصعاري والبيجاد والوهاد ، والمفاوز وما يصادفهم فيها من الحر الوحشية ، والوعول والصباب والأغوال .

ولكن لما انتشر فيهم بما حمله إليهم من أصول الأخلاق ، ومبادئ العدل والإنصاف ، وما وصف به الصالحين من حسن السمعة والوقار ، وكرم النفس والإيثار ، وتأييد الحق ومكافحة الضلال ، وما ذكر مما يجب أن يكونوا عليه من سمو النفس في سلمهم وحريهم ، وعقودهم وعهودهم ، ونسبهم وغلبيهم ، وما اقتضته هذه التماثل من استخدام الألفاظ الدالة عليها ، ونقل كثير منها إلى المدلولات الجديدة . فلما انتشر فيهم بما حمله إليهم من هذه الثروة الحكيمة كابدت لغة العرب من التهذيب ما لا كان ينتظر حدوثه في عدة أجيال ، وحدث فيها من الأساليب ما لا كان يتأتى إلا بعد مرور كثير من الأدوار .

نعم إن القرآن لم يتمد حدود الألفاظ العربية . وقد افترق بعضهم بهذا لفيل إليهم أن الإسلام لم يأت العرب من ناحية اللغة بمجديد ، فلقوا أعداء القرآن بحجة كانوا ينتظرونها باعترافنا من زمان بعيد ؛ وقامهم أن وحدة الألفاظ في العهدين الجاهل والإسلامي لا تدل على قوة هذه الشبهة ، فالمدار على الصياغة الفنية ، والمعاني المرية . فهل تستطيع أن تقدر لى الفرق



بين شعر أبي الطيب المتنبي وبين انحطاط شعر أحد الفحل من حفظة الأوزان ، والاتقاط في كلا التريصين واحدة ؟

فلنسمح لي القراء وقد انتهيت الى هذا الحد أن أذكر لهم طرقاً من بلاغات القرآن التي ستدق على الدهر دلائل إعجاز لا يصبها وهم ولا يمتورها زوال . فإذا نظرت الى قصة يوسف مثلاً وجنتها وحدة قائمة لا يخلها إلا استطراد خفيف مع صاحبي السجن ، وقد جاءت في نظام غريب ، وأسلوب عجيب ، وإعجاز بالغ ، ووضوح سابع ، وفي الحق أن من يفهم شيئاً من العربية يرى أن هذه القصة قد جمعت من أسباب الإعجاز ما يأخذ بالألباب ، فهي فوق ما عرف للقرآن من فصاحة وبلاغة ، قد جمعت من الإيجاز والوضوح ما يملك القلوب . ذلك بأن شأن الإيجاز اقتصر في القول وإدماج في اللفظ والمعنى معاً ، وإن هذا لما يدعو الى الإهام والإغلاق ، فإذا جاء القول مع ذلك ونحماً بينا كان الإعجاز فيه قائماً ، وهذا شأن القرآن في أغلب أمره ، يوجز ويوضح فيمحز ، فإذا ما بسط القول في سبيل دعوة أو ترغيب أو تهيب أو تشريع كان الإعجاز فوق ماله من صفات في أنه طبق المفصل ، فلا تزيد ولا فصول ، فهو يوجز القول ويبسطه ، ويستطرد فيه وينتقل ، ويستقل ويجمع ، وإعجازه تين في جميع حالاته . رأى العرب هذا من قرآهم فأغرموا بتلاوته ، وكلفوا بحفظه ، واتخذوا منه مادة وعلماء وديناً وحكماً ، واقتبسوا من عباراته وزينوا لقلوب ما ياته .

كل هذا حفز رجال القول والخطابة والشعر على أن يسلكوا ما سلك القرآن ، فيحرصون على عاكانه ، ويقومون على أسلوبه ، ويتسابقون في حلة البلاغة والتفاسيح سباق الجياد السريعة . فانظر هنالك النعمان بن بشير زعيم الأنصار ، وقد ذهب الى معاوية يطلب رأس الأخطال وقد هجا قومه بتحريض يزيد ، فقد ساق قصيدة في ذلك جاءت تسبيح وحدها وأولها :  
معاوي إلا تمننا النصف نعرف . . .

وقد فعل الفرزدق مثله في شأن علي بن الحسين بن علي بقصيدته المشهورة التي أولها :  
هذا الذي تعرف البطحاء وطأته      والبيت يعرفه والحل والحرم  
فقد أقام كل منهما قوله كأنه البيان المرصوم ، ودخل في موضوعه من غير أن ينظر في عطفه فيخاطب فادة هنا وجلا هناك ، وأظن هذا الذي يدعو اليه أدباؤنا اليوم . أما في الناحية الأخرى من النقلة هنا ، والاستطراد هناك ، فهناك جمهور القوم ومعظمهم . فهذا حسان ابن ثابت قد أخذ ينفع من رسول الله بهزئته التي مطلعها :

هفت ذات الأصابع فاجلجواء      الى عسراء مترها خلاه  
ديار من بني الحسحاس قفر      يعقها الروامس والساه

فجعل يعرض فيها للديار والنسيب ، وللخيل وللاحمر ، حتى وصل الى أبي سفيان وقد قطع شقة طويلة ، يقول فيها وقد أجاد :

وحبريل رسول الله فينا      وروح القدس ليس له خفاء  
وقال الله قد أرسلت عبدا      يقول الحق إن تقع السلا  
شهدت به فقوموا صدقوه      فقلتم لا تقوم ولا نشاء  
وقال الله قد سيرت حندا      هم الأنصار عرضتها اللقاء  
لنا في كل يوم من ممد      سباب أو قتال أو هجاء  
فنحكم بالقواي من هجانا      ونضرب حين تختلط الدماء  
ألا أبلغ أنا سفيان هنا      فأنت عجوف نخب هواء  
بأن سيوفنا تركتك عبدا      وعبد الدار سادتها الإماء  
هجوت محمدا فأجبت عنه      وعند الله في ذاك الجزاء  
أنهجه ولسنت له بكفه      فسر كما ظركم القداء

وقد فعل مثل ذلك الأحطل وجريو والفرزدق وغيرهم في عهد معاوية وعبد الملك والوليد وهشام ، فسكنوا يدفعون بالقول شرقا وغربا ، ويطوحون بألسنتهم يمينا وشمالا ، فلا يقفون عند غرض ولا يثبتون أمام مكان . فهذه الدورات الكثيرة في القصيدة الواحدة قد كانت سائفة مقبولة عند جميعهم وكلها مقنن من أساليب القرآن ، فلم يكن غريبا أن يلهو الشاعر خليفة أو أميراً فيبدأ بذكر الأحباب وما قاماه في سبيلهم ، وما لقوا به قلبه ، ولوحوا جلده ، وطلوا سنده ، فطال ليله ، وقام يومه ، وطارق نومه ، فأصبح سلوة الأحباب ، وهبة الأصحاب ، ومساء الأتراب ، وقد كان يحول في ذلك جولات صادقة فيأتي على وصف ربحه وترسه وزجه وفرسه ، فإذا ما وصل إلى مدح حه كان قد سلخ من قصيدته نصفها أو يزيد ، بل لم يكن غريبا أن يحمي حسان فيمدح رسول الله بهزيمته التي قدمنا ، أو يحيى كعب بن زهير فيمدح محمدا صلى الله عليه وسلم ، فيقول :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول      منيم إثرها لم يغد مكبول  
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا      إلا أغس غضيض الطرف مكحول

فإذا كانت هذا شأن القول وطبيعته مع باعث الإسلام ومهبط الإلهام وسيد الأمام ، فكيف به يكون مع الوزراء أو الأمراء أو الخلفاء ؟ ألا إنها طبيعة القوم قد أضمت ذيلها على جميعهم ، فلم تفرق في ذلك بين رفيع ووصيع ، وتقيس وخسيس .

وجملة القول أن تأثير القرآن في اللغة كان بالغا إلى حد أنه صاغها صياغة جديدة في سنين قليلة ، وجعلها تصلح للبقاء ما بقي أهلها ، وهذه إحدى معجزاته الكثيرة .

محمد ناصف

## من وحي الشريعة الخالدة

لعل من أوليات الأحلاق الفاصلة ، ترك الكذب والجدل والمراء ، وسوء الخلق المدرج تحته الغش والخيانة ، وظلم الإنسان لنفسه ولغيره ، والمفاخرة في زهو وخيلاء ، والمكازرة بالمال والرجال ابتغاء الثمت في ساعد نوع من الناس يراد البطش به والتسلط عليه ، والمداخلة في العلوم ، والسفه في الرأي ، والخيانة في الحجة ، والكذب في النصيحة ، والمساهنة في الرياسات ، وأخذ المرء وسين بأساليب من التوجيهات مختلفات ، وإشاعة ريح الخلاف بين المرء وسين ليحظى الرؤساء من وراء ذلك انقساماً على أنفسهم ، وانشقاقاً في صفوفهم ، قد يذهب برمجهم ويأتي على حاضرهم ومستقبلهم . فإذا نذرت الأخلاق عن لوانتها ، وصمت إلى المستوى الذي يصير منها أداة مثالية تهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، فأنتم ما هي .

ولقد مررنا في بحث سابق أن عرضنا بقدر لمبلغ ما يحدده الجدل والمراء من لونة أخلاقية قد يطلع بها المماررون والمجادلون من أنفسهم ومن ظاهرات المجتمع ما لا تبلغه أعداء البشرية بين أئم الأرض . والجدل والمراء وإن أسمى فهمه في بعض أوصاف المصطلحين فقدس فريق من الناس أن الجدل والمراء من حوافز سلاطة اللسان وقوة البيان ، ومن دلائل لحن الحجة فتراه يتفاح ويكافح حين تعرض له ريح المناخة والمكاخفة ، يجرب فيها جنونا ، ويفتن فيها فتونا ، يعقب على الحق حين يراه باطلا ، ويغرس عن الباطل حين يرى سلطانه أخذ به بروجه وغشى بصره ببرجه ، فهذا الفريق من البشر على البشرية ذاتها جد خطر . ولعله هو المعنى يقول الرسول الأعظم فيما رواه الطبراني : « إذا أراد الله بقوم سوءاً ففتح عليهم باب الجدل وسلبهم نعمة العمل » . ولعله أخطر ما يؤدي البشرية في أجل ظاهراتها وأقوم مقوماتها .

حكى العلامة صاحب الملل والنحل أن الجدل والمراء متعدد المعهوم واسع مدلول المعهوم ، فقد يطلق الجدل والمراء ويراد منه المناظرة بالحق وبالباطل ، ويكون الجدل في تلك الحالة قائماً على الممارسة والمباهاة بقدر ما يبلغه المجادل من حدود تبعث فيه ريح الآفن والغرور ، وتخلق في صدره سخائم العجب والغرور . وهذا الفريق هو أخطر من كل خطر .

وهناك نوع من الجدل سليم لا بد من الأخذ به وركوبه ومنه والتسلح به في حالات كثيرة ، أخلقها بالصيانة وأجدها على بني الإنسان ، هو من يتحكم ويحيط بحتم فيمن أوتوا بسطة في الجاه والمال . فالجلد مع هؤلاء المفرضين معناه توجيههم إلى الصراط السوي والتمط المضى ، ومجادلتهم قضاء على جدوة ظلمهم وإطفاء لنار بغصائهم . والمبطلون إذا اتسع هم السلطان وخلصت لهم وسائل البطش كانوا أفنك من الوباء وأخطر من أسفر الهراء . فن خير البشرية

مكائنتهم كما تكافح النار . والحق إن لم يظفر بأخصاره كان الباطل أهم منه سلطانا وأقوى أركاناً ولو إلى حين . فلا غصاة أن يكافح ظلم الظالم برده إلى العدالة ، وأن يغالب إبطال المبطل برده إلى الحق .

قال العلامة ابن خلدون في مقدمته : إن الخلاف بين أنصار الظلم وأنصار العدل وأهل الحق وأشباع الجدل قديم الوجود والناس جميعاً محاصرون فيه ، ففريقاً هدى وفريقاً حق عليه الضلالة .

يبقى بعد ذلك الجدل في الدين ، والجدل في الدين متصل بهذا الوجود حتى بين الأمم الأولى وبين وسلمهم ، كذبوم في أصول العقائد الدينية عنادا واستكباراً ، ثم ورت العلماء وخلافهم من بعد ذلك الاضطهاد وذلك الخلاف الناشب بينهم وبين أولئك المعاندين ، ولهذا البحث شرح يطول سوف نقرده لمبحثنا آخر . لكن بما لا ينبغي إغفاله في خاتمة هذا البحث أن نورد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تمارأوا ولا تمارأوا ولا تمارأوا ولا تمارأوا فتختلفه » . وقوله : « كفى بك إثماً أن لا تزال مخاصماً » ؟ عيسى ط

## تصحيح

جاء في العدد السابق ص ٣٢٥ س ٣ : أو معمول لمامل .

والصواب : أو مفسر لمامل .

وجاء في العدد السابق أيضاً ص ٣٤١ س ٣ : ينتهى نسبه إلى عبد شمس الأموى .

والصواب : ينتهى نسبه إلى يزيد مولى يزيد بن أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس الأموى .

## بين رجال الدين والفلسفة

نشرنا في العدد السادس لفضيلة الأستاذ المفضل الشيخ محمد يوسف موسى المدرس بكلية أصول الدين مقالاً بالمعنوان المتقدم ، وكان قد وعد بتكميله في العدد الذى يليه . وقد أرسل إلينا فضيلته التكملة فلم نستطع نشرها في العدد السابع بسبب ازدحام المقالات ، فأرجأها للعدد الثامن ، فنلت إليها الآنظار .

## Section IV

### Moralities

Moralities embrace the consideration of all those moral excellences which are enjoined in the Koran and in the teachings of the Prophet, such as, Sincerity, Confidence in God; Humility; Resignation; Keeping worldly ambitions within bounds, Giving good counsel and advice, Contentment, Liberality; Love to God and man, Patience, Ethical instructions and rules of conduct relating to (1) salutations, (2) asking permission to enter a house, (3) shaking hands, and embracing, (4) rising up, (5) sitting, sleeping and walking, (6) sneezing and yawning, (7) laughing, (8) names, (9) poetry and eloquence, (10) backbiting and abuse, (11) promises, (12) joking, (13) boasting and party spirit

## Section V

### Punishments

Punishments include (1) penalties exacted for manslaughter or serious bodily injuries, (2) punishment for theft by the loss of a hand, (3) punishment for fornication and adultery—stoning for a married person, and one hundred lashes for an unmarried person, (4) punishment for slander by eighty lashes, (5) punishment for apostasy by death, (6) punishment for mebration by eighty lashes.

My object in writing this book, however, is quite limited. It is to deal with two important sections only of the religion of Islam, namely, Beliefs—which embrace all matters of faith, and Devotions which include all matters of practice, as distinguished from articles of faith. Hence, I will confine the following pages to the two above mentioned comprehensive divisions of the Law. Meanwhile, I will give a brief summary of the more important articles embodied in the rest of the sections.

## DIGEST OF THE MOHAMMADAN CREED

The creed of Mohammadans demands faith in the following—

(1) God; (2) The Angels of God; (3) The books of God; (4) The Apostles of God; (5) The day of Judgment or Resurrection; (6) Predes-  
tination.

I will now deal with each of these articles separately :

## **BOOK III**

### **EXPOSITION OF THE RELIGION OF ISLAM**

The word Islam which literally signifies 'resignation' (to God's will), is a comprehensive name commonly applied to the religion of the followers of the Prophet Mohammad. It embodies the various sections of the Mohammadan Law which God has established for the guidance of His people, both for the worship of their Lord, and for the duties of life.

These sections are five in number, namely :— Beliefs ; Practical Devotions ; Transactions ; Moralities ; and Punishments.

#### **Section I**

##### **Beliefs**

Beliefs embrace the six articles of the Mohammadan faith, namely ; Belief in (a) God ; (b) His angels ; (c) His books ; (d) His prophets ; (e) The day of Resurrection ; (f) Predestination.

#### **Section II**

##### **Devotions**

Devotions are sub-divided into five articles of practice : (a) Recital of the Creed ; (b) Prayer to God ; (c) Paying legal alms ; (d) Fasting the month of Ramadan ; (e) Pilgrimage to the Temple of Mecca once in a lifetime, if means allow it.

Devotions also embrace legal warfare for the defence of the religion of Islam.

#### **Section III**

##### **Transactions**

Transactions include such duties as are required between man and man, and may be divided into three sub-divisions, namely :— Contests ; Nuptials ; and Securities. Almost all the various sections of civil jurisprudence relating to barter, sale, agency, larceny, marriage, divorce, dower, partnership, claims etc., are embraced under those three heads.

Islam does not compel a woman to remain within her house under all circumstances. It permits her to go out, whenever there arises any legitimate necessity for her to go out. It is certain, that she has to take permission, either express or implicit, from her husband. There are, however, occasions when the husband cannot deny his wife such a permission, as for example, when she intends to acquaint herself with the opinion of the learned on any matter affecting herself, or to visit her sick parents, etc.

As regards attending public prayers, there is nothing to prevent women from doing so under certain reservations, but it is preferable that they should pray at home. "It is more meritorious," said the Prophet, "that a woman should say her prayers in the courtyard of her house, rather than in the mosque; it is more meritorious that she should say her prayers within the house, rather than in the courtyard; and better still, in her closet, rather than in her house, and all this with a view to conceal her from public view."

I hope that I have succeeded in presenting the correct teaching in accordance with the Islamic laws, in regard to the question of female seclusion.

It can be emphatically asserted, that Islam never favours woman's seclusion in any extravagant form. Seclusion or the Islamic veil system is defined as throwing a wrapper over the body from head to foot, and it is clear, that in this sense, it is not incompatible with a woman's stepping beyond the threshold of the house, particularly when occasion demands, and when she obtains the consent of her husband or guardian. Certain restrictions have, doubtless, been imposed on the freedom of her movements, as we have shown above. But this is due as much to moral considerations as to the fact, which has been so often ignored, that woman's proper sphere of action and influence is her own house. Man, to go abroad with a view to earn a living for himself, his wife, and children,—and woman, free from such cares, to remain at home, in order to watch over the trust committed to her, and to discharge her own responsibilities, as a mother and a wife,—such is the Islamic conception of the relation between the two sexes.

influence of Islam was a blessing to the Arab race. It was Islam that awakened in the Arab mind respect for women, and a high sense of decency, and social decorum. It was only an extension of the laws of decency and social decorum, when too close intercourse between strangers and the Prophet's wives was forbidden, as we have seen in the verse of the veil. It is really to be much regretted, that the critics of Islam will not see all this, and should obstinately ascribe the framing of all these healthy rules, to motives of selfish jealousy.

There is one more verse, in the same chapter, to which reference may be made in this connection : "O Prophet, speak unto thy wives, and thy daughters, and the wives of the true believers, that they cast their outer garments over them (when they walk abroad) ; this (will be) more proper, that they may be known (to be matrons of reputation), and may not be affronted (by unseemly words or actions) God is gracious (and) merciful."

The purport of this verse is quite clear, and requires no elucidation. The wives of the Prophet, as well as the wives of the faithful, are permitted to go abroad, if necessary, — and they are required to cover themselves with large wrappers. The object of this qualification, as briefly indicated in the verse, may be best understood by a reference to the fact, that before the revelation of this verse, both the free women, as well as the slave women, used to go abroad, without any wrappers on, and with their heads bare ; and wicked men very often affronted them in the streets. If in the case of a free woman, any altercation ensued, these men were ready with their explanation that they took them for slave women. The free women were, therefore, commanded by this verse, to cover themselves with wrappers, when they walked out of doors, so that they might easily be distinguished from slave women, and thus be safe from the insolence of street-men. Nor was the wrapper, a mere mark of their social states— it was a mark of the chastity as well. For, by using large wrappers, and thereby covering the bodies, including the faces, which it is not at all obligatory to cover, they bore a silent, but strong testimony to their moral purity, and inspired awe, even in the tainted hearts of wicked people.

The Koranic verses are very clear on this point, and leave little room for doubt. Leaving aside the difference of interpretation, two facts stand out in bold relief :

- (1) That the object of the verses is to secure chastity of heart and mind, and purity of looks for man and woman.
- (2) That the verses actually forbid an unrestrained and promiscuous mingling of both sexes, and this in the interest of good morals and social well-being.



dattle and furniture. Free women, as well as slave women, freely walked in the open, with their heads bare, and often with scanty clothing. The houses were not large enough, and the rooms were narrow and few in number. In most cases, one and the same room served many different purposes. It is easy to see, therefore, that amid such conditions, it was very difficult to maintain privacy. Indeed violation of privacy, and even of decency, was an every day occurrence. It was to put a stop to such an undesirable state of things, that the following teachings were revealed

"O ye who believe, enter not into other houses than your own, until ye have asked leave, and have saluted the family thereof ; this is better for you . haply ye will bear this in mind

"And if ye find no one therein, then enter it not, till leave be given you; and if it be said unto you, 'Go ye back', then go ye back. This will be more pure for you, and God knoweth what ye do.

"There shall be no harm in your entering houses, in which no one dwelleth. God knoweth that which ye discover and that which ye conceal".

Commentators mention a significant tradition about a person who, after the revelation of these verses, inquired of the Prophet, if it were necessary for him to get permission even from his mother, before entering into her chamber, "Yes," said the Prophet. "But she has none to attend to her, except myself," put in the Arab inquirer. "Likest thou to see your mother naked ?" observed the Prophet. "Certainly not," replied the man. "Ask her permission then," said the Prophet emphatically.

Likewise, we find that, at certain times of the day, even domestics and children should not come into our presence without notice. Here are the instructions bearing on the occasion :

"O ye who believe, let your slaves and those of you who have not come of age, ask leave of you, three times a day, ere they come into your presence : before morning prayer, and when ye lay aside your garments at mid-day, and after the evening prayer. These are three times of privacy. No blame shall attach to you or to them, if after these times, when ye go your rounds of attendance on one another (they come in without permission). Thus doth God make clear to you His signs : and God is knowing, wise, And when your children come of age, let them ask leave to come into your presence, as they who were before them, asked it<sup>2</sup>."

Under such circumstances and conditions Arab society grew. The

---

(1) Koran . XXIV . 27-29.

(2) Koran . XXIV . 57-58.

wives of the Prophet should speak to these religious inquirers, as mothers would do to their sons.

The next verse, to which we would like to allude, is called the verse of the veil, and it occurs further on in the same chapter: "And when ye would ask any gift of his wives, ask it from behind a veil. Purer will this be for your hearts and for theirs".<sup>(1)</sup>

According to some commentators, strangers may approach the wives of the Prophet, and talk to them, if they are veiled; and presumably this applies to the generality of Moslem women as well. Aiming, as it does, at the purification of the heart, the verse only forbids too familiar an intercourse between strangers and the wives of the Prophet. It does not warrant the conclusion, that the Koran laws are responsible for the immurement of the fair sex.

There are other commentators, who follow a stricter interpretation of the verse, namely, that the wives of the Prophet were here commended, not to appear before strangers, even though they were veiled. Those who uphold this interpretation, are careful to limit the applications of the verse to the Prophet's wives only. "If any other Moslem woman appears before stranger, she commits no fault; but if she does not appear at all, it is better still".<sup>(2)</sup>

The occasion of this verse, in accordance with one version, also lends support to the view, that the verse was intended for the wives of the Prophet alone. Omar, who afterwards was elevated to the Caliphate, once happened to come upon the wives of the Prophet, who were still sitting in a mosque in company with many other women. Such a sight was not to Omar's liking, for he was always in favour of the seclusion of the Prophet's wives. He there and then exclaimed—"What a happy thing it would have been, if the 'mothers of the faithful'<sup>(3)</sup> had been under veils." In that case, thought he, their superiority would have been established over other women, much in the same way as the superiority of their noble husband is established over other men<sup>(4)</sup>.

In studying these verses, many forget to take into account the circumstances and conditions that prevailed in those times in Arab Society. A sort of chivalrous spirit doubtless existed; but it existed in Arab poetry, rather than in the actual life of the people. Women were no better than

---

(1) Koran, XXXIII 53.

(2) Zamakhshari's Commentary of The Koran.

(3) Thus were the wives of the Prophet termed in the Koran.

(4) Zamakhshari, p. 1141.

their sweet songs, or to the stories of their love and beauty, provided it is done with a pure heart ; but that it is never lawful for us, to cast glances at them, whether to lust or otherwise, and to listen to their voices, whether with a pure or an impure heart. We are forbidden to do an act, in the doing of which we are not treading upon sure ground. If the eyes are accustomed to look after strange women, there is a fear, lest this practice should, some time, lead to dangerous consequences. The Word of God, as revealed in the Holy Koran, therefore, restrains the carnal desires of man, and enjoins upon him, to avoid the occasions, where there is danger of the excitement of the evil passions.

We now advert to another passage in the Holy Book, where the 'mothers of the faithful' are thus addressed : "O Wives of the Prophet, ye are not as other women. If ye fear God, be not too complaisant of speech, lest the man of unhealthy heart should lust after you, but speak with discreet speech. And abide still in your houses, and go not in public, decked as was common in the days of ignorance, but observe prayer and give alms, and obey God and the Apostle : God but desireth to put away all impurity from you, O ye the household of the Prophet, and purify you thoroughly. And study what is rehearsed to you in your houses, of the Book of God, and of Wisdom : for God is keen-sighted and cognisant of all<sup>1</sup>."

The wives of the Prophet, who were destined to be patterns for all faithful women, are here given positive injunctions, to fear God, purify their hearts, observe prayer, give alms, obey the Prophet, and read constantly the Holy Koran,—in short, to lead a life of purity, devotion, and piety. In the sublimity of their thoughts, these noble women were not unmindful of the humbler duties of domestic life. The great lesson which their noble husband taught, was that woman's proper sphere is her house, and the claims of domestic duties should receive her first and best consideration. He set up an ideal before his wives, and through them, to all believing women : it was the ideal of plain living and high thinking.

It is to be remembered, that the wives of the Prophet were all accessible to religious inquiries. Ayesha was, as it were, the repository of the traditions, and was frequently consulted on matters of religion and ritual. Men came from distant parts of the country and straightway saw the wives of the Prophet, and all of these visitors were certainly not of blameless character. It was quite natural, that the wives of the Prophet should have received guidance with regard to general deportment and propriety of speech. By "discreet speech," in the above quoted verse, is meant that the

---

(1) Koran, XXXIII : 32-34

husband's fathers, or their sons, or their husband's sons, or their brothers, or their brothers' sons, or their sisters' sons, or their women, or their slaves, or male domestics who have no natural force, or to children who distinguish not women's nakedness. And let them not strike their feet together, so as to discover their hidden ornaments. And be ye all turned to God, O ye believers, that it may be well with you! "

The chief object of these verses is to secure greater purity of heart and increasing chastity of mind; and hence the believers are here reminded that God is well aware of what they do, and that it shall be well for them, if they constantly turn to Him. To attain this moral purity, the believing man is first directed to restrain his eyes and observe continence. Then the believing woman is likewise directed to cover her person and ornaments from public view, to restrain her eyes and observe continence. A Moslem woman is at liberty to go out of her house if necessary, after she has obtained permission from her husband or guardians. Only, she has to take good care to dress herself properly, so as to cover her person from head to foot, and to walk in the street with downcast eyes.

It is needless to point out, that the injunction with respect to looking down, is useless and uncalled for, if the women are never to walk abroad. Likewise the reference to external ornaments, too, becomes pointless, if women are to appear only before persons mentioned in the verses quoted above. It is allowable for a woman to uncover part of her face, fingers of her hands, soles of her feet, when she feels the necessity of going out. The rest of the body must be concealed before strangers, but before the persons enumerated in the verses, it is enough that the part from breast to knee remains covered.

It is clear then, that the verses quoted above deal with propriety of dress, and forbid women to flirt and coquet, in order to gain admirers. On the other hand, they enjoin upon the faithful women modesty of deportment, purity of heart, and fear of God.

It can be confidently asserted, that the excellent teachings upon chastity, together with the remedies for incontinence, as contained in the Holy Koran, are a peculiarity of Islam. One particular point deserves especial attention. The natural inclination of man is to sexual desire, over which he cannot have full control, except by undergoing a thorough transformation. The divine injunction in this respect is, therefore, not that we may look at strange women and their beauty and ornaments, or their gait and dancing, so long as we do it with pure looks, nor that it is lawful for us to listen to

---

(1) Koran : XXIV , 31.

husband ; no less so, as far as legal obligation goes, than slaves commonly so-called. She vows a lifelong obedience to him at the altar, and is held to it all through her life by law. Casuists may say that the obligation of obedience stops short of participation in crime, but it certainly extends to everything else. She can do no act whatever, but by his permission, at least, tacit. She can acquire no property, but for him ; the instant it becomes hers, even if by inheritance, it becomes *ipso facto* his. In this respect the wife's position under the Common Law of England is worse than that of slaves in the laws of many countries ; by the Roman Law, for example, a slave might have *peculium* which, to a certain extent, the law guaranteed him for his exclusive use<sup>1</sup>."

## 9. Female Seclusion

The Islamic laws regulating the social intercourse of the Moslems, have often given rise to needless criticism in Europe. In their enthusiasm for social liberty, the Western critics say, that these laws are degrading to Moslem women, and are responsible for the low state of morality among Moslems. However, the true fact is, that these laws, strict as they are, had for their very aim the preservation of good morals in society. Indeed, preservation of good morals—and not unrestricted freedom of social intercourse among men and women, such as is prevalent to-day in Christian Europe—is the intention of the Islamic laws. Female seclusion is misunderstood in many quarters in foreign countries, for the apparent reason that sanctions of religion and usage have not been kept apart, as they ought to have been, but have been grossly mixed one with another. Failing to distinguish between the two, our Western critics have fallen into the very serious fault of disseminating a false notion among their countrymen, that Islam is responsible for the seclusion of females, and for all the evils that flow therefrom.

I will dwell on the subject a little, and make an attempt to show whether the religion of Islam actually sanctions the seclusion of women, as is misunderstood by European critics.

The following verse occurs in the Koran, which touch on our present subject : "Speak unto the female believers that they restrain their eyes, and keep themselves from immodest actions ; and that they display not their charms and ornaments, except to their husbands or their fathers, or their

---

(1) *The Review of Religions*, May 1913. Evidently J. S. Mill wrote prior to the Married Women's Property Act of 1882.

forced his wife to enter into a "kholaa," the wife is entitled to get back the dowry, but the separation will be valid in law.

I have already made mention of the procedure known as "Tafriq," which legally means dissolution of the status of marriage by a judicial decree. I give here some of the causes, for which a wife can demand a divorce by authority of the Court. It must be remembered that, where the wife has the right to prefer a claim of "tafriq," the husband is entitled to no compensation, as he is so entitled in "kholaa." A divorce may be granted by the Court for:—

- (1) Habitual ill-treatment of the wife.
- (2) Non-fulfilment of the terms of the marriage contract.
- (3) Insanity. (4) Incurable incompetency.
- (5) Quitting the conjugal domicile without making provision for the wife.
- (6) Any other similar causes which in the opinion of the Court justify a divorce.

We have seen, then, the position of woman and her legal status in Islam.

To sum up, in the words of Syed Ameer Ali: "Her legal status is decidedly superior to that of European women. The social immunities she enjoys, allow the fullest exercise, on her part, of the powers and privileges which the law gives to her. She acts, *if sui-juris*, in all matters which relate to herself and to her own property, in her own individual right, without the intervention of husband or father. She appoints her own attorney, and delegates to him all the powers she herself possesses. She enters into valid contracts with her husband and her male relations, on a footing of equality. If she is ill-treated, she has the right to have the marriage tie dissolved. She is entitled to pledge the credit of her husband for the maintenance of herself and her children. She is able, even if holding a creed different to that of her husband, to claim the free and unfettered exercise of her own religious observances. . . Her ante-nuptial settlement is her own by absolute right, and she can deal with it according to her own will and pleasure. To become entitled to its enjoyment, she requires no intermediaries, trustees or next of kin. When she is aggrieved by her husband, she has the right to sue him in her individual capacity."

It is both interesting and instructive to compare this extract with another, from the writings of J.S. Mill, which gives us an idea of the corresponding position of women in Christianity: "We are continually told" says he, "that civilisation and Christianity have restored to woman her just rights. Meanwhile, the wife is the actual bond-servant of her

be able to observe the bounds set by God namely not to perform her functions as a wife. The Prophet here permitted the woman to release herself by returning to the husband the ante-nuptial settlement, as compensation for the release granted to her.

In the "kholaa" form, the basic principle of repudiation is, that the husband is lawfully entitled to compensation only when he is not at all responsible for the breach—neither wholly nor in part,—but when the wife is alone responsible, as in the tradition quoted above.

Moslem jurists are all agreed, that the compensation extorted from an innocent wife is unlawful. Compensation is absolutely unlawful for the husband, even when the wife happens to be partly responsible for the disagreement. The Moslem religion is the only one that can produce a set of laws which jealously protects the property and person of a wife against her "husband's cupidity and tyranny."

I now advert to a passage in the Koran which expressly forbids the husband to resort to cruelty or other violent means, with a view to compel a woman to enter into "kholaa" and to relinquish her dowry. "O believers, it is not allowed you to be heirs of your wives against their will; nor to imprison them<sup>1</sup>, in order to take from them a part of the dowry you gave them, unless they have been guilty of manifest crime; but associate kindly with them; for, if ye are estranged from them, haply ye are estranged from that, in which God hath placed abundant good. And if ye be desirous to exchange one wife for another, and have given one of them a talent, make no deduction from it. Would ye take it by slandering her, and with manifest wrong? How, moreover, could ye take it, when one of you hath gone in unto the other, and they (the wives) have received from you a strict bond of union<sup>2</sup>." It is impossible to think of a more appealing and forcible exhortation to a husband, to deal kindly with his wife, even if she happens to be a woman of unseemly manners. It is forbidden in the strongest terms, to lay hold on her property in the event of a separation.

Before these verses were revealed, brutal husbands used to maltreat their wives, and even to imprison and torture them until, unable to bear their sufferings, they were forced to relinquish the dowry settled upon them at marriage; and this property they used to endow their new wives with. This was expressly forbidden by the verses quoted above.

According to the Malikite Moslem School of law, -if a husband has

---

(1) Sometimes the phrase is translated, 'Do not hinder them from marrying others.'

(2) Koran, IV : 18.

The compensation is a matter of arrangement between the husband and wife. The wife may return the whole, or a portion of the dower, if it has been paid; or she may simply surrender her dower or other rights, such as the right to maintenance and lodging during the "iddat" period, or she may make any other agreement for the benefit of the husband such as for instance, to nurse their child during its two years of suckling, or to keep and maintain the child for a fixed period, at her own expense after having weaned it.

It should be remembered that the distinction between "talaq" and "kholaa" is real and not merely technical. If the cause of disagreement proceeds from the husband, or if he alone wishes for a "talaq," he must pay off the settlement debt to the wife. But, in case the proposal for a divorce emanates from the wife, because of her aversion to the husband, and her consequent failure to perform her duties as a wife, or if she alone wishes for a "kholaa," she has to surrender her dower or abandon some of her rights, as compensation. If the wife be so unfortunate as to be subject to abuse by a brutal husband who may wish her either to forfeit the whole of her dower, or live with him, she need not forfeit the whole of her dower. Let her only go to the Judge, prefer a complaint against her husband and demand a formal separation by the decree of the Court. If her allegations are true, the judge will call upon the husband to repudiate her. In case he refuses to do so, the judge himself pronounces a repudiation which will operate as a valid repudiation, and the husband will be liable for the whole of the deferred dower. This procedure is known as "tafriq," or legal separation, in the Mohammaden law, and is based on the words of the Prophet: "If a woman be prejudiced by a marriage, let it be broken off<sup>1</sup>."

The first "kholaa" case in Islam is quoted by Bukhari in the following words: The wife of Thabit-ibn-Qais came to the Prophet and said 'O Messenger of God, I am not angry with Thabit for his temper or religion; but I am afraid that something may happen to me contrary to Islam, on which account I wish to be separated from him'. The Prophet said: "Will you give back to Thabit the garden which he gave to you as your settlement?" She said, 'Yes': Then the Prophet said to Thabit, "Take your garden and divorce her at once<sup>2</sup>."

This tradition clearly tells us that Thabit was blameless, and that the proposal for separation emanated from the wife who feared she would not

---

(1) Bukhari's Commentary

(2) Bukhary is the greatest commentary of Mohammaden orthodox traditions



It is to be remembered that the abuses, likely to arise from the laxity of the laws, may conveniently be counteracted by other lawful impositions. The wife or her guardian, for instance, may stipulate, at the time of marriage, against the arbitrary exercise of the power of divorce by the husband. The right of dissolution of the contract may be stipulated to be with the wife, instead of with the husband, if necessary. The same object may also be achieved indirectly, by fixing the dower at a large sum, beyond the means of the husband to liquidate. The wife may also, by stipulation, reserve to herself the power of dissolving the marriage under certain legitimate circumstances, for example, if the husband marries a second wife.

In the event of a divorce, the Islamic laws are very particular in providing for the protection of the wife's property against the advance of the husband. If the divorce is due to a cause imputable to the husband, he has to make over to her all her property, and pay off the dower that had been settled upon her. If, however, the divorce has been resorted to at the instance of the wife, without any justifiable cause, she has simply to abandon her claim to the dower. "The wife thus occupies," observes Syed Ameer Ali, "a decidedly more advantageous position than the husband."

### 8. "Kholaa" Divorce

Kholaa divorce is defined thus: When married parties disagree and are apprehensive that they cannot observe the bounds prescribed by the divine laws,—that is, cannot perform the duties imposed on them by the conjugal relationship,—the woman can release herself from the tie, by giving up some property in return, in consideration of which the husband is to give her a "Kholaa," and when they have done this, an irreversible divorce would take place."

"Kholaa" is therefore a repudiation with consent, and at the instance of the wife, in which she agrees to give a consideration to the husband for her release from the marriage tie. But if the wife fails to pay the compensation, there is yet another means to dissolve the marriage, namely, "Mubarat," according to which no compensation has to be paid, and a complete separation is effected, merely by mutual consent of the parties. If, however, the husband gives a "Kholaa" to his wife *without* any compensation, the respective claims of husband and wife are not cancelled forthwith, and they are quite competent to sue each other for the payment of any debts which may be due.

and does not exercise the right of return on the repudiated wife, he loses the power of recantation at the expiration of the term, and complete cessation of the marital rights and duties takes place, a fresh marriage being necessary for the parties to re-unite<sup>1</sup>.

It is obvious, that the very spirit of the prescribed traditional form of repudiation is towards a revocation of the divorce and a reconciliation between the parties concerned. If, however, the parties fail to take advantage of the prescribed interim, and are determined to break from each other, the husband may pronounce the repudiation for the third time and thus dissolve the marriage definitely. The divorced wife is forthwith rendered unlawful to him, and he cannot remarry her, unless the wife marries first another person by a valid and binding contract, is divorced by this person, after a bona fide consummation of marriage, and completes the period of 'iddat' consequent upon such repudiation<sup>2</sup>.

This severe condition, has been the subject of much comment by the critics ; but they forget that the very existence of such a condition demonstrates most strongly that the principles of Islam are entirely opposed to the alleged facility of divorce. The object of laying down such a rule, was to prevent a definite dissolution of marriage, by appealing to the sense of honour of the people.

\*Sautayra and Sedillot agree with the Mohammadan Jurists, in thinking that this rule was framed with the object of restraining the frequency of divorce in Arabia. Sedillot speaks of the condition as a 'very wise one,' as it rendered separation more rare, by imposing a check on its frequent practice among the Hebrews and the Heathen Arabs of the Peninsula. Sautayra says that the check was intended to control a jealous, sensitive, but half cultured race, by appealing to their sense of honour<sup>3</sup>."

Sir W. Muir erroneously thinks that Islam positively sanctions the hiring of a temporary husband, to legalise re-marriage with a thrice-divorced wife<sup>4</sup>. The idea of getting the divorced wife married to a third person, on an express understanding that he would divorce her in favour of her former husband, was condemned by the Prophet in the most emphatic terms.

In the other form of divorce, three repudiations are pronounced in the period of purity, either on one occasion or on three separate occasions. This divorce is valid, but is an act of sin. This form of divorce is called "Talaq Bid-ā," i.e. not in conformity with pious practice.

---

(1) Koran, II . 232.

(2) Koran, chap. II . 230.

(3) Personal Law of the Mohammadans, p. 335.

(4) Sir. Wm. Muir's 'Life of Mahomet,' vol. III. p. 349.

(c) The husband must abstain from connubial intercourse with his wife after pronouncing repudiation for the period of three months <sup>1</sup>."

There is a tradition of accepted authenticity that throws considerable light on the wisdom underlying the last two restrictions. Abdullah ibn-Omar divorced his wife while she was in her menses; and the matter was reported to the Prophet who, much exasperated at the levity of his conduct, said: "Let him take her back and retain her, till she be pure and again have her courses and again gets pure. Then, if he thinks it prudent, let him divorce her, but he should do so when she is clean and has not been approached, and this is the period of retirement (*iddat*) which God has ordered for divorce."

Some learned commentators observe in connection with this tradition that the purpose of this condition is, to avoid a rash and hasty procedure on the part of the husband, through aversion arising from the wife's impurity, and, by fixing a long period of abstinence, to give him opportunities to reconsider his decision about the divorce, so that perchance he may repent, and exercise the right of return before the expiry of the term.

During this period of probation, the marriage subsists between the parties, and the husband retains his marital authority over his wife. He may, therefore, have access to the wife even without her permission, and can treat her as his wife, but this would actually amount to his exercising the right of return. During '*iddat*,' the husband is under legal obligation to lodge the wife in his house, though in a separate apartment, and maintain her. The laws of the Koran are quite clear on this point. "O Prophet, when ye divorce women, divorce them at their appointed time, and compute the term exactly, and fear God your Lord. Oblige them not to go out of their apartments, nor allow them to depart, unless they be guilty of manifest uncleanness <sup>2</sup>."

"House the divorced, as ye house yourselves, according to your means, and distress them not, by reducing them to straits. And if they are pregnant, then be at charges for them, till they are delivered of their burden; and if they suckle your children, then pay them their hire; and consult among yourselves, and act generously <sup>3</sup>."

If, the husband has pronounced one, or even two repudiations, and if within the prescribed period, he abstains from intercourse with his wife,

---

(1) These three months constitute the '*iddat*' period which is obligatory on such wives with whom the marriage has been consummated. "The women who are divorced shall wait concerning themselves until they have their courses thrice" Koran. II 228.

(2) Koran, ch. LXV - 1.

(3) *ibid* 6.

your wives, and then either retain them with humanity, or dismiss them with kindness<sup>1</sup>." "When ye divorce women, and the time for sending them is come, either retain them with generosity, or put them away with generosity; but retain them not by constraint so as to be unjust towards them. He who doth so, indeed injures himself<sup>2</sup>."

## 7. The Form of Separation—A Check on Separation

The Holy Prophet imposed certain such conditions on the exercise of the power of divorce that while, on the one hand, they served as a powerful check on the injudicious and arbitrary use of this power, they afforded, on the other hand, many opportunities to the parties for an amicable agreement, if they so desired. Of the several forms of divorce recognised by Islamic law, the one that bears the impress of the Holy Prophet's sanction and approval is the "Ahsan" type of "Talaq<sup>3</sup>." This form of repudiation involves the following conditions, each of which being intended to prevent a permanent breach :

(a) The husband, in the first place, must pronounce only one repudiation, the object of this limitation being, that he may subsequently, when better sense prevails, revoke the repudiation — if he has pronounced it from caprice or in a moment of excitement—within the period of the wife's retirement consequent upon that repudiation and that, he may re-marry her, if the period expires without the right of return having been exercised by the husband<sup>4</sup>.

(b) The repudiation must be pronounced when the wife is in a state of purity, and there is no bar to sexual intercourse, it being declared unlawful to pronounce repudiation when the wife is in menses, or when she is pure, but has already been approached<sup>5</sup>."

---

### Again

"Men used to divorce their wives, and take them back, not because they intended to retain them, but because they wanted to tease their wives by putting off the divorce indefinitely, so God revealed the verse Retain them not by constraint etc."

(Malik's Mowatta).

(1) Koran, ch. II : 229.

(2) Koran, ch. II : 231

(3) Ehyaa-el-Uloom, by Ghazali.

(4) Fatawi Muughiri

(5) Ehyaa-el-Uloom, by Ghazali.

their part, may perhaps do away with the difference. I give below some of the verses of the Holy Koran, and the reader will see how they ask us to make allowance for the frailties, to which our human nature is prone, and in what manner a reconciliation is recommended. It is impossible to read the verses without being impressed with their appealing tone and graceful simplicity. "And if a woman," so runs the fine verse, "fear ill-usage or aversion, on the part of her husband, it shall be no fault in them, if they can agree with mutual agreement, for agreement is best<sup>1</sup>. Souls are prone to avarice<sup>2</sup>, but if ye act kindly and fear God, then verily your actions are not unnoticed by God. And ye will not have it at all in your power to treat your wives alike, even though you fain would do so; but yield not wholly to disinclination, so that ye leave one of them, as it were, in suspense; but if ye come to an understanding, and fear God, verily God is forgiving and merciful; but if they separate, God can compensate both out of His abundance, for God is vast and wise<sup>3</sup>."

We have seen, then, that divorce is permissible in Islam only in cases of extreme emergency. When all efforts for effecting a reconciliation have failed, the parties may proceed to a dissolution of the marriage by "Talaq" or by "Kholaa<sup>4</sup>," When the proposal of divorce proceeds from the husband, it is called "Talaq," and when it takes effect at the instance of the wife it is called "Kholaa."

Under many systems of law, divorce was certainly permitted, but it could not be revoked. But the Islam legislator, while he permitted divorce, recognised under certain circumstances, the right of return in the husband. This privilege, in the infancy of Islam, was indefinitely exercised, and often abused to the detriment of women, until the Prophet received revelations, setting limits to the act of divorce, and forbidding wanton cruelty to wives, by keeping them in suspense for an indefinite period<sup>5</sup>. "You may divorce

(1) To wit, agreement is better than separation, better than ill-usage and better than aversion. (Razi Commentary.)

(2) "Avarice" here implies whatever is an impediment to reconciliation. On the part of the wife it takes the form of an uncompromising attitude and a tenacious insistence on her rights which may prevent a meeting half-way and as applied to the husband, it means unwillingness to associate with the wife for ugliness of her features or old age, or other like causes. (Razi Commentary.)

(3) Koran, IV, 127-129.

(4) There is a third way, also called "Mubarat," which is divorce by mutual consent.

(5) "A man divorced his wife, took her back, when the period of retirement was coming to an end, again divorced her, saying—By God, I will neither accept thee, nor allow thee freedom to marry another. So God revealed the verse, "You may divorce your wives etc." (Malik's Mowattaa.)

The drift and tone of the verses quoted above, point to the desirability of exercising the power of correction in three degrees. He may begin with a reprimand, if her conduct calls for such. Then, if she still remains rebellious, he may banish her from his bed for a few days. If this also proves unavailing, he may next beat his wife, but not so as to cause her permanent injury, for he is not allowed to use violence, even under extreme provocation<sup>1</sup>. In the event of the failure of all these expedients, divorce need not follow, but a resort to arbitrators is advised, each party being represented by a member of his or her family. The arbitrators after hearing both sides, shall endeavour by all possible means, to bring about a reconciliation. If their efforts prove unsuccessful, they may grant a repudiation, when empowered by both parties to do so.

The Holy Prophet, who no doubt understood the import of the Koranic verses better than anybody else is reported on good authority to have said: "Feed thy wife as thou feedest thyself, clothe her as thou clothest thyself, strike her not on her face, separate not from her, except within the house, but if she persists in her refractoriness . . . begin with admonitions, and awaken in her the fear of God the Most High, if she does not submit, banish her from thy bed, and converse not with her for three days, if she still refuses to mend her manners, beat her but not so as to leave any mark on her person, as would be the case if a rod were used: for the object is to correct her, and not to destroy her. Should this course fail to mend matters, let the case be referred to two Moslem arbitrators, free and just, one chosen from the family of each of the parties; and they shall see whether in that particular case reconciliation or separation is desirable; and their decision shall be binding upon them both<sup>2</sup>."

When, however, the cause of disagreement proceeds from the husband, the wife is certainly not given the power of correction, but then, she is empowered by the Islamic law to obtain a divorce, if she so desires. Before the advent of Islam, neither the Jews nor the Arabs recognised the right of divorce for women and it was the Holy Koran that, for the first time in the history of Arabia, gave this great privilege to women. And, at the same time, it must be remembered, the spirit of the Koran is opposed to an indiscriminate exercise of this privilege. The Prophet warned women, not to play the hypocrite, and men are advised in the most emphatic terms, to refrain from seeking a breach, where a little moderation on

---

(1) "The Mohammedan Law," stated the Lord of the Privy Council, on a question of what is legal cruelty between man and wife, "would probably not differ materially from our own" (Abdul Kader 1886.)

(2) "Ghunyat el Talibeen ch: Manners of Marriage."

prevention of divorce, and that everywhere a reconciliation is recommended in the most appealing terms. Before the parties proceed to the extremity of divorce for unavoidable reasons, it is expressly laid down, that all lawful means be adopted for avoiding a breach, and it is only in the event of their failure that a separation is permitted, of course, as a last recourse. Under such extreme circumstances, divorce is not merely permissible, but has been held quite expedient, and recourse to it is recommended, in spite of deterrents, like poverty. It is believed, God Himself opens out many a way for those whose intentions are honest: "And if they separate, God will make them richer out of his abundance, for God is extensive and wise<sup>1</sup>." It is interesting to note that very nearly the same idea is expressed in the Koran where those who are single are exhorted to marry. "Marry those who are single among you, and such as are honest of your men-servants and your maid servants, if they be poor, God will enrich them of His abundance<sup>2</sup>." It follows, then, that according to the Islamic laws, divorce, under certain circumstances, is as necessary as marriage.

The directions of the Koran in respect of the adoption of the courses that tend to make reconciliation possible, are as explicit as they are full of wisdom. Thus, in the chapter on women, we read:—

"Virtuous women are obedient, careful during the husband's absence, because God hath of them been careful. But those, for whose refractoriness ye have cause to fear, chide; remove them into beds apart; and chastise them, but if they are obedient to you, then seek not occasion against them: verily God is high and great. And if ye fear a breach between husband and wife, send a judge out of his family, and a judge out of her family if they are desirous of agreement, God will effect a reconciliation between them, for God is knowing and apprised of all<sup>3</sup>."

If a woman is chaste and mindful of her duties as wife the Islamic law makes it obligatory upon the husband to associate with her on the best of terms, and with kindness and courtesy. But, if she proves refractory in her behaviour, the law confers on the husband the power of correction if exercised in moderation<sup>4</sup>.

---

(1) Koran, IV : 129.

(2) Koran, XXIV : 32.

(3) Koran, IV : 33, 34.

(4) The law of England similarly vested in the husband the right of chastising his wife for evity of conduct, "and the husband in quite recent times, was allowed to restrain her personal liberty, but his right so to do was first expressly negatived by decision of the Court of Appeal in the year 1891." Holland's Jurisprudence, page 240.

live together in peace and harmony. It avoids, therefore, greater evil by choosing the lesser one, and opens a way for the parties to seek agreeable companions and, thus, to accommodate themselves more comfortably in their new homes.

For, under Islam, a divorced woman, like the husband who divorces her, acquires the right of marrying any person she or he likes, the moment the separation is recognised by the law<sup>1</sup>.

Fully recognising the evils that arise from divorce, the Prophet of Islam took very cautious steps in framing the laws; and the ruling idea seems to be, that divorce should be permitted only when marriage fails in its effects, and the parties cease to fulfil the duties that spring from the marriage relation. There is in fact no justification for permanently yoking together two hostile souls, who might make themselves quite comfortable in new homes, if they were permitted to effect a separation. To compel them to live together "in pursuance of a most vexatious law under a yoke of the heaviest slavery,—for such is marriage without love—would indeed be a hardship more cruel than any divorce whatever. God, therefore, gave laws of divorce, in their proper use, most equitable and humane<sup>2</sup>." For, most appalling consequences sometimes follow, unless divorce is permitted where it is desirable. Justinian the great Roman emperor, had to repeal the prohibition of his predecessor on divorce by mutual consent, despite the opposition of the clergy, and the ground stated by the enactment was, that it was difficult "to reconcile those who once came to hate each other and who, if compelled to live together, frequently attempted each other's lives." "He yielded" writes Gibbon, "to the prayers of his unhappy subjects, and restored the liberty of divorce by mutual consent, the civilians were unanimous, the theologians were divided, and the ambiguous word<sup>3</sup> which contains the precepts of Christ, is flexible to any interpretation that the wisdom of a legislature can demand."

## 6. Islam's Suggestions for Reconciliation

A careful study of the laws of the Koran which relate to marriage and divorce, will show that the spirit of the verses unmistakably points to a

---

(1) With Christians the case is not so : Whosoever shall put away his wife, saving for the cause of fornication, causeth her to commit adultery, and whosoever shall marry her that is divorced committeth adultery." Matt. v : 32.

(2) A Treatise on Christian Doctrine by J. Milton.

(3) St. Matt. v. 32.



revoke the divorce and again divorce her, and again take her back, to divorce her again, and so on indefinitely. Sometimes, again, she was divorced, but she was not free to marry. Women under such circumstances, were in a perpetual state of suspense, as it were. At last, the Prophet, the Mercy for the Universe, came. He declared divorce to be 'the most disliked of lawful things in the sight of God'. He was indeed never tired of expressing his abhorrence of divorce. Once he said: 'God created not anything on the face of the earth which He loveth more than the act of manumission, nor did He create anything on the face of the earth which He detesteth more than the act of divorce.' On another occasion he said. 'Forbidden is the fragrance of paradise to her who demands divorce from her husband without unavoidable reasons'. Nor is this all. The Prophet actually imposed many conditions on the exercise of the power of divorce, and so vehemently did he protect the women against the tyranny of their husbands, that there soon grew up a general feeling among the women of the time, that the Prophet would defend their cause, whether it be just or unjust, and that his decision would be invariably in their favour. His defence of the cause of women, and of orphans and of children, had in fact passed into a byword.

In the Holy Koran, there is a most edifying verse which is generally overlooked. "Associate with the wives," so runs the verse, "with goodness; and if ye dislike them, it may be that ye dislike a thing and God may put abundant good in it<sup>1</sup>." Thus the Koran enjoins forbearance, even with a wife one does not like. One really wonders at the boldness of the critics who say that the law of Islam permits divorce "even on the slightest disgust."

Many and various are the sayings of the Prophet of Islam that teach love, untiring patience, forgiving disposition and, above all, fear of God in the treatment of women. "The man who bears with the ill manners of his wife," said the Prophet, "shall receive from God rewards equivalent to what the Lord gave unto Job, when he suffered his affliction. And to the woman who bears with the ill manners of her husband, God granteth rewards equivalent to what He granted to Assiyah, the wife of Pharaoh."

The great Moslem commentator, Al Qhazali, observes that divorce is allowable when the object is not to trouble the wife by divorcing her without just grounds, as refractory or unseemly behaviour on her part, or extreme necessity on the part of the husband.

It is clear, then, that Islam discourages divorce in principle, and permits it only when it has become altogether impossible for the parties, to

---

(1) Koran.

divorce is allowed to a husband and to a wife,—it being necessary to prove infidelity in both cases, but a wife being compelled to show either an aggravation of that offence or an addition to it. Opinions probably will always differ whether the two sexes should be placed on an equality in this respect, abstract justice being invoked, and the idea of marriage as a mere contract, pointing in one direction, and social considerations in the other. But the reason of the legislature for making the distinction, is clear. It is that the wife is entitled to an absolute divorce only if her reconciliation with her husband is neither to be expected nor desired. This was no doubt the view taken by the House of Lords<sup>1</sup>.

### 5. Limitations of Divorce

A Moslem is not free to exercise the right of divorce "on the slightest disgust." The law has put many limitations upon the exercise of this power. Then, again, the example and precepts of the Prophet in this particular, have rendered divorce, most repellent to the Moslem mind. A Moslem is permitted to have recourse to divorce, provided there be ample justification for such an extreme measure. The whole Koran expressly forbids a man to seek pretexts for divorcing his wife, so long as she remains faithful and obedient to him, "If they (namely, women) obey you, then do not seek a way against them<sup>2</sup>." The law gives to the man primarily the faculty of dissolving the marriage, if the wife, by her indolence or her bad character, renders the married life unhappy; but in the absence of serious reasons, no Moslem can justify a divorce, either in the eyes of religion or the law. If he abandons his wife or puts her away from simple caprice, he draws upon himself the divine anger, for 'the curse of God' said the Prophet, 'rests on him who repudiates his wife capriciously.'

Intrinsically, divorce is an evil, and must be regarded as such, wherever there is the least respect for the law of God and the precepts of the Prophet. The pagan Arab, before the time of the Prophet, was absolutely free to repudiate his wife or wives, whenever it suited his whim or purpose. He was not bound to offer any reasons for the exercise of the power of divorce. The mere expression of his will was enough to effect a separation. The wife was a mere plaything. Sometimes the husband would

---

(1) The Review of Religion, April, 1913.

(2) Koran. IV : 34. Obedience here signifies obedience to man only in matters recommended by the law of God. This significance is made clear by a comparison with Koran, 33 : 31, 33 : 35 and 66 : 5. This verse Al Ghazali holds to mean "Seek not a pretext for separation."

The great majority of the girls being quite innocent of the nature of the contract, it is therefore necessary that the guardian of the girl should intervene and protect her from being duped by interested persons, or from the evil consequences likely to flow from the choice of the girl, when injudicious or against her own interest.

#### 4. The Inequality of the Two Sexes with regard to Divorce

Marriage being regarded as a civil contract and as such not indissoluble, the Islamic law naturally recognises the right in both the parties, to dissolve the contract under certain given circumstances. Divorce, then, is a natural corollary to the conception of marriage as a contract, and it is regrettable that it should have furnished European critics a handle for attack. Even Sale, that eminent scholar, has fallen into the same error, for he too seems to entertain the view, that the Islamic law permits a man to repudiate his wife "even on the slightest disgust<sup>1</sup>." Whether the law permits, or favours, repudiation on the slightest disgust, we shall presently see. But as to the other point raised by the same learned critic, namely; the inequality of the two sexes in regard to the right of obtaining a divorce, one has to remember that this inequality is more seeming than real. The theory of marriage, no doubt, points to a subordination of the wife to her husband, because of her comparative inferiority in discretionary powers; but in practice the hands of the husbands are fettered in more ways than one. The theoretical discretion must not be understood as giving a tacit sanction to the excesses of a brutal husband; on the other hand it is intended to guard against the possible dangers of an imperfect judgment. The relations between the members of the opposite sexes which marriage legalises are, however, so subtle and delicate, and require such constant adjustment, involving the fate and well-being of the future generations, that in their regulation the law considers it expedient to allow the voice of one partner, more or less, predominance over that of the other<sup>2</sup>.

Perhaps it is here worthy of notice that in Europe the two sexes are not placed on an equal footing in respect of the right of divorce. Lord Helier, P.C., K.C.B., who was President of the Probate, Divorce and Admiralty Division of the High Court of Justice, 1892-1905, observes on this point: "Much comment has been made on the different grounds, on which

---

(1) O. Sale's Prelim. Disc. to his translation of the Koran. Sec. vi.

(2) Mohammadan Jurisprudence, page 327.

### 3. The Guardian and the Consent of the Bride

Though the Islamic Laws recognise the consent of a woman as an indispensable element of a valid marriage, they recommend that the consent of her guardian be also taken. Moslem jurists are, no doubt, divided in their opinions, as to whether the consent of the bride's guardian is essential, but they all agree in holding that 'a woman who is sui-juris can under no circumstances be married without her own express consent.' According to the Hanafi Islamic School of Law, the capacity of a woman who is adult and of sound mind, to contract herself in marriage, is absolute. The same school explicitly lays down that 'a woman who is adult and of sound mind may be married by virtue of her own consent, although the contract may not have been made or acceded to by her guardian, and this whether she be a virgin, or a 'Thayyiba'.' On the same principle, the marriage of an adult woman under compulsion, has been held to be invalid. It is related on good authority, that an adult woman who was married by her father to a man against her will, came and spoke about it to the Prophet who declared the marriage void. According to the Hanafi School also, the marriage of a minor under compulsion of her father or grand-father, holds good, on the assumption that a marriage thus contracted is, *prima facie*, in the best interests of the child, and therefore she cannot cancel the contract of marriage when she arrives at her full age, unless there be good grounds for such a step. If, however she was given in marriage by a guardian, other than her father or grand-father, she can exercise, if she like, 'the option of puberty,' and ask the Court to set aside the marriage.

It is clear, then, that under the Hanafi School of law, a marriage can be contracted with or without a guardian, provided the girl is adult and has given her consent to the contract.

The Shafi and the Maleki Schools of law, on the other hand, maintain that a maiden cannot personally consent to her marriage. According to them, the Wali's (the guardian's) consent, in the case of a maiden, is one of the essential factors of marriage, though not in the case of a *thayyiba*. The distinction seems to have been derived from the idea that a *thayyiba*'s judgment is naturally more reliable than a virgin's, and that she is expected to understand better the nature of the marriage contract. In support of their view they refer to the tradition, related by Ayesha, that the Prophet said that the contract of marriage is absolutely void, if a woman enters into such without the consent of her guardian.

---

(1) Namely, a girl who is not a virgin, a widow or a divorced woman.

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### حكم الشرع في المخدرات

لمهرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير مفتي الديار المصرية

طلب سعادة مدير مكتب المخدرات من حضرة صاحب الفضيلة مفتي الديار المصرية بيان حكم لشرع في المواد المخدرة، واشتمل السؤال على المسائل الآتية :

- (١) تعاطى المواد المخدرة (٢) الاتجار بالمواد المخدرة واتخاذها وسيلة للربح التجاري
  - (٣) زراعة الخشعاش والخشيش بقصد البيع أو استخراج المادة المخدرة منهما للتعاطى أو للتجارة (٤) الرغ الناجم من هذا السيليل أهو ربح حلال أم حرام ؟
- وقد أجاب فضيلته بما يأتي :

#### (١) تعاطى للمواد المخدرة :

إنه لا يشك شاك ولا يرتاب مرتاب في أن تعاطى هذه المواد حرام ، لأنها تؤدي الى مضار جسيمة ومفاسد كثيرة ، فهي تقصد العقل ، وتفكك البدن ، الى غير ذلك من المصار والمفاسد ، فلا يمكن أن تأذن الشريعة تعاطيها مع تحرعها لما هو أقل منها مفسدة وأخف ضررا . ولذلك قال بعض علماء الحنفية . « إن من قال بحل الخشيش زنديق مبتدع » ، وهذا منه دلالة على ظهور حرمتها ووضوحها . ولأنه لما كان الكثير من هذه المواد يخامر العقل ويغطيه ويحدث من الطرب واللذة عند تناولها ما يدعوهم الى تعاطيها والمداومة عليها ، كانت داخلة فيما حرمه الله تعالى في كتابه العزيز وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم من الخمر والمسكر . قال شيخ الاسلام ابن تيمية في كتابه السياسة الشرعية ما خلاصته : « إن الخشيشة حرام يحذ متناولها كما يحذ شارب الخمر ، وهي أحبت من الخمر من جهة أنها تقصد العقل والمزاج حتى يصير في الرجل تخم وديانة وغير ذلك من الفساد ، وأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهي داخلة فيما حرمه الله ورسوله من الخمر والمسكر لفظا أو معنى . قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : يا رسول الله أفنتنا في شرابين كنا نصنعهما باليمن : البشع وهو المسل ينبذ حتى يشتد ، والمزر وهو من الذرة والشعير ينبذ حتى يشتد . قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أعطى جوامع الكلم مخواتمه فقال : « كل مسكر حرام » . رواه البخاري ومسلم .

وعن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من الخنطة خمرًا ، ومن الشمير خمرًا ، ومن الزبيب خمرًا ، ومن التمر خمرًا ، ومن العسل خمرًا ، وأنا أنهى عن كل مسكر » . رواه أبو داود وغيره . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام » . وفى رواية « كل مسكر خمر ، وكل خمر حرام » . رواها مسلم . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مسكر حرام ، وما أسكر الفَرْق منه فله الكف منه حرام » . قال الترمذى حديث حسن . ( والمرق مكيل يسع ستة عشر رطلا . والمعنى ما أسكر كثيره فقليله حرام ) . وروى أهل السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه أنه قال : « ما أسكر كثيره فقليله حرام » . وصححه الحفاظ . وعن حابر رضى الله عنه أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن شراب يشربونه بأرضهم من القرية يقال له المرز ، قال : « مسكر هو ؟ » قال : نعم ، فقال : « كل مسكر حرام ، إن على الله عهدا لم يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال » ، قالوا : يا رسول الله وما طينة الخبال ؟ قال عرق أهل النار أو عصارة أهل النار » . رواه مسلم . وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم : « كل مخمر وكل مسكر حرام » . رواه أبو داود ( والمخمر ما يغلى العقل ) . والأحاديث فى هذا الباب كثيرة مستفيضة ، جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أوتيته من جوامع الكلم كل ما غطى العقل وأسكر ، ولم يفرق بين نوع ونوع ، ولا تأثير لكونه مأكولا أو مشروبا . على أن الخمر قد يصطبغ بها ، أى تجعل إداما ، وهذه الحشيشة قد تذاب بالماء وتشرب ، فالخمر يشرب ويؤكل ، والحشيشة تؤكل وتشرب ، وكل ذلك حرام . وحدوثها بعد عصر النبي صلى الله عليه وسلم والأئمة لا يمنع من دخولها فى عموم كلام رسول الله عن المسكر ، فقد حدثت أشربة مسكرة بعد النبي صلى الله عليه وسلم وكلها داخلة فى الكلم الجوامع من الكتاب والسنة . انتهت خلاصة كلام ابن تيمية . وقد تكلم رحمه الله عنها أيضا غير مرة فى فتاواه ، فقال ما خلاصته : « هذه الحشيشة الملعونة هى وآكلوها ومستحلوها ، الموجبة لسخط الله تعالى وسخط رسوله وسخط عباده المؤمنين ، المعرضة صاحبها لعقوبة الله ، تشتمل على صرر فى دين المرء وعقله وحلقه ولبه ، وتقصد الأضرار حتى جعلت خلقا كثيرا مجانين ، وتورث من مهانة آكلها ودنائة نفسه وغير ذلك مالا تورث الخمر ، ففيها من المفاسد ما ليس فى الخمر ، فهمى بالتحريم أولى ، وقد أجمع المسلمون على أن السكر منها حرام ، ومن استحل ذلك وزعم أنه حلال فإنه يستتاب ، فإن تاب ولا يقتل مرتدا لا يصلى عليه ولا يدفن فى مقابر المسلمين . وإن القليل منها حرام أيضا بالصوم الدالة على تحريم الخمر وتحريم كل مسكر » اهـ .

وقد تبعه تلميذه الامام المحقق ابن القيم رحمه الله فقال فى زاد المعاد ما خلاصته :

« إن الخمر يدخل فيها كل مسكر، ما أكل أو شرب أو جامدا، عصيرا أو مطبوخا، فيدخل فيها لقمة الفسق والفجور — ويعنى بها الخشيشة — لأن هذا كله خمر بنص رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيح الصريح الذي لا مطعن في سنده ولا إجمال في متنه، إذ صرح عنه قوله: «كل مسكر خمر»، وصح عن أصحابه رضي الله عنهم الذين هم أعلم الأمة بخطابه ومراده بأن الخمر ما خامر العقل. على أنه لو لم يتناول لفظه صلى الله عليه وسلم كل مسكر لكان القياس الصحيح الصريح الذي استوى فيه الأصل والفرع من كل وجهة حاكما بالتسوية بين أنواع المسكر، فالتفريق بين نوع ونوع تفريق بين متماثلين من جميع الوجوه » اهـ.

وقال صاحب سبيل السلام شرح بلوغ المرام: «إنه يحرم ما أسكر من أي شيء وإن لم يكن مشروبا كالخشيشة». ونقل عن الحافظ ابن حجر «أن من قال إن الخشيشة لا تسكر وإنما هي مخدر، مكابر، فإنها تحدث ما تحدثه الخمر من الطرب والنشوة». ونقل عن ابن البيطار من الأطباء «أن الخشيشة التي توجد في مصر مسكرة جدا إذا تناول الإنسان منها قدر درهم أو درهين، وقبائح خصلها كثيرة، وعدة منها بعض العلماء مائة وعشرين مضرة دينية ودنيوية، وقبائح خصلها موجودة في الأفيون، وفيه زيادة مضار» اهـ.

وما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وغيرهما من العلماء هو الحق الذي يسوق إليه الدليل وتطعن به النفس. وإذا قد تبين أن المصوم من الكتاب والسنة يتناول الخشيش، فهي تتناول أيضا الأفيون الذي يتنعم به العلماء، أنه أكثر ضررا، ويرتب عليه من المفاسد ما يزيد على مفاسد الخشيش كما سبق عن ابن البيطار، وتتناول أيضا سائر المخدرات التي حدثت ولم تكن معروفة من قبل، إذ هي كالخمر من لعنبت مثلا في أنها تخامر العقل وتغويه، وفيها ما في هذه الخمر من مفاسد ومضار، وتزيد عليها بمفاسد أخرى كما في الخشيش، بل أقطع وأعظم كما هو مشاهد ومعلوم ضرورة. ولا يمكن أن تبيح الشريعة الإسلامية شيئا من هذه المخدرات، ومن قال بحل شيء منها فهو من الذين يفترون على الله الكذب أو يقولون على الله ما لا يعلمون. وقد سبق أن قلنا إن بعض علماء الحنفية قال «إن من قال بحل الخشيشة زنديق مبتدع»، وإذا كان من يقول بحل الخشيشة زنديقا مبتدعا، فالقائل بحل شيء من هذه المخدرات الحادثة التي هي أكثر ضررا وأكبر فسادا زنديق مبتدع أيضا، بل أولى بأن يكون كذلك. وكيف تبيح الشريعة الإسلامية شيئا من هذه المخدرات التي يفسد ضررها بالدمج بأفراد وجماعات ماديا ومحميا وأديبا كما جاء في السؤال، مع أن مبقى الشريعة الإسلامية على جلب المصالح الخالصة أو الراجحة، وعلى دفع المضار كذلك؟ وكيف يحرم الله سبحانه وتعالى العليم الحكيم الخمر من العنب مثلا كثيرا وقليلها لما فيها من المفسدة، ولأن قليلها دافع إلى كثيرها وذريعة

اليه ، ويبيح من المخدرات ما فيه هذه المفسدة ويزيد عليها بما هو أعظم منها وأكثر ضررا للبدن والعقل والدين والمخلاق والمزاج ؟ هذا لا يقوله إلا رجل جاهل بالدين الاسلامي أو زنديق مبتدع كما سبق القول . فتعاطى هذه المخدرات على أى وجه من وجوه التعاطى من أكل أو شرب أو شم أو احتقان ، حرام ، والأمر في ذلك ظاهر جلي .

#### ٢ - الاتجار بالمواد المخدرة واتخاذها وسيلة للربح التجاري :

إنه قد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة في تحريم بيع الخمر ، منها ما روى البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام » . وورد عنه أيضا أحاديث كثيرة مؤداها أن ما حرم الله الانتفاع به يحرم بيعه وأكل ثمنه . وقد علم من الجواب عن السؤال الأول أن اسم الخمر يتناول هذه المخدرات شرعا ، فيكون النهي عن بيع الخمر متناولا لتحريم بيع هذه المخدرات ، كما أن ما ورد من تحريم بيع كل ما حرمه الله يدل أيضا على تحريم بيع هذه المخدرات . وحينئذ يتبين جليا حرمة الاتجار في هذه المخدرات واتخاذها حرفة تدر الربح ، فضلا عما في ذلك من الاعانة على المصيبة التي لا شبهة في حرمتها لدلالة القرآن على تحريمها بقوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . ولأجل ذلك كان الحق ما ذهب اليه جمهور الفقهاء من تحريم بيع عصير العنب لمن يتخذ خمرا ، وعلان هذا البيع لأنه إعانة على المصيبة .

#### ٣ - زراعة الخشخاش والحشيش بقصد البيع أو استخراج المادة المخدرة منهما للتعاطى أو لتجارة :

إن زراعة الحشيش والأفيون لاستخراج المادة المخدرة منهما لتعاطيها أو الاتجار فيها حرام بلا شك ، لوجوه :

أولا : ما ورد في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من حبس العنب أيام القطف حتى يبيعه من يتخذ خمرا فقد تقحم النار » . فإن هذا يدل على حرمة زراعة الحشيش والأفيون للغرض المذكور بطريق دلالة اللفظ .

ثانيا : أن ذلك إعانة على المصيبة ، وهي تعاطى هذه المخدرات أو الاتجار فيها ، وقد بينا فيما سبق أن الاعانة على المصيبة معصية .

ثالثا : أن زراعتها لهذا الغرض رضا من الزارع بتعاطي الناس لها واتجارهم فيها ، والرضا بالمصيبة معصية ، وذلك لأن إنكار المسكر بالقلب الذي هو عبارة عن كراهة القلب ونقضه للمسكر فرض على كل مسلم في كل حال ، بل ورد في صحيح مسلم عن رسول الله صلى الله عليه



وسلم : « إن من لم يسكر المنكر بقلبه — بالمعنى الذى أسلفنا — ليس عنده من الإيمان حبة خردل » . على أن زراعة الخشيش والأفيون معصية من جهة أخرى تعد نهى ولى الأمر عنها بالقوانين التى وضعت لذلك ، لوجوب طاعة ولى الأمر فيما ليس بمعصية لله ورسوله بإجماع المسلمين ، كما ذكر ذلك الامام النووى فى شرح مسلم فى باب طاعة الأمراء ، وكذا يقال هذا الوجه الأخير فى حرمة تعامل المخدرات والاتجار فيها .

#### ٤ — الربح الناجم من هذا السبيل :

قد علم مما سبق أن بيع هذه المخدرات حرام ، فيكون الثمن حراما :  
أولا : لقوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » أى لا يأخذ ولا يتناول بعضكم مال بعض بالباطل ، وأخذ المال بالباطل على وجهين :  
الأول : أخذه على وجه الظلم والسرقة والخيانة والنصب وما جرى مجرى ذلك .  
الثانى : أخذه من جهة محظورة كأخذه بالقيار أو بطريق العقود المحرمة كما فى الربا وبيع ما حرم الله الانتفاع به كالخمر المتناولة للمخدرات المذكورة كما بينا آنفا ، فإن هذا كله حرام وإن كان بطيبة نفس من مالكه .

وثانيا . للأحاديث الواردة فى تحريم ثمن ما حرم الله الانتفاع به ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله إذا حرم شيئا حرم ثمنه » . رواه ابن أبى شيبة عن ابن عباس .  
وقد جاء فى زاد المعاد ما نصه : « قال جمهور الفقهاء : إنه إذا بيع العنب لمن يصصره حراما حرم أكل ثمنه ، بخلاف ما إذا بيع لمن يأكله ، وكذلك السلاح إذا بيع لمن يقاتل به مسلما حرم أكل ثمنه ، وإذا بيع لمن يفرو به فى سبيل الله فثمنه من الطيبات ، وكذلك ثياب الحرير إذا بيعت لمن يلبسها ممن يحرم عليه لبسها حرم أكل ثمنها بخلاف بيعها ممن يحل له لبسها » اهـ .  
وإذا كانت الأعيان التى يحل الانتفاع بها إذا بيعت لمن يستعملها فى معصية الله على رأى جمهور الفقهاء وهو الحق يحرم ثمنها لدلالة ما ذكرنا من الأدلة وغيرها عليه ، كان ثمن العين التى لا يحل الانتفاع بها كالمخدرات حراماً من باب أولى .

وإذا كان ثمن هذه المخدرات حراما كان خبيثا ، وكان إيقاعه فى القربات كالصدقات والحج غير مقبول أى لا يناب الموفق عليه . فقد روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا » ، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال تعالى : « يأياها الذين آمنوا كلوا من الطيبات واحملوا صالحا الآية » ، وقال تعالى : « يأياها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون » . ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده الى السماء يارب يارب

ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك ؟ » وقد جاء في الحديث الذى رواه الامام أحمد في المسند عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « والذى نفسى بيده لا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق فيقبل منه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده في النار ، إن الله لا يحجو السيئ بالسيئ ولكن يحسو السيئ بالحسن ، إن الخبيث لا يحسو الخبيث » . وجاء في كتاب جامع العلوم والحكم لابن رجب أحاديث كثيرة وآثار عن الصحابة رضى الله عنهم في هذا الموضوع ، منها ما روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من كسب مالا حراما فتصدق به لم يكن له أجر ، وكان إصره — يعنى إنمعه وعقوته — عليه » ، ومنها ما في مراسيل القاسم ابن مخيمرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أصاب مالا من مائثم فوصل به رحمه أو تصدق به أو أنفق في سبيل الله ، جمع ذلك جميعا ثم قذف به في نار جهنم » .

وجاء في شرح ملا على القارى للأربعين النووية عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أنه إذا خرج الحاج بالنفقة الخبيثة فوضع رجله في الفرز — أى الركاب — وقال ليك ، ناداه ملك من السماء : لا لييك ولا سمديك وحجك مردود عليك » .

فهذه الأحاديث التى يشد بعضها بعضا تدل على أنه لا يقبل الله صدقة ولا حجة ولا قربة أخرى من القرب من مال خبيث حرام . ومن أجل ذلك نص علماء الحنفية على أن الإنفاق على الحج من المال الحرام حرام . وخلاصة ما قلناه :

أولاً — تحريم تعاملى الخشيش والأفيون والكوكايين ونحوها من المخدر .

ثانياً — تحريم الاتجار فيها واتخاذها حرفة تدبر الربح .

ثالثاً — حرمة زراعة الأفيون والخشيش لاستخلاص المادة المخدرة لتعاملها أو الاتجار فيها .

رابعاً — أن الربح الناتج من الاتجار في هذه المواد حرام خبيث ، وأن إنفاقه في القربات غير مقبول بل حرام .

قد أظلت القول إطالة قد تؤدي الى شيء من الملل ، ولكنى آثرت بها تبياننا للحق ، وكشفنا للصواب ، ليذول ما قد عرض من شبهة عند الجاهلين ، وليعلم أن القول بحمل هذه المخدرات من أباطيل المبطلين وأضاليل الضالين المضلين ، وقد اعتمدت فيما قلت أو اخترت على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعلى أقوال الفقهاء التى تتفق مع أصول الشريعة الفراء ومبادئ القويمة .

والحمد لله رب العالمين ، وهو الهادى الى سواء السبيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ؟  
عبد المجيد سليم

# التفسير

## سورة النجم

وصلنا من تفسير سورة « الشمس » وخماها « الى قوله تعالى : « ونفس وما سواها » : يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفت نظر عباده الى أنفسهم وما فيها من المعائب والقرائب ، فقال : « ونفس وما سواها » : أي خلقها مستوية في أحسن صورة من الصور في ظاهرها وباطنها . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإعما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . وفي صحيح مسلم : « يقول الله : إني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم من دينهم » . وعلى كل حال فأقرب الأشياء الى الانسان نفسه ، فينبغي أن يتفكر فيها ، وكيف خلق من قطرة ماء مهين فصار إنسانا طافلا يقيه على المخلوقات .

وحقا إذا تفكر الانسان في نفسه استمارت له آيات الربوبية ، وسطعت له أنوار البقين ، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب ، وانقضت عنه ظلمات الجهل . فانه إذا نظر في نفسه وجد آثار التدبير فيه فائتمات ، وأدلة التوحيد على ربه تامقات ، شهادات لمدبره ، دالة عليه ، مرشدة اليه ، إذ يحده مكونا من قطرة ماء مهين صارت لحوماً منضدة ، وعظاماً مركبة ، وأوصالا متعددة ، مأسورة مشدودة بحبال العروق ، والأعصاب قد شدت وجمعت بجملته متين ، مشتمل على ثلاثمائة وستين مفصلا ، على ما يقول الكثير من علماء التشرريح الأولين ، ما بين كبير وصغير ، ونحيم ودقيق ، ومستطيل ومستدير ، ومستقيم ومنحن ، وقد شدت هذه الأوصال بثلاثمائة وستين عرقا للاتصال والانفصال ، والقبض والبسط ، والمد والضم ، لأجل مختلف الصنائع التي تراد منها .

وجعل فيه تسعة أبواب ، فبابان للسمع ، وبابان للبصر ، وبابان للشم ، وبابان للكلام والطعام والشراب والتنفس ، وبابان لخروج الفضلات التي يؤدي احتياها الى الأضرار البليغة ، وجعل داخل بابي السمع سراً قاتلا للحشرات لئلا يلج فيها دابة تخنص الى الدماغ فتؤذيه ، وجعل داخل بابي البصر مالحاً لئلا تذيب الحرارة الدافئة ما هناك من الشحم ، وجعل داخل باب الطعام والشراب مهياً لإساعة ما يأكله وما يشربه .

وجعل له مصباحين من نور كالمسراج المضيء ، مركبين في أعلى مكان منه ، وفي أشرف عضو من أعضائه طليعة له ، وركب هذا النور في جزء صغير جدا يبصره السماء والأرض وما بينهما ،

وجعل العين مركبة من سبع طبقات وثلاث رطوبات بعضها فوق بعض ، حاية له وصيانة وحراسة ، وجعل عليها غلقا عمصرا عين أعلى وأسفل ، وركب في ذيل المصراعين أهدابا من الشعر وقاية للعين وزينة وجمالا . وجعل فوق ذلك كله حاجبين من الشعر يحفظان العين من العرق النازل ، ويتلقيان عنها ما ينصب من هناك . وجعل سبحانه لكل طبقة من العين وظيفة مخصوصة ، ولكل واحد من الرطوبات مقدارا مخصوصا لو زاد على ذلك أو نقص عنه لاختلت المنافع وضاعت المصالح المطلوبة . وجعل هذا النور الباصر في قدر عدسة ، ثم أظهر في تلك العدسة صورة السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والعالم العلوي والسفلي مع اتساع أطرافه وتباعد أقطاره . واقتضت حكمته أن يجعل فيها سبحانه بياضا وسوادا ، وجعل القوة الباصرة في المواد ، وجعل البياض مستقرا لها ومسكنا ، وزين كلا منهما بالأحر ، وجعل الحدقة مصونة بالأحقان والحواجب ، وجعلها سودا ، إذ لو كانت بيضا لفرق النور الباصر فضصف الإدراك ، فإن السواد يجمع البصر ويجمع من تفرق النور ، وخلق سبحانه لتحريك الحدقة وتقليبها أربعا وعشرين عضلة لوتقصت عضلة واحدة لاختل أمر العين .

ولما كانت العين كالمرآة التي إنما تنطبع فيها الصور إذا كانت في غاية الصقالة والصفاء ، جعل سبحانه الأجفان متحركة لغاية السهولة في الانطباق والانفتاح بلا تكلف ، لنبقى هذه المرأة نقية صافية من جميع الكدورات . ولهذا لما لم يخلق لعين الذبابة أجفانا لا تزال نراها تنطف حينها بينها من آثار الغبار والكدورات .

وكما جعل سبحانه العينين مؤديتين للقلب ما يريانه فيوصلانه اليه ، جعلهما مرآتين للقلب يظهر فيهما ما هو مودع فيه من الحب والبغض والخير والشر والبلادة والعطنة والريغ والاستقامة ، فيستدل بأحوال العين على أحوال القلب ، وهو أحد أنواع الفراسة . فالعين مرآة للقلب وطليعة ورسول . ومن عجيب أمرها أنها من أطفاف الأعضاء وأبعدها تأثرا بالحر والبرد . وليس ذلك بسبب الغطاء الذي عليها من الأجفان ، فإنها ولو كانت منفتحة لم تتأثر بذلك مع أنها من الأعضاء الطيفة .

هذا بعض ما ذكره علماؤنا الأقدمون ، وللأطباء المصريين ما هو أعجب وأغرب ولعلك اطلمت على بعض ما اكتشفوه من أسرار الغدد التي كانت مجهولة . وقد قال بعض فلاسفة الأوربيين : يكفيني هدب العين في الدلالة على الله . إلى آخر كلامهم في هذا .

ولعلنا لا نعدم فرصة تمكننا من العودة لهذا الموضوع مرة أخرى ، إن شاء الله ؟

يوسف المهوي

من جماعة كبار العلماء



الإلهية ، وهو أن خالق الكائنات وبارئ النسم إله واحد مجرد عن المادة وعلائقها ، ليس كمثل شيء ، ولا هو مثل شيء ، فكل ما تحتاج إليه الأجسام من مكان ومادة وتحيز ، وما يلاص ذلك من شهوة ولذة وألم ، يتزده عنه الإله تعالى ؛ وكل ما تحتاج إليه الموجودات في هذا العالم من وسائل مادية مخلوق لله وحده ، ومسيطر عليه وحده ، فلا شريك له في شيء ، ولا منازع له في إيجاد نسمة أو إعدامها .

ذلك هو معنى التوحيد الذي يعنيه الاسلام ؛ وهذا المعنى متفق عليه عند كل المسلمين الموحدين . أما ما وراء ذلك من بحوث فلسفية ومذاهب صوفية في معنى التوحيد والوحدة ، فإنه يجب أن يكون بعيدا عن هذا المقام كل البعد ؛ لأن الدين الاسلامي إنما يدعو الناس جميعا الى توحيد الإله : « قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعا » ؛ وليس من المعقول أن تكون الدعوة العامة مطابقة لأهواء أولئك المعقدين الذين يسطقون عما لا تدركه عقول الأذكياء من العلماء فصلا عن عامة الناس . محال أن يكون المراد من التوحيد الذي يدعو اليه الاسلام هو وحدة الوجود . وما هي وحدة الوجود ؟ هي ألقاظ ممتحة لا تسيغها العقول السليمة ، ولا ترصيها الأذهان الناضجة ؛ لأن منهم من فسرها بالحلول كما يقول الصارمي بالحلول للإله في المسيح ؛ ولا يخفى ما في ذلك من سخافة ينبو عنها الدين . ومنهم من فسرها بأن الموجودات كلها مظهر لوحود الإله ؛ وإذا سألته عن معنى ذلك يقول لك : أما الله ، وما في ملائتي غير الله ، ونحو ذلك . ومنهم من فسرها بأن الوجود نور والمدم ظلمة ، وأصل الوجود وجود الله تعالى ، فوجود الله تعالى وجود العالم ، لأنه سبحانه نور كل شيء أشرفت به الكائنات ، فوجود الكائنات وجوده . الى غير ذلك من العبارات التي لم يكلف الله بها عباده ، وتأياها طبيعة الاسلام الذي هو دين الفطرة والسماحة والعلم الصحيح النافع للمجتمع الانساني في كل زمان ومكان . ومن هذا تعلم معنى الدعوة الى توحيد الله ؛ فليست هي التوحيد الذي كان عليه اليهود يومئذ ؛ وليست هي التوحيد الذي يريده غلاة الصوفية ؛ وقد بينا لك بعض ما في ذلك من خلل واضطراب .

ولندكر لك عبارة الفتح هنا في نقل ما قاله غلاة الصوفية ، قال ما معناه : لقد بالغ بعضهم حتى صاها المرحلة في نفي نسبة الفعل الى العبد ؛ وجر ذلك بعضهم الى معذرة العصاة . ثم غلا بعضهم فمذر الكفار أيضا . ثم غلا بعضهم فزعم أن المراد بالتوحيد اعتقاد وحدة الوجود ، وعظم الخطأ حتى ساء ظن كثير من أهل العلم بمنقذهم الى أن قال : ولهم كلام طويل في وحدة الوجود ينبوء به مجمع كل من كان على فطرة الاسلام ... انتهى . وهذا كلام حسن لاشك فيه ، فإن الدين الاسلامي ليس دينا مقفلا ، لا تدركه العقول السليمة ، وليس فيه على الناس خفاء . فكل شيء يلصقه المتشككون من الغموض والإيهام فأنما إنعهم عليهم ، وهو منه ومنهم يراه .

على أن بعض رواة الحديث تخلص من هذا الموضوع بحدايقه ، فقال : إن لفظ الحديث « فليكن أول ما تدعوه اليه عبادة الله » ، وعلى هذا فلم يتعرض لعقيدة اليهود الذين هم من أهل الكتاب ، وكانوا مستعدين لقبول الاسلام ، فان ظاهر حالهم أنهم كانوا موحدين . وقد عرفت أن صحة الرواية الثانية لا يضيرنا ، لأنهم على أي حال كانوا يؤمنون بالتوراة المخرفة في نظر الدين الاسلامي يومئذ ، وهي أصل من أصول العقائد . فقول النبي صلى الله عليه وسلم : « ادعهم الى توحيد الاله » صحيح لا شك فيه .

بقي هنا بحث آخر ذكره شراح هذا الحديث وأطسوا فيه كثيرا ، وهو أن أول واجب على المكلف إنما هو النظر في الكائنات لإثبات الإله الواحد ، وهذا النظر مقيد بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام من كتاب وسنة ، ومدى هذا أنه لا فائدة في النظر لأن المفروض ترك الحرية للعقل حتى يستبسط الدليل من الكائنات .

والجواب عن ذلك سهل هين لا تعقيد فيه . وذلك لأن المفروض قبل كل شيء ثبوت نبوة هذا الرسول وأنه من عند الله ، فإذ ثبت صدق رسالة النبي صلى الله عليه وسلم بالبراهين القاطعة والمعجزات الدائمة المتواترة ، أصبح من الضروري تصديق كل ما جاء به من عند الله ، فليس التقييد بما جاء به القرآن ووردت به السنة الصحيحة تقليدا ، وإنما هو إيمان بقضايا مبنية على أحل البراهين وأوضحها وأقواها . على أننا نقول أيضا : إن كتاب الله هو الذي حث على النظر والاستدلال ، والآيات الواردة في ذلك أكثر من أن تحصى . فالعقل يفكر ويتأمل ويركب الأدلة والمقدمات ويقف على النتائج ، وكتاب الله يحفظه من الزيغ والزلل ؛ لأن العقول البشرية مهما أوتيت من ذكاء وصفاء فهي عرضة للخطأ والزلل ؛ أما الرسل فهم معصومون عن الخطأ فيما يبلغونه عن ربهم . ومع هذا كله فالدين الاسلامي قد أطلق لعقول الناظرين العنان في البحث والاستدلال ، وتحذاهم في كل ما جاء به من الأحكام ، وحادل المبطلين في كل ما أوردوه من شبه ، فبرهن على خطئهم بأوضح الأدلة وأصدق المقدمات ، ولم يأت بشيء يعارض العقول السليمة والفكر الصحيح ، ولم يكاف الناس أن يؤمنوا بالمحل الذي لا تقبله العقول ولا تدركه الأفهام ، مملا بالقاعدة المعروفة عند بعض الأمم « الدين فوق العقل » ، وما داك إلا لكونه حقا لا يهرب نزغات المبطلين ، وقوة لا تخشى هجمات الصالحين .

بقي هنا شيء آخر ، وهو إيمان المقلد الذي لا يستطيع النظر والاستدلال ، فانه على هذا لا يكون صحيحا .

والجواب عن هذا أيضا سهل : وهو أن إيمان المقلد الذي يعجز عن الاستدلال صحيح بلا شك ، لأن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها ، أما الذين يستطيعون الإدراك والفهم ويعرفون معنى الأدلة والبراهين ، فانه يجب عليهم أن يتعلموا بلا نزاع ، وإلا كانوا على خطر عظيم .

(٢) لعل الذين يقومون بالدعوة الى الله يسترشدون بقول النبي صلى الله عليه وسلم للذممة ، ويتجنبون الآثار التي بينها لهم . فانه صلى الله عليه وسلم أمر معاذاً أن ينظر الى حال هؤلاء القوم الذين بعثه اليهم ، فلا يرهقهم بالتكاليف الشرعية قبل أن يستقر الإيمان في قلوبهم ويبعثهم الى الطاعة فيما يأمرهم به وينهون عنه ، فقال له : لا تأمرهم بمد توحيد الإله إلا بالصلاة ، وهي سهلة سمحة لا مشقة فيها على المؤمنين . فإذا قاموا بأداء الصلاة كاملة وأدوها لربهم بخشوع وخضوع فأنهم يستعدون بمد ذلك لقبول ما يكلمون به من زكاة وغيرها . ثم أرشده صلى الله عليه وسلم الى استعمال الرفق في أخذ الزكاة ، فنهاه عن أخذ كرام أموال الناس التي تمز عليهم ولا تسمح أنفسهم بالتفريط فيها . وذلك خير مثال للرشدين الذين يريدون إصلاح المجتمع الانساني ، ومعالجة مرض النفوس ومرض الشهوات القاتلة

(٣) أما كونه صلى الله عليه وسلم قد حث معاذاً على العناية بالصلاة ، فذلك لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . ولعل الناس الذين يصلون ولا يتقون عن الفحشاء والمنكر لا يشعرون قلوبهم بعظمة الإله الخالق الذي يقومون بين يديه ركعاً سجداً ، فليس الغرض من الصلاة في الواقع مجرد الحركات والسكنات فحسب ، بل الغرض منها تهذيب النفوس ولطهير القلوب بالخضوع للإله الخالق لجميع الكائنات ، المهيمن القدير الذي لا ينبغي لأحد غيره أن يخضع له العباد هذا الخضوع . فإذا ما قام العبد في اليوم واليلة بخمس صلوات على هذا الوجه وهو خاشع خاضع لمولاه فإنه لا بد أن ينتهي عن الفحشاء والمنكر ، ولا بد أن تثبت في نفسه عظمة الإله الخالق ، ولا بد أن يدرك تمام الإدراك معنى تلك العظمة ، ويخاف كل الخوف من عصيان ذلك الخالق العظيم الذي أفاض الوجود على مخلوقاته ، وأمدم بكل ما يحتاجون إليه في معاشهم ومآدمهم . فلهذا الناس يدركون معاني التكاليف الشرعية ويعملون بها ، ويقنعون في أقوالهم وأعمالهم عما جاءهم على لسان نبيهم لعلهم يرشدون ؟

عبد الرحمن الجزيري

## آداب عيادة المريض

قال شاهر :

عيادة المرء يوم بين يومين وجلسة لك مثل التحفظ بالعين  
لا تبرمن مريضاً من مساواة يكفيك من ذاك تساك بحرفين

ومرض يحى بن خالد الوزير ، فكان اسماعيل بن صبيح إذا دخل عليه يمد يده ، وقف عند رأسه ودعا له ، ثم يخرج فيسأل حاجته عن منامه وطعامه وشرابه ، فلما أمل يحيى من مرضه قال : ما عاذني في مرضي هذا إلا اسماعيل بن صبيح .



## التجديد والمجددون في الاسلام

الامام الاعظم أبو حنيفة — دراسات في مذهبه وطبقات فقهاءه

### مسند المذهب ونواتره :

أخذ أبو حنيفة الفقه عن حماد بن أبي ساجان التميمي ، مفتي الكوفة ، أفقه أهل عصره ، مضرب المثل في العلم والفضل والمكارم ، كان يضطر في كل ليلة من شهر رمضان خمسين صائماً ، فإذا كانت ليلة العطر كسائم ثوبا ، وأعطاهم مائة مائة من الدراهم .

وقال الامام أبو يوسف : ما رأيت أجود من أبي حنيفة ، وكنت أقول له : ما رأيت أجود منك ، فيقول لي : لو رأيت حمادا !

ومن تقدير أبي حنيفة لشيخه حماد ويره به ، أنه كان يقول : ما مددت رجلي نحو دار أستاذي حماد إجلالا له ، وما صليت منذ مات حماد صلاة إلا استغفرت له مع والدي ، وإني لاستغفر لمن تعلمت منه أو تعلم مني . هذا هو الأدب العالي الذي يجب أن يكون عليه طالب العلم مع أستاذه . مات حماد سنة ( ١٢٠ ) هـ .

أخذ حماد عن ابراهيم النخعي فقيه العراق ، ومفتي الكوفة قبل حماد ، الذي يقول فيه مغيرة : كما نهاب ابراهيم كما نهاب الأمير . ويقول فيه الشعي : ما ترك ابراهيم لعمده أعلم منه . ويقول فيه سعيد بن جبير : نستفتونني وفيكم ابراهيم النخعي ! وكان من العلماء ذوي الاخلاص ، وكان يترق الشهرة ، ولا يتكلم في العلم إلا أن يسأل ، فكان أبو حنيفة أكرم العلماء بمذهب ابراهيم هذا وأمثاله ، لا يجاوزه إلا ما شاء الله . توفي ابراهيم سنة ٩٥ أو ٩٦ هـ .

أخذ ابراهيم عن علقمة ، ومسروق ، والأسود ؛ أما علقمة فقد كان فقيه المصراق ، ويقول فيه ابن مسعود : ما أقرأ شيئا ، وما أعلم شيئا إلا وعلقمة يقرأه أو يعلمه . ويقول فيه قابوس : أدركت ناسا من الصحابة يسألون علقمة ويستفتونه . سمع عمر وعثمان وعلي ، وتفقه بابن مسعود ، وكان أنبل أصحابه .

وقال الذهبي : كان علقمة إماما فقيها بارعا ثبنا فيما ينقل ، طيب الصوت بالقرآن ، صاحب خير وورع ، وكان يشبه ابن مسعود في هديه ودله وسمته وفضله . توفي سنة ٦٢ أو ٦٣ هـ .

وأما مسروق : فهو الامام القدوة الفقيه أحد الأعلام ، روى عن أبي بكر ومروان وغيرهم ، وهو راوية عمر النافل عنه الكثير من فقهه وفضاياه ، كان أعلم بالفتوى من شرح ، وكان شرح يستشير ويستفتيه . توفي سنة ٦٣ هـ .

وأما الأسود : فهو عالم الكوفة ، وأحد كبار فقهاء التابعين ، أحد من معاذ وابن مسعود وغيرهما . توفى سنة ٧٤ هـ .

فهؤلاء من كبار فقهاء التابعين ، وقد أخذوا الفقه عن فقهاء الصحابة خصوصا عن ابن مسعود ، فإن الفقه انتشر عن أربعة : ابن مسعود وأصحابه وهم العراقيون ، وزيد ابن ثابت ، وعبد الله بن عمر وأصحابهما وهم أهل المدينة ، وابن عباس وأصحابه وهم أهل مكة ، وأخذ فقهاء الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن رب العالمين . قاله الاسلامي إذا مؤسس بالوحى الإلهي المبين في كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . من هذا يعلم المصدر الذي أخذ أبو حنيفة الفقه عنه . وحسب هذا الفقه أنه نظم حال الهيئة الاجتماعية وأحوال الانسان الدينية والدنيوية من مولده الى مماته ، فأنتس به المسلمون ، ومازج أرواحهم مدة أربعة عشر قرنا ، وفيه مرآة مشاعرم ، وعلاج أمراضهم الاجتماعية .

ثم انتقل الفقه من أبي حنيفة الى أصحابه ، ومنهم الى تلاميذهم ، وهكذا صار ينتقل من طبقة الى طبقة قرنا بعد قرن حتى وصل إلينا متواترا محفوظا . ولقد أيد الله المذهب الحنفي بالفقهاء الأعلام من المتقدمين والمتأخرين ، فجددوا ديباجته ، ووطدوا قواعده ، وقرروا حججه ، وبسطوا أدلته ، وبثوه في أقطار الأرض ، فلم يزل موروثا من أول الى آخر ، ومنقولاً من كابر الى كابر ، حتى انتهى إليها مسدونا في صحائف الكتب محررا ، مشيد البليان ، الى هذا الزمان ، وسيدى بأذن الله مصونا من الاحتلال منقطعاً الى ما شاء الله .

#### المعلماء الذين حملوا لواء هذا المذهب بعد أبي حنيفة طقات :

الطبقة الأولى : طبقة المجتهدين في المذهب وهم تلاميذ أبي حنيفة وأصحابه . أبو يوسف ومحمد ، وزمر ، والحسن ، وغيرهم ، الذين كانوا يجتهدون في المذهب ويستخرجون الأحكام من الأدلة الأربعة على مقتضى القواعد التي قررها أستاذهم أبو حنيفة ، وهم وإن خالفوه في بعض الفروع قد قلده في قواعد الأصول ، بخلاف الأئمة : مالك والشافعي وأحمد وغيرهم ، فانهم يخالفون أبا حنيفة في الفروع غير مقلدين له في الأصول .

والطبقة الثانية : طائفة المجتهدين في المسائل التي لا رواية فيها عن صاحب المذهب : كالخشاف ، وأبي جعفر الطحاوي ، وأبي الحسن الكرخي ، وشمس الأئمة الحلواني ، وشمس الأئمة السرخسي ، وغير الاسلام البزدوي ، ونجر الدين قاصيخان ، والصدر برهان الدين محمود صاحب المحيط البرهاني ، وظاهر من أحمد صاحب خلاصة الفتاوى ، وشيخ الحنفية بما وراء النهر ، وغيرهم ، فانهم يتقيدون على الاجتهاد في المسائل التي لا رواية فيها عن صاحب المذهب ، ويستندون أحكامها على حسب أصول قررها ومقتضى قواعد بسطها ، ولا يتقيدون على مخالفتها لا في الأصول ولا في الفروع .

الطبقة الثالثة : طبقة أصحاب التخريج : كالرازي المعروف بأبي عباس وأصراره ، فانهم لا يقدرُونَ على الاجتهاد أصلاً ، لكنهم لا يحاطون بالاصول ، وضبطهم له آخذ ، يقدرُونَ على تفصيل قول مجمل ذي وجهين ، وحكم مبهم محتمل لأمرين ، منقول عن صاحب المذهب أو عن أحد من أصحاب المجتهدين ، برأيهم ونظرم في الاصول ، والمقاييس على مثاله ونظيره عن الفروع ، وما وقع في بعض المواضع من الهداية من قوله : كذا في تخريج الكرخي ، وتخريج الرازي من هذا القبيل .

الطبقة الرابعة : طبقة أصحاب الترجيح : كآبي الحسين أحمد القدوري ، وشيخ الاسلام برهان الدين صاحب الهداية وأمثالها ، وشأنهم تفضيل بعض الروايات على البعض الآخر ، كقولهم : هذا أولى ، وهذا أرجح رواية ، وهذا أوضح دراية ، وهذا أوفق للقياس .  
الطبقة الخامسة : طبقة القادرين على التمييز بين الأقوى والقوى والضعيف ، وظاهر الرواية ، والروايات النادرة : كشمس الأئمة مجد الكردي صاحب الفتاوى البرازية ، وجمال الدين الحصري صاحب الخلاف بين الحنمية والشافعية ، وحافظ الدين القسبي ، وغيرهم ، مثل أصحاب المنون المعتبرة من المتأخرين : كصاحب الكثر ، وصاحب المختار ، وصاحب الوقاية ، وصاحب المجمع ، وشأنهم أن لا يبقوا في كتبهم الأقوال المردودة والروايات الضعيفة

الطبقة السادسة : طبقة المقلدين الذين لا يقدرُونَ على ما ذكر ، فهؤلاء لا يحل لهم أن يفتوا إلا بطريق الحكاية والنقل عن الكتب المعتبرة والمقهاء المعتمدين .

هذه قسمة شهيرة لطبقات فقهاء المذهب الحنفي ، ذكرها كثيرون من محققهم وأئمتوا عليها ، حتى قال التيمي في طبقاته : هذا التقسيم حسن جداً بعد أن ذكره ، ومع هذا فالاختلاف من طبائع البشر ، وقد لا نعدم الحسنة داما ، فقد لاحظ عليه بعضهم ، ولاستيفاء هذا البحث نذكر مضمون ملاحظاته ، قال :

(١) إن القول بأن الحمايف والطحاوي والكرخي لا يقدرُونَ على مخالفة أبي حنيفة لأني الاصول ولا في الفروع ليس بشيء ، فان ما خالفوه من المسائل لا يمد ولا يخص ، ولهم اختيارات في الاصول والفروع ، وأقوال مستنبطة بالقياس والمسموع ، واحتجاجات بالمعقول والمقول ، على ما لا يخفى على من تتمع كتب الفقه والغلافيات والاصول . وقد انفرد الكرخي عن أبي حنيفة وغيره في أن العام بعد التحصيل لا يبق حصة أصلاً ، وأن خبر الواحد الوارد في حادثة تمت بها البلوى ومتروك الحاجة به عند الحاجة ليس بحجة قط . وانفرد أبو بكر الرازي الجصاص في أن للعام المخصوص حقيقة إن كان الباقي جمعا ، وإلا فجزاء ، أليس هذا من مسائل الاصول ؟ ...

(٢) وإن القول بأن أبو بكر الرازي الحصاص من المقلدين الذين لا يقدرُونَ على الاجتهاد أصلاً ظلم عظيم في حقه ، وتزليل له عن رفيع عمله ، وقض منه ، وجعل بين بجملة شأنه في العلم وباعه الممتد في الفقه ، وكعبه العالي في الأصول ، ورسوخ قدمه وشدة وطأته وقوة بطشه في معارك النظر والاستدلال ؛ ومن تتبع تصانيفه والأقوال المنقولة عنه علم أن الذين عديم من المجتهدين من شمس الأئمة ومن بعدهم كلهم عيال لأبي بكر الرازي . قال شمس الأئمة الحلواني فيه : هو رجل كبير معروف في العلم ، وإنا نقلده ونأخذ بقوله ، فكيف يصح تقليد المجتهد للمقلد ؟ ! وقال قاضيان في التوكيل بالخصومة : يجوز للمرأة المخدرة أن توكّل . كذا ذكره أبو بكر الرازي ؛ وقال صاحب الهداية : لو كانت المرأة مخدرة قال الرازي يرم التوكيل منها ، ثم قال : وهذا شيء استحصه المتأخرون . وقال ابن الهمام : هو الامام الكبير أبو بكر الحصاص أحمد بن علي الرازي ، والفنوى على ما اختاره في مسألة المرأة المخدرة .

والقول بأن القدوري وصاحب الهداية من أصحاب الترجيح ، وقاضيان من المجتهدين ، فيه نظر ، لتقدم القدوري على شمس الأئمة زماناً ؛ وكونه أعلى منه كعباً وأطول باماً ، فكيف من قاضيان ؟ وأما صاحب الهداية فهو المشار اليه في عصره ، المعقود عليه الخناصر في دهره ، وقد ذكر في الجواهر وغيرها أنه أقر له أهل عصره بالفضل والتقدم كقاضيان والعقابي وغيرها وقالوا : إنه فاق على أقرانه حتى على شيوخه في الفقه ، فكيف ينزل شأنه عن قاضيان ؟ بل هو أحق منه بالاجتهاد وأثبت في أسبابه وأثوم لأبوابه .

(٣) والقول بأن أبو يوسف وعبد المجتهدان في المذهب فيه نظر ؛ وإنما هما مجتهدان مطلقان مستقلان ؛ وإنما عدهم مذهب أبي يوسف ومجد مع مذهب أبي حنيفة مذهباً واحداً مع مخالفتهم له في كثير من الأصول والفروع لأنهما لم يتحاوزا عن بحجة إبراهيم النخعي وغيره من علماء الكوفة ؛ ولكنهم لحسن تعظيمهم لاستاذهم أبي حنيفة ، وفرط إجلالهم له ، وروايتهم لحقه ، تماونوا على التنويه بشأنه ، والاحتجاج لأقواله وروايتهم بالناس ، ونجروا التحقير فروعها ونميين أبوابها وفصولها ، لاعتقادهم أن أبا حنيفة أعلم وأورع وأحق للاقتداء به ، والأخذ بقوله ، وأوثق لعقبي ، وأرفق للمستفتي . ومقام أبي حنيفة في الفقه لا يلحق ، كما شهد له بذلك أهل منه خصوصاً مالكا والشافعي ، ومن ذلك الوجه امتار أبو يوسف ومجد من المخالفين لأبي حنيفة لا لأنهم لم يبلغوا درجة الاجتهاد المطلق في الشرع ، ولو أنهم أولعوا بفشر آرائهم بين الخلق لكان لكل منهما مذهب منفرد عن مذهب الامام أبي حنيفة مخالف له ؛ ولكل وجهة هو موليها ؟

السيد هفيقي

## بين رجال الدين والفلسفة

- ٢ -

كتبت الكلمة الأولى من هذا البحث ، وما كنت أنوم أن تكون سببا للنعيق عليها من حضرة . . . . . رئيس التحرير في نحو ثمان صفحات في نفس العدد الذي ظهرت به . ذلك أني عنيت - كدأبي دائما - بنسبة كل حقيقة علمية أو نقل تاريخي للرجع الذي رجعت إليه بكل دقة ووضوح . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الكلام لا يزال في أوله ومقدماته ، ولم نصل الى موضع بيان الرأي الذي أراه في الخلاف بين رجال الدين والفلسفة ، حتى يصح أن ينوجه عليه نقد مهما كان أمره . على أني وقد تفضل حضرة الأستاذ الجليل بالنعيق الذي أشرت إليه لا أجد بدا من تناوله بكلمات موجزات قبل متابعة الحديث فيما رأيت يحسنه من أمر العلاقة بين رجال الدين والفلسفة .

(١) القارئ للتعليق المذكور يعتقد - كما قال السيد الأستاذ - « أني سردت تاريخ المسلمين في مجاهدة الفلسفة اليونانية متابعين في ذلك أئمتهم » ، مع أني لم أتكلم إلا عن جانب من موقف رجال الدين من علماء الكلام ورجالهم ، ولم أشرع بعد في بيان موقفهم من الفلسفة والفلاسفة ، كما يعتقد أني قد أدليت برأيي في هذا الموقف ورأيت ما يراه الفرنيجة الذين يعطونه بحول أئمة المسلمين والرغبة في استبقاء سلطانهم على العامة . هكذا قال السيد الأستاذ الجليل ، وسارع فقرر أن بحث مسألة الفلسفة على هذا الوضع لا يؤدي لحسم مادة الخصومة بينها وبين الاسلام ، مع أني أيضا لم أصل الى الكلام على بواعث تلك الخصومة وتحديداتها حتى يمكن أن يقال إنني ذهبت الى هذا الرأي أو ذاك ، وإن ما رأيته يتفق ورأي الفرنيجة .

(٢) وأحب لهذه المناسبة أن أذكر في صراحة أني مع انتفاعي الى حد كبير ببحوث الفرنيجة ودراسات المستشرقين ، وبما عرفونا به من مصادر لها خطرها وقيمتها في بحث تاريخنا العلمي ، لا أرضى لنفسي أن أكون تابعا لاحد منهم فيما يرى من هوى أو تقليد . إنني أومن بضرورة الرجوع للمصادر الأصلية العربية التي رجعوا إليها وتقممها واستنتاج ما يجب استنتاجه منها ، فنحن أقدر منهم بلا جدال على فهم العربية وأساليبها ، وإن كانت الأيام وعوادي الزمن مكننتهم من الاطلاع على مراجع لا يجدها بين أيدينا بفضل كسلنا وإهمالنا تراثها العلمي الجيد .

(٣) لا يرى بعد هذا صاحب المزة رئيس التحرير أن من المعقول أن يعادى الأئمة الفلسفة اليونانية مع حنهم ذويهم على الأخذ بما نضج من ثمرات العلم مهما كان مصدره . ولست أتقدم للقارئ في هذا إلا بوجوب التريث حتى أتكلم عن موقف رجال الدين من

الفلسفة ، فيتبين من الوقائع والحالات التاريخية النابتة كيف أن هذا الذي يراه عزته غير معقول هو الذي كان ! وإنما أنصل فأشير الى حادث إحراق كتب عبد السلام بن عبد القادر المعروف بالذكى ، وهو - كما يقول القفطى (١) - من بيت تصوف وتميد ، قرأ علوم الأوائل فأجادها ، ففسده أرباب الشر واتهموه بالاعتداد بأقوال الفلاسفة ، فصدر الأمر بإحراق كتبه في حفل كبير ، وتولى كبر هذا العمل عداة الله النيسى البكرى المعروف بابن الماريسانية . جعل لعبد الله هذا منبر صعد عليه ، وبدأ تنفيذ ما أمر به بخطبة لمن فيها الفلاسفة ومن يقول بقولهم ، وذكر الذكى عبد السلام بشره ، وكان يخرج الكتب التى له كتابا كتابا فيستكم عليه ويبلغ في ذمه وذم مصنفه ثم يلقيه من يده لمن يلقيه في الدار والذى يهمننا أكثر ، هو أنه - كما يرويه القفطى شاهد عيان - لما وصل الى كتاب الهيئة لابن الهيثم قال ، وهو يشير الى الدائرة التى مثل بها القفطى : « وهذه الداهية الدهية ، والنازلة الصماء ، والمصيبة العمياء » ، وبعد تمام كلامه خرقها وألقاها في النار ! فهل لا يمد هذا جهلا وتمصبا ؟ وأخيرا انتهى الأمر بسحق عبد السلام عقابا على أنه كان له فضل عقل فاستعمله فيما أمر الله به من النظر في الوجود وملكوت السموات والأرض ، واستمر في الصنع حتى أفرج عنه عام ٥٨٩ هـ . كما أشير أيضا الى فتوى ابن الصلاح والواوى بتحريم دراسة المنطق والى الحكم بالالحاد - إن لم يكن بالكفر - على الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده لتدريسه العلوم الحديثة بالأزهر ، ومنها الحساب والجغرافيا جهلا وحسدا وبغيا أن يؤتى الله من فضله من يشاء من عباده ، كما حدثنا بذلك منذ قريب حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى في ذكرى الأستاذ الامام .

(٤) بقى بعد هذا تأكيد السيد الأستاذ « بأن القرآن جاء للمسلمين فلسفة تيز في سموها أرقى فلسفة ، وأطلق عليها ما يقابل هذه الكلمة من اللغة العربية ، وهى : الحكمة » . هذا الموضوع لا يحسن أن يحس مساوفا في مقال أو مقالين ، بل يجب أن يبحث في دقة وعناية بمنا تدعّمه الأدلة والأسانيد ، وليس هذا موضعه ، ولا يتصل بما جعلته عنوانا عاما لتلك الكلمات التى اعتزمت كتابتها . ولكن يجب مع هذا أن نقول بأن كلمة الحكمة كما وردت في القرآن لا تدل على ما يرد في اصطلاح العلم بكلمة فلسفة ، حتى ما كان منها قائما على النظر الصحيح . واعتقد الأمر في هذا واضحا يكفى في التثبت منه أن يتصفح القارئ أى كتاب من كتب التفسير المعتمدة ، فيرى أن كلمة الحكمة في الآيات التى ذكرها صاحب العروة الأستاذ الجليل وأمثالها يرد بها السنة النبوية ، أو الأحكام والشرائع كما يذكر أبو السعود ، أو القضاء والوحى كما يقول القرطبي . وأين هذا من الفلسفة التى حاول كثير من المفكرين التوفيق بينها وبين الدين !

ومهما يكن فإن مما لا ريب فيه أن كلتي كانت سبب هذا التعقيب الطويل كانت خيرا وبركة ، أو بعبارة أخرى كانت سبب خير كثير نال القراء الكثير الذين يعجبون بحق بالسيد الأستاذ ، ويقدرّون ما يظالمون له من بحوث لها قيمتها وقدرها .

وبعد ما تقدم كله فمؤد لاستئناف الكلام في الموضوع الأصلي ، فنقول :

ذكرنا في المقال الماضي ثلاثة أمور ، رأينا أنها تبين بجلاء موقف رجال الدين عامة من علم الكلام ، فإذا يأخذ الباحث من هذه النصوص عن المؤرخين الثقات ، ومن النصوص الأخرى التي نقلناها أو أثّرنا إليها ؟ للباحث أن يقرر وهو آمن من اتهامه بالمبالغة أن النظر الحرج ، حتى في علم الكلام ، صار في القرن الثالث مقيتا بغضا محرما من جهة الدين ، حتى لا يجوز للناسخ أن يشتغل ولو لحساب الغير بنسخ شيء من كتبه ، وأن هذا المقت لمعلم الكلام - وخاصة على غرار نظر المعتزلة - أخذ صورة إيجابية أقلقت بال الدولة ، ووجدت فيها ما تخشاه من اضطراب حبيل الأمن العام ، فيصدر الخليفة أمرا يقضى بتحريم النظر في هذا العلم والمناظرة فيه ، وإلا فالويل لمن يعصى الأمر المرسوم ، وأنه أخيرا - كما يقول المقرئ - صار مذهب الأشعرى هو مذهب جماهير أهل الأمصار حتى العصر الذي عاش فيه ، وأن من خالفه كان مطول الدم . ومعنى هذا كله خصومة عنيفة صارت هداه واضحا يستباح فيه دم الخالف من رجال الدين ، أقصت على المتكلمين الأحرار مضاجعهم ، وأوردت الكثير منهم موارد المنون دفاعا من رجال الدين عنه حبا ، وتعصبا له عن حبيل حيناً آخر . ونقول : فإنا أنا وتعصبا آنا حامدين لا مسرفين في القول ولا متجنين ؛ ذلك أنه لنا أن نلتبس لرجال الدين والمحدثين وعلى رأسهم الحنابلة بمض العذر في خصومتهم للحادة للمعتزلة وانتقامهم منهم لما فعلوا بهم أيام فتنة القول بخلق القرآن التي أحدثها المؤمنون ، وقفاء فيها المنعصم والوائق ، حتى ولي المتوكل عام ٢٣٢ هـ فأبطل هذه المهمة ورفع عن الناس الإصر ؛ وحسبنا مما نال المحدثين فيها من أدى أن ضرب الإمام الجليل أحمد بن حنبل بالسياط ضربا مبرحا سال منه الدم وتعددت الجراحات . على أن المحدثين لم ينقموا على المعتزلة إثارته هذه المهمة وموقفهم فيها حسب ، بل نقموا منهم أيضا فلسفتهم للدين وتأويلهم للآيات التي تعارض أصلا من أصولهم الخمسة (هي التوحيد ، والعدل ، والوعد ، والوعيد ، والمثلية بين المتزلاتين ، والاصر بالمعروف والنهي عن المنكر (١)) ، وردم للأحاديث التي لا تنفق معها ، مما هال المحدثين وجعلهم يرون فيهم أعداء للدين يجب زيادهم عنه والوقوف في وجه اعتدائهم عليه ، وينمون ما كان لهم من بلاء مبين في الرد على الفرق الضالة وطوائف الملاحدة ، كما يدل لذلك إجابة السطر في مؤلفاتهم

(١) الانتصار والرد على ابن الروندي الخطيب المعتزلي ص ١٢٦ ، ومروج الذهب للمسعودي

ومنها كتاب الانتصار لأخياط الذي يقول عن النظام وأمثاله من المعتزلة : إنهم « شغلوا أنفسهم بجوابات الملحدّين ووضع الكتب عليهم إذ شغل أهل الدنيا بلداتها وجمع حطامها (١) » . ولكن إذا كان للمحدّثين ومن اليهم من رجال الدين بعض المنزى في وقوفهم موقف الخصم اللدود من المعتزلة ، فما عذرم وقد انتصروا عليهم بمجىء المتوكل العباسي في عدائهم للأشاعرة - الذين كانوا يرمون المعتزلة معهم من قوس واحدة - حتى لا يرى شيخ الحنابلة كما قدمنا بأساً في لمن أبي الحسن الأشعري ، وحتى يمنعوا الخطيب البغدادي من دخول المسجد الجامع لدهابه في علم الكلام مذهب الأشعري ؟ ثم بعد أن تنفس الأشاعرة الصعداء بعد ذهاب سلطان الحنابلة بمرور الزمن ، وصار مذهبهم هو المذهب الرسمي ، ما ذنب مخالفهم في عقيدتهم حتى يكونوا مطاولي الدم إن جبروا بما يروون كما روينا عن المقرئ ؟

ومهما يكن فهذا جانب من موقف رجال الدين من علم الكلام ورجالاه وكتبه ، ومنه يتبين أنهم كانوا يعتبرونه مدة طويلة علماً مقيناً بغضاً لا يتفق الخوض فيه والدين الحق . ولم يكن هذا بالشرق فقط بل كان بالمغرب أيضاً ، حتى إنه لما تولى علي بن يوسف بن تاشفين الحكم بعد وفاة أبيه عام ٤٩٣ هـ قرر الفقهاء عنده تنقيح علم الكلام وأنه بدعة في الدين ، حتى استحكم في نفسه بغضه وأهله ، فكتب لبلادمشداً في نبذ الخوض في شيء منه ، وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه (٢) بل إن ابن تاشفين هذا أمر بإحراق كتب حجة الاسلام الغرالي نفسه لما دخلت المغرب ، وتوعد بالقتل من خاطر نفسه فافتى شيئاً منها ، لأنه قيل له إنها مشتملة على الفلسفة ، وفعل ذلك قبل أن يطلع عليها أو يعرف ما فيها ! (٣)

والآن نترك الحديث فيما يتصل بعلم الكلام ، وننتقل لمرض موقف رجال الدين من الفلسفة ورجالائها ، فإلى اللقاء إن شاء الله تعالى ما

محمد يوسف موسى

- 
- (١) كتاب الانتصار المذكور طبع دار الكتب ص ٤١ .  
 (٢) المعجب للمراكشي نشر دوزي ص ١٢٣ .  
 (٣) نفسه ص ٩٦ وطبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي ج ٤ ص ١١٤ .



( انظر تعليقنا على هذا المقال في الصفحة التالية )



## الحكمة القرآنية والفلسفة اليونانية

نشرنا المقال السابق لفضيلة الأستاذ الأملئ الشيخ محمد يوسف ، وإنا لنشئ على حسن تقديره لتقديره ، وعظيم تحمكه من آداب البحث ، راجين له توفيقا عظيما في حياته العلمية والفلسفية .

لاحظ على فضيلته ملاحظات أرى من مصلحة الفلسفة أن أتحدث إليه عنها ، فإن شأن الفلسفة خطير لا يجوز لمن يتولون الرقابة على ثقافة الأمة أن يغفلوه ، وقد علموا أن الذي يوجه الأمم في هذا العصر إلى الفايات هي فلسفتها ، أي الأصول والمبادئ التي تسيطر على عقليتها ، وتتسلط على نفسياتها ، وإن لم يتعين اسمها لدى آحادها ، ولكن يعرفها من يتأمل في دوافعها الأدبية من أبنائها وغير أبنائها . لذلك لا آلو كل ما يكتب فيها هنا تمقيبا ، إذا رأيت ما يوجب ذلك ، تقاديا من أن تارثا أو عددا من القراء لا يوفقون لقراءة ردود قد لا تأتي إلا بعد ظهور جديدة .

لاحظ على فضيلة الأستاذ أمورا :

- ١ — أتى تسرعت بالرد على مقدمات لم تصل إلى موضع بيان الرأي في موضوعها .
- ٢ — أتى قلت ليس من المعقول أن يعادى الأئمة الفلسفة اليونانية ، ويحضون ذويهم على الأخذ عما نفضج من نمرات العلم ، والواقع أن غير المعقول هذا هو الذي كان .
- ٣ — أتى قلت بأن القرآن آتى المسلمين بحكمة تزد أرقى الفلسفات ، والواقع أن الحكمة المذكورة في القرآن تعنى السمة النبوية أو الأحكام والشرائع ، كما ذكر ذلك أبو السعود ، أو القضاء بالوحي ، كما قال القرطبي .

ملاحظاتنا على الملاحظة الأولى :

إن الذي رددنا عليه من مقالة فضيلة الأستاذ ليس قولاً له ورد في صيغة تشكيك ، وجعل تحت البحث ، ولكننا رددنا على حكم له مقرر ، أتى به نتيجة لبحث مدعم ، فليس لنا بعد أن كتب فضيلته : « إن جانباً كبيراً منا لا يزال يخلط في هذه الخصومة ( أي بين الدين والفلسفة ) التي أذكى نارها رجال الدين ضد الفلاسفة والمفكرين » .

وبعد أن كتب : « هذه الخصومة بل هذا العداء ، لم يكن بين رجال الدين والفلسفة وحدها ، بل كان بين الأولين ورجال علم الكلام أيضاً ، كما كان كذلك بين أهل السنة والمعتزلة » .

بعد أن كتب فضيلة الأستاذ هذا وأمثاله ، لم أر أن من التسرع الدافع عن أهل السنة ، وبيان عذرهم في معاداة الفلسفة والاعتزال والكلام ، لأجهل منهم ولا تعصبا ، ولكن لقيامهم

على حكمة آتام القرآن إياها تبرز في صمو أصولها ، وفي بعد مجال نظرها ، كل فلسفة في الأرض ، ولا أستثنى منها الفلسفة العلمية المصرية ، كما بيئت ذلك في مقالات سابقة بالدلائل القاطعة . وما دمت أرى هذا الرأي ، وأملك عليه من الأدلة ما لا يمكن دحضه ، فاني أرى من الحكمة المسارعة الى بيانه ، وخاصة لاني أعتقد أن التشكيك في صدق نظراته الدين الأولين ، واتهامهم بعدم الانصاف والجهل ، يزعم صرح هذا الدين في نظر أهله ، ويمرض بناءه للخطر . وما يدل دلالة حسية على آتى لم أفسر في ملاحظاتي ، وأني كنت من مقال الأستاذ حيال أحكام مقررة ، وآراء ثابتة ، أن فضيلته أهدا في مقاله الثاني ، فزاد في ملاحظاتي قوة جديدة غير منتظرة .

#### ملاحظاتنا على الملاحظة الثانية :

قال فضيلة الأستاذ : « ما قلت أما إنه غير معقول هو الذي كان » ، مشيرا بذلك الى قولي : « فكيف يعقل أن الآتية الدين لم يمنعوا ذويهم من الأخذ بما نضج من ثمرات العلم مهما كان مصدره ، والدين قرروا وجوب تأويل كل نص يخالف ظاهره حكم العلم ، يعمدون الى معاداة الفلسفة ، مع شغفهم بأخذ كل جديد صادفوه لدى الأمم ؟ السبب في ذلك هو ما ذكرناه في عدد سابق ، ووعدنا بنسط القول فيه ، أن المسلمين لم يجاقوا الفلسفة اليونانية سذاجة وبلاهة منهم ، ولكن لأنه كان لديهم فاسفة آتام إياها القرآن تسمو على كل فلسفة في الأرض ، وتحلها على ما هي عليه أوهاما لا يقام لها وزن » .

واستدل فضيلة الأستاذ على أن ما قلت في هذه الفقرة إنه غير معقول هو الذي كان ، بما فعله عبد الله التيمي من إحراق مؤلفات عبد السلام بن عبد القادر المعروف بالمكن وحجسه . واستدل الأستاذ على ذلك أيضا بما أفتى به ابن الصلاح والنووي بتحريم دراسة المنطق ، وبما أتهم به الأستاذ الامام الشيخ عبد الله بالإلحاد لصاحبه بتدريس العلوم الحديثة بالأزهر . ثم قال فضيلته . « فهل لا يعد هذا جهلا وحسدا وبغيا ؟ »

نقول : نعم نعم ، أي جهل وأي حسد وأي بني ، حملت عجمة في الحوادث التي رواها الأستاذ في هذا الموطن !

ولكنها من حوادث القرن السادس والسابع الهجري ، أي عصر الندهور الاعتقادي والنقاي والسياسي للمسلمين ، العصر الذي كانت فيه الأفطار الإسلامية موزعة بين أصحاب المفاخرات من التركان والفرس والديلم وصنائعهم ، العصر الذي قال فيه الشاعر :

وتفرقوا شيما فكل مدينة فيها أمير المؤمنين ومنبر

العصر الذي لو كان أحرق فيه علماء بالنار ، أو ألقى بهم من شواحق الجبال ، بسبب

ما حيك في حقهم من الوشايات ، لما كان ذلك بمجيب . ولو أراد عدو للمسلمين أن يحكم على الإسلام وأئمة بما يتصيد من الحوادث الشاذة المنكرة التي كانت تحدث هنا وهناك في دور تدهورهم ، لكتب عنه وعنهم تاريخاً مخزياً ، ولكنه يكون في الوقت نفسه قد ارتكب خطأ تلزمه تبعته ما بقي لكتابه أثر في الأذهان .

إنما يكتب تاريخ الأديان بالاستناد إلى نصوص كتبها ، وإنما يكتب تاريخ الآخذين بها بدراسة تأثيرها فيهم أيام ازدهار أصولها ، وسلطان مبادئها ، وتوافرهم على العمل بها . هذه هي القاعدة العلمية في الحكم على الأديان وعلى أئمتها .

ثم زول الإسلام حوالي سنة ٦٣٠ الميلاد ، فما مضى عليه قرن حتى كان ملك المسلمين أوسع ملك عُرف في تاريخ الأمم ، حتى الأمة الرومانية ، وما تلاه قرن آخر حتى وصل المسلمون إلى زعامة للعالم كله في العلم والأدب والسياسة ، وكان من آثار هذه الزعامة حدوث انتقالات أدبية وسياسية واجتماعية في الأمم كافة ، حولتها من حال إلى حال آخر .

هذه حوادث لا يمكن نكرانها اعترف بها جميع مؤرخي الأرض ، فهل تمت اتفاقاً ومن طريق الخطأ ، وبمصادرة الآراء الجديدة ، والتضييق على أهلها وإحراق كتبهم ؟ .

المؤرخون الأجانب ، بله المسلمين ، تكفلوا ببيان أسباب هذه الانتقالات الأدبية التي أوجدها الإسلام ، فدكروا أن المسلمين بعد وفاة نبيهم لست سنين ، شرعوا يطلبون العلم من جميع مظاهره ، وكانوا كلما اتصلوا بأمة تنفقوا أفضل ما لديها منه ومن حكمة وفن ، ثم علم المسلمون أن تلك الخمائم على ما كان عندها من المعارف كانت في دور تدهور ، وأن أسلافها كانوا أغزر منها علماً وأرفع مدنية ، وأن كتبهم موجودة في خزائن موصدة ، فعملوا على الحصول على تلك الكتب ، ولكن كيف السبيل إلى فهمها ؟ عمدوا إلى استخدام المترجمين من السريان والإسراييليين والمجوس والنصارى ، وأغدقوا عليهم المال لينمكنوا من نقل تلك الكتب إلى العربية .

فكان أمراء المؤمنين ، والقادة ، والوزراء ، والحكام ، والسراة ، يتسابقون إلى استخدام هؤلاء المترجمين ، ويغفرونهم بالأعطيات ، وصنوف الرعايات ، ليقوموا بإبراز مكنونات تلك الكتب .

فهل كل هذا كان يمكن حدوثه إذا كان الإسلام لا يشجع على العلم ، وكان أئمة يصدون عنه ، ويضمون في سبيله العقاب ؟

بدأت حركة الترجمة والنقل في عهد الخليفة المنصور سنة ( ١٣٠ ) فشحج عليها ، وازدادت نشاطاً على عهد أولاده المهدي والمهدي وهرون الرشيد ، ولما ولي المأمون زاده قوة وازدهاراً ، حتى كان يشغل هو نفسه بعلم الفلك ويناقش فيه أهله الراسخين .

في هذا المدى الذي يبلغ نحو مائتين وخمسين سنة ، نفع جميع أئمة المسلمين أصحاب المذاهب الفقهية ، وأعلام المفسرين والمحدثين ، فهل يحفظ عن واحد من هؤلاء صدق عن العلوم الطبيعية النافعة ، أو تحقير للمستغنيين بها ، أو شكوى من انصراف جمهور كبير الى تلقبها وإتقانها ، والذهاب بها الى أبعد غاياتها ؟

وهل كان منهم من أفتى بحرمة تعلم المطلق ؟ كيف يكون ذلك وقد برعوا فيه وجعلوه من أسلحتهم في تقرير الأصول الاعتقادية والعقبة ؟

إذا كان على عهد هذه النهضة العلمية الواسعة السطاق ، البعيدة المدى في المائتين والخمسين سنة الأولى للإسلام ، أن الاشتغال بالعلوم الطبيعية والفنون يناقض المبادئ الإسلامية الحقة ، فما الذي كان يمنع الأئمة الأولين من مؤسسي فقه الدين وشريعته وأصوله وفروعه من أن يشوروا عليه ، أو ينجسوا في كتبهم إليه ؟ وقد كانوا من الحساسية الدينية بحيث لم يدعوا الصغريات تقع عليها أعينهم إلا شهروا بها ، وحذروا منها ، فهل كانوا يرون هذا النهم الجالح من المسلمين لاقتباس العلوم والفنون الأجنبية ولا يحذرونهم منها إن كان فيها ما يكرهه الدين ؟ أما وقد سكتوا عنها ، وتركوا الناس أحرارا في شفاء أوامهم منها ، فعنى ذلك أنهم لم يروا بأسا في تعلمها ، بل رأوا أنها مما لا بد منه لرفع مستوى الانسانية ، وصقل المواهب النفسية ، وزيادة المرافق العمرانية ، ولكي لا يؤتى المسفون من قبلها بكارثة عدوانية . لذلك رأيناهم أحلوا تعلم كل شيء حتى السحر ، فقال قائلهم : تعلم السحر ولا تعمل به ، غرموا العمل به ولم يحرموا تعلمه . ( ارجع الى باب الفتوى في هذا العدد ) .

بهذه الروح الخالصة من جميع شوائب الجهل والتعصب ، أطلق أئمة المسلمين الأولين ، عملا بسماحة الإسلام ، الحرية للناس في أخذ كل ما كان يروقهم في ديار مقهورهم من العلم والصناعة ، حتى تفردوا في العالم كله بزمامة عامة ، لم تتمتع أمة قبلهم ولا بعدهم مثلها .

فلما توالى القرون بعد ذلك العصر الذهبي للإسلام ، وأخذ الملك الإسلامي يتفتت ، واغتصبت الحكومات الاقليمية عصايات من أحناش شقي ، انحط مستوى العلم الديني ، وضعف أهله ، وتدهورت عقليتهم ، وراجت الأحاديث الموصوعة ، والخرافات المصنوعة بينهم ، وترك القائلون بالامر جيلهم على غارهم ما داموا لا يتعرضون لسلطانهم المطلق الجائر بكلمة ، فصدرت في هذه العهود تعاليم تناقض صريح الكتاب والسنة ، وراجت بدع كان الغرض منها حر المذاهم الى القائلين بأمر الدين ، حتى صارت الفتاوى تباع وتشترى .

فاذا كان فضيلة الاستاذ الكاتب يتخذ من هؤلاء أمثلة على ما كان عليه أئمة الدين الإسلامي من قصر النظر ، وضيق الصدر ، والجهل والبنى والحسد ، فليس هذا بالأسلوب الذي يقوم عليه البحث التاريخي ، والنقد العلمي ، وليس مثله يقدم عليه .

### عهداء الآئمة الأولين للمعتزلة وعلماء الكلام :

الدين حاجة من أفعال حاجات النفس تأثيراً في العقل ، وتحكما في العواطف ، ولا يوجد شيء ضمنى الإنسان في سبيله نفسه وماله وولده غير الدين . وقد سد الخالق الحكيم هذه الحاجة فيه بأديان شرعها له في خلال القرون ، فكانت كلها تقادم على واحد منها العهد انحرف عن صراطه ، وطمست الآراء والتأويلات حقائقه ، حتى كان الزمان الأخير ، فشرع الخالق الاسلام يعدل للناس فيه كل عوج نادوا اليه بمخروجهم عن الصراط السوى ، الذي نهجه لهم في الأديان السابقة ، وأحاطه في وحيه الأخير من الحواظ بما يحميمهم من كل تأويل له يدفعون فيه .

أمرهم فيه بأن يطلبوا العلم من مظانه ، وأن ينتخبوا مما يلقي اليهم منه فلا يأخذوه إلا ممزقا بالدليل ، وحنهم على إقامة سلطان العقل ، فلا يقبلون كل ما يقدم لهم حتى يزروه بقسطاسه ، ويحكموه الى أولياته ؛ ونهاهم عن الأخذ بالظنون ، والتمسك بالآوهام ، والخضوع للأهواء ، والتقليد للكبراء ، والانخداع بالظواهر ، مكثرا لهم من سير الصالحين والمصلين ، معددا لهم في ألوان باهرة من البيان سير الخادعين والخدوعين ، ومصائر المقلدين والمقلدين ، غير معتمد بمذر الجاهلين ، ولا بذلة المستضعفين ؛ ملقيا التبعة على كاهل الساكن عن السبيل ، ما دام قد جعل له عقلا يدرك ، وقلبا يمي .

وقد شدد الاسلام على أهله في وجوب تجنب الخلاف حتى في سبيل فهم بعض الكلام الإلهي ، فبين لهم أن في كلامه آيات محكمات لا يتردد العقل في إدراكها ، وأخرى متشابهات تنشعب عليها الفهوم ، وتنشعب فيها المفاهيم ، فحذر من الاشتغال بها ، ونص على أن من يحاول تأويلها يعتبر زائفا عن الصراط القويم .

كل ذلك لتتوحد وجهة الناس فيما ينفذ عقولهم وقلوبهم ، وينفع أرواحهم ، ويبين وجودهم ؛ أما قيل وقال ، وكثرة التساؤل ، والتمادي فيما لا يمكن أن تنعق فيه المذاهب بحال ، فقد عده من عمل المتبطلين ، وشغل المبطلين ، وعرضا من همزات الشياطين ، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أراد الله بقوم سوءا إلا آتاهم الجدل » . وقد ورد في هذا المعنى عشرات من الأحاديث الصحيحة .

ليس مقصد الاسلام من كبح العقول عن تفهم المسائل الغامضة ، أن يبقوا في الظلام البهم ، وأن يؤمنوا بدون نظر ولا تمحيص ، بدليل أنه طالهم بالدليل على ما كلمهم الإيمان به من الكليات الأساسية ؛ والتدليل لا يكون إلا بعد نظر وفهم وتحقيق ؛ ولكنه نهام عن الجدل فيما لم يكلفهم الإيمان به من الأمور التي لا تصل الى فهمها وتمحيصها العقول .

فإذا كان دين في الأرض تآني طبيعته أن ينشأ فيه اعتزال وعلم للكلام فهو الاسلام . ولكن جماعات العقول ، واندفاعات الميول ، حفزت الى نشره هاتين العقبتين من لذن القرن الثاني للهجرة ، وجرت الى خلافت وسازعات بأهاها الاسلام ويتشدد في الهى عنها ، ونحن قبل أن نقول كلتنا في هذا الموضوع نعطى القارئ فذلك من تاريخ هذا العلم كتبها بقلمه في كتابه (رسالة التوحيد) العلامة الحجة زعيم النهضة الدينية في هذا العصر الشيخ محمد عبده . قال رحمه الله :

« كانت أول مسألة ظهر الخلاف فيها مسألة الاختيار واستقلال الانسان بإرادته وأفعاله الاختيارية ، ومسألة من ارتكب الكبيرة ولم يتب ، اختلف فيها واصل بن عطاء (١) وأسناذه الحسن البصري واعتزله يعلم أصولا لم يكن أخذها عنه .

« تفرقت السبل باتباع واصل ، وتناولوا من كتب اليونان مالا يقبل بعقولهم ، وظنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما أثبتته العلم بدون تفرقة بين ما كان منه راجعا الى أوليات العقل ، وما كان سرا في نظر الوم ؛ فغلطوا بعارف الدين مالا ينطبق على أصل من أصول النظر ، ولجوا في ذلك حتى صارت شيعهم تعد (المشركات) ، أيدهم الدولة المباسية وهي في ريمان القوة ، فغلب رأيهم ، وابتدأ علماءهم يؤلفون الكتب ، فأخذ المتمسكون بمذهب السلف يناصرونهم معتصمين بقوة اليقين ، وإن لم يكن لهم عضد من الحكمين .

الى أن قال أحزل الله نوابه :

« جاء الشيخ أبو الحسن الأشعري في أوائل القرن الرابع ، وسلك مسلكه المعروف وسطا بين موقف السلف ، وتطرف من خالفهم ، وأخذ يقرر العقائد على أصول النظر ، وارتاب في أمره الأولون ( يريد الواقفين مع مذهب السلف ) ، وطمع كثير منهم في عقيدته ، وكفره الخيانة واستباحوا دمه ، ونصره جماعة من أكابر العلماء ، كأبي بكر الباقلاني وإمام الحرمين والأسفراييني وغيرهم ، وصموا رأيه بمذهب أهل السنة والجماعة .

« غير أن الباصرين لمذهب الأشعري بعد تقريرهم ما بنى رأيه عليه من نوايس الكون ، أوجبوا على المعتقد أن يوفق بتلك المقدمات وتتأجها ، كما يجب عليه اليقين بما تؤدي اليه من عقائد الإيمان ، ذهابا منهم الى أن عدم الدليل يؤدي الى عدم المدلول . ومضى الامر على ذلك الى أن جاء الإمام الغزالي والإمام الرازي ومن أخذ مأخذها فخالقهم في ذلك ، وفرروا أن

(١) هو واصل بن عطاء تلميذ الحسن الأشعري خالفه في مسائل واعتزله قسم أتباعه المنزلة لهذا السبب نول سنة ١٨٩ للهجرة .

دليلاً واحداً أو أدلة كثيرة قد يظهر بطلانها ، ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو أقوى منها فلا وجه للحجج في الاستدلال (١) .

« أما مذاهب الفلاسفة فكانت تستمد آراءها من المكر الخس ، ولم يكن من سم أهل النظر من الفلاسفة إلا تحصيل العلم ، والوفاء بما تندفع إليه رغبة العقل ، من كشف مجهول أو استكناه معقول ، وكان يمكنهم أن يبلغوا من مطالبهم ما شاءوا ، وكان الجمهور من أهل الدين يكفهم بحجته ... »

« لكن يظهر أن أمرين غلبا على غالبهم ، ( الأول ) الإحجاب بما نقل إليهم عن فلاسفة اليونان ، خصوصاً أرسطو وأفلاطون ، ووجدان اللفة في تقليدها لبادي الأمر . و ( الثاني ) الشهوة الغالبة على الناس في ذلك الوقت ، وهو أشأم الأمرين : زجوا بأنفسهم في المنازعات التي كانت قائمة بين أهل النظر في الدين ، واسطدعوا بعلومهم في قلة عددهم ، مع ما الطبع عليه نفوس الكافة ، قال حماة العقائد عليهم . وجاء الغزالي ومن على طريقته فأخذوا جميع ما وحدوا في كتب الفلاسفة مما يتعلق بالالهيات ، وما يتصل بها من الأمور العامة وأحكام الجواهر والأعراض ، ومذاهبهم في المادة ، وتركيب الأجسام ، وجميع ما ظنه المشتغلون بالكلام يمس شيئاً من مباني الدين ، واشتدوا في نقده (٢) ... »

« ثم جاءت فنن طلاب الملك من الأجيال المختلفة ، وتغلب الجهال على الأمر ، وفشكروا بما بقي من أثر العلم النظري النافع من عبون الدين الإسلامي ، فانحرفت الطريق بسالكها ، ولم يعد بين الناظرين في كتب السابقين إلا تحاور في الالتاظ أو تناظر في الأساليب ، هل أن ذلك في قابل من الكتب اختارها الضعف ، وفضلها القصور . »

« ثم انتشرت الفوضى العقلية بين المسلمين تحت حماية الجبهة من ساستهم ، فجاء قوم ظنوا في أنفسهم ما لم يعترف به العلم لهم ، فوضعوا ما لم يعد للإسلام قبل باحتاله . غير أنهم وجدوا من نقص المعارف أنصاراً ، ومن البعد عن يتابع الدين أعواماً ، فشردوا بالمقول عن مواطنها ، وتحكوا في التضييل والتكفير ، وغلوا في ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الأمم دهمى المداوة بين العلم والدين الخ » .

هذا كلام الإمام الحجة الشيخ محمد عبده ، ومنه يتضح للقارئ كيف نشأ علم الكلام في الإسلام وعلى أي أساس قام ، وكيف تطور في اتجاهات مخالفة لمذهب القرآن حتى آل الى شر مآل .

(١) وقد تحقق رأى حجة الإسلام الغزالي والإمام الرازي فظهر بطلان كثير من تلك المستندات ، وظهر اليوم غيرها أقوى منها بما لا يقاس عليه .

(٢) وقد ظهر اليوم لمن لهم إلمام بالفلسفة اليونانية أنها كانت تقوم من بناء الوجود على الاوهام ، وعلى ما يورده التصور من الخيالات .

يشكو فضيلة الأستاذ كاتب المقال اليوم مما لقيه علماء الكلام من أئمة المسلمين من العداوة والاضطهاد ، وما وجده المعتزلة منهم من الكراهية والعناد ، فإذا كان يريد أن يكون عليه أولئك الأئمة حيال قوم ذهبوا في الخلاف كل مذهب ، حتى أصبحت فرقهم كما يقول الامام الشيخ محمد عبده تمتد بالعشرات ؟ هل كان عليهم أن يفضوا الطرف عن هذه الفتنة الشاذية لوحدة الاسلام ، والوحدة أساسه الأول الذي يقوم عليه ، ووصفه المميز له عن سائر الملل ، والله يقول : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء » ؟

ولو كلف أحدا نفسه ونظر في موضوع خلافهم لمعب من قوم لم عقول تدرك مختلفون على أشياء لو تم في آجالهم حتى همروا الى قيام الساعة ، لما وصلوا من العلم بها الى شيء ، ولو رجعوا الى الكتاب لوجدوه يمدحها من المنشاجات وينهاهم عن الاشتغال بها باسم القرآن .

أنا لا أنكر أن للعقول شهوات جامحة ، وميولا طارئة ، تدفع الفكر في تيارها ، وخاصة في عهد طفولة الأمم ، الى ما لا يصح التعسك فيه ، فتمتد عن المعتزلة بهذا ، ولكن كان يسعهم أن يفكروا في مسائلهم المويضة لحسابهم الخاص تحت أى اسم شاءوا . إذا كانوا فعلوا ذلك ما كان تعرض لهم أحد ، ولكنهم اشتغلوا بها لحساب الدين ، وانتدبوا لشهرها بين المسلمين ، وجلسوا في المساجد للمجادلة فيها والدين ينههم عنها وعن أمثالها ، ولم يحملهم تبعه جهلها ، فلم يكفهم أن يخالفوا الكتاب بالبحث فيها ، ولكنهم اختلفوا فيها اختلافا شديدا ، حتى كانت تعد مذاهبهم بالعشرات ، كما يقول الامام الشيخ محمد عبده ، وكفر بعضهم بعضها عليها ، فضربوا للناس محالهم أسوأ الامثال . فلو كان خف حلم المسلمين وجنحوا إليهم فيها ، لكان شاع بين جماعتهم خلاف لا يقف عند حد ، ولا نشقت عصام ، وتصدعت جماعتهم ، وبادوا كما بادت قباهم ثم اشتغلت بأمثال هذه المسائل ، ولكانت النتيجة أن الدين الذي شرع لتوحيد الأديان والمذاهب ، يقع هو نفسه في شر مما جاء لمداوانه من أدواء العقل البشري !

ومما يدل ذلك بحسب على أنهم كانوا يفتنون بمسائل لا نهتم بها العقلية الانسانية اهتماما جديا ، أن أحدا ممن يعتد بعقله لا يشتغل بها اليوم لا هنا ولا في أية بقعة من بقاع الأرض . فأي فافل يستعج أن يسأل هل القرآن قديم أم محدث ، وهل صفات الله متصلة به أم خارجة عنه ، وهل مرتكب الكبيرة يعتبر مؤمنا أم كافرا ، وهل أطفال الكفرة يخلدون في النار الخ الخ ، مما توجه على أهلها الثقافة الناقصة ، والعقلية الطفلة القاصرة ؟

فهل يلام أئمة اسلاميون على أنهم حاولوا أن يقاوموا تأثير هؤلاء المنحرفين ، وأن لا يدعوم يمدحوا بأمثال هذه الوسوس وحدة المسلمين ؟

نحن الآن في زمان نارت في نفوسنا رغبة ملحة في ترميم خطوات الأئمة المهديين في أي عصر كانوا ، وبأي مظهر ظهروا ، أحرارا غير مقيدين ، فهل فينا واحد ، حتى من الذين



يدافعون عن المعتزلة والمتكلمين ، يقبل أن ينصحوا بأن نشغل بئس ما كانوا به يشغلون ؟ وهل فينا من يمكنه بعد إطالة البحث والتقيب ، أن يدلنا على مسألة كانوا يقنون أيامهم في المحادثة والملاحة فيها ، يصح أن تحتذى مناهجهم في الاشتغال بها على أسلوبا ، ونجعلها شغلا شاغلا لنا كما كانوا يفعلون ؟

يجوز أن يكون وقع من بعض الذين وقفوا في وجه هذه الطوائف من أهل السنة في القرون المتأخرة غلو في العدوان ، أو صدر منهم ما يعتبر مثل سوء في الرجعية وسوء النية ؛ فهذه الجزئيات تحدث في كل أمة ، وفي ميمان كل ملاحاة ، وهي لا تهم الفيلسوف المعاصر ، ولكن الذي يهمه هو أن يعرف هل كان في مذاهب تلك الطوائف ، وقد تركت لها حرية القول والتأليف أجيالا ، ما هو نافع جدير بأن يتولاه ناموس الانتخاب الطبيعي ، فأبده واستبقاه على الرغم من كل ما ساط عليه من عوامل الإحماض ، كما هو شأن كل حق من يوم أن خلق الله المخلوق إلى اليوم ؟

الذي هو ظاهر للميان أنه لم يكن فيها ما يستحق البقاء ، خصوصا وكل ما قالوه موجود تحت أنظار الناس اليوم ، لا يرفع به أحد رأسا ، ولا يقيم له وزنا .

#### الحكمة الإسلامية فلسفة تيز أرفع فلسفة في الأرض :

قلنا إن أئمة المسلمين لم يبايزوا الفلسفة اليونانية سذاجة وبلاهة ، ولكنهم كانوا في منازعتهم إياها يصدرون عن حكمة آتاهم إياها القرآن ، لا تعد الفلسفة اليونانية إراءها إلا كما بعد المصباح إراء الشمس في رابعة النهار ، فلم يقتنع فضيلة الأستاذ السكاتب بهذا القول ، وقال إنه بالرجوع إلى التفاسير يتضح أن كلمة الحكمة في الآيات التي أوردناها لا تدل على الفلسفة حتى ما كان منها قائما على النظر الصحيح ، ولكن يراد بها ( السنة النبوية ) أو ( الأحكام والشرائع ) أو ( القضاء بالوحي ) .

أقول : إن حصر مدلولات الألفاظ القرآنية فيما فهمه منها أفراد من المتقدمين ، لم يقل به أحد من أئمة المسلمين ، فإذا قال أبو السحود إنها الأحكام والشرائع ، وقال القرطبي إنها القضاء بالوحي ، وقال غيرها إنها السنة النبوية ، فأنا أقول ، والدليل يؤيدني ، إن المراد بها الأصول والمبادئ التي أطلق على أمثالها كلمة الفلسفة في كل أمة ، والفرق بينهما أن تلك أصول ومبادئ تزل بها الوحي ، وهذه أصول ومبادئ جاء بها العقل . فإذا قرأت قول الداروينيين بأن في الطبيعة صلا انتخايبا يستبقى الأصاح للبقاء وبني مادونه مما لا يصاح له ، عدت هذا أصلا فلسفيا ، فإذا قرأت قوله تعالى : « فأما الزيد فيذهب جفاء » وأما ما ينفع للناس فيمكث في الأرض ، قال أي باب من أبواب الأغراض القرآنية أنسبه ، إلى باب العبادات ، أم

المعاملات أم الأحكام ، أم الشرائع ، أم القضاء بالوحي ، أم إلى السنة النبوية ؟ لا أستطيع أن أنسبه إلا إلى الحكمة القرآنية ، التي جعلت لتوجيه الأمة الإسلامية علميا وعمليا إلى الوحدة الموصلة إلى السكال الذي خلق الإنسان ليصل إليه ، وهذا غرض كل فلسفة في الأرض .

وإذا قرأت في علم الاجتماع قولهم : إن للأمم نوااميس مقرررة تحيا على موحها وتتطور ، ثم نضمحل وتنتلشى ، عددت هذا أصلا من أصول الفلسفة الاجتماعية ، وإذا قرأت قوله تعالى : « سنة الله في الدين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا » فإلى أى باب من أبواب الأغراض القرآنية أعزوه ؟ أنا مضطر أن أعزوه إلى الحكمة القرآنية .

وإذا قرأت في الفلسفة أصولا كثيرة ، وقرأت في القرآن قوله تعالى : « إنا كل شئ خلقناه بقدر » ، وقوله : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبيلا ، وإن الله لمع المحسنين » ، وقوله : « من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها » ، وقوله : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، وقوله : « وهو يتولى الصالحين » ، وقوله : « فإذا بعد الحق إلا الضلال » ، وقوله : « إن الباطل كان زهوقا » ، وقوله : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فإذا هو زاهق » ، وقوله : « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسه » ، وقوله : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، وقوله : « وقل رب زدنى علما » ، وقوله : « ويجعل الرحمن على الذين لا يعقلون » ، وقوله : « قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كانت آباءؤم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » ، وقوله : « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون » ، وقوله : « ولا تأتف ما ليس لك به علم » ، وقوله : « وما يتبع أكثرهم إلا ظلا ، إن الظن لا يغنى من الحق شيئا » ، وقوله : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ، وقوله : « بشئى أعلم إن كنتم صادقين » ، وقوله : « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس » ، وقوله : « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » ، وقوله : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » الخ الخ .

هذه آيات قرآنية من عشرات أمثالها مبنوثة في الكتاب الكريم ، أزلهها موحى القرآن لأقامة العقلية الانسانية على السكّن الطبيعى ، خالصة من حجب الاهواء والالوهام والظنون ؛ نقية من آثار العقائد الموروثة والتقاليد المتبقية ، حاملة على جميع ما تقتضيه الخطة الادبية من سماع كل ما يقال ، واتباع أحسنه ، ولكن بعد التثبت منه ، ونحرى الدليل عليه ؛ متجردة لطلب العلم الصحيح باعتبار أنه أساس كل رقى ومعنوى ، وهى سالك كل وجود شخصى واجتماعى ؛ أليس هذا غرض كل فلسفة في العالم ؟ أهى شئ غير جبهة من أصول ومبادئ تؤدى الآخذ بها لأحسن موقف عقلى وأدبى يمكن أن يقفه الإنسان في الحياة وحيال الوجود ، متعرضا على موجهه لنفحات العلم ، وتطورات الرقى ؟

إن هذه الحكمة القرآنية أخذت بها أمة بدوية لا عهد لها بكتاب ولا حكمة، فنالت زمامة العالم في العلم والسلطان والسياسة والصناعة في نحو قرنين من الزمان، فإن كانت يُصنَّ عليها بلقب فلسفة، فربما كان للضائين بذلك الحق باعتبار أنها أرقى من الفلسفة بما لا يقدر !

الفلسفة اليونانية وغيرها لم تخلق أمما، ولكن الأمم هي التي خلقتها، وهذه الحكمة القرآنية أوجدت من العدم أمة كان لها أثر في الأرض لا يشبه غيره، ولا تزال الحكمة التي أوجدتها حية، وسينتهي الأمر بسيادتها على كل فلسفة في الأرض؛ ألم ثبت للقارئ في مقالة لنا نُشرت بالعدد الرابع أن الفلسفة العلمية في أوروبا آتت إليها بعد تطورات دخلت فيها في قرون طويلة؟

بما يدرك دليل محسوس على أن المراد من كلمة الحكمة في القرآن هي الأصول والمبادئ التي ذكرناها قوله صلى الله عليه وسلم: « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها ولو من مشرك »، فهل يعقل أن السبي يدعو المؤمن ليأخذ عن المشرك علم الشرائع والأحكام، أو القضاء بالوحى أو علم السنة النبوية؟

#### القرآن:

الأمة الإسلامية أمة ذات صبغة طليعة، قامت، خلافا لسائر الجماعات البشرية، على أصول أدبية، ومبادئ خلقية، لا على الحاجات الحيوية، ولا الضرورات المادية، فهي أمة مثالية لم تُقم للفروق الجنسية والفرقوية وزنا. وقد نالت من سلطة السلطان، وعزة الملك، وقوة المساعة، وسمو الثقافة، ما لم تنله أمة قبلها؛ غالبت عقبات النفوس فاجتازتها، وصارمت تقلبات الأحداث وتغادتها.

فهذا البناء الاجتماعي التغم، لا يعقل أن يكون قد قام على الوهم، ولا بد له من أصول مكنية، ووطائد متينة قام عليها، ولا بد كذلك من أن يكون في طبيعته من الحوافظ ما يحميه من أماسير الانقلابات، ومن العوامل ما يدفعه لضروب التطورات.

فإذا كان قوام هذا كله القرآن، كما هو معلوم بالضرورة، وجب أن نلتصق سر هذا البناء التغم على ما اقتضاه من أصول اجتماعية، وقوى أدبية، وعوامل عمرانية، في هذا القرآن. فهل يستكثر على كتاب هذا أثره الخالد، أن تكون فيه حكمة تقيم أهله على أقوم السبل الحيوية، وتوجه عقولها ونفوسها إلى أسمى الوجاهات الأدبية، بحيث تفوق في دقة أشهر فلسفة في الأرض؟

وقد ثبت أن أهل هذا الكتاب أبوا أن يقوموا تحت سلطان الفلسفة اليونانية وطفوا عليها، وصدوا عنها، فهل منهم ذلك أن تكون لهم الزمامة العلمية والسياسية في الأرض؟

محمد فريد وجدي

# حياة خلافة الإمام الصادق

أبو بكر الصديق

- ٨ -

موقفه في صلح الحديبية

لا نكاد نخطو في حياة الصديق رضي الله عنه حتى نجد في كل خطوة مرابجا من سرج العظمة الايمانية ، يكشف لنا عناصر العبقرية التي تفرد بها أبو بكر رضي الله عنه ، ويطلعنا على منازع التفكير عنده ، وأنه يتزع بغرب من منافع الحياة النبوية ، وأن الله تعالى احتصه بما لم يعطه أحدا من أتباع النبيين ، فكان لذلك خیرم إيمانا ، وأرجحهم سياسة ، وأحسنهم تفكيرا ، وأبعدهم نظرا ، وأهداهم طريقا ، وأرشداهم نصحا لله ورسوله والناس أجمعين

أسلفنا في مقالنا السابق الحديث عن موقف الصديق رضي الله عنه في أسارى بدر ، وما جعل الله تعالى في رأيه من خير وبركة على الاسلام والمسلمين ، وما تكشف عنه الغيب من تقدير صالح في عواقب ذلك الرأي الرحيم ؛ والآن نحدثك عن موقف من مواقف الصديق رضي الله عنه في مرحلة من أدق مراحل النضال الاسلامي ، تزلزلت فيه أقدام الراسخين ، واضطرت له قلوب المؤمنين وأفكار المسلمين ، فكان موقف الصديق عنوان رسوخ الإيمان ، والنظر من وراء سحج الغيب بنور الله ، وكان آية صادقة على ما أمد الله تعالى به صديق نبيه ووزيره وخليفته من تسديد الرأي وتوفيق التفكير ؛ وحسبنا أنه موقف يقول فيه القارون ، وهو من هو : « لقد دخلني أمر عظيم ، وراجعت النبي صلى الله عليه وسلم مراجعة ما راجعته مثلها قط » .

روى البخاري في الصحيح وأصحاب المغازي « أن بديل بن ورقاء الخزاعي جاء الى رسول الله في نفر من قومه ، فقال : إني تركت كعب بن لؤي وعاصم بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية ومعهم العوذ المطافيل ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لم نجئ لقتال أحد ، ولكننا جئنا معتمرين ، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضررت بهم ، فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخولوا بيني وبين الناس ، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد جئوا ، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لا تأذنهم على أمرى هذا حتى تفرد سالفتي ولينفذن الله أمره ! » وفي رواية « فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم عينا له ،

فأنابه عينه ، فقال : إن قريشا جمعوا لك جهوما ، وم مقاتلوك وصادوك عن البيت وما نعوك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أشيروا علي أيها الناس ، أترون أن أميل إلى عيالمهم وذرائهم هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت ؟ » فقال أبو بكر رضي الله عنه : « يا رسول الله ، خرجت عامدا لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد ، فتوجه فئن صدنا قاتلناه » ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « امضوا على اسم الله » .

في هذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أنه جاء سلما ، وأنه لا يريد قتال أحد ، وأنه اعتذر لقريش لو قبات ، وأنه يعطيها فرصة الاستحمام حتى تستمد لو شاءت قتالا ، ومن وراء ذلك عزيمة صارمة إذا ركب قريش رأسها ، ولكن المسلمين ولا سيما الأنصار كانوا يرونها حربا شعواء ، حتى كان حامل لوائهم سعد بن عبادة يرتجر في فتح مكة قائلا : اليوم يوم المصحة ! فلما توالت الرسل وجاء عين النبي صلى الله عليه وسلم يحتره أن قريشا مصحمة على حربهم ومنعه استشار أصحابه ، فكان رأى الصديق رضي الله عنه أن يسير النبي صلى الله عليه وسلم في أصحابه على ما خرج عليه فاصدا البيت لا يتعرض لأحد حتى يصدوه ، فن صدده قاتلوه ، فنهض النبي صلى الله عليه وسلم لرأى صديقه وقال : « امضوا على اسم الله » . وهذا من حسن سياسة الصديق وفضل رأيه ، نمشا مع طبيعته الرحيمة ، لأنه لم يكن في حياته يرمى إلى غلبة الحروب وظفر المارك فحسب ، ولكنه كان يرمى إلى غلبة العقيدة وممو الفكرة ، فإذا تحقق هذا بغير أن تسفك في سبيله قطرة دم كان أحب إلى نفسه وأرضى ، وقد أيداه الله تعالى في رأيه ، فكان في رسل قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من كساة ، وهم قوم يعظمون البدن ، ولا يصدون من أم البيت الحرام ، فاستقبله المسلمون يابون ، والهدى يساق بين أيديهم ، فقال : سبحان الله ! ما ينبغي هؤلاء أن يصدوا عن البيت . فكان هذا أول النصر للمسلمين ، وأول الفضل والفرقة لأحبابيш المشركين ، وتناوبت الرسل فيما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقريش ، وكان فيهم سيد ثقيف عروة بن مسعود ، فرأى من أمر النبي صلى الله عليه وسلم وإعظام أصحابه له ما بحث في نفسه الرعب على قومه وحلفائه ، فوصف ما رأى لقريش ، ودعاها إلى مصالحته ، ولكنه أراد ألا يطمع المسلمين وأن يتمدد لهم لعله يخيفهم ، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم في مفاوضاته : « أي عهد : أرأيت إن استأصلت أمر قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أهله قبلك ؟ وإن تكن الأخرى فاني والله لأرى وجوها ، وإني لأرى أشوابا من الناس خليقا أن يفروا ويدهوك » . فلم يملك أبو بكر الصديق رضي الله عنه نفسه إذ سمع عروة يطمئن في إخلاص المؤمنين لعقيدتهم وهي أعز ما لديهم ، فانهض يرد عليه ردا يغمز عقله وروحولته ويسخر منه ليفل من غرب غروره ، منكرا عليه أشد الإنكار زعمه أن المؤمنين يفرون عن نبيهم ، وقد رأى عروة بعد ذلك من تعظيم

الصحابه للنبي صلى الله عليه وسلم ما كان مؤيداً لرد أبي بكر عليه ، ولكن عروة لم تشأ له عنجهيته أن يترك رد أبي بكر حتى يعلم صاحبه ، فقال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر ، قال : أما والذي نفسي بيده لولا يدك أنت لك عدي لم أجرك بها لأجبتك !

لم نجد قريش وأحابيشها من المؤمنين إلا عزماً وتصميماً ، فالت إلى المصالحه ، وأرسلت سهيل بن عمرو ليكتب بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينها عهد الصلح ، وأخذت قريش لنفسها ما أرادت من الشروط ، وكان من أشدها على المسلمين « ألا يأتي رجل من قريش إلى المسلمين إلا ردوه إليهم وإن كان مسلماً » ، فمظم الأمر على المسلمين جداً ، حتى قال بعضهم : « سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً » ، وبيننا هم كذلك إذ دخل أبو حنبل ابن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده ، فقال سهيل : هذا أول ما أقصيك عليه أن ترده إلى ، فمظم الأمر على أبي حنبل ، وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا حنبل اصبر واحتسب ، فإنا لا نقدر ، وإن الله جاعل لك فرجاً ومخرجاً » ، ووثب عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أبي حنبل يمشي إلى جنبه ويدني قائم سيفه منه ويقول : اصبر ، قال عمر رضي الله عنه : رجوت أن يأخذ السيف مني فيضرب به أباه ، فغن الرجل وتفتت القضية .

هنا تتجلى مراتب الإيمان ، وتظهر درجات النفوس المؤمنة ، وفقاً لفيض الله تعالى عليها ، فان الأمر شديد ، والتسليم به عن طوعية ورضاء أشد ، كيف والمسلمون في عفون قوتهم وقد بدأ الانحلال في عدوم ، وهم يرضون شروطاً يفرضها عليهم ؟ ولكن شأن النبوة فوق قوانين الحياة ، رضي النبي صلى الله عليه وسلم شروط المعاهدة لأنه يعلم ما الطوت عليه من تدبير الله تعالى ، ورضى لرضائه صديقه رضي الله عنه لأنه يعلم ما الطوى عليه رضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من حكم وآيات ، ووقف جميع الناس عند طوق البشرية تغلى صراجهم ، فن يتكلم لهم ؟ لو كان أبو بكر في صفهم لكان محامهم لأنه أقرب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أبا بكر فخره فيض النبوة فصا به إلى ساحة الشهود ، فرضى كل الرضا بما رضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أليس في القوم فاروق الاسلام وهو أشدهم في دين الله ؟ قال عمر رضي الله عنه : « فأتيت نبي الله صلى الله عليه وسلم فقلت : أأنت نبي الله حقاً ؟ قال : بلى ، قلت : أألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى ، قلت : فلم نعطى الدنيا في ديننا إدا ؟ قال : إني رسول الله ولست أعصيه ، وهو ناصرى ، قلت : أوليس كنت نحمدكنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : بلى ، فأخبرت أنك تأتيه العام ؟ قلت : لا ، قال : فأنتك آتية ومطوف به » . قال عمر رضي الله عنه : « فأتيت أبا بكر ، فقلت : يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً ؟ قال : بلى ، قلت : أألسنا على الحق ؟ قال : بلى ، وعدونا على

الباطل ؟ قلت : فلم نعطى الدنية في ديننا إذا ؟ قال : أيها الرجل ! إنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليس يعصى ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بفرزه ، فواؤه إنه على الحق ! قلت : أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ، فأخبرك أنك آتية العام ؟ قلت : لا ، قال : فلك آتية ومطوف به . قال عمر رضي الله عنه في رواية ابن اسحاق : « ما زلت أنصدق وأصوم وأصلي وأعنت من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به » .

قال القسطلاني في المواهب : « وأما جواب أبي بكر لعمر رضي الله عنهما بمثل جواب النبي صلى الله عليه وسلم فهو من الدلائل الظاهرة على عظيم فضله ، وبارع علمه ، وزيادة عرفانه ورسوخه ، وريادته في ذلك على غيره » . وذكر ابن القيم في روضة المحبين أن الرواية وقعت في بعض المغازي بعكس ما في البخاري ، وأن مسألة عمر لأبي بكر كانت أولاً ، ومسألة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت ثانياً . قال الامام المهيني : « وهذا هو الاولى ، ويشبه أن يكون المحفوظ ، فانه لا يظن بعمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له قولاً فلا يرضى به حتى يأتي أبا بكر رضي الله عنه بعد ذلك والشبهة عنده لم تزل فيبعيدها عليه » . قال ابن القيم : « ولعمري لقد تزع أبو القاسم ( المهيني ) بذنوب صحيح ، ولكن المحفوظ هو الذي وقع في البخاري ، وعليه عامة أهل السير والمسايد والسنن ، وأما ما نسب اليه عمر رضي الله عنه فقد أجيب عنه بأنه كان يرجو النسخ وموافقة ربه له في ذلك كما تقدم له أمثاله ، فانه كان يقول الفول فينزل به الوحي ؛ على أن المقام كان مقام محنة وإبتلاء ، عجز عنه صبر أكثر الصحابة ولم يتسع له بطانهم ، وداخلهم من الهم والقلق والنحرق على أعدائهم أمر عظيم ، وعذرم الله سبحانه لقوة الوارد وضيقهم عن حمله ، حتى لم يحمله عمر رضي الله عنه في قوته وشدة ، واحتمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وكان جوابهما من مشكاة واحدة » . وليس وراء ذلك درحة في الفصل ورسوخ الإيمان ؛ وقد حقق الله تعالى لنبيه وصديقه وعدهما لجاء الفتح المبين .

روى الحاكم من حديث مجمع بن جارية قال « شهدت الحديبية فلما انصرفنا وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفاً عند كراع الصميم وقد جمع الناس فقرأ عليهم » إنا فتحنا لك فتحنا مدينا ، فقال رجل : يا رسول الله أو فتح هو ؟ فقال إي والذي نفسي بيده ، إنا فتحنا لك فتحنا مدينا ، الحديبية ، وغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وتبايعوا ببيعة الرضوان ، وأطعموا نخيل خيبر ، وظهرت الروم على فارس ، وفرح المسلمون بنصر الله ما

صادق إبراهيم محمود

## التصوف والمتصوفون

- ٦ -

القشيري

حياته :

ولد عبد الكريم أبو القاسم القشيري في سنة ٣٧٦ هـ في خراسان من أسرة يرجع تاريخ استقرارها في تلك البلاد الى عهد الفتح الاسلامي . ولما شب ذهب الى نيسابور ، ليتلقى فيها العلم ، فالتقى هناك بأبي علي الدقاق كبير أساتذة المتسككين في تلك المدينة في ذلك العصر ، وأخذ يختلف الى دروسه ، فدفعه هذا الأستاذ في طريق الصوفية ثم زوجه ابنته . وفي سنة ٤٣٧ هـ ألف رسالته القشيرية الشهيرة . وفي سنة ٤٤٨ هـ ارتحل الى بغداد ، وهناك جعل يلقى دروسا في السنة والفقه على مذهب الامام الشافعي ، ثم عاد الى نيسابور ، وتوفي فيها في سنة ٤٦٥ هـ .

أهم مؤلفاته :

إن أهم مؤلفات القشيري في التصوف كتابان ، وهما : الرسالة القشيرية ، والترتيب في طريق الله ، لأن الأولى سجلت عن الصوفية الذين سبقوا مؤلفها أوتق المعارف ، وهي لهذا تعتبر في مقدمة المصادر المعتمدة عن التصوف والمتصوفين . وسنرى أن الغزالي مدين لهذه الرسالة بالشئ الكثير .

كتب القشيري هذه الرسالة الى طوائف الصوفية في جميع بلاد الاسلام ، فترحم فيها لاثنيين وثمانين شيخا من شيوخهم بعد أن أمان لثاؤمه بما آل اليه مصير هذه الطائفة في عصره ، فقال : « اعلووا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقض أكرهم ولم يبق في زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم ، كما قيل :

أما الحيام فانها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نساها

حصلت الفترة في هذه الطريقة بل اندرست بالحقيقة .

تنقسم هذه الرسالة الى قسمين أساسيين : فالأول عن الأحوال النفسكية التي منحها الصوفية من قبله اهتماما عظيما وحدودها تحديدا دقيقا . والقسم الثاني عن بأخلاق المتصوفين . ومما ذكر في القسم الأول أحوال الاضطراب والانتقاض والانبساط ، والفراق والاجتماع والذكر والسكر .

وهذه العبارات في ذاتها - كما يلاحظ الأستاذ كارادى فو - كانت واضحة بسيطة لا تخرج عن شرحها عواطف النفس في حالة قربها من الإله ، ولكن المتصوفين قد عقدوها بما وضعوا لها من تعريفات متعملة .



اهتم التفسيرى فى هذه الرسالة على الأخص بالأحوال دون المقامات ، إلا أنه رغم ذلك ذكر من هذه الأخيرة ثلاثة : الأول مقام التوحيد ، والثانى مقام الوجد ، والثالث مقام الوجود . وهذا الأخير هو الغاية العليا .

أما الأحلاق الصوفية فقد بدأها بمقدمة عن حياة الزهادة قال فيها : إن مبدأ هذه الحياة هو الندم ، وهو ثلاث درجات : التوبة والإبابة والآوبة . وبعد ذلك وصف سلوك المتنسكين ومشاعرهم ، فذكر الاجلال والمجاهدة ، والخلاوة والذلة والمراقبة ، والصبر والشكر ، والخوف والرجاء . وأخيرا ذكر الفضائل الضرورية للصوفى ، وهى : الصمت والاستهانة بالنفس ، والخشوع والنوكل ، وما شاكل ذلك .

أما الكتاب الثانى فهو كنهج للمبتدئين فى التصوف . وقد كان لهدى الكتابين أثر عظيم فى عصرهما وفى المصور التى تلتها .

#### الجيلانى :

ولد عبد القادر الجيلانى فى جيلان فى سنة ٤٧٠ هـ من أسرة تنسب الى على . وقد سجلت أحبة الشعب حول طفولته وشبابه كثيرا من الخرافات ، فنبأنا إحداها بأنه كان إذا حل شهر رمضان ينقطع عن الرضاع . وذكرت لنا حرافة أخرى أنه حين اتجه الى بغداد فى الثامنة عشرة من عمره عرض له الخصر وحال بينه وبينها سبعة أعوام ، وبعد أن زال خوفه عليه من فتى تلك المدينة الزاهرة بالشكوك والريب سمح له بالدخول .

أما التاريخ الحقيقى ، فهو يحدثنا أنه حين شب توجه الى بغداد ليدرس فيها الفقه على مذهب الحنابلة ، وكان ذلك فى سنة ٤٨٨ هـ ثم التقى هناك ببعض الصوفية فأخذ عنهم الطريق . وفى سنة ٥٢١ هـ بدأ يلقي دروسا على الجاهل فى الوعظ والارشاد ، ثم اشتهر بالصلاح والتقوى ، وعلى أثر ذلك نسبت اليه كرامات كثيرة وعبارات لم يقلها ، وآراء لم يعتقدها . فمن ذلك مثلا ما حدثتنا به إحدى الخرافات من أنه كان يقول : إن الأحوال الصوفية عندى كأثواب معلقة فى حجرة ألبس منها ما أشاء . أو يقول : إذا سألت الله شيئا فاسأله باسمى فاقب ربيس الملائكة والإناسى والجن . أو يقول . أيها المرشد سافر ألف سنة ، لتسمع كلمة من فى . أو يحدثنا عن نفسه فيقول : « كنت وأما ابن عشر سنين فى بلدنا أخرج من دارنا وأذهب الى المكتب فأرى الملائكة عليهم السلام تمشى حولى ، فإذا وصلت الى المكتب سمعت الملائكة يقولون : افسحوا لولى الله حتى يجلس ، فربنا يوما رجل ما عرفته يومئذ ، فسمع الملائكة يقولون ذلك ، فقال لاحدكم : ما هذا الصبي ؟ فقال له أحدم : هذا من بيت الأشراف ، قال : سيكون لهذا شأن عظيم ، هذا يعطى فلا يمنع ، ويمكن فلا يحجب ، ويقرب فلا يحكر به .

ثم عرفت ذلك الرجل بعد أربعين سنة فإذا هو من الأبدال في ذلك الوقت (١) .  
أو كقوله : « كنت صغيراً في بلدنا فخرجت إلى السواد في يوم عرفة وتبعت بقرة حرانة ،  
فالتفتت إلى بقرة وقالت : يا عبد القادر ما لهذا خلقت ، فرجعت فزما إلى دارنا وصعدت  
إلى سطح الدار ، فرأيت الناس واقفين بمرقات ، فجئت إلى أمي وقلت لها : هيبني لله عز وجل  
وأذني لي في المسير إلى بغداد أشتغل بالعلم وأزور الصالحين ، فسألني عن سبب ذلك ، فأخبرتها  
خبري (٢) » .

هذا هو نموذج مما نسب زينا إلى الجيلاني وأثبت في بعض الكتب المنتحلة ككتاب  
« فلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر » ، وهو كتاب ألفه محمد بن يحيى الناذي الحنبلي ،  
وليس فيه ما يعتمد عليه ، ولكن بهامشه رسالة حقيقية كتبها الجيلاني ، وعنوانها . « فتوح  
الغيب » ، ويعطالعتها يرى الباحث التناقض المدهش الموجود بين العبارات المفعمة بالكبرياء  
والغرور المثبتة في الكتاب المزيف ، والعبارات المتواضعة المتقوى المنبئة في هذه  
الرسالة ، كقوله مثلاً :

« اتبعوا ولا تبندعوا ، وأطيعوا ولا تمرقوا ، ووحّدوا ولا تشركوا ، ونزهوا الحق  
ولا تهتموا ، وصدقوا ولا تشكوا ، واصبروا ولا تجزعوا ، واثبتوا ولا تنفروا ، واسألوا  
ولا تسأموا ، وانتظروا وترقبوا ولا تيأسوا ، وتأخّروا ولا تتعادوا ، واجتمعوا على الطاعة  
ولا تفرقوا ، وتحابوا ولا تباغضوا ، وتطهروا عن الذنوب ، وبها لا تتدنسوا ولا تلتطخوا ،  
وبطاعة ربكم فريثوا ، وعن باب مولانا كم فلا تبرحوا ، وعن الإقبال عليه فلا تتولوا ، وبإتوبة  
فلا تسرفوا ، وعن الاعتدال إلى خالقكم في آاء الليل وأطراف النهار ، فلا تعلموا ، فلعلمكم  
ترحموا وتسعدوا ، وعن النار تبتعدوا ، وفي الجنة تحمروا ، وإلى الله توسلوا » (٣) أو قوله :  
« ... مع حفظ الحدود الأوامر والنواهي ، فإن انحرم فيك شيء من الحدود فاعلم أنك  
مفتون متلاعب بك الشياطين ، وارجع إلى حكم الشرع ودع عنك رأي الهوى لأن كل حقيقة  
لم تفهد لها العزيمة فهي زندقة » (٤) .

وأخيراً توفي في سنة ٥٦١ هـ — سنة ١١٦٥ م .

أما مؤلفاته فكثيرة ، منها : « فتوح الغيب » و « الفتح الرائي » و « الغنية لطالبي  
طريق الحق » و « جلاء الخاطر » وغيرها .

(١) انظر صفحة ١١ من كتاب « فلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر تأليف الشيخ  
محمد بن يحيى الناذي . (٢) انظر صفحة ١٠ من الكتاب المذكور . (٣) انظر صفحتي ٦ و ٧  
من رسالة فتوح الغيب للشيخ يحيى الدين عبد القادر الجيلاني . (٤) انظر صفحتي ٩٨ و ٩٩  
من الرسالة المذكورة .

## أبو نجيب السهروردي .

ولد أبو نجيب السهروردي في مدينة سهرورد حوالي سنة ٤٩١ هـ من أسرة تنتمي إلى أبي بكر الصديق . ومنذ طفولته شابه ارتحال إلى بغداد وتخصص في دراسة الفقه ، وبعد أن أتم دراسته ارتحل إلى « إصهان » وكان قد بدأ يتصوف ، فاحترف السقاية ليعيش من عرق حبيته ، وفي هذه الآونة اشتهر بالنقوى ، ووقف كل أوقات فراغه على الذكر وإرشاد المريدين ، فزال احترام الجماهير ، وبني أهل المدينة له ولمريديه عدة ملاجئ . وبعد ذلك عاد إلى بغداد واشتغل فيها بتدريس السنة لعدد كبير من التلاميذ .

وفي سنة ٥٥٨ هـ ارتحل إلى دمشق ، فخلع عليه نور الدين زنكي خلعا فاخرة . وأخيرا عاد إلى بغداد فاستقر فيها حتى توفي بها في سنة ٥٦٤ هـ .

أما مؤلفاته فلم يأتها من أبيائها إلا نبأ كتابه : « آداب المريدين » و « شرح أسماء الله الحسنى » ولم يرد فيها من الآراء ما يؤخذ على مؤلفيها . وبهذا يتضح أنه كان من المتصوفين العمليين ، أو من قسم السنيين الذين لم يتأثروا بالفلسفة في نظرياتهم التنفسية ؟

« يتبع »

الدكتور محمد مغرب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

## بم ينال السوّد

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من أسرع به محله ، لم يبطئ به حسبه ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » .

هذا كلام من لباب الحكمة ، وهو من صميم الديمقراطية الإسلامية . ومعناه أن من حسن عمله لم يبطئ به شيء عن نيل السوّد ، ومن ساء عمله لم ينفعه نسبه ، ولو اعتزى إلى أعظم عظيم في الأرض .

وقال قس بن ساعدة الإيادي ، وكان من حكماء العرب : من فاه حسب نفسه ، لم ينفعه حسب أبيه .

والحسب ما يكسبه المرء بنفسه من المحامد .

ولما انفرد سفيان بن عيينة برياسة العلم ومات فتراؤه من العلماء ، أنشد :

حلت الديار فمعدت غير مسوءٍ ومن الشقاء تمردي بالسوّد

## بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْجَوَابِ

### إدارة أموال القصر

ورد إل لجنة الفتوى بالجامع الأزهر من حضرة عبد المطلب افندى الحسينى الاستفتاء الآتى ملخصه :

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل وكيل الجامع الأزهر ورئيس لجنة الفتوى .  
ألف المرحوم الحاج محمد حسن نمر شركة بينه وبين أولاده وزوجته على نظام مدون في العقد ومذكرة التأسيس المرفوعين مع هذا الاستفتاء .

ثم أقام أولاده الثلاثة : راضى افندى ، وحسن افندى ، وإبراهيم افندى ، أوصياء على أولاده القصر : هاشم ، ونجاة ، ومهر ، وقد صدر تلك الوصاية قرار من محكمة نابلس الشرعية مرفوع أيضا مع بقية المستندات إلى فضيلتكم ، وقد اختلف الأوصياء في أمر يتعلق بأموال الشركة التى للقصر فيها سهام .

والمرجو التفضل بإصدار فتوى تبين ما لى ينبغي الأخذ به في إدارة تلك الأموال من الآراء عند الاختلاف في الآراء في الاجتماعات العامة . ولفضيلتكم الشكر والثواب .

#### الجواب :

اطلعت اللجنة على الاستفتاء المقدم من عبد المطلب افندى الحسينى ، وعلى الأوراق المقدمة معه ، وهى :

( ١ ) صورة من قرار الوصاية الصادر من قاضى نابلس الشرعى في ٣٠ ربيع الآخرة سنة ١٣٥٩ ( ٧ مارس سنة ١٩٤٠ ) .

( ٢ ) صورة من مذكرة تأسيس شركة باسم الحاج محمد حسن نمر وأولاده ليند ، (محدودة الضمان) .

( ٣ ) صورة من قانون الشركة .

( ٤ ) إيضاح من المستفتى يبين عدد المساهمين الآن في شركة الحاج محمد حسن نمر ، وعدد

الذين لهم حق حضور الاجتماعات العامة في هذه الشركة والذين لا يحضرون الاجتماعات لمانع أو للتنازل ، وعدد أعضاء مجلس إدارة الشركة وأشخاصهم .

وتبين اللجنة بعد الاطلاع على هذه الأوراق وبمبناها ما يأتي :

( ١ ) أن الحاج محمد حسن نمر ألف شركة منه ومن أولاده وزوجته المبينين في العقد ، ومنهم راضي افندي نمر ، وحسن افندي نمر ، وإبراهيم افندي نمر .

( ٢ ) أنه نص في العقد على أن مجلس إدارة هذه الشركة يتألف من ثلاثة من المساهمين ، وأنهم لا يزيدون عن ثلاثة ، وأن مجلس الإدارة يتولى شئون الشركة فيما عدا الأمور التي نص على أنها من اختصاص الاجتماعات العامة .

ونص في القانون أيضا على أن القرارات التي تطرح للتصويت في الاجتماعات العامة تتخذ بأكثرية أصوات حاملي الأسهم الحاضرين شخصيا أو بالوكالة ، وإذا تساوت الأصوات يكون للرئيس صوت مرجح .

( ٣ ) أن الوصي هو الحاج محمد حسن نمر مؤلف الشركة ، وأن الأوصياء الذين في قرار الوصاية هم راضي افندي وحسن افندي وإبراهيم افندي وأولاده ومؤلفو الشركة معه أيضا .

( ٤ ) أن القصر هم هاشم وعمر ونجاة .

( ٥ ) أن القصر المذكورين مساهمون في الشركة .

( ٦ ) أن هاشما وعمر يملكان النصاب الذي يحولها حق حضور الاجتماع العام بمقتضى قانون الشركة ، ولكنهما قاصران فلا يجوز حضورهما بل يحضر عنهما الأوصياء عليهما .

( ٧ ) أن نجاة قاصرة ولا تملك النصاب الذي يحولها حق حضور الاجتماعات العامة .

( ٨ ) أن السيدة صباح والذين هم تلك النصاب الذي يحولها حق حضور الاجتماع العام ولكنها متنازلة عنه وتاركة إياه لأولادها راضي وحسن وإبراهيم .

ومن ذلك كله يتبين أن من له حق حضور المجلس العام لاتخاذ القرارات العامة ينحصر في أعضاء مجلس الإدارة الذين هم أنفسهم الأوصياء الثلاثة .

ويتبين كذلك أن راضي افندي وحسن افندي وإبراهيم افندي يحضرون الاجتماعات العامة بصفتهم شركاء مساهمين في الشركة لهم حق حضور تلك الاجتماعات ، وبصفتهم أوصياء على القصر المساهمين فيها أيضا ، فيكونون خاضعين لقانون الشركة الذي يقرر أن اتخاذ القرارات العامة يكون بأغلبية الآراء كما هو منصوص في المادتين الرابعة والعشرين والخامسة والعشرين من قانون الشركة .

وبناء على ما تقدم : ترى اللجنة أنه إذا اختلف هؤلاء الشركاء الأوصياء في أمر يتعلق بالشركة أو بحقوق القصر فيها فإن الرأي يكون للأغلبية ، بشرط أن لا يخرج هذه الأغلبية عن مرمى الشرع الشريف من توحى المصلحة العامة ، والابتعاد بأموال الشركة عن المعاملات غير المشروعة في الدين الحنيف ، كما ينص على ذلك البند السادس عشر من مذكرة التأسيس . والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

## تعلم السحر وحكمه

جاءنا من أحد طلبة المعهد الأحدى هذا السؤال :

هل تعلم السحر جائز أم حرام (١) لأن عندنا بعض المتسبين الى العلم نفتى بجوازه ، بحجة أنه يخلص الناس مما يعمون فيه من الأضرار ولا يضر أحداً . وحجته القوية فيما يزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تعلموا السحر ولا تعملوا به » ، الى أن قال : وأخيراً أجمعنا على استفتاء فضيلتكم في هذا المبحث الخطير ونشره بمجلة الأزهر التي هي مجلتنا الزهراء في أقرب عدد ممكن . لازلتم محفوفين بعناية الله وورائته ، والسلام ؟ ابراهيم محمد حسين

بمعهد طنطا الأحدى

الجواب :

الفصل في ذلك كله هو الحديث الشريف الذي هو القاعدة العظمى في كل شيء ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » . وأما قوله « تعلم السحر ولا تعمل به » فليس بحديث أئمة . وكثير من العلماء يمنع تعلم السحر مطلقاً ويرى قتل الساحر ، وإن لم يقتل أحداً بسحره ، ولكن الصحيح الذي يوجب البرهان ويظهر له الوجدان وتشهد له أصول الشريعة ، أن الأمور بمقاصدها والأعمال بآثارها ، وإن كان اللازم أن يحناط الإنسان لنفسه ولا يأمنها ، وأن يراقب هواها في الدقيق والجليل « وما أرى نفسي إن النفس لامارة بالسوء » ، « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » ، « فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » .

(١) هذه عبارته ، وإن كانت (هل) لا يؤتى لها بمقابل إلا على رأي ضعيف لأنها لطلب التصديق لا التصور كما هو مقرر في محله .

ولنتل عليك ما قاله العلماء في ذلك الموضوع ، وما وقع بينهم من الخلاف في ذلك فنقول :  
 اختلفوا فيمن يتعلم السحر ويستعمله ، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد . يكفر بذلك .  
 ومن أصحاب أبي حنيفة من قال . إن فعله ليتقيه أو ليحتقيه ، فلا يكفر ، ومن تعلمه معتقدا  
 جوازه أو أنه ينفعه كفر ، وكذا إن اعتقد أن الشياطين تعمل له ما يشاء فهو كافر .  
 وقال الشافعي رحمه الله : إذا تعلم السحر قلنا له : صف لنا سحره ، فإن وصف ما يوجب الكفر  
 مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة وأنها تعمل ما يلتمس منها فهو  
 كافر ، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته فهو كافر . قال ابن هبيرة : وهل يقتل  
 بمجرد فعله واستعماله ؟ فقال مالك وأحمد : نعم . وقال الشافعي وأبو حنيفة : لا . فأما إن قتل  
 بسحره إنسانا فانه يقتل عند مالك الشافعي وأحمد ، وقال أبو حنيفة : لا يقتل حتى يتكرر  
 منه ذلك أو يقر بذلك في حق شخص معين . وإذا قتل فانه يقتل حداً عندهم ، إلا عند الشافعي  
 فانه قال . يقتل والحالة هذه قصاصاً . قال : وهل إذا تاب الساحر تقبل توبته ؟ فقال مالك  
 وأبو حنيفة وأحمد في المشهور عنهم : لا تقبل ، وقال الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى :  
 تقبل . ولنكتف بهذا القدر سائلين الله التوفيق والتسديد ، والسلام ؟

يوسف الدمرداش

عضو جامعة كبار العلماء

## ذم التظاهر بالورع

روى أبو الحسن المدايني قال : دخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم وإلى خراسان ، وهو  
 من أهل القرن الأول ، في مدرسة صوف .

فقال له الأمير : ما يدعوك إلى لباس هذه ؟

فسكت محمد بن واسع .

فقال له قتيبة : أكلتك لا تحبيني ؟

قال محمد بن واسع : أكره أن أقول : زهدا فأزكي نفسي ، أو أقول : فقرا فأشكو ربي ،  
 فما جوابك إلا السكوت . وكان محمد صادق الورع ، ولذلك وجد الجواب المسكت .

فالتبن يتظاهرون بالورع إنما يقصدون به نصيد المفانم .

قال أبو العلاء في أهل الرياء :

إذا رام كيدا بالصلاة مقيمها فناركا محمدا إلى الله أقرب

## مقارنة ومفاضلة

بين الشريعة الإسلامية والشرائع الأخرى

— ٣ —

تكلمت في المقال السابق من العدد الفائت من هذه المجلة المباركة عن الشريعة الإسلامية وكيف بدأت وإلى أي مدى وصلت ، وألمت الماعاً خفيفاً عما كانت عليه شريعة الرومان التي طالما تغنى بها الغربيون واعتبروها الطابع المميز لحضارة الرومان ورفيقهم الفكري وثقافتهم القانونية ، ووقفت عند ذكر بعض الأمثلة لبيان الفروق بينها وبين الشريعة الإسلامية ، وأرى للعدالة في المقارنة أن أتكلم عن شريعة الرومان وكيف نشأت وكيف تطورت وكيف انتهت ، مع الإيجاز التام ، والاختصار الغير المصحب لفائدة .

أنشئت روما في القرن الثامن قبل ميلاد المسيح ، فكانت عبارة عن جماعة صغيرة من الزراع والرعاة ، مكونة من ثلاث قبائل على مقربة من نهر التيبر . وكانت حياتهم الاقتصادية عبارة عن زراعة الأرض وتربية الدواب ، وكانوا يعيشون في نظام الأبوة على رأس كل أسرة ربها الذي له مطلق السلطان والسيطرة عليها . فيخضع له كل ما بالمتزل من أشياء بما فيهم الأزوجة والولد والرقيق ومن لجأ إليه . وهو الذي يفصل في المنازعات بين أفراد أسرته ، وله أن يوقع من العقوبات ما شاء من حبس ونفي وتمذيب وموت دون أن يتقيد برأي لغيره . أما نظامهم السياسي فقد كان يتناسب مع النظام العائلي ، وينحصر في ثلاثة عناصر :

(١) الملك ، وهو الذي ينتخبه مجلس الشعب للحكم مدى حياته ، فيكون رئيساً للديانات ، ويدبر أعمال المدينة كما يدبر رب الأسرة أعمال منزله ، ويقود الحروب ، ويحكم بين العائلات .  
(٢) مجلس الشيوخ ، وهو مكون من رؤساء العشائر ، وعمله أنه محل استشارة الملك في الأمور الخطيرة ، وإن كان الملك قد لا يتقيد برأيه أحياناً ، وينظر كذلك في قرارات مجلس الشعب .

(٣) مجلس الشعب ، وهو مكون من مجموعة من رجال الرومان الأحرار لا فرق بين الولد والولد ، كل يجتمع للجهاد .

أما نظامهم القانوني فقد كان مصدره التقاليد المبنية على المعتقدات الدينية التي كانت أساساً لنظام الملك ونظام الأسرة . وكانت الجزاءات دينية ينطق بها الملك أو رب الأسرة ، فكل خروج على سلطته وكل إنكار لحقوقه يعتبر خطيئة تستوجب سخط الآلهة والاقتصاص



من ارتكبا . وكان لواجهم وطلاقهم وتقاضيههم والعق والنبي أنظمة مصبوعة بصبغات دينية ، وكان الملك باعتباره رئيس الديانات يقرر القواعد الدينية تبعاً لما يراه منقفا وإرادة الإله .

وكانت هناك جماعة ليست من أهل روما الأصلاء ، فنه من كان نزيلا ، ومنهم من كان مهاجرا أو لاجئا لم يخضع لحالة الرق ، ولم يلجأ لحماية أسرة ، بل استمر تحت حماية الملك ، فنمت تلك الجماعة حتى صارت أغلبية في المدينة أطلق عليها اسم العامة أو الرماع ، وكان هؤلاء العامة أو الرماع محرومين من النظم القانونية ومن الحقوق العامة ، وكانت العائلات الرومانية الأصلية هي الأرستوقراطية التي تتمتع وحدها بالحكم وبكل الحقوق ، واستمر ذلك إلى عهد الملك السادس ( سرفيوس ناليوس ) السابق للملك الأخير ، ثم تدمر الأشراف من تحملهم وحدهم أعباء الضرائب والجهد ، كما تدمر العامة من حرمانهم من الحقوق المدنية والسياسية ، مما جعل الملك يحدث تغييرا في النظام بأن كفل للعامة حق الاقتراع ، وفرض عليهم الضريبة والغدمة العسكرية بأن قسم جميع الأحرار من سكان روما إلى خمسة أقسام انتخابية وحرية ، لا بحسب الأسر وإنما بحسب الثروة ، وكل قسم يشمل العامة والأشراف ، وترتب على هذا قيد أسماء الأهالي والملاك في سجلات المدينة ، ويتغير هذا القيد بتغير التصرفات في الأملاك ، وللتثبت من هذا التغير نشأ نظام الإيصاد الذي هو عقد يتم إجراءاته بصفة علنية رسمية بحضور خمسة من الرومان كشهود ، وحامل الميزان الذي يزن مقدار الثمن ، وهنا بدأ تطور جديد ، وتغير النظام القانوني ، فأنشئ نظام خاص بالمعاملات المدنية المحضة بين الأهالي ، كما أنشئ نظام خاص بالروابط العائلية والتوريث بالوصية والعقود .

وبنه وإن كان هذا الإصلاح الذي قام به الملك جعل العامة تنظم في عشائر عائلية كالأشراف ، إلا أنهم ما زالوا محرومين من الاشتراك في مناصب الحكم ، ومن العضوية في مجلس الشيوخ ومن التزوج بالأشراف ، تخلقت هذه الحالة نزاعا بين العامة والأشراف جعلت العامة يهجرون المدينة بقصد الانفصال عن الأشراف ، فراع ذلك الأشراف واشتد حزهم ، فأعادوهم وصنعوا لهم بنظام خاص بمائيل نظام الأشراف ، فشكلت لجنة الحكام المشرة من العامة والأشراف ووضعوا قانونا صادق عليه مجلس الشعب ، ونقشت نصوصه في اثني عشر لوحا من الخشب ، وقيل من البرز ، ونصبت تلك الألواح في روما ، وكان ذلك قبل ميلاد المسيح بنحو ٤٥٠ سنة ، وصحى هذا القانون بقانون الألواح الاثني عشر ، وهو البناء الأساسي للشريعة اللاتينية ، كما أنه هو فاتحة التطورات في المصور التالية ، أما هذا القانون فقد صيغت عباراته في أسلوب شرعي موحز ، وأحكامه خاصة بالنظم المدنية مستقلة عن الدين ، فلم تشمل لا على كفارات ولا على عقوبات دينية ، وكانت بعض قواعده مستعارة على الأخص من القوانين اليونانية ، وبعضها تسجيلا للتقاليد التي كانت متبعة في روما قبل وضعه ، ومع ذلك فقد

كان تشريعاً ضيقاً في إجراءاته ، فأسيا في أحكامه فطرياً في مبادئه ، يضع الحق بهفوة شكلية ، ويقتل المدين إن لم يسدد ما عليه لدائمه من الدين ، ويقنع المجنى عليه بيده من خصمه ، وكان نظام الوصاية والقوامة مقرراً على القصر والنساء والمجانين والسفهاء لمرأاة صالح الوصى أو الأسرة أكثر منه لصالح المشمول بالوصاية أو القوامة ، وكانت المقود كلها شكلية ، ونظام الدعاوى فيه بقية من العهد الفطري الذي يتحول للشخص أن يأخذ حقه بيده دون الالتجاء للسلطة العامة ، وكانت الدعاوى أربعة : الأولى وتسمى أخذ رهينة ، وهي أن يستولى الدائن على بعض أموال مدينه حتى يسدد . والثانية ، وتسمى إلقاء اليد ، وهي أن يضع الدائن يده على المدين الذي تعهد بالدين في عقد الاستدانة وذلك بغير حكم من القاضي ، وكذلك يأخذ المدين الذي حكم عليه في دعوى القسم سجيناً حتى يدفع الدين وإلا قتله أو باعه ، ويتم القبض على المدين أمام القاضي ، فإن اعترض شخص آخر على هذا القبض يرى المدين نهائياً ولسان دعوى جديدة بين الدائن والمعتز ، فإذا اتضح أنه تدخل بغير حق حكم عليه مضاعفاً جزاء له . والثالثة ، وتسمى دعوى القسم ، وهي التي يذمى رافعها بحق على آخر ، فإن أقر الخصم أو سكت نفذ عليه الحكم في الدعوى الثانية ، وإن مازع بقسم كل منهما على صحة دعواه ثم تحال على حكم للتحقيق ، فإن تبين أن المدعى حلف صادقاً نفذ على خصمه كما في الدعوى الثانية . والرابعة ، وتسمى طلب الحكم وهي خاصة بطلب التعمييض عن الضرر وقسمة المذاع وفصل الحدود .

هذا هو مجمل ما كان سائداً من القواعد في عهد الألواح الاثني عشر ، وهي التي كانت تسمى بقانون الرومان . وقد بدأ عهد الجمهورية التالي للألواح سنة ٨٩ ق . م فتطور القانون في خلال القرون الباقية من الجمهورية حتى خرج من قواعد الشكليات الصيقة بأن تضيف إليه نظم ومبادئ جديدة دعت إليها العدالة وضرورة المعاملة ، كما بدأ تطور بالتصوية التامة بين طبقتي السامة والأشراف فأصبح الزواج مباحاً بينهما ، كما أصبح مجلس الشيوخ ومناصب الحكم والوظائف الجديدة مثل وظيفة (البريتور) . Censeur Préteur أو الحاكم القضائي ووظيفة المكلف بالتعداد والإدارة المالية من حق السامة الاشتراك فيها ، وكانت وظيفة (البريتور) التي أنشئت سنة ٣٩٧ ق . م هي مجمع عبارات الطرفين في الدعوى ، فإن كانت متفقة مع نصوص الألواح مطابقة للإجراءات أحاطها على حكم للفعل فيها وإلا رفضها وحرف الخصمين ولو كان الظلم ظاهراً ، غير أن (البريتور) رأى في ذلك النظام العتيق ضياعاً للحقوق ، فلا محل للصيغ الرسمية ولا للإجراءات الشكلية ، فغيره بنظام جديد بحيث يشرح كل خصم دعواه على الصورة التي يراها ، وقد صدر قانون تشريعي سمي بقانون « إيبوتيا » Loi Aebutia ق . م بنحو ٢٠٠ سنة يؤيد هذا النظام .

وبذلك اتسع التشريع كما اتسع نطاق الدولة الرومانية في عهد الجمهورية الأخير من سنة

٨٩ ق . م فكثر الفنون وتغيرت الحياة الاجتماعية وضعف الإيمان بالاديان وضاع احترام التقاليد، وانتقل كثير من الرومان الى مستعمرات أخرى، وأخذت الافكار القانونية في التهذيب والإصلاح، وكان الفصل في هذه الحركة العلمية راجعا الى الفقهاء والقراحي حتى اعتبر هذا العهد فائحة للعصر العلمي، وكان من الفقهاء المشهود لهم بالبلاغة والقوة في الكتابة « شيشرون » ذلك الذي اعتنق فلسفة الزهد اليوانية وتناول نظرية القانون الطبيعي بالتهذيب واعتبره مصدرا لقانون الشعوب، وكان لعمله هذا أثر خطير في تطور القانون الروماني في العصر الامبراطوري الأخير، وكان يعترف حسن النية ميزانا للتعامل بين الناس، وقد طبع القانون الروماني مرحلته الأخيرة فسق وقسم وصيغ في نصوص محدودة وبحوث رسمية وغير رسمية، الى أن بدأ انتشار الديانة المسيحية في أوائل القرن الرابع بعد الميلاد، فتغللت الروح الدينية على نفوس القياصرة، فألفوا ونظموا قواعد تتماشى مع هذه الديانة المسيحية، وألغوا نظمها وقواعد ومبادئ كانت مخالفة لها، كتحريم الزواج بين المسيحيين واليهود وغير ذلك، الى أن جاء جستنيان سنة ٥٢٧ م ورأى كثرة التنوع في مصادر التشريع وكثرة المادى القانونية، فمذل الجهود لجمع القوانين حتى صدرت في قالب موجز ذي صبغة رسمية للعمل بها في المحاكم، وأخيرا وفي سنة ٥٢٩ م وضعت مجموعة علمية أطلق عليها اسم « النظم القانونية » وهي موجز لآراء الفقهاء في أربعة كتب، وكذلك في عهده جمعت قوانين وقرارات الامبراطورية وأطلق عليها اسم القوانين الجديدة، كما جمعت كل المدونات القانونية وصيغت باسم « مجمع القانون المدني » وهي آخر مرحلة وصل اليها التطور القانوني الروماني الذي يعد صلا محمدا وغرا خالدا لجستنيان، والذي اعتبر ميراثا من بعده للعالم الأوروبي . وأتم ما أحدثه جستنيان من الإصلاحات هو هدم السلطة الأبوية وإلغاء حق الوالد في قتل ولده أو بيعه أو تسليمه وضباع آثار السيادة الزوجية وغير ذلك، الى أن انتهى عهده سنة ٥٦٥ م .

فالتريمة اللاتينية إذا بدأت بعهد الألواح الاثني عشر، وانهت بوضع مجاميع جستنيان في القرن السادس بعد الميلاد .

الى هنا يجب أن نقف، ومن هنا يجب أن نبدأ بالمقارنة والمفاضلة بين الشريعتين الاسلامية والرومانية، وموعدها بذلك الممدد الآتي إن شاء الله . وفقنا الله للصواب وسدد خطانا .

مصطفى عبد الحميد أبو زيد

المندوب القضائي بالأوقاف الملكية سابقا

## تعقيب على السيرة

قرأت مقالكم في مجلة الأزهر عدد رجب سنة ١٣٦٠ تحت عنوان الرسالة المحمدية للبشر كافة . وقد أعجبني الموضوع جدا ، لكن بالرغم من ذلك وجدت به بعض عبارات جامحة ، وبمض جمل لا يصح إغماض الطرف عنها ، لأنها تمس صحبي البخاري ومسلم ، وربما كانت تمس غيرهما من كتب الصحيح ، ولم أصدق بادي ذي بدء أنها للاستاذ الكبير صاحب المقالات الممتعة والأبحاث الشيقة ، وقلت لعلها لأحد أولئك الذين يريدون أن يظهرُوا ، ولو من باب ( خالف تعرف ) ، ولذلك أعدت قراءتها ، ثم قلت لنفسى : قد يكتبو الجواد وهو كريم ، وينبو السيف وهو صميم ، ويهجو الشيخ وهو عليم . ولا اعتادى حسن بيتكم فيما تكتبون ، وأنكم إنما تكتبون خدمة للحق ، وروم الوصول الى الحقيقة ، كتبت إليكم هذا .

ذكرتم حضرتكم ما رواه علماء الحديث من كتب النبي صلى الله عليه وسلم الى ملوك زمانه وما كان لها من أثر لديهم ، وأن منهم من مزق الكتاب ككسرى ، ومنهم من أسلم بالله جل كائنجاى ، ومنهم من قارب كهرقل ، ومنهم من جامل ورددا جملا كالمقوس . ثم كررتم على ما حكى عن هرقل والنجاى والمقوس بالقد ، بل جعلتموه من غير المعقول ، وما ذاك إلا لشبهتين : الأولى : أن المسيحيين كانوا متمسكين بدينهم أشد تمسك ، ومن غير المعقول أن يتحول أحد منهم من دينه ويتقبل دينا آخر بهذه السرعة وبهذه السهولة . الثانية : أن النصارى كانوا يعتبرون أن دينهم قد تم بتعسد الابن وصلبه واعتدائه البشر ، ومن غير المعقول أن المقوس كان ينتظر نبيا آخر ، وأن يقول : قد علمت أن بيا قد بقى . ويمكن أن يقال بالقياس على هذا إن من غير المعقول أن يقول هرقل كما فى صحيح البخارى : « قد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم » . وبقيت شبهة ثالثة لا تستحق الإبطال لأنها واهية من أساسها ، وهى أن هرقل لم يكن من مريعة التمديق بحيث يعتمد فى إيمانه على رواية رجال لا يعرف مبلغ صدقهم فيما يقولون ولم يسألهم عما يجب أن يسأل عنه .

فإن المطلع على صحيح البخارى يرى أنه سأل عما يجب أن يسأل عنه ، أسئلة فى منتهى الدقة تدل على عقل فاضح وعلم واسع ، حتى أعجب به رواية الحديث ، وقد علم أن أباسفياى ومن معه أعداء للنبي صلى الله عليه وسلم ، فكلامهم الذى يشهد للنبي صلى الله عليه وسلم لا يجوز أن يكون موضع شك وريبة لانه شهادة من عدو .

إذا فأساس البحث فى هذا الموضوع هو : هل كان النصارى يعتبرون أن دينهم قد تمت ولا نبي بعد عيسى عليه السلام ، وأنهم كانوا من التمسك بدينهم بحيث يستحيل أن أحدا منهم يسلم بسهولة وسرعة ، أو أن الامر بالعكس ، أى كانوا يترقبون نبيا آخر ، وأن منهم من هو سريع الانقياد الى الحق متى ظهر ؟

يروى أن أسوق اليكم نصا من القرآن الكريم يقرب هاتين الشبهتين رأسا على عقب ، ثم أعقب ببيان السر في ذلك : قال الله تعالى : « لنجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولنجدن أفرهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى » ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ؛ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا بما كتبنا مع الشاهدين » الآيات .

فهذا هو القرآن يقرر لنا جملة حقائق عن النصارى : (١) أنهم أقرب الناس مودة للمؤمنين ، وهذا يستلزم أنهم أقرب الناس لهذا الدين ، لأن تعليق الحكم بالمشق يؤذن بعلمية مبدأ الاشتقاق ، فهم ما قربت مودتهم من المؤمنين ، لا لأنهم مؤمنون . (٢) أن شيعتهم التواضع وعدم الاستكبار والاستسكاف عن قبول الحق . (٣) أن منهم من إذا سمع للقرآن فاضت أعينهم من الدمع مما عرفوا من الحق وبادروا بالإيمان .

فاهو رأي سيدي الأستاذ الجليل ، وكيف جاز لطائفة من النصارى أن تبكى بمجرد سماع القرآن ، وكيف لم يتعها من الإيمان السريع تمسكها بديها واعتقادها تمامه بتجسد الابن ؟ ولم لا يجوز أن يكون هرقل أو السحاشي أو المقوقس أو أي نصراني آخر مثل هذه الطائفة ، في رقة العاطفة ولطف الشائل وعدم التعصب والانقياد إلى الحق ؟ اقم إن هذا لا مانع منه لاسيما إذا علمنا أن الملوك في العادة أعلى كعبا في الدلوم والمعارف ، وأرق طباط وألطف شمائل . وإذا ثبت هذا ، ولا شك فيه ، فاستقل إلى بيان السر في ذلك ، وبه تعلم السر في أنه لما افرق الحال بين رد كسرى المحوسى وبين ردود ملوك المسيحية أهل الكتاب ، بل تدرك به السر في سرعة انقياد كثير من المسيحيين للإسلام إلى يومنا هذا متى فهموه على وجهه الصحيح ؟ من المعلوم أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم كان مبشرا به في الكتب السماوية السابقة ؛ يعلم هذا من نصوص القرآن نفسه ، ومن رجوع إلى تلك الكتب نفسها ، والقرآن قد ذكر ذلك في مواضع كثيرة في مواجبة اليهود والنصارى ، ولم يحرق واحد منهم على تكذيبه ، ولو لم يكن له حقيقة لقامت قيامة اليهود والنصارى وملأوا الدنيا تكذيبا وتشفيعا على صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم .

ولنسق لك بعض الآيات القرآنية في ذلك الصدد . قال الله تعالى : « ورحمتي وسعت كل شيء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل » الآية .

وقال الله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام : « ومبشرا يأتي من بعدى اسمه أحمد » . وقال الله تعالى : « يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » . بل قال عبد الله بن سلام : إن معرفتي بمحمد عليه السلام أشد من معرفتي بابي . فقل له : وكيف ذلك ؟ فقال : أنا لا أرتاب في أمر محمد بحال ، وأما ابني فلا علم لي بما يعمل النساء . فقام مر فقبل رأسه . فقال الله تعالى « وكانوا من قبل يستفتحون

على الذين كفروا ، أي كان اليهود إذا غلبهم مشركو المدينة قالوا لهم : قد آن أوان نبي يبعث  
تقتلكم معه قتل مأذون ومهود فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين ، والحال في  
هذا فسيح والقول فيه بطول ، فليقتصر على هذا القدر .

أما الكتب السماوية السابقة ، فالجبال فيها أوسع ، ولننقل منها ما فيه الكفاية .

ففي التوراة : جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سبيد ونلا من جبل فاران . إصحاح ٣٣  
تكوين . وفاران جبل من جبال مكة ، بدليل ما ورد في التوراة نفسها في حكاية قصة سيدنا  
إسماعيل والسيدة هاجر عليهما السلام : وكان الله مع الغلام ، فكبر وسكن في البرية ، وكان  
ينمو راعي قوس ، وسكن في بركة فاران . إصحاح ٢٨ تكوين .

وفي التوراة أيضا : قال لي الرب . قد أحسوا غيا تكلموا ، أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم  
مثلك ، وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي  
الذي يتكلم به باسمي فأنا أنابيه . إصحاح ١٦ ثنية . وإخوة بني إسرائيل هم أولاد إسماعيل  
بلا شك .

وفي إنجيل يوحنا إصحاح ١٦ . لكني أقول لكم الحق : إنه خير لكم أن أطلق لأنه إن لم  
أطلق لا يأتاكم المعري ، ولكن إن ذهبت أرسله اليكم وفيه أيضا إصحاح ١٦ : إن لي أمورا كثيرة  
أيضا لأقول لكم ولكي لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأما متى جاء ذلك روح الحق فهو  
يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية ، ذلك  
يمجدني . وهكذا يمجّد المنتفع لكتب العهدين القديم والحديث بشارت كثيرة لا تدع أدنى  
في ريبة شأن محمد عليه الصلاة والسلام .

هذا هو السبب فيما كان من التنازع إجابة على كتب الذي عليه الصلاة والسلام ، بخلاف  
كسرى الذي لم يكن عنده علم من الكتاب ، ولم يكن منه إلا تعريب كتاب النبي صلى الله عليه  
وسلم ، فدعا عليه بأن يمزق الله ملكه ، وقد كان . وهذا هو السبب في كون كثير من النصارى  
إلى يومنا هذا يدخلون في دين الله عن طيب نفس وانفراح صدر حتى القسيسين .

وبعد : فليعلم سيدي الأستاذ أن قصة هرقل مع أبي سفيان وصحبه قد رواها البخاري في  
صحيحه ، وربما يكون قد رواها غيره من أصحاب الصحيح .

وقصة إسلام النخاعي وصلاة النبي صلى الله عليه وسلم عليه لماتات رواها البخاري ومسلم .  
فهل يسوع عقلا أن نكذب هذه الأسانيد الصحيحة بهذه السرعة وهذه السهولة بمجرد شبهة  
ظن أنه قد ثبتت ؟ أم أنها لم تقم على أساس صحيح ؟ والله أسأل في ولكم السداد في القول والعمل ؟

محمد عبد الله الجبرني

## ملاحظاتنا على هذا التعقيب

فيما يتعلق بدعوة هرقل لقومه الى الاسلام وجواب النجاشي

نحن بكتابتنا في السيرة المحمدية نرى الى غرضين : ( أولهما ) أن نشرح حوادثها على ضوء ما اهتمت اليه العلوم النفسية والاجتماعية من المكتشفات التي نجعلها في مظهر يؤثر على العقلية المصرية أعظم تأثير ، فنجعل الأدلة على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم في مستوى البدهيات . ( ثانيهما ) أن نجرد من تلك السيرة كل ما أضيف اليها من ضروب المبالغات التي تصعب من تأثيرها على العقول ، ونكفي في جعلها لإقناع الباهلين من حوض الثقافة الحديثة بوهن أصول الدين ، وأن الاسلام ليس من العزة والمناعة بحيث يتردد عنه طرف الباقد خاسئا وهو حسير .

موقف عظيم الخطر يتعرض فيه المؤلف لمصادمات من نواح شتى ، ولكن ما لا بد منه لا يمكن السكوت عنه ، لاسيما والرغبة أصبحت عامة في وجود مؤلف من هذا الطراز ، ليكسب انتفاء ضرور الدعايات السيئة بالاعتقاد عليه ، أو بالرجوع في حل الشبهات اليه .

من أشد ما وقفنا عليه من أنواع الدعايات تأثيرا في العقول ، ما قام به كاتبان من الفرنسيين هما ( لوميريس ) و ( جاستون دوجاريك ) من وضع كتاب في السيرة المحمدية تحت عنوان حياة محمد *La vie de Mahomet* في مجلدين ، ذكرنا في مقدمته أنهما سيوردان تاريخ النبي العربي مأخوذا من الكتب الاسلامية ، لا يزيدان على ما قالته حرقا . لجاء كتابا من أفعل ما يتخيله العقل صيدا عن الاسلام ونبي الاسلام ، لكثرة ما اشتمل عليه من الحرافات ، وهو لا يزال ماثلا بين كنيه ، كلما وقعت عليه عيني انتقبض صدري .

هذه الاعترافات كلها دفعتني لوضع السيرة المحمدية على أساس متين تحت ضوء العلم والفلسفة ، حتى إذا تمت سعيها الى ترجمتها الى الفرنسية والانجليزية ، ومجلها على نشرها .



أسوق هذا الكلام لمناخية ما ورد الى من حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الموقر الشيخ محمد عبد الله الجبني ، وإني أشكر لفضيلته حسن تقديره لما أكتبته ، وأقبل نقده بالارتياح ، لما لا ينقد من الآراء الجريئة لا تقهر قيمته الفاسفية ، ورب نقد جري الى فوائد علمية جمة كانت لا تنكشف بدونته .

أخذ على فضيلة الأستاذ أمورا :

( ١ ) شككت في لا يصح الشك فيه من صحيح البخاري

( ٢ ) ارتياحي في سرعة تصديق هيرقل .

( ٣ ) إنكارى انتظار النصارى لنبي بعد عيسى .

### الشك في إسلام هيرقل ومحاولته حل قومه على الإسلام :

ليس كل ما ورد في كتاب البخاري من آرائه الشخصية ، وتعليقاته ، يسرى عليه ما يسرى على ما أورده من الأحاديث مسنداً إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وقد جمع الأئمة السابقون لأنفسهم بنقد كل شيء فيه ، حتى الأحاديث ، فصنفوا مائة وعشرة منها .

وقد ظن بعض الناس أن الإمام البخاري روى ما قاله عن هيرقل عن الزهري عن عبيد الله بن عباس عن أبي سفيان بن حرب ؛ والواقع أنه روى خبر سؤال هيرقل لأبي سفيان بهذا الإسناد ، وقد شاركه فيه مسلم ، ولكن البخاري انقرد بروايته إسلام هيرقل ومحاولته حمل أمته على الإسلام ، عن الزهري عن ابن الناطور ، وهو أحد أساقفة دمشق كما نبه على ذلك الإمام ابن حجر المصقلاني في المجلد الأول من كتابه فتح الباري صفحة ( ٣١ ) .

وبناء عليه يكون ما شككنا فيه خيراً زائداً على حديث أبي سفيان ، نقله الزهري عن ابن الناطور . ولذلك لم يذكره مسلم عند ذكره حديث مقالة أبي سفيان لهيرقل .

وبذلك أصبحنا في حل من نقده ، لأن ابن الناطور ليس بثقة في نظرنا ولا في نظر غيرنا من المسلمين .

ونحن إنما تشددنا في هذا الأمر نظراً لمكانة الدولة الرومانية الشرقية من الدول المصرية ، ومطامع هيرقل من حماية المسيحية . فانه في العصر الذي أرسل فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، كانت الدولة الرومانية الغربية قد حطمتها غارات القبائل الهمجية ، وسقطت هيبتها الدولية ، وضعفت عن حماية نفسها ، فتحولت الأنظار عنها إلى شقيقتها الدولة الرومانية الشرقية ، وعلق المسيحيون على وجودها حماية عقائدهم الدينية .

هذه الاعتبارات هي التي أوجبت علينا الشك في رواية ابن الناطور ، وليس هو من رواة البخاري حتى يمتد بروايته ، وقد علمت أن هذه الرواية ترجع إليه وحده .

### ارتياحي في سرعة تصديق هيرقل :

لم يرضى الأستاذ من حتى أن أرتاب في سرعة تصديق أمبراطور الرومان ، معتمداً في ذلك على الآية القرآنية التي قررت أن النصراني أقرب مودة من سواهم إلى المسلمين ، وأن منهم من إذا سمعوا القرآن طاشت أعينهم من الدمع .

وإنى أرى أن هذه الآية الكريمة لا تدل إلا على شيء واحد ، وهو أن النصراني أقرب مودة إلى المسلمين من سواهم ، لأن من أخلاقهم التواضع وعدم الاستكبار ، فهي تمدحهم بهذه الخلال ، ولا يعقل أن يُقرن هذا المدح بالدمع بأن يهتموا بسرعة التصديق ، فإن هذه صفة ذم ، وقد مدح الله المنتهين المطالبين بالدليل ، ولم يمدح سريعي التصديق .



ولو استعنا بالتاريخ في هذا الموطن رأينا أن النصارى كانوا أبعد تصديقا من جميع الأمم ، وقد وقعت دولهم للإسلام في أول ظهوره وقات ، لولا أن الله كتب له الفدب والانتشار لقتضت عليه وليدا . وقد دخلت أمم يرمتها في الاسلام كالفرس والديلم والترك ، وجامات غميرة أخرى تعد بمشرات الملايين في الهند والصين وغيرها ، إلا الأمم النصرانية فانها تمسكت بعقيدتها الى أبعد مدى .

وأما قوله تعالى : « وإذا سمعوا ما أزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » يقولون رنا آمنا فآكتبنا مع الشاهدين ، فهو قول صريح في أن الدين فاضت أعينهم بالدمع كانوا قد آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم من قبل ، وآموا بالقرآن ، فلا عجب أن ترق قلوبهم عند سماعه فيبكوا ، وليس هذا بمعجب من قوم تذوقوا طعم اليقين . يريد فضيلة الأستاذ أن يتخذ من حال هذه الطائفة مثالا يطبقه على أفراد معينين ، وغير معينين من جميع الطبقات ، وأما لا أحيله من التدليل إلا الى شيء واحد وهو الواقع المحسوس .

#### إنكارى انتظار النصارى رسولا بعد عيسى :

قلت إن النصارى يعتقدون أن دينهم قد تم بتجسد الابن ، وأنهم ما كانوا ينتظرون رسولا يأتي بعده .

فلاحظ على فضيلة الأستاذ ذلك وقال : « إن نبينا كان مبشرا به في التوراة والإنجيل ، وقد ذكر القرآن ذلك ، ولم يجرؤ واحد منهم على تكذيبه ، ولو لم يكن ذلك حقيقة قامت قيامة اليهود والنصارى وملأوا الدنيا تكذيبا وتشفيعا على صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم . » تقول : أما أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بُشر به في التوراة والإنجيل فصحيح ، ولكن ليس المعلوم على إيماننا نحن بذلك ، وإنما المعلوم على إيمان أصحاب تلك الكتب به ، وقد دل تاريخ الدعوة الاسلامية على أنهم لم يؤمنوا به ، وقد ملأوا الدنيا تكذيبا وتشفيعا ، بل عمدوا الى الحرب الضروس . ومن القدي يستطيع أن ينكر ما لقبه الاسلام والمسلمون من عدت القبائل اليهودية في بلاد العرب ؟ نعم لم يقع من النصارى هناك شيء ، ولكن ليس لأنهم كانوا أقل من اليهود تكذيبا ، ولكن لأنهم كانوا في بلاد العرب قليلين ، ولا يجمعهم جامعة قوية ، فجاءت حروبهم متاخرة ، أى على عهد أبى بكر ومن جاءوا بعده ، وكانت من أفضح ما رواه التاريخ هولا وشدة .

قلنا إن المسيحيين لم يكونوا ينتظرون رسولا بعد عيسى ، حتى في أقدم عهودهم ، وما استشهد به فضيلة الأستاذ من إنجيل يوحنا ، وعده علماءنا تبشيرا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فانهم ينكرون أن المقصود به محمد ، ويقولون إن المقصود به روح القدس ، وهو الاقنوم الثالث من الاقانيم الثلاثة في عقيدتهم ، وقد أجمعوا على ذلك من أول عهدهم بالنصرانية الى اليوم .

وإذا سأغ لنا أن تقول بأن اليهود كانوا يتوقعون ظهور نبي جديد، فاتهم كانوا ينتظرون أن يكون إسرائيليا، فإن اليهودية مبنية على ما لأسرة إسرائيل من الامتيازات الروحية والعقلية، كما ورد ذلك في كتبهم، لذلك لا تجد لهم دعاوة دينية في الأرض. حتى أنه إذا أراد أحد الناس من الأجناس الأخرى أن يهود، وجب على النفس اليهودي أن ينصحه بالمدول عن مزعته ثلاث مرات، بالتنويه له بصعوبة تكاليف اليهودية، ونعذر قيامه بما تفرضه عليه منها. فإن أصر على طلبه وجب عليه أن يلقنه الباحية الخلقية من اليهودية دون الباحية المعادية. فلما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم من ولد إسماعيل كان ذلك كافيا في نظرم للتكذيب به.

والممول في موضوعنا على إيمانهم هم، لا على إيماننا نحن، فلو كانت النشرات في كتبهم أصرح بما أورده الأستاذ، ولم يفهموا هم منها ما تفهمه نحن، كانت كأن لم تكن في علاقتها بالموضوع الذي نحن بصده.

أما ما قاله فضيلة الأستاذ عن إسلام النجاشي وصلاة النبي صلى الله عليه وسلم عليه بعد موته. فقد نص البخاري على أن النبي صلى على نجاشي مات مسلما، ولم ينص على أنه هو الذي أرسل إليه كتاب الدعوة، وجاء مسلم تلميذ البخاري فنص على أن النجاشي الذي صلى عليه النبي غير الذي أرسل إليه كتاب الدعوة، ويبتنى على ذلك أن الجواب الذي شككنا فيه مختلف. وقد كان كلامي محصورا في ذلك الكتاب وجوابه.

وهذا لا يمنع أن يكون سلف هذا النجاشي قد أسلم سرا، وأرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يخبره بذلك حفية، وكنتم إسلامه عن قومه. لأن النجاشي لو استبدل دينا آخر بدينه، وبلغ قومه خبره، لكان هذا وحده يكفي في أن يثوروا عليه ثورة عامة، لأنهم من أشد الشعوب تمسكا بالمسيحية.

ومرادى من هذا كله تمحيص الحوادث التاريخية، وتخليص السيرة النبوية من الاوهام التقليدية.

وإني أختتم مقال هذا لشكر فضيلة الأستاذ على ملاحظاته، فإن غرضي من نشر سيرة النبي صلى الله عليه وسلم على مقتضى الدستور العلمى، أن تناسب عقلية الشبيبة المتعلمة، فيقبلوا على مطالعتها واجدين فيها من دقة التمحيص العلمى، والنقد الفلسفى، ما لا يدع لهم عذرا في مقاطعتها، وهى من أقوى أسباب الإيمان به، والتسليم برسائله لأساس كافة ما

محمد فرير ومجربى

## في اختلاط الجنسين

بالأمس القريب أُرهِف الدكتور منصور بك فهمي قلعه ، وهو من أخص رجال التربية الحديثة ، في بيان أضرار الاختلاط ، وهاهنا بأولياء الأمور أفئ يعضوا حدا لتلك الفوضى الجامحة .

واليوم ينصح لقومه أن يحترسوا من جوارف المؤثرات الاجتماعية ، ويحذروهم من ويلاتها ووخيم عواقبها ، كاشفا عن سوء آثارها .

وخالف الكائنات الغبير بها وبأفضل السبل لسيورها يقول : « وقرن في بيوتكن ولا تبرحن ترج الماهلية الأولى » ، ثم يقول مخاطبا نبيه عليه السلام : « ياأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين بدنن عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين » ، ثم يقول : « ولا يبدن زينتهن إلا لبعوثهن أو آبائهن ... الآية » .

والمشاهدة والوقائع تدل في وضوح وعلانية أن أشد الأمور خطرا على الأسرة والبيت أولا ، وعلى الجماعة ثانيا ، هو الاختلاط .

وأنا نحت راية القرآن ، وفي دائرة التجارب والملاحظات ، أقرر في جرأة أن الاختلاط منفسدة لاختلاق الأمم ، مصيبة لأداب الآحاد ، وهو أفعال في دهورة الكرامات ، وإضاعة شرف البيوتات من أية جريمة مما لا تعلم منها الجماعات .

هذا رأى المفكر الحكيم الدكتور منصور بك فهمي ، ورأى جميع البقاء من أهل هذا الحبل بمن تقدموه وتلو ، وه نزل القرآن ، وشرحته السنة المحمدية الرشيدة ، وهو ما أقرته التجارب ، وقررت الوقائع الكثيرة . فما هو رأى الجهات الرسمية التي أقيمت للإشراف على أخلاق الأمة ؟ وما الذي اعترمته حبل هذا التيار الجارف من الفوضى الخلقية ، وهذا الفساد الاجتماعي المنتشر ؟

حوادث خطيرة تحدث تما ، وتتناقلها الصحف ، ويقرأها الناس من جميع الطبقات ، وكانوا يقابلونها في أول الأمر بكثير من الأمل والأسف ، ولكن تواترها قلل من الشعور بشانها ، حتى أصبحت اليوم من الحوادث العادية ؛ وفي ضعف الشعور بها الخطر كل الخطر ، فإن أصحاب النفوس المصحطة يتشجعون بذلك ، ويرتكبون كل ما تسوقهم اليه الشهوات البهيمية من ضروب المسكرات غير مبالين بعقاب لأنه لا عقاب عليها ، ولا حاسبين لعزى أمام الناس حسابا لأنهم أصبحوا لا يستذكرونها من اعتيادهم متاع أمنائها ، بقدر ما يجب أن يكون استنكارهم لها .

فالقدي أراءه من العلاج لهذه الاباحية الجائحة ، أن تمنع الجرائد من نشر حوادث هذه الفضائح ، وعدم كتابة الفصول الطويلة في بسط حوادثها ، كما تفعل كثير من الجرائد التي تؤلف منها شبه أقصوصة تتحف بها قراءها .

إن ما أشير به هنا من عدم نشر هذه الفضائح علاج لسيكولوجي مجرب ، فقد منعت بعض الأمم نشر أخبار الانتحار بعد ما علمت أن نشر أخبار المستعصرين يزيد عدد مرتكبي هذه الرذيلة ، وأن عدم نشرها يقلل منه .

ثم أرى وجوب مراقبة شرطة السينما ، فإن أكثر ما يعرض على الناس ضروب الفضائح باعتبارها من أعمال البطولة ، وعرضها على النظار على هذا النحو يحمل نفوس الضعفاء على تقليدها ، وعلى القليل على عدم التحرج منها .

لقد تغيرت الأرض غير الأرض ، والبس غير الناس ، وقد أصبحت في انحرافات كان أصغرها بقم القلوب ويقعدها ، فأصبحت من تكررها كأنها أمور عادية !

فكم من لقيط ملق في الطريق ، وكم من جنين قذف به في سناديق القاذورات ، وكم من فتاة انتحرت بالاحتراق أو تجمد السم الزخاف ، وكم من فتاة قتلت أهلها احتماظا بكرامتهم وغسلا للعار الذي ألحقته بهم ، وكم من فتاة توارت عن الأنظار خجلا فكان ما لها أن ذلت بعد عز ، وشقيت بعد سعادة ، فأصبحت زيلة في بيوت البس تخدمهم ويحتقرونها ، بعد أن كانت النجعة الساطعة في بيت أبويها ، والزهرة البانعة في أسرتها ، أو دهورها ضعف أخلاقها فأصبحت في عداد البقيات والمنداعرات !

هذا وذلك مما لا تصل إليه أيدي القضاء ، وبين ظهرانينا العلة الحقيقية لكل هذه النكبات ، في الشوارع والأندية والملاهي ودور الخيالة تدع الفضيلة حيارا وبلا حياة .

هاهي ذى مدارس الرقص ، ومعاهد الغلالة ، وحصون الإباحة ، مفتوحة الأبواب ، معدة للزائرين والزائرات .

وهاهي ذى الأخلاق المنحطة تحترف الفضيلة أمامها احترافا ، وموجات الافساد تكتسح كل فضيلة اكتساحا ، وصروح البيوتات الشوايح تنداس وتصدع الواحد تلو الآخر ، وكان بالقوم صمى أو في آذانهم وقرا ، فلا يحسون ولا يتألمون ولا يفضضون !

أصبحت الحياة غريبة في وضعها ، غريبة في صورها ، شاذة في تكوينها ، غريبة قد هجر إلا قليلا من القبل ، وملكة الطهي قد ماتت في أدمغة النساء والفتيات ، والقوام على تربية الانسال قد أصبحت في المرتبة الأخيرة من الشئون .

نم أصبحت الحياة غريبة ، فالأكل في المطعم ، والمجلس والسمر الخاص والعام لا يلد

للناس إلا في المقاهي والملاهي ، والاجتماع الذي لا يد منه لربط وشائج الأمرة قد فقد .  
وما البيت في نظر أولئك إلا سجن مظلم في النهار ، وكس غير مألوف لا يركن إليه إلا في الهزيع  
الآخر من الليل وإن كانوا له كارهين .

فإذا ما بزغت الشمس رأيت النساء يساقن الطيور في الخروج الى الشوارع تاركات  
أولادهن في البيت غير آبهات بما خلفن من حاجات تقتضى أن يكن هن المباشرات لها .

فدبرك قل لي : أى حياة تلك التى تحياها ، وأى معيشة تلك التى نميشها ؟ وهل تلك الحياة  
هى الحياة المستقرة التى نستطيع فى ظلها أن نرى نشأ صالحا وحيلاً متبها ؟

وهل بهذا نستطيع أن نربي بنتا تكون بعد أمتاً تشرف على تنظيم بيت ، وتقويم أسرة ؟  
إنى لنى شك من ذلك كبير

أعتقد أن البيت فى طريق التهدم ، وبناء الأمرة فى سبيل التقوض ، والأخلاق تنحدر  
بسرعة الى درك الرذيلة .

فإن لم يكن علاج عاجل ، وتأديب حاسم ، وتقويم صارم ، عم البلاء ، وفدح الخطب ،  
واستعصى الداء . ومهما حاول المصلحون بعد ذلك من علاج فليسوا بمفلحين .

الحق أن لا شفاء لهذا الداء ، داء القوضى الخلقية الناشئة عن التبرج والاختلاط ، إلا  
فى طب السماء ، ولادواء له إلا من صيدلة الدين ، ولا يقتل جرائم هذا المرض المصالح إلا  
مطهرات الوحي .

لست بهذه الدعوة جامدا أريد أن تكون المرأة متاعا فى البيت لا يجوز إخراجها ، وليس  
فى حاجة الى تنسم طلق الهواء . لا ، ولا أريد من الفتاة أن تظل فى عماية جامدة لا تعرف  
ما يحيط بها من تطورات الزمن وتغيرات الأحوال .

إنما أقصد أن تكون النساء كأمهاتهن السابقات الهوانى درس العلوم ، وتحمل أمانة  
القوام والوصاية والتربية .

أريد من الفتاة أن تكون كزميلاتها السوابق الهوانى ضرين المثل الأعلى فى النبيل والحياء  
والمحافظة على الشرف والكرامة . أما أن يترك لها الزمام على الوصح المفقوت الذى نراه الآن ،  
فذلك مؤد لهدم كيان الأمة ، وذلك مالا يرتضيه حافل . ألا قد بلغت ، اللهم فاشهد ؟

مصطفى الصاوى

المدرس بمعهد القاهرة

## تطور التصميم والزخرفة في مساجد مصر

التصميم والزخرفة في العصر الفاطمي (١)

— ١ —

سطر الفاطميون في تاريخ مصر صفحات ذهبية نشع من بين سطورها آيات المجد والعظمة ، وارتفعوا بهذه البلاد الى درجة من التقدم المادى قلما ارتفعت إليها في قابر تاريخها وحاضرها ، وقد اكتملت في عصرها شخصية الفن المصرى الإسلامى ، وتجلت براعة رجال الفن من المسلمين في صور كثيرة تفرض الإعجاب على كل من يشاهدها . فلقد ترك لنا الفاطميون آثارا عدة تدل على عظم ثروتهم ، وتكشف عن مدى ما بلغوه من الخيرة الواسعة لطرق البناء والتصميم ، ومقدار ما ابتدعوه من الأوضاع الزخرفية والأساليب الفنية ، وتشهد لسمو الفن عند المسلمين ، ومقدرة رعاظم الفنيين ، وتحريرهم الدقة والكمال في أصنافهم . وما لنا نصوصغ الألفاظ عقود مدح في جمال آثارهم وهي على كسب ما ؟ فلنمض في طريقنا قدما إليها لنستروح عبر العظمة منها ، ولنسعى رواه الفن في زخارفها ، ولنستذكر المجد الغابر بين ساحاتها .

ها نحن بين يدي أول أثر شيدوه : بين يدي الجامع الأزهر الشريف الذى ارتفع به ذكر مصر في الخافقين ماليا . ترى أكان كذلك يوم أسسه جوهر قائد المعز لدين الله الخليفة الفاطمي عام ٣٥٩ من الهجرة ؟ إن المظاهر المادية ، والكتب التاريخية تقول لنا في وضوح وحلاء إن هذا الجامع العظيم قد أضيفت إليه زيادات ودخلت عليه تغييرات ، ولعبت به يد الإهمال تارة ويد التجديد أخرى حتى انتهى الى صورة مغايرة لما كان عليه يوم ولادته . ولكي نقف على تخطيطه القديم ، علينا أن نستبعد ما جد عليه أولا بأول حتى يخلص لنا المسجد الأصيل ، فنشهد به مدى التطور في التصميم والزخرفة .

فلندخل الجامع من « باب المزينين » ، ولنفض الطرف عما نراه من المنشآت على اليسار وعلى اليمين لأنها من عصر متأخر عن العصر الذى نتحدث عنه ، ولننقدم قليلا حتى نقف على عتبة الباب المواجه لنا - باب قايتباي - حتى نأخذ المكان بظرة واحدة ، فإذا نحن أمام صورة سبق أن رأينا مثلها في جامع ابن طولون ، ونحسب مثلها في جامع عمرو : صحن مكشوف تحيط به من مواحيه الأربع أروقة مسقوفة ، وإذا استبعدنا البلاطة الأولى من هذه الأروقة المطلة على الصحن ( لأنها متأخرة في إنشائها عن الجامع الأصيل ) وجدنا أن عدد البلاطات في رواق

(١) بعد سقوط الدولة الطولونية حكمت مصر الدولة الأخشيدية ، وقد كانت مدة حكمها قصيرة ، ولم يصلنا من آثارها شيء .

القبلة خمس - كما في مسجد ابن طولون - وفي كل من الرواقين الشرق والغرب ثلاث ، أما الرواق البحري فلا تدرى بالصبط عدد بلاطاته الأصلية .

فالتصميم إذن لم يتغير ، ولكن دخلت عليه عناصر جديدة تبينها إذا ما اخترقنا الصحن إلى رواق المحراب . وأول ما يسترعى النظر قبل دخول هذا الرواق وجود قبة رشيقة تعلو مدخله ، ترجع إلى أواخر العصر الفاطمي ، وتزدان بزخارف جميلة وكتابات كوفية رشيقة كلتاها محفورة على الجص . وإذا نحن تذكرنا طراز الكتشابة الذي شاهدها في جامع ابن طولون ، وقارنا بينه وبين هذا الخط الذي نشهده في هذه القبة ، رأينا بونا شاسعا بينهما ، ولمسنا تطورا عظيما في رسم الحروف وتصويرها ، وأدركنا أن تلك الحروف القديمة التي تبدو بسيطة في غلظة ونقل ، قد صارت معقدة في خفة ورشاقة ، يشيع منظرها في النفس غبطة وانسراحا . والواقع أنه ما تجلت عبقرية رجل الفن المسلم في ناحية من نواحي الفن ، بقدر ما تجلت في الخط العربي ؛ فعندما نصح فيه الذوق الفني ، واكتملت لديه ملكة الإبداع ، أخرج لنا من الحروف العربية : من رءوسها وسيقانها ، وأفراسها ومدتها ، وخطوطها الرأسية وحطوطها الأفقية ، عناصر زخرفية فيها سحر ولها روعة ؛ واستهواه جمال هذا الفن الجديد ، فأخذ يدخل على صور الحروف بعض التعديل ، يصعد ببعضها في غير حاجة إلى صعود ، ويخفض من أجزائها ما يتنافر مع أصول الزخرفة من تناسق أو تقابل أو تناسب ، فجاءت كتابته جميلة حقا ، ولكنها تستعصي في قراءتها على الكثيرين ؛ ولئى كانت تسكلنا - إن شئنا أن ندرك ما وراءها من المعاني - جهدا ليس بالقليل ، فإنها تعرضنا عن هدفنا هذا - بعد أن ينكشف لنا ما استغلق منها - بلغة فكرية لا يدرك كنهها إلا من كابد هذا الأمر . وأمامنا ما سطر داخل هذه القبة من النصوص ، فلنجرّب حظنا في قراءتها (١)

في هذه القبة من الجهة القبليّة نافذة من الجص تزدان بزجاج ملون ، هي الأولى من نوعها في مساجد مصر . والآن فلندخل رواق المحراب :

(١) ابتداء من رأس العقد المحيط بالنافذة البحرية جهة اليسار نقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم . إن المتقين في مقام أمين . في جنات وهميون . يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين . كذلك وزوجنا من محور عين . يدعون فيها بكل فاكهة آمنين . لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ، ووقام عذاب الجحيم . فصلا من ربك ، ذلك هو الفوز العظيم . فاعلموا أن الله يبارك الصالحين . فاعلمهم يتذكرون . فارتقب إنهم مرتقبون ( سورة الدخان الآيات ٥١ - ٥٩ ) . بسم الله الرحمن الرحيم . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يوزق من يشاء بغير حساب ( سورة النور ٣٧ و ٣٨ ) . وفي رقبه القبة فوق هذه العقود مباشرة نجد آية الكرسي بخط كوفي كبير .

إن الظاهرة الجديدة في هذا الرواق التي لم نشهد مثلها في جامع عمرو ومسجد ابن طولون ، هي ذلك المجاز المتسع الذي يتوسط الرواق ، والمعتد من المصن إلى المحراب القديم مباشرة ، والذي يمتاز بملوحته عن سقف الرواق نفسه ، وبإحاطة من الجمين ومن اليسار بسلسلتين من العقود بكل منهما ست طارات متصلة ببعضها ، وتسير من الشمال إلى الجنوب ، بينما تسير باقي عقود هذا الرواق بل وعقود الأخرى في موازاة حائط القبلة من الشرق إلى الغرب . أما الأعمدة التي تتكى عليها هذه العقود فمن الرخام ، وهي مختلفة الطرز والأشكال ، وبذكرنا منظرها بأعمدة جامع عمرو ، إذ أن كليهما مأخوذ من الكنائس القديمة . وينتهي هذا المجاز بقبة فوق المحراب القديم ، حديثة البناء ولكنها في الغالب قد حلت محل قبة قديمة كانت في هذا الموضع .

ولقد كان هذا الرواق يزدان بزخارف جميلة لا تزال بقاياها تشاهد في المجاز ، وفي الجدار الأيسر ، وفي بعض أجزاء الجدار الأيمن ، وفي امتداد جدار القبلة القديمة نفسه (بحوار باب رواق القوام) الذي كان ينتهي عنده المسجد الأول (١) . وتذكرنا هذه النقوش بزخارف مسجد ابن طولون ، إذ هي قريبة منها في روحها . والواقع أن شخصية الفن الفاطمي لم تكن قد نضجت بعد ، فليست الحدود التي تفصل المصور السياسية بعضها عن بعض هي بعينها الحدود التي تفصل المصور الفنية ، لأن التطور الفني على عكس التطور السياسي بطيء جدا يحتاج إلى وقت طويل لكي ينمو ويظهر .

على أننا لا ينبغي أن نمر هكذا سرا على ذلك العنصر المعمارى الجديد الذى دخل على تصميم المساجد في مصر ، والذي نراه لأول مرة في الجامع الأزهر ، ونفنى به المجاز ، فهو جدير بأن نقف عنده قليلا مفكرين في منشئه ومصدره . أما المنشأ ففي الكنائس المسيحية الشرقية (البازيليك) (٢) وقد كانت هذه الكنائس مألوفة لدى المسلمين . كثيرا ما صلوا بين جدرانها ، وكثيرا ما اقتسموا الواحدة منها مع المسيحيين فجعلوا من نصفها مسجدا يصلون فيه وأبقوا النصف الآخر كنيسة كما كان للمسيحيين يتعبدون فيها ، وكثيرا ما حولوا الكنيسة بأكملها إلى مسجد .

١ — الجزء المرتفع الذي يقع خلف المحراب القديم أنشئ إلى المسجد الأول في أيام عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٦٧ هـ (١٧٥٣ م) .

٢ — البازيليك Basilica معناها البيت الملكي . وكانت في العصر الرومانى مكانا لالنجاز الأعمال التجارية والقضائية . وقد اتخذها المسيحيون نموذجاً لكنائسهم ، وهي تتكون عادة من مستطيل تقسمه أربعة صفوف من الأعمدة إلى مجاز واسع في الوسط ، وأجنحة جانبية أقل سعة وأوطأ سقفا من المحار .



وأما المصدر فالمسجد الأموي بدمشق، ذلك المسجد الذي لعب في تصميم المساجد دورا هاما لم يلعبه مسجد آخر . ولعل خير ما نسوقه للدلالة على أهميته وعلو مكانته عند المسلمين هو ما ذكره الجغرافي المشهور (المقدمي) في كتابه (أحسن التقاسيم) إذ يقول : « قات يوما لعلي ياعم ، لم يحسن الوليد حيث أتفق أموال المسلمين على جامع دمشق ، ولو صرف في حجارة الطرق والمصانع ورم الحصون لكان أصوب وأفضل . قال : لا تعقل يا بني ، إن الوليد وفق ، وكشف له عن أمر جليل ، وذلك أنه رأى الشام بلد النصارى ، ورأى لهم فيها بيعة حسنة قد امتلأت زخارفها ، وانتشر ذكرها كالقيامة (١) وبيعة له ، والرها ، فأتخذ للمسلمين مسجدا أشغلاهم به عنهن ، وجعله أحد عجائب الدنيا . فليس بدعا إذن أن يتخذ هذا الجامع العظيم إماما في تصميم المساجد ، وأن ينقل عنه الكثيرون من عناصره . وهكذا نرى المجاز الذي ظهر لأول مرة في مسجد دمشق قد انتقل إلى مساجد تونس ، ونقله الفاطميون معهم إلى مصر .

ولكن الجامع الأزهر ، لا يستطیع وحده أن يعطينا صورة واضحة عن تصميم المساجد في العصر الفاطمي بسبب ما دخل عليه من التعديل . فمن لا ندري أكانت له ما كن يوم أنشئ أم لا ، وإن كانت فأين موقعها ؟ ولا نعرف أكانت واحية كراجهة المسجد الطولوني مثلا أم كانت له واحية عظيمة ، وإن كانت فاشكلها ؟ لذلك سنترك إلى جامع فاطمي آخر قد احتفظ لنا بالكثير من مميزات المساجد الفاطمية هو جامع الحاكم بأمر الله الذي سيكون موضوع بحثنا في العدد المقبل ، إن شاء الله ؟

يتبع

(١) هي كنيبة القيامة في بيت القدس التي يجمع إليها المسيحيون .

محمد عبد العزيز مرزوق

الأمين المساعد بدار الآثار العربية

## كلمات نابغة

قال أبو عمرو بن العلاء : خذ الخير من أهله ، ودع الشر لأهله .  
وقال صر بن الخطاب : مع الحيوان أحسن ما يكون في عينك .  
وقال حكيم : إحسان المسمى أن يكف عنك أذاه ، وإساءة المحسن أن يمنعك جدواه .  
وتكلم ربيعة الرثي يوما فأكثر وإلى حنبيه أعرابي ، فالتفت إليه ربيعة وقال له : ما تعدون البلاغة يا أعرابي ؟

قال : قلة الكلام وإيجاز الصواب ؟

فقال له ربيعة : فما تعدون العلى ؟

قال الأعرابي : ما كنت فيه منذ اليوم !

## ليلة الاسراء

احتفلت الأمة المصرية بليلة الاسراء في مساء يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر رجب ، واحتفل به رسمياً في مسجد محمد علي بالقلمة ، فنفصل حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم بشموه هذا الاحتفال في عدد جم من رجال الدولة يتقدمهم حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء ، وحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى ، وقام بقراءة حديث الاسراء والمراج فضيلة الاسناذ الجليل الفيض عبد الله عفى ، إمام حضرة صاحب الجلالة ، وكان بين الحاضرين من رجال السلك السياسى دولة سفير إيران .

واحتفلت بهذه الليلة المباركة مشيخة الطرق الصوفية بدار السادة البكرية بالخرنفش ، فأتم تلك الدار عدد كبير من العلماء وشيوخ الصوفية وكبار الموظفين والاعيان .

وكان قوام الاحتفال قراءة القرآن الكريم ، وإطعام العقراء .

واحتفل سلاح الاشارة الملكى بهذه الذكرى أيضاً بحضور حضرة صاحب العزة الميرالاي أحمد الصاوى بك ، قائد ذلك السلاح ، وحضرة البكباشى ابراهيم الردبى ، وجميع صباط السلاح وجنوده .

وألقى حضرة الأستاذ محمد الدردبى محاضرة قيمة في ذكرى الاسراء في الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم بدار الاتحاد ، وقد شهد هذه المحاضرة جم غفير من الأدباء والعلماء ورجال الدين وغيرهم .

واحتفل بهذه الليلة في جميع البلاد المصرية في أشهر مساحدها تحت رئاسة مديرى المديريات وكبار موظفيها . فرتل الكتاب الكريم مشهورو القراء ، وألقيت الخطب والمحاضرات في النوادي والجمعيات ، ووزعت الصدقات على الفقراء والمعوزين .

وقد احتفل بها أيضاً حرياً على العادة السنوية جميع شعوب المسلمين في مشارق الارض ومغاربها ، وأم مساحدهم عشرات الملايين منهم على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم .

لا جرم أن لهذه الاحتفالات فوائد أدبية لا تقدر ، فلها تذكّر المسلمين بماضيمهم المجيد ، وتعيد الى أذهانهم أيام رسولهم الكريم ، وأدوار حياة الدعوة الاسلامية ، وفي كل هذه الذكريات إحياء لشعور ، وتنبيه للمحافظة الدينية ، وتحريض على التعاون على البر والتقوى .

وقد رأى بعض المتشدين أن هذه الاحتفالات من البدع المستحدثة ، ولكنها في نظرنا بدعة حسنة إذا خلت من الغلو في القول ، والإغراق في الوصف ، والاعتماد على الأقوال الضعيفة في إيراد التاريخ ، والاسلام ترى بحقائقه وبيناته لا يحتاج الى الاستكثار من الموضوعات عليه .

## من وحي الشريعة الخالدة

سبق لنا في بحوث متلاحقة أن كشفنا بقدر عن مبلغ ما يداخل المجتمع من آفات أخلاقية ، وما تكبّت به البشرية في أولى مراحلها من فرط تلك المداخلة ، وكيف أن رواد الأخلاق صدّوا عن مناهلها المختلفة عما أشكل على الناس فهمه في المنتصبين حماة عن الأخلاق الفاضلة من جهة ، وزيادا عن مبادئ الدين القويم من جهة أخرى . فقد نمت في بعض الرءوس نابتة حاولت أن تفصل بين الأخلاق المثالية العليا وبين مبادئ هذا الدين . واعتاد هذا الفريق أن الخلق القويم في ظاهرات معينة قد يبدو مناقضا للدين ، وهو في واقع أمره حير محض وسعادة محضة . والجدل مع هذا الفريق قديم الاتصال ، وخير لمصومهم أن يقفوا بهم عند مفترق هذا الطريق ، وأن يدعوم وشأنهم ، ما دامت المبرة لا تقل من غرب عصبيتهم ، ولا تنهض بهم إلى سواه السبيل ، نفي للبشرية أن تظل قائمة على تراثها الأول من هدى كتاب الله وهدى الرسول الأعظم وأخلاق الصدر الأول ، وأن يسمى علماء الأخلاق بتجسيها الآفات التي تأخذ عليها غايتها ، وتقف بها دون نبيل مقاصدها .

فالبخل وسوء الخلق مثلا آفة من الآفات الأخلاقية التي لا سلامة منها إلا بمجازتها ومناهضتها في عنف وقوة . والبخل معناه استكثار البخل فيض الله على عباده ومدهه على أوليائه ، وليس البخل من يخل بالمال فحسب ، بل البخل من يخل بجاهه عن طلابه والمفتقرين إليه ، إما لأنه يحاول أن يحتجب الخير كله في يده وفي يد ذوى قرياه ، فيرى أن امتداد جاهه وراء ذلك المحيط تقويت لخير كثير عليه أو على ذوى قرياه ، وفي ذلك بلاء عليه مبين ، وإما لأنه أخذ نفسه بالكف عن استئثار جاهه فلا تفرج شفته عن قالة يفرج بها كربة مكروب ، أو يدفع بها غضب منصوب ، وإما هما معا . ومرد ذلك كله في هذا الخلق المعجيب إلى شحه وأقن رأيه .

قال العلامة ابن حزم في كتابه الملل والنحل والاهواء : « ليس من الضروري أن يدعى الغنى الذي لا يؤدي حق الله عليه في الناس تحيلا وحده ، بل هناك صنف هو شر من البخل بالمال ، وهو الذي يستطيع أن يدفع الأذى ولا يفعل ، وأن يجلب الخير ولا يفعل ، وأن يهدم صروح الظلم في الظالمين ولا يفعل ، وأن ينصر من نصره الله ولا يفعل ، وأن يرسل كلمة الخير يصيب بها قلوب ذوى السلطان فتنتطلق أيديهم بالأهلية والسنهم بالدعوة إلى الاستراثة منها بين أنصارها ولا يفعل » . ومن هذه الناحية كان خطر البخل من هذا النوع على البشرية أشد من الوباء وأفتك من أصفر الهواء .

قد يكون لبخيل المال ثملات في الإمساك بنشبهه عن المساهمة به بين أبناء جنسه ، إما لأن ذلك كان موروثاً فهو داء قد أعزل ومرض قد أشكل ، وإما لأن بخيل المال قد جمه من وسائل مقبته وقد كان سلبه وطريده ، وإما لمرض تقسائي اتعملت به نفسه وطالب له إحساسه . وما من شك في أن الأصل الأول لأنواع البخل مجتمعة هو البخل بالمال ، فالبخيل بالمال في واقع أمره مستكثر فصل يده على المحتاجين إليه ، وقد كان خليقاً أن يكون في تناول ألسنتهم ومهب عواصفهم ، لأن البخل فيه لا يمدو أن يكون منابذة للإيثار ، وبجاهدة لتعهد جماعة من خلق الله بفيض الله وما أفاض به عليه من مال يوطد به في الناس ذكره ويدفع عنه بلواه ، قال جل ثناؤه : « ومن يوق شح نفسه فأوائك هم المفلحون » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة خب ولا منان ولا بخيل » . وقال صلى الله عليه وسلم : « خصنان لا يجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق » .

ولم تخل أمم الأرض بين مسيحيها ومسيحيها ويهوديها ووثنيها من هداة بدعون إلى البر والإنسانية والحب عليها ، وقيموه للفضيلة صروحا شامخة البنيان وطيبة الأركان ، حتى تتعاون البشرية في بناء صرح هذا المجتمع من جهة ، وحتى تطفأ جذوة الحاقدين على كنسار المال من جهة أخرى .

لكن يبقى بعد ذلك أن صنفاً من بخلاء المال قد ألانوا جاسمهم للناس ، وخفضوا لهم أجنحتهم وأعسلوا لهم في الخطاب ، وهذا بدهي الظهور في جانب غير قليل من الخلق ، لأن شح النفوس أعيا الأدواء وأعمى العلل والأهواء ، فهو يحاول أن يستمر حلتته من الناس بما يظهر من مداورة والتواء ، فإذا جد الجسد ومطالبه الواجب بمساهمة في منول مال وإصلاح حال ، رأبته يفر أمام الميون فرار الإبل إلى أعطانها ، والطيور الحائرة إلى أعشاشها ، وليس ذلك إلا لأن البخل داء دوى كشف عن نفس معتلة وقلب سقيم . فهل حانت الساعة التي تتلاقى فيها أطباء البشرية بمرضاها ؟ وهل آن أن تنفجر لمة الظلام عن جبين الصباح ؟ ذلك علمه إلى هلام الضيوب ؟

عباس ط

### ( تنبيه )

فاننا ، ونحن نضع تعليقات على ما نقلناه من رسالة التوحيد للاستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده ، أن نقبه أن هذه التعليقات لنا لا له .

\*\*\*

وقد جاء في السطر الرابع من الصفحة ( ٣٨٩ ) من العدد السابق قولنا ( في السنة السادسة من النبوة ) ، وصحتها ( من الهجرة ) .

They do not teach that, because the deepening anxiety of Jesus, in alliance with a fear of treacherous betrayal on the part of some of his disciples, led to his sudden and skilfully planned disappearance; we should believe that he soared upwards to heaven. Their accounts of the incident of the crucifixion do not show that God saved Jesus from the cursed death on the cross. The plain and useful teachings of Jesus, as pronounced in the Gospels, however make the belief in the atoning and propitiating powers of the crucifixion unnecessary. His disciples also betray total ignorance of such a dogma as the vicarious atonement. Jesus himself believed in one God, worshipped Him, and prayed to Him, and laid all possible stress on good living and cherishing love for one's neighbour.

This brings the treatment to a close, with my sincerest hopes that it will be of some interest and benefit to God's people.

## THE KORAN

As to the Koran, it consists exclusively of the revelation or commands which the Prophet professed, to have received from time to time, as a message direct from God; and which, under divine direction, the Prophet delivered to those about him.

Every syllable of the Koran is of divine origin, eternal and 'uncreated' as the Deity Himself. It is one of the Mohammadan arguments against the Jewish and Christian Scriptures, that they are not exclusively oracles professing to proceed from the mouth of God.

The Prophet himself neither read nor wrote. His being an illiterate man, enhances the marvel of his revelation<sup>1</sup> 'Learning' says the Rev Margoliouth, 'he had none, or next to none<sup>2</sup>.'

At the moment of inspiration or shortly after, each passage was recited by the Prophet in the presence of friends or followers, and was generally committed to writing by someone amongst them, at the time or afterwards, upon palm-leaves, leather, stones, or such other rude materia as conveniently came to hand. These divine messages continued throughout the twenty-three years of his prophetic life, so that the last portion was not received till near the time of his death.

---

(1) Sir W. Muir. Life of Mohammad.

(2) The Rev. Margoliouth's introduction to Rodwell's translation of the Koran.

treatise, with the object of making the laity and non-Christians in general acquainted with it. In doing so, I have purposely refrained from quoting the opinions expressed in the learned commentaries of the nonconformists, and in the books issued on the subject by the Rational Press. I have, on the contrary, restricted the treatment to the views expounded by the Clergy of the Church of England, in the main, and to the views of those who are rather conservative. I have also deliberately overlooked the question, whether we can ascribe with certainty the authorship of the Gospels to the Evangelists, whose names they bear now. All the commentaries are agreed upon the fact, that the original copies of the Gospel, were without indication as to the authors' names. It was guessed, later, who were the most probable writers of them. The probable conjecture has not yet reached certainty. The authenticity of the names, to which, the Gospels are attributed, is open to doubt, as can be seen by referring to any commentary."

What, we have learnt, with respect to the origin of the Christian Gospels, and the creed preached therein, can be recapitulated in a few words. Mark was the first Gospel, and not Matthew, as is generally indicated by the present arrangement of the four books. Mark, who was a convert and interpreter of St. Peter, penned at the instance of 'his hearers', what St. Peter had adopted and preached to his Roman audiences. Mark has been incorporated into Matthew and Luke. But Matthew has represented the words and works of Jesus as fulfilling the prophecies of the Old Testament. No less than sixty-five references have been made to Old Testament texts, to establish that the advent of the Messiah was in strict accordance with the Jewish ideals. This conception and purpose pervade the whole of Matthew, and distinguish it from the other three. Luke represents St. Paul's views, which are in conflict with St. Peter's. Thus we have in Luke an altogether different point of view. It opposes Matthew and Mark most boldly, and places its liberal and Catholic description of Christianity in a striking contrast to Matthew and Mark, who confine God's blessings and ministrations to the elect alone. John strikes an entirely different note. It offers, to interpret Christianity for us. We may respect his opinion, as an individual one, and as different from the other three; but we cannot be assured, that his vague and mythical representation of Christianity is identical with the definite and plain teachings of the holy prophet Jesus. In a word, the Gospels are as divergent, in expressing the Christian doctrines, as their versions are discrepant, in the reproduction of the words and works of Jesus. They have not been safeguarded against mistakes and interpolations. On the contrary, they are replete with extraneous matter. Sometimes glosses and editorial notes have been absorbed in the body of the book, and sometimes irrelevant additions have been made. Matthew and Luke have either toned down or omitted what they deemed objectionable in Mark.

the last twelve verses are not by St. Mark." It further supplies the following information on the subject "When at the close of the apostolic age, an attempt was made (probably in Rome) to collect the authentic memorials of the Apostles and their companions, a copy of the neglected second Gospel was not easily found. *The one that was actually discovered, and was used to multiply copies, had lost its last leaf, and so a fitting termination (the present appendix) was added by another hand.*"

The unanimous verdict given in the New Testaments of Dr. Weymouth, Dr. Moffat, Ferrar Fenton, and in the Twentieth Century New Testament, is that Mark xvi-9-20, is an addition.

(D) Luke xxiv. 51 is another interpolation, as is conceded on all hands. It elicits the following comment from the Rev. Dummelow: "A few ancient authorities omit these words. If they are omitted, *it is possible to regard this event, not as the ascension, but as a miraculous disappearance of Jesus at the end of the interview begun in verse 36.*"

Peake's Commentary makes similar remarks; "The words 'and was carried up into heaven' are omitted in some of the best MSS. and have probably crept in from Acts. i. 9 f."

The Twentieth Century New Testament and Dr. Moffat's "New Testament" mark it as an interpolation."

### Ascension.

Our co religionist, Maulvi Sadr-ud-Din, B.A., from whose interesting essay, "Are the Gospels inspired?" I have chiefly reproduced the above chapter, makes the following conclusion to his work:

"If according to Christ and Mohammed (peace be upon them and all the other prophets,) the essence of religion lies in our perfect love of God, which can only be manifested in our willing obedience to His Divine will, we must be assured, as rational beings, of the genuineness and credibility of God's message, as much as of the soundness of the truth, that it reveals. It is this natural craving, that has led to what is known as the higher criticism of the Bible. A similar test has been applied to the Holy Koran as well, to which reference has been made previously. The result of the higher criticism of the four Gospels has partially been presented in this

---

(1) For a fuller treatment of the subject of the higher criticism of the New Testament see a very interesting treatise entitled 'Are the Gospels inspired?' by Maulvi Sadr-ud-Din, B.A., from whose work the foregoing passage has been chiefly reproduced.

being a difficulty to faith." Peake's Commentary offers the following note on it

"Mark xiii. 32— This is one of 'Schmiedel's pillar-passages.' A passage admitting a limit to Christ; knowledge must be trustworthy history, according to Schmiedel. Certainly later commentators found the verse difficult."

"My God, my God, why hast Thou forsaken me?" (Mark xv. 34) These words have been copied by Matthew only. They picture the inborn weakness of Jesus. This expression of his human nature was unworthy of record, in the opinion of Luke and John.

### Interpolations.

Of many interpolations, mention will be made here of a few only :

(A) John vii. 53 and viii. 1-11, that is, the last verse of the seventh chapter, with its continuation in the first eleven verses of the eighth chapter, which relate the story of an adulteress, is an interpolation. This is admitted universally. The Rev. Dummelow's Commentary has the following observations on it : "The woman taken in adultery.—All modern critics agree, that this section (vii. 53-viii. 1-11) is no original part of the fourth Gospel. It is not in the author's style; it breaks the sequence of our Lord's discourses, and is omitted by most of the ancient authorities."

Peake's Commentary comments on the story at the end of John vii. 53-viii. 1-11, *Jesus, and the woman accused of sin* : "The well known story of the woman taken in adultery has no claim to be regarded as part of the original text of this... It is supported by no early Patristic evidence. The evidence proves it to be an interpolation of a 'western' character."

Dr. Weymouth's 'New Testament in modern English' marks the section as an interpolation. 'The Twentieth Century New Testament' has excised it, and placed it in such a place as indicates clearly, that it has no connection with John. 'The Complete Bible in Modern English' writes in a footnote : "The narrative of the sinful woman (chap. vii. 53 to viii. 1-11) is rejected by the most competent authorities as a spurious interpolation."

(B) John xxi.—In the opinion of the Rev. Dummelow, the last two verses at least, 24 and 25—are really doubtful, and they "may have been added by the Ephesian elders, who first put the Gospel in circulation, after the death of the Apostle, and who wished to testify to its genuineness and trustworthiness."

(C) Mark xvi. 9-20 is another interpolation. Dummelow's Commentary observes that "Internal evidence points definitely to the conclusion, that



Now, these quotations point very clearly to the fact, that there is a general agreement, as to John having played the role of an interpreter or a commentator of the three other Gospels. There is not an allusion or a reference, made to John having received a revelation from Heaven, or having been inspired to furnish the world with an explanation of the doctrines of Christ. We learn on the other hand, that, while the authors of the three other Gospels compiled the incidents of the life of Jesus, John gave a mystical meaning to them. He himself does not lay claim to revelation, or to consequent perfection. He has, on the contrary, confessed the imperfection of his attempts, to depict the incidents of the life of Jesus. Likewise he admits, that he is but a recorder of incidents or signs. "There were also a great number of signs which Jesus performed in the presence of the disciples, which are not recorded in this book; but these have been recorded, in order that you may believe, that he is the Christ, the son of God, and that, through believing, you may have Life through his name<sup>1</sup>." This text, which reveals the object of the fourth Gospel, announces that this is a partial record of some of those signs which Jesus performed before his disciples. To record events or signs which are known to many, or all, of the disciples and others, does not require the aid of revelation which supplies information which is not already in the possession of human beings.

### Some Important Discrepancies.

Jesus said to them (who took offence, at him and who were not prepared to recognise his claims simply because he was a carpenter's son and had other humble ties): "*A prophet* is not without honour, but in his own country, and among his own kin, and in his own house" (Mark). This statement was curtailed by Matthew, and still more by John. Luke ignored it altogether.

"But of that day and that hour knoweth no man, no, not the angels which are in heaven, neither the Son, but the Father" (Mark xiii, 32.) This text embodies a confession by Jesus, eloquent of his limited knowledge and avowed ignorance; while Luke and John, however make no mention of that humiliating reference.

The Rev Dummelow's Commentary makes the following remark on "Neither the Son". "This is the true reading not only here (in Mark) but in Matthew xxiv, 36, where it has been *altered* in many MSS., probably as

---

(1) John xz, 30.

in character is no less, than the difference in scene. Further, *the synoptists do not* claim to be eyewitnesses of our Lord's work ; the first three Gospels are usually called the synoptic Gospels... It is obvious, that not only all three synoptic Gospels differ from John, but they differ *widely* from each other. The account of the birth and infancy of Christ in Matthew differs widely from that in Luke. The incidents of the temptation of our Lord are recorded in a different order in Matthew and Luke, and the temptation is recorded without these incidents in Mark. All three Gospels give a slightly different account of the inscription on the cross, and the words spoken by the centurion at the death of Jesus, vary in Luke from the words in Matthew and Mark. Also the language differs and differs in a very singular manner.

From the above quotations it is very clear, that the material for Mark's Gospel was supplied by St. Peter's preaching, and that Mark was freely drawn upon by Matthew and Luke ; which establishes the fact, that the synoptic Gospels are no revelations at all, but are purely and simply human compilations. It remains to deal with St. John's Gospel.

The Twentieth Century New Testament makes the following observation on John :

"The writer apparently proposed to himself to illustrate the spirit of the 'Gospel of Love' by such incidents in the life of Jesus, as best suited his purpose. There is no attempt at a regular connected narrative ; and the writer allows himself such freedom, in commenting upon the teaching of Jesus, that it is not always easy to tell where that teaching ends and the writer's comments begin. It is to the great struggle between Light and Darkness, Death and Life,—words much in use and much debated in the current philosophy of Ephesus,—that the writer devotes his attention, rather than to the external incidents of a story which has already been told, and which is plainly viewed by him from a greater distance of time, than is the case with the compilers of the three other Gospels."

Another eminent authority, namely Dr. Weymouth, in his Introduction to John, observes :

"It must be owned that, although the fourth Gospel makes no assertion which contradicts the character of Teacher and Reformer attributed to Him by the synoptists, it presents to us a personage so enwrapped in mystery and dignity, as altogether to transcend ordinary human nature. This transcendent personality is, indeed, the avowed centre of the whole record, and his portrayal is its avowed purpose<sup>1</sup>."

---

(1) Dr. Weymouth's Introduction to St. John's Gospel.

In the opinion of the best English scholars of the New Testament, the Gospels are not to be looked upon as revealed books, the sole source of which should have been God and not man. But they are to be regarded, on the other hand, as inadequate attempts, made by pious but not talented followers of Christ, at the description of his life. It is a great pity, that the world never availed itself of the collection of those life inspiring words that were uttered by the Holy Prophet of Nazareth. However, piety and veneration, for a long time, assured the credulity of the early Christians, that the Gospels revealed the Word of God, and in consequence were infallible. There was a time, when every article of it was firmly and reverently believed to have directly proceeded from God<sup>1</sup>. In short, what had been written by man, passed for the word of God. This is clear to those clergy who have undergone university training. But the pity of it is, that they have not the moral courage to enlighten their congregation on the subject. It would only seem, that pious anxiety dictates, that a character of infallibility should still be given to what has been written by human hands, and that crude attempts at the biography of the Holy Prophet of Nazareth, should continue to be believed to have been revealed by God Himself.

Anyhow, what scholarship and research have now brought to light, was revealed over thirteen centuries ago in the Koran :

"Do they not know, that God knows, what they keep secret, and what they make known ; and there are among them ignorant, who know not the Book, but only idle stories, and they do but conjecture ; woe, then, to those who write the book with their own hands, and then say This is from God, so that they may obtain therewith a small gain , therefore, woe to them, for what their hands have written, and woe to them, for what they have earned<sup>2</sup>."

Dr. Murray's illustrated "Bible Dictionary" which is a valuable commentary, enlightens us thus :

**Gospels** :—The first point which attracts our notice in reading the Gospels is, that the first three Gospels are distinct from the fourth. The first three Gospels confine themselves almost exclusively to the events which took place in Galilee, until Christ's last journey to Jerusalem. If we had three Gospels alone, we could not definitely say, that our Lord went to Jerusalem during his ministry, until he went there to die. The difference

---

(1) Dr. Ph. Schaff's Companion to the Greek Testaments and the English version pp. 88 & 89.

(2) Translation of the Holy Koran II, 72: 73 & 74.

human hands and brains only as a man may use a typewriter... Their inspiration did not involve a suspension of their natural faculties, nor abolish the differences of training and character; it did not even make them perfectly free from earthly passion. Therefore, we find that their knowledge sometimes is no higher than their contemporaries, and their indignation against oppression and wrongdoing sometimes breaks out into desire of revenge. It surprises us in the Bible, because of our false preconception; because of our false theory of Verbal Inspiration."

The same Commentary further throws light upon the insufficiency and incompleteness of these sacred records, and thus precludes any chance of their claiming divine origin. "To-day we realise, that the life of Jesus can never be written. The material is wanting. Neither in quality, nor in extent, do the Gospels satisfy the requirements of a modern biography. At best, they offer us certain memorabilia of the public ministry of Jesus, hardly adequate to construct the story of the year or years, during which he evangelised his people, and barely sufficing to mirror the chief features of his message. Where the modern mind is most curious, the Gospels seem to be least communicative. Men would fain trace the development of innermost convictions which condition his activity as a prophet. But the facts that the Gospels tell us little or nothing of the early life of Jesus, and that almost every story consists of a simple record of outward act and utterance, with few hints as to inward feeling or historical setting, seem at first sight to defeat the hopes of analysing motive, and tracing growth."

### 3. The four Gospels.

Dealing with the sources of the four Gospels of the Christian faith, the *Encyclopædia Biblica* comments as follows :

"These documents are of varying value from a historical point of view. Critical opinion is much divided as to the fourth, that which bears the name of John, the judgment of many critics being, that it is the *least trustworthy as a source, whether for words or for the acts of Jesus*. By comparison, the first three, from their resemblances called synoptical, are regarded by many as possessing a considerable measure of historical worth, but even these, from a critical point of view, are not of equal value, nor do the contents of any of them possess a uniform degree of historical probability. They present to the critic a curious, interesting, and perplexing problem, still far from final solution. By their resemblances and differences, agreements and disagreements, they raise many questions as to origin, relative dates, and literary connections, which have called forth a multitude of conflicting hypotheses and a most extensive critical literature."

The quotations cited above clearly buttress the Islamic belief, that the Christian gospels are but human attempts to draw up accounts of the life of Jesus, and as such are neither complete nor satisfactory. Revelation alone can make a recipient immune from error, for it suspends, for the time being, all other mental activity of the person, upon whom the Word of God descends. His Word and Will were revealed to holy prophets, like Abraham, Moses, Jesus and Mohammad. But the followers of Jesus were animated, or inspired, to compile what was already known to them. They had but to collect, sift and arrange the material which was in the possession of the people. As such the works of the Apostles are necessarily characterised by mortal shortcomings. Even the devout Christian scholar admits it, and is ready to bear testimony to the fact, that the record of the gospels is not altogether complete and reliable. We cannot do better than quote some of the most scholarly and popularly admitted opinions which carry weight and conviction in this connection.

The Rev. Dummelow, M.A., expresses his opinion as follows :

"Speaking broadly, the Christians mean by their inspiration an impulse from God, causing, certain persons to write, and directing them how to write, for the edification of others. Though it is closely connected with *revelation*, it is not identical with it. By *revelation*, God makes known to a soul truths which were unknown to it before. But it is not at all necessary, that an inspired writer should receive any new truths by way of revelation. Thus, St. Mark was inspired to write his Gospel, but he was inspired to *write down truths* which were already familiar to him and to others through the instruction given by St. Peter.<sup>10</sup>

## 2. The Gospel of St. Matthew and that of St. Mark.

The foregoing also applies to both St. Matthew's and St. Mark's Gospels. "St. Mark is the oldest of the Synoptists, and has been used by St. Matthew and St. Luke, who have incorporated the bulk of his Gospel into their own with comparatively few alterations <sup>2</sup>."

It is thus plain, that Christian scholars of sacred literature do not claim divine origin for Christian Gospels. They, on the other hand, admit that the said books were compiled by mere men who were by no means experts. They were consequently liable to mistakes. I quote the Rev. Dummelow once more on the point : "We must not regard the Bible as an absolutely perfect book, in which God is Himself the author, using

---

(1) The Rev. Dummelow's Commentary, p. 71.

(2) Ibid p. 133.

may be, but St. Luke dedicates his books to the "most excellent Theophilus".

The *Encyclopædia Biblica* throws further light on this dedication : "The dedication of Luke (l. 1-4) shows, that we have passed into a new literary province. The Muratorian fragment calls attention to the fact, that the author writes *in his own name*, a novelty among Evangelists. He also dedicates his work to someone who, if not an imaginary 'God beloved', would appear to be a patron, a man of rank. The apostles—the (1-2) 'eyewitnesses and ministers of the word'—appear to have delivered their testimony by oral tradition, and to have passed away. To supply their places, (1-1) 'many' had attempted to draw up a formal narrative concerning the matters fully established in the Church. These writers had clearly not been eyewitnesses, nor were they, in Luke's judgment, so successful as to make unnecessary any further attempts. Apparently they had failed in the three points, in which he hopes to excel : (1) they had not traced everything up to the source, and this (2), as far as it went, not 'accurately' and (3) they had not written 'in order' <sup>1</sup>."

The same book further discusses the point whether or not the work of St. Luke's justifies the claims of that Apostle : "We are led to the conclusion that, though Luke attempted to write 'accurately', and 'in order', yet *he could not always succeed*. When deciding between an earlier and a later date, between this and that place and occasion, between metaphor and literalism, between what Jesus himself said and what he said through his disciples, he (Luke) had to be guided by evidence which sometimes led him aright, but not always." <sup>2</sup>

We further read in the same work : "Luke's absolute omission of genuine and valuable traditions—especially in connection with Christ's appearance to women after the Resurrection, and with Christ's promise to go to 'Galilee'—... seriously diminishes the value of his work. It is probably the best adapted for making converts. But if bold bare facts are in question, *it is probably the least authoritative of the Four* <sup>3</sup>."

Luke's failure has evidently been ascribed to his attempts being human, and his sources mortal, which could 'not always' guide him aright. If his work had been revealed, he could not have been accused of having omitted some most important incidents, or of his book being "the least authoritative".

---

(1) *Encyclopædia Biblica*, p. 1790.

(2) *Ibid.*

(3) *Encyclopædia Biblica*, p. 1793.

It seems, however, that the laity in Christendom are generally as ignorant, with regard to these vital questions, as non-Christians, to whom Christian literature is inaccessible in the main. A brief account of these questions is, therefore, likely to be of interest and use.

According to the doctrines of Islam, the four Gospels are not revealed by God. Nor was it the Holy Ghost that moved the writers of the said Gospels to write them. But it was the example of other writers, that inspired them with the desire of compiling brief biographies of Jesus.

### I. St. Luke's Gospel

St Luke's own words to this effect are :

"For as much as many have taken in hand to set forth, in order, a declaration of those things which are most surely believed among us,

"Even as they delivered them unto us, who from the beginning were eyewitnesses, and ministers of the word ;

"It seemed good to me also, having had perfect understanding of all things, from the very first, to write unto thee in order, most excellent Theophilus,

"That thou mightest know the certainty of those things, wherein thou hast been instructed" St. Luke : i-4.

St. Luke has very plainly set forth the grounds of his inspiration, namely : (1) the example of other writers of Jesus' life ; (2) his consciousness of possessing "perfect understanding of all things from the first"; and (3) to impart reliable information to Theophilus. Thus, St. Luke does not call his Gospel a divine revelation, but he claims for it (a) diligence in collecting all available material, (b) fullness, (c) careful investigation, (d) orderly arrangement and (e) accuracy.

The Rev. Grieve, M.A., D.D., Principal of the Congregational Hall, Edinburgh, and a joint Editor of Peake's famous Commentary, explains Luke's preface in the following words : I. i-4. "The writer, *influenced by the attempts* of others, to record the primitive tradition of Christianity, as it was handed down by the first generation of disciples, essays the same task, and having taken pains to collect, examine, sift and arrange the contents of the *written oral tradition*, presents the result to Theophilus, a Roman official of some standing -a literary patron of the Evangelist's- who needed fuller acquaintance with the historic basis of the oral teaching about Christianity which he had received<sup>1</sup>."

God reveals books for the guidance of a nation or nations, as the case

---

(1) Peake's Commentary, p. 725.

wrote in the city of Alexandria, his gospel, in which he gave an account of the birth and life of the Master of Christianity, mentioning several events which are not to be traced in the other three gospels. (2) St. Luke also did not see Jesus, but he was converted to Christianity by St. Paul, the latter being an Israelite who himself had not seen Jesus, but was converted by St. Ananias. (3) St. Matthew also did not see Jesus, but was converted to the Christian faith by St. Peter, some time after the ascension of Jesus; he took his gospel from St. Peter in the city of Rome. St. Matthew's gospel contradicts several statements of the other three Gospels.

St. John was the nephew of Jesus. It was at the wedding of John, that Jesus converted water into wine. Witnessing this miracle, John immediately became a Christian proselyte, left his wife and followed Jesus. He was the author of the fourth gospel, called after him, written in the Greek language, in the city of Ephesus.

These are the four gospels of the Christian New Testament, although Moslems do not believe them to contain the uncorrupted word of God. They are nothing more than biographical works which are liable to defects and errors. There was but one Gospel, namely, the "Evangel" which God vouchsafed to give to Jesus, for him to preach to the Israelites. The Book containing the True Word of God must needs be free from all discrepancies, yet it is written in St. Mark's gospel, that in the book of the Prophet Isaiah it was said by God: 'I have sent an Angel before thy face,' namely, before the face of Jesus, whereas the words *are not* in the book of Isaiah, but in that of Malachi (see Mt. Mark R V). Again it is related in St. Matthew's gospel (Matt. xii. 40) that Jesus said 'My body will remain in the belly, of the earth three days and three nights after my death, just as Jones was in the whale's belly,' and it is evident this was not true, for St. Matthew himself agrees with the three other writers of the gospels, that Jesus died at the sixth hour on Friday, and was buried at the first hour of the night and rose from the dead early on Sunday morning, so that he remained in the belly of the earth two nights only.

### **Islam and the Four Gospels**

As already pointed out, Moslems do not admit the authenticity of the Gospels, or the creed contained therein, or the leading events in the life of the Holy Prophet Jesus, as depicted by these same Gospels. In this attitude Moslems are supported by the scholarly researches of devout Christians even.



## 2. Ordering the Prophet to praise God :

"Say, O God, possessor of the Kingdom, Thou givest dominion, to whom Thou wilt, and Thou takest away Kingdom from whom Thou wilt. Thou exaltest whom Thou wilt, and Thou humblest whom Thou wilt, in Thy hand is Good, and Thou art the Almighty. Thou causest the night to succeed the day, and Thou causest the day to succeed the night : Thou bringest forth the living out of the dead, and Thou bringest forth the dead out of the living, and Thou art the provider of substance, to whomsoever Thou wilt, without measure."

## 3. Right and Wrong :

"Say, whether ye conceal that which is in your hearts, or whether ye show it God knoweth it. He knoweth whatever is in heaven and whatever is on earth and He is the Almighty. On the Day of Judgment, every soul shall find present the good which it wrought. And the evil which it wrought, will cause it such a disgrace, that it shall wish that there was a vast distance between itself and that evil."

## 4. Belief of the faithful :

"The Apostle (Mohammad) believeth in that which hath been sent down unto him from his Lord, as do the faithful (also). Every one (of them) believeth in God and His Angels, and His Scriptures, and His Apostles : We make no distinction between any of His Apostles. And they say 'We have listened and so we obey. Thy mercy, O Lord, for unto Thee (O Lord) must we return.' God will not burden any soul beyond its power. It shall enjoy the good which it hath gained, and shall bear the evil which it hath wrought. O Lord, punish us not, if we forget or fall into sin ; O Lord, lay not on us a burden, like that which Thou hast laid on those who have been before us, neither make us, O Lord, to bear what we have no strength to bear, but be favourable unto us, and spare us, and be merciful unto us. Thou art our patron, help us therefore against the unbelieving people."

With regard to the New Testament, Moslems hold the belief that, although God revealed the Gospel to His Messenger Jesus Christ, the so-called gospels, ascribed to the four saints, do not represent the true word of God as revealed to the Teacher of Nazareth. With Moslems these books *are mere historical works, dealing with the history of Jesus*, and they contradict each other in certain statements. Three of the authors of the four gospels, did not see Jesus at all. (1) St Mark did not see Jesus, until the year he was taken up to heaven. After the ascension of Jesus, St Mark

in the Koran, to come to a reasoning with the followers of the new faith and, then, to judge for themselves, as to whether Mohammadanism was to be rejected by pure reason cleared of every grain of partiality. But the high voice from Heaven was not hearkened to and differences of a religious nature still continue between Moslems and non-Moslems.

The Koran is a Divine Book which from the day of its revelation through the message of the Arabian Prophet and Apostle of God, up to this moment, has undergone no alteration whatever<sup>1</sup>. It is the Sacred Book that continues to reign over the hearts of its hearers, to convince them, through their own conscience and spiritual nature of its Divine origin. No human pen, however powerful, can venture to imitate it. The miraculous nature of the Koran has, long ago, been solemnly confirmed by those who were the most competent judges. The Arabians could boast of no other literature than witty poems of eloquence in their own language,—though as they paid due honour to any distinguished poem by their famous poets—were struck with infinite admiration, when they heard the Prophet of God rehearsing certain portions of God's new Gospel to them. Their own celebrated Rabiaa, whose poem was attached to the Sacred Pantheon of the Kaaba, could, without much trouble or hesitation, judge that the Koran of Mohammad was rightly a Divine Book, and that the illiterate orphan was the true messenger of God. From the perusal of the concise, but accurate history of the Prophet, in part II of this essay, it is clear enough, how the obstinate minded Arabs of the Desert received the Book with adoration and perfect reverence. Again, the contents of the Koran most readily answer all questions that may be raised on religious or civil matters. I will quote here some translated passages from that Holy Book, as specimens of the rest, and leave them to recommend themselves :

1. Calling the Jews and Christians to come to agreement<sup>2</sup> with the Moslems :

"Say, O ye who have received the Scripture (Jews and Christians) come to a just determination between us and you ; that we worship not any except God, and associate no creature with Him , and that the one of us takes no other for lord,<sup>3</sup> beside God. But if they turn back, say ; Bear witness that we are true believers."

---

(1) See Sir Muir's *Life of Mohammad* , Dr Hughes' *Dict. of Islam* .

(2) That is to come to such terms of agreement as are indispensably consonant to the doctrine of all the prophets and scriptures, and therefore cannot be reasonably rejected.

(3) The Jews and Christians used to pay rather blind obedience to their priests and monks who took upon them to pronounce what things were lawful and what were unlawful, and to dispense with the laws of God. (Sale)

where the eternal consequences of man's submission to God's holy will, or of rebellion against it, are pictured, touching in its simple, almost crude earnestness, when it seeks again and again encouragement or consolation for God's messenger, and a solemn warning for those, to whom he has been sent, in the histories of the prophets of old - the language of the Koran adapts itself to the exigencies of everyday life, when this everyday life, in its private and public bearings, is to be brought in to harmony with the fundamental principles of the new dispensation.

"Here, therefore, its merits, as a literary production should, perhaps, not be measured by some preconceived maxims of subjective and aesthetic taste, but by the effects which it produced in Mohammad's contemporaries and fellow-countrymen. If it spoke so powerfully and convincingly to the hearts of his hearers, as to weld hitherto centrifugal and antagonistic elements into one compact and well organised body, animated by ideas, far beyond these which had until now ruled the Arabian mind, then its eloquence was perfect, simply because it created a civilised nation out of savage tribes, and shot a fresh woof into the old warp of history.

"When a long period of conquests scattered the Arabs to the farthest East and to the farthest West, their spoken language might deviate from its pristine purity, slurring over unaccented syllables and dropping terminations. But the fine idiom of their forefathers - as deposited in the Koran, remained the language of their prayer and their pious meditation, and thus lived on with them, as a bond of unity, an object of national love and admiration, and a source of literary development, for all times<sup>1</sup>."

The Koran, therefore, is the last Scripture from God which has superseded by its new dispensation all preceding Scriptures, containing all comprehensible instructions and laws, all matters concerning the relation between the Creator and His creature, and between man and man. It is a miraculous book which is a poem, far beyond the power of poets to imitate, a code of laws bearing on every institution of an extensive commonwealth, on instruction, on the administration of justice, on military organisation, on finance, on a most careful legislation for the poor; and a complete code of beliefs and morals all built up on the perfected belief in the one God Who holds man's destiny in His Hand. It embodies a correct summary of the true religion which former prophets from the time of Adam had taught to their respective countries, and a solemn warning to all mankind, to whom the "Seal of Prophets" had been sent to reclaim and to reform. It exposes and refutes the pretensions and incorrect interpretations of rabbins and priests who had misled their people. These latter were often called upon,

---

(1) Vide Dr. Hughes' *Dict. of Islam* pp. 526-530.

appears to me as the real and undeniable 'seal of prophecy' in Mohammad' ...."

But the approaches to truth are many, and he who devoted all his powers and energies, with untiring patience and self-denial, to the task of leading a whole nation by one of these approaches, from a coarse and effete idolatry, to the worship of the living God, has certainly a strong claim to our warmest sympathies, as a faithful servant and noble champion of truth.

It is, however, not my intention to dwell here any longer upon this side of the question. Praise has been bestowed in this work on the Koran and its author, without stint or grudge, and the unanimity of so many distinguished voices, in this respect, will no doubt impress the general reader in favour of the sacred book of the Mohammadans which until now he may have known only by name.

Dealing with the opinion, expressed on the Koran by some European authors who dwell upon the pretended inferiority of the later portions of the Koran in comparison with the earlier chapters, Dr. Steingass ably remarks as follows :

"Not being an Arabic scholar himself (Goethe), he knew the Koran only through the translations existing at the time which follow throughout the order of the received text... Those critics, on the other hand, who view the Koran with regard to the chronological order of its constituents follow the descending scale in their estimate. But if we consider the variety and heterogeneousness of the topics, on which the Koran touches, uniformity of style and diction can scarcely be expected; on the contrary, it would appear to be strangely out of place. Let us not forget that in the book, as Mohammad's newest biographer, Ludolf Krehl (*Das Leben des Mohammed*, Leipzig 1884) expresses it, 'there is given a complete code of creed and morals, as well as of the law based thereupon. There are also the foundations laid for every institution of an extensive commonwealth, for instruction, for the administration of justice, for military organisation, for finance, for a most careful legislation for the poor: all built up on the belief in the one God Who holds man's destiny in His hand' Where so many important objects are concerned, the standard of excellence, by which we have to gauge the composition of the Koran as a whole, must needs vary with the matter treated upon in each particular case. Sublime, and chaste, where the supreme truth of God's unity is to be proclaimed; appealing in high-pitched strains to the imagination of a poetically-gifted people,

---

1. See *Von Goethe's, West-Oestlicher Divan*.

was afterwards of great service to Mohammed, in writing answers to the satires and invectives that were made on him and his religion <sup>1</sup>."

Von Goethe renowned German author, speaking of the Koran in his *West-Oestlicher Divan*, states :

"However often we turn to it, (the Koran), at first disgusting us each time afresh, it soon attracts, astounds and, in the end, enforces our reverence. . . . Its style, in accordance with its contents and aim, is stern, grand, terrible, — ever and anon truly sublime . Thus, this book will go on exercising, through all ages, a most potent influence <sup>2</sup>."

Dr. Steingass, the learned compiler of an English-Arabic and Arabic-English Dictionary (W H Allen and Co,) has recorded his opinion on the Koran in Dr. Hughes' Dictionary of Islam. After alluding to the above words of Goethe Dr. Steingass writes : "These words seem to me so much the more weighty and worthy of attention, as they are uttered by one who, whatever his merits or demerits in other respects may be deemed to be, indisputably belongs to the greatest masters of language of all times, and stands foremost as a leader of modern thought and the intellectual culture of modern times". (Here Dr. Steingass quotes the words of Goethe and then says) "A work, then which calls forth so powerful and seemingly incompatible emotions, even in the distant reader,—distant as to time, and still more so, as to mental development — a work which not only conquers repugnance with which he may begin its perusals, but changes this adverse feeling into astonishment and admiration, such, a work must be a wonderful production of the human mind indeed, and a problem of the highest interest to every thoughtful observer of the destinies of mankind. Much has been said, in the preceding pages, to acknowledge, to appreciate, and to explain the literary excellencies of the Koran, and a more or less distinct admission, that Buffon's much-quoted saying : "*Le style est l'homme*", is here more justified than ever, underlies all these verdicts. We may well say, the Koran is one of the grandest books ever written, because it faithfully reflects the character and life of one of the greatest men that ever breathed. 'Sincerity' writes Carlyle, 'sincerity, in all senses, seems to me the merit of the Koran.' This same sincerity, this ardour and earnestness in the search for truth, this never-flagging perseverance in trying to impress it, when partly found, again and again upon his unwilling hearers,

---

(1) See Sale's Prelim. Discourse.

(2) See Goethe's *West-Oestlicher Divan* These words of Goethe were placed by Mr. Rodwell by way of motto on the reverse of the title page of his translation of the Koran.

and that deficiency is made good by the Koran, it being the last divine word of God.

Let us now make a swift survey of the Koran, as far as our limited space in this work allows; for to describe it in detail would require unlimited time and space. For various reasons, all being much to the advantage of the non-Moslem reader,—I shall content myself with a number of quotations of what was written on the Koran by the pen of non Moslem critics, whose writings on the subject can be passed by a Moslem, as giving a sufficiently true picture of the Holy Koran. However, it must ever be remembered that, as a miraculously Divine Book, the Koran, when translated into a foreign language, necessarily loses a great deal of its supernatural elegance and purity of style.

Mr. Sale addresses the reader of his English version—praiseworthy as it is—in the following words :

"... though he (the reader) must not imagine the translation to come up to the original, notwithstanding my endeavours to do it justice."

In another place, the same writer comments on the Koran as follows .

"The Koran is univesally allowed to be written with the utmost elegance and purity of language, in the dialect of the tribe of the Koreish, the most noble and polite of all the Arabians; but with some mixture, though very rarely, of other dialects. It is confessedly the standard of the Arabian tongue and, as the more orthodox believe and are taught by the book itself, inimitable by any human pen, and therefore insisted on as a permanent miracle, greater than that of raising the dead, and alone sufficient to convince the world of its origin

"And to this miracle Mohammed himself chiefly appealed for the confirmation of his mission, publicly challenging the most eloquent men in Arabia which was at the same time stocked with thousands whose sole study and ambition it was, to excel in elegance of style and composition , to produce even a single chapter that might be compared with it I will mention but one instance out of several, to show that this book was really admired for the beauty of its composition by those who must be allowed to have been competent judges. A poem of Labid Ebn Rabia, in Mohammed's time, being affixed to the gate of the temple of Mecca, an honour allowed to none but the most esteemed performances, none of the other poets durst offer anything of their own in competition with it. But the second chapter of the Koran, being affixed near it soon after, Labid himself (then an idolater) on reading the first verses only, was struck with admiration, and immediately professed the religion taught therein, declaring that such words could proceed from an inspired person only. This Labid

The crucifixion of Jesus by the Jews is entirely refuted, according to St. Barnabas and the Koran. In that Gospel, it is asserted, that Judas, the traitor, was he who was crucified, in the place of the Lord Jesus. "Of this Gospel", writes Mr Sale, "the Moriscoes in Africa have a translation in Spanish, and there is in the library of Prince Eugene of Savoy, a manuscript of some antiquity, containing an Italian translation of the same Gospel made, it is supposed, for the use of renegades.."

In St. Barnabas' Gospel, the Prophet Mohammad is foretold by name, as the Periclyte, that is, the famous or illustrious, that being the signification of the name of Mohammad in Arabic; thereby justifying the passage in the Koran (chap. 61) where Jesus is formally asserted to have foretold his coming, under his other name of Ahmad, which is derived from the same root as Mohammad and of the same import.

Mr. Sale states that he inspected a Spanish translation of the Italian copy of St. Barnabas' Gospel, of which he gives the following account.

"There is a preface prefixed to it, wherein the discoverer of the original MS., who was a Christian monk called Fra Marion, tells us that, having accidentally met with a writing of Irenaeus (among others), wherein he speaks against St. Paul, alleging for his authority the gospel of St. Barnabas, he became exceedingly desirous to find this gospel; and that God, of His mercy, having made him very intimate with Pope Sixtus V (1521-1590) one day, as they were together in that Pope's library, His Holiness fell asleep and he, to employ himself, reached down a book to read, the first he laid hand on proved to be the very gospel he wanted; overjoyed at the discovery, he scrupled not to hide his prize in his sleeve, and on the Pope's awaking, took leave of him, carrying with him that celestial treasure, by reading of which he became a convert to Mohammedanism.

"This Gospel of Barnabas contains a complete history of Jesus Christ, from His birth to His ascension, and most of the circumstances of the four real gospels are to be found therein, but many of them turned, and some artfully enough, to favour the Mohammedan system. . . . The passages produced from the Italian MS. by M. de la Monnoye, are to be seen in this Spanish version almost word for word;"

But to return.

On the other hand, the practical side of both the Jewish and Christian dispensations, as concerning social matters and civil law, is most deficient;

---

(1) Sale's preface to his translation of the Koran.

In brief, it is enjoined upon every Moslem, to believe in God's previous Books of revelations, from Adam to Jesus, in so far as the contents of any extant book of them are not contradicted by the Koran.

At the advent of Islam, the Word of God, as revealed in the Old and New Testaments, was wrapped up in various superstitions, and was spoiled by an admixture of ungodly beliefs and imaginations. The Jews were openly charged, in the early chapters of the Koran, with having corrupted their Scriptures, with stifling passages. They obstinately and impiously denied the advent of Jesus. They believed that Christ was yet to come. They spoke ill, and most wrongly and indecently, of the acknowledged Jesus Christ and of his revered mother, the Virgin Mary. They attributed to God the adoption of a son in the person of Ezra

With regard to Christianity, its real and pure doctrines were exceedingly and abominably corrupted<sup>1</sup>. A sect substituted the Virgin Mary for God, or worshipped her as such. These were called the Mariamites<sup>2</sup>.

Christians also believed in the divinity of Jesus. They worshipped him as God, called him the son of God, and even God Himself.

Dr. Hughes, commenting on the state of degradation, into which the Christian Church had fallen, at the advent of Islam, writes as follows :—

"The bitter dissensions of the Greeks, Nestorians, Eutechians and Monophysites, are matters of history, and must have held up the religion of Jesus to the ridicule of the heathen world. The controversies, regarding the nature and person of our Divine Lord, had begotten a sect of Tritheists...

"The worship of the Virgin Mary had also given rise to a religious controversy between the Antidus—Mariamites and the Collyridians ; the former holding that the Virgin Mary was not immaculate, and the latter, raising her to a position of a goddess. Under these circumstances, it is not surprising to find that the Arabian reformer turned away from Christianity<sup>3</sup>."

The Gospel of St. Barnabas commonly considered by Christian theologians as "apocryphal",—is most in harmony, as to matters of faith, with the Koran. Jesus Christ is spoken of in that Gospel as the servant of God ; the word of God and a Spirit from God. His miraculous birth, being born without a father was even less supernatural than the creation of Adam who was created by God's power without father or mother.

---

(1) Vide O. Sale's Prelim. Discourse.

(2) Vide Dr. Hughes' Dict. of Islam p. 53.

(3) See Hughes' Dictionary of Islam. p. 53.



believe to have undergone many alterations and corruptions, though there might possibly be some part of the true word of God therein. Any passages in the present copies which in sense are not in harmony with the teachings of the Koran, as far as matters of faith are concerned, are held by Moslems to be no true revelation. Hence, such statements in the present copies of the Old and New Testaments, as attribute to God a son, or to the Divinity a plurality or a corporeal form, are dogmatically and emphatically condemned as schismatic.

On the other hand, if any precept, tenet, law or regulation, relating to mode of worship, or rules of right and wrong, found in the Koran, is in harmony with similar precepts, as taught by the Testaments, it is because such tenets are immutable and eternal, and relate to that part of God's one, true and orthodox religion which is subject to no change or alteration, inasmuch as such laws were saved from corruption.

Apparently it is due to the misunderstanding of this fundamental superstructure of the Mohammadan Religion (to wit : that from the beginning to the end of the world, there has been, and still for ever will be, but one true religion), that some of the prejudiced class of Western historians and commentators have been apt to wrongly describe such systems, rites or rules of the Religion of Islam, of which the like exist in the Jewish Scriptures, as 'borrowed' from these books. Such critics, if absolutely innocent, conscientious and well-informed, must needs admit, that these common precepts are but confirmed by the Koran as immutable in themselves.

It must be again and again re-iterated until the basis of the Religion of Islam is well understood, that this religion does not profess to be a new religion, formulated by the Prophet Mohammad, but a continuation of the true religious principles, established by God through His revelations to Adam, Noah, Abraham, Moses and to other inspired Messengers of God. The revelations of God's prophets, prior to the advent of Mohammadanism, are held to have been partly corrupted by the hand of man, through the various renderings and divers versions of same. All portions of the Word of God that were by chance, or otherwise, saved from corruption,—such as relate to that part of God's religion which is eternal and immutable,—have been preserved and confirmed by the Koran, together with other corrected beliefs and dogmas of faith, and such additional rules of practical devotion, as God judged fit for the new and eternal dispensation. Hence, it is out of place and entirely misleading, that any critic should suggest, that Mohammadanism is 'indebted,' either to the Jewish or any other dispensation, for any elements in its system.

There are also two celebrated angels, 'Radwan' who is in charge of Paradise, and 'Malik' who is in charge of Hell.

The angels intercede for men, while they celebrate the praise of God, they implore forgiveness for the dwellers of earth. They also act as guardians for men. Each man has a succession of angels before and behind him, who watch over him by God's behest.

### 3. Belief in the Scriptures of God

The fundamental position, on which the superstructure of the Mohammadan Religion is erected, is that, from the beginning to the end of the world, there has been, and for ever will be, but one true orthodox religion. This true religion consists as to matter of faith, in the acknowledgement of the only true God, and in the belief in, and obedience to such messengers or prophets of God, as He has been pleased to send from time to time, with credentials, to reveal His will to mankind; and as to matter of practice, the religion of God consists in the observance of the immutable and eternal laws of right and wrong, together with such other precepts and ceremonies, as God ordained as fit, for the time being, according to the different dispensations in different ages. These precepts and ceremonies were in themselves non-essential, but they became strictly obligatory by God's positive command, and were, therefore, temporary and subject to alteration, according to His will and wisdom. Hence, the name 'Islam,' signifying absolute surrender to the will of God, is used commonly to denote the Mohammadan Religion. This name, however, also applies to God's religion, since the beginning of the World, inasmuch as all true religion is nothing, but absolute submission to God's will. As to scriptures, the Moslems are taught, that God, in divers ages of the world, gave revelations of His will in Books, to several prophets. The number of these sacred Books is said to be 104: ten Books were given to Adam, fifty to Seth, thirty to Idris (Enoch), ten to Abraham, and the other four, being the Pentateuch, the Psalms, the Gospel and the Koran, were successively delivered to Moses, David, Jesus and Mohammad. No further revelation to mankind is to be expected. The Prophet Mohammad is, as taught by the Koran, the seal of God's messengers and prophets.

All of these divine Books, except the four last, are believed to be now entirely lost. As to the Pentateuch, the Psalms and the Gospel, the Moslems give no credit to the present copies of these Books, which they

If, then, the scientific world agree, that Law predominates in matter, force and energy and if it also believes in Monism, it follows that it must believe in one design and in one mind. There may be a hundred and one laws at work in Nature, but they all converge on one purpose. In short, Law is, and must be obeyed, if the world is to go on at all. Law is the "Obeyed" Entity and in this connection, the reader may be interested to learn, that the word Allah, Who is the object of worship with Moslems, literally means "The Obeyed".

"God says", says Mohammad, "do not abuse the Universe, because *I am the Universe*,"—a great truth and undeniable reality. It means, that all the manifestations of Nature are the manifestations of the God-Mind, and that all the forces and laws of Nature are the features and characteristics of that Great Being.

To be in touch with Nature, is the secret of all success, of all felicity in life ; and if, in Islam, the dictum has been pronounced, in a somewhat different language, "to imbue ourselves with Divine Attributes", it means the same thing. For the attributes of God, as mentioned in the Holy Koran, do perfectly and completely index the working of Nature ; and if, to believe in God, is to accept Him, as the Source of all Law, and to worship Him means simply to obey His Law, how can we disbelieve in the God of Islam ?

## 2. Belief in the Angels of God

The angels are created of light, and endowed with life, speech and reason. They are free from carnal desire and the disturbance of anger ; they disobey not God in what He has commanded them, but do all that they are commanded. Their food is, to celebrate God's glory ; their drink, to proclaim His holiness ; their conversation, to commemorate God ; their pleasure, to worship Him. The angels are created in different forms and with different powers.

The number of angels is very great ; it can be known to no one except to God. Four of the angels are archangels, namely, Jibril (Gabriel), the angel of revelations ; Mikha'il (Michael), the angel of rain, Israfil, the angel who will announce the advent of Resurrection ; Azrail, the angel of death.

Every man is attended by two recording angels, called the "Kiram-ul-Katibeen," or the illustrious writers, one of whom records his good actions, and the other his evil actions. There are also two other kinds of angels, called 'Monkar' and 'Nakeer,' who examine the dead in the grave.

Note the words in italics. The whole universe has been regulated with mathematical precision ; and that we may derive the best advantage from it, we must respect the *measure*,—find out these *reckonings* and *measures*, and not make them *deficient*.

Every created thing, from the stars of heaven to the smallest herbs that grow on the earth, observes rules laid down with mathematical reckoning, and observes measures, prescribed for its creation and development.

In short everything that is created in this universe, is based on mathematical principles ; and all our scientific researches owe their existence to this science of measure and reckoning,

I could agree with Ernst Haeckel, if man, in this search for purpose in Nature, could disregard these mathematical principles. In reality we did not create purpose for Nature . we simply discovered those measures and rules which had been laid down for the working out of the purpose.

Can we, then, deny, behind the working of Nature, the existence of some Great Mind,—the Regularizer, the Reckoner and the Measurer ? Let us, in the words of the Holy Koran, "glorify the Name of Our Lord Most High, Who creates, then balances , Who measures, then guides".

Does evolution of matter really consist in the development of its potentialities ? Is not the human organism proved, by biological research, to be the final and best evolution of matter ?

The consciousness which is evolved out of animated matter, in the animal kingdom, in the form of impulses, evolves into natural passion in man. But this is not the final growth. In its turn, it must evolve ethics and high philosophy. Where, then, is the constructive ability, inherent in matter, which should now work all the more vigorously, to sublimate my consciousness into high moral and philosophic growth ? Do I possess a nature which automatically distinguishes between Right and Wrong ? Or must I cultivate such a nature, through guidance ? Do I, by nature, nauseate at wrong philosophy ? Do I, by instinct, spurn things injurious to my intellect ? Do I discern between wholesome and unwholesome food, without guidance ? Man, who represents the highest possible form of evolved matter, is hopelessly destitute of that constructive ability for the evolution of this intellect, which discriminates so unerringly in the physical building of organism. The very fact that, as far as the unconscious growth of matter goes, this constructive ability works so splendidly, but disappears on the rise of consciousness, proves conclusively, that it was not an inherent faculty in matter, but an external guidance, — guidance from the Source that has been called *Rabb*—Who is the God of Islam.

and that it is due to us, that it has become active. All of which tends rather to prove design, than otherwise. But there are other ways of looking at it.

If a mind works upon material, giving it shape to serve a certain purpose, it is impossible for another person, to use that material in a way other than that in which it was designed by its maker. If you deny the design of its maker, you are looking for trouble, and wasting your effort.

Here are pieces of iron and wood before me : I use them in making a machine, and any person desirous of using that machine, must do so in the way intended by me, and in that way only.

Can you use the things that God has made, otherwise than in the way intended by Him ?

Your body is a wonderful machine,—endowed with numerous faculties, to which are added Free-will, and the power of discretion. But can you use your nose for seeing ? Or can you eat through your ear ?

This machine of your body has been fashioned by an Intelligence and a Mind, and if you act contrary to its designs, your actions will not be acceptable in the realm of Nature. For thus says the Holy Koran : "Is it, then, other than Allah's way that they seek to follow ; and to Him submits whoever is in the heaven or on the earth, willingly or unwillingly . . . And whoever desires a way other than submission (Islam) it shall not be accepted from him ; and in the end, he shall be the loser" (III. 82-84)

Again, if a particular form of matter involves, in its being, certain principles, the knowledge and application of which, alone make the realisation of that purpose possible ; then it is certain that a mind has pre-ordained it. If the small form of matter had existed independently of such principles, and if there had been no need of their knowledge, nor had any advantage accrued to us in our application of such knowledge, then one might, perhaps, deny the purpose behind it.

The Holy Koran tells us, that everything in Nature is for our benefit, and further apprises us of the principles which will enable us thoroughly to make use of them : "The Beneficent God taught the Koran. He created man, taught him the mode of expression. The sun and the moon follow a *reckoning*, and the herbs do obey (Him). And the heaven, He raised it on high ; and He made the *measure* ; that you may not be *inordinate in respect of the measure* ; and keep up the *balance* with equity, and do not *make the measure* deficient. And the earth He has set it for living creatures ; therein are fruit and palms having sheathed clusters, and the grain with (its) husk and fragrance. Which then of the bounties of the Lord will you reject" ? (LV. 1-13).

Yet, I could even worship this Fetish of Accident, if all these defined movements of our planet had failed to produce desirable results, making for our benefit. And this being so, I am compelled to believe in some Will, under whose control Nature works, not blindly. The alternation of day and night - which causes changes in the weather, affecting the atmosphere, changing the course of the winds, bringing the rainy seasons and the dry weather, in a desired order ; the withering of Nature, and its resuscitation ; these, and the life of man himself, depending on the peculiar bend of the earth sphere towards its orbit, are these all at random ?

You will not find a single thing in the realm of Nature which is unconnected with your own existence. As the Book says : "Those who remember Allah. and reflect on the creation of the heavens and the earth, (say) : Our Lord—Who looks to our sustenance and maintenance,—Thou hast not created all this in vain Glory be to Thee" (III - 190).

The unintelligible phenomena of yesterday are, today, instinct with a great and real purpose. And so it will be with the millions of things which still baffle us. Which being the case, I have every right to suppose that every object in Nature admits of my using it for my benefit if only I know how—and is subservient to me under the ordinance of some Mind, Which I call Allah ; for, did you ever think of a contrivance, or scheme out a design, in the working out of which you did not find the necessary aids already existing in Nature ?

But, you will say, things in themselves are not subject to design ; it is only man's intelligent use of them that makes them useful.

We all know that light, and the colour known as green, strengthen the sight ; and green is the prevailing colour in Nature after light. But, it is said, the green colour was not made intentionally to strengthen sight ; rather the eye became accustomed to it, and so derived benefit from it.

But consider the case of the mole. The mole has eyes, but being generally away from the light, it is blind. It cannot make its surroundings subservient to its sight. Whence it may be seen, to what an extent the eye is indebted to light and green colour.

In support of his theory, that Nature is not with purpose intrinsically, but that its purpose is, as it were, of man's contriving Ernst Haeckel adduces the illustration of powder.

Powder was for ages lying useless and unused ;—by finding a use for it we have invested it with a purpose. But that is tantamount to asserting that inquiries have invested powder with its properties, or in other words that the purpose of the explosive was already in it, but in a dormant state ;

as an accident, but under a Law—the Law of Condensation—from the collocation of ethereal specks. But this ether, as it is called, is, in its turn, a law-ridden entity

Ernst Haeckel and others, refusing to admit the priority of Mind to Matter, sought a way out by regarding matter and energy as one and the same thing, with "law-abidingness" as a permanent characteristic, and calling it Law-Substance. Law-Substance, therefore, is a first cause, self-created, and the creator of other things, —self-existing, and the maintainer of subsequent growth, omnipresent, and all-pervading, indestructible and infinite; add to these the attributes of all knowing and all powerful, designer and regularizer, and, though you style yourself atheist or free-thinker, you believe in the God of Islam. As the Holy Koran says: "And to Him doth obey what is in the heavens and the earth. And a sign to them is the night; we draw forth from it the day, then lo, they are in the dark; and the sun runs on to a term appointed for it, that is the ordinance of the Mighty and the knowing. And as for the moon, We have ordained for it stages, till it becomes again as an old dry palm branch. Neither is it allowable to the sun, that he should overtake the moon, nor can the night outstrip the day. All float on in a sphere" (XXXIV: 37-40). Thus is the whole Solar System under Divine Ordinance.

What was that Law—the Law of Gravity,—"evolved from accident," what made the earth stand on its orbit, with its axis inclined?

What a contradiction in terms—law and accident. To what lengths will we not go, to avoid belief in the Divine Ordinance.

Is the camera an accident? The lens, the sensitive paper. The light regulating contrivance, and so forth, all suggest design and mind; and yet the camera is but the crudest copy of an eye which is, presumably, a thing evolved at random. And what about the feeling that the image reflected produces? The lens of the camera reflects the image, but it does not see, it does not feel; whereas the eye sends a thrill into the very soul, when we see anything beautiful.

Can we give or receive a telephone message without an "exchange"? Some *design* to connect the giver and the receiver is indispensable.

The brain of an army—known in modern parlance as General Head Quarters—is preeminently the product of design. Is the brain of man just a haphazard contrivance, meaningless in its inception?

We assign a distinct design to every one of the hundred and one pipes fixed, in the machinery of an ordinary steam engine. Are the million and one nerves that work so miraculously in our own bodies, purposeless and without intent?

There are three main laws in the Universe—the Law of Creation, the Law of Substance and the Law of Evolution ; so if we seek, as it were, to personify the Great Mysterious Power, and clothe Him with attributes that we mortal men can comprehend, we shall endeavour to visualise him as Creator, Sustainer and Evolver.

The Arabic language has one word which comprises all three ideas—*Rabb-ul-Aalameen* ; the word *Rabb* signifying Creator, Sustainer, and one who has endowed every object with the capacity of ultimate development,—thereby anticipating the doctrine of Evolution, many centuries before Darwin gave his theories to the world.

At every evolutionary stage of matter, however transient it be, we find a course prescribed, and an organisation pre-ordained—Nature everywhere obeying the Law

As the Holy Koran says : "And to Allah does obeisance whatever is in heaven and earth—willingly or unwillingly."

Over and over again, the Holy Koran lays down with great clarity, that a Reign of Law exists, dominating the whole material world ; and every day, fresh discoveries of science do but prove inspired accuracy of the Sacred Book. For after all, this is the sum-total of all scientific discovery,—that all growth and all development of every element in Nature, is under the Rule of the Law.

Is, therefore, this Reign of Law,—this mechanism, as it were, of rule and regulation,—intentional ? Or is it accidental ?

Call it mechanism if you will ; but can you dissociate mechanism, from mind ?

The machine itself cannot think ; but what of the mind that made it ? Mechanism cannot construct itself.

In all human mechanism, we believe in the priority of laws and principles, on which certain mechanism is working. We acknowledge the pre-existence of the mind that devised the machine, and set it working.

Why do we hesitate, when we come to the great mechanism of Nature ? I suppose, we are afraid lest, if we once make such an admission, we shall have to accept Law, as separate from Matter,—to admit that Mind has priority over Substance.

About seventy years ago, the Atomic theory was the popular craze. The Atom was our great God, our first cause and origin, but later, we found this god itself a slave to Law. It was found to be, not an origin, but a product of some electronic specialization, which in its turn received its birth, not



anybody ever seen electricity ? But can we, then, deny the transmission of messages and signals to long distances, lighting and the working of machinery by means of electricity ? The discovery of ether has brought about a revolution in the world of physical science, but has any scientist been able to find it by means of his five senses ? But if we deny its existence, we find ourselves unable to explain, how the rays of the sun reach the earth. How unjust is, then, the demand that in order to be believed in, God must be visible to the eye, while there are so many things which are believed in, though they are not visible to the eye, or perceptible by any other of the five senses. God is visible, but only to the eyes that are capable of seeing Him. But if anybody is desirous of seeing Him, He is before the whole world through His powers, and in spite of His being hidden, He is the most apparent of all. This fact has been briefly, but very exquisitely mentioned in the Holy Koran in the following words :

“The eyes do not reach Him, but He reacheth the eyes : and He is the Subtile, the Knowing”.

In this verse, God draws the attention of man to the fact, that his eyes are not capable of seeing Him, for He is subtle, and subtle things cannot be perceived by the eyes. What, then, is the way of knowing God ? The Koran answers this question by saying : “And He reacheth the eyes” namely though the eyes of man are not capable of seeing Him, yet he reveals Himself to man by a display of His powers, and by a manifestation of His attributes. manifold are the ways in which He reveals Himself to man. He displays His unlimited power sometimes by terror-striking signs, sometimes by signs of mercy, and at others, by accepting prayer. If God were to be believed in, only if He were perceptible by the eye, then we should have to deny the existence of about four-fifths of the things of the world, or the existence of all things, if we accept as true the view of certain philosophers who allege, that nobody can see the substance of anything in the world, and that it is only the form that we see.

We know very little of God, and yet we know that God exists ; that there is a Great Mysterious Power, at work behind the Universe.

In ancient times, Nature, or the forces of Nature, were deemed to be freakish, capricious powers, personified, to popular intelligence, as demons, and the like. Now we know that there is nothing freakish or capricious about Nature that Nature works in accordance with a fixed law—the law of the Universe, the law laid and established by the Great Mysterious Power at work behind the Universe.

All we know of that Great Mysterious Power is compounded of all we know of the various laws—discovered from time to time—which govern the Universe.

that he will acknowledge a colour, only if he is made to hear the sound of it, would not such a proposition be considered unreasonable? Similarly, fragrance is known by means of smelling. Now, if anyone should say that he will consider a rose to be fragrant, only if he is made to taste its fragrance, would such a person be regarded as wise? On the other hand, if any body seeks to know, by smelling, things which can be known by tasting, such as sourness and sweetness, bitterness and saltiness, he will never be able to do so. Therefore it is not right, that we should accept those things only which we can behold with our eye, and disbelieve those things which are not recognizable by the eye. How absurd is, then, the demand that God must be shown to us before we believe in Him.

Moreover, there are certain things in man himself, the existence of which he recognises, without having seen them. We do not know all things merely by seeing, but they are known by means of five different senses. Now, there are many things which are not knowable, even by these gateways of knowledge, there being other ways of knowing them. For instance, reason, memory and intelligence are things which are not denied by any body; yet nobody has ever seen, heard, tasted, smelt or touched them. How did we, then, come to know that there were such things as reason, or memory, or intelligence? Again, has anybody ever seen, smelt, touched or tasted energy? Even the simplest man can see that we have not known these things by means of the five senses, but that there are other evidences that have led us to the knowledge of their existence. We see that when a man is confronted with a difficulty, he thinks for a while, and then devises a plan, by which he is able to solve his difficulty. When we see difficulties being removed in this way, we conclude that there is something in man which is of service to him on such occasions, and we call it reason. Thus, we do not become aware of the existence of reason directly through the five senses, but we obtain a knowledge of it by means of its wonderful manifestations. Similarly, when we see a man able to carry heavy loads, and some man, able to carry heavier weights than others, we infer that there is a capacity in man, which enables him to bear these burdens, and which some persons possess in a greater degree than others. This capacity we call strength. We have not seen strength, but we have seen the deeds that are done by strength, and from these we have concluded its existence.

Thus, we find that the more subtle a thing is, the more hidden it is from the human eye, and it is by actions, and not by the five senses, that we perceive the existence of such things.

But God is the subtlest of all. How unjust is it, then, to say that we cannot believe in the existence of God, unless He is shown to us. Has

### **Omniscient and Omnipotent.**

"And with Him are the keys of the secret things ; none knoweth them, but He : He knoweth whatever is on the land and in the sea ; and no leaf falleth but He knoweth it ; neither is there a grain in the darkness of the earth, nor a thing green or sere, but it is noted in a distinct writing <sup>1</sup>."

### **All-Seeing but Unseen.**

"Eyes do not reach Him, but He reaches the eyes : and He is the Subtile, the All-informed."

"It is He Who in six days created the Heavens and the Earth, then ascended His throne. He knoweth that which entereth the earth, and that which goeth forth from it, and what cometh down from Heaven, and what mounteth up to it ; and wherever ye are, He is with you, and God beholdeth all your actions."

His is the Kingdom of the Heavens and the Earth : and to God shall all things return. He causeth the night to pass into the day, and He causeth the day to pass into the night ; and He knoweth the very secrets of the bosom."

### **The Existence of God.**

Of all the doctrines and beliefs that have been objected to in this age of materialism, the greatest is the belief in the existence of God. The first demand which an atheist makes is : "If you show God to me, I will believe in Him. How can I believe in Him without seeing Him ?" Western influences have gone a long way towards effacing from the hearts of many young men, the imprint of the Divine Being, and hundreds of college students and others, have begun to deny existence of God. There are thousands of persons who, though refraining from an open declaration of their views through fear of the community, have really no faith in Him ; therefore I submit the following suggestions on the subject, that haply some fortunate soul may be benefited thereby.

Man knows different things by means of different senses. Some things we know by means of seeing, some by tasting. A colour is known by seeing, not by smelling, touching or tasting. If anybody should say,

---

(1) On the preserved tablet, on which are written all the decrees of God.

"Sole maker of the Heavens and the Earth, how, when He hath no consort, should He have a son ? He hath created every thing, and He knoweth every thing.

"This is God your Lord. There is no deity but He, the creator of all things ; therefore worship Him alone ; and He watches over all things. They say ; 'The God of Mercy hath gotten offspring' Now have ye done a monstrous thing. Almost might the very Heavens be rent thereat, and the Earth cleave asunder, and the mountains fall down in fragments, that they ascribe a son to the God of Mercy, when it beseemeth not the God of Mercy to beget a son...."

### **Created All Belongs to Adore Him.**

"I have not created Jins and men, but that they should worship Me."

### **How He Speaketh with Man.**

"It is not for man that God should speak with him, but by vision, or from behind a veil. Or, He sendeth a messenger to reveal, by His permission, what He will : for He is exalted (and) wise.

"Thus have We sent the Spirit (Gabriel) to thee with a revelation, by our command ; Thou knewest not, ere this, what the 'Book' was, or what the (true) faith was. But We have ordained it for a light : by it will We guide whom We please of Our servants. And thou (O, Mohammad,) shalt guide their feet into the right way."

### **God is Creator of Good and Evil Deeds, and Yet Good is from Him, but Evil from Man in Consequence of his Ignorance or Disobedience.**

"By the sun and his noonday brightness ; By the moon when she followeth him ; By the day when it revealeth his glory ; By the night when it enshroudeth him ; By the earth and Him Who spread it forth ; By a soul and Him Who revealed to it the way of wickedness and the way of piety (to choose between them)—Blessed now is he who hath kept it pure, and undone is he who hath corrupted it" "If good fortune betide them, they say, this is from God' and if evil betide them, they say 'this is from thee (the Prophet). Say : All is from God : Whatever good betideth thee, is from God, and whatever betideth thee, of evil, is from thyself ; and We have sent thee to mankind as an apostle : God is thy sufficient witness".

of the East nor of the West, whose oil shines out as it were, even though fire touched it not. It is light upon light. God guideth whom He will to His light, and God setteth forth parables to men, for God knoweth all things "

### **Provides for All.**

"Whoso chooseth this quickly passing life, quickly will We bestow thereon that which We please—even on him We choose; afterwards We will appoint hell for him, in which he shall burn—disgraced, outcast.

"But they who choose the life to come and strive after it, as it should be striven for, being also believers—as for these, their striving shall be grateful (to God).

"To all—both to these and those—will We prolong the gifts of (Us We) your Lord ; for not to any shall the gifts of thy Lord be denied.

"See how We have caused some of them to excel others ; but the next life shall be greater in its grades, and greater in excellence.

"Set not up another Lord with God, lest thou sit thee down disgraced, helpless.

Thy Lord ordained that ye worship none but Him . . . "

### **His Words are Countless.**

"Say : Should the sea become ink, to write the words of my Lord, the sea would surely fail, ere the words of my Lord would fail, though we brought (other seas) like it in aid . . .

"If all the trees that are upon earth were to become pens, and if God should after that swell the sea into seven seas (of ink) His words would not be exhausted ; for God is Mighty and Wise."

### **Has no Offspring.**

"And they say, 'God hath a son' . No ; Praise be to Him, But—His is whatever is in the Heavens and the Earth. All obey Him.

"Sole maker of the Heavens and of the Earth. And when He decreeth a thing, He only saith to it, 'Be' and it is . . .

"Yet have they assigned the jins to God as His associates, though He created them ; and in their ignorance they have falsely ascribed to Him sons and daughters. Glory to be Him, and high let Him be exalted above that which they attribute to Him.

### **Creator of all things.**

"He causes the dawn to appear, and hath ordained the night for rest, and the sun and the moon for computing time. The ordinance of the Mighty, the Wise."

"And it is He Who hath ordained the stars for you, that ye may be guided thereby in the darkness of the land and of the sea. Clear have We made Our signs to men of knowledge."

"And it is He Who produced you from one man, and hath (provided for you) an abode and resting-place. Clear have We made our signs for men of insight."

"And it is He Who sendeth rain from Heaven, and We bring forth by it the buds of all the plants, and from them bring We forth the green foliage, and the close growing grain, and palm trees with sheaths of clustering dates, and gardens of grapes, and the olive and the pomegranate, like and unlike. Look ye on their fruits, when they ripen and bear fruit. Truly herein are signs unto people who believe... This is God your Lord. There is no deity but He, the creator of all things, therefore worship Him alone ;and He watcheth over all things..."

"We created the heavens and the earth and all that is between them in six days, and no weariness touched Us."

### **Perfect In His Works.**

"Blessed be He in Whose hand is the Kingdom ; and over all things is He potent :

"Who hath created death and life, to prove who of you will be most righteous in deed ; and He is the Mighty, the Forgiving."

"Who hath created seven heavens one above another. No defect canst thou see in the creation of the God of mercy ; repeat the gaze : seest thou a single flaw ?

Then twice more repeat the gaze : thy gaze shall return to thee dulled and weary."

### **The Light of Heaven and Earth.**

"God is the Light of the Heavens and of the Earth. His light is like a niche in which there is a lamp—the lamp encased in glass—the glass, as it were a glistening star. From a blessed tree it is lighted, the olive, neither

and to give hope (of rain,) and that He sendeth down water from heaven, and quickeneth thereby the earth, after it hath been dead verily herein are signs unto people who understand. And of His signs (this also is one, namely) that the heavens and the earth stand firm at His command : hereafter, when He shall call ye out of the earth at one summons, behold, ye shall come forth...."

"When adversity befalleth man, they call upon their Lord, turning unto Him ; afterwards, when He hath caused them to taste of His mercy, behold, a part of them associate (other deities) with their Lord ; showing themselves ungrateful for the favours which We have bestowed on them. . . "

"When We cause men to taste mercy, they rejoice therein ; but if evil befalleth them, for that which their hands have before committed, behold, they despair. (It is) God Who Hath created you, and hath provided food for you : hereafter will He cause you to die ; and after that, will He raise you again to life."

"(It is) God Who created you in weakness, and after weakness hath given (you) strength ; and after strength, he will (again) reduce (you) to weakness, and grey hairs ; He createth that which He pleaseth ; and He (is) the Wise, the Powerful."

#### **God's Omnipresence asserted.**

"There is no private discourse among three persons, but He is the fourth of them ; nor (among) five, but He is the sixth of them ; neither (among) a smaller number than this, nor a larger, but He is with them, wheresoever they be and He will declare unto them that which they have done, on the day of resurrection ; for God knoweth all things."

#### **God's Omnipotence.**

"God, There is no deity but He, the Living, the Self-subsisting . Neither slumber seizeth Him nor sleep, His, whatsoever is in the heavens, and whatsoever is on the earth. Who is He that can intercede with Him, but by His permission ? He knoweth what hath been before them and what shall be after them ; yet nought of His knowledge shall they grasp, save what He willeth. His seat reaches over the heavens and the earth, and the upholding of both is no burden unto Him ; and He is the High and the Great <sup>1</sup>."

---

(1) The above lines contain a magnificent description of the divine majesty and providence, but it must not be supposed that the translation comes up to the dignity of the original. This passage is justly admired by the Mohammedans who recite it in their prayers, and some of them wear it about them. Vide O. Sale, Trans. of Koran.

having declared by the tongues of the Prophets, that it was due to Him by them. The worship of God is not simply the dictates of the understanding, but He sent messengers to carry to men His commands and promises and admonitions : the veracity of these messengers He proved by manifest miracles, whereby men are obliged to give credit to them in those things which they relate.

Mr George Sale rightly comments on the Mohammadan notion of God as follows :

"That both Mohammed and those among his followers who are reckoned orthodox, had and continue to have, just and true notions of God and His attributes, appears plain from the Koran itself and all the Mohammedan divines, so that it would be loss of time, to refute those who suppose the God of Mohammed to be different from the true God, and only a fictitious deity or idol of his own creation<sup>1</sup>."

I will now give a translation of some quotations from the Koran, bearing on the essence of God ; this subject forming such an important feature of the teachings of the religion of Islam :—

**The Unity of God :** "Say . He is God, the Singular, God the Lord, He begetteth not, nor is He begotten, nor is anything equal unto Him."

"Truly your God is but one, Lord of the Heavens and of the Earth, and of all that is between them, and Lord of the points (at which the sun rises and sets in the course of the year.) God, There is no deity but He, Most excellent are His attributes."

**Proofs of His existence :** "The (God) bringeth forth the living out of the dead, and He bringeth forth the dead out of the living, and He quickeneth the earth after it hath been dead ; and in like manner shall ye be brought forth (from your graves.) Of His signs (one is,) that He hath created you of dust ; and behold, ye (are become) men, spread over the face of the earth. And of His signs (another is,) that He hath created for you, out of yourselves, wives, that ye may cohabit with them ; and hath put love and compassion between you : verily herein are signs unto people who consider. And of His signs (are also,) the creation of the heavens and the earth, and the variety of your languages, and of your complexions ; verily herein are signs unto men of understanding. And of His signs (are,) your sleeping by night and by day, and your seeking (to provide for yourselves) of His abundance ; verily herein (are) signs unto people who hearken. Of His signs (others are) that He showeth you the lightning, to strike terror

---

(1) Vide Sale's Prelim. Disc.



collision of bodies : nor in letters which are separated by the joining together of the lips, or the motion of the tongue. The Koran, the Law, the Gospel and the Psalter are books sent down by Him to His Apostles. The Koran, indeed, is read with tongues, written in books and kept in hearts : yet, as subsisting in the essence of God, it does not become liable to separation and division, when it is transferred into the hearts and the papers. Thus Moses also heard the word of God, without voice or letter, even as the saints behold the essence of God, without substance. And since these are His attributes, He lives and knows and wills and hears and sees and speaks, by life and knowledge and will and hearing and sight and word, not by His simple essence.

### **God's Works.**

God—praised be His name—exists after such a manner, that nothing besides Him has any being, but what is produced by His operation, and flows from His justice, after the best, most excellent, most perfect and most just model. He is, moreover, wise in His works, and just in His decrees. But His justice is not to be compared with the justice of men. For a man may be held to act unjustly by invading the possessions of another ; but to God, inasmuch as there is nothing which may belong to any other besides Himself, no wrong is imputable, for He cannot be considered as meddling with things not appertaining to Him. All things, Himself only excepted, genn, men, devils, angels, heaven, earth, animals, plants, substance, and their attributes, all are His creation. He created them by His power out of nothingness, and brought them into existence, when as yet they were nothing at all, but He alone existing from eternity, neither was there any other with him. Now, He created all things from the beginning, for the manifestation of His power and His will, and for the confirmation of His word which was true from all eternity. Not that He stood in need of them, nor wanted them ; but He manifestly declared His glory in creating and producing and commanding, without being under any obligation, nor out of necessity. Loving, kindness, favour, and grace and beneficence, belong to Him ; whereas it is in His power to pour forth upon men a variety of torments, and to afflict them with various kinds of sorrows and diseases ; and should He do this, His justice would not be arraigned, nor would He be chargeable with injustice. Yet He rewards those who worship Him for their obedience, on account of His promise and beneficence, not for their merit or of necessity, since there is nothing which He is under an obligation to perform ; nor can any injustice be supposed in Him, nor can He be under any obligation to any person whatsoever. That His creatures, however, should be bound to serve Him, arises from His

### **God's Will.**

God wills those things to be that exist, and disposes of all accidents. Nothing passes in the earth or in the heavens, neither little nor much, nor small nor great, nor good nor evil, nor profitable nor hurtful, nor faith nor infidelity, nor knowledge nor ignorance, nor prosperity nor adversity, nor increase nor decrease, nor obedience nor rebellion, but by His determinate counsel and decree, and His definite sentence and will. Nor does the wink of him that sees, nor the subtlety of him that thinks, exceed the bounds of His will; but it is He who gave all things their existence or being. He is the Creator and Restorer and the sole operator of what He pleases, there is no one to reverse His decree, or delay what He has determined, nor is there any refuge for man from rebellion against Him, but only His help and mercy; nor has any man any power to perform any duty towards Him, but through His love and will. Though men, genn, angels and devils should conspire together, either to put one single atom in motion, or cause it to cease its motion, without His will and approbation, they would not be able to do so. His will subsists in His essence, with the rest of His attributes, by which He willed from eternity the existence of those things that He decreed, which were produced in their proper seasons, according to His eternal will, without any Before or After, and with agreement both with His knowledge and will, and not by methodising of thoughts, nor waiting for a proper time, for which reason no one thing is in Him a hindrance from another.

### **God's Hearing and Sight.**

God—praised be His name—is hearing and seeing, and hears and sees. No audible sound however still, escapes His hearing; nor is anything visible so small as to escape His sight; for distance is no hindrance to His hearing, nor darkness to His sight. He sees without pupil or eye-lid, and hears without any passage or ear, even as He knows without a brain, and performs His actions without the assistance of any corporeal limb, and creates without any instrument, for His attributes are not like those of men, any more than His essence is like theirs.

### **God's Word.**

God commands, forbids, promises, threatens by an eternal word, subsisting in His essence. Neither is it like the word of the creatures, nor does it consist in a voice, arising from the commotion of the air and the

existed before He created time and place ; and He is now as He always existed. He is also distinct from the creatures by His attributes, neither is there anything besides Himself in His essence, nor is His essence in any other besides Him.

He is too holy to be subject to change, or any local motion ; neither do any accidents dwell in Him, nor any contingencies befall Him ; but He abides through all generations with His glorious attributes, free from all dissolution. As to the attribute of perfection, He wants no addition of perfection. As to being, He is known to exist by the apprehension of the understanding, and seen as He is by the eyes, through a favour which will be vouchsafed out of His mercy and grace, to the holy in the eternal mansion, completing their joy by vision of His glorious presence.

### **God's Life and Power.**

God is living, powerful, mighty, omnipotent, not liable to any defect or impotence, neither slumbering nor sleeping, nor being subject to decay or death. To Him belongs the Kingdom, the power and the might. His is the dominion and the excellence and the creation and the command. The heavens are folded in His hands, and all creatures are held within His grasp. He is the sole creator of beings and producer of things, and He is the communicator of existence, and from Him everything has its beginning. He created men and their works, and destined their maintenance, and determined their lives. Nothing that is possible, can escape His grasp, nor can the vicissitudes of things elude His power. The effects of His might are innumerable, and the objects of His knowledge infinite.

### **God's Knowledge.**

God knows all things that can be known, and comprehends whatsoever comes to pass, from the extremities of the earth to the highest heavens : even the weight of an atom cannot escape His knowledge, either in earth or heaven. He knows all things hidden or manifest. He knows the number of leaves of the trees, of the grains of wheat and of sand. Events past and future are known to Him. He knows what enters into the heart of man, and what he utters with his mouth. He alone, except those to whom He has revealed them, knows the invisible things. He is free from forgetfulness, negligence and error. His knowledge is internal, it is not posterior to His essence.

## 1. Belief in God

Belief in God is best represented by the following formula which every sunni, or orthodox Mohammadan must profess sincerely :

God is one and has no partner ; Singular, without any like Him ; Uniform, having no contrary ; Separate, having no equal ; Ancient, having no first ; Eternal, having no beginning ; Everlasting, having no end ; Ever-existing, without termination ; Perpetual and constant, with neither interruption nor termination , Ever qualified with the attributes of supreme greatness ; nor is He bound to be determined by lapse of ages or times. But He is the Alpha and Omega (the First and the Last,) and the Evident <sup>1</sup>, and the Hidden <sup>2</sup>.

### What God is not.

God is not a formed body ; nor a measurable substance ; neither does He resemble bodies, either in their being measurable or divisible. Neither is He a substance, nor do substances exist in Him ; neither is He an accidental form, nor do accidentals exist in Him.

He is not like anything that exists, neither does anything resemble Him. He is not determined by dimensions, nor contained within bounds ; nor is He surrounded by sides ; nor is He comprised within the heavens or earth. He sits upon the throne, after the manner which He Himself has described, and in that same sense which He Himself meant : it is a sitting, far removed from any notion of contact, or resting upon, or local situation ; but both the throne itself, and whatsoever supports it, are sustained by the goodness of His power, and are conquered by His will. He is above His throne and above all things, but so above, as at the same time not to be a whit nearer to the throne and the heaven, or farther from the earth.

God is exalted by infinite degrees above the throne, no less than He is exalted above the earth, and at the same time, He is near to everything that has being ; nay, he is nearer to men than their jugular veins, and is witness to everything : though His nearness is not like the nearness of bodies ; neither is His essence like the essence of bodies. He does not exist in anything, nor does anything exist in Him ; but He is too exalted, to be contained in any place, and too holy, to be determined by time ; for He

---

(1) As to His obvious existence.

(2) As to His reality.

## القرآن هدى للناس وبينات

الحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام في مستهل كل رمضان كلمة ينفع بها الناس تشرح صدورهم لاستقبال شهر الصيام ، فوق ما هو عليه من دواعي الارتياح اليه ، وتوقظ في قلوبهم هوامل الشوق الى عالم الروح ، وحوافز الانبعاث الى العمل الطيب ، ففسري في النفوس سريان الكهرباء في الأجسام ، فتزود زادا أدبيا تستعين به على ما هي بسبيله من المجاهدة للوصول الى الله . وقد تفصل فضيلته على طاقته فأداعها بواسطة الاهرام ، ونحن نضيفها دوة عصاه الى ما ندخره من درر كلماته القيمة .

قال حفظه الله :

قال الله سبحانه : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » .

وصف الله سبحانه القرآن بأنه هدى ، وبأنه آيات بينات من الهدى ، ومن أحل الآيات البينات في القرآن قوله سبحانه : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

فالصوم وسيلة من وسائل التقوى ، وطريق من طرق تهذيب النفوس ، فهو يروض الجسم ، ويهذب الخلق ، ويظهر الروح ويذكرها . وما من أحد في هذه الحياة إلا وهو عرضة للفقر بعد الغنى ، والمرض بعد الصحة ، والذل بعد العز ، والتزوح عن الاوطان بعد الاطمئنان اليها ، الى غير ذلك مما هو بسبيل أن يمرض له ، وعروض هذه الاشياء على نفس مدللة ، وجسم مترف ، قد يصدمها صدمة لا تقوى على احتلالها ، ويسوق اليها الخزع ، ويورثها اليأس . كذلك اقتضت حكمة الله أن يجعل من العبادات ما هو رياضة وإعداد لاحتمال هذه المشقات والنوائب ، فجعل منها الصوم ، وإذا كان الصوم وقاية من المعاصي ، فلا يليق أن يكون معه غش في القول ، وإيذاء للخلق ، بل يجب أن يكون مقترنا بالوقار والحلم ، ومقترنا بالوفاء والبذل والاحسان ، ومواساة الفقراء والضعفاء .

ومن أفضل الهدى قوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ، إن الله مع الصابرين » .

طلب الله سبحانه الاستعانة بالصبر ، والاستعانة بالصلاة ، ولولا الصبر لما احتمل الانسان ما يؤوله ، ولكان سيئ الخلق ، فاسد التدبير سيئ الرأي ، لكن الصبر زينة للنفس

يتحلى بها الصابرون ويمتازون بها ، فهم في وقار إذا خفت الاحلام ، وعزة إذا ذلت النفوس ، ورضا بالقدر إذا سخط الجاهلون على الاقدار ، وفي طمأنينة الى ما يسوقه اليهم القضاء إذا هلمت النفوس ، وأصابتها اليأس ، ولذلك قال الله تعالى : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » وقال « إن الله مع الصابرين » وقال « والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

ونحن في هذه الحقبة من الدهر في أشد الحاجة الى الصبر ، فليتعلم المسلمون بخلق الصبر ، وليستعينوا به على هذه التائبات ، ليكون الله معهم ، وليوفهم أجرهم بغير حساب .  
والصلاة وسيلة من وسائل العون والهدى والتقوى ، بل هي أكبر وسيلة الى ذلك ، بل هي الوسيلة الى الصبر وغيره على شريطة أن تقام وتقوم ، وأن توجد فيها الحياة وتوجد فيها الروح .  
روح الصلاة : الاحلام لله سبحانه ، وانقطاع العبودية ، وإدراك الفرق بين المخلوق والمخلق وبين المرزوق والرازق ، والتوجه الى المعبود وحده لاشريك له في العبادة ، ولا شريك له في النجوى ، ولا شريك له في الضراعة ، والوقوف بين يديه مع التجرد عن غيره ومع الفناء فيه ، ومع ملاحظة أنه رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الجراء ، به العون وحده وبه الاستعانة وحده الصلاة فيها روحها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والصلاة فيها روحها تدفع الجزع وتكون وسيلة الى الصبر ، والصلاة فيها روحها طهر للنفوس وتهذيب ليس وراءه تهذيب ، والصلاة فيها روحها معينة على الصبر ، ومعينة على إحسان الصوم ، ومعينة على البدل في سبيل الله ومساعدة البؤساء والاحسان الى التباي والضعفاء ، ومعينة على الرفق بالعباد فيما يحب فيه الرفق ، وعلى حسن المعاشرة .

والتقوى هي الأثر الذي فرض الصيام له ، وفرضت سائر العبادات ، فلم يفرض الصوم ناجوع والمعطش وترك الملهيات على أن يكون هذا وحده هو المطلوب ، كلا فليس لله حاجة في أن يدع العد طعامه وشربه ، ولكن الله يريد التقوى ، ويريد تهذيب النفوس واطرها .

تهنئتي الخاصة بشهر رمضان أرجيها الى المسلمين جميعهم في مشرق الارض ومغربها ، ولنصيحتي إليهم تلاوة القرآن في شهر رمضان ، مع التدبر والعمل به بسد التدبير ، وليعلموا أن الحياة الدنيا متاع الفرور ، وأن العاقبة للمتقين ، وأن مرد الأمور جميعها إليه ، وأنه مالك الملك ، يؤتي الملك من يشاء ويرفع الملك من يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، بيده الخير

وهو على كل شيء قدير . محمد مصطفى المراغى

# النفس

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى : « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » :

ذكرنا لك في مقالنا السابق بعض ما اشتملت عليه خلقة الانسان من الحكم العالية والامرار السامية ، والامرأ اكبر من أن تأتي على تفصيله . وعلى كل حال فننظر الى وظائف الاعضاء كالكبد والمعدة والامعاء والرئتين ، ثم تهية السيلين ، وما أودعه الله العمين والاذنين واليدين والرجلين الخ ، أخذ منه الدهش كل مأخذ ، وامتلأ قلبه بعظمة الله تعالى وعظيم حكته ومختلف نعمته ، فنطق لسانه قائلاً : سبحانك لا يحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

وقد رأيت أن أذكر لك في هذا المقال بعض ما في الهم والاسان والريق والاسنان من اللطائف التي من علينا بها اللطيف الخبير ، فنقول :

حصل سبحانه الهم أكثر الاعضاء رطوبة والريق يتغلل اليه دائماً لا يفارقه ، وجعله حلوأ لا مالحاً كماه العين ، ولا مرأ كالذي في الاذن ، ولا عساً كالذي في الانف ، بل هو أعذب مياه البدن وأحلاها ، حكمة بالغة ، فان الطعام والشراب يخالطه ، بل هو الذي يحيل الطعام ويمزج به امتزاج المعجين بالماء . فلولا أنه حلولنا التذ انسان بل ولا حيوان بطعام ولا شراب ، ولا ساعه إلا على كره وتغيص . ولما كان كثير من الطعام لا يمكن إحالته إلا بعد طبعه ، جعل الرب تعالى آلة للتقطيع والتفصيل ، وآلة للطحن ، فجعل آلة القطع وهي الشايات وما يليها حادة الرءوس ليسهل بها القطع ، وجعل النواجذ وما يليها من الاخراس مسطحة الرءوس مريضة ليتأتى بها الطحن ، وجعلها في أحسن نظام كالقؤل المظم ، وجعلها من الجانب الأعلى والاسفل ليتأتى بها القطع والطحن ، وجعلها من الجانب الأيمن والأيسر ، إذ ربما كتبت إحدى الآلتين أو تعطلت أو عرض لها طارض فينتقل الى الآلة الأخرى . وأيضا لو كان العمل على جانب واحد دائماً أوشك أن يتعطل ويضعف .

وتأمل كيف أنبتها سبحانه من نفس اللحم وتخرج من خلاله نابتة كما ينبت الزرع في الأرض ، ولم يكسبها سبحانه لحما كسائر العظام سواها ، إذ لو كساها اللحم لتمطت المنفعة المقصودة .

ولما كانت العظام محتاجة الى لحم يكسوها ويحفظها ، ويتلقى عنها الحر والبرد ، ويحفظ عليها رطوبتها ، لم تكل مصلحة الحيوان إلا بهذه الكسوة . ولما كانت عظام الانسان محتاجة الى ذلك من وجه مستغنية عنه من وجه ، جعلت كسوتها منفصلة عنها ، وجعلت هي المكسوة العارية لتنام المنفعة بذلك .

ولما كانت آلة القطع والكسر والطحن لم تنشأ مع الطفل من أول نشأته كسائر عظامه لعدم حاجته إليها ، خلا عنها وقت استغنائها عنها بالرصاص ، وأعطيتها وقت حاجته إليها . وفيه حكمة أخرى وهي أنه لو نشأ معه من حين يولد لأضرت بحلمة الثدي ، إذ لا عقل له يمنعه من هضمها ، فكانت الأم تمنع من رضاعه .

ومن عجيب أمرها الاتفاق والموالاتة التي بينها وبين المعدة ، فإنه يسلم إليها الشيء اليابس والصلب فتطعنه ثم تسلمه الى اللسان فيعجنه ، ثم يسلمه الى الحلق فيوصله الى المعدة فتصجبه وتطبخه ، ثم ترسله الى الأمعاء لينجم هضمه فيها ، ويميز هناك الخبيث المؤذي من الطيب النافع ، وترسله الى الكبد فيفرز الصفراء ثم يرسله الى القلب . وبعد عملية الأذنين والبطين وملاقاة الهواء في الرئتين يرسل الى الأجر ، ثم يتفرع منه الى جميع أنحاء البدن فيعطى كل عضو ما يناسبه والمقدار الذي يليق به ، فسبحان الحكيم العليم . ومن المعلوم أن الأسنان إذا عجزت عن قطع شيء وطعنه عجزت المعدة عن إنضاجه وطبخه ، فإذا كالت الأسنان كالت المعدة ، وإذا ضعفت ضعفت ، الى آخر ما يطول القول فيه ، ولا يمكننا أن نصل الى خوافيه .

وإن شئت فانظر في أهون شيء عليك وأيسره لديك ، وهو الشعر ، وكيف خلا منه جسد المرأة التي تحسن بها الرقة والنمو ، بخلاف الرجل .

ولنلفت نظرك الى شعر الرأس وما فيه من الحكم والمنافع . فنها وقايتها من الحر والبرد وما عسى أن يكون عند الاصطدام ، فضلاً عما فيه من الحسن . أما السبب الذي صار به شعر الرأس أكثر من شعر البدن ، فهو أن البخار من شأه أن يصعد من جميع البدن الى الدماغ . وكان هذا الشعر دامياً على الدوام لأن البخار يتصاعد الى الرأس أبداً وهو مادة الشعر ، فكان فيه تخليص للبدن من تلك المواد ، وزيادة لوقايتها وغطائه .

وأما شعر الحاجبين ففيه مع الحسن والزينة والجمال وقاية العين مما ينحدر من الرأس ، وجعل هذا المقدار ، فلو نقص عنه زالت منفعة الجمال والوقاية ، ولو زاد عليه لغطى العين وأضر بها وحال بينها وبين ما تدركه . ولما كان الانفع والأصلح أن يكون شعر المهدب قائماً منتصباً ، وأن يكون باقياً على عدد واحد في مقدار واحد ، جعل منبت هذا الشعر في حرم



صلب شبيه بالعضروف يمتد في طول الجفن لتلا يطول وينمو . وهذا كما نشاهد النبات الذي ينبت في الأرض الرخوة اللينة كيف يطول ويزداد ، والذي ينبت في الأرض الصخرية لا ينمو إلا نموا يسيرا ، فكذلك الشعر النابت في الأعضاء اللينة الرطبة فإنه سريع النمو كسعر الرأس . وأما شعر اللحية ففيه منافع ، منها الزينة والوقار والهيبة ؛ ولهذا لا يرى على الصبيان والنساء من الهيبة والوقار ما يرى على ذوى اللحي من الرجال .

ثم انظر كيف هيأ المرأة لما يراد منها ، فخلقها قالة لتلقيح والحبل والولادة وتربية الطفل بلبن ثديها وشدة عطفها ، كما هيأ الرجل لما يراد منه . وقد قلنا إن بعض فلاسفة الأوربيين قال : « يكفيني في الدلالة على الله وجود المرأة بجانب الرجل لبقاء النوع واستمرار وجوده » . هذا بعض ما قاله العلماء . ولنحتم كلتنا هذه بقول الله تعالى : « يأيا الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك ، في أى سورة ما شاء ركبك » .

يوسف المدجوى

عضو جماعة كبار العلماء

## الجود مع الاقلال

قال أبو هريرة : ما ودعت أن أحدا ولدني أمة إلا أم جعفر بن أبي طالب : تبعته ذات يوم وأنا جائع ، فلما بلغ الباب التفت فرآني فقال لي : ادخل ، فدخلت ، ففكر حينئذ ما وجد في بيته شيئا إلا نجما كان فيه سمن ( السمن : زرق السمن ) ، فأنزله من رف لم ففقه بين أيدينا ، فجعلنا نلحم ما كان فيه من السمن والزيت ، وهو يقول :

ما كلف الله نفسا فوق طاقتها ولا تجود يد إلا بما تجود

وقال عبد الملك بن مروان : ما كنت أحب أن أحدا ولدني من العرب إلا هروة ابن الورد لقوله :

أتهزأ مني أن سمحت وأن ترى بحسبي من الحق والحق جاهد

لأنى امرؤ طافى إنانى شركة وأنت امرؤ طافى إنائك واحد

أقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

ومدحوا ما قاله صريح القواني في الجود :

فعلو لم يكن في كفه غير روحه لجساد بها فليتنق الله سائله

ولكني لا أمدحه أما ، فليس من الكرم أن تكلف نفسك ما لا تطبيق ، ولكن أن تعطى من القليل الذي عندك ، أو أن تؤثر السائل على نفسك فيما لا يصل إلى حد الإضرار بالنفس .

# السنة

## تعدد الزوجات

وما يترتب عليه من مناهب

عن عائشة رضي الله عنها « أن نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم كنّ حزينين ، فغضب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة ، والحزب الآخر أم سلمة وسائر نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان المسلمون قد علوا حب رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة ، فإذا كانت عند أحدهم هدية يريد أن يهديها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرها حتى إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة بعث صاحب الهدية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة ، فكلّم حزب أم سلمة فقلن لها كلّمى رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلم الناس فيقول : من أراد أن يهدي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هدية فليهدّها إليه حيث كان من بيوت نسائه ، فكلّمته أم سلمة بما قلن ، فلم يقل لها شيئا ، فسألنها فقالت : ما قال لي شيئا ، فقلن لها : فكلّميه ، قالت : فكلّمته حين دار إليها أيضا فلم يقل لها شيئا ، فسألنها فقالت : ما قال لي شيئا ، فقلن لها : كلّميه حتى يكلمك ، فدار إليها فكلّمته ، فقال لها : لا تؤذيني في عائشة فإن الوحي لم يأتني وأنا في نوب امرأة إلا عائشة ، قالت : فقالت : أتوب إلى الله من أذاك يا رسول الله . ثم إنهن دعون فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول : إن نساءك ينفذونك الله العدل في بنت أبي بكر ، فكلّمته ، فقال : يا بنية ألا تحبين ما أحب ؟ قالت : بلى ، فرجعت إليهن فأخبرتهن ، فقلن : أوجى إليه ، فأبت أن ترجع ، فأرسلن زينب بنت جحش ، فأثنته فأغلظت ، وقالت : إن نساءك ينفذونك الله العدل في بنت ابن أبي قحافة ، فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهي قاعدة فسبّها ، حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليجنّ إلى عائشة هل تكلم ، قال : فكلّمت عائشة ترد على زينب حتى أسكتتها ، قالت : فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى عائشة وقال : إنها بنت أبي بكر . » . ورواه البخاري في كتاب الحبة .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه إجمالا ، (٢) بيان بعض ما يترتب على تعدد الزوجية من مضار نهى عنها الدين ، (٣) بيان حكم الهدية وأن ليس على المهدى أن يتقيد بأي قيد .

(١) معنى الحديث ظاهر لاختفاء في شيء من ألفاظه ؛ وكل ما فيه أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم كن حزينين : حزب مع عائشة ، وهن حفصة بنت عمر رضى الله عنهما ، وصفية بنت حيي ، وسودة بنت زمعة ؛ والحزب الآخر مع أم سلمة ، وهن زينب بنت جحش الأسدية ، وأم حبيبة الأموية ، وجويرة بنت الحارث المخزومية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية .

ولم تكن واحدة من زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم تجهل ما كان عليه من عدل مطلق لا تشوبه أية شائبة ، ولا يمكن أن يمس من أي جانب من جوانبه ، وإنما هي الطليعة البشرية التي فطر الله عليها النساء من غيرة على الزوج وحسب الانفراد به في كل شأن من شئونه .

وكان أكبر المعاملات في حزب أم سلمة زينب بنت جحش رضى الله عنها ، لأنها هي التي كانت تظن أنها تشابه عائشة في جمالها ، وكانت مع هذا قريبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ( ابنة صمته ) ، فأثار هذا الحزب مشكلة هدايا الناس التي يبعثون بها إلى رسول الله من وقت لآخر ، ويتمددون أن يرسلوها إليه وهو في منزل عائشة ، فأثارت هذه المسألة غضبين ، وظن أن في تصرف الناس ذلك التصرف إجحافاً بهم ، فبعثت أم سلمة إلى الرسول ينشدن العدل الذي هو ركن الشريعة الإسلامية ، ويطلبن النسوة في هذه الميزة ؛ ولا يرفع هذا الحيف إلا أن يأمر النبي صلى الله عليه وسلم الناس بأن لا يقصروا الهدايا على بيت عائشة . ولا أدري كيف يتصورون تنفيذ هذا .

هذه المسألة حللتها أم سلمة وبلغتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسكت ولم يرد عليها ، فأعادتها له في نوبتها الأخرى بناء على طلبين ، فلم يرد عليها أيضاً ، فكلفتها صويحباتها أن تكرر الطلب مرة ثالثة ففعلت ، فقال لها : « لا تؤذي في عائشة فإن الوحي لم يأتني وأنا في نوب امرأة إلا عائشة » . فقالت أم سلمة : أتوب إلى الله من أذاك يا رسول الله . ومعنى وأنا في نوب امرأة إلا عائشة : في فرائض امرأة إلا عائشة . وفي بعض الروايات في لحاف امرأة مسكن غيرها . وعلى كل حال فإن الأمر ظاهر ، وهو أنه صلى الله عليه وسلم لا يريد إلا تفضيل الأمور المعنوية مادامت الماديات لا تتعلق بها حق من حقوق الغير . وإذا كانت أم سلمة قد اقتنعت فإن زينب بنت جحش ومن بقي من نساءه لم يقتنعن ، فوسطى في الأمر السيدة فاطمة ، ولكن وساطتها لم تفلح أيضاً ، فذهبت زينب بنفسها ؛ وهنا تجلت مظاهر الغيرة الطبيعية ، وخرجت زينب عن طبيعتها من السكال المعروف عن زوجات الرسول ، واعتدت على عائشة بما قد يكون سباً في عرف العرب ؛ ولكن عائشة صبرت عليها وانظرت ما عساه أن يبدو على وجه الرسول في مثل هذه الحالة ، فلم ترفيه مانعاً من الرد على زينب ، وكانت كأبيها حافظة لأسباب العرب وتاريخهم وما لهم من مثالب ومحاسن ، فسكرت على زينب حتى أنجستها وأخجستها ، وانهت المسألة عند هذا الحد .

(٢) ولعل هذا يرشد المسلمين الى ما قد يترتب على تعدد الأزواج من مضار ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له المثلة الأولى في قلوب جميع المسلمين ، فكانوا يقدونه بأرواحهم وأموالهم بدون تردد رجالاً وإناثاً ، وكانت زوجاته الطاهرات أول المخلصات له ولدينه ، وأول العاملات على نشر ذلك الدين والقيام بما تعرضه عليهن آدابه وأحكامه . ولكن مع كل هذا فقد تفلبت الطبيعة البشرية في بعض نواحيها ، وطمعت الغيرة على أن يتأمرن ويتحررن فيما لا حق لمن فيه .

نعم إنهن مجتهدات ، ولهن الحق في أن يفهم ما لهن وما عليهن ؛ ولكن على كل حال فالذي يجب على المسلمين هو أن يقتدوا به صلى الله عليه وسلم في جميع أقواله وأعماله التي جاء بها ، فإنه إنما يفعل ويقول يوحى من لدن عليم خبير .

لا شك في أن تعدد الزوجات يترتب عليه كثير من المصار الخلقية والعمرانية ، وتظهر آثاره السيئة في الأولاد وتربيتهم ومعاملة بعضهم بعضاً ، فانهم بدلاً من أن يكونوا متعدين على الجهاد في هذه الحياة ومقاومة الصعوبات التي تعرضهم ، ينقلبون أعداء يؤذي بعضهم بعضاً . ولهذا اشترط الله تعالى لمن يريد أن يعدد الزوجات أن يعدل بينهن في الحقوق التي لا بد منها ، ومن هذا المعدل بين الأولاد ، فمن عجز عن المعدل أو حملته شهوته على إرضاء حبيبة وإقصاء أخرى فإنه يحرم عليه أن يعدد الأزواج تحريماً باتاً . نعم لا يكلف الانسان بالمعدل إلا فيما هو قادر عليه ودخل تحت اختياره من مأكل ومشرب وملبس ونحو ذلك ، أما الحب القلبي الطبيعي فذلك ليس مكلفاً بالمعدل فيه لأنه ليس داخل تحت اختياره . وفي هذه الحالة يقول الله تعالى : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل » الآية . ومعناها ظاهر ، وهو أن الانسان لا يستطيع أن يكلف قلبه أن يحب هذه مثل تلك ، لأن ذلك إنما هو فعل الله وحده ولا اختيار للانسان فيه . أما التسوية فيما عدا ذلك من الحقوق فهي واجبة لأنها في طرق الانسان واختياره بلا زاع .

ولذي اعتقده أن قوله تعالى : « فإن حقتم ألا تعدلوا » الآية ، زجر شديد للناس ونهي جازم عن تعدد الزوجية ، لأن مجرد الخوف من عدم المعدل يحرم التعدد ؛ فما ظنك إذا كان الرجل ضعيف الشهوة ينقاد لزوجته الجميلة لا محالة ؟ لا شك أن هذه الآية معناها الاقتصار على زوجة واحدة ، ولا عذر للناس الذين يعددون الأزواج خصوصاً البؤساء الذين لا يستطيعون الاتفاق على أولادهم فيتركبونهم حالة يتكفونون الناس ، ويتركون نساءهم عرضة لفساد بلا مبالاة .

إن هذه الحالة الاجتماعية يجب علاجها ، ويجب أن يكون للدين سلطانته القوي في مثل هذه الأحوال ، ويجب أن يعلم الناس جميعاً أن الدين الاسلامي مبني على جلب المصالح ودرء المفاسد ، وأنه قائم بالقسط في جميع أحكامه وأوامره ونواهيه ، وأنه لا ينفك عن محاربة

الشهوات الفاسدة في كل زمان ومكان ، فلا يقر الدين الاسلامي تعدد الأزواج بدون ضرورة ، ولا يسمح لأحد أن تسوق شهوته في السبيل الذي يودى به ونسله بدون حساب .

وبعد : فإن النبي صلى الله عليه وسلم قدوة في قوله وفعله ، وقد اقتضت ضرورة النبوة أن يعدد الأزواج لأسباب يقتضيها الدين ، وقد اعترف أعداؤه قبل أصدقائه بما كان عليه من عفاف وطهارة وبعده عن الشهوات ، حتى إنه قد كان في بعض الأوقات يعصب بطشه بالحرام ( الحِجْر ) لما يجده من ألم الجوع . والذي يفعل ذلك مع وجود وسائل الشهوات كلها بين يديه هو جدير بأن يحكم نفسه عن شهوة النساء أيضا ، ومع هذا فانه في نصرة شبابه ومبدأ قوته كان مقصورا على زوجه السيدة خديجة رضي الله عنها ، فلم تبغته شهوة الى غيرها ، ولم تؤثر عليه البيئة التي كان فيها فيتزوج من النساء ما يحب بدون حد ولا عد . ولكن بعد نبوته وبعد أن بلغ من العمر مبلغا تنكسر فيه حدة الشهوة غالباً ، اقتضت ظروف النبوة ، وظروف تبليغ الأحكام وحفظها ، وظروف الارتباط بالمقاتل للدفاع عن الدين ، أن يخص نفسه بتعدد الأزواج ، ومع ذلك فقد نهى الله تعالى عن أن يتزوج غير هذا العدد الذي اقتضته الضرورة ، فقد قال تعالى : « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن » . ولم يكن من نسائه واحدة حميلة سوى عائشة وزينب ، وبإيهن تزوجه للضرورة التي ذكرناها ، فكان صلى الله عليه وسلم في هذا المقام أقل من جميع أفراد أمته استمناها بالنساء لأنه حبر عليه أن يتزوج بغير هؤلاء ، ولم يكن بينهن شهيرات بالجمال . أما غيره فلا ، كما أوضحناه في غير هذا المقام .

(٣) أما الهدية فإن الدين الاسلامي يقرها ، وقواعده العامة نحت عليها ، لأن فيها ما يقوى روابط المودة بين الناس ، ويؤكد دواهي الألفة بينهم ، وكل ما يفضي الى ذلك يقره الدين حتماً ، وعلى هذا الأصل في الهدية الجواز ، وإذا ترتب عليها أثر صالح كما ذكرنا كانت من أعمال البر التي يثاب الانسان على فعلها ، ولكن يشترط في الهدية أن لا تكون لغرض خاص كالهدية التي ترسل الى قاص أو حاكم لغرض خاص ، فإن هذه رشوة لا هدية . وهاعنا أسئلة تمت الى بها بعض طلبة العلم السابيين ، فأجبت أن أذكرها وأجيبه عنها كما طلب مني ، لأن فيها فائدة عامة :

(١) لما سألت النبي أم سلمة في مسألة الهدايا لم يرد عليها إلا في المرة الثالثة ، ومع هذا قال لها في الاجابة « لا تؤذي في طائفة فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأة إلا عائشة » ، ويقول السائل إن هذا الجواب ليس في ظاهره إنصافاً لأنها تسأل العدل في القسمة الظاهرية أما فأقول لهذا السائل : يجب أن يعلم أن أقوال النبي وأفعاله وحركاته وسكناته في مثل هذه المواضع لا يقصد منها إلا أن تكون نموذجاً لامته ، فهو المشرع الأعظم الذي ينبغي للناس أن يتقوا عنه كل ما يصدر منه بدون تردد أو ريب ، ويعملوا به .

على أن فعله في هذا المقام فيه تأديب عظيم لأمته ، وعبرة وذكرى لقوم يعقلون ، وذلك لأن الاشتغال بمثل هذا اشتغال بسفاسف الأمور ، وطلب من الزوج لا عمل له ، لأنه لا يدخل في طاقته ، إذ ليس من الحسن مطلقاً أن يقول للناس ابعثوا الى الهدايا وأنا في بيت فلاة أو فلاة ، لأن الهدايا أمر في ذاته لا يقصد منه إلا التحجب الى المهدي إليه . وما يدرينا أن الناس كانوا يرون أن عائشة أحق وأولى بأن ترسل لها الهدايا لأنها ابنة أبي بكر وفضله على الاسلام مشهور ، ولأنها أعلم نسائه وأشدهن معرفة بدين الله تعالى . ومن المحتم أن حب النبي صلى الله عليه وسلم إياها لم يكن ناشئاً إلا عن أمر معنوي محض ، وهو ما امتازت به من علم وذكاء وفطنة ، وحفظ لشريعته التي ما عتد الأزواج إلا من أحلها ؛ فهذه مسائل كلها ليست في اختيار الانسان ، ولا يكاف الانسان إلا بما في اختياره ؛ والمشرع الأعظم قدوة للناس ، فكانه يقول لهم : لا تكلفوا أزواجكم بما ليس داخل تحت اختيارهم ، ولا تتعلقوا بسفاسف الأمور ولا بصغائرها . كأنه يقول لهم : إن المدل بين الزوجات فرض عليكم في كل ما هو داخل تحت اختياركم ، أما الحب القلبي لميزة من الميزات فإنه أمر ليس داخل تحت اختياركم . فما فعله صلى الله عليه وسلم عين الصواب ، وإعما فعله ليقندي الناس به بعد .

(٢) يقول الأستاذ : إن النزاع الذي وقع بين زينب بنت جحش وبين عائشة وسكوت النبي صلى الله عليه وسلم يدل على جوار ذلك الموضوع . ولعله يدرك من جوابي الأول الجواب عن الثاني ، وهو أن المقام كله مقام تشريع ، فيجوز لزواج الصراثر أن يتغاضى عما ساء أن يقع بين زوجاته في بعض الأوقات على أن يشرف عليهن من بعد حتى لا يخرجن الى ما يؤذيهن في دينهن أو عرضهن ، فإذا تعادبن على هذا هددهن بالطلاق ، فإذا لم يرتدعن طلقهن فعلاً . وهذه الحالة قد وقعت مع زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنهن لما تعادبن في هذا النضال مجرهن أولاً ، ثم هددن بالطلاق ، ثم خيرهن بعد هذا ، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، وتركن ذلك النضال ، وانتهت المسألة عند هذا كما هو معروف في أحاديث البخاري وتفسير سورة التحريم . ومن هذا يتضح للسائل أن سكوت النبي صلى الله عليه وسلم كان عين الصواب .

أما قوله : إنها ابنة أبي بكر ، فذلك لأن زينب كانت غلاماً ، فأخامها إقام الظلم ، ومن شريعته صلى الله عليه وسلم النهي عن الظلم والانتصار للظلم ، وإلا فما شأن زينب وشأن عائشة ، وما ذنب عائشة في هذا المقام ؟ إن الهدايا التي كانت ترسل اليها كانت تقسمها بينهن وتبعث اليهن بها ، ولم تقل للناس اهدوا الرسول وهوفي داري ، فأى ذنب لها يستلزم غضب زينب بنت جحش حتى تشتمها ؟ لاشك في أن فعل النبي وقوله في هذا المقام عدل مطلق ، ومثال صالح لمن يقتدى به من أمته ، من ابتلى بالجمع بين الصراثر فعليه أن يقتدى بهذه الأحلاق الكريمة ، وعلى الناس أن يتخذوا من قول النبي صلى الله عليه وسلم وقصه أسوة حسنة لهم ليفعلون .

## (١) في السرائر وروس وعظمت

هذه نظرية علمية صحيحة لا شك فيها ، بل سنة كونية ما تخلفت ولن تتخلف ، بشرط أن يكون من نزلت به الشدة ، أو أحاط بها علما ، جامعا لصفات ثلاث : العقل ، والثقافة ، والتربية . يشهد بذلك أن الإنسان مهما ارتقى في صفاته ومواهبه ، أو انحط في إدراكه وخلقه ، فلن يعدو مقصوده أن يكون جلب محبوب ، أو دفع مكروه ، فالتخلص من المكروهات حاجة ضرورية من حاجات النفس ، كتحصيل المحبوبات سواء بسواء . وبما لا ريب فيه أن الحاجة تقتضي وجه الحيلة ، وأن المصائب مظهر المواهب ، والشدائد تصهر النفس ، وتشدد الهمم ، وتيقظ ما فيها من غفوة وغرور .

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب تعرف العود

إن الأمة السعيدة هي التي تلتذت بالشدائد والمحن ، وتكون في ذلك أشبه بالذهب يصهر بالنار ، فيصقل ذهباً خالصاً نقياً ، فهما أصابها من هزاهز الفتق ، وكرب البلايا ، فأنها تثبت للصدمة ، وتمتدح في حاضرها بما أصاب غيرها من الأمم السالفة ، وتأخذ نفسها بالحزامة والبصر بما وفقت إليه من عظة واعتبار .

أما الذين تجردوا من تلك الخلال التي أسلفنا بيانها ، فليس لهم حظ من الاعتبار بالشدائد والانتفاع بها ، وإنما الذي يصيبهم عند حلولها هو اليأس والقسوط ، وهو موت الأحياء ، إذ لا حياة مع اليأس ، ولا يأس مع الحياة . وإن فردا من الناس ، أو أمة من الأمم على هذا النحو من ضروب الخور والضعف ، جدرء بأن يصيبهم ما أصاب الأمم الضعيفة من الاستعباد والهوان ، ثم الاتقاضي واللقناء .

والذين أخذوا نصيبا من الخصال المذكورة ولم يستوفوها ، فأولئك يكون اعتبارهم بالشدائد ، وانتفاعهم بها على قدر ما أخذوا وحصلوا ، قل أو كثر ، وفي المشاهد الكونية ، والمثل العلوية ، وفي بطون التاريخ والحوادث الحاضرة ، ما يشهد بذلك ، ويدل عليه أصدق دلالة . وإن القرآن الكريم ، وهو أجمع وأفضل كتاب أنزل على خاتم الأنبياء وخيرهم صلى الله عليه وسلم ، ذكر الشدائد التي زلت بأمم سلفت ، وبين أسبابها وبواعثها ، وكرر ذلك في مواطن كثيرة ، تنبيها للعقلاء ، ولعلنا لأنظارهم إلى سنة الله في كونه ، وعقوب ذلك بشعور قوله : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب » ، ما كان حديثنا يفتري ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » ، وقوله : « وكلاً نقص عليك من

(١) أطرف حفرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل شيخ علماء الاسكندرية فراء العربية بهذه الكلمة القية بناء على دعوة من وزارة الشؤون الاجتماعية ، فأصبح واجبا علينا أن نعير على توسيع دائرة انتشارها .

أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين»، وقوله: «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر»، عقب بهذه الآية كل قصة من قصص أولئك الذين أهلكتهم الله بسينئات أعمالهم.

وليس العبرة والعظة في الشدائد وحدها، بل إن في السعادة عظة وعبرة، لذلك بين الله سبحانه وتعالى في إسماعيل من أسعدهم، الأعمال الصالحة التي سعدوا بها، فكما أن الأعمال الصالحة سبب لارتفاع الفرد والجماعة، وسبب لتحصيل الحياة الطيبة، كذلك أضرارها سبب للتنحس في الدنيا، وسوء المقلب في الآخرة، وذلك حكمة القصص في القرآن، فإكان لا لبيان سنة الله في خلقه التي لا تتبدل، كما قال سبحانه وتعالى: «ولن نجد لسنة الله تبديلا».

ولسنا نبعد بالمثل لذلك في القديم والحديث، فالتاريخ الإسلامي حدثنا عن الشدة لقبها الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم في دعوته حين تألب عليه المشركون، ووقعوا له بالمرصاد، وحاولوا أن يحولوا بينه وبين دعوته إلى الله تعالى، وإبلاغها إلى الناس كافة، وحذله في ذلك قومه من قريش، حتى أهله وأصحابه ونو قرايته الأدنون. ألح به صلى الله عليه وسلم المدوان والخوان، وقل صاحب، وعر النصير، وضائق عليه وعلى أصحابه، الهمة المجاهدة الصارة القليلة، مكة وشعابها، وصارت قريش تنقل معه من أدنى إلى أدنى، وتنبه إلى الجامع والأسواق، يدعو الناس إلى التوحيد، فيقولون للناس: لا تسمعوا له، إنه كذاب، إنه ساحر، إنه مجنون!

كل ذلك احتمله النبي صابرا، واحتمل أصحابه معه أعظم السخريه والمهانة، وباعدوا أرواحهم عنه بيع السماح، فلم يعدل به من الدعوة إلى الله تعالى، وتبليغها بكافة الطرق إلى الناس، وجعل يمالج القوم بالدين مرة وبالشدة أخرى، وفي غضون ذلك يظفر منهم بالرجل والرجلين والثلاثة يضمون إلى صفوفه وينفحون عنه وعن أقصمهم، حتى إذا ضاق به خصومه فرحا، ويئسوا من انصرافه عن دعوته، وأنه إذا استمر على ذلك نجح وخسروا في زعمهم، ائتمروا على قتله، وتلك نهاية مخيفة؛ ولكن الله أعلم نبيه الكريم بما ائتمروا به، ورأى المنصوم صلى الله عليه وسلم روحى منه تعالى أن يفر بدينه وبدعوته إلى قوم من أهل المدينة، أماهدوا معه على النصر والهدم والدم، وهم بعض الأوس والخزرج من النساء والرجال لا يزيدون على المائة، كانوا قد تلاقوا معه سرا في بعض حبيجهم إلى مكة، وسمعوا دعوته، واستجابوا له، وعقدوا معه هذا العهد. وإذ بيت الخصوم ما ائتمروا عليه من قتله صلى الله عليه وسلم في هدأة من الليل كان النبي صلى الله عليه وسلم مع صاحبه أبي بكر يضرب في رمال الصحراء مهاجرا إلى المدينة وقد وصل إليها، وغاب القوم في اللحاق به؛ وفي المدينة أخرج عن الإسلام، وانبتقت الدعوة مواردة، وتمت كلمة الله.



ذلك هو المثل الأعلى لمن استوفى شرائط الكمال في الحياة من العقل الناضج ، والثقافة العالية ، والتربية الصحيحة ، والدروس التي يُنتفع بها من ذلك . والمبرة التي أَسْتَحْلَس من تلك الشدة القاصمة ، هي أن الثبات على العقيدة ، والصدق في الجهاد ، والصبر على الشدائد ، تستمتع حتما الجزاء الأول ، وحسن المصير . وذلك مصداق قوله تعالى : « إنه من يتق ويصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

ولا جرم أن الله سبحانه وتعالى حقق للمعصوم صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، رضوان الله عليهم ، نصره ووعده ، تلقاء ما احتملوا واتقوا وصبروا وصدقوا ، فبدل فقرهم غنى ، وخوفهم أمنا ، وذلتهم هزة ، وقتلهم كثرة ، ووجدتهم جماعة ، وبدلوا منهم حضارة ، واستغفهم في الأرض ، ومكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وأخضع لهم عروش الأَكْاسِرَة والقياصرة ، وملكهم زمام الدنيا في المشرق والمغرب .

ولنضرب مثلا لمن لم يستوف شرائط الكمال في الحياة ، بل أخذ حظا منها ، بفرنسا الصريمة الجريحة ، تلك الدولة التي شارفت السالكين ثقافة وازدهارا ، وحضارة ومهرا ، ونافست أقسوى الأمم مالا وجندا وعنادا ، وأحاطت بعلوم الدنيا ، حتى قصد إليها الوارد والمتردد من الشرق والغرب ، ينهل من وردها الصافي شرابا سائغا ، وضربت المثل للعالم كله للحرية والإخاء والمساواة ، وكانت مثابة للمضطهدين والمظلومين والقارئين السياسيين من كل ملة ومحلة ؛ ولكن مع هذا كله كان ينقصها شرط أساسي لكمال الحياة وبهائها ظلية ؛ كان ينقصها التربية الخلقية ، فقد تملكت وعلت من الشهوات ، وأسرفت في الاستمتاع بكل لذة آتمة ، وتمحلت من كل قيد للأداب العامة ، والأخلاق القاصية ، وغفلت عن المصير للأمم التي استعبدتها الشهوات والذوات ؛ لهذا لم تحمل الشدة في لقاء العدو ، وانهارت عند أول صدمة ، وصرت مثلا لهزيمة والفعل ؛ وفي ذلك دروس وعظات ينتفع بها غيرها من الأمم الأخرى في حاضرها ومستقبلها ، فتأخذ نفسها بتحسين أخلاقها ، فانها الأساس المنعة والقوة ، وأمتن الروابط بين الأمر والعشائر وأبناء الوطن .

والحرب القائمة - وهي تعتبر من أكبر الشدائد على الإنسانية في التاريخ - فيها من العظات والمبر الشئ الكثير ؛ فلقد علمتنا أن المعاهدات الدولية التي كان الوفاء بها من أقدس الواجبات ، والشرف الدولي ، لا وزن لها ولا اعتبار ، بل هي قصاصات ورق ، وأن على كل أمة أن تأخذ حذرهما من الأخرى مما كان بينهما من عهود ومواثيق .

وعلمتنا أن لا قيمة لسكان السياسي لأي أمة إلا بما تحرزه من قوة التسليح والتجنيد ، وأن لا قيمة للدول الصغيرة إلا باتحادها وتربطها كتلة واحدة . وإعيايا كل الذب من الغنم القاصية .

وعلمتنا أن دعاية الأمم إلى احترام الحريات السياسية، والرفاه لها، والبكاء عليها، وأن الدعاية إلى نقص التسليح، ووضع موازنة عامة للدول المساحة، كل ذلك وهم وكذب وتضليل، وإنما هو حيلة الثعلب لتتويم الفريسة.

وعلمتنا أن العلم كالكين تدبج بها الديبحة لتذكية، ويدبج بها الإنسان للانتقام والشهوة، وأن علم الدنيا لا يعصم المنتصف من اقتراف الشرور والاثام، وأنه وحده لا ينقذ الروح، وإنما يقضى الناحية الحيوانية في الإنسان ويجعله حيواناً شرساً فثاكاً؛ فهذه الجازر البشرية، وعق الملايين من الخلق بلا رحمة ولا شفقة، وتركها في المرأ تعافها الوحوش والطيور، أكبر دليل على ذلك.

وعلمتنا أخيراً أن المدينيات الحاضرة هي مدينيات كاذبة، وأنه جذبر بالعالم أن يبحث من جديد عن مدينة جديدة تكفل له الامتثال والاستقرار والسعادة، وتلك المدينة الجديدة التي نعلمها، هي الرجوع إلى الدين الصحيح.

ومن الأمم التي هي أجدر وأحرى أن تأخذ دروساً وعبراً من الحالة الحاضرة، مصر، فانها وإن تكن قد انتفعت بالشدائد والمحن التي صادفتها في الحرب العالمية الكبرى، وفي ثورتها الاستقلالية التي عقيت الحرب، فكسبت مجيادشبابها، واتحاد أقطابها استقلالاً لا تزال تسمى لاستكمال بنائه، وانتفعت بتنظيم جيش عديد الجند والسلاح والعناد إلى حد سمحت به الظروف، وانتفعت بفشر العلوم والمعارف والثقافات، وتأسيس الصناعات المختلفة مما سدت به بعض الحاجة التي أرهقتها في الحرب الماضية — إن تكن قد انتفعت بالشدائد فقامت بكثير من المجهودات النافعة، ولكنها مع الأسف لا تزال يعضوزها كثير من المعاني والاعتبارات والمقدرات التي هي شرط جوهرى لاستدامة حياة الأمم في الوجود وبقائها سعيدة.

يعوزها مع الأسف الكثير تقويم أخلاقها وآدابها من الاعوجاج، فقد خرجت على تقاليد الصالحة، وعلى آداب دينها الحنيف، وأصبح الفساد شائناً في كل شيء، ويعوزها مع الأسف الكثير تحصين الأسرة، فانها قد آذت بالنفك والانهلال، ويعوزها مع الأسف الكثير اتفاق زعمائها وأقطابها السياسيين في وقت هي أحوج ما تكون فيه للاتحاد والتساند والترابط لدرء العدوان، فالاختلاف في هذا الوقت العصيب أسوأ ما ينفذ بالخطر والهرطقة إلى الأبد، ويعوزها مع الأسف الكثير اتقاؤها فوضى الشفاعات والوساطات والمحسوبيات في الوظائف والأعمال، فقد أصبحت التوصيات جوارات للتوظيف في المناصب، والترقى في الدرجات، ومنح العلاوات، ويعوزها مع الأسف الكثير توجيه الشباب المثقف إلى النشاط الاجتماعي، وإلى نواحي القوة المعنوية في الأمم الحية، كالاستثمار بالعزة القومية،

والكرامة الوطنية ، ونصرة المظلوم ، وإغاثة الملهوف ، والمروءة والسجدة والشهامة ، ويموزها مع الأسف الكثير تنظيم القرية ، والصناية بصحة الفلاح ، إذ الفلاح عصب الأمة ، تقوم على سواعده حضارتها وعمرانها ورخاؤها .

وأكبر على أن مصر العزيزة التي هي زعيمة الشرق العربي قد أخذت من العدايد دروسا وعظات ، فتي استقرت حالتها السياسية وصمحت لها الظروف المواتية ، تستطع أن تأخذ حظها من استمتاعها بالاستقلال الحقيقي في كل ما تاتي وما تذر ، تستطع أن تضطلع بأعباء الحياة الصحيحة ، وأن تقتصد مكانتها تحت الشمس ، وتفوز بالزفة والسيادة والملطان ، في ظل زعيم الشباب المحاهد حقاً ، جلالة الملك الصالح فاروق الأول ، حفظه الله لدينه ، ولشعبه ، وللوطن المقدس .

محمود أبو العيون

شيخ علماء الاسكندرية

## كلمات في السخاء

قال عبد الله بن عباس : سادات الناس في الدنيا الأسخياء ، وفي الآخرة الاتقياء .  
وقال أبو مسلم الخولاني وهو من الصحابة : ما شيء أحسن من المعروف إلا ثوابه ، وما كل من قدر على المعروف كانت له نية ، فإذا اجتمعت القدرة والنية تمت السعادة ، وأنشد :

إن المكارم كلها حسن	والبذل أحسن ذلك الحسن
كم حارف بي لست أعرفه	وغدير عني ولم يرني
يأتبهم خبري وإن بمنت	فأرى وبوعدهم وطني
إني لحر المال ممتن	ولحر عرضي غير ممتن

وقال عبد العزيز بن مروان أخو أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان : إذا أمكنني الرجل من نفسه حتى أضع معروفه عنده ، فيده عندي أعظم من يدي عنده .

ومن الشعر المنسوب لابن عباس قوله :

إذا طارقات الهم ضاحعت النفي	وأعمل فكر الليل والليل طائر
وبأكرني في حاجة لم يجد لها	سواي ولا من نكبة الدهر ناصر
فرجت بحالي هم من خضاقه	وزاوله الهم الطروق المساور
وكان له فضل على بطنه	في الخير إني للذي ظن شاكر

## حول السيرة المحمدية

سبق أن نشر الأستاذ الكبير وجدى بك كتب النبي صلى الله عليه وسلم الى ملوك أهل زمانه وما كان لها من أثر لدى أولئك الملوك ، ثم كر على ذلك باستبعاد ما كان من ملوك النصرانية من تقارب هرقل وقوله لأبي سفيان : فان كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أعلم أنه منك الخ ، وما كان من المقوقس من قوله : وقد علمت أن نبيا قد بقي ، ومن إسلام النجاشي بالفعل ، استبعد كل ذلك بل جملة في حين غير المعقول ، بحجة أن هؤلاء الملوك كانوا متمسكين بدينهم أشد تمسك ، وأنهم كانوا يعتقدون حتم ديانتهم بتجسد الابن واقتدائه البشر الخ .

فرددت عليه أولاً بأن هذه الاخبار قد رواها أصحاب الصحيح كالبخاري فلا يصح تكذيبها بمجرد الاستبعاد ، لا سيما إذا كان ذلك الاستبعاد لم يقيم على أساس . وثانياً بأن هؤلاء الملوك كانوا على ذكر من أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وأوردت له نصوصاً كثيرة من كتبهم ، ومن القرآن الذي نزل في مواضعهم ، تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مبشراً به في كتبهم ، وأنهم كانوا على علم بأمره . فلاحظ على حضرة الأستاذ جملة ملاحظات أعتقد أنها غير كافية لإقناعي ولا لإقناع أحد من الناس بوجهة نظره . ذلك أنه ترك بعض الأدلة من غير رد كالدليل الذي سقته من التوراة ، وأقول بعض الأدلة تأويلاً لا يمكن قبوله بحال من الأحوال كآية « ولتحدث أقرهم مودة فدين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى » الى آخر الآية ، فانه جعل أولها في حق النصارى وآخرها في حق المسلمين ، مع ما يلزم على ذلك من تشييت مرجع الصائر واحتلال نظام الآية مع أن الآية مسوقة مساقاً واحداً لبيان حال النصارى بالنسبة الى المسلمين بعد أن بيست حال اليهود والمشركين بالنسبة اليهم . وأراد أن يتخلص من تكذيب البخاري يدعى أن ما كذبه هو القطعة المروية عن ابن الناطوري وهو ليس بثقة عند أحد من الناس ، مع أن قصة هرقل مع أبي سفيان ليست مما رواه ابن الناطوري بل هي مروية عن أبي سفيان . وأنا في ردى عليه لم أعرج على ما رواه ابن الناطوري ، كما أنني لم أزم أن هرقل قد أسلم ، والقطعة التي رواها ابن الناطوري لا تدل على إسلام هرقل .

ولما كان هذا الموضوع من الخطورة بمكان ، وكأني حسرة الأستاذ الكبير من الاحترام والتقدير عندنا وعند كل من يقرهون له بمكان ، وكان الكتاب المزمع إخراجه في هذا الموضوع من الأهمية بمكان ، وكان يهمننا جداً أن يخرج هذا الكتاب سايماً كاملاً غير منقوص ، بعيداً عن الشوائب والشبه التي توجب الاعتراض بل الامتناع ، وخالياً من

الآراء الخداج حتى يعم النفع به ويؤدي الى النتيجة المرجوة منه إن شاء الله تعالى؛ لذلك كله رأيت أن أعود الى الكتابة في هذا الموضوع ببسط أوسع، وبأدلة أكثر وبيان أوفى؛ وقبل أن أحوض في الموضوع أرى زاماً عليّ أن أشكر الأستاذ ما يبذله من جهد في خدمة الدين الاسلامي، وأن أسأل الله تعالى أن يسدّدنا جميعاً ووفقنا لخدمة هذا الدين الحنيف الذي نام عنه أهله وهم في أشد الحاجة اليه، بل أعرضوا عنه، وإنما يرضون عن عزيم ومجدهم بل حياتهم «لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم، أفلا تعقلون».

ولما كان ثم ما يدور عليه البحث في هذا الموضوع هو: هل كان المسيحيون يعترفون أن ديانتهم قد تمت بتجسد الابن كما يقولون، وأن من المستحيل مجيء نبي آخر بعد عيسى عليه السلام، أو أن الأمر بالعكس وأنهم كانوا هم واليهود أيضاً يعترفون بمجيء نبي آخر؟ فانه إذا ثبت هذا الشق الأخير كان من المعقول والمقبول ما حكى عن ملوك المسيحية من إصرار النجاشي الى الاسلام، وتقارب هرقل وقوله ما قال، ومجاملة المقوقس وقوله ما قال، بخلاف ما إذا كانوا على اعتقاد تام باستحالة مجيء نبي آخر، فان الأمر يشكل حينئذ، ومجيء قاعدة علم النفس وعلم الاجتماع، ويكون من المعقول ألا تتغير أفكار هؤلاء الناس دفعة واحدة، بل يحتاج الأمر الى محاربة طويلة.

لما كان الأمر كذلك رأيت أن أبدأ بهذا الأمر الذي هو بيت الفصيد مما يدور اختلافنا عليه، وسأسوق من الأدلة والوقائع المحسوسة ما يدل دلالة قاطعة على أن اليهود والنصارى كانوا على علم تام بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، مع ذكر ما أورده الأستاذ ودفعه:

١ - ورد في إنجيل يوحنا إصحاح ١٦ : ٨ : لكنني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتاكم الممرى، ولكن إن ذهبت أرسله اليكم، وحتى جاء ذلك يبكى العالم على خطيئته الخ.

وورد فيه أيضاً إصحاح ١٦ : ١٢ : إن لي أموراً كثيرة لأقول لكم ولكن لا أستطيعون أن نمثلوا الآن، وأما متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم الى جميع الحق.

فهانذا آيتان من كتاب مقدس عظيم، صريحتان كل الصراحة في أنه سيأتي رسول بعد عيسى عليه السلام، بدليل قوله: إن ذهبت أرسله، وفي أن شريعتهم لم تكن قد تمت بعيسى عليه السلام، بدليل قوله: ولكن لا أستطيعون أن نمثلوا الآن، وفي أن تمامها سيكون على يد ذلك الرسول المنتظر، بدليل فهو يرشدكم الى جميع الحق، بل وتدلائل فوق ذلك على أن الرسول الآتي خير وأفضل من عيسى لأنه جعل انطلاقه الذي يترتب عليه مجيء ذلك الرسول خيراً لهم، ولا يعقل ذلك إلا إذا كان الآتي خيراً من الذاهب، وجعل تمام الشريعة على يده، وفيه إشارة يفهما ذوو الألباب الى هذا.

هذا الفهم الذي ذهبنا اليه يكاد يكون في مستوى البدهيات ، والخلاف فيه لا يعدو أن يكون مكابرة لا نسمع . ولكن الأستاذ لم يرض هذا الدليل دليلا ، فإنه قال : « وما استشهد به فضيلة الأستاذ من إنجيل يوحنا وعده علماؤنا تبشيرا بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فإنهم ينكرون أن المقصود به محمد ويقولون إن المقصود به روح القدس ، وهو الأفتوم الثالث من الأفتايم الثلاثة في شريعتهم ، وقد أجمعوا على ذلك من أول عهدهم بالنصرانية الى اليوم » .

هذا هو الرد الذي رد به الأستاذ الذي يريد أن يبقى السيرة المحمدية مما علق بها من الأساطير الخيالية ، فقل لي برك ما هو الأفتوم الثالث الذي سيرسل بعد عيسى عليه السلام ويكون خيرا من عيسى وبين لهم كل شيء ويبيكت العالم ؟ هل هو رجل يمضى على رحلين ويتكلم ويحتج ويبيكت ويبين ويرشد ؟ وهل أرسل ذلك الأفتوم ، صلى الله عليه وسلم ، ومتى وإلى أى جهة ، وأين شريعته الجديدة التى هى أوفى من شريعة عيسى عليه السلام بنص الانجيل ؟ أنا أخطب الأستاذ الذى يريد أن ينفى ما لا دليل عليه ، فهل يرى أن هذه التأويلات ليست مما لا دليل عليه حتى يعول عليها فى رده ؟ وهل كان هرقل صاحب العلم الواسع والعقل الراجح يعتقد بمثل هذه الأساطير ؟

وهل تأخذ من إيراد الأستاذ هذا الجواب مع السكوت عنه أن الأستاذ يرى أن عيسى عليه السلام جاء بالتثليث لأن هذا لازم قولهم بالأفتايم الثلاثة لأول عهدهم بالنصرانية ، لأنهم فى أول عهدهم بالنصرانية لم يكن عندهم إلا ما تلقوه عن المسيح عليه السلام مباشرة ، فكيف يقال إنهم كانوا يقولون بالتثليث فى ذلك الوقت إلا بهذا الاعتبار ؟ أما نحن فنعتقد أن هذا محض احتلاق من متأخري النصارى ، وأن عيسى عليه السلام ما جاء إلا بالتوحيد الخالص ، شأنه فى ذلك شأن بقية إخوانه من الأنبياء والمرسلين ؛ قال الله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى » الآية ؛ وحاشى لتسديد المسيح عليه السلام أنه يقول بالتثليث وهو القائل كما فى إنجيل يوحنا إصحاح ١٧ : ٣ : وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحق بى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته . أليست هذه الآية نصا فى التوحيد بأبلغ وجه ؟ أليست مساوية فى المعنى لكلمة الشهادة عندنا ( لا إله إلا الله محمد رسول الله ) ؟ وفى إنجيل يوحنا أيضا إصحاح ٨ : ٤ : وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذى سمعته من الله . أما التوراة فتكاد تكون كلها توحيدا ، وقد قرر التوحيد فيها بأشد ما يتصوره العقل ، وقد وصف الإله فيها بأنه إله غيور وبأنه ماركه الخ ، فكيف يسوغ أن نترك ما أجمعت عليه كتبنا وكتبهم ودلت عليه بدهاة العقل ونذمى إجماعهم على القول بالتثليث من أول عهدهم بالنصرانية ؟ أنا أشك فى أن ذلك مذكور عندهم الى أمد حدود الشك . وأين ذكر ذلك الإجماع وما سنده ؟ نعم يوجد فى الانجيل التعبير بالابن والاب

بكثرة ، ولكن الإنجيل نفسه حل هذا الإشكال ، ففسر الابن المظيع والاب بالمطاع ، ولم يخصه بمسمى عليه السلام بل أطلقه على الكل ؛ ففي الإنجيل : أتم أنشاء الله لأنكم تعبدون الله ، وأما أولئك الذين يعبدون الشيطان فإنهم أنشاء الشيطان . وتكرر التعبير بأبؤكم الذي في السماء ؛ وهذا تعبير سائغ على حد قولنا : فلان هذا ابن الطريقة الشاذلية ، وابن الحانة ، إذا كان ملازماً لها .

٢ — ورد في النوراة إصحاح ٣٣ : ٩ تشية : جاء الرب من سينا وأشرق لهم من سمير وتلاً من جبل فاران . وفاران هذا أحد جبال مكة ، بدليل ما ورد في النوراة نفسها إصحاح ٣٩ : ٢٠ تكوين بمدد بيان قصة اسماعيل وأمه هاجر . وكان الله مع الخلام فكبر وسكن في البرية ، وكان ينمو راعي قوس ، وسكن في بركة فاران . ولا يخالف أحد في أن ابراهيم إنما ذهب بابنه وزوجته هاجر الى نطحاء مكة .

وقد سكت الأستاذ عن هذا الدليل فلم ينتقده بشيء . وليت شعري ماذا عسى كان قائلاً فيه ؟ أقول . إن الأقسام الثالث راح الى مكة وسكن في بركة فاران ؟

وهناك أدلة كثيرة منورة في كتب المهدين لا داعي لذكرها وإنما نضيق اليها إجمالاً .

٣ — من ذلك اختلاف بني اسرائيل لما سمعوا قول عيسى عليه السلام هل هو الذي أو المسيح ؟ فقال بعضهم : هذا بالحقيقة هو النبي ، وآخرون قالوا : هذا هو المسيح . إصحاح ٧ : ٢٩ يوحنا . فهذا يدل دلالة قاطعة على أنهم كانوا ينتظرون المسيح والنبي عليهما الصلاة والسلام ، ومثل ساقم لهم نبياً مثلك من بين بني إخوتهم وأجمل كلامي في هذه الخ . وقد أشار القرآن في مواضع كثيرة جداً الى وجود هذه البشائر في كتبهم وأنهم يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم حق المعرفة .

٤ — قال الله تعالى : « ورحمتي وسعت كل شيء » ، فأكتبها الذين ينقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في النوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، الآية . أليس هذا يفيد أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان معلوماً عندهم ؟ انظر الى قوله تعالى : « الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في النوراة والإنجيل » فالواو في قوله يجدونه راجع الى أهل الكتاب لا الى المسلمين ، فهل يصح بعد هذا أن يقال : « أما أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بشر به في النوراة والإنجيل فصحيح ولكن ليس الممول على إيماننا نحن بذلك وإنما الممول على إيمان أصحاب تلك الكتب به ، وقد دل تاريخ الدعوة الإسلامية على أنهم لم يؤمنوا به » ؟ فما هو ذلك التاريخ الذي دل والقرآن نفسه ينادي بأنهم يعلمونه حق العلم ويجدونه مكتوباً عندهم في كتبهم ؟ فإن أراد الأستاذ بقوله : وقد دل التاريخ على أنهم لم يؤمنوا به ، إن أراد أنهم لم





## حول هذه الملاحظات

حفر بعض ما كتبت فيما يتعلق بما روى عن هيرقل والمقوقس وعن النجاشي ، فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد الله يوسف الحنفي إلى إبداء ملاحظات عليه ، وقد أجيبت فضيلته بما اعتقدته فاصلا في الخلاف الذي شعر به ، ولكن لم يقتنع به ، وبعث إلى بملاحظات عليه اضطررت إلى شطرها للأسباب التي قدمتها ، ولم أبدأ من التعقيب على الشرط الأول منها . وإنني قبل أن أبدأ ما أنا سبيله مما تصدبت له أشكر فضيلته على ثماته الطيب ، وتقديره الجليل ، راجيا الله أن يحزيه عليهما الجزاء الأوفى .

ونعد ، فإن كل مسألة خلافية إذا لم توضع وضعا محسدا من بساط البحث ، يتشعب الكلام عليها ، ويطوح بالمتناظرين إلى مواضيع جديدة ، يصحح منها الوصول إلى نهاية حاسمة في الموضوع الأصلي متعذرا .

لذلك رأيت أن أحاول وضع المسألة التي تشغلنا موضعها ، بحيث يتناولها البحث ولا يمر إلى غيرها .

أصل الخلاف : أتى ارتبت فيما رواه البخاري عن حشد هيرقل لأهل دولته وعرضه الاسلام عليهم فوجوه التي ذكرتها .

فلاحظ على فضيلة الأستاذ بأن روايات البخاري لا يجوز استبعادها بمجرد الظن .

فبيئت لفضيلته أن هذه الرواية ليست مسندة إلى الرواة الذين يذكهم البخاري ، ولكنها مسندة إلى ابن الماطور وهو ليس بثقة عند أحد .

وارتبت أيضا في إسلام النجاشي ، وإعلانه الاسلام في وسط أمة متمصبة لدينها ، واستبعدت أن يكون كذب الجواب المروى عنه في كتب السير .

فلاحظ على فضيلة الأستاذ بأن إسلام النجاشي رواه البخاري ، وقد صلى عليه النبي بعد موته صلاة الغائب .

فدفعت ذلك بأن ذلك النجاشي الذي صلى عليه النبي ، قد يكون مجاشيا غير الذي أرسل إليه الكتاب ، أسلم وأخفى إسلامه لتعذر إعلانه ، واستدلت على ذلك بأن البخاري لم يذكر أنه صاحب الكتاب ، وأن مسلما تليذه صرح بأن صاحب الكتاب غير الذي أسلم ، فلا يبقى للجواب الذي تشككنا فيه موجب .

وشككت في كتاب المقوقس ، وقلت إنه كلف مسيحيا ، وأن المسيحيين ما كانوا ينتظرون رسولا .

فلاحظ على فضيلة الأستاذ بأن النصارى كانوا ينتظرون رسولا بعد عيسى ، بدليل ما ورد في الانجيل من التبشير به ، وأن اليهود كانوا ينتظرون نبيا ، بدليل ما ورد في التوراة من ذلك أيضا .

فرددت على ذلك بأن النصارى فهموا من الانجيل بأن المبشر به فيه هو روح القدس ، وأن اليهود كانوا يتوقعون ظهور نبي ، فلما أرسل محمد صلى الله عليه وسلم من العرب كفروا به لأنهم كانوا ينتظرون أن يكون إسرائيليا .

فلاحظ على بأن ذلك يخالف ما نص عليه القرآن .

فأجبت بأننا إنما نحكي فهمهم ثم لا فهمنا نحن .

\*\*\*

هذا هو الوضع الأصلي لهذه المسألة . ولما نُشرت ملاحظات الاسناد ونُشر ردنا عليها ، أتناها من فضيلته ما يرى القراء الشرط الأول منه هنا . وهما نحن نعقب عليه إحقاقا للحق ، لا إيناراً للحدل :

قال فضيلته ما خلاصته : ولما كان أم ما يدور عليه البحث هو : هل كان المسيحيون يمتقدون أن ديانتهم قد تمت بتجسد الابن كما يقولون ، وأن من المستحيل محيى نبي آخر بعد عيسى ، أم كانوا هم واليهود ينتظرون محيى نبي آخر ؟

ثم ساق فضيلته من الأدلة ما نقله عن انجيل يوحنا من أن المسيح داهب ، وأنه سيرسل إلى قومه بن مسماء المزني وروح الحق ليرشدكم إلى كل الحق .

ونشدد فضيلته في دحض ما قلناه من أن النصارى إنما يمتقدون أن المسيح بشرهم بمحيى روح القدس وهو الآقنوم الإلهي الثالث في عقيدتهم ، لا يرسل رسول كما نفتقد نحن .

وبالغ فضيلته في التشديد حتى قال : « هذا الفهم يكاد يكون في مستوى البدهيات ، والخلاف فيه لا يبدو أن يكون مكابرة لا نسمع ، ولكن الأستاذ ( يعني أنا ) لم يرتض هذا الدليل دليلا . فانه قال : وما اشتهد به فضيلة الاسناد ، وعده علماءنا تبشيرا بالبي صلى الله عليه وسلم ، فانهم يشكرون أن المقصود به محمد ، ويقولون إن المقصود به روح القدس ، وهو الآقنوم الثالث من الآقنوم الثلاثة في شريعتهم ، وقد أجمعوا على ذلك من أول عهدهم بالنصرانية إلى اليوم » .

ثم قال فضيلته :

« هذا هو الرد الذي رد به الأستاذ الذي يريد أن ينق السيرة المحمدية مما علق بها من الأوهام والخرافات ، فقل لي يربك ما هو الاقسام الثالث الذي سيرسل بعد عيسى عليه السلام ويكون خيرا من عيسى الخ » .

ثم قال فضيلته محمدا :

« أنا أخطب الأستاذ الذي يريد أن ينق الاساطير الخيالية ، فهل لا يرى أن هذه التأويلات أساطير خيالية ، حتى يعول عليها في رده ( كذا ) ، وهل كان هيراقل صاحب العلم الواسع ، والعقل الراجح ، يعتقد بمثل هذه الاساطير ؟ وهل نأخذ من إيراد الأستاذ هذا الجواب مع السكوت عنه ، أن الأستاذ يرى أن عيسى عليه السلام جاء بالتثليث ( كذا ) » .

أقول إني متأسف كل الأسف أن يفهم فضيلة الأستاذ مما ذكرته أنني أقر اليهود والنصارى على ما فهموه من كتبهم ، بعد أن قلت في السطر الثامن عشر من الصفحة ( ٥٠١ ) :

« أما أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بُشر به في التوراة والإنجيل فصحيح ، ولكن ليس المعمول على إيماننا نحن بذلك ، وإنما المعمول على إيمان أصحاب تلك الكتب به » .

فأنا مجرد ناقل لمذهبهم لا مثبت له ، والنقل عن الخصوم سنة منسوبة ، لا تستوجب أية تبعه . وإذا كنت نقلته ولم أفتده فلا شيء كنت في مقام نسبته إليهم ، لا في مقام مناقشتهم فيه . وإني لأجل أن أثبت فقراء بأن ما ذكرته مما نسبته نحن بشاره بالنبي صلى الله عليه وسلم ، هو ما ذكرته عن فهم المسيحيين له ، أنقل لهم ما كتب في دائرة المعارف الكبرى للاروس وهي أكبر موسوعة علمية ، قال :

« إن كلمة ( باراكليت ) هو الاسم الذي أطلقه يوحنا صاحب الإنجيل الرابع على الروح القدس .

« لباراكليت في المذهب اليوحائى شأن عظيم جدا . فإن الكلمة الإلهية بعد أن تجسدت وأدت حملها ( يريد عيسى ) ، وعادت الى جوار أبيها ، تركت لحواريين المذونين المعرئ العظيم الشأن ، وهو الباراكليت الذي كلف بأن يتابع الى آخر الدهر العمل الذي بدأت به الكلمة الإلهية ، وكان قد وعد عيسى حواريه وهو يعلم الروح بإرساله إليهم بقوله : « سأرسل لكم الباراكليت » .

« ويوحنا صاحب الإنجيل الرابع هذا ، يمثل الباراكليت تارة على شكل شخص متميز ، وتارة - ولكن كان هذا منه نادرا جدا - على حالة قوة ، على مثال ما فعل الانجيليون الثلاثة الآخر . ولكن في تلك وفي هذه الحالة قرر يوحنا أن الباراكليت تابع للأب وللابن .

« وبما لا شبهة فيه أن الكنيسة قد اعتمدت على هذا الانجيل الرابع ، وأخذت منه الصورة الأولية لعقيدة التثليث . فالكلمة صارت بقدره إلهًا مثل الأب ؛ وكذلك الباراكليت الذي يمثل في هذا الانجيل اتصال الكلمة بالمؤمنين ، قد صار إلهًا أيضًا كالأب والابن .

ثم ختمت دائرة المعارف هذا الفصل بقولها :

« وقد أهملت الكنيسة كلمة باراكليت الآن ، وصار الشخص الثالث للثالوث المسيحي في كل صقع مسمى بروح القدس » انتهى .

وبحق لا نورد هذا هنا لأننا نعتقد ، أو نزيد المناقشة فيه ، ولكننا نورد له ليقنع القراء بأننا فيما قلناه ، حكمنا لم عقيدة النصارى على ما هي عليه في الواقع .

أفلا تعجب من أن الانجيلي يوحنا الذي استشهد فضيلة الأستاذ بقوله ، كان بسبب تصويره روح القدس شخصًا متميزًا ، خلافاً لإخوانه الانجيليين ، حجة للنصارى في القول بالتثليث ؟ وما داموا قد أجمعوا على القول بالتثليث على هذا النحو قبل البعثة المحمدية بقرون كثيرة ، وعلى القول بأن المعزى المذكور هو أحد أقايم هذا التثليث ، وأنه قد أرسل لهم فعلاً وتولاهم بعد عيسى مباشرة ، وكُلف بتوليهم إلى يوم القيامة ، فقد ثبت قولي إن النصارى ما كانوا ينظرون رسولاً بعد عيسى . وهذا لا يمنع أننا نعتقد أنهم لم يكونوا على حق من هذا التهم ، وأن المقصود بباراكليت في إنجيلهم قد يكون النبي صلى الله عليه وسلم ، فصرفوه على الروح القدس ، وتحلوا بذلك من انتظار خاتم المرسلين .

لماذا سكنت عن تفنييد البشارات بالنبي صلى الله عليه وسلم ؟

الجواب : سكنت عن تفنيدها لأنني أعتقد صحتها ، كما أعتقد فضيلة الأستاذ !

بما عجبت له من ملاحظات الأستاذ ، أن فضيلته بعد أن أتى بالبشارة الواردة في الانجيل ٣٣ من سفر التثنية في التوراة قال :

« وقد سكنت الأستاذ ( يعني ) عن هذا الدليل فلم ينتقده بشيء ، ولبت شعري ماذا عسى كان قائلاً فيه ؟ أيقول إن الانجيلي الثالث راح إلى مكة وسكن في بيرة قاران الخ » ؟

قال فضيلته هذا كأنني قد كذبت بوجود بشارات في التوراة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد قلت في السطر ( ١٨ ) من الصفحة ( ٥٠١ ) . « أما أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بشر به في التوراة والانجيل فصحيح ، ولكن ليس المعول على إيماننا نحن بذلك ، وإنما المعول على إيمان أصحاب تلك الكتب به » ، ولست أعلم أن من يصرح هذا التصريح ويكرره في مقالة واحدة يصح أن يوجه إليه مثل هذا السؤال .

ولما انتهى الى قولي : « وقد دل تاريخ الدعوة الاسلامية على أنهم لم يؤمنوا به » أي بأن هذا تبشير بمحمد ، قال فضيلته : فما هو ذلك التاريخ الذي دل ، والقرآن نفسه ينادي بأنهم كانوا يعلمونه حق العلم ، ويجدون مکتوبا عندهم في كتبهم ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ؟ أقول : أما أنهم لم يؤمنوا به فقد دل عليه القرآن نفسه لا التاريخ وحده ، فقال تعالى : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » . وأما أن كثيرا من أخبارهم وفسادهم كانوا يعرفون أنه رسول ، مستدلين على ذلك بما كان مکتوبا عنه في النوراة والانجيل ، وما شاهدوه من حاله من دلائل النبوة ، فلما لاشك فيه . فأسلم نفر منهم ، وأصر الباقون على عنادهم ، زاعمين أن هذه البشارات لا تعنيه ، حرصا على مكائدهم أن تضع : فانقادت لهم الجماهير ، وهم أطوع إليهم من ظلالهم ، وهي طاعة ذمها الله تعالى في قوله : « اتخذوا أخبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » لا بمعنى أنهم كانوا يعبدونهم ، ولكن بمعنى أنهم كانوا يصدقونهم تصديقا مطلقا ويطيعونهم .

يخلص من هذا أن الذين نزل بهم قوله تعالى : « الذين آتيناكم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » ، كانوا قلة يمكن أن تتواطأ على الكتمان والعناد ، وعلى حل من دونها على الانكار والإصرار تقليدا لها . ودليل على ذلك أن قبائل اليهود التي غزاها النبي صلى الله عليه وسلم كانت تؤثر الجلاء وترك المال والصلاح ، وتخرج بأجسادها مهاجرة الى حيث تتعرض لكل ما يتصور من رذايا العاقبة والاغتراب ، على أن تعترف بالاسلام ديننا وبمحمد رسولا . وقد آثر بنو النضير القتل ، وكانوا ثمان مئة ، على أن يدخلوا في الاسلام .

فما الذي كان يمنع هؤلاء إذا كانوا يعرفون أن النبي صلى الله عليه وسلم رسول كما يعرفون آبائهم ، أن يسلموا به وقد انتهوا الى حيث لا يدع للإصرار والعناد محلا ؟ وإذا سلمنا جدلا بأن قصة هيراقل صحيحة ، وأنه جمع أكبر دولته وعرض عليهم الاسلام ، ألم تر أنهم كما روى عنهم « حاصوا حيصة حر الوحش » ، وتذافعوا الى أبواب المدينة منكرين صاخبين ؟ ولو كان هؤلاء يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم كما يعرفون آبائهم أما كانوا آمنوا به ؟ ليس من السنن الإلهية في النفوس البشرية ، أن يعرف قوم بأسرهم صحة نبوة نبي كما يعرفون أبناءهم ثم يصرون على عدم الإيمان به ، لأن ما يصدق على النفر القليلين من أصحاب الزعامة من النواطذ على العناد والانكار ، لا يصدق على ملايين من الناس ليس لهم فائدة من وراء ذلك السداد والإصرار ، وخاصة على مدى قرون طويلة ، فان تلك البشارات في النوراة والانجيل لا تزال باقية على ما كانت عليه بكل لغة الى اليوم .

لذلك قلت : إن أهل الكتاب لم يؤمنوا بأن المقصود من تلك البشارات النبي صلى الله عليه وسلم ، فكيف يتفق هذا وما لطق القرآن من أن أهل الكتاب كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ؟

إذا رجعنا إلى الآية التي وردت فيها هذه العبارة ، أمكننا أن نفهم موضوعنا على وجه يثابح عليه الصدر ، ولا يقتضى مع الحوادث وسنن الكون ، قالك :  
 قال الله تعالى : « قل أي شيء أكبر شهادة ، قل الله شهيد بيني وبينكم (الخطاب للمشركين) ، ووحى إلى هذا القرآن لأبديكم به ومن يبلغ ، أنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ، قل لا أشهد ، قل إنما هو إله واحد ، وإنني بريء مما تشركون . الذين آتيناكم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » .

سبب نزول هذه الآية أن رؤساء أهل مكة قالوا : يا محمد أما وحد الله غيرك رسولاً . وقد سألنا اليهود والنصارى عنك ، فزعموا أن لا ذكر لك عديم النبوة ؛ فأرسل الله تعالى هذه الآيات . ( الرازي من ٢٢ ج ٤ ) .

الآية ناصة على أن اليهود والنصارى كانوا يعرفون أن محمداً رسول الله حقاً ، كما يعرفون أبناءهم . والمعرفة الاجتماعية بحال ، لأن شعبا برمته متى اعتقد شيئاً فلا توجد قوة في الأرض تستطيع أن تصرفه عنه ، فكان يدخل في الاسلام ضارباً بأقوال رؤسائه وبهم عرض الخاطئ .

ولكن الآية لم تمن على أن هذه المعرفة كانت بواسطة البشارات التي وردت عنه في التوراة والانجيل ، لأنها عبارات ملفوفة أشبه بالأحاجي ، أو العبارات التي يستعملها كتاب الجفر مدعين بها معرفة الحوادث التي لم تقع ؛ وهذه العبارات يمكن صرفها إلى نواح متعددة ، وأشخاص متعددين . وهما لا تزال باقية في التوراة والانجيل ولا تصادف يهودياً أو نصربانياً يعتقد أنها تعنى محمداً ، اللهم إلا إذا كان من أهل النظر والاستدلال .

وقد صرح إمام المفسرين الرازي بأن هذه البشارات لا تحصل لأصحابها معرفة بالشيء تعدل معرفتهم بأبنائهم ، فقال :

« المكتوب في التوراة والانجيل مجرد أنه سيخرج نبي في آخر الزمان يدعو الخلق إلى الدين الحق ، أو المكتوب فيه هذا المعنى مع تعيين الزمان والمكان والنسب والصفة والخلية والشكل ؟ فان كان لأول فذلك القدر لا يدل على أن ذلك الشخص هو محمد عليه السلام ، فكيف يصح أن يقال عليهم نبوته مثل علمهم نبوة أبنائهم ؟ وإن كان الثاني ( أي أنه مذكور بنسبه وصفته وحيثه ) ، وجب أن يكون جميع اليهود والنصارى حاليين بالضرورة من التوراة والانجيل بكون محمد عليه الصلاة والسلام نبياً من عند الله تعالى ، والكذب على الجمع العظيم لا يجوز ( أي أن صدور الكذب من أمة برمته لا يعقل ) ، لانا نعلم بالضرورة أن التوراة والانجيل ما كانا محتليين على هذه التفاصيل النامة السكامة ، لأن هذا التفصيل إما أن يقال إنه كان باقياً في التوراة والانجيل حال ظهور الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو يقال أنه ما بقيت هذه التفاصيل في التوراة والانجيل في وقت ظهوره ، لأجل أن التحريف قد نطرق إليهما قبل ذلك .

والأول باطل لأن إخفاء مثل هذه التفاصيل النامة في كتاب وصل الى أهل الشرق والغرب مجتمع . والثاني أيضا باطل ، لأن على هذا التقدير لم يكن يهود ذلك الزمان ، ونصارى ذلك الزمان ، طالين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم مثل علمهم بنبوة أنبيائهم ، وحينئذ يسقط هذا الكلام . والجواب عن الأول أن يقال : المراد بالذين آتيناهم الكتاب ، اليهود والنصارى ، وهم كانوا أهلا للنظر والاستدلال ، وكانوا قد شاهدوا ظهور المعجزات على الرسول عليه الصلاة والسلام فعرفوا بواسطة تلك المعجزات كونه رسولا من عند الله .

مؤدى كلام الامام الرازى أن البشارات المكتوبة في التوراة والإنجيل ، لم تكن تفصيلية بحيث تؤدى حثا الى الايمان بمحمد عليه السلام بدون اشتباه ، وبما أن القرآن يقرر بأن أهل الكتاب كانوا يعرفون أنه رسول كما يعرفون أبناءهم ، فيكونون قد حصلوا هذه المعرفة من ناحية اطلاعهم على ما أتى به من المعجزات ، لا اعتمادا على البشارات ، لأنهم كانوا أهل نظر واستدلال .

هذا رأى إمام المفسرين في قيمة تلك البشارات ، وهو لا يعدو الرأى الذى أبديناه .  
بقى علينا أن نعرف : هل مراد الكتاب أن جميع اليهود والنصارى كانوا يعلمون أن محمدا رسول الله ، وأنهم إنما تظاهروا بالكفر به بغيا وعنادا ؟

محال أن يكون هذا مراد الكتاب ، ومنزله سبحانه يعلم أن السواد الأعظم من الأمم ، وخاصة في ذلك العهد ، لا يجيلون في شيء نظرا إلا إذا كان يتعلق بمحاجاتهم المادية ، وأنهم كانوا في حياتهم العقلية والروحية حالة على رؤسائهم الدينيين ، حتى طابهم على ذلك وعدة عملهم هذا عبادة منهم لهم .

أما المقول فهو أن الذين كانوا يعرفون أنه رسول كما يعرفون أبناءهم ، عدد محصور يمكن توافيقهم على كتان الحق حفظا لمسكاناتهم المادية ، وأما الذين لم تساعد سلامة فطرتهم على هذا التوافق الايم فاعلنوا إيمانهم ودخلوا في جماعة المؤمنين .

هذا هو المقول . أما حدوث هذا التوافق من أمة برمتها ، فلم تجز به سنة الله من لدن أن خلق العالم الى اليوم .

وبما يدل على أن الايمان بالنبي صلى الله عليه وسلم بواسطة البشارات ، لم يكن سهلا على العامة ، تاريخ إسلام كعب الاحبار وهو من أعلام بني إسرائيل فإنه لما دعا رسول الله للإسلام ، فكر في هذه الدعوة ، ونظر وبحث ، فرجع أن القائم بها رسول ، فكان يحضر بحالسه ولكنه لم يسلم حتى يتحقق من صحة علاماته . ولما أتى صلى الله عليه وسلم وخلفه أبو بكر ، صحبه كعب الاحبار ، ولكنه لم يسلم لعدم استيفائه ما يقنعه ، ولما مات الصديق وخلفه عمر ،

صحبته كعب الاحبار ، ولكنه لم يسلم أيضا ، فلما مات عمر وخلفه عثمان ، صلبه كما صلب سلفيه ، ولكنه خشي أن يدركه الموت قبل أن يعلن إسلامه ، فأسلم واندمج في زمرة المؤمنين .

فإذا كان رجل مثل كعب يحتاج الى كل هذه السنين لتحصيل العقيدة بصحة نبوة الرسول ، فمضى ذلك أنها كانت تحتاج الى نظر واستدلال وثبوت ، وأين هذا كله من العامة ؟ يخلص من هذا أن قصد القرآن من قوله إن أهل الكتاب كانوا يعرفون النبي كما يعرفون أبناءهم ، تلك الطائفة القليلة التي يمكن توافؤها على السكتان والإنكار .

وعليه فإن ما قلناه من أن اليهود والنصارى لم يؤمنوا بأن تلك البشارات كان المقصود بها محمداً صلى الله عليه وسلم ، صحيح لا غبار عليه .

ولم نذهب بعيداً ، أليست تلك البشارات موحدة في كتب اليهود والنصارى الى اليوم ؟ فهل يفهمون منها في قرارة نفوسهم أنها واردة في النبي صلى الله عليه وسلم وينكرون ذلك بأنفوسهم ؟ لا يمكن أن يقول بهذا أحد . ومع هذا فأننا لا أنكر أن من كبار مفكرهم من أدنهم هذه البشرات الى الايمان ، فأصبحوا يعرفون محمداً كما يعرفون أساءهم ، ولكنهم مراعاة لاعتبارات شتى يكتفون ما تأخروا إليه ، ولا يبوحدون به إلا لامثالهم .

ألا ترى أن اليهود والنصارى لو كانوا آمنوا بتلك البشرات ، لكان عدد الداخلين منهم في الاسلام يساوي على الأقل نسبياً عدد الداخلين فيه من ملل أخرى ؟ أهلا تعجب أن الذين دخلوا فيه من أصحاب هاتين الملتين وقد وجدت تلك البشرات في كتبهم ، أقل كثيراً جداً من دخل فيه من أصحاب الملل الأخرى التي لم تأت مثل تلك البشرات في كتبهم ؟

السبب واضح ، وهو أنهم لم يؤمنوا بأن تلك البشرات قد قصد بها محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنها كما يقول الامام الرازي غير مفصلة ولا نامية ، فإذا كان منهم من كانوا يعرفون محمداً كما يعرفون أبناءهم ، فقد كان من تأثير الآيات والمعجزات التي صحبت مجيئه ، وأما أزيد على ذلك بأن الأحوال والمجاهريات التي أحاطت بحياته ، دلت الكثيرين من اليهود والنصارى على أنه رسول فعرفوه كما كانوا يعرفون أبناءهم ، ولكنهم آثروا التواطؤ على السكتان ، والعيش منعمة بين سلطانهم ، على المجاهرة بالحق وتحمل عبء الحياة الصالحة ، والتعرض لما زامها كما تعرض لها الأنبياء والصالحون والشهداء .

إن غرضنا من هذا كله أن ننفي عن السيرة النبوية كل ما يثير أعاصير الجدل ، مكثفين بالمسمات من الحجج ، وبالقررات من البينات ، وهذا أفضل في التأثير من الاستكثار مما يهيج المازعات ، ويدهو الى المناظرات ؟

محمد فرير وجرى



## بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتَاوَى

### فِي الرِّضَاعِ

ورد إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر استفتاء من حضرة السيد عبد الفتاح إبراهيم ينلخص فيها يأتي :

ادعت امرأة إرضاعها لبنت معها ، وهي أخت زوجها ، رصعات كثيرة على أحد أولادها المرزوفة بهم منه ، ثم رزقت بمولود آخر لم ترضع عليه ، ثم إن الرضیعة رزقت بابة لها ، فأراد المولود الثاني من المرأة المدعية الارضاع الزوج بهذه البنت - إلى أن قال المستفتي : ولا عدل هنا بهذه الدعوى لعدم توفر أسباب العدالة المعروفة لنا ، وتقر بذلك هذه المدعية . وقد خالفت قولها أثنى أخرى تثبت إرضاع وتربية هذه البنت لمدة ثلاثة أعوام ، وأما هي المربية لها والمرضة الوحيدة لها المدة المذكورة ، وأسكرت دعوى المدعية الأولى وقولها . وطلب المستفتي بيان الحكم في هذه المسألة على المذاهب الأربعة .

#### الجواب :

أن الرضاع لا يثبت عند الأئمة مالك والشافعي وأبي حنيفة بقول امرأة واحدة ولو تواترت فيها شروط العدالة ، وكذلك في إحدى الروايات عن الإمام أحمد بن حنبل . وفي رواية ثانية عن الإمام أحمد أن الرضاع يثبت بقول امرأة واحدة إذا كانت مرضية ؛ وبما أن المرأة التي في الاستفتاء ليست مرضية بل صرح فيه بأن العدالة ليست متعققة فيها ، فعلى هذه الرواية أيضا لا يكون الرضاع محرما عند الإمام أحمد . وفي مذهب الإمام أحمد رواية ثالثة أن الرضاع يثبت بقول امرأة واحدة وتستحلف ، ولكن هذه الرواية ضعيفة فلا تعمول عليها .

وبناء على ما تقدم : تنفى اللجنة بأن الرضاع المذكور في السؤال لم يثبت شرما ، ولا بأس بأن يتزوج الابن المشار إليه في الاستفتاء بالبنت المشار إليها كذلك . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف النعمان

# حياة إحياء الأئمة

أبو بكر الصديق

- ٩ -

امتنع اليمين

أرهب ساعة في تاريخ الاسلام ، بل في تاريخ الوجود ، ساعة أظلم فيها السكون ، وأسدل على الحياة رداء من الحزن الباخع ؛ تلك هي الساعة التي ودع فيها المصطفى سيد الوجود صلوات الله عليه هذه الحياة الى الرفيق الأعلى ، فانقطع لموته ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء قبله ، فطاشت من هول الخطب العقول ، وخرست الألسن ، وصمت الآذان ، وغارت الأبصار ، واختلجت البصائر ، وانحلت القوى ، وذرق قرن التمر ، وانقطع وارد الخير ، ومنع خير السماء ، وأظلمت الدنيا في وجوه المؤمنين ، واشترأت أعناق المنافقين ؛ روى أبو عبد الله القرطبي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أصاء منها كل شيء ، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء ، وما تقضنا عن النبي صلى الله عليه وسلم الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا » .

يا لهول الحدث الجلل ! روح الحياة يفارق الحياة ؟ ثم يحيا الناس من بعده ؟ أي حياة هذه التي يحيونها ؟ إنها حياة العصب والدم واللحم ، وارتجت للمؤمنين ، فقدوا النور والخير ، والبر والرحمة ، ونزحت من بين أيديهم منافع العرفان والهداية ، وانقطعت صلة السماء بالأرض ، ولم يعد جبريل الأمين موثقاً بينهم ؛ روى ابن سعد في الطبقات : أن ملك الموت استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان معه جبريل الأمين ، فقال جبريل : « يا أحمد إن الله قد اشتاق إليك » ، انقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فامض يا ملك الموت لما أمرت به » ؛ قال جبريل : « السلام عليك يا رسول الله ، هذا آخر موثق من الأرض ، إني كنت حاجتي من الدنيا » ؛

أجل ، كان امتحاناً صعباً ، فوجى به المؤمنون فسئل أرواحهم من أبدانهم ، وخلع قلوبهم من صدورهم ، وأضنى عليهم الذهول والحيرة ، حتى أخذ صرير الخطاب بقائم سيفه وقال : « لا أسمع أحداً يقول : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا ضربته بسيفي هذا » ، والله ما مات رسول الله ، وإنما أرسل اليه كما أرسل الى موسى عليه الصلاة والسلام ، فلبث عن

قومه أربعين ليلة ! والله إنى لأرجو أن يقطع أيدي رجال وأرجلهم ! » فلم يقدر أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرد على عمر رضى الله عنه ، وذهبت بهم الحيرة كل مذهب ؛ فمن لم يمن يكشف عنهم هذا الكرب الفادح ، ويحمل معهم هذا العبء القاتل ؟ أين صاحب رسول الله ؟ أين الصديق ؟ أين عليم المؤمنين ؟ أين أوسع الناس إيماناً ؟ إنهم أخرج ما يكونون إليه في هذه الساعة المدممة ؛ وكان أبو بكر رضى الله عنه قد رأى من النبي صلى الله عليه وسلم نشاطاً فامتأذنه ليذهب إلى أهله بالسَّحَر من عوالم المدينة فأذن له ؛ وهذا في نظرنا يحمل في باطنه سرا من أسرار الصديقية كان بتدبير الله الحكيم ، فما كان الصديق الحبيب ليطلق أن يشهد ما شهد الله بين وتصوروا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشدة ، وما كان يستطيع أن يسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمة الوداع الإبدية ، وهو مذخور للمؤمنين يحمل عنهم ما يرزؤهم من فادح الخطب ، وكارث الأفداح ، فغيبه الله تعالى في تلك الساعة ليستنجم في صدره الإيمان حتى يلقي طائفة حب شخص النبي صلى الله عليه وسلم بجلائل العقل وجلال الإيمان ، ويرد على المؤمنين ما فقدوا من روحانيتهم ؛ قال ابن المنير : « لما مات صلى الله عليه وسلم عاشت العقول ، فمنهم من خبل ، ومنهم من أقعد فلم يطق القيام ، ومنهم من أخرس فلم يطق الكلام ، ومنهم من أضى ، وكان عمر من خبل ، وكان عثمان من أخرس يذهب به ويجه ولا يستطيع كلاماً ، وكان علي من أقعد فلم يستطع حراكاً ، وأضى عبد المطلب بن أبيس فات كذا ، وكان أثبتهم أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، جاء وعيناه تملآن ، وزفراته تتردد ، وغصصه تتصاعد ، فدخل على النبي صلى الله عليه وسلم فأكب عليه وكشف الثوب عن وجهه ، وقال : « طبت حيا وميتاً ، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء ، فعمقت من الصفة ، وجلت عن البكاء ، ولو أن موتك كان اختياراً لجئنا لموتك بالنفوس » ١

ثم خرج الصديق إلى المسجد ليميد للمؤمنين بمض شعورهم حتى لا يشغلهم فادح الخطب من مدلهيات الأمور ، فوجد عمر بن الخطاب أجزع الناس وهو يتكلم حتى أزيد شدقه ، يخلف أن رسول الله لم يموت ، فقال الصديق الأعظم : « على رسلك أيها الخائف ، أفسكت عمر ، وتكلم أبو بكر فقال : « ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » ثم تلا قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين » ، فتلهاها الناس من أبي بكر حين تلاها ، حتى قال قائلهم : والله لكان الناس لم يعملوا أن هذه الآية أنزلت حتى تلاها أبو بكر ؛ قال سعيد بن المسيب : إن عمر بن الخطاب قال : « والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها فعمرت وأنا قائم حتى خررت على الأرض ، وأيقنت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد مات » .

الله أكبر! أي رجل في بردى الصديق؟ وأي إيمان بين حنبيه؟ إن القلم ليعجز عن القول، وإلا فما عساه أن يقول؟ الصديق رفيق الغار، ومكر الالام، وأحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعرفهم بقدره، وأصدقهم في حبه، ورسول الله ملء قلبه وسمعه وبصره، ونور روحه، أترى هؤلاء الذين أصيبوا بما أصيبوا في صادق حزنهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يملفون معشار ما كان يتطوى عليه قلب الصديق من الحزن على فراق الحبيب؟ ولكنه امتحان الإيمان يحوز به الصديق ليمسوا إلى قيادة الأمة تندينا لما في رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الامام أبو عبد الله القرمطى عند تفسير آية «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل»: هذه الآية أدل دليل على شجاعة الصديق وجرأته، فإن الشجاعة والجرأة ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبي صلى الله عليه وسلم، فظهرت عند شجاعته وعلمه، قال الناس: لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم، منهم عمر، وخرس عثمان، واستخفى علي، واضطرب الأمر، فكشعه الصديق بهذه الآية.

ثبت الله المؤمنين براسخ إيمان الصديق، وسماهم إلى روحانية أكل، وإيمان أقوى، لانه إيمان لغتهم إلى مهمتهم، وإلى سر إيمانهم بهذا الحب للغامر الذي انطوت عليه جوانحهم للهي الأكرم صلوات الله عليه، حتى أصابهم ما أصابهم من هول صدمتهم بفارقة شخصه في هذه الحياة، إيمان لغتهم إلى هذه الرسالة المعطى التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتي من أجاها حاربوا المدو والصديق، وضجوا بالنفس والنفس، وطارقوا الأهل والوطن، وهذه الرسالة التي نزلت رحمة للإنسانية في جميع أقطار الأرض، ولكنها لم تنبغ في التبليغ مداها الذي قدر لها، فن يقوم على أداها بعد حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم غير أصحابه وتلاميذه الأعلام؟ وهل كان الإيمان بالرسالة المحمدية في صومها وختمها لثبوت حبسا على حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ هذا تساؤل يمليه واقع الحال، ويحبب عنه الصديق الأعظم بتلك الكلمة الخالدة القوية الباهرة القاهرة: ألا من كان يعبد عبدا فإن عبدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. معاداة المؤمنين سكيفتهم، وذكروا رسولهم بكاء أعز الأحباب، ولكنهم تمثلوا رسالته وأمانة تبليغها، وهنا يتحلى للمسلمين موقف يعجز القلم عن تصويره في قوة الإيمان وروح العقيدة.

ذلك أنهم ما كادوا يرون هدوء الصديق الأعظم وقوة يقينه وثباته وتذكيرهم بقانون الله تعالى في بشرية محمد صلى الله عليه وسلم، ويعلمون أن الله قد اختار لصفه ما عنده من تجليات القرب على ما عندهم، حتى وثبوا إلى مجالس الشورى، والنبي صلى الله عليه وسلم مسجى جسده الشريف في بيته، ليقوموا للمسلمين إماما يقودهم ويسوس أمورهم حتى يملفوا رسالة

نبيهم صلوات الله عليه ؛ فالانصار وهم عيبة النبي وكرشه الذين أيدوه ونصروه بأرواحهم رأوا أنهم أحقاء بهذا الامر ، والمهاجرون الاولون رأوا أنهم السابقون الذين حضوا الاسلام في مهده ، فهم أحق بأن يأخذوا بزمام الامر ، وكادت الفتنة تعود جزعة ، وكاد الاضطراب يتفاقم في أمر أخطر وأعظم ، ولكن الله تعالى الرحيم بهذه الامة اذ أخر لها صديق نبيا لينة لها من ما رزقها ، فسكا ثبتها في خطب إصابتها بنبيها فليثبتها في توجيه حياتها لاداء مهمتها العظمى .

خرج البخاري في الصحيح من حديث طويل : « اجتمعت الانصار الى سعد بن عبادَةَ في سقيفة بني ساعدة فقالوا منا أمير ، ومنكم أمير ، فذهب اليهم أبو بكر الصديق ، وحمز ابن الخطاب ، وأبو عبيدة بن الجراح ، فذهب حمز يتكلم فأسكته أبو بكر ، وكان حمز يقول : والله ما أردت بذلك إلا أني قد هيات كلاما قد أعجبني حشيت أن لا يباغى أبو بكر ، ثم تكلم أبو بكر ، فتكلم أبلغ الناس . وفي رواية ابن عباس قال عمر رضي الله تعالى عنه : « ما ترك أبو بكر كلمة أعجبتني في تزويري إلا غالها في بديته وأفضل حتى سكث » ، فقال أبو بكر في صمن خطبته : « نحن الامراء وأتم الوزراء » ، فقال جابر بن المذخر : « لا ، والله لا نفعل ، ما أمير ومكّم أمير » ، فقال أبو بكر : « لا ، ولكننا الامراء وأتم الوزراء ، هم أوسط العرب دارا ، وأعزهم حسابا ، فبايعوا عمر أو أبا عبيدة » ، فقال عمر : بل نبايملك أنت ، فأنت سيدنا وخيرنا ، وأحبنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس . قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : « فما كانت من خطبتهما من خطبة إلا تنفع الله بها : لقد خوفت عمر الناس ، وإن فيهم لعاقا فردم الله بذلك ، ثم لقد بصر أبو بكر الناس الهدى ، وعرفهم الحق الذي عليهم » .

في هذه الاحاديث آيات بينات على عظمة الصديق الاسلامية وعبقريته الالهية ؛ فهو الذي أنقذ الاجلاء : عمر وعثمان وعليه وغيرهم ، من هول ما أصابهم في الحادث القادح ؛ وهو الذي أنقذ الامة كلها من شر فتنة ، لولا بركته وقوة إيمانه وبراعته الخطائية والسياسية ، وعلمه وجلاله ، لكانت عليها شرا مستظيرا ؛ وهو الذي علم الناس كيف يسمو الايمان فوق كل شيء ، وكيف يسحق الايمان كل شيء ، وكيف يتطلب الايمان على كل شيء . فما أخرج المسلمين اليوم الى نفعه من نفعات الايمان الصديق حتى نستقيم قناتهم في توجيه الحياة الاسلامية وجهة العزة والكرامة ؟

صادق إبراهيم همداني

## التصوف والمتصوفون

- ٧ -

عمر السهروردي

حياته :

ولد أبو حفص شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي في سهرورد في سنة ٥٣٩ هـ وهو ابن شقيق أبي نجيب السهروردي السالف الذكر ، ولما نذاً تنفذ على عمه وعلى الشيخ عبد القادر الجيلاني ، وبعد أن أم معارفه عين شيخ الشيوخ في بغداد ، وأخيراً توفي في سنة ٦٣٢ هـ بعد حياة طويلة حافلة بالعلم والعمل .

كان السهروردي من طراز أبي حامد الفارابي في حملته على الفلسفة الإغريقية ومناصرة الشريعة الإسلامية عليها ، ولهذا كان من فصيلة عمه .

أما مؤلفاته فمن أهمها كتاب « كشف القضايح اليونانية » ، و« ليس فيه حاجة إلى التعليق ، فمناواه يوضح ما فيه » ، وكتاب « عوارف المعارف » وهو من المصادر الهامة لأراءه ، مؤلفه وللأخلاق النسكية الخاصة بطوائف الصوفية .

آراؤه :

للقوى الإنسانية عند السهروردي ثلاث درجات . عليها الروح ، وهي متجهة إلى العالم اللاحس ، ودنياها النفس ، وهي متجهة إلى العالم المحس ، وبينهما القاب وهو صالح للانجهاين الأعلى والأدنى . فقبل أن يتم نوره يكون اتجاهه موزناً بين القوتين : العليا والدنيا ، ولكنه عند ما يتم إنارته يتجه بكليته إلى الروح فيتصل بالعالم الروحاني ، وفي هذه الحالة تنجذب النفس إلى القلب ، وعلامة اتجاه النفس إلى القلب هي إحساسها بالهدوء .

كما أبان السهروردي درجات القوى الإنسانية ، شرح كذلك للفرق بين الحال والمقام في التصوف فقال : إن الشيوخ لم يتفقوا في هذه المسألة على رأي قاطع ، لأن ما هو حال عند البعض قد يكون مقاما عند البعض الآخر ، ولذا أوضح الفروق بين الحال والمقام هو أن الحال متغيرة والمقام ثابت ، وأن الحال إذا ارتقت صارت مقاما ، وأن الحال موهوبة ، والمقام مكتسب بمجهود الفرد .

وقد ذكر السهروردي عدداً من الأحوال والمقامات . فمن الأحوال : الحب والشوق ، والأنس والإحلال ، والانتباه والانسياط ، والقرب والبعد ، والاجتماع والاتصال ، والبقاء والفتناء .

ومن المقامات : الزهد والصبر ، والخوف والرجاء ، والتوكل والتواضع .

وأهم ما أثر عن هذا الصوفي بمد الذي أسلفناه هو آراؤه الأخلاقية التي تمثل الصوفي الحقيقي أصدق تمثيل ، والتي هي إلى الديانتين : البوذية والمسيحية أقرب منها إلى الإسلام . فمن ذلك مثلا أنه كان يحل التواضع إلى حد المهانة التي حل عليها الإسلام في عنف ، وكان يغالي في الرحمة والصفح عن مهيته إلى حد التمثل بقول التعاليم المسيحية : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » . وكان يدعو كذلك إلى احتفال كل ما يجيء من الآخرين . ومما أثر عنه قوله : « لو أحب الناس بعضهم بعضا وقدروا ما في الإحسان من خير لاستغنوا عن المدالة ، إذ المدالة أدنى مرتبة من الرحمة ، ولا تستعمل الأولى إلا عند غيبة الثانية » ، وإن من ينفذ أوامر الرحمة أسمى ممن ينفذ أوامر القانون ، لأن إطاعة القانون خارجية ، أما إطاعة الرحمة فهي داخلية » .

#### يحيى السهروردي — حياته :

هو شهاب الدين يحيى السهروردي ، ولا يعرف التاريخ الصحيح شيئا عن مولده وموتله ، وإنما هو يقدمه إلينا شابا مشردا بين بغداد وأصبهان وحلب ، ثم ينشأ هذا التاريخ بأنه بينما كان السهروردي يطوف هذه البلاد الإسلامية ناثرا مذهب ، بلغ أمره صلاح الدين ونقل إليه أنه ضال مضل يبذل في دين الله ما شاء له هواه ، فبعث إليه ابنه أن يقتله ففعل . وكانت وفاته في سنة ٥٨٧ هـ وكان عمره إذ ذاك ثمانية وثلاثين عاما . وقد جعل ذلك المؤرخين يستنجون أنه ولد حوالي سنة ٥٤٩ هـ ولا يزال قبره يزار إلى الآن ، وتسميه الجماهير بالشيخ المقنول .

#### مؤلفاته :

أما مؤلفاته فأهمها كتاب « حكمة الإشراق » وكتاب « هياكل الأنوار » وكتاب « التلويحات » ، والكتابان الأول والثاني من هذه الكتب يعتبران أهم مؤلفاته ، لأن آراءه النظرية قد ظهرت فيها بوضوح مجملنا ندس أنه متأثر في مذهبه بمحلولية الأفلاطونية الحديثة التي ظهر أثرها من قبل في الحلاج ومن ثم على شاكلة . وقد حلل الأستاذ « كارادي فو » هذين الكتابين ، فقال ما ملخصه :

إن الفكرة الأولى التي تلهمنا إياها مطالعة هذين الكتابين هي أن الفلسفة ولا سيما النيسكية منها قد انتفعت من إلهام هو موجود منذ بدء العالم ، أي أن جميع حكماء العصور القديمة والحديثة مصريين كانوا أو هنودا أو إغريقين أو فارسيين أو عبرانيين قد بشروا جميعا تحت صور مختلفة بمذهب هو واحد في أعماقه ، وأنهم لم يعرفوا هذا المذهب عن طريق

النظر العقلي معرفة أساسية ، وإنما عرفوه عن طريق المشاهدة النفسكية والكشف الفوق الطبيعى .

أما الفكرة للشاية التى تخاطر لفارىء هذين الكتائين ، فهى أنه وجد أيضا فى جميع المصور الإنسانية أفراد ذوو معارف بالأسرار ومواهب لاكتشافها ، وأن رئيس أولئك الأفراد فى كل عصر يدعى بالإمام أو بقطب الوقت . أما الآخرون فهم أعوانه ، وهم يحملون أسماء مختلفة . وهذا القطب يجب أن يكون أعظم الحكماء المتفكرين فى عصره . وإذا تتبعنا تعاليم هؤلاء الأقطاب فى جميع المصور كما ينبغي ، ألفيناها كلها متفقة فى نقطها الأساسية . وعند السهروردى أن هذا القطب يجب أن يكون إمام الإنسانية ورئيس العالم كله .

#### مذهبه :

على الرغم من الاختلاف فى الأسلوب والتعبيرات ، يلاحظ الباحث أن مذهب السهروردى هو لا يخرج من كونه نسجيا محكما على منوال مدرسة ابن سينا الاشراقية المتأثرة بالأفلاطونية الحديثة .

ينقسم العالم عند السهروردى الى قسمين : عالم النور ، وعالم الظلام . فالأول هو العالم الروحاني الأعلى المير ، وعلى رأسه الإله الذى يدعو بنور النور . ويلى هذا الإله فى المسكن عقول الكواكب ، وهو يسميها الأنوار القاهرة أو الحاكمة أو السائدة . وتليها العقول الأخرى ويسمىها الأنوار فقط .

والثانى هو عالم المادة والوضاعة والرداءة ، وأشخاص هذا العالم تدعى عنده بالاونان أو بالبرازخ .

وكيفية صدور الموجودات عن الإله هى أنه قد ابتنى إشراق واحد من نور النور ، وهذا الاشراق الأول ، أو النور الحاكم الصادر عن الإله هو عين ما كان ابن سينا يدعو به بالمولود الأول . وهذا النور على أثر صدوره ينظر الى ياربه والى ذاته فيجد نفسه مظلما بالنسبة الى الإله . ومن هذا ينشأ البرزخ الأول ، وهو ما كان ابن سينا يسميه بجسم الفلك الأول أو الفلك المحيط . وعلى هذا النظام تصدر الأنوار والبرازخ الأخرى . وهذه البرازخ تتحرك بتأثير الأنوار حركة تجعل الأنوار قاهرة والبرازخ مقهورة . وهكذا يظل النور ينتشر تازلا حتى يعم عالمنا على نفس النهج الذى رأيناه فى العالم الأعلى ، أى أن كل عقل إنسانى يمثل فى برزخه العقول العليا فى برازخها .

لم يسلك السهروردى الاتجاه الفلسفية فيما يتعلق نشأة الكون فحسب ، وإنما سلكها أيضا فى مشكلة هى أخص من مشكلة الصدور العام ، وهى مشكلة «الرياليسم» و«النوميناليسم»



أى الحقيقية والاسمية (١) فقرر أنه لا يُريد فكرة المثالية المطلقة ، ولا يرى أن للإنسانية أو للحيوانية نموذجاً ذا وجود ذاتي ، كما قرر أصحاب هذا المذهب ، لأن الفكرة العامة لا يمكن أن توجد إلا في العقل ، إذ لو فرض وجودها في الأفراد لفقدت عموميتها ، ولكن ليس معنى هذا أنه لا يوجد غير هذه الفكر العامة ، كلا ، بل إن هناك شيئاً حقيقياً آخر أُسمى من الكائنات المادية وأثبت من الفكر المجردة ، إذ كيف يعقل أن الكليات العامة التي هي أرفع من الأشخاص المحسة تنتزع منها ؟ وكيف يصدر الأعلى من الأدنى ؟ وكيف يصدر النموذج المثالي من الوثني الوضع الذي لم يصنع إلا على صورته ؟ وإدأ ، فهناك مبدأ هو الذي يسود أشخاصها ويحددها ، وهذا المبدأ هو نور ، وهذا النور القاهر الذي يشع في عالم النور المقي له استمدادات خاصة وصور معينة . وهذه الصور هي صور الحب والمرور والسيادة . وحينما يقع ظل هذا النور على عالماً تنتج منه أشخاص بوعه المرئية ، أو أوثان التي تصير على أثر ذلك أناسي أو حيوانات أو معادن أو طعوماً أو روائح . وهذه الصيرورة تقع تبعاً للاستمدادات الخفية التي تعد مواد هذه الكائنات لتقبل صور هذا النور . وعلى أثر ذلك توجد الفكر العامة في العقول .

من هذا يتضح أن السهرودي متأثر طورياً بالأفلاطونية الحديثة ، وآخر بالفلسفة الفارسية التي تقسم الكون كله إلى نور وظلام ، ونخصص الثاني للأول ، ونجمله قاهراً له سائداً عليه .

يتبع  
الركنور محمد غريب  
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

---

(١) أننا في أكثر من موضع من الفلسفة الأفريقية أن هناك ثلاثة مذاهب : المذهب الأول مذهب « التوحيديين » أو الاسمية ، وهو مذهب السقراطيين . والثاني مذهب « الزائليين » أو الحقيقية ، وهو مذهب أفلاطون . والثالث مذهب « الكونسيستوليين » أو المفهومية ، وهو مذهب أرسطو . وشرحنا معنى كل واحد منها ، وذكرنا أن متكلمي الاسلام قد هورا إلى مذهب الاسمية من حيث لا يقصدون .

## التجديد والمجددون في الاسلام

الامام الاعظم أبو حنيفة - دراسات في مذهبه

مسائل المذهب الحنفي ورواياته وكتبه :

اتفقت كلمة المتقدمين والمتأخرين من أئمة مذهب أبي حنيفة على أن مسائل المذهب الحنفي على مراتب -

المرتبة الأولى : مسائل الأصول ، وهي ظاهر الرواية ، وظاهر المذهب ، وهي التي اشتملت عليها تأليف محمد بن الحسن : من الجامع الصغير والجامع الكبير ، والسير الصغير والسير الكبير ، والزيادات ، والمبسوط ، وهذه المسائل هي التي أئتمنها محمد بن الحسن عن أبي يوسف عن أبي حنيفة ، وصنف محمد هذه الكتب في تعداد ثم تواترت عنه أو اشتهرت برواية جمع كثير من أصحابه بالغ عددهم من الكثرة مبلغا لا يجوز العقل توافقه على الكذب والخطأ ، وللمبسوط هذا نسخ أظهرها وأصحها وأشهرها نسخة أبي سليمان الجوزجاني ، ويقال لها الأصل . وقد شرحها جماعة من كبار العلماء . وكتاب الكافي للحاكم الشهيد المروزي مجموع كلام محمد بن الحسن في الأصول وفي حكمها ، وقد شرحه كثير من الفقهاء الحنفية .

والمرتبة الثانية : مسائل النوادر ، وهي غير ظاهر الرواية ، لأنها لم تظهر كما ظهرت الأولى ، ولم تزول إلا بطريق آحاد بين صحيح وضعيف ، كالتقديرات والكيسانيات والجرجانيات والهارونيات من تصانيف محمد التي رواها عنه الآحاد ولم تملح حد التواتر والشهرة عنه . والرقبات صفها حين زل الرقة قاضيا عليها ، والكيسانيات رواها عنه شعيب بن سليمان الكيساني ، والجرجانيات رواها عنه علي بن صالح الجرجاني من أصحابه . ومن ذلك الأمانى والجوامع لأبي يوسف ، وكتاب المجرى للحسن بن زياد ، ومنها الروايات المنفرقة كنوادر محمد بن سباع ، ونوادر إبراهيم بن رستم المروزي ، ونوادر هشام بن عبيد الله الرازي وغيرهم . وأما المختصرات التي صنفها حذائق الأئمة كالامام أبي جعفر الطحاوي ، وأبي الحسن الكرخي ، والحاكم الشهيد ، وأبي الحسين القدوري فهي موضوعة لضبط أقوال صاحب المذهب وجمع فتاويه المروية عنه ، فثالثها ملحقة بمسائل الأصول وظواهر الروايات في صحتها ، وثقة روايتها ، وثبت ما فيها عند أصحابها بين متواتر ومشهور ، أو آحاد صحيحة الإسناد وتواترت عنهم وتلقاها علماء المذهب بالقبول منهم .

والمرتبة الثالثة : الفتاوى وتسمى الواقعات ، وهي مسائل استنصتها المتأخرون من أصحاب محمد وأبي يوسف وزفر والحسن بن زياد وأصحابهم وهلم جرا ، مثل كتاب التوازل لأبي الليث السمرقندي المعروف بإمام الهدى ، جمع فيه فتاوى مشايخه ومشايخ مشايخه . ومجموع التوازل

والحوادث والواقعات لأحمد بن موسى بن عيسى، والواقعات لأبي العباس أحمد بن عبد الرزاق الساطي، والواقعات للصدر الشهيد، ثم جمع من بعدهم فتاوى هؤلاء مختلطة غير متميزة: كقاضيخان في فتاويه، وصاحب المحيط البرهاني، وخلاصة الفتاوى، والمراحيبة وغيرها؛ ولقصد أحسن رضى الدين السرخسي، فإنه بدأ في كتابه المحيط بمسائل الأصول، ثم بمسائل النواحر، ثم بمسائل الفتاوى؛ ومن ذلك اشتهر أن المتون كالنصوص، وأنها مقدمة على مافي الشروح، وما فيها على مافي الفتاوى، لأن ما يورد في الشروح من المسائل لاستنباط مافي المتون من الأصول وكشف حاله غالباً، فله اعتضاد ما بالأصول؛ ثم مافي الفتاوى فإنه غلوظ بأراء المتأخرين؛ ودون تلك النواذر، إذ هي في نفسها ليس جميعها من أقوال صاحب المذهب، وليس لها إسناد يرفعها إلى صاحب المقالة، وليس أصحابها في متابة الأصحاب الثلاثة، بل إنما جمعها أشخاص من المتفقيين لم يعرف حالهم غالباً في الرواية، فلا يعمل بها إلا بشرط مساعدة الأدلة ومعاودة القواعد الأصولية.

وأما الروايات الغربية التي يتفرد بنقلها آحاد المصنفين من أهل القرون المتأخرة فلا يعتمد عليها، ولا يعتمد أصحابها، ولا سيما فيما خالف الأصول وبين المعقول والمقول؛ فإذا اضطر المسلم الحق إلى التقليد فليأخذ بما في الأصول، ثم بما في المتون المختصرات، كمختصر الطحاوي والسكرخي والحاكم الشهيد والقُدوري، وهي التي أولع بها العلماء حفظاً ورواية، ودرسا وشرحا وتعليقا. فقد شرح مختصر الطحاوي أبو الحسن السكرخي وأبو بكر الرازي الجصاص، وخلق كثير من الأئمة؛ وشرح مختصر السكرخي أبو بكر الرازي، وأبو الحسين القُدوري، وأبو الفضل الكرماني، وآخرون؛ وشرح مختصر الحاكم الشهيد: اسماعيل الأنباري، وأحمد بن منصور الأسبيعي، وشمس الأئمة السرخسي وجماعة كثيرون.

وأما مختصر القُدوري فهو متن متين، متداول بين الأئمة الأعيان، وهو مراد صاحب الهداية وغيره حيث أطلقوا المختصر أو الكتاب؛ وقد شرحه أبو نصر الأقطعي، ومحمد ابن إبراهيم الرازي، وأبو المعالي الغزنوي، وخلق لا يحصون، وليس المراد من المتون إلا مختصرات هؤلاء العلماء.

وقال بعض الباحثين: إن المختصرات التي جمعها المتأخرون كالوقاية والسكر والنجاة وغيرها، فإن أصحابها وإن كانوا علماء صالحين فليسوا بهذه المثابة من الثقة والفقاهة، مع خلوص كلامهم عن الحجة والاسناد، وعدم سلامته عن نوع تفسير وخط وتصرف، وإنما يصلح بما فيها مما قد صحح في المذهب اعتيادا على الشهرة أو ظهور الصحة، أو ابتناء على اعتضاد الأصول، وتطابق الأدلة؛ فكنت الفرر والملتق والتنوير بل والوقاية والسكر وأمثالها مشحونة بأراء المتأخرين؛ وهي وإن تزلت رتبتهما عن ظاهر الرواية باعتبار عدم اشتهار إسنادها، إلا أن غالبها قد صححت به الرواية، فلذلك ربما اختارها كثير من العلماء المتأخرين على ظاهر الرواية؛

ألا ترى صاحب تحفة الفقهاء قد اختار رواية النوادر على الظاهر ، وصحبها في هلال الاضحي حيث قال : والصحيح أنه تقبل فيه شهادة الواحد ؟ وكذلك في ظاهر الرواية لا يجب تقليد التابعي مطلقا ، وفي رواية النوادر يجب تقليده إذا ظهرت فتاويه في زمن الصحابة ، واعتبره نحر الإسلام ، وتابعه بعضهم وحمله هو الأصح ؛ ومثل ذلك وقع عن صاحب الهداية وغيره في مسائل ؛ ثم يأخذ بالأصح والأثبت من الوقفات والفناوى .

ومن هنا يظهر أن الصحيح نومان : صحيح دراية ، وهو الذي نهض دليبه وظهرت حجته وتعليله ؛ وصحيح رواية لثبوته عن القائل به منسل أبي حنيفة أو أبي يوسف أو محمد أو غيرهم بطريق صحيح ؛ إما يقع إسناده بنقل الثقة عن الثقة سالما من القادح والملة ؛ وإما بوجوده في كتاب معتمد معروف قد عرف صاحبه بالعدالة والثقة في الرواية ، ككتب محمد بن الحسن وما قد سبق ذكره من المتن ، حتى قال كثير من المحققين : إن المتأخرين قد اعتمدوا على المتن الثلاثة : الوقاية والكثرة والجمع البحرين ، وقالوا : العبرة لما فيها عند تعارض ما فيها وما في غيرها لما عرفوا من جلالة قدر مؤلفيها والترامهم إيراد مسائل ظاهر الرواية والمسائل التي اعتمد عليها المشايخ ، فينبغي للفقهاء أو لمن يريد العمل لنفسه أن يجتهد في الرجوع إلى الكتب المعتمدة ولا يعتمد على كل كتاب ما لم يعلم حال مؤلفه . وعدم اعتبار المؤلف يكون لوجوه : منها إعراض أجلة العلماء وأئمة الفقهاء عنه . ومنها عدم الاطلاع على حال مؤلفه هل كان فقيها معتمدا أم كان جامعا بين الفقه والسمن ، وإن عرف اسمه واشتهر اسمه : كجامع الرموز للقمهستاني ، فإنه وإن تداوله الناس لكنه لما لم يعرف حاله أنزل عن درجة الكتب المعتمدة . ومنها أن يكون مؤلفه قد جمع فيه الروايات الضعيفة والمسائل الشاذة من الكتب غير المعتمدة وإن كان هو في نفسه فقيها جليلا : « كالفننية » فإن مؤلفها الراهدى كان من كبار الأئمة وأعيان الفقهاء ، ولكن العلماء لم يعتمدوا هذا الكتاب لأن الراهدى كان متساهلا في نقل الروايات .

أما كتب المذهب التي عليها المعمول فهي كثيرة ، وأفضلها كلها كتب الإمام محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة . وعلى الجلة فليس تفاوت المصنفات في الدرجات إلا بحسب تفاوت درجات مؤلفيها أو تفاوت ما فيها لا بحسب التأخر الزماني أو التقدم الزماني ، وليس كل تصنيف متأخر أدنى من تصنيف متقدم ، بل قد يكون تصنيف المتأخر أعلى درجة من تصنيف المتقدم بحسب تقوqe عليه في الصفات الجلية . وقد قال خير الدين الرملی :

قل لمن لم يَرَ المعاصر شيئا ويرى للأوائل التقديما  
إن ذاك القديم كان حديثا وسبق هذا الحديث قديما

السبر عفيضي

## رمضان

رمضان هو شهر الصيام ، والصيام شعيرة دينية ، تعبد الله بها الأمم ، لمكانها من تهذيب النفوس ، وتطهير الأجسام ، ونصفية الأرواح ، ولأنها داعية التعاطف ، ورابطة التواصل ، بين الأغنياء والفقراء . فشعور الأغنياء بالجوع في رمضان مشعر بحال الفقراء ، داع إلى الإحسان إليهم والمطف عليهم .

والصيام إيدلال للنفس ، وكسر من شريرة كبريائها وبطرها ، ثم هو تمهيد على الأمانة ، وللأمانة أثرها في علاقات الأفراد والجماعات .

وما أحسن ما يقول شوقي في حكمة الصيام :

« الصوم حرمان مشروع ، وتأديب بالجوع ، وخشوع لله وخضوع ، لكل فريضة حكمة ، وهذا الحكم ظاهره العذاب وباطنه الرحمة ؛ يستثير الشفقة ، ويحض على الصدقة ؛ يكسر الكبر ، ويعلم الصبر ، ويسن خلال البر ، حتى إذا جاع من ألف الشبع ، وحرم المترف أسباب المتع ، عرف الحرمان كيف يقع ، والجوع كيف ألمه إذا لدغ » .

وقد يكون ما يعاناه المريض والمسافر من مشقة وتعب ، وما يقاسمناه من هم ونصب ، وما في ذلك من تهذيب وتأديب يغنيان عن تهذيب الصوم وتأديبه ، داعية الترخص في فطرهما .

والصيام تتفاوت مراتبه ، وتتفاوت ثوابه ، تبعاً لتفاوت السكال في أدائه ؛ فصيام ليس لصائمه منه إلا الجوع والعطش ، وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش » ؛ وصيام لصائمه منه جزيل الأجر ، وواسع المغفرة ، وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له » .

وقد قسم الغرالى الصوم تقسيماً دقيقاً فيه زعة صوفية تجمله غريباً ببعض الغرابة على من لم يسلك طريقه ، ومن لم يذق مدافه ؛ قال رحمه الله :

« اعلم أن الصوم ثلاث درجات : صوم العموم ، وصوم الخصوص ، وصوم خصوص الخصوص . أما صوم العموم : فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة ؛ وأما صوم الخصوص : فهو كف السمع والبصر واللسان ، واليد والرجل ، وسائر الجوارح عن الآثام ؛ وأما صوم خصوص الخصوص : فهو صوم القلب عن الهمم الدنية ، والأفكار الدنيوية ، وكفه عما سوى الله عز وجل واليوم الآخر ، والمكر في الدنيا ، إلا دنيا تراد للدين ، فإن ذلك من زاد الآخرة وليس من الدنيا ... وهذه رتبة الأنبياء والصديقين والمقرين ، ولا يطول النظر في تفصيلها قولاً ، ولكن في تحقيقها عملاً ، فإنه إقبال بكثرة الهمة على الله عز وجل ، وانصراف عن غير الله سبحانه ، وتلبس بمعنى قول الله عز وجل : « قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » .

وفي الصوم بمجموع درجاته معان اجتماعية أشرنا الى بعضها آنفا ؛ وقد قرن بأعمال مسنونة ، و مندوبة تحمل في طياتها معاني اجتماعية كذلك ، فيها الخير والصلاح لجماعات المسلمين ؛ فقد ندب فيه الاكثر من الخود والتصدق ، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم — وإن كان أجود الناس — كان أجود ما يكون في رمضان ، حين يلقاه جبريل يدارسه القرآن ، فمرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة .

وشدد فيه النهي عن التساهل والتفاهت ، وندب لمصائم أن يقول عند دواهي الغضب والاستفزاز : اللهم إني صائم . وسن في رمضان صلاة التراويح ، وسنت فيها الجماعة ، كما سنت الجماعة في وتره خاصة ، تكراراً لاجتماعات المسلمين المشروعة ، ومحصيلاً لما فيها من ثمرات . ومن طريق ما يقال في هذا الصدد : أن المسافر خير بين الصيام والعطر ، إلا أن يكون عامة رفقته مفطرين أو مشتركين في النفقة ، فالأولى له العطر موافقة للجماعة .

وختم الصوم بصدقة العطر على طريق الوجوب ، كما حتم بصدقة العيد ، وشرط فيها الجماعة ؛ وندب في يوم العيد الاكثر من الصدقات ، حتى لقد صح أن يقال : إن رمضان شهر البر ، وشهر الفقراء .

تلك هي بعض المعاني الاجتماعية في الصيام ، وفيما سن أو ندب فيه ؛ غير أن كثيراً من المسلمين غفلوا عنها ، فأضاعوا سر الصوم وروحه ، وأحاطوه الى عبادة لا روح فيها ، حتى وصفها بعض الخارجين على الدين أنها عذاب لا خير فيه ، ولا ثمرة له . كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذباً . فآله أعلم بمصالح عباده ، وبما هم في حاجة اليه من شرائع يسرون على نور هديها في طريق الحياة ، الى السعادة التي أعدها الله للراشدين .

وإلى هؤلاء نقول : أرأيتم لو جاءكم صيام رمضان فيما جاءكم به المذنبات الحديثة ، فلماذا كنتم تقولون فيه ؟ أكبر الظن أنكم كنتم تقولون إنه من الحكمة التي اهتدى إليها علماء الطب وعلماء النفس في القرن العشرين ، وإنه الأمر الذي لا بد منه في صلاح الجماعات ، وكبح الشهوات ، وكنتم تلبسون إليه من الحماد ما تتكبرون فضله ومجده دون قدره .

ورحم الله البوصيري حيث يقول :

رب إن الهدى هداك ، وآيا      تك نور تهدي بها من لقاء  
وإذا حلت الهداية قلباً      نشطت في العبادة الأعضاء

نسأل الله أن يفتح قلوبنا لفهم الدين ، ويوفقنا للعمل بهدي خاتم المرسلين ؛ وأن يجعل صيامنا جنة من العذاب الأليم . كما نسأله وهو القاهر فوق عباده أن يكشف عن عباده الغم والكرب ، ويمنحهم السلم والسلامة ؟

أبو الوفاء المرقسي

## مقارنة ومفاضلة

### بين الشريعة الإسلامية والشرائع الأخرى

— ٤ —

تكلمت في المقال السابق عن شريعة الرومان وكيف كان نظامهم الاقتصادي والسياسي والقانوني ، وفاتني أن أذكر نبذة عن التشريع عندهم وعند غيرهم ، وهو شديد الأهمية في بحثنا هذا .

فالتشريع بصفة عامة : هو عمل القوانين بواسطة السلطة التشريعية في الحكومات ، وهو يبين لمن القانون بحروفه بحيث لا يكون هناك شك في الامتثال التي يجب بها المشرع من غرضه . والقانون : هو قاعدة يكون السير على مقتضاها في العمل بحيث يحبر السلطان الناس على اتباعها فيما بينهم ، ويماقب من مخالفتها ، وهو نظام ضروري للحياة الاجتماعية . أما مصادره فهي : المادة ، والدين ، والتشريع ، وآراء الفقهاء ، وأحكام المحاكم ، وقواعد العدل والإنصاف . فالعادة هي أمر يستقر الناس عليه بالنكرار على وتيرة واحدة فتتسخ عندهم ويكون الخروج عليها عملاً مخالفاً للنظام المألوف ، ويمبر عنها في الشريعة الإسلامية بالعرف . وقد جاءت أمثلة عدة تحمل العرف كأنه قاعدة مسنونة ، منها قولهم : « المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً » . والدين هو قوة غيبية يتعبد بها الناس كل بحسب اعتقاده . وهو ما شرع فيه شرع يحدد كثيراً أوقليلاً من العلاقات القانونية . وأوسع الأديان شريعة هو الدين الإسلامي ، فقد أنزلت فيه شريعة تبين الأحكام القانونية بأجمعها . أما التشريع وقد بيناه في صدر هذا الكلام فهو عمل القوانين بواسطة السلطة التشريعية ، الخ . وأما آراء الفقهاء أو الشراح فهي التي توضح وتبين القواعد والأحكام التفصيلية بالاستنباط والاستنتاج من القواعد العامة ، وهم يختلفون في وجهات النظر ، فقد لا يرى فقيه ما يراه الآخر ، ولهذا لا تكون آراؤهم قاعدة قانونية واجبة النفاذ حتى ولو أجمعوا عليها ، بل تكون حلاً قانونياً . بخلاف ما ورد في الشريعة الإسلامية ، فاجماع الفقهاء قاعدة شرعية يجرى العمل على مقتضاها ، إذ قالوا : إن من لم يتبع إجماع العلماء يسير في غير سبيل المؤمنين . وقد قل النبي صلى الله عليه وسلم . « لا تجتمع أمتي على ضلالة » ، وكان الامام الشافعي رضي الله عنه يقول : « إن الاجماع حجة » ، أما الامام أحمد فقد قال : « إن من ادعى الاجماع فهو كاذب » . وأما الامام مالك رضي الله عنه فقد قال : « لا يجمع آراء مالك لتكون قانوناً لدولته : « يا أمير المؤمنين لا تفعل ، قد سبقتم إليهم أقاويل ، ومتمموا أحاديث ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ، فدفع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم » . وجاء الرشيد بعد المنصور وأراد أن يحمل الناس على ما جاء في موطن مالك ، وشاوره في أن يعلقه على الكعبة ويحمل الناس

على العمل بما فيه ، فاعترض مالك أيضا قائلا « لا تفعل فان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا في الفروع ، وتفرقوا في البلدان ، وكل مصيب » .

وأما أحكام المحاكم فقد تكون منشئة لقاعدة قانونية تطبق فيما بين الناس في المنازعات ، ولا تنشأ هذه القاعدة إلا إذا كان هناك غموض أو يحاز في نص القانون ، ففي هذه الحالة تتصرف المحاكم في تفسير مواد القانون بتوسع لتدخل تحتها الأحوال الجديدة . وأما قواعد المدل والإنصاف فقد تطبق في الأحوال التي لا نص في القانون على موضوعها ، ومرجعها ضمير القاضي وتحيزه للمعدل والإنصاف في حسم النزاع المعروض عليه ، فكأنه بحكمه هذا يشي قاعدة قانونية جديدة أساسها المعدل والإنصاف ، والقاضي في هذه الحالة يعتبر مشرطا .

هذه هي مصادر القانون الستة . وقد بدأ التشريع عند الرومان لما أن نصرت حالتهم واتسعت فتوحاتهم ونمت تجارتهم وكثر اختلاطهم بالأحباب ، ورأوا من القوانين ووضع النظم لتقريب حالاتهم الجديدة . وكانت مصادرهم التشريعية كذلك ستة : (١) أوامر الملوك في عصر الملكية من ٧٥٣ سنة ق . م (٢) أوامر الإمبراطور في العصر بين ٢٧ ق . م و ٢٨٤ . ب . م (٣) قرارات جمعية الشعب . (٤) قرارات مجلس الشيوخ . (٥) أوامر الحكام . (٦) فتاوى العلماء . أما العادة فقد كانت المصدر السابع وحدها .

أما التشريع في العصور الوسطى فقد كان قليلا جدا ، أو كاد يكون معدوما ، لأن شعوب أوروبا كانت تتبع القانون الروماني في ماملاتها ، وتنبع القانون الكنسي للأحوال الشخصية . فلما أن تقوت الحكومات المركزية بدأت تسن قوانين خاصة ، مثل إنشاء محاكم أو تقرير إجراءات في الدعاوى أو في المسائل الاجتماعية . ففرنسا مثلا كانت في القسم الجنوبي تتبع القانون الروماني ، ولذلك سمي هذا القسم ببلاد القانون ، وسمى الجزء الشمالي ببلاد العرف ، إذ كانت تتبع العرف ، غير أنهم رأوا حاجتهم لتقنين ليكون القانون ثابتا وظاهرا ومعروفا وموحدا في كل فرنسا ، فبدئوا بالعمل في ذلك في عهد الملك شارل السابع في منتصف القرن الخامس عشر ، ثم حصل تقنين في أجزاء أو فروع القانون على عدة وقعات ، وتم كثير منها في عهد لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر ، ثم جاءت الثورة الفرنسية ولهاأت فكرة سن قانون جامع لكل الأحكام . غير أن هذه الفكرة كانت قد أعملت حتى جاء نابليون فصدر القانون المدني الفرنسي في ٢٩ مارس سنة ١٨٠٤ ، وأتبع بعد ذلك بقوانين جامعة لكل الأحكام الخاصة بمسائل أخرى .

أما التشريع في الأقطار الإسلامية فلم تكن هناك قد سنت قوانين من أول نشأتها الى أوائل القرن التاسع اكتفاء بالشريعة الإسلامية .

هذه نبذة صغيرة وكلمة مجلة قصيرة عن التشريع وتاريخه عند بعض الأمم ، أتينا بها حتى إذا ما تكلمنا عن المشرق بين شريعتنا الإسلامية وشريعة أمة أخرى نكون على بينة



من مقدار ثقافة تلك الأمة وحضارتها وتشريعها ، وإن كان هناك مساوئ أو محاسن نستطيع أن نعرف في أي عصر هي أي العصر الفطري أو العلمي ليكون الحكم عادلا ونزيها . على أن أي شريعة مهما وصلت من الرقي وبلغت أعلى درجات الكمال فلن تصل بحال الى ما وصل إليه العرب الذين اختار الله منهم نبيا ورسولا ، فجاء بشريعة بزت كل الشرائع قديمها وحديثها . وإن واهى الاستشهاد على ذلك كثيرة ، ولكن هناك ناحية ظاهرة تميزت بها الشريعة الاسلامية وهي حقوق المرأة ، فلقد كانت عند الرومان شيئا من الأشياء كالذابة والرقيق مهضومة الحق مهبضة الخناخ : كانت إن تزوجت تنتقل من مائلتها الأصلية الى عائلة زوجها ، وتعتبر ميتة بالنسبة لعائلتها الأصلية ، إذ تنقطع كل صلة كانت لها برب أسرتها وبأعضائها وعشيرتها ، ويسقط كل حق لها قبلهم من ميراث ووصاية وقوامة ، بل وتخرج من ديانة عائلتها الأصلية الى ديانة زوجها ، وتخضع لسيادته وسلطانه ، فله أن يبيعها وأن يعاقبها وأن يعذبها وأن يقتلها ويمتلك عنها كل حق كان لها قبل الزواج إن كانت مستقلة بحقوقها . وكانت عقوبة زنا الزوجة نفيها . ولكن الامبراطور قسطنطين استبدل الإعدام بالنفي ، وقصر حق إقامة الدعوى على الزوج وبعض الأقارب . أما الزوج فلم يقرر له القانون الروماني سوى بعض عقوبات مالية تفقده حقوقه في الدولة وفي الهبات الصادرة إليه بسبب الزواج .

والزواج عندهم على نوعين : زواج مع السيادة ، وزواج بغيرها . وينعقد الزواج واحدة من ثلاث طرق : ( ١ ) طريق الزواج الديني ( ٢ ) طريق الشراء ( ٣ ) طريق الاستعمال . فأما الزواج الديني فهو مقصور على طبقة الأشراف دون سواهم ، وهو أن يقدم طالب الزواج الى إله الآلهة جوبيتر Jupiter فربما هو عبارة عن كمكة ويرتلان عبارات دينية معينة أمام عشرة شهود ، وهو أكبر عدد ممكن اشترطه القانون الروماني في كل عقد من العقود ، وبحضور الحبر الأعظم وكاهن المعبد .

أما الزواج بطريق الشراء فانه يتم بالطريقة التي تكتسب بها ملكية الأشياء ، أي بطريق الاشهاد مع تغير المبارات بمبارات تنفق والغرض المقصود منه ( غرض الزواج ) .

وأما الزواج لطريق الاستعمال فهو معاشرة الزوج لزوجته مدة سنة كاملة بلا انقطاع بحيث لا تغيب عن المنزل ثلاث ليال متواليات ، وبذلك تكتسب السيادة عليها كما يكتسب الملك بوضع اليد مدة بغير انقطاع .

وهذا النوع من الزواج لا يقام له وزن في الشريعة الاسلامية ، ولا يقال عنه زواج ، بل هو سفاح ، لأن الزواج عقد لا ينمقد إلا بالألفاظ الصريحة الدالة عليه ، حتى لقد خالى بعض الفقهاء في ذلك ، فقالوا : إن النكاح لا ينمقد بغير العربية لمن يستطيعون الكلام بها ويفهمونها ، وإن كان ابن تيمية قد رد على هذا بالحوازي ولو مع الكراهة ، كما يكره الخطاب

بغير العربية لغير حاجة كما يرى مالك وأحمد والشافعي . نعم إن الشارع قد عي بصراحة اللفظ وشدد فيها لاعتبارات كثيرة أرجعها صاحب تهذيب الفروق إلى أربعة أوجه ، وقد نقلها مع بعض التصرف لتوضيح صاحب كتاب الملكية ونظرية العقد من ٢٠٧ و ٢٠٨ ، ونحن ننقلها عنه كما أوردها ، أولها « أن السكاح لا بد فيه من لفظ يشهد عليه فيه أنه نكاح لإسقاط ، لأن القاعدة أن الشهادة شرط في النكاح إما مقارنة للعقد كما قال الأئمة الثلاثة ، أو قبل الدخول كما قال مالك . وعلى التقديرين لا بد من لفظ » . وثانيها « أن النكاح عظيم الخطر جليل المقدار لأنه سبب بقاء النوع الإنساني وسبب للعنف الحاسم لمادة الفساد واحتلاط الأنساب ، وسبب للمودة والمواصلة والسكون ، وغير ذلك من المصالح ، والقاعدة أن الشيء إذا عظم قدره شدد فيه وكثرت شروطه وبنوع فيه في العادة تعظيماً لشأنه ورفعاً لقدره . إلى أن قال « لذلك كله شدد الشارع في السكاح فاشتراط الصداق والشهادة وخصوص الألفاظ » .

فانظر إلى هذا الفرق الكبير الواسع المسمى بين الشريعة الإسلامية والشريعة الرومانية في أهم ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية ، تلك الناحية هي الأحاس المتين الذي يقام عليه بناء الإنسانية : تراء في شريعة الرومان مقبوض الأركان ، أما في الشريعة الإسلامية فنابت الأساس قوى البنيان . وانظر كذلك إلى المرأة الرومانية في أول عهدنا كيف كانت ذليلة مسكينة تدب بالعبادة لزوجها وتعتبره إلهاً تخضع له وله عليها سلطان جبار ، وكان القانون الروماني يعتبرها طول حياتها قاصرة عن مساواة الرجل ، إلى أن أعطيت لها الحرية تدريجياً سنة ٢٩٢ بعد الميلاد وفي عصر ديوقلتيان ( Diocletian ) . أما في فرنسا فقد بقي في القانون الفرنسي فقد بعض أهلية المرأة المتروحة دون غير المتروحة لفكرة « حماية الزوجية وإخضاعها لزوجها » . لكن التشريع الحديث يتجه إلى مساواتها بالرجل كما جاء في كينان أما المرأة العربية ففضلها عما كانت عليه من قوة في الفصاحة ودقة في الفهم وعظم في النبيل والأخلاق ، فقد كانت على جانب عظيم من حرية الفكر والرأي . ولولا أن المقام صيق لسردت للكثير من أخبار نساء العرب ، خصوصاً وقد جاء الإسلام فرفع من شأن المرأة حتى وضعها في مكان عال ، وسوى بينها وبين الرجل في الحقوق والأهلية والتكاليف الشرعية ، إلا فيما رفه فيه عنها رفقاً بها وحرصاً على كيانها ، ونظم حياتها الزوجية أحسن تنظيم ، وأوصى الرسول صلى الله عليه وسلم عليها بقوله « اتقوا الله في الضعيفين المرأة والرقيق » .

هذا ما اختصر على ذكره الآن ، وسنأتي في العدد الآتي بالكثير من الفروق مما يجعلنا نحمد الله على أن هدانا لتسكون من أهل الشريعة الإسلامية ، وما كنا لنهتدي إليها لولا أن هدانا الله ﷻ

مصطفى عبد الحميد أبو زيد

المندوب القضائي بالأوقاف الملكية سابقاً

# مَجْمُوعَةُ الْمَلِكِ الْاِقْتِصَابِيَّةِ

## نشأة الحياة الاقتصادية عند العرب

بعث النبي صلى الله عليه وسلم سنة ٦١٠ ميلادية ، وشبه جزيرة العرب كان مسرحاً للقوضى الاجتماعية والاقتصادية ، والروم و فارس والحبيشة في عهد ضعفها وانحلالها ، ومظاهر الحياة الاقتصادية معطلة في تلك القاع ، والمواصلات بينها شاقة وقليلة ، وأكثرها غير مأمون ، فقطع اتصال العالم المادي كما فقد اتصاله الروحي ، وانقسم الى وحدات اقتصادية مفككة تسير على غير برامج موضوعية ، ولا في هداية فوائين مرسومة .

وتمتاز حرية العرب بمكانها الوسط ، ومناخها المتقلب ، ومهارتها الممتدة ، وتلاها المنتشرة حول مدنها ، لذلك احتفظت في داخل حدودها بحالة موسومة بطابع الجلب والإعمال ، إلا في ثور خصيبة مزروعة في الطائف وحول يثرب وفي بعض جهات اليمن ، وإلا ما خلفته القوافل التي تسير في وديانها من الشرق الى الغرب ، ومن الجنوب الى الشمال ، من مظاهر الغنى عند سادات القوم ، فتركت في نفوسهم شغفا بالمال ، ونشرت بين أرجائها ميلا للشهوات .

فلما جهر النبي صلى الله عليه وسلم بدعوته ، اصطدم بتلك العقول التي غلت عليها المادة ، وفساد الفطرة ؛ وإليك لتلمح ذلك في الجاهج المشركين في طلب المعجزات من الرسول ليرفع حال مكة وما حولها ، حتى لا تظل حبيسة بينها ، ويوجد بدلها الرياض والحدائق تجري بينها الأنهار ، ويحبل الصفا والمروة ذهباً ، أو يوحى إليه ربه أنعان السلع حتى يضاربوا على المستقل ويكفهم بذلك الحاجة الى العمل والكسب ، ويفيض عليهم ذلك بالخير والغنى ، ويأتى إليهم بكثرة من الذهب وغير ذلك مما يظهر مبالغ ميلهم الى الكسب والتواكل ، ورغبتهم عن العمل ، وحبهم المال حباً جما ، شأن سكان الصحارى في الجهات الحارة . فتعهد الرسول تلك العقول بالتعليم والهداية حتى أدركت وتنهأت لقبول الانقلاب الاقتصادي والاجتماعي الذي أتى به ، ثم الانجاء نحو النظام والاستقرار الذي أوجده بعد هجرته الى المدينة ، حيث استتب له الأمر ، وبدأ حياة سياسية وضع فيها أمهات النظم والقوانين . وبذلك قال جعفر بن أبي طالب للجاحش في الحبيشة : « أيها الملك : كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأني

الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، وبأكل القوى منا الضعيف ، فسكننا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآبائنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهاينا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وفذف المحصنات ... الخ » .

وكان أول شيء فكر فيه عليه الصلاة والسلام بعد هجرته أن آخى بين المهاجرين والأنصار ، وصرح لهم بأنه لا يكفل إيمان أحدهم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وعلى هذا بنى الاقتصاد في الإسلام على أسس من الإخاء والمحبة والتعاون ، قضت على الأثرة والحسد والنفس .

ولعل أروع مظاهر هذا النظام الجديد نزول كثير من الأنصار من نصف أملاكهم وأموالهم لإخوانهم المهاجرين ، وأكثرهم أهل تجارة ، فأقبلوا على أسواق المدينة بخبرتهم يدفعهم دينهم الجديد إلى الدأب والعمل المتواصل في أمانة وزاهة .

ثم بدأ النبي يعالج التجارة ، وهي أهم مظاهر الحياة الاقتصادية في مثل تلك البيئة ، فقال يلبه الناس إلى خطرهما : « تسعة أعشار الرزق في التجارة » ، وبين الحلال والحرام في المعاملات فاضطرت طوائف كانت تتجر في النساء والخمر والمخدرات ، أو تتعامل بالربا ، أو تجمع الثروة من المقامرة ، إلى الكف عن تلك الأعمال الباطلة والبحث عن عمل شريف في التجارة أو الزراعة ، يعود عليهم بالكسب الحلال ، وأزل الله قانونا رادعا يقطع أيدي السارقين ، فأمن الناس وأطمأنت المير في طرقها فعدو وتروح بين وديان الجزيرة ، تحمل كنوز التجار وأموالهم ، في حراسة الله ، وظل السلطة التنفيذية ، التي يمثلها الرسول وجيوش المسلمين .

وحظر التلاعب بالأسعار والمكيال « فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم » ، « ويل للطفقين » ، « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » ، فانتظمت الأسواق ، وأقبل الناس على التعامل ، وماد ذلك بالرح الوفير على أصحاب رهوس الأموال . وترتب على تحريم الإسراف والتبذير في قوله تعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » أن كثرت في أيديهم الأموال ، وما استطاعوا كثرها لتحريم السكتر عليهم ، وفرض ضرائب وصدقات عليهم تذيبها إذا بقيت جامدة لديهم ، فلم يجدوا بدا من استخدامها في التجارة والزراعة ، فتمت وازدهرت ، وكان لفريضة الزكاة أثرها في ذلك ؛ فزكاة الأموال هي نوع من الضرائب التي تعرضها الحكومات في الوقت الحاضر على رهوس الأموال وعلى الأرباح ، ومن فوائدها للتجار أنها تحملهم على مراقبة حركات تجارتهم ومعرفة ما يطرأ عليها من النقص والزيادة لتقدير قيمة الضرائب ، وفي تلك الرقابة ضمان لضبط حساباتهم ، فيأمنون من الوقوع في الاضطرابات المالية ، وخطر التمرض للإفلاس .

ونشأ عن توحيد جزيرة العرب وخصوصها لشرعية ونظم واحدة ، أن زادت المعاملات بينهم ، وتطورت تبعاً للحياة الجديدة ، وظهر في نواحي العمل المختلفة بعض أرباب الكفايات المالية الذين يعوزهم المال ، فكانوا يعرضون أنفسهم على ثروة المسلمين للتجار في سلمهم ، أو الافتراض منهم بدون ربا إلى أجل مسمى ، ولم يعد التعامل مقصوراً على التجارة الحاضرة حيث الدفع عند التسليم ، إذ أن كثيرين من المتعاملين لا تقدرهم ظروفهم على الدفع فوراً ، ولا مناص لهم من البيع والشراء لحاجة محلهم أو مبيعاتهم ، فياجأون حتماً إلى تأجيل الدفع لزمين معين يتفقون عليه فيما بينهم ، وقد يطول أجله ، وكانوا يعطون الموائيق لسداد الديون الناشئة عن الافتراض والتجارة ، ولكن الموائيق لا تكفي في عالم المال خصوصاً في الديون الطويلة الأجل ، فقد يموت المديون أو يهاجرون إلى بلد آخر فتصعب حقوق أصحاب الأموال ، وقد يخشون في موائيقهم أو ينكروها ورتهم ، لذلك جاء الإسلام يقرر نظاماً لم يسبقه إليه تشريع آخر ، فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا تدانتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فليكتب وليملل الذي عليه الحق ، وليتق الله ربه ، ولا يبغض منه شيئاً ، فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو ، فليملل وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم » إلى أن قال : « ولا تساموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ، ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا ، إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ، وأشهدوا إذا تبايعتم » .

ذلك بلا ريب فتح مبين في عالم التجارة والمال ، فقد أصبحت الكتابة خير إثبات لديونية المدين ، وخير كفيل لحصول الدائن على دينه في ميعاده ، وأمكن بذلك انقضاء الدين المثبت بالكتابة إلى الورقة ، كما أصبح في إمكان الدائن الذي في حوزته صك بقيمة الدين أن يستفيد به كضمان لقروض يعقدها مع غيره ، أو بضاعة يشتريها ، وتطور هذا الصك فأطلقوا عليه اسم السفتجة ، وهي أصل الكبيالة ، التي تقوم على أساسها المعاملات بين العالم الآن ، إذ الكبيالة ما هي إلا صك موضح به مبلغ من المال هو قيمة الدين المستحق للدائن في ذمة المدين ، الذي يتعهد بدفعه إليه ، أو إلى من يأمر به في زمن معين ، ويوضح بيان هذا الدين على وجه الكبيالة .

هذا وقد اكتفت الآية بالشهادة للإثبات في التجارة الحاضرة ، لأن عمليات البيع والشراء وما تقتضيه من السرعة والبساطة لا تحتاج إلى إجراءات الكتابة المطولة ، وذلك عين ما يقرره القانون التجاري الذي وضعه المشرعون في القرون الماضية وأوائل القرن الحاضر ، وتسير عليه البلاد اللاتينية ومصر .

ونمة ظاهرة أخرى كان لها أثرها في حياة العرب الاقتصادية ، وهي طبقة الرقيق ، فكان العرب يملكونهم عن طريق الشراء أو الحروب ، ويستخدمونهم في أموالهم وورثيهم وخدمتها ، ولا يعترفون ببنوة من يلدون ممن ملكت أيمانهم ، ولا يورثونهم ، فبدأ الاسلام يحرم بالتدريج ، فساوى بينهم أولا وبين غيرهم في المبادات والمعاملات ، واعتبر عتقهم كفارة ، وقال عمر بن الخطاب « بماذا استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » . بذلك غدا بعض الرقيق طلقاء يعملون في الزراعة والتجارة بالخبرة التي اكتسبوها من بلادهم ، كعمال ومستأجرين يقتولون أجورا نظير الاعمال التي يقومون بها ، ومهم من صار من قادة الرأي وأصحاب الاعمال .

وقد نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في معالجة ظاهرة الرقيق هذه الطريقة نفسها التي اتبعها مع اليهود المزارعين بخوار خبير ، فانه أبقاهم على أرضهم التي آلت اليه بحكم الفتح ، على أن يكون لهم نصف ثمرها نظير عملهم في زراعتها ، لأن خبير غنية محداثتها ومزارعها ، وهذا يحتاج الى أيد كثيرة خبيرة بعنون الزراعة ، وكذلك الرقيق فانه لم يبت في منعمهم لأنهم كانوا يقومون بالاعمال الأساسية في الزراعة والتجارة وبعض الصناعات التي ظهرت في الحضرة ولا يمكن للعرب القيام بها ، إما لأنها تتنافى مع طبائعهم أو لجهلهم بها ، ولذلك كان من الحكمة الاقتصادية البطة في إبطال الاسترقاق لأنهم لو حرروا مرة واحدة لما أنهم كانوا يتمتعون عن أداء ما كلفوا القيام به من تلك الاعمال ، وإما أن يهاجروا فتقل الأيدي العاملة ، ويحرم المبادلة عدد من المستهلكين . ولهذا السبب قامت حرب أهلية طاحنة في أمريكا في القرن التاسع عشر بين أهل الشمال وأهل الجنوب ، وذلك لأن أهل الشمال لما أرادوا تحرير العبيد ، رفض أهل الجنوب تحريرهم حيث الأرض زراعية تحتاج الى تلك الطبقة ، ودخلوا في حرب مع الشماليين لهذا السبب ، ولكن النصر كان لأهل الشمال ، وتحرر العبيد ، ولم يحدث ضرر لأن العالم في القرن التاسع عشر الميلادي كان غير العالم في القرن السابع من حيث النهضة الصناعية والزراعية والتجارية .

ولما اشتبك المسلمون في حروب مع اليهود والروم والمحم ، وأسروا منهم خلقا كثيرا ، كان لهم أثر كبير في نهضة العرب الاقتصادية ، كما أن نزوح المسلمين الى بلاد الفرس والهند وديوع الشام ومصر ، وانتشار الاسلام في تلك المقام ، واتساع رقعة الامبراطورية الاسلامية ، استوجب ابتداء نظم جديدة لإدارة شئون الحياة الاقتصادية بدقة . وهذا ما سنبينه في البحث القادم ، إن شاء الله .

أبراهيم زكي

خريج كلية التجارة العليا

## بين رجال الدين والفلسفة

من الخير لمن ينشد الحق ألا يمر ما يكتب دون بحث ولا تعقيب حتى يظهر هذا الحق واضحاً يفرض نفسه على المنصفين فرصاً . ومن الخير الكثير أن يكون الذى يقوم بالتعقيب مثل الأستاذ الجليل فريد وحيدى بك : صدراً رحباً ، وتحققاً عميقاً بثقافة الاسلام وثقافة الغرب ، وحباً للحقيقة يطلبها أين تكون ، وقبلاً عامراً بالايمان يجعل لما يصدر عنه أطيب الآثار .

وقد تفصل السيد الأستاذ بالتعليق على كلمتى السابقة تعليلاً فيما أنا به مغتبط وله مقدر ؛ لهذا لا يسعنى أن أصربه دون كلمة قصيرة ، أرجو - وقد قال عزته كل ما يريد أن يقول فيما أظن فى موضوع النقاش - أن تضع الأمر فى نصابه ، وأن أخلص بعدها لإتمام البحث الذى بدأته :

١ - لا أظن مطلقاً أن القول « مجهول بعض رجال الدين أو يمدم إنصافهم فى معاداة المعلوم الفلسفية » يزعم صريح الدين ويعرض ببناءه للخطر . لأن الدين أثبت دعائم وأمن بناء من أن يتأثر بقول كلمة الحق فى بعض من المحرفوا عن مبادئه فى محاجتهم لخصومهم فى الفكر ؛ هذه المبادئ التى منها الأمر بمجادلة أهل الكتاب - بله المسلمين - بالحق هى أحسن ، لا باليمن والسبج والتعذيب ؛ ولا أنكر أنه مما يؤلم الإشارة الى موافق لا نسر من نكر من رجال الدين بالسبب للفلاسفة وأغرابهم ؛ ولكن ماذا يفعل الباحث إذا كان مضطراً ، كى يصل إلى الغاية من بحثه ، أن يستعرض مراحل هذا الخلاف فى جميع المصير لا فى عصور الازدهار وحدها ؛ وهو فى الوقت نفسه معترف بما كان من تشجيع للفلسفة وسائر ألوان النظر العقلى فى العصر الذهبى للإسلام ، وبأن طبيعة الاسلام نفسه تدعو الى هذا التشجيع .

٢ - على أنه أيضاً ليس معنى هذا أننا نحكم على الاسلام وجميع أئمنه وأعلامه بصنيع طائفة فى زمن التأخر والانهط ، ولهذا رأيت أن أحتاط من أول الأمر ، فجلت العنوان العام للبحث : « بين رجال الدين والفلسفة » ولم أجعله بين الدين والفلسفة ، حتى يظل الدين فى أعين المسلمين وغير المسلمين على السواء بريئاً من تهمة التعصب وعداوة العلم . ولذلك أيضاً وافقتى السيد الأستاذ فى تعليقه على وصف الدافع لمن أحرقوا كتب ابن الهيثم وعذبوا عبد السلام الزكى (١) ونظراءها بأنه الجهل بالدين ، والبني بالخراب من مبادئه السامية التى منها الحث على العلم ، وإلانة القول للخصم ولو كان فرعون ، لعله يتذكر أو يخشى !

(١) صحة اللقب الزكى بالراء لا بالدال كما ورد خطأ مطبعياً بالكلمة الثانية .

٣ - يرى السيد الأستاذ الجليل أنه : « إذا كان في الأرض دين تأبى طبيعته أن ينشأ فيه اعتزال وعلم للكلام فهو الاسلام » . وأعني أن الحق أن تقرر أن القرآن الكريم - وهو أساس الدين - بما فيه من الآيات التي توهم التجسيم والتعبيه ، والآيات التي توهم بعضها الجبر وبعضها الاختيار ، والآيات الأخرى التي أشارت إلى أمهات مسائل علم الكلام إشارات قريبة أو بعيدة ، يدفع إلى علم الكلام دفعا . إذن يكون من الطبيعي حدوث علم الكلام ، وإن كان من النصف ومن عثار الجدل الإصراف فيه وفي الجدل في هذه المسائل التي أشار إليها القرآن بالحق وبالباطل ، كما ذهب غلاة المعتزلة وأرباب المقالات والفرق الإسلامية الذين أثبت قانون الانتخاب الطبيعي - كما يقول صاحب العزة الأستاذ الجليل بحق - أن كثيرا من الآراء التي أسرفوا في التعصب لها لم تكن مما يستحق البقاء ؛ حاشا المنطق والفلسفة المترنة ، فقد حوربا من كثير من رجال تلك المصور أشد حرب وأعنفها ، ولا يزالان يدرسان اليوم ويزدادان على مر الأيام رسوخا حتى في الأزهر .

٤ - بقي بعد هذا أن أعترف للسيد الأستاذ بأنه بحق في أن المراد بالحكمة في قول الرسول : « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها ولو من مشرك » لا يمكن أن يكون السنة النبوية أو الأحكام والشرائع أو نحو ذلك مما نقلته عن أبي السعود والقرطبي وغيرهما ، وأن أعترف بأن المراد بها الحكمة القرآنية التي تجلت في الآيات كما جاء بمقال عزته . وهذه الحكمة هي كما يقول حصرتها التي جعلت لتوجيه الأمة الإسلامية علميا وعمليا إلى الكمال الذي خلق الإنسان ليصل إليه ؛ على أنه وإن كان لا يشك مسلم في سمو هذه الحكمة على كل ما عرف العالم من فلسفات ، فإن هذا شيء وتسميتها فلسفة بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة شيء آخر ، ولا يتقص خطرنا أن نسمي فلسفة ، فالمعبرة بالمسمى لا بالتسمية .

وأخيرا بعد شكرى لصاحب العزة السيد الأستاذ الجليل على ما أفادت من مقاله القيم الممتع ، أنتقل إلى متابعة الحديث .



اتبهينا في المقال السابق من الكلام من موقف رجال الدين من علم الكلام ورجاله ؛ والآن نبدأ الحديث عن موقفهم من الفلسفة ورجالها في المشرق أولا ثم في المغرب ثانيا ، لتتكون لمن يعينهم الأمر من حضرات القراء فكرة واضحة عن الجو العلمي الذي كان يسود في تلك الأيام ، وعن الأهواء والتزامات التي كان يضرب بعضها بعضا ، حتى كان من الضروري ، على ما سيحيى ، ذكره ببعض البسط ، أن تنبث في الاسلام فكرة التوفيق بين الدين والفلسفة ، أو بمباراة أخرى بين الوحي والعقل .

أولا في المشرق :

عرف المسلمون في القرنين الثاني والثالث جانبا كبيرا من الفلسفة اليونانية ، على كثرة ما انتابها



من المزج والخلط في تطوافها من أثينا وروما إلى الاسكندرية وفساد، فتلقفتها طوائف من المسلمين بقول علمائهم للعرق، ونفوس طامعة للظهور على مديريات الأمم السالفة وتمثل تراثها العقلي. بينما أوجس العامة ورجال الدين منها خيفة، ورأوا الشر يمشي في ركابها، والإلحاد كامناً في ثناياها، حتى لقد هال البعض - كما يقول الغزالي في مقدمة نهضة الفلاسفة - بعض أسماء رجالاتها كسقراط ونقراط وإفلاطون وأرسطو طاليس ! نحم سوء الظن منذ اللحظة الأولى التي التقت فيها فلسفة أثينا والإسكندرية المعقدة - التي تقول بقدوم العالم وصدوره من الله صدور المعلول عن العلة - بالإسلام السهل الميسر، الذي يحفظه كل جلال، ولا يرضى له تعالى أن يكون علة لمخلوقاته تصدره من غير رضى واختيار.

وكان من الطبيعي أن تعلق التهمة أول ما تعلق بالمؤمن، الذي نشر الفلسفة بترجمتها، وأيدها باحتضان رجالاتها، فانهم في دينه، حتى يرى تلج الدين السكي على ما جاء في طبقات الشافعية أنه انساق للقول بخلق القرآن، وناهيك بذلك بدعة في الدين وثلمة في صرحه، بسبب القليل الذي كان يعرفه من علوم الأوائل (١). وكان من الطبيعي أيضاً اتهام أصحاب المأمون وخاصة بالرقعة في الدين لجلبهم إلى علوم الأولين ! ومن هؤلاء الأصحاب الذين ألف بينهم وبين المأمون الاتحاد في النزعة الفلسفية على بن عبيدة الرحمان. لقد كان كما يقول ياقوت في معجمه له اختصاص بالمؤمن، ويسلك في تأليفاته طريق الحكمة، كما كان يرى بالزندقة (٢). ويقص عليهما ياقوت أيضاً في موضع آخر نبأ أبي زيد أحمد بن سهل البلخي المتوفى عام ٣٢٢ هـ والذي كان يقوم بجميع العلوم القديمة والحديثة ويسلك فيها يؤولف طريقة الفلاسفة ولهذا رأى بالإلحاد (٣) ولم يحمه من هذه التهمة ما ألقه من كتب في الدين؛ ومنها كتاب في عصمة الأنبياء، وآخر في نظم القرآن، وآخر في قوارع القرآن، وآخر في أسماء الله وصفاته، وآخر في تفسير النافحة والحروف المقطعة في أوائل السور؛ لم يشفع له شيء من هذا لأنه كما يدل عليه التاريخ ويؤيده ياقوت كانت التهمة في الدين تسير جنباً لجنب مع العناية بعلوم الأوائل (٤). ولهذا نجد يصف أحمد الهرجوري - الذي عاش في القرنين الرابع والخامس ومن أهل البصرة - في ترجمته له بأنه كان سعى المذهب، منظاهراً بالإلحاد، وأقوى طبقة في الفلسفة وعلوم الأوائل (٥).

ولم تكن الطبيعيات واللاهيات وحدها هي المخصوصة بالذم من العلوم الفلسفية، بل كان بعض المتزمنين (وما أكثرهم في كل عصر) يتخوفون من الحساب مع الحاجة إليه في الموارث

(١) طبقات الشافعية الكبرى - ٢١٨ - ١ - معجم الأدباء طبعة الدكتور رفاعي ج ١٤ - ٥١ - ٥٢ (٣) نفسه ج ٣ - ٦٤ وما بعدها . (٤) التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية من مقال للمستشرق المعروف جوله زهر - ١٣٠ عن معجم الأدباء لياقوت . (٥) معجم الأدباء الطبعة المذكورة ج ٥ - ٧٣ وما بعدها .

والمعاملات ، ومن المطلق مع عظيم غنائه في الاستدلال لأصول الدين وقضاياءه ، لا لشيء إلا لأنهما من علوم الفلاسفة ، حتى كان من أمثالهم : من تمنطق فقد تزندق ! ها هو ذا الغزالي في نهجته وفي المنقذ من الضلال (١) ينهى باللائمة على بعض أصدقاء الاسلام الجُهلاء الذين أنكروا على الفلاسفة علومهم الرياضية لظنهم أن الدين ينصر بانكار كل ما ينسب إليهم من أنواع العلوم والمعارف ، وجرم ذلك الانكار الى الزعم بأنهم أخطأوا فيما جعلوه من أسباب الخسوف والكسوف ، وأن ما قالوه في هذا مخالف للشرع . وكانت العاقبة أن ضروا الاسلام دون أن يفيدوه ، إذ من عرف وثاقه برهان الفلاسفة لم يشك فيه ، لكن يعتقد أن الاسلام مبني على الجهل وإسكار البرهان القاطع ، فيزداد للفلسفة حبا وللإسلام وبغضا . (٢)

على أن حجة الإسلام وإن رأينا هنا معتدلا يصيب المحز ويطبق المفصل ، فالتنازاه في موضع آخر متطرفة في حكمه ، غاية في الشدة في حذره . فانه لما تكلم في المنقذ أيضا على علوم الفلاسفة الخلقية رأى أن الفلاسفة المسلمين كأخوان الصفاء وأمثالهم مزجوا الحق بالباطل ، إذ جعلوا في أثناء كلامهم وكلام القدماء كثيرا من الحكم البهوية وكلام المنصوفين ، فربما استحسن الجميع من لا يستطيع التمييز بين الطيب والخبيث فيسارع الى قول باطلهم ، ولهذا يجب الزجر عن مطالعة كتبهم لما فيها من الخطر ؛ وكما يجب صون من لا يحسن السباحة من مزلق الشطوط ، يجب صون الخلق عن مطالعة تلك الكتب ؛ وكما يجب صون الصبيان من مس الحيات ، يجب صون الأصماع عن غفلة تلك السمكات . (٣)

وإذا تجاوز الباحث العصر الذي عاش فيه الغزالي يجد الخليفة العباسي المستنجد بالله يأمر كما يقول ابن الأثير بمصادرة أحد القضايا ، فتؤخذ كتبه ويحرق منها ما كان من علوم الفلاسفة ، فكان منها كتاب الشفاء لابن سينا ودائرة معارف إخوان الصفاء (٤) . ولعل مما يفيد جدا الإشارة الى رأى جمال الدين بن الجوزي البغدادي المتوفى عام ٥٩٧ هـ في هؤلاء الفلاسفة وأتباعهم الضالين يرى ابن الجوزي هذا أن فلاسفة الاسلام الذين افترخوا بفلاسفة الاغريق فأخذوا عنهم وشاركوهم في آرائهم ، خلعوا ربة الاسلام ، فصار اليهود والنصارى أعذر منهم تمسكهم بشرائع دلت عليها المعجزات ؛ أما أولئك فلا مستند لكفرهم إلا علمهم بأن الفلاسفة حكماء . (٥)

ومما يجب الإشارة اليه أيضا فيما نحن بصددده ، ما امتحن به سيف الدين أبو الحسن على الآمدى أوحده الفضلاء وسيد العلماء ، وأكثرهم معرفة بالعلوم الحكمية والمذاهب الشرعية كما يقول

(١) الأول ص ١٠ وما بعدها طبعة بيروت ، والثاني ص ٩٠ وما بعدها طبعة دمشق .

(٢) المنقذ من الضلال ص ٩٠ (٣) نفسه ص ١٠٥ (٤) تاريخ ابن الأثير ج ١١ ص ١٠٤

طبعة بولاق (٥) تلبس إبليس طبع مصر سنة ١٩٢٨ ص ٤٩

ابن أبي أصيبعة (١) ودفعت الأيام بهذا الحر الحفي للتقل من بغداد لأشام ثم إلى الديار المصرية حيث ألقى عصا التسيار ، وظل أن السعادة وافته فلن يأتى إلا العز والعيش الخفض ؛ ولكن أتى له هذا وآفة العلم وداء العلماء - أعنى الحسد - له بالمرصاد ؛ فقد تصدر للتدريس بالجامع الظافرى بالقاهرة ، واشتهر فصله ، وقصده الناس من كل صوب ، فجلسه جماعة من الفقهاء وتمصبوا عليه ، وطوعت لهم نفوسهم أن يرموه بأشنع التهم ، وهى - كما كان بدع ذلك الزمن - فساد العقيدة والتحلال الطورية ، ومذهب الفلاسفة والحكماء . ورغبة منهم فى التوثيق من الإيقاع به كتبوا محضرا بما رأوا ووقعوا عليه ، وأعلنوا فيه استباحة دمه . إلا أنه نذر بذلك نخرج على استخفاء وفر هاربا لأشام حيث قام بالتدريس فترة من الزمن بأحدى مدارس دمشق ، ثم عزل لمثل ما قرف به فى مصر ، وظل متمطلا من العمل الرسمى حتى تولى عام ٦٣١ هـ . ومن جيل ما يذكر فى هذه المناسبة أن أحد من دها للتوقيع على ذلك المحضر الذى أملاه لؤم الطبع راجع نفسه وضميره فكتب :

حسدوا الفقى إذ لم ينالوا سعيه فلكل أعداء له وخصوم

ثم كتب توقيعه (٢)

ولا نسى هنا ، والشئ بالشئ يذكر ، أن نذكر محادث عبد السلام البغدادى المدعو بالركن وإحراق كتبه فى حفل كبير قصصنا نبأه فى الكلمة السابقة ؛ فإن الحسد كان أيضا العامل الذى أثار بعض الذين فى قلوبهم مرض فلم يطيقوا شهرته بالعلم وتصدره فيه ، فاتهموه بالتمطيل والرجوع إلى أقوال الفلاسفة ، فكان ما رواه القيفطى من إيقاع الحفظة عليه وعلى كتبه وإحراقها ، ومنها كتاب الهيئة للحسن بن الهيثم الذى وصفه من بآء بإثم هذا العمل بأنه الداهية الداهية والدارلة الصاه والمصيبة العمياء ؛ على أن حفظ الركن تغير بعد هذا من النقص لسمعد ، فأخرج عنه وأهيد إلى ما كان عليه من المناصب ، واستمر كذلك حتى مات عام ٦١١ هـ .

وما يتصل بهذا أيضا أمر شهاب الدين الشهرورى ، وكان كما يقول ابن أبي أصيبعة (٣) « أوحى فى العلوم الحسكية ، بارما فى الأصول الفقية ، مفرط الذكاء جيد العطرة ، فصيح الصارة لم يناظر أحدا إلا بزه ، ولم يناظر محصلا إلا أربى عليه » . إلا أن علمه وعقله جنيا عليه ؛ فقد أتى حلبا وناظر فقهاء فأنهمهم ، فشنعوا عليه ، فأراد السلطان الملك الظاهر ابن صلاح الدين أن يقف بنفسه على جليلة الأمر ، فعقد مجلسا حشر إليه أكابر المدرسين والفقهاء والمتكلمين ليشهد بعضهم أزر بعض فى مناظرة الشهرورى ، إلا أن هذا حجتهم وكان له الفلج عليهم ،

(١) طبقات الأطباء ج ٢ ص ١٧٤ . (٢) ابن خلكان ج ١ ص ٦٩ طبع بولاق ، والتراث

اليونانى ص ١٦٣ . (٣) طبقات الأطباء ج ٢ ص ١٦٧ .

فقرّبه السلطان وصار مكيا عنده مخنما به . حمل المغلوبون على الثأر لأنفسهم وكرامتهم العلمية ، فعملوا محاضر بكفرة رفعوها الى صلاح الدين بدمشق ، طلبوا فيها استئصال الشر بقتله حتى لا ينفث إحداه بكل بلد يحل فيه ! فكان لهم ما أرادوا ، إذ ورد الأمر بقتله ، فآثر وقد عرف أن لا مناص أن يمنع الطعام والشراب حتى ياتيه أمر الله في مكان منفرد لا يلقي فيه إنسيا ، ففعل به ذلك ، ومات عام ٥٨٦ هـ بحلب عن ستة وثلاثين عاما ، ولذلك يلقب بالشاب المقتول . ومما نقله صاحب طبقات الأطباء من شعره ، ما قاله وهو يجود بنفسه :

قل لأصحاب رأوني ميتا	فبكوني إذا رأوني حزنا
لا تظنوني بأني ميت	ليس ذا الميت والله أنا
أنا مصفون وهذا قصي	طرت عنه فتخل رهننا
وأنا اليوم أناجي ملا	وأرى الله عيانا بينا
فاخلعوا الأنس من أجسادها	لترون الحق حقا بينا
لا تزعكم سكرة الموت فإ	هي إلا انتقال من هنا
فأرحوني وأرحموا أنفسكم	واعلموا أنكم في إرنا
( الحديث موصول )	

محمد يوسف موسى

المدرس بكلية أصول الدين

## تفضيل ناس على آخرين في العطاء

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد من العرب فأعطاهم وفصل رجلا منهم عليهم . فقيل له في ذلك ، فقال : كل القوم عيال عليه .

يقول : فضله النبي صلى الله عليه وسلم لأنه جواد يتعهد ذوى الحاجة من قومه بالعطاء . وأعطى النبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، المؤلفة قلوبهم ، فأعطى الأقرع بن حابس النسي وعبيدة بن حصن الفزاري مائة من الإبل ، وأعطى العباس بن مرداس السلمي الشاعر خمسين ؛ فشق ذلك عليه ، فقال أبياتا وأنشد إياها ، فقال :

أبذهب نهي ونهب العبيد بين عيينة والأقرع  
ولا كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس في الجمع  
وما كنت غير امرئ منهم ومن تضع اليوم لم يرفع  
فقال رسول الله لبلال : انقطع عني لسان العباس ، فأعطاه حتى أرواه .

## كلمات في الموضوع نفسه

نشرنا في هذا العدد ما تفضل بإرساله إلينا فضيلة الاستاذ الأملى الشيخ محمد يوسف موسى ، متابعا ذكر ما صادفه العلم والفلسفة من العقبات في عهد التدهور عند المسلمين ، وإلى لاجي فيه فضيلتي الانصاف والاطمئنان الى الحقيقة ، فهو بهذا الوصف يمثل السكينة الفلسفية التي يدثرها ، ويخدم العلم الذي وقف حياته لإعلاء كلمته .

وقد لاحظ في مقاله المنشور اليوم على قولي في مقالى السابق : « فإذا كان دين في الأرض تأبى طبيعته أن ينشأ فيه اعتزال وعلم للكلام فهو الاسلام » فقال فضيلته : إن ما في القرآن مما يوم التشبيه والتجسيد ، وما فيه مما يفهم منه الجبر والاختيار معا الخ ، يوجب أن يكون فيه علم للكلام .

نقول : لو كان في الاسلام ما يوجب علم الكلام ، أو يسمح به ، لما كان هو الاسلام الذي أراد الله أن يجمع عليه كلمة الناس ، فلا ينفردون فيه . قال تعالى : « إن الدين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء » ، وذم المتفرقين في الدين فقال : « فتقطعوا أمرهم بينهم زُبْراً ، كل حزب بما لديهم فرحون . فذرهم في غمرتهم حتى حين » .

يقول قائل إذا كان التفرق في الدين يعتبر خروجاً منه في نظر الاسلام ، فما السبيل الى معالجة ما يوم التشبيه والتجسيد في القرآن كقوله تعالى : « فأينما تولوا فثم وجه الله » وما يوم أيضا التناقض ، كآيات الدالة على حرية الاختيار والجبر معا ؟ الخ .

نجيب على هذا السؤال بسؤال آخر فنقول : « إذا كان في القرآن آيات توجب الاعتزال وعلم الكلام ، فكيف مضى على المسلمين الاولين نحو مائة وخمسين سنة ولم ينشأ فيهم اعتزال ولا علم للكلام ؟

مائة وخمسون سنة نشأ فيها الدين ، وتألفت جماعة المسلمين ، ووزعت الاعمال على العاملين ، فانتدبت جماعة لجمع اللغة ، وأخرى لتفسير الكتاب ، وثالثة لجمع الاحاديث ، وغيرها لشعر الدعوة ، وحماية الحوزة ، وفتح البلدان ، وتنظيم سياسة الملك الخ الخ ، كل هذا ولم تنشأ فيهم ناشئة خلاف في فهم غوامض الدين ، فهل كان تمام الاسلام متوقفا على قيام واصل بن عطاء يبادل أستاذه الحسن البصري في الجبر والاختيار ؟

الجواب : نعم مضت هذه المائة والخمسون سنة ، وهى العهد الذهبي للإسلام ، ولم تنشأ ناشئة خلاف في غوامض الدين ، لأنهم كانوا فاعليه على أكل وجه .

اعترضتهم كما اعترضت من جاء بعدهم هذه الآيات الموهمة للتشبيه والتجسيد ، فلم يميروها التفاتاً ، لأن الكتاب أكد لهم بأن « ليس كمثل شيء » ، ومن كان كذلك فلا يكون له أعضاء ولا يكون منجسداً ، فصرفوا كل ما صادفوه مما يورث الأعضاء والجسد الى خصائص اللغات البشرية من التشبيه والمجاز والاستعارة ؛ فما من لغة في الأرض إلا وفيها من هذه الأنواع حظ كبير ، وقد أفردوا لها علماً سموه ( علم البيان ) والفرنسية La Rétorique ، وما كان هذا شأنه أغنت قواعد اللغة من الثروة فيه .

أما ما في الكتاب من إثبات الجبر والاختيار مما كقوله تعالى : « خلقكم وما تعملون » و « وما تفعلون إلا أن يشاء الله » و « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » و « فاستجبوا للعلمى على الهدى » ، مما ثبت الاختيار والجبر معاً فقد نظر واقع فيه ولم يتناولوه بحث ، صملاً للقاعدة الإسلامية الكلية وهى : « هو الذى أزل عليك الكتاب منه آيات محكمات ( أى لا يمكن الخلاف فيها ) هن أم الكتاب ، وآخر متشابهات ( أى تشبه مدلولاتها ، وتختلف الافهام عليها ) ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيقيمون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » وما يعلم تأويله إلا الله .

على هذه القاعدة سار المسلمون الأولون ، وهو أدب يعتبر اليوم من أسمى درجات المعرفة ، فالكون عظيم ، والقوى التى تعمل فيه لا حد لها ، والعقل قاصر ومحدود ، فلم يحاولوا أن ينخطوا سياج هذا الحظر ، فتركوه الى ما كثلعوا بعلمه والعمل به من الأصول الأدبية ، والمبادئ الخلقية ، فتأدوا الى أعلى ما تتأدى اليه أمة من سطى العلم والعمران .

أنا أعلم أن العقول مطامح لا يستطيع كبتها ، فهى لا تقنأ تشرب الى ما حجب عنها علمه ، صهاها تبلع ما يبل أوامها منه . فلتعمل على شاكلتها ، ولكن لحسابها لا لحساب الدين الذى لم يكلفها إياه . وقد ألقى رجال من علماء الكلام أعمارهم فى تحقيق هذه الغوامض فإذا حصلوا ؟ لاشئ غير تفرق الكلمة ، وتصدع الوحدة ، وبليلة العقول !

إن آية المحكم والمتشابه فى القرآن لا تسمع بنشوء علم الكلام فى الاسلام ، تختلف عليه المذاهب ، وتقدم فيه المفاهيم ؛ لأن هذا العلم لا يوجد إلا حيث يوجد ما نهى الله عن محاولة تأويله . ولا يعتبر هذا صدا منه للعقول من الحولان فى الجهولات ، ولكنها من أصول ( حكمتها ) التى بزت كل فلسفة فى الأرض ؛ فقد تبين أن كل تلك الجهولات هى مما لا تستطيع العقول إدراكه ؛ وقد اعتركت الأمم الكتابية نحو أنى سنة فى الوصول منها الى ما يبلج عليه المصدر ، فلم تحصل منها على طائل ؛ وقد أدركت الفلسفة أخيراً أنها مسائل غير قابلة للحل فوضمتها جانباً . ولا تحسن أن الجهولات التى لا تحمل قاصرة على الفنون الدينية . ففى الطبيعة نفسها أمور غير قابلة للحل : هل الوجود محدود أم لا نهاية له ؟ لا يمكنك أن تعقل واحداً من

الأميرين . يقولون إن للكواكب أجزاء انفصلت عن كتلة الشمس ، فوققت على بعد منها ، ثم أخذت تدور حولها ، فأى قوة فصاتها عنها ؟ ولأى علة وقفت على بعد منها ؟ إن علمنا ذلك بالجاذبية العامة ، فما الذى دفعها لأن تدور حولها . قال العلامة ( نيوتن ) الفلكي العبقري : لا توجد علة طبيعية يمكن تعليل هذه الحركات الكوكبية حول الشمس بها ، فلا يحيد عن القول بأن القدرة الإلهية هي التي قدوت ذلك عليها .

نعود الى ما كنا فيه فنقول : إن مضي مائة وخمسين على أمة ، آثمت فيها نشوءها وتطوراتها الاجتماعية والأدبية ، ووصلت فيها الى أبعد فتوحاتها العالمية ، وهي طوال ذلك العهد الذهبي لا تحتاج فيه لعلم الكلام ، لأدل دليل على أن هذا علم دخيل لا فائدة له ، لا في تقوية إيمان ، ولا في تأييد عقيدة ، ولا في إبانة طريق ، فقد مضى خير ما كان للأمة الإسلامية من بسطى السؤدد والدين في تلك المائة والخمسين سنة ، فلما نفا ذلك العلم نفأت معه الخلاقات في أخص الأمور الدينية ، وتطور حتى سبب ظهور الخوارج .

كل هذا كان ، ولست بقصير النظر لأقول إنه كان يمكن اتقاؤه ، ولكني أقول إنها أعراض أدبية تعترى الأمم في بعض أدوارها ، فإما تنجو منها وإما تقضى عليها ، وقد نجح المسلمون منها بفضل ( الحكمة ) القرآنية التي تمسك بها أهل السنة . يحتمل أنه صدر منهم بعض التعديلات ، فأى تشديد لا يغتفر حيال جائحة الاعتزال وعلم الكلام في الأمم ؟

إن هؤلاء وصلوا الى السلطة على عهد المأمون ، فما تركوا طالما في المملكة الإسلامية إلا وأجبروه على أن يقول ( القرآن مخلوق ) ، ومن لم يقلها ضربه بالسياط غير مراعين لعلمه وسنه حرمة ، وكان الامام احمد بن حنبل أحد ضحاياهم .

إن الأمة التي تقع في مثل هذه الحنة تعذر إن ثارت على هؤلاء المتكلمين العاطلين فأبادت خضراءهم ، فكيف لو اقتصرمت على مكافحتهم كفاحاً أدبياً ، وأحرقت كتب عدد محصور منهم ؟ اللهم إن هذا حلم عظيم من أهل السنة ، حصل لهم بفضل ( الحكمة ) القرآنية التي تبيح حرية البحث ، ولا تعاقب على سوء الفهم .

وفي هذه المناسبة ظهر رجحان الحكمة القرآنية على الفلسفة اليونانية بدليل محسوس . ألم تر الأخيرة كيف حملت الساهلين من حياضها على أن يحملوا الناس على مذهبهم بالقوة البالغة أقصى درجات الوحشية . وهو أمر لم يحصل من أهل الحكمة القرآنية لما كان لهم الحكم ، فقد نظروا في القرآن والسنة ، وفيما بين أيديهم من الحوادث ، فاتفقوا تارة واختلفوا تارة أخرى ، فلم يؤثر اختلافهم على ما بينهم من وحدة ، لأن طائفة منهم لم تقل إنها احتكرت الفهم لنفسها ، وأعطيت حرية التحكم في عقليات الناس بالقوة ، فأين هذا الأدب العالي الذي أثمرته لأهلها الحكمة القرآنية ، من تلك الرعونة الجاهلية التي حملت أنصار الفلسفة اليونانية على

ضرب علماء أمة برمتها المصطفى ، لأنهم لم يقولوا مثل قولهم في مسألة لا يوردها على نفسه امرؤ له مسكة من عقل !

المعايير التي يحكم بها على الأمم .

إذا أريد الحكم على أمة من الأمم في أية ناحية من نواحي النشاط العقلي ، فلا يجوز أن تعتبر الحوادث الفردية التي صحبت تطورها في اتجاهها ، لأن تلك الحوادث لا بد منها حتى في أرق أدوارها ، وإنما يجب أن تعتبر الغاية التي وصلت إليها في تكملها ، إن كانت بعيدة أم قريبة ، كاملة أم ناقصة ، مشرعة أم عقيمة .

وقد نظر علماء الفرنجة في المجتمع الذي ألفه الاسلام ، من نواح كثيرة ، وأخصها الناحية الثقافية ، جازين من ذلك على القاعدة الأصولية من عدم الالتفات الى الحوادث الفردية ، بل الى النتيجة النهائية ، فدهشوا بما رأوا من سرعة خطواتهم في هذه السبيل ، حتى قالوا إن أمة من الأمم لم يحفظ عنها أنها طمرت هذه الطفرة الى الغايات القصية من الثقافة الانسانية ، فبنوا حكمهم عليها من هذه الناحية على النتيجة النهائية ، لاعتلى حوادث فردية لا أثر لها في تأخير تلك النتيجة أو صدها . قال العلامة دربير في كتابه : ( المازعة بين العلم والدين ) وهو مدرس بجامعة هارفرد بالولايات المتحدة :

« إن اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الاسكندرية سنة ( ٦٣٨ ) أي بعد موت محمد بست سنين ، ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان حتى استأنسوا بجميع الكتب العلمية اليونانية وقدروها قدرها الصحيح .

« ولما ولي الخلافة أبو جعفر المنصور ( ٧٥٣ - ٧٧٥ م ) نقل عاصمة الملك الى بغداد وجعلها عاصمة نخعة ، فلم يأل جهدا في بذل الوسع في نشر العلوم الفلكية ، وتأسيس مدارس الطب والشرعية . ولما تولى حفيده الرشيد سنة ( ٧٨٦ ) م ، اتبع أثر جده في هذه الفتوحات العلمية ، الخ »

كان يستطيع الأستاذ دربير أن يشوه روعة هذه الحركة المباركة بذكر ما قام به بعض الجامدين من الدعوة الى معاداة هذه العلوم ، ولكن البروفيسور دربير يعلم أن كل حركة في مجتمع لا بد من أن يصحبها عوامل تثبيط من واصلها التي بقيت جامدة لم تتأثر بالحياة الجديدة في ذلك المجتمع . وهذه العوامل لا يجوز الالتفات إليها إذا كان مجموع الجنان الاجتماعي لم يتأثر بها ، واستطاع أن يهضم كلما تناوله وأن يحمله الى مادته وازداد به قوة ونصفا . دربير يعرف أن الذين حرموا تعلم الحساب جاءوا بعد أن أصبح المسلمون أئمة العلوم الرياضية ، واخترعوا علم الجبر بقرون عديدة ، ولو كانوا حاصروا ظهور هذه الحركة لما عابوا بهم أحد ، لأنهم لم يستطيعوا أن يشعروا المجتمع بوجودهم ، فضلا عن التأثير عليه بمجزعلاتهم .

محمد فريد وجدي



## مذاهب العرب في كلامهم

- ٥ -

### أسلوبهم وطريقة تفكيرهم

لما قامت دولة بني العباس نهأت أسباب التحول والتغير في أسلوب العرب وطريقة تفكيرهم، وكانت مقومات ذلك لا تقتصر على المجلس والسلطان وحدهما، وإنما جاءت من العلم والفن أيضا، فظهر قسم كبير من الصور البيانية وألوانها في تعبيرات العرب أنفسهم، بعد ما صقلها العلم وهذبها العرفان، فانتظم صدر الدولة العباسية من غول القول، وقرسان البلاغة، أئمة مبرزين، وكان الأمراء والقادة يستبقون في هذا المضمار، وينشبهون بمن سبقهم من الأبياء والبلغاء، فنبت فيهم من السكتاب والخطباء والشعراء أمثال عبد الحميد وابن المقفع وبشار ومروان ابن أبي حفصة وأبي نواس والمحاظ وعمر بن مسعدة. وهذه الغيرة التي تتأجج في صدور الأمراء والبلغاء على الأئمة، وهي آئمة تراث عن الآباء، كان يمترضا عوامل أخرى تعمل ضدها وتكيد لها أبحا كيد، يحمل أصحابها على ذلك عصبيتهم الحنسية ونفرتهم الأجنبية. من مظاهر هذه العوامل السكيدية الاستكثار من الدخيل في اللغة لأصغر حاجة طارئة، فلو فتح أحدا معجبا لغويا لاطلع في كل صفحة منه على كلمات كتب إلى جانبها: فارسي معرب. ولست أنكر أن الاسلام اقتضى أن يدخل إلى الفارسية عدد كبير من الألفاظ العربية وخاصة ما يتعلق منها بالمعاملات، حتى لا تكاد تفتح كتابا فارسيا حتى تقع عينك في كل صفحة منه على كلمات كثيرة تمت بصلة ظاهرة إلى اللغة العربية.

هذا أمر طبيعي يحدث عادة بين أمم اتصلت اتصالا اجتماعيا ودينيا، وتعلم بعضهم لغات بعض، وهاشوا على صعيد واحد من الأرض، ولكن كان من ألباء الملل الأجنبية من التحقوا بالاسلام ولم يشعروا، وإنما دفعهم اليه مشايمة الكثرة، والتقرب من رجال الدولة، فلهذا لم يكن لهم من الغيرة على الدين ما يحملهم على المحافظة على جوهره خالصا من الشوائب، ولا على اللغة ما يحملهم حريصين على صفاء معينها من الدخيل، فكما وضعوا في الدين ما ليس منه، وأولوا من نصوصه ما لا يقبل التأويل، لبثفق وما ألفوه من الدين الذي كانوا عليه، أنحوا على اللغة بالاستكثار من الدخيل لغير حاجة، تحت حماية ما التحقوه من الاسلام، وهم لأجل أن يلهوا الناس عن دحية تفسياتهم آتوم كثيرا من وسائل الصناعات، وأسرار الفنون، ووقفهم على عيون مؤلفاتهم، وما فيها من غمرات تفكير حكائهم وعلماهم، فاسبين اليهم السبق إلى أكثر ما أولوه من وصايا دينهم وتعاليمه.

صحيح أن هذه الحضارات قد أفاد العرب منها، ولكن هذه الفائدة لم تكن مقصودة عند هذا الفريق، وإنما كان المقصود صنع كل شيء بلون أجنبي، قدخلت في اللغة ألفاظ وأساليب ليست منها، وتغيرت طريقة التفكير تغيرا تاما.

وما كان بالمسلمين من حاجة لمن يمنهم الى الاخذ بكل أحسن من كل ما يصادفونه ، وتلقف كل علم جديد مما يجدونه ، فان ديسهم قد بالغ في تحضيضهم على تصيد العلم والحكمة والوسائل الباقعة من جميع مظانها حتى ولو كانت لدى المشركين ؛ فان خلفاء المسلمين كانوا أول من اهتم بتلقف العلوم والفنون الموجودة لدى الأمم ؛ وكان أول من فتح كتزها الخليفة المنصور ، فقد أرسل في طلب العلماء والفلكيين ، وقدم أهل العلم غير ناظر لجنس ولا متعصب لعقيدة ، وإنما كرامة الناس عنده لعلومهم لا لمذهبهم . وحسبك أن تعلم ما صنع مع آل بختيار وعوما مكن لهم في الأرض ، وقدم لهم من ذهب ، وأباح لهم من سلطان ، لتعلم مكان العلم من نفس الرجل وجبه للعلماء وتقديره لهم . فلما كان حفيده الرشيد وقامت في عهده دولة البرامكة وممن من رءوس فارس ، قام للعلم في عهدهم دولة ضخمة وسعت الناس جميعا ، وقد تنافس في ذلك الرؤساء والأمراء ، وفتحوا للعلم دورهم وأيديهم ، وفعل البرامكة في ذلك ما لا يصدر مثله إلا من عظماء الملوك . فلما جاء حكم الخلفاء وسيد العلماء عبد الله المأمون ، جعل العلم حلية الإمارة ، وطريق الوزارة ، وسبيل الرزق ، وحرقة الشرف ، وجلب العلماء من أطراف الأرض ، وأقام لهم بيوت الحكمة ومعاهد الدرس ، وفسح في أرزاقهم ، ومد في سلطانهم ، وجعل العلم وسيلة القرى اليه ، وشماعة الذنب لديه ، وقرب بين العلوم الشرعية والحكومية ، ومزج الحضارة الأجنبية بالحضارة العربية ، ولم يباعد بين القرآن والعلم ، فنظر الناس نظرا جديدا ، واتجهت أفكارهم اتجاها بعيدا ، فأصبح العربي جديدا في فكره بعيدا في تصويره ، دانت له أسباب العلوم ، ومكنته من نفسها أمة العيون ، ففهم المسلمون العلوم التي قرأوا ، وعدلوا فيها ، وقوموا منها ، وأصافوا إليها ، واحتراعوا فيها بدعا جديدا ، كل أوائل غير في نظام القول بثره وشعره ، وغير من طريقة التفكير في أنماطها وأشكالها ، وتغير أسلوب التعبير تبعا لذلك حتى يوافق القول ما يجيش به النفس تعبيراً صحيحاً . وهذا الذي عهدناه في تراث بني العباس ، فان شعراءهم وكتابهم وخطباءهم كانوا يرسلون القول ليصوروا به ما في نفوسهم وإن لوبوه ألوانا مختلفة ، أو قل إنهم كانوا يرسلون نفوسهم على عادات ألسنتهم ، وأساليب أقلامهم ، فإذا وجد منهم من يرأى فهو قُل لا يمتد به ، ولا يدخل في حساب .

وثالثة أن العلوم والفنون لما وضعت قام العلماء يضعون لها مصطلحات ، ويسمون لها أسماء ، وحاموا عابها من السبات والصفات ، ما يبعد بينها وبين ما أئله العرب في قديمهم ، فكان ذلك باعثا آخر على التغيير في الصور والأشكال ، واقتبس الكتاب والشعراء من ذلك فوصعوه في أقوالهم ، إما نظرا ، أو للحاجة اليه ، أو للتقرب من أهله ، أو للنصرة والمشايعه ، وصبروا من ذلك عبا كبيرا .

أما الجسد الذي انحدر الى اللغة من بلاغة الفرس وحكمة الروم ، وأخبار الهند ، فقد ملأ القوم به أقلامهم وأقوالهم ، ونثروا منه في كل مكان .

هذه الاسباب كلها قد اجتمعت فغيرت من أسلوب العرب وتفكيرهم ، وخلقت منهم في ذلك خلقا جديدا .

غير أن هنالك في كل أمة طائفة تعمل على بقاء القديم ورسوخ أقدامه ، وتوصي عليه حتى تتخذ منه دينا لها ، وغاية لعملها ، تدفعها الى ذلك الغيرة على تراث الاولياء ، وتأخذها العزة لكل ما اعتاد الآباء ، بل يدفعها التعصب أحيانا فتجعل من الحق باطلا ومن الباطل حقا ، فهذا الجاحظ يحدثنا أنه ليس في الكلام العربي ما يوصف بأنه سخي ، فإن سخي الكلام إن كان يقتضيه المقام فهو كريم في جوهره نبيل في معدنه . ثم هو يقول : « ليس في الأرض كلام هو ألد في الاسماع ، وأمتع للأفهام ، وألصق بالقلوب ، وأتبع للمعقول السليمة ، من سماع كلام الأعراب المقلاء الفصحاء » .

وليس من شك في أن الرجل قد دفعه الى هذا ذوقه ، فهو قد تذوق لغة العرب وخالجها حتى فهم كثيرا من أسرارها ، فليس هنالك كلام يقع من نفسه ويفعل في لبه مثل ما يصنع كلام العلماء من الأعراب ، وإنما قد جاء خطؤه من أنه جعل القضية عامة ، فإن الفارسي والفرنسي والإنجليزي يستمتع جميعهم بقول فصحاءهم ، كما يستمتع الجاحظ بقول الأعراب تماما ، ولو أنه قصر كلامه على العرب وحدهم لكان أسلم له . فهذه الطائفة الفيور على اللغة ، الحرصة على سلامتها ، عملت على تخليص القول مما ليس عربيا ، وناصبت كل أثر يضم بين أحضانها ألفاظا أنجمية ، أو أسلوبا غير عربي ، ورمت أهله بالي والمعز عن مجازاة الفصحاء ، ومسيرة البلغاء ، ومدوا في أسباب ذلك حتى قلوا العرب في ديباجتهم وطريقتهم وتفكيرهم ، وأدخلوا في روع العلماء والأمرء والجمهور أنهم وحدهم الخطباء والشعراء والكتاب ، ومن هدام عبي أو أعجمي ، تغلب المحنة على ألفاظه ، وتسلط الكسنة على لسانه ، فإذا أراد إنسان أخذ القول صافيا والجوهر كريما ، فلا يطلبه من مثل هؤلاء ، فإنه ليس من تجارهم ولا هو من بضاعتهم ، وإنما يؤخذ من قادة الكلام ، وأمرء البيان ، الذين دل القول لهم فتحكوا فيه ، وتحكنا منه ، فقدموا وأخروا ، وديلوا ورقلوا ، ووصلوا وفصلوا ، وعرفوا لكل حرف سره ، ولكل إشارة بيانها ، فهم صبارفة القول وأطباؤه ، وهم أبناء البيان وآباؤه ، وقد خلبوا بذلك عقل كل امرئ فأصبح لا يشكر الواحد منهم أن يسدده شاعر فيقدم لمدحته بتشبيب ليس بينه وبين المدح صلة ، أو يذكر أمكنة لم يرها ، وقد طبعوا الجمهور على ذلك فأصبح الشاعر عدده من ابتعد عن الألفاظ الدخيلة ومصطلحات العلوم ، وانعد عن تعبير الفقهاء ، وكان يتبن الغرض ، بعيدا من التعمق والتعقيد ، وقاسوا الشعراء بهذا المقياس ، ووازنوا بينهم موازنات ملأوا بها بطون الكتب .

ومما يوجب النظر حقا أن العلماء والرؤساء مع تعلقهم بالعلوم ، وشغفهم بالنظر ، كان ميلهم مع هذا الفريق يدفعهم اليهم صفاء معين العربية فيما يتعلق بلغة الأدب فيها ، كأنهم رأوا أنه يجب أن يكون لبلاغة أسلوبها ، ولعلم أسلوبها

## من وحي الشريعة الخالدة

ما أحسب فيما أحسب أن أمة انحل رباط الأخلاق فيها وشاع في جنباتها ريح الملق والرياء والبخل والكذب إلا أسرع إليها الفناء ، وحاق بها الويل . فالبخل والكذب من الآفات الأخلاقية التي ما برحت سوسا ينخر في جسم المجتمع ، وداء عياض استعال على رواد الأخلاق وأساتها أن يخففوا من حدته وأن يكسروا من شره .

وما كان البخل الأخلاق إلا نكبة أنت على الانسانية في حوائها ، فليس البخل هو الشح بالمال من الخلقاء به والمفتقرين إليه فحسب ، بل البخل شيء آخر وراء ذلك : هو شح ذلك الفزع الذي أخذ على البخل متنفسه ومطلع أمه ، فالمصاب بهذا الداء ما هو إلا لونة في هذا المجتمع قد ند عن قواعده ونجم بين أطوائه نجوم الشجرة الجرداء تعترض الناس في غدواتهم وروحانهم ، فلام يستمرئون ثمارها ، ولأم يتفيتون وارث ظلها .

والبخل يورث صاحبه سوء الفقاء ، فتتمدد إليه الالسة بما يكره وما لا يحب أن يكون ، فهو مجترى على اقتراف تلك المأثم الأخلاقية راض بها ، منشرح لها ، ولكنه من ناحية أخرى يجب ألا تبدو فيه تلك القبيصة ، وهو يعمل على عكسها . وما أصدق قول الرسول الأعظم : « يتقارب الزمان ، ويتقص العمل ، ويلقى الشح ، ويكثر المخرج ، قالوا : وما المخرج ؟ قال : القتل القتل » .

فقد كشف هذا الحديث عن المآسى الانسانية ترتكب في أخريات الزمن فتسلك فريقا من الناس في مآثمها ولوثاتها ، وتكون أداة الى فساد هذا المجتمع ، والكذب واحدة منها . والكذب كذلك من المساوئ والمطالب ما لو أحصيت لأريت على كل شر ومأثم .

يكذب الكاذب فيتمثل في قلبه أن كذوبته مطية ذلول الى مطلبه ، فإذا قضى منها وطره ، وبلغ حاجته ، فقد شئ نفسه ووصل الى متناه ، لكنه يترك من خلفه المآثم فلا يحيط بعنقه ، وقبداً يصفده ويحمله في المجتمع قميدا كسبحا ليس له فيه مبتغى ولا به إليه مرد ، وهو مع ذلك كله يستمره ويستطيعه ، ويأخذ نفسه بالمضى فيه والسير على نمطه .

حكى صاحب البيان والتبيين ، وهو العلامة أبو بحر الجاحظ ، أن هذه الحكمة وجدت في كتب الهند : « ليس لكذب مروءة ، ولا لضجور رياسة ، ولا للمول وفاء ، ولا لبخل صديق » . وقال قتبية بن مسلم : « لا تطلب الخواث من كذب ، فانه يقرها وإن كانت بعيدة ، ويعيدها وإن كانت قريبة ، ولا الى رجل قد جعل المسألة مأكلة ، فانه يقدم حاجته قبلها ، ويجعل حاجتك وقاية لها ، ولا الى أحمق فانه يريد تمامك فيضرك » .

وحسب الكذوب أنه لا ينفك عنه أمران ماحي : كثرة المواعيد ، وشدة الاعتذار .  
وما أحسن قول ابن الجهم :

ل حيلة فيمن يتم وليس في الكذاب حيلة  
من كان يخلق ما يقول خيلني فيه قليله

قال الله جل ثناؤه : « إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون » .

وأخرج الامام أحمد وأبو داود في صحيحهما عن سفيان بن أسيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « كبرت خيانة أن تحدث أهلك حديثا هو لك به مصدق وأنت له به كاذب » .  
وأخرج الترمذي في صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « ما كان خلق أبغض الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ، ولقد كان الرجل يحدث عند النبي صلى الله عليه وسلم بالكذبة فما يزال في نفسه حتى يعلم أنه قد أحدث منها توبة » . وأخرج الترمذي أيضا عن ابن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كذب العبد تباعد عنه الملك ميلا من تن ما جاء به » .

وعن أم كلثوم بنت عقبة رضى الله عنها ، وكانت من المهاجرات الأول اللاتي بايعن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ويقول خيرا ويتمنى خيرا ، قالت : ولم أسمع به يرضى في شيء مما يقول الناس كذبا إلا في ثلاث : الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة زوجها » . وموعدها بالشرح والبيان الأعداد القادمة ١٠

عباسي له

## كلمات متفرقة

قال ابن الجوارى قلت لسفيان : بلغني في قول الله عز وجل : « إلا من أتى الله بقلب سليم » ، أنه الذي يلقي الله وليس في قلبه أحد غيره . قال فبكي سفيان وقال : ما سمعت منذ ثلاثين سنة أحسن من هذا .

كان إبراهيم النخعي ، العالم النابغ المشهور ، في طريقه ، فأتته الأعمش فأنصرف معه ، فقال له الأعمش : يا إبراهيم إن الناس إذا رأونا قالوا أعمش وأعمش .

قال إبراهيم : وما عليك أن يأتوا وتزجر ؟

قال الأعمش : وما عليك أن يسلموا وتسلم ؟

# فَعَالِ الْمُؤَلِّفَاتِ لِلْجَدِيدِ

الرسالة المهدية في تفسير آيات من سورة الحج

تقع هذه الرسالة في ٧٢ صفحة ، وموضوعها كما يدل عليه اسمها تفسير آيات من سورة الحج ، وقع عليها اختيار فضيلة مؤلفها الأستاذ الموقر الشيخ محمد يونس العادلي ، إشادة بذكر البيت الحرام ، وتنويعاً لفضائل الحج . وقد افتتحها بمقدمة غاية في الفائدة في مبادئ علم التفسير ، جمع فيها ما يجب أن يعرف عن هذا العلم ، وقد نقل تعريف أبي حيان له وهو : « علم يبحث فيه عن كيفية النطق بالفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الافرادية والتركيبية ، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمت لذلك » .

وقد تكفل فضيلة الأستاذ ببيان المراد من هذا التعريف وغيره ، ثم مضى في تفسير الآيات التي اقتبسها ببيان لم يسبق إليه ، فأثنى بالآيات ونصدي للكلام عنها من نواحي اللغة والنحو والبلاغة والمعنى والأحكام والأصول وكل ما يحتمله ، فجاءت رسالة كثيرة الفائدة ، حجة المزايا . فنشكر لمضيفته هذه الخدمة العلمية ، أقدره الله على أمثالها .

## كتاب كشف الظنون

إن الخدم التاريخية التي أداها هذا الكتاب للطبوعات العربية لا يمكن تقديرها ، فإن من مؤلف في من من الظنون العربية إلا واستعان به في تحقيق أسماء الكتب ومؤلفيها وسننهم ، وهذا توفيق عظيم رزقه مؤلفه ملا كاتب جلبي ، أراد الله له به وفرة الأجر وجمال الذكر . طبع هذا الكتاب مراراً على نقص فيه ، لم يستطع نائمه أن يستدركه ، حتى قبض له اليوم وزارة معارف الدولة التركية ، فأصدت أمرها للطبعة الأميرية باستنبول بطبعه مضافاً إليه بقية له بخط المؤلف نفسه ، وخمس تكملات قام بمصلاها لسجوا على منواله ، فأصبح هذا الكتاب زاخراً بأسماء الكتب العربية بحيث لا يمكن أن يستغنى عنه أديب أو مؤلف أو كاتب . وقد تم طبع المجلد الأول منه في نحو ألف صفحة ، ويدي في طبع المجلد الثاني . فنثني على همه سعادة وزير معارف تركيا ، راجين أن يعيد الله السلام إلى العالم ليتفرغ رجال الإصلاح إلى متابعة أعمالهم الثقافية .

hears the prayers, both of the most cultured and the most ignorant, requiring nothing but a pure heart and sincere motive, is the chief characteristic of the religion of Islam. The absence of the priest in the religion of Islam is one of the reasons which helped Moslems to be better acquainted with their religion.

### Supposed Divinity of Jesus

Modern Christian Divines agree with Islamic views, as to the supposed Divinity of Jesus.

The following extract is taken from 'The Graphic' of August 20th, 1920 :

"During the last few days orthodox Christianity has received the greatest blow it has suffered for many years. Outside the Church, scores of people, learned and skilled in the ways of theology, have been attempting to prove, that the basis of Christianity was all wrong, and that modern science had destroyed its very foundation. This time, though, a blow has come from the inside itself; and three highly-placed theologians, all avowed members of the Church of England, in which they live, preach and have their being, have united, to use words which lay men take to mean, that Christ was not the son of God, but a Palestine Jew....

"Now, what Renan argued in 'The Life of Jesus,' what all scientists outside the faith have expressed in learned terms, has been suddenly put into a bomb which, thrown at the Modern Churchmen's Congress at Cambridge not a week ago, has staggered the Anglican Church so much, that the reverberations of the shock will be felt for years. Dr Rashdall, the Dean of Carlisle, Dr. Bethune-Baker, Lady Margaret Professor of Divinity, the Rev. R. O. Persons of Rusholme, have stood up at an Anglican Conference, and—if their words have been reported rightly—denied the Godhead....

"'Christ was not divine but human,' said Dr. Rashdall. 'I do not for a moment suppose, that Christ ever thought of himself as God', said Dr. Bethune-Baker. 'Jesus was a man, genuinely, utterly, completely, unreservedly human,' said the Rev. R. O. Parsons—'A Palestine Jew who expressed himself through the conditions and limitations of life, and though peculiar to his own time.'"

These three men are not people whose opinions can be disregarded, even by the most orthodox of all Christians. They are men of the highest

to life, but he has to pray to God, and thank Him on being heard. When he was asked, he admitted that such miracles could be done only through fasting and prayer to God.

Speaking of himself, Jesus also is reported to have said :

"Foxes have holes, and the birds of the air have nests, but the Son of Man hath not where to lay his head"

In another instance he is reported to have said :

"Of myself I can do nothing ; of that day and that hour knoweth no man . . . neither the son."

Moslems fail to understand, how, in the presence of these admissions on the part of Jesus, divinity can still be attributed to him. This is a problem which can only be solved by the words said of Jesus :

"I thank Thee, O Father, Lord of heaven and earth, that Thou hast kept these things from the wise and prudent, and hast revealed them unto babes."

### **Priestcraft and Islam**

Islam is the Faith of works, of approach to God through self-endeavour, and not through any intermediary. In Islam there is no such teaching as that of "The Holy Spirit descending in the greatest degree to the elected Pope, and in lesser degrees to bishops, deans and clergy." That every soul must labour for its own salvation, is the keystone of Islamic teaching. Islam has no monasticism, no apostolic succession, no body of men whose very livelihood depends upon their claim that, after their ordination as priests, they have the Spirit of God in them, and that, as Jesus was the chief intercessor between God and man, so the priest is the intercessor between the people and Jesus and the saints. While other religions believe, that man cannot approach God, and he cannot even confess his sins to Him, but that he must confess to a priest, who having the "Spirit of God, has the power to assure him that he is forgiven." Islam teaches that "He who is best among men is he who does most good works." In such a religion the priest is not needed. Truly, mosques require attendants, and some men love to devote their lives to religion ; but the doctrine of priesthood itself is not, and never has been found, in the religion of Islam. With Islam, a man may attain to spiritual closeness to God, not through his having been ordained a priest, but by living a life of religion, piety and good works.

The simple worship of the One True God Who rules over all, Who



his disciples, when he was with them. Fortunately the narrative of the Teacher of Nazareth as reported in the four gospels, though in the consideration of Islamic judgment not genuine in its entirety, still contains sufficient evidence to corroborate the statement of the Koran. The following are the sayings of Christ about himself as reported by the Evangelists :

"I do nothing of myself" (John viii. 28).

"My Father is greater than I" (John xiv. 2 ).

"This is life eternal, that they might know Thee, the only true God, and Jesus Christ whom Thou hast sent" (John xvii. 3)

"The Lord our God is one Lord" (Mark xvii. 29).

"Thou shalt worship the Lord thy God, and Him only shalt thou serve". (Matt. iv. 10).

"Why callest thou me good ? None is good save one, that is God"

"I am not yet ascended to my Father ; but go to my brethren and say unto them, I ascend unto my Father and your Father, and to my God and your God".

"I by the finger of God cast out devils" (Luke xi. 20.)

"Father, I thank thee that thou hast heard me, and I knew that Thou hearest me always ; but because of the people which stand by I said it, that they may believe that Thou hast sent me" (John xi. 41, 42.)

"The works which the Father hath given me to finish, the same works that I do, bear witness of me, that the Father hath sent me" (John v. 36.)

"If anyman hear my words and believe not, I judge him not ; for I came not to judge the world" (John Xii. 47.)

"(Jesus then went a little further, fell on his face, and prayed, saying.)

"O My Father, if it be possible, let this cup pass from me : nevertheless, not as I will, but as thou wilt" Matt. XXVI · 38, 39.)

"Eli, Eli, lama sabachthani—My God, my God, why hast Thou forsaken me." (Matt. xxvii. 46 )

"Father, into my hands I commend my spirit," (Luke xxiii. 46 )

These expressions confirm to a great extent the Islamic notion of the Holy Jesus Christ, namely, that he was a true servant and a messenger of God, and one of His humble creatures, and never a god. Jesus admits his limited knowledge and power. He looks to God even for his daily sustenance. He expresses his complete submission to the divine will. He disavows all goodness for himself, when speaking of God. A messenger, no doubt, he was of God. He spoke to the children of Israel what he heard from God. He has been reported to perform certain miracles, but these he performed by the help of God. He is said to have raised Lazarus

religion knew of no Saviour, besides the one God. He was their Saviour and Redeemer. See Isaiah, 43 : 3, 'I am the Lord thy God, the Holy One of Israel, thy Saviour' and Isaiah 42, v.8, 'I am the Lord that is my name : and my glory will I, not give to another, neither my praise to graven images,' and again Is. 43 : 11. 'I, even I am the Lord, and beside me there is no Saviour', and Is. 44 : 6. 'Thus says the Lord, the King of Israel, and his redeemer, the Lord of hosts. I am the first, and I am the last ; and beside me there is no God'. There are many other passages in Isaiah, and other Old Testament books which insist that there is no God, but the one God, and He is the Saviour and Redeemer, and there is none beside Him. The Christians who take Christ for their Saviour and Redeemer are, therefore, outside of the promise of the Scriptures which they themselves acknowledge to be the word of God. But all this with the many passages in the New Testament, where Christ distinctly says that he is not God, does not convince them."

### **What Jesus Says About Himself in Relation to his Alleged Divinity.**

According to the Koran, <sup>1</sup> Jesus, on the day of Judgment, will be asked by God, whether he told his people to consider him and his mother<sup>2</sup> as two Gods, besides God Himself. Whereupon, Jesus not only disavows his claim of divinity, but also asserts he never preached such a doctrine to

---

(1) Chap. VII. 116-118.

(2) From the Koranic description of Mary being taken for a God by the Christians, some Christian critics of the Koran conclude that the doctrine of the Trinity, according to the Koran, consists of three persons-God, Jesus and Mary. But this is an unwarranted conclusion. Mary is spoken of as being taken for an object of worship by the Christians, but the doctrine of the Trinity is not mentioned, here, while the Divinity of Mary is not mentioned, where the Trinity is spoken of. Had Mary not been worshipped by the Christians as the 'Mother of God,' the conclusion would have been safe, that the Koran mistook Mary for the third person of the Trinity. But the doctrine and practice of Mariolatry, as it is called by Protestant controversialists, is too well known. In the catechism of the Roman Church, the following doctrines are to be found : 'That she is truly the mother of God, and the second Eve, by whose means we have received blessing and life, that she is the mother of Pity and, very specially, our advocate, that her images are of the utmost utility (Encyc. Brit. 11th ed. vol. 17 813.) It is also stated that her intercessions are directly appealed to in the Litany. And further, that there were certain women in Thrace, Scythia, and Arabia who were in the habit of worshipping the Virgin as a goddess, the offer of a cake being one of the features of their worship etc.

his farewell from the Unitarian congregation in Washington, he said in his last speech to them : 'It has always been a wonder to me, why all the world is not Unitarian' The President, of course, meant by 'all the world' all the Protestant world of the United States, because the Catholic church is under the power of the Pope, and admits of no change of creed or dogma.

"The Unitarians consider Christ as a mere man, inspired as other great men are, though in a greater degree : they reject the doctrine of original sin, the belief in miracles, and generally the whole supernatural elements of Christianity. There are many of the so called liberals in the churches who hold Unitarian doctrines, but do not separate from their old connections. President Taft is, therefore, entirely justified in asserting that the trouble we suffer from—if it be trouble—is, that there are so many Unitarians in other churches who do not sit in the pews of our church. But that means ultimately that they are coming to us. There seems to be every prospect that President Taft's prophecy may be fulfilled in regard to the Protestant world.

"Charles Eliot, President Emeritus of Harvard University, made a similar prophecy in a pamphlet called 'The religion of the Future' Printed by the American Unitarian Association. Mr. Eliot says : 'The religion of the future will not be based on authority, either spiritual or temporal', (namely on neither Pope nor King). 'It is hardly necessary to say that in the future religion there will be no personification of the forces of nature. There will be in the religion of the future, no identification of any human being, however majestic in character, with the Eternal Deity.'

"The ordinary consolations of constitutional Christianity no longer satisfy intelligent people whose lives are broken by the sickness or premature death of those they love...."

The lecturer quoted above goes on to say. "Jesus Christ prayed (John xvii. 3) 'And this is life eternal, that they might know Thee, the only true God, and Jesus Christ, whom Thou hast sent' (namely, Thine apostle) There are many other places to prove, that Christ did not claim to be God. But Christians cannot see it in that light, because they want three Gods instead of one...."

"Of course, there are points, at which all religions touch each other, but the Christian fails to see this. The Moslem believes in one God, and also in Christ as one of God's great prophets. The Christian says, he also believes in one God, but He has a trinity of persons. This is evidently derived from the Hindu religion, from Bram, Vishnu and Siva. The Jewish religion knew of no trinity in the Old Testament, and yet the Christian pretends, that his religion is founded on the Jewish religion. The Jewish

upon us, at the same time, the necessity of doing good. If Jesus by his unnatural death has atoned for our sins, then there should be no need for us to trouble ourselves about good or bad deeds any more. It matters little whether we do good or evil. We are quite at liberty, to revel and carouse at will. On the one hand, Christianity teaches us the doctrine of Atonement, thus making us independent of all good deeds, while on the other hand, it imposes upon us the obligation to perform good deeds.

The sixth contradictory principle that Christianity offers the world is, that it holds Christ as accursed, dying (as he is believed by Christians) an accursed death on the Cross ; yet it holds him up as the very paragon of excellence, the son of God — His dearest one. It is impossible for a Moslem, to comprehend how an accursed man can be the son of God. Curse betokens divine vengeance, a great gulf between Him and the person accursed. To reconcile these two contradictions passes the wit of a Moslem.

The seventh contradiction is that Jesus is called the son of God, as well as the son of David. How can a man possibly, be the son of two distinct personalities ? He must be either of one or of the other, but not of both at the same time.

### **The Godhead of Jesus Condemned by Islam**

The above has been the doctrine of the Mohammadan Religion with regard to the personality of Jesus Christ. After thirteen centuries the same doctrine is now adopted by some Christian Churches, namely, the Unitarian. Probably it will not be out of place to quote here a few statements from a lecture, delivered before the Cooper Literary Institute, Philadelphia, on March 4th, 1913, by Dr. A. Geo. Naker, late President of the Institute.

"We have now arrived at a time when the literature of all nations, and their history, are being carefully studied by those who are fitted for the task. The many frauds which the Christian churches have practised in the past, are all being exposed now, and the result is that many of the wisest and best men have forsaken the orthodox doctrines of the Christian churches. We have here in the United States, a large and intelligent body of believers who are called Unitarians, i.e. believers in one God, and who object to the old doctrine of a trinity of person in the Godhead, and reject the same. They look upon Christ as a great prophet and a good man, but still only a man, Our ex-President Taft belongs to this Unitarian church. In taking

me to die. Thou hast been the Watcher over them, as Thou art the Watcher over all things. If Thou punish them, they are surely Thy servants, and if Thou forgive them, Thou art the Almighty and the All-wise."

## **Contradictory Teachings of Christianity From Moslems' Point of View**

The following would illustrate certain contradictions in the fundamental principles of Christianity, as viewed by Moslems :

The first and the foremost Christian principle is Unity in Trinity, and Trinity in Unity. This, in itself, is but a clear illustration of the principle of compromise, of which a divine religion should be free. The Romans believed in three gods, whilst the Jews believed in one. When the Romans showed their readiness to adopt Christianity, a compromise was, it seems, at once arrived at. Apparently for the sake of the Romans, the Unity of God, as believed by the Jews, underwent a change, it was assimilated to the tri-headed Godhood, and so the two creeds became merged into one. No Moslem person can think of reconciling such contradictions.

The second instance of contradictory principles is, that Jesus has been called a man and God, at the same time ; while the fact is, that the Creator and the created cannot be one and the same. Therefore, Jesus cannot be God and man, at the same time.

The third principle, where contradictions have been brought together, is that, on the one hand, Jesus declares in the Gospels, that violation of even the least commandment of the law dooms a man to eternal perdition, while it is taught by Paul, that the Law was a curse.

The fourth example of contradictory principles, is the Christian doctrine, that God cannot forgive sins, hence the necessity 'of the crucifixion of His only begotten son for the redemption of the sins of mankind', while maintaining, at the same time, that God would forgive us our trespasses, only when we forgive those that trespass, against us. A Moslem cannot understand, how God both can and cannot forgive trespasses. If He cannot forgive, then vain is our forgiving or condemning ; for that is of no avail. If He can, then a Moslem does not see that there is any need of Atonement.

The fifth contradictory principle is the teaching, that Jesus has taken away all our sins by suffering crucifixion for mankind at large, impressing

your Lord'; whoever, shall associate aught with Him, God shall forbid him paradise, and his habitation shall be hell fire; and the ungodly shall have none to help them. They are certainly infidels who say, God is the third of three, for there is no Deity, but God alone. And if they do not desist from what they say, a painful torment shall surely be inflicted upon those who misbelieved among them. Will they not turn unto God, and ask His pardon? since God is Gracious and Merciful. Christ, the son of Mary, is no more than apostle. Other apostles preceded him, and his mother was a true believer; they both used to eat food (as all other creatures of God). Behold, how we declare unto them the signs (of God's unity); and then behold, how they turn aside (from the right path). Say, (O Mohammad, unto them) will ye worship, besides God, that which can cause you neither harm nor profit? God heareth (every thing) and seeth (every thing). Say, O ye who have received the Scriptures, exceed not the just bounds in your religion, by speaking beside the truth, neither follow the desires 'of people who have heretofore erred, and who have seduced many, and have gone astray from the right path."

(b) "O ye who have received the Scriptures, exceed not the just bounds in your religion, neither say of God otherwise than the truth. Verily, Christ, the son of Mary, was the apostle, and His Word which He conveyed to Mary, and a Spirit coming from Him. Believe, therefore, in God and His apostles, and say not 'There are three (Deities)' desist. it will be better for you. God is the only Deity. Far be it from Him, that He should have a son; unto Him belongeth whatever is in heaven and on earth; and God is the best Protector. Christ doth not proudly disdain to be a servant to God."

(c) "It beseemeth not a man, that God should give the Scripture and the wisdom and the gift of prophecy to him, and that then he should say to the people 'Be ye worshippers of me, as well as of God', but rather, 'Be ye perfect in things pertaining to God, since ye know the Scriptures, and have studied deeply.'"

(d) "And when God shall say (namely unto Jesus on the Day of Judgment,) O Jesus, son of Mary, hast thou said unto the people, 'Take me and my mother for two deities, beside God?' He shall answer, 'Glory be to Thee, it is not for me, to say that which I ought not in truth; if I had said it, Thou wouldst surely have known it. Thou knowest what is in me, but I know not what is in Thee; for Thou art the knower of all secrets. I have not spoken to them otherwise, than Thou didst command me. I said to them. Worship God, my Lord and your Lord, and I was a witness against them as long as I stayed amongst them; but when Thou causest

have slain Christ Jesus, the son of Mary, the apostle of God'; yet they slew him not, and crucified him not, but he was represented to them by one in his likeness, and verily, they who disputed about him, were in doubt, concerning this matter - they had no sure knowledge thereof, but followed only an uncertain opinion<sup>1</sup>. They (the Jews) did not really kill him; but God took him up to Himself and God is Mighty and Wise."

### **Jesus and the Divinity.**

(a) "He (Jesus) is no other than a servant of God whom We favoured, and set forth as an instance (of divine power) to the children of Israel; and if We pleased, verily, We could have even produced angels from yourselves, to succeed you on earth."

(b) "And when Jesus came with manifest signs, he said: 'Now I am come to you with wisdom, and to explain to you part of those things, about which you disagree; therefore fear God, and obey me. Verily, God is my Lord and your Lord; wherefore worship ye Him: this is the right path.' But the different parties fell into disputes among themselves<sup>2</sup>, but woe to those who thus transgressed, because of the punishment of a grievous day."

(c) "The Jews say: 'Ezra is the son of God'; and the Christians say, 'Christ is the son of God.' This is their saying with their mouths, following the example of those who misbelieved before them. May God resist them. How are they infatuated! They take their priests and their monks for their Lord, besides God, and (take) Christ, the son of Mary, (for their lord besides God,) although they are commanded to worship one Deity only; There is no Deity but He (the true God); far be those from Him whom they associate (with God)."

### **The Trinity condemned.**

(a) "They are surely infidels who say, 'Verily, God is Christ the son of Mary; since Christ said, O ye children of Israel, worship God, my Lord and

---

(1) For some maintained, that he was justly and really crucified, some insisted, that it was not Jesus who suffered, but another who resembled him in the face - some said he was taken up to heaven, and others, that his manhood only suffered, and that his godhead ascended into heaven.

(2) Either referring to the Jews in the time of Jesus who opposed his doctrine, or to the Christians since, who have fallen into various opinions concerning him, some making him to be God, others the son of God, and others one of the persons of the trinity etc.

### **The Mission of Jesus.**

(a) "We formerly sent our apostles with evident signs and miracles, and We sent down with them the Scriptures and the balance, that men might observe justice."

"And We caused Jesus, the son of Mary, to succeed them, and We gave him the Gospel; and We put in the ears of those who followed him, compassion and mercy. but as to the monastic life, they invented it themselves: We did not prescribe it to them; they did it out of design to please God, yet this they did not Properly observe. And We gave to such of them as believed, their reward: but many of them were evil doers."

(b) "We also caused Jesus, the son of Mary, to follow the footsteps of the Prophets, to confirm the Law which was sent down before him, and We gave him the Gospel, containing guidance and light, and confirming the preceding word and a direction and admonition unto those who fear God: so that they who have received the Gospel might judge, according to what God hath revealed therein. And whose will not judge, according to what God hath revealed, they are certainly transgressors."

(c) "Some of the apostles We have endowed more than others. Those, to whom God hath spoken, He hath raised to the loftest position. And to Jesus, the son of Mary, We gave manifest signs, and We strengthened him with the Holy Spirit. And if God had pleased, they who come after them, would not have wrangled, after the clear signs had reached them. But into disputes they fell: some of them believed and some were infidels: yet, if God had pleased, they would not have wrangled: but God doth what He will."

(d) "And Jesus, the son of Mary, said: 'O children of Israel. Verily, I am God's apostle to you who came to confirm the law which was given before me, and to announce an apostle who shall come after me whose name shall be Ahmad. But when he (Ahmad) presented himself with clear signs of his mission, they said: 'This is manifest sorcery.' Jesus said to them: 'I come to attest the law which was revealed before me, and to allow you part of that which had been forbidden you; and I come to you with a sign from your Lord. therefore, fear God and obey me; verily, God is my Lord and your Lord, therefore, worship Him: this is the right way."

### **Jesus not Crucified.**

(a) "The Jews were cursed, for their unbelief and for their having spoken a grievous calumny against Mary and for their saying: 'Verily, we



hast committed a grave thing. O sister of Aaron,<sup>1</sup> thy father was not a bad man, nor was thy mother unchasted. And she made a sign to him (the infant). They said : 'how shall we speak to him who is an infant in the cradle ?' He said : 'Verily, I am the servant of God : He hath given me the Book (the Gospel), and He hath appointed me a prophet. And He hath made me blessed, wheresoever I may be and hath commanded me, to pray to him and to give alms, as long as I live ; and hath made me dutiful towards my mother ; and He hath not made me cruel or wicked. The peace of God was on me the day I was born, and it will be on me the day I shall die and the day I shall be raised again to life'. This was Jesus, the son of Mary, the word of truth, concerning whom they dispute.

(b) "Verily, the case of Jesus with God is the same as that of Adam. He created him (Adam) out of the dust, and then said to him 'Be', and he was. This is the truth from thy Lord ; be not, therefore, one of those who dispute."

### **One of the Miracles of Jesus.**

Remember when the disciples said, 'O Jesus, son of Mary, is thy Lord able to send down to us a table of provisions from heaven ?' He said : 'Fear God, if ye be true believers'. They said : 'We desire to eat therefrom, and to have our hearts assured, and to know that thou hast indeed spoken truth to us, and to be witnesses thereof'. Jesus, the son of Mary, said : 'O God, our Lord, send down a table to us from heaven, that the day of its descent become a recurring festival to us, to the first of us and to the last of us, and a sign from Thee ; and do Thou provide food for us, for Thou art the best provider'. God said : 'Verily, I will cause it to descend unto you ; but whosoever among you shall disbelieve hereafter, I will surely punish him with more severe a punishment than I will punish any other of my creatures.

---

(1) Mr Sale rightly comments this phrase, "O sister of Aaron" as follows .

Several Christian writers think, the Koran stands convicted of a manifest falsehood in this particular, but I am afraid, the Mohammadans may avoid the charge, as they do, by several answers. Some say, the virgin Mary had really a brother named Aaron, who had the same father, but a different mother, other suppose Aaron, the brother of Moses, is here meant, but say, Mary is called his sister, either because she was of the Levitical race (as by her being related to Elizabeth, it should seem she was) or by way of comparison, others say, that it was a different person of that name who was contemporary with her, and conspicuous for his good or bad qualities, and that they likened her to him, either by way of condemnation or reproof.

See Sale's Translation of the Koran.

decreeth a thing. He only saith 'Be,' and 'it is.' He (God) shall teach him the scripture and wisdom and the law and the Gospel; and He shall

appoint him an apostle to the children of Israel, and he shall say to them : Verily, I come unto you with a sign from your Lord, for I will make before you out of clay, as it were, the figure of a bird ; then I will breathe into it, and it shall become an animated bird, by the will of God ; and I will heal the blind and the leper, by the will of God, and I will raise the dead, by the will of God ; and I will tell you what ye eat and what ye store up in your houses. Verily, this will be a sign to you, if ye believe. And I will come to confirm the law which was revealed before me, and to allow unto you as lawful, part of what hath been forbidden you ; therefore, fear God and obey me. Verily, God is my Lord and your Lord : therefore serve Him. This is the right way. But Jesus perceiving their unbelief, said : who of you will assist towards the way to God ? The disciples said . We are your helpers towards the way to God : we do believe in God, and do thou bear witness, we are true believers. O Lord, we believe in what Thou hast sent down, and have followed Thy apostle ; write us down, then, with those who bear witness (of his message.)

## (2) Birth of Jesus.

(a) "And make mention in the 'Word', of Mary; when she retired from her family eastward, and drew a veil upon her to conceal herself from them; and We sent our spirit (Gabriel) to her, and he appeared to her in the form of a perfect man. She said : 'I fly for refuge from thee to the Most Merciful. If thou fearest Him'. He said : 'I am the messenger of thy Lord, that I may bestow on thee a purified son'. She said 'How shall I have a son, when man hath never touched me, and I was never unchaste ?'. He said : 'So shall it be. Thy Lord hath said, it is a simple thing with Him, and that He will make him a sign to mankind, and a mercy from Him'. This is a thing already decreed'. Wherefore she conceived him ; and she retired aside with him (in her womb) to a distant place, and the throes came upon her near the trunk of a palm-tree. (She said) 'Would to God, I had died before this, and had become as one lost in oblivion'. And he who was below her (namely the newly born babe) came to her, saying, 'Be not grieved. Thy Lord hath provided for thee a rivulet at thy feet ; and do thou shake the trunk of the palm-tree towards thee ; it will drop fresh ripe dates to eat. Therefore, eat and drink and cheer thyself ; and shouldst thou see any human being, say, Verily, I have vowed a fast to the Most Merciful ; wherefore I will by no means speak to a human being this day. So she came with the babe to her people. And they said to her, O Mary, thou

the divine goodness had suffered the mother and disciples of so holy a prophet, to believe, even for one moment, that he had died in so ignominious a manner. Jesus returned the following answer. "O Barnabas, believe me, that every sin, however small, is punished by God with great torment, because God is offended by sin. My mother, therefore, and faithful disciples, having loved me with a mixture of earthly love, the Just God has been pleased, to punish this love with their present grief, that they might not be punished for it hereafter in the flames of hell. And as for me, though I have myself been blameless in the world, yet other men having called me God and the son of God; therefore God, that I might not be mocked by the devils on the Day of Judgment, has been pleased, that in this world I should be mocked by men with the death of Judas, making every body believe, that I died upon the cross. And hence it is, that this mocking is to continue till the coming of Ahmed, the messenger of God, who, coming into the world, will undeceive everyone who shall believe in the law of God, from this error<sup>1</sup>."

The Moslems are also taught, that after Jesus had left this earth, his disciples disputed among themselves concerning his nature, some calling him God and others the son of God. They believe, that he will come again into the world, will slay Antichrist, and will reign as a just king for many years, marry and have children and die.

The following are a variety of translated passages of the Koran bearing on the story of Jesus Christ, and the disputed nature and life of the Great Teacher of Christianity :

### (1) Promised to Mary.

(a) "And when the angels said : O Mary, verily, God hath chosen thee and hath purified thee, and hath raised thee above all other women of the world : O Mary, be, therefore, devout towards thy Lord, and prostrate thyself and bow down in worship with those devotees who bow down to Him."

(b) "And when the angels said : O Mary, verily, God sendeth thee good tidings, thou shalt bear a word from Him, whose name will be Christ Jesus, the son of Mary, and who will be illustrious in this world and in the next, and one of those men who are honoured with approach to the presence of God; and he shall speak to men alike when in the cradle and when he is grown up; and he shall be one of the most righteous. she said, How, O my Lord, shall I have a son, since a man hath not touched me? The angel said : Thus God will create what He will; when He

---

(1) See G. Sale's Prelim. Discourse.

the leper, quickening the dead, and causing a table of food to be brought down from Heaven. He was sent by God, to confirm the law of Moses, and to preach the Gospel to the people of Israel. He proclaimed his mission by many manifest signs, being confirmed by the Holy Spirit. He foretold the advent of another apostle to succeed him, named Periclete or Ahmad. The Jews intended to crucify Jesus, but God saved him from the plot, took him up to Heaven, and stamped his likeness on a treacherous Jew who was apprehended and crucified in his stead. It is the constant doctrine of the Moslems, that it was not Jesus who underwent crucifixion, but someone else, resembling him in shape, namely, Judas, who agreed with the Jews, to betray Jesus for some pieces of silver, and led those who were sent to take him. After the crucifixion of the wicked Judas, and the taking up of Jesus into Heaven, Christ, the Apostle of God, was sent down again to the earth, to comfort his mother and devoted disciples, and to tell them, how the Jews were deceived; and he was taken up a second time to Heaven.

"It is supported by several", writes Mr. G. Sale "that this story was an original invention of Mohammad's; but they are certainly mistaken; for several sectaries held the same opinion, long before his time. The Basilidians, in the very beginning of Christianity, denied, that Christ himself suffered, but that Simon the Cyrenean was crucified in his place. The Cerinthians, before them, and the Carpocratians next, (to name no more of those who affirmed Jesus to have been a mere man) did believe the same thing; that it was not himself, but one of his followers very like him, that was crucified. Photus tells us, that he read a book entitled 'The Journey of The Apostles', relating the acts of Peter, John, Andrew, Thomas and Paul; and among other things contained therein, this was one, that Christ was not crucified, but another in his stead, and that therefore, he laughed at his crucifiers, or those who thought they had crucified him'."

St Barnabas relates this part of Jesus Christ's history with circumstances approximating to the Mohammadan view. "In that Gospel it is related, that the moment the Jews were going to apprehend Jesus in the garden, he was lifted up to heaven, by the ministry of four angels; that he will not die, till the end of the world, and that it was Judas who was crucified in his stead; God having permitted that traitor, to appear so like his master, in the eyes of the Jews, that they took and delivered him to Pilate. That this resemblance was so great, that it deceived the Virgin Mary and the disciples themselves, but that Jesus Christ afterwards obtained leave of God, to go and comfort them. That Barnabas having then asked him, why

---

(1) See G. Sale's, Translation of the Koran, chap. III, p. 38 (F. Warne & Co, London).

#### 4. Belief in the Apostles of God

The fourth article of the Mohammedan creed is faith in all the Apostles of God. A Moslem must believe, that the Merciful Creator sent in divers ages certain messengers or apostles, to reclaim mankind from infidelity and superstition, and to teach them the religion and laws of God, and to give them good tidings and admonitions. The number of these apostles is given as 313. Twenty five of them must be remembered, since their names are distinctly given in the Koran; but it is not necessary to learn them by heart. The following are the names, according to chronological order :—

Adam, Noah, Houd (Heber), Saleh (Methuselah), Lot, Abraham, Ishmael, Isaac, Jacob, Shu'aib (Jethro), Haroun (Aaron), Moses, David, Solomon, Ayoub (Job), Zulkifl (Isaiah), Younis (Jonah), Ilias, Alyas'aan (Elisha), Zacharias, Yahia (John the Baptist), Jesus and Mohammad.

If a Moslem is asked about anyone of these men, he must confess his belief, that he was an apostle of God.

Moslems must also believe, that the apostles of God were truthful, faithful and intelligent, and that they delivered in full God's message to their respective people. A moslem must further believe, that all apostles of God were, by their prophetic characteristics, free from (1) telling lies, (2) committing unlawful deeds, (3) stupidity, laziness or cowardice, (4) concealing any part of the message they were ordered to deliver.

The apostles of God were subject to the same human wants as the rest of mankind, such as eating, drinking, sleeping, marrying, etc. They were also liable to ordinary but not disgusting maladies etc.

Since the nature, as well as the story, of Jesus Christ were matters of dispute between Christians and Mohammadans, I must give a summary of the Moslems' belief in this respect, according to the teachings of the Koran and the interpretations of the Prophet.

Moslems hold, that Jesus Christ was the blessed Apostle of God who was sent to reclaim the people of Israel. He was a spirit from God, His messenger, His servant and prophet, illustrious in this world and in the next. He was miraculously born of the Virgin Mary. The Jews having spoken ill of Mary, and charged her with unchastity, Jesus Christ, speaking in the cradle, vindicated his mother's honour. Jesus performed miracles by God's power; giving life to a clay figure of a bird, healing the blind, curing

it has cleared other prophets, like Moses and Jesus, of similar charges. For it says : "We heretofore gave a command to Adam, and he forgot it, and We found no intention in him (to disobey our command) <sup>1</sup>."

This is, indeed, an important principle, and it has important bearings on the doctrine of sin, as presented by the Holy Koran. For, elsewhere we read : "God will not punish you for an inconsiderate word in your oaths ; but He will punish you for that which your hearts have assented unto <sup>2</sup>." This verse clearly lays down, that a wrong act, or an evil thought, is a sin, if it is deliberate. Shorn of intention and deliberation, a wrong act or an impure thought is a mere accident which, however deplorable, cannot prove the doer a guilty sinner in the sight of God.

But, if the element of intention is present, even the faintest thought is enough, to render a man guilty before his Maker, not to speak of a deed which is manifestly wrong. God forbids both kinds of sin—open and secret—equally in the same verse. "Draw not near unto sin ; neither open nor secret <sup>3</sup>." "Leave both—the outside of iniquity and the inside thereof <sup>4</sup>." Again : "Say, verily, my Lord hath forbidden sins, whether open or secret, and iniquity and unjust violence <sup>5</sup>."

These verses sufficiently establish the doctrine of personal holiness in Islam ; but to crush the objection of the critics absolutely, we give one more verse which shows, that not only the eyes and the ears, but also the heart, will be required, to give evidence on the Day of Judgment, if any sin has been committed through them. And the verse is this : "And follow not that, whereof thou hast no knowledge ; for the hearing and the sight and the heart—each of these shall be examined <sup>6</sup>."

Personal holiness, it must be remembered, depends largely on a thorough belief in the Omniscience and Omnipresence of God. And nothing is more striking to the reader of the Holy Koran, than the force, with which it impresses upon us these two attributes of the Deity. The belief, that the Supreme Being sees our actions and knows even the innermost secrets of our hearts, is a most powerful check upon the tendency to commit sin. So long as a man realises, that he works and moves under the great Task-master's eyes, he keeps himself from vice : but whenever this consciousness in him grows dim, and he thinks he is not watched by God, he exposes himself to constant danger.

---

(1) Koran, xx. 114. It is interesting to note, that the word ... ('Azma) in the verse quoted, has been taken, both by Rodwell and Sale to mean 'firmness of purpose' and not 'intention.' Hence, Mr. Wherry says in his commentary "This verse is fatal to the Moslem theory of the sinlessness of prophets."

(2) Koran, II : 225.

(3) Koran, VI. 151.

(4) Koran, XVI : 38.

(5) Koran VII. 34.

(6) Koran XVII:38.

## The Koran and the Doctrine of Personal Holiness

Islam has taken due cognisance of the frailties of human nature, and this constitutes its chief excellence as a system of religion. Thus the laws of Islam exhibit an elasticity which is a proof of their beneficence and usefulness. Though Islam, no doubt, points to a lofty idealism, it is, at the same time, thoroughly practical. The merit of Islam, as a religion, consists in a happy harmonious blending of the ideal and the practical. It favours no form of asceticism, and never asks any man, to do what he has not the power to do. There is, however, one thing, on which it lays the greatest emphasis. It is personal holiness, and purity of heart. It is the grand purpose, for which the Prophet was sent down, as it appears from the prayer of Abraham : "Our Lord, raise up among them an apostle who may rehearse Thy signs unto them, and teach them the Book, and Wisdom, and purify them <sup>1</sup>." The reader will observe, that the verse gradually ascends to a climax. Purification of men being put last, as the most important part of the functions of the Prophet of Islam. "He who is purified, hath obtained felicity," says the Koran elsewhere <sup>2</sup>. Again, after mentioning the blessings of heavenly life, the Holy Book adds : "And this shall be the reward of him who shall be pure <sup>3</sup>." That a very important place is given to purity of mind and personal holiness, will be seen from another verse, where sinners are threatened with the punishment, that God shall neither speak unto them nor shall He purify them." "Moreover, they who conceal any part of the scripture which God hath sent down unto them . . . God shall not speak unto them, on the day of resurrection, neither shall He purify them, and they shall suffer a grievous punishment <sup>4</sup>." It is clear, then, that communion with the Deity and personal holiness are the keynote of Islam.

But even here, man is not held responsible for the evil thoughts that in spite of himself, pass through his mind, like flashes of lightning. To render man responsible for such passing fancies, over which he has little control, would be sheer injustice. Commission of a wrong act, without previous intention and deliberation, does not make one guilty, far less a passing thought that rises like a bubble only to die and disappear the next moment. Adam ate of the forbidden fruit and thereby committed a mistake, as all men are liable to commit mistakes ; but he was never guilty of committing sin, and the Holy Koran clears him of the false accusation, just as

(1) Koran, chap. ii : 123.

(2) Koran, lxxxvii : 14.

(3) Koran, xx : 78.

(4) Koran, ii : 175.

ills and troubles tried them ; and so tossed were they by trials, that the Apostle and they who shared his faith, said, 'When will the help of God come ?' — Is not the help of God nigh ?<sup>1</sup> Even the Patriarch Abraham, was tried by God, when He commanded him to leave his home and country, and to offer his beloved son as a sacrifice.

No doubt, it is rather a difficult task, to secure the blessings of God, and to perform the divine laws. But, let not man stagger under the difficulty of the task that lies before him. Let him take courage, and, with a firm trust in God and a cheerful heart, undertake the performance ; and above all fear the Lord ; for it is God's promise, that "He will make His command easy to him who feareth Him". The God of Islam, it should always be remembered, is not a niggardly, exacting God, but "He is gracious unto His servants". Elsewhere, we read a surpassingly comforting verse, which comes as a message of hope to each and all of us. "God desireth, to be gracious unto you . . . God desireth, to make your burden light : for man hath been created weak."<sup>2</sup> Again we read ; "God wisheth you ease and never wisheth you discomfort." A world of mercy and forgiveness is surely concealed behind, and breathed out by these verses. God is offering His grace ; we have only to throw ourselves in the right attitude of Faith, and give ourselves up to God, and His Hand will lead us to His blessings. We have but to confess our weakness and ask from our Lord power and strength, and His spirit will descend upon us.

There is another remarkable passage in the Holy Koran which presents to us a just, but at the same time a merciful God, and then gives a most beautiful prayer, so comforting to the helpless man who, toiling up the spiritual heights, sits down totally unnerved, looking up to God for strength and support. "God will not burden any soul beyond its power," so run the words of God, "It shall enjoy the good which it hath acquired, and shall bear the evil, for the acquirement of which it laboured. Our Lord, punish us not if we forget, or fall into sin ; Our Lord, lay not on us a burden, like that which Thou hast laid on those who have been before us ; neither make us, O Lord, to bear what we have not the strength to bear ; but blot out our sins, and forgive us, and have pity on us. Thou art our Patron ; help us, therefore, against those who do not believe."<sup>3</sup>

---

(1) Koran, ii - 210.

(2) Koran, iv - 28.

(3) Koran - last verses of Chap. ii.



## The Frailties of Human Nature

The Koran also dwells on the weaknesses, to which the flesh is heir, and constantly reminds man of his inconstancy, injustice and ingratitude. "Man is created weak." "Surely man is unjust and ungrateful." "Man is hasty." "Man is covetous." "Verily, man is created extremely impatient." "Verily, man is ungrateful unto his Lord." It must, however, not be inferred from verses like these, that man stands condemned before his Creator, as deserving only death and perdition. These verses rather breathe a noble sympathy for the weakness of man and the infirmities of the flesh. They contain in them promises of God's grace and forgiveness. In reminding man of the infirmities of his nature, God desires, that he should realise his weakness and powerlessness, bow down his head before the Lord, turn to Him for strength and assistance, and pray constantly, that He may guide him into the right, straight path. Indeed, the Moslem is enjoined to throw himself in this attitude towards his Maker, and to offer such prayers repeatedly through the day and night. He is taught to say : "Praise be to God, Lord of the worlds ; the Compassionate, the Merciful, King of the day of Reckoning. Thee only do we worship, and to Thee do we cry for help. Guide Thou us in the right path, the path of those, unto whom Thou hast been gracious ;—and not of those, with whom Thou art angry, and neither of those, who go astray <sup>1</sup>."

As will be seen, this human prayer is full of sympathy towards the weakness of man. In it the Lord teaches His servants, to beg of Him spiritual blessings. In it He indirectly asks them not to sink in despair, and indirectly promises, to guide them into the path of holiness and to give them strength, to bear the yoke of His law. What an uplifting hope is breathed into our hearts, when He tells us, that He was gracious in the past, unto those who sought Him, and even so to-day He is ready, to be gracious unto us, if we only turn to Him and look up to His Grace, as our true Saviour.

But, as Shakespeare said : "The course of true love never did run smooth". With equal truth it may be said of divine love, that its course never runs smooth. Trials and tribulations are bound to come. Many a trial the seeker after God has to undergo, before he can expect to receive the grace of God. "Think ye", says the Lord, "to enter Paradise, when no such things have come upon you, as on those who flourished before you ?

---

(1) This is the prayer, with which the Holy Book of Islam opens.

Everywhere, in the Holy Koran, man is represented as the crown and glory of creation. He is the central figure of this beautiful universe. In Adam, he is God's viceregent on earth. Out of love, God hath created

man. And He hath created for him the heavens and the earth, and sendeth down water from the heaven, and so bringeth forth the fruits for his food. And to him He hath subjected the ships, so that by His command they pass through the sea ; and to him He hath subjected the sun and the moon in their constant courses ; and to him He hath subjected the day and the night ; of everything which he may ask Him, giveth He to him ; and if he would reckon up the favours of God, he can never count them.

"And the cattle For you He created them ; from them ye have warm garments, and they are useful in many ways ; and of them ye eat ; and they obey you well when ye fetch them home and when ye drive them forth to pasture : and they carry your burdens to lands which ye could not else reach, but with travail of soul : truly, your Lord is full of goodness, and merciful : And He hath given you horses, mules and asses, that ye may ride them, and for your pleasure . And things, of which ye have no knowledge, hath He created. Of God it is, to point out the way. Some (of you) turn aside from it ; but had He pleased, He had guided you all aright<sup>1</sup>."

According to the Koran, God hath endowed us with the power of self-government which is an almost incredible trust. By this power, God not only trusts our destinies to ourselves, but He actually trusts, or seems to trust, the whole final outcome of His creative work to our treatment of it. This earth, at least, is put into our hands, to make what we will of it and of ourselves, its inhabitants. It is stored with all possible helps to us, in natural forces and materials ; we are given intelligence, to find them out and to use them for the enrichment and beautifying of our lives ; we are given the understanding of a Rule of Right in our conduct towards each other, that will keep us in perfect harmony and happiness together, for the common good ; we are given a complete code of regulations, to guide us as to what is right and what is wrong ; we are drawn towards well-doing, in accord with the Rule of Right, by a feeling created in us, which will not let us forget it or violate it, without wilful intent, but (and here lies the grandeur of the part, man performs in creation) we are trusted with the freedom, to do with all this what we will. The outcome, good or evil, is what we and our fellows of the human race, past and future, are helping, or have helped, or will help, to make it. The glory of triumph or the shame of failure, in the creation of mankind, is to belong to the race itself.

---

(1) Koran, xvi, 5-9.

influences, unless God Himself undertakes to nurture the little soul. When the child grows into manhood, he may use the God-gifted faculty of discrimination and may become what he chooses in life. Indeed, God gives him many a chance in life, that he may recover himself from sin and iniquity. He may make or mar his fortune, even in the spiritual sense. If in him, Faith asserts its power, if true repentance places him in the right attitude towards God, if the spirit of God impels him to do virtuous deeds, if he feels the hand of God working in the smallest concerns of his life, and, above all, if he accepts death with a smiling countenance, and loses himself to save himself, why this is sufficient atonement in the sight of the Lord, whose pre-eminent attribute is Mercy.

To understand the Koranic conception of man, a reference to the following verses is necessary : "Of goodliest fabric We created man, then brought him down to be the lowest of the low ; save who believe and do things that are right, for theirs shall be a reward that faileth not". These verses indicate that man, at the moment of his creation, is perfectly sinless. It is afterwards, that sin tries to assert itself and bring him down to the level of the brutes. But he has also the divine in him,—the power to offer, if he so wills, a stubborn resistance ; and by the help of this power, he may "grow up to a saint". Although his own force is feeble, there is the Spirit of God, which will cooperate with him in this work of self-regeneration, only if he shows genuine desire to turn to God, to believe, and to do things that are right. The Holy Koran is very clear on this point. It does not ask to believe in the doctrine of original sin ; and so atonement, in a Christian sense, has no place in the Islamic Scripture. What God wants of us, is this, that we for our part, should make the utmost endeavour to secure His pleasure and grace, while He for His part, undertakes to direct us into His ways. "And whoso maketh his utmost endeavour towards Us, We will surely direct him into Our ways," says the Koran. This utmost endeavour on our part, to reach God, involves the idea of personal atonement and sacrifice which the Moslem is required to offer. We find the same thought clearly expressed elsewhere in the Word of God : "They who set their face with resignation God-ward, and do what is right,—their reward is with their Lord ; no fear shall come on them, neither shall they be grieved." Turning his face towards God, gradually proceeding towards Him, till he realises himself in Him—herein lies the salvation of man, according to the Koran. The Moslem is taught the high truth, that "the good drives away the evil in man," and so he requires not anyone, to take the burden of his sin and to undergo punishment as his 'substitute.' He develops his faculties, and tries his very best, to make use of them in doing good deeds and working out the will of his Maker ; and hopes that his little will be accepted as much by the Most Merciful Lord.

"The simple shepherds and wandering bedouins of Arabia, are transformed, as if by a magician's wand, into the founders of empires, the builders of cities, the collectors of more libraries, than they at first destroyed, while cities like Fostat, Baghdad, Cordova and Delhi, attest the power, at which Christian Europe trembled. And thus, while the Koran, which underlies this vast energy and contains the principles which are its springs of action, reflects to a great extent the mixed character of its author, its merit as a code of laws, and as a system of religious teaching, must always be estimated by the changes which it introduced into the customs and beliefs of those who willingly or by compulsion, embraced it. In the suppression of their idolatries, in the substitution of the worship of Allah for that of the powers of nature and genii with Him, in the abolition of child murder, in the extinction of manifold superstitious usages, in the reduction of the number of wives to a fixed standard, it was to the Arabians an unquestionable blessing, and an accession, though not in the Christian sense a Revelation of Truth; and while every Christian must deplore the overthrow of so many flourishing Eastern churches by the arms of the victorious Moslems, it must not be forgotten that Europe, in the middle ages, owed much of her knowledge of dialectic philosophy, of medicine and architecture to Arabian writers, and that Moslems formed the connecting link between the West and the East for the importation of numerous articles of luxury and use."

"For if he (Mohammad) was indeed the illiterate person the Moslems represent him to have been, then it will be hard to escape their inference, that the Koran is, as they assert it to be, a standing miracle."

### **The Koranic Conception of Man**

The Holy Koran represents man as a free and responsible being, gifted with the faculty of distinguishing between right and wrong. Then, according to the Koran, man is capable of obeying the law of God. He needs nobody to atone for his sins, but himself; for the Lord is merciful and will forgive him his sins. The Holy Book of Islam mentions no original sin which we inherit at our birth. It does not represent man as coming into the world with a load of sin on his back. On the contrary, it represents him as an unconscious Moslem at the moment of creation. The Prophet of Islam says: "Every child is born with a Moslem heart", and it is the external influences that makes it what it becomes afterwards in life. If bad influences happen to be at work, the child generally surrenders to such

So carefully, indeed, has it been preserved that there are no variations of importance — we might almost say no variations at all — to be found in the innumerable copies scattered throughout the vast bounds of the Empire of Islam.

Yet, but One Koran has been current amongst them ; and the contemporaneous use by all of the same Scripture, in every age to the present day, is an irrefragable proof, that we have now before us the very text prepared by command of the unfortunate Caliph (Othman who was murdered some time after the compilation of the Koran.)

There is probably in the world no other work, which has remained twelve centuries (1861), with so pure a text<sup>1</sup>. This is only because the various revelations in the Koran, regarding its divine nature, and its remaining for ever free from corruption or contradiction, are rightly confirmed. Here are a few verses bearing on this point :

"We have surely sent down the Koran ; and we will certainly preserve the same from corruption," (Chap. XV)

"This Koran could not have been composed by any, except God ; but it is a confirmation of that which was revealed before it, and an explanation of the scriptures ; there is no doubt thereof, sent down from the Lord of all creatures. Will they say, (Mohammad) hath forged it ? Answer, Bring therefore a chapter like unto it ; and call whom ye may (to your assistance,) besides God, if ye speak truth." (Chap. X)

"Say, Verily if men and geni were purposely assembled, that they might produce (a book) like this Koran, they could not produce one like unto it, a though they assisted each other. And we have variously propounded unto men in this Koran, every kind of figurative argument ; but the greater part of men refuse to receive it, merely out of infidelity." (Chap. XVII.)

The Rev. Rodwell states :

"It must be acknowledged too, that the Koran deserves the highest praise for its conception of the divine nature, in reference to the attributes of Power, Knowledge and universal Providence and Unity — that its belief and trust in the One God of Heaven and Earth, is deep and fervent."

"It is due to the Koran, that the occupants, in the sixth century, of an arid peninsula, whose poverty was only equalled by their ignorance, become not only the fervent and sincere votaries of a new creed, but, like Amru and many more, its warlike propagators."

---

(1) It is more than thirteen centuries already (1941). See Sir W. Muir's *Life of Mohammad*.

The Koran, being the divine revelation and the corner-stone of Islam, the recital of a passage from it formed an essential part of daily prayer, public and private ; and its perusal and repetition were considered to be a great privilege. The preservation of the various chapters during the life-time of the Prophet, was not altogether dependent on their being committed to writing. The Koran was committed to memory by almost every adherent of Islam, and the extent, to which it could be recited, was one of the chief sources of distinction, in the early stages of Islam. Amongst a crowd of warrior martyrs, he who had been the most versed in the Koran, was honoured with the first burial. The person who in any company could most faithfully repeat the Koran, was ipso facto entitled to conduct the public prayers, and in certain cases to pecuniary rewards.

The retentive faculty of the early Arabs favoured the task ; and it was applied, with all the ardour of an awakened spirit, to the Koran. Several of the Prophet's followers could, during his life-time, repeat with scrupulous accuracy, the whole as then in use. Four or five such persons are named ; and several others also who could very nearly repeat the whole, before the Prophet's death<sup>1</sup>.

"However retentive the Arab memory, remarks Sir William Muir, we should still have regarded with distrust a transcript made entirely from that source. But there is good reason for believing, that many fragmentary copies, embracing amongst them the whole Koran, or nearly the whole, were during his life-time made by the Prophet's followers.

"Such was the condition of the text during Mohammad's life-time, and such it remained for about a year after his death, imprinted upon the hearts of his people, and fragmentary transcripts increasing daily<sup>2</sup>."

Further the same writer states : "The contents and arrangement of the Koran speak forcibly for its authenticity. All the fragments have, with artless simplicity, been joined together... ..

Even the frailties of the Prophet, as noticed by the Deity, have with evident faithfulness been entered in the Koran.....

In fine, we possess every internal guarantee of confidence (namely in the authenticity of the Koran, as it exists in the present copies.)

... there is otherwise every security, internal and external, that we possess the text which Mohammad himself gave forth and used,

---

(1) Sir. Muir's Life of Mohammad.

(2) Sir. Muir's Life of Mohammad.

## حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

يلقى درسا دينيا في حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم بالجامع الأزهر

تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الاول ، فشهد الدرس الديني الذي ألقاه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغي ، شيخ الجامع الأزهر ، في الجامع الأزهر ، بعد صلاة العصر يوم الاثنين ٨ من رمضان سنة ١٣٦٠ . وكان يحف بجلالته من رجال الدولة والعلماء والوجهاء والطلبة عدد عظيم يليق بجلال هذه السنة الملكية ، التي تعتبر أعظم ما يُعز به الاسلام ملك عظيم في الزمان الأخير .

وكان فضيلة الأستاذ الامام ، كمادته في كل عام ، يشرح آيات الذكر الحكيم على أسلوبه القويم ، من تبين معاني اللفاظ ، وما يتصل بهذه المعاني من أبحاث ، ثم يلم بالمعنى العام بعد أن يكون ذهن السامع قد أدركه قبل أن يلقى اليه ، وهي مقدرة في البيان لم تصادف من يشارك الأستاذ الامام فيها في هذا العصر .

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّامِعَاتِ آيَاتِ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ . هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ :

« الم » : هذه وأمثالها من أسماء حروف الهجاء التي ابتدأ الله بها بعض سور القرآن أسماء للسور المبتدأة بها . ولا يجوز حملها على غير ذلك ، لأنها لم توضع في لغة العرب لمعان غير الحروف ؛ والقرآن جار على لغة العرب في مفرداته ونظمه وأسلوبه ، فلا يفسر بغير ما تنميه لغة العرب ، فإذا لم تحمل ألقاباً وأسماء للسور لم يكن لها معنى ، ومن الواجب أن يكون لكل شيء جاء في القرآن معنى .

وبعد : من الممكن أن يقال في سبب تسمية السور بها إنه الإشارة الى إعجاز القرآن الذي امتاز به عن سائر الكلام ؛ وكأن الله سبحانه يقول للمعانددين : إن القرآن من جنس هذه الحروف التي تعرفونها ، وليس من مادة غير معروفة ، فإذا لم تستطعوا الإتيان بمثله وأنتم الفصحاء والبلغاء ، فقد وضع أنه ليس من جنس كلام البشر ، وبأن أنه من عند الله .

### « تلك آيات الكتاب الحكيم » :

الآية معناها في الأصل العلامة الظاهرة ، ثم أطلقت على كل قسم من الأقسام التي تتألف منها سور القرآن ، والتي يفصل بعضها عن بعض بالوقف في التلاوة وفي الكتابة بيباض أو نقط أو عدد .

والعمدة في معرفة الآيات وعددها هو التوقيف المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم . وسميت هذه الأقسام آيات ، لأنها دلائل على الأحكام والحكم ، والمعارف الدقيقة والمقائد الحقة ، ثم هي بعد ذلك دلائل أيضا على إعجاز القرآن .

والكتاب الحكيم : هو القرآن الكريم المبهود عند النبي صلى الله عليه وسلم ، وعند المحاطين وقت نزول القرآن ، فقد وعد صلى الله عليه وسلم بكتاب ينزل عليه من عند الله عند مبته ، وعرف ذلك أيضا في الوسط الذي كان يعيش فيه ، وعرف هذا من قول الله سبحانه : « إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً » .

والحكيم هنا معناه المشتغل على الحكمة ، وهي إصاغة الحق . ومتى كان القرآن مشتملاً على الحكمة جاز أن يوصف بأنه حاكم لأنه يجب رد كل شيء إليه . ومن ذلك قول الله : « وأزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » . وجاز أن يقال إنه محكم لا فساد فيه ولا خلل : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

ومن المعروف أن آيات هذه السورة ليست أول الآيات نزولاً ، وليست آخرها ، وإذا كان الأمر كذلك جاز أن تكون الإشارة إلى آيات هذه السورة ، وأن تكون إلى التي قبلها ، وأن تكون إلى جميع ذلك ، وإلى ما سينزل بعد . والمعنى واضح بعد هذا ، وهو أن الآيات التي تتألف منها سور القرآن فيها الحكمة ، وفيها الخير والسعادة ، وفيها العلم والرشاد ، وفيها الدلالة إلى طريق الحق ، فهي صلاح العباد في الدنيا والآخرة ، ذلك لأنها أجزاء القرآن الحكيم المنزل من رب العباد لصلاح حالهم وسعادتهم .

### « هدى ورحمة للعالمين » :

تطلق الهداية على الدلالة على طريق الحق ، سواء أوجد معها الوصول إلى البغية أم لم يوجد . ومن ذلك قوله سبحانه : « وأما نوح فهديناه لما ناستحبوا المسمى على الهدى » . وتستعمل بمعنى أخص وهو الدلالة على طريق الحق مع الوصول إليه ، كما في هذه الآية ، وستصبح بعد .

والرحمة هنا معناها الإتيان والإفضال ، ويقال الإحسان على الإحسان في العقيدة ، وفي العمل ، وفي القول ، وهو أن تكون العقيدة حقة ، والعمل صالحاً خالصاً لله سبحانه ، والقول سديداً رشيداً .



وقول الله سبحانه : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » يدل على أن الإحسان فوق العدل ؛ فالعدل أن يعطى المرء ما عليه ، ويأخذ ماله . والإحسان أن يعطى أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له ، ولذلك قال الله سبحانه : « إن الله يحب المحسنين »

وفي الحديث الصحيح : كان صلى الله عليه وسلم بارزا يوما لباسا ، فأتاه رجل ، فقال : ما الإحسان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ورسله ، وتؤمن بالبعث الآخر . قال : ما الإسلام ؟ قال : أن تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان . قال : ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . ثم أدير الرجل . فقال ردوه ، فلم يروا شيئا ، فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم . وخير ما يفسر به كذاب الله ما صرح من رسول الله .

فهذا هو الإحسان في العبادة ، وهي تشمل العقيدة والعمل الصالح . فإذا راعى المؤمن في كل شيء ، يؤديه ، وفي كل شيء يذمه ، أنه يرى الله أو أن الله يراه ، يتحقق الإخلاص في العمل لاشك ، وأدى العمل على أحسن الوجوه وأكملها . وملاحظة الله سبحانه فيها ملاحظة صفاته جميعها أو أظهرها وهي الخلق ، والأمر ، والتدبير ، والحكم في يوم الجزاء ، وتوزيع المكافأة على الأعمال . وفي الكتاب الكريم آيات كثيرة ترشد إلى طلب استحصار الذات في العبادات ؛ من ذلك قوله سبحانه : « واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين . إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسمعونه وله يسعدون » . ثم هو يذكر الناس دائما بأنه معهم « وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون » « وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير » « إني معكم نثي أقمت الصلاة وآتيت الزكاة وآمنت برسلي وعزرتهم وأقرضتهم الله قرضا حسنا لا كفرن عنكم سيئاتكم ولادخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار » . وقد وعد الله المحسنين أن يوفيهم أجرم « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » « إن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

وصف الله سبحانه آيات الكتاب الحكيم بأنها تهدي المحسنين في عقائدهم وأعمالهم وأقوالهم ، وبأنها تأخذ بيدهم إلى طريق الحق ، وتشرح صدورهم ، وتعينهم معونة خاصة تسهل عليهم الطاعات وترك المعاصي ، وتبلغهم أعلى الدرجات في الدنيا والآخرة ، وتفتح لهم أبواب المعرفة والعلم ، وبأنها نعمة من الله وفضل ، بها صلاح الإنسان في الدنيا وإن اتبعها ، وفيها عزة وطمانينة إن عمل بها واعتبر ، وفي الأمراض عنها دله وعقاره . وكما وصف الله الآيات بما نأتمها هدى للمحسنين ، وصف الكتاب في سورة أخرى بأنه هدى للمتقين ، ووصفه مرة أخرى بأنه شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين .

في هذه المواضع جميعها يجب أن تفسر الهداية بأنها الدلالة الموصلة إلى المطلوب فعلا ،

وهي الدلالة مع المعونة الخاصة وتيسير الطاعة وفتح الصدور لها . لكن الله سبحانه في آية أخرى وصف الكتاب بأنه هدى للناس ، مثل قوله : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس » ، ومثل قوله : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » فجعله في ذاته هاديا . ومثل هذه الآيات تفسر فيها الهداية بأنها الدلالة إلى الحق ، ولا يؤخذ في معناها الوصول إلى المطلوب .

والقرآن لا شك أنه في ذاته دال على طريق الحق ، لأن آياته الخاصة بذات الحق وصفاته تقرر الحق الثابت الذي اهتدت إليه العقول الصحيحة من غير معونة بالآديان ، وسيظهر هذا فيما بعد عند ذكر إيمان وحكمته ، ولأنه يعتمد دائما في الاستدلال على ما هو ظاهر واضح ثابت في كتاب الوجود الذي يدل دلالة قاطعة على الخالق وعظمته وقدرته ، ولأن إيمانه التي اشتملت على أصول الأخلاق هي أكل ما يمكن أن يتصف به الإنسان في هذه الحياة ، ولأن نظمته للجماعة الإنسانية هي النظم الحقة التي سمد بها الناس عند ما عملوا بها ، وما هذا الشقاء الذي يكتوى العالم بناره ، ويمهم شره ، إلا نتيجة البعد عن الهدى الإلهي ، وغررة لهذه المذاهب الضالة التي اخترعها الملاحدة وزينوها للناس ، وليس هذا الخزي والمار الذي عليه المسلمون اليوم ، إلا نتيجة الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه ، ونتيجة إغفاله وعدم تديره ، ولذلك حق عليهم قول الله سبحانه : « أفئذ منون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون » .

صدق الله ، فقد حق الخزي في الحياة الدنيا عليهم ، أما جزاء الآخرة وهو أشد العذاب فسيلافهم ، لأن الله صادق الوعد كما هو صادق الوعيد .

القرآن في ذاته هدى ، وفي ذاته رحمة ، لكنه لا ينتفع به إلا من يقبل عليه ويؤمن به إيمانا كاملا ، ويخلص في حمله إخلاصا كاملا . ومثله مثل نجوم السماء ، هي هادية في ذاتها لكنها لا ينتفع بهاديتها إلا العلماء ، فليس العيب عيب الكتاب ، لكنه عيب أهل الكتاب ، وقد قرأ بعض القراء هدى ورحمة بالنصب ، وبعضهم هدى ورحمة بالرفع ، وهما قراءة كل صحيفتان لا يختلفان في المعنى .

« الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون » :

هذه أوصاف المحسنين ، فهم الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون . وقد سبق في بيان معنى الإحسان ما يفيد أنه أخص من الإيمان وأخص من التقوى . ونحن نعلم أن الله سبحانه وصف المؤمنين في سورة المؤمنين بأكثر من هذه الأوصاف ، ووصف المنقين في أول سورة البقرة بأكثر من هذه الأوصاف ، وبين صفات أهل البر بأكثر من

هذا في قوله : « ليس البر » أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون .

فما هو السر فى الاختصار هنا على هذه الصفات القليلة فى بيان المحسنين الذين هم أخص من المؤمنين ومن المتقين ؟

الجواب : أن الله سبحانه لم يرد هنا بيان جميع صفات المحسنين ، بل ذكر صفة لكل أصل من أصول الخير . وأصول الخير ثلاثة : صحة العقيدة ، والاحسان إلى الجماعة البشرية ، وتهذيب النفس وتطهيرها . وأكل أمثلة تهذيب النفس الصلاة ، وأكل أمثلة الاحسان إلى الجماعة بذل المال . وفى الإيمان باليوم الآخر وما فيه من جلاء ، إيمان بالله سبحانه وبالكاتب المنزل وبالرسول ، فهو مثال كامل لصحة العقيدة .

إقامة الصلاة تقويمها وتجييدها وحفظها من أن يقع فيها فساد فى صورتها أو فى حقيقتها . أما صورتها فهى الأحمال والأقوال المروفة . وأما حقيقتها فهى الإخلاص لله سبحانه واستشعار سلطانه وقهره .

والصلاة فى الإسلام أكل مظهر من مظاهر العبودية . وطائفة الكتاب إذا روى معناها أسماء التلاوة ، من أكبر العون على احتصار ذات المعبود متجلية بأكل صفاتها ، ومن أكبر العون على التوحيد الخالص المبرأ من أية شائبة للشرك . وإذا خلت الصلاة من حقيقتها وروحها - وهو ذلك الإخلاص القدى وصفاء - كانت جسماً لأرواح فيه ، ولم تؤد الغرض منها وهو التهذيب والنهى عن الفحشاء والمنكر ، والتخلص من الملح والجزع عند النوائب ، والله سبحانه يقول : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ويقول : « إن الإنسان لخلق هلوأ : إذا مسه الشر جزوماً ، وإذا مسه الخير موعا ، إلا المصلين » .

والأفضل أن تفسر الزكاة هنا بإخراج المال وإتقائه فى سبيل الله ، وفى سبيل إغاثة الملهوفين والبالسين ، وفى سد حاجة الأفراد والجماعات ، فتشمل الزكاة المفروضة وغيرها من أنواع الصدقات ؛ وذلك لأن الله سبحانه يذكر فى هذه الآية أوصاف المحسنين الذين هم أكل من المؤمنين والمتقين . وصفة الاحسان لا تتحقق بالاعتصام على الزكاة المفروضة ، وقد هم الله فى صفات أهل البر عند ذكر الإنفاق فقال : « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة » ، وأهل البر لا يزيدون على أهل الإحسان فى أحوالهم . والمراد بالآخرة الدار الآخرة وهى دار الجزاء .

والإيمان بالآخرة يشمل الإيمان بما فيها من جنة ونار وحساب وعدل فى توزيع الجزاء

على الأعمال . واليقين اعتقاد مطابق للواقع لا يقبل الزوال أو الشك ، ويطلق بإطلاق آخر على الاعتقاد الجازم المبني على الخبر الصادق أو على الأدلة والآمارات ، فهو العلم مع تحقيق الأمر وإزالة الشك ، والثاني أقرب إلى اللغة من الإطلاق الأول . اليقين يملك النفس ويصرفها حتى لا تجرد عنه منصرفاً ، وتظهر آثاره على الجوانح ، وأول آثار اليقين العمل به ، وأن تعبد النفس مضطرة اضطراراً إلى زومه ، وطريقة النظر الصحيح وتخليص الأدلة .

والقرآن الكريم عند تدبره وشرح الصدر به يبعث في النفوس أكل اليقين ، وفي الجوارح أعظم آثار اليقين .

« أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » :

هؤلاء المحسنون الذين ذكرت أوصافهم هم المستقرون على الهدى والمتكفون منه ، لأنهم أحسنوا في جميع المقائد والأعمال والأقوال ، وهذبوا نفوسهم وطهروها ، وملأ اليقين قلوبهم بمد تمكنهم من الأدلة . وهؤلاء المحسنون هم العائزون المفلحون في الآخرة بنعيم الله وجناته ورضوانه ، وفي الدنيا بطأة نينة النفس وسعادتها والرضا بالقدر . فهم في نعيم روي وإن كانوا في الظاهر في الشقاء ، وكل ما يصيبهم من ألم وفقر وبلاء يردونه إلى القدر ، وهم راضون بالقدر فرحون ، ينتظرون جزاء الله .

وقد قيل : الهدى من الله كثير ، ولا يبصره إلا بصير ، ونجوم السماء يبصرها البصراء ، ولا يهتدى بهديها إلا العلماء .

وقد قيل أيضاً : المعجب كل المعجب من الشاك في الله وهو يرى خنقه ، ومن يعرف النشأة الأولى وينكر النشأة الآخرة ، ومن ينكر البعث والنشور وهو في كل يوم وليلة يموت ويحيا ، وعجب ممن يؤمن بالجنة وما فيها من النعيم ثم يسعى لدار الغرور .

وصف الله المحسنين بأنهم على هدى من ربهم ، والهدى من الله سبحانه أكل أنواع الهداية ، لأنه الهدى الذي لا خطأ فيه ، وفيه الأمان من الزلل . وهناك ضروب أخر من الهداية ، منها هداية الإلهام والقطرة ، وهداية المشاعر والحواس ، وهاتان الهدايتان يشملان أنواع الحيوان . وهناك هداية العقل الذي يصحح خطأ الحواس ويعمل الأشياء ويستنبط ويقيس ، وهي خاصة بالإنسان ، وبها ذلل أسرار الطبيعة ، وفسر كتاب الوجود .

لكن أفضل هذه الهدايات وأقواها هي هداية الدين ، وهي لطف عظيم من الله سبحانه حيث أرشده إلى ما لا يستطيع بمقله أن يدركه إدراكاً صحيحاً ، وأزال حيرته .

وقد بينت في حديث من أحاديث السنين السابقة على وجه التطويل ضرورة هذه الهداية الإلهية للنوع الإنساني ، فأكتفي الآن بهذا القدر من البيان .

وأسأل الله أن ينفعنا بالهدى الإلهي ، ويشرح صدورنا بقبوله وفهمه والعمل به .

# الشيعة

## زيارة القبور

وانخاذ مسكاتها شفعاء عند الله

عن ابن عباس رضي الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن رأت القبور  
والمؤمنين عليها المساجد والشرج » . رواه أبو داود والترمذي وحسنه ، والنسائي  
وابن ماجه وابن حبان في صحيحه . ذكره المنذرى .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان الغرض منه إجمالا ؛ (٢) بيان التوسل  
بالموتى الصالحين ؛ (٣) بيان ما ذكره القمى الرازى من تشبيه ما يفعله العامة في الأصرحة  
والمزارات بعبد الأوثان .

(١) لعل حضرات قراء هذه المجلة يذكرون ما كتبت في الجزء السادس من المجلد  
الثاني عشر ، من أن البخارى روى عن عائشة رضي الله عنها ، أن أم حبيبة وأم سلمة زوجتي  
الرسول صلى الله عليه وسلم كانتا من بين المهاجرات إلى الحبشة فنظرتا كريمة فيها صور  
فذكرتا للنبي صلى الله عليه وسلم ذلك فقال لهما - « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فأت  
بنوا على قبره مسجداً أو صورا فيه تلك الصور ، فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » .

وهذا الحديث يؤيد الحديث الذى نشره الآن عن ابن عباس فى أن بناء المساجد على  
القبور منهى عنه نهياً شديداً ، وكما أن بناء المساجد عليها لا يجوز فكذلك زيارتها لا تجوز  
للنساء ، وتجوز للرجال لغرض واحد وهو تذكر الآخرة . وقد يقال إن النساء أيضا  
قد يتذكرن الآخرة بزيارة القبور . ولكن الشريعة الإسلامية مبنية على جلب المصالح  
ودفع المفاسد . ولما كانت القبور غالباً فى أمكنة لا يتيسر معها عدم اختلاط النساء بالرجال  
كان من صيانة النساء أن يمنع من كل ما يعس صيانتهم . ولذا أجاز بعض الأئمة للمرأة  
المحوزة التى انقطع منها أرب الرجال أن تخرج الى المصلى وأن تزور المقابر . وعلى كل حال  
فالعلة فى جواز الزيارة هى تذكر الآخرة وليس وراءها شيء آخر . أما الذين يزورون الأصرحة  
وقبور الصالحين الآن فإن كانوا يقصدون المعنى الذى صرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم

فهم يشاؤون على زيارتهم ؛ وأما إن كانوا يريدون شيئا وراء ذلك من قضاء حاجة ، ويمتقدون أن الموتى الصالحين يتصرفون في الاعطاء والحرمان ، فذلك لا يجوز بإجماع المسلمين . وهذا هو الذي سنبين لك حكمه في الأبحاث الآتية .

٢ - أما التوسل بالموتى الصالحين فذلك محل خلاف بين المسلمين ، فمنهم من أجاز ، ومنهم من منع . وعلى كل حال فالجميع متفق على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد ، وأن التوسل إليه بالصالحين لا يؤثر في قضاءه وقدره . فن أجاز الوسيلة قال إنها من باب الأسباب العادية التي أمر الله بالتمسك بها في كثير من الآيات والأحاديث ، وكونها تؤثر أو لا تؤثر مسألة أخرى ترجع إلى ربط الأسباب بالمسببات . أما من منع فانه يقول إن الله سبحانه وتعالى قد بين الأسباب والمسببات ؛ فالأحياء الذين يقطعون معتك الحياة الدنيا لا بد لهم من أن يستغنى بعضهم ببعض ، ولا بد لهم من أن يتضامروا على قضاء حاجاتهم الدنيوية ، ومحال أن يستغنى الناس عن هذا التعاون ، وقد أمر الله تعالى به في كتابه العزيز حيث قال : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . هذا في حال الحياة ، أما بعد الموت فما هو ذلك التعاون الذي لا بد منه ؟ ليس في الدين ما يصرح أو يفير إلى هذا التعاون ، وليس فيه ما يفيد أن الأحياء يجب عليهم أن ينوسلوا إلى الله بالأموات ، بل بالعكس ، فظاهر الأحاديث وظاهر الدين يدل على الالتجاء إلى الله وحده ، وأنه لا يجوز اتخاذ أهل القبور وسيلة إلى الله تعالى في قضاء الخوائج ، وهذه الأحاديث التي معنا تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم هي النساء عن زيارة القبور وأباحها للرجال لتذكر الآخرة ، ولو كان التوسل بهم جائزا ما منع منه قريبا عظيما من أمته .

ومن هذا يتبين أن علماء المسلمين اختلفوا في شيء لا يمس جوهر الدين ، ولا يمس عقيدة من العقائد الأساسية ، بل هم مجمعون على أن النفع والضرر يرجعان إلى الله وحده ، وإنما الخلاف بينهما في كون التوسل سبيبا صحيحا يقره الدين أو لا ، فيكون التوسل عينا لا فائدة منه . فهذا خلاصة ما قاله العلماء في هذا المقام ، ذكرناه بإيجاز ليمهل على الناس إدراكه ولا يتنازعوا فيما لا يضرهم ولا ينفعهم . ولكن محل الاشتباه حقا هو ما سنذكره فيما يلي :

(٣) إن العامة قد تحطوا حدود الدين في هذا المقام إلى أبعد مدى ، فأخذوا يأتون من ضروب المنكرات ، كتقبيل الأحجار والاعتاب ، وتقديم الذبائح والنذور للأضرحة وسكان القبور ، والطواف حول المزارات المستندعة المصنوعة من النحاس والحطب ونحو ذلك على الوجه الذي كان يفعله عبدة الأوثان والاصنام قبل الاسلام تماما . ومن الأسف الشديد أنهم وجدوا لهم أعواما من بعض الخاصة الذين لهم أغراض مادية أو مصالح شهوية ، فعضدوا هؤلاء الخوارج على دين الله حتى أصبح ذلك دينا قويا في نظر هؤلاء الجبهة ، وأصبح من يرشدهم إلى الدين

الصحيح خارجا على الدين في نظرم . وكفاهم مستندا ما يفعله بعض الخاصة من جمع حطام الدنيا ، وما وحدوا عليه آباءهم من قبل ، كأن قواعد الدين الاسلامي وآياته محدثة لم تكن معروفة لأحد من قبل ، وهذا هو الشر الوبيل والخطر الدائم الذي عم شره .

إن الدين الاسلامي قد جاء بتوحيد الإله الخالص الذي لا شائبة فيه من أي ناحية من النواحي ، كما جاء لمحاربة الوثنية والقضاء عليها حيث كانت وآتى وجدت ، وقد أظهر الله تعالى دينه القيم الذي تقتضيه الفطرة الانسانية من عبادة إله كامل منزّه عن المادة والحلول والائحاد بأي مادة من المواد ، فهو سبحانه ليس كمثل شيء ، ولا هو مثل شيء ، وهو وحده المنصرف المطلق في عباده ، فهو الذي يبسط الرزق لهم ، وهو الذي يمنعه إذا شاء ، وبذلك طهر شبه جزيرة العرب وما يتصل بها من الوثنية التي أضلّهم زمانا طويلا فعبدوا الأصنام والأوثان من دون الله الواحد القهار مدّون أن يفكروا أو يتدبروا فيما يحيط بهم من أسرار السكائن ودلائل الآيات الناطقة بأن عبادة وثن أو صنم أو التوسل به الى الله سعف وهراء لا ينبغي لعاقل أن يفعله .

هذه قواعد الدين وهذه أحكامه ، فهل لعلماء المسلمين وأئمة الدين أن يتضافروا على محاربة هذه الموبقات التي نهى عنها الدين الاسلامي نهيا صريحا ، ويقتدوا في ذلك بسلمهم الصالح الذي كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر مهما لاقى في سبيل ذلك من عنت وإيذاء ؟

إن هذه العقائد الفاسدة قد أثرت على بعض المتعلمين ، فكتب لي أحدهم يقول : « لقد انتابني في هذه الأيام أفكار متعارضة وآراء متناقضة أخشى أن يذهب ديني ضيعتها إن لم تدركني بإرشادك القيم ونهدي بيابك الى الصراط المستقيم » ، ثم قال : « قرأت في تفسير الفخر الرازي عند قوله تعالى : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » ما ملخصه أن الفخر قال أوجها منها : أنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإن أولئك الأكابر يكونون شفعا لهم عند الله . قال : ونظيره في هذا الزمان اعتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر على اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون شفعا لهم عند الله ... الى آخر ما ذكره . ولست أدري سببا لا يضطرب هذا الكاتب والخوف على دينه من مثل هذه المسألة ، لأنه ماذا يضيره إذا اعتقد أن ما يفعله الناس من تقبيل الأحجار ، وتعظيم القبور لا يقره الدين الاسلامي ؟

وأي مذهب من المذاهب يبيح هذه المسائل ؟ وما دامت محرمة في جميع المذاهب فلماذا يضطرب من عبارة الفخر ؟ إن كان يظن أن الفخر قد حكم عليهم بأنهم مشركون فعلا فاني أقول له : كلا ، إنهم ليسوا بمشركين ، وإنما يعملون ما يشبه حمل المشركين ، والفرق بينهم وبين المشركين أن عبدة الأوثان والأصنام كانوا يشكرون البعث والنشور ، كما قال تعالى : « وأقسموا

بأنه جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت - الآية » وقال تعالى : « وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » . أما العامة فهما فعلوا فهم موحدون مؤمنون بالبعث والنشور ، فإذا أنكر أحد ذلك فقد تساوى مع المشركين الأولين الذين كانوا يعبثون الأوثان لتقربهم إلى الله ولأنى فتسدر عليهم الأرزاق والبركات فيأكلون وينعمون في هذه الحياة الدنيا كما تأكل الأنعام وهم من الآخرة غافلون .

وأظن أن فيما كتبناه للأستاذ الحائز المضطرب ما يقنعه بأن هناك فرقاً بين المسألتين ، وإن كان ما يفعله العامة محرماً بإجماع المسلمين ولا يلبق إقرارهم عليه ، بل ينبغي لكل عالم أن يحارب هذه البدع والموبقات ؟

عبد الرحمن الجزيري

## العطية قبل السؤال

إنما جعلنا أكثر طرفنا في هذا الشهر ، في البذل والعطاء ، لأن رمضان شهر الإحسان ، والإكثار من ذكره يلفت القلوب إليه .

سأل معاوية سمعة بن الصوحان : ما الجود ؟ فقال : التبرع بالمال ، والعطية قبل السؤال . ومن قول إمام الأدب ابن عبد ربه صاحب العقد في هذا المعنى :

كريم على العائلات حزل عطاؤه      يفيل وإن لم يعتمد لسؤال  
وما الجود من يعطي إذا ما سأله      ولكن من يعطي بغير سؤال

وقال سعد بن العاصي : قبَّح الله المعروف إن لم يكن انتدب من غير مسألة فالمعروف عوض عن مسألة الرجل إذا بذل وجهه ، فقلبه خائف ، وفرائضه ترعد ، وحينئذ يرشع ، لا يدرى أرجع بنجح الطلب ، أم بسوء المنقلب ؟ قد انتقع لونه ، وذهب دم وجهه ، اللهم فان كانت الدنيا لها عندي حظ ، فلا تجعل لي حظاً في الآخرة !

وقال علي أمير المؤمنين لأصحابه : من كانت له إلى منكم حاجة ، فليرفعها في كتاب لأصون وجوهكم عن المسألة .

ومن أحسن ما قيل في هذا المعنى قول أبي تمام :

عطاؤك لا يفتنى ويستغرق الثنا      وتبقى وجوه الراغبين بمائها



## حول السيرة المحمدية

تابع لما قبله

قد يقول قائل : هذا شأن اليهود ونحن إنما نتكلم عن المسيحيين فأين هذا مما نحن فيه ؟ والجواب : أن المسيحيين يعتقدون بالتوراة فعلمهم بها كعلم اليهود ، ويزيدون عن اليهود بما جاء في الإنجيل .

٧ — قال الله تعالى : « الذين آتيناكم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » ( سورة البقرة ) .

وهذه الآية الكريمة غنية عن التعليق لإفادة أن أهل الكتاب كانوا على يقين من أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنهم كانوا يكتمون الحق وهم يعلمون أنه الحق .

٨ — روى البخارى في صحيحه ص ١٩٦ ج ١٦ قال : جاء العاقب والسيد صاحبا بحران الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعناه ( يباهلاه ) ، فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل فوالله لئن كان نبيا فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا . ويوضح هذا الحديث ما ذكره الإمام القرطبي عند الكلام على قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » الى قوله تعالى « فن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا ونفوسكم ثم نبهل فنجعل امنة الله على الكاذبين » قال : إن هذه الآيات نزلت في وفد بحران لما قالوا لنبى صلى الله عليه وسلم من أبو عيسى ؟ فأرسل الله تعالى إن مثل عيسى عند الله الآيات ، فدعاهم النبي صلى الله عليه وسلم الى المباحة فأحجموا وخافوا ، وقال بعضهم لبعض إن باهلتهم اضطرم عليكم الوادى ناراً . فقل لى ربك هل كان هذا الخوف وهذا القول منهم لأنهم كانوا يعتقدون أن محمدا كذاب إذ لا نبى بعد عيسى ، وأن الديانة قد تمت فى نظرم ، أو بالعكس ، وأن هذا ما حصل إلا لأنهم كانوا يعتقدون أو يرغب على ظلمهم أو يجوزون على الأقل أنف محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله حقا ؟ ويلزم كل هذه الاحتمالات أنهم كانوا لا يعتقدون أن الديانة قد تمت ولا استحالة نبى آخر بعد عيسى عليه السلام . قال الامام القرطبي : هذه الآية علم من أعلام النبوة لانه دعاهم الى المباحة فأبوا ورضوا بالجزية .

٩ — قال الله تعالى : « ولتحدثن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ، وإذا دعوا الى الرسول روى أعينهم

تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق» الى آخر الآيات ، فما حكاة القرآن عن فريق منهم في هذه الآيات لا يتفق مع زعم أنهم كانوا يمتقدون تمام ديانتهم وأنه لا نبي بعد عيسى عليه السلام . وقد ناقش الأستاذ في دلالة هذه الآية على مدعانا قال : وأما قوله تعالى : وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول الآية ، فهو صريح في أن الذين فاضت أعينهم بالدمع كانوا قد آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم من قبل وآمنوا بالقرآن ، فلا عجب أن ترق قلوبهم عند سماعه فيبكوا ، وليس هذا بصحيب من قوم تذوقوا طعم اليقين اه .

وبناء على ذلك يكون قوله تعالى : ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الى قوله : وأنهم لا يستكبرون ، في حق النصارى ، وقوله تعالى : وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول الخ في حق المسلمين ، قبل معصم أيها القراء بتفسير أعجب من هذا ؟ فالعارف بالدوق البلاغي ، وفي مقدمتهم الأستاذ ، يحزم بأن الصمير في قوله تعالى : وإذا سمعوا ، مائد لما حدث عليه الضمائر السابقة وهم الذين قالوا إنا نصارى ، وأن قوله تعالى : وإذا سمعوا معطوف على قوله تعالى : لا يستكبرون ، فليرجع واحد ، والمحدث عنه منعد ، وهم الذين قالوا إنا نصارى . أما ما ذهب الأستاذ اليه فإنه يلزم عليه تفشيت الضمائر واختلال النظم . والذي دعا الأستاذ الى كل هذا التكاف ما فهمه وحرص عليه من أنه لم تكن لأهل الكتاب معرفة بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته ، وقد صلت ما فيه .

ثم قد وقع الاختلاف بين المفسرين في القوم المرادين بهذه الآيات بسد إجماعهم على أنها كلها خاصة بقوم من النصارى ، قال العلامة القرطبي ص ٢٥٥ ج ٦ : وهذه الآية نزلت في النجاشي وأصحابه لما قدم عليهم المسلمون في الهجرة الأولى ، الى أن قال : ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين وأرسل الى الرهبان والقيسين لجمعهم ، ثم أمر جعفرا أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ سورة مريم ، وقاموا تفيض أعينهم من الدمع ، فهم الذين أنزل الله فيهم : ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى الى قوله الشاهدين ، رواه أبو داود . وذكر البيهقي عن ابن إسحاق قال : قدم على النبي صلى الله عليه وسلم عشرون رجلا أو قريب من ذلك من نصارى الحبشة ، وهو بمكة ، حين ظهر أمره فوجدوه في المسجد فكلموه وساءلوه ، ورجال قريش في أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مسألتهم مما أرادوا دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم الى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتبهم من أمره ، فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل في قعر من قريش فقالوا : خبيكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم تريدون لهم فتأتونهم بخبر الرجل فلم تظهر محالستكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم ، ما نعلم ركباً أحق بمسكاً فقالوا سلام عليكم لا نجاهلكم فلنا أفعالنا ولكم أعمالكم لا نألو أنفسنا خيراً . ويقال إن النفر النصارى من أهل نجران . ويقال إن فيهم نزلت هذه الآيات

أيضا : الذين آتيناكم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، الى قوله تعالى : سلام عليكم لا نبغى الجاهلين . وقيل إن جعفر وأصحابه قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم في سبعين رجلا فيهم اثنان وسبعون من الحبشة ونمانية من أهل الشام ( وذكر أسماءهم ) فقرأ عليهم النبي صلى الله عليه وسلم سورة يس الى آخرها فبكوا حين سمعوا القرآن وآمنوا وقالوا : ما أشبه هذا بما كان ينزل على هيسى ، ونزلت : لتحذرن أشد الناس عداوة للذين آمنوا الآيات وقال سميد بن جبير : وأزل الله فيهم : الذين آتيناكم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، الى قوله تعالى : أولئك يؤتون أجرهم مرتين الى آخر الآية . وقال مقاتل والسكابي : كانوا أربعين رجلا من نجران من بني الحارث ، واثنان وفلائون من الحبشة ، ونمانية وستون من أهل الشام .

وهذا الخلاف في تعيين القوم المرادين بالآيات الكريمة لا يعنينا في كثير ولا قليل ، إنما يعنينا القدر المتفق عليه وهو أن هذه الآيات برمتها زلت في قوم من النصارى ، كما أنه يؤخذ منها أن كثيرا من النصارى كانوا قد أسلموا . إذن فقد كان من النصارى ناس ييكونون ويؤمنون بمحمد مبعث القرآن إذ يعرفون أنه الحق طبقا لما كان في كتبهم ، وكذلك قد كان من اليهود كما مر ، ولكنهم كانوا قلة بجانب من كان يسلم من النصارى .

وهذه ليست صفة ذم كما يقول سيدي الأستاذ ، فإن سرعة الانقياد الى الحق إذا بهر والدليل إذا ظهر من أجل الصفات وأسمى المناقب ، وقد ذم الله تعالى قوما بأنهم يجادلون في الحق بعد ماتبين ، وكان أبو بكر رضي الله عنه أسرع الناس تصديقا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ولذلك مدحه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : ما دعوت أحدا الى الاسلام إلا كانت له نبوة غير أبي بكر . فالمسارعة الى قبول الحق منقبة أي منقبة ، سيما وهؤلاء القوم لم يكونوا خالي الذهن كما قد يتوهم بل كانوا على علم تام بأمر النبي صلى الله عليه وسلم كما سبق تحقيقه ، فلم يكونوا بحاجة الى أكثر من أن يطبقوا ما شاهدوا على ما كانوا يعلمون . وقد كانت شخصية النبي صلى الله عليه وسلم ناهيك بها من شخصية ، إنها توحى الى ذوى البصائر النيرة تصدقه . ولقد رآه بعض الناس مرة واحدة فقال : والله ما هذا بوجه كذاب . ولقد رآه رجل من أهل اليمن وهو صغير فقال لقريش : إن هذا الغلام ليظهر إليكم أحيانا بعمى حوذر وأحيانا بعيني أسد ، فلو كانت نظرت الأولى لسميت لا نفرت موتاكم ، ولو كانت نظرت الثانية سبها لآتت عليكم واحدا واحدا . وتأثير القرآن وما أدرك ما تأثير القرآن ؟ إنه مضططيس القلوب الطاهرة ، والنفوس الحساسة ، والضاير الحرة ، وكيف لا ؟ ألم يقل الله تعالى : ولو أرىنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم ينفكرون » وألم يقل الله تعالى في صفة القرآن العظيم : « مثاني تعشم منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تالين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » ؟

ولقد ذهب الوليد بن المغيرة الى النبي صلى الله عليه وسلم يعرض عليه أمورا في نظير الكف عن دعوته وعيب آلهتهم ، فلما فرغ من كلامه ، قال له النبي صلى الله عليه وسلم : اسمع ، ثم تلا عليه أول سورة فصلت الى قوله تعالى : « قال أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد ونموذ » فأمسك الوليد بفيه ونأشده الله والرحم ، ثم رجع الى قريش ، فلما رأوه من بعيد قالوا : والله لقد جاءكم الوليد بوجه غير الذي ذهب به ، فانظر وتأمل بعض آيات معصمها الرجل وهو لا يزال على كفره تؤثر فيه هذا التأثير المحسوس الذي يرى على وجهه من بعيد ثم مدح الوليد القرآن فقال : والله إن له خلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليقلب وما يقلب ، وما هو بقول البشر ا ولقد قرأ النبي صلى الله عليه وسلم سورة النجم على ملا من قريش فسحرم البيان ، وأخذت بمجامع قلوبهم قوة الإعجاز ، وأنتمهم حقدوم الدفين ، بل أنتمهم أنفسهم حتى إنه لما وصل الى آخرها وسجد ، لم يثالكوا أنفسهم فسجدوا جميعا ، فطار الخبر الى مهاجري الحبشة بأن قريشا قد أسلمت ، فرجعوا الى مكة ، ولكنهم وجدوا قريشا كما كانت بل أشد عنادا وكفرا . وإذا كان هذا تأثير القرآن على هؤلاء القوم وهم في أشد درجات الكفر والعناد ، فكيف تأثيره على القلوب المستعدة لقول الهداية بفطرتها ؟ نعم إن التريث ممدوح ولكن في مواطن الريبة . وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بقبأ فختبنوا » مما يرشد الى ذلك .

#### إيراد سهل الإيراد :

قد يقال : إذا كان المسيحيون أقرب مودة للمسلمين من اليهود والمشركتين ، فكيف نمل ما حصل بين الفريقين من الحروب الطاحنة ، وكيف دخلت أم برمتها في الاسلام بخلاف النصارى ؟ والجواب عن الشق الأول لن يحتاج إلا الى لفت النظر الى ما هو حاصل الآن بين الأمم المسيحية من الحروب الطاحنة مع أنهم من ملة واحدة ، بل إن الصحابة أنفسهم قد وقعت بينهم حروب . وأما عن الشق الثاني فإن مسألة الايمان لها ظروف وأسباب وملاسات شتى ، مثل التغلب النهائي على الأمة الفارسية ، وامتراج المسلمين بهم ، وكذلك الامتراج الكلى الذي حصل بين الأمة العربية والأمة التركية .

وبعد إثبات ذلك الاصل المتقدم تتراح تلك التشكيكات التي أوردت على ما حصل من ملوك النصرانية .

ومحسن بما أن نبدي بعض ملاحظات على ما كتبه الأستاذ بشأن قصتي هرقل والنجاشي :

أما قصة هرقل مع أبي سفيان ومحبته فقد رواها البخاري في صحيحه في جملة مواضع

عن ابن عباس عن أبي سفيان ، وليس عن ابن الناطوري . وكذلك رواها الإمام مسلم في صحيحه والبيهقي ، وفي آخرها يقول هرقل لأبي سفيان : لئن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منك ، فلو أتى أعلم أني أحاص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ... فقل لي بريك أي غرابة أو خرافة في هذا ؟ وأي قاعدة من علم النفس أو علم الاجتماع تمنع من أن يقع في خاطر هرقل من صدق النبي صلى الله عليه وسلم مثل ما وقع في قلب الفتاة الاسكندرانية أمه الله بار ، أو اللورد هسلي ، أو القس طبر ، وغيرهم من ناصحي العقول وأحرار الأفكار ؟ والله إن هذا ليس ببديع ، بل البديع أن ينكص على عقبيه ويؤثر الثانية على الباقية بعد التي قدمناه من الأدلة . على أنه كان على يقين من أمر النبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان من أكابر علمائهم .

هذا وقد أراد الأستاذ أن يتخلص من إنكاره عليه تكذيب صحيح البخاري فأورد ملاحظتين لا محل لهما : أولاً أنه ليس كل ما ورد في كتاب البخاري من آرائه الشخصية وتعليقاته يسري عليه ما يسري على ما أورده من الأحاديث مسنداً إلى النبي صلى الله عليه وسلم . والثانية أن ما روى عن ابن الناطوري ليس بحجة لأن ابن الناطوري ليس بثقة في نظره ولا في نظر أحد من المسلمين . وإنما قلنا هاتين الملاحظتين لا محل لهما لأن الحديث الذي أنكرنا تكذيبه وهو قصة هرقل مع أبي سفيان كما قلنا ذلك بصريح العبارة ليس من تعليقات البخاري ولا من آرائه الشخصية ولا هو مروي عن ابن الناطوري ، وإنما هو مروي عن عبد الله بن عباس عن أبي سفيان فهو صحيح الاسناد ، فاعتراضنا في ماحية وجوابه في ناحية أخرى لا تلاق بينهما بوجه من الوجوه .

وقد ذكر الأستاذ أن الأحاديث المروية كلها ليست بمنجاة من النقد ، وقد سمح الأئمة السابقون لأنفسهم بنقد كل شيء فيه ، فضمفوا مائة وعشرين حديثاً من الأحاديث المروية فيه . ونحن نوافقه على هذا المبدأ الجليل ، ونصرح بأن الإمام البخاري ليس معصوماً لا هو ولا غيره من الأئمة ، وأنه عرضة للنقد ، وأنه لا عبرة بكلام غير النبي صلى الله عليه وسلم إلا بالحجة والبرهان ، وهذا يجمع عليه ، وقد روى عن الإمام مالك رضي الله عنه : ما من أحد إلا ويؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر ، يريد النبي صلى الله عليه وسلم . وروى عن الإمام الشافعي رضي الله عنه : إذا رأيتم كلامي يخالف حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذوا بالحديث واضربوا بكلامي عرض الحائط . ومثله عن الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه . وبالجملة فهذا قدر متفق عليه ، ويدل على صحاحة الاسلام وإعطائه العقل منتهى الحرية ما دامت في حدود العقول .

ولسكن نقد الأحاديث له طريقتان : الأولى ببيان حال رواه من الضعف ، وهذا إنما يكون من الأئمة المعاصرين لهم العارفين بأحوالهم ، والثانية ببيان أن الحديث مصادم لحكم

المقل بالدليل المنطقي ، ولا شيء منها يتعلق بالحديث الذي نحن بصدده ، وقد مضى على هذا الحديث قرابة ثلاثة عشر قرناً ولم يطعن فيه أحد بمخالفته للمعقول ، بل المخالف للمعقول ألا يقع في قلب هرقل صدق النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما قدمناه من الأدلة على أنه كان على علم ببعثته ، وبعد تلك الأسئلة الدقيقة وأنجوتها من أبي سفيان وهو يعلم أنه ألد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم ، فالتشكيك في هذا بأن النصاري كانوا شديدى التحمس بدِينهم ، ويعتقدون تمامه ، وأنهم كانوا يعلقون آمالهم في حماية دينهم على الدولة الرومانية الشرقية ، لا يقام له وزن لأنه تفكيك في مقابلة طالع الأدلة .

بقي أن الأستاذ ذكر جملة غير مفهومة عندي ، وهي قوله : « وقد ظن بعض الناس أن البخاري روى ما قاله عن هرقل عن الزهري عن عبيد الله عن عبد الله بن عباس عن أبي سفيان ، والواقع أنه روى خبر سؤال هرقل لأبي سفيان بهذا الإسناد ، وقد شاركه فيه مسلم » . فهذه الجملة متضاربة ، لأن آخرها يفيد أن خبر مسألة هرقل لأبي سفيان ومجاوبته أبي سفيان له التي انتهت بقول هرقل : فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدس هاتين وقد كنت أعلم أنه خارج الخ ، مروى بهذا الإسناد ، بينما أولها ينفي ذلك .

هذا ولا بد لنا من كلمة على ما روى عن ابن الناطوري ، فابن الناطوري إما أن يكون قد أسلم كما ذكره ابن حجر في فتح الباري ، وأبى الزهري لقيه في خلافة عبد الملك بن مروان ، أو يكون قد بقي على كفره ، فإن كان الأول فالأمر ظاهر ، ولا شك في قبول روايته ، وإن كان الثاني فهو إنما شهد للإسلام لا عليه ، فشهادته للإسلام ليست موضع ريب حتى تشترط فيها العدالة ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

أما مسألة إسلام النجاشي فالأستاذ كفنا فيها المأونة ، ذلك أنه اعترف معنا بأن نجاشياً أسلم وأنه غير النجاشي الذي أرسل إليه كتاب الدعوة ، ثم قال : وهذا لا يمنع أن يكون سلف هذا النجاشي قد أسلم سرا ، وأرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم بحبره بذلك خفية وكنتم إسلامه عن قوله . إذن فالأستاذ يجوز أن يكون السلف قد أسلم سرا ، أي وأما الخلف فقد أسلم جهراً ، وهذا فيه الكفاية ، لأننا لم ندع إلا إسلام نجاشي واحد ، فثبت لنا إسلام نجاشيين اثنين ، وكون الأول أسلم سرا أو جهراً لا يعني ، إنما الذي يعني إسلام النجاشي الذي أخذ منه أن النصاري لم يكونوا يعتقدون أن ديانتهم قد تمت بتجسد الابن بل كانوا يعتقدون بحجى نبي آخر ، وأنه مبشر به في كتهم ، ولذلك اختلف الحال بين رد ملوك المسيحية ورد كسرى الذي مرق كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم بأن يمزق الله ملكه ، وقد كان .

وأما كون كتاب النجاشي ركيك العبارة غير مستقيم الأسلوب ، فهو عندنا دليل على صحته لا على اختلافه ، وهل زعم أحد أن النجاشي تربى في بادية بني سعد حتى نشأ على الفصاحة والبلاغة ،

أو تربى في كلية السربون ؟ أو جامعة أوكسفورد ، حتى تعلم تحقيق العبارة وحسن السبك في الخطاب ، فالرجل ساذج ، وخطابه فطري ، وإيمانه فطري أيضا .

ونحن هذا المقال بهذه الآية الكريمة : « فإن كنت في شك مما أنزلنا عليك فأسأل الدين بقرءون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » .

محمد عبد الله الجبرني

## تعقيب على هذا التعقيب

عهدنا عهد شك وتمحيص ، وفوائد للنظر مستمدة من الواقع المحدوس ، ثم هو عهد ثقافة عامة سرت في جميع الطبقات ، ومعرفة شاملة بالأحوال والشنون العالمية ، والجماعات التي تعيش في مثل هذا العهد يغلب عليها المراج الفلسفي الحسي فيما يتعلق بالدين والآداب ، أكثر مما تغلب عليها الغرائز الأدبية للنفس البشرية ، والفيلسوف الذي تحترمه هذه الجماعات وترجو الاستهداء به ، هو الحسي الواقعي الشكاك العنيف ، الذي لا يقيم للمعاطفة وزنا ، وينظر للأشياء بمنظار معظم يبين كل ما فيها من عيوب . أما في الأدب ، ولا بد للآثم من أدب ، فلبيل العام منصرف الى اختيار أدب الواقعيين المشائين ، الساخطين على الحياة ، والساخرين بالوجود .

أراد الله أن نكون من أهل هذا العهد ، وأراد أن نكون من الماملين فيه على خدمة أمتنا من الناحيتين العقلية والقلبية معا ، فأول ما يجب علينا أن نتذرع به ، إذا أريد لنا أن ننجح ، أن نعرف روح هذا العصر ، وأن نكون نحن قد تأثرنا بها ، وأدركنا قوة سلطانها ، وترشحنا بذلك الى معرفة عوامل تأثيرها في الجماعات .

هذا عصر وضع كل شيء فيه في الميزان ، حتى الكتب السماوية ، والمعتقدات الأولية ، وارتأب العقل في كل مروي حتى فيما أجمعت عليه أم يرمتها آلافا من السنين ، ثم هو عصر أصبح فيه من يخالف روحه التي وصفناها تسقط قيمته ، ويعصد في زمرة المعطلين . فعصر مثل هذا تعتبر فيه مهمة إيقاظ المعاطفة الدينية من أشق المهام ، وأقدسها تبعات .

كان من سبقنا من أهل العلم إذا أرادوا أن يشكلموا في أمر من أمور الدين ، شعروا أنهم وسط جمهور مشبع بروح الاعتقاد ، والتطلع للسماع ، والرغب في المزيد ، يحيط بهم

جو من حسن الظن والتسليم المطلق ؛ ولكن خلفاءهم اليوم يشمرون بتحول عظيم لهذه الحالة النفسية ، وإن لم يجرؤ الناس هنا على إظهارها كما تظهر في البلاد الغربية ، وإنما ينم عليها عدم الاكتراث بالمنكلمين في هذه الشؤون ، بل عدم سؤالهم مما يحبك بالصدور من شتى الشبهات ، بأسا من صمغ ما تطمش اليه نفوسهم ، واعتقادا بأنهم في مروقهم أهدى من مرشديهم سبيلا ، وأقوى في إلحادهم دليلا .

والمهمة التي أشرع بأني مطالب بأدائها في هذه المجلة ، هي تنبيه العاطفة الدينية في القلوب بالاصول نفسها التي كانت سببا في إخراجها ، لا يهدم تلك الاصول ، والتدليل لها على فسادها ، نعم ما أصبحت اصولا مقرررة للفلسفات طامة وللعلم كافة ، وبعد ما دُعيت بالمنطق العلمي ، وبلغت درجة الخلود .

ليس مرادنا من تقديم هذه الكلمات الدعوة الى إهدار شيء من مقرراتنا الاسلامية ، لا إيجاد الصلح المرغوب فيه بين المحافظين والاحرار منا ، فاني منذ درست الاسلام على ضوء العلوم الحديثة أدركت أن السبب في سوء ظن الاحرار بالدين هو عدم معرفتهم كنه الاسلام على وجهه الصحيح ، من ناحية ، ومبالغة المحافظين في تجاهل المطلق العلمي الحديث ، والروح الثقافية العامة السائدة على العقول ، من ناحية أخرى .

إن الذي جعل للعلم الرسمى هذا السلطان العظيم على العقول ، حتى تمخلت في سبيله عن الدين ، هو أنه حاصل بإخلاص على إدراك الحقيقة على ما هي عليه ، لا يهجم أن تكون على لون دون لون ، ولا أن تمصر رأيا على رأي . فلا سبيل لإفالة الدين مثل هذا السلطان على العقول في هذا العصر ، إلا إذا وضع قاعدته نصب عيونهم أن يحلوا أسلوبيهم في الاتصال الى الحقيقة الدينية ، أقوم من أسلوب العلم ، وآلاتهم في معالجة المسائل تحليليا وتركيبيا أدق من آلات العلم ، وغيرتهم على المحافظة على هذه الطريقة أشد من غيرة رجال العلم . بهذا ، بل بهذا وحده ، يخدم الدين في عهدنا الذي نعيش فيه ، وهو وإن كان كثير التبعات على العاملين ، فإنه أرقى العهود البشرية جيمعا في تقرير الحقائق بمبينة عن جميع الملابسات ، وهو جدير بأن تنقرر فيه اليقنيات الكبرى التي قبلها العلم في حظيرته ، ولا تزال بمبينة عن مرى بصر الدهاء .

هذه مقدمة قد يراها بعضهم طويلة ، ولكنها ضرورية وهذا وقتها .

فلننظر الآن في ملاحظات الأستاذ في الشطر الأخير من مقاله .

عاد فضيلة الأستاذ في هذا الشطر أيضا الى التأكيد بأن النصارى كانوا يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم كما يؤمن به اليهود لأن الطائفتين تقدسان التوراة ، وفي التوراة البشارات . وقد أوردنا في ردنا على الشطر الاول رأي إمام المعصنين الرازي في أن هذه البشارات لا تكن في تكوين هذه المعرفة . واستشهد الأستاذ بامتناع نصارى نجران عن المباحة ، على أنهم كانوا



يعرفون أنه نبي نغشوا أن يصيهم الله بشؤم ما صنعوا ، وآثروا على ذلك أن يفرض الله عليهم الجزية ، والجزية إدلال ، ومضيعة للاستقلال ، فكيف يعقل أن يخضعوا لذلك وإساعة الاستقلال ، ولا يعترفوا بالبوة لمحمد ، وهي عقيدتهم القلبية ؟ وهل بقوا في نظر أنفسهم مسيحيين مع عصيانهم الصريح للبشارة التي وردت عنه في كتبهم ؟ وفي مقابل أي شيء رضوا بالدل وإساعة الحرية ومصارحة كتبهم بالعصيان إلى هذا الحد ؟

الأمم إنى لأعلم لذلك مقابلا ، ولذلك لا أعقل أنهم كانوا مؤمنين به في قلوبهم ، وكافرين به في ظاهرهم ، وعندى أن قوله تعالى : « يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » يشير إلى فئة من اليهود كانوا يعرفون أنه نبي ، فكتموا إيمانهم حفظا لمساكناتهم ، ثم أخذوا يؤلبون عليه العرب واليهود معا . وما يهمني على هذا المهم قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » فأنهم سكتوا الحق فريقا ولم ينهم الفريق الآخر ، لأنهم كانوا آمنوا ، والمراد بأهل الكتاب أهل الحل والعقد منهم ، الذين يستطيعون النظر والاستدلال ، لاجمهرة الشعب ، بدليل أنهم في حروبهم مع المسلمين سيموا الخسف ، وكلفوا الجلاء والنجد من المال والعتاد ، بل قبلوا القتل ، ولم يشهدوا بالنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة ، ومثل هذا العناد الجنوني لو عقل صدوره من رجل أو رجلين ، فلا يعقل صدوره من شعب برمته ، فيسلم آحاده أعناقهم لل سيف وهم يرون نساءهم وولدانهم يولولون حولهم ، ولا يلقظون بالسفهم ما يمتقدونه في صميم أنفسهم !

هذا غير معقول ، وكل غير معقول يؤول في سبيله النص كما هي القاعدة الأصولية في الاسلام ، فإليك بما ليس فيه نص محدود ؟ ونحن في موضوع السيرة المحمدية بسبيل إظهار مكافة الاسلام من تمحيص الحقائق ، وتصفية المسائل ، وإحلاله في محله من القلوب والمقول .

وقد حاول الأستاذ دحض ما قلناه في معنى قوله تعالى : « ولنتحدثن أفرهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى » ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فكتبنا مع الشاهدين ، فأورد الأستاذ خلاصة تفسير لهذه الآية وهو : « إن الذين غاضت أعينهم بالدمع هم النصاري المذكورون في أول الآية ، وقد آمنوا فغاضت أعينهم بالدمع ، وليس المراد عموم النصاري ، فمعقب عليه الأستاذ بقوله . « فهل محتمم أيها القراء بتفسير أعجب من هذا ؟ »

ذلك لأنى اعتبرت قوله تعالى . « ولنتحدثن أفرهم مودة للذين آمنوا ، إلى قوله تعالى : وأنهم لا يستكبرون » في حق النصاري ، واعتبرت قوله تعالى : « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ، إلخ » في حق المسلمين .

والواقع أني لم أفعل ذلك لأنني اعتبرت الآية خاصة بقوم من النصارى كانوا أسلموا وحضروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومحموا منه . جاء في تفسير إمام المفسرين الرازي قوله : « قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والسدي : المراد به النجاشي وقومه الذين قدموا من الحبشة على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وآمنوا به ، ولم يُرد جميع النصارى مع ظهور عداوتهم للمسلمين » انتهى .

وهذا صريح في تأييدنا لا يحتاج لبيان .

ثم قال الامام الرازي عند تفسير قوله تعالى : « ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا » ما مؤداه : إن بعد النصارى عن الاسلام أهد من بعد اليهود عنه ، لأن النصارى يخالفوننا في ناحيتين : الإطيات والنبوات ، ولكن اليهود ينازحوننا في النبوات فقط .

فهل فيما قلته أنا شطط وقد وافقت فيه إمام المفسرين ؟

وقد ألم الأستاذ بقولي : « إن سرعة التصديق صفة ذم » فقال : « إن سرعة الاتقياد إلى الحق إذا جهر ، والدليل إذا ظهر من أجل الصفات » . وأنا أوافق فضيلته على ذلك ، ولكن بين سرعة الاتقياد للحق ( إذا جهر ) ، وللدليل ( إذا ظهر ) ، وبين سرعة التصديق ، فرق بعيد . فسرعة التصديق أن يتمهل في التصديق قبل أن يتجلى الحق ، وقبل أن يظهر الدليل . وقد ذم المخلقون جميعا هذه الخصلة ، وأوردوا لها فصولا من كتبهم . وقد حصى الاسلام أهله من الوقوع في هذه النقيصة العقلية ، فكلفهم التثبت مما يمتقدون ، وزاد فطالهم بالدليل عليها ، وأوعده على إهماله بتصريحه أن إيمان المقلد غير مقبول .

ولا تطرّف فيما تحوّل الاسلام أهله به من هذا التكليف ، فإن أهل كل أمة يزعمون أن الحق الباهر في جاسمهم ، فإن لم يك دليل يستندون إليه ، كانوا خابطين في الأوهام ، وقائمين عن الحقيقة بالأحلام .

وقد استشهد الأستاذ بسرعة تصديق أبي بكر بالنبي صلى الله عليه وسلم . ولعله يذكر أن أبا بكر كان صديقا لرسول الله منذ صباه ، ويعلم من صدقه وورعه ما يعلمه عن نفسه ، فليس بمجيب أن يسارع إلى تصديق نبوته ، ولكن العجيب أن لا يسارع إلى تصديقها .

ثم أغض الأستاذ - لأجل تسوية مدحه لسرعة التصديق - في ذكر ما لشخصية النبي صلى الله عليه وسلم من التأثير الروحاني ، وما للقرآن من سلطان على العقول والقلوب . هذا حسن أن يقال ويكتب ليروح به ( المؤمنون ) أما في سبيل تحصيل الحقائق ، وتعميل الوقائع فلا ، ويجب أن يرجع في ذلك إلى حكم القرآن . قاله يقول : « وإن يكاد الذين كفروا ليزلزلوك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون » ، ويقول : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على

رجل من القريتين عظيم ؟ ويقول : « وإذا رآك الدين كفروا إن يتخذوك إلا هزوا ، أهذا الذي يذكر آلهتكم ، وم يذكر الرحمن ثم كافرون » .

ويقول الله في أثر القرآن على قلوب ( الكافرين ) - « وإذا تنلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نفاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين » ، ويقول : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر ، وهو عليهم عمي » ، ويقول : « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ، وما يضل به إلا الفاسقين » .

هذا مذهب القرآن في تقرير الحقائق ، وبيان الواقع ، ووضع الأمور في نصابها ، ورد المعلولات الى علها ، ليتبين الحق من الباطل ، والرشد من الغي ، وليتضح جد الأسباب من هزلها ، ولباب الموامل من قشورها .

#### إيراد سهل الأبراد :

حاول فضيلة الأستاذ تحت هذا العنوان أن يرد على ما قلته بأن الحروب التي حدثت بين النصارى والمسلمين تنبئ كونهم مؤمنين بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن تقاتلهم لا يفي أن النصارى مؤمنون في صميم أقتدنتهم بالنبي وبالقرآن الكريم ، مستدلا على ذلك بالحروب التي بوعدت بها النصارى بعضهم على بعض ، وهم متفقون في الدين .

نقول : صدق الأستاذ ، إن بين أئم متفقة في الدين الآن حربا تعيب لهاها الولدان ، وهي حرب دعت اليها عوامل اقتصادية كما هو بدعي ، وهذه الموامل توجب الشقاق بين أقرب القرابات ، ولكن منذ نحو خمسة قرون شبت حروب بين الكاثوليك والبروتستانت دُعيت رسميا باسم الحروب الدينية ، لأن الجوافز عليها كانت دينية محضة . وكانت قبل ذلك حروب اعترِف رسميا بأنها حروب دينية أيضا ، حدثت بين النصارى والمسلمين ودامت نحو أربعة قرون متوالية وسميت بالحروب الصليبية ، اشتبكت فيها أئم أوروبا بالمسلمين في آسيا وأفريقيا ، وكانت سببا لعظائم انتقامية ترتعد لهاها الفرائس . فهذه حروب كانت بدوافعها وبالأسم الذي أطلقه عليها النصارى أنفسهم دينية محضة ، ولكن هذا النوع من الحروب قد بطل الآن لانتشار روح الوالة الإنسانية بين الشعوب ، وهذا غرض تساعد عليه روح الإسلام والمسيحية على السواء .

وأراد فضيلته أن يقلل من قيمة ما استدلت به على تسارع أئم برمتها الى الإسلام كالكفر والترك وليس في كتبها بشارات بالنبي ، ومكوس اليهود والنصارى عنه وفي كتبهم بشارات ، فقال : إن لإسلام تلك الأمم أسبابا شتى مثل التغلب النهائي على الأمة الفارسية وامتزاج المسلمين بهم . ونحن نرد ذلك بأن الأمة الإسلامية تغلبت على إسبانيا وامتزجت بأهلها قرونا ، فلم يسلم أهلها ، بل أجبروا ألوا من العرب حين تغلبوا عليهم على التسمر .

ثم علل فضيلته لإسلام الأمة التركية بامتزاجها الكلي بالعرب . وزد ذلك بأن الترك أسسوا قبل أن يعتزجوا بالعرب ، وقبل أن يطوف بخيالهم أنهم سيختلطون بالعرب في بلادهم بعدة قرون ، فهم لم يتصلوا بهم إلا بعد فتح السلطان سليم لمصر سنة ٩٢٠ هـ .

\* \*

نمود الى قصة هيرقل فنقول : كتبنا في السيرة أن هيرقل لما وصله كتاب النبي صلى الله عليه وسلم يدعو للإسلام ، أراد أن يسأل عن رسول الله من يعرفه من قومه ، فاتفق وجود أبي سفيان بن حرب ورجال معه ، فاستحضرهم وسأل أبا سفيان عن رسول الله فجاباه . وهنا زاد الرواة قولهم إن هيرقل مال الى الإسلام ، وأراد أن يحمل قومه عليه ، فجمعهم وعرض عليهم فأبوا عليه ذلك وغضبوا ؛ فهدد روعهم بأن زعم لهم بأنه إنما فعل ذلك ليحضر قسوة تمسكهم بدينهم ؛ وأردت هذا الخبر وتشككت فيه فقلت . يعقل أن إمبراطور الرومان أراد أن يستقصى خبر النبي صلى الله عليه وسلم من قومه مباشرة ، فاستحضر من اتفق وجرده ببلده من العرب وسألهم . أما إسلام هيرقل ودعوته لقومه للإسلام ، فلا يمكن أن يعقل للأسباب التي بسطتها هناك ، لا لأن قبصر أكرم من أن يسلم ، ولكن لعدم كفاية الأسباب التي تدعوه للإسلام ، وهو بعيد عن صاحب الدعوة وعن أصحابه القاطنين بها .

فرد على فصيحة الاستاذ بأن التشكك في قصة هيرقل لا يجوز لأنها واردة في المعري . فقلت له إن الزوارد بالمعري بسنده الصحيح هو ما جرى من الحديث بين هيرقل وأبي سفيان ، وقد سلمت به وقلت إنه معقول ؛ وأما خبر ميل هيرقل للإسلام وعرضه إياه على كبراء دوله ، وهو القسم الذي تشككت فيه من هذه القصة ، فهو وإن كان موجودا بالبخاري إلا أنه غير مروي بسند البخاري المعروف ، ولكنه مروي عن الزهري عن ابن الناطور ، والتشكك في صحته بل إقصاء بكذبه ، ليس فيه شيء لأن ابن الناطور ليس بثقة لا عند البخاري ولا عند غيره .

لجاء الاستاذ في مقاله الأخير يقول ما مؤداه : وقد أراد الاستاذ ( يعني ) أن يتخلص من يسكري عليه تكذيب صحيح البخاري ، فأورد ملاحظتين لا محل لهما ، لأن الحديث الذي أسكرنا تكذيبه ، وهو قصة هيرقل مع أبي سفيان ، ليس مروي عن ابن الناطور ، وإنما هو مروي عن عبد الله بن عباس عن أبي سفيان .

وأما ما صرح له بأنني لم أكذب حديث أبي سفيان مع هيرقل المروي بسند البخاري الصحيح وقلت إنه معقول ، وإنما كذبت بما زيد عليه مما روى عن ابن الناطور ، وهو أسقف دمشق مشكوك في إسلامه . فيكون الاستاذ قد اتهمني بتكذيب صحيح البخاري ولم أقبل .

يقول فضيلة الأستاذ : ابن الناطور إما أن يكون قد أسلم كما ذكره ابن حجر في فتح الباري ، وأن الزهرى لقيه في خلافة عبد الملك بن مروان ، أو يكون قد بقي على كفره . فإن كان الأول فالأمر ظاهر ولا شك في قبول روايته ؛ وإن كان الثاني فهو إنما شهد للإسلام لا عليه ، فشهادته للإسلام ليست موضع ريبة حتى تشترط فيها العدالة ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

يقول : إننا لا نستطيع أن نقر هذا المبدأ ، رجل مشكوك في إسلامه ، أو أسلم حديثاً ، لا يكون من التثبت الإسلامي أن نعتمد روايته على الفور قبل التحقق من عدالته بأدلة حاسمة . فإذا كما لا نقل أن يكون المسلم العريق راوياً إلا بعد التحقق من ورعه ، وبكال سمته ، فهل نسرع إلى قبول رواية من يضم إلينا من أهل الملل بدون أن سلو أمرهم ، ونعتقد رسيرهم ؟ ألا يجوز أن يكونوا قد التحفوا بالإسلام ولم يستشعروا ليدسوا إليه ما ليس منه ، نوهينا لأصوله ، وتشوها لجلاله ؟ هل نسينا ما فعله الذين قبلوا الإسلام ظاهراً ، وهم يصرون له السوء باطناً ، فأكثرنا من وضع الأحاديث المذكرة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن صبتهم الإسرائيليات والمجوسيات بصنع إسلامية لتروج بين العامة ، فأغتر فيها متكلمون كثيرون في الشؤون الإسلامية ؟

يقول فضيلة الأستاذ : وإن كان ابن الناطور لم يسلم فشهادته للإسلام ليست موضع ريبة . نقول : إنه لم يشهد للإسلام ولكنه ذكر من هيرقل كلاماً لا يصدر عن أمير طور روماني ، بل ولا عن طفل أوتي مسكة من الزناة ، وهو أن يحبس كراء دولته في كنيسة ويطلب إليهم أن يدخلوا في الإسلام . وهم بدل أن يقبضوا عليه ويقصوه من الحكم ، يحاولون الحرب معه ، فيجدون أنه أغلق عليهم الأبواب ، فيستدعيهم إليه ويكذب عليهم قائلاً : إنما فعلت ما فعلت لاختبر إيمانكم !!

متى كانت إيمان رجال الدولة الرومانية الشرقية موضع ريبة حتى يعتمد أمر طورم لاحتبارهم ، وهل يختبر عياهل الأمم قوة إيمان رجال دولتهم على هذا الوجه المذاني لكرامة الرجولة ، ثم يخلصون من تبعة فعلتهم بالالتجاء إلى الكذب ؟

إن فضيلة الأستاذ بالغ في إحسان الظن بهيرقل هذا حتى جعله داعية للإسلام ، ونقل من بعض الروايات عنه أنه قال « فلو كنت أعلم أني أحلص إليه ( أي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ) لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لفعلت عن قدميه » ، واعتبره فضيلته من أكابر علماء الرومان ، ولو كان تقصى أمره لراى أن النبي صلى الله عليه وسلم وسمه بأنه عدو لله وأنه كاذب . جاء في شرح صحيح مسلم للإمام الوشتاني الألبى ( ص ١٠٤ ج ٥ ) أن هيرقل أرسل مع

رسول الله كتابا قال فيه : إنه مسلم ولكنه مغلوب على أمره ، وأرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم هدية . فلما قرأ رسول الله كتابه قال : كذب عدو الله ، ليس بمسلم بل هو على نصرانيته .



نعود إلى إسلام النجاشي فنقول : قد ثبت من صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوما لأصحابه : مات أخ لكم في الإسلام هو نجاشي الحبشة ، وقاموا جميعا فصلاوا عليه . ولم يذكر البخاري أنه هو الذي أرسل إليه رسول الله كتابا كما أرسل لسائر الملوك .

فجاء الإمام مسلم فذكر في صحيحه أن النجاشي الذي صلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، غير الذي أرسل إليه كتاب الدعوة ، فيلزم من ذلك أن للكتاب الذي شككنا في صحته لا محل له . لأنه لو كان لكتاب رسول الله جواب لكان من النجاشي الذي لم يسلم ، وهو لا يكون على النحو الذي استبعدنا صدوره من نجاشي الحبشة .

وإني إنما استبعدت أن يسلم نجاشي وبجاءه رومه بإسلامه ، لأنه تقرر تاريخيا أن الأحباش من الأمم الشديدة التمسك بدينها ، ولما لكها مهام دينية ، واحتفالات رسمية لا بد له من أدائها ، فكيف لم يثر عليه شعبه ويسقطه ، ويصبر على هذه الكارثة الاعتقادية ؟

جاء في كتبنا الإسلامية أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك الخليفة كان منهمكا على اللهو والفجور ، وأتهم بالنصر ، فثار الأمة عليه ، واقتنعت قصره ، واحترت رأسه ، وحملته على سنان ربح ، وطافت به المدينة نشيرا به وتشفيا منه سنة (١٢٢) هـ . فهل يتورع متعصبه الحبشان ، عن مثل ما أقدم عليه المسلمون ، لو كان كاشفهم النجاشي بإسلامه ؟

أما ما ذكره الأستاذ عن كتاب النجاشي مریدا به الرد على ، فاني لم أذكر أن من دلائل وضعه ركاكته ، حتى يصح أن يرد على بأن صاحبه لم يقرب في بادية بني سعد ولا في كلية السوربون أو جامعة أكسفورد ؛ ولكني قلت : « لظهور أثر الصعة في كل عبارة من عباراته ، بل كل كلمة من كلماته » ومن يرجع إليه يتحقق مما قلت .

وقد افترض الأستاذ أن النجاشي كتب ذلك الكتاب بنفسه ، وليس هذا من العادات الملكية فإن الملوك كتابا يتولون الكتابة لهم .

أما تشدد فضيلة الأستاذ بأن الصاري كانوا في عهد من عهدهم ينتظرون رسولا رجلا يمد عيسى عليه السلام ، فاني أنحدي كل قائل بهذا أن يثبتها من كتب النصرانية ، أو من تاريخهم المحرر بأقلامهم .



إن غرضي من التشدد في النقد نفي الأفاصيص الخرافية من السيرة النبوية، حتى لا يستهين بها البائدة المتعلقة في هذا العصر، ويمدوها دون مستوى عقليتهم وثقافتهم، لا سيما وأن كثيرا منهم يصرح علنا بأنه لا يمكن تجريد كتاب ديني من الحصة المناسبة لعقلية العامة منه، فأردت أن أثبت بالعمل لهذا الفريق أنه يمكن أن يكتب كتاب إسلامي على الأسلوب العلمي دون أن يهدر منه أصل من أصول الدين، ويكون في الوقت نفسه مرضيا للخاصة والعامة معا. وهذا ما فعلته في كل مؤلف وضعته، ووقت به في هذه السيرة المحمدية أيضا.

إن ديفنا بيناته العقلية والحسية، وبمعجزاته الأدبية والاجتماعية، غنى غنى لا حده عن التلخيصات القصصية التي تماشى عقلية العامة، ولكنها نضر الخاصة فتجعل بينهم وبين الدين برنا بعيدا، لأن العقل والقلب يتجهان عادة إلى حيث يصادفان السمو. فإذا أردت لفلسفة أن تصبح فاعلة على إيصالها إلى درجة السمو، فإن باخنها فلا تكون في حاجة إلى دعاوة، فافيهما من سمو يجذب إليهما الغلوب والعقول صاغرة، والدين الإسلامي، والحسكة القرآنية، وسيرة النبي، والانتقالات العقلية، والانقلابات الاجتماعية التي سبها، والثورة الأدبية العالمية التي أحدثها، في كل هذا من السمو ما لا تستطيع همنا مجتمعة أن تقوم بحقه، فهل نكسف هذا كله في سبيل تصيد أفاصيص لا تثبت على النقد، مع علمنا بأن عدد عبيدا من الناقين على الإسلام دخلوا فيه ظاهرا، وانتثروا إفساده باطنا، فوضموا عشرات الألوف من الأحاديث والأفاصيص ذات الدلالات الخرافية، والتي ثمرتها نشر الحياة الإيجابية، وحل أواصر الجماعات الإسلامية، مقتدرين تارة بالصوفية، وتارة أخرى بالفلسفة اليونانية، وهم بأي مظهر ظهروا صموا على أن يفتنوا الناس بسحتهم الجبيل، وورعهم البالغ، وزهادتهم المثالية، وعباراتهم الجلابة.

إني أعرف كتبنا محشوة بالأضاليل طبعت عشرات من المرات، وانتشرت بين الناس أيما انتشار، وأثرت في عقليات قرائها ونفسياتهم أعمق تأثير.

فالذي أرجوه من المتكلمين في الإسلام اليوم أن يلاحظوا كل هذا، وأن يتحروا السمو الذي هو الوصف المميز للإسلام ويظهروه، وليس إظهاره بأن ينهوا به تنويها في ألفاظ محبرة، ولكن في أن يعملوا على مقتضى أسلوبه من التعميم والتحقيق، ويبايعوا بأنظارهم إلى مثله الأعلى من التحليل والتركيب. ولست أستطيع أن أبين فداحة التبعة، وخاصة في هذا العصر، من عدم اتباع هذه الطريقة، فإن نتيجة إهمالها زيادة عمق الهوة التي بين الإسلام، وبين شبابها المثقفين. فالإسلام امتلك قلوب العالمين بالسمو الذي ظهر به، ولا يعمد دولته إليه إلا لتجلية ذلك السمو الذي فيه.

محمد فرير وجري

# حَيَاتُ الْإِسْلَامِ

أبو بكر الصديق

- ١٠ -

امتحان الرجولية

في مقالنا السابق رحما خطوة من خطوات الفلك في دائرة التاريخ الاسلامي كانت أشد وطأ على قلب الاسلام ، وأقمى امتحانا لايمان المؤمنين من جميع ما ضمت الحياة بين جنباتها من آلام وأحوال ، حتى تزلزل لها أقدام الراسخين ، وذهلت من هولها نموس المادفين ، وتفرد الصديق الأعظم رضى الله عنه ، فمما بإيمانه وعقله فوق مستوى العاطفة الى أفق الوراثة العظمى للنبوّة الخاتمة في الدعوة الى الله ، وتبليغ دين الله وشرائعه الى الأحمر والأسود ، وثبت الله براسخ يقينه عروة الاسلام .

والآن نتحدث عن خطوة أخرى كانت امتحانا للرجولية عامة ، ووزنا لشخصية الصديق رضى الله عنه بميزان العظمة التي لا يستشرف اليها سوى بكر الاسلام ، ورفيق الغار ، فكان على مهيمه في مواقفه الاسلامية ، عبثا نسيج وحده ، لا يطاول في رجوليته ، ولا يلحق في وثيق إيمانه ، ولا يدرك في سمو حكمته وحسن سياسته ، ولا يرام في شجاعته وقوة عزمه . انتهت بيعة أبي بكر رضى الله عنه بالخلافة ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسطرى في بيته لما ينقل الى الروضة المطهرة ، فكان في ذلك رأب صدع الامة ، وجمع شملها بعد ما كادت تمصف بها فتنة هوجاء تداركها الله بثاقب رأى الصديق وجليل حزمه ، وكان في ذلك أيضا وزن الايمان بمرآة العقل بعد طغيان العاطفة من هول المصاب ، وهذه البيعة الصديقية كانت أول مظهر من مظاهر نظام الحكم الاسلامي في أول أطوار الامة ومهد نشأتها ، فكانت بيعة قوية يقول فيها عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « وإنا والله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة أبي بكر » وهذه القوة في بيعة الخليفة الأول أوضح عنوان على فهم المسلمين الأولين لقيمة الدين ومعنويته ، فهم لا يفهمونه محض تعبد ورهبة ، ولكنهم يفهمونه إصلاحا شاملا للفرد والجماعة ، ويفهمونه نظاما يرمى الى وحدة الإنسانية ، وسياستها سياسة حكيمة حتى تصل الى ما قدر لها من كمال ، وحتى تطلق من القيود والأغلال التي كبلها بها دعاة الاديان فيمن سلف من الأمم ، ودعاة الحكم من المتألهين فوق عروش الاستبداد ، ودعاة العلم من المصلين والمشعوذين باسم العلم والعلمنة ، فلا سلام في نظر المسلمين الأولين لا يقيم لشخصيات مهما عظمت وزنا إلا بقدر ما لها من فصيلة تنهض بالمجتمع الانساني وترفع



من شأنه ، فهو يريد أمة يسودها العدل العردي والاجتماعي ، ونمى به العدل الذي مذهب  
الطريقات الشخصية ، ويهيمن على صلات الفرد بالجماعة ، والجماعة بالفرد ، بل يهيمن على صلات  
الإنسان بغيره من الكائنات .

لم يكذب بفرغ أمر البيعة حتى تقدم أبو بكر رضي الله عنه بين يدي الأمة التي ولته  
قيادها وأسلمته بعد نبيا زمام سياستها ، يرسم سياسته التي سيسير عليها ، ويعاهد الأمة  
عهدا يتزرعه من الدستور الأعظم ، يأخذ فيه من نفسه للأمة ، ويأخذ من الأمة لنفسه ؛  
روى ابن الأثير في التاريخ قال : « بعد أن تمت البيعة سعد أبو بكر المنبر فقال بعد حمد الله  
والثناء عليه : « أيها الناس وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت  
فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندي حتى أحد حق له ،  
والقوى عندي ضئيف حتى آخذ منه الحق إن شاء الله تعالى ، لا يدع أحد منكم الجهاد ،  
فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالقتل ، أطيعوني ما أطيع الله ورسوله ، فإذا عصيت الله  
ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله »

وهذه الكلمات القليلة المعدودات ، صمدتها الخليفة الأعظم مبادئ الديمقراطية العادلة ،  
وأسس الحكومة الفاضلة ، ووضع فيها واجب الرعية وحققها على الراعي ، وبين واجب  
الراعي وحقه على الرعية ، وحدد سلطة الحاكم بدستور الطاعة لله ورسوله ، فهل يدلنا  
المتشدقون من المولعين بالسياسة وأنظمة الحكم ، على نظام حكومي في أية دولة من هذه  
الدول المتقدمة ، يعلن فيه رئيس الدولة حق الأمة في هذه الصورة الباهرة كما أعلنه أول خليفة  
للأمة الإسلامية في كلته الخالدة ؟ وهل يدلنا علماء الاجتماع على أسس لتربية الحيوية في الأمة  
وغير مبادئ الرجولية في أفرادها أفضل من قول أبي بكر رضي الله عنه . « لا يدع أحد  
منكم الجهاد ، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالقتل ؟ » أفلا يشمر المسلمون اليوم أن ما هم  
فيه من ذل واستعداد إنما حل بهم من استمرارهم الترف والليونة المهينة ، ونجابتهم عن ذرائع  
الرجولية ، وتركهم الجهاد تزلوا إلى هذه المدينيات الهاجرة ؟ !

كانت وفاة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوق كونها في ذاتها أمدح نسكة منى  
بها الاسلام والمسلمون ، بابا ولجت منه فتنه صمياء بأحداث جسام ، فقد ارتد بعض العرب ،  
وتظاهر المنافقون ، واشترأت أعناق اليهود ، والمسلمون في هم ماصب مع قلة عسدد ، وزاد  
ذلك عليهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد أتمر أسامة بن زيد على جيش ليتوجه إلى  
الشام غاربا في عدد من جند المسلمين عظيم ، وكان صلوات الله عليه شديد الرغبة في توجه هذا  
الجيش ، فكثيرا ما كان يقول وهو في مرضه : « أيها الناس أنفذوا جيش أسامة » . فأتى عبء  
هذا الذي تحمل أبو بكر رضي الله عنه ؟ ولكنها الرجولية تؤدي امتحانها كما امتحن الإيمان  
مرجح بإيمان الأمة جميعها !

تهامس الناس : العرب قد انتقضت علينا ، وفي جيش أسامة جند المسلمين ، وأسامة شاب لم تمركه التجارب ، فليفعوا أصواتهم الى الخليفة قائلين : « إن جيش أسامة جند المسلمين ، والعرب قد انتقضت علينا ، فلا ينبغي أن تفرق عنك جماعة المسلمين » . ولكن أبا بكر ليس رجلا كالجال ، بل هو شخصية أسمى وأرفع ، به كما قلنا ينزع من منبع النبوة ، ومن حديث النبوة الذي اتخذهُ أبو بكر أسوته في هذا المقام : « أن النبي صلى الله عليه وسلم في مبدأ الدعوة تحدث اليه همه أبو طالب حديثا طله رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعفا عن نصرته فقال لعمه : « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » . وأبو بكر رضى الله عنه لم يكذب يسمع ممن بلغه مقالة المسلمين حتى قال : « والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لا نفدت بعت أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يبق في القرى غيري لا تفدته » ! ثم قلينفذ جيش أسامة ، ولكن ليول عليهم من هو أقدم سنا من أسامة ، فن يكلم الصديق بهذا ؟ وهل غير صهر بن الخطاب يجزؤ على ذلك ؟ قال صهر : « إن الأنصار أمروني أن أبلغك أنهم يطلبون إليك أن تولى أمرهم رجلا أقدم سنا من أسامة » . فما كان من الصديق إلا أن وثب حين سمع من عمر مقالته حتى أخذ بلحية صهر وقال : « ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ! استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرني أن أنزعه ، لو خطفتني الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم » !

شيع أبو بكر رضى الله عنه جيش أسامة ماشيا وأسامة قائد الجيش راكب ، فقال له أسامة : يا خليفة رسول الله لتركبن أو لاتزلن ! فقال الصديق : « والله لا تنزل ولا أركب ، وما على أن أغر قدي في سبيل الله ساعة ، فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعا مائة حسنة تكتب له ، وسبعا مائة درجة ترفع له ، وسبعا مائة خطيئة ترفع عنه » . وفي هذا نكته للدرس من دروس الصديق في قصة أسامة ، فهو قد أراد أن يريهم في نفسه مقدار تعظيمه لأسامة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولده قائدا ، وهو قد أراد أيضا أن يرغب المؤمنين ويقوى نفوسهم على الجهاد لتتمحض بالإحلام رغبة فيما عند الله ونجافيا عن الدنيا ، ثم هو يزيد في إظهار قدر أسامة في نظر جنده وفيهم كثرة من جلة الصحابة ، فيستأذنه في أن يترك له صهر يستعين به لأنه كان جنديا من جنود أسامة فيأذن له فيه ، وفي ذلك بيان لقيمة قائد الحرب العسكرية في نظر الاسلام .

توجه جيش أسامة في وجهه ، فزحفت عبس وذبيان على المدينة ، وتراحت الى المسلمين أخبار المتنبئين والمرتدين ومانئ الزكاة ، فشمروا أبو بكر لقتالهم جميعا ، فهيب المسلمون وفيهم صهر بن الخطاب ذك القتال ، ولكن أبا بكر وهو وارث النبوة المحمدية الأول والقام

على تراثها المحيد أبى إلا أن يعضى في طريقه قدما وقال « والله لأجاهدنهم ما استمسك السيف بيدي ، ولو منعوني عقالا كانوا يؤدونها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقائاتهم » فقال له عمر : « وكيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحسابه على الله تعالى » فقال أبو بكر : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، وقد قال : إلا بحقها » . قال عمر : « فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق » .

قوة الإيمان إذا صادفت رجولية حركت الجبال الرواسى ، ولو أن ما نزل بالمسلمين في أول خلافة الصديق نزل بأعظم الدول وأقواها لعصف بها ، ولكن أبى بكر انتفض للأمر بجدد الدين وأرأسى قواعده ووجه الجيوش بعد ذلك للفتح والمداية . وإنا لجد خير ما نتحم به الحديث من سيرة الصديق الأعظم - والحديث عنه لا ينتهى ولا يمل - تلك الكلمة العظيمة التى صورت بها شخصية الصديق أم المؤمنين الصديقة السيدة عائشة رضى الله عنها ، قالت : « أبى وما أبىه ؟ أبى والله لا تعطوه الأيدى ، ذاك طود منيف ، وفرع مديد ، هيماته كذبت الظنون ، أنجح إذا كديتهم ، وسبق إذ ونيتهم ، سبق الجواد إذا استولى على الأمد ، فنى فريش ناشئا ، وكهفها كهلا ، يملك عانيها ، ويريش مملقها ، ويرأب شعبها ، ويلم شعبها ، حتى تحلبته القلوب ، ثم استشرى في دين الله فما برحت شكيمته في ذات الله عز وجل حتى اتخذ بفائه مسجدا يحى فيه ما أمات المبطلون ، وكان رحمه الله غزير الدمة ، وقبذ الجوانح ، شجى الشجع ، فأنقضت إليه نسوان مكة وولدها يسخرون منه ويستهنون » . الله يستهنون بهم ويمدحهم في طغيانهم يعمهون » فأكبرت ذلك رجالات من فريش فخت قسيها ، وفوقت سهامها ، وامتلوه غرضا ، فما ملوا له صفاة ، ولا قصفوا له فناة ، ومر على سيسائه حتى إذا ضرب الدين بحجراه ، ورست أوتاده ، ودخل الناس فيه أفواجا ، ومن كل فرقة أرسالا وأشتاتا ، اختار الله لبيبه ما عنده ، فلما قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم ضرب الشيطان روافه ، ومد طُغْبَه ، ونصب جباله ، وأنجلب بخيله ورجله ، واضطرب جبل الإسلام ، ومرج عهده وماج أهله ، وأبغى الفوائل ، وفلنت رجال أن أكثبت أطعاهم نهزها ، ولأت حين الذى يرجون ، وأنى والصديق بين أظهرهم ، فقام حاسرا مشمرا ، جمع حاشبقيه ورفع قطريه ، فردرسن الإسلام على غربه ، ولم شعته بطبه ، وانناش الدين فتمشه ، فلما أراح الحق على أهله ، وقرر الرءوس على كواهلها ، وحقق الدماء فى أهلها ، أثنه منيته ، فقد نلتته بنظيره فى الرحمة وحقيقته فى السيرة والممدلة ، ذاك ابن الخطاب ، لله در أم حملت به ودرت عليه ... فارونى ماذا ترتأون ؟ وأنى يوحى أبى تنقمون ؟ أيوم إقامته إذ عدل فيكم ؟ أم يوم طعنه إذ نظر لكم ؟ أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم »

صاحب إبراهيم عربزور

## التصوف والمتصوفون

- ٨ -

ان المعارض

حياته :

ولد في القاهرة في سنة ٥٧٦ هـ وتوفي في الأزهر في سنة ٦٣٣ هـ وهي السنة التي توفي فيها صهر السهروردي ، وكان في حياته التصوفية مربية لأنواع كثيرة من الغيبة والاصطراب الى حد أنه كان أحيانا يظل ممثدا على الأرض بضعة أيام دون أن يبدي حراكا ، وأحيانا أخرى يتقلب ويتدحرج على سطح الأرض يمينا وشمالا دون أن يمر أحد مابه ومن الغريب أنه كان يصنع شعره على أثر هذه التوبات مباشرة .

مشتجاته . أما أهم منتجاته فهو ديوانه المقيم بقصائد الحب والعرام والغزل والحزبات ، الى غير ذلك من القصائد التي يقولون إنها موجهة كلها الى الإله معشوقه الأعلى . ويلاحظ الأستاذ « كارادي نو » أن هذه المعاني إذا صح أنها متجهة الى الباري — قد أدت بالفاظ حليلة شهوانية ومن أشهر أشعاره ثابته التنسكية الطويلة التي يقول فيها :

وعن مذهبي في الحب مالى مذهب      وإني ملئت يوما عنه فارقت مالى  
ولو حطرت لى في سواك إرادة      على خاطري سهوا قصيت بردى  
لك الحكم في أمرى ، فاشئت غاصنى      فلم تلك إلا فيك ، لا عنك رغبتى

وقد أثبت في هذه القصيدة أن الحب هو الوسيلة المثلى للسمو والاتصال بالذات الأوحدة ، وهو الذى يحقق لصاحبه التفوق على جميع الكائنات ، وأن الحب هو سيد الانقياء وأفضل المتنسكين الذين لا ينشغلون إلا بالزهادة والتقاليد الظاهرية ، وأرقى من الصغين المتعارضين : الذى يتبع في حكمة الشرع ، والذى يتبع العقل .

ومن قصائده الممتازة أيضا ميمته التي يقول فيها :

شربا على ذكر الحبيب مدامة      سكرما بها من قبل أن يخلق الكرم  
وقد كتب بعض المتأخرين شروحا لهذه القصيدة ، أول ما يقال فيها إنها مزيج من مذاهب الشيعة التي لا ترضى بأقل من أن تقع عليا في كل شيء حتى في مذهب الحلول ووحدة الوجود .

محي الدين بن عربي :

حياته . ولد محي الدين أبو بكر محمد بن علي بن عربي الحاتمي الطائفي في مدينة « المورقة » بالأندلس في سنة ٥٦٠ هـ . وفي الثامنة من عمره بعثه أهله الى إشبيلية فدرس فيها الحديث والعقيدة حتى تصلع فيهما . وفي سنة ٥٩٠ هـ قام رحلات واسعة الى الشرق ، فزار مصر

وسوريا والحداد وبنجداد والموصل وآسيا الصغرى . وأقام في مدينة قونية زمناً تزوج أنثاه بسيدة أيم ، وهي والدة صدر الدين القونى المتذكّر المعروف ، ثم عاد الى سوريا فأقام بها حتى توفي فيها في سنة ٦٣٨ هـ ودُفن بالقرب من دمشق . وقد هدم بعض المتعصبين قبره ، ولكن السلطان سليم حين فتح دمشق أعاد بناء هذا القبر وأسس بالقرب منه مسجداً جميلاً .

مؤلفاته : كتب ابن عربى من المؤلفات عدداً أدهش الباحثين المستشرقين الى حد أن حمل أحدهم وهو الأستاذ « كايان هوار » على أن يقول : إنها لكثرتها لا يحصرها الخيال ، وهي في رأيه تبلغ نحو ثلاثمائة مؤلف . وقد نقل الأستاذ « ماسينيون » عن قائمة ابن عربى المعنونة : « فهرس الكتب المصنفة » أن عدد هذه المؤلفات أربعائة وتسعة وثلاثون كتاباً . وقد عثر الأستاذ « روكلمان » المستشرق الألماني منها على نحو مائة وخمسين كتاباً في مكتبات الشرق والغرب . ومن أم هذه الكتب ما يأتى :

( أ ) « الفتوحات المكية » وهو عرض تام لجميع المعارف الصوفية ، ودراسة كاملة لمساخيمهم وتعاليمهم في خمسمائة وستين فصلاً تقع في اثني عشر جزءاً . ويحتوى الفصل التاسع والخمسون بعد الخمسمائة منه على مجمل كامل للكتاب كله . وقد كتب الشيرازى المثنوى في سنة ٩٧٣ هـ - ١٥٦٦ م . ملخصاً هاماً لهذا الكتاب . وحيثما طلب ابن عربى الى ابن الفارض أن يكتب شرحاً لتأنيته أجابه بأنه لا يعرف لها شرحاً خيراً من الفتوحات . ( ب ) « فصوص الحكم » وقد عرض فيه للرسائل الخمسة والمشرين وأهميتهم وادعى أنه لم يكتب عن أى رسول منهم إلا بعد ظهوره له . وقد أتمه المؤلف في دمشق في سنة ٦٣٧ هـ . وطبع مع شرح بالتركية في بولاق في سنة ١٢٥٢ هـ . ثم أخذت منه صورة شمسية بالقاهرة مع شرح عبد الرزاق القفشانى في سنة ١٣٠٩ هـ ثم في سنة ١٣٢١ هـ .

( ج ) « محاضرات الأرار ومسامرات الأحيار » وهو مجموعة من السكت والمناج والنوادر في الأدب قد طبع في القاهرة في سنة ١٢٨٢ هـ ثم في سنة ١٣٠٥ هـ . ( د ) « شاهد الأسرار القدسية » . ( هـ ) « الأوار » ( و ) « إنشاء الدوائر » وقد عرض فيه مؤلفه لبيان مكانة الإنسان في العالم . ( ز ) « حلية الأبدال » . ( ح ) « كيمياء السعادة » ( ط ) « الإفاضة » وقد احتوى أنواع المعرفة الثلاثة الأساسية وهي معرفة الله ، والعالم العقلى ، والعالم الحسى . ( ي ) « ترجمان الأشواق » وهو مجموعة قصائد صوفية يوحى ظاهرها أنها غزل ووصف لحب مادى ، وقد كتب لها شرحاً دفع به هذه التهمة التي قد وجهها السطحيون الى كتابه . ( ك ) « كتاب الأمر المحكم » . قد طبع مع ترجمة تركية في الأستانة في سنة ١٣٠٠ هـ . ( م ) « التجليات الإلهية » . ( ن ) « تاج الرسائل ومنهاج الوسائل » . ( س ) « تفسير سورة الضحى » . ( ع ) « كتاب الأجوبة على الرسائل المنصورية » . ( ف ) « أما القرآن والسمع المثانى » . وهي قصيدة عصماء قد احتوت من الآراء الصوفية والوحدة ما لا يستهان به .

(م) « الرسائل الإلهية » قد طبع في القاهرة في سنة ١٣٢٥ هـ . (ق) « مواضع النجوم ومطالع أهله الأسرار والعلوم » طبع في القاهرة في سنة ١٣٢٥ هـ . (ر) « كتاب الأحلاق » طبع في القاهرة بدون تاريخ .

وله كذلك من الكتب الفلسفية والتاريخية والأخلاقية ما لو حاولنا الحديث عنه لстал بنا المدى ، فأثرنا أن نقف عند هذا القدر ، معلنين أن هؤلاء الرجال الأمذاذ كان لهم على الحركة العقلية الشرقية والنهضة الأوروبية أثر غير ممكن الجحود .

### مذهبه :

وحدة الوجود : عرض ابن عربي في كتابه « فصوص الحكم » لكثير من النظريات الفلسفية ، ولكنه لم يكن يكون في مأمن من مهاجمة المتعصبين قد مزج بتاريخ كل نبى من الأنبياء الذين تناول الكتابة عنهم في هذا السفر شيئا من هذه النظريات ، ليضعها تحت حماية ذلك النبى على نحو ما يعبر أحد المستشرقين . فمن ذلك مثلا نظرية صدور العالم التى مزجها بتاريخ آدم فقرر أنه قد وقع فيضان : الأول هو الذى وجدت المادة المستمدة لتقبل الصور ثم أعدها لقبول الحياة الإلهية . والثانى هو الذى أنتج الوجودات الشخصية بإظهار الكائنات التى أريدت بهذا الإعداد . وعن الفيض الأول تنحت الجواهر المعينة أو البكليات واستعداداتها المحددة لها فى العلم الإلهى . وعن الثانى نتج التحقق الخارجى لهذه الأشياء ونتائجها المرادة منها .

وعنده أن هذا الفيض هو الحدث الذى به يفتح الفضل الإلهى نور الوجود فى كل جوهر يستقبل الكائن دون أن يحصل انفصال بين الصورة المدركة فى علم الله والإله نفسه كما تستقبل المرأة صورة الانسان دون أن يتفصل من هذا الانسان وحبه المنعكس على المرأة . وإذا ، فصدور الخلق عند ابن عربي هو شبه بانعكاس المعلومات الإلهية على مرآة . وآدم هو عنده رمز لروح العالم أو هو لمعان هذه المرأة ، إذ أن الله أوجد العالم قبل آدم ، ولكنه كان وجودا غير حقيقى أى أنه كان ظلا محضا أو وجودا ماديا لا روح فيه ولا حياة كوجود الحيا الذى صنع منه جسم آدم قبل نفخ الروح فيه ، فلما وجد آدم ظهر الوجود الحقيقى للعالم . ومن هذا بين أن آدم هو المبدأ السورانى اللطيف الذى آتم الإله به الوجود ومنحه به حقيقة ، كما بين أيضا أن غاية الإله من إيجاد العالم هى أن يرى فيه جوهره الخاص . وآدم هو المبدأ الروحانى الذى به تحققت هذه الرؤية ، فكان بالنسبة الى الإله كالانسان للعين (١) . « يتبع »

الدكتور محمد غنوب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

(١) انظر صفحة ٢٦ وما بعدها من كتاب الفزائى للبardon كارادى نو .

## التفكر أس السعادة

رأيت أن أجعل موضوع اليوم الكلام في التفكير وقيّده وتناحجه ، وبيان أن سعادة الدنيا والآخرة لا تكون إلا بالتفكير الصحيح ، ولذلك حث الله عليه وناط الخير كله به في الآيات العديدة ، وقد قال زين العابدين بن الحسين رضى الله عنهما : عجبت لمن يرى مخلوقات الله وما فيها من المعجائب ثم يشك فيهم ، وعجبت لمن يرى النشأة الأولى ثم يشك في النشأة الآخرة ، وعجبت لمن يرى الدنيا وفناءها ثم يؤثرها على الآخرة مع صفاتها وبقاتها ، أو كما قال .

ورأيت أن سبب ذلك كله هو الغفلة وعدم التفكير ، مع أن الأمر في غاية الوضوح ، فالسماوات شاهدة بكواكبها وشمسها وقرها وحركتها ودورانها في طلوعها وغروبها ، والأرض شاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها ، وما بين السماء والأرض وهو الجو مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها ، ولا تتحرك ذرة في السماوات والأرض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا ذلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها ، وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة ، وكل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ، ودال على جلالة وكبريائه وحكمته ، « فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » .

وقد حث القرآن على التفكير في هذه الآيات بأبلغ ما يكون وأقصى ما يتصور ، مثل قوله تعالى : « إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » . إلى غير ذلك من الآيات : « وكان من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » ، ومع ذلك فنظرك فيك يكفيك .

ففيك من المعجائب الدالة على عظمة الله تعالى وما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشيره وأنت قائل عنه . ولا يزالون يكتشفون من أسرار ما أودع في الإنسان من المعجائب حتى الآن وإلى ما شاء الله ، مثل العدد وأعمالها ، ومثل الملح ونقطه التي يبط بكل منها وظيفة مخصوصة مما يحجر القلب ويهيج القلب .

فيا من هو قائل عن نفسه وجاهل بها ، كيف تطمع في معرفة غيرك وقد أسرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » ، وذكر أنك مخلوق من نطفة قدرة فقال : « قتل الإنسان ما أكفره » من أي شيء خلقه . من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يستره . ويقول : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » ،

ويقول : « ألم يك نقطة من منى يعنى . ثم كان علقه نخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » ، ويقول : « ألم نخلقكم من ماء مهين » .

وقد رأيت منذ زمان بعيد أن بعض الفلاسفة الأوربيين قال : يكفبنى في الدلالة على الله تعالى وجود الأنثى بجانب الذكر . وذلك ما أشار اليه القرآن العزيز في قوله : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

فانظر أيديك الله الى النطفة وهي قطرة من الماء قدرة ، لو تركت ساعة ليضر بها الهواء فسدت وانتفت ، كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والثرائب ، وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم ، وكيف أدام بسلسلة المحبة والشهوة الى الاجتماع ، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوطع ، وكيف استجلب دم الحيض من أعماق المروء وجمعه في الرحم ، ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكبر ، وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرفة علقه حمراء ، ثم كيف جعلها مضفة ، ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متشابهة متساوية الى العظام والأعصاب والمروء والأوتار واللحم ، ثم كيف ركب من اللحم والأعصاب والمروء الأعضاء الظاهرة ، فدور الرأس ، وشق السمع والبصر والأنف والتم وسائر المنافذ ، ثم مذياليد والرجل وقسم رءوسها بالأصابع ، وقسم الأصابع بالانامل ، ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء ، كل واحد على شكل محصوص ومقدار محصوص لعمل مخصوص ، ثم كيف ركب كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر ، فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين من الإبصار ، فلو ذهبنا الى أن نصف ما في آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لانقضت فيها الأعمار .

ولنتقف بك اليوم هاهنا وموعدا المدد المقبل إن شاء الله ﷻ

يوسف البرجوى

عضو جماعة كبار العلماء



## بين رجال الدين والفلسفة (١)

— ٤ —

كنت أعتقد وقد كتبت الكلمة الثالثة أن المساجلة بيني وبين الأستاذ الجليل فريد وجدي بك قد انتهت بظهور الحق أيا كان موضعه وقائله ، وأنه ليس عليّ بعد هذا إلا المضى في السبيل التي اختطتها لغاية التي قصدتها . ولكن ، ولعل في هذا خيرا ، أجذني مضطرا لهذه حديث اليوم بكلمات قصيرة تمليقا على الملاحظات التي جاءت لعزته بالعدد الماضي ، راجيا أن تكون هذه الكلمات ختام المساجلة في هذه المسألة بعد أن ضاقت شقة الخلاف ، ووضح الحق الذي هو غايتنا جميعا من البحث :

(١) قلت : إن ما في القرآن من الآيات التي يوم بعضها التجسيم والتشبيه ، وبعضها الخبر ، وبعضها الاختيار ، والآيات التي أشارت إلى أمهات علم الكلام ، كل ذلك يدفع إلى هذا العلم . قلت هذا ، وأردت به كما هو واضح أن هذا كله كان من عوامل نشأة علم الكلام لا العوامل كلها ؛ فرأى السيد الأستاذ أن يردّه مقررًا أن « لو كان في الاسلام ما يوجب علم الكلام أو يسمح به لما كان هو الاسلام الذي أراد الله أن يجمع عليه كلمة الناس فلا ينفركوا فيه » ، واستشهد بآيات هي : « إن الذين فرقوا دينهم » الآية « فنقطعوا أمرهم بينهم ذرا » الآيتين ؛ وأعتقد أن مثل هذا لا يصلح أن يكون ردا على ما قلت ، وأن ما استشهد به من آيات لا يستقيم أن يكون شاهدا . القول بأن الله أراد أن يجمع على الاسلام كلمة الناس لا يتأني بأية حال القول بأن الآيات التي ذكرناها ، وأمثالها مع عوامل أخرى ، دعت لعلم الكلام حتى يزول ما بينها من تعارض . ومع حدوث هذا العلم والخلاف في بعض مسائله ، فالاسلام يجمع كل المتكلمين من معتزلة وغير معتزلة ، إذ لم يختلفوا في أصل من أصول الاسلام التي لا يقوم إلا بها ، بل كان الخلاف في شيء من التفاصيل في بعض المقائد الدينية ، وبذلك لا يكون علم الكلام والخلاف فيه متعارضا مع الاسلام الذي أراد الله أن يجمع عليه كلمة الناس .

أما الآيات التي أوردها السيد الأستاذ في الرجوع لبعض كتب التفسير المعتبرة يتبين في أرجح الأقوال وأظهرها أن المراد بها اليهود والنصارى وسائر أصحاب الديانات المختلفة ، لا فرق أهل الكلام الذين لم يفرحوا بخلافهم عن الاسلام . ولهذا قرأ على بن أبي طالب في الآية الأولى « إن الذين فرقوا » بدل « فرقوا » ، وكان يقول : والله ما فرقوه ولكن

(١) سقط حرف بالسطر التاسع عشر ص ٥٦٢ بالعدد الماضي فغير المعنى تماما فوجب أن يزداد هكذا : ألا تسمى فلسفة بدل أن تسمى فلسفة .

فارقوه . ولهذا أيضا خوطب النبي صلى الله عليه وسلم في الآيتين الأخريين بقوله تعالى : « فذرهم في غمرتهم حتى حين » أي ذر الكفار يا محمد في جهالاتهم حتى يلقوا ما يوعدون . على أني لم أقرر فيما ذهبت إليه إلا الواقع الذي يؤيده تاريخ علم الكلام وبشأته ، وهو ما ذهب إليه ابن خلدون حين عرض لمعلم الكلام وعوامل حدوثه إذ يقول ما نصه : « لا أنه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد أكثر مثارها ( لعله : مثاره ) من الآية المنشأة ، فدعا ذلك إلى الخصاص والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة إلى النقل ، حدث بذلك علم الكلام » (١)

٢ — لا أجادل في أن علم الكلام كما يدرس الآن بالأزهر لا اغناء فيه ، وربما كان ضرره أكبر من نفعه ، ولي في هذا كلمة ستنتشر إن شاء الله في العدد الذي على وشك الصدور من مجلة الهداية الإسلامية . ولكني لا أستطيع ، ولا يستطيع غيري كذلك ، أن يوافق السيد الأستاذ على أن تأخر حدوث هذا العلم حتى مضى قرن ونصف - كما يقول حضرته - دليل عدم غنائه . وإلا فكيف كان الرد على أرباب الملل والحل والمقاتلات المخالفة والضلالات المنتشرة في تلك العصور ؟ وإلا كانت العلوم التي ظهرت بعد هذه المدة - وما أكثرها وأعظم خيرها - لا فائدة فيها أيضا ! ثم كيف يقول السيد الأستاذ بعد هذا : إن علم الكلام هو الذي سبب ظهور الغوارج ، مع أنها جميعا نعلم أن الغوارج ظهرت بعد حادث التحكيم بين علي ومعاوية عام ٤٧ هـ لا بعد مائة وخمسين عاما كما يقول عزته !

٣ — نحن لا تفصل بين أنصار الحكمة القرآنية وبين أشياع الفلسفة اليونانية وإن كان ما دعاه السيد الأستاذ رعوة حملت هؤلاء يضطهدون مخالفهم في فتنة القول بخلق القرآن ليس من الفلسفة ولا تدعو الفلسفة إليه . لقد كان هم الفلاسفة أن يمشوا بسلام لا يعتدى عليهم ولا يمتدون ، ويرون السعادة في هذه العافية . فإن رأينا أحد من ينتسبون للفلسفة رأى اضطهاد المخالف لرأيه وسيلة من وسائل إقصاءه ، لم يكن ذلك مما يعيبها .

٤ — وأخيرا قلنا في الكلمة الماضية : إننا لا نحكم على الإسلام وجميع أئمنه وأعلامه بصنيع طائفة في زمن التأخر والانحطاط . وإذن فتحن على اتفاق مع الأستاذ « درير » وأمثلة في عدم اتخاذ الحوادث الفردية دليلا على عقلية أمة وروحها ، وإن كان ما وعاه التاريخ من هذه الحوادث التي تجلي فيها روح المبدء من رجال الدين لفلسفة لا يجمعها حوادث فردية يجب ألا نلقى لها بالا . نعم من الحق أن نعتبر هذه الحوادث في الحكم على العصر الذي كانت فيه ، دون أن نرى فيها طابعا يطبع الأمة كلها وفي كل العصور .

والآن بعد هذه الكلمات ، التي نرجو أن تكون فاصلة ، ستأنف الحديث في الموضوع الذي تصدينا لبحثه فقول :



اتهمنا في الكلمة الماضية من استعراض موقف رجال الدين من الفلسفة في الشرق الى نهاية القرن السادس الذي مات في أواخره شهاب الدين الشهرزوري<sup>(١)</sup>، ولا يسع الباحث وقد وصل الى القرن السابع أن يفصل رجلا كان له خطره الكبير، كما كان لغواه في هذه الساحة أثر بالغ استمر مع الزمن حتى أيامنا هذه، وهو الإمام المحدث والاصولي الفقيه أبو عمر تقي الدين الشهرزوري المعروف بابن الصلاح المتوفى عام ٦٤٣ هـ. لهذا الفقيه الكبير مجموعة فتاوى في التفسير والحديث والمقائد والاصول، ومن بينها فتواه بتعريم المنطق والفلسفة تعلمها وتعلما، ووجوب استئصال شأفة من يعرف بشيء من هذه العلوم. ويمكن أن نقول بعض عباراتها لتقف على شدتها وخطرها، ولتلمح ما كان لها من سلطان على قويا هذا الزمن الطويل:

سئل عن حكم الله فيمن يشتغل بكتب ابن سينا وتصانيفه، فأجاب غفر الله له « من فعل ذلك فقد قدر بدينه وتعرض للفتنة العظمى »، لأن ابن سينا « لم يكن من العلماء بل كان شيطانا من شياطين الآس » (١) وسئل عن حكم الشارع فيمن يشتغل بالمنطق والفلسفة تعلمها وتعلما، وهل يجوز استعمال المنطق في إثبات الأحكام الشرعية، وماذا يجب على السلطان إزاء من يتعلم ويعلم المنطق والفلسفة؟ فأجاب إجابة طويلة جاء فيها: « إن الفلسفة أس السفس والاحلال، ومادة الحيرة والضلال، ومنار الزيف والزندقة، ومن تغلف سميت بصيرته عن محاسن الشريعة، ومن تلبس بها تعلمها فارتد الخذلان والحرمات، واستحوذ عليه الشيطان! وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة، ومدخل الشر شر (٢)، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشارع... وأما استعمال الاصطلاحات المنطقية في مباحث الأحكام الشرعية فهو المسكرات المستبعدة والرقعات المستحذرة، وليس بالأحكام الشرعية والمحدث افتقار الى المنطق أصلا! » وانتهى أخيرا بأن قال: « فالواجب على السلطان أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء المباشين... ويعاقب على الاشتغال بفهمهم، ويعرض من ظهر منه اعتقاد عقائد الفلاسفة على السيف أو الإسلام، لتخمد نارهم ونمحي آثارهم! » ومن أوجب هذا الواجب عزل من كان مدرس مدرسة من أهل الفلسفة والتصنيف فيها والافراء لها، ثم سجنه وإزالته منزله، وإن زعم أنه غير منقصد لمقائدهم، فإن حاله يكذب، والطريق في قلع الشر قلع أصوله، وانتصاب مثله مدرسا من العظام (٣) »

وهذا الحكم القاسي على الفلسفة والمنطق، نجد له شبيها في القرن الثامن في رأى الذهبي في الفلسفة الإلهية، إذ يقول: « إن الفلسفة الإلهية ما ينظر فيها من يروجى فلاحه، ولا يركن

(١) فتاوى ابن الصلاح نشر منير الدمشقي عام ١٣٤٨ هـ ص ٣٤ (٢) يلاحظ هنا أنه استعمل المنطق دون أن يذكر في الاستدلال على تحريمه. (٣) الفتاوى نفسها ص ٣٥

الى اعتقادها من يلوح نجاحه ؛ فان هذا العلم في شق ، وما جاءت به الرسل في شق ، وما دواء هذه العلوم وعلمائها والقائمين بها علما ومملا إلا التحريق والإعدام من الوجود ، إذ الدين كان كاملا حتى عرّبت هذه الكتب ونظر فيها المسلمون ، فلم أعدمت لكان فتحا مبينا (١) .

على أنه في رأينا أن ابن الصلاح لم يكن متفردا بهذا الرأي الخاطئ ، والجملة الآتية على العلوم الفلسفية ، بل كان يعبر بفتواه عن الرأي السائد لجمهرة أهل السنة في عصره . ولعل من الأدلة القوية على هذا ما امتنع به أحد معاصريه وهو سيف الدين الآمدي كما تقدم ذكره ، وموقف تاج الدين السبكي المتوفى عام ٧٧١ هـ ضد الفلسفة والفلاسفة ، بل ضد المتأخرين من المتكلمين الذين مزجوا الكلام بالفلسفة . ذلك أن السبكي بواقع تماما على فتوى ابن الصلاح والآتية والمشايخ بتحريم الفلسفة ، وإن كان لا يذهب مثل ابن الصلاح الى تحريم المنطق تحريما تاما . وكيف يذهب الى هذا وهو يرى أن حجة الإسلام الغزالي اشتغل به وعنى بدراسته وألف فيه ١ على أنه سجل لنا في طبقاته أن الرأي العام ينسب ما كان للغزالي في بعض المسائل من آراء لا تتفق ومذهب أهل السنة ، الى ما تأثر به من دراسته لعلوم الأوائل رجاء الرد عليها وبيان تهافتها (٢) . كذلك مما بين لنا مقدار أثر فتوى ابن الصلاح ما ذكره السيوطي جلال الدين في مقدمة كتابه « طبقات المفسرين » إذ يقول في أثناء ترجمته لنفسه : « وقد كنت في مبادئ الطلب قرأت شيئا في علم المطلق ، ثم ألقى الله كراهته في قلبي ، ومهمت أن ابن الصلاح أفق بتحريمه فتركته لذلك ، فموضى الله تعالى عنه علم الحديث وهو أشرف العلوم » (٣) .

هذا ونحتم الحديث عن مبلغ احتقار وكراهة الفلسفة والمتفلسفين في المشرق في العصور الوسطى ، بأراء ثلاثة من المؤرخين الثقات ، هم ابن خلدون ، والمقرئ ، وطاش كبرى زاده . أما ابن خلدون المتوفى عام ٨٠٨ هـ فيرى في مقدمته « أن الفلسفة مخالفة للشريعة ، فليكن الناظر فيها متحذرا من معاطها » (٤) . وأما تقي الدين المقرئ المتوفى عام ٨٤٥ هـ فقد ذكر في الفصل الخاص بمقائيد أهل الإسلام ، منذ ابتداء الملة الإسلامية الى أن انتشر مذهب الأشعرية : أن الفلسفة بعد أن انتشرت في الناس بسبب ترجمة المأمون لكتبها ، أقبلت المعتزلة والقرامطة والجهمية وغيرهم عليها وأكثروا من النظر فيها ، « فانجر على الاسلام وأهله من علوم الفلاسفة مالا يوصف من البلاء والمحنة في الدين ، وعظم بالفلسفة ضلال أهل البدع وزادتهم كفرا الى كفرهم » (٥) . بنى طاش كبرى زاده صاحب كتاب مفتاح السعادة ومصباح السيادة . لقد تكلم في المقدمة الثانية من كتابه على شرائط التعلم ووظائفه ، وحث المتعلم على

(١) الاسلام والحضارة العربية لحمد كرد علي ج ٢ ص ٤٣ . (٢) طبقات الشافعية ج ٥ ص ١١٠ من التراث اليوناني ص ١٣٣ . (٣) التراث اليوناني ص ١٦٥ . (٤) المقدمة ص ٤٣٢ . (٥) المخطط طبع مطبعة النيل بالقاهرة عام ١٣٢٦ هـ ج ٤ ص ١٨٣ - ١٨٤ .

الأيديع قنا من فنون العلم دون أن ينظر فيه نظرا يطلع به على غايته ومقصده وطريقته ، وحذر من الاستهانة بعلم المنطق الذي هو أصل كل علم وتقوم كل ذهن ، لكنه بعد هذا حذر من أن نطلق اسم العلم على « الحكمة الموهبة التي اخترعها الفارابي وابن سينا » . كما وصف حكماء الإسلام بأنهم طائفة « مكفوا على دراسات زهات أهل الضلال وسموها الحكمة ، وربما استعجلوا من عرى عنها ، وهم أعداء الله وأعداء أنبيائه ورسله ، فالحذر الحذر منهم ؛ والاشتغال بحكمتهم حرام في شريعتنا ، وهم أضر على عوام المسلمين من اليهود والنصارى لأنهم يتسترون بزى أهل الإسلام » . (١) على أنه بعد هذا الحكم الشديد جدا ، والذي لا أساس له من الحق ، أباح النظر في علوم الفلسفة لمن رسمت قواعد الشريعة في قلبه بشرط ألا يتجاوز مسائلهم المخالفة للشريعة إلا لثرد عليها ، وألا يمزج كلامهم بكلام علماء الإسلام ، (٢) .



والآن وقد عرفنا معرفة يريدها الدليل موقف أهل السنة ورجال الدين من الفلسفة ورجالها في المشرق ، فننقل الى مثل ذلك في المغرب ، لتتurf عوامل هذا الموقف ، وليظهر أنه كان طبيعيا وضروريا أن يعنى فلاسفة الإسلام قبل كل شيء بمحاولة التوفيق بين الدين والفلسفة ، ثم لنعلم بعد هذا كله الكلام على محاولات هذا التوفيق ، إذ كانت هذه المحاولات في رأينا أبرز جهود الفلاسفة المسلمين ؛ إذ فيها ظهرت روحهم وروح الإسلام وانحمة جليلة ، وبها أمكن أن يقال إن للمسلمين فلسفة خاصة ، وأنهم فعلوا شيئا أكثر من نقل الفلسفة اليونانية بحروف عربية كما يتعنى بذلك عليهم « أرنست ريتان » الكاتب الفرنسي المعروف .

محمد يوسف موسى  
المدرس بكلية أصول الدين

## كلمة أخرى في الموضوع نفسه

يشقى فضيلة الأستاذ صاحب مقالات ( بين رجال الدين والفلسفة ) أن لو كان انتهى دور التعقيب على مقالاته ؛ ولكن مهمتى في هذه المجلة تضطرني الى ذلك ، لاسيما والموضوع الذي يكتب فيه حضرته ، من أكثر الموضوعات اتصالا بمعنى الإسلام ، وعمقته الروحية والاجتماعية في النوع البشرى .

وإني قبل البدء في الموضوع الذي أريد أن أكتبه اليوم ، أرى أن أعيد ذكر ما سبق لي قوله :

(١) ج ١ ص ٢٦ من الكتاب المذكور . (٢) نفسه ج ١ ص ٢٦ أيضا .

وهو أن الاسلام ليس بدين حاص بآمة ، ككل الاديان التي سبقته ، ولكنه شرع آخرها جميعا ليكون دينا عاما للناس كافة ، توحيدا لوجهاتهم الى غاية واحدة ، ليصلوا الى أممي ما قدر لهم من رقى صوري ومعنوي ، إخوانا مترافين متعاونين .

النصوص القرآنية التي بين أيدينا تصرح بأن الله أرسل للسابقين رسلا ، وأوحى اليهم كتباً ، تهدي الى طريق الحق ، وتأخذ بيدهم الى الحياة الطيبة ، فكانوا لا يلبثون أن يخلفوا ويتنازعوا في تأويلها ، حتى يخرجوا الدين عن صراطه ، ويصبح عقبة في طريقهم الى الترقى ، بعد أن كان أقوى دافع لهم اليه .

فلما بلغ العقل رشده بعد طول مراسه للحوادث ، وسهل الاتصال بين الأجزاء المأهولة من الأرض ، واستعدت النفوس لقبول مبدأ وحدة الانسانية ، شرع الله للناس الاسلام ، وأرسل محمدا خاتما للأنبياء ، وأوحى اليه كتابا حوى النهايات القصوى لمطامح القلوب والعقول ، والمثُل العليا لكل ما تقتضيه الحياة الادبية والاجتماعية ، وناط به حل جميع الخلافات الدينية لدى الأمم ، وإزالة ما أوجده سوء الفهم من مبهم ، والغلو أو التقصير من مبهم الآخر ، والضلالات من كل ضرب عند جميعهم .

وقد نص القرآن الكريم على هذا ، ونحن نورد بعض الآيات الواردة فيه ، ليتضح في أكل مجاله ، قال تعالى : « وما كان الداس إلا أمة واحدة فاختلقوا ، الآية » .

وقال سبحانه : « كان الناس أمة واحدة ( أي فاختلقوا ، وهي محدوفة هنا ) ، فبعث الله الببيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ، ليحكم بين الداس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم » .

وقال سبحانه : « ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه » .

وقال سبحانه « أولئك الذين اختلفوا بالهدى ، والمذاب بالمتفرة ، فما أصبرهم على النار ! ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ، وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد » .

وحذر المسلمين من أن يلتفتوا بأدواء الأمم ، فيقيموا في الخلافات منلهم ، فقال تعالى : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » . وصرح لهم بعد ذلك بأن أخص مهام القرآن إزالة الخلافات الدينية ، وبحق المباحكات المنهية ، وقد نعى بوصفه المميزة ، فدعى بالفرقان لفرقه بين الحق والباطل ، فقال تعالى : « تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك فزبن لهم الشيطان أعمالهم ، فهو وليهم اليوم ولم عذاب أليم » .

« وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه ، وهدى ورحمة لقوم

يؤمنون » .

إن ديننا هذا شأنه في ذم الخلافات الدينية ، وفي حصره مهمته في رفع هذه الخلافات بين البشر ، لا يصح أن يكون هو نفسه - بحماية بعض أتباعه عليه - محلاً للخلافات ، ومثاراً لمساومات ، فيحتاج لغيره في رفع هذه الخلافات معه ؛ كما لا يصح أن يكون المنطق الذي جعل للفرقة بين الصحيح والسقيم من المقولات ، محلاً لخلاف بين الساطرين ، فيحتاج إلى منطق آخر لرفع ذلك الخلاف .

لهذا قلنا : إنه لو كان دين تأبى طبيعته علم الكلام لكان هو الاسلام .

هنا قد يقال : وماذا يُعمل فيما يحتمل النقيضين في بعض الآيات ، وما يوم التجسيد والتشبيه في البعض الآخر ؟

نقول : لقد كُفِّتكَ خصائص اللغة والكتاب نفسه هذه المؤنة ، فاللغة أزلت بمحازاتها واستعاراتها وكنائياتها كل ما يوم التجسيد والتشبيه ؛ والكتاب منكم بأية المحكم والمتشابه من تناول ما لا تدركه من شئون ما فوق الطبيعة بالشرح والتأويل . وهو لم يفعل ذلك وفي قدرة العقل البشري الوصول إلى حل معاضله ، بدليل أن عددا لا يحصى من الناس أمضوا أعمارهم في البحث والكلام فيها ، وولدوا وخلقهم أجيال كثيرة فعملوا مثل فعلهم ، وما تزال هذه المعاضل ماثلة في جميع الأديان بدون حل ، فما الذي كان يمنع المعتزلة وأصحاب المرق أن يطعموا الكتاب ، ويكفوا أنفسهم شر تمضية العمر فيما لا طائل تحته من التماري والملاحاة ؟ يقول فضيلة الأستاذ ردا علينا : إنه مع حدوث علم الكلام فإن الاسلام يجمع كل المتكلمين ، لأنهم لم يختلفوا في أصل من أصوله ، ولا في شيء من تفاصيل بعض عقائده ، وبذلك لا يكون علم الكلام والخلاف متعارضا مع الاسلام الذي أراد الله أن يجمع عليه كلمة الناس .

وقال فضيله : إن الآيات التي استشهدت بها أنا في عدم جواز الفرق في الدين ، إنما زلت في أهل الكتاب وسائر أصحاب الديانات ، لا في المسلمين .

فأما في الخلافات إذا لم تكن في أصل من أصول الدين فلا يكون بها باس ، فهو صحيح ، وإن كان إذا كانت على نحو ما يحدث بين الإخوان المتعابين ، ولم تصل إلى حد التحزب والتجيز إلى ناحية ؛ وقد ضرب المسلمون الأولون في القرنين الأول والثاني أحسن الأمثال في ذلك ، فكانوا يتخالفون ويتفاهمون ، أو يعمر كل فريق على رأيه ، ولا يحملهم ذلك على التحزب ولا التحزب ، ووقوف بعضهم إزاء بعض متحفزين لثواب .

ولكن لما نشأ المتكلمون نشأت معهم نزعة الجدل والمارة ، وهي النزعة التي تطورت إلى فتى أريق فيها الدماء ، متناسين قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ضل قوم بعد أن هداهم الله إلا أوتوا الجدل » .

وقد نتج من هذا التحزب نزوع من كل فريق الى لفت النظر الى نفسه ، بإثارة المناظرات ، وإهاجة المساجلات ، وعرض المشكلات ، والإكثار من الافتراضات ، وكلها من الأمور المحظورة في الاسلام ، الداعية الى العناد والجهام .

وقد تحوّل رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنه عن الوقوع في فتنه الكلام ، فنهام حتى عن المسألة فقال : « ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم ، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم ، واختلافهم على أنبيائهم » رواه البخاري ومسلم . ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يرخض في المسائل إلا لأهل البوادي والوفود ، فكان أصحابه يفرحون لورود هؤلاء ليسمعوا أجوبة النبي على مسألتهم . قال البراء بن عازب : إن كان لثاني على السنة أريد أن أسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فأنهيب منه ، وإن كنا لتتحنى الأعراب .

هنا قد نفض حكمة نبي النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه عن السؤال فنقول : قد ينوء من السؤال زيادة تشديد في التكليف ، والإسلام مبني على التيسير لا على التعسير ، فذلك شدد النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه أن يمتنعوا عن سؤاله ، مكتفين بما أمرهم بالقيام به ، وما أوعز إليهم باجتنابه ، ولو كان أطلق لهم الحرية في سؤاله ، لكأن أخذت التكليف الدينية شكلا من التعقيد والصعوبة نخرج به عما بنى عليه الاسلام ، ولوجد الناس عنتا شديدا من العمل به .

وقد مضى المسلمون على هذه السنة نحو ما من مائة وخمسين سنة ، كانت أكثر بركة عليهم من جميع القرون التي تلتها حتى يومنا هذا : فقد ألفوا فيها جامعتهم ، وأقاموا دولتهم ، ونشروا ديانهم ، وفتحوا ممالك لم يتسن لا كبر دولة في الأرض - وهي الدولة الرومانية - أن تبلغ شأوها .

فلما التأت المسلمون بداء الأمم الموجودة من التحزب في أديانها ، والتفرق فيها ، والاشتغال بالجدال والمهارة ، والنوسع في القيل والقال ، ضاع معنى الاسلام ، ودب الى جثمان دولتهم الضعف ، واستحال الضعف الى جهود أدبي واجتماعي لا زال فيه الى اليوم .

قال فضيلة الأستاذ ابن آيات القرآنية التي أوردتها أنا في الزجر عن التفرق كقوله تعالى : « إن الدين فرقا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء » ، إنما زلت في أهل الكتاب وغيرهم لا في المسلمين ، وأنا أوافق على ذلك بل هو من البدايات العقلية ، ولكن أليس في طيه نهي رادع للمسلمين عن احتذاء شاكلة من سقمهم ، إذ لا يُعقل أن يسمح لهم بما يميم عليه غيرهم ؟

قال الأستاذ الفاضل : إن مضى قرن ونصف قرن على المسلمين وهم في غنى عن علم الكلام ، لا يدل على عدم فائدته ، وإلا فكيف كان يُرد على أبواب الملل والحل ، والمقالات المخالفة ، والفتايات المنقشرة في تلك العصور ؟



نقول : إن الضلالات التي كانت انتشرت في تلك العصور ، نشأت كلها من علم الكلام ، وهو أمر طبيعي لا يمكن التشكك فيه ، فحق مبع المسم لنفسه أن يمدى القرآن ، وينظر في تأويل لمنهات التي نهي الله عن محاولة تأويلها ، لاستحالة ذلك بالعقل العادي ، تؤدي إلى مجهولات ، فيضطر إما إلى تأويلها بما يفي بما لا يقول به ذو عقل ، وإما إلى الكفر بها ، واهتبار كفره مذهبا تصح الدعوة إليه ، والمنافعة دونه بكل سلاح .

كل ما يمكن أن يقال ليس بداع مشروع في نظري لوجود علم الكلام ، أليس القرآن بكاف في رد هذه الضلالات ، وكبت تلك الغوايات ؟ أليست حججه وبيانه وأسلوبه ، في أرفع ما يمكن أن يتصوره العقل من درجات الاقتناع ، وأعلى ما يتخيله من قوة التأثير ؟ أهو في حاجة لما يقوم إلى جانبه ليقوى حملاته ضد الكفرة والمبتدعة والمشاغبين ؟

إذا صح ما قيل من أن هذه الأمة لا يصلحها إلا ما صلح به أولها ، فإن المصدر الأول من المسلمين كانوا يكرهون أن يكون للدين غير كتاب مدون واحد ، هو القرآن ، فخرجوا على أنفسهم أن يكتبوا أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم . لبثوا على ذلك نحو مائة سنة حتى حبيب إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أن يجمع تلك الأحاديث ، فأمر الإمام الزهري بأن يتولى ذلك ، فجمع حفاظها وقاموا بتدوينها .

فهل كان يسمح أولئك المسلمون الأولون ، وقد منعوا تدوين الأحاديث ، بأن تقوم إلى جانب القرآن ، آراء وخیالات بشرية مدونة ، تدعى تأويل ما قرر استحالة تأويله منه ، والمنافعة عنه ، كأنه لا يفي عن نفسه حيال المحصوم ؟

إن محاولة كشف ما وراء المحسوس حاجة من حاجات العقول ، وللمؤمنين به أن يعملوا كتباً في التحسس منه . ولكن لحساب الثقافة العامة الدائمة التحول والتطور ، لا لحساب الدين الثابت المنزه عن التحول ؛ فإن ما قد يروج منها في عصر ، لا يصح أن يكون له سلطان في كل العصور وعلى كل العقول . وما كان هذا شأنه لا يجوز أن يسلط على كتاب الدين لأنه قد يضر قضيته أكثر مما يفيدها . فمن يرجع إلى أدلة علم الكلام القانم اليوم بمجدها غير كافية في التدليل وفي نفي الشبهات ، بله أن كثيراً منها وهمي ليس من الواقع في شيء ، وما نستبدله به اليوم سيمعتريه ما اعترى سابقه بعد حين لا محالة ؛ فإذا يكون أثر هذا القصور على المعاصرين وأخلافهم ونحن في طور الدليل المحسوس ؟



قال الأستاذ الفاضل : وكيف يقول السيد الأستاذ بعد هذا بأن علم الكلام هو الذي سبب ظهور الخوارج ، مع أننا جميعاً نعلم أن الخوارج ظهرت بعد حادث التحكيم بين علي ومعاوية سنة ( ٣٧ ) الخ ؟

أقول : كنت أود لو كان الأستاذ العاقل معتقداً بأن هذا لا يكون من مثلي إلا خطأ فليس ، وبأنى أعرف الحوارج قبل الكثيرين غيرى ، وبأنى نظرت فيهم نظرات عقلية قبل أن يطوف خيال منها برأس أكثر الكاتنين ، وبأنى قد دوت تاريخ الحوارج بقلبي في ( دائرة معارف القرن العشرين ) في المجلد الثالث منها صفحة ( ٦٩١ ) فقلت :

« ( الحوارج ) - كل من خرج على الامام الذى اجتمعت عليه الامة يسمى خارجياً ، وأول من خرج على على أمير المؤمنين قوم ممن كانوا معه في صفين صد معاوية لما نازعه في الخلافة . الخ الخ »

« كبار فرق الحوارج ستة : وم الأزارقة ، والنجدات ، والصفرية ، والعجاردة ، والاباسية ، والثعلبية ، والباقون فروعهم ... الخ الخ »

« كان خروج الحوارج في الصدر الاول على أمرين . . الخ الخ » .

فالى يدون بقله ما رأيت لا يجهل الحوارج ، وإنما قصدت أن أكتب ( الفرق ) فكتبت الحوارج سهواً .

قال الأستاذ : « وأخيراً قلنا في الكلمة الماضية ( يريد الرابعة ) إننا لا نحكم على الاسلام وجميع أئمنه وأعلامه بصنيع طائفة في زمن التأخر والانحطاط ، وإذن فمن على اتفاق مع الأستاذ ( درير ) وأمثاله في عدم اتخاذ الحوادث الفردية دليلاً على عقلية أمة وروحها » .

نقول : لو كان الأستاذ كتب هذه العبارة في مقالته ( الاولى ) ، لما كما عبقاً على كتاباته بحرف واحد . فعلام التعقيب على مقالات قصد بها ذكر تاريخ بعض الجامدين الذين كانوا يقفون في وجوه المفكرين لصدوم مما يبيحه لهم الاسلام من حرية البحث ؟ ولكنى لأجل تبرئة نفسى من وصمة التجنى أقول له : إن المقال الاول للأستاذ كان يقتضى التعقيب أو الاهمال ، فأشرت له الاول حرصاً على مبدأ حرية الرأي لأمثاله من المفكرين المجددين . ولست أود إعادة ما فات ، فإذا شك في ذلك قارئى فليرجع الى ذلك المقال ؟ محمد فرير وجرى

## التثبت في العلم

قال الله تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » .  
وقيل لمحمد بن عبد الله بن عمر - ما هذا العلم الذى نفت به عن العالم ( أى بعدت به عن الناس واعتزلتهم ) ؟

قال : كنت إذا أخذت كتاباً جعلته مزرعة .  
وقيل لمصقلة : ما أكثر شكك ؟ قال : محاماة عن اليقين .

## العيـد

للمصريين في قضاء الأعياد أساليب مختلفة باختلاف الطوائف ، وتفاوت حقاظها من الثقافة والثروة ، ويمكن سلطان العادات والتقاليد من نفوسها . فطائفة منهم تستن في الأعياد بسمة الاسلام ، فتحيي ليلة العيد والبس نيام ، وتتجنب الآثام ، وتعتنع عن هجر الكلام ، وتصل الأرحام ، ونمطف على الأيتام ، وتؤدى في الجملة حقوق الله وحقوق الآثام ، وهؤلاء هم الذين آمنوا وحبوا الصالحات ، وقليل مأم .

وطائفة أولمت بتقليد الغربيين في الأعياد ولوعها بتقليد م في غيرها ، وحرث في هذا المضمار الى الغاية ، والزمتم في الأعياد والمواسم ما التزموه ، فتحيي ليلة العيد بالاهو والمجون ، والقصف والشراب ، والانس بالاحباب ، وتغدو يومه الى المنزهات ، وتروح بالآثام ، وتقبض أيديها عن الحلال وتبسطها في الحرام .

وطائفة لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، وهى طائفة العامة من الشعب ، وهى الكثرة الغالبة ، تحاول أن تلحق الطائفة الأولى فيقعد بها حبلها بالدين وأحكامه ، وما ورثته عن الاجيال السابقة من عادات وتقاليد ، وتحاول اللحاق بالثانية فيقعد بها حظها من المال والثروة ، فهى الطائفة الحائرة .

يوما يحان إذا لاقيت ذا يمن وإن لقيت معديا فعدنانى

فسلوكتها في الحياة وأسلوها في الأعياد والمواسم خليط مشوش من تعاليم الاسلام ، وتقاليد الاغيار تلهو يوم العيد إلا أنها تسرف في الاهو وتخرج به أحيانا عن حدود الآداب ، وتظهر في مظاهر تسودها الفوضى ، ويسكرها الدوق ، ونأثاما المروءة ، وترسم في أذهان الاسر الكريمة لهذا اليوم صورا رهيبة ، تفضل من أجلها الاستكثان في المنازل على الخروج للاستمتاع بنصيبها من سرور ذلك اليوم وسهجنه ، فالتنزهات والمسارح ودور السينما والطرفات تفيض في ذلك اليوم بما يجرح الشعور ، ويؤلم النفس . وليس المقام بمحتاج الى ضرب الامثال ، وحسب القراء ما يعرفون .

وقد يكون من أشد المظاهر صافاة للدين والكرامة والشعور ، مظاهر زيارة القصور في أيام الأعياد ، وما تنفاه المصيبة فيها من الاستخفاف والامتهان ، تلك المظاهر التى ضج لها العقلاء ، ومحت منها أصوات المصلحين ، وشغلها العلماء والوعاظ ، وسدت لها الأنف ، ثم ذهبت هذه الجهود هباء ، وما زالت تلك المظاهر تتكرر على صورها السابقة ، بل أشد منها زكرا وما زال زوار القبور يتخذونها أنذبة للهو ، ومباهات للفسح ، وما زال « عربات السكر » تحمل قبيل العيد الى المقابر أكداى الزائرين والزائرات ، وصناديق الأطعمة ، وأمتعة الاقامة .

ومن الغريب المحجل أنك تجد بعض ( العربات ) قد تحولت في طريقها ذاهبة أو راجعة الى حلقات فهو والتفرج ، وقام فيها من يطبل أو يزمر أو يرقص أو يطر ، ويسعده من حوله بالحركات والأصوات والآلات . هذه بعض مظاهر السرور والمرح لهذه الطبقة في الأعياد والمواسم ، وهي الطبقة الغالبة في الشعب كما أسلفنا ، وليس من شك في حاجة هذه المظاهر الى الصقل والتهذيب ، كما أنه ليس من شك في أن المطالب بذلك والمسئول عنه الآن وزارة الشؤون الاجتماعية ، وإذا طالبنا وزارة الشؤون الاجتماعية أن تنهض بهذه المهمة وتقوم بدور المصلح كما نطالب الجهة الرسمية ذات الاختصاص بما هو من صميم عملها .

وفي الوقت الذي نطالبها بأن تتناول هذه المظاهر بالتنظيم أو تستبدل بها مظاهر مستساغة توفر للمصريين ، وخاصة كرام الأمر ، الاستمتاع بنصيبها من مريح هذه الأيام ومناظر الابتهاج فيها دون تعرض لمصايقة ، ودون جرح للشعور والكرامة . في هذا الوقت نقدر خطر هذه المهمة وما يعترضها من صعوبات وراثية وتقليدية تسيطر على عقول الشعب وعواطفه .

غير أنه لا ينبغي أن تثنيها هذه الصعوبات عن العلاج ، فكل شيء يبدو في أوله عسيرا خصوصا في النواحي الاجتماعية ، ولكن مرور الزمن وتضافر الملم والشعور بضرورة العلاج كل أولئك يذوق من الأمل ويقرب من القاية .

ومما يتصل بمحدث العيد ولا نرى بأسا في عرضه على الشعب وعلى وزارة الشؤون الاجتماعية فكرة نرجو أن تجد منها حظا من القبول واستعدادا للتنفيذ . هذه الفكرة هي استغلال عاطفة الخير في الإصلاح الاجتماعي وقدرة الأفراد على البذل في أيام الأعياد . فلا ريب أن عاطفة الخير في أيام الأعياد تكون قوية في نفوس الأفراد ، وأن استعدادهم للاشتراك في أعمال البر يكون قويا . ومما لا شك فيه أيضا أن مقدرتهم المالية في المواسم والأعياد تكون كبيرة الى حد ما ، فكلنا يعرف أن كل فرد ، لا أسثنى من ذلك فقيرا ولا طفلا ولا شيخا ، يعد للاتفاق في هذه المواسم مبلغا يختلف باختلاف بيئته وأحواله . فمن الخير أن يفتح القائلون بأمور الإصلاح في الشعب هذه الفرصة المواتية فيجمعوا من كل فرد ممن تجود نفسه قرشا واحدا يسمونه ( قرش العيد للإصلاح الاجتماعي ) ثم يشيدوا من مجموعه ممهدا أو ملجأ أو مستشفى أو مصنعا أو شبه ذلك من المؤسسات الاجتماعية . وإنما إذ نفعل ذلك نكون قد استعنا على إصلاح الشعب بأموال الشعب وجهوده ، ونكون قد انتفعنا بهذه العاطفة في تقدمه ورفاهيته ، وعودناه على الاضطلاع بنصيبه منها . وأنهم من ذلك نكون قد حولناه عن فكرة خاطئة ظلت أزمانا طويلة مسيطرة على عقليته ، وهي تحميل الحكومة مسؤولية إصلاح الشعب في شتى نواحيه ، تلك الفكرة التي وقفت في طريق نهوضه ورفاهه ، ونحالت منها شعوب أدركت خطاها فبلغت منها من التقدم والكمال ؟

أبو الوفا المرافعي

## روعة البيان القرآني

يقولون إن السبب في نشأة علوم البلاغة ، اشتداد الخصومة بين العلماء ، في آخر القرن الثاني ، على إعجاز القرآن ، وهل ذلك الإعجاز يرجع إلى اللفظ أم إلى المعنى ، وقد اضطرب عبد القاهر الجرجاني وغيره ، في أن مزية الكلام في جرسه ومقاطعه الصوتية ، أم في معناه السامى السرى ، كأن الالفاظ أشبه بالمازل ، تزهى بالسكان لا بالبنيان ، وتشرق بالقطان لا بالحيطان ، فلما جاء السكاكي بعد هؤلاء جميعا ، أراد أن يوفق بينهم ، فقال « البلاغة راجعة إلى اللفظ ، باعتبار إعادته المعنى بالتركيب » . ولم يكونوا يصدقون بذلك ، رحيم الله ، إلا أن يكشفوا للناس عن معاني الحسن في هذا الكتاب ، ليتبين لهم أنه « كتاب أحسكت آياته ، ثم فصلت من لذن حكيم حبير » ، فقالوا : فصل ووصل ، وإعجاز وإطناب ، وتقديم وتأخير ، وتعريف وتسكير ، وما شاكل ذلك ، مما بحثوا فيه وتعرضوا له ، وإن تصدوا للروعة في مثل « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء أقلعي ، وغضب الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودي » ، وقيل بعد القسم الظالمين ، عزوا ذلك إلى قواعدهم ، وأخضعوه لقوانينهم ، من بناء الفعل لغير فاعله ، وخطاب مالا يعقل ، وإضمار السفينة ، « واستوت على الجودي » ، كأن اشتها الحادثة ، صار بحيث لا يحتاج إلى الذكر . وأنت ربما صفت كلاما على هذا الموال ، فيه أبواب « المعاني والبيان » كلها ، ثم نظرت فوجدته ، لا يساوى أقصر آية من القرآن ، وفي هذا دليل على أنه لا يسبر غوره ، ولا تدرك غايته ، أو نستطيع أن نحد من جماله ضوابط ومقاييس ، وكيف يقيس المتناهي ما لا يتناهي ، أو يزن هذا الميزان القاصر ، ذلك المعنى الباهر ؟

ولولا ذلك لما تحدى الله به « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » . ونحن نعلم أنهم أرتع عليهم ، فلم يجدوا طريقا يسلكونه ، سوى التحبط في اللجاج ، وامتطاء اللجاج ، حتى وصلوا إلى ادعاء أنه مكذوب مفترى ، فأرخص الله لهم العنان ، أن يأتوا بمثله مخفقا متقولا ، فلما ركصوا ، قال : « فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » ، فلما عجزوا تدلى معهم إلى أدنى من هذا كله « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ، فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله ، إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين » . ولا يستطيع كائن من كان أن يقول : إن العرب لم يتغلغل في نفوسهم أن القرآن كلام بلغ أقصى درجات البيان ، فهم قوم قد وهبوا من سلامة الفطرة ، ما يؤثر عليهم إلى رؤية الواقع وتقديره التقدير الصحيح ، ولكنهم كما تقول الآية « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » .

ومن روعة البيان القرآني، أنه يصل الى مجرى الدم من الإنسان، فإذا هو كالنشوة التي تتمشى في المفاصل تمشي الرعدة في السقم، وقد يشمر تأثيره، ويجدى بيباه، أو لا يشمر ولا يجدى، فهو أشبه بالماء يصيب الأرض الموات، ثم يخفق في جوفها فتسكبه، ولا يظهر له أثر، أو يحببها بمد موتها، فنبتت من كل زوج حبيج. وقد استمع الوليد بن المغيرة «إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإيثاء ذى القربى، ويهيى عن الفحشاء والمنكر والبغى، يعظكم لعلكم تذكرون»، فقال: إن له خللاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفل له لمدق، وإن أعلاه لمشر، وما يقول هذا بشر!

وقصة إسلام صهر بن الخطاب، أصدق مثل لروعة هذا البيان، وشدة تأثيره على القلوب، واجتذابه للنفوس. فقد جاء الى أخته، حينما بلغه، أنها وزوجها اتبعا مجدا في دينه «الجديد»، وأن خباب بن الارت، يعلمهما القرآن، وكان مما قاله لها: يا عدوة نفسها، قد انتهى الى أنكما صبا، فقالت له: ما كنت فاعلا فافعل، إنا نرى الحق في غير دينك. مضربها هي وروجها، ثم نظر الى حابه فوجد شيئا مما كانا يهينان به من القرآن، فلما أراد أن يأخذه ليقرأ منه، قالت أخته: «لا يمس إلا المطهرون»، فتوضأ وأخذ يقرأ في سورة «طه» الى أن بلغ «إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني»، وأقم الصلاة لذكرى، إن الساعة آتية أكاد أخفيها، لتجزى كل نفس بما تسعى. فلا يصدك عنها من لا يؤمن بها، واتبع هواه فتردى». هنالك خيل اليه أن القيامة قد قامت، وأن الناس مجتمعون ليوم العرض، يجنازون الصراط، لتجزى كل نفس بما تسعى، فن زحزح من النار وأدخل الجنة فقد فاز... فقال: دلوني على جمد، فقال خباب - وكان مختفيا فظهر - أبشر يا صهر فإني أرجو أن يكون الله قد استجاب فريك دعوة الرسول «اللهم أعر الإسلام بأحب العمرين إليك» - ابن الخطاب، أو عمرو بن هشام «أبو جهل» - ثم ذهب الى النبي صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم، فلما أحس به المسلمون وجلوا وخافوا، إلا حمزة بن عبد المطلب، فانه قال: إن برد الله به خيرا، يكن على هذا الدين، وإن يرد غير ذلك، يكن قتله علينا هيبا. أما النبي فإنه أخذ بمجامع ثوبه، وهائل سيفه، وقال له: أما أنت منه يا صهر، حتى ينزل الله بك من الخزى والسكال، ما أنزل بالوليد بن المغيرة؟! فقال صهر: أشهد أنك رسول الله! وأسلم بين تكبير المسلمين وفرحهم، ولم يسعهم إلا أن يطوفوا به الكعبة، ابتهاجا بما فتموا، وسرورا لما لا قوا.

وكفار مكة اجتمعوا على إخراج أبي بكر منها، يوم أن لاقاه ابن الدغنة، آخذا طريقه الى الحبشة، فأرجمه وأجاره، وقال له: يا أبا بكر، مثلك لا يخرج ولا يخرج، إياك رجل تكسب المعدوم، وتحمل الكل، وتقري الصيف، وتأمين على نوائب الزمن... ولم يكن اجتماعهم هذا لأن الرجل نالهم سوء، أو ألحق بهم أذى، أو كاد لهم كيدا، اللهم إلا

أنه كان يقرأ القرآن ، فنلتف حوله نساؤهم ، وصبيانهم ، يستمعون إليه ، فيجدونه « يهدي للتي هي أقوم » فلا يلبثون أن يثوروا على الأصنام ، ويستفوها من كان يعبدها ، ثم يعلنوا انضواءهم الى لواء محمد وأصحابه . . . وهكذا كنت ترى الواحد منهم - ما بين عشية وضحاها - يفرق الله بينه وبين أخيه ، وأمه وأبيه ، وعشيرته وبنيه . . .

والله سبحانه وتعالى ينشئ على من آمن من النصارى ، ويمدحهم ، ويعتبرهم أقرب الناس مودة من المسلمين ، لأن من أوصافهم التي امتازوا بها ، أنهم لا يستكبرون ، وإذا آمنوا رأيت أعينهم تقبض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون : « ربنا آمننا ما كتبنا مع الشاهدين . وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونقطع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ؟ » .

ولا غرابة فقد احدثت به الجن ، حين استمعت إليه ، فقالوا : « إنا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدي إلى الرشداً فآمنا به ، ولئن نكرك ربنا أحدا ، وأنه تعالى جئت ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً » .

وليس بعد بيان الله فيه ، ووصفه لهذه الناحية منه « تفتش من جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلتين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » ، « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » ، وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » ؟

ابراهيم علي ابراهيم  
المدرس بمعهد القاهرة

## من ينبوع النبوة

قال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تقعدوا على ظهور الطرق ، فإن أيتهم فعضوا الأبصار ، وافشوا السلام ، واهدوا الضلال ، وأعينوا الضعيف .

وقال : ألا أنبئكم بشر الناس ؟

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : من أكل وحده ، ومنع رقبته ، وجلد عبده .

ثم قال : ألا أنبئكم بشر من ذلك ؟

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : من يبغيض الناس ويبغضونه .

وقال : المسلمون تنكفأ دماؤهم ، ويسمى بذمتهم أدماهم ، وهم يد على من سواهم .

## مقارنة ومفاضلة

بين الشريعة الإسلامية والشرائع الأخرى

— ٥ —

### الشريعة الانجلوسكسونية

تكلمت في المقالات السابقة عن الشريعتين الإسلامية والرومانية، وبينت بعض ما بينهما من الفروق، وما تمتاز به الشريعة الإسلامية من سمو في جميع نواحيها.

واليوم أذكر شيئاً يسيراً عن الشريعة الانجلوسكسونية. فهي تنشأ في تاريخها مع كثير من تاريخ شريعة الرومان. فالافتتان بقينا أمداً طويلاً. فالرومانية نشأت في القرن الخامس قبل الميلاد وانتهت في القرن السادس بعده، وهذه نشأت عام ٤٤٩ إلى عام ١٠٦٦، وانتشار العمل بكل منهما يكاد يكون واحداً، والاهتمام الذي يقوم به الباحثون في القانون الانكليزي تكاد تقايله العناية بالقانون الروماني، ولكن تطور القانون الروماني كان مبنيًا على مبادئ علمية، ونظريات فلسفية، أما القانون الانكليزي فقصده كان أكثره مبنيًا على اعتبارات وظروف عملية، وقد صرحت عليه صور أربعة، أولها صلتية وهي صفة القبائل التي كانت متوطنة في الجزيرة البريطانية قديماً، ثم زالت كلها وحل محلها القانون الروماني عندما فتحتها الرومانيون سنة ٥٥ قبل الميلاد. واحتكر فيها أربعة قرون إلى أن زال سلطانه بزال الفتح الروماني، وحلت الصورة الجرمانية مع الفتح الانجلوسكسوني الذي قضى على كل أثر روماني من دين ولغة وقانون. ثم حلت الصورة الرابعة للقانون الانكليزي وهي صورة نورماندية مستمارة من قوانين قبائل الفريز، ومن نظمهم الاقطاعية. وذلك لما احتل النورمانديون انكلترا. يقرر المؤرخون أن الفتح الانجلوسكسوني هو أول فتح قانوني في الجزيرة البريطانية، تلك الجزيرة التي كانت حياة سكانها الأصليين حياة ساذجة قائمة على فلاحه الأراضي واستغلال الغابات تعبداً للزراعة، وتربية الدواب، وكانت قوانينهم عنيفة بريرة تسوى بين الرجل والمرأة، وكانوا على غير شيء من الحضارة الاجتماعية.

أما نظامهم الاجتماعي فقد كان قائماً على تقسيم المجتمع إلى طبقتين: طبقة الأحرار، وطبقة المبيد؛ وطبقة الأحرار إلى طبقتين: طبقة الثوردة أو النبلاء، وطبقة التابعين للنبلاء؛ أما الحر الذي ليس له نبيل ينتمى إليه فقد كان يعتبر شريداً مشتبهاً في أمره. أما طبقة المبيد أو الأرقاء



فقد كانت تشبه طبقة الرقيق عند قدماء الرومان ، وكانوا يستعملون للخدمة وللإنجار بهم كالسلع حتى القرن الثاني عشر ، وكان بعض الأحرار يلقون بأنفسهم للرق جرياً وراء الارتزاق ، وكان العتق يستعمل كوسيلة للإحسان أو التعبّد ، وكان المالك للرقيق إذا أساء إليه يقطع عنه ، أو يخلع سنه ، أو يقتله ، يؤدي غرامة لذلك .

أما نظام الأسرة فقد كان يختلف عن نظام الأسرة الرومانية في شيئين : الأول أن الولد لم يكن خاضعاً لسلطة أبيه طوال حياته ، بل كانت تنتهي تلك السلطة ببلوغه درجة الرجولة وانخراطه في سلك الأحرار ، والثاني أن الأسرة تشمل القرابة من الأبوين لا من الأب وحده ، ثم كانت المصالح بين الأقارب مشتركة مثل الأحذ بالنار ، وقض الديّة ، وتحمل الديّة الناشئة عن جناية أحد أفراد الأسرة ، إلا إذا تبرّءوا منه فلا ثار ولا ديّة عليهم .

أما النظام القضائي فقد كان سلطان الدولة معدوماً في إدارة العدل ، وما كان للملك أن يرقب سلطان العدل بين الناس ، وإنما كانت له سلطة قضائية استثنائية يلجأ إليها الفرد إذا فشل في دعواه أمام المحكّة الشعبية ، أو إذا لاذ خصمه بجناه سبيل . وما كانت هناك تفرقة بين القضاة المدني والقضاة الديني ، فقد كان الأسقف يجلس في محكّة المقاطعة ويشترك في الفصل في المسائل المدنية بموافقة السلطة الرسمية ، ويغلب أن يكون هو المصو الوحيد الذي يملك قسطاً من السلم والدراية في إدارة العدل ، وكانت المجالس الدينية هي التي تنظر في النزاع الحادث بين الكنيسة وبين الأفراد .

أما المحاكم فكانت على نوعين : محاكم عامة ، ومحاكم خاصة ، فالمحاكم العامة كانت تعتمد في الهواء الطلق ، وهي محكّة المقاطعة ، وتنفذ مرتين في العام ، ومحكّة المائة وتنفذ في كل أربعة أسابيع مرة ، وكل من هاتين المحكّتين مشكل من أسراد الشعب تحت رئاسة زعيم المقاطعة ، وتصدر الأحكام بطريقة الاقتراع ، ولم يكن الخصوم ملزمين بالحضور أمامهما ولا بتنفيذ قراراتهما ، وكل ما فيه أن المتحلف يمتنع خارجاً على القانون ، فيجرم من حمايته وتندم تبة قتله .

أما المحاكم الخاصة فهي التي يعقدها النبلاء في بيوتهم لإقامة العدل بين تابعيهم ، من هذه المحاكم المحكّة التي يعقدها الملك لفصل بين من يرتكبون أورا غيلة بأمان الملك .

أما طرق الإثبات في الدعاوى فقد كانت ساذجة ومعقدة فالمسكليات ، لا تتصل بالحق في ذاته ، وكانت في الشرعيتين الرومانية والاعجلوسكسونية على أنواع ، منها القسامة ، وهي أن يستعين أحد الطرفين من المتخاصمين بأحد عشر رجلاً من أهله أو جيرانه يقسمون معه على صحة دعواه أو دقاعه ، فإن أقسموا اعتبر الحق في جانبه ، أي أن صء الإثبات كان على من يقوم به ، لأن الجمين حاسمة للدعوى ، فإن كانت الجمين كاذبة ففي غضب الآلهة من الترضية ما يكفي لظلم

الآخر ، والمحكمة نفسها هي التي توجه الاتبات بالقسامة الى من ترى من الخصوم بحسب ظروف كل قضية .

ومنها الامتحان أو التجربة ، فقد كانت تنقيه المحكمة على من ترى من مارقى الدعوى أيضا ، ويتبع في غالب الاحيان في المسائل الجنائية ، ويكلف به المتهم أحيانا ، وهو أن يمتحن باحدى التجارب التي يعتقدون أن لقوة الآلهة دخلا فيها ، فيقبض المتهم بيده على حديد نحى ، أو يخطو خطوة بقدمه على خشب مصطرم ، ثم يصمد القسيس جرحه بطريقة مخصوصة ، فإن شئ في ثلاثة أيام فهو برى . ، وإلا فهو مجرم ، أو أن يمتحن بأن يضع يده في ماء متلى ، ثم يضمدها القسيس كما في حالة التجربة بالنار ، فإن شئ في الثلاثة الأيام التالية كان بريئا ، وإلا كان مذنبا ، أو أن يمتحن بأن يلقى مكتوبا في النهر ، فإن عام فهو مذنب وإن غطس فهو برى . ؛ كذلك يمتحن بشناول القطة الممينة أو لقمة الزقوم ، وهي قطعة من الخبز الجاف يمددها القسيس ، ثم يدعوه الآلهة بأن توقفها في حلقه إن كان مذنبا ، أو يسيفها بسهولة إن كان بريئا . ويقال إنها وقفت في حلق أحد كبار النبلاء لحكم بإدائته .

وأما المبارزة القضائية أو المصارعة فلم يكن الغرض منها الاحتكام الى القوة ، وإنما هم يعتقدون أن الآلهة تنصر الحق على المبطل ؛ فالفائز يفوز بعناية الآلهة لا بقوة البدنية . ولما كانت النساء والعجزة لا يقوون على المصارعة فقد سمح بالاستعانة بأنصار ينوبون عنهم ، وكان الشهود يصارع بعضهم بعضا إذا تعارضت أقوالهم ، أو أسكرت عليهم أعينهم ، حتى إن بعض الخصوم أخذوا ياجأون الى الاستعانة بالأنصار ويقدمونهم في صورة شهود ؛ وقد استمرت هذه الطريقة في انكلترا الى سنة ١٨١٩ حيث صدر في تلك السنة قانون بإلغاء المصارعة على أثر الحكم ببراءة منهم ، إذا رفض المدعى أن يصارعه .

أما إجراءات المصارعة ، ففقد كان المدعى عليه أو نصيره يعرض أنه سيدافع عن حقه بذراعه ، فيبقى بقفازه على الأرض ، فيلنقطه المدعى أو نصيره ، دلالة على قبول المصارعة التي يحدد لها يوم في مكان تنصب فيه منصة للقضاء ، ثم يأتي الخصوم أو أنصارهم في الموعد المحدد وقت الشروق بلباس خاص ، وسلاح كل منهما هراوة طولها ذراعان ومجن ( أى درقة ) ؛ ولم يكن غرض أحدهما قتل الآخر . ويحلف كل خصم بالله على صحة دمواه ، ويشهد على أنه لم يأكل ولم يشرب شيئا يؤثر في المصارعة ، ولم يلبس قيمة ، ولم يتعوذ بعودة تحول دون إظهار الحق ، ثم يأخذان في المصارعة ؛ فإن ظف أحدهما الآخر يحكم للغالب ، وإن لم يتفوق أحدهما على خصمه حتى غروب الشمس وظهور النجوم يحكم للمدعى عليه أو للمتهم باعتبار أنه لم يظلب .

هذه هي طرق الاتبات في الشرائع غير الاسلامية ؛ وإنها لطرق عقيدة خرافية ، إذ كيف

لا تحترق يد رجل أقدم على الامتحان بالقبض على النار ؟ أو كيف لا يؤثر الوم على من يتناول لقمة الرقوم فيقف في حلقه ، وكيف يفوز ضعيف القوة البدنية على الممتلي قوة وصحة ؟ وكيف لا تمتثر القوضى وتزعزع أركان الأمن إذا كان الوصول الى الغرض المطلوب يمكن أن يكون بالاعتماد على القراع أو على قوة الانصار أو الشهداء الذين لا يسمح للحصم بأن يناقشهم الشهادة ، ولا يسمح له بسؤالهم عن مصدر علمهم بما شهدوا به عليه ؟ وكيف لا يظلم يرى إذا كانت هذه طرق الاناث ؟ وكيف لا يضيع حق ويفلت مجرم من عقاب ؟ حقا إنهم كانوا في ظلام وفي جهل عريض . فهل في الشريعة الاسلامية خرافة واحدة من مثل هذا ؟ وهل نجد محلا للمقارنة أو المفاضلة ؟

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا  
هذه كلمة قصيرة ذكرناها عن الشريعة الانجلوسكسونية ، وفي العدد التالي سنأتي بالكثير  
من المقارنات ليعتد من السمين ما  
مصطفى عبد الحميد أبو زيد  
المنسوب القضائي بالأوقاف الملكية سابقا

## بم يسود المرء

قال الحكماء : يسود الرجل بأربعة أشياء : بالعقل ، والادب ، والعلم ، والمال  
وقيل لعراة الأوسى : بم سودك قومك ؟  
قال : بأربع خلال : أتخدع لهم في مالي ، وأذل لهم في عرضي ، ولا أحقر صغيرهم ، ولا أحسد كبيرهم .

نقول : قوله : أذل لهم في عرضي ، ليس مراده من العرض ما يفهم منه اليوم من تخصيصه بحرم الرجل ، ولكن مراده ما نعطيه اللغة على إطلاقها قبل التخصيص الأخير ، وهو النفس ؛ يقولون : أكرمت عنه عرضي أي صلت عنه تقوى ؛ ومن معانيها موضع المدح والذم من الانسان ، وما يفتخر به من شرف وحسب ؛ ومن معانيها ما خصص له الآن من حرم الرجل . فراد عراة الأوسى من قوله : وأذل لهم في عرضي ، أنه يحتمل منهم لو خاضوا في ذمه والنيل منه ، وفي عراة هذا الذي كان يذل لقومه يقول الشيخ الشاعر :

رأيت عراة الأوسى يسمو الى الخيرات منقطع القرين  
إذا ما راية رفعت لجيد تلقاها عراة بالعين

## المتألهون والادب

عدي بن زيد العبادي

ومن المتألهين الشعراء الكتاب ، عدي بن زيد بن حماد (١) التميمي المصري ، يكنى أبا حمير ، ويلقب بالعبادي (٢) ، كان متألها في الجاهلية ، متعففا في شعره ، لم يُستَهْمَر بالفواحش ، ولم ينهك في الهجاء .

نشأ بالحيرة عاصمة العراق على ضفة الفرات ، وكان للفرس النفوذ على ملوكها المبادرة ؛ فلم تكن الحيرة خالصة للعرب ، بل كانت لهم ولغيرهم من شعوب كثيرة ، يؤمنونها للتجارة والإقامة ؛ وكانت قاعدة لقري مُشرعة الجُناب ، خصبة التربة ، مما جعلها تختال في حلل الخفض ، ونميس في نعيم الحضارة ؛ فن سعة في المُمران ، وعظمة في البنيان ، الى كثرة في المدارس والبيع والمتاجر ودور القهوه والشراب ، مما جعل العرب يتغنون بمحاسنها ، ويفرمون بمفاتنها ، حتى قالوا : « يوم ولية في الحيرة خير من دواء سنة » . وقد كان لقصري الحورنق والسدير حظ غير يسير من وصف الشعراء .

وترجع إقامة آل عدي بالحيرة الى جده أيوب بن محروق : كان منزله بالتيامة فأصاب دما في قومه ، فهرب لاحقا بأحد أصهاره في الحيرة ، فأكرم وقادته ، وأعطاه مالا ، واتصل بالملوك الذين كانوا بالحيرة ، فعرفوا حقه وحق ابنه زيد بن أيوب ؛ فلما مات أيوب وشب ابنه زيد تزوج امرأة من أصهار أبيه فولدت له حمادا ، ثم قتل زيد في قنبل أبيه ، فكث حماد في أخواله حتى تاهر البلوغ ، ثم حولته أمه الى دار أبيه ، وعلمته الكتابة ، فبرع فيها حتى صار كاتب ملك النعمان الأكبر ، فكث وولد له ابن سماء زيدا ؛ وكان لحاد هذا صديق من الدهاقين (٣) العظاء يقال له « فروخ ماهان » ، فلما حضرته الوفاة أوصى بابنه زيد الى الدهقان ، فأخذته إليه فسكان عنده مع ولده ، وكان زيد قد حذق الكتابة العربية ، فعلمه الدهقان الفارسية ، وأشار على كسرى أن يجعله على البريد ، ولم يكن كسرى يفعل ذلك إلا بأولاد المرازبة (٤) فكث يتولى ذلك زمانا حتى مات النعمان ، فاحتلف أهل الحيرة فيمن يولونه الى أن يعتقد كسرى الأمر لرجل ، فأشار عليهم المزيان يزيد بن حماد ، فكان على الحيرة الى أن ملك كسرى المنذر بن ماء السماء ، وولد لزيد ولد فسماه عديا .

(١) ويروي جنتار وحسار . (٢) نسبة الى الريباد وهم قوم من قبائل شقي قد اجتمعوا على النصرانية وأنفوا أن يتسموا بالعبيد وقالوا نحن الريباد . (٣) الدهقان بكسر الدال وضمها : زعيم فلاحي المجمع ، ورئيس الاقليم ، معرب ، جمعه دهقانة ودهاقين - قاموس . (٤) المرازبة كمرحلة : رئاسة الفرس ، وهو مرزبانهم ، جمعه مرازبة .

نشأته : لما ترمع عدى وحذق الكتابة ، أرسله المرزبان الى كتاب الفارسية فتعلمها ، وقال الشعر ، وتعلم الرمي بالشاب (١) فخرج من الاساورة الرماة ، وتعلم لعب العجم على الخيل بالصوالحة وغيرها ، فبلغ أمره كسرى ، فأرسل اليه ، فلما كلمه وحده أنظره الناس وأحضرهم جواباً ، فرغب فيه وأثبتته في ديوانه ، فكان أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى ، فرغب أهل الحيرة الى عدى ورهبوه ، فلم يزل بالمداثن في ديوان كسرى يؤذن له عليه في الخاصة وهو معجب به قريب منه ، حتى بعد صيته ، وارتفع ذكره ، فكان إذا دخل على المنذر قام له جميع من عنده إجلالاً . ولقد بلغ من علو مكانته لدى كسرى أن بعث به الى ملك الروم بهدية ، ولما مر بمدمشق أنار جهالها كوا من نفسه ، فكان أول شعر قاله هناك :

رب دار بأسفل الجزع من دو      مة أشهى الى من جيرون  
ونداى لا يفرحون بما نا      لوا ولا يرهبون صرف المسون  
قد سقيت السمول في دار بشر      قهوة صرة بماء سخين

فلما رجع الى كسرى وعلم بوفاته أبىه زيد استأذنه في الإلمام بالحيرة فأذن له ، فتوجه اليها ، وبلغ المنذر خبره فخرج فتنقاه في الناس ورجع معه ، وأكب على الصيد والاهو ، وتزوج هنذا بنت النعمان بن المنذر أو أخته ، على خلاف في ذلك ، فلما مات المنذر بن النعمان وترك اثني عشر ذكراً من بينهم النعمان بن المنذر متقطعا الى عدى ، فسمى له عدى حتى قلده كسرى ملك العراق من بين إخوته ، ثم جدت أمور جعلت النعمان يتبرم بعدى ويفضبه عليه ، فحبسه ونسى ما قدمه له من الخدم ، فجعل عدى يرسل اليه الشعر ويرققه ، فيأبى النعمان إخراجهم من حبسه ، فكان أول ما قاله في محبته من قصيدة :

أبن عنا أخطارنا المال والآله      من إذ ناهدوا ليوم المحال  
وفضالى في جنبك ، الناس يرمو      ن وأرمى وكلنا غير آل  
فأصيب القدي تريد بلا غف      من وأزبى عليهم وأوالى  
ليت أنى أخذت حتى بكفى      ولم ألق ميتة الاقتال  
محاولا محلم لصرعتنا الما      م فقد أوقعوا الرما بالنفال

ومما قال أيضاً في محبته :

ألا من مبلغ النعمان عنى      وقد تهوى النصيحة بالغيب  
أعطى كاف سلسلة وقيدا      وغلاً والبيان لدى الطيب  
أناك بأنى قد طال حبسى      ولم تسأم بمسجون حريب  
وبينى مقفر إلا نساء      أرامل قد هلكن من النصيب

(١) الشاب بضم النون : النبيل ، الواحدة بهاء ، وبالفتح مُتَّخِذُهُ .

إلى أن قال ، وهو آية في الاعتذار تبلغ إلى أقصى القلوب :

فإن أخطأت أو أوهمت أمرا      فقد سدّ بينهم المصافى بالحبيب  
وإن أظلم فقد ما فتيموني      وإن أظلم فذلك من نصيبي  
مهل لك أن تدارك ما لدينا      ولا تغلب على الرأي المعيب  
فأني قد وكلت اليوم أمري      إلى رب قريب مستجيب

ولكنها لم تستل سخيفة السمان ، ولم تخفف من غضبه .

فلما طال سجنه ، كتب إلى أخيه أبي وهو مع كسرى هذا الشعر يستجده :

أبلغ أيبا على نأيه      وهل ينفع المرء ما قد علم  
بأن أخاك شقيق الفؤاد      دكنت به واقفا ما سلم  
لدى ملك موثق بالحديد      د إما بحقوق وإما ظلم  
فأرضك أرضك إن تانتنا      تم ليلة ليس فيها حلم  
فكتب إليه أخوه أبي :

إن يكن خالك الزمان فلا حيا      جز باغ ولا أليف ضعيف  
ويعين الإله لو أنهم جا      عوا طحونا فيها نقي السيف  
ذات رزء مجنبة غمرة المو      ت صحيح سراها مله سوف  
كنت في حبها لجنتك أسمى      فاعلمن لو سمعت إذ تستضيف

إلى أن قال :

ولعمري لئن جرعت عليه      لجزوع على الصديق أسوف  
ولعمري لئن ملكت عزائي      لقليل شرواك فيها أسوف

ثم دخل أبي على كسرى وكله في أمر عدى ، فكتب كسرى إلى النعمان بعزيمة ليرسلن به إليه ، فبعث النعمان إلى عدى سرا فغمه وقتله ، ونعت إلى كسرى أنه قد مات ، فلم يزل ابن عدى يبعث للنعمان الغوائل انتقاما لأبيه حتى قتله كسرى أبووز وانقرض ملك الأخمين .

فتلك النشأة الثقافية الحضرية ، وهذه التربية المالية السامية ، وهذه الحضارة للملك الفرس والعراق والاضطلاع بأعباء سياستهم ، وهذا البيت الذي انحدر منه عدى ، وهذه الحياة اللاهية الطروب . كان لها أبعاد الأثر في توجيه عدى وجهة أخرى ليست على غرار ما كان عليه شعراء الجاهلية في عصره . ذلك ما سنعرض له في حياته الأدبية . وبجمل بما قبل التحدث عن عدى الشاعر الكاتب أن نعرض لناحيته الدينية ، فقد كان لها أعمق الأثر في شعره ؟

أحمد إبراهيم موسى

## الفيلسوف ابن طفيل

### حياته :

هو أبو بكر محمد بن هيد الملك بن طفيل القيسي . تبوأ منصب الوزارة في عهد أبي يعقوب يوسف بعد أن كان يشغل منصب المحاسبة في غرناطة . ولد في مدينة قادس بالأندلس ، ومات في مراکش عاصمة دولة الموحدين في ذلك الوقت عام ٥٨١ هـ ( ١١٨٥ م ) . ويلوح للمؤرخ أن حياة الفيلسوف ابن طفيل لم تكن حافلة بالتقلبات ، فقد كان شغفه بالكتب والاطلاع عليها أكثر من حبه للناس . وفي مكتبة مليكة أبي يعقوب تزود بالكثير من العلوم والمعارف ، وكان ميله الى التأمل أكبر من ميله الى التأليف .

وفي عصر ابن طفيل كانت الفلسفة في المغرب في أوج قوتها ، حيث أدخل الموحدون مذهب الأشعرى ومذهب الغزالي في مراکش ، بعد أن كانوا حتى ذلك الحين موسومين بالزندقة ، وكان الموحدين عناية بالمذاهب الكلامية ، والعلوم العقلية ، الأمر الذي جعل الفلسفة تزدهر زمننا في قصورهم وفي دور العلم بينهم .

وفي كتاب ( المعجب ، في تلخيص أخبار المغرب ) للمراكشي ص ١٧٢ ، ترى أن ابن طفيل كان أكبر أملة أن يمزج العلم اليوناني بحكمة أهل المشرق ليطالع الناس برأى حديدى الكون ، وقد امتاز اهتمامه أيضاً بأمر العلاقة بين الفرد والمجتمع ، وإلى أن منشأ الجماعة هو الفرد ، كما يتبين هذا بوضوح في قصته المسماة حي بن يقظان .

وقصة ابن يقظان التي وضعها ابن طفيل ، قصة فلسفية ذاع صيتها ، وانتشرت في أوروبا انتشاراً واسماً ، فترجمت الى اللاتينية والانجليزية والالمانية والهولندية تحت عناوين مختلفة في الثلاثين سنة الأخيرة من القرن السابع عشر ، وطوال القرن الثامن عشر .

والفكرة الأساسية في هذه القصة ، كما يقول « بروغل » في مقدمته لتلخيصها ، هي بيان كيف يستطيع الانسان دون معونة من خارج أن يتوصل الى معرفة العالم المألوف ، ويهتدى الى معرفة الله وخالقه النفس . وابن طفيل يتخذ من حي بن يقظان شخصاً بسيط آرائه الفلسفية .

يتكون مسرح هذه القصة من جزيرتين : يضع ابن طفيل في إحداها المجتمع الانساني بما تواضع عليه من عرف وتقاليد وأوضاع ، ويضع في الثانية إنساناً ينفذ على الفطرة . ويظهر في المجتمع فتيان من أهل الفضل ، يسمى أحدهما « سلامان » والآخر « آسال » يسموان الى المعرفة العقلية ، والتغلب على الشهوات ، فأما الاول فبعقله ينزع زعة عملية ، فهو يسائر دين العامة حتى يتوصل الى السيطرة عليهم ، وأما الآخر ففطرته متجهة الى النظر العقلي

وفيه نزعة صوفية ، فهو يرتحل الى الجزيرة المقابلة لظلمته أنها غير مسكونة ، وفيها ينقطع الى الدرس والوجد .

تويعر حى بن يقظان فى هذه الجزيرة حتى صار فيلسوفا كاملا ، وكان قد قذف به الى أرضها طفلا . توصل حى أولا الى حاجاته المادية ، ثم استطاع بالملاحظة والتفكير أن يعرف الطبيعة والماء ، ويعرف الله ، ويعرف نفسه ، الى أن وصل على رأس التاسعة والأربعين الى الله . عند ذلك لقيه آسال ، ولم يكن حى يعرف اللغة فى أول الأمر ، ولكن بعد أن استطاع كل منهما أن يتفاهم مع صاحبه تبين أن فلسفة وشريعة آسال صورتان لحقيقة واحدة . ولما عرف حى أن فى الجزيرة المقابلة لجزيرته أمة بأسرها لا تزال تنخبط فى ظلمات الجهل ، صحت عزيمته على أن يذهب الى أولئك القوم ويكشف لهم عن الحقيقة . فعملته التجربة أن العامة لا قدرة لها على إدراك الحقيقة مجردة ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم أصاب إذ أبان لهم الحقيقة بضرب الأمثال الحسية ولم يكشفهم بالنور الكامل . وبعد أن انتهى الى هذه النتيجة ، عاد أدراجه مع صديقه آسال الى جزيرتهما الخاليتين ، ليعبدا ربهما عبادة روحية خالصة ، حتى يأتيهما اليقين . ( تاريخ الفلاسفة فى الاسلام تأليف الاستاذ ت . ج . دى بور ) .

بهذا وصل ابن طفيل الى أن كمال الإنسان هو فى إرضاه عن كل ما هو محسوس ، وانفجاره فى العقل السكلى فى سكون وخلوة لا يكدرهما شيء من مطامع هذه الحياة .

والغاية التى كان ينتخبها حى من عمله هو أن يلتبس القدرة فى كل شيء ، وهو يقتصر فى المطالب البدنية على ما توجبه الضرورة القصوى ، وشعاره الاكتفاء بما يقيم الآود لا ما يؤدى الى النوم .

هذا هو النظام الذى التزمه حى فى مطالب جسمه المادية ، أما روحه فكانت مرتبطة بالعالم العلوى ، وهو يشبه بهذا العالم ويحاول أن يحمل حركاته متناسقة كحركات الأجرام السماوية . وهكذا أصبح حى بالتدريج قادرا على أن يسمو بنفسه ، حتى صار غفلا صرعا ، وهذه حالة لا تستطيع عقولنا إدراكها .

ومن غريب أمر هذه القصة ، التى وصفها ابن طفيل على لسان حى ، أنه لم يكتبها موحى من نفسه ، وإنما كتبها إرضاء لصديق له ، فقرأ يقول فى مقدمة القصة بعد أن حمد الله : سألت أيها الأخ الكريم اللصنى - منحك الله البقاء الأبدى ، وأسعدك السعد السرمدى - أن أبث إليك ما أمكننى منه من أسرار الحكمة المشرقية ... الخ .

فلسفة ابن طفيل :

تركز فلسفة ابن طفيل فى قصته التى رويناها من قبل . ولهذا الفيلسوف طريقة فى التدليل



بها في قصة حي بن يقظان ، تحالف طريقة الاستشهاد ، والدهاب مع الظواهر السطحية ، وقواعد العرف المتفق عليها ، فكان هذا باعنا على الالتفات إليها ، والعناية بقراءتها ومناقشتها . وقد أطلع ابن طفيل في تبينه أن البرهان لا ينقض المفاهيم التي توارثتها الشعوب ، وأثرتها أرواح الجماعات ، من الكتب المنزلة ، ذلك لأن القطرة هي الإلهام بأن الله واحد . والقصة تؤكد للأصول التي تقوم عليها عقائد الناس ، وتبني عليها أطوارها وتقلباتها . فهو يحاول أن يجعل الإنسان يتصل بطريق الحس والتجربة إلى العقيدة عن طريق الشعور . والغلاصة في فلسفة ابن طفيل ، أن للإنسان غاية في الحياة فوق لذاته وآلامه ، وهذه الغاية هي المثل الأعلى .

#### شخصية ابن طفيل:

كان ابن طفيل يعتقد أن الفلسفة أقرب إلى أن تكون من مواهب النفس ، من أن تكون ثمرة من ثمرات الدرس والتحصيل . وكان من أولئك الكتاب المرفهين ، ومن المفكرين الذين ينزويون في برج من العاج لا يعرف إلا عالم الكتب .

أثرت الفلسفة في نفس ابن طفيل ، فأعرض عن لذات الدنيا وزخارف الحياة ، وعمل على مراقبة نفسه ، واستنقاذ روحه من لوث الأوهام ، وأصبح الرجل في أواخر أيام حياته بعيد النظر ، فسيح الأفق ، ذا عقل مفتوح لمرافق الحياة الروحية على اختلافها وتعددتها . هذا إلى جانب ما امتازت به روحه القوية الفياضة من جوهر طاهر ، ومعدن كريم ، ومن حب لاغير وإيثار لاغير . كان مشهوداً له بالحزم والنصميم ، وتنفيذ ما صدق عليه عزمه .

عبد الحميد سامي بيومي

### تصحيح

المرحوم إثبات هذه التصحيحات في مواضعها من هذا العدد .

ص	س	خطأ	صواب
٥٨٧	٤	الجوانح	الجوارح
٥٨٧	٥	وطريقة	وطريقه
٥٨٧	٥	وتخليص	وتلخيص

## تطور التصميم والزخرفة في مساجد مصر

التصميم والزخرفة في الدولة الفاطمية

- ٢ -

لئن كانت الصورة التي أعطاها لنا الجامع الأزهر عن تصميم المساجد الفاطمية ناقصة نسب ما دخل على هذا الجامع من التغيير ، فإن الجامع الأنور أو جامع الحاكم بأمر الله قد احتفظ لنا بهذا التصميم كاملا . ويودى لو أحتكم على زيارته وأن أصحابكم في جولة إليه كنتلك التي صحبتكم فيها إلى المساجد السابقة ، ولكن الحياء يحسب أن رؤيته اليوم تمتع في النفس الأسى والحزن . فقد أخذ الصليبيون مقر الجدم ، وأقاموا بين جدران كنيسة يتعبدون فيها ، كما جعلت وزارة الأوقاف من رواق محرابه مخزنا لسقط متاعها ، وأقامت في جانبه بناء حديثا ( مدرسة السليمان الابتدائية ) لم تحس يد الفن بمصاها السحرية فبدا أبسا كئيبا ، وتوكت الباقى فضاء شاسعا يردد الأسف على ما فعله الخلف بأكنار السلف .

يقرب هذا الجامع في مساحته من جامع عمرو ، ويشبه في كثير من تفاصيل تصميمه مسجد ابن طولون ، ويتضمن بعض المظاهر المعمارية التي رأيناها في الجامع الأزهر ، ولكنه ينفرد عن هذه الجوامع الثلاثة بواجهة منقطعة النظر ، إذ يقوم في زاويتها الشالية والجنوبية برجان أجوفان عظيمان (١) يكسبان الجامع مظهر الفلاح الخصبة ، يخرج منهما مثلثتان عاليتان تزدان كل منهما بزخارف بديعة وكتابة كوفية جميلة تنضم اسم الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله .

أما مدخل الجامع فيقع في منتصف هذه الواجهة ويرز عن ممتها بنحو ستة أمتار ، وقد كانت تزينه نقوش محفورة على الحجر غاية في الروعة والجمال لم يبق لنا منها إلا جزء صغير ، ولقد كان يتوج هذا المدخل لوح من الرخام فقد مع الزمن ، وكان منقوشا عليه بخط كوفي جميل النص الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . بما أمر بعمله عبد الله ووليه أبو على المنصور الامام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آباءه الطاهرين . في شهر رجب سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة » .

(١) يتكون كل من البرجين من مكعبين أجوفين يعلو أحدهما الآخر ، العلوى أصغر من السفلى وأحدث منه إنشاء ، بينما السفلى معاصر لإنشاء المسجد .

أما اللوح الذي يرى الآن فوق المدخل فتشير الكتابة التي عليه الى إصلاحات تمت في المسجد أيام الناصر محمد بن قلاوون .

هذه الواجهة التي وصفناها تثير رؤيتها في النفس ذكريات الماضي ، وتبعث في الذهن بصورة من مجد المسلمين الغابر ، تذكرنا بمدينة المهديّة ، ومسجدها الجامع ، وعوْسمها وقومه ، وبالذور الذي لعبه هؤلاء القوم في الحضارة الاسلاميّة .

أما المدينة فلا نعلمها قصة طريفة تنطق بما كان لأسلافنا المسلمين من بعد النظر في اختيار مواقع المدن ، وتشهد بأنهم ضربوا في الحضارة الماديّة بسهم وافر . فهذا أبو عبيد الله الملقب بالمهديّ أول خلفاء الدولة الفاطمية بعد أن استقر به المقام في إفريقية (تونس) أراد أن يؤسس مدينة منيعة الجانب يتحصن فيها من أعدائه ، ففرج الى تونس وقرطاجنة ، برتاد ساحل البحر ، فوجد جزيرة متصلة بالبر كهية كف متصل بزند ، فبنى فيها مدينة خلع عليها اسمه ، وحملها دارا للملكة ، واتخذ من ساحلها ميناء بحريا كأحسن وأمنع ما تكون المواقي : حفره في الصخر بمرض سبعة وخمسين مترا وطول مائة وستة وعشرين مترا ، وجعله بحيث يكفي لايواء ثلاثين سفينة . كما أنشأ بها دار صناعة (تريانة) نقرت في الجبل ، وكانت تستوع لمائتي سفينة (١) .

وأما مسجد المهديّة الذي أنشاه المهديّ بعد تخطيط مدينته بوضع سنوات ، فقد كانت واجهته مبنيّة الوحي المهندس الذي أشرف على إنشاء جامع الحاكم بمصر ، إذ اتخذها أساسا لتصميم واجهة مسجده ، وأدخل عليها من التعديل والتهديب ما اقتضته سنة التطور (٢) .

وأما القوم الذين إليهم ينتسب أبو عبيد الله المهديّ ، فقد تضاربت الآراء في حقيقة نسبهم . فهم يرون - ويؤيدون في هذا الرأي طائفة من المؤرخين - أنهم من نسل السيدة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك عرفوا بالفاطميين نسبة إليها ، بينما ينكر عليهم هذا النسب طائفة أخرى . وليس من شأنا هنا تفحص هذه المسألة ، إنما يكفيننا أن نعلم أن صحة نسبهم كانت موضع شك وعمل طعن كثير من المسلمين .

أما الدور الذي لعبه هؤلاء القوم في الحضارة الاسلاميّة لا سيما في مصر ، فعظيم جدا ، تشهد به آثارهم التي تركوها ، ولعله كان نتيجة لذلك الشك الذي حام حول أصلهم ذلك لاهم هند ما أدركوا أن معظم المصريين على المذهب السني بينما هم على مذهب الشيعي ، وعلموا أن انتسابهم الى بيت النبوة موضع شك وريبة ، أرادوا أن يقرّبوا مسافة الخلاف بينهم وبين القوم

(١) راجع تاريخ الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ٦٥ طبعة مصر سنة ١٣٠١ هـ .

(٢) تشابه واجهة كل من المسجدين في أن كلا منهما تتألف من برجين قائمين على طرفي الواجهة ومدخل بارز عن سمنها . وتختلف واجهة جامع الحاكم عن جامع المهديّة في أنها تزدهن بزخارف ، وفي أن البرجين فيهما أجوفان .

الذين يحكونهم ، فأقبلوا على الحياة العامة بوجهون البها غاية حيدم ، ويعنون بها أشد العناية حتى يصرفوا الناس عن التحدث في أصلهم الى التحدث في منشأتهم وأعمالهم . فاهتموا بشئون الشعب ؛ حببوه في طلب العلم بما كانوا يقدقونه على الطلاب من النعم ، وشجعوه على إتقان الصناعة فزدهم في أيامهم وازدهرت ، كما راجت التجارة وانتعشت ، وأسرفوا في الترفيه عنه ، وسهلوا له سبل النهو بما ابتدعوه من المواسم والموائد والاعباد التي لا تزال تختل بمعظمها حتى اليوم . وفي الحق لقد بلغت البلاد بفصل سياحتهم هذه أوج الرقي في أيامهم ، وفاقته مدينة القاهرة جميع المواسم المعروفة في عصرهم في الثروة والترف والتقدم المادي .

والآن بعد هذه الوقفة الطويلة أمام الواحة ندخل الى الجامع لنشاهد ما بقي لنا من آثاره . أماءنا فناء واسع ، به على الجين بناء حديث ، وعلى اليسار بقايا عقود ، وأسس أكتاف ، وجدران مهتمة . أقبل عليها علماء الآثار بحثا وتحليلا حتى استطاعوا بحذقهم أن يمتطونا منها صورة ناطقة لما كان عليه المسجد وقت إنشائه ، فإذا هو شبيه بما تقدم عليه من مساجد : صحن مكشوف تطل عليه أروقة أربعة أوسعها رواق المحراب ، إذ به خمسة بلاطات ، بينها الأروقة الثلاثة الأخرى بكل منها ثلاث بلاطات خصب . ولقد احتفظ لنا رواق القبلة بالكثير من عناصره . فيه المجاز المتسع الممتد من الصحن الى المحراب الذي رأينا مثله لأول مرة في الجامع الأزهر ، وفيه المقود والنوافذ والسقف والاكتاف قائمة في مكانها حافظة لكيانها . ويدلنا تخطيطه على أن مهندسها كان متأثرا الى حد كبير بتخطيط مسجد ابن طولون : فالمقود محمولة على أكتاف بدلا من أعمدة ، وشكلها في المسجدين واحد ، وبشكل منهما طراز من الكتابة إن اختلفا من حيث الفن في تصوير الحروف ورسم الكلمات وتباينا من حيث المادة (١) التي كتب عليها ، فقد اتفقا في أنهما يتضمنا آيات من القرآن الكريم ، وفي أنهما اتخذتا مكانهما تحت السقف مباشرة في كلا المسجدين .

على أننا نشهد هنا لأول مرة ظواهر ثلاثا جديدة بالعناية . أما الأولى فهي تلك الأوتار الخشبية الممتدة بين الأكتاف وبمضا تحت المقود مباشرة ، والتي تزدان بزخارف محفورة . ولقد ولدت هذه الظاهرة في بيزنطة قبل الاسلام واستخدمها المسلمون لأول مرة في أقدم وأجل أثر إسلامي قائم الى اليوم : في القبة العظيمة التي أقامها عبد الملك بن مروان سنة ٧٢ هـ فوق صخرة بيت المقدس التي كانت أول قبة احتارها النبي صلوات الله عليه له وللإسلام حينما وصل الى المدينة المنورة ، والتي هي في الواقع درة في حنين الآثار الاسلامية جميعا في الشرق وفي الغرب ، قد توهر حطها من المعاسن ، وأخذت من كل بديلة بطرف ، في ظاهرها

(١) في جامع ابن طولون طراز الكتابة محفور على الخشب ، بينما في جامع الحاكم زاه محفورا على الجص .

وباطنها من أنواع الزواقة ورائق الصنعة ما يعجز الوصف ، وأكثر ذلك مغشى بالذهب ،  
فهي تتلألأ نورا وتلمع لمعان البرق ، يحار بصر متأملها في محاسنها ، ويقصر لسان رائيها  
عن تمثيلها . (١)

وأما الظاهرة الثانية فهي تلك القباب التي نرى اثنين منها على طرفي جدار القبلة بينما تقوم  
الثالثة فوق المحراب . والمسلمين في حمل القباب فصل غير منكور ، فهم وإن كانوا لم يبتدعوها  
إذ عرفها المصريون والعراقيون والرومان من قبلهم في المصور القديمة ، ولكنهم أخذوها بالعين  
من هذه الأمم صغيرة ، ساذجة ، بسيطة ، وردوها باليسار الى العالم ، كبيرة ، معقدة ، جميلة .  
لقد ساروا بها في مدارج الرقي خطوات واسعة ، وتحملت في إنشائها براعة بنائهم ، وأكثروا  
من استعمالها حتى لقد أضحت من المميزات البارزة في العمارة الإسلامية ، وهذه القباب  
الصغيرة التي نشهدها في جامع الحاكيم تمثل لنا الخطوة الأولى للقبلة المصرية الإسلامية ، فهي تقوم  
على مربع أنثى في كل من زواياه الأربع من أعلى كوة غير نافذة ، فانقلب هذا المربع بذلك  
الى مئمن أمكن للقبلة أن تستقر عليه بسهولة . (٢) وسنرى في حلال هذا البحث كيف تمت  
هذه القبة الصغيرة وتطورت حتى استدار هلالها بذرا في عصر السلطان الغوري .

وأما الظاهرة الثالثة فتبدو في الزخرفة الرائعة التي يزدان بها هذا المسجد ، سواء في مئذنتيه  
أو واجهته أو نوافذه ، فلقد ظهرت فيه الزخرفة السحمية الشكل التي تعتبر من مميزات الفن  
الإسلامي في أبسط صورها ممثلة في نجمة ذات ثمان شعب ، وسنرى أن هذا الضرب من  
الزخرف قد تقدم وتطور قبا بعد ، حتى لقد ارتفع عدد الشعب الى عشر واثني عشرة بل  
وأكثر من ذلك ، وزخارف الواجهة المقوشة على الحجر تدل على أن الفن المصري الإسلامي  
قد خطا الى الامام خطوة واسعة اكتملت بها شخصيته ، وشبائك الجص التي تزد الموائف  
بعد أن كانت زخارفها هندسية قوامها دوائر متشابهة كما هو الحال في مسجد ابن طولون قد  
أصبحت الآن مزاجا من السكتابة الكوفية الرائعة والفروع النباتية الجبلة . يتبع

محمد عبد العزيز مرزوق

الأمين المساعد بدار الآثار العربية

(١) رحلة ابن بطوطة من ٣٣ طبعة مصر سنة ١٣٢٢ هـ

(٢) كانت معظم القباب القديمة صغيرة تحمل فوق غرف مستديرة وكانت استعمالها  
محدودا جدا وفي القرن الثاني الميلادي اهتمدى السوربون الى اختراع طريقة معمارية استطاعوا  
بها إنشاء القبة فوق غرفة مربعة وفي القرن الثالث اهتمدى الفرس الى وسيلة أخرى تؤدي  
الى نفس الغرض وقد أخذ المسلمون هذين الاختراعين وهذبوها واستطاعوا بهما أن ينشئوا  
أعظم القباب وأبدعها .

## أنا لله

إنا لله وإنا إليه راجعون . تنعى الى قراء مجلة الأزهر واحدا من العلماء العاملين هو المرحوم الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحمن الجزيري أحد محرريها الممتازين . توفاه الله في أوائل شهر رمضان بعد مرض مزمن لارمه سنين ولكنه ما كان يقصده عن الافادة والتأليف ، فكان لوفاته وقع عظيم في قلب كل من عرف فصله من قراء هذه المجلة .

كان رحمه الله كبيرا لمقتضى المساجد بوزارة الاوقاف ثم استقال منها بعد قيامه بمهمته سنين ، واشتغل بتدريس الفلسفة في كلية أصول الدين ، فكان من أحرص المدرسين على الاضطلاع بما عهد إليه ، وكان يحمل نفسه في هذه السبيل جهدا باهظا تحت ضغط عائلته التي كانت تنقضاء الراحة المطلقة . ولما عين محررا لباب السنة من هذه المجلة كان لا يألوها مثابة وعناية .

وله رحمه الله كتاب ضخيم في الفقه يقع في أربعة مجلدات ، يعتبر مرجعا قيما لمسائله ، وله كتب أخرى في أغراض شتى كلها ممتعة . تغمده الله برحمته ، وألهم آل الكرام الصبر على فقدته .



### الرسالة الفاروقية الخالدة ، في مناسك الحج والعمرة :

وضع هذا الكتاب مهندس ضليع بمصلحة المساحة والمساجم بالقاهرة ، هو الأستاذ عبد الوهاب مصطفى ، وقد أقرت ما فيه لجنة من العلماء تحت إشراف فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبي الميoun شيخ علماء الاسكندرية .

أهدى المؤلف الفاضل كتابه هذا لحضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، ووصفه باسمه الكريم ، وهو جدير بأن يحظى بهذه التسمية المباركة . وإني جد معجب بهذه الرسالة لما اشتملت عليه من مناسك الحج بحيث لا يحتاج مقتنيها الى مرجع غيرها ، وجمعت الى ذلك من أوصاف الأماكن المقدسة ، ما يحمل قاليه كانه يشاهد بميزيه تلك المواطن الشريفة ، في بيان شائق ، وشرح موف بالحاجة ، فهو من الكتب البادرة التي يصاحب فيها واصعها التوفيق فنأني فوق ما يرجو أن تكون طيه .

### الى حضرات قراء مجلة الأزهر

هذا العدد تم المجلد الثاني عشر لهذه المجلة . وسيصدر أول عدد من مجلدها الثالث عشر في أول المحرم من سنة ١٣٩١ إن شاء الله . فنرجو حضرات قرائنا أن يذكروا أن نظامنا يقضى علينا بأن لا نرسلها إلا لمن يجدد طلبه لها مصحوبا بقيمة اشتراكها كله أو نصفه ، فنرجوهم أن لا يعتبروا ذلك جفاء منا . وليكن هذا مجزئا عن الكتابة لسكل من حضراتهم خاصة .

## References

---

1. Bosworth Smith "Mohamed and Mohamedanism."
2. "Islam" Her Moral and Spiritual Value" by Major Arthur Olyn Leonard.
3. Crawford's "Indian Archipelago."
4. Rev. J. N. Thoburn, "Report for the Allahabad Missionary Conference."
5. Papers relating to "Her Majesty's Colonial Possessions"
6. Livingstone's "Expedition to the Zambesi."
7. Trench on "Words."
8. Webster's Dictionary.
9. Renan, "Etudes d'Histoire Religieuse"
10. Quarterly Review.
11. George Sale's "Translation of the Koran, Preliminary Discourse."
12. Sir Henry Layard's "Early Travels."
13. Abulfeda.
14. Ed. Pocock.
15. Koran.
16. Eusebius History.
17. Epiphani.
18. Sir William Muir, "The Life of Mohammed."
19. Ibn Athir.
20. Herodotus.
21. D. Herbelot.
22. Al Shahrastani
23. Abul Farag
24. Sayed Amir Aly, "The Spirit of Islam."
25. Ibn Hisham.
26. Hugh's "Dictionary of Islam."
27. Mishkat-ul-Massabeeh.
28. Al Tabari
29. Al Wakidi.
30. Droits Musulman by M. Querry.
31. Caussin de Perceval.
32. Stanley Lane Poole, "Selections from the Koran."
33. Lectures on "Heroes and Heroism," by Thomas Carlyle.
34. Old Testament
35. Al Razi
36. Qadi Ayad's "Al Shifa."
37. Washington Irving, "Life of Mohamet."
38. Dr. Noldeke's Book on Islam.
39. T. W. Arnold's "The Preaching of Islam."
40. The Review of Religions.
41. Al Ohazali.
42. Nawab Sultan Jahan Begum Sahiba, Ruler of Bhopal's "Muslim Home."
43. "Mohammedan Jurisprudence," by Abdul Kader.
44. New Testament.
45. J. Milton's "A Treatise on Christian Doctrines."
46. Holland's Jurisprudence.
47. "Ohunyat el Tahbeeh.
48. Malik's Mowattaa.
49. Fatawi Moughiri.
50. "Personal Law of Mohammedans" by Abdul Kader
51. Bukhari's Commentary
52. Zamakhshari's Commentary of the Koran.
53. Goethe's West-Oestlicher Divan.
54. Peake's Commentary of the Bible.
55. Encyclopaedia Biblica.
56. Rev Dummelow's Commentary.
57. Dr. Ph. Schaff's Companion to the Greek Testament and the English Version
58. Dr. Weymouth's Introduction to St. John's Gospel.
59. Rev. Margoliouth's Introduction to Rodwell's Translation of the Koran.
60. Chambers's Encyclopaedia.

# ERRATA

The reader is kindly requested to make the following corrections before reading :

Wrong	Right	Page	Line
Permitted	permitted	3	12
Bosworle	Bosworth	14	Footnote(5)
prophet	Prophet	17	21
Godesses	Goddesses	20	28
godesaes	goddesses	23	12
querrels	quarrels	24	27
preliminary	preliminary	24	34
where	were	26	27
constallation	constellation	26	34
whom	the males	30	17
so persecution	to persecution	29	21
occured	occurred	33	39
vally	valley	47	16
slin	slant	47	22
mlles	miles	50	27
Drof	Droits	50	footnote
ntroduction	introduction	51	22
idolators	idolaters	52	26
ailoted	ailotted	54	8
Prophe	Prophet	54	32
Koarn	Koran	55	38
prophet	Prophet	56	38
detachment	detachment	58	1
Sunt	Spirit	58	footnote
nor philosopher	nor a philosopher	64	5
hhite	while	66	5
velwing	viewing	69	30
Cod	God	71	
declare	declares	75	36
bath	hath	80	33
spec es	species	88	14
resistence	resistance	89	27
Begam	Begum	94	footnote
Begam	Begum	96	footnote
arbitrations	arbitrators	111	8
to be	be to	136	32
the	the	140	38
excellencies	excellences	152	27
bu	but	157	6
worshiping	worshipping	189	37
textual	textual	199	32
vailed	veiled	207	52
of	of	214	31



The style is excellent. If the book is published I recommend that copies be placed in the School Libraries as it would be read by the European member of the staff with profit.

— 10 —

Translation of a report submitted to H. E. the Minister of Education, Cairo by Professor Qad el Moola Bey, Inspector General of Arabic at the Ministry.

I have gone through this Book, "The Religion of Islam." It embodies authentic illustrations of a good deal of Islamic questions. As such, it serves as a guide to the Religion of Islam. I agree with my colleague, Professor Walker in that copies of the Book be placed in the School Libraries as it will be read by the members of the European Staff with profit.

— 11 —

Extract of a letter addressed to the author by Professor A. H. Sewyer, Professor of English, Faculty of Agriculture, Egyptian University, Cairo.

. . . . .  
It would be a great loss if this book were not published.

There is a great new movement in all Moslem Countries, tending towards the development of character and the substitution of deeds for words. There is, at the same time, a determination to use all the best that the scientific developments of the West have perfected. I therefore, hope that someone equally gifted and devout may write a Companion Volume to bring out the good points of Christianity in the formation of right thinking and action, so that a study of the two may lead to a still better feeling between the followers of the two great Religions, which have done so much to help world development, Islam by its great brotherhood under the One God as expounded by Mohamed, and Christianity by its individualistic responsibility to imitate as far as possible, the life of Christ.

A full and accurate knowledge of each other's aspirations must lead to that good understanding you claim as the goal of your book.

— 8 —

Translation of an Arabic letter addressed to the author by Professor Mohammad Farid Wagdy Chief Editor of the Azhar University's Official Review :

May God's Peace and Blessings be showered upon you !

I have perused your very interesting book "The Religion of Islam." I find it to be one of the best compilations that have ever dealt with this important subject. Your minute and clear exposition of the fundamental and more essential doctrines of Islam are remarkably admirable. The book shows the author to be a great learned scholar, who, meantime, is gifted with such a brilliantly enlightened spirit.

I have no sooner brought up the matter to the notice of His Eminence the Rector of the Azhar University asking his authorisation to insert the Book in monthly instalments in the University's Official Organ, Al Azhar Review. I am glad to state that His Eminence is so pleased to give his acceptance. Hence my letter to you, begging you will kindly let me know if you have no objection to the project being carried out as soon as possible. . . . .

Again, I invoke upon you Almighty God's Peace and Blessings.

— 9 —

Extracts of a Report submitted to H. E. the Minister of Education, Cairo by Professor J. Walker of the Ministry :

The book is a work of considerable literary merit.

I have, with very great interest, read the manuscript of the "Religion of Islam and the life of the Prophet Mohammed."

I should say : that as a devout follower and believer in the Koran and the source of its inspiration, the Prophet Mohammed, you have in this treatise set forth such an interpretation of it as shall make more easily understood the fundamentals of this Prophet's teaching.

A fine charitable spirit, accompanied by lucid expression and diction, pervades the whole text.

— 6 —

Copy of a letter from Mr. Hermann Besser, Orientalist, Cairo :

I have just finished the reading of your book and I should like to express to you the deep impression its perusal has made upon me. As one, to whom the study of Eastern religions has been a matter of great attraction during more than forty years and to whom the various works on the Prophet and his Mission are not altogether unknown, I will say that I have never seen this great subject treated with more sincerity, dispassionateness, lucidity, fairness and, at the same time, with a nobler conviction of the truth of the author's own faith, that the work could not have been better described than that of a True Moslem.

As such, it should be of inestimable value to all searchers after Truth throughout the world, and this particularly in an age when materialism threatens to discredit and overcome, in the minds of mankind, those "Things That Really Matter."

That a book of this nature cannot but call forth criticism and opposition from the part of orthodox adherents of other creeds is certain, but as long as these follow the example of tolerance set in your book and no other can matter, the great value of your book and its leading idea of helping men forward, however little, in the way of right understanding, will, I truly believe be, in no wise, affected.

— 7 —

Copy of a letter from Colonel A. S. John Cooks, of London :

I have read your book with great interest. I am fully alive to the need of a better understanding by the Christian Nations of the basic facts of the Islamic Religion and I wish your book every success in consequence.

Many of the English speaking races will, I feel sure, welcome the opportunity to read a book which gives such a restrained and well balanced account of the teaching of Islam.

In your book you have collated and compiled in a most interesting manner the relevant facts about Mohammedanism. The person of Mohamed must always be a subject of great interest and the gathering of so much information between two covers forms most illuminating reading.

While many readers may have a general idea as to the teaching of Islam, this book presents an opportunity to authenticate their knowledge and appreciate the religious attitude of present day Moslems, on such matters as polygamy, status of women etc.

The prevailing tendency of the world is to judge a religion by its followers instead of first enquiring what the religion taught by the founder was. I think the present book will do much to present the teaching of the Prophet Mohamed in a reasonable and enlightened manner to all who by inclination or circumstance come in contact with his followers and read it.

I must congratulate you on the excellence of the diction and the general tone of moderation which pervades the book.

— 4 —

Copy of a letter from Professor Gerald Brackenbury of the Higher Training College, Ministry of Education Cairo :

I have read Ahmed Galwash's book on Islam with the greatest interest. It presents the case for Islam in a very striking way, and shows a deep knowledge of the Higher Criticism of the Bible and of the most recent arguments used by the chief Anglican Divines against the literal inspiration of the Scriptures. By his quotations from Christian writers he shows himself independent of mere prejudice.

It is important in these days of free thought for all liberal-minded Christians to escape from their prejudices inherited from the Crusades and to learn the spirit of Islam as it exists in the mind of a devout Moslem.

I hope the book will be published and will have the success it deserves. The mastery of English shown is remarkable.

— 5 —

Copy of a letter from Dr. H. E. Morton Howell, Minister and Plenipotentiary of the United States of America to Egypt :

V.

## **Comments, Reports and Letters on the Book.**

— 1 —

**A letter from Mr. William M. Johnson (Pussyfoot) of the U.S.A :**

I was much interested in the manuscript of your book. I read it far into the night and got a pretty good idea of its contents.

In regards to your remarks on plain speaking in your preface, I could not find anything in the book that need offend the most sensitive

It is, of course, and properly so, written from the Moslem standpoint, and I should like to see it, published. I would like to have Christians generally read it, for it would give them a new conception of what Islam really is . . . . .

If there is anything that I could do in London to promote the project of publishing the book I would be glad indeed to do so

— 2 —

**Extracts of a letter from Mr. E. V. Finbert, editor of the worthy review "Les Messages d'Orient," Paris :**

Many of our friends who are specialised in religious problems are delighted with the substantial documentation and specially with the fervour and sincerity of your writing. I would ask you to send me as soon as possible the manuscript which I already had the pleasure to read with the greatest interest. I would start translating it into French and have it published in our collection of modern eastern works . . . .

I am always with you in spirit and communion of what constitutes the highest of life.

— 3 —

**Copy of a letter from Major T. H. Stern, Adviser, Irrigation Office, Alexandria, Egypt :**

I have read your book "The Religion of Islam" with much interest and feel that the objects set forth in the preface have been very ably pursued.

Information about the religion which numbers such a vast proportion of the world's inhabitants amongst its adherents cannot but be of very real value.

	Page
The Prophetic Nature . . .	
Body and Soul Will Be	202
Raised after Death . . .	to
Signs of the Approach of	205
Resurrection, . . .	
The Day of Reckoning. . .	
Felicity of the Righteous and	
Pains of the Wicked . . .	207
6. Predestination. . . . .	208
Five Points Discussed :	
a) Man's Destiny is Deter-	
mined by Divine Pur-	
pose . . . . .	

	Page
b) Individual Account-	
ability . . . . .	
c) Use of Divine Com-	
mandments, Prohibi-	208
tions and Rewards . . .	to
d) Bad Acts of Men and	215
the Doctrine of Pre-	
destination . . . . .	
e) Sin and Infidelity in the	
Sight of God. . . . .	
Freedom of Human Will . . .	217
Comments, Reports and	
Letters on the Book. . . . .	IV-VIII
References . . . . .	IX

	Page		Page
Section II Devotions . . . . .	127	Gospels . . . . .	157
Section III Transactions . . . . .	127	(1) St. Luke's Gospel . . . . .	158
Section IV Moralities . . . . .	128	(2) The Gospel of St. Mat-	
Section V Punishments . . . . .	128	hew and that of St. Mark . . . . .	160
Digest of the Mohammadan		(3) The Four Gospels . . . . .	161
Creed . . . . .	128	(4) St. John's Gospel . . . . .	163
(1) Belief in God . . . . .	129	Some Important Discrepancies . . . . .	194
What God is not . . . . .	129	Interpolations . . . . .	165
God's Life and Power . . . . .	130	Ascension . . . . .	166
God's Knowledge . . . . .	130	The Koran . . . . .	168
God's Will . . . . .	131	The Koranic Conception of	
God's Hearing and Sight . . . . .	131	Man . . . . .	171
God's Word . . . . .	131	The Frailties of the Human	
God's Works . . . . .	132	Nature . . . . .	174
The Unity of God . . . . .	133	The Koran and the Doctrine	
Proofs of His Existence . . . . .	133	of Personal Holiness . . . . .	176
God's Omnipresence . . . . .	134	(4) Belief in the Apostles of	
God's Omnipotence . . . . .	134	God . . . . .	178
Creator of All Things . . . . .	135	Jesus Promised to Mary . . . . .	180
Perfect in His Works . . . . .	135	Birth of Jesus . . . . .	181
The Light of Heaven and		One of the Miracles of Jesus . . . . .	182
Earth . . . . .	135	The Mission of Jesus . . . . .	183
Provides for All . . . . .	136	Jesus not Crucified . . . . .	183
His Words are Countless . . . . .	136	Jesus and the Divinity . . . . .	184
Has no Offspring . . . . .	136	The Trinity Condemned . . . . .	184
Created All Beings to		Contradictory Teachings of	
Adore Him . . . . .	137	Christianity from Moslem's	
How He Speaketh with		Point of View . . . . .	186
Man . . . . .	137	The Godhead of Jesus Con-	
God is Creator of Good		demned by Islam . . . . .	187
and Evil Deeds, and Yet		What Jesus Says About Him-	
Good is from Him, but		self in Relation to his Al-	
Evil is from Man in Con-		leged Divinity . . . . .	189
sequence of his Ignor-		Priestcraft and Islam . . . . .	191
ance and Disobedience . . . . .	137	Supposed Divinity of Jesus . . . . .	192
Omniscient and Omnipotent . . . . .	138	Canon Barnes on the Old	
All-Seeing but Unseen . . . . .	138	Testament . . . . .	193
The Existence of God . . . . .	138	Was Christ Divine ? . . . . .	194
(2) Belief in the Angels of		Biblical Prophecies as Refer-	
God . . . . .	146	ring to the Advent of the	
(3) Belief in the Scriptures		Prophet Mohammad . . . . .	195
of God . . . . .	147	(5) Belief in the Resurrection . . . . .	200
Islam and the Four	157	How the Mind of an Infant	
		Is Developed . . . . .	201

# CONTENTS

	Page		Page
Preface . . . . .	1	Prophet . . . . .	78
Introduction . . . . .	5	XII. The Political Organisation Wrought by the Advent of Islam . . . . .	78
<b>Book I.</b>		XIII. The Political System of Islam . . . . .	79
History of the Arabs.		XIV. The Social Organisation of Islam . . . . .	81
I. A Summary . . . . .	16	XV. Refutation of Certain False Charges by prejudiced Writers against Islam . . . . .	83
II. Their Religion . . . . .	19	1. "Force and Compulsion were not employed for the Dissemination of Islam" . . . . .	83
III. Their Character and Manners . . . . .	23	2. Mohammadanism is not a Religion of Sex-Indulgence." . . . .	87
IV. Their Accomplishments . . . . .	23	3. Islam and Polygamy . . . . .	90
V. The Branches of knowledge Cultivated by the Arabs. before Islam . . . . .	26	XVI. The Status of Women in Islam . . . . .	97
VI. The City of Mecca . . . . .	27	1. The Object of marriage . . . . .	102
<b>Book II.</b>		2. Marriage and Divorce . . . . .	103
The Life of Prophet Mohammad		3. The Guardian and the Consent of the Bride . . . . .	105
I. Birth and Early Years . . . . .	28	4. The Inequality of the Two Sexes with Regard to Divorce. . . . .	105
II. The Beginning of Mohammadan Revelation . . . . .	31	5. Limitations of Divorce . . . . .	107
III. Mohammad's Mission . . . . .	33	6. Islam's Suggestions for Reconciliation . . . . .	109
IV. The Arabs Sacred Idols . . . . .	39	7. The Form of Separation — A Check on Separation . . . . .	113
V. The Prophet at Medina . . . . .	45	8. "Kholaa" Divorce . . . . .	116
VI. The Peace of Hudeibiya . . . . .	52	9. Female Seclusion . . . . .	120
VII. The Conquest of Mecca . . . . .	54	<b>Book III.</b>	
VIII. The Person and Character of the Prophet Mohammad . . . . .	65	Exposition of the Religion of Islam	
IX. The Real Motives of the Prophet . . . . .	74	Section I Beliefs . . . . .	
X. Attacks of Christian Divines against the Private Character of the Prophet . . . . .	76	127	
XI. The Social Changes Brought about by the			



him master of himself, and dignifies and exalts him among the creatures of God. Gifts of all other sorts are nothing, to compare with it. If we had not the power to rule our own actions by our own will, we should be infinitely poorer in moral worth than we are now. Therefore man should be anxious to be dignified in this respect, but the Holy Koran, in the above verse, asserts, that man is unjust and ignorant in this connection. He is unjust, in that he abuses his moral freedom, in choosing to do wrongful deeds, instead of righteous ones. And he is ignorant, in that he gives no heed to the consequences of his choice, because doing what we know that we ought to do, is not only for the good of the world, but likewise, and far more, for the good of ourselves. We derive infinitely more benefit from our own performance of an act of uprightness, and infinitely more harm from an act of wrong, than the good we bestow, or the harm we inflict. The good or ill we do, goes deeply into our nature—refines or coarses it, lifts or lowers it, and is either inspiring or deadening to all that is best in soul and mind. Few men reach old age without saying sadly, "Oh, that I could live my life again," because, time has shown them their youth for a different development of themselves and a different shaping of their lives. In this connection the Holy Koran says :

"Say, O, my worshippers, who have transgressed against your own souls, despair not of the mercy of God : seeing that God forgiveth all sins : for He is Gracious and Merciful. And be turned unto your Lord, and resign yourselves unto Him, before the punishment comes suddenly upon you, and ye perceive not (the approach thereof) ; when a soul shall say, 'Alas, for that I have been negligent in my duty towards God ; verily, I have been one of the scorers,' or say : 'If God had directed me, verily, I had been one of the pious', or say, when it seeth the prepared punishment : '*If I could return once more into the world, I would become one of the righteous.*' But God shall answer '*My signs came unto thee heretofore, and thou didst charge them with falsehood, and wast puffed up with pride ; and thou becamest one of the unbelievers.*'" (Koran, ch. XXXIX.)

#### Conclusion :

In brief, it is reasonable, as well as it is universally religious, to believe, that nothing whatsoever, be it a circumstance, an action or a thought, can take place against the will of God. Again, nothing can happen in the world, either as proceeding from a human being, an animal or a thing, which God had not, from eternity, known and willed it to be. By "will" is here meant the proper acceptation of the Word, namely, the decree, the determination, and not the desire or inclination.

There is nothing contradictory, in holding the belief in absolute predestination and the belief in self responsibility.

END OF VOLUME ONE

fortune and prosperity be his luck, he is not to put distrust in abundance and plenty, and so forget his duties towards his Maker, Sustainer and Nourisher. He is warned by revelation, not to make these very blessings of God a pretext for encroachment upon the rights of others, and thus change them into a curse for himself.

With regard to freedom of human will, the Holy Prophet of Islam has positively declared man's undisputed right, to make a choice between good and evil. Again and again, in the Holy Koran, this point has been emphasized, lest man should forget his own responsibility for his conduct. Indeed, the whole trend of Koranic ethics points in this direction. "Say, the Truth is from your Lord, whosoever may wish, he may believe; and whosoever may wish, he may disbelieve," says the Holy Koran. God has moreover pointed out to man the right path, and ordered him to follow it, and the wrong one and warned him against taking it. In this respect the Koran says: "Verily, we have shown to man the right path; he may be grateful or ungrateful," meaning there is no compulsion, on the part of God, felt by man to bear upon him to adopt this course or that. Again we read: "Verily this is a reminder to all people; for those of you who wish to take the right course." Here too, man has been let alone in the matter of selection. Further on: "It is for God only, to furnish strong proof, and if He so pleased (to influence man) He would have guided you all." This means, that Almighty God has chosen to let each man feel, that he is a free agent who acts under an intelligent free will. Denial of interference cannot be made in clearer terms. If God were so pleased, as to enforce His own desire upon man, by depriving him of his personal moral freedom, He would not have let a single man go astray. "If God were pleased, He would have brought together the whole of humanity into one and the same path," namely, the path of righteousness. But He has so ordained that He made man to feel that there is no compulsion brought to bear upon him, to incline him this way or that. Man is absolutely conscious of being master of himself and the organiser of his own career. He is given power, by which he can accomplish his own desires, in virtue of the moral freedom which he enjoys. However, according to Islam, the power of self-government, with which we are endowed, is a trust, and not a free gift. It not only entrusts our own destiny to ourselves, but it actually trusts, or seems to trust, the whole final outcome of God's creative work to our treatment of it. This earth, at least, is put into our hands, to make what we will of it and of ourselves, its inhabitants, To this effect, the Holy Koran says: "We have proposed the trust unto the heavens and the earth and the mountains, and they refused to undertake the same, and were afraid to undertake it; but man undertook it, (yet) he is verily unjust and ignorant." This means, that of all God's creations man alone accepted the trust of moral freedom which makes

only with Him, Man's duty is, to spare no effort in observing the injunctions of his Maker, and then he is quite safe.

Prosperity and plenty often tempt man, to turn away from God. Touching this point, the Holy Koran says : "O believers, let not your children make you forget your God." Man makes use frequently of these blessings of God, as a means to encroach upon the rights of others, or as an encouragement to neglect his devotional duties towards God. Therefore the Holy Book wishes it to be remembered, that temptation lies hidden under the enjoyment of wealth and offspring.

Even as man is liable to temptation by abundant prosperity, so is he apt to be retarded from the fulfilment of his duties by misfortunes. However, having perfect faith in predestination, a true believer will not forget, that what happens, good or bad, has been predetermined and decreed by God, and that the inevitable must come to pass, in spite of human efforts to the contrary. Therefore he is bound to submit himself cheerfully and resignedly to all trials. Referring to this, the Holy Koran says "And We will most certainly try you with fear and hunger, and loss of property and life and blessings, (therefore, O Prophet) give good tidings to the patient who, when misfortune befalls them, say : Verily, we belong to God, and to Him we shall verily return. Those (the patient) are they, on whom blessings and mercy from their Lord (will descend), and those are the followers of the right course." Thus Islam teaches, that misfortunes serve as good tidings, and as fore-runners of heavenly blessings. And with a heart full of faith in predestination, a true believer cheerfully submits to hardships and trials. Those having a submissive frame of mind under adverse circumstances, "On them," says the Holy Koran, "descend the blessings of God." With Islam, a calamity is a mercy in disguise. Alive to the purpose of divine will, a believing Moslem resigns himself with a cheerful heart to his fate. It is God who alone governs the universe and disposes thereof, according to His eternal and irrevocable Will. One of the comfort-giving verses of the Koran read as follows : "Say : O God, Who art the Owner or the Kingdom : Thou givest authority, to whom Thou wilt, and Thou takest away authority, from whom Thou wilt : Thou exaltest whom Thou wilt and Thou humblest whom Thou wilt : in Thy hand is all the good, and Thou art Omnipotent. Thou makest the night to enter into the day, and Thou makest the day to enter into the night. (Thou) bringest forth the living out of the dead, and (Thou) bringest forth the dead out of the living, and (Thou) providest sustenance, to whom Thou wilt, and even so without limit." Thus, under conditions of hardship and misfortune, a true believer will not neglect his duties towards God. With the utterance of his noted formula, "To God we belong, and to Him shall we return," he submits to adversity, and goes on with his duties uninterrupted. On the other hand, if good

actions. The Islamic doctrine of predestination may be reduced to two distinct beliefs :

(1) that God has determined the destiny of man, not only according to the foreknown character of those whose fate is so determined, but also according to God's own will. There is no dispute on this point between divines of all creeds. Judaism, Orthodox Christianity and Islam, all not only agree and acquiesce in this, but they unreservedly admit it, and emphatically declare any possible notion to the contrary to be blasphemy.<sup>1</sup>

(2) that man is directly responsible for his own actions, so long as he is master of his free choice. As man is certainly sensible, that he is morally a free agent, he is accountable for all actions affected by his volitional power. In the Koran we read, that God does not saddle a man with responsibility beyond his capacity to bear it. There is a vast sphere of human activity, where man's apparent will enjoys freedom of control and direction. Consequently, a man is held responsible, by religion, for the right or wrong exercise of his faculties. It is, therefore, a matter of the deepest concern to man, to ascertain the rules and regulations which should guide his conduct in that connection. To supply this need, the All Merciful God has endowed man with intellect, and revelation. By the help of intellect man endeavours to work out his moral and spiritual evolution in all his dealings with his Creator and his fellow creatures. But man's obligation towards God and man, surely involve complications, too delicate for unaided human reason. The result of an intellectual error might be the violation of human or divine laws. Hence, the absolute necessity of direct guidance and laws from God to make up for the frailties of reason, and to enlighten man, as to how he ought to regulate his relations with his Maker, as well as with his fellowmen. In obedience to these laws, man can carry out his duties, and attain what is best in life. Laws relating to human life, have been summed up in the following verse of the Holy Koran "Surely God orders justice and good works (to all), and (orders) kindness to relation, and He condemns indecency, illicit deeds, and all wrong. He admonishes you, that you may be mindful."

With regard to man's guidance as to his relation to God, the Holy Koran tells us : "Say my prayers, my sacrifice my life, my death, is for God, the Lord of the worlds Who has no partner with Him. This I have been ordered, and am the first to submit." In carrying out his duties in life, man must not lose sight of God's ordinances, and of what He desires of him, so that he should in no way satisfy himself or his fellow creatures, by disobeying the Universal Cherisher of all, the Creator of all.

Through his faith in predestination, man can behave faithfully and righteously, since he is confident, that all power, help and sustenance lie

---

(1) See Molesworth's and Chamber's Cyclopaedias, Art. Predestination.

predestination. In fact, belief and faith in divine predestination can neither necessitate denial of human consciousness of freedom of will, nor eliminate the factor of individual responsibility from human conduct. So long as man is conscious of personal freedom of will, choice and action within himself, the sense of individual accountability which is the mainspring of moral life, always remains untouched. The said belief, therefore, should neither interfere with man's enthusiasm for progress, nor deprive him from freedom of will, which faculty he is, undoubtedly, conscious of enjoying.

To believe in heart, as an orthodox Jew, Christian or Moslem is bound to, that whatsoever one had to do, right or wrong, whatsoever has befallen one, the minutest movement of man, and the meanest event of his life, has been irrevocably predestined by God from eternity ; and that no amount of effort to the contrary can alter the course of events, predestined by the absolute divine authority. Such a purely religious dogma can, on no account, interfere with any amount of human morality. The doctrine of predestination does not imply denial of man's freedom of will and action. Each component part of man is bound by religion, to fulfil some function : the heart and conscience, to believe in God, His attributes and His predestination ; the other external members of man, to work, each according to its respective faculty and aptitude, as recommended by the law. Now, if the heart fulfils its proper function, namely : to believe that nothing whatsoever that has happened, or will happen, in the universe, is contrary to the will of God, the function of no other member is necessarily offended or retarded, as it cannot be suggested, that, under such a religious belief in God and His divine attributes, the eyes shall be prevented from seeing, the ears from hearing, the feet from walking, the tongue from speaking, or any other part of man, from the proper discharge of its respective duty.

Therefore, it is quite unfair and illogic for anyone to claim, that faith in predestination, as required by orthodox religion, tends to damp all enthusiasm for progress. Such a claim might be reasonably admitted, only if a man were given accurate foreknowledge of his fate and destiny. If he knew, for instance, from the beginning, that he was doomed to perdition, he might, very naturally, make no effort to resist his destiny, and no attempt at progress or seeing that he was predestined to salvation, he might make no effort to deserve it. Man, having no foreknowledge whatsoever of his own destiny, his duty lies absolutely in adherence to the law. As far as man's intelligent free action is concerned, he has nothing more to do with the eternal decrees of God, than to have perfect faith in them.

Reason and logic, both dictate to man the belief in God, the One, the sole Creator, the absolute Disposer. In like manner, as a cultivator cannot rightly claim to be the creator of his own harvest, so it is the case with man : he cannot rightly claim to be independently the originator of his own

tyrannise, to ascribe plurality to God, or to rob is to render obedience to Him, which obviously enough, is not the case.

(5) If infidelity and sin are decreed by God, it follows that God is in favour of sin and infidelity, but to speak thus of God is blasphemy.

I will answer these questions as briefly as possible, not from a philosophical point of view, but from a strictly religious aspect, this book being devoted exclusively to matters of purely religious nature.

The apparent contradiction involved in the doctrine of predestination, may be reasonably solved by considering, that man is not acquainted, in this life with anything of what has been predestined for him by the Almighty God. Therefore, it cannot be suggested, that under the doctrine of predestination, man's personal freedom of choice and action is affected in any way. Man is so created by All Powerful God, that he is sensible of a personal free will, choice and action, so that belief in predestination by no means interferes with his moral freedom. To speak of man as a free agent, we mean that he is not withheld from action by any external cause, that, morally, he is neither a prisoner, nor a slave, nor paralysed, nor otherwise disabled. Next, we may apply the term "free" to the eternal or psychological decision; which he is externally free to carry out. In this sense, the freedom of an action evidently consists in the fact, that the action proceeds from the intelligent choice of the agent, and such choice is plainly and strongly contrasted with the mechanical determination which exists in the physical world.

As God's predestination is altogether a secret to man, human beings are in all ages, made acquainted, through God's prophets, with what duties they should perform, and what prohibitions they must respect, so that no act of disobedience, on the part of man, can be justified on the plea of ignorance of what he ought or ought not to do, or on the plea, that man was actuated to disobey or to sin, by divine decree. Man is not cognisant of anything he was predestined to do, whether it be good or bad, until he has committed it, by his own choice and own freedom of will, of which he was quite conscious. It is then, and only then, that a man realises, that his act was predestined. On the other hand, God's predestination has ever been associated with divine foreknowledge of all human character and conditions. As the Almighty God predestined a man to sin, He, at the same time, foreknew that that man would commit the sinful deed, while acting by his own free and intelligent choice. A sinful man can on no account shun the moral responsibility for his deeds, on the plea of having acted upon irrevocable divine predestination, of which he was totally ignorant. Being absolutely conscious of a personal freedom of will and action, an evil doer cannot reasonably justify his action by referring to

happen in the world, whether it respects the conditions and operations of things, or good or evil, or obedience or disobedience, or sickness or health, or riches or poverty, or life or death, which is not contained in the written tablet of the decrees of God. But God hath so decreed, good works, obedience, and faith, that He ordains and wills them, that they may be under His decree, His salutary direction, His good pleasure and command. On the other hand, God hath decreed and does ordain and determine evil, disobedience and infidelity ; yet without His salutary direction, good pleasure and command ; but only by way of temptation and trial. Whosoever shall say, that God hath not indignation against evil and unbelief, he is certainly an infidel."

The doctrine of predestination, or the absolute decree, of event, both good and evil, is a recognised element in many creeds.<sup>1</sup> This doctrine has given rise to as much controversy among the Moslems, as it did among Christians ; but the former, generally, believe in predestination, as being in some respects, conditional<sup>2</sup>.

Five points, however, arise from the doctrine of predestination, as given in detail in the following formula :

(1) If the destiny of man is determined by the divine purpose, how can we explain man's freedom of choice. Man is absolutely conscious of personal freedom of action, which it is impossible to deny

(2) If man is affected, in all his actions, by eternal predestination, what then is the meaning of human conduct, and the individual accountability which is the mainspring of moral life ?

(3) If what is to be, must be, with the overruling and irrevocable Decree of God, what is the use of divine commands and prohibitions ; rewards and punishments ; promises and threats, and after all, what is the use of Prophets, Books etc.

(4) Some acts of man are bad, such as tyranny, polytheism, robbery, etc. If these are predestined and predetermined by God, it follows, that to

---

(1) We read the following statement in Chamber's Cyclopædia .—

"The doctrine of predestination is explicitly enunciated in Rom. 8 29f 9, 10, 11, and Eph. 1 4f, 11, and it is a recognised element in many creeds (e.g. Conf of Faith, III ; Church of England Articles, XVII.) We further read in the work The Apostle Paul was doubtless aware of inconsistency for it was a crux of Jewish theology (see Ederstein's Jesus the Messiah, I . 316 ff) , but the Apostle was accustomed, to isolate any particular doctrine, as occasion required, without being careful, to reconcile it with the real or apparent antithesis. (See Chamber's Cyc. Art. Predestination.)

(2) See, "The manners and customs of the Modern Egyptians," by Ed. Lane p. 69.

unto those of the people of hell." Hearing the above teaching of the Prophet, a man said to him : "Of what use will deeds of any kind be ?" The Prophet said : "When God createth His servant for Paradise, his actions will be deserving of it, until he die, when he will enter therein ; and when God createth one for the fire, his actions will be like those of the people of hell, till he die, when he will enter therein."

The Prophet of God also said to his companions :

"There is no one amongst you whose place is not predestined by God, whether in hell or in paradise." The companions said, 'O Prophet of God, since God hath pre-appointed our places, may we confide in this belief, and abandon our religious and moral duties ?' He said : 'No, because the righteous will do good works (and be obedient to God), and the wicked will do bad works' : after which the Prophet recited the following verses of the Koran : "To him who giveth alms, and feareth God, and yields assent to the excellent creed, to him will we make easy the path to happiness. But to him who is worldly, and is indifferent, and who does not believe in the excellent creed, to him we will make easy the path to misery."

The Prophet of God also said : "The first thing which God created, was a (divine) pen, and He said to it, 'Write', it said, 'What shall I write ?' And God said 'Write down the fate of every individual thing to be created,' and accordingly the Pen wrote all that was, and that will be, to eternity."

The Prophet also said : "God hath predestined five things to his servants ; their duration of life, their actions, their dwelling places, their travels and their portions."

It happened, that one of the companions said to the Prophet : "O Prophet of God, inform me respecting the medicines which I swallow, and the shields which I make use of for protection, whether they can resist any of the decrees of God ?" The Prophet answered : "These also are by the decree of God."

The Prophet of God once came out of his house, when the companions were debating about fate, and he was angry, and became red in the face. And he said, "Hath God ordered you to debate of fate ? Was I sent to you for this ? Your forefathers were undone through debating about fate and destiny. I conjure you not to argue on those points."

The doctrine of predestination, as forming an essential part of the Mohammadan orthodox faith, may be summarised in the following terms :

"A Moslem should believe in his heart, and confess with his tongue, that the most exalted God hath decreed all things ; so that nothing can



will perish, like those of brutes, and will not be rewarded in the next life. Commenting on this false charge, Mr Q.Sale made the following pertinent observation :

"... it is certain that Mohammad had too great a respect for the fair sex, to teach such a doctrine ; and there are several passages in the Koran which affirm, that women, in the next life, will not only be punished for their evil actions, but will also receive the rewards of their good deeds, as well as the men, and that in this case God will make no distinction of sexes <sup>1</sup>."

## 6. Predestination

The sixth pillar of the Mohammadan faith is the belief in predestination. Whatever has, or shall, come to pass in this world, whether it be good or evil, proceeds entirely from the divine Will, and has been irrevocably created after a fixed decree. The Koran distinctly states :

"All things have been created after a fixed decree." (ch.IV : 49)

"No one can die, except by God's purpose, according to the book that fixeth the term of life." (ch. III : 139)

"The Lord hath created and balanced all things, and hath fixed their destinies and guided them." (ch. XXXV ii : 2)

"Say : By no means can aught befall us, but what God hath predestined for us." (ch. IX : 51)

"God creates what He will." (ch. XXIV : 44)

"... nor is there any thing not provided beforehand by Us, or which We send down, otherwise than according to a foreknown decree" (ch. XXII : 40).

"... and Who created all things, and determined respecting the same, with absolute determination." (ch. XXV : 2)

The following are also a few sayings of the Holy Prophet, bearing on God's predetermination :—

"... and God said to Adam : 'I have created this family for paradise, and their actions will be like unto those of the people of paradise' and God said to him : 'I have created this family for hell and their actions will be like

---

(1) Q. Sale , Prelim. Disc.

Belief in this bridge is essential, to complete the article of creed of the Day of Resurrection.

The infidels alone shall be doomed to eternal damnation. Those who have embraced the true religion of God, even if they have been guilty of atrocious crimes, shall be delivered from hell, after they have expiated their sins by their sufferings. The orthodox doctrine of the Moslem Religion is, that no infidel who denied the existence of God, or anyone who did not believe in the unity of God, shall ever be redeemed; but no person who has believed in the existence and unity of God, shall be condemned to eternal punishment.

As to whether paradise and hell are already existent, or are to be created hereafter, the orthodox doctrine of Islam is, that they were created even before the world

The felicity of the righteous in paradise, and the pains of the wicked in hell, will vary in degree, according to their merits or demerits, respectively. The happiness and felicity of the dwellers of paradise, on the one hand, and the anguish and pains of the inhabitants of hell, on the other, are according to the orthodox doctrine, sensuous and material, both body and soul being entitled or subject to them, respectively. But, the most happy will find the joy of joys, to consist in the beatific visions of the soul in the presence of God. The Prophet said : "The most favoured of God will be he who shall see the face (the glory) of his Lord, night and morning, a felicity which will surpass all the pleasures of the body, as the ocean surpasses a drop of sweat." The reward of virtue will not be confined to an exact measure of man's good works ; it will far exceed his deserts. But the recompense of evil will be strictly proportioned to what a man has done. "They who do right, shall receive a most excellent reward, and a superabundant addition, neither darkness nor shame shall cover their faces : these shall be the inhabitants of paradise ; they shall continue therein for ever. But they who commit evil, shall receive the reward of evil, equal thereunto, and they shall be covered with shame, as though their faces were veiled with pieces of nights of profound darkness<sup>1</sup>."

The foregoing is all that is incumbent upon a true Moslem to believe, concerning the Day of Resurrection.

Finally I must, before quitting this chapter, refute a falsehood of vulgar imputation on Mohammadans who are reported, by some Christian writers, to believe, that women have no souls, or, if they have, that they

---

(1) Koran, ch. x.

their respective owners. God will command the various Apostles, to bear witness against those, to whom they have been respectively sent. Then every person will be examined concerning his actions in this life; not, as if God needed any information in this respect, but to oblige the person, to make public confession and acknowledgement of God's justice

The next event to take place after the resurrection is over, is the ordeal of the resurrection balance, wherein the weights of all men's actions shall be weighed. According as the good or evil actions shall preponderate, sentence will be given; those whose balances are laden with good works, will be saved; but those whose balances are light, will be condemned. Belief in this balance also forms an essential part of the fifth article of Faith<sup>1</sup>.

The above examination being past, and every one's actions weighed in a just balance, mutual retaliation will follow, according to which all persons will have satisfaction for the injuries they suffered. The manner of giving this satisfaction, will be by taking away a proportionate part of the good works of him who did the injury, and adding it to those of him who suffered. If, after this is done, there remains of a person's good works as much as equals the weight of an ant, God will, of His mercy, cause it to be doubled to him, that he may be admitted to Paradise. But if, on the contrary, a person's good works be exhausted, and there remain evil works only, and there be any who have not yet received satisfaction from him, God will, of his justice, order, that an equal weight of their sins be added to his, that he may be punished for them in their stead, and be sent to hell, laden with both. This will be the method of dealing with mankind.

As to brutes, after they have been punished for the injuries which they caused each other, God will command them, to be turned into dust. Wicked men, being reserved for more grievous punishment in hell, they shall cry out, on hearing this sentence pronounced on the brutes<sup>1</sup>: Would to God, that we were dust also."

After the trial is over, those who are to be admitted into paradise, as well as those destined to hell, shall have to pass to their respective abodes, over a bridge, laid over the midst of hell. This bridge is so wonderfully fashioned, that the good shall cross with ease and swiftness to paradise, while the infidels and the wicked shall miss their footing, and fall down headlong into hell.

---

(1) "The old Jewish writers make mention as well of the books to be produced at the last day, wherein men's actions are registered, as of the balance, wherein they shall be weighed, and the Scriptures themselves seem to have given the first notion of both."

At the second blast, all creatures in heaven and earth shall die, or be annihilated, except those whom God shall please to exempt from that common fate. The last to die will be the angel of death. Forty years of rain will follow, when the third blast is sounded, and all dead bodies shall be raised for judgment. The resurrection will be general, and extend to all creatures, angels, genii, men and animals<sup>1</sup>.

Mankind shall then be assembled for reckoning. The ungodly and the wicked will appear, on that day, with certain distinguishing marks fixed on them. These will come under ten headings namely (a) the backbiters, (b) they who have been greedy of filthy lucre, and who have enriched themselves by public oppression (c) the usurers (d) unjust judges (e) they who exult in their own works (f) the learned men or preachers whose actions contradicted their sayings (g) they who have injured their neighbours (h) the false accusers and informers (i) they who have indulged their passions and voluptuous appetites (j) the proud and the arrogant people.

The first men to be sentenced to hell fire, will be the hypocrites who deceived people, by pretending to do good works for the sake of God, though they did them only in order, that their fellow-men might extol their actions.

As already stated, the object of Resurrection is, that they who are so raised, may give an account of their actions, and receive the reward thereof. It is to be believed, that not only mankind, but the genii and irrational animals also, will be judged on the last day: the unarmed cattle shall take vengeance on the horned, till entire satisfaction be given to the injured.

As to mankind, they are all assembled together. They will not be immediately brought to judgment. They have to wait for that purpose a long time. During this period of waiting, the resuscitated shall suffer greatly, both the just and unjust, but the sufferings of the former shall be light in comparison. Men shall resort to their respective prophets for intercession, that they may be redeemed from that painful situation, and be called upon for trial. Eventually the Prophet Mohammad shall accept the office of intercession, after it has been declined by Adam, Noah, Abraham and Jesus, who shall beg deliverance only for their own souls. Belief in the Prophet's intercession is enjoined upon Moslems, as part of the fifth article of faith.

The above intercession accepted, men shall be ordered, to appear for judgment. On this occasion, the books, wherein the actions of every person have been recorded by their guardian angels, will be distributed to

---

(1) Koran, Ch. lxxxv.

- (1) The decay of faith among men ;
- (2) The advancing of the meanest persons to positions of dignity ;
- (3) Miskat-el-Massabih, by which is probably meant, that towards the end of the world, men shall be much given to sensuality ,
- (4) Tumults and seditions ;
- (5) A war with the Romans ;
- (6) Great distress in the world, so that a man, when he passes by another's grave, shall say : "Would to God, I were in his place."

(7) The appearance of an extraordinary beast which shall be able, by God's power, to speak to men. This sign of the approach of the resurrection is mentioned in the 84th chapter of the Koran.

- (8) The buildings of Yathrib (Medina) shall reach Mecca etc

These are the lesser signs, the greater signs being . —

- (1) The sun's rising in the west.
- (2) The advent of Antichrist or the false Christ by whom people shall be tempted. He will do many apparent wonders and perform false miracles, sufficient to make people mistake him for the true Christ and, consequently they shall perish through their mistake.
- (3) The descent of Jesus on earth. He shall kill Antichrist, and there shall be under him great security and plenty in the world.
- (4) The appearance of Gog and Magog. These barbarians will come to Jerusalem and there, greatly distress Jesus and his companions, till at the request of Jesus, God will destroy them.
- (5) The advent of Al Mahdi. The Prophet said . "The world should not have an end, till one of his family should govern the Arabians, whose name should be the same as his own name and whose father's name, should be also the same as his own father's name ; and who should fill the world with righteousness."

These are some of the greater signs which, according to the prophecies of the Apostle of God, are to precede the Day of Resurrection ; but the exact time of it is a perfect secret to all, but God. The immediate sign of the coming of the Resurrection will be the first blast of a trumpet which will be sounded three times . (1) the blast of consternation ; (2) that of examination ; (3) the blast of Resurrection. At the first blast, all creatures in heaven and earth shall be struck with terror, except those whom God shall please to exempt from it. The earth will be shaken, all buildings and mountains levelled. Women who give suck shall abandon the care of their infants.

true knowledge of his character, and will necessarily admit, that he must have enjoyed the highest degree of prophecy. The above knowledge may still be confirmed, by testing what the Prophet said concerning the magical effect of carrying out the practical religious obligations of cleansing and purifying the heart. He will thereby know, how true the Prophet was, when he said: "To him who shall put into practice what he has been taught, God shall give knowledge of what he does not know;" and how truly he said: "Him who, when getting up, forgets all his cares, except the care of God's duties, God shall relieve from the cares of this life and the next." If a man has tested the truth of the above promises, and of thousands and thousands of others, he will surely have a perfect knowledge of the character of the prophet who foretold them. This is the way to attain conviction of the reality of prophecy, and not by seeking to see a rod turned into a serpent, or the moon divided into parts: because, by confining his researches to such wonderful acts alone, without their being corroborated by numerous other evidences, a man might mistake mere acts of sorcery and imposture for prophetic miracles.

Now it is time, to resume the statements of what, a Moslem should believe, will take place after death, according to the teachings of Islam. The Prophet of Islam prophesied that, when a man is put into the grave, he shall encounter two angels who adopt so fearful a form, that he will be greatly frightened. They shall cause the dead man, by divine power to sit upright, and examine him concerning his faith in the unity of God and the mission of the Prophet Mohammad. These angels are called the 'tempters of the grave,' as they appear to require the man examined, to give a wrong reply. If he answers rightly, he will rest in peace, until the resurrection. If not, he will remain suffering to that day. It is also to be believed, that some of the dead who were sinners during their life, are liable, in their sepulchre, to some torment in the shape of pressure on their bodies. Only the righteous are saved from the torment of the grave. Some people would object to the above prophecy, that the answers of the dead, under such examination, have never been heard; or ask, how those can undergo it, whose bodies are burnt or devoured by beasts or birds, or otherwise consumed without burial. The answer is that it is possible notwithstanding, since men are not able to perceive what takes place in the next world unless they have been told of it by prophecy; and God, the all-powerful who created man from dust, and dust from nothing, is able to restore life to the dead so that he may understand any question put to him.

As to the resurrection, Moslems believe, that both body and soul will be raised. The time of resurrection is a profound secret to all, but God alone. However, the Prophet has foretold some signs of its approach. These signs are:

reason is a state of human being, by which an insight is created in man, enabling him to know species of reasonable things, the comprehension of which lie beyond the power of the senses, so prophecy is another state of being by which a still further source of knowledge is created, a peculiar light, capable of making visible unseen things, incomprehensible by reason.

The doubt in prophecy may be connected either with its possibility, its existence and occurrence, or with its occurrence to a certain person. The proof of its possibility is its existence. And the proof of its existence is the existence of branches of knowledge in the world that cannot be acquired by mere reason as for instance, the science of medicine or astrology. Deep study of these sciences is sufficient to tell us of the impossibility of their being acquired, except by divine inspiration and guidance from God, and never by mere experience and practice. There are certain astronomic phenomena which do not take place but once every thousand years; but these have been accurately foretold. How then can such be got by practice? The same argument applies to medicine. Hence it is clear, that there is some supernatural power, by which we acquire the knowledge of things, which cannot be comprehended by mere reason. In this way prophecy can be illustrated. But prophecy does not consist only in these things. The comprehension of certain things, beyond the limits of reason, is but one of the various faculties of prophecy, and represents but a drop in the ocean of the prophetic nature. All men have in themselves a natural example of the prophetic faculty, namely what they foresee of future events while asleep. The two sciences of medicine and astronomy are also examples of the prophetic faculty. Prophecies are the miracles of prophets, which ordinary men can by no means attain by human reason. The nature of prophecy cannot be comprehended, except through a course of Sufism, that is Mohammadan mysticism. By taking a course of Sufism a man, in the early stages of the course, acquires a clear notion of the nature of prophecy. This prepares his mind for a better appreciation of this wonderful subject.

If one doubts a particular person being a person, one cannot be convinced that he is so, except by knowing his character, either by personal observation or by hearing of it repeatedly. If a man has knowledge of medicine or law, he can easily distinguish between physicians and lawyers by seeing their respective qualifications proved, or by hearing their statements. A man cannot fail to know that Galens was a physician, or that Shakespeare was a poet—a knowledge based on experience, and not on hearsay—if he is acquainted with medicine or poetry. By reading their books and words he can, then have a full knowledge of the subjects they treat. The same thing applies to prophecy. If a man carefully goes through the Koran, and closely studies the sayings of the Arabian Prophet, he will surely acquire a

The mind of a newly born infant is so undeveloped, that he has no knowledge of the wondrous world around him. As he grows he gradually acquires knowledge of things through the various channels of comprehension. The first sense created in him is that of feeling by which he can comprehend certain species of things such as heat and coldness, dampness and dryness, softness and coarseness etc. But colours or sounds do not come in the domain of the sense of feeling. Sight is the next to come into operation by which one can comprehend colours and forms and it is the most comprehensive of all the senses. Then hearing is open by which one can distinguish different voices. The child then acquires the power of discriminating different tastes. When a human being approaches his or her seventh year his or her intellect is further awakened. Through this new agency, one acquires knowledge of things, beyond those dependent exclusively on the senses, and of which nothing exists in the world of sense. The child then developed into a still higher state of being, namely the state of reasoning by which necessities, possibilities, impossibilities and other things which the senses cannot teach by themselves are comprehended. Beyond reason, there is still another independent faculty, by which a new agency is given, to see the unseen and things of the future, and other things, from which reason is absolutely a different thing, inasmuch as understanding is different from those things belonging to reason, and as the power of reasoning is from things known only through the senses. A man born blind may well ignore the existence of anything like colours, and a man born deaf may ignore things like voices, merely on account of the lack of the particular senses capable of comprehending them. Inasmuch as it is unreasonable for a man born blind, to deny the existence of colours, or for a man born deaf, to deny the existence of voices, so too it is illogical for a man, to deny the prophetic gift, simply because he himself is lacking in spiritual gifts. God has made it easy for his creatures, to have some idea of the prophetic nature, by giving them a picture or type thereof, namely, sleep. When asleep a man sometimes foresees things, either directly or symbolically. In the former, the meaning is clear; in the latter, it may be found by interpretation. This is a wonderful state of comprehension which, if not personally experienced by any particular person, but told to this person by another man, who, falling asleep, like the dead, could comprehend unseen things would certainly be rejected by this person who would set forth proofs against the possibility of the information. It would be asserted that, as the sensitive faculties are the only source of comprehension and that even with their presence, a man can not acquire any knowledge of unseen things, he would all the more and most assuredly be incapable of knowing such things, in the absence of his senses. This is a reasoning by analogy which is however contradicted by actuality and practice. Even as



same as the comforter, mentioned in John xiv. 17, clearly establishes the following points: (1) Jesus could not guide into all truth, because his teaching was confined to reform the Israelites, and he denounced only their crying evils; but the teaching of the Comforter would be a perfect law, guiding men to all truth; and the Holy Koran is the only book which claims to be a perfect Book of Divine Laws. (2) That the Comforter would not speak a word of himself, but that which he shall hear, he shall speak, a qualification which is met with only in the person of the Prophet Mohammad. (3) That he will glorify Jesus, and the Holy Prophet did glorify Jesus by denouncing as utterly false all these calumnies which the Israelites indulgently attributed to Jesus and his mother.

### 5. The Belief in the Day of Resurrection

The fifth pillar of the Mohammadan creed is belief in the Day of Resurrection, Reckoning or Judgment, which day shall be the beginning of an eternal life after death. The dead shall rise from their graves, restored to life. Every human being shall have to render an account of his or her actions on earth. The happiness or misery of individuals will depend upon the manner, in which they have performed the commandments of God.

The Arabian Prophet, being the seal of God's Messengers to mankind, has given several prophecies in detail, with respect to the state of being from the time a man is dead, until the resurrection, and also an account of the eternal destiny of mankind, beginning from that day. Faith in all such prophecies is essential to complete the creed of a perfect Moslem. Before entering into the main subject under discussion, it is desirable to make a few preliminary remarks.

Some people are apt to think that prophecies relating to matters connected with the after-life must be examined by pure reason before they can be adopted. There, however, should be no excuse for rejecting any prophecy on the mere assumption that it is difficult for human reason to comprehend it. Human power of discernment, penetration or discrimination on all questions raised by prophets must be restricted merely to deciding whether the information obtained through such an agency is or is not an impossibility. By impossibility is meant those things which human beings cannot be expected to believe, such as a camel passing through a needle's eye. But once it is no longer a question of impossibility, and the prophetic commission is rightly established there should be no excuse for human reason to reject any prophetic statement.

The Mohammadan School avails itself of the following suggestion with regard to the nature of prophecy and the obligation of mankind thereto.

Christ'. Again, the mention of ten thousand saints, in Deuteronomy xxxii, is very significant. . . "he shined forth from Paran and he came with ten thousand of saints." The whole history of the wilderness of Paran shows that there was no other event, but when Mecca was conquered by the Prophet. He came with ten thousand followers from Medina and re-entered the "house of my glory." He gave a fiery law to the world which has superseded and cancelled all other laws. The comforter — the Spirit of Truth — spoken of by Jesus was no other than the Prophet Mohammad himself. It cannot be taken to be the Holy Ghost, as the Church theology says. "It is expedient for you that I go away," says Jesus, "for if I go not away, the Comforter will not come unto you ; but if I depart, I will send him unto you." The way, in which Jesus describes the Comforter, makes him to be a human being, and not a ghost. "He shall not speak of himself, but whatsoever he shall hear, that he shall speak." The words of Jesus clearly refer to some messenger from God. He calls him the Spirit of Truth, and so the Koran speaks of the Prophet Mohammad. "Nay he has come with the Truth and verified the apostles."

The above prophecy of Jesus has also been reported in the Koran in the following words : "Jesus, the son of Mary, said : O children of Israel, surely I am the apostle of Allah to you, verifying that which is before me of the Torah, and giving the good news of an apostle who will come after me, his name being Ahmad." The word 'Ahmad' which is another name of the Prophet Mohammad, is derived from the same root, namely 'Hamd' which signifies praising, and it means a person whose personal qualities are such as to be worthy of praise. It should not be supposed, that Jesus uttered the very words which are reported in the Holy Koran, for he spoke in Hebrew, and not in Arabic. The actual words of Jesus not being preserved, we should depend on a Greek version, in which we find the word *paraclete*, which is translated in English as comforter. It is a well known fact, that translations are sometimes misleading, and therefore the use of the word *paraclete* in the Greek version, or that of *comforter* in the English, does not positively show, what the textual word spoken by Jesus was. Anyhow the qualifications which are reported in John xiv. 16 and xvi. 7, are met with in the person of the Holy Prophet Mohammad. He is stated to be one who shall abide for ever, and it is the Prophet's law, for after him comes no prophet, to promulgate a new law. He is to teach all things, and it was with a perfect law, that the Holy Prophet came. The prophecy in John xvi. 12 — 14, about the Spirit of Truth<sup>2</sup> which is the

---

(1) See George Sale's Prelim. Discourse

(2) It is to be noted, that the Holy Prophet Mohammad is frequently called "The Truth" in the Holy Koran, as in 17-81 : "And say, The Truth has come, and the falsehood has vanished."

together unto thee, the rams of Nebaiath shall minister unto thee : they shall come up with acceptance on Mine Altar, and I will glorify the house of my glory." (Isaiah lx. 1-7.) The other prophecy runs thus, "The burden upon Arabia. In the forest in Arabia shall ye lodge, O ye travelling companies of Dedanim. The inhabitants of the land of Tema brought water to him that was thirsty, they prevented with their bread *Him that fled*. For they fled from the swords, from the drawn sword and from the bent bow, and from the grievousness of war. For thus hath the Lord said unto me, Within a year according to the years of an hireling, and all the glory of Kedar shall fail." (Isaiah xxi. 13-16.)

The above two revelations read in the light of the one in Deuteronomy, will make the meaning quite clear : It is acknowledged, that Ishmael inhabited the wilderness of Paran, where he gave birth to Kedar, who is the ancestor of the Arabs. The sons of Kedar had to receive revelation from God. The flocks of Kedar had to come up with acceptance to a divine altar, to glorify "the house of my glory", where the darkness had to cover the earth for centuries, and then that very land had to receive light from God. All the glory of Kedar had to fail, and the number of archers, the mighty men of the children of Kedar, had to diminish within a year after they fled from the swords and from the bent bows. Therefore, the Holy one from Paran (Hab. iii. 3) should be no one else than the Prophet Mohammad. He is the holy offspring of Ishmael through Kedar, who settled in the wilderness of Paran,<sup>1</sup> the Prophet Mohammad is the only Prophet, through whom the Arabs received revelation at the time when the darkness had covered the earth and gross darkness the people.<sup>2</sup> Through him God shone from Paran, and Mecca is the only place, where the house of God is glorified by the flocks of Kedar who come up with acceptance on its altar. The Prophet Mohammad was persecuted by his people and had to leave Mecca. He was thirsty and fled from the drawn swords and the bent bows, within a year after his flight, the descendants of Kedar met him at Badr, the field of the first battle between the Meccans and the Prophet.<sup>3</sup> There the children of Kedar and their number of archers diminished, and all the glory of Kedar failed. Besides, the house of 'my glory', referred to in Isaiah lx, is the house of God at Mecca, and not the Church of Christ, as thought by Christian commentators. The flocks of Kedar, as mentioned in verse 7, have never come to the Church of Christ. It is a fact, that the villages of Kedar, and their inhabitants are the only people in the whole world who have remained impenetrable to any influence of the Church of

---

(1) See The History of the Arabs, in this book or anywhere else.

(2) George Sale - Prelim. Discourse

(3) See Sir William Muir's 'The Life of Mohammad'.

me." The second advent of Christ as well cannot be the fulfilment of the words in Deuteronomy. Jesus, as it is believed by the Church has to appear for the judgment and not for giving the law, while the Prophet like unto Moses, has to come with a fiery law in his right hand. Like Moses, he will bring the law; besides, the Promised Prophet was to be raised not from amongst the Israelites, but from amongst the brethren of the Israelites, namely the Ishmaelites.

In ascertaining the personality of the promised Prophet, the other prophecy of Moses is, however, helpful, in which he speaks of the shining forth of God from Paran. In Deuteronomy xxxiii. 2, the Lord has been compared with the sun. He comes from Sinai, he rises from Seir, but he shines in his full glory from Paran, where he had to appear with ten thousands of saints, from his right hand went a fiery law for them. None of the Israelites, including Jesus, had anything to do with Paran. Hagar, with her son Ishmael, wandered in the wilderness of Beersheba, who afterwards dwelt in the wilderness of Paran. (Gen. xxi. 21.) He married an Egyptian woman, and through his first born, Kedar, gave descent to the Arabs who, from that time till now, are the dwellers of the wilderness of Paran. Admittedly on all hands, the descent of the Holy Mohammad, is traced to Ishmael through Kedar, he appeared as a Prophet in the wilderness of Paran, and re-entered Mecca with ten thousand saints, and gave a fiery law to the people, so that the prophecy has been fulfilled to its very letter. The words of the prophecy in Habakkuk are especially noteworthy. His—the Holy One from Paran's glory covered the heaven and the earth with full praise. The word 'praise' is very significant as the very name 'Mohammad,' as already stated elsewhere in this book, means 'the highly praised.' Again the inhabitants of the wilderness of Paran had been promised a Revelation: "Let the wilderness and the cities thereof lift up their voice, the villages that Kedar doth inhabit: let the inhabitants of the rock sing, let them shout from the top of the mountains. Let them give glory unto the Lord, and declare His praise in the islands. The Lord shall go forth as a mighty man, He shall stir up jealousy like a man of war: He shall cry, yea, roar, He shall prevail against His enemies." (Isa. xlii. 11. 12. 13<sup>1</sup>.)

Moreover we read in Isaiah two other prophecies worthy of note, where references have been made to Kedar. "Arise, shine, for thy light is come, and the glory of the Lord is risen upon thee. The multitude of camels shall cover thee, the dromedaries of Midian and Ephak; all they from Sheba shall come. . . All the flocks of Kedar shall be gathered

---

(1) Reference to the Life of the Prophet in part II of this Book shows how distinctly this prophecy has been fulfilled.

thee, and will put my words in his mouth ; and he shall speak unto them all that I shall command him." (Deut. xviii. 18).

"I have yet many things to say unto you, but ye cannot hear them now. Howbeit when he, the Spirit of truth, is come he will guide you into all truth : for he shall not speak of himself : but whatsoever he shall hear, that shall he speak : and he will show you things to come." (John xvi. 12—13).

While Moses promises to the children of Israel the coming Epiphany of God in the person of a "Prophet from among their brethren like unto thee". Jesus characterises the promised one as the Spirit of truth, who will guide them into all truth. The description of the Holy one in the words of Moses and Jesus, however, is strikingly similar : "I will put words in his mouth and he shall speak unto them all that I shall command him." (Deut. xviii. 18.) "He shall not speak of himself but whatsoever he shall hear, that shall he speak." (John xvi. 13). These words make the promised one a messenger from God, and a Prophet rather than one abstract and impersonal Divine Epiphany, and if "The Lord came from Sinai" in His revelation to Moses, and "He rose up from Seir" according to His message from the Nazarene, should we not look for some other son of man "from Paran", to stand for the shining forth of God from the same ? — especially when the Prophet Habakkuk calls him 'The Holy One from Paran' (Hab. iii. 3). The Prophet spoken of by Moses, has however, wrongly been confused with Jesus, in later Christian theology. The house of Jacob always distinguished Christ from the Prophet spoken of in Deut. xviii. 18, as it appears from the following we read about John the Baptist. "What then, art thou Elias ?" and He said : "Art thou that Prophet ?" And He answered, "No. . . . ." And they asked him, "Why baptised thou, if thou be not that Christ, nor Elias, neither that Prophet ?" (John i. 21—25). These words speak distinctly of three different personalities, namely Christ, Elias and that Prophet. Jesus himself did not claim to be "that Prophet". If Jesus was the Christ and John the Baptist Elias, as Jesus himself makes him to be, we are quite justified in concluding that the appearance of Jesus was the promised Prophet. Even the first followers of Jesus were of the same opinion. "And He shall send Jesus Christ which before was preached unto you : Whom the heaven must receive until the times of restitution of all things, which God hath spoken by the mouth of all his holy prophets since the world began. For Moses truly said unto the fathers, a prophet shall the Lord your God raise up unto you of your brethren, like unto me; him shall ye hear in all things whatsoever he shall say unto you." (Acts. iii. 20—22). Though the writer of these words looks to the second advent of Jesus for the fulfilment of the Mosaic prophecies, so far it is undisputed that the first advent of Jesus is not the advent of the "Prophet like unto

"It should be clearly realised," said the Rev. Major, "that Jesus did not claim in the Gospels to be the Son of God in a physical sense, such as the *narratives* of the virgin birth suggest, nor did he claim to be the Son of God in a metaphysical sense, such as was required by the Nicene theology. He claimed to be God's son in a moral sense, in the sense, in which all human beings are sons of God, as standing in a filial and moral relationship to God, and capable of acting on those moral principles, on which God acts."

The Dean of Carlisle, who is recognised as one of the most fearless and outspoken of Modern Churchmen, had a distinguished university career. He was a theological tutor at Balliol, and preacher at Lincoln's Inn, for five years. He was Dean of Hereford, before his transfer to Carlisle, in 1917<sup>1</sup>.

The glory of Jesus naturally does not lie in being a God, because he cannot be a God, but his whole triumph lies in being a man, a perfect man, a holy man, and in the words of the Holy Koran, a Model for the people to whom he was sent.

### **Biblical Prophecies as referring to the Advent of The Prophet—Mohammed**

Although Moslems hold, that the original Old and New Testaments have largely been corrupted by the interference of prejudiced men, or otherwise, as has already been pointed out elsewhere in this book, they still believe, that the existing Scriptures contain, to such an extent as they are confirmed and supported by the Holy Koran, the True Word of God.

The following are therefore, a few extracts of the safe contents of the Bible which Mohammadans take to refer directly to the Holy Prophet Mohammad :

"The Lord came from Sinai, and rose up from Seir unto them : He shined forth from Paran and He came with ten thousands of saints ; from His right hand went a fiery law for them." (Deut. xxxiii-2)

"God came from Teman, and the Holy one from Paran. Selah. His glory covered the heavens, and the earth was full of His praise," (Hab iii. 3.)

"I will raise them up a Prophet from among their brethren, like unto

---

(1) The Islamic Review, August 1921.

## Was Christ Divine ?

Dr. Rashdall, Dean of Carlisle, recently delivered a remarkable speech at the Modern Churchman's Congress on 'Jesus as the Son of God,' and in the course of his address, he said :

"There is a growing demand, that liberal theologians should speak in quite definite language about the divinity of Christ. The following are some of the things that we do not and cannot mean, by ascribing divinity to Christ :

1. *Jesus did not claim divinity for himself.*

He may have allowed himself to be called Messiah, but never in any critically well attested sayings, is there anything which suggests, that his conscious relation to God is other than that of a *man towards God*. The speeches of the fourth Gospel, where they go beyond the synoptic conception, cannot be regarded as history.

2. It follows from this admission that *Jesus was in the fullest sense a man, and that he had not merely a human body, but also a human soul, intellect and will.*

3. It is equally unorthodox to suppose that the human soul of Jesus pre-existed. There is simply no basis for such a doctrine, unless we say that all human souls exist before their birth into the world, but that is not the usually accepted catholic position.

4. The divinity of Christ does not necessarily imply virgin birth, or any other miracle. The virgin birth, if it could be historically proved, would be no demonstration of Christ's divinity, nor would the disproof of it throw any doubt on that doctrine.

5. The divinity of Christ does not imply omniscience. There is no more reason for supposing, that Jesus of Nazareth knew more than his contemporaries about the true scientific explanation of the mental diseases which current belief attributed to diabolic possession, than that he knew more about the authorship of the Pentateuch or the Psalms. It is difficult to deny, that he entertained some expectation about the future which history has not verified."

The Rev.H D.A.Major, Principal of Ripon Hall, Oxford, who opened the discussion was as outspoken as the Dean.

intellectual attainments, men of brilliant achievements in the world of theology : all of them men who, as lecturers and fellows and professors, have instructed scores of Anglican divines before their ordination and since."

### Canon Barnes on the Old Testament

In its issue of January 6th, 1922, the Daily Graphic has dealt with a speech delivered by the Canon of Westminster at the Association of University Women Teachers. The following is an extract of the speech as inserted in the above issue :

"In this connection it was most important, that the true nature and value of the Old Testament should be explained to children. It was Jewish literature ; and was valuable for us, mainly, because it showed how the Jewish prophets were led to the idea of God, which Jesus accepted and emphasised, and because, in its vague expectations of a Messiah, foreshadowed the advent of Christ. But in the Old Testament were also *to be found folk-lore, defective history, half-savage morality, obsolete forms of worship based upon primitive and erroneous ideas of the nature of God, and crude science.* The whole, however, was valuable, as showing the growth of a pure monotheism among the Jews—a religious phenomenon, as remarkable and inexplicable as the great intellectual development of the Golden Age of Greece. It was very difficult, to convey truths, like this, to children, and so it seemed to him better, to postpone the Old Testament part of religious teaching, to the later stages ; otherwise, children would learn stories, like that, with which the Book of Genesis opened, which they would afterwards discover to be untrue."

The same paper goes on to say :

"He Canon Barnes had come reluctantly to the conclusion, that it was highly dangerous, to use for didactic purposes such allegories, as the creation of woman, the Daniel stories and Jonah ; it encouraged the prevalent belief, that religious people had a low standard of truth."

Thus, the Reverenced Doctor condemns the Old Testament, and desires to eliminate it from the course of studies. He considers that, among other stories, that of Jonah is dangerous to teach to human intellect, while in its infancy and growth. He acknowledges, that to accept stories, like that of Jonah and Daniel, as genuine pieces of history, would betray a low standard of truth in the believers of Christianity.